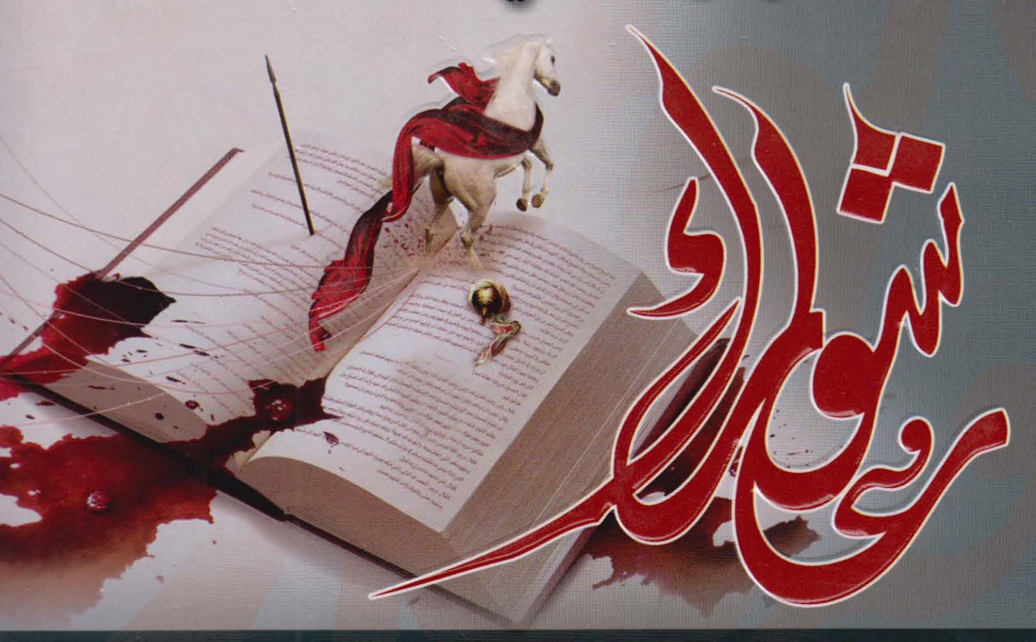
فِي رِحَابِ عَاشُورَاء

الشيخ

محمد مهدي الآصفي



دار المحجة البيضاء

فِي رِحَابِ عَاشُورَاء

في رحاب عاشوراء

الشيخ

محمد مهدى الآصفي



دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

ISBN: 978-614-426-335-8



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

الإهداء

لأول مرّة سمعت زيارة (وارث) من أمي رحمها الله، عندما كنت صغيراً، ويومئذٍ لم أكن أعي معنى (الوارث)، ولكنني أحببت هذه الزيارة التي طالما كنت أسمعها منها، وهي تترنم بها في البيت.

وأحببت يومئذٍ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام الذين وردت أسمائهم في هذه الزيارة، وأحببت الحسين عليه السلام (وارث الأنبياء).

فإلى روحها الطاهرة أرفع ثواب هذا المجهود وأسأل الله تعالى أن يتقبله مني، وأن يتغمدها برحمته الواسعة.

المؤلف

في ١٦/ج٢/ ١٤١٢

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب مجموعة من المقالات والأبحاث، تحدثت فيها عن (ثقافة عاشوراء)، وهي ثقافة (الصراع) و(التحدّي) و(العمل).

ونحن اليوم في ساحة مواجهة وصراع وتحدّي.

وهذه الثقافة التي ورثناها من الحسين عليه السلام، والتي ورثها الحسين عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام، هي من أهم ما يجب أن نُقدّمه لشبابنا في هذه الساحة.

فإنّ ثقافة الصراع والمواجهة من أهم أسباب مقاومة (الفئة القليلة، المستضعفة للفئة المستكبرة والظالمة، ومن دون هذه الثقافة لم نستطيع من تحقيق أهداف رسالة الله في هذه المعركة الضارية بين التوحيد والشرك.

وهذه الثقافة نجدها في القرآن، وفي يوم عاشوراء.

ويوم عاشوراء حافل بثقافة المواجهة والتحدّي والمقاومة والصبر، وتجسيد لما في القرآن من وعي وثقافة في هذا الشأن.

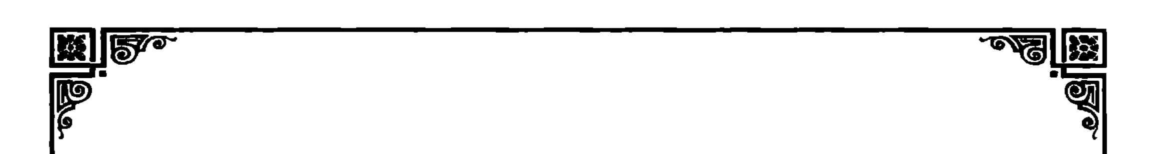
وفي (رحاب عاشوراء) نجد نحن الكثير مما نحتاجه من وعي المعركة والمواجهة.

ويوم عاشوراء مرآة صافية للتاريخ، نرى من خلال هذه المرآة صراع الحقّ والباطل، ومقاومة الحقّ واندحار الباطل، وقيام الحقّ وسقوط الباطل، وسنن الله في هذا الصراع.

ولابدّ أن يتناول (المنبر الحسيني) المعاصر هذه الدروس التي نستوحيها من يوم عاشوراء، بصورة تحليلية دقيقة تتطابق مع حياتنا السياسية المعاصرة، وصراعنا السياسي والحضاري.

وهذه المقالات التي يجمعها هذا الكتاب، محاولة بهذا الصدد. أسأل الله تعالى أن ينتفع به المنبر الحسيني الذي لا يزال سراجاً لجمهورنا، ونبراساً لهم في صراعهم مع الباطل، ورفضهم لسلطان الظلم.

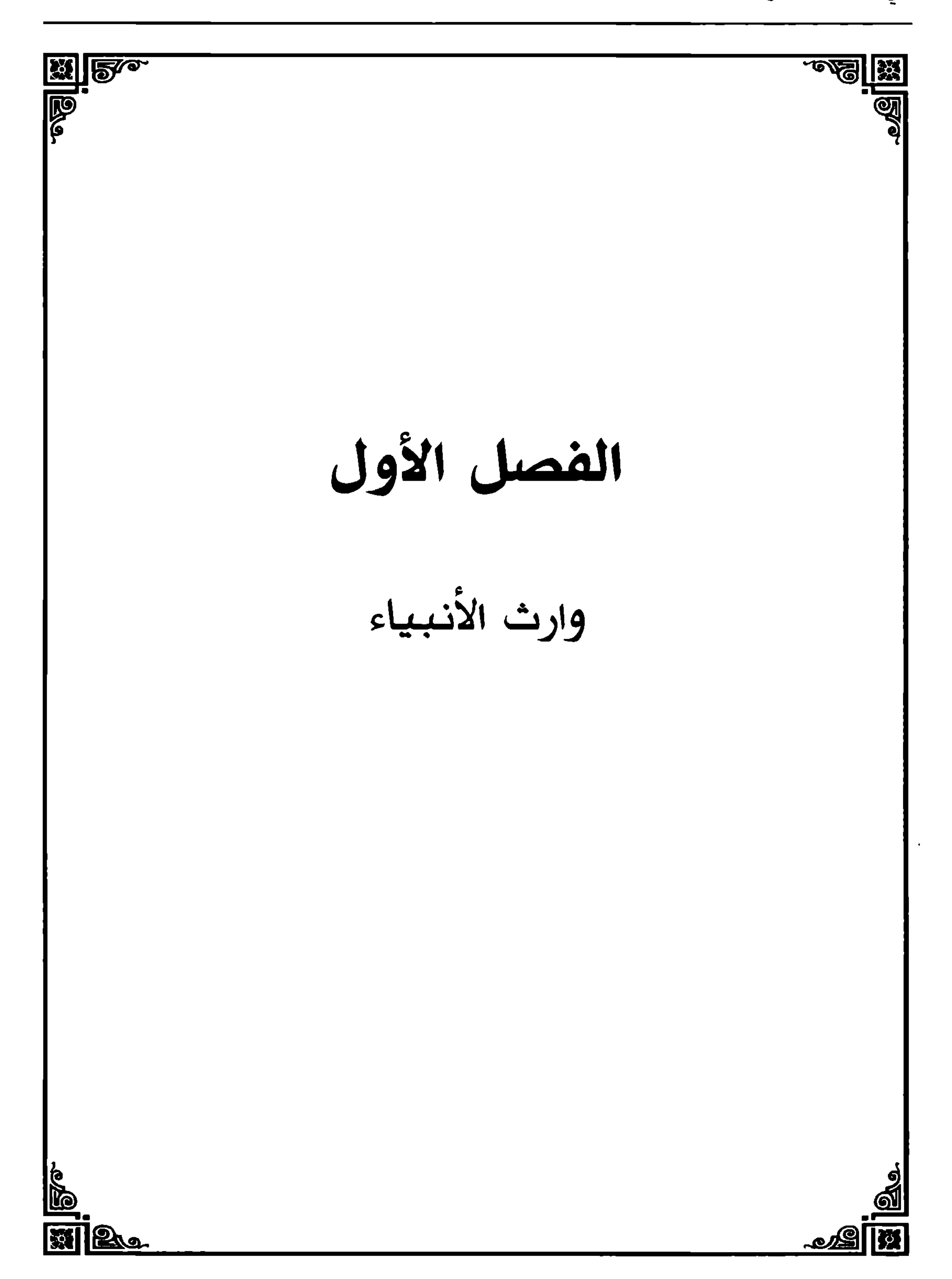
محمّد مهدي الآصفي



وارث الأنبياء

خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام





الفصل الأول

وارث الأنبياء

الحسين عليه السلام وارث الأنبياء

تخصيص الحسين عليه السلام بصفة الوارث بشكل بارز من دون سائر الأئمة عليهم السلام في زيارة «الوارث» وفي غيرها من النصوص الواردة في زيارة الحسين عليه السلام.. أمْر يستوقف الإنسان ويثير في النفس التساؤل عن الخصوصية التي تستوجب هذا التخصيص، مع أنّ كل الأنبياء وكل الأئمة وكل الصالحين من عباد الله من حملة الدعوة... هم ورثة الأنبياء... من دون فرق.

فما الذي ـ يا ترى ـ اقتضى تخصيص هذا اللقب بسيد الشهداء عليه السلام، بهذه الصورة البارزة، والتأكيد على هذا الوصف في الكثير من النصوص الواردة في زيارة أبي عبد الله الحسين؟

إن في الأمر سراً، وإنّ إيضاح ذلك يقتضي أن نعيد النظر بإجمال وإمعان في تاريخ الصدر الأول من الإسلام حتى استشهاد الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام وفي طبيعة الحركة والثورة التي نهض بها وحققها بشهادته.

انقلاب شامل في القيم والتصورات:

لقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله بانقلاب شامل في حياة الناس بأمر من الله تعالى في كل القيم والأفكار، والأعراف والأحكام والأخلاق والعلاقات، وقام بهدم كامل للحياة الجاهلية بتصوراتها وقيمها وأعرافها وأحكامها، وبناء كامل للإسلام بكل تصوراته وأعرافه وأحكامه الجديدة على المجتمع الجاهلي.

وأعاد إلى حياة البشر ما انقطع من رافد الرسالات الإلهية وحمل إلى الناس تراث الأنبياء وميراثهم بعد أن حجبته الجاهلية عن حياة الناس.

وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع في مسجد نمرة من عرفات المسلمين، وقال: «**إن الزمان قد استدارا كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض**»[1].

---

(١) السيرة الحلبية ٣: ٢٥٦. بحار الأنوار ٣٢٩/٥٥. صحيح ابن حبان ٢١٢/١٢، ط سنة ١٤١٤.

وقد فهم شراح الحديث النبوي: أن رسول الله ﷺ في هذا الخطاب يشير إلى تنظيم الأشهر القمرية، وأرى رسول الله ﷺ يريد أنْ يخبر المسلمين بأن الزمان قد استدار دورة كاملة، وأن الإسلام قد أنهى كل ما تراكم على حياة الناس وتاريخهم من الجاهلية في هذه الفترة الطويلة، وأعاد الإسلام الفطرة الإنسانية الصافية والنقية إلى حياة الناس من جديد، وهدم الإسلام كل ما أقامته الجاهلية على وجه الأرض، وكأنما دار الزمان دورة كاملة، فعاد كل شيء في حياة الناس إلى موضعه حيث وضعه الله تعالى في الفطرة والتكوين.

وقال ﷺ في نفس الموقف: **«ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع»**[١]. وهذا إعلان للإنهاء الكامل للجاهلية والتصفية الكاملة لها بكل أبعادها وأعماقها التاريخية والفكرية، وإحلال الإسلام محل الجاهلية في كل شيء، وهذا هو الانقلاب الكبير في حياة البشرية في كل شيء، من الأصول إلى الفروع ومن الفكر إلى السلوك، وهو الذي يحدّثنا عنه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[٢].

وانقلاب آخر في المواقع:

وإلى جانب هذا الانقلاب الشامل في القيم والأفكار جاء رسول الله ﷺ بانقلاب آخر من عند الله، في المواقع السياسية والاجتماعية والقيادية في حياة الناس، فرفع أناساً تأصلت وتكونت نفوسهم وتصوراتهم في الإسلام، وفي الغالب كانت هذه الفئة مستضعفة خاملة الذكر في الجاهلية، ووضع أناساً آخرين كانوا في قمة الهرم الاجتماعي من قبلُ وفي مراكز القيادة والسيادة في الحياة الجاهلية، وكانوا يتوارثون أمجاد الجاهلية ومواقعها السياسية والاجتماعية، فحجّم الإسلام دورهم وألغى امتيازاتهم ومواقعهم التي كانوا يتمتعون بها من قبل. وقد كان هذا الانقلاب الثاني في المواقع الاجتماعية والسياسية ضرورياً لحماية الانقلاب الأول في القيم والأفكار. فلابدّ في الانقلاب الفكري الشامل الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ممن يحميه ويدعمه وينفذه ويحوّله إلى واقع متحرّك ملموس في الحياة الاجتماعية.

وقد كان جلّ تفكير رسول الله ﷺ واهتمامه هو ترسيخ هذه الثورة الربانية في حياة الناس

---

(١) السيرة الحلبية ٣: ٢٦٥.

(٢) الآية الثالثة من سورة المائدة نزلت بعد تنصيب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إماماً بعد رسول الله يوم غدير خم ١٨ من ذي الحجّة. راجع الغدير ١: ٢٣٠.

وتأصيلها وتثبيت قواعدها وأصولها في المجتمع، وتثبيت القيم والأعراف والأخلاق والأصول التي جاء بها من عند الله، ولا يتم شيء من ذلك ما لم يعهد أمر هذه الثورة في حياته ومن بعده إلى أيدٍ أمينة، تكوّنت في ظروف هذه الثورة الإلهية وآمنت بها وتجرّدت لها، وتفاعلت معها.. وهذه الفئة هي وحدها التي يمكن إناطة مسؤوليات قيادة الثورة وإدارتها وحمايتها بها، ولا يمكن ائتمان الفئات التي تكوّنت في ظروف الحياة الجاهلية بأمر هذا الدين، أو أن يعهد إليها بشيء من شؤون الإسلام، إلّا بمقدار ما يتم تأليفها به، وذلك أمر آخر لا يرتبط بهذه المهمة.

والمقاييس هنا في اختيار الأشخاص وإبرازهم والإشادة بهم وإناطة المسؤوليات الكبيرة بهم كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن المقاييس الجاهلية في التقييم.

وكذلك كان الناس يتلقون الاختيارات النبوية بالاستغراب والإنكار في بعض الأحيان. وكان الأمر يبلغ حدود التمرد أحياناً مما كان يؤذي رسول الله ﷺ.

أمثلة عن الانقلاب في المواقع:

نعرض هنا بعض النماذج من هذا الانقلاب الاجتماعي في تقييم الأشخاص واختيارهم وإناطة المسؤوليات بهم:

١ ـ يروي الطبرسي في إعلام الورى، أن أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس ـ وهما من الخزرج ـ أقبلا إلى مكة فالتقيا برسول الله ﷺ وآمنا به وطلبا منه أن يبعث إليهم من يعلّمهم القرآن.

(فقال رسول الله ﷺ لمصعب بن عمير، وكان فتىً حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضلانه على أولادهما ولم يخرج من مكة، فلمّا أسلم جفاه أبوه، وكان مع رسول الله ﷺ في الشعب حتى تغيّر لونه وأصابه الجهد، فأمره رسول الله بالخروج مع أسعد، وقد كان تعلم القرآن، فخرج هو (ذكوان) مع أسعد إلى المدينة ومعهما مصعب بن عمير، وقدموا على قومهم وأخبروهم بأمر رسول الله وخبره، فأجاب من كل بطنٍ الرجل والرجلان)[١].

٢ ـ وولّى رسول الله ﷺ على مكة ـ بعد ما فتحها الله تعالى له ـ عتاب بن أُسيد، وقد ثقل ذلك على ذوي المكانة والجاه من قريش من أهل مكة، وأسمعوا رسول الله ﷺ في ذلك عتاباً ونقداً.

---

(١) إعلام الورى للطبرسي: ٦٧ ـ ٦٨، وبحار الأنوار ١٩: ١٠.

يقول الحلبي في السيرة:

«وولى ﷺ عتاب بن أُسيد ﷺ وعمره إحدى وعشرون سنة أمْر مكة وأمَره ﷺ أن يصلي بالناس، وهو أول أمير صلّى بمكة بعد الفتح جماعة، وترك ﷺ معاذ بن جبل ﷺ بمكة معه معلماً للناس السنن والفقه.

وفي (الكشاف) عنه ﷺ أنه استعمل عتاب بن أُسيد على أهل مكة، وقال: **انطلق فقد استعملتك على أهل الله**... فكان ﷺ شديداً على المريب ليّناً على المؤمن، وقال: والله لا أعلم متخلّفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق.

فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أُسيد أعرابياً جافياً، فقال ﷺ: **إني رأيت في ما يرى النائم كأن عتاب بن أُسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فتح لـه، فدخلها فأعز الله به الإسلام**»[١].

٣ ـ وأمر رسول الله ﷺ عند فتح مكة: بلال الحبشي أن يؤذّن للظهر على ظهر الكعبة، وأبو سفيان وخالد بن أُسيد والحرث بن هاشم جلوس بفناء الكعبة، فقال خالد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا العبد فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحرث ـ في رواية ـ : وما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً... فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: **لقد علمتُ الذي قلتم**[٢].

٤ ـ واستعمل رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على الجيش الذي انتدبه لغزو الروم في آخر حياته، وكان في الجيش كبار الصحابة وشيوخهم ووجوههم. يقول المجلسي في البحار: «فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلّا انتدب في تلك الغزاة، فيهم: أبو بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة، وقتادة بن النعمان، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين. فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصّب على رأسه عصابة، وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال:

---

(١) السيرة الحلبية ٣: ١٠٤ ـ ١٠٥. المكتبة الإسلامية ـ بيروت.

(٢) راجع تفصيل ذلك في السيرة الحلبية ٣: ١٠٤.

أمّا بعد، أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة. ولئن طعنتم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه قبله، وأيم الله إنه كان للإمارة خليقاً وإنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة»[١].

٥ ـ ومن بين وجوه قريش وصناديدها وزعمائها ووجوه المسلمين من العرب يفضل رسول الله ﷺ فارسياً جاء من فارس (سلمان)، ورومياً (صهيب) وعبداً حبشياً (بلال) اشتراه أبو بكر وأعتقه، وقبطياً أسلم وعذب في سبيل الله (خباب).

روى المفيد في الاختصاص قال: جرى ذكر سلمان وذكر جعفر الطيّار بين يدي جعفر بن محمد عليه السلام وهو متكئ، ففضّل بعضهم جعفراً عليه وهناك أبو بصير، فقال بعضهم: «إن سلمان كان مجوسياً فأسلم»، فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً مغضباً، وقال: يا أبا بصير جعله الله علوياً بعد أن كان مجوسياً، وقرشياً بعد أن كان فارسياً، فصلوات الله على سلمان، وإن لجعفر شأناً عند الله يطير مع الملائكة في الجنة»[٢].

روى مسلم عن عائذ بن عمر، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: **يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك؟** فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ فقالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي[٣].

وروي عن رسول الله ﷺ في عمّار بن ياسر رضي الله عنه: **إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه**[٤].

عن عائشة قالت: ما أحد من أصحاب رسول الله إلا لو شئت لقلت فيه ما خلا عماراً، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، وفي لفظ ابن عمر: ملئ

(١) بحار الأنوار ٢١: ٤١٠.

(٢) الاختصاص للمفيد: ٣٤١. وبحار الأنوار ٢٢: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٣) صحيح مسلم ٧: ١٧٣، دار الفكر ـ بيروت.

(٤) الغدير ٩: ٢٤، عن حلية الأولياء لأبي نعيم ١: ١٣٩، والكشاف ٢: ١٧٦، وتفسير الصافي ١: ٦٨٣. وغيرها من المصادر.

عمار إيماناً إلى أخمص قدميه، وفي لفظ لـه: إن عمار بن ياسر حشّي ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيماناً[١].

وأخرج الترمذي من فضائل أبي ذر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم، فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله أفتعرف ذلك لـه؟ قال: نعم فاعرفوه له[٢].

وعن بريدة عن رسول الله ﷺ: **إن الله ﷻ** أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: عليّ وأبو ذر والمقداد وسلمان[٣].

٦ ـ روى الحويزي في تفسير نور الثقلين، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٤]. عن ابن مسعود قال: قال سلمان وخباب: فينا نزلت هذه الآية. جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري وذووهم من المؤلّفة (من مستكبري قريش الذين كان يحاول رسول الله ﷺ أن يكسبهم بحطام الدنيا إلى الإسلام) فوجدوا النبي قاعداً مع بلال وصهيب وعثمان وخباب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فحقّروهم فقالوا: يا رسول الله لو نحّيت هؤلاء عنك حتى نخلو بك، فأنزل الله ﷻ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا ويدنو حتى كادت ركبتنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم[٥].

وقال الطبرسي في مجمع البيان: نزلت الآية في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء أصحاب النبي ﷺ. وذلك أن المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) الغدير ٩: ٢٤. ٢٥، عن الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ٢٩٥ وقال رجاله رجال الصحيح.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٦٦٧ ـ ٦٦٩، ط. مصطفى البابي.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/ ٦٣٦ رقم/ ٤٧١٨، وقال: حسن. وابن ماجه ١/ ٥٣ رقم/ ١٤٩. والحاكم ٣/ ١٤١ رقم/ ٤٦٤٩. وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٧٢. وأبو عمرو في الاستيعاب ٢/ ٥٥٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٥) تفسير نور الثقلين للحويزي ٣: ٢٥٧.

(عيينة بن الحصين والأقرع بن حابس وذووهم) فقالوا: يا رسول الله، إنْ جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وروائح صنانهم[١]، وكانت عليهم جباب الصوف، جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء. فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله ﷻ. فقال: **الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أُصبِّر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات**[٢].

وفي تفسير علي بن إبراهيم: وأمّا قوله ﷻ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ فهذه نزلت في سلمان الفارسي رضي الله عنه، وكان عليه كساء يكون فيه طعامه وهو دثاره ورداؤه، وكان كساء من صوف، فدخل عيينة بن حصين على النبي ﷺ وسلمان رضي الله عنه عنده، فتأذّى عيينة.. فقال: يا رسول الله إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا، واصرفه من عندك، فإذا نحن خرجنا فأدخل من شئت، فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ وهو عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفرازي[٣].

انقلاب شامل في الهرم الاجتماعي:

والذي يتتبّع سيرة رسول الله ﷺ.. يجد في حياته إلى جانب الانقلاب الشامل الذي جاء به من عند الله في الفكر والسلوك وفي حياة الناس انقلاباً آخر في الهرم الاجتماعي والتركيب السياسي للمجتمع، جعل الداني عالياً، والعالي دانياً، والحاكم محكوماً، والمحكوم حاكماً، ورفع إلى قمة الهرم الاجتماعي من كان يقع في قاعدة الهرم من المستضعفين والمحرومين، ووضع من كان في قمة الهرم[٤] من المستكبرين المترفين.

ولعل الآيات الأوائل من سورة القصص التي تشرح أبعاد الانقلاب الإلهي التي جاء بها موسى عليه السلام من عند الله إلى قومه من بني إسرائيل يعطينا تصوراً كافياً عن عمق وأبعاد الانقلاب الذي جاء به رسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي الجديد، على أنقاض المجتمع الجاهلي.

---

(١) أي نتن آباطهم.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٣: ٤٦٥.

(٣) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ٣٥ ط. مطبعة النجف ١٣٨٧هـ.

(٤) التعبير بالهرم تعبير مستعار وغير دقيق عن طبيعة وتركيبة المجتمع الإسلامي، التجأنا إليه لضرورة بيان عمق وأبعاد الانقلاب الإسلامي في المجتمع.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[1] وكان هذا الانقلاب الثاني ضرورياً لحماية وحراسة الانقلاب الأول ولعله ليس ببعيد عن ذلك قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام عندما طلب الإمامة لأبنائه وذريته: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، فلا يمكن أن ينال عهد الله الظالمين الذي قضوا شطراً من حياتهم في الانحراف والظلم، وترسّبت الجاهلية في أعماق نفوسهم وتمكّنت منهم، وتفاعلوا معها.

وقد كان أبو سفيان ومعاوية ابنه وزوجته وطغاة بني أمية في الجاهلية من الذين حاربوا رسول الله ﷺ وأعلنوا الحرب عليه وعلى دعوته وألّبوا عليه الناس ﷺ وقد حرص الإسلام أن يزيلهم عن مواقعهم التي كانوا عليها، ولا يعيد إليهم مكانتهم ونفوذهم الذي كانوا يتمتعون به في المجتمع الجاهلي من قبل، وأن يلغي دورهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي الجديد القائم على أنقاض المجتمع الجاهلي.

فلا يمكن أن يؤتمن على هذا الدين أناس عادوا هذه الدعوة ووقفوا في وجهها، وألّبوا الناس في الأمس القريب على قيم الدعوة وأفكارها وقواعدها وإمكاناتها.

إذن الإسلام قد رفع أُناساً كانوا من قبل موضع احتقار المجتمع الجاهلي ووضع أناساً كانوا من قبل على قمة الهرم الاجتماعي.

قال المسعودي: بلغ أبا بكر عن أبي سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره، وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان يتملّقه ويتذلّل لـه، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر، فقال لقائده: على من يصيح ابني؟ فقال لـه: على أبي سفيان، فدنا من أبي بكر، وقال: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق الله؟ وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية، لقد تعدّيت طورك، وجزت قدرك. فتبسّم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار. وقال لـه: يا أبت إن الله قد رفع بالإسلام قوماً، وأذل آخرين[3].

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥ ـ ٦.

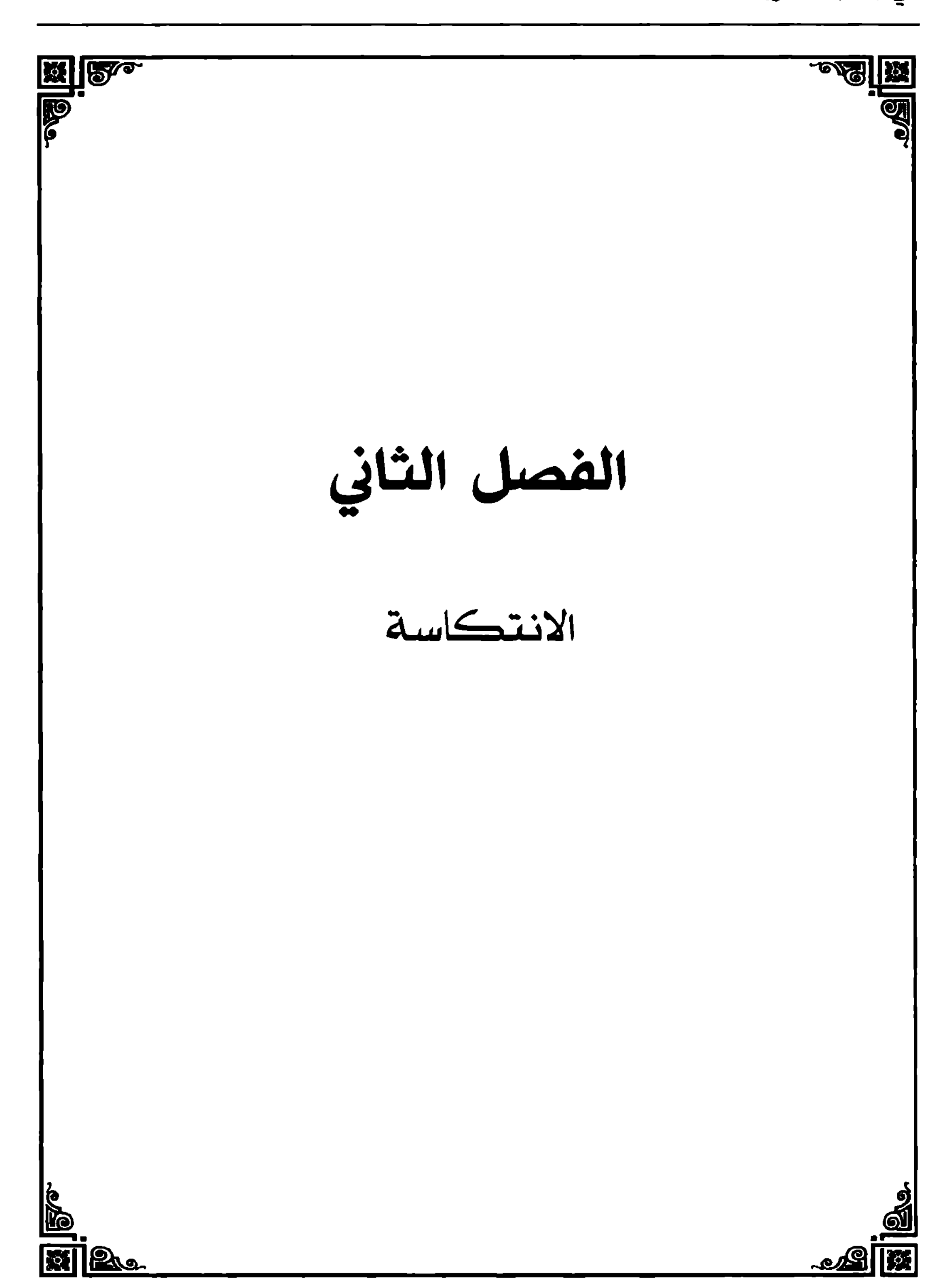
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ٢: ٢٩٩، دار الأندلس بفهارس يوسف أسعد داغر.

وفي رواية أخرى:

قال أبو بكر: يا أبا قحافة إن الله بنى بالإسلام بيوتاً كانت غير مبنية وهدم به بيوتاً كانت في الجاهلية مبنية، وبيت أبي سفيان مما هدم[١].

(١) الغدير ٢: ٢٥٣ الطبعة الثانية.



الفصل الثاني

الانتكاسة

انتكاسة الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ

فماذا جرى في حياة المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

لقد حدثت انتكاسة مريرة في تاريخ هذه الدعوة بعد وفاة رسول الله ﷺ واستطاعت هذه الفئة المستكبرة والمترفة من بني أمية وغيرهم من الذين عادوا الإسلام طويلاً وحاربوا رسول الله ﷺ وألّبوا الناس عليه أن يستعيدوا مواقعهم ونفوذهم ومركزهم في المجتمع الإسلامي الجديد، بعد أن عزلتهم الدعوة عن مواقعهم وجرّدتهم عن نفوذهم وسلطانهم وألغت دورهم السياسي والاجتماعي إلغاءً كاملاً، ومنهم من أهدر رسول الله ﷺ دمه. وإذا علمنا أن هذه الانتكاسة كانت في الأدوار الأولى من حياة الدعوة.. نعرف مدى خطر عودة هذه الطبقة إلى قمة الهرم الاجتماعي في المجتمع الإسلامي والأثر السلبي الّذي يتركه في أفكار الدعوة وقيمها وتصوراتها وأحكامها.

وإذا علمنا أن هذه الفئة عادت إلى مراكزها الأولى من موقع الخلافة الإسلامية وما لها من قدسية وشرعية في نظر المسلمين، وأنها حاولت وعملت لتغيير مفاهيم وتصورات وأحكام الدعوة من خلال موقع الخلافة الإسلامية وما لها من الشرعية والقوة والنفوذ في المجتمع الإسلامي.. عرفنا الخطر الذي كان يهدّد الرسالة من جرّاء عودة هذه الطبقة إلى مواقع النفوذ والتأثير في المجتمع.

لقد قامت هذه الفئة، بعزل الطبقة التي تكونت في فترة نشأة هذه الدعوة ومعاناتها وعملت على تصفية هذه الطبقة والقضاء عليها، وإحلال ناس آخرين كانوا يحاربون هذا الدين ويكيدون لرسول الله ﷺ محلها، وقامت بتغيير وتحريف الكثير من الأعراف والتصورات والمفاهيم والأحكام التي جاءت بها الدعوة في حياة الناس، ومارست كل هذه العملية التحريضية الواسعة من خلال الموضع الشرعي والرسمي للمجتمع الإسلامي الجديد (الخلافة الإسلامية) وبلغ هذا الخطر الذي كان يهدّد الدعوة الإسلامية أقصاه في عهد يزيد بن معاوية الحاكم الأموي المعروف بالانحراف والفساد.

وقد كان يزيد يباشر المنكرات بصورة علنية من السكر واللهو المحرم والاستهانة

بحرمات الله وقتل النفوس البريئة وتحريف الإسلام، وكان يفعل كل ذلك من خلال الموقع الرسمي والشرعي الذي أحلّه أبوه معاوية فيه... وكان ذلك يشكّل الخطر الحقيقي على أصل الدعوة وميراث الأنبياء والمرسلين.

فلم يكن يزيد بأفعاله وأفكاره يشكّل خطراً على الرسالة لو كان يقدم على كل ما أقدم عليه من غير هذا المنطلق ومن غير هذا الموقع. وما أكثر الذين حاربوا الإسلام أو حاولوا تحريفه وتعكيره دون أن يتمكّنوا من أن يفعلوا شيئاً ولكن يزيد بن معاوية كان يرتكب هذه المنكرات ويشيع الفساد في البر والبحر، ويعبث في دين الله من موقع خلافة رسول الله.

وهذا الخطر هو الذي كان الحسين عليه السلام يشعر به، وينذر به، وقد قال للوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامل بني أمية على المدينة لما دعاه إلى مبايعة يزيد:

(أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم. ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن للفسق، ومثلي لا يبايع مثله).

وكان الحسين عليه السلام يشعر أنه الوارث لهذه المسيرة الربانية الكبرى على وجه الأرض، وأن يزيد بن معاوية من خلال موقع الخلافة يعمل على تحريف هذه المسيرة ومصادرة مواريث الأنبياء والمرسلين وتغيير أفكارها وتصوراتها وأصولها وأعرافها بما يأتي وما يشيع وما يدعو إليه من الفساد والمنكرات.

ولابد أن يعمل الحسين عليه السلام لإنقاذ هذه المسيرة الإلهية على وجه الأرض من يزيد.. والحسين عليه السلام أكثر من غيره يشعر بثقل المسؤولية... فهو ابن هذه المسيرة الطويلة المباركة في التاريخ، وهو يرى نفسه أنه جزء لا يتجزأ من هذه الأسرة ومن هذه المسيرة، وأنه يتحمّل كل ثقل المسؤولية في المحافظة على هذا الميراث من الضياع والانحراف، وفي المحافظة على الأمة التي جعلها الله تعالى أمة وسطاً شاهدة على سائر الأمم من السقوط والضياع.. في ممر ضيق من ممرات التاريخ، وفي وسط عاصفة سياسية كادت أن تذهب بكل شيء... لولا حادث الطف العظيم.

وهذا إجمال لابدّ له من تفصيل وإيجاز لابدّ له من شرح وتبسيط وشواهد وإليك ذلك:

بنو أميّة يستغلون ضعف الخليفة الثالث

استغل بنو أمية ضعف الخليفة الثالث في استعادة كل مواقعهم الاجتماعية والمالية والسياسية التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية والتي جرّدهم الإسلام عنها... فوجدوا في ميل

الخليفة إلى أهله وذويه وحبه وإيثاره لهم، وفي ضعفه وكبر سنه فرصة ليستعيدوا ما فقدوا من مكانة وعزة وسلطان ومال في الإسلام، ووجدوا فيما منحهم الخليفة من ثقته المطلقة ومن السلطان والمال ما يكفي في استعادة عزّهم ونفوذهم وسلطانهم في المجتمع الجديد.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب:

إن أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار.

فصاح به عثمان: قم عني فعل الله بك وفعل[١].

وقد مكّن الخليفة أهله وذويه من بني أمية وآل أبي معيط من بيت مال المسلمين، ومن أعمالهم وولاياتهم، واستطاع بنو أمية أن يتسلّقوا سلّم المال والسلطان إلى كل ما تشتهيه أنفسهم وتطمح إليه أهواؤهم.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه القيّم «ثورة الحسين»:

«إن عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة وهي البصرة والكوفة والشام ومصر. وهذه الولايات الأربع هي الولايات ذات المنزلة العظيمة في الحرب والاقتصاد والاجتماع، فهي مركز الثروة المالية والزراعية لدولة الخلافة، منها تحمل الأموال والأقوات وهي مركز تجمع الجيوش الإسلامية الوافدة من شتى بقاع الدولة...

لقد ولّى عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، وعمره خمس وعشرون سنة، وولّى على الكوفة أخاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم عزله تحت ضغط الرأي العام بعد أن ثبت عليه شرب الخمر والتهتّك وولّى مكانه سعيد بن العاص.

وكان معاوية عاملاً لعمر على دمشق والأردن، فضمّ إليه عثمان ولاية حمص وفلسطين والجزيرة، وبذلك مدّ لـه من أسباب سلطانه إلى أبعد مدى مستطاع، وولّى مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح»[٢].

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ط. ١، ١٣٢٨ هـ المجلد ٤ : ٨٧، ثم قال ابن عبد البر: وله أخبار من نحو هذا رديئة، ذكرها أهل الأخبار لم أذكرها، وفي بعضها ما يدل على أنه لم يكن إسلامه إسلاماً.

(٢) ثورة الحسين عليه السلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين: ٤٠.

(ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الإسلام، وإنما كانوا متّهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق ورقّة الدين معروف مشهور. كان فيهم عبد الله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي والسخر منه وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف ومشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه)[1].

ولم يكن عثمان يؤثر فقط بني أمية وآل أبي معيط والطبقة المترفة من قريش بالسلطان والولاية، وإنما كان يؤثرهم بما أؤتمن من أموال بيت المال بكميات كبيرة خارجة عن مألوف الهبات والعطايا في تلك الأيام، مما أثار الكثير من سخط المسلمين واستنكارهم وغضبهم ومما أدى إلى ظهور طبقة مترفة في الوسط الإسلامي.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة في خلافة عثمان بن عفان:

«بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقر الأمر لـه وصحت فيه فراسة عمر، فإنه أوطأ لبني أمية رقاب الناس وولّاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتتحت إفريقية في أيّامه، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان، وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم. وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سيّره ولم يرده أبو بكر ولا عمر وأعطاه مائة ألف درهم. وتصدّق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم. وأقطع مروان (فدكاً) وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها ﷺ تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدُفِعَتْ عنها. وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلّا عن بني أمية. وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أُم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟ قال: لا، ولكن أبكي لأنّي أظنك إنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً. فقال: الق المفاتيح يا بن أرقم فإنّا سنجد غيرك.

---

(١) ثورة الحسين عليه السلام: ٤١ ـ ٤٢.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسّمها كلها في بني أمية وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه»[١].

ومروان بن الحكم الذي استوزره الخليفة والذي كان يغدق لـه من العطاء قد صح عن رسول الله ﷺ لعنه[٢].

وأما أبوه الحكم فقد روى البلاذري: (أن الحكم بن أبي العاص كان جاراً لرسول الله ﷺ في الجاهلية، وكان أشد جيرانه أذىً لـه في الإسلام. فكان يمر خلف رسول الله فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه... واطّلع على رسول الله ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه فعرضه، وخرج إليه بعنزه، وقال: من هذا الوزغ اللعين؟ ثم قال: لا يساكنني ولا ولده، فغربهم إلى الطائف.

فلما قبض رسول الله كلّم عثمان أبا بكر فيه وسأله ردّهم فأبى ذلك، وقال: ما كنت لآوي طُرداء رسول الله، ثم لما استخلف عمر كلّمه فيهم، فقال مثل قول أبي بكر، فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة، وقال: قد كنت كلمت رسول الله فيهم وسألته ردهم فوعدني أن يأذن لهم فقبض قبل ذلك، فأنكر المسلمون عليه إدخاله إياهم المدينة[٣].

وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو الخليفة بالرضاعة، والذي أعطاه الخليفة خمس غنائم إفريقية، فقد أسلم قبل الفتح وهاجر ثم ارتدّ مشركاً، فلما كان يوم الفتح أهدر رسول الله ﷺ دمه فيمن أهدر من مجرمي قريش حتى لو وجد تحت أستار الكعبة، فتوسّط عثمان في أمره عند رسول الله ﷺ فقبل رسول الله ﷺ شفاعته بعد لأي وصمت[٤].

وأعطى الخليفة لسعيد بن العاص بن أمية مائة ألف درهم. وقد كان أبوه العاص من أكثر الناس إيذاءً لرسول الله في مكة[٥].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٩٨ ـ ١٩٩. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) كما عن الحاكم في المستدرك ٤: ٤٩٧.

(٣) الغدير ٨: ٢٤٣ وعليّ ومناوئوه للدكتور نوري جعفر: ٩٥ نقلاً عن أنساب الأشراف للبلاذري٥: ٢٧.

(٤) راجع الغدير ٨: ٢٨٠، نقلاً عن سنن أبي داود ٢: ٢٢٠، وأنساب الأشراف ٥: ٤٩، والمستدرك للحاكم ٣: ١٠٠، والاستيعاب ١: ٣٨١.

(٥) راجع الغدير ٨: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

وأعطى أخاه من أمّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ما استقرضه من عبد الله بن مسعود من بيت مال المسلمين في الكوفة.

وهذا غيض من فيض من عطايا الخليفة من بيت المال لذويه وأهل بيته من بني أمية وآل أبي معيط، ولا سبيل لإنكار ذلك أو التشكيك ـ فيما ذكره المؤرخون ـ من تبذير الخليفة في بيت المال وإيثاره أهله وذويه بأموال المسلمين.

يقول الدكتور طه حسين:

(ولسنا بحاجة إلى أن نناقش صحة ما جاءت به الرواية من أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في إفريقية... ومن أنه أعطى الحكم عمّه وأعطى ابنه الحارث ثلاث مائة ألف وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي ثلاثمائة ألف.

وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة ألف.

وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف.

وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف وزوّج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار)[١].

ويطول الحديث بنا إذا أردنا أن نستقصي عطايا الخليفة وهباته لأهله وذويه من بني أمية وتمكينه لهم في البلاد.

فقد أتاح الخليفة لبني أمية فرصة العودة إلى الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي من جديد، وجمع لهم بين المال والسلطان والنفوذ. وفي أيامه عادت هذه الطبقة إلى مواقعها الاجتماعية قبل الإسلام، وعادت إلى المجتمع الإسلامي الحياة الطبقية والترف والبذخ والإسراف الذي كان قد قضى عليه الإسلام، وما يستتبع الترف والبذخ في حياة الطبقة المترفة من بطر ورئاء وغرور وطيش وانشطار المجتمع إلى أقلية مترفة، وأكثرية محرومة ومستضعفة.

يقول المسعودي:

وفي أيام عثمان، اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور منهم: الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة ٣٣٢ هـ ـ... وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار.

---

(١) الفتنة الكبرى: عثمان بن عفان، للدكتور طه حسين: ١٩٣.

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، والمعروفة بالكُناسة بدار الطلحيين وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيّد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجس والساج.

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً.

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار، ومات يعلى بن منبه وخلّف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار.

وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملّك من الأموال في أيامه (أي أيام عثمان)[١].

وجاءت هذه الطبقة المترفة من قريش إلى الحياة الإسلامية بالكثير من التصرفات والتصورات المجافية لروح الإسلام وأحكامه ونصوصه... والتي واجهتها الأمة أول الأمر بالإنكار والغضب وحتى الثورة، ثم لمّا امتدّ سلطان بني أمية تطبّع الناس عليها وفقدوا المناعة الإسلامية التي كانت تحميهم عنها من قبل.

ولقد كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يتنبأ بما سوف يحدثه بنو أمية من فساد في الدين إذا تولّوا أمور المسلمين.

يقول المغيرة بن شعبة: (قال لي عمر يوماً: يا مغيرة هل أبصرت بعينك العوراء منذ أصيبت؟ قلت: لا.

قال: أما والله ليعورنّ بنو أمية (هذا الدين) كما اعورّت عينك، ثم ليعمينّه حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يجيء)[٢].

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج فيما صنع الخليفة وما كان يقول وهو على فراش الموت:

---

(١) مروج الذهب ٢: ٣٣٢ و٣٣٤، الطبعة التي وضع فهارسها يوسف أسعد داغر.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط. دار الكتب العربية بمصر، عن الموفقيات للزبير بن بكار.

(ثم أقبل على عثمان، فقال: هيّا إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء)[١].

يقول (ولهاوزن):

(والمأخذ الدائم الذي يؤخذ على الأمويين هو أنهم كانوا أصولاً وفروعاً أخطر أعداء للنبي ﷺ وأنهم اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين. ثم أفلحوا في أن يحوّلوا إلى أنفسهم ثمرة حكم الدين أولاً بضعف عثمان، ثم بحسن استخدام نتائج قتله)[٢].

ولسيد قطب في كتاب العدالة الاجتماعية كلام في تقييم خلافة عثمان بن عفان والآثار التي ترتّبت عليها في تاريخ الإسلام أود أن أنقله بطوله وتفصيله لما له من الأهمية في رسم معالم هذه الفترة من تاريخ الإسلام، وآثار ذلك لما بعد هذه الفترة من تاريخ الإسلام.

يقول سيد قطب في كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام:

لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرّف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام. كما أن طبيعة عثمان الرخيّة، وحدبه الشديد على أهله قد ساهما كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله وكانت لها معقّبات كثيرة وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً.

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم، فلمّا أصبح الصباح جاءه زيد بن الأرقم خازن مال المسلمين، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله، ولمّا علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين، قال مستغرباً:

(أتبكي يا بن أرقم أنْ وصلت رحمي؟) فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: (لا يا أمير المؤمنين. ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله، والله لو أعطيته منه درهما لكان كثيراً) فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له: (ألق بالمفاتيح يا بن أرقم، فإنّا سنجد غيرك)!!

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط. دار الكتب الكبرى بمصر ٣: ١٧٠.

(٢) ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين نقلاً عن الدولة العربية لولهاوزن: ٥٣.

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات، فقد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف، ومنح طلحة مائتي ألف، ونفّل مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية ولقد عاتبه في ذلك ناس من الصحابة على رأسهم عليّ بن أبي طالب، فأجاب: (إنّ لي قرابة ورحماً) فأنكروا عليه وسألوه: (فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟) فقال: (إنّ أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي) فقاموا عنه غاضبين يقولون: (فهديهما والله أحب إلينا من هديك).. وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان وفيهم معاوية الذي وسّع عليه في الملك، فضمّ إليه فلسطين وحمص، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهّد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليّ، وقد جمع المال والأجناد. وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله الذي آواه عثمان وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرّف، وفيهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخوه من الرضاعة... الخ.

(ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان)[١].

ثورة أبي ذر الغفاري

عندئذ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض المسلمين، يمثلهم أشدّهم حرارة وثورة أبو ذر ذلك الصحابي الجليل، الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلاّ أن تخطّئه في اتّجاهه، وإلّا أن تزعم لنفسها بصراً بالدين أكثر من بصره بدينه! ثم عادت ـ في مناسبة أخرى ـ فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه، عندما تغيّرت الظروف الأولى كأن دين الله سلعة تتّجر بها الهيئة في سوق الرغبات.

قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام، وينكر على معاوية وبني أمية سياستهم التي تقر هذا الترف وتستزيد منه، وتتمرّغ فيه، وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين.

علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة ألف درهم.. وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئاً من هذا كله فانطلق يخطب في الناس:

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب: ٢١٠ و٢١١.

(لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا في سنّة نبيه، والله إني لأرى حقاً يُطفأ وباطلاً يُحيا، وصادقاً مكذّباً، وأثرة بغير تقى... يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، وبشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله بمكاوي من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم... يا كانز المال اعلم أن في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، إن استطعت أن تكون أعجز الثلاثة فلا تكن.. إن الله ﷻ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] اتخذتم ستور الحرير ونضائد الديباج، وتأملتم الاضطجاع على الصوف الأذربي وكان رسول الله ينام على الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير).

وروى مالك بن عبد الله الزيادي عن أبي ذر: «أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان: يا كعب، إن عبد الرحمن توفي وترك مالاً، فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه. فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبّل مني، أذر خلفي منه ست أواق» أنشدك الله يا عثمان أسمعته (ثلاث مرات)، قال: نعم»، وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية، ولا ليطيقها مروان بن الحكم، فما زالا به عند عثمان يحرضانه عليه حتى كان مصيره إلى الربذة منفياً من الأرض في غير حرب لله ولرسوله وفي غير سعي في الأرض بالفساد. كما تقول شريعة الإسلام.

لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير مسلم لم تخدّره الأطماع أمام تضخّم فاحش من الثروات، يفرّق الجماعة الإسلامية، ويحطّم الأسس التي جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام[2].

(مضى عثمان إلى رحمة ربه، وقد خلّف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكّن لها في الأرض وبخاصة في الشام وبفضل ما أمكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام. وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية ـ إن حقاً وإن باطلاً ـ أن الخليفة يؤثر

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) العدالة الاجتماعية لسيد قطب: ٢٣١ و٢٣٣.

أهله ويمنحهم مئات الألوف، ويعزل أصحاب رسول الله، ليولّي أعداء رسول الله، ويبعد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخبّ فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول ﷺ من الإنفاق والبر والتعفّف.. فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار ـ إن حقاً وإن باطلاً ـ أن تثور نفوس، وأن تنحلّ نفوس. تثور نفوس الذين أُشربت نفوسهم روح الدين إنكاراً وتأثّماً، وتنحلّ نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار. وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان فلما أن جاء عليٌّ عليه السلام لم يكن من اليسير أن يردّ الأمر إلى نصابه في هوادة. وقد علم المنتفعون على عهد عثمان وبخاصة من أمية، أن علياً لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية.

جاء علي ليرد التصوّر الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكّام ونفوس الناس. جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيدها، ويختم هو على جراب الشعير، ويقول: (لا أحبّ أن يدخل بطني إلا ما أعلم). وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثراً عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء. جاء ليعيش كما روى عنه البصير بن منصور، عن عقبة بن علقمة، قال: دخلت على عليّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته، وكسر يابس فقلت: (يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به).

أو كما روى عنه هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على عليّ بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: (والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة)[1].

وسار علي عليه السلام في طريقه يردّ للحكم صورته كما صاغها النبي ﷺ وجد درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح قاضيه، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنّها درعي ولم أبع، ولم أهب. فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين قال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب! فالتفت شريح إلى عليّ يسأله

(١) العدالة الاجتماعية: ٢١٣ ـ ٢١٤.

يا أمير المؤمنين هل من بيّنة؟ فضحك عليّ وقال: أصاب شريح. ما لي بينة! فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى، و(أمير المؤمنين) ينظر إليه.. إلاّ أن النصراني لم يخطُ خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أنّ هذه أحكام الأنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. أتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق.

فقال عليّ: (أما إذا أسلمت فهي لك).

ولقد كان منهاجه الذي شرّعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له:

«أيّها الناس: إنما أنا رجل منكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم ومنفّذ فيكم ما أُمرت به، ألا إنّ كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود إلى بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء. ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملّك به الإماء وفرّق في البلدان لرددته. فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

أيها الناس: ألا لا يقولن رجال منكم غداً ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتّخذوا الوصائف المرقّقة ـ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم في حقوقهم حتى يعلمون: (حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا).

ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله.

ألا وأيّما رجل استجاب لله ورسوله، فصدّق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء».

ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن علي، وألّا يقنع بشرعة المساواة من اعتاد التفضيل، ومن مردوا على الاستئثار، فانحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر الآخر: معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقاً لأطماعهم على حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما عليّ عليه السلام هذا الإصرار.

والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعةً لا يرونها في عليّ، ويعزون إليها غَلَبَة معاوية في النهاية، إنما يُخطئون تقدير الظروف، كما يُخطئون فهم عليّ وواجبه. لقد كان واجب عليّ

الأول والأخير، أن يردّ للتقاليد الإسلامية قوّتها، وأن يردّ إلى الدين روحه، وان يجلوا الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية على كبر عثمان. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمه في حياة الدين.

إنّ علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها. وهذا هو المفهوم الصحيح الذي يعبّر عنه عليه السلام وهو يقول فيما روي عنه إنْ صحت الرواية: (والله ما معاوية بأدهى مني ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس)[1].

ومضى عليّ إلى رحمة ربه وجاء بنو أمية.

فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، تقف حاجزاً أمام أمية، فإنّ هذا الحاجز قد انهار، وانفتح الطريق للانحراف.

لقد اتّسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكنّ روحه انحسرت بلا جدال، ولولا القوة الكامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل، ولكنّ روحه ظلّت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار. غير أنه منذ أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهباً مباحاً للملوك والحاشية والمتملّقين، وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذيالها منافع ولحاشيتها رسوم، وانقلبت الخلافة ملكاً عضوضاً، كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعندما نسمع عن الهبات للمتملقين والملهّين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد ـ من ملوك العباسيين مثلاً ـ إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلاً نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين[2].

الإمام علي عليه السلام في مواجهة صعبة مع بني أميّة

ومهما يكن من أمر فقد ترك عثمان بن عفان من ورائه تركة ثقيلة كان على الإمام أمير المؤمنين أن يصفّي هذه التركة عندما تولّى الأمر من بعده، وأن يعيد المياه إلى مجاريها، ويعيد

(١) العدالة الاجتماعية: ٢١٥ ـ ٢١٨.

(٢) العدالة الاجتماعية.

إلى المسلمين ما وهبه الخليفة الثالث لذويه من مال وسلطان ونفوذ، وأن يأخذ الناس على النهج الذي وضعه لهم رسول الله ﷺ، وكانت مهمّة الإمام هذه مهمة شاقة عسيرة... تصطدم أولاً بمصالح الطبقة التي انتفعت من هذه الفترة بالمال والسلطان، وتصطدم بولاية معاوية في الشام ثانياً.

ومهما كان من أمر فقد قرر الإمام أن يواجه هذه الطبقة بقوة، وينتزع منها كل ما أعطاهم الخليفة الثالث من نفوذ ومال وسلطان بغير حق، ويواجه كل ما استخدمته هذه الطبقة من بدعة في الإسلام بعنف.

اقرأوا كتابه عليه السلام إلى أهل مصر:

(ولكن آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً فإن منهم الذي قد شَرِبَ فيكم الحرام، وجُلِدَ حدًّا في الإسلام، وأنّ منهم من لم يسلم حتى رضخت لـه على الإسلام الرضائخ، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم)[١].

وقال عليه السلام عندما أقبل عليه الناس للبيعة: **(دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً لـه وجوه وألوان لا تقوم لـه القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وأن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكّرت. واعلموا أنّي إنْ أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم)**[٢].

ويقول عليه السلام فيما استرجعه من قطائع عثمان: **(والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق)**[٣].

وقرر الإمام أمير المؤمنين أن يسير في الخط الذي رسم معالمه للمسلمين في الأيام الأولى من قيامه بأمر الحكم وقبوله لبيعة المسلمين ولا يرضخ للضغوط التي كانت تمارسها على حكمه الطبقة المنتفعة من أيام عثمان بن عفان.

---

(١) نهج البلاغة كتاب رقم ٦٢ ص ٤٥٢، فهارس د. صبحي الصالح.

(٢) نهج البلاغة بفهارس د. صبحي الصالح: ١٣٦.

(٣) المرجع نفسه ٥٧.

ومضى الإمام على طريقته التي يؤمن بها غير عابئ بما يقول عنه الناس، وما يفعله المتآمرون على سلطانه وحكمه، وقد دفع ضريبة سياسته هذه في ثلاثة حروب طاحنة ومتعاقبة استوعبت كل الفترة التي حكم فيها.

الإمام الحسن على خط المواجهة

وجاء من بعده ابنه الحسن الزكي سبط رسول الله ﷺ، وهو يريد أن يستمر على طريقة والده في تنفيذ خط الإسلام الأصيل وإسقاط معاوية والزمرة الطارئة على هذا الدين من بني أمية، ولكن تخاذل قادة جنده وإغراءات معاوية لهم، وأساليبه الملتوية الماكرة، واستعداد حكام الروم الشرقية للغارة على بلاد الشام والاستفادة من فرصة الحروب الداخلية لإرجاع الشام إلى سلطان الكنيسة الشرقية... كل ذلك كان من العوامل التي دعت الإمام الحسن عليه السلام إلى إعلان الهدنة مع معاوية ليحفظ البقية من شيعته بعد التخاذل الذي حدث في قادة جنده، وانفرد معاوية بالحكم وانزاح القناع مرةً واحدة عن وجهه وانكشف على حقيقته وأسفر عن وجهه.

يقول المدائني: خطب معاوية في الكوفة بعد الصلح فقال: (يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم تصلّون وتزكّون وتحجّون، ولكني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم. وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته تحت قدميّ هاتين)[1].

وقال: (وإن كل شيء أعطيت الحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به).

قال أبو إسحاق وكان والله غدّاراً[2].

---

(١) صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين: ٢٨٥ نقلاً عن شرح نهج البلاغة ٤: ١٦.

(٢) المصدر نفسه.



الفصل الثالث

صفحات من تاريخ بني أمية
(النزعة الإلحادية)





دولة بني أمية في التاريخ الإسلامي

وهكذا انفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإسلام لدولة بني أمية، استعاد فيها بنو أمية أمجادهم الجاهلية أولاً، واستعادوا فيها الكثير من الأعراف والقيم والأساليب الجاهلية في الحكم والمال والمجتمع.

وقد كان لذلك كله انعكاس سلبي سيئ على المجتمع الإسلامي.

وكان من شأن هذه الردّة الجاهلية أن تنعكس على الإسلام أكثر وأقوى من انعكاسها على المجتمع الإسلامي.. لولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام فقد كان التأثير المباشر الأول للثورة ـ كما سنرى إن شاء الله ـ هو تجريد بني أمية من شرعية الولاية والحكم وبذلك لم يتمكن بنو أمية بصفتهم حكّاماً وخلفاء على المسلمين من تسريب الانحرافات التي كانوا يمارسونها أيّام سلطانهم ونفوذهم إلى الإسلام نفسه.

ولكن بقيت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي مصدر كثير من المآسي في حياة المسلمين في النظام والحكم والحياة والأخلاق والأعراف، واتّصلت هذه الجاهلية بالعصر العباسي وما بعد ذلك من عصور التاريخ الإسلامي في الكثير من جوانب حياة المسلمين.

وفيما يلي نستعرض جوانب من هذه الردّة الجاهلية التي تمّت على يد الحكام من بني أمية وأطرافاً من السياسة الأموية وطريقتهم في الحكم والأساليب التي اتخذها حكام بني أمية في تحريف الإسلام والمجتمع الإسلامي واستعادة الحياة الجاهلية من جديد إلى صلب المجتمع الإسلامي قبل وبعد ثورة الحسين عليه السلام.

النزعة الإلحادية عند بني أمية

النزعة الإلحادية نزعة قديمة وعريقة في بني أمية، لم يستأصلها الإسلام من نفوسهم، وهذه النزعة تختفي حيناً في حياة بني أمية وتبرز حيناً آخر، وتظهر بين حين وحين على فَلَتات ألسنتهم.

ومعاوية ليس هو الأول ولا الأخير من هذه الأسرة في هذه النزعة الخبيثة. ورغم أن

أجهزة إعلام الخلافة كانت تُضفي على أعضاء هذه الأسرة الكثير من الهيبة والقدسية وتخفي الكثير من سقطاتهم وفلتات ألسنتهم... فإن التاريخ يحصي لنا الكثير من الشواهد على رسوخ وعمق هذه النزعة في نفوس بني أمية.

النزعة الإلحادية عند أبي سفيان:

ولنبدأ بقصة الإلحاد من أبي سفيان سلف هذه الأسرة بعد أن أعلن الإسلام وانخرط في صفوف المسلمين.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب:

(أن أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعَدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنّما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار. فصاح به عثمان: قم عنّي فعل الله بك وفعل)[1].

وروى أبو الفرج في الأغاني قال: لَمّا ولي عثمان الخلافة دخل عليه أبو سفيان فقال: يا معشر بني أمية إنّ الخلافة صارت في تيم وعَدي حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقّفوها بينكم تلقّف الكرة فوالله ما من جنة ولا نار ـ هذا أو نحوه ـ فصاح به عثمان: قم عنّي فعل الله بك وفعل.

قال أبو الفرج: ولأبي سفيان أخبار من هذا الجنس يطول ذكرها .[2]

وروى أبو الفرج: دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كفّ بصره، فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا. فقال: يا عثمان إن الأمر أمر عالية، والملك ملك جاهلية، فاجعل أوتاد الأرض بني أمية[3].

وفي تهذيب ابن عساكر[4] عن أنس (أن أبا سفيان دخل على عثمان بعد ما عمي، فقال:

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ط. ١ سنة ١٣٢٨ هـ المجلد ٤: ٨٧. ثم قال ابن عبد البر: وله أخبار من نحو هذا رديئة ذكرها أهل الأخبار، لم أذكرها، وفي بعضها ما يدل على أنه لم يكن إسلامه إسلاماً.

(٢) الأغاني ٦: ٣٥٦ ط. دار الكتب.

(٣) الأغاني ٦: ٢٥٥، نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين للسيد مرتضى العسكري ٣٠٧، ط. دار الزهراء.

(٤) تهذيب ابن عساكر ٦: ٤٠٧.

هل هاهنا أحد؟ فقالوا: لا. فقال: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية).

ومرّ أبو سفيان بقبر حمزة (وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا يتلعّبون به)[١].

ويروي أبو الفرج الأصفهاني عن عبد الله بن الزبير أنه قال: لما كان يوم اليرموك خلّفني أبي، فأخذت فرساً له، وخرجت فرأيت جماعة من الخلفاء فيهم أبو سفيان بن حرب. فوقفت معهم، فكانت الروم إذا هزمت المسلمين قال أبو سفيان: إيه بني الأصفر، فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان:

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم، ولم يبق منهم مذكور.

فلما فتح الله على المسلمين حدّثت أبي، فقال: قاتله الله يأبى إلّا نفاقاً. ثم كان يأخذ بيدي فيطوف على أصحاب رسول الله ﷺ يقول: حدّثهم فأحدّثهم، فيعجبون من نفاقه[٢].

النزعة الإلحادية عند مروان بن الحكم:

وعن مروان بن الحكم، وهو رأس الجناح الآخر من بني أمية: (الأعياص)[٣] يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج البلاغة نقلاً عن شيخه أبي جعفر:

(كان مجاهراً بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان اللعينان.

كان أبوه عدو رسول الله ﷺ يحكيه في مشيه، ويغمز عليه، ويدلع[٤] له لسانه يتهكّم به ويتهافت عليه. هذا وهو في قبضته وتحت يده وفي دار دعوته بالمدينة، وهو يعلم أنه قادر على قتله أيّ وقت شاء من ليل أو نهار.

فهل يكون هذا إلا من شانئ شديد البغضة ومستحكم العداوة حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول الله ﷺ من المدينة وسيّره إلى الطائف.

---

(١) شرح النهج ٤: ٥١، ط. ١.

(٢) الأغاني ٦: ٢٥٤ و٢٥٥ دار الكتب.

(٣) ينشطر بنو أمية إلى شطرين: العنابس والأعياص، أما العنابس فرؤوسهم حرب وأبو سفيان ومعاوية ويزيد. وأما الأعياص فأبرز شخصياتهم الحكم وابنه مروان وعبد الملك وأبناء عبد الملك وأحفاده.

(٤) يدلع لسانه: يخرجه.

وأما مروان ابنه فأخبث عقيدة، وأعظم إلحاداً وكفراً...

كتب إليه عبيد الله بن زياد يبشّره بقتل الحسين عليه السلام فقرأ كتابه على المنبر، وأومأ إلى القبر قائلاً: يوم بيوم بدر. فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار. ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب المثالب)[1].

النزعة الإلحادية عند معاوية:

ومعاوية بن أبي سفيان لا يختلف عن أبيه أبي سفيان وعن مروان كثيراً في رسوخ واستقرار هذه النزعة في نفسه وإن كان حريصاً على التكتّم بها ومغالبتها ما وسعه التغلّب عليها، إلا أنها كانت تغلبه أحياناً في مجالسه الخاصة وتظهر على فَلَتات لسانه، ينقل لنا التاريخ جزءاً يسيراً منها:

روى الزبير بن بكار في (الموفقيّات) عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه... إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا. فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟.

فقال: يا بنيّ من أكفر الناس وأخبثهم؟

قلت: وما ذاك؟

قال: قلت لـه وقد خلوت به إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدْلاً، وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه.

فقال: هيهات هيهات. أيّ ذكر أرجو بقاءه ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عد أن هلك حتى هلك ذكره إلّا أن يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملك أخو عَدي فاجتهد وشمّر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل: عمر.. وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أنّ محمداً

---

(١) شرح النهج ٤: ٧١ و٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

رسول الله) فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك، لا والله إلّا دفناً دفناً)[١].

وأذّن المؤذن يوماً فشهد بالرسالة فقال معاوية: (لله أبوك يا بن عبد الله، لقد كنت عالي الهمّة ما رضيت لنفسك إلاّ أن تقرن اسمك مع اسم رب العالمين)[٢].

وقال ابن أبي الحديد: ومعاوية مطعون في دينه، منسوب إلى الإلحاد قد طعن فيه ﷺ، وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصري في كتاب (نقض السفيانية) على الجاحظ وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك وقد ذكرناها في كتابنا (مناقضة السفيانية)[٣].

النزعة الإلحادية عند يزيد بن معاوية:

وأمّا يزيد بن معاوية لعنه الله فأمره أوضح وأفضح من أن يذكر، وقد كانت هذه النزعة الخبيثة من السمات البارزة في شخصيته، وكانت تنفلت على لسانه أحياناً، وتطفح على مواقفه وأحاديثه، وبشكل خاص شعره الذي يكاد يفضحه بين حين وآخر، رغم الموقع الحساس الذي كان يحتله. ولعل بروز هذه النزعة على فلتات لسانه هي من آثار حالة النزق والطيش التي كانت لا تفارق شخصية يزيد.

وهذه الفَلتات مهما كانت طافحة على شعره وحديثه فلن تكون أصرح من مواقفه وأعماله، فإن الجرائم الكبيرة التي ارتكبها يزيد من غير تأثّم ولا تحرّج كقتال ابن بنت رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه وإباحة المدينة المنورة لجند الشام، تكشف عن عمق هذه النزعة في نفسه، وأنا أعجب من بعضهم كابن العربي والغزالي الذين يشكّون في جواز لعن يزيد!

ومن أفظع المواقف التي تكشف عن عمق ورسوخ هذه النزعة الإلحادية الخبيثة في نفس

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٥٤ بفهارس يوسف أسعد داغر. وشرح النهج لابن أبي الحديد ٥: ١٢٩ و١٣٠ الطبعة الثانية بمصر بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. والموفقيات للزبير بن بكار: ٥٧٥ و٥٧٦. ومقدمة مرآة العقول للسيد مرتضى العسكري ٢: ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٠١ تحقيق محمد أبو الفضل.

(٣) المصدر السابق.

يزيد نكثه بالخيزران على الرأس الشريف، رأس ابن بنت رسول الله ﷺ عندما أُحضر إلى مجلسه وهو على منظرة بجيرون، ومجلسه يومذاك حاشد بوجوه الشام الذين جاؤوا ليشهدوا انتصارات الخليفة!!

قال أخطب خوارزم (٥٦٨ هـ) في المقتل:

ثم كشف عن ثنايا رأس الحسين بقضيبه ونكثه فأنشد:

أبوا قومنا أن ينصفونا فأنصفت ... قواضب في إيماننا تقطر الدما

صبرنا وكان الصبر منا عزيمة ... وأسيافنا يقطعن كفّاً ومعصما

نفلّق هاماً من أناس أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[1]

فقال له بعض جلسائه: ارفع قضيبك فوالله ما أحصي ما رأيت شفتي محمد ﷺ في مكان قضيبك يقبّله.

فأنشد يزيد:

يا غراب البين ما شئت فقُل ... إنما تندب أمراً قد فُعل

كل ملك ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بكُل

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تُشل

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

---

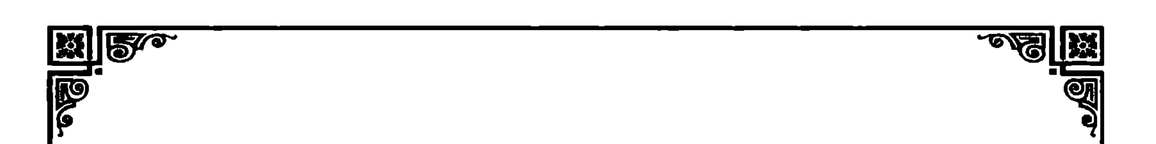
(١) الأبيات للحصين بن الحمام تمثل بها يزيد لعنه الله. نقل ذلك أخطب خوارزم في المقتل ٢: ٥٨، ط. النجف بتحقيق الشيخ محمد السماوي، والبلاذري في الأنساب في قسم تأريخ الحسين عليه السلام بتحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط. دار التعارف: ٢١٣، وابن صبّاغ المالكي (٨٥٥ هـ) منشورات دار الكتب التجارية في النجف: ٤: ١٩، وسبط ابن الجوزي (٦٥٤ هـ) في التذكرة، ط. مؤسسة أهل البيت، بيروت: ٢٣٤. وقال اليافعي (٧٦٨ هـ) في مرآة الجنان ١: ١٣٥، ط. دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد دكن سنة ١٣٣٧ هـ: ثم وضع الرأس المكرّم بين يدي يزيد فأمر أن يُجعل في طست من ذهب وجعل ينظر إليه ويقول مفتخراً:

صبرنا وكان الصبر منا عزيمةً ... وأسيافنا يقطعن كفّاً ومعصما

يفلّقن هاماً من رجال أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

قد أخذنا من عليّ ثارنا وقتلنا الفارس الليث البطل
وقتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدرٍ فاعتدل[1]

(١) مقتل الحسين لأخطب خوارزم (٥٦٨ هـ): ط. النجف بتحقيق الشيخ محمد السماوي ٢ : ٥٨ ـ ٥٩ ونقل أخطب خوارزم بعد نقل الأبيات كلام شيخ السنة أحمد بن الحسين (فإن كان قاله ـ أي يزيد قال الشعر ـ فقد ضم إلى فعل الفجار في قتل الحسين وأهل بيته أقوال الكفار والله يعصمنا من الزلل).
نقل ابن أعثم الكوفي (٣١٤ هـ) في الفتوح ٥ : ٢٤١ ـ ٢٤٢، ط. ١ دار المعارف العثمانية بحيدر آباد دكن، بعض هذه الأبيات باختلاف يسير.
وفي تذكرة سبط ابن الجوزي: ٢٣٥، ط. مؤسسة أهل البيت ـ بيروت: وجعل ينكث عليه بالخيزران ويقول أبيات ابن الزبعرى:
ليت أشياخي ببدر شهدوا وقعة الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من ساداتهم وعدلنا قتل بدر فاعتدل
ثم قال: قال الشعبي وزاد فيها يزيد فقال:
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل
لست من خندف إنْ لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل
وقال أخطب خوارزم (٥٦٨ هـ) في المقتل ٢ : ٥٨ ـ ٥٩ (تحقيق الشيخ محمد السماوي) قال الحاكم: الأبيات التي أنشأها يزيد بن معاوية هي لعبد الله بن الزبعرى أنشأها يوم أُحد لما استشهد حمزة عم النبي وجماعة من المسلمين وهي قصيدة طويلة منها:
يا غراب البين ما شئت فقل إنما تندب أمراً قد فُعل
إنّ للخير وللشر مدًى وكلا ذلك وجهٌ وقُبل
أقول: روى القصيدة ابن إسحاق في السيرة وهي ستة عشر بيتاً. ثم روى الشعر الذي أنشده حسّان بن ثابت الأنصاري في الجواب عليه: (السيرة النبوية لابن هشام ٣ : ١٤٣ ـ ١٤٤ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر).
ورواه أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني في كتابه (مقاتل الطالبيين)/ ص ٨٠، الطبعة الحيدرية النجف ١٣٨٥ هـ



الفصل الرابع

الخلاعة والاستهتار والمجون
في قصور بني أمية

الخلاعة والاستهتار والمجون

الخلاعة والمجون تعتبر واحدة من أبرز سمات بني أمية وقد دخل الغناء والطرب والشرب والسكر والاستهتار على أيدي بني أمية إلى الإسلام من باب واسع وزاول الحكّام من بني أمية ألواناً مختلفة من اللهو والمجون والخلاعة على مرْأى من المسلمين ومسمع وبصورة مكشوفة وعارية، وأدخلوا الفساد إلى قصر الخلافة بأبشع صوره وأشكاله.

الشرب والسكر في قصور معاوية:

كان الشرب والسكر أمراً شائعاً في قصور الخلفاء من بني أمية، وكان معاوية يمارس هذا المنكر في خَفاء، فلمّا تولّى يزيد ابنه أمر الخلافة أعلن هذا المنكر إعلاناً، وجرى من بعده خلفاء بني أمية على طريقته إلّا ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز.

وكان معاوية أول خليفة يدخل الخمر في قصره.

أخرج ابن عساكر في تاريخه قال: مرّ على عبادة بن الصامت ـ وهو في الشام ـ قطار تحمل الخمر، فقال: ما هذه، أزيت؟ قيل: لا بل خمر تباع فلان!؟

فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلا بقرها. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام فأرسل فلان إلى أبي هريرة يقول له: أما تمسك عنا أخاك عبادة. أما بالغدوات فيغدو إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشيّ فيقعد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا أو عيبنا، فأمسك عنّا أخاك، فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال له: يا عبادة مالك ولمعاوية[١] ذره وما حمل فإن الله يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

---

(١) لا نعلم كيف انفلتت كلمة معاوية من قلم ابن عساكر (أو ناسخ الكتاب) وقد كان من قبل يحاول أن يتكتّم عليه بكلمة (فلان).

قال يا أبا هريرة لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ بايعناه على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأهلنا ولنا الجنة ومن وفي وفى الله له الجنة مما بايع عليه رسول الله ﷺ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. فلم يكلمه ابو هريرة بشيء. فكتب فلان إلى عثمان بالمدينة أن عبادة بن الصامت قد أفسد على الشام وأهله فإما أن يكف عبادة وإما أن أخلي بينه وبين الشام فكتب عثمان إلى فلان أن أرحله إلى داره من المدينة. فبعث به فلان حتى قدم المدينة فدخل على عثمان الدار وليس فيها إلا رجل من السابقين بعينه ومن التابعين الذين أدركوا القوم متوافرين فلم يفج عثمان به إلّا وهو قاعد في جانب الدار فالتفت إليه فقال: ما لنا ولك يا عبادة، فقام عبادة قائماً وانتصب لهم في الدار، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ أبا القاسم يقول: سيلي أموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى، فلا تعتلوا بربكم، فوالذي نفس عبادة بيده إن فلاناً لمن أولئك. فما راجعه عثمان بحرف[1].

لقد كان الشرب والسكر والطرب واللهو سنّة جارية في قصور الخلفاء، يرثها الخلف عن السلف. وكان الناس يتحدّثون بما يجري في قصور الخلفاء.

يقول الجاحظ:

وكان يزيد لا يمسي إلا سكراناً ولا يصبح إلا مخموراً، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً، وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة، وكان هشام يشرب في كل جمعة وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب، فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار، ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت[2].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٦/١٩٧ (المكتبة الشاملة) والترقيم موافق للمطبوع، ومذيل بحواشي علي شيري (عدد الأجزاء ٨٠) والآية في سورة البقرة ١٣٤ و١٤١.

(٢) التاج في أخلاق الملوك: ١٥١.

الشرب والاستهتار في حياة يزيد بن معاوية:

وقد خرجت ظاهرة الشرب والسكر عند الخلفاء في عهد يزيد بن معاوية من طور الكتمان إلى طور الإعلان والإجهار، وكان يزيد بن معاوية أول خليفة يعلن اقتراف هذا المنكر إعلاناً، ويتحدى به مشاعر المسلمين.

النشأة النصرانية ليزيد بن معاوية:

وكانت نشأته النصرانية تدفعه إلى ذلك، فقد نشأ يزيد عند أخواله من بني كلاب في البادية. وكانت هذه القبيلة في الجاهلية مسيحية، ولم تتخلّص عن الأعراف المسيحية بشكل كامل، وقد أمضى يزيد فترة الصبا والمراهقة من حياته في البادية، وأرسل لنفسه العنان في فتيانها في مجونهم وسكرهم ولعبهم بالكلاب[١].

يقول العلائلي:

(إذا كان يقيناً أو يشبه اليقين أن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون مستهتراً مستخفاً، بما عليه الجماعة الإسلامية، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيّ حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي نستغرب أنْ يكون على غير ذلك)[٢].

ولم تكن هذه الظروف المسيحية لترافق يزيد فقط في نشأته وإنما نلاحظ أنّ هذه الظروف بقيت تواكب حياة يزيد حتى بعد أن كَبُر وأصبح لـه حاشية وندماء وبعد أنْ مات أبوه وأصبح خليفةً للمسلمين مكان معاوية أبيه.

يقول أبو الفرج في الأغاني:

كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنّين وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل[٣].

---

(١) انظر حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي ٢: ١٨٠. وثورة الحسين لشمس الدين: ١٦٦، وقد اعتمد الأخير مجموعة من المصادر في هذه الناحية منها: تأريخ العرب لفيليب حتّي ٢: ٢٥٨ وسموّ المعنى في سموّ الذات لعبد الله العلائلي: ٥٩ ـ ٦١ والدولة العربية لولهاوزن: ١٣٧.

(٢) سمو المعنى في سمو الذات لعبد الله العلائلي ص ٥٩.

(٣) الأغاني ١٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

وكان الأخطل ـ الشاعر المسيحي المعروف بالخلاعة ـ من ندماء يزيد الخاصّين والأثيرين عنده لا يكاد يفارقه في سفر أو حضر، فكانا يشربان ويسمعان الغناء وإذا أراد السفر صحبه معه. ولما هلك يزيد وآل أمر الخلافة إلى عبد الملك بن مروان قرّبه، فكان يدخل عليه بغير استئذان، وعليه جبّة خز وفي عنقه سلسلة من ذهب والخمر يقطر من لحيته(١).

وللأخطل ـ شاعر يزيد ونديمه ـ هذا قصة معروفة في هجاء الأنصار واحتمائه بيزيد نذكرها في موضعه إن شاء الله.

إعلان يزيد لشرب الخمر:

ومهما يكن من أمر فقد كان يزيد بن معاوية أول خليفة يمارس المنكرات ممارسة علنية، ولا يتكتّم في شربه وسكره ومجالس لهوه وطربه، وقد نصحه والده معاوية لما أراد أن يعهد إليه أمر خلافة المسلمين بأن يتكتم في شربه وخلاعته وأن يتستر بالليل ولا يجهر للناس بالمنكرات إجهاراً.

يقول ابن كثير:

كان يزيد صاحب شراب فأحب معاوية أن يعظه في رفق، فقال: يا بنيّ ما أقدرك على أن تصل حاجتك من غير تهتّك يذهب بمروءتك وقدرك، ويشمت بك عدوك ويسيئ بك صديقك، ثم قال يا بنيّ إني منشدك أبياتاً فتأدّب بها واحفظها فأنشده:

انصب نهارك في طلاب العلا	واصبرعلى هجرالحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجى	واكتملت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي	فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكاً	قد باشر الليل بأمر عجيب
غطّى عليه الليل أستاره	فبات في أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة	يسعى بها كل عدوٌ مريب(٢)

وأرسل معاوية ابنه يزيد إلى الحج ليمهّد الأمر لمبايعته بولاية العهد، فلمّا بلغ المدينة جلس على شراب لـه فدخل عليه الإمام الحسين عليه السلام فوجد رائحة الشراب فقال: **ما هذا؟**

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ١٨٤ ـ ١٨٥ نقلاً عن الأغاني ٧: ١٧٠ والبداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٢٨.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٥/٤٠٣، ورواه ابن كثير عن الطبراني في (البداية والنهاية) ٨/٢٥٠.

قال: هو طيب يصنع في الشام. ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بآخر وقال لغلامه: اسق أبا عبد الله. فقال لـه الإمام الحسين عليه السلام: **عليك شرابك أيّها المرء**، فقال يزيد:

ألا يـا صـاح لـلـعـجـب	دعـوتـك ثـم لـم تـجـب
إلـى الـفـتـيـات والـشـهـوات	والـصـهـبـاء والـطـرب
وبـاطـيـة مـكـلـلـة	عـلـيـهـا سـادة الـعـرب
وفـيـهـن الـتـي بـتـلـت[1]	فـؤادك ثـم لـم تـتـب

فنهض الحسين عليه السلام وقال: **بل فؤادك يا بن معاوية بتلت**[2].

وأرسل معاوية ابنه إلى الغزو في بلاد الروم في جيش كثيف في سنة تسع وأربعين[3] فتثاقل واعتلّ فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض وهو في دير مُرَّان مع زوجته أم كلثوم ومع الغواني والقيان غارق في لذته وفي الطرب والشرب والسكر وأنشأ يقول:

ما أن أُبالي بما لاقت جموعهم	بالفرقدونة من حمّى ومن موم
إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً	بدير مُرَّان عندي أم كلثوم

يقول ابن الأثير:

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقنّ بسفيان (بن عوف أمير الجيش) ليصيبه ما أصاب الناس[4].

يقول ابن أبي الحديد في استعراض أعمال معاوية وإساءاته إلى الإسلام، والتي منها: اختيار يزيد خليفة وإماماً للمسلمين:

«وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً ولعبه بالنرد ونومه بين الفتيان والمغنيات واصطحابه معهن ولعبه بالطنبور بينهن»[5].

---

(١) وردت (تبلت) بتقديم التاء بمعنى قطعت.

(٢) الكامل لابن الأثير ٤: ١٢٧. دار صادر ودار بيروت. وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦٥/ ٤٠٧.

(٣) حوادث سنة تسع وأربعين من الكامل لابن الأثير ٣: ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٤) الكامل ٣: ٤٥٨ ـ ٤٥٩، وأورد أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ١٧: ٢١٠ الشعر على النحو التالي:

إذا ارتفقت على الأنماط مصطبحاً	بدير مُرَّان عندي أم كلثوم
فما أبالي بما لاقت جنودهم	بالفرقدونة من حمّى ومن موم

(٥) شرح النهج ٥: ١٣١ بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

وفي موضع آخر:

وإيثاره لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السكّير الخمّير، صاحب الدِيَكة والفهود والقرود، وأخذ البيعة لـه على خيار المسلمين، وهو يعلم سفهه ويطلع على رَهَقه وخبثه، ويعاني سكراته وفعلاته وفجوره وكفره[١].

ويقول المسعودي:

وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشرب، وجلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربةً تروي مشامي ... ثم مِل فاسقِ مثلها ابن زياد

احب السر والأمانة عندي ... لتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنّين فغنّوا به[٢]، وكان أبو حمزة يخطب في أهل المدينة ويقول: ثم ولّى بعده ابنه يزيد، يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد الصيود ويزيد القرود، فخالف القرآن واتّبع الكهّان ونادم النرد[٣].

يروي أبو الفرج الأصفهاني عن ابن أبي نبرة عن لقيط بن نصر المحاربي، قال: كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنّين، وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل. وكان يأتيه من المغنين سائب خائر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله فغناه يوماً:

يا للرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الأهل والنفر

فاعترته أريحيّة فرقص حتى سقط، ثم قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتى لا يرى منه شيء، فطرحت عليه الثياب والجباب والمطارف والخز حتى غاب فيها[٤].

وإذا كنا قد كشفنا الغطاء عن طرف من ليالي يزيد الحمراء وشربه واستهتاره فليس علينا من بأس أن نذكر نماذج أخرى من مجونه وخلاعته واستهتاره.

---

(١) شرح النهج ١٥: ١٧٨.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٧.

(٣) الأغاني ٢٣: ٢٤١ بتحقيق عليّ السباعي وإشراف محمد أبي الفضل إبراهيم.

(٤) الأغاني ١٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

يقول الدميري في (حياة الحيوان) في (الفهد):

(وأول من حمل «الفهد» على الخيول يزيد بن معاوية بن أبي سفيان).

ثم نقل عن الكيا المراسي في يزيد: المتصيد بالفهد، واللاعب بالنرد، ومدمن الخمر.

ومن شعره في الخمر:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّم

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكلٌّ وإنْ طال المدى يتصرّم

ثم قال: (ولو مدد ببياض لاطلقت العنان وبسطت الكلام في مخازي هذا الرجل)[١].

وكان مولعاً بتربية القرود وملاعبتها، وكان يهيم في ذلك هياماً، وشغفه بالقرود معروف.

يقول المسعودي:

وكان له قرد يكنّى بأبي قيس، يُحضره مجلس منادمته ويطرح له متكئاً، وكان قرداً خبيثاً، وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذلّلت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء في بعض الأيام سابقاً فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل، وعلى أبي قيس قُباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمّر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق، وعلى الأتان سرج من الحرير منقوش، ملمّع بأنواع من الألوان. فقال بعض شعراء الشام في ذلك اليوم:

تمسّك أبا قيس بفضل عنانها ... فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد الذي سبقت به ... جياد أمير المؤمنين أتان[٢]

وأرسل يزيد (أبا قيس) مرةً في حلبة السباق فطرحته الريح فمات، فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتكفينه ودفنه كما أمر أهل الشام أن يعزّوه بمصابه وأنشأ في رثائه:

كم من كرام وقوم ذي محافظة ... جاؤوا لنا ليعزّوا في أبي قيس

شيخ العشيرة أمضاها وأجملها ... على الرؤوس وفي الأعناق والريس

---

(١) حياة الحيوان للدميري (فهد).

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٧، فهارس أسعد داغر. وسمط النجوم العوالي ٢/٩٦ (ترقيم المكتبة الشاملة) وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٩/١٥٧ ـ ١٥٨ في ترجمة زياد بن عبد الله، ومختصر تاريخ دمشق ١/١٢٠٥، وفوات الوفيات ١/ ٣٧٧.

لا يبعد الله قبراً أنت ساكنه فيه جمال وفيه لحية التيس[١]

وكان أبو قيس قرداً خبيثاً أثيراً عند يزيد بن معاوية لا يكاد يفارقه وكان يُجلسه في مجلسه بين يديه ويقول: (هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئةً فمسخ، وكان يسقيه النبيذ ويضحك مما يصنع)[٢] واشتهر يزيد بمنادمة القرود حتى قال فيه رجل من التنوخ:

يزيد صديق القرد ملَّ جوارنا فحن إلى أرض القرود يزيد
تبّاً لمن أمسى علينا خليفة صحابته الأدنون منه قرود[٣]

وخرج يزيد يتصيّد بجواري وهو سكران، فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قرد ويكنيه يزيد أبا خلف وجعل يركض الأتان، ويقول:

أبا خلف احتل لنفسك حيلةً فليس عليها إنْ هلكت ضمان

فسقط واندقت عنقه[٤].

الشرب والسكر في حياة الوليد بن يزيد:

يقول أحمد بن عبد ربه الأندلسي:

(عكف الوليد على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء)[٥] ثم يروي أحمد بن عبد ربه عن علي بن عباس قال:

إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أتى بشراعة (من رجال الاختصاص في الشرب واللهو) فوالله ما سأله عن نفسه ولا عن مسيره، حتى قال له: يا شراعة أنا والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله. قال: والله لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حماراً. قال: إنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة؟ الشراب، قال: دهقانها الخبير ولقمانها الحكيم.

قال: فأخبرني عن الشراب؟

---

(١) القرشي: حياة الإمام الحسين٢: ١٨٢، وفوات الوفيات للكتبي ٢/ ٦٤٤. جواهر المطالب لابن الدمشقي ٢/ ٣٠٤. أعيان الشيعة ١/ ٦١٨.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ٢/ ١٧٧. الترقيم لبرنامج المكتبة الشاملة. قاموس الرجال للشيخ التستري ١١/ ١١٤. فوات الوفيات للكتبي ٢/ ٦٤٢. مقدمة مرآة العقول للعسكري ٢/ ١٥١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) العقد الفريد ٥: ١٩٨.

قال: يسأل أمير المؤمنين عمّا بدا له.

قال: ما تقول في الماء؟

قال: لابدّ لي منه، والحمار شريكي فيه!

قال: ما تقول في اللبن؟

قال: ما رأيته قطّ إلّا استحييت من أمي لطول ما أرضعتني به!

قال: ما تقول في السويق؟

قال: شراب الحزين والمستعجل المريض.

قال: فنبيذ الخمر؟

قال: تلهو به عن الشراب.

قال: ما تقول في الخمر؟

قال: أوّاه تلك صديقة روحي.

فقال: وأنت والله صديق روحي فأيّ المجالس أحب؟

قال: ما شرب الكأس على وجه أحسن من السماء[١]، ترى أمير المؤمنين يستدعي شراعة من مكان بعيد ليسأله عن (القهوة).

ويصف له ألوان الشراب ثم لا يشربها؟

ويسهر الوليد ليله حتى الفجر ويكثر من الشرب والسماع حتى يُحصي لـه ابن أبي الزناد سبعين قدحاً[٢] ونحن وإن احتملنا المبالغة في هذا الإحصاء إلّا أننّا لا نشك فيما اشتهر عن الوليد من الإفراط في الشرب والسكر.

وينادم الوليد ندماءه ليلة على الخمر والسكر، وقد وضعت أمامهم جفنه من الخمر انعكس عليها نور القمر فيحلف الوليد أنْ لا يفارق الخمر (هفت هفته) أي سبعة أسابيع (٤٩)

---

(١) العقد الفريد ٥: ٢٠٢ بتحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني. ومروج الذهب للمسعودي ٣: ٢١٤، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٧: ٤٨ ـ ٤٩، واللفظ للأول.

(٢) العقد الفريد ٥: ٢٠٢ بتحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني.

يوماً فيحتجب عن الناس ليفرغ للخمر والسكر ويحاول حاجبه أن يصرفه عن ذلك فيأمر به أن يوضع في فمه قمع، ثم جعلوا يصبّون في فمه الخمر حتى عاد ما يعقل سكراً[١].

ويملأ له جرن من الخمر فيشرب هو وندماؤه منه حتى يفرغ الجفنة من الخمر[٢].

ويحلو له منظر غدير صغير من الماء فيسكر على الغدير ويطرب للمنظر الجميل في الليلة المقمرة فيحلف ـ وهو سكران ـ أن يشرب ماء الغدير كله، فيضطر ندماؤه وأصحابه أن يفرّغوا الغدير من الماء ليفي أمير المؤمنين بيمينه[٣].

ولمّا تولى الوليد الخلافة: بعث إلى جماعة من أهله، فقال: أتدرون لِمَ دعوتكم؟

فقالوا: لا.

فقال: ليقل قائلكم.

فقال رجل منهم: أردت يا أمير المؤمنين أن ترينا ما جدّد الله لك من نعمته وإحسانه.

فقال: نعم ولكنّي:

أشهد الله والملائكة الأبـ ـرار والعابدين أهل الصلاح
أنني أشتهي السماع وشرب الكأس والعض للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفا ره يسعى عليّ بالأقداح

ثم قال لهم: قوموا إذا شئتم[٤].

أسمعتم البيان الأول الذي ألقاه أمير المؤمنين على أهله الأدنين منه في أول يوم من خلافته؟

ويسكر هو وندماؤه ويديمون الشرب حتى طلوع الفجر، فيضطرّ الفرّاشون أن يحملوهم على البسط ويلقوهم في دار الضيافة (عدا أمير المؤمنين طبعاً) ويقول أحدهم: فما أفقنا حتى طلعت الشمس[٥] وعسى ألّا يكون قد فاتتهم صلاة الفجر!!

---

(١) مروج الذهب ٣: ٢١٧ بتحقيق وفهرسة يوسف أسعد داغر والأغاني لأبي الفرج ٧: ٦١.٦٠ ط. دار الكتب المصرية.

(٢) الأغاني ٧: ٢٤ ط. دار الكتب المصرية.

(٣) الأغاني ٧: ٤٧.

(٤) الأغاني ٧: ٢٢.

(٥) الأغاني ٧: ٦٧ ـ ٦٨.

ويفرط الخليفة في الشرب حتى تعمى عيناه من فرْط السكر ويفقد وعيه[١].

ويسهر مع جاريته الأثيرة لديه فيسكر وتسكر حتى إذا أذّن المؤذّن لصلاة الفجر أمرها أنْ تتلثّم حتى يحسبها الناس أنها أمير المؤمنين فتخرج من باب مقصورة السهر إلى صلاة الفجر تؤم المسلمين لصلاة الفجر وهي مجنبة وسكرى[٢] إلى غير ذلك من قصص شرب الخلفاء من بني أمية وسكرهم واستهتارهم بحدود الله تعالى وأحكامه، فكل ذلك يجري في قصر الخلافة وبمحضر من أمير المؤمنين بل معه وعليه...

---

(١) الأغاني ٧: ٨٩ ط. دار الكتب.

(٢) راجع العقد الفريد ٥: ٢٠٥ بتحقيق عبد المجيد الترحيني والأغاني ٧: ٤٧ ط. دار الكتب.

الغناء والطرب

وأما الغناء فقد ولع فيه حكام بني أمية وقد كان يحمل إلى قصر الخليفة المغنّون[١] من سائر البلاد فيستمع إليهم الخليفة فيجيزهم من أموال بيت مال المسلمين المبالغ الكبيرة ويستبقي عنده من ينتقي منهم ويصرف منهم من يشاء.

وكان بنو أمية يسمحون لأنفسهم أن يأخذ منهم الطرب مأخذه، وكان السابقون من خلفاء بني أمية يحتفظون للخليفة أمام ندمائه وجلسائه بعض حشمة الخلافة فيحتجبون عن ندمائهم لحظات الطرب العارية. أمّا المتأخرون منهم فقد أباحوا لأنفسهم أن يلعب بهم الطرب كيفما يشاء بمحضر من جلسائهم وندمائهم، حتى أنّ الخليفة كان يرقص ويترنّح للأغنية إذا طابت له ويتجرّد من ملابسه.

يقول الجاحظ في الفروق بين حكّام بني أمية السابقين واللاحقين في التظاهر بالطرب:

أما معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وسليمان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغنّي والتذّ، حتى يتقلب ويمشي ويحرّك كتفيه ويرقص ويتجرّد حتى لا يراه إلا خواص جواريه... وأمّا الباقون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجرّدوا ويحضروا عراةً بحضرة الندماء والمغنين[٢].

ومن مشاهد الطرب القبيحة في حياة بني أمية نستمع إلى القصة التالية يرويها المسعودي عمن حدّثه عن سمير من سُمّار الوليد؛ قال: كنت سميراً للوليد بن يزيد فرأيت ابن عائشة القرشي عنده، وقد قال له غنّني فغنّاه:

إنـي رأيـت صـبـيـحـة الـنـحـر ... حـوراً نـفـيـن عـزيـمـة الـصـبـر
مـثـل الـكـواكـب فـي مـطـالـعـهـا ... عـنـد الـعـشـاء أطـفـن بـالـبـدر

(١) العقد الفريد ٥ : ٢٠٠.

(٢) التاج في أخلاق الملوك للجاحظ بتحقيق أحمد زكي باشا ط. القاهرة١٩١٤.

وخرجت أبغي الأجر محتسباً فرجعت موقوراً من الوزر

فقال الوليد: أحسنت والله يا أميري أعد بحق عبد شمس، فأعاد.

فقال: أحسنت والله أعد بحق أمية فأعاد. فجعل يتخطى من أب إلى أب فيأمر بالإعادة حتى بلغ نفسه.

فقال: أعد بحياتي، فأعاد. فقام إلى ابن عائشة فأكبّ عليه ولم يبق عضواً من أعضائه إلّا قبّله.. (نعفّف القلم عن ذكر هذه الفقرة من القصة) وقال: واطرباه واطرباه ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقي مجرّداً إلى أن أتوه بثياب غيرها[1].

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢١٥ بتحقيق وفهرسة يوسف أسعد داغر.

المجون والخلاعة

وأما عن مجون الخلفاء من بني أمية وخلاعتهم واستهتارهم فحدّث ولا حرج، وما نقرأه في التاريخ لا يكاد أن يصدقه الإنسان لولا أن المؤرخين من كل المذاهب يتفقون على مجمل ما كان يجري في قصر الخلافة الأموية من مجون وخلاعة.

حتى أن معاوية بن أبي سفيان يأخذ عبده إلى مضجع ابنته وهي عارية ويشير إلى عورتها بالعصا[١].

ويموت هشام وتنتقل الخلافة إلى الوليد فيسمع الوليد وهو في نشوة الخلافة الجديدة رنة بكاء ونعي في قصور هشام من بناته ونسائه فيقول:

إنـي سـمـعـت بـلـيـل ورا الـمـصـلّـى بـرنّـه
إذا بـنـات هـشـام يـنـدبـن والـدهـنّ
يـنـدبـن قـرمـاً جـلـيـلاً قـد كـان يـعـضـدهـنّ
أنـا الـمـخـنّـث حـقـاً إن لـم ....[٢]

ومن أقبح ما ينقل بهذا الصدد أن الوليد كان يستمع إلى مغني يغنّي له فأزعجه بعض ندمائه بسؤال قطع عليه نشوته، فأمر بعض الجالسين أن يأتي معه بالعمل القبيح بنفس المجلس، فنفذت أوامر الخليفة حرفياً فيه بمحضر من الندماء والخليفة ينظر ويضحك. ومن لا يصدّق فعليه بمراجعة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي[٣].

ويروي أبو الفرج الأصفهاني الكثير من هذه المخازي عن بني أمية نُعفّف القلم عن ذكرها وكمثل على ذلك راجع الأغاني في قصة الأشعب مع الوليد[٤]، وفي قصة أقبح من

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤٠.

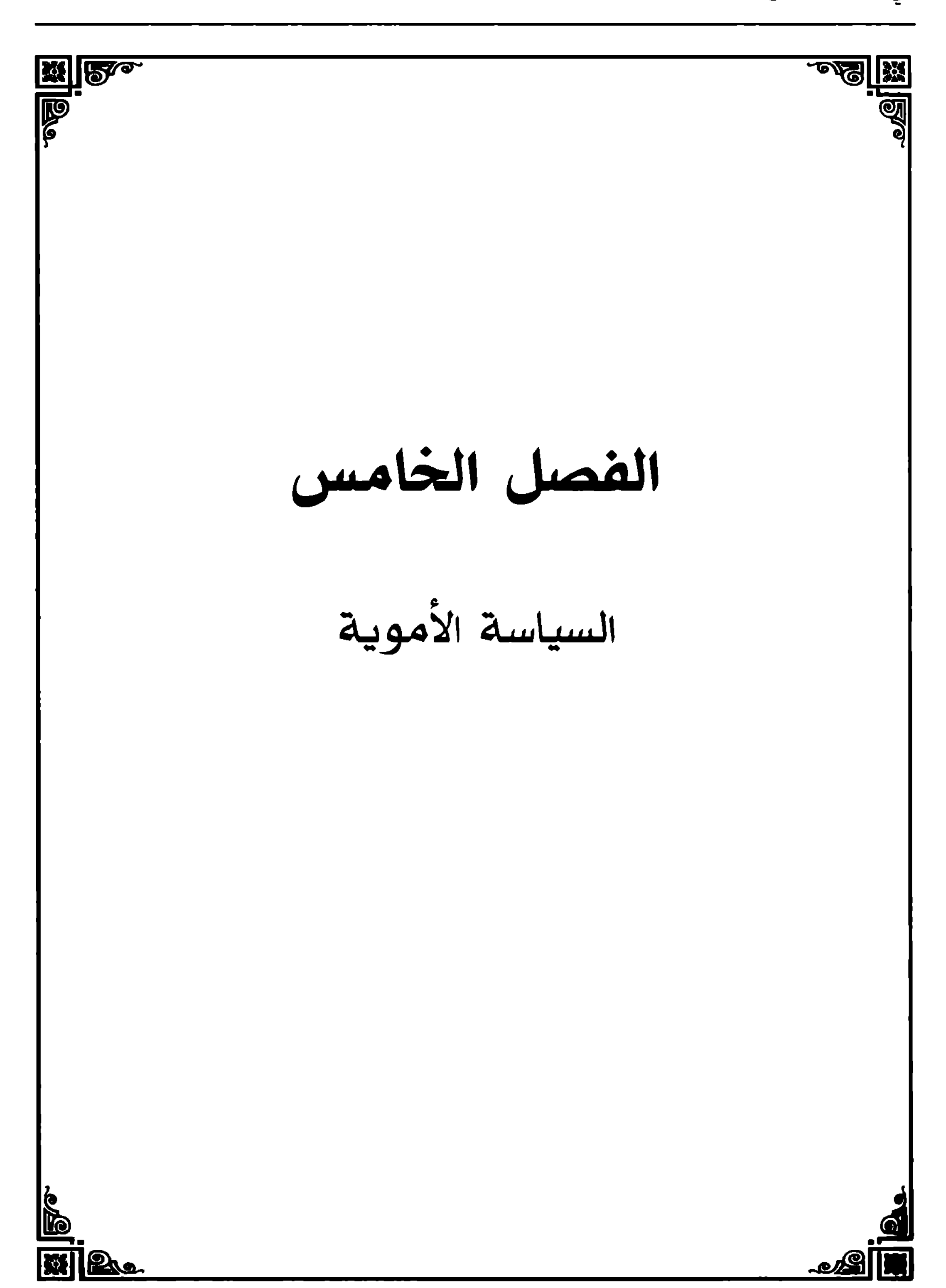
(٢) الأغاني للأصفهاني ٧: ١٧ دار الكتب.

(٣) الأغاني ٧: ٤٧ ط. دار الكتب.

(٤) الأغاني ٧: ٤٧ و٥٩ ط. دار الكتب.

ذلك كله بحيث يستدعي قبحها أبا الفرج في التشكيك بصحتها[١] ننزّه هذه الصفحات عن ذكرها، وكثيرة هي مخازي بني أمية في هذا الباب نعرض عنها صفحاً، ونطوي كشحاً...

(١) الأغاني ٧: ٦٠ ـ ٦١ ط. دار الكتب.



الفصل الخامس

السياسة الأموية

سياسة بني أمية في إذلال المسلمين

سلك حكام بني أمية مسالك عجيبة في إذلال الأمة وتحطيم شخصيتها المعنوية لغرض السيطرة عليها وتمكين قبضتهم منها وتصفية كل حالات المعارضة والتمرّد ضد النظام.

يقول الوليد بن يزيد:

فدع عنك ادكارك آل سُعدى ... فنحن الأكثرون حصىً ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً ... نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذُلاً ... وما نألوهم إلا خبالا[1]

وهذه الأبيات تكشف بدقة عن توجّه بني أمية السياسي في قهر الأمة وإذلالها وفرض نفوذهم وسلطانهم عليها.

ولا تحسب أن هذا التصور المتطرف يخص الوليد بن يزيد من بين حكام بني أمية.. فقد كان جُلّ بني أمية وعمالهم يرون مثل هذا الرأي أو قريباً منه.

وكانوا يعلنون للناس رأيهم هذا من دون تحرّج أو حياء، وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمارسون استرقاق المسلمين وسبي المسلمات المؤمنات واسترقاقهن وعرضهن في الأسواق.

وبُسْر بن أرطأة هو أول من اقترف هذه الجريمة في تاريخ الإسلام. فسبى المؤمنات من همدان المعروفة بولائها لأهل البيت ﷺ وعرضهنّ في الأسواق للبيع، وكان الناس يكشفون عن سيقانهن ليشتروهنّ، كما يصنع تجار الرقيق في أسواق النخاسة والرقيق، كما فعل ذلك بُسْر بن أرطاة عندما أرسله معاوية إلى اليمن بالمسلمات المؤمنات اليمانيات، سباهنّ وأقامهن في الأسواق للبيع.

وقد ذكر إجمال هذا الحديث ابن عبد البر القرطبي في ترجمة بُسر بن أرطاة من كتابه

(١) تاريخ الطبري ٥/٥٤١، تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٨/٢١٧. الكامل في التاريخ ٢/٤٤٣ (ترقيم المكتبة الشاملة). الأخبار الطوال ١/٢٤٨. وقيل إن الشعر وضع على لسان وليد.

(الاستيعاب)، قال ابن عبد البر عن سبي نساء همدان: فكنّ أول مسلمات سُبين في الإسلام[١].

وعندما تمرّد العراق على الحجّاج وهزيمة الحجاج للذين خرجوا عليه من أهل العراق رأى أن أكثر من خرج عليه من الفقهاء والمقاتلة (الجنود) والموالي، ففكّر في أن يفرّق شملهم بتفريقهم في البلاد. يقول ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد: فأقبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم، ففرّقهم وفضّ جمعهم كيف أحب، وصيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها[٢]، كما يصنع تجار الرقيق بالرقيق.

يقول ابن أبي الحديد في أحوال بني أمية:

(وكانوا يسبون ذراري الخوراج من العرب وغيرهم. ولما قتل قريب وزحّاف الخارجيان سبى زياد ذراريهما، فأعطى شقيق بن ثور السدوس إحدى بناتهما وأعطى عبّاد بن حصين الأخرى، وسبيت بنت لعبيدة بن هلال الشكري وبنت لقطري بن الفجاءة المازني، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك واسمها أم سلمة فوطأها بملك اليمين على رأيهم، وسُبي واصل بن عمر القنا واستُرِقّ وسُبي سعيد الصعر الحروري)[٣].

وهكذا كانت سيرة بني أمية في إذلال المسلمين واسترقاقهم واستعبادهم كالمشركين تماماً، وقد أسرفوا في ذلك أيّما إسراف حتى قالوا: إنّ بني أمية كانت تبيع الرجل في دين يلزمه وترى أنه يصير بذلك رقيقاً[٤]، وأفظع من ذلك كله وأبلغ في إذلال المسلمين ما كان من فعل مسلم بن عقبة (وكان يسمّى بمسرف) قائد جيش يزيد بن معاوية إلى المدينة المنورة في وقعة الحرّة المعروفة... عندما احتل المدينة المنورة وأباحها لجيشه، حيث دعا المسلمين إلى بيعة يزيد بن معاوية على دمائهم وأموالهم وأهليهم. وأنهم عبيد ليزيد بن معاوية يقضي في دمائهم وأموالهم وأنفسهم بما شاء[٥]، وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إذلال المسلمين

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ط. ١ سنة ١٣٢٥ هـ ١: ١٥٨١٥٧.

(٢) العقد الفريد ٣: ٣٦٤.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) راجع ما شئت من المراجع التاريخية المعروفة التي أرخت هذه الفترة كالكامل لابن الأثير ٤: ١١٨ ط. ١٣٥٨ هـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٢١٤ ط. ١٣٨٨ هـ وتاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٧ ط. ١٣٩٤ هـ ومروج الذهب للمسعودي ٣: ٧٠ ط. ١٤٠٤.

وإخضاعهم لنزواتهم ورغباتهم وتصفية حالات المعارضة السياسية والعسكرية وتحكيم قبضتهم على مصائر الناس وأقدارهم.

إحياء النزعات القومية الجاهلية:

كان معاوية وعمّاله يحسنون إثارة الفتن فيما بين المسلمين، ويعرفون جيداً مواقع الفتنة والاختلاف فيما بين العرب والقبائل، ويحسنون استخدامها في مواضع الحاجة وكان من أبرع عمّال معاوية في ذلك زياد بن أبيه الذي استطاع أن يخضع قبائل العراق لسلطانه بما أثار بينهم من الخلافات.

وكان معاوية بارعاً ذكياً في هذا لمجال. يعمل بذكاء وفطنة، حاول مرةً أن يثير الخلاف بين الإمام الحسن عليه السلام وابن الزبير في مجلسه، ورغم أن الإمام عليه السلام حاول أن يتلافى ذلك إلاّ أن معاوية أفلح في إثارة أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب في نفس المجلس ضد ابن الزبير وبالعكس فحصل ما أراد الإمام الحسن عليه السلام أن يتجنّبه[١].

وكان بنو أمية ينزعون بشكل واضح إلى النزعة القومية التي قضى عليها الإسلام، ويحاولون إعادة الحواجز التي هدمها الإسلام بين العرب وغيرهم، ولم تكن تطمئن نفوسهم إلى ما أقرّه الإسلام من مساواة العرب بغير العرب واستبدال المقاييس الجاهلية في التفاضل بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢] وقد بدأت هذه النزعة الجاهلية القومية تدخل إلى المجتمع الإسلامي في أيام معاوية، وتتعمق وتتأصّل حتى عادت أصلاً من أصول الحكم في أيام بني أمية.

يقول زياد: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال: إني رأيت هذه الحمراء (يعني: الموالي من غير العرب) قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟

فقال الأحنف: أرى إنّ نفسي لا تطيب، أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركونا وشاركناهم في النسب فظننت أني قد قتلت عنهم وأطرق.

---

(١) راجع العقد الفريد ٤: ٩٩.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

فقال سمرة بن جندب: اجعلها إليّ أيُها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه. فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر(١).

ومن عجيب أمر سمرة بن جندب أنه لا يكتفي بتشجيع معاوية على إبادة الموالي من المسلمين فقط، وإنما يتبرع لمعاوية ويتطوع له بهذه المهمة وقد فعل الحجاج بن يوسف الثقفي بالمسلمين من غير العرب أقبح ما يمكن أن يعمله حاكم بالمسلمين.

يقول ابن عبد ربه:

«إن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود، ولقي ما لقي من قرّاء أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء، والمقاتلة والموالي ثم أهل البصرة، فلمّا علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أحبّ أن يسقط ديوانهم، ويفرّق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم ففرّقهم، وفضّ جمعهم، كيف أحبّ، وصيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها، وكان الذي تولّى ذلك رجل من بني سعد بن عجل بن لجيم يقال له خرّاش بن جابر.

وقال شاعرهم:

وأنت من نقش العجلي راحته وفرَّ شيخك حتى عاذ بالحكم(٢)

وهكذا أسقط الحجاج أسماء هؤلاء المسلمين من ديوان عطاء المسلمين، وفرقهم في القرى البعيدة، ونقش على أيديهم بأسماء قراهم، كما ينقش بالكي أسماء الرقيق على أيديهم.

وقد أثّرت هذه النزعة الأموية تأثيراً قبيحاً في بعض أوساط المسلمين العرب وأعادت إليهم النزعة الجاهلية التي استأصلها الإسلام من نفوسهم، وأثارت في نفوسهم الحساسية تجاه المسلمين من غير العرب واحتقارهم، حتى أصبح بعضهم لا يكتم احتقاره لغير العرب من المسلمين (الموالي).

---

(١) العقد الفريد ٣: ٣٦١ تحقيق عبدالمجيد الترحيني١٤٠٤هـ

(٢) العقد الفريد ٣: ٣٦٤ بتحقيق الترحيني.

يقول ابن عبد ربه: كان نافع بن جبير إذا مرّت به جنازة قال: مَنْ هذا؟ فإذا قالوا: قرشيّ، قال: واقوماه، وإذا قالوا: عربي، قال: وابلدتاه، وإذا قالوا: مولى، قال: هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء[1].

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلى ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى[2].

ومن طريف ما ينقله أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي عن العصبية القومية التي أثارها بنو أمية في نفوس المسلمين القصة التالية:

قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى، وكان جائراً شديد العصبية: من كان فقيه البصرة؟

قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان، قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح أو مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. فقال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي.

فتغيّر لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فأربد وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وهمام بن منبه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعداً، ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربّداً واسودّ اسوداداً، حتى خفته ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فازداد تغيّظاً وحنقاً، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران: قال: فما كان؟ قلت: مولى. قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ فوالله لولا خوفي لقلت: الحكم بن عيينة، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: الله أكبر وسكن جأشه[3].

وقد بلغ من احتقار بني أمية للموالي المسلمين من غير العرب أن كانوا يضعون عليهم الجزية كما يضعون الجزية على غير المسلمين من أهل الكتاب، وكانوا يستخدمونهم في

---

(١) المصدر نفسه ٣: ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٦١.

(٣) العقد الفريد ٣: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

الحروب من غير عطاء ورزق... حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حيث كتب إلى الجرّاح عامله على خراسان أن يضع الجزية عن المسلمين.

يقول ابن الأثير في أحداث سنة مائة أيام عمر بن عبد العزيز:

قال رجل من الموالي يكنّى أبا الصيّد لعمر بن عبد العزيز: (يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ورزق ومثلهم قد أسلموا من الذمة يأخذون بالخراج)[١].

وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إعادة النزعة القومية الجاهلية إلى حياة المسلمين من جديد كأقوى ما يكون، وأثار الحساسية الشديدة بين العرب وغيرهم (في المجتمع الإسلامي الجديد الذي احتضن المسلمين جميعاً من كل بلد وقوم في جوٍّ عامر بالأخوّة والرحمة). وقد أضرّت هذه النزعة الأموية ضرراً بليغاً بالمجتمع الإسلامي، وتركت في حياة المسلمين آثاراً سيئةً يعاني منها المجتمع الإسلامي حتى اليوم الحاضر.

سياسة بني أمية في الأموال:

كان من رأي معاوية أنّ المال مال الله، وهو خليفة الله ومن حقه أنْ يصنع في مال الله ما يشاء دون حساب وكتاب، وهو موضوع الخلاف التاريخي المعروف بينه وبين الصحابي الجليل أبي ذر رحمه الله. فقد كان أبو ذر يرى في إسراف معاوية في بيت المال ما كان يخالف سنة رسول الله ﷺ فينكر ذلك على معاوية، وقد كان معاوية يعلن رأيه هذا إعلاناً ويُسمع الناس ما يراه في المال.

يقول المسعودي:

قال معاوية يوماً وعنده صعصعة (بن صوحان)، وكان قدم عليه بكتاب عليّ وعنده وجوه الناس: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي.

فقال صعصعة:

تُمنّيك نفسك ما لا يكون   جهلاً معاوي لا تأثم[٢]

وكان معاوية يمنح لنفسه حقاً أن يستصفي ما يشاء من أموال الناس.

---

(١) الكامل في التأريخ لابن الأثير ٥ : ٥١ دار الصادر، ودار بيروت ١٣٨٥ هـ.

(٢) مروج الذهب ٣: ٤٣ بفهارس يوسف أسعد داغر.

يقول اليعقوبي:

واستصفى ـ أي معاوية ـ أموال الناس فأخذها لنفسه[١].

ويقول اليعقوبي في شرح خراج بلاد المسلمين في عهد معاوية: (أخرج معاوية من كل بلد ما كانت ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة وجعله صافية لنفسه، فأقطعه جماعة من أهل بيته)[٢]. وكان معاوية يهب خراج المسلمين وولاياتهم (طُعمةً) لمن يشاء من أقاربه وبطانته الذي أعانوه في الاستيلاء على الحكم.

وقد جاء إليه سعيد بن عثمان بن عفان بعد أن أعلن معاوية عن بيعة يزيد وليّاً للعهد يعاتبه في ذلك فأعطاه معاوية خراسان (طعمةً) له.

يقول ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ):

إنّ سعيداً قال لمعاوية: (فإذا أبيت فأعطني مما أعطاك الله، فقال معاوية: لك خراسان. قال: سعيد: وما خراسان؟ قال: إنّها لك طُعمة وصلة رحم)، فخرج راضياً وهو يقول:

فقلت جزاه الله خيراً بما وصل ذكرت أمير المؤمنين وفضله
فجوزي أمير المؤمنين بما قال[٣] وقال خراسان لك اليوم طُعمة

وقد يستغرب أنْ يسمعوا أنّ خليفة رسول الله يهب ولاية من ولايات المسلمين طُعمة لبعض أقاربه ليرضيه ويكسبه لمبايعة ولي عهده (يزيد)، ولكنّه الأمر الواقع الذين حدث في تاريخ الخلافة في أيام معاوية، ثم استمرّ من بعد سُنّة الخلفاء من بني أمية وبني العباس.

وقد وهب معاوية خراج مصر والمغرب جميعاً طعمة لعمرو بن العاص، لا يراجعه في أمره شيئاً.

وقد اشترط عمرو ذلك على معاوية، يقول اليعقوبي: (وكانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص، طعمة شرطها له يوم بايع، ونسخة الشرط: (هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص مصر، أعطاه أهلها فهم له حياته، ولا تنقض طاعته شرطا)... فقال له

(١) اليعقوبي ٢: ٢١٩ ط. النجف ١٣٩٤ هـ.

(٢) اليعقوبي ٢: ٢٢٠.

(٣) الإمامة ولاسياسة لابن قتيبة: ١٩١ ـ ١٩٢. الدولة الأموية للصلابي ٢/ ٨٩. قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ١٤٤. وعمر بن عبد العزيز للصلابي ٢/ ٩٢. (الترقيم موافق لبرنامج المكتبة الشاملة).

وردان: وما عمرك أيها الشيخ إلا كظماء حمار، هلا شرطت لعقبك من بعدك؟ فاستقال معاوية فلم يقله)[١]. وكان خراج مصر ثلاثة ملايين ديناراً فيما يقدّره اليعقوبي في التاريخ[٢].

مقارنة بسياسة الإمام في الأموال:

إن معاوية وبني أمية كانوا يتصرفون في بيت مال المسلمين وخراج المسلمين على أنه مال الله، ولهم مطلق الحق في التصرّف فيه تبذيراً وإسرافاً، وعلى أن يعطوه لهذا ولذاك طُعمة وترضيةً وأيّة طُعمة؟ فإن ولاية مصر كلها طعمة لعمرو ما دام حياً بما في ذلك أهل مصر وخراج مصر. وكم يجد الإنسان الفارق كبيراً، بين السياسة الأموية هذه في المال وبين سياسة الإمام ورأي الإمام في المال ومحاسبة ولاته وعمّاله على البلاد.

ونحن نعرض هنا نموذجين من رسائل الإمام إلى عمّاله في محاسبتهم على تصرفاتهم المالية لنلمس هذا الفرق الكبير بين هاتين السياستين اللتين عايشتهما الأمة الإسلامية في فترة قصيرة من تاريخها.

١ ـ كتاب الإمام إلى مصقلة بن هبيرة:

يقول اليعقوبي:

إنّ الإمام كتب إلى مصقلة بن هبيرة، وقد بلغه أنه يفرّق ويهب أموال (أردَشِير خُرَّه)[٣] وكان عليها: (**أمّا بعد فقد بلغني عنك أمر أكبرت أنْ أصدّقه: أنّك تقسم فيء المسلمين في قومك، ومن اعتراك من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما تقسّم الجوز، فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لأفتشنّ عن ذلك تفتيشاً شافياً، فإنْ وجدته حقاً لتجدن بنفسك عليّ هواناً فلا تكونن من الخاسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً**)[٤].

فكتب مصقلة إليه: (أمّا بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، فليسأل فإنْ كان حقّاً ليعجّل

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٩ ط. النجف ١٣٩٤ هـ.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بضم الخاء وتشديد الراء، اسم مركب معناه بهاء أردشير، وأردشير ملك من ملوك الفرس، وهي كورة من كور فارس، كان عضد الدولة ابن بويه يكثر الخروج إليها للتنزه، فسمّاها فيروز آباد ومعناه: أتم دولته.

(٤) اليعقوبي ٢: ١٨٨.

عَزلي بعد نَكالي، فكل مملوك لي حر وَعليّ آثام ربيعة ومضر إنْ كنت رزئت من عملي ديناراً ولا درهماً ولا غيرهما منذ ولّيته).

٢ ـ كتاب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري:

وكتب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قومٍ من أهلها فمضى إليها، (**أمّا بعد: يا بن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاكَ إلى مأدبةٍ فأسرعت إليها: تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان وما ظننت أنك تُجيب إلى طعام قومٍ عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو. فانظُر إلى ما تقْضِمه مِنْ هذا المقضم فما اشتبه عليك فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فَنَلْ منه، ألا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنوره. ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طُعْمه بقرصيه ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكنْ أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّةٍ وسداد**)[١].

استخدام المال للأغراض السياسية:

وكان بنو أمية يستخدمون بيت مال المسلمين لتحقيق أهدافهم السياسية بشكل واسع ومن دون حدود، وكان معاوية يبذل المال بذلاً لكسب ودّ الناس ولجذبهم واستقطابهم من حوله، ولئن كان معاوية يعلم أن المال لا يصنع الحبّ والولاء فقد كان يكفي معاوية أنه يستطيع بهذا البذل أن يسترضي جملة من وجوه الساخطين عليه ويسكت جملة من زعماء المعارضة ويشتري ضمائرهم، وهو في ذلك صاحب نظرية معروفة.

فقد روي أن يزيد بن معاوية يوم بويع له بالخلافة من بعد أبيه في حياة معاوية تسابق الشعراء والوجهاء لتقديم آيات الولاء له ولأبيه، وهو يعلم أن كلما أسمعه القوم يومذاك من الملق، وليس فيه شيء من الصدق...

فقال لأبيه: (يا أمير المؤمنين، ما ندري أنخدع الناس أم يخدعوننا؟ فقال له معاوية: كل من أردت خديعته فتخادع لك، حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته)[٢].

ويقول ابن الأثير:

وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعديّان والجون بن قتادة العيشمي

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكامل للمبرد: ٣٠٥ مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ.

والحنات بن يزيد إلى معاوية بن أبي سفيان فأعطى كل رجل منهم مائة ألف، وأعطى الحنات سبعين ألفاً.

فلما كانوا في الطريق ذكر كل جائزته، فرجع الحنات إلى معاوية:

فقال: فضحتني في بني تميم، أما حَسَبي صحيح أولست ذا سن؟ ألست مطاعاً في عشيرتي؟

قال: بلى: قال: فما بالك خسست بي دون القوم؟ - وكان حضر الجمل مع عائشة، وكان الأحنف وجارية يريدان عليّاً -

قال: إني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان، وكان عثمانياً.

فقال: وأنا فاشتري مني ديني! فأمر له بإتمام جائزته ثم مات الحنات فحبسها معاوية[1].

وكان معاوية قد عزم أن يعزل المغيرة من الكوفة، ويستعمل مكانه سعيد بن العاص، فعلم المغيرة بذلك فشخص إلى معاوية ورغّبه في البيعة ليزيد من بعده.

فقال له معاوية: ومن لي بهذا؟ فقال: أنا أكفيك الكوفة وزياد يكفيك أهل البصرة.

فقال له معاوية: ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به إلى ذلك.

يقول ابن الأثير: فرجع إلى أصحابه، فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رِجْل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقاً لا يُرتق أبداً.

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية، أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم عشرة... وأعطاهم ثلاثين ألفاً. وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية، فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً. قال: لقد هان عليهم دينهم[2].

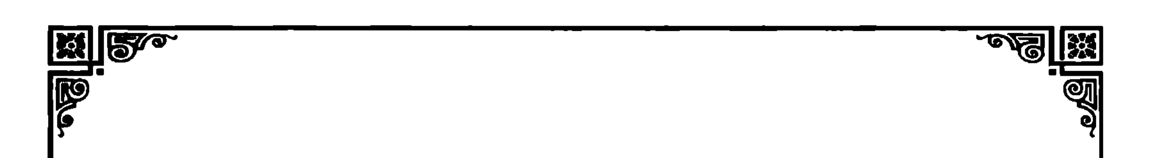
وفي رواية أخرى أرسل معهم ابنه عروة، فقال معاوية لعروة سرّاً: بِكَم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً[3].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٦٨ ط. بيروت ١٣٨٥ هـ.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٥٠٤.

(٣) المصدر نفسه ٣: ٥٠٥.



الفصل السادس

انتحال الحديث على رسول الله ﷺ

وضع الحديث

من أخطر ما صنعه معاوية في أيام حكمه وجرى عليه من بعده حكام بني أمية انتحال الحديث على رسول الله ﷺ، على لسان بعض السذج الضعفاء من الذين رأوا رسول الله ﷺ وسمعوا حديثه... من الذين استغلّهم معاوية استغلالاً سيئاً للوصول إلى غاياته السياسية.

وقد جرّأ معاوية الحكّام والعمّال وذوي النفوذ من بعده من الذين توالوا على الحكم على تزوير الحديث على رسول الله ﷺ، وقد شاع وضع الحديث على رسول الله ﷺ في العصر الأموي والعصر العباسي حتى أصبح من الصعب تمييز الصحيح من حديث رسول الله ﷺ من الحديث الموضوع.

يقول الشيخ أبو جعفر الإسكافي: إنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه منهم: أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير[(١)].

وقال ابن عرفة المعروف بنفطويه: (إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم)[(٢)].

وكتب معاوية تعميماً إلى عمّاله وولاته على البلدان:

(انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته).

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِلات والكساء والجباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٦٣.

(٢) النصائح الكافية: ٧٤. شرح نهج البلاغة ١١: ٤٦.

مِصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه فلبثوا ذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل ناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر)[١].

أبو هريرة

وأبرز هؤلاء الصحابة الذين استطاع معاوية أن يستغلّهم لأهدافه السياسية الصحابي المكثر أبو هريرة. فقد استغلّ معاوية سذاجته، وضعف شخصيته، فأدخل على يده من الموضوعات على حديث رسول الله ﷺ ما شاءت له أهواؤه وأطماعه السياسية.

وأغدق عليه معاوية من المال والمناصب ما أشبع به حاجة أبي هريرة إلى المال والسلطان والدنيا. قال أبو جعفر الإسكافي: روى الأعمش، قال: لمّا قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة[٢] جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً. وقال:

يا أهل العراق أتزعمون إنّي أكذب على الله ورسوله، وأحرق نفسي بالنار. والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبي حرماً وإن حرمي بالمدينة ما بين عَيْر إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها، فلمّا بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة»[٣].

ولئن كان أبو هريرة قد باع دينه لمعاوية بثمن بخس من الدنيا، فيجلس في مسجد الكوفة

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١ : ٤٤، ٤٥. والغدير ١١/ ٢٨. ونقل الكتاب أحمد أمين في فجر الإسلام ٢٧٥.

(٢) هو العام الذي نزل فيه الحسن عليه السلام عن الحكم إلى معاوية حقنا لدماء المسلمين سنة ٤١ هوسموه عام الجماعة.

(٣) شرح النهج ٤ : ٦٧. وأضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية ٣١٦. وقاموس الرجال ١١/ ٥٥٥. وشيخ المضيرة ٢٢٧.

ليحدّث الناس في ذمّ عليّ عليه السلام ليرضي بذلك معاوية، فلن تخلو الأرض من رجال أشداء من عامة الناس يصدعون بالحق يصكّون به جبهة أبي هريرة، ولا يعرف التاريخ لهم اسماً ولا رسماً.

روى الثقفي في الغارات قال:

لما دخل معاوية الكوفة دخل أبو هريرة المسجد، فكان يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ، وقال أبو القاسم، وقال خليلي، فجاء شاب من الانصار يتخطى الناس حتى دنا منه، فقال يا أبا هريرة، حديث أسألك عنه، فان كنت سمعته من النبي ﷺ فحدثنيه.

أنشدك بالله سمعت النبي ﷺ يقول لعلي: من كنت مولاه، فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه؟

قال أبو هريرة: نعم، والذي لا إله إلا هو لسمعته من النبي ﷺ يقول لعلي: من كنت مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه.

فقال له الفتى: لقد والله واليت عدوه، وعاديت وليه.

فتناول بعض الناس الشاب بالحصى، وخرج أبو هريرة، فلم يعد إلى المسجد، حتى خرج من الكوفة[1].

سمرة بن جندب:

ورُوي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[2]، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾[3].

... فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل وروى ذلك[4].

---

(١) الغارات للثقفي ٢/ ٦٦٠. ورواه بنفس المضمون ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٧٣.

الغايات السياسية لوضع الحديث عند بني أمية

شجّع معاوية انتحال الحديث على رسول الله ﷺ لتمرير مجموعة من الأهداف والغايات السياسية أهمها:

١ ـ محاربة أمير المؤمنين عليه السلام والتشهير به في الأوساط الإسلامية:

وقد مرّ عليك طرف من موضوعات أبي هريرة وسمرة بن جندب في ذلك، وكان عروة بن الزبير من أولئك الذين استغلّهم معاوية استغلالاً سيئاً للنيل من الإمام عليه السلام.

روى عبد الرزاق عن معمّر: قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي عليه السلام ـ أي في النيل منه ـ فسألته عنهما يوماً. فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما؟ والله أعلم بهما. إنّي لأتّهمهما في بني هاشم[١] (أي في عداء بني هاشم).

وشاعت هذه الأحاديث حتى أن بعضها قد شقّ طريقه إلى كتاب صحيح البخاري.

روى البخاري عن عمرو بن العاص قال:

سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سرٍّ يقول:

إن آل أبي... ليسوا بأوليائي، وإنما وليّي الله وصالح المؤمنين[٢].

والرواية في الأصل: آل أبي طالب، إلّا أن المحدثين أسقطوا كلمة طالب، وأوردوا الحديث بهذه الصورة. قال أبو بكر بن العرب: كان في أصل حديث عمرو بن العاص إنّ آل أبي طالب، فغيّر إلى (آل أبي فلان) وتعقّبه بعض الناس، وبالغ في التشنيع عليه ونسبه إلى التحامل على آل أبي طالب[٣] وفي الرواية أكثر من آفة، ولكن البخاري يرويها مع كل ذلك، فإن من رواتها (قيس بن أبي حازم) فقد نسب إليه المناكير، وكان يحمل على الإمام علي عليه السلام وقد تجنب الرواية عنه كثير من القدماء الكوفيين لفساد مذهبه، والصحابي في سند هذه الرواية

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤.

(٢) صحيح البخاري بهامش فتح الباري ١٠: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٣) فتح الباري ١٠: ٣٥٢.

هو عمرو بن العاص، وقد أعلن الحرب على أمير المؤمنين عليه السلام في صفين، وشهر سيفه في وجهه، وتسبب في قتال الآلاف من المسلمين، إلاّ أن ابن حجر يقول مع ذلك: (وأما عمرو بن العاص، وإن كان بينه وبين علي ما كان فحاشاه ان يتهم)[١].. ولست أدري أين هذا التحاشي عنه وقد أراق دماء المسلمين في حرب صفين؟.. وهل بعد هذه الجريمة جريمة ليتحاشى ابن حجر عن اتهامه بالوضع.

وفي هذا الحديث براءة من آل أبي طالب وفيهم علي عليه السلام وجعفر رضي الله عنه وقد كانا من أخص الناس برسول الله صلى الله عليه وآله كما يقول ابن حجر.. ولكن مع ذلك لا يتحاشى البخاري من رواية هذه الرواية.

وكان من أولئك الذين استغلّهم معاوية في النيل من الإمام المغيرة بن شعبة.

يقول أبو جعفر الإسكافي: وكان المغيرة بن شعبة صاحب دنيا يبيع دينه بالقليل النزر منها، يرضي معاوية بذكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وموضوعات معاوية خاصة وبني أمية عامة في الإمام كثيرة لا يمكن إحصاؤها واستعراضها في هذا الاستطراد.

٢ ـ الإشادة بذكر معاوية:

وتسابق هواة الدنيا والطامعون في دنيا بني أمية إلى كسب ودّ معاوية بوضع الأحاديث في فضائل معاوية، وكثرت الأحاديث في فضائل معاوية، وقد نقل الشيخ عبد الحسين الأميني رحمه الله في المجلد العاشر من الغدير ٣٧٤ ـ ٣٨٣ جملة من الأحاديث الموضوعة في فضل معاوية، ونقدها من حيث السند ومن حيث الدلالة.

وأكثر من روى هذه الأحاديث شاميون ضعفاء عند أهل الجرح والتعديل ولنذكر جملة من هذه الأحاديث لنلمس عن قرب الجهود الكبيرة التي بذلها معاوية في تزوير الحديث ووضعه للأهداف السياسية، والأثر السلبي الذي تركه انتحال الحديث على الحديث النبوي، المصدر الثاني للتشريع في الإسلام.

---

(١) فتح الباري ١٧/١١٨. (الترقيم موافق لبرنامج المكتبة الشاملة).

(٢) شرح النهج ٤: ٧٠.

روى الترمذي في السنن عن عبد الرحمن بن أبي عمير عن النبي ﷺ أنه قال لمعاوية: اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به[١].

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد[٢]، وقد ناقش العلّامة الأميني الحديث فقال: قال أبو عمرو في الاستيعاب: عبد الرحمن حديثه مضطرب لا يثبت في الصحابة وهو شاميّ لا تثبت أحاديثه ولا تصح صحبته[٣]. وقال: رجال الإسناد كلهم شاميون، وهم:

(١) أبو سهر الدمشقي.

(٢) سعيد بن عبد العزيز الدمشقي.

(٣) ربيعة بن يزيد الدمشقي.

(٤) ابن أبي عميرة الدمشقي[٤].

وقال الواقدي: إنّ معاوية كتب كتاباً، وجمع أهل الشام فقرأه عليهم وفيه: (هذا كتاب كتبه أمير المؤمنين معاوية صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً، وكان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى لـه من أهله وزيراً وكاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد ﷺ، وأنا أكتبه وهو لا يعلم ما أكتب فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه، فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا أمير المؤمنين)[٥].

وعن أنس مرفوعاً: هبط عليّ جبرائيل ومعه قلم من ذهب إبريز، فقال: إن العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك حبيبي قد أهديت هذا القلم من فوق عرشي إلى معاوية بن أبي سفيان.... الخ.

رواه ابن عساكر باختصار، ذكره السيوطي في الموضوعات.

وروي أن النبي ﷺ استشار جبرائيل في أن يستكتب معاوية. فقال: استكتبه فإنه أمين. ذكره السيوطي في الموضوعات[٦].

---

(١) سنن الترمذي كتاب المناقب باب مناقب معاوية بن أبي سفيان ٥: ٦٧ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٢) تاريخ بغداد ١: ٢٠٨.

(٣) نقلاً عن الاستيعاب ٢: ٣٩٥.

(٤) الغدير ١٠: ٣٧٦.

(٥) شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ٣٦١ ط. ١ بمصر نقلاً عن الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام: ٦٥.

(٦) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ١: ٤١٤ ط. ٢سنة ١٣٩٥هـ.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبرائيل ومعاوية. ذكره السيوطي في الموضوعات[١].

وروي أن جبرائيل جاء إلى رسول الله ﷺ وعنده معاوية يكتب، فقال: يا محمد إن كاتبك هذا لأمين. ذكره السيوطي في الموضوعات[٢].

ورُوي أن جبرائيل أتى النبي فقال: يا محمد اقرأ معاوية السلام استوصِ به خيراً، فإنّه أمين الله على كتابه ووحيه، ونعم الأمين هو.

ذكره السيوطي في الموضوعات[٣].

وعن أبي هريرة: أن النبي ناول معاوية سهماً، وقال: خذ هذا السهم حتى تلقاني به في الجنة. وورد هذا المضمون بطرق وصيغ مختلفة ذكرها السيوطي كلها في الموضوعات[٤].

وروى أيضاً: أن النبي ﷺ دفع إلى معاوية سفرجلة. وقال: القني بها في الجنة. وورد بطرق وصيغ مختلفة ذكرها السيوطي كلها في الموضوعات[٥].

وحدّث يعيش بن الجهم، قال: كنت عند مالك بن أنس، فجاءه رسول أمير المؤمنين أن لا يحدّث بحديث السفرجلة فقرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾[٦]، ثم قال: لأحدّثن به الساعة. ذكره السيوطي في الموضوعات. وعن حذيفة مرفوعاً: يُبعث معاوية يوم القيامة وعليه رداء من نور الإيمان.

ذكره السيوطي في الموضوعات[٧].

وعن أنس مرفوعاً: لا أفتقد أحداً من أصحابي غير معاوية بن أبي سفيان، لا أراه ثمانين سنة ثم يقبل على ناقة من المسك الأذفر حشوها من رحمة الله قوائمها من الزبرجد،

---

(١) المصدر نفسه ١: ٤١٥.

(٢) المصدر نفسه ١: ٤١٩.

(٣) المصدر نفسه ١: ٤١٩.

(٤) اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٥) المصدر نفسه ١: ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٧) اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤٢٣.

فأقول: معاوية!! فيقول: لبيك، فأقول: أين كنت من ثمانين عاماً؟ فيقول: في روضة تحت عرش ربي يناجيني وأناجيه، فيقول: هذا عوض ما كنت تُشتم في الدنيا ...[١].

والحديث طويل ذو شجون فيما اقترفه معاوية من الجرائم على حديث رسول الله ﷺ عن عمد وقصد.

ولم يصح عند البخاري حديث واحد من هذه الأحاديث فقد خصّه في كتابه (الصحيح) بعنوان باب ذكر معاوية ولم يعنونه بعنوان مناقب معاوية، ولم يذكر له منقبة[٢].

وقال إسحاق بن راهويه: لا يصح في فضل معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ شيء[٣].

٣ ـ موضوعات في فضل الشام:

كان معاوية يعد ويخطط لإعطاء الشام مركز حكمه وسلطانه قدسيةً واحتراماً خاصّاً في الأوساط الإسلامية وكان يحاول أن ينقل القدسية والمركزية من الحرمين الشريفين إلى الشام.

وروى الواقدي: أن معاوية لمّا عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام سنة ٤١ هـ خطب فقال: (أيّها الناس إن رسول الله قال: إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة فإن فيها الأبدال. وقد أخبرتكم، فالعنوا أبا تراب)[٤].

وبعد تصريح معاوية هذا كثر الوضع في الأبدال، وقد نقل جملة منها ملا علي القارئ في الموضوعات منها: (الأبدال من الأولياء).

وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً: (الأبدال في هذه الأمة ثلاثون منهم إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً)[٥]، وقد عدّه ملا علي القارئ من الموضوعات[٦].

---

(١) المصدر نفسه ١: ٤٢٤.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٢٤٩ ط. سنة ١٢٨٦ هـ.

(٣) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القارئ: ٤٧٧ تحقيق محمد الصباغ.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ٣٦١ ط. ١ بمصر، عن كتاب: الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام: ٩٤.

(٥) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٣٢٢.

(٦) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القارئ: ٧٧.٧٦.

ومنها: (الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يُسقي بهم الغيث ويُنتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب)[١].

ومنها: (الأبدال في أهل الشام بهم ينصرون وبهم يرزقون) عن عون بن مالك.

ومن كثير من هذه الروايات تفوح رائحة الشام، والتي تستوقف الباحث طويلاً، وتشككه في صحتها سنداً ودلالة.

٤ ـ ترويض الأمة للطاعة:

لم يشفع لمعاوية جلال السلطان وهيبة الخلافة في نسيان ماضيه، وما اكتنف حياته من جرائم وفي مقدمتها صفّين، ومحاربة الإمامين علي بن أبي طالب والحسن عليهما السلام.

ورغم إعلان الإمام الحسن عليه السلام الهدنة ومتاركة الحرب مع معاوية بموجب شروط تنكّر لها فيما بعد، ورغم انفراده بالحكم والسلطان في الساحة الإسلامية بعد مهادنة الإمام الحسن عليه السلام لـه، فقد ظل حكم معاوية وولايته من الناحية الشرعية موضع كثير من الريب والتساؤل، ولا سيما لدى أهل العراق والحجاز.

ولذلك عمد معاوية، ومن بعده ممن جاء من حكّام بني أمية إلى العمل على ترويض الأمة لطاعة الحكّام من بني أمية في الشام، والصبر على أذاهم وظلمهم وعدوانهم.

قال العجّاج الراجز: قال لي أبو هريرة:

ممّن أنت؟ قلت: من أهل العراق.

قال: يوشك أن يأتيك بقعان الشام فيأخذوا صدقتك، فإذا أتوك فتلقّهم بها، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخلّ عنهم وعنها، وإيّاك أن تسبّهم فإنّك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك، وإنْ صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة[٢].

وعن زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّكم سترون بعدي أَثَرَةً وأموراً تنكرونها». قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «أدّوا إليهم حقهم وسلوا الله حقّكم»[٣].

---

(١) منتخب كنز العمال بهامش المسند ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢، وقد أفرد جماعة موضوع الأبدال برسائل مستقلة منهم السخاوي له رسالة سمّاها (نظم اللآل) والسيوطي ألف كتاباً سمّاه (القول الدال) وغيرهم.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري: ٥٧٢.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٨١ كتاب الفتن ط. مصر ١٢٨٦ هـ

وهذا أقصى ما يطلبه الحكّام الظلمة.

وعن جنادة بن أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا: أصلحك الله. حدّثنا بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي ﷺ. قال: دعانا النبي ﷺ فبايعنا فقال فيما أخذ علينا إنْ بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلّا أنْ تروا كفراً بوّاحاً عندك من الله فيه برهان[1].

والاستثناء الوارد في الرواية يستوقف الإنسان طويلاً، إنّ الذي يعرف روح الإسلام وأصوله في الحكم، وخطه الثوري في مواجهة الحكّام المنحرفين يكاد يطمئن أنّ هذه الرواية أقرب إلى سياسة بني أمية منه إلى حديث رسول الله ﷺ.

فهو ينصح ـ أو يأمر ـ بالسكوت عن ظلم الحكام وفجورهم وإجهارهم بالمنكرات والخمر والزنى والقمار وإراقة دماء المسلمين في غير حق، إلاّ أن يكون كفراً بوّاحا، وليس شيء من هذه المنكرات من الكفر البواح.

ويستوقفنا في سند هذا الحديث جنادة بن أمية الذي يروي الحديث عن عبادة بن الصامت فهو كان والياً لمعاوية على البحرين وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام[2].. عامل من عمال معاوية، ومن أهل الشام، ويروي عن رسول الله وجوب الطاعة للحكام على كل حال إلاّ أن يروا كفراً بوّاحاً.

ولست أدري أين تقع هذه الرواية التي يرويها جنادة بن أمية (والي معاوية على البحرين) عن عبادة بن الصامت، عن رسول الله ﷺ، ويرويهما عنه البخاري في صحيحه عما يرويه ابن عساكر في تاريخ دمشق من أن عبادة بن الصامت كان يتصدى في الشام للقطارة التي كانت تحمل الخمر لمعاوية في قصره، فيبقرها بشفرة يأخذها من السوق، قربة قربة، ثم يغدو عليه أبو هريرة فينصحه أن يكف عن أذى معاوية، فيقول إنه عهد بين الأنصار وبين رسول الله ﷺ ألا يكفوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النشاط والكسل.

وإن شئت فاقرأ الرواية التي يرويها ابن عساكر في تاريخ دمشق:

عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه أن عبادة بن الصامت مرت عليه قطارة وهو

(١) المصدر السابق.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢: ١١٦ دار المعارف بحيدر آباد ١٣٢٥.

بالشام تحمل الخمر، فقال: ما هذه أزيت؟ قيل: لا بل خمر، تباع لفلان فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها رواية إلا بقرها وأبو هريرة إذ ذاك بالشام فأرسل فلان إلى أبي هريرة فقال ألا تمسك عنا أخاك عبادة. أما بالغدوات فيغدو إلى السوق، فيفسد على أهل الذمّة متاجرهم. وأمّا بالعشي فيقعد بالمسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبنا. فأمسك عنا أخاك. فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة، فقال يا عبادة، ما لك ولمعاوية، ذره وما حمل، فإن الله يقول: تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم).

قال: يا أبا هريرة، لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ بايعناه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف، وأن تقول في الله، ولا تأخذنا في الله لومة لائم. وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وازواجنا وأهلنا ولنا الجنة مما بايع عليه رسول الله ﷺ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه فلم يكلمه أبو هريرة بشيء.

فكتب فلان إلى معاوية بن عفان أن عبادة بن الصامت قد أفسد على الشام وأهله فإما أن تكف اليك عبادة وإما أخلي بينه وبين الشام. فكتب إليه أن رحّل عبادة حتى ترجعه إلى داره من المدينة. فبعث بعبادة حتى قدم المدينة فدخل على عثمان في الدار وليس في الدار غير رجل من السابقين أو من التابعين قد أدرك القوم فلم يفجأ عثمان به الا وهو قاعد في جانب الدار فالتفت إليه فقال يا عبادة ما لنا ولك فقام عبادة بين ظهراني الناس فقال سمعت رسول الله ﷺ أبا القاسم محمداً يقول إنه سيلي أموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فلا طاعة لمن عصى فلا تضلوا بربكم[(١)].

فيا ترى أين تقع رواية جنادة بن أمية عن عبادة بن الصامت التي يرويها البخاري في صحيحه في الدعوة إلى السكوت عن الظالمين والكف عن الإنكار عليهم، وإعلان الطاعة لهم ما لم يأمروا بالكفر البواح؟..

أين تقع هذه الرواية عما قرأناه من رواية ابن عساكر عن عبادة بن الصامت في التصدي لمعاوية، وما كان يقترفه من المنكرات؟

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٩٧/٢٦. (أخذنا الترقيم من برنامج المكتبة الشاملة)، وهو مطابق للنسخة المطبوعة من تاريخ دمشق في ٨٠ مجلداً.

والآن نعود مرة أخرى إلى الروايات التي تدعو إلى طاعة الأمراء الظالمين والكف عن الإنكار عليهم والدعوة إلى طاعتهم، إلاّ أن يعلنوا الكفر البواح.

روى البخاري عن أبي إدريس الخولاني: أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر. قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إنْ أدركني ذلك. قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[1].

ويستوقفنا في هذه الرواية سندها أولاً ومتنها ثانياً.

عن سند الرواية يقول ابن حجر العسقلاني في الفتح: والسند كله شاميّون إلا شيخ البخاري والصحابي[2].

وعن أبي إدريس الخولاني: (عائذ بن عبد الله) التابعي الذي يروي الخبر عن الصحابي يقول ابن حجر: كان قاص أهل الشام وقاضيهم[3]. ومتن الرواية ليس بغريب عن السند، ففي الشر الذي يأتي بعد الخير يتولى الأمر (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها).

والرواية تأمر المسلمين بلزوم هؤلاء الأئمة مهما جاروا وظلموا، كما يقول ابن حجر: (إلزم جماعة المسلمين وإمامهم يعني ولو جاروا، وتوضّح ذلك رواية أبي الأسود، ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك، وكان مثل ذلك كثيراً في إمارة الحجاج ونحوه)[4].

---

(١) صحيح البخاري ٤: ١٨٤ ط. مصر ١٢٨٦ هـ، ورواه مسلم في كتابه الصحيح ٦: ٢٠ دار الفكر بيروت كتاب الإمارة باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة.

(٢) فتح الباري ١٣ : ٣٠.

(٣) تهذيب التهذيب ٥: ٨٥.

(٤) فتح الباري ١٣: ٣١.

(وعن ابن بطّال: فيه حجّة لجماعة الفقهاء (أيّ الفقهاء؟) في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم دعاة على أبواب جهنم، ولم يقل فيهم تعرف وتنكر كما قال في الأولين، وهم لا يكونون كذلك إلا وهم على غير حق، وأمر مع ذلك بلزوم الجماعة)[١].

هذا مع قيام إمام (حاكم وخليفة) ووجود جماعة، وإن لم توجد جماعة ولم يكن إمام فتأمر الرواية بالاعتزال.

ولا نعلم كيف نجمع بين هذه الروايات والآيات القرآنية الصريحة في حرمة الركون إلى الظالمين ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٢]. والآيات والأحاديث الواردة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحرمة الخلود إلى العافية والتحلّل عن المسؤولية الشرعية تجاه المسلمين.

ونعود مرة أخرى إلى الروايات الآمرة بطاعة الظالم المتهتك الفاسق، وإعانته على ظلمه، والتي نتّهم فيها حكام بني أمية.

روى مسلم في (الصحيح) عن زيد بن سلّام عن ابن سلام قال حذيفة اليمان: قلت: يا رسول الله: إنّا كنّا بشرٍّ فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم. قلت: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك. قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضربَ ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع[٣].

وفي سند هذه الرواية يقع زيد بن سلام الدمشقي[٤] وأبوه أبو سلّام (ممطور)[٥] وكلاهما شاميان.

وروى مسلم عن عبد الرحمن يزيد بن جابر عن مولى بني فزارة (وهو زريق بن حيان)

---

(١) فتح الباري ١٣: ٣١.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٣) صحيح مسلم ٢٠: ٦ كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن.

(٤) تهذيب التهذيب ٢: ٤١٥.

(٥) تهذيب التهذيب ١٠: ٢٩٦.

أنه سمع مسلم بن قرظه أن عم عوف بن مالك الأشجعي يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمتكم الذين تُحبّونهم ويحبونكم وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم».

قالوا: قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من وُلِّي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يداً من طاعة.

قال ابن جابر: فقلت (يعني لزريق) حين حدّثني بهذا الحديث: الله يا أبا المقدام لحدثك بهذا أو سمعت هذا من مسلم بن قرظة؟ يقول: سمعت عوفاً يقول: سمعت رسول الله ﷺ، قال: فجثا على ركبتيه واستقبل القبلة، فقال: أي والله الذي لا إله إلا هو لسمعته من مسلم بن قرظة، يقول: سمعت عوف بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ[1].

ويستوقفنا في سند هذا الحديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الشامي قال عنه الفلاس: (ضعيف الحديث روى عن أهل الكوفة أحاديث مناكير)[2].

وزريق بن حيّان الذي يروي عنه عبد الرحمن كان على جوار مصر ومن الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز[3]، وهو شاميّ كذلك ولّاه الوليد وسليمان وعمر عشور أموال التجارة[4].

ويستوقفنا في متن الرواية شك عبد الرحمن بن يزيد في الرواية، وكأنه سمع أمراً غريباً أو انه يحاول إزالة الغرابة عن متن الحديث.

وأغرب من ذلك كله هو تحريم منابذة هؤلاء الحكّام الذين يجاهرون بمعصية الله، ويلعنون المسلمين ويلعنهم المسلمون، وعدم جواز الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة، مهما كانت جرائمهم وقبائح أعمالهم، وإن أعلنوا شرب الخمر والزنى وجاهروا بالكبائر من المحرمات.

أما نحن فنطمئن أنّ هذا ليس من حديث رسول الله ﷺ في شيء، وليس من روح الإسلام وتعاليمه وتشريعاته، وإن مثل هذه الروايات أضيفت إلى أحاديث رسول الله ﷺ أيام

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٢٥ كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم.

(٢) تهذيب التهذيب ٦: ٢٩٨ دار التعارف.

(٣) الجرح والتعديل للرازي ١ ـ قسم ٢ ص ٥٠٥ دار المعارف العثمانية بحيدر آباد.

(٤) تهذيب التهذيب ٣: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

كان الخلفاء يجاهرون بالفسق والفجور من الزنى وشرب الخمر وسائر المنكرات والكبائر سراً وعلانية.. فكانوا يدسّون هذه الروايات في أحاديث رسول الله ﷺ، ليهدأوا الناس ويحولوا دون خروجهم، ولئلا يزعجهم خارج أو يُقلق صفو عيشهم ثائر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وروى ابن ماجه قال: حدثنا العباس بن الوليد الدمشقي حدّثنا زين يحيى بن عبيد الخزاعي حدّثنا الهيثم بن حميد حدّثنا أبو معيد حفص بن غيلان الرعيني عن مكحول عن أنس بن مالك، قال: قيل: يا رسول الله متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم. قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: (الملك في صغاركم والفاحشة في كبراكم والعلم في رذالتكم)[1].

وقد راجعنا كتب الرجال والجرح والتعديل فوجدنا أن رجال سند الرواية كلهم شاميّون عدا الصحابي، أمّا مكحول الذي يروي عن أنس فهو شاميّ قدريّ.

قال ابن سعد: قال بعض أهل العلم: كان مكحول من أهل كابل وكانت فيه لُكْنة كان يقول بالقدر وكان ضعيفاً في حديثه ورأيه[2].

وأما حفص بن غيلان الرعيني فقد كان شامياً اختلفت فيه أقوالهم فقال أبو حاتم: تكتب حديثه ولا يُحتج به.

وروى ابن عساكر عن إسحاق بن سيار النصيبي أنه قال: أبو معيد (حفص بن غيلان) ضعيف الحديث.

وقال ابن عدي: سمعت عبد الله بن سليمان بن الأشعث يقول: حفص بن غيلان ضعيف.

وعن ابن داود: كان يرى القدر، ليس بذاك، دمشقي[3].

أمّا الهيثم بن حميد الشامي فقد قال عنه أبو مسهر: كان ضعيفاً قدرياً، وكان صاحب

---

(١) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٣١ حديث رقم ٤٠١٥ كتاب الفتن باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ سورة المائدة: ١٠٥.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) تهذيب التهذيب ٢: ٤١٨ ـ ٤١٩.

كتب ولم يكن من الأثبات، ولا من أهل الحفظ وقد كنت أمسكت عن الحديث عنه واستضعفته[١].

وكما ترون. فإن سند الحديث شاميّون إطلاقاً عدا الصحابي وأكثرهم قدريّون وضعفاء عند جملة من علماء الجرح والتعديل.

وروى أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به[٢].

وروى أحمد في المسند عن عثمان الشحّام قال: حدّثنا مسلم بن أبي بكرة عن أبيه عن رسول الله ﷺ: قال إنها ستكون فتن، ثم تكون فتن ألا فالماشي خير من الساعي إليها، ألا والقاعد فيها خير من القائم فيها، ألا والمضطجع فيها خير من القاعد، ألا فإذا نزلت فمن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ألا ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ألا ومن كانت له إبل فليلحق بإبله.

فقال رجل من القوم: يا نبيّ الله جعلني الله فداك، أرأيت من ليست له غنم ولا أرض كيف يصنع؟

قال: فليأخذ سيفه ثم ليعمد به إلى صخرة ثم ليدق على حدّه بحجر ثم لينبح إن استطاع ...[٣]

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرّف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فليعذ به[٤].

هذه جملة من الروايات المرويّة عن رسول الله ﷺ وبعضها ورد في الصحيحين.

وفي إسناد بعضها مناقشات ومؤاخذات واضحة، وشطر كبير من رجال إسنادها من الشام

---

(١) المصدر نفسه ١١: ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٨٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤٨. اختلفت كلمتهم في عثمان الشحّام أحد رواة هذه الرواية فقال يحيى بن سعيد القطان: يعرف وينكر، ولم يكن عندي بذاك، وقال النسائي: ليس بالقوي. تهذيب التهذيب ٧: ١٦١.

(٤) صحيح البخاري ٤: ١٨٣، ط. مصر ١٢٨٦، كتاب الفتن باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم.

بالذات. ونحن مع الغض عن المناقشة في إسناد هذه الروايات نشك في صدور هذه الروايات عن رسول الله ﷺ شكاً قوياً.

ونطمئن إلى أن هذه الروايات لا تنسجم مع روح الإسلام وأفكاره وتصوراته... وأنها أشبه بالاتّجاه السياسي أيام بني أمية منها بكلمات رسول الله ﷺ.

فإن الجو الذي صدرت فيه هذه الروايات يشبه أن يكون من الأجواء السياسية التي تطلب من الناس الخنوع والرضوخ للحكّام والسكوت عن جرائمهم وأعمالهم وترك ما لِقيصر لقيصر، وما لكسرى لكسرى، والتغاضي عن شطط الحكام وطيشهم، والاكتفاء بخروجهم للصلاة في أيام الجُمع وخروجهم للحج، وعدم التعرّض لأعمالهم في نهب بيت مال المسلمين، وفي إفساد المجتمع الإسلامي وتجاوز حدود الله والإجهار بالمنكرات وعدم التصدي لشيء من منكراتهم وجرائمهم مهما بلغت، ومهما تظاهروا به، ما داموا يقيمون الصلاة، لئلا تتعكّر لياليهم الحمراء التي يقضونها مع الخمور والفجور والغواني والأغاني، وعدم نبذ الطاعة ونقض البيعة حتى لا تكون موتتهم ميتة جاهلية، كما يقول عبد الله بن عمر: وأنّ المضطجع خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الساعي حتى يستقيم الأمر لبني أمية من غير تشويش أو تعكير ومن دون متاعب ومشاكل، فإنّ من يخرج على يزيد بن معاوية ويزيد بن الوليد الفاسقين يموت ميتة جاهلية وينقض عهد الله وميثاقه كما تقول هذه الروايات.

أمّا أنا فأرى أنّنا لسنا بحاجة إلى مناقشة إسناد هذه الروايات لنثبت الشك فيها ونسلب الثقة منها، فإن من يعرف شيئاً عن الإسلام وروحه الآبية للظلم ودعوته إلى مكافحة الظلم وتحريمه للركون إلى الظالمين، وإيجابه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يطمئن إلى أنّ هذه الروايات قد أضيفت إلى الإسلام إضافة دونما ورع أو تقوى، لأهداف سياسية، وأدخلت في المتون الإسلامية ومجامع الحديث والصحاح في غفلة من علماء الحديث ونقّاد الجرح والتعديل الذين يخضعون الروايات للنقد من حيث السند غالباً، فإذا سلم لديهم السند سلم لديهم المتن، ولا يفكّرون في نقد المتن كما ينقدون السند، ولا تقل أهمية نقد المتون في الروايات عن نقد الإسناد.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا عندما نستعرض هذه الروايات ونقارنها بروح العدالة في الإسلام الرافضة للظلم، والداعية إلى الخروج على الظالمين نسمح لأنفسنا بالشك في هذه الروايات ونسمح لأنفسنا باتّهام حكام بني أمية في اختلاقها وإضافتها إلى رسول الله ﷺ، وإدخالها في مجامع الحديث، وإعطائها الصفة الشرعية.

موقف الإسلام من الظالمين:

ونظرة الإسلام في التعامل مع الظالمين ورفض الظلم، وتحريم الركون إلى الظالمين وموالاتهم، واضحة من خلال القرآن والسنة المتواترة، ولا يحوجنا إثباته إلى جهد أو تكلّف في الاستدلال.

فالقرآن الكريم يحرّم الركون إلى الظالمين والإنصياع لهم ومودتهم وموالاتهم بصراحة.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[١].

يقول القرطبي: قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم، وقال ابن دريد الركون هنا الإدهان[٢].

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أهل الشرك، وقيل: عامة فيهم وفي العصاة. وهذا في معنى الآية، وإنّها دالّة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية[٣].

ويقول السيد الطباطبائي في مناقشة صاحب تفسير المنار: في اختصاص (الظالمين) في هذه الآية بالمشركين (وأيُّ مانع يمنع الآية من أن تشمل الظالمين من هذه الأمة وفيهم من هو أشقى من جبابرة عاد وثمود، وأطغى من فرعون وهامان وقارون.

ومجرّد كون الإسلام عند نزول السورة مُبْتَلَى بقريش، ومشركي مكة، وحواليها لا يوجب تخصيصاً في اللفظ فإن خصوص المورد لا يخصص عموم اللفظ، والآية تنهى عن الركون إلى كل من اتّسم بِسِمة الظلم، كان مشركاً أو موحّداً مسلماً أو من أهل الكتاب)[٤].

والروايات بهذا المضمون كثيرة بالغة حد التواتر وواضحة وصريحة ومنسجمة مع كتاب الله وروح الإسلام وتعاليمه وأحكامه، ولا يمكننا هنا أن نستقصي هذه الروايات جميعاً، وإنما ننقل منها بعض النماذج.

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٢) تفسير القرطبي ٩: ١٠٨، والإدهان: المصانعة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الميزان ١١: ٥٤.

روى الترمذي عن طارق بن شهاب قال: أول من قدّم خطبة قبل الصلاة مروان، فقام رجل فقال لمروان: (خالفت السنّة)، فقال: يا فلان ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكراً فلينكره بيده، ومن لم يستطع فلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[(١)].

وهذا الحديث والأحاديث التي بمعناه في تغيير المنكر، والتصدّي له باليد أو اللسان أو القلب وذلك أضعف الإيمان يعاكس تماماً رواية (المضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الساعي).

وفيما يشير هذا الحديث والأحاديث التي بمعناها إلى العدّ التصاعدي في المواجهة، تشير الفئة الثانية من الروايات إلى العد التنازلي في المواجهة، حتى يصل إلى مرحلة الإضطجاع فذلك أقوى الإيمان!! حيث تستقيم للظالمين أمورهم، ويهدأ بالهم وتطمئن نفوسهم، ورواه بلفظ قريب منه مسلم في كتابه الصحيح[(٢)].

واقتصر المنذري في الترغيب والترهيب على رواية أبي سعيد الخدري لحديث رسول الله[(٣)]، ورواه أحمد في المسند[(٤)] في موضعين من كتابه.

ورواه أيضاً ابن ماجه في السنن[(٥)] والنسائي في السنن[(٦)]، بقدر ما يخص رواية أبي سعيد لحديث رسول الله ﷺ وبلفظ قريب منه المتقي الهندي في كنز العمال[(٧)].

وروى الترمذي في السنن عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**)[(٨)].

---

(١) سنن الترمذي ٤: ٤٦٩ ـ ٤٧٠ مطبعة مصطفى البابي، كتاب الفتن باب ما جاء في تغيير المنكر باليد واللسان، حديث ٢١٧٢.

(٢) صحيح مسلم ١: ٥٠، دار الفكر كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

(٣) الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٣.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٠، منه مسانيد أبي سعيد الخدري ورواه أيضاً في المسند ٣: ٥٤.

(٥) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٣٠، حديث رقم ٤٠١٣ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

(٦) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي دار إحياء التراث العربي بيروت ٨: ١١١ ـ ١١٢ كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان.

(٧) كنز العمال للمتّقي الهندي الحديث رقم ٥٥٥٦.

(٨) سنن الترمذي ٤: ٤٧١ حديث رقم ٢١٧٤ كتاب الفتن.

ورواه أيضاً ابن ماجه في السنن[١].

وروى ابن ماجه عن أبي أُمامة قال: عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجمرة الأولى، فقال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رأى الجمرة الثانية، سأله فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة وضع رجله في الغرز ليركب، قال: (أين السائل؟)، قال: أنا يا رسول الله، قال: **(كلمة حق عند ذي سلطان جائر)**[٢].

وروى قريباً منه المنذري في الترغيب والترهيب[٣].

وروى: **(أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تقال لإمام جائر)**[٤].

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: **سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله**، رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد[٥].

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون، فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذي في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإنّنا نثقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً[٦].

ورواه المنذري في الترغيب والترهيب[٧].

وقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام في وقعة صفين: (ترجع إلى عراقك ونرجع إلى شامنا) فقال عليه السلام: «لقد عرفت أنّ ما عرضت هذا نصيحة وشفقة... إن الله تبارك وتعالى لم يرضَ من

---

(١) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٢٩ حديث رقم ٤٠١١.

(٢) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٣٠ حديث رقم ٤٠١٢.

(٣) الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٥.

(٤) كنز العمال حديث رقم ٥٥١١ و٥٥١٢ و٥٥١٤.

(٥) الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٥.

(٦) سنن الترمذي ٤: ٤٧٠ الحديث رقم ٢١٧٣ كتاب الفتن باب ١٢ منه.

(٧) الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٥.

أوليائه أن يعصى في الأرض، وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنّم»[١].

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري: إنّ رسول الله ﷺ قام خطيباً فكان فيما قال: **(الا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا عَلِمه)**، وكان أبو سعيد يبكي ويقول: قد والله رأينا أشياء فهبنا[٢].

وروى ابن ماجه أيضاً عن عبد الله بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون، إلا عمّهم الله بالعقاب)**[٣].

وروى المتّقي الهندي ما بمعنى ذلك[٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لكعب بن بحجرة: **أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال**: وما إمارة السفهاء؟ قال: **أمراء يكونون من بعدي لا يهتدون بهديي، ولا يستنّون بسنتي، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يرِدون عليّ حوضي، ومن لم يصدّقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم**[٥].

وعن النعمان بن بشير قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظنّنا أنه حدث في السماء أمر، فقال: **ألا إنّها ستكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون، فمن صدّقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني، ولا أنا منه، ومن لم يصدّقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه**[٦].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **إنّ ناساً من أمّتي سيتفقّهون في الدين ويقرأون القرآن يقولون: نأتي الأمراء، فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يُجتنى من القَتاد إلّا الشوك**، قال المنذري: رواه ابن ماجه ورواته ثقات[٧].

---

(١) نهج السعادة ٢: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٢٨ حديث رقم ٤٠٠٧.

(٣) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٢٩ حديث رقم ٤٠٠٩.

(٤) كنز العمال حديث رقم ٥٥٣٢ و٥٥٧١.

(٥) الترغيب والترهيب ٣: ١٩٤ وبلفظ قريب منه أيضاً في ص١٩٥ من نفس المجلد.

(٦) المصدر نفسه ٣: ١٩٥.

(٧) المصدر نفسه ٣: ١٩٦

رأي لعبد الله بن عمر:

والمعروف عن عبد الله بن عمر أنه كان يحمل رأياً معارضاً لهذا الرأي تماماً، وكان يروي وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره، واعتداؤه على المسلمين، وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الاستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد من الطاعة، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات.

روى مسلم عن زيد بن محمد عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع[1] حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إنّي لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة لـه، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[2].

وروى مسلم عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان من أمته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنّها تُخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل.

قال أبو رافع: فحدّثت عبد الله بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة، فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلمّا جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدثنيه، كما حدّثت ابن عمر[3].

وبعدُ فلا نُطيل في هذا الموقف أكثر من هذا المقدار، وإنْ كان يستحق الكثير من التأمّل والوقوف والدراسة، فقد أكثر بنو أمية من وضع الحديث على رسول الله ﷺ بهذا الاتّجاه،

---

(١) كان عبد الله بن مطيع على قريش يوم الحرّة وقد فرّ واختبأ وسلم بنفسه عن القتل. تهذيب التهذيب ٦: ٣٦.

(٢) صحيح مسلم ٦: ٢٢ دار الفكر بيروت كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة.

(٣) صحيح مسلم ١: ٥٠ ـ ٥١ كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ط. دار الفكر بيروت.

لتثبيط المسلمين عن التحرّك في مواجهة ظلم بني أمية ولردعهم عن الخروج على خلفاء بني أمية، وليستقيم لهم الأمر في ظلمهم وفسقهم وانتهاكهم للحرمات.

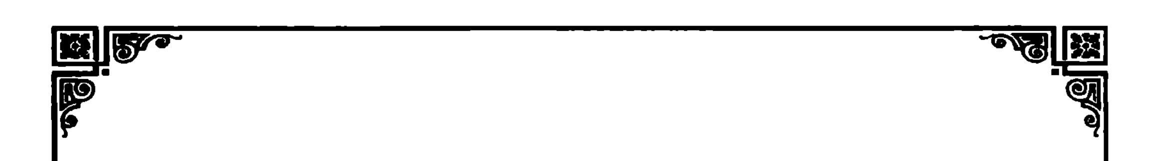
وقد دخل مع الأسف الكثير من هذه الأحاديث التي تنافي صريح القرآن والسنة والسيرة النبوية في أمهات كتب الحديث وحتى في الصحيحين والكتب المعتبرة.

ولابدّ من دراسة أوسع وأعمق من ذلك لنصل إلى نتائج واضحة وملموسة في هذا الحقل الصعب من حقول التاريخ والسيرة والسنة والفقه.

قال المدائني عن عصر معاوية:

(وظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القرّاء المراؤون والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا من مجلسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنها حق، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها ولما تديّنوا بها)[1].

(١) صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين. ٣٢٦ عن شرح النهج لابن أبي الحديد١ : ٣٥٨ ط. ١ بمصر.



الفصل السابع

سياسة بني أمية تجاه أهل البيت عليهم السلام

التخطيط الأُموي لمحاربة أهل البيت عليهم السلام

رغم الفتنة الكبرى التي مرّت بالمسلمين والانحرافات والنكبات التي أصابت المسلمين لم يكن الضمير الإسلامي يطيق بني أمية وسلطانهم...

وقد كان المسلمون يرون الفارق الكبير والبون الشاسع بين أهل البيت عليهم السلام وبني أمية في الماضي والحاضر.

وكان على بني أمية لكي يستقر حكمهم ونفوذهم أن يعملوا على القضاء التام على نفوذ أهل البيت عليهم السلام الروحي فيما بين المسلمين وعلى تصفية شيعة أهل البيت عليهم السلام والقضاء عليهم وملاحقتهم ومطاردتهم ليصفو لهم الجو السياسي في العالم الإسلامي وبشكل خاص في العراق والحجاز.

وقد سلك بنو أمية نهجاً خاصاً في محاربة أهل البيت، والقضاء عليهم سياسياً واجتماعياً وفي عزلهم وتطويقهم وتصفية شيعتهم ومحاربتهم في أرزاقهم ومعيشتهم وفي التعتيم على فضائل أهل البيت ومكانتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وليس بإمكاننا أن نستعرض ذلك كله بتفصيل فهو أمر يحتاج إلى دراسة واسعة لا يسعنا أن نقدم عليها الآن.

ولكنّنا نود أن نشير في هذه الدراسة على وجه العجالة والسرعة لبعض النقاط الأساسية من السياسة الأموية تجاه أهل البيت عليهم السلام.

التعتيم على فضائل أهل البيت عليهم السلام:

بذل بنو أمية سعياً حثيثاً في إخفاء فضائل الإمام وأهل بيته وحضروا رواية فضائل أهل البيت وأمروا بمطاردة الذين يروون فضائل أهل البيت عليهم السلام ومقاطعتهم في كل مكان.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث، قال: كتب

معاوية نسخة واحدة: أنْ برئت الذمة، ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويوقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام[١].

وقد بلغ من خوف الناس من رواية فضائل الإمام من الجهاز الحاكم أنّ (الزهري) حدّث معمراً في مرضه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ منع بني إسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم واختلافهم في دينهم، وأنّه آخذ هذه الأمة بالسنين ومانعهم قطر السماء، ببغضهم عليّ بن أبي طالب»[٢].

يقول معمر: فلما بلَّ (الزهري) من مرضه، ندم فقال لي: يا يمانيّ أكتم هذا الحديث واطوهِ دوني فإنّ هؤلاء يعني ـ بني أمية ـ لا يعذرون أحداً في تقريظ عليّ وذكره.

قلت: فما بالك أوعيت مع القوم يا أبا بكر، وقد سمعت الذي سمعت، قال: حسبك يا هذا إنهم أشركونا في لهاهم فانحططنا لهم في أهوائهم[٣].

الحصار الاقتصادي:

وبالغ بنو أمية في محاصرة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم اقتصادياً وفي التضييق عليهم ومنع أعطياتهم عنهم ومحاربتهم في أرزاقهم.

وقد كان بنو أمية يستخدمون المال بصورة واسعة وسيلةً لتحقيق غاياتهم السياسية في التضييق والتوسعة، فيما كان معاوية يوسّع على أهل الشام كان يضيّق على العراقيين وأهل الحجاز تضييقاً شديداً.

وكان بنو أمية يعتمدون أهل الشام في الدفاع عن دولتهم وامتداد سلطانهم ونفوذهم السياسي، وكانوا يمدّون أهل الشام بالعطاء وترخيص الأرزاق وتوفير المواد الغذائية الأولية كالحنطة، بينما كانوا يضيّقون في العطاء على العراقيين والحجازيين والمصريين، ولا سيما العراق والحجاز لما كانوا يعلمون من قوة المعارضة وسعتها في هذين البلدين.

---

(١) شرح النهج ١١: ٤٤.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب: للحافظ ابن المغازلي الشافعي، المتوفى سنة ٤٨٣، ص ١٤١ رواية رقم ١٨٦، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٩٤ هـ. ق.

(٣) مناقب ابن المغازلي: ١٤٢ رواية رقم ١٨٦ المكتبة الإسلامية ١٣٩٤ هـ ق.

وكانوا يجدون في التضييق على المعارضة طريقة مفضّلة لمحاربة المعارضة والقضاء عليها ولربما الانتقام منها واستهلاكها في مشاغل المعيشة وشؤونها.

يقول المعتزلي الحميدي ابن أبي الحديد: ثم كتب ـ أي معاوية ـ إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان:

انظروا من قامت عليه البيّنة إنه يُحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع بذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به وهدموا داره.

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولاسيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه[1].

ولم يكن معاوية يعمل بصورة عفوية في سياسة تجويع الناس والتضييق عليهم وفي محاربتهم في أرزاقهم ومعايشهم وإنّما يخطّط لذلك وهو صاحب نظرية في هذا الأمر يذكرها لقائد جيشه سفيان بن عوف الغامدي عندما وجّهه إلى الأنبار فيما يروي لنا الثقفي في الغارات.

يقول معاوية لسفيان وهو يوجّهه إلى الأنبار:

(فاقتل من لقيته ممّن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كلّما مررت به من القرى، وأحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب)[2].

ويروي ابن الأثير في حوادث سنة ست وخمسين:

إنّ معاوية لما يئس من بيعة الحسين عليه السلام لابنه يزيد بولاية العهد جفا بني هاشم عامة، (أي قطع عنهم أرزاقهم) فأتاه ابن عباس، فقال له: ما بالك جفوتنا؟ قال: إنّ صاحبكم لم يبايع ليزيد، فلم تنكروا ذلك عليه[3].

وحبس النعمان بن بشير الأنصاري ـ وكان عامل معاوية على الكوفة، وكان عثماني الهوى، وقد شهد مع معاوية صفّين، وهو الأنصاري الوحيد الذي كان مع معاوية ـ حبس زيادة أهل الكوفة.

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد١١: ٤٥.

(٢) الغارات ط. طهران وشرح النهج ٢: ٨٦ بتحقيق محمد أبي الفضل.

(٣) الكامل لابن الأثير ٣: ٥١١، دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥ هـ.

فصعد المنبر يوماً فقال: يا أهل الكوفة فصاحوا: ننشدك الله والزيادة. وقال عبد الله بن همام السلولي:

خف الله فينا والكتاب الذي تتلو	زيادتنا نعمان لا تحبسنّها
بما عجزت عنه الصلاخمة البزل	فإنك قد حملت منا أمانة
وباب الندى والخيِّرات له قفل[١]	فلا يك باب الشر تحسن فتحه

ويروي اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٩٢ هـ) في تأريخه:

إنّ معاوية لمّا قدم إلى المدينة في سفرة الحج سنة ٤٤ (أتاه جماعة من بني هاشم وكلّموه في أمورهم، فقال: أما ترضون يا بني هاشم أن نقرّ عليكم دماءكم وقد قتلتم عثمان حتى تقولوا ما تقولون، فوالله لأنتم أحلّ دماً من كذا وكذا، وأعظم في القول. فقال له ابن عباس: كلّما قلت يا معاوية من شرّ بين جنبيك، وأنت والله أولى بذلك منّا. أنت قتلت عثمان ثم قمت تغمض على الناس أنك تطلب بدمه، فأنكر معاوية)[٢].

وكان المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة قد حبس عن أهل الكوفة أرزاقهم فلمّا كان آخر أيام إمارته صعد المنبر ونال من عليّ عليه السلام فقام حجر رحمه الله فصاح صيحة بالمغيرة سمعها كل من بالمسجد وقال له: مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنّا وليس ذلك لك، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين، فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق حجر وبرّ)[٣].

ووهب معاوية مزرعة فدك التي منحها النبي صلى الله عليه وآله لابنته الزهراء عليها السلام لمروان بن الحكم[٤] ولم يعبأ بمطالبة أهل البيت بها وحقهم فيها.

التشهير والسب:

ومن أقبح ما اتّبعه معاوية بن أبي سفيان من السياسة لعزل الإمام وأهل بيته سياسياً، هو شتمهم وإعلان ذلك على المنابر، وقد بذل بنو أمية كل جهد في إشاعة هذا المنكر.

---

(١) الأغاني ١٦: ٣٠ ـ ٣١ ط. دار الكتب.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١١ ط. ٤ النجف ١٣٩٤.

(٣) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٧٢ ـ ٤٧٣. بيروت ١٣٨٥.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢١١.

وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم:

(يا أيها الناس إن رسول الله قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة ـ يعني الشام ـ فإنّ فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب) وعجّ أهل الشام في سب الإمام[١].

(وكان معاوية إذا قنت سبّ علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر)[٢].

وذكر أبو عثمان الجاحظ: أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة:

اللهم إنّ أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً، وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز[٣].

(وأراد زياد بن أبيه أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه، وأن يقتل كل من امتنع من ذلك، ويخرّب منزله، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ وذلك في خلافة معاوية)[٤].

وفي رأينا أن معاوية لم يكن يصدر في فعله هذا عن حقده على الإمام عليه السلام وبغضه له فقط، وإنما كان يعلم أنه لا يستطيع أن يحفظ لنفسه الخلافة ويبعدها عن أهل البيت لولا هذه الطريقة القبيحة التي استخدمها في النيل من شخصية الإمام عليه السلام والتشهير به.

وقد سُئل مروان: ما لكم تسبّون علياً على المنابر؟

فقال: لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك[٥].

وكان معاوية يريد أن يواصل عمله هذا القبيح حتى يقضي على ذكر عليّ عليه السلام وفضائله ومكانته في الإسلام ومن رسول الله قضاءً تاماً.

وقد قال لابن عباس يوماً وهو يسأله: ألا تكفُّ عن شتم هذا الرجل؟ قال معاوية: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير[٦].

---

(١) النصائح الكافية: ٧٢. وابن أبي الحديد في شرح النهج ٤/ ٧٢. وأضواء على السنة المحمدية ص ١٣٠.

(٢) النصائح الكافية: ١٩ ـ ٢٠. الكامل في التاريخ لابن الاثير ٣/ ٣٣٣.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٥٦ ـ ٥٧.

(٤) شرح النهج ٤: ٥٨.

(٥) شرح النهج ١٣: ٢٢٠. والصواعق المحرقة ص ٣٣.

(٦) شرح النهج ١٣: ٢٢٢. العثمانية للجاحظ ص ٢٨٥، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

يقول سليم بن قيس:

(ولم يزل معاوية على ذلك ـ أي إثارة الناس ضد (الإمام) ـ عشرين سنة حتى نشأ عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، وهاجر عليه الأعرابي)[١].

وروى أبو عثمان الجاحظ:

أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل، فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً.

وكان معاوية يشتم الإمام عليه السلام ويأمر عماله وأصحابه الذين يفدون إليه بذلك. روى مسلم في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنِ معاوية قال لـه: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ فامتنع سعد عن ذلك[٢].

ولما أراد معاوية أن يستعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة عام ٤١ هـ استدعاه وقال لـه:

أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستغفار لـه والعيب لأصحاب علي والإقصاء لهم، والإطراء لشيعة عثمان والإدناء لهم[٣]، وكان عمال معاوية إذا استعملوا على البلاد التابعة لإمارتهم ولاة استعملوهم ممن يناوئون الإمام وشيعته وينالون من الإمام.

فاستعمل المغيرة مثلاً كثير بن شهاب على الريّ وكان يكثر ـ كما يقول ابن الأثير ـ سب علي على منبر الريّ[٤].

وكان المغيرة مولعاً بسب الإمام[٥] كما كان عمّاله في البلاد التابعة له من المولعين بسب الإمام والنيل منه، وكان حاقداً على الإمام حتى أن ابن أبي الحديد يقول: وقد تظاهرت

(١) كتاب سليم بن قيس: ١٧٥ ط. دار الفنون بيروت ١٤٠٠ هـ
(٢) صحيح مسلم ٧: ١٢٠ ط. اسطنبول ١٣٣٤ توزيع دار الفكر بيروت.
(٣) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٧٢ بيروت ١٣٨٥ هـ
(٤) الكامل لابن الأثير ٣: ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٥) المصدر نفسه ٣: ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

الروايات أنه (أي المغيرة) كان يأخذه الرمع[١] عند ذكر عليّ فيسبّه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى[٢].

وزياد ابن أبيه كان هو الآخر من عمّال معاوية المولعين بسبّ الإمام والنيل منه، وكان زياد قد جمع ـ في أخريات حياته الحافلة بالظلم والعدوان ـ الناس بباب قصره يحرّضهم على لعن الإمام، فمن أبى ذلك عرضه على السيف فعجّل الله تعالى بهلاكه[٣].

وكان مروان يخطب فينال من الإمام، فقيل له: أهذا الذي تشتم شرّ الناس؟ قال: لا، ولكنه خير الناس[٤].

وكان المغيرة بن شعبة يقيم ندوات خطابية للخطباء لسب الإمام وشتمه[٥]، وقد بلغ من حقد بني أمية على الإمام أنّ أحدهم إذا نَسِيَ سبّ الإمام على المنبر ذكّروه به.

فَنَسِيَ هشام أن ينال من الإمام يوم عرفة فقام إليه رجل من ولد عثمان، فقال: إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب[٦].

وروى المبرّد في الكامل قال: لمّا كان خالد بن عبد الله القسري أمير العراق في خلافة هشام كان يلعن علياً عليه‌السلام على المنبر فيقول: اللهم العن... (ويصرّح باسم الإمام) صهر رسول الله على ابنته وأبا الحسن والحسين، ثم يقبل على الناس فيقول: هل كنّيت؟[٧].

وقد ازدادت شراسة الهجمة الإعلامية ضد أهل البيت عليهم‌السلام بعد استشهاد الإمامين الحسن والحسين عليهما‌السلام حتى أن أهل الصلاح والنسْك كانوا يتقربون إلى الحكام بالبراءة من الإمام، كما يقول ابن أبي الحديد: والساقطون من الناس يتزلّفون إلى الحكّام بالمزايدة في البراءة والسبّ...

---

(١) الرمع: تحرك الأنف غضباً.

(٢) شرح النهج٤: ٦٩.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٦ بتحقيق يوسف أسعد داغر، وتاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ط. ٤ سنة١٣٩٤ هـ.

(٤) شرح النهج ١٣: ٢٢٠.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) شرح النهج ١٣: ٢٢١ ونفس المصدر ٤: ٥٧.

(٧) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٥٧. والكامل للمبرّد ٤١٤ (طبع أوربا). والأغاني ٢٢/٢٥. ونثر الدرر للآبي.

يقول ابن أبي الحديد، وهو من أفضل من أرّخ لهذه الفترة:

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام وولّي عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه حتى المتظاهرين بالنسك والصلاح والدين ببغض عليّ وموالاة أعدائه، وموالاة من يدّعي من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضيلتهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضّ من عليّ عليه السلام وعيبه والطعن فيه، والشنآن لـه حتى أن إنساناً وقف للحجّاج، ويقال هو جدِ الأصمعي عبد الملك بن قريب، فصاح: أيها الأمير إن أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً، وإني فقير بائس، وإني إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك لـه الحجاج، وقال: للطف ما توسّلت به قد ولّيتك موضع كذا[١].

إذن فقد بذل معاوية، ومن بعده من الخلفاء جهداً غير قليل لإسقاط الخط العلوي في أنظار المسلمين والتشهير به، والنيل من الإمام عليه السلام ومن خطه الفكري والرسالي.

الأمة ترفض البراءة من أهل البيت عليهم السلام:

ورغم ضغط عوامل الإرهاب والإغراء على ضمير الأمة في أيام بني أمية فإن الأمة كانت ترفض السب والبراءة من الإمام وأهل البيت عليهم السلام وتتهرب من شتم الإمام ما وسعهم ذلك.

فكان الناس يتهرّبون عن حضور مجالس السب ويحرصون ألّا يحضروا هذه المجالس.

وقد كان من دأب بني أمية أن يسبّوا الإمام في خطب الجمعة والعيدين. ومن المعروف أن السنة في خطبة العيدين تأخيرها عن الصلاة، فكان الناس إذا انقضت الصلاة انتشروا لئلا يسمعوا السب والشتم في الإمام، فأمر معاوية بتقديم الخطبة قبل الصلاة، لئلا يتهرّب الناس عن سماع الخطبة.

يقول اليعقوبي:

وفي هذه السنة ـ أي سنة ٤٤ ـ خطب الخطبة قبل الصلاة، وذلك أنّ الناس كانوا إذا صلّوا انصرفوا لئلا يسمعوا لعن علي عليه السلام، فقدّم معاوية الخطبة قبل الصلاة[٢].

ولا نلتقي فيما نقرأ من التاريخ بغير هذه الظاهرة السلبية في رفض السبّ والشتم على

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١١: ٤٦.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١١ ط. ٤ سنة ١٣٩٤ هـ النجف.

صعيد الأمة، بظاهرة أُخرى تُلفت النظر، ولكنّنا نلتقي بمواقف فردية كثيرة في تاريخ هذه الفترة في رفض البراءة والسبّ صارخة ومعلنة للرفض أحياناً، وبصوت منخفض أحياناً أخرى.

روى أبو بكر بن عبد الله الأصبهاني، قال: كان دعيّ لبني أمية يقال له: خالد بن عبد الله لا يزال يشتم عليّاً عليه السلام، فلما كان يوم الجمعة وهو يخطب الناس قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله وإنه ليعلم ما هو، ولكنه كان ختنه، وقد نعس سعيد بن المسيب ففتح عينيه، ثم قال: وَيْحَكم، ما قال هذا الخبيث؟ رأيت القبر انصدع، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كذبت يا عدو الله[1].

وعن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة رحمها الله، فقالت لي: أيُسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم؟ قلت: معاذ الله أو سبحان الله؟ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من سبّ علياً فقد سبّني[2].

وروى عدي بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة مما يلي أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب فحمد الله ثم ذكر ما يشاء أن يذكر، ثم وقع في عليّ عليه السلام فضرب إبراهيم فخذي أو ركبتي، ثم قال: أقبل عَليّ فحدّثني فإنّا لسنا في جمعة، ألا تسمع ما يقول هذا؟[3]

وعن أشعب بن سوار قال: سبّ عدي بن أرطأة علياً عليه السلام على المنبر فبكى الحسن البصري، وقال: لقد سُبّ هذا اليوم رجل وإنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة[4].

---

(١) شرح النهج ١٣: ٢٢٢.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٦: ٣٢٢، ونحو هذه الرواية في شرح النهج ١٣: ٢٢٢، وفي تاريخ دمشق رقم ٦٥٩ من ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المجلد الثاني من تحقيق المحمودي ص ١٨٢ ورواه البلاذري أيضاً في الحديث ٢١٦ من ترجمة أمير المؤمنين من كتاب الأنساب ١: ٣٣٥، بتحقيق المحمودي أيضاً، ورواه المتّقي الهندي في الكنز الحديث ٣٧٥ من فضائل الإمام ١٥: ١٢٨ ورواه نور الدين في الخصائص حديث ٨٥ ص ٩٩، والحاكم في المستدرك باب مناقب الإمام ٣: ١٢١ راجع هوامش الشيخ محمد باقر المحمودي على أنساب الأشراف في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ٢: ١٨٢ ـ ١٨٣، وهوامشه على تاريخ ابن عساكر في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ٢: ١٨٢ ـ ١٨٣. (ورواه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٣٠ والنسائي في الخصائص).

(٣) شرح النهج ١٣: ٢٢١.

(٤) المصدر نفسه.

وعن عبد الله بن ظالم قال: لما بويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً عليه السلام فقال سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل: ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة[١].

وروى الطبري عن عليّ بن محمّد قال: خطب بُسر على منبر البصرة فشتم علياً عليه السلام، ثم قال: نشدت الله رجلاً علم إنني صادق إلا صدّقني، أو كاذب إلّا كذبني، قال: فقال أبو بكرة: اللهم إنّا لا نعلمك إلا كاذباً، قال: فأمر فخُنق، قال: فقام أبو لؤلؤة الضبي فرمى بنفسه عليه فمنعه، فأقطعه أبو بكرة بعد ذلك مائة جريب.

قال: وقيل لأبي بكرة: ما أردت إلى ما صنعت؟

قال: أيُنشدنا بالله ثم لا نصدقه؟[٢]

وكان المغيرة بن شعبة إذا شتم الإمام يقول له حجر بن عدي: بل إيّاكم ذم الله ولعن، ثم يقول: أنا أشهد إنّ من تذمون أحق بالفضل ومن تتركون أولى بالذم[٣].

فلما كان في آخر إمارته ـ أي المغيرة ـ قال في عليّ وعثمان ما كان يقول، فقام حجر فصاح صيحةً سمعها كل من بالمسجد: مُر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنّا، وليس ذلك لك. وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين. فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون صدق حجر وبرّ[٤].

وطلب المغيرة من صعصعة بن صوحان أن يقوم فيلعن الإمام، فقام في الناس فقال: إنّ أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً، فالعنوه لعنه الله، وهو يضمر المغيرة[٥].

ولمّا ولي خالد بن عبد الله القسري مكة وكان إذا خطب بها لعن علياً عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام.

---

(١) شرح النهج ١٣: ٢٢٠.

(٢) تاريخ الطبري: حوادث سنة ٤١ الجزء السابع ١١: ١٤ طبعة ليدن، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٣: ٤١٤ بيروت ١٣٨٥ وروى ابن الأعثم القصة عن عمرو بن أبي أرطأة أخي بُسر وزاد فيها أن أبا بكرة قال لعمرو: كذبت يا عدو الله قد كان علي بن أبي طالب خيراً منك ومن صاحبك الذي ولاك علينا. كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤: ١٦٨ ـ ١٦٩ ط. دائرة المعارف العثمانية بالهند.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٤٧٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) شرح النهج ١٥: ٢٥٧.

فقال عبيد الله بن كثير السهمي فيه:

لعن الله من يسب علياً	وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطهرون جدوداً	والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ	من آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً	أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم	كلما قام قائم بسلام[١]

تلك كانت شواهد هي بقايا من صحوة الضمير في حياة هذه الأمة في تلكَ الليلة المظلمة من عصر بني أمية تتجلّى في مواقف الرفض لسياسة بني أمية.

واستمر بنو أمية على هذه العادة القبيحة في سبّ الإمام وأهل بيته عليهم السلام حتى جاء عمر بن عبد العزيز فقضى على هذه الظاهرة المنكرة في حكم بني أمية.

سياسة الإرهاب والتصفية للمعارضة العلوية:

ولم يكن بإمكان بني أمية أن يكتفوا بالسعي لإسقاط الخط العلوي لدى الرأي العام الإسلامي، والتشهير به فقط.. دون أن يقترن ذلك بتصفية واسعة لرؤوس المعارضة من شيعة عليّ عليه السلام وأصحابه، ونشر الرعب والإرهاب فيما بينهم، ولاسيما في العراق، حيث يكثر شيعة علي عليه السلام ومواله وقد خصّ معاوية العراق لهذا الغرض بالعمّال والولاة الذين كان يعرف فيهم العداء والبغضاء لشيعة عليّ عليه السلام من أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب.

وقد بالغ بنو أمية في ملاحقة شيعة أهل البيت وتصفيتهم وإشاعة الإرهاب بينهم والتشديد عليهم.

يروي ابن أبي الحديد كلاماً للإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام فيما لاقاه شيعتهم من ألوان العذاب والاضطهاد على يد بني أمية نقل جملةً منه:

ثم لم نزل ـ أهل البيت ـ نستذل ونستضام، ونقصى، ونمتهن، ونحرم، ونقتل، ونخاف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا. ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغّضونا إلى الناس. وكان عظم ذلك

(١) المصدر نفسه ١٥: ٢٥٦.

وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام. فقُتلت شيعتنا في كل بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظّنة، وكان من يذكّر بحبنا، والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام. ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظِنةٍ وتهمة حتى أن الرجل ليقال لـه: زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال له: شيعة عليّ[١].

ويحدّثنا محمد بن الحنفية عن طرف من معاناة أهل البيت في هذه الفترة المظلمة من تأريخ الإسلام:

يقول ابن سعيد: وجاء رجل إلى محمد بن الحنفية فقال: كيف أنت؟ فحرّك يده، فقال: كيف أنتم؟ أما آن لكم أن تعرفوا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل في آل فرعون كان يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم[٢].

وقال معاوية يوماً للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله علمت إنّا قتلنا شيعة أبيك، فحنّطناهم وكفّناهم وصلّينا عليهم ودفنّاهم. فقال الحسين عليه السلام: **حَجَجْتك ورب الكعبة، لكنّا والله إنْ قتلنا شيعتك ما كفّناهم ولا حنّطناهم ولا صلّينا عليهم ولا دفنّاهم**[٣].

وقد بدأ معاوية حملة الإبادة والاستئصال لشيعة علي عليه السلام واستمرت هذه الحملة بشكلها الحاد العنيف حتى أواخر حكم آل أمية.

ولعل كتاب الغارات الذي وضعه إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي المتوفى ٢٨٣ هـ يلقي بعض الضوء على غارات الإبادة والاستئصال التي كان يشنها معاوية على أطراف الحجاز واليمن والعراق لإبادة واستئصال شيعة الإمام ومحبيه.

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي في كتاب (الغارات) عن سفيان بن عوف الغامدي قال:

دعاني معاوية، فقال: إنّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمرَّ بهيت فاقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغِرْ عليهم وإلّا فامضِ حتى تغير على

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤، وروى النص عن ابن أبي الحديد المجلسي في البحار ٤٤: ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) الطبقات الكبرى ابن سعد ٥: ٩٥ دار صادر بيروت.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٨ ط. ٤ سنة ١٣٩٤: النجف.

الأنبار فإن لم تجد بها جُنداً فامضِ حتى توغل في المدائن... إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب القلوب، وتفرح كل من لـه فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك وأخرب كلّما مررت به من القرى، واحْرِبِ الأموال فإن حَرَب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب(١).

ونشير هنا إلى بعض المجازر التي حصلت على يد خلفاء بني أمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت في الفترة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

(١) شرح النهج: بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٢: ٨٥ ـ ٨٦ والغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي ٤٦٤ ـ ٤٦٧ ط. طهران بتحقيق السيد جلال الدين المحدث.

مجازر خلفاء بني أمية
وعمّالهم في شيعة أهل البيت عليهم السلام

١ ـ مجازر بُسر بن أرطاة:

بعث معاوية بسر بن أرطاة ـ وكان قاسي القلب سفّاكاً لا رأفة له ولا رحمة، كما يقول الثقفي في الغارات ـ إلى اليمن وقال له: (أقتل شيعة عليّ حيث كانوا)[١]، فأقبل من الشام حتى قدم المدينة (فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ، وتوعدّهم وقال: شاهت الوجوه)[٢].

(ثم شتم الأنصار، فقال: يا معاشر اليهود وأبناء العبيد بني زريق وبني النجّار وبني سالم وبني عبد الأشهل، أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان. أما والله لأدعنّكم أحاديث كالأمم السالفة[٣]، ونزل بُسر فأحرق دار زرارة بن جرول ودار رفاعة بن رافع ودار أبي أيوب الأنصاري[٤].

وعن الوليد بن هشام قال: صعد (بُسر) منبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا أهل المدينة أخضبتم لِحاكُم وقتلتم عثمان مخضوباً والله لا أدع في المسجد مخضوباً إلّا قتلته، ثم قال لأصحابه خذوا بأبواب المسجد وهو يريد أن يستعرضهم، فقام إليه عبد الله بن الزبير وأبو قيس رجل من بني عامر بن لؤي فطلبا إليه حتى كفّ عنهم[٥]، وتوجّه بُسر إلى اليمن وقتل في مسيره ذلك جماعة من شيعة عَلي باليمن[٦].

---

(١) الغارات: للثقفي ٥٩٨ طهران ١٣٩٥ هـ

(٢) المصدر نفسه ٦٠٢ ط. ٢ طهران ١٣٩٥.

(٣) المصدر نفسه ٦٠٣.

(٤) المصدر نفسه ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

(٥) الغارات: ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٦) الكامل٣: ٣٨٤.

وقتل ابني عبيد الله بن عباس (عامل أمير المؤمنين على اليمن) وهما صغيران بين يدي أمهما[١] فولهت أمهما وهامت على وجهها وكانت تأتي المواسم وتنشدهما فتقول:

يا من أحسّ بابني الذين هما كالدرتين تشظّى عنهما الصَّدف
يا من أحسّ بابنيّ الذين هما مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
يا من أحسّ بابنيّ الذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
نُبِئْت بُسراً وما صدّقت ما زعموا من إفكهم ومن الإثم الذي اقترفوا
أنحى على ودجى ابنيّ مرهفة مشحوذة وكذاك الإثم يقترف
من دلّ والهة حرّى مسلبة على صبيين ضلّا إذ مضى السلف

ولمّا قتل بُسر الغلامين بين يدي أمهما خرج[٢] نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن: هذه الرجال تقتلها فعلام تقتل الولدان؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا في الإسلام. والله إن سلطاناً لا يشتدّ إلى بقتل الرضّع والضعيف ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء، فقال بُسر: والله لهممت أن أضع فيكن السيف. قالت: والله إنّه لأحبّ إليّ[٣].

يقول ابن الأثير: فلما سمع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بُسر فقال: **اللهم اسلبه دينه وعقله،** فأصابه ذلك وفقد عقله فكان يهوي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ فلا يزال يضربه ولم يزل كذلك حتى مات[٤].

وسار بُسر إلى أرحب وقتل فيها أبا كرب وكان سيد من في البادية من همدان فقتله قتلاً ذريعاً[٥]، ثم دخل صنعاء فقتل فيها قوماً، وأتاه وفد من مأرب فقتلهم فلم ينجُ منهم إلّا رجل واحد[٦].

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة في تميز الصحابة ١: ١٥٥ ط. ١ بمصر ١٣٢٨ هـ.
(٢) راجع الغارات ٦١٣ والاستيعاب بترجمة بُسر بهامش الإصابة ١: ١٥٦ والكامل ٣: ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وبحار الأنوار الطبعة الحجرية ١٠: ١٣٠.
(٣) الغارات: ٦١٥ ـ ٦١٦، والكامل ٣: ٣٨٤ باختلاف يسير.
(٤) الكامل لابن الأثير: ٣: ٣٨٥.
(٥) الغارات: ٦١٧ ـ ٦١٨.
(٦) المصدر نفسه: ٦١٨ ـ ٦١٩.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: وأغار بُسر على همدان وسبى نساءهم فكنّ أول مسلمات سُبين في الإسلام[١] وأقمن في السوق[٢].

وكان أبو ذر ﷺ يعوذ بالله من أن يدرك زماناً تُسبى فيه النساء المسلمات ويكشف عن سيقانهن، فأيتهنّ كانت أعظم ساقاً اشتُريت[٣].

٢ ـ مجازر زياد ابن أبيه:

من دهاة العرب والمعروفين بالقسوة وسفك الدماء استعمله معاوية على البصرة ثم أضاف إليه إمارة الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فمكّن لمعاوية في العراقين البصرة والكوفة وأحكم قواعد حكم بني أمية على ـ العراقين ـ بالإرهاب والدم. فكتب إلى معاوية: أنه قد ضبط العراقين البصرة والكوفة بيمينه، وشماله فارغة، فأضاف معاوية إلى إمارته إمارة الحجاز.

ولما عرف أهل المدينة بأن معاوية قد ولّى زياداً إمارة الحجاز (اجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله ﷺ وضجّوا إلى الله، ولاذوا بقبر النبي ﷺ ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعنف)[٤] وقد كان حاقداً على عليّ عليه السلام وشيعته أبلغ ما يكون الحقد، وقاسياً عليهم يتّبعهم في كل مكان ويسلّط عليهم جلاوزته وعمّاله.

يقول ابن أعثم (المتوفّى سنة ٣١٤ هـ) في كتاب الفتوح: (وجعل زياد يتتبّع شيعة علي بن أبي طالب فيقتلهم تحت كل حجَر ومدَر، حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم، وجعل يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، وبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: **اللّهم خذ لنا ولشيعتنا من زياد ابن أبيه، وأرنا فيه نكالاً عاجلاً**)[٥].

ويقول ابن أبي الحديد (المتوفّى سنة ٦٥٦ هـ): فكان (زياد) يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام عليّ عليه السلام[٦] فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٧ ط. ١ بمصر ١٣٢٨ هـ.

(٢) المصدر نفسه ١: ١٥٨.

(٣) المصدر نفسه ١: ١٥٧.

(٤) مروج الذهب ٣: ٢٦ فهارس يوسف أسعد داغر.

(٥) كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤: ٢٠٣ ط. حيدر آباد الهند دائرة المعارف العثمانية ١٣٨١ هـ.

(٦) كان زياد والياً من قبل الإمام على فارس، فكتب إليه معاوية يتهدده ويغريه فلما قرأ زياد كتابه قام في

والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق معروف منهم[١].

وهذه الصورة التي يرسمها ابن أعثم من مؤرخي القرن الثالث الهجري وابن أبي الحديد من مؤرخي القرن السابع تكفي لتعطينا صورة واضحة عن الفترة الدموية التي حكم فيها زياد بن أبيه على الحجاز والكوفة والبصرة وما والاهما وبضمنها الريّ وخراسان.

ويقول المدائني: (وكان أشد الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة مَن بها مِن شيعة عليّ عليه السلام فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، وضمّ إليه البصرة فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام عليّ عليه السلام فقتلهم تحت كل حَجَر.

ويروي الطبري قصة من قصص الإرهاب العجيبة في حكم زياد تكشف لنا أبعاد المجازر الرهيبة في أيام زياد وخلاصة هذه القصة: أنّ زياداً لما مات المغيرة وأنيطت به ولاية الكوفة، جاء إلى الكوفة وصعد المنبر فخطب في الناس فَحُصِبَ وهو على المنبر. يقول الطبري: فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصّته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد، ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدري مَنْ جليسي.

ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما منّا من حصبك فمن حلف خلّاه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار إلى ثلثين، ويقال: بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان[٢].

ويقول ابن الأثير: (وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية وأخذ بالظِنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً)[٣].

وروى اليعقوبي (المتوفى ٢٩٢ هـ) والمسعودي (المتوفى ٣٤٦ هـ): أن زياداً جمع جمعاً من شيعة الإمام عليه السلام في أخريات حياته ليعرض عليهم البراءة من الإمام ولعنه، فإن لم يتبرأوا ولم يلعنوا قَتلهم، فعجّل الله تعالى بهلاك الطاغية قبل أن يصل إلى غايته[٤].

الناس وقال: (العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد (أي معاوية) ورأس النفاق يخوّفني بقصده إيّاي وبيني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٤٤.

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤.

(٢) تاريخ الطبري حوادث سنة ٥٠ الجزء السابع ١١: ٨٨ طبعة ليدن.

(٣) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٥٠.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣. والمسعودي ٣: ٢٦.

وأما ابن أبي الحديد (المتوفّى ٦٥٦) فقد روى الرواية بالشكل التالي: وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراء من علي عليه السلام ولعنه وأن يقتل كل من امتنع من ذلك، ويخرّب منزله فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام[١].

ومن أقبح ما عمله زياد إغراء معاوية بقتل الصحابي الجليل حجر بن عدي رحمه الله واثني عشر شخصاً من أصحابه.

وقد ذكر الطبري أسماء النفر الذين بعث بهم زياد إلى معاوية لقتلهم، وهم: (حجر بن عدي بن جبلة الكندي، والأرقم بن عبد الله الكندي من بني الأرقم، وشريك بن شداد الحضرمي، وصَفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي، وكريم بن العفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي، وكدام بن حيان، وعبد الرحمن بن حسان العنزيان من بني تميم، ومحرز بن شهاب التميمي من بني منقر، وعبد الله بن حوبة السعدي... مضوا بهم حتى نزلوا مرج عذراء فحبسوا بها ثم إن زياداً أتبعهم برجلين آخرين مع عامر بن الأسود العجلي، بعتبة بن الأخنس من بني سعد، وسعد بن نمران الهمداني فتمّوا أربعة عشر رجلا)[٢].

فقتل معاوية جمعاً منهم بمرج عذراء من دمشق صبراً من غير مخالفة لله ولرسوله وكان منهم حجر بن عدي العبد الصالح وجمع من خيار المسلمين من شيعة الإمام ومواليه.

يقول الدكتور طه حسين في هذه الجريمة:

وهكذا انتهت هذه المأساة المنكرة التي استباح فيها أمير من أمراء المسلمين أن يعاقب الناس على معارضته، وأن يكره وجوه الناس وأشرافهم على أن يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً... استباح أمير من أمراء المسلمين لنفسه هذا الإثم واستحلّ هذه البدع واستباح إمام من أئمّة المسلمين أن يقضي بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم دون أن يراهم أو يسمع لهم، أو يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم[٣].

---

(١) شرح النهج ٤: ٥٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري: ط. ليدن القسم الثاني من الكتاب ٧: ١٣٦ ويروي الطبري قصة استشهاد حجر بن عدي وأصحابه في هذا الموضع من الكتاب بتفصيل، وكذلك راجع اليعقوبي: ٢١٨، والاستيعاب في ترجمة حجر بهامش الإصابة: ١: ٣٥٦.

(٣) الفتنة الكبرى: علي وبنوه للدكتور طه حسين: ٢٤٣.

وتسبّب زياد كذلك في قتل الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي ﷺ، حيث طارده فخرج إلى الموصل متخفياً فقبض عليه عامل الأمويين على الموصل فضرب عنقه ونصب رأسه على رمح وطِيف به، فكان أول رأس طيف به في الإسلام[١].

وقد أثار مقتل الصحابيين الجليلين حجر وعمرو رحمهما الله مشاعر المسلمين وفيهما كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية يؤنّبه في هاتين الجريمتين اللتين شاركه فيهما عماله، فيقول عليه السلام:

«ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة[٢] جرأةً على الله واستخفافاً بعهده.

أولست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟»[٣].

٣ ـ جرائم سمرة بن جندب:

ونصّب زياد بن أبيه سمرة بن جندب خليفة على إمارة البصرة في فترة غيابه، عن البصرة. فقد كان زياد يوزّع سنته إلى شطرين يقضي شطراً منها في الكوفة وشطراً في البصرة.

وكان سمرة ينوب عنه في ملاحقة الشيعة وسفك الدماء عند غيابه عن البصرة، وقد كان سمرة جلّاداً معروفاً بسفك الدماء وبغض علي بن أبي طالب عليه السلام..

وقد عمل سمرة في غياب زياد من المجازر ما لم يفعله زياد نفسه.

يروي الطبري عن محمد بن سليم، قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قد قتل أحداً؟

قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت مثلهم ما خشيت[٤].

---

(١) راجع اليعقوبي٢: ٢١٩، والإصابة للعسقلاني٢: ٥٣٣، ط. ١ بمصر ١٣٢٨ هـ
(٢) في عهده إلى الإمام الحسن عليه السلام.
(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة١: ١٨١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٨هـ
(٤) الطبري حوادث سنة خمسين ٧: ١١: ٩٠ طبعة ليدن.

ويروي الطبري أيضاً عن أبي سوّار العدوي، قال: قتل سمرة من قومي غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن[١].

ويروي الطبري أيضاً عن عوف قال: أقبل سمرة من المدينة فلمّا كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففاجأ أوائل الخيل فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة، قال: ثم مضت الخيل. فأتى عليه سمرة وهو متشحّط في دمه. فقال: ما هذا؟

قيل: أصابته أوائل خيل الأمير، قال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتّقوا أسنّتنا[٢].

وكثيرة هي القصص التي تروى في ظلم وقسوة سمرة بن جندب من هذا القبيل.

وأياً ما سيكون الأمر فقد وضع بنو أمية قواعد حكمهم وسلطانهم على التشهير بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وإعلان العداء له وحمل المسلمين على التنكر له ومحاربة فضائله بكل الصور الممكنة ومحاربة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

عداء عليّ عداء لرسول الله صلى الله عليه وآله:

ونحن لا نشك أن هذه الظاهرة بمفردها تشكّل علامة استفهام كبيرة على إيمان بني أمية وولائهم ولرسوله وللمؤمنين.

فقد تواترت الروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أن حبّ عليّ من حب رسول الله، وبغضه من بغض رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن حبّ أمير المؤمنين من علامات الإيمان، وبعكسه كره وعداؤه من علامات النفاق.

ونحن ننقل هنا جملة مما رواه الحاكم النيسابوري في مستدرك الصحيحين من الأحاديث الصحيحة في الدلالة الإيمانية لحب عليّ عليه السلام وبغضه.

قال رجل لسلمان: ما أشد حبك لعليّ، قال: سمعت رسول الله يقول: **من أحبّ علياً فقد أحبني، ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني.**

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[٣]، وعن عمار بن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مستدرك الحاكم النيسابوري ٣: ١٢٠ كتاب معرفة الصحابة مكتب المطبوعات الإسلامية حلب.

ياسر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **يا عليّ طوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك.**

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نظر النبي ﷺ إلى علي فقال: **يا عليّ أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله، والويل لمن أبغضك**، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ما كنا نعرف المنافقين إلّا بتكذيبهم الله ورسوله والتخلّف عن الصلاة، والبغض لعليّ بن أبي طالب.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم[٣].

عن حيان الأسدي: سمعت عليّاً يقول: **قال لي رسول الله ﷺ**: إن الأمة ستغدر بك بعدي وأنت تعيش على ملّتي وتقتل على سنتي من أحبك أحبّني ومن أبغضك أبغضني[٤].

وعن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة رضي الله عنها فقالت لي: أيُسب رسول الله ﷺ فيكم؟ فقلت: معاذ الله... فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **من سبّ عليّاً فقد سبّني**. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد[٥].

وعن عمرو بن شاس الأسلمي عن رسول الله ﷺ: **«من آذى عليّاً فقد آذاني»**[٦].

هذه نبذة من الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ وأصحابه في حبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كان بنو أمية لا يقفون عند بغض الإمام وكراهته، وإنما كانوا يحاربون الإمام وأهل بيته وشيعته ويعلنون هذه الحرب، ويضعون أسس حكمهم وسلطانهم على ذلك.

---

(١) مستدرك الحاكم ٣: ١٣٥.
(٢) المصدر نفسه ٣: ١٢٨.
(٣) المصدر السابق ٣: ١٢٩.
(٤) المصدر نفسه ٣: ١٤٢.
(٥) المصدر نفسه ٣: ١٢١.
(٦) المصدر نفسه ٣: ١٢٢.



الفصل الثامن

سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين





سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين

كان الحرمان الشريفان مكة المكرمة والمدينة المنوّرة يحتلان محلاً رفيعاً في نفوس المسلمين. وكان يسكن هاتين البقعتين المباركتين بقية من الأنصار والمهاجرين والتابعين لهم بإحسان وأبناء المهاجرين والأنصار.

ورغم محاولات بني أمية الكثيرة فإن الحرمين الشريفين كانا يشكلان قاعدتين للمعارضة السياسية لبني أمية، ولم يتمكن معاوية والحكام الذين جاؤوا من بعده من تليين صلابة المعارضة في الحرمين الشريفين وإخضاعها لسلطان بني أمية بشكل مطلق، وإسكاتها إزاء طيش بني أمية ونزقهم وتجاوزاتهم رغم وسائل الإغراء والإرهاب الكثيرة التي استخدمها بنو أمية لترويض الحرمين الشريفين، ولذلك كان الحرمان الشريفان دائماً مصدر قلق للشام.. ولم يكن من اليسير أن تستسلم مكة المكرمة والمدينة المنورة للشام، وما يجري فيها على أيدي بني أمية من خروج سافر على أحكام الإسلام وتعليماته.

وقد حاول معاوية ومن بعده يزيد إخضاع الحرمين الشريفين بالقوة، ووقعة الحرّة التي أباح فيها يزيد بن معاوية المدينة المنورة معروفة، ومحاصرة مكة المكرمة مشهورة في التاريخ.

ولكن ذلك كلّه لم يجد نفعاً كبيراً في إخضاع هذين المركزين الإسلاميين لسلطان بني أمية.

ولذلك فقد اتبع بنو أمية سياسة متعددة الأبعاد للسيطرة على الحرمين الشريفين نشير إلى بعض النقاط الأساسية في هذه السياسة بإيجاز.

إشاعة اللهو والطرب في الحرمين الشريفين:

حاول بنو أمية أن يدخلوا اللهو والطرب في هذين المركزين الإسلاميين، وسعوا إلى ذلك سعياً بليغاً واستخدموا لذلك المغنّين والمطربين وشعراء الهوى والغرام وبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وبلغوا في ذلك أيّ مبلغ حتى أن الخليفة كان يحج إلى بيت الله فيصطحب معه فيما يصطحب المغنّين والمطربين والماجنين والماجنات والزناة والعصاة، ولقد

حج الوليد بن عبد الملك فالتقى بعمر بن أبي ربيعة فجعل يحدّث الخليفة ويناجيه والخليفة مستغرق في الضحك، لا يملك نفسه من الضحك. فلمّا رجع عمر قيل له: ما الذي كنت تضحك أمير المؤمنين به؟ فقال: ما زلنا في حديث الزنى حتى رجعنا[١].

وتحج فاطمة بنت عبد الملك بن مروان إلى بيت الله فتبعث وهي في منى إلى عمر بن أبي ربيعة لتلتقيه[٢] ثم تغريه وتثيره ليشبب بها[٣].

ويتعرض عمر بن أبي ربيعة لأم الحكم الأموية، في الطواف ويتشبب بها[٤] ويلتقي في مكة أم محمد بنت مروان بن الحكم وهي حاجّة ويتشبب بها[٥] ويقول:

فـفـؤادي بـالـخـيـف أمـسـى مـعـارا　　　من يـكـن قـلـبـه صـحـيـحاً سـليـماً

وتستدعي فتيات من بني أمية حاجّات!!! عمر في الحج ليمازحنه، فيأخذن معه في مجون قبيح، ويأخذ معهنّ بمجون أقبح لا نريد أن نذكره هنا[٦].

ويتشبب بنوار في منى[٧] وبفاطمة بنت محمد الأشعث الكندية[٨] ويلتقي بها[٩] في أجواء الموسم والمشاعر ويتشبب في الحج بزينب بنت موسى الجمحية[١٠].

ويواعد فتيات من قريش في وادي العقيق ويحضر الموعد معهنّ في مجلس ماجن خليع[١١].

ويفرش للخليفة الوليد بن عبد الملك بظهر الكعبة، ويجلس بظهر الكعبة ويستمع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة ويطرب[١٢].

---

(١) الأغاني ١: ١١٢ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (دار الكتب المصرية)١٣٨٣ هـ.
(٢) المصدر نفسه ١: ١٩٠.
(٣) المصدر نفسه ١: ١٩٥.
(٤) المصدر نفسه ١: ١٦٠.
(٥) المصدر نفسه ١: ١٦٦.
(٦) المصدر نفسه ١: ١٦٩.
(٧) الأغاني ١: ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٨) المصدر نفسه ١: ٨٤.
(٩) المصدر نفسه ١: ٨٩.
(١٠) المصدر نفسه ١: ٩١ ـ ٩٤.
(١١) المصدر نفسه ١: ١٥٠.
(١٢) المصدر نفسه ١: ١١٩.

ويتشبب بلبابة بنت عبد الله بن العباس زوجة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهي تطوف البيت الحرام[١] وبعائشة بنت طلحة وهي تطوف[٢] ويستمر في ملاحقتها ومتابعتها بمرأى ومسمع من الناس حتى يتعرّض لها وهي ترمي الجمار سافرة ويسمعها شعره فيها وتشبيبه بها[٣].

ويتعرّض لليلى بنت الحارث في المسجد الحرام فتقول له: يا بن ربيعة حتى متى لا تزال سادراً في حرم الله تتشبب بالنساء وتشيد بذكرهن، أما تخاف الله؟ فيقول لها: دعيني واسمعي ما قلت:

ظهر الحب بجسمي وبطن	إن حبّي آل ليلى قاتلي
فائتمر أمر رشيد مؤتمن	يا أبا الحارث قلبي طائر
من بني بكر غزالاً قد شدن[٤]	علق القلب وقد كان صحا

ويتشبب برملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية في الحج ويتعرّض لها[٥] وبامرأة في الطواف يقول عنها التاريخ ـ شريفة ولا يسمّونها ـ فتدعو عليه فيهلكه الله[٦].

تُرى من هو عمر بن أبي ربيعة ـ ومثله من شعراء الهوى والمجون في جهاز بني أمية كثير ـ الذي يحوّل الموسم الذي أراده الله تعالى ليكون ذكراً له سبحانه وخشوعاً وعبادة، إلى موسم للمجون والخلاعة بهذه الصورة التي ينقل أبو الفرج الأصفهاني إلينا طرفاً منه؟ ومن هو هذا الشاعر الخليع الماجن الذي يتعرض لأعراض المسلمين في الطواف ومنى عند الزحام عند العقبة الأولى والثانية والكبرى ويتواعد معهن سراً ويشهّر بهنّ ويتشبب بهنّ جهاراً، وفيهنّ أميرات البلاط الأموي من بنات الخلفاء وزوجات أمراء القصر الأموي في الشام.

ويتحدث الناس بأحاديث مجونه وخلاعته في الحج... فلا يتعرض له أحد ولا يمنعه أحد من المسلمين من التعريض بأعراض المسلمين و(التشهير) بهن في موسم الحج.

أما أنا فلا أكاد أصدق عفوية ذلك، ولا أصدّق أن عمر بن أبي ربيعة قادر على

---

(١) المصدر نفسه ١: ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه ١: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه ١: ٢٠٠.

(٤) الأغاني ١: ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه ١: ٢١٤ ـ ٢١٦.

(٦) المصدر نفسه ١: ٢٤٧.

شيء من ذلك، إن لم يكن قصر الخلافة في الشام يدعمه ويسنده، بل ويدفعه إلى ذلك ويشجّعه.

أوَ لم يكن الخليفة نفسه يفرش لـه على ظهر الكعبة ويجالسه ليستمع إلى شعره الماجن الخليع ويطرب لـه، وهو في المسجد الحرام على ظهر الكعبة؟ أوَ لم يكن الخليفة نفسه يجاريه، وهو ذاهب للحج، ويماشيه، ويستغرق معه في حديث طويل عن (الزنى) ويضحك لأحاديثه؟

لقد كان بنو أمية إذاً يعملون لإشاعة المجون والخلاعة في الحرمين الشريفين ويشجّعون ذلك.

يقول المسعودي في تاريخ يزيد بن معاوية: (وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب)[١].

ويضع الشيخ عبد الله العلائلي اصبعه بدقة على موضع الجرح العميق في أيام بني أمية فيقول: (وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا العاصمتين (مكة والمدينة) بمسحة لا تليق بجعلهما صالحتين للزعامة الدينية.

وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت إلا المخنثين ورجلاً يصنع الأخبار والطرائف)[٢].

التضييق الاقتصادي على الحرمين الشريفين:

والضغوط المادية طريقة أخرى كان يستعملها بنو أمية لإرضاخ الحرمين الشريفين للمشاريع الأموية في الخلافة.

فقد حبس معاوية عطاء أهل المدينة عندما وقفوا موقفاً سلبياً من مبايعة يزيد بولاية العهد.

كما أن سعر الحنطة الرسمي عند أهل المدينة كان يختلف عن سعر الحنطة في الشام. ولما تولّى يزيد بن معاوية الخلافة هدد أهل المدينة بالقتل الذريع والدمار إذا خرجوا عن أمره وسلطانه، وأغراهم بأن يعيد عليهم عطاءهم الذي حبسه أبوه عنهم ويساوي بينهم وبين أهل

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٧.

(٢) سموّ المعنى في سموّ الذات ٣٠.

الشام في سعر الحنطة، إذا رضخوا لأمره واقتنعوا باستحقاقه للخلافة. ويبعث يزيد ـ فيما يرويه ابن قتيبة ـ إلى أهل المدينة عهداً يغريهم به للانقياد لحكومته وعدم الخروج عليه: (ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا (أي في الشام) والحنطة عندهم سبع أصع بدرهم، والعطاء الذي يذكرون أنه احتُبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ أن أخرجه لهم وافراً كاملاً)[١].

وقد بلغ من تضييق بني أمية على الأنصار خاصة أنّ معاوية لمّا قدم إلى المدينة لم يكن لرجالهم وشخصياتهم دواب يستقبلون معاوية عليها.

(قال عبد الله بن محمد بن عقيل: قدم معاوية المدينة فلقيه أبو قتادة الأنصاري، فقال معاوية: تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار، قال: لم يكن لنا دوابّ. فقال: فأين النواضح؟

قال: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر)[٢].

نظرة بني امية إلى الأنصار:

كان بنو أمية ساخطين على الأنصار سخطاً واضحاً، وكان بعض أسباب هذا السخط موقف الأنصار من معاوية في خلافه مع الإمام عليه السلام وحرب صفين. فلم يكن مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير أما سائر الأنصار فقد كانوا مع الإمام علي عليه السلام.

وكان يزيد بن معاوية قد طلب من كعب بن الجعيل أن يهجو الأنصار، فقال له: أرادّي أنت إلى الكفر بعد الإسلام؟ أأهجو قوماً آووا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونصروه؟ قال: أما إذا كنت غير فاعل فأرشدني إلى من يفعل ذلك. قال: غلام منّا خبيث الدين نصراني، فدله على (الأخطل)[٣] فدعاه (يزيد) فقال له: أهج الأنصار. فقال: أفرَق (أخاف) من أمير المؤمنين (أي معاوية).

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٠٧ ط. ١٩٦٩مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٨. ويقول اليعقوبي في تاريخه ٢: ٣١١ ط. النجف ١٣٩٤: وقال لهم (أي قال معاوية للأنصار): ما فعلت نواضحكم؟ قالوا: أفنيناها يوم بدر لما قتلنا أخاك وجدك وخالك، لكننا نفعل ما أوصانا به رسول الله: قال: ما أوصاكم به؟ قالوا: أوصانا بالصبر. قال: فاصبروا. ثم أولج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة.

(٣) الأغاني ١٦: ٣٧ ـ ٣٨ دار الكتب.

قال: لا تخف شيئاً أنا بذلك لك، فهجاهم فقال:

خلّوا المكارم لستم من أهلها	وخذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم	أولاد كــل مــقــبّــح أكــار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا	واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير (الأنصاري)، فدخل على معاوية فحسر عمامته عن رأسه، وقال: يا أمير المؤمنين أترى لؤماً؟ قال: بل أرى كرماً وخيراً، فما ذاك؟

قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار. قال: أوفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: لك لسانه[١]. فلما أحضر معاوية الأخطل ليعاقبه تدخّل يزيد في أمره فخلّى معاوية سبيله[٢] وأرضى النعمان بن بشير.

ولما قدم معاوية إلى المدينة استقبله وفد من الأنصار (فأغلظ لهم في القول، وقال لهم: ما فعلت نواضحكم؟) فردّه الأنصار ردّاً قوياً (قالوا: أفنيناها يوم بدر لمّا قتلنا أخاك وجدك وخالك... ثم أولج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة)[٣].

وألقى عمرو بن العاص إلى معاوية إلغاء لقب الأنصار بصورة رسمية وطلب منه أن يردّهم إلى أنسابهم التي كانوا ينتسبون إليها في الجاهلية.

وكان يريد بذلك، كما هو مفهوم، أن يسلبهم الموقع الذي يمنحهم عنوان الأنصار.

واستجاب له معاوية في خوف وحذر إلا أنّ الأنصار انتبهوا للمؤامرة الأموية وأبطلوها في وقتها.

يقول أبو الفرج الأصفهاني:

حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبي سفيان فخرج إليهم حاجبه... فقالوا: استأذن للأنصار، فدخل إليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم. فقال له عمرو: ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم إلى أنسابهم، فقال معاوية: إنّي أخاف من ذلك الشّنعة، فقال (على طريقته العاصية): هي كلمة تقولها، إن مضت عضّتهم ونقصتهم، وإلا فهذا الاسم راجع إليهم.

---

(١) الأغاني١٦: ٣٥ ـ ٣٦ راجع طبقات الشعراء: ٣٩٢.

(٢) الأغاني٦: ٣٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي٢: ٢١١ ط. النجف سنة ١٣٩٤ هـ

فقال لـه: اخرج، فقل: من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل... فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار. فنظر معاوية إلى عمرو نَظَراً منكراً (وكأنه يقول: ألم أقل لك) فقال لـه: باعدت جداً (هات بنسب أقرب منه).

فقال: أخرج فقل: من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل فخرج فقالها. فلم يدخل أحد.

فقال لـه معاوية: أخرج فقل: من كان ههنا من الأنصار فليدخل. فخرج فقالها. فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير وهو يقول:

يا سعد لا تعد الدعاء فما لنا ... نسب نُجيب به سوى الأنصار

نسب تخيّره الإله لقومنا[١] ... أثقل به نسباً على الكفار[٢]

إن الذين ثووا ببدر منكم ... يوم القَليب هم وقود النار[٣]

الأمويون يسمّون المدينة بالخبيثة:

وكان من سخط الأمويين على المدينة وأهلها أنهم كانوا يسمّون المدينة المنوّرة ـ التي أسماها رسول الله بـ (الطيبة) ـ بـ (الخبيثة)، وقد ورد هذا المعنى في مجموعة من المصادر التأريخية وكان مما أنكره الناس على بني أمية.

يقول ابن أبي الحديد: (ومما كفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سمّاها (خبيثة) مراغمةً لرسول الله ﷺ)[٤].

---

(١) التسمية بالأنصار وردت في آيتين من القرآن الكريم قرنت اسم الأنصار باسم المهاجرين في الآية ١٠٠ من سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وفي الآية ١١٧ من نفس السورة ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢) الأغاني ١٦: ٤٢ ط. دار الكتب المصرية.

(٣) يقول المؤرخون برز رشيد الفارسي وهو مولى من المسلمين لابن عويف من المشركين في معركة أحد فضربه على عاتقه فقطع الدرع حتى جزله باثنتين وقال لابن عويف: خذها وأنا الغلام الفارسي، فقال له رسول الله وهو يراه ويسمعه: ألا قلت أنا الغلام الأنصاري فلما سقط ابن عويف أقبل أخ لابن عويف يعدو كأنه كلب وهو يقول: أنا ابن عويف فضربه رشيد أيضاً على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاري. فتبسّم رسول الله وقال: أحسنت يا أبا عبد الله، فكنّاه رسول الله يومئذٍ ولا ولد له. شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٥٤.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ٩: ٢٣٨.

ويروي ابن قتيبة (عن أبي معشر: قال لي رجل بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممّن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة. قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت: سبحان الله رسول الله ﷺ سماها طيبة، وسميتها خبيثة)[١]. وساق الخبر إلى آخره...

الحيلولة بين الناس وبين زيارة مرقد رسول الله ﷺ:

وقد كان يغيظ بني أمية وعمّالهم إقبال المسلمين على زيارة مرقد رسول الله واحترامهم للتربة الطاهرة التي تؤوي الجثمان الطاهر ويعملون بشكل أو بآخر في الإساءة إلى رسول الله ﷺ.

وكان ذلك يظهر على فلتات لسانهم في ساعة الغضب والانفعال بين حين وآخر.

يقول ابن أبي الحديد: (وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ بالمدينة. فقال: تبّاً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هلّا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله)[٢].

نقل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام:

وكان من جملة الخطط الأموية في كسر حرمة المدينة المنوّرة، نقل المركز الديني إلى الشام في قُبال الحرمين الشريفين وحاول معاوية بن أبي سفيان أن ينقل المنبر النبوي إلى الشام.

وقد أغضب الناس ذلك.. فتراجع معاوية عنه، يقول ابن الأثير في حوادث سنة خمسين:

(وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر النبي ﷺ أن يحمل من المدينة إلى الشام (انتقاماً من أهل المدينة) وقال:

لا يترك هو وعصا النبي ﷺ بالمدينة، وهم قتلة عثمان وطلب العصا... فحرّك المنبر فكُسفت الشمس حتى رُؤيت النجوم بادية فأعظم الناس ذلك فتركه...

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢١٥ ـ ٢١٦ ط. سنة ١٣٨٨ هـ ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (الترقيم للمكتبة الشاملة) ٧/ ١٠١. وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٥/ ١٣. والكامل لابن الاثير ٢/ ١٩٢ (الترقيم للمكتبة الشاملة).

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٢٤٢.

وزاد فيه ست درجات واعتذر مما صنع[١].

ونقل السمهودي في وفاء الوفاء: أنّ معاوية لمّا كسفت الشمس اعتذر إلى الناس وقال: أردت أن أنظر ما تحته وخشيت عليه من الأرضة[٢].

وكأنّ ذلك كله لم يكن كافياً ليقلع بنو أمية عن محاولة نقل منبر رسول الله ﷺ إلى الشام، فقد أعاد المحاولة عبد الملك بن مروان، ومن بعده الوليد... فنصحهم الناس فكفّوا عن ذلك.

يقول ابن الأثير:

فلمّا ولّى عبد الملك بن مروان همّ بالمنبر، فقال له قبيصة بن ذؤيب، أذكرك الله أن تفعل، فتركه عبد الملك، فلما كان الوليد ابنه وحجّ همّ بذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز. فقال: كلّم صاحبك ألّا يتعرض للمسجد، ولا لله، فكلّمه عمر فتركه.

ولمّا حجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عمر بما كان من الوليد فقال سليمان: ما لنا ولهذا؟ أخذنا الدنيا فهي في أيدينا، ونريد أن نعهد إلى علم من أعلام الإسلام يوفد إليه (وهذا هو سر كل هذه المحاولات) فنحمله إلى ما قبلنا. هذا لا يصلح[٣].

تضييع معالم قبور شهداء أُحد:

كانت قبور شهداء أحد مزاراً للمسلمين يقصدونها لزيارة الشهداء ويسلّمون عليهم وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يدفن شهداء أحد في الأرض التي فيها صرعوا ولا يدفنوا في المدينة.

قال ابن الأثير: واحتمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صرعوا وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد[٤].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٦٣ ـ ٤٦٤ ط. ١٣٨٥ هـ وقال اليعقوبي (وأراد معاوية) أن يحمل منبر رسول الله فنال المنبر زلزلة حتى ظنّ أنه آخر الدنيا فتركه ثم زاد فيه خمس مراقي. تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٥ ط. النجف سنة ١٣٩٤ هـ.

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ١: ٣٩٨.

(٣) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٦٤.

(٤) الكامل ٢: ١٦٢ ـ ١٦٣. وروى ابن أبي الحديد رواية أخرى عن الواقدي قريبة من رواية ابن الأثير شرح النهج ١٥: ٣٩.

ويروي الواقدي هذه القصة لامرأة من الأنصار فقدت في الحرب زوجها وابنها وأخاها، يقول الواقدي: (وكانت عائشة زوج النبي ﷺ خرجت في نسوة تستروح الخبر (عن أمر المعركة في أحد) حتى إذا كانت بمنقطع الحرة، وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي... لقيت هند بنت عمرو بن حرام، أخت عبد الله بن عمرو بن حرام، تسوق بعيراً لها عليها (جثمان) زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلّاد بن عمرو، وأخيها عبد الله بن عمرو بن حرام أبي جابر.

فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟

قالت هند: خيراً، أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جلل[1]، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

قالت: من هؤلاء؟

قالت: أخي، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح.

قالت: فأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها.. حَلْ[2] تزجر بعيرها.. ثم برك بعيرها.

فقلت: لما عليه؟ (أي إنما برك البعير لثقل الأجساد عليه) قالت: ما ذاك به. لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام.

فلما وجّهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع.

فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فقال رسول الله ﷺ: فإنّ الجمل مأمور. هل قال شيئاً؟

قالت: إن عمرو لما توجَّه إلى أحد استقبل القبلة وقال: اللهم لا تردني إلى أهلي خزياً، وارزُقني الشهادة.

قال رسول الله ﷺ: فلذلك الجمل لا يمضي. إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبّره، منهم عمرو بن الجموح. يا هند ما زالت الملائكة مظللةً على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن. ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم؟

---

(١) أي هيّن.

(٢) كلمة تقال لزجر البعير.

ثم قال: يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله.

قالت هند: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم[١].

وأمر رسول الله ﷺ يوم أحد أن يدفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد. وكان قبرهما مما يلي السيل في وادي أحد فدخل السيل عليهما.

فحفر الناس قبرهما لينفذوا جسديهما من السيل فوجدوهما (وعليهما نمرتان، وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيده على وجهه، فأميطت يده عن جرحه فشخب الدم[٢]، فردت إلى مكانها فسكن الدم).

(قال جابر: فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم وما تغيّر من حاله قليل ولا كثير. فقيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنما كُفن في نمرة خمّر بها وجهه وعلى رجليه الحرمل. فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة. فشاورهم جابر في أن يطيّب بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي وقالوا: لا تحدثوا فيهم)[٣].

كذلك كان أمر الله تعالى في شهداء أحد أن لا يخرج الناس بأجسادهم عن مضاجعهم التي صُرعوا فيها، فَتَمنَّع الجمل عن الحركة إذ وجّه نحو المدينة، وكذلك أمر رسول الله ﷺ بإعادة الشهداء إلى أحد.

... وهكذا وجدوا أجساد شهداء أحد بعد ست وأربعين سنة غِضاضاً كأنهم دفنوا أمس، ولم تتغيّر الحرمل على رجلي أبي جابر ﷺ، ويريد جابر أن يطيب جثمان والده بالمسك فيأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ لئلا يكونوا قد أحدثوا في مقابر شهداء أحد أمراً.

وكان رسول الله يزور شهداء أحد في كل حول ويرفع صوته بالسلام عليهم، وكذلك الخلفاء من بعده[٤].

ويروي ابن أبي الحديد عن الواقدي أن: (فاطمة بنت رسول الله ﷺ (كانت) تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم، وتدعو.

---

(١) المغازي للواقدي ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦. تحقيق الدكتور مارسدن جوشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج رواية الواقدي باختصار ١٥: ٣٧.

(٢) شخب الدم: جرى. النهاية ١: ١٢٨ لابن الأثير.

(٣) كتاب المغازي للواقدي ١: ٢٦٧.

(٤) شرح النهج ١٥: ٤٠.

وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالغابة فيأتي من خلف قبور الشهداء. فيقول: السلام عليكم ثلاثاً، ويقول: لا يسلم عليهم أحد إلا ردّوا عليه يوم القيامة.

قال: ومرّ رسول الله ﷺ على قبر مصعب بن أبي عمير فوقف عليه ودعا، وقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾. ثم قال: إن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم فزوروهم وسلموا عليهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه، وكانت أم سَلَمَة رحمها الله تذهب فتسلّم عليهم في كل شهر مرة، فتظل يومها...)[١].

... وهكذا أصبحت مقابر شهداء أحد مزاراً للمسلمين بتوجيه من رسول الله ﷺ وأهل بيته وصحابته حتى جاء معاوية إلى الحكم، وانفرد بالسلطان فأمر بإجراء قناة من الماء (كظامة) في المنطقة التي دفن فيها شهداء أحد. وكان مجرى القناة يمر بقبور شهداء أحد، فتهيّب عامل معاوية من نبش القبور وإخراج أجساد الشهداء، فكتب إلى معاوية بذلك. فأمره بنبش القبور وتنفيذ مشروع القناة.

يقول ابن سعد في الطبقات: (لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأحد، كتبوا إليه: إنّا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب: انبشوهم. قال فرأيتهم (أي أجساد الشهداء) يحملون على أعناق الرجال كأنّهم قوم نيام وأصابت المسحاة رجل حمزة بن عبد المطلب فانبعثت دماً)[٢].

وقال الواقدي في المغازي: ويقال: إن معاوية لمّا أراد أن يجري (كظامة) ـ والكظامة عين أحدثها معاوية ـ نادى مناديه بالمدينة من كان لـه قتيل بأحد فليشهد، فخرج الناس إلى قتلاهم، فوجدوهم طرايا يتثنّون، فأصابت المسحات رجلاً منهم فشخب دماً.

قال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكراً أبداً... ولقد كانوا يحفرون التراب فكلما حفروا فِتراً من تراب فاح عليهم المسك[٣].

ذلك إجمال القصة التي يشير إليها المؤرخون من اعتداء معاوية على قبور شهداء أُحد

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٤٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ١١ دار صادر بيروت.

(٣) كتاب المغازي للواقدي ١: ٢٦٨. وأورد القصة الإمام الحافظ عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد: ٨٤ تحقيق نزيه حمّاد بيروت دار السفر، ١٣٩١ هـ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤: ٢٦٤.

بعذر إجراء كظامة (قناة) على أرض أحد... وقد جرى ما جرى من انتهاك حرمة الشهداء ونبش قبورهم وحمل أجسادهم على الأعناق وتجاوز مشاعر المسلمين تجاه قبور الشهداء[١].

وقد جرى كل ذلك تحت غطاء هذه الكظامة المزعومة وسكت عنها المؤرخون.

أمّا نحن فنكاد نطمئن إلى أن في الأمر سراً، ووراء هذه الكظامة التي اهتم بها معاوية بهذه الدرجة التي بعثته أن يكاتب عامله في المدينة من الشام ويعاود الكتابة إليه.

إنني أرى أن اهتمام المسلمين بزيارة شهداء أحد كان يتنامى في أيام معاوية بشكل خاص، وكان يحمل في طياته معنى سياسياً خاصاً، فهؤلاء الشهداء ومن بينهم حمزة بن عبد المطلب قتلوا على أيدي المشركين بقيادة أبي سفيان والد معاوية وبزعامة أسرة معاوية، وقد لاكت أم معاوية هند كبد حمزة عليه السلام في عمل وحشي ينم عن حقد عميق تجاه الإسلام والمسلمين.

وكان وادي أحد، ومعركة أحد، وشهداء أحد يشكّلون صفحة سوداء من جرائم بني أمية...

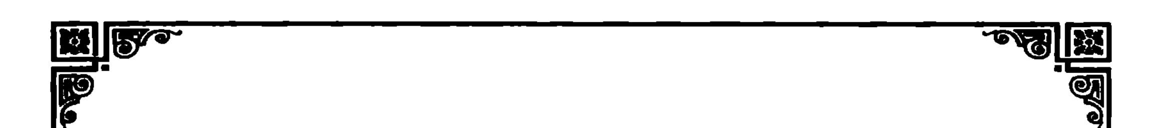
وكانت زيارة المسلمين وأهل المدينة بشكل خاص، وتنامي مظاهر هذه الزيارة تعبيراً عن سخط المسلمين على بني أمية ورفضهم لسلطان بني أمية وحكمهم.

وحاول معاوية أن يعالج الموقف بهذه الصورة فأمر بحفر القناة لتضييع معالم قبور شهداء أحد، وتنتهي به هذه التظاهرة السياسية على حكم بني أمية وخلافتهم... فكان، ولكن ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[٢].

---

(١) راجع للتوسع في هذه النقطة الجهاد لابن المبارك ١/ ٩٨. الطبقات الكبرى محمد بن سعد ٢/ ٥٢٤، دار صادر ـ بيروت.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٢.



الفصل التاسع

نموذج للسياسة الأموية
تجاه الحرمين الشريفين
(مجزرة الحَرّة)

مجزرة الحَرّة في مدينة رسول الله ﷺ

في هذه المجزرة الرهيبة التي تمّت بأمر يزيد بن معاوية في مدينة رسول الله ﷺ استباح فيها بنو أمية حرم رسول الله وانتهكوا حرمة مدينته.

وقد (كان سعيد بن المسيب يسمّي سنيّ يزيد بن معاوية بالشؤم:

في السنة الأولى: قتل الحسين بن علي عليه السلام وأهل بيت رسول الله ﷺ.

والثانية: استُبِيحَ حرم رسول الله ﷺ وانتهكت حرمة المدينة.

والثالثة: سفك الدماء في حرم الله وحرقُ الكعبة)[١].

وكان من قصّة الحرّة التي استباح فيها يزيد حرمة رسول الله ﷺ أن جماعة من وجوه أهل المدينة من أبناء الصحابة وفدوا إلى الشام للقاء يزيد بن معاوية، منهم: عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص، والمنذر بن الزبير، ورجالاً من أشراف أهل المدينة قدموا يزيد.

يقول الطبري:

(فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا من عنده وقدموا المدينة... فأظهروا شتم يزيد وعيبه. وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الحزاب والفتيان)[٢].

فخلعوا طاعة يزيد وبيعته، وخرجوا عليه وطردوا عامله في المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

(وكان عبد الله بن حنظلة الغسيل يقول: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٠. منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٧: ٤٠٣ ط. ليدن: ١٩٥ دار الفكر بيروت.

رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين)[١].

وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتاباً، أمر عثمان بن محمد أن يقرأه عليهم، وهذا هو الكتاب:

أما بعد: فإني قد نفستكم حتى أخلفتكم، ورفعتكم حتى أخرقتكم، ورفعتكم على رأسي، ثم وضعتكم، وايمُ الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدميّ لأطأنّكم وطأةً أقل منها عددكم وأترككم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود، وايمُ الله لا يأتيكم مني أولى من عقوبتي فلا أفلح من ندم[٢].

ثم أرسل يزيد إلى المدينة مسلم بن عقبة لعنه الله، وكان بفلسطين فاستدعاه ووجّهه إلى مدينة رسول الله في جيش كثيف من أهل الشام لمحاربة أهل المدينة فأباحوا مدينة رسول الله ﷺ ثلاثاً، وقتلوا أشراف المسلمين وبقية الصحابة من الأنصار والمهاجرين، وأقاموا فيها ثلاثاً يقتلون الرجال وينهبون الأموال ويهتكون الحرمات في قصة مؤلمة مشجية لا تحتملها القلوب فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال سبط ابن الجوزي:

وذكر المدائني في كتاب (الحرّة) عن الزهري قال: كان القتلى يوم الحرّة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الموالي. وأما من لم يعرف من عبد أو حر أو امرأة فعشرة آلاف، وخاض الناس في الدماء حتى وصلت الدماء إلى قبر رسول الله ﷺ وامتلأت الروضة والمسجد. قال مجاهد التجأ الناس إلى حجرة رسول الله ومنبره والسيف يعمل فيهم[٣].

وقال ابن قتيبة: (ذكروا أنه قتل يوم الحرّة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً، ولم يبق بدريّ بعد ذلك، ومن قريش والأنصار سبعمائة، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف)[٤].

---

(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ٢٥٩ مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١ هـ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١ : ١٩٥ دار الفكر بيروت.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ : ٢٠٧ ط. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(٣) تذكرة الخواص ٢٥٩ مؤسسة أهل البيت بيروت.

(٤) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ : ٢١٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

وقد ذكر اليعقوبي في قصة الحرّة: أنّ أبكار المدينة ولَدْنَ ولا يعرف من أولدهنّ. وفي هامش الأصل من النسخة (ولدت ألف امرأة من وقعة الحرّة من غير أزواج فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من استحلّ ذلك في حرم رسول الله)[١].

(وذكر أبو الحسن المدائني عن أم الهيثم بنت يزيد قالت: رأيت امرأةً من قريش تطوف بالبيت فعرض لها غلام أسود فعانقته وقبّلته. فقلت لها: ما هذا منك؟ قالت: هذا ابني من يوم الحرّة)[٢].

وروى السيوطي في تأريخ الخلفاء قصة الحرّة، فقال: قُتِلَ فيها خلق من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم ونهبت المدينة، وافتضّت فيها ألف عذراء فإنا لله وإنّا إليه راجعون[٣].

وينقل ابن قتيبة الدينوري (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) في كتابه الإمامة والسياسة صوراً من هذه الوقعة الأليمة المفجعة التي اقترفتها أيدي بني أمية نقل فيما يلي شطراً منها:

وخرج يومئذٍ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله ﷺ والخيل تسرع في كل وجه قتلاً ونهباً، فقيل له: لو علم القوم باسمك وصحبتك لم يهيجوك، فلو أعلنتهم بمكانك. فقال: والله لا أقبل لهم أماناً، ولا أبرح حتى أقتل، لا أفلح من ندم، وكان رجلاً أبيض طويلاً أصلع، فأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول: والله لا أبرح حتى أضرب صلعتك وهو حاسر، فقال عبد الله: شر لك خير لي، فضربه بفأسٍ في يده، فرأيت نوراً ساطعاً في السماء، فسقط ميتاً. وكان يومه ذاك صائماً، رحمه الله...

قال: فجعل مسلم يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتلى، فمر على عبد الله بن حنظلة، وهو مادّ اصبعه السبابة، فقال مروان: أما والله لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حياً. ومرّ على إبراهيم بن نعيم، ويده على فرجه، فقال أما والله لئن حفظته في الممات لقد حفظته في الحياة. ومرّ على محمد بن عمرو بن حزم وهو على وجهه واضعاً جبهته بالأرض، فقال: أما والله لئن كنت على وجهك في الممات لطالما افترشته حياً ساجداً لله. فقال مسلم: والله ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة. ومرّ على عبد الله بن زيد وبين عينيه أثر السجود، فلما نظر إليه مروان عرفه، وكره أن يعرّفه لمسلم فيحزّ رأسه، فقال له مسلم: من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٧ منشورات المطبعة الحيدرية النجف الأشرف.

(٢) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ٢٥٩ ط. مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١هـ.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩٤ دار الفكر بيروت.

هذا؟ فقال: بعض هذه الموالي وجاوزه، فقال لـه مسلم: كلّا، وَبيت الله لقد نكبت عنه لشيء فقال لـه مروان، هذا صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن زيد، فقال: ذاك أخزى ناكث بيعته، حزّوا رأسه[١].

ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ من أنت؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا: ما زلنا نسمع عنك، فبحظك أخذت في تركك قتالنا، وكفك عنا، ولزوم بيتك، ولكن أخرج إلينا ما عندك، قال: والله ما عندي مال، فنتفوا لحيته، وضربوه ضربات ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الصواع، وحتى زوج حمام كان له.

وكان جابر بن عبد الله يومئذٍ قد ذهب بصره فجعل يمشي في بعض أزقّة المدينة، وهو يقول: تعس من أخاف الله ورسوله، فقال لـه رجل: ومن أخاف الله ورسوله؟

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبيّ، فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله، فترامى عليه مروان فأجاره[٢].

(ثم أمر مسلم بالأسارى، فغُلُّوا بالحديد، ثم دعا إلى بيعة يزيد، فكان أول من بايع مروان بن الحكم، ثم أكابر بني أمية، حتى أتى على آخرهم ثم دعا بني أسد، وكان عليهم حنقاً، فقال: أتبايعون لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين ولمن استخلف عليكم بعده، على أنّ أموالكم ودماءكم وأنفسكم خول لـه، يقضي فيها ما شاء، فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم، فقال مسلم: والله لا أقبلك، ولا تشرب البارد بعدها أبداً، فأمر بضرب عنقه، ثم أتى بمعقل بن سنان، وكان معقل حاملاً لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله ﷺ فلما دخل قال لـه: أعطشت يا معقل؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، قال: حيّسوا لـه شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين فلمّا شربها قال لـه: رويت؟ قال: نعم. فقال مسلم: أما والله لا تبولها من مثانتك أبداً، فقدم فضرب عنقه، ثم قال: ما كنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك، وكان معقل قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل ذلك فيما بينه وبين مسلم، على الاستراحة بذلك، ثم أمر

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري: ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢١٣ ـ ٢١٤.

بمحمد بن أبي الجهم، وجماعة من وجوه قريش والأنصار وخيار الناس والصحابة والتابعين)[١].

يقول ابن الحجر العسقلاني في فتح الباري:

أخرج أبو بكر بن خيثمة بسند صحيح إلى جويرية بن أسماء سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون: أن معاوية لما احتضر دعا يزيد، فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإني عرفت نصيحته لك فلما ولي يزيد وفد عليه عبد الله بن حنظلة وجماعة فأكرمهم وأجازهم فرجع فحرض الناس على يزيد وعابه ودعاهم إلى خلع يزيد[٢]، فأجابوه.. فكانت الهزيمة (في أهل المدينة) وقتل من قتل وبايع مسلم الناس على أنهم خول ليزيد يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم بما شاء.

ثم قال وأخرج الطبراني من طريق محمد بن سعيد: فأباحها (يعني أباح مسلم بن عقبة المدينة) ثلاثاً، ثم دعاهم إلى بيعة يزيد، وأنهم أعبد له قن في طاعة الله ومعصيته)[٣].

وقال خليفة بن خياط العصفري في التاريخ المعروف باسمه: ودخل الناس إلى المدينة، ودعا الناس إلى البيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية، يحكم في أهليهم ودمائهم وأموالهم ما شاء، حتى أتى بعبد الله بن زمعة، وكان صديقاً ليزيد بن معاوية وصفياً له، فقال: بايع على أنك خول لأمير المؤمنين يحكم في دمك ومالك وأهلك. قال: إني ابن عم أمير المؤمنين يحكم في دمي وأهلي ومالي، فقال: اضربوا عنقه، فوثب مروان فضمه إليه وقال: يبايعك على ما أحببت، قال: والله لا أقبلها منه أبداً، وقال: إن تنحّى وإلّا فاقتلوهما جميعاً، فتركه مروان فضربت عنق ابن زمعة[٤].

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: (فدخل مسرف المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري: ٢١٤.

(٢) لم يكن عبد الله بن حنظلة الغسيل هو وحده الذي ذهب إلى يزيد، وإنما ذهب إليه مع آخرين من التابعين وأبناء الصحابة، فلما رأوا تهتك يزيد وإعلانه للمنكرات اتفقوا على خلع يزيد من الخلافة ويقول عبد الله بن حنظلة: لقد خشينا إن لم نخلعه أن تسقط علينا الحجارة من السماء وتحصب.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦٠/١٣، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٨٣، تحقيق الدكتور سهيل زكار.

خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء)[١].

قال أبو معشر: دخل رجل من أهل الشام على امرأة نُفَساء من نساء الأنصار، ومعها صبي لها، فقال لها: هل من مال؟ قالت لا، والله ما تركوا لي شيئاً، فقال: والله لتخرجنَّ إليّ شيئاً أو لأقتلنّكِ وصبيّكِ هذا، قال: فأخذ برجل الصبيّ، والثدي في فمه فجذبه من حجرها، فضرب به الحائط فانتشر دماغه في الأرض، قال: فلم يخرج من البيت حتى اسودّ نصف وجهه، وصار مثلاً.

قال أبو معشر: قال لي رجل بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: فمن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة، قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت: سبحان الله، رسول الله ﷺ سمّاها طيبة وسميتها خبيثة! قال: فبكى، قلت لـه: ما يبكيك؟ قال: العجب والله، كنت أغزو الصائفة كل عام زمن معاوية، فأتيت في المنام فقيل لي: إنك تغزو المدينة، وتقتل فيها رجلاً يقال لـه محمد بن عمرو بن حزم، وتكون بقتله من أهل النار. قال: فقلت: ما هذا من شأن المدينة، ولا يقع في نفس مدينة الرسول... قال: فقلت: لعلها بعض مدائن الروم، فكنت أغزو ولا أسل فيها سيفاً، حتى مات معاوية، ووليَّ يزيد فضرب قرعة بعث المدينة، فأصابتني القرعة، قال: فقلت: هي هذه والله فأردت أن يأخذوا مني بديلاً، فأبوا. فقلت في نفسي: أما إذا أبوا، فإني لا أسل فيها سيفاً، قال: فحضرت الحرّة فخرج أصحابي يقاتلون، وجلست في فسطاطي، فلمّا فرغوا من القتال، جاءنا أصحابنا، فقالوا: دخلنا وفرغنا من الناس، فقال بعض أصحابي لبعض: تعالوا ننظر إلى القتلى. فتقلدت سيفي وخرجت. فجعلنا ننظر إلى القتلى، ونقول: هذا فلان، وهذا فلان، فإذا رجل في بعض تلك الدارات في يده سيف، وقد أزبد شدقاه، وحوله صرعى من أهل الشام، فلما أبصرني قال: يا كلب أحقن عنّي دمك.

قال: فنسيت والله كل شيء، فحملت عليه فقاتلته فقتلته، فسطع نور بين عينيه وسقط في يدي، قلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا محمد بن عمرو بن حزم، فجعلت أدور مع أصحابي فيقولون: هذا فلان، وهذا فلان، فمرّ إنسان لا يعرف، فقال: من قتل هذا ويحكم، يريد محمد بن عمرو بن حزم! قتله الله، والله لا يرى الجنة بعينه أبداً[٢].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٨/ ١٠٥. وراجع للتوسع والمزيد من المصادر تاريخ الطبري ٤/ ٢٧٩ ـ ٢٨١ (مؤسسة الاعلمي ـ بيروت) وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ٢٩ ط ١٤٠٧. والتنبيه والأشراف للمسعودي ص ٢٦٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢١٥ ـ ٢١٦.

وقفة مع عبد الله بن عمر:

روى البخاري عن أيوب عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر أي (عبد الله بن عمر) حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة) وإنّا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب لـه القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع[1] في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[2].

وكان ابن عمر قد امتنع أولاً عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنه لا يبايع لأميرين في وقت واحد[3].

وهو جواب ضعيف وموقفه أضعف منه، فإن معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميراً وإنما طلب منه أن يبايعه ولياً للعهد.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكنه من اتّخاذ موقف قوي تجاه البيعة ليزيد فقد كان أمر يزيد في فسقه وشربه أشهر من أن يخفى على أحد، وما كان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد بما يعرفه فيه عامة الناس من فسوق وفجور.

إلا أن ابن عمر لم يكن يملك هذه الجرأة والشجاعة، ولم يكن يريد أن يسرع في البيعة قبل غيره من رجال المسلمين، فاعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم فأخذها فدسّ إليه رجلاً فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟

فقال: إن ذاك لذاك (يعني أن ذلك المال لأجل البيعة) إن ديني عندي إذن لرخيص[4].

ولم يرو لنا التاريخ أنه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الأسلوب الملتوي الماكر في أخذ البيعة ليزيد، ولم يزد عبد الله على أن قال بعد أن أدرك المؤامرة: إن ديني عندي إذن لرخيص[5].

(فلما مات معاوية كتب ابن عمر إلى يزيد ببيعته)[6].

---

(١) قرأه الأكثر (ولا تابع في ذلك) وهو أقرب إلى مضمون الرواية.

(٢) صحيح البخاري ٤ : ١٨٨ ط. مصر ١٢٨٦ هـ.

(٣) فتح الباري ١٣ : ٦٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

ثم ما بال ابن عمر الذي عجز أن يتخذ موقفاً قوياً من يزيد بن معاوية في حياة معاوية وبعد وفاة معاوية... يتّخذ هذا الموقف القوي الحاسم من الخارجين على يزيد بن معاوية من المهاجرين والأنصار ومن أبناء المهاجرين والأنصار، وفيهم الصالحون المقيمون للصلاة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر... فيعلن موقفه السلبي من الخروج على يزيد بهذه الصورة الحاسمة: (وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه) والفيصل هنا البراءة الكاملة، ألم يكن يزيد أولى بهذه البراءة والفيصل من أبناء المهاجرين والأنصار ومنهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ﷺ وخيار التابعين وعامة المسلمين من حرم رسول الله؟

ولم ينقل لنا التاريخ أن عبد الله بن عمر غيّر رأيه في يزيد حتى بعد مجزرة الحرّة الرهيبة التي أمر فيها يزيد بإباحة حرم رسول الله ﷺ ثلاثاً فقتل فيها (حنظلة وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثاً، فقتل جماعة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان وقتل بها جماعة من حملة القرآن، وقتل جماعة صبراً منهم معقل ابن سنان ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، وجالت الخيل في مسجد رسول الله ﷺ، وبايع الباقون كرهاً على أنهم خول ليزيد)[١].

كل ذلك، ومن قبله جريمة يزيد في قتال ريحانة رسول الله ﷺ الحسين عليه السلام لم يزحزح شيئاً من ولاء عبد الله بن عمر ليزيد وبراءته من الخارجين عليه، وبقي الفيصل بينه وبين الخارجين على يزيد.

وإليك هذا النص الذي يرويه مسلم لتعلم أن عبد الله بن عمر لم يغيِّر رأيه من البيعة ليزيد حتى بعد وقعة الحرّة الأليمة وبعد استشهاد سيد الشهداء الحسين عليه السلام على يد بني أمية في خلافة يزيد:

وروى مسلم عن زيد بن محمد عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع[٢] حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) إرشاد الساري للقسطلاني ١٠ : ١٩٩.

(٢) كان عبد الله بن مطيع على قريش يوم الحرة وقد فرّ واختبأ عند امرأة في رف لها وجرت له قصة وهو الذي يقول: أنا الذي فررت يوم الحرّة. تهذيب التهذيب ٦ : ٣٦. وراجع العقد الفريد ٥ : ١٣٨.

يقول: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة لـه، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية[١].

ثم أليس عبد الله بن عمر، هو الذي يروي فيما يروي عنه البخاري في كتابه الصحيح (عن النبي ﷺ: السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[٢].

وهل يشك عبد الله بن عمر في أنّ يزيد بن معاوية كان يعصي الله تعالى ويأمر بما حرّمه الله تعالى وينتهك حرمات الله.

أما نحن فمهما شككنا في شيء فلا نشك أنّ عبد الله بن عمر كان يعرف جيداً أن يزيد فاسق، فاجر، منتهك لحرمات الله، يأمر بالمحرمات وينهى عن المعروف، ويقتل النفوس المؤمنة البريئة، ويتجاوز حدود الله من غير تردد ولا حرج. فكيف يريد أن يوفّق عبد الله بن عمر ـ يا ترى ـ بين رأيه هذا الذي يبرّر به موقفه الضعيف من بيعة يزيد وبين حديث رسول الله ﷺ والذي يرويه هو بالذات؟

إن من حقّنا أن نتّهم عبد الله بن عمر في دفاعه عن يزيد بن معاوية ووقوفه إلى جانبه، وفي موقفه الاستسلامي قبله من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردد، وفي موقفه الضعيف الأول من قبول هدية معاوية والاعتذار إليه بأنه لا يريد أن يبايع لأميرين في وقت واحد.

وإنّ من حقنا أن نحتمل أن معاوية قد استطاع أن يستغل ضعف عبد الله أسوأ استغلال ويليّن عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكرة الملتوية المعروفة، والتي لم تخف حتى على عبد الله بن عمر نفسه، بما عرف من بساطة وسذاجة في المسائل السياسية حتى قال: (إن ذاك لذاك، إن ديني عندي إذن لرخيص).

وأعجب من هذا وذاك رأي حملة العلم وحملة السنّة النبوية من عبد الله بن عمر... فقد يكون لعبد الله بن عمر عذر ـ في ظروفه السياسية الصعبة ـ أن يحمل هذا الرأي ويعلن عنه ويعلن ولائه ليزيد بن معاوية وبراءته عن الخارجين عليه، ولكن ما عذر ابن حجر العسقلاني ونظرائه من العلماء وحملة السنّة النبوية أن يفرضوا هذا الموقف الاستسلامي الضعيف على

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٢٢ دار الفكر بيروت كتاب الإمارة: باب الأمر بلزوم الجماعة.

(٢) صحيح البخاري ٤: ١٩١ ط. مصر ١٢٨٦ هـ.

السنّة النبوية المطهّرة الآمرة بالمعروف والناهية عن السكوت على الظالمين.

يقول ابن حجر العسقلاني في شرح هذه الرواية: (وفي هذا الحديث وجوب لطاعة الإمام الذي انعقدت لـه البيعة والمنع من الخروج عليه، ولو جار في حكمه وأنه لا ينخلع بالفسق)[١].

اللهم إن شيئاً من ذلك ليس من الإسلام قط، وليس من روح الإسلام وأصوله وتعاليمه أن يسمح بمثل هذا الرضوخ للظلم والاستسلام لحاكم فاسق من مثل يزيد.

ورحم الله عبد الله بن حنظلة الغسيل حيث كان يقول: (والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء، رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين)[٢].

وهل لابن حجر ونظرائه بصر بالدين أكثر من الصحابة وأبناء الصحابة الذين خرجوا على يزيد طاغية بني أمية.

إن الإسلام في الوقت الذي يأمر بالطاعة والتسليم لله ولرسوله ولأولياء الأمور يحذّر من الطاعة والتسليم في معصية الله ولمن يأمر بالمعصية، وتسقط الطاعة للعصاة وتتحول إلى ذنب يستحق عليه صاحبه العقاب.

والحديث التالي الذي يرويه البخاري عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله يكشف بوضوح عن هذا الاتجاه وأصالته في السنة النبوية، روى البخاري في كتابه الصحيح عن أبي عبد الرحمن عن عليّ رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سريّة وأمّر عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطباً فأوقدوها، فلما همّوا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما اتّبعنا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار، وسكن غضبه، فذكر للنبي ﷺ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»[٣].

---

(١) فتح الباري ١٣: ٦١.

(٢) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ٢٥٩ ط. مؤسسة أهل البيت ١٤٠١ هـ، وبرواية أحمد بن عبد ربه في العقد الفريد ٥: ١٢٦ لما قدم عبد الله بن حنظلة المدينة (من الشام في وفد إلى يزيد) أتاه الناس فقالوا ما وراءك: قال: أتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا: فإنه قد بلغنا أنه أكرمك وأجازك وأعطاك. قال: قد فعل وما قبلت ذلك منه، إلاّ أن أتقوّى به عليه.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٩١ ط. مصر ١٢٨٦ هـ كتاب الأحكام باب السمع والطاعة ما لم تكن معصية.



الفصل العاشر

خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية

خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية في تاريخ الإسلام

استعرضنا إلى هنا نماذجاً وصوراً من أعمال بني أمية في فترة ولايتهم على المسلمين ووجدنا عمق التخريب والتحريف الذي جرى في جهاز الخلافة الإسلامية وفي مساحة العالم الإسلامي على أيدي الحكام من بني أمية في هذه الفترة.

وبعض هذا يكفي لكي نعرف عمق المأساة التي حلّت بالمسلمين بعودة هذه الأسرة العريقة في الجاهلية إلى موقع القيادة ومركز الولاية في المجتمع الإسلامي، بعد أن انتزع منهم الإسلام مواقعهم ونفوذهم وسلطانهم في الجاهلية.

وفيما يلي نستعرض خلاصة عن نتائج هذه الفترة العسيرة من تاريخ المسلمين في النقاط التالية:

١ ـ عودة القيادات الجاهلية:

عادت القيادات والشخصيات الجاهلية إلى مراكز النفوذ والسلطان في المجتمع الإسلامي، بعد أن حاربوا الإسلام طويلاً وأقصاهم الإسلام عن مراكزهم في المجتمع واستبدل بهم أناساً آخرين من المؤمنين الأشدّاء في ذات الله من أمثال: أبي ذر وعمّار وبلال.

وقد كان بنو أمية يحرصون كل الحرص على استعادة أمجادهم ومواقعهم ونفوذهم في الإسلام كالتي كانوا يملكون في الجاهلية. وسمعنا نصيحة أبي سفيان لعثمان بن عفان (أدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار) فصاح به عثمان وزجره.

وقد تولت في هذه الفترة من تأريخ الإسلام فئة مترفة، بعيدة كل البعد عن روح الإسلام من بني أمية وغيرهم، طغوا في البلاد وأشاعوا فيها الفساد، من أمثال مروان بن الحكم ـ الذي صحّ عن رسول الله ﷺ لَعْنُه ـ ومعاوية ويزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم. وقد كان لوجود هذه الطبقة في مراكز النفوذ والحكم أثر بليغ في إفساد المجتمع

الإسلامي وإشاعة الظلم والفساد وانحلال المجتمع. وترى ما يؤول إليه أمر هذا المجتمع الناشئ عندما يتولى حماية الإسلام والقيم الإسلامية فيه ذات الطبقة التي كانت تحارب الإسلام من قبل وتعلن في وجهه العداء، أو امتداد هذه الطبقة.

٢ ـ تحريف الفكر الإسلامي:

وذلك عن طريق وضع الحديث واستخدام (الحديث الموضوع) في تغيير المفاهيم والأفكار والتصورات والقيم الإسلامية واختلاق المناقب والفضائل للخط الذي تتبناه السلطة، واختلاق المثالب للخط الذي تعاديه السلطة... وهكذا امتد الوضع إلى كل القضايا والشؤون والفكر والأشخاص، وأصبحت ظاهرة الوضع ظاهرة خطرة تهدّد وجود الإسلام تهديداً حقيقياً. وقد لاحظنا كيف اتّسعت رقعة الوضع في أيام بني أمية، وكيف كان حكّام بني أمية ابتداءً من معاوية يعملون على تشجيع وضع الحديث على لسان رسول الله ﷺ.

وقد طغى الوضع طغياناً واسعاً وكبيراً وامتد إلى آفاق التوحيد والنبوّة ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نستقصي التصورات والأفكار المنحرفة التي دخلت في الإسلام على يد بني أمية عن طريق انتحال الحديث.

٣ ـ إشاعة الإلحاد:

بدأ الإلحاد يشيع في الحواضر الإسلامية نتيجة ضعف وتفكّك التوجيه الديني وشيوع الفساد في المجتمع وقد كان في أعماق نفوس بني أمية ميل إلى الإلحاد، وتبرز هذه الظاهرة على ألسنتهم تارة وتختفي تارة أخرى. وعدا ما سمعنا من كلمات معاوية وابنه يزيد يروي المؤرخون أن الوليد ومروان بن محمد كانا لا يخفيان ميلهما إلى الإلحاد وكانت هذه الظاهرة تبرز على أحاديثهما بين فترة[١] وأخرى وقد أحاطت بحكام بني أمية طائفة من أصحاب الميول الإلحادية نذكر منهم على سبيل المثال: مطيع بن إياس الشاعر الخليع المعروف الذي مدح عمر بن يزيد بن عبد الملك فأجازه بعشرة آلاف، وقدّمه لأخيه الوليد فانقطع إليه.

ويجد القارئ تفصيل أخباره في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

وقد تفاقمت هذه الظاهرة فيما بعد ـ أيام بني العباس ـ حتى بلغت أيام المهدي العباسي

(١) الفهرست لابن النديم: ٤٧٢.

ذروتها وشعرت الدولة العباسية بالخطر يهدد كيانها وعملت على مكافحتها، والقضاء عليها، وملاحقة أصحابها.

٤ ـ النيل من قدسية رسول الله ﷺ:

النيل من رسول الله ﷺ والانتقاص من مكانة النبوّة حتى كان القائل يقول: إنّ خليفة أحدكم خير من رسوله! مشيراً إلى أنّ الخليفة أفضل من رسول الله ﷺ. وكان الحجاج بن يوسف يؤاخذ المسلمين على زيارة قبر رسول الله ﷺ ويطلب منهم أن يستبدلوا زيارة قصر الخليفة في الشام بزيارة المرقد النبوي الشريف والطواف حوله.

وقد عمل خلفاء بني أمية كثيراً في الانتقاص من مكانة رسول الله ﷺ والنيل من قدسية رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين، وكان معاوية وابنه يزيد ينظران إلى رسول الله ﷺ من زاوية الخلاف التاريخي القديم بين هاشم وأمية، ولم يتمكّنا أن يتخلصا حتى آخر أيامهما من رواسب هذا الخلاف العائلي بين هذين الفخذين من قريش.

٥ ـ محاربة خط أهل البيت عليهم السلام:

وهو الخط الأصيل في الأمة الذي جعله رسول الله ﷺ ردفاً للقرآن في حديث الثقلين المعروف الذي يرويه «مسلم والترمذي» وجمع غفير من المحدّثين من الشيعة والسنّة.

وقد تفنّن بنو أمية في محاربة أهل البيت عليهم السلام والتضييق عليهم وعلى شيعتهم ومحاصرتهم اقتصادياً وتطويقهم بالعيون والمراقبة الدقيقة، وشل حركتهم في المجتمع وقتلهم وسجنهم ومطاردتهم والتنكيل بهم بكل الوسائل.

٦ ـ ترويض الأُمّة للسمع والطاعة للحاكم الظالم:

وقد استخدم بنو أمية وسائل كثيرة لتطويع الأمة وإخضاعها وسلب إرادتها، ليتمكن الجهاز الحاكم أن يحكم الناس بالشكل الذي يريد من غير أن يواجه عصياناً، أو خروجاً عن الطاعة. ونعتقد أن أعمال بني أمية في هذه النقطة كانت تصدر عن مخطط سياسي دقيق ولم تكن أعمالاً عفوية غير موجهة.

ومن هذه الوسائل التي استخدمها بنو أمية لترويض الأمة للسمع والطاعة والانقياد المطلق: إذلال الأمة، وقد قرأنا قريباً فصلاً عن وسائل بني أمية في إذلال المسلمين والختم على أيديهم كما يختمون على أيدي العبيد، وإرغامهم على الاعتراف بأنهم خول وعبيد للخليفة، كما حدث بالنسبة إلى أهل المدينة بعد مجزرة الحرّة.

ومن هذه الوسائل: الإرهاب والبطش وإشاعة الخوف والرعب فيما بين الأمة لشلّ حركتها وتعطيل دورها وفعاليتها. وقد كان الحكام الأمويون يحرصون على توظيف الإرهابيين من أمثال زياد بن أبيه والحجاج وبُسر بن أرطاة والجزار مسلم بن عقبة وغيرهم في أعمالهم وعلى الولايات للقضاء على الخارجين عن الطاعة والمعارضة السياسية، وبشكل خاص شيعة أهل البيت عليهم السلام. وقد ذكرنا جملة من الشواهد والنماذج على ذلك في هذه الدراسة.

ومن هذه الوسائل تبنّي المرجئة الجبريّة، وتكريس فكرة الجبر والحتمية وسلب حرية الإرادة عن الإنسان، وقد كان لهذا التوجيه الفكري أسوأ الأثر في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة، واستفاد حكام بني أمية من هذا الاتجاه الفكري كثيراً في ترويض الناس وتطويقهم، وفي القضاء على حركات التحرر والثورة التي كانت تبرز بين حين وآخر هنا وهناك، وعلى العموم كان بنو أمية يحرصون على تبيين وإشاعة هذا الاتجاه الفكري. ويجد القارئ نماذج كثيرة من دفاعهم وتبنيهم لهذا الرأي وأصحابه في الموسوعات التأريخية.

٧ ـ القضاء على مراكز المقاومة:

القضاء على مراكز المقاومة والوعي في العالم الإسلامي والتضييق على هذه المراكز والبطش بها، وإفسادها والنيل من قدسيتها كالحرمين الشريفين، مكة والمدينة، وكذلك الكوفة، وقد استعرضنا بشيء من التفصيل أعمال بني أمية التخريبية في مكة والمدينة والكوفة، والكوارث التي حلت بهذه البلاد وأهلها على يد حكّام بني أمية... وكيف كان بنو أميّة يسمّون المدينة المنورة بالخبيثة مقابل تسمية رسول الله صلى الله عليه وآله بالطيّبة.

وقد كان حكام بني أمية يستعملون أساليب كثيرة في القضاء على هذه المراكز التي كانت تضم أبناء المهاجرين والأنصار والتابعين وخيار المسلمين وشيعة أهل البيت عليهم السلام، كالإرهاب والتخريب، والمجازر الواسعة، والنيل من قدسيتها، وإشاعة الفساد فيها.. كل ذلك ليطمئنوا على دولتهم من ناحية المعارضة التي كانت تنطلق وتخرج من هذه البلاد.

٨ ـ إثارة النعرة القومية بين المسلمين:

إثارة النعرة القومية فيما بين المسلمين والتميز فيما بين المسلمين العرب وغير العرب من الموالي، ومحاولة طرد المسلمين من غير العرب من الساحة السياسية بل من حواضر العالم الإسلامي أحياناً، كما حدث في عهد معاوية والحجاج، وعدم الاعتراف بإسلامهم لئلا تسقط عنهم الجزية.

وقد قرأنا قريباً رأي معاوية للأحنف بن قيس وسمرة بن جندب عن المسلمين من غير العرب: (إني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت وأراها قد طغت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً، لإقامة السوق وعمارة الطريق).

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى.

ولم يقتصر إفساد بني أمية بهذا الصدد في هذه المساحة فقط، فقد حاولوا إثارة الخلاف بين القبائل العربية، وبين أبناء الأنصار والمهاجرين وتقريب فئة من المسلمين وإقصاء فئة أخرى.. والحديث يطول في هذا المجال وقد ذكرنا نماذج من هذه الأعمال في هذا الفصل.

٩ ـ الإفساد المالي:

استخدم بنو أمية بيت المال لتنفيذ أهدافهم السياسية بشكل واسع، فوسّعوا على جماعة إلى حد التبذير، وضيّقوا على جماعة إلى حد التقتير، ووسّعوا على أهل الشام لولائهم لبني أمية، وضيّقوا على أهل العراق لرأيهم في بني أمية، وأجازوا من يريدون كسب ولائه للمحور الحاكم، ومنعوا عطاء من يشكّون ولائه وموقفه ورأيه في بني أمية من المعارضة وقادتها. وكانوا يرون أنّ هذا المال مال الله وأنهم خلفاء الله في أرضه، يحق لهم أن يضعوا هذا المال أينما يريدون وأسرفوا إسرافاً قبيحاً في صرف المال في لهوهم ومجونهم وفي جوائز الشعراء الذين كانوا يتملّقون إلى الحكام من بني أمية.

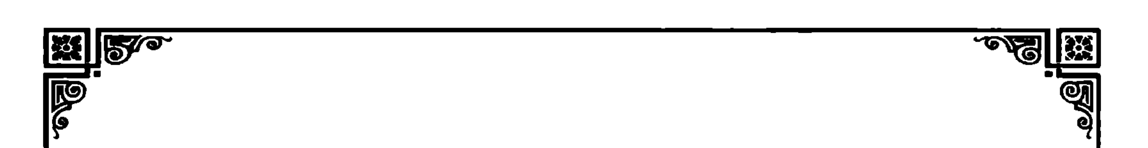
وقد أثّرت هذه السياسة المالية تأثيراً بليغاً في الوضع الاقتصادي العام للمنطقة الإسلامية، واضطرّ الخلفاء إلى الضغط على عمّالهم، والعمال إلى الضغط على المسلمين في جباية الأموال والضرائب، وهكذا تدهورت الحالة الاقتصادية إلى حالة سيئة والحالة السياسية إلى أسوأ.

١٠ ـ إفساد المجتمع:

وذلك بإشاعة اللهو والطرب والغناء والشرب وما يتصل بذلك من ألوان المنكرات.

وكان أقبح ما في هذه السياسة أنّ هذه المنكرات كانت تنحدر من قصر الخلافة وقصور الحكّام والولاة إلى الشارع، ولم تكن تصعد من الشارع إلى قصور الخلفاء والحكام.

فكان الخلفاء يضربون أسوأ المثل للمسلمين في هذا المجال، وبلغ الأمر في شيوع اللهو والغناء والسكر والمجون حداً يتحرّج الإنسان من ذكر جملة واسعة من نماذجها. ودونكم الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي سجلاً حافلاً بمجون الخلفاء وسكرهم ولهوهم وابتذالهم من بني أمية.



الفصل الحادي عشر

الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب




الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب

قدّمنا في ما مضى، صورة مصغّرة عن الفترة التي حكم فيها بنو أمية المجتمع الإسلامي، وما أدخلوا في هذه الفترة من الانحراف والفساد على المجتمع الإسلامي.

وكان أخطر ما في هذا الأمر: أنّ هذا الانحراف كان يجري في المجتمع الإسلامي ويصدر من موقع الشرعية، فقد استطاع معاوية، خلال هذه الفترة بأساليبه الخاصة أن يفرض نفوذه على المجتمع من خلال موقع الخلافة الإسلامية، كما استطاع أن يروّض الناس للطاعة والانقياد، وأن يدخل ما أدخل إلى هذا المجتمع من الفساد والتحريف من خلال هذا الموقع.

كما استطاع أن يرغم الكثيرين، ممن كانوا يعارضون سلطانه وحكمه إلى قبول الأمر الواقع في ولايته وولاية ابنه يزيد من بعده.

وفي مثل هذه الحالة عندما يكون النظام مسيطراً على الساحة سيطرة تامة، ويتمتع بالشرعية... فإن أي انحراف في هذا النظام لا يقتصر مفعوله على المجتمع الإسلامي والساحة السياسية والاجتماعية الإسلامية، وإنما يتجاوز إلى الإسلام فكراً وفقهاً وعقيدةً، وهذا هو ما حدث بالذات.

فقد ورث معاوية من الخلفاء السابقين عليه ميراث الشرعية في الحكم ونصب نفسه أميراً للمؤمنين، وأعدّ لهذه الشرعية ما تتطلبه من تأييد الصحابة والتابعين ورجال المسلمين، وكان معاوية يعرف جيّداً أن سلطانه إن لم يكتسب شرعية خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله في نظر المسلمين، فلا يستطيع أن يدوم ولا يقوى على مواجهة التحدّيات والصعوبات التي تواجهه من قبل المعارضين لسلطانه.

ولذلك فقد حرص حرصاً شديداً على توفير الشرعية بكل متطلباتها لسلطانه. وقد رأينا حرصه في سابق هذا الحديث على استقطاب وإغراء من يمكن إغراؤه من الصحابة والتابعين بالمال والسلطان لتأييد حكمه وسلطانه، ووجدنا أنه لم يكن يتحرّج من انتحال الحديث على رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان تثبيت دعائم حكمه وسلطانه يتوقف على انتحال الحديث.

وقد أفلح معاوية إلى درجة كبيرة في تطويع الرأي العام لقبول هذه الشرعية والرضوخ لها.

وعمل ثانياً لإسكات المعارضة وإرغامهم على السكوت والتخلي عن الخلاف والمعارضة بالإرهاب غالباً ـ وهو السلاح الذي كان يستعمله معاوية كثيراً مع هذه المجموعات ـ وبالإغراء أحياناً... وكان كل ذلك يجري وفق مخطط دقيق ينفّذه معاوية بدهائه المعروف من غير أن يثير لغطاً أو صخباً كثيراً في الشارع.

وبذلك عزل معاوية المعارضة عن الساحة، وقد كانت مساحة بشرية واسعة يومذاك وأرغمهم على السكوت وإيثار العافية والابتعاد عن الأجواء السياسية... ولم نسمع خلال هذه الفترة التي أعقبت هدنة الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية صوتاً للمعارضة يرتفع في الساحة الإسلامية إلا ما شذّ وندر بين حين وآخر.

وكان علينا أن نذكر حقيقة أن المعارضة لم تنحل ولم تبدّل رأيها في معاوية وخلافة بني أمية، ولكنها أُرغمت على عزلة كاملة عن الساحة وما يجري فيها من بدع ومنكرات لم يألفها المسلمون حتى ذلك اليوم وآثرت السكوت والعافية.

وبذلك فقد خلت الساحة لمعاوية ولم يبق في المنطقة الإسلامية يومذاك سلطان لأحد إلا سلطان بني أمية المطلق، والذي كان يتمتع بشرعية الحكم والخلافة.

وهذه الحالة كانت تمكّن بني أمية من تسريب كل الانحرافات التي كانوا يحملونها والتي أشرنا إلى بعضها في هذا الحديث إلى الإسلام في الصميم وإلى صلب العقيدة والشريعة، وكانت تمكنهم بذلك من تحريف رسالة الله وتضييع مواريث الأنبياء والمرسلين.

الحسنان يلغيان الشرعية الأموية:

فلم يعد أمر هذا الخطر الذي داهم المسلمين يقتصر على الساحة الإسلامية فقط وإنما كان يهدد الإسلام أيضاً. ولو كان الأمر يمضي على هذه الطريقة إلى نهاية العهد الأموي، بما رأينا من الانحرافات القبيحة التي جرت على أيدي الخلفاء ـ ولا نستثني منهم أحداً غير عمر بن عبد العزيز ـ لانقلب الإسلام إلى شيء آخر غير ما أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله، ولانقلبت هذه المحنة إلى كارثة على الإسلام والمسلمين معاً.

وهذا ما أحسّ به ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وآله وولداه الحسن الحسين عليهما السلام اللذين قدّر الله تعالى لهما أن يعايشا مرارة ظروف هذه الردّة بما استتبعت من انحراف وفساد وتخريب في صفوف المسلمين.

فقد لمس الحسنان عليهما السلام عن كثب ضخامة هذا الانحراف، وعَرفا ما يؤول إليه هذا الانحراف من انحرافات أخرى أعمق وأكثر في كل شؤون الحياة، وشاهدا عودة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية بأبعادها المختلفة، وعرف سبطا رسول الله أن هذه الردّة الجاهلية سوف تنعكس على الإسلام وتشوّه معالمه وأصوله ورؤاه وتصوراته وطريقته وأخلاقه.

لقد عايش الحسن والحسين عليهما السلام هذه الفترة المظلمة والصعبة من تاريخ الإسلام بعد شهادة أبيهما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بكل سلبياتها وتبعاتها السيئة على الإسلام والمسلمين، وكانا يشعران بمرارة بعمق المأساة، ويشعران بعمق الخطر الذي يهدّد الإسلام وبضرورة العمل لإنقاذ الرسالة من هذا الخطر، وإيقاظ ضمير الأمة، وإيجاد حركة في وسط الأمة لوعي الخطر ومواجهته.

وقد شاء الله تعالى أن يتشاطر ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام هذا العمل الجبّار في مرحلتين ودورين مختلفين، ينهض الإمام الحسن عليه السلام بالدور الأول وينهض الإمام الحسين عليه السلام بالدور الثاني، فيتمخّض عن هذا وذاك إبطال شرعية الخلافة الأموية، وكسر الإطار الشرعي الذي كان يمكّن حكام بني أمية من إدخال التحريفات التي كانوا يمارسونها من داخل قصورهم وعلى أيدي عمّالهم وقضاتهم إلى الإسلام.

لقد عايش الحسن والحسين عليهما السلام محنة هذه الردّة الجاهلية في ظرفين مختلفين تماماً من الناحية السياسية والعسكرية.

فقد تولّى الإمام الحسن عليه السلام الإمامة ومسؤولية مواجهة الفتنة الأموية بعد شهادة أبيه عليه السلام في ظروف مواجهة عسكرية مع معاوية، حيث كان الإمام الحسن عليه السلام يقود جيش العراق لمواجهة جيش الشام، بينما لم يكن الحسين عليه السلام في مثل هذا الموقع العسكري والسياسي، وإنما كان خروج الإمام الحسين على يزيد يعتبر إقداماً على تضحية مؤثّرة ومأساوية لتحريك ضمير الأمة وإيجاد هزّة قوية في وجدانها.

وفرق كبير بين ظرف الحسن عليه السلام ومتطلبات هذا الظرف، وظرف الإمام الحسين عليه السلام ومتطلباته في مواجهة الفتنة.

لم يتمكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حياته أن يجتث الفتنة من جذورها، ولقى مصرعه على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي والفتنة قائمة، وتولى من بعده ابنه الحسن الزكي عليه السلام إمامة المسلمين في ظروف صعبة وحرجة.

وكان تقدير الإمام للظروف السياسية والعسكرية التي تولّى فيها إمامة المسلمين في مواجهة بني أمية هو خسارة المعركة ووقوع الهزيمة في جيش العراق الذي كان يقوده الإمام وخروج معاوية منتصراً من هذه الحرب.

ونحن نجد أن تقدير الإمام لهذه النتيجة كان تقديراً موضوعياً ودقيقاً. وكان الإمام عليه السلام يقدّر أيضاً أن معاوية سوف يستثمر فرصة انتصاره على جيش العراق في استئصال كل من يعارض سلطانه وحكمه من شيعة الإمام، ويلاحقهم ويقوم بتصفية واسعة لهم حتى تَخْلُص له الساحة من كل خط سياسي وفكري معارض.

ولذلك كان الإمام الحسن عليه السلام مهتماً بتفويت هذه الفرصة على معاوية حتى يقلّل مساحة الخسارة قدر الإمكان، ولا يعطي لابن أبي سفيان الفرصة التي يطلبها في تصفية شيعة الإمام لتخلص له الساحة.

كان الإمام يقدّر أن المرحلة القادمة لبني أمية على كل حال، ولا يمكن حسب التقادير السياسية والعسكرية المفهومة للحيلولة دون هذه النتيجة.

فلا بد إذن أن لا يعطي الإمام عليه السلام لمعاوية فرصة الإجهاز الكامل على شيعة الإمام، الذين كانوا يمثلون الخط الإسلامي السليم يومذاك، والذين كانوا يحملون لواء المعارضة لسياسة بني أمية وسلطانهم، لتبقى هذه العصابة المؤمنة والسائرة على خط أهل البيت محتفظةً بخطّ الإسلام الصحيح في خضم الفتنة التي أوجدها بنو أمية في المجتمع الإسلامي يومذاك.

تلك كانت غاية الإمام الحسن عليه السلام، بعد تقدير دقيق وموضوعي لنتيجة الحرب مع معاوية، ولذلك فقد آثر الإمام عليه السلام أن يهادن معاوية ويوقف القتال، للإبقاء على شيعته.

ونحن لا نستطيع أن نفهم فهماً دقيقاً قرار الإمام الحسن عليه السلام، والدور الصعب الذي نهض به الإمام عليه السلام يومذاك، رغم كل مرارته على نفسه وعلى شيعته إلا من خلال هذا التحليل.

ولكي نستطيع أن ننتهي إلى نتائج دقيقة في هذا البحث لابدّ لنا:

أولاً: أن نتأمّل في الظروف السياسية والعسكرية الصعبة التي رافقت إمامة الإمام الحسن عليه السلام بعد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

وثانياً: نتأمل فيما كان يمكن أن يختار الإمام عليه السلام من الخيارات الصعبة التي كان يواجهها في تلك الظروف السياسية والعسكرية، وما كانت تمليه مصلحة الإسلام التي هي فوق كل اعتبار ـ عند الإمام عليه السلام ـ يومذاك.

التحليل السياسي والعسكري لقرار الإمام

وفيما يلي نقدّم تحليلاً سريعاً للظروف التي واجهها الإمام عليه السلام بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام واضطراره لإيقاف القتال، ضمن مجموعة من النقاط:

١ ـ هبوط المعنويات في جيش الإمام الحسن عليه السلام:

تولّى الإمام الحسن عليه السلام الإمامة بعد أبيه واتضح للإمام منذ أول يوم بايعه الناس أنّ جند العراق لم يعد يملكون المعنويات التي يتطلبها صراعه الطويل مع حاكم الشام معاوية بن أبي سفيان.

واتضح لـه أنّ جند العراق يؤثرون العافية والراحة على متابعة الحرب.

فقد أتعبتهم حروب الجمل وصفّين والنهروان وصد الغارات التي كان يشنها ابن أبي سفيان على أطراف العراق واليمن والحجاز أيّما تعب، ولم يعد هذا الجيش يرغب في القتال، وأصبح يعاني من هبوط شديد في المعنويات.

وعندما يفقد الجيش معنوياته فلا يستطيع القائد مهما أوتي من القوة والحكمة أن يقاتل بهذا الجيش، وكان هذا الجيش مصدر معاناة كبيرة للإمام الحسن عليه السلام، كما كان من قبل مصدر معاناة لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ولنقرأ نماذج من حالة التخاذل والهبوط المعنوي في جيش العراق:

أ ـ التقى الإمام الحسن عليه السلام أول ما التقى تخاذل جنده ورغبتهم عن القتال يوم البيعة في أول يوم من ولايته بعد أبيه.

يقول ابن الأثير: كان الحسن يشترط عليهم (في البيعة): إنكم مطيعون تُسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت، فارتابوا بذلك. وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا إلا القتال[1].

(١) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٠٢.

ب ـ لما عرف الإمام عليه السلام بخروج معاوية إلى العراق دعا الناس إلى حربه في اجتماع عام وخطب في أمر الجهاد والخروج للقتال والدفاع، وهو كما يقول أبو الفرج: يخاف من خذلان الناس من حوله (فسكت الناس فما تكلم أحد ولا بحرف)[١].

فقام عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه، وأنّب الناس على تخاذلهم عن إمامهم وأعلن عن توجهه إلى القتال، ثم تكلّم بعده قيس بن سعد بن عبادة ومعقل بن قيس وزياد بن صعصعة، فاستجاب الناس لدعوة الإمام بعد تردّد وتخوّف وصمت.

ج ـ لما تأكد الإمام من التخاذل في جيشه وقادة جيشه خطب في جمعهم، وقال في كلام يرويه ابن الأثير: (ألا وإنّ معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نَصفه، فإن أردتم الموت رددنا عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بِظُبى السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا.

فناداه الناس من كل جانب: البقيّة البقيّة)[٢].

وروى المجلسي في البحار عن الخرائج:

إن الحسن عليه السلام أخذ طريق النخيلة فعسكر عشرة أيام، فلم يحضره إلا أربعة آلاف فانصرف إلى الكوفة فصعد المنبر[٣].

والأخبار من هذا القبيل كثيرة، تؤكد تثاقل أهل العراق عن نصرة الإمام والخروج على عدوه، وتخاذلهم عنه، وتردّدهم في الاستجابة له، ورغبتهم في العيش بعيداً عن الحرب ومشاكل الحرب.

وهذه النماذج على نحو الإجمال تعطينا صورة عامة عن معنويات الجيش الذي كان يقاتل الإمام به عدوّه وقدراته وكفاءاته.

٢ ـ عناصر الجيش:

من المفيد بعد أن عرفنا شيئاً عن معنويات جيش العراق أن نعرف شيئاً عن العناصر التي كانت تكوّن هذا الجيش.

---

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني: ٣٩ والبحار ٤٤: ٥٠ وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٣٨، وأنساب الأشراف للبلاذري في قسم الإمام الحسن: ٣٢ تحقيق الشيخ المحمودي.

(٢) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٠٦، وتذكرة الخواص: ١٨١ ط. مؤسسة أهل البيت وباختلاف يسير، بحار الأنوار ٤٤: ٢١ ـ ٢٢ وابن الأثير الجزري في أسد الغابة ٢: ١٣ سنة ١٤٠١ هـ.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٤٤.

وأمامنا نصّان نعتقد أنهما يلقيان الضوء بقدرٍ كافٍ على طبيعة التركيب البشري والمذهبي لجيش العراق الذي خرج به الإمام الحسن لمحاربة معاوية.

أحد هذين النصين للإمام الحسن عليه السلام نفسه وهو دقيق في تشخيص عناصر جيشه، يرويه ابن طاوس في الملاحم والفتن[1]، (وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وأنتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون عليه وقتيل بالنهروان تطلبون منا ثأره، فأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر).

وفي هذا التشخيص يقسم الإمام جيشه إلى ثلاث فئات: فئة من خاصته وشيعته وهم الباكون الثائرون لشهداء صفين، والصنف الثاني هم الخوارج الذين يطلبون من الإمام ثار قتلاهم بالنهروان، وهؤلاء وإن كانوا ناقمين على معاوية إلا أنهم ينقمون بنفس المقياس على الإمام الحسن عليه السلام، وأما الطائفة الثالثة فهم خليط من أصحاب الأهواء وضعاف النفوس والمرتزقة الذين تذهب بهم رياح الدنيا كل مذهب، وهم الذين يعنيهم الإمام بقوله (فأما الباقي فخاذل).

والنص الثاني للشيخ المفيد في الإرشاد بنفس التشخيص.

يقول الشيخ: (وخفّ معه ـ أي الإمام ـ أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة ـ أي خوارج ـ يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم، وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبية، اتّبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين)[2].

والخوارج وإن كانوا يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة كما يقول شيخنا المفيد رحمه الله ولكنّهم ينقمون على الإمام، كما ينقمون على معاوية، ويستغلون كل فرصة ممكنة للنيل من الإمام وتفريق الناس من حوله، وهم الذين سحبوا البساط من تحت أقدام الإمام عليه السلام وطعنوه في ساباط المدائن وحرّضوا الناس عليه، وهم كانوا مصدر أكثر الشغب في جيش الإمام.

---

(١) الملاحم والفتن لابن طاوس: ١٤٢ عن الخرائج. (لقد رسمنا طاوس هكذا وتكفي واو واحدة كما في داود من باب التخفيف).

(٢) الإرشاد للمفيد: ١٦٩. ونقل هذا النص الأربلي في كشف الغمّة: ١٦٥. دار الكتاب الإسلامي بيروت: ٤٠١، وقريباً من هذا النص المجلسي في البحار ٤٤: ٢١ عن أعلام الدين للديلمي وابن الأثير الجزري في (أُسد الغابة) ٢: ١٣.

فلم يكن الخوارج يؤمنون بولاية الإمام وقيادته، ولم يخفوا حقدهم على الإمام، ولم يكن حقدهم على الإمام بأقل من حقدهم على معاوية. وكانوا لا يترددون في اغتيال الإمام، وطعنه، والقضاء عليه كلما سنحت لهم الفرصة بعامل الحقد والانتقام، وكانوا يفكّرون أنهم بذلك يقضون على أحد عدوّين لهم، وتسنح الفرصة لهم بعد ذلك للقضاء على العدو الآخر.

وكانت معاناة الإمام من هذه الفئة مرّة قاسية، وكان تخريب هذه الفئة في جيش الإمام واسعاً كبيراً، ومحاولة اغتيال الإمام في المدائن تمّت على يد هذه الفئة بالذات.

وإلى هؤلاء يشير الإمام عليه السلام بقوله: (وقتيل بالنهروان يطلبون منا ثأره) وقد قُدر للإمام الحسن عليه السلام أن يقاتل معاوية بهذه الفئة، فماذا ترى يستطيع أن يصنع في حرب معاوية إذا كان جزء من جيشه وجنده من هذه الفئة الناقمة والحاقدة على الإمام وعلى أبيه من قبل بالذات؟

والطائفة الأخرى هم أصحاب المطامع والمرتزقة وهواة الدنيا، الذين لا يهمهم شيء من أمر الإمام أو أمر معاوية، وإنما تهمهم دنياهم فقط. وعندما وجدوا أن الدنيا مقبلة على معاوية ومُعرضة عن الإمام تفرقوا عن الإمام وانضمّوا إلى معاوية، وأعلنوا عن استعدادهم لتسليم الإمام إلى معاوية، إمعاناً في التزلّف إلى معاوية...

ويبدو أن عدّة هذه الطائفة كانت أكثر من الطائفتين الأخريين وإنهم كانوا يكوّنون المساحة الكبرى من جيش الإمام، ويشير إلى هذا المعنى النص الذي يرويه المجلسي في البحار عن الخرائج (وكتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية: فإنّا معك وإن شئت أخذنا الحسن وبعثناه إليك)[1].

وإلى هذه الطائفة الواسعة المنتشرة في جيش الإمام من هواة الدنيا وأصحاب المطامع والذين تخلّوا عن الإمام في أحرج الساعات يشير الإمام في حديثه لزيد بن وهب الجهني، ويقول:

(والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً)[2].

لقد كان جيش الإمام يتألف من هذا الخليط العجيب من الحاقدين وأصحاب المطامع والأهواء والانتهازيين، وكان على الإمام أن يقاتل بهذا الجيش معاوية في جيشه الغفير الكبير المنسجم الذي ينقاد لابن أبي سفيان على باطله وزيفه.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٤٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٠ عن الاحتجاج الطبرسي: ١٤٨ ـ ١٤٩.

وقد كان في ضمن جيش الإمام طائفة من شيعته والموالين لـه، من المخلصين، وأصحاب الصلاح والتقوى، ولكن ترى ماذا يستطيعون أن يصنعوا في وسط هذا الخليط من الخوارج الناقمين والمرتزقة، أصحاب المطامع من هواة الدنيا الذين يحبون أن يسلكوا الطريق إلى الدنيا من أقرب المسالك وأيسرها.

٣ ـ الفارق الكمي بين جيش الإمام وجيش معاوية:

يقدّر ابن أعثم في الفتوح[١] جيش معاوية بستين ألفاً خرجوا مع معاوية إلى (مسكن على الفرات) وهو في نظري تقدير متوسط ومعتدل لجيش الشام، وتختلف الروايات في تقدير جيش الإمام الحسن عليه السلام، وفي جو التثاقل والتردّد الذي قرأناه لا نكاد نطمئن إلى عدد غير المقدمة التي بعثها الإمام إلى (مسكن) لمواجهة معاوية بقيادة عبيد الله بن عباس وأربعة آلاف بقوا معه بدير عبد الرحمن. وهذا هو أسلم الاحتمالات الذي يختاره الشيخ راضي آل ياسين رحمه الله في كتابه القيّم (صلح الحسن)[٢] وعليه فإن جيش الإمام في أوسط التقادير لا يزيد عن ثلث جيش معاوية، إن كان لا يقل عن الثلث.

وإذا أضفنا إلى هذه الملاحظة الكميّة هبوط المعنويات بالشكل الذي تقدم، والتركيبة الغريبة لجيش الإمام من الناحية الكيفية، استطعنا أن نقدّر درجة كفاءة جيش الإمام من الناحية العسكرية في مقابل جيش الشام، ودرجة احتمال فوز جيش الإمام في هذه المعركة.

٤ ـ التخاذل في قادة ووجوه الجيش:

أرسل الإمام عبيد الله بن عباس ابن عمه على مقدمة جيشه في اثني عشر ألفاً لمواجهة معاوية، وأوصاه ألّا يبدأ معاوية بالقتال فإذا بدأ معاوية القتال قاتله، وأمره أن يستشير في أعماله قيس بن سعد وسعيد بن قيس، فسار عبيد الله بالجيش على الفرات، حتى بلغ مسكن (موضع على نهر الدجيل) حيث التقى بجيش الشام.

وانطلق الإمام عليه السلام بما تبقى من الجيش، وفي أغلب الظن كان لا يزيد على أربعة آلاف إلى (ساباط المدائن)[٣].

---

(١) الفتوح لابن الأعثم ٤: ١٥٣ ط. حيدر آباد دائرة المعارف العثمانية.

(٢) صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين: ١٢٣.

(٣) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٠.

فأرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس يغريه بالالتحاق به بألف ألف درهم، يعجّل له بالنصف ويؤخّر له النصف الآخر إلى حين دخول الكوفة، فانسلّ عبيد الله ليلاً إلى معسكر معاوية ووفى له معاوية بالوعد فأصبح الناس ينتظرون أن يخرج إليهم عبيد الله ليصلي بهم فلم يخرج، وطلبوه فلم يجدوه فصلّى بهم قيس، وأعلمهم بخبر عبيد الله، وتبرأ منه وشتمه[1].

وقد كان لانتشار خبر التحاق عبيد الله بمعسكر معاوية أسوأ الأثر في جيش الإمام، فقد وسع من دائرة التخاذل داخل الجيش وأسقط معنويات المعسكر إلى حد كبير، وشاع في الجيش جو من سوء الظن، وكثرت الإشاعات الكاذبة من جانب عيون معاوية ورسله.

فخرج بسر بن أرطأة، فصاح إلى أهل العراق: وَيْحَكم هذا أميركم عندنا فقد بايع وإمامكم الحسن قد صالح (ولم يكن قد صالح معاوية قطعاً) فعلام تقتلون أنفسكم؟[2]

وكانت نتيجة هذه الخيانة الكبيرة من عبيد الله، وما استتبعها من انتشار الإشاعات الكاذبة، والتخاذل وسوء الظن، وهبوط المعنويات أن انسلّ ثمانية آلاف من مجموع الاثني عشر ألفاً إلى معسكر معاوية وتصدّعت بذلك مقدمة الإمام[3] ولم يعد قيس بن سعد الأنصاري رحمه الله يستطيع أن يعمل شيئاً في إعادة الجيش إلى تماسكه بعد هذا الصدع الكبير الذي أحدثه عبيد الله في مقدمة جيش الإمام.

ولم يعد أثر هذه الخيانة ينحصر فقط في دائرة مقدمة المعسكر وفي حدود التخاذل والهروب من صف الإمام إلى صف معاوية، وإنما تجاوز ذلك إلى القطع العسكرية التي كانت ترافق الإمام نفسه، واتّسعت دائرة التسلل من صف الإمام إلى جانب معاوية، من قبل قادة الجيش ووجوه وزعماء قبائل العراق.

يقول البلاذري في أنساب الأشراف:

(وجعل وجوه أهل العراق يأتون معاوية فيبايعونه، فكان أول من أتاه خالد بن معمّر فقال: أبايعنّك عن ربيعة كلها ففعل وبايع عفاق بن شرحبيل بن أبي رهم التيمي، فلذلك يقول الشاعر:

معاوي أكرم خالد بن معمّر فإنّك لولا خالد لم تؤمّر

---

(١) المصدر نفسه ١٦: ٤٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) راجع تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٣ ط. النجف ١٣٩٤ هـ

وبلغ ذلك الحسن فقال: (يا أهل العراق أنتم الذين أكرهتم أبي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه. وقد أتاني أن أهل الشرق منكم قد أتوا معاوية فبايعوه فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي)[١].

والنص الذي يرويه ابن أعثم أبلغ في الانهيار الذي أصاب جيش الإمام عقيب التحاق عبيد الله بمعاوية، يقول ابن أعثم في الفتوح:

(وجعل أهل العراق يتوجّهون إلى معاوية قبيلة بعد قبيلة، حتى خفّ عسكره. فلما رأى ذلك كتب إلى الحسن بن علي يخبره بما هو فيه، فلمّا قرأ الحسن الكتاب أرسل إلى وجوه أصحابه فدعاهم، ثم قال: يا أهل العراق ما أصنع بجماعتكم معي، وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرق قد صاروا إلى معاوية، أما والله ما هذا بمنكر منكم لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفّين على الحكمين، فلما أمضى الحكومة وقبل منكم اختلفتم)[٢].

ويقول الشيخ المفيد في كلام طويل له في الإرشاد: وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له في السرّ واستحثّوه على المسير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام[٣].

٥ ـ حرب الإشاعات في جيش الإمام:

ووجد معاوية في هذا الجو المتصدع خير فرصة للقيام بعملية واسعة في نشر الإشاعات وترويجها، أو ما يسمى اليوم (بحرب الإشاعات). وما كانت هذه الإشاعات لتُعطي مفعولها بهذه القوة لولا هذا الصدع الذي أصاب جيش الإمام على يد قادته، ووجوهه، ورموزه، وما استتبع ذلك من سوء الظن، وفقدان الثقة والتشاؤم، وميل أصحاب الدنيا والمطامع إلى معاوية، وكثرة اللّغط داخل الجيش.

وقد استثمر معاوية ـ وهو المعروف بدهائه في السياسة ـ هذه الفرصة استثماراً جيداً، وبعث عيوناً ورسلاً لبث الإشاعات واللّغط في صفوف جيش الإمام عليه السلام.

ونؤكد مرة أخرى أن هذه الفرصة وحدها هي التي مكّنت ابن أبي سفيان من استعمال

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري حياة الإمام الحسن ٣: ٣٩ دار التعارف للمطبوعات بيروت تحقيق المحمودي.

(٢) الفتوح لابن الأعثم ٤: ١٥٧.

(٣) الإرشاد للمفيد: ١٧٠ والبحار للمجلسي ٤٤: ٤٧.

هذا السلاح استعمالاً على درجة كبيرة من النجاح، ولولا هذه الفرصة لم يكن معاوية قادراً على القيام بهذه الحرب النفسية في صفوف جيش الإمام بهذه الدرجة من النجاح.

ومن هذه الإشاعات ما يرويه ابن أبي الحديد أنّ بسر بن أرطأة كان يصيح: (إنّ إمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم)[1].

ويقول اليعقوبي (٢٩٣هـ): (كان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ووجّه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح وأجابه)[2].

وبهذه الصورة المزدوجة كان معاوية يبث الإشاعات في الجيش الذي كان مع الإمام في المدائن: أن قيساً (قائد المقدمة بعد خيانة عبيد الله) قد انحاز إلى معاوية ثم يقول اليعقوبي:

(ووجّه معاوية إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أمّ الحكم، وأتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من عنده وهم يقولون، ويُسمعون الناس: إن الله قد حقن بابن رسول الله الدماء، وسكّن به الفتنة وأجاب إلى الصلح، فاضطرب العسكر ولم يشكك الناس في صدقهم)[3].

وهذه الحالة تستوقف الإنسان طويلاً فلا يمكن أن تحدث مثل هذه الحالة في جيش نظامي... إلاّ أن يكون هذا الجيش قد بلغ حداً مخيفاً من الانهيار الداخلي.

هذا الجو وهذه الحالة، هي التي استطاع أن يستثمرها ابن أبي سفيان في توسيع رقعة الحرب النفسية مع الإمام عليه السلام واستثمارها في تسجيل الفوز في هذه الحرب.

٦ ـ التمرّد:

وانتهت هذه المقدمات التي استعرضناها في هذه الدراسة إلى نتيجة حتمية، لم تكن لتتخلّف عنها، وهي التي كان يسعى إليها معاوية من وراء هذه السلسلة من المؤامرات، والتي مهّدت لها الظروف والأقدار السيئة التي أحاطت الإمام الحسن عليه السلام.

فبدأت عناصر في الجيش بالتمرّد على الإمام وأخذت رقعة التمرد تتّسع، ويفقد الجيش

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٢ ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفاني ص٤٢ ط. النجف.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٣.
(٣) المصدر السابق.

نظامه وتماسكه، وتفقد القيادة سيطرتها على الجيش، وهذه الحالة في العرف العسكري هي نهاية القوة العسكرية الحتمية.

ونحن لا نشك أن الخوارج هم الذين بادروا إلى التمرّد، وهم الذين كانوا يتحيّنون هذه الفرصة منذ وقت سابق بفارغ الصبر، ويعملون المستحيل للتمهيد لها وإعلان التمرّد على الإمام، وانحلال الجيش، واغتيال الإمام، والثأر، والانتقام منه، وأخيراً التخلّص من عليّ وابنه الحسن ليفرغوا لمعاوية بعد ذلك إنْ ساعدهم الحظ.

وقد تبع الخوارج ـ في التمرّد على الإمام ـ رعاع الناس وعامتهم والذين يجرون مع كل ريح.

والذي يدعونا إلى الاطمئنان أنّ الخوارج هم الذين كانوا يخطّطون من داخل جيش الإمام للتمرد على الإمام، ويمهّدون لـه، ويعدّون الناس لذلك إعداداً، هي الطريقة التي تمّ بها التمرد، فهي طريقة خارجية معروفة.

فيصيح أحدهم (كفر والله الرجل)[١] ويصيح الآخر (الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل)[٢].

وبعد نجاح معاوية في بثّ الإشاعة بقبول الإمام للصلح ـ كما يقول اليعقوبي[٣] ـ أو بعد خطاب الإمام ـ كما يقول أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) ـ تنادى الناس (وهم في أغلب الظن الخوارج) بالتمرّد على الإمام (وشدّوا ـ والكلام لأبي الفرج ـ على فسطاطه فانتهبوه، حتى أخذوا مصلّاه من تحته ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه... فقال عليه السلام: أُدعو لي ربيعة وهمدان، فدعوا لـه فأطافوا به ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم (أي خليط من غير ربيعة وهمدان) فقام إليه رجل من بني أسد يقال لـه الجراح ابن سنان فلما مرّ في مظلم ساباط قام إليه فأخذ بلجام بغلته وبيده معول فقال: (الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل) ثم طعنه فوقعت الطعنة في فخذه فشقته، حتى بلغت أربيته، فسقط الحسن إلى الأرض، بعد أن ضرب بالسيف الذي طعنه،

(١) مقاتل الطالبيين: ٤١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٣.

بسيف كان بيده، فوثب عبد الله بن الخطل، فنزع المعول من يد جراح بن سنان فخضخضه به وأكبّ ظبيان بن عمارة عليه... حتى قتلوه)[١].

هذه صورة واحدة من حالة التمرد التي انتهى إليها أمر جيش الإمام. ونحن لا نشك أن الخوارج هم الذين ألهبوا نار التمرّد وعملوا على توسيع دائرته بكل ما أوتوا من حول وقوة.

ولا نشك أن طبيعة جيش الإمام، والعناصر المكوّنة لـه، والمعنويات الهابطة لهذا الجيش، والوقت الذي خرج فيه هذا الجيش بالمقابلة مع جيوش الشام والخيانة القبيحة التي ارتكبها عبيد الله بن عباس كانت تؤدي لا محالة إلى هذه النتيجة.

وقد يساورنا بعض الشك في أن ينتهي جيش الإمام إلى هذه النتيجة المأساوية لولا خيانة عبيد الله بن عباس. أما بعد أن التحق عبيد الله بن عباس بجيش معاوية فقد أصبح واضحاً لكل من يُلّم بظروف المعركة، أن هذه المعركة سوف تنتهي إلى مثل هذه النتيجة.

وهكذا كانت نهاية جيش الإمام في هذه الحرب نهاية حتمية لا يمكن التخلص منها بحال من الأحوال.

وأيّما يكون القائد، ومهما تكن كفاءاته القيادية والعسكرية، فلا شك أن نهاية هذه الحرب سوف لا تكون إلا لصالح جيش ابن أبي سفيان، ولا يمكن تغيير نتائج المعركة حسب التقديرات العسكرية المألوفة إلا بمعجزة خارقة للطبيعة... أما على المقاييس العسكرية المألوفة فمهما يشك الإنسان في شيء فلا يشك في أن هذه المعركة سوف تنتهي إلى فوز ساحق لمعاوية وللجيش الأموي.

والتشخيص الذي نقرأه لشيخنا المفيد في الإرشاد لتركيبة الجيش، وتخاذل وجوه الجيش وقياداته والنتائج المترتبة على ذلك تشخيص دقيق وواقعي. يقول الشيخ رحمه الله:

(وازدادت بصيرة الإمام الحسن عليه السلام بخذلان القوم لـه وفساد نيّات المحكّمة (الخوارج)، بما أظهروه من السبّ والتكفير لـه، ونهب أمواله، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصة من شيعته وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام)[٢].

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٤١. وراجع المسعودي ٢: ٤٣١ واليعقوبي ٢: ٢٠٣ والفتوح ٤: ١٥٥. والبلاذري في الأنساب ٣: ٣٥ وغير ذلك من المصادر.

(٢) الإرشاد للمفيد: ١٧٠. وينقل النص المجلسي في البحار ٤٤: ٤٨.

كل العوامل التي أشرنا إليها في ضمن النقاط السابقة في ظروف الإمام السياسية والعسكرية، والتي أدت إلى ظهور التمرّد والانحلال في جيش الإمام كانت خارجة عن قدرة الإمام وقبضته كقائد سياسي وعسكري... وكانت الأحداث والأقدار التي تحيط بالإمام تسير سيراً قهرياً لصالح معاوية، ولم تكن ظروف الإمام تسمح بتغيير شيء من هذا الواقع السيئ الذي كان يحيط بجيشه.

الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام الحسن عليه السلام

وتجاه هذه الحتمية التي واجهها الإمام عليه السلام وجهاً لوجه... وجد نفسه أمام ثلاثة خيارات، لا رابع لها وكان عليه أن يختار واحداً منها:

١ ـ الصلح مع معاوية قبل القتال.

٢ ـ الصلح مع معاوية بعد القتال.

٣ ـ الاستمرار في القتال ورفض الصلح حتى الشهادة.

والخيار الأول هو الذي اختاره الإمام الحسن عليه السلام والخيار الثالث هو الذي اختاره الإمام الحسين عليه السلام من بعده.

وأما الخيار الثاني فليس من سبيل لاختياره.

فإذا كان لابدّ للإمام أن يقبل بالصلح ويتخلّى عن حرب معاوية... فليصنع ذلك في البدء، وقبل إراقة الدماء، وليفرض هو شروط الصلح على معاوية، دون أن يجبره معاوية على ذلك إجباراً وليستجيب لطلب معاوية بعزّة ـ ما أمكن ـ قبل أن تدفعه أمواج الفتنة العارمة المشتعلة في جيشه إلى طرف معاوية.

وليُملي على معاوية شروطه للصلح من موقع المقاتل، وإن كان معاوية سوف يغدر ويتحلل عن كل التزاماته وتعهداته والإمام يعرف ذلك جيداً... ولكنّه مع ذلك فإن الإمام إذا كان مضطراً للصلح فمن الخير له ولجنده وللمسلمين أن يقبل بالصلح قبل القتال، وقبل أن ينحلّ جيشه بالكامل، وتتّسع دائرة التمرد في جيشه فيسلّمه الرعاع من جنده إلى معاوية تسليماً، كما يقول الإمام الحسن عليه السلام أو كما كاتب رؤساء الجيش معاوية بذلك في السر، أو يضطر هو أن يصالح معاوية من موقع الهزيمة فيُملي معاوية على الإمام كلما يريد ويتعامل مع الإمام من موقع المنتصر في المعركة.. ثم بعد أن يراق دم كثير من الطرفين من دون أن يحقق هذا الدم أي نتيجة إيجابية في ساحة المعركة لصالح الإسلام والإمام.

والإمام عليه السلام يشخّص هذه الحقيقة ويذكرها بألم وشجى عميقين لزيد بن وهب الجهني

لمّا طعن عليه السلام بالمدائن، يقول زيد: أتيته بالمدائن وهو متوجّع، فقلت لـه: يا ابن رسول الله إن الناس متحيّرون فقال عليه السلام: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، فوالله لأن أسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمنّ عليّ فتكون سُبة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمُن بها وعقبه على الحيّ منّا والميّت»[١].

إذن فلم يكن للإمام سبيل إلى هذا الاختيار.

ولـم يكن من الحكمة إطلاقاً أن يختار الإمام الصلح بعد القتال ومن موقع المقاتل المهزوم بل من موقع المقاتل الذي يملي ما يمكنه من الشروط على خصمه وهو محتفظ بموقعه في ساحة المعركة، فإن الخسارة والضرر إن كان لابدّ أن تلحق بالإمام وجيشه وشيعته وخاصته فليعمل على تقليل هذه الخسارة مهما أمكن.

فإذا كان الخيار الثاني اختياراً غير عقلاني في الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام عليه السلام أمامه... فلننظر في الخيار الثالث وهو الاستمرار في القتال بنفسه وبشيعته وخاصته حتى الشهادة والإصرار على قتال معاوية مهما كانت نتائج المعركة إلى أن يأتي جند الشام على الإمام وما تبقّى لـه من جنده من شيعته وأصحابه وأهل بيته بالتمام ويقتلوهم جميعاً وهو الخيار الذي اختاره الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد.

فإذا كانت الظروف السياسية والعسكرية القاهرة حالت دون الإمام ودون الانتصار على بني أمية. وإذا كان الصلح مع معاوية بعد القتال وبعد فوز معاوية في الحرب أمراً مُذلاً للإمام ولشيعته وجيشه، فلماذا لم يقدم الإمام الحسن عليه السلام على ما أقدم عليه أخوه الحسين عليه السلام من الإصرار على القتال حتى الشهادة فيكون قد حقّق بذلك إحدى الحسنيين؟

ومن الناس من لا يناقش في الخيار الثاني من الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام، ولكن يرى أن الخيار الثالث كان أفضل للإمام وأعزّ لـه ولجنده ولشيعته وأدنى إلى الله من الخيار الأول، وأنه كان بوسع الإمام، وهو يعلم بما يؤول إليه أمر جنده ودولته أن يستبسل للقتال، هو ومن تبقّى لـه من شيعته وخاصته ويصبر على القتال حتى الشهادة... وأكثر اعتراض أصحاب الإمام القريبين منه والموالين لـه كان ينصبّ على هذه النقطة بالذات، فلم يكن أحد من أصحاب الإمام يشك أن جيش الإمام غير قادر على المقاومة في وجه معاوية، ولكنّهم كانوا يعاتبون الإمام على عدم المضيّ في القتال حتى الفوز بالشهادة.

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٠ ط. النجف ١٣٨٦ هـ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٠.

إن نظرة سريعة إلى التركيبة التي شرحناها لجيش الإمام تكفي للإجابة على هذا السؤال.. فلم يبق في جانب الإمام الحسن عليه السلام بتأثير الفتن الهوجاء التي غزت العالم الإسلامي على يد بني أمية، إلا قلّة من المؤمنين من أصحاب المواقف السياسية الواضحة، والمقيمين على الخط الفكري والسياسي الإسلامي السليم، الذي أعلنه رسول الله ﷺ في حديث الثقلين المعروف بمرجعية أهل بيته عليهم السلام وإمامتهم[1].

وكانت سياسة أهل البيت في هذه المرحلة بعد الردّة الجاهلية التي تمت على يد بني أمية، والتي شرحنا بعض أبعادها في هذه الدراسة، هي المحافظة على هذه الأقليّة الثابتة وتنميتها، واعتمادها في مكافحة الردّة الجاهلية ومعارضة سلطان بني أمية وتجديد حياة الإسلام، وإزالة ما علق بالإسلام من أفكار ومفاهيم وأحكام وأخلاق جاهلية، لا تمت للإسلام بصلة وتحريك وتوعية الأمة بهذا الاتجاه.

وهذه المهمة الثقيلة في التوعية والتحريك والجهاد والمحافظة على الإسلام كانت ملقاة على عاتق هذه الأقليّة التي ظلّت محتفظة بخط وقيادة أهل البيت عليهم السلام في وسط الأزمات الحادة وأمواج الفتن الهوجاء، التي غزت العالم الإسلامي في هذه الفترة.

وكان معاوية يتتبّع هذه الأقلية المعارضة من شيعة الإمام في كل مكان ويأمر عماله بالتضييق عليهم، ومنع أرزاقهم، والتنكيل بهم، وسجنهم، وتعذيبهم، بأقل شبهة أو ظِنّة، لغرض إبادتهم والقضاء عليهم.

وقد مرّ علينا حديث الإمام الباقر عليه السلام الذي يستعرض فيه محنة أهل البيت وشيعتهم أيّام بني أمية عامة، ومعاوية خاصّة:

(ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا.. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظِنّة)[2].

والآن نعود إلى حديثنا الذي قطعناه.

---

(١) يرويه عدد غفير من الصحابة والتابعين.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤. ورواه المجلسي عن ابن أبي الحديد في البحار ٤٤: ٦٩.٦٨.

افتراض مواصلة القتال:

لو أن الإمام الحسن عليه السلام كان يختار الخيار الثالث من هذه الخيارات، وهو الخيار الذي اختاره أخوه الإمام الحسين عليه السلام، وكان يصر على الاستمرار في القتال بنفسه وشيعته وأهل بيته حتى الشهادة؟

لم يكن يبقى معه بالتأكيد في ساحة المعركة غير هذه الجماعة من شيعته، التي كان الإمام عليه السلام يدّخرهم لمقاومة سلطان بني أمية وتحريك الأمة وتوعيتها في المستقبل، ولأبادهم معاوية إبادة كاملة في ساحة المعركة وتتبّع ـ في زهو الانتصار ـ من تبقى منهم ومن عوائلهم خلف ساحة المعركة وأبادهم بشكل كامل، وبهذه الصورة كانت تخلو الساحة السياسية في العالم الإسلامي لبني أمية بشكل كامل ومقفل، ولا يبقى هناك من صوت للمعارضة ودعوة للعودة إلى الإسلام، وعمل لتحريك الساحة الإسلامية وتوعيتها، من دون أي نتيجة إيجابية تكتسبها الساحة الإسلامية بهذه المجزرة التي كانت تتم على يد معاوية في شيعة الإمام وأوليائهم.

ولم يكن يبقى في جو المعارضة غير الخوارج والخوارج لا يؤلفون دعوة للعودة على الخط الإسلامي الصحيح أولاً، وطريقتهم المتشنّجة في مواجهة أعدائهم كانت كفيلة بإنهائهم ثانياً.

إذن فقد كان الإصرار على القتال من جانب الإمام، حتى الشهادة، يؤدي إلى الإبادة الكاملة لشيعته، وإلى كارثة واسعة على الإسلام، وتفريغ الساحة لمعاوية، وسائر حكام بني أمية، من بعده، ليعبثوا بمقدّرات هذه الأمة، وبأصول الإسلام، وأحكامه، وفروعه، من دون أن تواجههم أية معارضة، وفي ضوء الظروف والإرهاب والإعلام الأموي نشك شكّاً قوياً في إمكانية ولادة معارضة جديدة على خط الإسلام الصحيح لو أنّ معاوية كانت تتهيأ له فرصة إبادة شيعة الإمام، ثم نشك أن تكون هذه المعارضة على فرض ولادتها قادرة على النمو والحركة والتحريك في ظل الظروف الإرهابية التي أوجدها حكّام بني أمية.

وعليه فإن مواصلة القتال حتى الشهادة وهو الخيار الثالث كان يترك أسوأ الآثار في تاريخ الإسلام، يعلم الله تعالى وحده أبعاد الخسائر والضياع والانحراف التي كانت تتركه هذه المجازفة التأريخية بمصير الأمة والإسلام.

ونحن لا نقدم هذا التحليل السياسي، من عندنا، ومن استنباط الظروف السياسية التي

كانت تحيط بالإمام في تلك الفترة، فقط، وإنما نأخذه بصورة مباشرة أيضاً من كلمات الإمام الحسن عليه السلام نفسه في توجيه صلحه مع معاوية ومتاركته للقتال.. وقد كان الأمر واضحاً لا لبس فيه لدى الإمام في ترك هذا الخيار، وكان ثقيلاً عليه وعلى شيعته ثقل الجبال، وتحمّل الإمام الزكي الحسن عليه السلام الكثير من النقد والعتاب، المرّ القاسي، من أصحابه، وأوليائه، وشيعته، الذي كانوا لا يدركون أبعاد هذه المجازفة، وكان يثقل عليهم أن يضع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يد ابن هند آكلة الأكباد.. وكان بعض هذا العتاب يبلغ حدوداً قاسية من إساءة الأدب إلى الإمام ولكن الإمام يتحمّل كل ذلك ويتجرّعه للمحافظة على الأمانة التي ائتمنه الله تعالى عليها.

وهذا فارق جوهري هام بين الفرص المتاحة لكل من الامامين الحسن والحسين عليهما السلام.

فلم يكن أمام الإمام الحسن عليه السلام فرصة إلا الحرب النظامية الشاملة، وهو ما لم يكن يراه الإمام الحسن عليه السلام صالحاً لشيعته، لأنها تمكن معاوية في حالة انتصار جيش الشام على جيش العراق، وهو ما كان يتوقعه الإمام الحسن عليه السلام أن يأتي معاوية على البقية الباقية من شيعته.

وأما الإمام الحسين عليه السلام فكان له شأن أخرى، فلم يكن الحسين عليه السلام يفكر في حرب نظامية شاملة، ولم تكن ميسرة له، فلا يقوم بها إلا الحاكم السياسي والعسكري ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام أياً منها.

لذلك فلم يكن الإمام الحسين عليه السلام يفكر إلا فيما يسمى اليوم بالمقاومة المسلحة، وكان يسمى في ذلك الوقت بالخروج المسلح، وهو يختلف اختلافاً جوهرياً عن الحرب النظامية في آثاره وتبعاته، ولا تحمل تبعات الحرب النظامية في حالة الفشل العسكري وعدم النجاح.

على أن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يرى في زمن معاوية حتى الخروج، وكان رأيه هو رأي أخيه أبي محمد الحسن عليه السلام، وكان يوصي شيعته أن يلصقوا بالأرض حتى يهلك الطاغية فيكون لكل حادث حديث.

وأمامنا مجموعة من النصوص تشير بوضوح إلى هذا الفهم والتحليل الذي ذكرناه في متاركة الإمام للقتال مع معاوية نذكر جملة منها:

روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن أبي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب: (يا بن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه، وأن معاوية ضالّ باغ؟

فقال: يا أبا سعيد ألستُ حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم؟ قلت: بلى... علة مصالحتي لمعاوية، علة مصالحة رسول الله ﷺ لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفّار بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل.. سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل)[1].

ترى كيف ينظر الإمام إلى نتائج الاستمرار في القتال لو كان يصر على مواصلة القتال، وكيف كانت هذه المجازفة تعطي فرصة لمعاوية في إبادة الشيعة، فلا يترك شيعياً ـ على وجه الأرض كلها ـ إلا قتله.

ويروي البلاذري في الأنساب: أنّ الإمام الحسن عليه السلام قال لحجر بن عدي وهو من خيار أصحابه، عندما عاتبه على مصالحة معاوية عتاباً فيه قسوة، رحمه الله ورضي عنه... قال له الإمام: (وإنما فعلت ما فعلت إبقاءً عليكم)[2].

ترى لو أن حجراً، ولا يشك أحد في إخلاصه وسلامة نيته، وهو من خيار أصحاب الإمام، دعته فورة الغضب والانفعال إلى هذه المجازفة الرهيبة، هل يصح للإمام أن يستجيب لها وهو يرى ما تؤدي إليه هذه المجازفة من كوارث في مستقبل الإسلام والمسلمين؟

وفي رواية يرويها الصدوق عن أبي جعفر، وقد سأله سدير عن أمر الإمام الحسن عليه السلام، لِمَ أسلم الأمر إلى معاوية، فقال له الإمام أبو جعفر عليه السلام: أسكت فإنه أعلم بما صنع، لو لا ما صنع لكان أمر عظيم[3].

الإمام الحسن أمام الخيار الصعب:

فلم يكن أمام الإمام إذن من سبيل إلا الخيار الأول وهو قبول دعوة الصلح من معاوية قبل بدء القتال.. وكان اختياراً شاقاً عسيراً على الإمام وأصحاب الإمام وأهل بيته. وكان لابدّ للإمام من أن يأخذ القرار، ومن أن يتحمل العتاب واللوم من أقرب الناس إليه، الذين كانوا يصرون على الإمام بالمضي في حرب معاوية حتى الشهادة والذين كانوا لا يرون الأبعاد البعيدة لهذه المجازفة كما يراها الإمام...

---

(١) علل الشرائع ٢١١ ط. النجف ١٣٨٥ ورواه المجلسي في البحار ٤٤: ١٢. أخذنا من النص موضوع الحاجة.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ٤٥ ط. بيروت تحقيق المحمودي، وبحار الأنوار ٤٤: ٥٧.

(٣) علل الشرائع: ٢١١ والمجلسي في البحار ٤٤: ١.

فقد كان يرى ما لا يراه أصحابه وأهل بيته إلاّ أن الكثيرين منهم لم يستطيعوا أن يستسيغوا ما صنعه الإمام، وكانوا يؤثرون أن يشهروا سيوفهم ويقتلوا عن آخرهم، ولا يقدم الإمام على ما أقدم عليه من الصلح مع معاوية.

وكان حجر ﷺ يقول للإمام: (أما والله لوددت إنك متّ في ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذه اليوم)[١].

ولكن الإمام كان يرى ما لا يراه أصحابه، وكان يؤثر أن يتحمل هذا الضيم في نفسه وشيعته على أن يجازف بمستقبل الإسلام والأمة في حركة انفعالية نعلم أولها ولا نعلم آخرها.

إنه ثقل المسؤولية والتكليف الشرعي الذي يبتلي الله تعالى به عباده، وقليل من الناس من يستطيع أن ينهض بالمسؤولية الشرعية في مثل هذه الساعات الحرجة والعسيرة.

وسلام الله على أبي محمد الحسن في موقفه هذا وتضحيته الكبيرة وتحمّله وصبره.

وليت شيعة الإمام وأصحابه الأدنين منه كانوا يرون ما يراه الإمام.. إذن كانوا يعينون إمامهم في تحمل أعباء هذه المسؤولية الثقيلة، ولم يكونوا يضيفون آلاماً إلى آلامه، ومعاناةً إلى معاناته. ولقد كان أيسر على الإمام أن يتحمّل من معاوية وأزلامه السبّ والشتم، من أن يتحمل من شيعته وأصحابه اللوم والعذل.

وقد عمد الإمام قبل كل شيء إلى إعطاء صفة الهدنة ومتاركة القتال للصلح، فطلب من معاوية شروطاً فأرسل معاوية إلى الإمام ورقة بيضاء مختومة[٢] ليشرط عليه فيها ما شاء من الشروط. فاشترط عليه الإمام أن لا يسميه (أمير المؤمنين، ولا يقيم عنده شهادة، وأن لا يتعقب على شيعته شيئاً)[٣].

وهذه المعاهدة بهذه الصورة لا تزيد على أن تكون اتفاقية هدنة وإيقاف للقتال.

وليس فيه إيماءة أو تصريح بتسليم الإمرة والولاية الشرعية إلى معاوية.

بل اشترط عليه الإمام ألّا يسمّيه أمير المؤمنين وألّا يقيم عنده شهادة، وهو بمعنى عدم الاعتراف بولاية معاوية الشرعية على المسلمين، وعدم تنازل الإمام عن حقه الشرعي في الولاية.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٥٧.

(٢) تاريخ الطبري ٧: ٥ وابن الأثير ٣: ٤٠٥.

(٣) علل الشرائع للصدوق: ٢١٢، وبحار الأنوار ٤٤ : ٢.

وكان الإمام الحسن عليه السلام يعلن رأيه هذا إعلاناً، فخطب الإمام في أول الصلح بحضور من المسلمين ومعاوية جالس فقال: (إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور ذلك رجل ملك ملكاً تمتّع به قليلاً ثم تنخّمه، تنقطع لذته وتبقى تبعته ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾)[١].

وقد أعلن معاوية بذلك بالنخيلة على الملأ من الناس غدره بالإمام وبكل ما اشترط عليه الإمام فقال: (ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدميّ هاتين لا أفي به)[٢]، وقد كان أبو إسحاق يقول عن معاوية: (كان والله غدّاراً)[٣].

إلا أن معاوية لم يسجّل على الإمام اعترافاً بولايته عند اتّفاقية الصلح ولا بعد ذلك، ولم يزد مضمون الصلح في أصح الروايات على الاتفاق على إيقاف القتال والهدنة.

تعليمات الإمام لشيعته في ظروف الفتنة:

ورسم الإمام لشيعته الموقف السياسي من حكومة بني أمية في تلك الفترة... وهذه السياسة تنطلق وتنسجم مع قرار الإمام في الصلح.

وأهم نقاط هذا الموقف ثلاث:

١ ـ أن معاوية يريد استئصال الشيعة (الخط الموالي لأهل البيت) وأن موجة من الإرهاب والتصفية والقتل سوف تواجه شيعة أهل البيت على يد معاوية وأزلامه وعماله، وليست لهم القدرة على مواجهة هذه الموجة العاتية.

فإن معاوية ينطلق من موقع قوي بجند الشام وأموال الشام، ويخطّط للقضاء التام على شيعة أهل البيت، ويعلم أن الأمر لا يستقيم له ولأسرته من بعده، إلا باستئصال أهل البيت وشيعتهم، ولا تملك الأمة القدرة والوعي الكافيين لمواجهة هذه الفتنة العارمة.

٢ ـ ومن غير الصحيح في مثل هذه المرحلة التأريخية الحساسة أن تتحرك هذه الفئة الموالية لأهل البيت عليهم السلام من منطلق الانفعال ورد الفعل، ومن الخطأ أن تواجه هذه الأقلية موجة الفتن المقبلة من الشام بأنفسهم، فهو الانتحار الجماعي الذي يستتبع الكثير من

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ٤٩.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٤٥، وأنساب الأشراف ٢ : ٥٥.
(٣) مقاتل الطالبيين: ٤٥.

الكوارث على الإسلام والمسلمين في المستقبل، ومعاوية سوف لا يتردد في ضرب كل تحرك سياسي معارض أو خروج أو تمرّد على سلطانه بضربات موجعة وقاتلة.

وإذا وجد معاوية مبرراً للمواجهة والقتال فسوف لا يقف عند حد حتى يستأصل هذه المجموعة بالكامل، وليس من ورائهم من يخلفهم على المسيرة، فيصفو الجو لمعاوية، ومن بعده لبنيه وذريته، فلا بد من تجنّب الاصطدام بهذه الموجة وعدم التعرّض لها. وتفويت هذه الفرصة على معاوية للإبقاء على هذه المسيرة الإسلامية الصحيحة التي لم تتأثر بالردّة الأموية والعاملين عليها.

٣ ـ فإذا هلك معاوية فالظرف والحكم يتغيّران تغيراً كبيراً.. ومن الممكن ـ وعلى درجة قوية من الاحتمال ـ أن تكون الظروف مناسبة ومهيّأة للخروج على سلطان بني أمية.

فإن معاوية لابدّ أن يسفر عن وجهه الحقيقي وأهدافه الحقيقية[١] بما يساعد على تحريك وتوعية الأمة.

وإنّ بني أمية وعمّالهم سوف يمارسون من الظلم والتعسّف في حياة الناس في هذه الفترة ما يهيئ الأمة للتحرك والمواجهة ولا سيما في العراق والحجاز.

وإن خليفة معاوية ـ وفي أغلب الظن كان الإمام يقدّر أن يكون ابنه يزيد بن معاوية ـ سوف لا يملك قدرة أبيه، وسلطانه، ونفوذه، ولا يملك دهاءه وعقله السياسي، ولا تظاهره بالدين. فيكون الأمر في مواجهة خليفته من بعده أيسر وآمن، وأكثر ضماناً في استجابة الأمة وحركتها.

ولهذه العوامل وغيرها كان يرى الإمام إرجاء أيّ تحرّك سياسي، وأي محاولة للخروج على سلطان بني أمية إلى هلاك معاوية، وكان هذا هو رأي الإمام الحسين عليه السلام أيضاً من بعد وفاة أخيه الإمام الحسن[٢].

---

(١) خطب معاوية في النخيلة فقال: (إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا. إنكم تفعلون ذلك وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم. وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون) مقاتل الطالبيين: ٤٥، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ٤٦.

(٢) لما استشهد الإمام الحسن اجتمع شيعة أهل البيت في الكوفة في دار سليمان بن صرد فكتبوا إلى الحسين بالتعزية ورأي أهل الكوفة وحبهم لقدومه ورأيهم في معاوية وعدائهم له وولائهم لآل بيت رسول الله فكتب إليهم الحسين عليه السلام: (الصقوا بالأرض، واخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأخطاء ما دام ابن هند حياً. فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله) أنساب الأشراف ٣:

وفي النصوص التي وصلت إلينا من الإمام عليه السلام بعد قصة الصلح نلتقي النص التالي، حول موقف الإمام الحسن عليه السلام ورأيه في التحرك السياسي والجهادي في المرحلة وما بعدها بصورة واضحة.

نروي هذا النص عن البلاذري وابن قتيبة: وكلاهما من أعلام القرن الثالث الهجري:

روى ابن قتيبة الدينوري (واللفظ له) والبلاذري في أنساب الأشراف:

إنّ جمعاً من وجهاء وزعماء الشيعة اجتمعوا بالإمام وفيهم سليمان بن صرد، وكان غائباً عن المعركة، وكان سيد أهل العراق، فحدّثوا الإمام بما يجيش في صدورهم من العتاب واللوم الذي لا يخلو من قسوة.. فلمّا تكلّموا جميعاً أخذ الإمام بالكلام، فقال بعد الحمد والصلاة:

إنكم شيعتنا وأهل مودتنا، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا، وقد فهمت ما ذكرتم، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني وأشدّ شكيمة، ولكان رأيي غير ما رأيتم، ولكني أُشهد الله وإياكم أني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم.

فاتّقوا الله وارضوا بقضاء الله، وسلّموا الأمر لله، والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم، حتى يَستريح برّ أو يُستراح من فاجر، مع أن أبي كان يحدّثني أن معاوية سيلي الأمر، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر، إن الله لا معقّب لحكمه، ولا راد لقضائه.

وأما قولك يا مذلّ المؤمنين، فوالله لئن تذلّوا وتعافوا أحب إلي من أن تعزوا وتقتلوا... فليكن كل رجل منكم حِلْساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا فإن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون)[1].

والنص الذي رويناه يضع مجموعة نقاط تساهم في رسم الموقف الذي شرحناه من قبل بشكل واضح:

١ - إن معاوية يستعمل في إحراز الفوز أساليب ملتوية وغير شرعية (دنيوية)، كان بإمكان

٥٢.١٥١، تحقيق المحمودي وترون أن هذا هو رأي الإمام الحسن بالذات كما سوف يأتي في رواية البلاذري وابن قتيبة الدينوري.

(١) الإمامة والسياسة: ١٦٤، وروى جزءاً من هذا النص البلاذري في أنساب الأشراف ٣: ٤٩.

الإمام أن يستعملها، ويحقق بها الفوز والنصر كما يريد أصحابه، ولكن لا يرى مسوّغاً لاستعمال الأساليب التي يستعملها معاوية ويترفع عنها، ولو كان يطلب الدنيا لحارب معاوية بسلاحه الذي يستعمله هو ولانتصر عليه.

٢ ـ إن معاوية يفوز في هذه المعركة حتماً ولو سار إليه الإمام بالأشجار والجبال.

٣ ـ وإنه لو قاتل معاوية لأعطى لمعاوية فرصة لإبادة شيعته إبادة كاملة وقد حقن الإمام دمائهم بهذا الصلح.

٤ ـ وفي هذه المرحلة يجب تجنّب الاصطدام بأمواج الفتن المقبلة من الشام للمحافظة على البقية الباقية من هذه القاعدة الإسلامية من شيعة أهل البيت ولئن يذلوا ويعافوا خير من أن يعزوا ويقتلوا، ولا يخلفهم أحد من بعدهم في حراسة وحماية وتقويم الخط الإسلامي الصحيح.

٥ ـ وإذا هلك معاوية فلكل حادث حُكْم.

فإذا كانت الفرصة مؤاتية، وكان الإمام حياً فسوف يأمر بالخروج على خلفاء معاوية.

استشهاد الإمام الحسن عليه السلام والبيعة ليزيد:

بعد هذه الجولة في أسباب وخلفيات صلح الإمام الحسن عليه السلام والظروف القاهرة التي دعته إلى متاركة القتال مع معاوية... نعود إلى الحديث عن الحسين عليه السلام وموقفه ورأيه بعد موت معاوية.

لقد كان رأي الحسين عليه السلام في الخروج على معاوية هو رأي أخيه الإمام الحسن.

إذ يروي البلاذري: أنّ زعماء الشيعة اجتمعوا بعد وفاة أخيه عليه السلام في دار سليمان بن صرد وكتبوا إليه برأي أهل الكوفة فيه وولائهم له وبراءتهم من معاوية وأفعاله، يطلبون قدومه إلى الكوفة فكتب إليهم الحسين عليه السلام: (إلصقوا بالأرض، واخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأخطاء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حيّ يأتكم رأيي إن شاء الله)[1].

وعليه فقد كان رأي الحسنين عليهما السلام رأياً واحداً في مسألة الخروج على بني أمية وتوقيته

(١) أنساب الأشراف ٣: ١٥١ ـ ١٥٢ تحقيق المحمودي.

بموت معاوية وما يستجد من الظروف حينذاك، فإن كانت الظروف مؤاتية وصالحة أقدما على الخروج على سلطان بني أمية.

وكان معاوية يعرف هذا الأمر جيداً، ويعلم أنّ الذي يلي الأمر من بعده سوف يلاقي الكثير من المتاعب والمشاكل، وأنّ هذه المتاعب والمشاكل يمكن أن ترقى إلى تهديد سلطان بني أمية. وقد كان معاوية عازماً على أن يعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، كان يتخوّف كثيراً من إعلان رأيه هذا، لما يعهد في ابنه من تهتّك وخروج سافر على الأعراف والأخلاق والالتزامات الإسلامية.

وكان أكثر ما يشغل بال معاوية في هذا الأمر، هو الإمام الحسن عليه السلام. فقد اشترط عليه الإمام من شروط الصلح أن لا يخلف أحداً في مكانه.

ولم يكن معاوية يعبأ كثيراً بعهوده، فقد نقضها علانية، وبملأ من المسلمين، ولكنّه كان يخشى أن يتمسك الإمام الحسن عليه السلام وشيعته بشرطه عليه، ويخرجوا على يزيد من بعده، فلا يستطيع أن يقاوم الحسن عليه السلام: فلا هو يملك دهاء أبيه وقوته، ولا هو يملك قدرة أبيه على ضبط النفس والتظاهر بالالتزام والتخلّي عن تهتّكه، ولا هو يملك رصيد أبيه من الصحبة وخؤولة المؤمنين وما انتحله لـه المرتزقة الذين من حوله من مناقب وفضائل.

فكان أكثر ما يخشاه على سلطان بني أمية من بعده من الحسن عليه السلام، ولذلك فقد خطّط معاوية للتخلص من الإمام بطريقته السفيانية المعروفة التي استعملها في التخلّص من مالك الأشتر عامل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو في طريقه إلى مصر من قبل، فدسّ إليه سمّاً على يد زوجته جعدة، وتولّت جعدة تنفيذ هذه المهمة بالشكل الذي يريد معاوية.

يقول أبو الفرج: (وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما السمّ فماتا)[1].

وبعد أن خلت الساحة من وجود الإمام بدأ معاوية يفكّر بصورة جدّية في إعلان ولاية العهد لابنه يزيد، ولكنّه كان يتهيّب كثيراً من الإقدام على هذا الأمر الخطير، كما ذكرنا، لما يعرف في يزيد من التهتّك والتجاهر بالفسق، مما كان لا يخفى أمره على أحد من المسلمين.

فكان متردداً في هذا الأمر يقدّم خطوة ويؤخّر أخرى، حتى قدم عليه المغيرة بن شعبة

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٤٧ ـ ٤٨، وراجع أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٥٥ تحقيق المحمودي.

(عامله على الكوفة) من الكوفة، يحمل إليه اقتراحاً بترشيح يزيد من بعده خليفة على المسلمين، ويخبره أنه قد سعى في ذلك في الكوفة، ويقدّم إليه استعداده للسعي في هذه المهمة.

والقصة معروفة في التأريخ، نرويها عن تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي:

(كان المغيرة عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه فلما ورد عليه قال: ما أبطأ بك؟ قال: أمرٌ كنت أوطئه وأهيئه. قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك.

قال: أو قد فعلت؟ قال: نعم. قال: ارجع إلى عملك. فلما خرج قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غِرز غيّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة)[١].

وأجزل معاوية العطاء للشعراء ولوجوه الناس ليكسب أصواتهم لاستخلاف يزيد فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها فلما ذكر له البيعة ليزيد: قال ابن عمر: هذا أراد؟ إن ديني عندي إذن لرخيص[٢].

وأرسل معاوية مائة ألف درهم إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، فامتنع من أخذها، وقال: لا أبيع ديني[٣].

وكتب معاوية إلى عمّاله في البلاد يطلب منهم الإعداد لمبايعة يزيد بولاية العهد، ولم يكن الأمر هيّناً على عمال معاوية. فقد كان فيهم من يطمح هو في ولاية العهد، مثل زياد ابن أبيه الذي ثبّت دعائم حكم معاوية في العراقين.

ومثل مروان الذي كان يرى نفسه أولى بهذا الأمر من يزيد، ويرى أنه شيخ العشيرة وكبيرها.. ومثل ابن عثمان الذي نال معاوية الخلافة بأبيه عثمان.

فدعا زياد برجل من أصحابه يثق بفضله وفهمه، فقال: إني أريد أن أأتمنك على ما لم أأتمن عليه بطون الصحائف، إئت معاوية، وقل له: يا أمير المؤمنين إنّ كتابك ورد عليّ بكذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبَّغ ويدمن شرب الخمر، ويمسي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩١ ـ ١٩٢ ط. دار الفكر.

(٢) الكامل ٣: ٥٠٦ دار صادر بيروت.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٨٩.

الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين فعسانا أن نموّه على الناس[١].

إلا أن معاوية كان أوفر دهاءً، وكان زياد أذل عنده من أن تمر عليه مكيدته أو يعبأ بكلامه، فقال: (ويلي على ابن عبيدة، لقد بلغني أن الحادي حدا له: أن الأمير بعدي زياد، والله لأردنّه إلى أمّه سميّة وإلى أبيه عبيد)[٢].

ولقد جهد معاوية كثيراً في إعداد يزيد لهذه المهمة الصعبة وفي تأهيله لها على طريقته الخاصة.

وقد حاول معاوية أكثر من مرة أن يأخذ البيعة ليزيد من الحسين عليه السلام[٣] ونفر من وجوه الصحابة وأبناء الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ولكن ولاته جميعاً باءوا بالفشل، وواجهه الحسين عليه السلام وأولئك النفر بالصدود والرفض القاطع.. نذكر من هذه المحاولات كتاباً واحداً بعثه الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية جواباً لكتابه إليه، عندما اشتدت مطالبة معاوية له عليه السلام[٤] بالبيعة، برواية ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة.

كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية:

«أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عني، فإنما رقاه الملّاقون، المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك، القاسطين المحلّين، حزب الظالم، وأعوان الشيطان الرجيم.

ألست قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة،

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٨ ط. ٤ المطبعة الحيدرية في النجف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ١: ٨١.١٨٠ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر: ١٣٨٨ هـ.

(٤) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٨٦ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

والعهود المؤكدة، جرأةً على الله واستخفافاً بعهده، أولست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من شغف الجبال، أولست المدعي زياد في الإسلام؟ فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يا معاوية لكأنك لست في هذه الأمة وليسوا منك؟

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي عليه السلام؟ ودين علي هو دين ابن عمه ﷺ، [الدين] الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه؟ ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منّة عليكم، وقلت فيما قلت: لا تردّ هذه الأمة في فتنة، وإنّي لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها.

وقلت فيما قلت: أنظر لنفسك ودينك، ولأمة محمد ﷺ، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي، وإن لم أفعل فاستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدكَ، فكدني يا معاوية فيما بدا لك، فلعمري لقديماً يكاد الصالحون، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك، ولا تمحق إلا عملك، فكدني ما بدا لك، واتّق الله يا معاوية، وعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وعلم أن الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظِنة، وأخذك بالتُهمة، وإمارتك صبيّاً يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك وأهلكت دينك وأضعت الرعية والسلام»[(١)].

والتقى معاوية بالحسين عليه السلام وعبد الله بن عباس في المدينة في سفره الذي حاول فيه أن يمهّد الأمر ليزيد ابنه. وقد جرى بين الإمام الحسين عليه السلام ومعاوية حوار حول خلافة يزيد ننقل هنا بعض الفقرات من كلام أبي عبد الله الحسين عليه السلام لمعاوية من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري:

قال الحسين عليه السلام لمعاوية:

«هيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبحُ فَحمةَ الدُّجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضّلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجْحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى

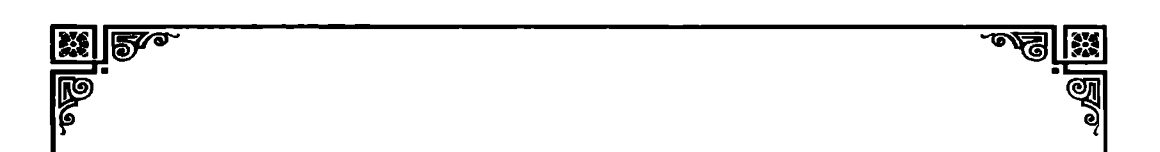
(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ١: ٨١.١٨٠ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر: ١٣٨٨ هـ

جاوزت. ما بذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل.

وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ﷺ تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه.

فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لاترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي، تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ولات حين مناص»[1].

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٨٦ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.



الفصل الثاني عشر

الأهداف السياسية والحركية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام



أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

إذن كان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام قد عقدا العزم على إعلان الخروج على سلطان بني أمية عندما تسمح الظروف بعد موت معاوية.

وقد أظهرا ذلك لشيعتهم أكثر من مرة. وكانت خطة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام في ذلك واحدة ـ كما رأينا فيما روينا من أحاديث وتعليمات الإمامين عليهما السلام لشيعتهما ـ ولا واقع إطلاقاً لما ينتحله البعض من خلاف في الرأي بين الإمامين في الموقف من حكومة بني أمية.

وقد رأينا أن مجاميع من شيعة العراق كتبوا إلى الحسين عليه السلام بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام يدعونه للخروج على معاوية وإعلان الثورة، رافضين موقف الإمام الحسن عليه السلام من الصلح، فكتب إليهم الحسين عليه السلام:

«**صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته، ما دام هذا الإنسان (معاوية) حياً**»[1].

وشاء الله تعالى أن ينفذ غدر معاوية في الإمام ويستشهد الإمام عليه السلام قبل هلاك معاوية، وتولى الحسين عليه السلام الإمامة وقيادة المعارضة ومسؤولية الثورة والحركة من بعد أخيه.

فكان موقف الحسين عليه السلام بعد وفاة الزكي المجتبى الإمام الحسن عليه السلام هو استمرار موقف أخيه الحسن من قبل تجاه معاوية.

فكتب إليه أهل العراق أن يخرج بهم على معاوية فلم يستجب الإمام الحسين عليه السلام لرأيهم وكتب إليهم:

«أما أخي فأرجو أن يكون الله قد وفّقه وسدّده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»[2].

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٢١.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٢٢.

إلّا أن تحرّكاً سياسياً كان يجري في الحجاز في الكتمان في جو المعارضة يقوده الإمام الحسين عليه السلام ويوجّهه لتأليب المسلمين ضد سلطان بني أمية وتمهيد الأجواء للخروج عليهم بعد موت معاوية.

فقد كان الإمام على اتّصال بوجوه المسلمين من العراق والحجاز، يزورونه ويأخذون برأيه، ورغم أن هذه الاجتماعات كان يغلب عليها طابع السرية إلا أنها كانت لا تغيب عن عيون بني أمية وجواسيسهم فكتب مروان عامل معاوية على المدينة إلى معاوية:

(أنّ عمر بن عثمان ذكر أنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وأنه لا يؤمن وثوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إليّ برأيك)[١].

فكتب إليه معاوية أن يتجنّب مواجهة الحسين ما أمكنه ذلك.

ومهما يكن من أمر فقد كان الحسين عليه السلام قد عزم على الخروج على سلطان بني أمية إذا مات معاوية وكانت الظروف مؤاتية، وكان قد أعد شيعته لذلك.

ونحن لا نشك في أن الإمام لم يكن يطلب في ثورته الشهيرة وخروجه على يزيد بن معاوية إسقاط النظام الأموي عسكرياً، والاستيلاء على السلطة. فلم يكن للإمام أعوان يعتمد عليهم في حركته وخروجه في غير العراق. فقد كانت مصر والحجاز بعيدتين كل البعد عن ظروف الثورة والحركة وكانت الشام القاعدة المتينة التي ينطلق منها يزيد بن معاوية ويحتمي بها في حماية ملكه وسلطانه.

ولم يكن هوى أهل العراق معه من غير شيعته.. فقد كان الإمام يعلم جيداً أن من غير الممكن الاعتماد على الكثرة من أهل العراق، فهم مع الطرف المنتصر، ومن الخير له ألا يلتحقوا به فإنهم سوف ينفرطون عن جيشه كما انفرطوا عن جيش أخيه الحسن عليه السلام من قبل، أو أسرع وأيسر من ذلك، ويفتّون في عضده وعضد أصحابه وشيعته، ويتخلّون عنه في أحرج ساعات المعركة، ولا يبقى له في ساحة المعركة غير شيعته، الذين ثبتوا من قبل في جيش أخيه الحسن عليه السلام وهم قلة لا يكوّنون قوة عسكرية تصمد أمام جيوش الشام.

ولقد صدقت نبوءة الفرزدق للإمام حين التقى به في الشقوق[٢] وأقبل على الإمام وقبّل

(١) المصدر نفسه ٢٢٤.

(٢) منزل بطريق مكة بعد واقصة من الكوفة. معجم البلدان ٣: ٣٥٦ دار صادر.

يده، فسأله الإمام كيف خلفت أهل الكوفة؟ فقال: خلّفت الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية. فقال الحسين عليه السلام: «صدقت وبررت، إنّ الأمر لله يفعل ما يشاء»[1].

ولم تكن تجربة الإمام الحسن عليه السلام بعيدة عن الحسين، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام بأقدر من أخيه في تجميع قوة عسكرية لضرب سلطان بني أمية وإسقاط النظام.. إن لم تكن ظروف الحسين عليه السلام أسوأ من ظروف أخيه الحسن. فقد استقر لبني أمية السلطان، وامتدّ نفوذهم، وعمل معاوية بدهائه المعروف في تحكيم أصول حكم بني أمية، وامتداد نفوذهم وشراء الضمائر ونشر الرعب والإرهاب في أجواء المعارضة، واكتساح الأكثرية، التي يتحكّم فيها الإرهاب والإغراء، ويميلون دائماً إلى الجهة المنتصرة القوية في الساحة.

فلم يكن حدثَ حدثٌ جديد في الساحة السياسية والعسكرية بعد الهدنة التي عقدها الإمام الحسن عليه السلام غير أمرين اثنين:

أحدهما: استحكام قواعد سلطان الأمويين وامتداد نفوذهم في البلاد.

والثاني: انتشار الفساد في جهاز بني أمية إلى حد الاستهتار والابتذال في حياة يزيد وحكومته.

والأمر الأول: لم يكن لصالح الإمام في التفكير في تحرك عسكري لإسقاط النظام.. فقد كانت تجربة الإمام الحسن عليه السلام بعد حيّةً في نفوس الشيعة، حيث لم يستطع جيش العراق أن يقاوم سلطان بني أمية، بعد وفاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

فما ظنك بهذه القوة العسكرية، بعد أن استحكم لبني أمية الحكم والسلطان، وامتدّ لهم النفوذ في البلاد واستتبّ لهم الأمر.

وأما **الأمر الثاني**: وإن كان ينفع في تحريك الأقلية المعارضة الواعية من الشيعة، إلا أنه لم يكن ينفع ـ بالتأكيد ـ في تحريك الأكثرية التي أَلِفت هذا الفساد واستسلمت له، بل وأعانت عليه.

فلم يكن يصفو ـ إذن ـ للإمام الحسين من القوة العسكرية غير ما صفا لأخيه الحسن عليه السلام من قبل، وهم الثابتون من شيعته ومواليه.. ولا يمكن أن يفكّر الإمام ـ بكل تأكيد ـ أن يجازف بهذه القوة المحدودة لإسقاط النظام الأموي الرهيب، بعد أن أخفقت محاولة أخيه الإمام

(١) انظر الفتوح لابن الأعثم ٥ : ١٢٤، ومقتل الخوارزمي ١ : ٢٢٢، تحقيق الشيخ محمد السماوي.

الحسن ﷺ، في ظروف أحسن من ظروفه، وبقوة عسكرية أقوى من الجيش الذي كان يعدّه لـه العراق بعد موت معاوية.

وهذا التشخيص ليس مما نضيفه نحن من عندنا إلى الظروف التي رافقت خروج الحسين ﷺ وثورته، وإنما نجده عند كل الذين نصحوا الإمام بالإعراض عن الخروج إلى العراق، ممن كان يعز عليهم أن يواجه الإمام تجربة أخيه الإمام الحسن ﷺ مرةً أخرى في العراق كعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم.

ونجد هذا التشخيص بالذات في كلمات الإمام الحسين ﷺ بصورة مؤكدة ومتكررة قبل الخروج إلى العراق وبعده.

إخبار الإمام ﷺ بمصرعه في العراق

ونذكر هنا نموذجين فقط من خطب الإمام التي توحي بصورة قوية أن الإمام كان مُقْدماً على الشهادة والتضحية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري لإسقاط النظام عسكرياً.

أحدهما: في الحجاز قبل أن يفارق مكة إلى العراق. والثاني: في كربلاء.

الخطبة الأولى:

الخطبة الأولى: يرويها ابن طاوس في اللهوف.

قال رحمه الله: روي أنه ﷺ، لمّا عزم على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، وصلّى الله على رسوله. خُطّ الموت على ولد آدم، مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربةً سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لُحمته، وهي مجموعة لـه في حظيرة القدس، تقرّ بها عينه، وينجز بهم وعده، فمن كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله[1].

ولسنا نحتاج إلى التعليق على هذه الخطبة فهي واضحة في أن الإمام ﷺ كان يعدّ

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاوس: ٥٣ أصفهان ١٣٦٦. ولواعج الأشجان للسيد الأمين ونَفس المهموم للمحدّث القمي: ١٦٣، مكتبة بصيرتي قم ١٤٠٥ هـ ق، وص٧٠ مطبعة العرفان صيدا ١٣٣١ هـ ق.

أصحابه لنهضة كبيرة قوامها التضحية والدم، والشهادة، ولا يطمح فيها إلى أي نصر عاجل.

فها هو يبدأ خطابه مع أصحابه بالموت الذي يطوّق ابن آدم كما تطوق القلادة جيد الفتاة.

ثم يخبر عن مستقبل هذه الحركة المأساوية، فيقول: كأني بأوصالي تقطّعان عسلان (ذئاب) الفلوات.

ثم يطلب النصرة من المسلمين، ولكن بهذه الطريقة الفريدة: (فمن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا).

إن الإمام لا يشير في هذه الخطبة إلى أي هدف عسكري بالمعنى المعروف في الأعمال العسكرية، وإنما يعد أصحابه لتضحية مأساوية دامية، ويطلب من الذين يرافقوه في هذا الرحلة أن يعدّوا أنفسهم للقاء الله ولبذل المهج في سبيل الله.

الخطبة الثانية:

والخطبة الثانية خطبها الحسين عليه السلام بذي حسم من منازل العراق، فقال:

(ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلى سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)[١].

ولما سار الإمام بأصحابه من قصر بني مقاتل خفق خفقة ثم انتبه، وهو يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس لـه فقال: يا أبتِ، جعلت فداك، مِمّ حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا بنيّ، إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا.

قال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟

قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.

فقال: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده[٢].

---

(١) الطبري ٧: ٣٠١ الطبعة الأوروبية.

(٢) الطبري ٧: ٣٠٦ الطبعة الأوربية. نقلنا من النص بمقدار الحاجة. وينقل الطبري مناماً آخر للإمام بمضمون قريب من هذا المضمون في ٧: ٣١٨.

ولا يقتصر الأمر على هذه المنامات والخطب التي يرويها أصحاب السير كالطبري (وابن الأعثم) (والسيد ابن طاوس) (والمفيد) وغيرهم بصورة متواترة، لا تقبل الشك. فإن كل شيء في حركة الحسين عليه السلام إلى العراق يدل على أن الإمام لم يكن بصدد حركة عسكرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لإسقاط النظام الأموي.

إذن فإن الإمام لم يكن يفكّر، ولا يمكن أن يفكّر في حركة عسكرية.. وإنما كان الإمام يُقْدِمُ عن علم ووعي على تضحية مأساوية نادرة، بنفسه، وأهل بيته، وأصحابه، ليهزّ ضمير الأمة الخامل، ويبعث في نفوسهم الحركة وروح التضحية والإقدام.

ولعل في حديث الإمام مع أخيه محمد بن الحنفية رحمه الله عندما أراد الخروج من مكة إلى العراق ما يشير إلى هذه الغاية. والرواية يرويها السيد ابن طاوس في اللهوف.

يقول السيد رحمه الله: إن محمد بن الحنفية عندما عرف بخروج الحسين من مكة أتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها، فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

وكان قد سأل الإمام أن يسير إلى اليمن، وينصرف عن العراق. قال: بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: أتاني رسول الله (في المنام) بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً.

فقال له ابن الحنفية: (إنّا لله وإنّا له راجعون)، فما معنى حملك هؤلاء النساء، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ فقال له: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا. وسلّم عليه ومضى[1].

عندما تفشل الحروب العسكرية، تنجح المقاومة المسلحة

إذن فالنتيجة التي ننتهي إليها في هذه الجولة السريعة: أن الإمام الحسين عليه السلام كان يفكّر في الإقدام على خروج مُسَلّح وتضحية مأساوية دامية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري على الإطلاق لمواجهة سلطان بني أمية، وهذان نحوان من الخروج كل منهما يحقّق هدفاً محدوداً، والخلط فيما بينها يؤدي إلى الوقوع في أخطاء تأريخية كبيرة تشوّش علينا فهم الثورة الحسينية وغايتها ونتائجها.

والآن نتساءل عما كان يمكن أن يقصده الإمام من أهداف وغايات من وراء هذه التضحية المأساوية التي أقدم عليها الإمام عن علم ووعي.

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاوس ٥٥ ط. أصفهان، ونفس المهموم: ١٦٤ ـ ١٦٥ ط. قم ١٤٠٥ هـ ق وروى الفقرة الأخيرة المتعلقة بالنساء المسعودي في إثبات الوصية: ١٤١ ط. المطبعة الحيدرية في النجف.

الغايات الأساسية لثورة الإمام الحسين عليه السلام

١ ـ تحرير إرادة الأمة:

يستخدم الطغاة عادة سلاحين مؤثرين في وجه تحرّك الأمة وتمردها ورفضها للظلم.

وهما سلاح (الإرهاب) و(الإفساد) ومن خصائص هذين السلاحين أنهما يسلبان الناس الإرادة والقدرة على التحرّك والوعي والإدراك.

ومن أولى مستلزمات كل حركة (الوعي) و(الإرادة).

وعندما يفقد الإنسان بصيرته وإرادته، يفقد كل قدرة للتحرّك، ويستسلم للواقع الفاسد، ويتكيّف معه، وعند ذلك يستولي الطاغية وفئته على إرادة الأمة ووعيها ومصيرها وحتى على ذوقها وأخلاقها وأعرافها، ويتم مسخ شخصية الأمة بصورة كاملة في كل أبعادها ويتحكّم الطاغية في كل شيء من حياة الأمة، ولا تملك الأمة تجاه الطاغية غير الطاعة والانقياد والاستسلام.

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم في علاقة فرعون بقومه وعلاقتهم بفرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1].

إن فرعون تمكن من أن يستخف قومه وأن يسلبهم وعيهم وإرادتهم وقيمهم بالإرهاب والإفساد، وبذلك تمكّن من أن يمسخ شخصيتهم مسخاً كاملاً، ويستأصل من نفوسهم كل قدرة على الوعي والتفكير، فضلاً عن الإرادة والمقاومة والرفض. وبهذه الصورة استطاع فرعون أن يكسب طاعتهم: (فأطاعوه).

وهذه الطريقة هي الطريقة المفضّلة لأئمة الضلال في اكتساب طاعة الناس وولائهم فإنّ هذا الولاء والطاعة يقوم عادة على حطام شخصية الأمة.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

عند ذلك يعيش الحكّام من أئمة الضلال في راحة تامة من ناحية الرعيّة لا يقلقهم شيء من جانبهم، ويتحول الناس إلى قطيع من المتملقين والمتزلفين والراضخين والصابرين.

وينقلب في نفوسهم الوعي والإرادة إلى تحقيق ما يطلبه الحكّام، فيحبّون ما أحبّوا ويريدون ما أرادوا، وبهذه الصورة تتكوّن في الأمة طبقتان:

١ ـ **طبقة المستكبرين**: وهم الحكّام من أئمة الضلال ومن يرتبط بهم ومن ينتفع منهم من «الملأ» الذين يستعلون على الناس، ويستكبرون في الأرض، ويتحكّمون في حياة الناس، وإرادتهم، ومصيرهم، وحتى أذواقهم وأخلاقهم، ويضعون أنفسهم في مركز السيادة والحاكمية من حياة الإنسان من دون الله، ويستعلون على الناس ويفسدون في الأرض.. وهؤلاء هم الطاغوت[1] الذين يتجاوزون حدود العبودية والطاعة لله تعالى إلى الاستكبار والسيادة والحاكمية من دون الله والإفساد في حياة الناس.

٢ ـ **وطبقة المستضعفين**: الذين يستخفهم الطاغوت (يسلبهم ثقلهم في موازين الإنسانية والحياة الاجتماعية من القيم والفضائل والخصال الحميدة والفطرة) ويستضعفهم (يسلبهم القدرات والإمكانات والكفاءات التي منحهم الله تعالى)، وتتحول هذه الطبقة الواسعة إلى طبقة تابعة، ومنقادة، ومستسلمة للأمر الواقع، تفقد خصائصها وقيمها الإنسانية كافة، وتتحول إلى أداة طيّعة لتنفيذ كل ما يمليه عليها الطاغوت «إمّعة».

وأول ما تفقد هذه الطبقة وعيها وإرادتها، ومن ثم تفقد كل شيء في حياتها مما منحها الله تعالى من القيم والكفاءات، وآخر ما تفقد ضميرها ووجدانها فإذا بلغت هذا الحد صدق فيها قوله تعالى.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[2].

إن الطاغوت يسلبهم (الوعي) و(الإرادة) و(الضمير) عن طريق (الإرهاب) و(الإفساد)، ولإنقاذهم من قبضة الطاغوت وأسره لابدّ من إعادة (الوعي) و(الإرادة) والضمير إليهم قبل كل شيء حتى ينظروا إلى الأمور والأشخاص بوعيهم الذي أعطاهم الله، لا من خلال ما يحبّه

(١) يقول الراغب في المفردات: الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع: قال: ﴿...فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ مفردات الراغب: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

الطاغوت ويكرهه، وحتى يتمكّنوا من أن يأخذوا القرار لأنفسهم بأنفسهم، لا أن يتخذ الطاغوت القرار بالنيابة عنهم ولهم.

ولقد واجه الحسين عليه السلام واقعاً اجتماعياً وسياسياً سيئاً من مثل هذا الواقع، تمكن فيه بنو أمية من مسخ شخصية الأمة وسلب قيمها وضميرها وقدراتها ووعيها وإرادتها. وأسوأ ما كان في هذه الانتكاسة أن القدرة والقوة التي أكسبهم الإسلام تحوّلت إلى قدرة عسكرية وسياسية في الاتجاه المعاكس للإسلام وتحوّل السيف الذي سلّحهم به رسول الله لقتال أعداء الإسلام، إلى أداة لمحاربة أبناء رسول الله وأوليائهم دون أعدائهم.

وكان هذا هو جوهر الانتكاسة الكبيرة التي تمت على يد بني أمية في تاريخ هذه الأمة.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد:

(سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها[١] على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم)[٢].

فكيف جرت ـ يا ترى ـ هذه الانتكاسة الخطيرة في نفوس هؤلاء الناس، حتى تحولت سيوفهم التي مكّنهم الإسلام منها لمحاربة البغاة الظالمين... تحولت إلى وجه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الزكي الطاهر الأمين، ولصالح سلطان ابن معاوية الفاسق، الذي كان لا يشك في فجوره وفسقه وشربه وفحشه أحد من المسلمين؟

وكيف جرت ـ يا ترى ـ هذه الانتكاسة الخطيرة في حياة الناس، حتى تخالفت قلوب هؤلاء الناس وسيوفهم؟ كما قال الفرزدق الشاعر رحمه الله للحسين عليه السلام: (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك).. ثم توافقت قلوبهم وسيوفهم على ابن رسول الله وأهل بيته وأصحابه المقيمين للصلاة والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟

وكيف تحوّلت هذه القوة التي منحهم الإسلام إيّاها، والمركزية والسيادة والموقع الممتاز الذي اكتسبوه بالإسلام إلى قوة ضاربة لصالح أعدائهم ضد أوليائهم؟

---

(١) أي: أوقدتم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدوّنا وعدوّكم.

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم ٢٦٢ ط. النجف ١٣٧٦.

لست أدري ماذا حلّ بهذه الأمة من سوء حتى تحوّلت هذه القوة والمركزية، كلها لصالح أعدائهم على أوليائهم، وعاد من جديد أولئك الذين كانوا يحاربون هذا الدين إلى مراكزهم القيادية في المجتمع، مستفيدين من كل هذه القوة، والمركزية والنفوذ، والسلطان، الذي جاء به الإسلام، وأصبح دعاة هذا الدين وقادته، الذين حملوا هذا الدين في موضع الاتّهام والمحاربة من قبل الأمة، تقاتلهم بالسيف الذي وضعه الإسلام في أيديهم.

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد (سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم).

وذلك كله من غير أن ينقلب هؤلاء الذين كانوا يحاربون الإسلام في الأمس القريب، عن مواقعهم العدائية من الإسلام ومن هذه الأمة. فلا زالوا يحملون بين جنبيهم روح الجاهلية، ويمارسون أخلاقها وعاداتها، ويعملون على استئصال القيم الإسلامية في هذه الأمة الناشئة، ونشر الظلم والرعب والفساد (بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

وكانت هذه الأمة في جاهليتها ضعيفة، مستضعفة، خاملة الذكر، منسيّة، لا تكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوة على المواجهة، فاستثار الإسلام كوامن الحركة والقوة والعزم والانطلاق والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحوّلت بسبب ذلك إلى حركة حضارية واسعة على وجه الأرض وفي التاريخ، تحرق عروش الجبابرة والطغاة، ولكن ما أسرع ما انتكست هذه الأمة، فتحوّلت هذه الحركة، والقوة، والانطلاقة التي استثارها الإسلام باتّجاه عكسي تماماً، للقضاء على حَمَلة هذا الدين ودعاته وأوليائه، ولصالح الطبقة المترفة التي كانت تحارب هذا الدين بالأمس القريب، وتحمل حتى اليوم، معها إلى الإسلام رواسب الجاهلية، وأفكارها وعاداتها وسلوكها.

(وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم).

ولا نعرف فيما يصيب الأمم من المآسي، مأساة آلم وأفجع من أن ينقلب الإنسان على نفسه، فيؤثر ضرّه على نفعه، وفساده على صلاحه، ويحارب أولياءه ويتحبّب إلى أعدائه.

ولقد أصاب المسلمين في هذه الفترة مأساة من مثل هذه المأساة.

والإمام يعبر عن ألمه العميق بهذه الكلمة المشجية:

(ويحكم أهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلون)؟

إننا لا نشك أن الأمة قد تعرّضت في هذه الفترة لردةٍ حضارية عجيبة، يعبّر عنها القرآن بهذا التعبير العجيب: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[١].

وآية هذه الردّة الحضارية التي تنتكس فيها الأمة هو أن يتحوّل الأولياء في حياة الأمة إلى موضع الأعداء، ويتحوّل الأعداء إلى موضع الأولياء.

وعندما يتبادل هذان القطبان: (الولاية والبراءة) في حياة الناس مواضعهما، ويأخذ كل منهما موضع الآخر، فإن هذه الأمة تواجه أمراً يختلف عن أي أمر آخر، وهذا الأمر هو الانقلاب الحضاري العكسي (أو الردّة الحضارية).

والأمة في هذه الردة تتنكّر لنفسها، وتنقلب عمّا هي عليه إلى شيء آخر. فإن هوية الأمة وشخصيتها بالولاء والبراءة، وعندما يتحول الولاء إلى موضع البراءة والبراءة إلى موضع الولاء، فإن هذه الأمة تواجه حالة انتكاسة خطيرة.

وهذا هو ما يشير إليه الإمام في خطابه لجيش بني أمية يوم عاشوراء: (فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم).

وهذه هي الحالة التي يتنكّر فيها الإنسان لنفسه ويعادي نفسه. فإن الإنسان عندما يتودّد إلى عدوّه، ويساعده ويعينه فإنما يعينه على نفسه.

والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق ومعبّر:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٢].

إنّ الذي ينسى الله يُنسيه الله نفسه، والذي يتنكّر لله ينكّر الله نفسه عليه، فيتنكر لنفسه.

والإنسان في هذه الحالة، من السقوط والتردّي، إنما يخسر نفسه، وشر أنواع الخسارة أن يخسر الإنسان نفسه. فإذا خسر الإنسان نفسه يفقد كل رأس ماله، ولا يبقى له شيء بعد ذلك، يرجو منه خيراً.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٣].

ويقول عز شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩.

(٤) سورة الزمر، الآية: ١٥.

وخسارة النفس تختلف عن أيّة خسارة أخرى، فإن الربح والخسارة هو الزيادة والنقصان فيما يملك الإنسان مع بقاء المحور: (الذات). فكلما يكتسب الإنسان من فائدة مادية أو معنوية يدخل في حساب (الربح)، وكلما يفقد الإنسان من المواهب المادية والمعنوية التي آتاه الله تعالى يدخل في حساب (الخسارة).

ولكن الإنسان في هذه الأحوال جميعاً يحتفظ بـ (نفسه) التي هي المحور التي تدور حوله الأرباح والخسائر.

فإذا خسر الإنسان هذا المحور أي: خسر نفسه، لا ما يملك من مواهب مادية ومعنوية، وسقط هذا المحور كان هو الخسران الأكبر، الذي لا تشبهه خسارة أخرى.

وإلى هذا المعنى من الخسارة يشير القرآن الكريم بكلمة ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ في أكثر من آية[١] ونلتقي في القرآن تعبيراً آخر عن هؤلاء الناس الذين يخسرون أنفسهم في الحياة الدنيا وهو (ظلم النفس).

يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

والذين يعاقبهم الله بظلمهم، لم يظلمهم الله، وإنما كانوا هم الذين أقدموا على ظلم أنفسهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

وأخيراً إن مآل الخير والشر هو النفس وإنّ الذي يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، والذي يضل فإنما يضل على نفسه.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾[٤].

أي يستقر الضلال والغيّ على نفسه، هؤلاء يضلّون على أنفسهم، ويضلّ سعيهم وعملهم وتحركهم، ويكسبون الضلال والهلاك لأنفسهم.

والخسارة والضياع الكبير: أن يضل الإنسان على نفسه، ويضل سعيه وعمله: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٥].

---

(١) لاحظ سورة الأنعام، الآية: ١٢، والأعراف: ٩ و٥٣، وهود: ٢١، والمؤمنون: ١٠٣، والزمر: ١٥، وآيات أخرى من مثل هذه الآيات.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ١١٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٨، وسورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١].

فإن الإنسان إذا تنكّر لنفسه وظلمها وعاداها، خسرها.

وعندما يخسر الإنسان نفسه يضل سعيه وعمله، ويذهب هباءً كل جهده وعمله، كالذي يبني في غير أرضه، فإن جهده كله يذهب هباءً وسدى.

وإلى هذه الخسارة يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطابه الذي وجّهه إلى أصحاب الحُر في منزل البيضة:

«فأنا الحسين بن علي، وأمي فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، ولكم فيّ أسوة.. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[٢]، وسيغني الله عنكم[٣]».

إن هذه الظاهرة من أغرب ما يلتقيه الإنسان من ظواهر غريبة في حياته على ظهر الأرض.

إن الإنسان بهذا التحوّل الذي يشرح القرآن خطواته ومراحله يظلم نفسه ويتنكّر لها، فيخسرها.. يمشي ويتحرّك بين الناس، ولكن من دون إرادته ووعيه، بل ما يُملى عليه ويراد منه، ويفكر وينظر، ولكن لا بما آتاه الله من فكر ونظر.

يتحرك، لا بإرادته، وإنما بإرادة الطاغوت الذي يستعبده ويحرّكه، لا بالاتجاه الذي ينفعه ويخدمه، وإنما بالاتجاه الذي يخدم عدوّه.

هؤلاء هم الذين تنتكس قلوبهم ويختم الله عليها، وصدق الله تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾[٤].

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٥].

ولن تعود لهم إرادة، ووعي، وفهم، ونور يتحركون به في الناس إلاّ أن يشاء الله.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٨.

(٢) يشير الإمام إلى سنّة الله تعالى في المحق.

(٣) وفي هذه الفقرة يشير إلى سنّة «الاستبدال» بعد «المحق»، والنص في تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٧.

وعندما يفقد الإنسان الوعي، والنور، والإرادة، والعزم، والضمير في حياته ينقلب إلى أداة طيّعة وسهلة بيد الطاغوت يستخدمه في تحقيق أطماعه بالشكل الذي يريد، ويوجّهه إلى ضرب أوليائه بأعدائه، وهذا التحول العجيب في حياة الناس هو الذي حدث في هذه الفترة من التاريخ على يد حكّام بني أمية في هذه الأمة وواجهه الحسين عليه السلام ويتحدث عنه بمرارة وألم.

لقد جرى ـ بالتأكيد ـ تحوّل خطير في نفوس هؤلاء الناس، حتى عاد أسفلهم أعلاهم، وأعلاهم أسفلهم، في انتكاسة رهيبة، يقل نظيرها في التاريخ، حتى يخرج ثلاثون ألفاً منهم أو أكثر من الكوفة عاصمة أمير المؤمنين لمحاربة سيد شباب أهل الجنة وابن رسول الله صلى الله عليه وآله ونجل أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يخرج مع الحسين عليه السلام لمقاومة يزيد بن معاوية غير بضع وسبعين نفر من أصحابه وأهل بيته.

والتفسير الوحيد الذي يستطيع أن يفسّر لنا سرّ هذه الانتكاسة في شخصية الأمة ـ أو طائفة كبيرة من الأمة على أقل التقادير ـ يكمن في الجهد الواسع الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس وإفسادهم لغرض الاستيلاء على المسلمين، ومسخ الهوية الإسلامية، حتى عادت ضمائرهم وإدراكاتهم وإراداتهم في قبضة بني أمية، يتحكّمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم.

وكان لابدّ من هزةٍ قوية عنيفة لضمير الأمة تعيد إليها وعيها، وإرادتها، وقيمها، وتشعرها بعمق الكارثة التي حلّت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، حتى لو لم تكن هذه الهزّة تنفع هذا الجيل، فقد كانت تعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي من بعد هذا الجيل، لئلا يسري إليه هذا الانحطاط الحضاري الذي لزم هذا الجيل إلى الجيل الذي يلي هذا الجيل.

وقد أحدثت المقاومة المسلحة التي قادها الإمام عليه السلام وتضحيته المأساوية هزة عميقة في وجدان الأُمّة، وكانت بحكم الصعقة التي تتطلبها ضرورات الساحة السياسية والحالة الاجتماعية للناس يومئذٍ.

لقد نبّهت شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، بالطريقة المفجعة التي تمّت بها، ضمائر المسلمين، ومكّنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم من جديد، فيكفّروا ويتوبوا عن تخليهم عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد شعروا (يومئذٍ) بالكابوس الرهيب الذي كان يلقي بثقله على صدورهم، وقلوبهم، وعقولهم.

فقد هزّت تضحية الإمام الحسين ضمائر المسلمين، هزة عنيفة، وأشعرتهم بفداحة الإثم، وضخامة الجريمة، وعمق الردّة والانتكاسة في نفوسهم، وحياتهم... فكانت هذه التضحية المأساوية مبدأً ومنطلقاً لحركات كثيرة في التاريخ الإسلامي، ومصدراً كبيراً للتحريك في التاريخ الإسلامي... وهذه هي الغاية الأولى في ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

٢ ـ سلب الشرعية من النظام:

رغم فداحة الخسائر التي لحقت بالمسلمين، والانحراف والانحطاط الذي لزم المسلمين في هذه الفترة من حكم بني أمية.. فقد كان هناك خطر أكبر بكثير من كل ذلك يلحق الإسلام مباشرة وليس المسلمين فقط، وهو أن ينسحب هذا الانحراف على الإسلام نفسه، ويتعرض الإسلام لما تعرض له المسلمون من تحريف.

وذلك أن هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية التي كانت تمتلك في نفوس المسلمين رصيداً كبيراً من الشرعية والقدسية، وقد كان بنو أمية يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والاجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو آخر أنّ موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة فيقول قائلهم: (إن خليفة أحدكم أفضل من رسوله).

وكانوا يرون في هذا الموقع أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق، وأسهلها.. فلذلك دأب معاوية على إحكام هذا الموقع الشرعي لنفسه ولابنه يزيد من بعده.

وكان هذا الموقع الشرعي الذي حرص عليه حكّام بني أمية من أكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أمية. فقد كان الانحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في إطار من الشرعية.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية، من فقهاء البلاط... وبالتالي كان هذا الانحراف ينعكس وينسحب على الإسلام، ويفقد الإسلام أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة العريض.

وقد حرص الإمام عليه السلام في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية من حكومة بني أمية، وتجريدها عن القدسية والشرعية

التي كان يحرص عليها بنو أمية كل الحرص.. وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام.

وكان الإمام يجاهر بهذه الحقيقة إجهاراً ويعلن برأيه في يزيد، وعدم أهليّته للخلافة، وينال منه كلّما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال عليه السلام لـه بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد وموقفه من البيعة:

(أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس، معلن بالفسق. فمثلي لا يبايع مثله)[1].

وقد كان لخروج الإمام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة ليزيد، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة.. كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها عنها.

لقد أثار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بالصورة المفجعة التي حدثت في كربلاء مشاعر المسلمين جميعاً في جيل القتلة، وفي الأجيال التي تعقّبهم، على صعيد واسع، واستشعروا جسامة الجريمة وبشاعتها في وجدانهم، وضمائرهم، ونقموا على يزيد ومن لحقه من خلفاء بني أمية الذين خلفوا يزيد على السلطان والحكم. وسقطت القيمة الشرعية للخلافة، ولم تعد الخلافة موقعاً شرعياً يمتلك رصيداً من الشرعية والقدسية في نفوس المسلمين، كما كان من قبل.

ولا يمكن أن يشك أحد في أنّ هذه الجريمة التي اقترفها جهاز الخلافة الأموية في عهد يزيد في العراق تركت أثراً عميقاً في ضمائر المسلمين جميعاً (إن لم يكن في نفس الجيل ففي الجيل الذي تعقّب هذا الجيل مباشرة)، وأسقطت مكانة الخلافة الأموية في نفوس المسلمين، وعادت الخلافة الأموية موقعاً سلطوياً يمتلكه الأقوى، كما في سائر المواقع التي يمتلكها أصحاب السلطة في دنيا الناس.

وعلاقة الناس بهذا الموقع لم تعد، كما كانت علاقة دينية خالصة نابعة من إيمان الناس بشرعيّة هذا الموقع.

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي (المتوفى ٥٦٨ هـ)تحقيق الشيخ محمد السماوي ١ : ١٨٤.

ولذلك فلم يعد للانحرافات التي يرتكبها جهاز الخلافة الأموية تأثير تحريفي كبير على الإسلام.

وسلم الإسلام من تحريفات الحكّام بنسبة كبيرة، وأصبح المسلمون بعد هذا التاريخ يرجعون في أمور دينهم إلى طبقة أخرى غير طبقة الحكّام الذين يرجع إليهم الناس في أمور دنياهم بحكم الضرورة والاضطرار.

ومن هذا التاريخ بدأ يتكوّن في المجتمع خط آخر غير خط الخلافة وهو خط الفقهاء والعلماء الذين يضع المسلمون ثقتهم الدينية فيهم... وبقدر ما كان يبتعد هؤلاء الفقهاء والعلماء عن الحكّام والسلاطين كانت تزداد ثقة المسلمين بهم.

والذي يواكب قراءة التاريخ الإسلامي يجد فارقاً نوعياً واضحاً في موقع الخلافة قبل موقعة الطف وبعدها... وجوهر هذا الفرق هو افتقاد الخلافة بعد معركة كربلاء للصبغة الشرعية والإطار الديني الذي كانت تمتلكه من قبل.

وعلى هذا النهج نستطيع أن نفهم الفارق النوعي بين مسؤولية الإمام الحسن عليه السلام في الفترة التي تولى فيها الإمام الحسن الإمام عن مسؤولية أخيه الإمام الحسين عليه السلام في الفترة التي تولى فيها الإمامة في قتال بني أمية.

فلو كان الإمام الحسن يواصل قتال معاوية، بعد أن خذله جيشه، وكانت الحرب تنتهي إلى النتيجة التي لم يكن يشك الإمام فيها من هزيمة جيشه وانتصار معاوية... لوجد معاوية الفرصة الذهبية التي كان يطلبها في القيام بتصفية واسعة في صفوف الشيعة وإنهاء البقية الباقية من هذا الخط الإسلامي النقي الذي استعصى على عوامل الانحراف والخضوع لسلطان بني أمية.

أمّا قيام الحسين عليه السلام فقد كان لـه أثر معكوس تماماً وقد أثار سخط المسلمين ضد سلطان بني أمية ودفع الناس للخروج على سلطان بني أمية ووسع دائرة المعارضة.

وذلك لاختلاف طبيعة ظروف الإمام الحسن عن الإمام الحسين عليه السلام، واختلاف نوع وطبيعة قتال الإمام الحسن عن قتال الإمام الحسين.

فقد كان الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة عسكرية مع معاوية، وقد تخلّى عنه أكثر جيشه، ولم يبق معه إلا شيعته الذين كانوا يعدون جزءاً ضئيلاً من جيش العراق وكانت نتيجة هذا القتال هزيمة عسكرية، تتيح الفرصة لمعاوية للقضاء على البقية الباقية من شيعة الإمام.

بينما كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقيامه (خروجاً) على يزيد و(مقاومة مسلحة) تتبعها تضحية مأساوية فجيعة نادرة في تاريخ الإسلام، ولم تكن (حرباً نظامية عسكرية) تستهدف إسقاط النظام.

ووعي هذه الحقيقة ضروري في فهم ثورة الحسين عليه السلام. فلم يكن يرى الحسين عليه السلام أن بإمكان أنصاره من العراق والحجاز أن يقاوموا جيش بني أمية، ولا أن يصفو له العراق، ولا أن يقاوم أهل العراق إرهاب بني أمية وإغراءهم، فما كان ليصفو في أحسن الأحوال للإمام من العراق غير قلّة قليلة من شيعته يخرج بهم على يزيد، وكان الإمام عليه السلام يعلم بهذه الحقيقة ويفهمها جيداً.

إذن، لم يكن الإمام يطلب فتحاً عسكرياً، وإنما كان يطلب في خروجه تحريك ضمائر المسلمين وإثارة الضمائر والنفوس والعواطف والعقول بفعل المأساة المفجعة التي واجهها الحسين عليه السلام على يد جيش بني أمية في كربلاء. وكانت غاية الإمام الحسين عليه السلام في هذه المأساة الدامية والمفجعة هي تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية وإسقاط شرعية جهاز الخلافة الأموية وعزلهم سياسياً واجتماعياً في أوساط العالم الإسلامي، سِيّما في الحجاز والعراق اللذين كانا يعتبران حينذاك قلب العالم الإسلامي، وتجريدهم من الشرعية التي كانوا يحرصون عليها كثيراً.

كل ذلك تمّ نتيجة اختلاف موقع الإمامين وظروفهما واختلاف ظرف معاوية من يزيد.

فلم يكن معاوية قد أسقط الأقنعة كلها عن وجهه كما ألقى يزيد، ولم يكن معاوية قد كشف عن سرّه ونيته، وأسفر عن وجهه كما فعل يزيد.

وبالتالي فقد كان تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية ومحاولة النيل من شرعية الخلافة الأموية في عهد يزيد أمراً ممكناً وبالطريقة التي أقدم عليها الحسين عليه السلام، بينما لم تكن هذه الظروف متوفّرة للإمام الحسن عليه السلام بالشكل الذي توفّر في عهد يزيد للإمام الحسين عليه السلام.

وكان توفيق الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق هذه الغايات جميعاً توفيقاً عظيماً من غير ريب.

ولو انعكس الأمر، وكان الحسن عليه السلام في موضع الحسين عليه السلام لاختلف الأمر، وأقدم الحسن عليه السلام على ما أقدم عليه الحسين عليه السلام تماماً، ولكن الله تعالى شاء أن يجعل السبط

الأكبر عليه السلام في موقع يختلف عن الموقع الذي وقع فيه أخوه الحسين عليه السلام، وقد كانت مأساة كربلاء فتحاً كبيراً، حققه الله تعالى للسبط الشهيد في أحرج فترة من فترات تاريخ الإسلام.

وهذا هو الفتح والغلبة الذي يشير إليه الإمام زين العابدين عليه السلام في جواب السائل المفجوع بمصرع الحسين عليه السلام في كربلاء، الذي سأل علي بن الحسين عليه السلام في الشام.

من الغالب، يا علي بن الحسين؟

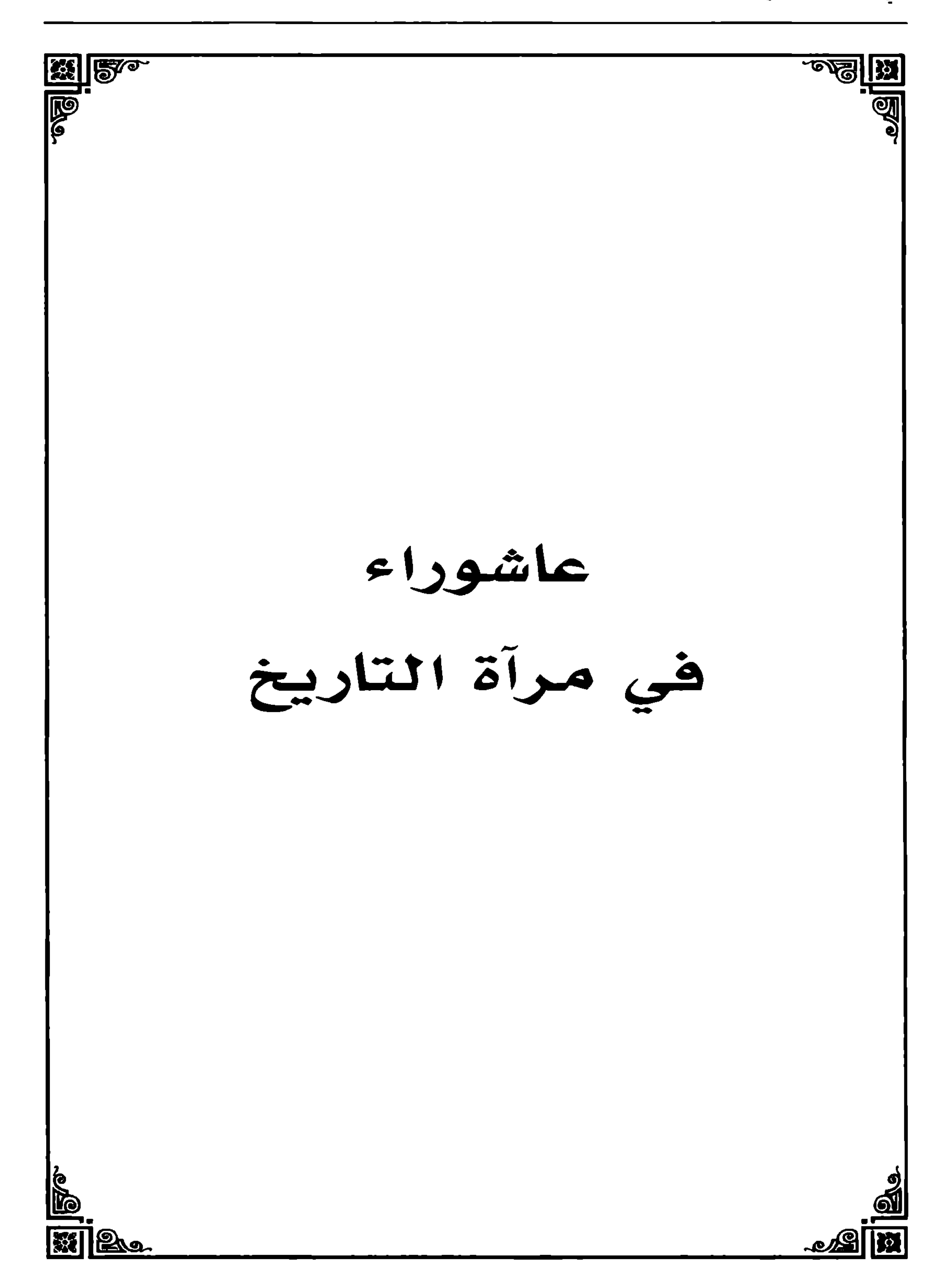
فقال له عليه السلام: «إذا دخل وقت الصلاة وأذن المؤذن عرفت من الغالب»[1].

وهذه هي النتيجة (السياسية) لقيام الإمام عليه السلام ومن خلال هاتين النتيجتين اللتين تمخّضتا عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهما: المكاسب (الحركية) و(السياسية)، نستطيع أن نعي الدور التاريخي الكبير لثورة الإمام عليه السلام في التاريخ الإسلامي.

وأخيراً نتوقف عند هذا الحد من الحديث عن قضية الوارث العظيم لخط الأنبياء، على أن نواصل البحث في الأجزاء اللاحقة إن شاء الله تعالى.

---

(١) أمالي الطوسي: ٢٩٠ ط. النجف.



عاشوراء
في مرآة التاريخ

عاشوراء في وعي الجمهور ووعي النخبة

فيما يلي نحاول أن نقف وقفة تأمل في رحاب يوم عاشوراء ونبحث عن العناصر والقيم والآفاق الواسعة لهذا اليوم العجيب.

هذه الساعات القليلة والمعدودة من يوم العاشر من محرم تنطوي على آفاق واسعة جداً وعلى معاني وقيم تستحق أن يتوقف الإنسان عندها طويلاً ويتأمل فيها كثيراً.

هذه الآفاق لم تلق بعد العناية الكافية من قبل الباحثين والمفكرين الذين أَوْلوا (عاشوراء) اهتمامهم رغم كثرة الدراسات والأبحاث والجهود الفكرية التي تصبُّ في الأحداث التي جرت على أرض كربلاء يوم العاشر من محرم من سنة ٦١ هـ. ق.

وإنني لا أشك أن وعي الجمهور لعاشوراء وعمقه وآفاقه أكثر بكثير من وعي المفكرين الذين تناولوا هذا اليوم العجيب من التاريخ بالدراسة والبحث.

إن الذي يدركه جمهور الناس بوعيه الفطري شيء أعمق بكثير مما يتلقاه الباحثون والمفكرون من هذا اليوم ولو أمعنا النظر في وعي الجمهور ليوم عاشوراء، وجدنا أن الجمهور يسبق الباحثين والمفكرين في وعي هذا اليوم وآفاقه الواسعة وما ينطوي عليه من القيم والمفاهيم.

وأنا من الذين يثقون بوعي الجمهور المؤمن وحسّه المرهف الدقيق في التشخيص والتقييم. وأُعارض الذين ينتقصون من وعي الجمهور المؤمن وفهمه وتشخيصه. فالجمهور يملك حساً مرهفاً ووعياً فطرياً وبصيرةً نافذة ـ في حالات السلامة والصحوة ـ لا يملكه دائماً أُولئك الذين يتتبعون الأحداث من خلال التأملات الفكرية والدراسات العلمية.

وهذا الحسّ الفطري المرهف يجعل الجمهور سبّاقاً إلى وعي هذه الآفاق الربانية في حياة الإنسان. وكثيراً ما يتفق أن الباحثين والمفكرين يتتبعون خُطى الجمهور ويقتفون أثره في الوعي والتفسير والتشخيص. ومع ذلك فإن الوعي الفطري للجمهور يبقى محتفظاً لنفسه بقدرة كبيرة جدّاً على التشخيص، والتقييم، ونفاذ البصيرة تقصر عنه أفكار وتفسيرات الباحثين والمفكرين أحياناً.

وهذا هو ما يتراءى لي فعلاً في (عاشوراء). فكلما يمعن الإنسان النظر في التعاطف الوجداني الكبير من قبل جماهير المسلمين مع حادث الطف في يوم عاشوراء، وقياس ذلك إلى التفسير والتقييم العلمي المطروح على الصعيد الفكري... يزداد إيماناً بأن الجمهور كان أقدر على استيعاب الآفاق الواسعة لهذا اليوم من الباحثين والمفكرين الذين تناولوا هذا الموضوع الخطير بالدراسة والبحث.

ويبدو أن الحس الفطري لدى جمهور المؤمنين، أسرع إلى وعي الحقائق من أُولئك الباحثين الذين يعتمدون (عصا) التفسير والتحليل العلمي بالوسائل العلمية المعروفة، وإنَّ هذا الجمهور في حالة سلامة الفطرة يرى بنور الله ما لا يراه غيره.

وهذا ما نراه فعلاً من حيويّة (عاشوراء) في وجدان جمهور المؤمنين وعواطفهم، وتفاعل الجمهور الواسع والعميق مع عاشوراء خلال هذه الفترة الطويلة والتي تزيد على ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وعلى هذه المساحة الواسعة من الأرض وهذا أمر فوق العادة بالتأكيد... ولا ينبغي أن نمرَّ عليه مروراً سريعاً من دون وقفة تأمل وتفكير.

ولا نعرف نحن إلى الآن حدثاً يستقطب عواطف جماهير المسلمين بهذه الصورة من القوّة والفاعلية كعاشوراء ولا نعرف أمراً في حياة المسلمين يستقطب الجماهير بهذه الصورة الواسعة والقوية إلّا الفرائض الإسلامية من صلاة وصوم وحج.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً)[١].

موقف السلاطين والحكّام من عاشوراء

ولأمر ما كان يُحِسّ السلاطين والملوك أَنَّ في مظاهر الحزن والحداد على السبط الشهيد شيئاً يضرهم ويسيئ إلى سلطانهم وملكهم، وكانوا يواجهون الجمهور الحسيني بالجفاء والإنكار، وأحياناً بالإرهاب والمطاردة تماماً كما كان الجمهور يشعر أن في قضية الحسين عليه السلام شيئاً يرتبط بمصيره ومصير الإسلام... وفي تاريخنا منذ العصر الأموي وعبر العصر العباسي إلى اليوم الكثير من الأمثلة على تنكّر السلاطين وامتعاضهم من إقبال الجمهور على زيارة الحسين والتعاطف مع قضية الحسين حتّى بلغ الأمر أن هارون الرشيد أمر بهدم

(١) مستدرك الوسائل ٢: ٢١٧.

القبر الشريف وكربه[١] كما أمر المتوكل العباسي بهدم القبر وما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقي موضع القبر ويمنع الناس من الزيارة[٢]... ومع كل هذه الضغوط السياسية والإرهاب الذي كان يمارسه السلاطين بشأن قضية الحسين وعاشوراء، فإن عاشوراء كانت تتفاعل، ولا تزال، مع عواطف الجماهير ومشاعرهم في حركة تصاعدية.

وقد وضع علماء البلاط الأموي أخباراً وأحاديث كثيرة في يوم عاشوراء (وأنه يوم بركة، ليعدل الناس ـ كما يقول الإمام الصادق عليه السلام ـ من الجزع والبكاء والمصيبة والحزن، إلى الفرح والسرور والتبرك) وقد بذل حكّام بني أُمية لذلك الجوائز والهدايا[٣].

ومع كل هذه الضغوط السياسية بشأن هذا اليوم وبشأن قضية الطف فقد بقت (عاشوراء) تتفاعل مع عواطف الجماهير ومشاعرهم في حركة تصاعدية يستلمها جيل من جيل، وتنتقل من جيل إلى جيل بنفس الحيوية والقوّة وتضيف إليها الأجيال المقبلة الكثير من عواطفها ومشاعرها وأحاسيسها.

ولا أكاد أتصور أن هذا التعاطف العميق والواسع من قبل جماهير المسلمين في رقعة واسعة من الأرض وعبر تاريخ طويل تتكوّن وتستمر وتشق طريقها عبر مضايقات الحكّام والسلاطين... من دون أن يكون الجمهور قد وجد ـ بوعيه الفطري ـ في هذه الساعات القليلة من يوم عاشوراء من الآفاق الواسعة، والصور، والمعاني، والقيم المخبوءة، ما لم يتمكن من التقاطها وتسجيلها ورسمها أقلام الباحثين والمفكرين.

فلا يسعنا أن نفهم مثل هذا التعاطف الجماهيري الواسع مع عاشوراء دون أن نقبل أن الجمهور قد تمكن أن يرى في هذا اليوم ـ بحسّه الفطري ـ ما لم تتمكن الدراسات العلمية أن تسجله وترسمه عن هذا اليوم. والحجم المطروح لعاشوراء من قبل الباحثين والعلماء لا يناسب هذا التعاطف والتفاعل الواسع من قبل الجماهير. وهذا هو الذي يدعو إلى القول بأن الجمهور لـه دور السبق في اكتشاف آفاق (عاشوراء). والباحثون الذين عملوا في تحليل وتفسير أحداث هذا اليوم كانوا يتحركون من وراء الجمهور، ويضعون خُطاهم في التحليل والتفسير موضع خطى الجمهور.

---

(١) تاريخ النياحة على الإمام الشهيد للسيد صالح الشهرستاني ٢: ١٢ نقلاً عن نزهة أهل الحرمين للسيد حسن الصدر الكاظمي: ٢٧.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧: ٥٥ في حوادث سنة ٢٣٦هـ.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٢٧٠.

وليس في هذا ضير، إذا كانت أقلام الباحثين قادرة على متابعة الجمهور في وعيه ودركه للقضية الحسينية، وإنّما البأس أن تتوقف أقلام الباحثين وأفكارهم عن اكتشاف وتسجيل ما اكتشفه الجمهور من الآفاق الرحبة لعاشوراء بحسّه الفطري.

عاشوراء مرآة للتاريخ

من خلال هذا اليوم وساعاته القليلة الحاشدة بالأحداث الكبيرة... نقرأ التاريخ البشري كلّه، ومن خلال هذا اليوم نقرأ سنن الله في التاريخ، ونفهم كيف تسقط أُمّة، ويستدرجها الله تعالى، ويعذبها، ويهلكها، وكيف يستبدلها بأُمة أُخرى. وكيف تسمو أُمّة في التاريخ، وتسقط أُخرى، وكيف يجري الله قانون الابتلاء على أُمّة فَيُضيّقُ عليها لتنمو وتبلغ رشدها، وكيف يستدرج أُمّة أُخرى لِيَحِلَّ عليها العذاب والنقمة، وكيف يكون استبدال هذا بذاك.

(عاشوراء) مرآة صافية للتاريخ تعكس التاريخ بصورة صادقة وأمينة... ومن خلال قراءة هذا اليوم نستطيع أن نقرأ حركة التاريخ كلها منذ خلق الله تعالى الإنسان على وجه الأرض إلى اليوم.

ذلك أن التاريخ هو مجموعة (السنن الإلهية) في حركة الإنسان وصعوده وسقوطه. ولا يجري في التاريخ شيء بصورة اعتباطية وعفوية، وإنّما يجري كل شيء بموجب سنن وقوانين دقيقة وبالغة في الدقة، كما يجري التغيير في الفيزياء والكيمياء والميكانيك تبعاً لمجموعة من القوانين والسنن الخاصّة بهذه الحقول[١].

والذي يفهم هذه القوانين والسنن بشكل دقيق يفهم التاريخ وحركته وما يجري في هذه الحركة من هبوط وصعود ومن هلاك واستبدال للأُمم، ومن الصراع بين الحقّ والباطل، وبين جند الله وجند الشيطان.

وعاشوراء هي المرآة التي تعكس هذه السنن والقوانين بصورة دقيقة وكاشفة، ذلك أن (الصراع بين الحقّ والباطل وحزب الله وحزب الشيطان) هو العامل الأكبر تأثيراً في حركة التاريخ، بخلاف النظرية الماركسيّة التي تعتبر (الصراع الطبقي) هو العامل المحرّك للتاريخ[٢].

---

(١) بالطريقة التي شرحناها في فصل المذهب التاريخي في الإسلام وبيّنا موضع إرادة الإنسان واختياره في هذه الحركة في النظرية الإسلامية. من كتاب (في رحاب القرآن).

(٢) والفرق الآخر أن النظرية الماركسيّة تؤمن بالعامل الواحد في حركة التاريخ بينما النظرية الإسلامية لا تؤمن بنظرية توحيد العامل في حركة التاريخ.

والتاريخ يتلخص في معظم جوانبه في هذا الصراع الذي يقود طرفاً منه الأنبياء والمرسلون ويقود الطرف الآخر أئمة الكفر.

و(الصراع الطبقي) حقيقة قائمة في ساحة التاريخ لا ننفيها، ولكنه لا يعتبر العمود الفقري للتاريخ، وإنّما يحتل جانباً من جوانب حركة التاريخ، ومهما كانت قيمة هذه المساحة التي يحتلها الصراع الطبقي في تاريخ الإنسان فلن يعتبر العمود الفقري للتاريخ، ولسنا الآن بصدد إثبات هذه الحقيقة القرآنية.

فالتاريخ ـ إذن ـ يتلخص في معظم جوانبه في هذا الصراع الذي يقود طرفاً منه الأنبياء والمرسلون والمؤمنون، ويقود الطرف الآخر الطاغوت وأولياءه.

وفي هذا الصراع التاريخي يبرز أهم خصائص حركة التاريخ، وتتكشّف للإنسان جوانب واسعة من التاريخ لا يكاد يراها إلّا في هذا الجوّ من الصراع بين أولياء الله وأولياء الشيطان.

فإن الصراع يستخرج بصورة قوية خصائص كلّ أُمّة وكل فئة من الناس، ويبرزها على حقيقتها، ويفرز الناس إلى فئتين متمايزتين.

فقد تنزع الأمّة المؤمنة في حالات اليسر والرفاه إلى الدعة والترف وإيثار العافية في حياتها، وتنسى ذكر الله ﷻ فإذا حلَّ بها الابتلاء نزعت إلى الله نزوعاً قوياً وقطعت ما بينها وبين هذه الدنيا من أسباب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[1].

والعكس أيضاً صحيح، فقد يتمكن المنافقون والمخلّفون وأولياء الشيطان من إخفاء حقيقتهم، وما تستبطن نفوسهم من حبّ الدنيا والانقياد للأهواء والولاء للطاغوت والخوف والضعف في ساعات اليسر والأمن... فإذا جدّ الجدّ ووقعت المواجهة والصدام طفح على حياتهم ما كانوا يستبطنونه من خوف ونفاق.

يقول تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

فيكشف الصراع الخصائص الحقيقية لكلّ أُمّة من الناس، ويفرز الناس إلى محورين متميزين، ويعكس التناقضات القائمة في حياة الناس، ويعكس السنن الإلهية التي تجري في حياة الناس، وحركتهم، وصعودهم، وهبوطهم، وسقوطهم، واستبدالهم بأُمم أُخرى... فإن هذه السنن جميعاً ـ أو في معظمها ـ تجري في جو الصراع بين الحقّ والباطل، بقوّة ووضوح، أكثر من أية حالة أُخرى.

ولنقرأ هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب لنجد كيف تهتز النفوس الضعيفة في القتال، وكيف يجري فيها الزلزال، وكيف تزيغ الأبصار، وتنقلب القلوب المؤمنة التي لم يستقر فيها الإيمان إلى الظن بالله؟. وكيف يكشف القتال المنافقين، ويلقي عليهم الضوء، بعد أن كانوا يخفون أنفسهم في صفوف المسلمين... ومع ذلك كيف تتدخل المشيئة الإلهية لإسناد ودعم القلّة المؤمنة الثابتة في هذه الساعات العسرة والحرجة؟.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾[١].

ترى كيف يكشف القتال والصراع المنافقين؟ وكيف يدخل النفوس في ساعة القتال الظن والريب؟ وكيف يهتز المؤمنون ـ الضعاف ـ من الأعماق؟ وكيف يتحول دور المنافقين في ساعات الشدّة إلى التهريج والتثبيط؟

وفي مقابل هؤلاء، الصادقون من المؤمنين الذين تطمئن نفوسهم إلى الله، ويثبتون للأعاصير والعواصف، ولا يدخل نفوسهم شك أو ريب، مهما اكفهرت الأجواء ومهما ضاقت الأحوال.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[٢].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٩ ـ ١٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.

وتتدخل المشيئة الإلهية، وتؤيد المؤمنين بجنود لم يروها:

﴿...اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا...﴾.

ويردّ الله الذين كفروا بغيظهم، ويقذف في قلوبهم الخوف، ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

كل ذلك يتم في أجواء الصراع والمواجهة والقتال. تهتز النفوس، ويصيبها الزلزال، ويكشف النفاق عن نفسه، ويجد المنافقون فرصة للتهريج والتثبيط، وتثبت النفوس المؤمنة، وتطمئن إلى وعد الله، وينزل الله تأييده ونصره على المؤمنين، ويقذف في قلوب الذين كفروا الرعب والخوف، ويهلكهم بأيدي المؤمنين، ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم... كلّ هذه التحولات، والانقلابات، والسنن، والقوانين، والصعود، والسقوط، والثبات، والانهيار يحدث في ساحات المواجهة والقتال... وكلّ هذه الحركة القوية التاريخية والسنن والقوانين الإلهية، والفرز، والتفريق، والكشف يتم في جوّ الصراع.

إذن، الصراع الحضاري بين الحقّ والباطل يكاد أن يكون نموذجاً ممثلاً لمساحة التاريخ وللسنن الإلهية الجارية في هذه المساحة بشكل كامل أو غالب.

وما يجده الإنسان في امتداد التاريخ الطويل وعرضه العريض يجده بصورة مختزلة ومصغرة في الصراعات الحضارية الحقيقية التي يقف جند الله في مواجهة جند الشيطان.

... تماماً كما أن قدحاً من ماء المحيط يستطيع أن يعكس لنا بصورة مصغرة ومختزلة معظم الخصائص الموجودة في مياه المحيطات الكبيرة من التبخير والتجميد والتموّج والتّحرك وما يرسب فيه من الأجسام، وما يتعوّم عليه، وقانون المدّ والجزر والعناصر التي تشكل الماء وما إلى ذلك من الخصائص الكيميائية والفيزيائية لمياه المحيطات، والمطالعة الدقيقة لقدح من الماء تكاد أن تغني عن مطالعة المحيطات الواسعة في معظم الخصائص الكيميائية والفيزيائية لمياه البحار.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

وما يصح عن قانون الاختزال والتمثيل في الفيزياء والكيمياء في العيّنات الصغيرة يصحّ في التاريخ والمجتمع.

فإنّ شريحة ممثّلة من المكان والزمان يمكن أن تعكس معظم الخصائص والسنن القائمة في التاريخ والمجتمع.

وإنّما نقول شريحة زمانية ومكانية ممثّلة، لأنّ من الشرائح الزمانية والمكانية والاجتماعية ما لا يحمل هذه الصفة التمثيلية. فليس كلّ الشرائح الفيزيائية الكيميائية والاجتماعية تحمل هذه القوّة التمثيلية التي تستطيع أن تعكس بها الخصائص الموجودة في كلّ المساحة التي اقتطفنا منها هذه الشريحة... وهذه هي الشرائح غير الممثلة.

أمّا الشريحة الممثلة من الزمان والمكان والتاريخ والمجتمع فإنّها تحمل هذه القوّة التمثيلية... وهي بالذات ما نقصده في هذا الموضع.

ولا شك أنّ الصراع الحضاري بين جند الله والطاغوت من أفضل الشرائح (الزمكانية) التي تختزل وتمثل حركة التاريخ، وتعكس هذه الحركة بقوانينها وسننها الإلهية.

* * *

و(عاشوراء) نموذج نادر من الصراع الحضاري الذي تتجسد فيها سنن التاريخ بشكل قوي ومركّز، وعيّنة ممثّلة لمساحة التاريخ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومرآة صافية لحركة التاريخ... يجد فيها الإنسان الصراع القديم بين جند الله وجند الشيطان، وأسباب وموجبات هذا الصراع، وقِيَم كلّ من طرفي المواجهة، وأساليبهم في هذا الصراع، وحتمية هذا الصراع، ومعاناة طرفي الصراع في هذه المعركة التاريخية، وما يستتبع هذا الصراع من سقوط، وثبات وولادة وهلاك، واستبدال، واستدراج، وتساقط العناصر الضعيفة، وصعود، وتسامي العناصر القوية المؤمنة، ونصر الله للفئة القليلة المؤمنة، وهلاك جند الشيطان... كلّ ذلك ينعكس في مرآة عاشوراء... في هذه الساعات القليلة الحافلة بالأحداث الكبيرة من يوم عاشوراء... ونحن نقرأ كلّ ذلك وغير ذلك من قوانين وسنن التاريخ والمجتمع والصراع في مرآة عاشوراء... بل ماذا أقول. نحن نرى أنفسنا في مرآة عاشوراء فإنّ الإنسان المؤمن ليس نسيج وحده، وليس نبتة طفيلية مجتثة من فوق الأرض، ما لها من قرار، وإنّما هو حصيلة هذا الصراع التاريخي بين الحقّ والباطل، وكلّ هذا الصراع وما استتبعه من معاناة، وآلام، ونصر، وتأييد، وثبات، وصبر قد ساهم بصورة مرئية أو غير مرئية في ثباته وتكوين شخصيته،

وعاشوراء امتداد لكلّ هذا الصراع، ومرآة لهذا التاريخ الحافل بالصراع والمعاناة، والمؤمنون يرون أنفسهم في مرآة عاشوراء، رؤية صافية، صادقة، وواضحة، ويشعرون بأنهم مدينون لعاشوراء، وإنّ عاشوراء تمثّلهم، وتساهم مساهمة فعالة في تكوينهم، وتشكل المرآة الصافية التي تعكس وجودهم وكيانهم.

وهذا هو ما نعنيه عندما نقول إن عاشوراء نافذة على التاريخ، يستطيع الإنسان بوعيه الفطري أن يطل على التاريخ من خلال هذه الساعات القليلة من يوم عاشوراء.

أرأيت كيف تمثّل صفحة الخارطة الجغرافية سطح الأرض، وتعكس إقليماً واسعاً من مساحة الأرض... كذلك عاشوراء تمثّل مساحة واسعة من التاريخ.

ونحن، لكي نستوعب عيّنة ما استيعاباً كاملاً بصورة علمية، نقوم عادةً بواحد من اثنين، حسب اختلاف العيّنة. أمّا أن نكبّر العيّنة تحت المجهر حتّى يمكن اكتشاف وفهم الجزئيات الدقيقة منها التي لا تخضع للعين المجرّدة، أو نصغّر المساحة مع الاحتفاظ بكلّ مقوماتها وأركانها ونختزلها حتّى يمكن استيعاب المساحة الواسعة بنظرة واحدة وفي دائرة صغيرة.

و(عاشوراء) من النوع الثاني. اختزال شديد لحركة التاريخ وما في هذه الحركة من السنن والقوانين. وهذا الاختزال يتصف بالتمثيل الدقيق لمساحة التاريخ الكبيرة وسننها وقوانينها.

ذلك أنّ (عاشوراء) من بين نماذج الصراع بين أولياء الله وأولياء الطاغوت نموذج نادر من الصراع الحقيقي الحاسم في التاريخ.

ففي هذه المعركة التاريخية الحاسمة يتقرر مصير الإسلام، وبالتالي مصير رسالات الله تعالى، الذي كاد أن يسقط في أيدي السلاطين الرسميين الذين كانوا يحكمون باسم الإسلام.

وهذه المعركة استطاعت أن تضع حدّاً للسلطة الزمنية الحاكمة وتفصل بين (الإسلام) وما كان في قصور الخلفاء وأجهزتهم، من لهو وسقوط في لذات الحياة الدنيا، ومن ظلم واضطهاد واعتداء وتجاوز لحدود الله تعالى وأحكامه.

في (عاشوراء) يتقابل صفوة مؤمنة خالصة، وعلى رأسهم ابن بنت رسول الله ﷺ والصفوة الصافية من أهل بيته وأصحابه، مع رؤوس الإجرام والنفاق. وفي هذا التقابل والمواجهة لا أدري ماذا يحسّ الإنسان من بون شاسع وفاصل كبير بين نمطين من الناس، بين هذا السقوط إلى الحضيض والصعود إلى القمة... بين النور والظلمة.

يشعر الإنسان بوجود نمطين مختلفين تماماً من الناس، وبالفاصل الكبير الشاسع الذي

يفصل بينهما في الأهداف، والقيم، والأخلاق، والتربية، والقرب، والبعد من الله، ثم يجد هذين النمطين من الإنسان في مواجهة حقيقية حاسمة في ساحة الطف.

يدعو أحدهما إلى الله تعالى، وإلى إقامة الصلاة وإلى العودة إلى الإسلام، وإلى الأخذ بأسباب العبودية، ويدعو الآخر إلى الطاغوت والانقياد له. يطلب أحدهما وجه الله ومرضاته في هذه الحركة والصراع، يقول أحد شعراء أهل البيت عليهم السلام على لسان الحسين عليه السلام:

إن كان دين محمّد لم يستقم إلّا بقتلي يا سيوف خذيني

ويقول أبو الفضل العباس عليه السلام:

والله إن قطعتم يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

ذلك في معكسر الحسين عليه السلام، وفي المعسكر الأموي المقابل لمعسكر الحسين عليه السلام يطلب أحدهم سقط المتاع في الحياة الدنيا ويقول:

إملأ ركابي فضة أو ذهبا إني قتلت السيد المهذبا

يجسّد أحدهما في سلوكه وقتاله أسمى القيم وأنبلها حتّى في القتال، ويجسّد الطرف الآخر أحط ألوان السلوك في ابتغاء الدنيا وفي الإجرام.

إنّ التقابل العجيب بين هاتين الفئتين اللّتين تقاتلا في كربلاء وبين أهدافهما يعتبر واحداً من أغرب نماذج الصراع بين الحقّ والباطل في التاريخ.

لقد كان أحد الطرفين حقّاً امتداداً لإبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله، ويحمل معه ميراث هؤلاء الصديقين وهمومهم وطموحاتهم، ويُعَدُّ الآخر حقّاً امتداداً لقابيل وفرعون ونمرود والقتلة والمجرمين في التاريخ.

وعلى نتائج هذا الصراع يتوقف مصير هذا الخط أو ذاك. لقد كان أحد الخطّين يستجمع كلّ قِيَم الأنبياء، وعطائهم وتضحياتهم والخطّ الآخر يستجمع كلّ ألوان الانحطاط والسقوط الذي يشهده الناس في التاريخ لهذا الخطّ.

لقد كان مشهد (عاشوراء) مشهداً غريباً في نوعه، ولم يكن يلتبس الأمر في تمييز الحقّ والباطل وتشخيصهما على أحد بين هذين المعسكرين، فقد بان الحقّ، وبان الباطل، وامتاز أمرهما، ولم يبق موضع للالتباس لأحد.

فمن دخل مع هؤلاء دخل على بيّنة وبصيرة، ما بعدها بيّنة وبصيرة، ومَن انساق من وراء أُولئك، كان ممن أضلّه الله على علم.

فقد كان يوم عاشوراء يوماً من أيّام الفرقان في التاريخ حقّاً، افترق فيه الحقّ والباطل، ولم يعد لأحد فيها موضع للشك واللبس.

كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء

إذن عاشوراء مرآة لكلّ حركة التاريخ، وامتداد للصراع القائم بين الحقّ والباطل في التاريخ.

والعكس أيضاً صحيح، فإنّ كلّ صراع في التاريخ بين الدعاة إلى الله وأولياء الطاغوت نسخة من عاشوراء على درجات مختلفة من التمثيل وهذا هو معنى الكلمة المأثورة والدقيقة المعروفة: (كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء).

ففي كلّ أرض وفي كلّ يوم صراع بين الحقّ والباطل بموجب قانون حتمية الصراع بين أولياء الله، وأولياء الطاغوت، ولا تخلو أرض من هذا الصراع، ولا يخلو يوم من أيّام التاريخ منه.

وكلّ صراع في هذه السلسلة الطويلة من الصراعات والحروب والقتال يعتبر نسخة من (كربلاء) ومن(عاشوراء)، على درجات مختلفة من التمثيل حسب سعة وعمق هذا الصراع، وأبعاده في حياة الإنسان.

فالزمان (:كلّ يوم) والمكان (: كلّ أرض) أكثر من وعاءين لحضارة الإنسان... أنّهما وعاءان لحضارة الإنسان، ومقوّمان لها أيضاً، يتفاعلان مع الإنسان، يمنحانه ويأخذان منه. والإنسان في تفاعل مستمر مع الزمان والمكان، يأخذ منهما ويمنحها ويؤثر فيهما ويتأثر بهما.

فالزمان والمكان ـ إذن ـ لا يعتبران وعاءين لحضارة الإنسان فقط، بالمعنى المعروف للوعاء، الذي ليس لها أي تأثير فيما تحتويه. إن الزمان والمكان جزءان مقومان لحضارة الإنسان، ويحملان شحنة وطاقة حضارية معينة في تاريخ الإنسان، وعندما نقول (كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء) يعني أنّ الصراع جزء حتمي لا يتجزأ من حضارة الإنسان.

وهذا الصراع يمتد زماناً ومكاناً مع حضارة الإنسان، وفي كلّ مراحله يعتبر نسخة ممثلة لكربلاء وعاشوراء على درجات مختلفة من التمثيل. فهذه ثلاثة أُصول وثلاثة قوانين:

١ ـ حتمية الصراع.

٢ ـ استمرارية الصراع على خطّي الزمان والمكان.

٣ ـ تمثيل عاشوراء بدرجات مختلفة.

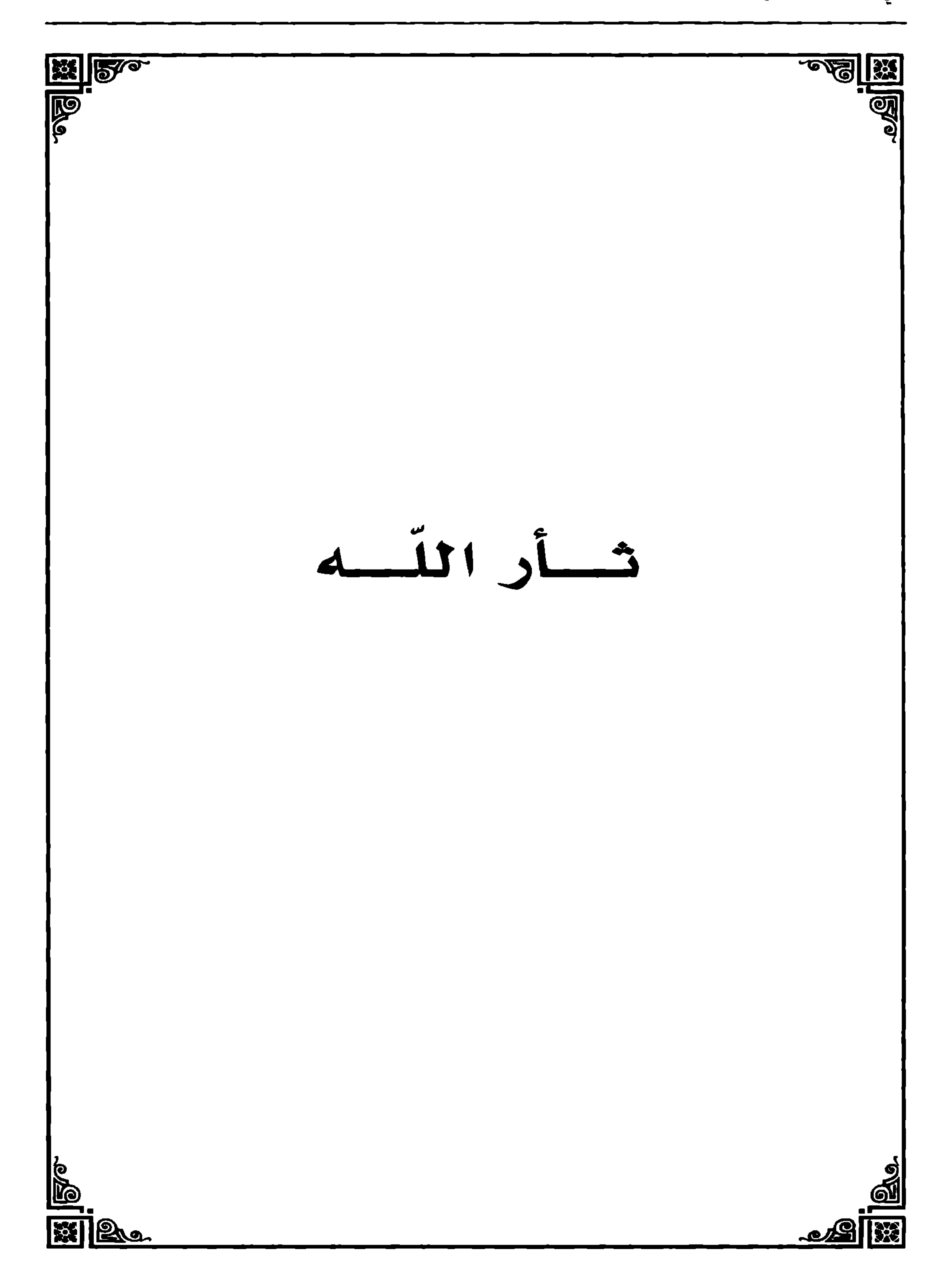
إذن عاشوراء مرآة للتاريخ والتاريخ مرآة لعاشوراء ومن خلال عاشوراء نُطِلُّ على حركة التاريخ، ومن خلال حركة التاريخ نطل على عاشوراء.

إنّ عاشوراء تصغير واختزال شديد لمساحة التاريخ الكبرى، وحركة التاريخ الممتدة على بعدي الزمان والمكان، تكبير وتوسعة لعيّنة عاشوراء، وتمديد لها. ولو وضعنا هذه العيّنة (:عاشوراء) تحت المجهر شاهدنا حركة التاريخ، ولو اختزلنا حركة التاريخ وصغرناها بدرجة عالية جداً التقينا عاشوراء.

إنّ (عاشوراء) ينبغي أن يدرس من خلال هذا الأُفق التاريخي الواسع، من خلال حركة التاريخ، وسنن الله في التاريخ، وسقوط الأُمم وصعودها، وصراع الحقّ والباطل الممتد في أعماق التاريخ، وفي ساحة التاريخ الكبرى... أمّا طريقة بعض الباحثين في دراسة عاشوراء... في اقتطاع هذا اليوم العجيب من مساحة التاريخ، ودراسته بمعزل عن مساحة التاريخ وحركة التاريخ الكبرى، وبتره عما قبله وبعده، وتكليس عاشوراء، وتعتيم هذه الرؤية النافذة التي تنفذ بنا من خلال عاشوراء إلى مساحة التاريخ الواسعة، فهو من الظلم لهذا اليوم وقيمته التاريخية.

وأذكر أنّي قرأت كتاباً عن (عاشوراء) قبل ما يقرب من أربعين سنة لا أحبُّ أن أذكر مؤلفه رحمه الله يتصور كاتبه أنّ جذور حادث الطف تكمن في قضية أُرَينب وما تلفّ هذه القضية من ظروف الغزل والغرام ووساطة أبي هريرة، للحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية في أمرها!! أو الخلاف والتنافس التاريخي بين (هاشم) و(أُمية)، حيث ولدا توأمين ملتصقين ببعض، وفصل الجراح بينهما وتنبئوا يومذاك أن يقع بينهما أو أبنائهما الدم!!.

إن عاشوراء أعمق بكثير من المستوى الذي يتناوله هؤلاء الكتّاب وأمثالهم.



ثـــأر اللّـــه

ثأر الله

رؤية قرآنية للنصر والهزيمة

ثأر الله: رؤية قرآنية للنصر والهزيمة

من المفاهيم العميقة الواردة في زيارة الحسين عليه السلام مفهوم «ثأر الله» وهذا المفهوم يفتح علينا آفاقاً واسعة للتفكير والتأمل ويطرح علينا مسائل من صلب الرسالة والعمل والحركة والجهاد، وهي مسائل بالغة الحسّاسية والأهمية مما تواجهها أُمتنا اليوم، ولذلك فسوف نتوقف قليلاً عند هذه الكلمة لنتأمل معطياتها وإيحاءاتها.

الجذور اللغوية للثأر:

يقول ابن سيده: «الثأر الطلب بالدم»[١]، والثائر: الطالب بالدم، وقيل الثأر طلب المكافأة بالجناية، والثائر: الطالب بالمكافأة بالجناية والدم.

ومنه حديث محمّد بن مسلم يوم خيبر: «أنا لـه يا رسول الله الموتور الثائر» أي طالب الثأر، وهو طالب الدم[٢].

ولهذه الكلمة جذور تاريخية وأصل قرآني؛ فقد كان الدم يستثير أولياء المقتول وذويه للقصاص والانتقام من القاتل، وهذه سنّة تأريخية قديمة، والعرب قبل الإسلام كانوا من أكثر الأُمم والشعوب اهتماماً بمسألة القصاص والانتقام (الثأر)، وملاحقة المجرم وكانوا يعتقدون أنّ الرجل إذا قتل تمثلت روحه بشكل طير يقال لـه: «الهامة» ووقفت على قبره وصاحت «اسقوني»: أي أُسقوني من دم قاتلي، ولا يزال كذلك حتّى يثأر أهل القتيل من قاتله، ومن المعيب على ذوي المقتول أن يتركوا القاتل ينعم بالحياة، دون أن يثأروا منه ويقتلوه؛ يقول السموأل في مفاخر قومه:

---

(١) يراجع لسان العرب ٢: ٧٧ لابن منظور الأفريقي المصري. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) النهاية لابن الأثير ١: ٢٠٤. دار إحياء الكتب العربية.

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طلّ منا حيث كان قتيل[١]

أي لم يذهب دم قتيل منا هدراً دون أن نثأر له.

والعرب في الجاهلية كانوا يتجاوزون في الثأر الحدود المعقولة حتّى قتل (مهلهل) بأخيه كليب من بكر بن وائل مقتلة كبيرة، وكاد يفني بكر بن وائل، حتّى جاء الإسلام وشرّع القصاص والمساواة والعدل في الأخذ بالثأر.

المعنى الاجتماعي للدم:

ولمسألة (الثأر) تأريخ ينفعنا أن نلمّ به في هذا العرض، فقد كان الدم في حياة العرب القبلية قبيل الإسلام مسألة اجتماعية تخص كرامة القبيلة كلها ضد القبيلة التي صدر العدوان منها كلّها؛ فإذا اعتدى فرد من قبيلة على فرد من قبيلة أُخرى لم يكن الدم يخص وليّ المقتول والقاتل فقط، وإنّما كانت القبيلة التي وقعت عليها الظُلامة هي صاحبة الدم؛ والقبيلة التي كان المعتدي منها هي التي تتحمل مسؤولية الدم، وليس شخص المعتدي فقط، وكان كلّ فرد من القبيلة الأُولى يعطي لنفسه الحقّ أن يثأر من كلّ فرد من القبيلة الثانية، وإنْ كان الثائر بعيداً عن المقتول والفرد الذي يقتل به لا علاقة له قريبة بالقاتل.

والسرّ في هذا الاهتمام والتعميم في مسألة الدم، أنّ القبيلة العربية كانت تعتبر الدم حقّاً للجميع، وعلى الجميع أن يعملوا لحماية دمائهم وللثأر من القاتل أو القبيلة التي تؤوي القاتل وتمنحه الحماية، فالدم للقبيلة وليس للفرد، والدفاع عن الدم يقع على القبيلة وليس مسألة فردية.

ولهذا التصوّر لمسألة الدم أصل صحيح في الإسلام في بعض الحدود، وإن كان الإسلام يختلف في أمر الدفاع عن الدم وحمايته والثأر من القاتل اختلافاً كبيراً عن قوانين الثأر في الجاهلية، فالدم مسألة تخص الجميع، ولا تخص المقتول فقط، يقول القرآن الكريم في التعقيب على أول عدوان وقع في تاريخ الإنسان على وجه الأرض على يد قابيل ضد أخيه هابيل:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾[٢].

---

(١) ديوان الحماسة بشرح التبريزي ١: ١١١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

فالعدوان على شخص عدوان على الجميع أو كأنّه عدوان على الجميع.

إلّا أنّ الإسلام هذّب قانون الثأر، ولم يسمح للجميع بالثأر وإنّما خصّ أولياء الدم بذلك، فإن لم يكن للمقتول ولي تولى ولي الأمر هذا الأمر، وذلك لئلّا يكون الأمر فوضى، ولم يسمح مطلقاً بالقصاص والثأر من غير القاتل؛ يقول تعالى:

﴿...وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[1].

فجعل الله تعالى لولي الدم الذي أُريق بغير حقّ سلطاناً ينتقم من الظالم ويقتص منه، على أن لا يسرف في القتل ولا يتجاوز حدود الله تعالى؛ يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

فلكلّ دم أُريق بغير حقّ ـ إذن ـ ثأر، ولولي الدم أن يطالب بإنزال العقوبة على المعتدي مقابل الجريمة، فيوكل الإسلام الأمر إلى ولي الدم ليثأر للمقتول، وإن لم يكن للمقتول ولي فولي الأمر، ولكن ضمن نظام عادل يمنع من الفوضى في القتل وإراقة الدماء، كما كان يحصل في الجاهلية.

الثأر في أُسرة التوحيد:

وأمّا عندما تكون إراقة دم من أجل قضية التوحيد والعبودية لله وتحكيم رسالة الله في الأرض فإنّ الأمر يختلف؛ فالدم هنا أُريق في قضية رسالية وليس في قضية شخصية، والأمر يتعلّق بأُسرة التوحيد، ولا يتعلّق بالأُسرة العائلية، بمعناها الضيق.

وأُسرة التوحيد بمجموعها ثائرة لهذا الدم، وليس ذوو الدم من الأُسرة الشخصية للمقتول بمعناها المحدود والضيق، وكما أن الظلامة تقع على كلّ أفراد أُسرة التوحيد، كذلك العدوان يصدر من أُسرة الشرك بأسرها وليس من فرد أو أفراد بخصوصهم ما دام يجمعهم الرضا بذلك، فإن الآمر بالعدوان والمنفّذ له، والذي يُعِدُّ له أسبابه ومقدماته، والمشاهد لساحة الظلم الراضي به. كلّ أُولئك يجمعهم الرضا بالظلم، وكلّ أُولئك مطالبون بهذا الدم، نقرأ في زيارة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

الإمام الحسين عليه السلام هذه الجملة العجيبة التي تتضمن وعياً عالياً للصراع والتاريخ والمجتمع، وتستوقف الإنسان طويلاً للتفكير: «لعن الله أمّة قتلتك ولعن الله أُمّة ظلمتك ولعن الله أُمّة سمعت بذلك فرضيت به».

فالثأر ـ في مثل هذه القضية ـ لا يخصّ الأيدي التي تلطخت بالجريمة مباشرة، وإنّما يعمّ كلّ الراضين بذلك، والناس يجمعهم ويفرقهم الحبّ والبغض والولاء والبراءة والرضا والسخط في مثل هذه الأُمور التي ترتبط بالعقيدة والجهاد.

والناس في هذا الأمر ينقسمون إلى شطرين وولاءين وعقيدتين، وأُسرتين:

أحدهما: أُسرة (التوحيد).

والأُخرى: أُسرة (الشرك).

والدم الذي يراق من أجل قضية التوحيد دمٌ لا يخصّ ذوي المقتول فقط، وإنّما يعمّ كلّ أعضاء هذه الأُسرة، كما أنّ المطالبة بهذا الدم لا تتوقف عند القاتل والمعتدي فقط من أُسرة الشرك والجاهلية، وإنّما تعمّ كلّ أطراف العدوان من تلك الأُسرة: الآمر والمنفذ والمعد، وحتّى المشاهد الراضي بذلك؛ فالجريمة إذن من أُسرة الشرك على أُسرة التوحيد، والثأر لأُسرة التوحيد من أُسرة الشرك.

وحقّ الثأر هنا لا يتحدد بعصرٍ أو جيل، فما دامت الظُلامة باقية، وما دام هناك دمٌ أُريق ظُلماً وعدواناً من أُسرة التوحيد، وأُسرة الشرك تتبنى هذا العدوان وتدافع عنه، وترضى به، فإن الثأر حقّ لهذه الأُسرة على أُسرة الشرك والجاهلية. وكلّ جيل من أجيال التوحيد لابدّ أن يطالب بالثأر، ويسعى لـه ليرفع الظُلامة، والدم ـ وهو هنا دم الشهيد ـ لا يفتأ يستصرخ الضمائر ويستثير الهمم في أعضاء الأُسرة للثأر، ولا يزال يغلي في ضمائر المؤمنين، من كلّ جيل حتّى يثأروا له.

ثأر الله:

وإذا كان دم الشهيد يستصرخ كلّ الضمائر المؤمنة في كلّ الأجيال للثأر، وكانت مسؤولية دم الشهيد على عهدة كلّ عضو في هذه الأُسرة، ومن كلّ الأجيال حتّى يتم الثأر فإن ولي الدم هنا ليس من قبيل ولي الدم في الدماء التي تراق في القضايا الشخصية، فهناك ولي الدم الأب والجد وإذا فُقدا فولي الأمر، وهنا ـ في دم الشهيد ـ الذي يراق من أجل قضية توحيد الله وحاكميته تعالى فإن ولي الدم هو الله تعالى، وهو ولي أُسرة التوحيد كلّها: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

والله تعالى هو الذي يتولى الثأر لدم الشهيد ويضمن له أن يأخذ بثأره من بين سائر الدماء. وهذا هو معنى «ثأر الله» الوارد في زيارة وارث: أي أنّ الله تعالى هو ولي الدم والمتصدي للثأر للشهيد، وأنّ دم الشهيد ثأر الله، فإنّ الدم هنا لكل أسرة التوحيد ولكل الأجيال، والله تعالى هو عميد هذه الأُسرة ووليها الذي يطالب بالثأر لدمها.

ومن هذا الباب نخاطب الحسين بن علي عليه السلام في زيارة «وارث» فنقول: (السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره).

وقد كان من عادة العرب قبل الإسلام أن تنصب راية حمراء على قبر القتيل حتّى يتم الثأر له، وتبقى هذه الراية لتذكّر أفراد القبيلة بالدم الذي أُريق ظلماً ولتستصرخ ضمائر أفراد القبيلة.

والذين يزورون مرقد الإمام الحسين عليه السلام اليوم يرون على قبة المرقد هذه الراية الحمراء تُرفرف لتذكّر الأجيال من أُسرة التوحيد بالثأر، لئلا تنام هذه الأُمّة على الظلم، ولئلّا تقر لها عين، ولمّا يثأر المؤمنون بعد للدم الذي أُريق بكربلاء ظلماً وعدواناً.

موقع الثأر في الصراع الحضاري بين التوحيد والشرك:

ولنقف قليلاً عند هذه الكلمة لننظر كيف يكون هذا الدم «ثأراً لله» من دون سائر الدماء.

ليس المقصود بـ (الثأر) هنا القصاص فإنّه تشريع عامٌ لكل من قتل بغير حقّ، إذا طالب أولياء الدم بذلك، وليس للشهيد خصوصية في هذا المجال، وقصاص دم الشهيد يجري ضمن المنظومة الفقهية التي تشمل كل دم أريق بغير حق، من غير فرق، تحت عنوان (فلا يسرف في القتل)، كما ليس المقصود بذلك معاقبة القاتل والمعتدي في الآخرة فهو أيضاً حكم عام لا يخصّ عدواناً دون عدوان، فلابدّ أن يكون للثأر هنا معنى آخر غير المعنى المألوف الذي يعرفه الناس، فالثائر هنا هو الله، وهو تعالى ولي الثأر، فما عسى أن يكون معنى (الثأر) هنا؟

وكيف يتولى الله تعالى المطالبة بدم الشهيدين الولد والوالد: «ثأر الله وابن ثأره»؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

وما هو المقصود من كلمة «ثأر الله» الواردة في هذه الزيارة؟

إن الصراع هنا ليس صراعاً شخصياً ليكون ثأراً من شخص ـ كما هو المألوف في الدماء والثارات ـ وإنّما الصراع صراع حضاري، فيكون الثأر ثأراً للقضية والرسالة، وانتقاماً من الخط الحضاري الذي يريد أن ينال من خط الرسالة. فالشهيد يقاتل في سبيل الله، ولتثبيت كلمة الله على وجه الأرض، ولإسقاط الطاغوت، وإحباط دوره وعمله في الأرض وفي المجتمع ولإزالة الفتنة التي تعيق الناس عن سبيل الله، والجريمة هنا ليست جريمة على شخص وإنّما جريمة على الخط والرسالة، التي يقاتل من أجلها الشهيد وهي تحكيم شريعة الله في الحياة.

فلا بُدّ أن يكون (الثأر) إذن من جنس الجريمة ومن جنس القضية: ثأراً للقضية وانتقاماً من الخط الحضاري المناوئ لسبيل الله وللصراط المستقيم، وانتصاراً للرسالة التي ضحّى من أجلها الشهيد، وإحباطاً لدور الطاغية وسعيه في الأرض.

فكما أن إنزال العقوبة المكافئة للإجرام بشخص المجرم من الثأر والانتقام، كذلك تسقيط الطاغية و(المجرم)، وإحباط دوره في الأرض، والانتصار للرسالة، وتأييدها ودعمها وإسنادها، يُعدّ انتقاماً من الطاغية وثأراً للشهيد، والثائر الذي يطلب بدماء الشهداء من أُسرة التوحيد، الإبراهيمية، ويتولى الانتقام من الظالمين والمجرمين، والانتصار للشهداء، هو الله تعالى فهو ولي الثأر، وولي الدم، والمنتقم الثائر.

كربلاء الساحة النموذجية للصراع بين الحقّ والباطل:

هذا المعنى من الثأر والانتقام الإلهي قد تحقَّق في الصراع التأريخي الذي حدث في كربلاء سنة (٦١هـ) بين سيّد الشهداء الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية وجيشه.

لقد كانت هذه المعركة على صغر مساحتها العسكرية تجسد صراعاً ضخماً بين معسكرين، وحضارتين، وفكرتين ومدرستين، بين الإسلام والجاهلية، والذي ينظر إلى هذه المعركة من بعيد تتراءى لـه أنّ المعركة كانت بين طائفتين من المسلمين، ولخلافات ومسائل داخلية وسياسية تتعلق بالحكم والسلطان في الحياة الدنيا.

ولكن الأمر أعمق بكثير من هذا البعد؛ لقد اتخذت الجاهلية الأُولى ـ بعد هزيمتها أمام انطلاقة الرسالة الإسلامية ـ دولة بني أُميّة مظلة إسلامية واقية لها لتعود من جديد إلى صلب الحياة، ولتصادر كلّ مكاسب الإسلام في الحكم والإدارة والاقتصاد والتربية والتعليم

والأخلاق والعقيدة، ونجحت هذه المحاولة الجاهلية نجاحاً كبيراً، حتّى استطاعت أن تتسلل من خلال آل أُمية إلى الخلافة وهو قمة النجاح السياسي والحضاري؛ والذي ينظر بإمعان في تأريخ معاوية وابنه يزيد من غير تعصب، لا يحتاج إلى عناء كبير ليلمس عودة الجاهلية الأُولى من خلال ولايتهما على المسلمين في البذخ وتبذير أموال المسلمين وفي استعمال المحرمات، من غناء، وخمر، وقمار، وفي الاستهانة بحدود الله. وفي تصفية قادة الأُمّة (الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه) وفي الاعتداء على معاقل العالم الإسلامي (مكّة المكرّمة والمدينة المنورة) وعشرات النماذج الأُخرى التي تكشف عن هذه الحقيقة، والتي لا يحتاج فهمها إلى أكثر من التجرّد عن التعصب.

وكان الحسين عليه السلام يدرك هذه الحقيقة إدراكاً جيداً، ويرى رؤية واضحة عودة الجاهلية إلى صلب المجتمع من جديد تحت مظلة بني أُميّة، ويرى غفلة الأُمّة عن هذه المأساة، فلم يجد بُدّاً من أن ينهض بأهل بيته وأصحابه، ليكافح هذا التيار الجاهلي، ويصبغ هذه المقاومة بدمه ودماء الثلّة المؤمنة التي واكبته في هذه المسيرة، ولينبه الأُمّة إلى ضخامة الجريمة والمؤامرة التي تُنْسَجُ خيوطها في قصور بني أُميّة ضد الإسلام.

فكانت (واقعة كربلاء) مقاومة جريئة وفدائية وخالصة دارت رحاها حول مسألة حضارية مهمة هي (إيقاف زحف الردّة الجاهلية) إلى صلب المجتمع ـ بعد أن أزاحها وعزلها الإسلام عنه ـ وإيقاف التيار الجاهلي، وصدّه من التقدّم، وفضحه، وكشف أبعاد هذه الجريمة، وتنبيه الأُمّة إلى عمق المأساة، وخطورة تلك الردّة التي تسللت إلى موقع الخلافة من خلال يزيد بن معاوية، ومن قبله أبوه معاوية بن أبي سفيان.

إنّ الانتقام الحقيقي لدماء شهداء كربلاء، ليس في إنزال عقوبة مادية مماثلة، بالقتلة وإنّما الانتقام الحقيقي والمكافيء للجريمة هو: تحقيق الغاية التي قاتل من أجلها أهل البيت عليهم السلام وكشف حقيقة ونوايا الجهاز الحاكم، وإيقاف تيّار الردّة الجاهلية، وإحباط المؤامرة الجاهلية.

هذه النقاط في الحقيقة هي النقاط الأساسية للانتقام من الظالم والانتصار للمظلوم وتحقيق إرادة الشهيد وإحباط إرادة (الطاغية).

والله تعالى هو الذي يتولّى تحقيق هذه الغايات وتوفير هذه الضمانات جميعاً للشهيد، فهو ولي الدم وصاحبّ الثأر والمنتقم من الطاغية، والمنتصر للشهيد.

و(هذا الثأر الإلهي) من الظالم يعم كلّ الشهداء بدرجات مختلفة: فكلّ دم أُريق في سبيل الله دم مضمون القضية، والله تعالى ولي كلّ دم أُريق في سبيله وهذه الضمانة الإلهية لدم الشهيد تعطي دم الشهيد قيمة حركية كبرى في التأريخ، فهو الدم المضمون والمؤمّن الذي يتولى الله تعالى الثأر لـه، وتحقيق قضيته ورسالته ودحض أعدائه وإسقاطهم وفضحهم؛ وقلّما يتمتع شيء في حياة الإنسان بمثل هذه الحركية التي يمنحها الله تعالى لدم الشهيد.

الضمانة الإلهية لدم الشهيد:

وهذه الضمانة الإلهية لمسيرة الدعوة يرسمها القرآن الكريم في أكثر من آية بطريقته الخاصة، ليبعث في نفوس المؤمنين الثقة والطمأنينة بالعاقبة، وليثبتهم على طريق ذات الشوكة.

وآيات القرآن تتناول هذه الحقيقة ـ الضمانة الإلهية للمسيرة بتعابير وصيغ مختلفة ـ وبصورة مؤكدة وواثقة، وذلك إذا أخلص المؤمنون لله، وصدقوا وثبتوا، وانتزعوا من قلوبهم حبّ الدنيا وآثروا رضوان الله على كلّ شيء، وابتغوا طاعة الله وحده؛ يقول تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾[2].

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ...﴾[3].

﴿...وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾[5].

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[6].

﴿...وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[7].

---

(١) سورة محمّد، الآية: ٧.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٤.
(٤) سورة الحجّ، الآية: ٤٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٠.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٠.
(٧) سورة الحج، الآية: ٧٨.

﴿...فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

﴿...وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[2].

﴿...وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[3].

وليست هذه الآيات المباركات ضمانات اعتباطية، وخارجة عن دائرة السنن الإلهية، التي لا تتبدل ولا تتغير، وإنّما تأتي هذه الضمانات الإلهية بموجب سلسلة من الأسباب والعلل، منها ما يرتبط بالقلب والجوانح، ومنها ما يرتبط بالجوارح؛ وجملة هذه الأسباب هي التي تستنزل النصر والقوّة من عند الله تعالى للجماعة المؤمنة في صراعها مع قوى الكفر والجاهلية على وجه الأرض.

وأهم هذه الأسباب هي الإيمان، والتوكل على الله والثقة به، والجهاد، والعمل في سبيله، والإخلاص وابتغاء وجهه الكريم، والانتصار لدينه، والصبر، والثبات، والصدق في الموقف، والإعداد الميداني للمعركة وغير ذلك من الأسباب التي تستنزل النصر من الله تعالى، وتؤمّن الضمانة الإلهية للنصر في ساحات القتال والمواجهة.

والشهداء في طليعة المؤمنين، إيماناً، وثقة بالله، وجهاداً، وتضحيةً، وعطاءً، وبذلاً في سبيل الله تعالى، وابتغاءً لوجهه الكريم، وثباتاً، وصدقاً في القول والعمل، وصبراً في مواجهة التحديات.

هذه كلّها مفاتيح النصر، والأسباب التي تستنزل النصر من عند الله تعالى، ودم الشهيد يجمع هذه الخصال جميعاً، ويشهد للشهيد بالصدق والصبر والعطاء.

معنى النصر والهزيمة:

وقبل أن نسترسل في الحديث عن الضمانة الإلهية لدم الشهيد ومواكب الشهداء في التأريخ، ووعد الله تعالى لهم بالنصر والتأييد والغلبة على معسكر الجاهلية، لابُدّ أن نقف هنا وقفة قصيرة لنقول:

إنّ هذا النصر ليس بالمعنى العسكري للنصر، فقد كان بنو أُمية المنتصرين يوم الطف

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

على معسكر الحسين عليه السلام، لو كنا نقصد بالنصر هذا المعنى الذي يفهمه الناس من النصر عادةً، ولكننا عندما نتجاوز الشعاع المنظور للمعركة، والأبعاد العسكرية والسياسية القريبة لها نجد أن الحسين عليه السلام قد تمكن من إسقاط يزيد وإسقاط القناع عن وجهه كأمير للمؤمنين، وفضحه، ومصادرة الشرعية التي حاول أن يسبغها على نفسه، والقواعد التي كان يستند إليها، وإنهاء خطه السياسي في تحريف الإسلام عن مجراه الصحيح.

وهذا هو كلّ ما كان يريده سيد الشهداء عليه السلام في صراعه مع يزيد، فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب حكماً أو سلطاناً عاجلاً، وقد كان على بيّنة من أمره هذا، عندما خرج من الحجاز إلى العراق، وإنّما كان يريد أن يعرّي يزيد أمام المسلمين، ويسقط القناع عن وجهه، لئلّا يتمكن من تحريف مسيرة الإسلام وتحويله إلى ملك عضوض ـ كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وقد استطاع الحسين عليه السلام أن يحقق بالدقة كلّما يبتغيه من خروجه على يزيد.

إنّ المعركة التي خاضها سيد الشهداء الحسين عليه السلام لم تكن تستهدف أهدافاً عسكرية أو اقتصادية لنقيس نجاح المعركة وفشلها بما حقق من أغراض عسكرية أو اقتصادية، وإنّما كانت معركة حضارية، فقد استطاعت الجاهلية الأُموية التي هزمها الإسلام أن تتسلل إلى مراكز القيادة في المجتمع الإسلامي من جديد بكلّ أبعادها وتراثها الجاهلي، وكان هدف الحسين عليه السلام هو إيقاف هذا المدّ الجاهلي الذي بدأ يمتد إلى جسم الإسلام وباسم الإسلام، وصدّه، وفضحه وتعريته، وقد حققت ثورة الحسين عليه السلام كلّ ما كان يريده في هذه الحركة المباركة.

لقد أسقطت شهادة أبي الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأصحابه القناع عن وجه يزيد، وعرّته تماماً للمجتمع الإسلامي وللتأريخ، وانتزعت منه وممن خلَفَه الشرعية التي كان يحرص عليها هؤلاء، فلم يعد يزيد ومن جاء بعده من حكّام بني أُمية يشكّلون خطراً على أُصول هذا الدين وفروعه وخطّه، ومقاييسه وتراثه.

وقد تولى الله تعالى قضية هذه الدماء ورسالتها وثأر لها وحقق قضيتها، لو أننا فهمنا النصر بمعناه العميق الحضاري والتاريخي، وليس الفوز في جولة عسكرية، وليس من الصحيح أن نقيس النصر والهزيمة بمقياس النجاح والفشل في جولة عسكرية، ولو أردنا أن نفهم النصر والهزيمة في هذه الدائرة الضيقة وبمثل هذا الفهم المحدود لم نستطع أن نفهم حركة التأريخ وسنن الله في التأريخ؛ فقد يربح أحد الأطراف جولة من المعركة ولا يكون منتصراً بالمعنى البعيد والحضاري لهذه الكلمة؛ وقد يخسر أحد الأطراف الجولة والجولتين في المعركة ولن

يكون مهزوماً؛ وقد يربح الطرف الذي يحسن اللعب على الحبال، ويُحسن شراء وبيع الضمائر ويحسن الخيانة وتجاوز القيم، ولكنه لن يكون منتصراً؛ وقد يخسر الطرف الذي يثبت عند القيم والمبدأ الجولة الواحدة والثانية والثالثة في المعركة وتكون له العاقبة المحمودة والنصر.

إذن لا يقاس النصر بهذه المقاييس الآنية والوقتية وإنّما بتحقيق الأهداف والغايات الحضارية؛ والحسين عليه السلام بهذا المقياس قد انتصر على يزيد، وقبله أخوه الحسن المجتبى عليه السلام على معاوية، وقبلهما أبوهما علي بن أبي طالب عليه السلام على معاوية، وهذا هو المقياس الصحيح لمعرفة النصر والهزيمة، وهذا الذي نقصده نحن من النصر في الصراع الخالد بين الإسلام والجاهلية الذي يضمنه الله تعالى للصالحين من عباده.

ثأر الله

القيمة الذاتية للشهادة

ثأر الله: القيمة الذاتية للشهادة

في هذه النقطة نتناول قيمة الدم ودوره في تكامل شخصية الشهيد وسلوكه إلى الله تعالى.

إنّ (الدم) في الوقت الذي يعتبر من أقوى عوامل التحريك في المجتمع، يُعدّ من أهم عوامل بناء شخصية المؤمن وتكامله وسلوكه إلى الله تعالى.

ولكي نفهم قيمة الدم ودوره في تكامل شخصية الإنسان وسلوكه إلى الله لابدّ أن نلم إلمامة سريعة بهذه الرحلة الطويلة والعسيرة التي تنقل الإنسان من محور (الأنا) و(الذات) و(الهوى) إلى محور (ولاية الله) وتمثل حركة الإنسان وسيره التكاملي إلى الله.

رحلة الإنسان إلى الله:

ويوجز القرآن الكريم هذه الرحلة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، وبالتأمل في هذه الآية الكريمة نلتقي بالنقاط التالية:

١ ـ إن هذه المسيرة والنقلة، هي الهدف والغاية من خلق الإنسان، ولذلك يتوجه الخطاب في الآية الكريمة إلى (الإنسان)، على غير طريقة القرآن في الخطابات التي تترتب على الإيمان بالله، حيث يوجه القرآن فيها الخطاب إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وتوجيه الخطاب هنا إلى الإنسان دون تخصيص بالذين آمنوا فقط، ينمّ عن أن هذه المسيرة والرحلة هي الهدف والغاية من خلق الإنسان، ومن دون أن يدخل الإنسان في هذه المسيرة، ويتعرض لكدحها وعنائها لا يمكن أنْ يحقّق الغاية والهدف من تكوينه وخلقه، ولا يتحقق النضج والرشد والكمال المطلوب منه.

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

٢ ـ وتبدأ هذه المسيرة بـ (الأنا)؛ بما تكتنف الأنا من الشهوات والأهواء والغرائز، بصورة طبيعية، وتنتهي إلى الله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾. وهذا القوس الصعودي من الأنا إلى الله هو مسار حركة الإنسان ونموه وتكامله.

٣ ـ ولابدّ أنْ تتم هذه الحركة بصورة اختيارية وطوعية في حياة الإنسان، وقيمة هذه الحركة أنّها تتم بصورة اختيارية وطوعية وبإرادة الإنسان. ولو أن هذه الحركة كانت تتم بصورة قهرية لم تكن تحقق للإنسان هذا التكامل والنمو الذي سوف نشير إليه.

إنّ الموت ينتزع الإنسان بصورة قهرية من محور الأنا، واللذّات والشهوات والأهواء وما يملك من متاع الحياة الدنيا، ومن الأبناء، والأزواج، والأموال، إلّا أن هذا الانفصال حيث يتمّ بصورة قهرية لا يحقق للإنسان لقاء الله الذي تشير إليه الآية الكريمة.

ولعلّ صعوبة (النزع) نابعة من هذا الانتزاع القهري من الحياة الدنيا، وكلما تكون علاقة الإنسان بالحياة الدنيا أكثر وأعمق تكون نزعات الموت عليه أصعب وأقسى. وإن الإنسان ليفقد دراهم معدودات من المال أو بعض أعزائه، أو بعض ما يملك من حطام الدنيا فيشق عليه ذلك مشقة بالغة، فكيف إذا قهره الموت لينتزعه من كلّ علاقاته في الحياة الدنيا على الإطلاق، ومرّة واحدة.

وهذا الانتزاع القهري الذي يحققه الموت لا يرفع من درجة الإنسان، ولا يحقق للإنسان كمالاً. لأنه تم بصورة قهرية ومن دون إرادة الإنسان وإنّما يتكامل الإنسان عندما يسعى لانتزاع نفسه من التعلّق بالحياة الدنيا، ومتاعها، ولذاتها، بصورة اختيارية، وبشكل تدريجي، حتّى يتحرر من حبّ الدنيا والتعلّق بها ومن (الأنا) و(الهوى) بشكل كامل.

ولعلّ الحديث المعروف: «موتوا قبل أن تموتوا»[1] يشير إلى هذه الحقيقة، ويكون المقصود بالموت الأول هو الموت الاختياري وبالموت الثاني هو الموت القهري والطبيعي. وهذه الحركة الطوعية إلى الله تتطلّب من الإنسان الكثير من الجهد والمعاناة، وربما تشير الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

٤ ـ وهذه المسيرة مسيرة كمال الإنسان وعروجه إلى الله. والغاية من هذه المسيرة هي أشرف

(١) بحار الانوار: ٥٩: ٧٢ ح١.

الغايات وأسماها في حياة الإنسان على الإطلاق وهي: لقاء الله، وإلى هذه الغاية العليا تشير الآية الكريمة: «فملاقيه».

فإن لقاء الله هو النتيجة التي تترتب على مسيرة الإنسان الكادحة إلى الله، وحسب الإنسان في هذه الرحلة الشاقّة والكادحة أن ينال (لقاء الله) وتلك غاية لا ينالها إلّا القليل ممن ارتضاهم الله تعالى واختارهم.

٥ ـ وهذه المسيرة بقدر ما تحقق للإنسان الكمال والتسامي ونيل لقاء الله ـ الذي هو أشرف ما يناله الإنسان في دنياه وآخرته ـ تتطلب منه الجهد والعناء والكدح، وهذه الضريبة الحتمية في الطريق إلى الله هي التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

دراسة للمنطلق والغاية في حركة الإنسان

منطلق الإنسان في هذه الحركة هو (الأنا)، وغاية الإنسان في هذه الحركة هو (الله) تعالى، والإنسان يكدح بين هذا المنطلق وتلك الغاية.

والمنطلق (الأنا) محفوف دائماً بالشهوات والأهواء، ويستدرج الإنسان إلى الركون إلى متاع الحياة الدنيا ولذاتها، والتسليم لها، ويسعى لفرض سلطانه على الإنسان، وحبسه عن العروج والصعود إلى الله.

والغاية في هذه الرحلة هي الله تعالى وهو سبحانه يطلب من عباده الطاعة والانقياد والتسليم والرضا والحبّ والنصر وتجتمع هذه المعاني جميعاً في كلمة (الولاء).

والإنسان يتحرك كادحاً بين هذا المنطلق وتلك الغاية، بين جاذبية المنطلق بما تحفه من الشهوات والغرائز، وبين الكدح الشاق والعسير إلى الله تعالى.

ولابدّ أن نقف وقفة قصيرة عند هذا المنطلق وتلك الغاية، لنعرف سنن هذه الحركة الصاعدة (الكادحة) إلى الله تعالى من منطلق (الأنا).

١ ـ المنطلق

أول شيء يستوقفنا في هذه المسيرة نقطة المنطلق وهي (الأنا) والذات الإنسانية، وتكتنف (الأنا) ثلاثة أنواع من العوامل: اثنان منهما يتجاذبان الإنسان ويسحقانه كحجري الرحى، ويشدّان الإنسان إلى الحياة الدنيا شدّاً وثيقاً ويقيدانه، ويعرقلان تحركه وانطلاقه، ويثقلانه بحبّ الدنيا ومتاعها ولذاتها.

وأجمل تعبير عن هذا الانشداد هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1] وهذان العاملان اللذان يضغطان على الإنسان، ويشدّان الإنسان إلى الأرض هما:

أ ـ الشهوات والغرائز والأهواء والميول النفسية. وهذا النوع يكمن داخل النفس ويصطلح عليه القرآن بـ (الهوى).

ب ـ المغريات والمثيرات التي تحرك الشهوات وتهيج الغرائز، هي قائمة في ساحة الحياة، وتثير الشهوات والغرائز في نفس الإنسان، كالبنين والنساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويصطلح القرآن عليه بـ(الفتنة).

وبين هذا العامل وذاك يقع اللعين إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس، الذين يقومون بدور الوساطة بين (الأهواء) و(الفتن) بتحريك الشهوات في نفس الإنسان بالمغريات والمثيرات، وجذب الشهوات إلى هذه المثيرات. والإنسان في نقطة (المنطلق) هذه يقع تحت تأثير هذه العوامل الثلاثة التي تضغط عليه، وتحدد حركته، وتقيده عن الانطلاق والصعود.

مثلث الابتلاء في القرآن الكريم

ونعود مرّة أُخرى إلى القرآن الكريم لنتعرف على دور (الأهواء) و(الفتن) و(الشيطان) في حياة الإنسان.

ونبدأ الحديث عن الشهوات والأهواء:

أ ـ الهوى:

عن الهوى ودوره التخريبي في حياة الإنسان يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ ـ ١٧٦.

وفي الرواية إن هذه الآيات نزلت في بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل الذي آتاه الله تعالى آياته فانسلخ منها باتباعه الهوى.

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح، فإن الآية الكريمة تشير إلى الدور التخريبي الواسع لسلطان الهوى على حياة الإنسان.

الأثر الأول: هو الخلود إلى الأرض ﴿وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، والمقصود بالأرض الحياة الدنيا، والخلود: السقوط. وهذا هو الأثر الأول لسلطان الهوى على النفس وهو السقوط في لذات الدنيا وحطامها، والالتصاق بها، وهذا السقوط بطبيعة الحال في مقابل العروج إلى الله، يحبس الإنسان عن الله.

الأثر الثاني: هو الانسلاخ عن آيات الله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ كما تنسلخ الحية من جلدها، وينفصل ويبين عنها تماماً، فلم تعد لها علاقة به، ولم يعد له علاقة بها، كذلك الإنسان إذا تمكن منه الهوى ينسلخ عن آيات الله وتبين عنه، ويصبح غريباً عنها وتصبح غريبة عنه، ويفقد كلّ بصيرة ووعي بآيات الله، ويرفضها، كما يرفض المريض الطعام الشهي اللذيذ.

الأثر الثالث: اتّباع الشيطان ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي أدركه، وتمكن منه، ومن تمكن منه الشيطان ونشبت فيه مخالبه، سلب منه عقله وقلبه وضميره وفطرته وكلّ ما آتاه الله تعالى من القيم وذلك أقصى درجات السقوط في حياة الإنسان.

الأثر الرابع: الغواية والضلالة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، وكيف يمكن أن يستقيم على هدى الله من تمكن منه الشيطان، وسلب منه عقله وقلبه وضميره وفطرته ومسخه فلا محالة يكون سعيه كلّه في ضلال وغي.

الأثر الخامس: الجشع والحرص على حطام الدنيا ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ فلا يروي ظمأهم إلى حطام الحياة الدنيا وزخرفها شيء ومهما أكثروا منها ازدادوا إليها جشعاً. كما يصيب الكلاب داء (الكَلَب) فلا يرويها ماء، فهي تلهث على كلّ حال، كذلك هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم فأخلدوا إلى الأرض فلا يزيدهم السعي إلى الدنيا إلّا لهاثاً وظمأً ولست أقول لا تزيدهم الدنيا، وإنّما أقول لا يزيدهم السعي إلى الدنيا، فقد يسعى المؤمن إلى الدنيا فيصيب منها ما يشاء الله قلّ أو كثر، ولكنه لا يلهث خلف الدنيا ولا يزيده السعي إلى الدنيا إلّا ظمأً ولهاثاً من ورائها.

روي أن الإمام الصادق عليه السلام قال لرجل اشتكى إليه حرصه على الدنيا: «إن كان ما

يكفيك يغنيك، فأدنى ما فيها يغنيك وإن كان ما يكفيك لا يغنيك، فكل ما فيها لا يغنيك»[(١)].

تلك صورة عن سلطان الهوى على الإنسان ودوره التخريبي في حياة الإنسان... من القرآن الكريم.

ويرسم القرآن، على لسان امرأة العزيز، في سورة يوسف لوحة أُخرى لسلطان الهوى على الإنسان، وهي لوحة معبّرة وناطقة وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[(٢)] وتحمل هذه الآية المباركة ـ من معاني تأكيد سلطان الهوى على النفس ـ الشيء العظيم وكان أساتذتنا عندما كنا نقرأ (النحو) يستشهدون بهذه الآية الكريمة في تكرار التأكيد وتوكيده.

فالجملة اسمية، ومصدّرة بأنّ، والأمّارة صيغة مبالغة معروفة، ومصدّرة باللام لتأكيد المبالغة والتأكيد.

وكلّ هذه التأكيدات لتثبيت الدور التخريبي الواسع للهوى (الأمارة بالسوء) ونكتفي بهاتين الآيتين من كتاب الله في تقرير الدور السلبي لسلطان الهوى في حياة الإنسان.

ب ـ الفتنة:

وهذا هو الضلع الثاني من مثلث الابتلاء، والفتنة والفتن هي المغريات والمثيرات التي تغري الإنسان وتثير النفس، وهي تقع خارج النفس، وفي الحياة الدنيا، بعكس الهوى الذي يكمن داخل النفس. والدنيا فتنة، وحطامها فتنة، وما فيها من الذهب والفضة والأموال والأولاد والأزواج فتنة. وهذه الفتن تأسر الإنسان وتسلبه إرادته، وتستذله.

يقول تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[(٣)].

وهذه النقاط التي تذكرها الآية الكريمة هي الشطر الأكبر من اهتمامات الإنسان عندما يحوم حول محور (الدنيا). وللشيخ بهاء الدين العاملي رحمه الله التفاتة طريفة في تفسير هذه الآية

(١) أُصول الكافي ٢: ١٣٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

الكريمة كما ينقل ذلك العلّامة الطباطبائي في الميزان[1] يقول الشيخ: إنّ الله تعالى استعرض هذه الحالات الخمس بترتيب وموازاة مراحل عمر الإنسان المختلفة. فالإنسان يبدأ المرحلة الأُولى من عمره باللعب، ثم تعقب هذه المرحلة مرحلة المراهقة وهي مرحلة اللهو، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الزينة والأناقة في حياة الإنسان، وهي مرحلة اكتمال ونضج الشباب ثم في نهاية مرحلة الشباب تبرز في الإنسان حالة حبّ التفاخر والرئاء والتظاهر، فإذا تقدّم السن بالإنسان وأشرف على الشيخوخة ظهرت فيه حالة التكاثر في الأموال والأولاد.

ويقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2].

وهذه النقاط هي أهم المسائل التي تستثير غرائز الإنسان وتهيّجها وتشدّ الإنسان إلى هذه المغريات التي يحصي القرآن طرفاً منها في هذه الآية.

ج ـ الشيطان:

وإبليس وجنوده من الشياطين هم الضلع الثالث من (مثلث الابتلاء) يقرّب البعيد للإنسان، ويبعد القريب، ويوسوس في النفس، ويزيّن للإنسان القبيح، ويقبح له الجميل، ويعرض عليه الفتن عرضاً ليزيد في إثارتها وإغرائها، ويحرك أهواء الإنسان وشهواته ويفتنه بها:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ...﴾[3].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[4].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ...﴾[5].

---

(١) الميزان ١٩: ١٨٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ... ﴿١١٩﴾﴾[1].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ...﴾[2].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[3].

تلك هي الأضلاع الثلاثة لمثلث الابتلاء الرهيب الذي يشدّ الإنسان إلى الحياة الدنيا، وتلك هي نقطة المنطلق في حياة الإنسان.

أعراض التعلق بالدنيا في نقطة الانطلاق:

وينشأ من تعلق الإنسان بالدنيا، وانشداده إليها ثلاثة أنواع من الأعراض المرضية الصعبة:

منها: ما يتعلق بعلاقته بالدنيا.

ومنها: ما يتعلق بعلاقته بالله تعالى.

ومنها: ما يتعلق بعلاقته بالآخرين.

النوع الأول هو: الأمراض الأخلاقية التي تخص علاقة الإنسان بالدنيا مثل (الحرص) و(الطمع) و(الجشع) و(الركون إلى الدنيا) و(البطر) و(طول الأمل)... وغير ذلك.

النوع الثاني: الأعراض التي تخص علاقة الإنسان بالله تعالى وهي كثيرة وممّا لاشك فيه أن علاقة الإنسان بالدنيا لها انعكاس مباشر ونسبة عكسية على علاقة الإنسان بالله تعالى وكلما كان إقبال الإنسان وانشغاله بالدنيا أكثر قلّ إقباله على الله تعالى وذكره إياه. والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾[4].

إنّ الإحساس بالاستغناء وهم كاذب ناتج عن تعلق الإنسان بالدنيا وإقباله عليها واعتماده عليها، وهو ليس من الاستغناء فإن الإنسان لا يستغني عن الله تعالى في كلّ حال، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ...﴾[5]، وإنّما هو وهم كاذب للاستغناء وتعبير القرآن عن ذلك دقيق ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ وليس (أن استغنى) وبين هذا وذاك فرق.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٥) سورة فاطر، الآية: ١٥.

إذن المسألة نفسية، وليست موضوعية. وبتعبير آخر ليس الغنى والتمكن من أسباب الحياة الدنيا هي التي تؤدي بالإنسان إلى الطغيان، إذا كان الإنسان يشعر في قرارة نفسه في كلّ الحالات بفقره وحاجته إلى الله، وإنّما الذي يؤدّي إلى الطغيان في علاقته بالله هو وهم الاكتفاء بالدنيا عن الله والاستغناء بالدنيا عن الله، وهو يؤدي إلى الشره والحرص ويؤدي إلى الطغيان والإعراض عن الله تعالى في وقت واحد.

إذن الإقبال على الدنيا، والاعتماد عليها، والتعلّق بها يؤدي بالإنسان إلى الإعراض عن الله بدرجات مختلفة على قدر إقباله على الدنيا، وتعلقه بها، وانشداده إليها، ويؤدي به إلى الضعف في الثقة بالله والتوكّل على الله، وضعف اليقين بالله، وينعكس انعكاساً سلبياً على يقينه وثقته وإقباله وتوكله على الله وهذا هو النوع الثاني من الأعراض النابعة عن تعلق الإنسان بالدنيا.

النوع الثالث من هذه الأعراض: هي الأعراض الناجمة عن الاحتكاك والتنافس، والتزاحم فيما بين الناس على حطام متاع الدنيا، كالحسد والبغضاء وسوء الظن، والغيبة، والكذب، والمماراة، والجدال، والتقاطع، والتسقيط والعدوان.

وهذه الأمراض الثلاثة نابعة من حبّ الدنيا، وهي من عوامل انحراف الإنسان وسقوطه، ولذلك ورد في الحديث الشريف «حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة»[1].

هذا هو ـ على نحو الإيجاز الشديد ـ المحور الأول أو المنطلق في حياة الإنسان، وهو (الأنا). والأعراض المرضية الناجمة عن ارتباط الإنسان بهذا المحور والتي تجرّه إلى السقوط والهلاك.

٢ ـ الغاية

والمحور الآخر في حياة الإنسان هو (الله)؛ فعندما ينتقل الإنسان إلى هذا المحور يضع نفسه بشكل كامل تحت تصرف حكم الله وإرادته وسلطانه، وأمره، ونهيه، وقضائه وقدره وينقاد لسلطان الله انقيادا كاملاً في كلّ أمر يرتبط بحياته، فيما يتعلّق بجوارحه وأعضائه، وما

---

(١) الدنيا ليست مذمومة في الفكر الإسلامي، واقتناء متاع الدنيا ليس أمراً مذموماً، إنّما المذموم هو التعلّق بمتاع الحياة الدنيا والانشداد إليها فليس من بأس أن تكون الدنيا بمتاعها ولذاتها وطيّباتها في قبضتك، فليست هذه الطيبات محرّمة على عباد الله، ولكن البأس كلّ البأس أن يكون الإنسان في قبضة الحياة الدنيا وتحت تأثيرها.

يتعلّق بجوانحه وحبّه، وبغضه، ويخرج بشكل كامل من سلطان الهوى والأنا، وينتزع نفسه انتزاعاً كاملاً من سلطان هذا المحور، ويدخل في دائرة سلطان ولاية الله بشكل مطلق، ومن دون حدود وقيود فلا يحبّ إلّا ما يحبّ الله، ولا يبغض إلّا ما يبغض الله، ويحبّ الله، ويحبّ لله، ويحبّ في الله، ويبغض في الله، وينقاد لأمر الله ونهيه، ويستسلم لمشيئة الله وحكمه، وقضائه وقدره استسلاماً كاملاً.

والآية الكريمة التالية من سورة الأنعام تعطي تصوّراً واضحاً ودقيقاً لهذا المحور الذي نتحدث عنه، والذي هو دين إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

فلن يكون الإنسان داخلاً في دائرة ولاية الله، وخاضعاً للمحور الربّاني في الحياة إلّا عندما يكون كلّ شيء في حياته لله تعالى من دون استثناء: صلاته ونسكه، وحياته، ومماته.

الطاعة، والتسليم، والذكر، والرجاء، والرهبة، والحبّ:

ومن أهم مقومات هذا الارتباط:

الطاعة، والتسليم، والذكر، والرجاء، والرهبة، والحب ورأس كلّ ذلك (اليقين)، وهو من أعز ما أنعم الله تعالى على عباده من النعم. ولابدّ أن تجتمع هذه الأُمور جميعاً حتّى يخرج الإنسان من دائرة الأنا، ويدخل في دائرة ولاية الله تعالى.

ومن الطاعة: التبعية لأحكام الله، والالتزام بحدوده تعالى والقيام بفرائضه، والتقوى.

ومن التسليم: الرضا بقضائه وقدره، والتسليم لمشيئته وإرادته.

ومن الذكر: وعي حضور الله تعالى، واستحضار سلطان الله في كلّ الحالات، والمراقبة، والمحاسبة، وانفتاح القلب على الله، والانصراف إلى الله، وانشغال القلب بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى عن كلّ شيء آخر إلّا أن يكون في امتداد ذكر الله وأمره.

ومن الرجاء: الدعاء، والسؤال، والاستغفار.

ومن الرهبة: التضرع، والبكاء، والتقوى، والخشية، والخشوع.

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٦١ ـ ١٦٣.

ومن الحبّ: الأُنس بالله، والحبّ في الله، والبغض في الله، والحنين والشوق إلى لقاء الله، والابتهاج بذكر الله وقضائه.

وسبيل الإنسان إلى حبّ الله تعالى: الطاعة، والتبعية، والتقوى، والانقياد لأحكام الله وإذا أحبّ الإنسان ربّه أحبّه الله، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ...﴾[١]، وإذا أحبّ الله عبداً رزقه نوراً في بصره، وسمعه، وقلبه، وقوّة في بطشه، وتسديداً في كلامه ونطقه وفعله.

فقد ورد في الحديث القدسي: «ما يتقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وإنّه ليتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته»[٢].

وإذا خرج الإنسان من سلطان الهوى ودخل في دائرة ولاية الله رزقه الله، كما في هذا الحديث، نوراً في بصره، وسمعه، وتسديداً في كلامه ومنطقه وفعله، وقوّة في بطشه. فيسمع بالله ويبصر بالله وينطق بتسديد الله ويبطش بحول الله وقوته.

كيف يأخذ الإنسان ويعطي بالله؟

وبالتأمل في هذا الحديث نجد أن الإنسان عندما يتحول بشكل كامل إلى محور الولاية الإلهية، يتحول إلى أداة طيّعة لتنفيذ مشيئة الله، في الأخذ والعطاء معاً، فهو في الجانب الأول (الأخذ والتلقي). يسمع بالله ويبصر بالله.

وفي الجانب الثاني (العطاء والإرسال) ينطق بتسديد الله، ويبطش بحول الله وقوته. والله تعالى يختار الإنسان في هذه الحالة ليكون أداةً لتنفيذ مشيئته وإرادته على وجه الأرض. يأخذ بالله ويعطي بالله ولله، فلا يكون للأنا، والذات، والهوى دور في عمله وحبّه وبغضه وتحركه وكلامه، وموقفه وسكوته، ولا يكون للأنا والهوى أي درجة من درجات السلطان والنفوذ والتأثير على حياته، وسلوكه وفكره ورأيه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) روى الفريقان هذا الحديث بشكل متواتر فقد ورد عن طريق أهل البيت بطرق متعددة رواها شيخ الإسلام الكليني في الكافي، والبرقي في المحاسن، والحرّ العاملي في الأحاديث القدسية وغيرهم كما ورد عن طريق العامة بروايات متعددة رواها البخاري في الصحيح والغزالي في الإحياء وغيرهما من الرواة والعلماء.

وهذا هو معنى الانسلاخ والانتزاع الكامل من سلطان الأنا والخضوع والارتباط التامّ بولاية الله تعالى وهو معنى الانفصال الكامل عن المحور الأوّل والانتقال الكامل إلى المحور الثاني.

ولهذا الانفصال والانتقال من محور إلى محور آيات وعلامات في حياة الإنسان يشير إلى بعضها حديث الولاية القدسي السابق: «إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته».

هذه هي خلاصة شديدة الاختصار عن المحور الثاني في حركة الإنسان. والآن نريد أن نتحدث عن حركة الإنسان من نقطة البداية (محور الذات) إلى نقطة النهاية والغاية في حركته ونموه وتكامله (محور الولاية الإلهية).

الحركة من (الأنا) إلى (الله)

وخلاصة هذه الرحلة: الانطلاق من الشهوات والأهواء و(الأنا) (المحور الأول) إلى الله (المحور الثاني) والصعود من حضيض (الذات) و(الشهوات) إلى قمة الحبّ والارتباط بالله والولاء له.

وهذه الحركة ذات شطرين:

شطر يتعلّق بالانطلاق من (الأنا).

والآخر يتعلّق بالصعود والعروج إلى الله.

الشطر الأول من حركة الإنسان إلى الله:

ويتلخص هذا الشطر في الانطلاق من الأنا والهوى إلى الله.

وعلى القاعدة العامّة، فإن الانطلاق أصعب من الحركة. والمعروف أن أكثر ما تحتاجه الصواريخ من الوقود والطاقة في الانطلاق من الأرض والتحرر من نفوذ جاذبية الأرض.

والانطلاق هنا من (الذات)، وما تكتنف الذات من (الشهوات). وفي هذا الانطلاق يتحرر الإنسان من الشهوات والأهواء، ويخرج من دائرة نفوذ الشهوات والأهواء.

وهذه الدائرة تطوق الإنسان عادةً، وتطبق عليه، وتحصره في نطاقها، بين الأضلاع الثلاثة لمثلث الابتلاء الذي تحدثنا عنه، فلا يستطيع الإنسان أن ينفلت من قبضة سلطان هذا المثلث الرهيب، ولن يتحرر منه إلّا بمشقّة بالغة.

فإن الشهوات والغرائز الكامنة في النفس تشد الإنسان شدّاً وثيقاً ومحكماً بالمال والبنين والأزواج والمواقع وما يشبه ذلك من زينة الحياة الدنيا، ولا يستطيع أن ينطلق إلى لقاء الله ويدخل في دائرة ولاية الله قبل أن يتحرر من هذه القيود التي تعيق تحركه وانطلاقه.

ولذلك فالشطر الأوّل من مهمة الإنسان هو التحرر من هذه القيود والتعلقات، والشطر الثاني هو الصعود والتحرّك إلى الله، والدخول في دائرة ولاية الله ومن دون أن يتحرر الإنسان من المحور الأوّل لا يستطيع أن يرتبط بالمحور الثاني، ومن دون أن ينتزع نفسه من سلطان الأنا والهوى، لا يستطيع أن يدخل في دائرة سلطان ولاية الله.

(التقوى) و(ذكر الله) في شطري الحركة:

وإذا عرفنا أن لسفر الإنسان من محور (الأنا) إلى محور (ولاية الله) مرحلتين: مرحلة التحرر من (الأنا) ومرحلة الارتباط بمحور ولاية الله، فلابدّ أن نعرف الأداة التي تمكّن الإنسان في كلّ من هاتين المرحلتين من العمل وهما أداتان اثنتان: (التقوى) في التحرر من أسر الشهوات ومكافحة الأهواء و(الأنا) (للمرحلة الأُولى).

(والذكر) في السير إلى الله والارتباط بالله والانضمام إلى محور (ولاية الله)، (للمرحلة الثانية). وهاتان الأداتان هما قوام كلّ التعليمات الإسلامية لإعداد الإنسان وتربيته وتأهيله للتكامل.

وقد ورد فيما أوصى الإمام أمير المؤمنين ابنه الحسن عليه السلام: «أُوصيك (بتقوى) الله يا بني ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره»[١].

ولنتحدث أوّلاً عن الأداة التي تمكنّنا من التحرر من الهوى والذات في المرحلة الأُولى وهي (التقوى) وبعد ذلك نتكلم عن الأداة التي تربطنا بمحور الولاء لله تعالى، وتقربنا من الله، وهو (الذكر).

التقوى للتحرر من الهوى:

إن العقبة الكبرى التي يواجهها الإنسان في حركته إلى الله هي (الهوى).

قال الله تعالى: ﴿...وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾[٢].

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ١٩٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

يقول الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[١].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل فأما اتّباع الهوى فيصدعن الحقّ وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[٢].

وكما أن تجاوز الهوى هو المرحلة الأُولى والأهم في حركة الإنسان التكاملية إلى الله... كذلك في الاستجابة للهوى السقوط والتردي الكامل للإنسان. ودرجة سقوط الإنسان وانحطاطه الروحي والخلقي تتناسب تناسباً طردياً مع درجة استجابته واستسلامه للهوى. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنكم إن أمّرتم عليكم الهوى أصمّكم وأعماكم وأرداكم»[٣].

وعن الإمام الجواد عليه السلام: «من أطاع هواه أعطى عدوه (الشيطان) مناه»[٤].

وقد عدّ الإسلام مكافحة (الهوى) الجهاد الأكبر، في الوقت الذي يعد فيه مكافحة (الطاغوت) الجهاد الأصغر.

عن موسى بن جعفر عليه السلام: قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية فلما رجعوا قال مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقى عليهم الجهاد الأكبر، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[٥].

المقارنة بين الهوى والطاغوت:

والمقارنة هنا بين مكافحة الهوى ومكافحة الطاغوت تلفت الانتباه، فإن العقبة في طريق الإنسان إلى الله عقبتان: الهوى و(الأنا) من جانب والطاغوت من جانب آخر. وكلاهما يعيقان الإنسان عن الله... وللطاغوت دور بارز وفاعل ومؤثر في تحدي الأنبياء ورسالات الله وإعاقة حركة الأنبياء عليهم السلام. والصراع بين الأنبياء والطاغوت أبرز أحداث التأريخ بل هو التأريخ، وما عدا ذلك أحداث على هامش التأريخ... ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول أن مواجهة (الطاغوت) من (الجهاد الأصغر) ومواجهة (الهوى) من (الجهاد الأكبر).

---

(١) سفينة البحار ١: ٧٢٨ «هوى».

(٢) نهج البلاغة: ٨٣ الكلام ٤٢.

(٣) غرر الحكم: ٢٩٢.

(٤) المحجة البيضاء ٥: ٤٩.

(٥) بحار الأنوار ١٧: ١١٦.

الصيغة الإيجابية للتقوى:

والأداة المفضّلة والقوية في مكافحة الهوى ومجاهدة النفس في الإسلام هي التقوى. و(التقوى) هي ضبط النفس على حدود الله وأحكامه، وتحكيم حدود الله، وشريعة الله على تصرفات الإنسان وتحركه وعمله، وليست التقوى كبتاً للنفس، ولا حظراً على الإنسان من الاستجابة لرغبات النفس ومشتهياتها... وإنّما هي ضبط النفس فقط على حدود الله من الحلال والحرام، وفرض سلطان الحدود الإلهية على النفس.

ليست التقوى حرمان النفس من الاستجابة لمتطلباتها ورغباتها ومشتهياتها المحرّمة فقط وإنّما التقوى قبول سلطان الحدود الإلهية، وتحكيمها على النفس، وتمكينها من نزوات النفس ورغباتها، والتحرّر من سلطان الهوى، وانتزاع النفس من قبضة (الأهواء) و(الفتن).

والتقوى بهذا المعنى معنى إيجابي، وهو التمكّن من النفس، والقدرة على انتزاع النفس من سلطان الأهواء والشهوات، وليس معنىً سلبياً بمعنى ترك الحرام، وهي بهذا المعنى الشطر الأول لحركة الإنسان إلى الله.

الشطر الثاني من حركة الإنسان:

والمرحلة الثانية من هذه الرحلة هي العروج والصعود إلى الله، والدخول في دائرة ولاية الله تعالى، بعد أن يتمكن الإنسان من انتزاع نفسه من محور الأنا والذات والهوى.

ولابدّ في الشطرين جميعاً من الطاعة، فهو العنصر المشترك في كلّ من هاتين المرحلتين، إلّا أن المرحلة الأُولى تتميز بالتحرّر من محور الهوى والأنا، والمرحلة الثانية تتميز بالتحرّك للدخول في دائرة سلطان ولاية الله ونفوذه والارتباط بالمحور الإلهي، وكل منهما يتطلب الطاعة والاستجابة لأمر الله تعالى ونهيه.

ومعنى الارتباط بالله: أن يجعل الإنسان وجه الله تعالى هدفاً لـه في كلّ أعماله وتصرفاته، ويخلص في كلّ أعماله لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ويجعل مرضاة الله محوراً ثابتاً لكلّ حياته وتصرفاته، ولا يبتغي غير مرضاة الله شيئاً، وأن يدخل بشكل كامل في دائرة ولاية الله، فلا يكون لـه رأي أو حكم، أو هوى أو حبّ، أو بغض، أو عمل، أو حركة، أو كلمة، في غير ما يحكم الله تعالى ويريد. ويحبّ ويبغض في الله، ويحكّم إرادة الله ومشيئته وحبّه وبغضه على قلبه وصدره وعقله وعواطفه وأحاسيسه وجوارحه وأعضائه. ويتجرّد عن كلّ صبغة، ورأي، وهوى، ويتخذ صبغة الله تعالى صبغة

لنفسه، ويوجه نفسه، ورأيه، وهواه، وحبّه، وبغضه، حيث يريد الله، ويرضى به الله، ويمكّن حبّ الله من قلبه ونفسه، فلا يكون هناك شيء أحبّ إليه من الله ورسوله. فلن يكون الإنسان ذائباً في هذا المحور الربّاني، ولن يكون إيمانه من الإيمان الكامل، ولن يأمن عذاب الله ومكره إذا كان هناك في حياته شيء أحبّ إليه من الله ورسوله .﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١] ذلك أن هؤلاء لم يتمكنوا بعد من الانتقال من المحور الأول، ولم يتوفقوا في انتزاع أنفسهم من سلطان الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشائر، والأموال، والتجارة، والمساكن، وما زالوا تحت سلطان ونفوذ هذه المغريات والمثيرات من متاع الحياة الدنيا، وعلاقاتها و(فتنها).

أما الذين آمنوا، والذين انتزعوا أنفسهم من سلطان الهوى، وارتبطوا بمحور الإيمان بالله، وولاية الله فإنهم أشدّ حبّاً لله من كلّ ذلك... وهذا هو معنى الانفصال من محور الأنا والانتقال إلى محور ولاية الله، ﴿...وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾[٢].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يمحّض رجل الإيمان بالله حتى يكون الله أحبّ إليه من نفسه، وأبيه، وأُمّه، وولده، وأهله، ومن الناس كلّهم»[٣].

وعن الفضيل بن يسار قال سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الحبّ والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال: «وهل الإيمان إلّا الحبّ والبغض»[٤].

وفي الحديث الشريف: «الدين هو الحبّ والحبّ هو الدين»[٥]

(التقوى) و(ذكر الله) للعروج إلى الله:

والأداة المفضلة والمؤثرة في تحكيم وتوثيق الارتباط بين المؤمنين وبين الله عزّ وجلّ، وتعميق الصلة والعلاقة بين العبد وربّه، وربط الإنسان بهذا المحور الربّاني في الحياة وإخلاص

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.
(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٢٤.
(٤) الكافي ٢: ١٢٥.
(٥) نور الثقلين ٥: ٢٠٥.

عمله وجهده لله تعالى... أقول إنّ الأداة التربوية المفضلة في الإسلام لتحقيق هذه الغاية هو (الذكر)، وإن للذكر دوراً كبيراً وأساسياً في ربط الإنسان بالله وفي انشداده بهذا المحور الإلهي الذي تحدثنا عنه، وفي حركته التكاملية إلى الله.

فإن (الذكر) هو الصلة القلبية التي تربط الإنسان بالله وتجعله على ذكر منه، ويجعل الإنسان واعياً وشاعراً لحضور الله سبحانه وتعالى بصفاته وأسمائه الحسنى... ومستحضراً لعظمة الله وجلاله وجماله، وينبّه الإنسان إلى حضور الله، ويزيل عن نفسه الغفلة، يقول تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1].

ويعصم صاحبه عن الذنب. روي عن الباقر عليه السلام: ثلاث من أشدّ ما عمل العباد! إنصاف المرء من نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كلّ حال، وهو أن يذكر الله عزّ وجلّ عند المعصية يهمّ بها فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[2].

وسر هذه (العصمة) و(الحصانة): إن الذكر استحضار لسلطان الله وحضوره الدائم، واستحضار لحضور العبد في كلّ حالاته بحضور الله تعالى، وهذا الإحساس والوعي لحضور الله يعمّق في النفس حالة المراقبة الدائمة والانتباه الدائم، ويحجز الإنسان عن الانزلاق مع الشهوات والأهواء إلى معصية الله تعالى.

و(الذكر) انفتاح العبد على جلال الله تعالى وجماله، وهذا الانفتاح يشدّ الإنسان بالله تعالى ويملأ قلب العبد حبّاً له وشوقاً إليه وأُنساً به.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الذكر نور العقول وحياة النفوس وجلاء الصدور»[3] و«ذكر الله مجالسة المحبوب»[4] و«الذكر يؤنس اللب»[5]، إذن بالذكر يأنس الإنسان بالله ويشتاق إليه ويحبّه ويقرب منه، كما يقرب الجليس من جليسه ويأنس به، وحاشاه وسبحانه من مشابهة

---

(١) سورة الاعراف، الآية: ٢٠٥.

(٢) بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٩. والآية في سورة الأعراف: ٢٠١.

(٣) غرر الحكم: ١١١.

(٤) غرر الحكم: ٣٦٩.

(٥) غرر الحكم: ١٠١.

خلقه ومجالستهم. وقد روي عن رسول الله ﷺ: «إن موسى بن عمران عليه السلام لما ناجى ربّه عزّ وجلّ، قال: يا رب أبعيد أنت منّي فأناديك أم قريب فأناجيك؟ فأوحى الله جلّ جلاله: أنا جليس من ذكرني»[١].

ومن الذكر الذكر الخفي ومنه الدعاء، والمناجاة، والأذكار الواردة، والصلاة: ﴿...وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[٢]، وفي الحجّ الكثير من الذكر، والجهاد لا يتم إلّا بذكر الله واستحضار صفاته الجلالية والجمالية والشوق إلى لقاء الله، وإيثار لقاءه على الحياة الدنيا.

وعلى نحو الإجمال فإن العبادات في الإسلام تشتمل على الكثير من أبواب الذكر وألوانه، ولأهمية الذكر بشكل خاصّ فقد ورد الأمر بالإكثار من الذكر والمداومة على الذكر في النصوص الإسلامية.

يقول تعالى في الإكثار من الذكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[٣]، وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً فإنّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض»[٤].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أكثروا ذكر الله ما استطعتم في كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار فإنّ الله أمر بكثرة الذكر له»[٥].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في دوام الذكر: «المؤمن دائم الذكر كثير الفكر»[٦].

وفي وصية الإمام لابنه الحسن عليه السلام: «وكن لله ذاكراً على كلّ حال»[٧]، وورد في الدعاء: «إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء، والليل والنهار، والإعلان والأسرار، وفي السرّاء والضرّاء وآنسنا بالذكر الخفي»[٨].

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ١٥٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٤.
(٣) سورة الاحزاب، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢.
(٤) بحار الأنوار ٩٢: ١٩٨.
(٥) بحار الأنوار ٩٣: ١٦٠.
(٦) ميزان الحكمة ١: ٢٠٧.
(٧) بحار الأنوار ٤٢: ٢٠٣.
(٨) بحار الأنوار ٩٤: ١٥١.

وبعد: فهذا هو المنهج العلمي في الإسلام لحركة الإنسان من محور (الأنا) إلى (الله) ويتمّ هذا المنهج ضمن مرحلتين: المرحلة الأُولى في الإقلاع عن محور الذات والهوى، وأداة هذه المرحلة (التقوى)، والمرحلة الثانية في الارتباط بالمحور الإلهي والدخول في دائرة ولاية الله، وأداة هذه المرحلة (الذكر).

المنهج الأخلاقي في حركة الإنسان إلى الله:

وإلى جنب هذا المنهج العملي هناك منهج تربوي وأخلاقي في الإسلام يعين الإنسان في هذه المرحلة في الحركة من الأنا إلى الله، ويسرع عملية الانفصال والانتقال التي تحدثنا عنها.

والفصل الأوّل من هذا المنهج يعين الإنسان على التغلب على النفس وأهوائها ونزواتها، مثل (الإيثار) و(الزهد) و(الجود) و(حسن الظن) الذي يكافح حالات (الحرص) و(الطمع) و(البخل) و(سوء الظن) في نفس الإنسان وغير ذلك من الوسائل الأخلاقية التي تمكن الإنسان من أهوائه وشهواته.

والفصل الثاني يعين الإنسان على الارتباط بالله كالشكر، والتسليم لله، (والرضا بأمر الله)، والأُنس بالله، والحبّ، وما إلى ذلك من أبواب وفصول الأخلاق التي تعين الإنسان على الارتباط بالمحور الإلهي. وبهذه الطريقة المزدوجة (العملية ـ الأخلاقية) يسعى الإسلام لنقل الإنسان من محور الأنا إلى محور ولاية الله.

ولا يمكن أن يستغني الإنسان بأحد من المنهجين (العملي أو الأخلاقي) عن الآخر. فإن طريق الإنسان في الانتقال من الأنا إلى الله طريق شاق عسير، وكادح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، ولا يتيّسر للإنسان أن يسلك هذا الطريق الكادح والمتعب إلّا بالتنفيذ الكامل لهذا المنهج الإسلامي المزدوج (المنهج العملي والأخلاقي).

واستعينوا بالصّبر والصّلاة:

ومع كلّ هذا الإعداد التشريعي والتربوي للإنسان، فإنّ مشقة الطريق، وعناء الرحلة، والمزالق الخطرة على الطريق، وبعد الشُقة، وطول المعاناة، والمراصد المبثوثة للشيطان على امتداد الطريق، هنا وهناك، ووعورة السير فيما بين هذين المحورين يؤدي بالكثير من الناس إلى التباطؤ، والضعف عن مواصلة السير، وإيثار العافية والراحة على وعثاء الحركة والسير،

والتراجع، والتساقط أثناء السير، ولذلك يأمرنا القرآن الكريم بالصبر والصلاة في هذه المسيرة الكادحة دائماً: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(١)، الصبر على عناء الطريق، ووعثاء السفر، ومواجهة المتاعب.

والصلاة والدعاء، والاستعانة بالله، والاستمداد من حول الله وقوته في هذه المسيرة الصعبة والطريق الطويل فإذا استسلم الإنسان للضعف والعجز وحبّ العافية والراحة فلن يتمكن من مواصلة السير، وإذا اطمأن إلى حوله وقوته، دون حول الله وقوته، ووثق بقدرته على الاستمرار في الطريق، دون أن يطلب العون والمدد في هذا الطريق من الله، فلا يكاد يتمكن من الاستمرار والمضي في هذه الرحلة الكادحة. فلابُدّ إذن في هذه المرحلة من (الصبر) ومن (الصلاة) معاً حتّى يتمكن الإنسان من الاستمرار والمضي على هذا الطريق الطويل.

ضريبة الحركة إلى الله:

وبعد: فهذه النبذة إجمال شديد الاختصار لمسيرة الإنسان الكادحة من محور (الأنا) إلى محور (الله) والتي يقول عنها القرآن الكريم: ﴿...إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، وهذه الرحلة يقطعها الإنسان في عناء ومشقة بالغة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾(٢)، فقد خلق الله تعالى الإنسان لهذه المسيرة الكادحة في وسط من العناء والجهد والمشقة والكبد، ولن ينال الإنسان حظه من الكمال الذي أعدّه الله تعالى له إلّا في هذه الرحلة المحفوفة بالابتلاء والعناء والآلام والكدح.

وليست هذه السنة الإلهية في الابتلاء خاصة بهذه الأُمّة دون سائر الأُمم، وإنّما هي سنة الله تعالى عامّة، شملت من قبلنا من الأُمم، كما شملتنا، وأحاطت مسيرتهم بالعناء والابتلاء، كما حفت مسيرتنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ...﴾(٣).

الشهادة اختزال للحركة من الأنا إلى الله:

والشهداء ـ وهنا نريد أن ننتقل إلى صلب الموضوع بعد هذه الجولة الواسعة في مسيرة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة البلد، الآيات: ١ ـ ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

الإنسان ـ يقطعون هذه المسيرة بحركة سريعة وقوية وخفيفة واحدة بالشهادة والتضحية، فتنقلهم الشهادة والتضحية مرّة واحدة من محور الأنا والهوى إلى محور الله، وتنتزعهم انتزاعاً كاملاً من الأهواء والشهوات، ومن كلّ العلاقات التي تربطهم بهذه الدنيا إلى محور ولاية الله نقلة.

واحدة من حبّ النفس وحبّ الدنيا إلى حبّ الله، ومن ولاية الطاغوت إلى ولاية الله، ومن الانهماك في لذات الدنيا إلى الاستغراق في رضوان الله تعالى، ومن ألوان التعلقات والحبّ والبغض التي تصبغ مشاعر الإنسان في هذه الدنيا إلى صبغة الله الفريدة.

هذه القفزة السريعة والخفيفة التي تنقل الإنسان مرّة واحدة من محور إلى محور هي من خصائص الشهادة. والشهيد عندما يُقدم على الشهادة، بوعي وبصيرة من أمره، ينتزع نفسه بحركة قوية وخفيفة واحدة من وسط كلّ العلاقات والصلات والأواصر التي تشدّه إلى هذه الدنيا من مال وبنين، وزوج، ومتاع الدنيا، ولذات، وشهوات، وجاه واعتبارات اجتماعية، وبحركة واحدة يقطع كلّ هذه الحبال، والخيوط، والوشائج التي تشدّه إلى الدنيا ويخفّ للصعود إلى الله.

أرأيت المنطاد عندما تتقطع الحبال التي تشدّه إلى الأرض كيف يخفّ للصعود ويرتفع إلى السماء؟ كذلك الشهيد... لا يعيقه شيء بعد أن ينتزع نفسه من وسط هذه الأواصر الدنيوية عن التحرّك والصعود إلى الله.

إن الشهادة عملية مباركة مزدوجة: انتزاع النفس من أواصرها التي تشدّها بهذه الدنيا، والتي قوامها في هذه النفس، والصعود إلى الله ثمّ التحرّك إلى رضوان الله وقوامه الحبّ، والتسليم، والرضا، والطاعة، والذكر، واليقين.

نقلة الحرّ رَحِمَهُ اللهُ من محور الطاغوت إلى محور الله:

فقد كان الحر بن يزيد الرياحي رَحِمَهُ اللهُ قائداً في جيش عمر بن سعد وكان يقع تماماً في الجهة المقابلة للحسين عليه السلام، فأنتقل في أحرج اللحظات بحركة سريعة وخاطفة إلى جبهة الحسين عليه السلام يقول أصحاب السير: إن الحر أقبل على عمر بن سعد وقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أي والله قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي. قال: ما لكم فيما عرضه عليكم من الخصال؟

فقال عمر بن سعد: لو كان الأمر إليّ لقبلت، ولكنّ أميرك (ابن زياد) أبى ذلك فتركه ووقف مع الناس، وكان إلى جنبه قرّة بن قيس فقال لقرّة: هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا.

قال: فهل تريد أن تسقيه؟ فظن قرّة أنه يريد الاعتزال، ويكره أن يشاهده، فتركه. فأخذ الحر يدنو من الحسين قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذته الرعدة، فارتاب المهاجر من هذا الحال، وقال له: لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟

فقال الحر: إنّي أُخيّر نفسي بين الجنّة والنار، والله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو أُحرقت، ثم ضرب جواده نحو الحسين عليه السلام، منكساً برأسه حياءً من الحسين حيث جعجع بهم في هذا المكان[1].

هكذا، في لحظات قصيرة، وسريعة، وبحركة خفيفة، ينتقل الحر من محور إلى محور، ومن موقع إلى موقع معاكس للأوّل تماماً، ويهاجر من إمارة جيش عمر بن سعد إلى جند الحسين، ومن الأنا إلى الله تعالى، وتلك هجرتان تتمان في اللحظات الأخيرة من حياته في لحظة قصيرة وسريعة، ولطالما قرأنا الهجرات إلى الله تعالى، ولكنني لا أعرف هجرة إلى الله تعالى أسرع وأقصر من هذه الهجرة.

نقلة زهير رحمه الله من ولاية الطاغوت إلى ولاية الله:

ومثال آخر على هذه الحركة السريعة إلى الله تعالى ـ عبر الشهادة ـ هجرة زهير بن القين رحمه الله. فقد كان عثماني الهوى. ولم يكن هواه مع آل محمّد صلى الله عليه وآله وقد حجّ البيت في عام (٦٠ هـ)، وكان يساير موكب الحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق إلّا أنّه كان يحرص ألّا ينزل بالقرب من خيام الإمام، مخافة الاجتماع به، حتّى انتهت قافلة الإمام إلى (زرود)، فلم يجد زهير رحمه الله بداً من أن ينزل بخيامه بالقرب من خيام الحسين عليه السلام. فأرسل إليه الحسين عليه السلام رسولاً يدعوه إليه وكان زهير مع صحبه يتناولون الطعام، فأبلغه الرسول دعوة الحسين فطرحوا ما في أيديهم من طعام، وكأنّ على رؤوسهم الطير، فأنكرت عليه زوجته ـ رحمها الله ـ ذلك. وقالت: «سبحان الله، يبعث إليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه! لو أتيته فسمِعْتَ كلامه!». فانطلق زهير على كراهية منه إلى الإمام، فلم يلبث أن عاد مسرعاً، وقد تهلّل وجهه وامتلأ غبطة وسروراً ثمّ أمر بفسطاطه وما كان عنده من ثقل ومتاع، فحوله إلى خيام الإمام. وقال

---

(١) مقتل المقرّم: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

لزوجته: «أنتِ طالق»، ثم قال لأصحابه سأُحدثكم حديثاً: «غزونا (بلنجر)[١] ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، ففرحنا وكان معنا سلمان الفارسي. فقال لنا: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمّد، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من الغنائم»[٢].

وينقلب زهير ﷬، وينقلب هواه من بني أُمية إلى آل علي، وينتزع نفسه من كلّ ما تربطه بهذه الدنيا، حتّى من زوجته التي أنكرت عليه تباطؤه عن الاستجابة لدعوة الحسين ﵇، حتّى يستطيع أن يخفّ للقاء الله.

ولما جمع الحسين ﵇ أصحابه وأهل بيته قرب المساء قبل مقتله بليلة، فقال لهم: «إنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنّما يطلبوني، ولو أصابوني لذهلوا عن غيري، قال زهير بعدما سمع كلام الحسين ﵇: والله لوددت أنّي قتلت، ثم نشرت، ثم قتلت، حتّى أُقتل كذا ألف مرّة، وإنّ الله ﷻ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك»[٣].

هكذا تحرّر الشهادة الإنسان من كلّ القيود، والأواصر التي تربطه بالحياة الدنيا مرّة واحدة، وبقوّة وخفّة، وتدفعه إلى لقاء الله.

فالشهادة إذن اختزال شديد، واختصار للطريق بين هذين المحورين. والمسافة التي يقطعها عامة الناس بتكلف، وتعثر، ومشقّة، يتعثر فيها أُناس، ويتساقط فيها آخرون، ويضعف عن السير فيها قوم ويقوى عليه آخرون... يقطعها الشهيد بوعي، وبصيرة، وقوّة، وثبات، في لحظات قصيرة، وحركة خفيفة، تنتزعه من الدنيا، وتعرج به إلى لقاء الله.

---

(١) احتمل أن الكلمة الصحيحة هي (بالبحر). وقد بدأت عساكر المسلمين في ذلك التاريخ غزوات البحر ولكن الكلمة وردت خطأ بأقلام بعض النساخ بلنجر. وقد وردت الكلمة في بعض المصادر بالبحر.

(٢) حياة الإمام الحسين ﵇ للشيخ باقر القرشي ٣: ٦٦ ـ ٦٧. نقلاً عن الإرشاد: ٢٦٤. وتأريخ ابن الأثير ٣: ١٧٧. وأنساب الأشراف ق ١: ١. والدر النظيم: ١٦٧.

وسلمان هذا ليس هو سلمان الفارسي وإنّما هو سلمان الباهلي.

(٣) مقتل الحسين ﵇ للمقرّم: ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

ثأر الله

القيمة الحركية للشهادة

تحدثنا في الفصل السابق بشيء من التفصيل عن القيمة الذاتية للشهيد ودور الشهادة في تكامل شخصية الشهيد. والآن نتحدث من البعد الثاني (الأُفقي) للشهادة: وهو دور الشهيد في تحريك المجتمع، والقيمة الحركية للشهادة في حياة الأُمّة.

ونبدأ حديثنا عن الشهيد من مادة اشتقاق هذه الكلمة ومنها نسترسل في الحديث عن دور الشهيد في تحريك المجتمع.

(الشاهد) و(الشهيد) بمعنى واحد تقريباً فإن الشاهد اسم الفاعل من هذه الكلمة، والشهيد فعيل بمعنى الفاعل كالنصير والناصر.

وقفة عند اشتقاق كلمة (الشهيد):

وأصل الاشتقاق في هذه الكلمة: (الشهود)، و(الشهادة) وهما بمعنى الحضور؛ يقال: شهد المعركة: أي حضرها. وفي المصطلح القضائي الشهادة تستعمل في معنيين:

١ ـ تَحَمُّلُ (الشهادة):

بمعنى الحضور والرؤية؛ فإنّ الشخص الذي يحضر وقعة ويراها عن قرب، رؤيّة حسّية واضحة يتحمل مسؤولية هذا الحضور والرؤية، فإذا حضر جريمة وشهدها، تحمل مسؤولية هذه الرؤية والشهادة، وكأنّما تُحَمِّلُهُ هذه الشهادة مسؤولية شرعية يجب عليه أن يبرّيء ذمّته منها.

٢ ـ أداء الشهادة:

وهذا المعنى شائع أيضاً في استعمالات الشهادة، فإذا بلّغ الشاهد ما شهده أدّى ما تَحَمَّلَهُ من مسؤولية الشهادة، ولا يتحلل الشاهد من مسؤولية الشهادة حتّى يؤديها ويبلغها.

والشهادة بهذا المعنى هي معيار الحكم للقاضي وملاكه إذا كان الشاهد عدلاً. ففي كلّ واقعة يختلف فيها الأطراف قد يجنح فيها بعض الأطراف أو كلّ الأطراف عن الحقّ، فيأخذ

القاضي بشهادة الشاهد، فإن أمانة الأداء تتطلب منه أن يؤدي ما رآه بالحسّ من الواقعة، ويعتبر القاضي هذه الشهادة ملاكاً للقضاء ويحكم بموجبها، إذا تمت الشهادة بالموازين الشرعية، فيكون الشاهد بهذا المعنى ملاكاً للحكم ودليلاً عليه.

الشهيد مقياس للتقييم:

وأظن أن يكون مصطلح الشهيد والشهادة متأثراً بالمعنى الثاني وهو أداء الشهادة.

فإن (الشاهد) و(الشهيد) يستعملان بمعنى الدليل والميزان والمعيار والمقياس الذي نزن به الأحكام والأُمور كثيراً. وهو معنى قريب من المعنى الثاني للشهادة الذي أشرنا إليه قريباً، وهو الشهادة في حقل القضاء.

والقرآن، وإن كان لم يستعمل هذه الكلمة في معناها المصطلح إلّا أنّه استعمل هذه الكلمة في هذا السياق بالذات. يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾[1].

وهذه الآية تصرّح بأن الأُمّة المؤمنة بالله ـ المعتدلة ـ شهيدة على الناس، والرسول شهيد على هذه الأُمّة، فماذا يمكن أن يكون معنى الشهيد في هذه الآية الكريمة في الشهادتين جميعاً: شهادة الأُمّة المؤمنة على الناس، وشهادة رسول الله ﷺ على الأُمّة؟

وبأي ملاك تكون هذه الأُمّة شهيدة على الناس جميعاً، ويكون الرسول ﷺ شهيداً عليها؟

إنّ الإجابة على التساؤل الثاني يفتح الطريق للإجابة على السؤال الأوّل. إنّ الملاك الذي جعل هذه الأُمّة شهيدة على سائر الناس هو الاعتدال والوسطية وعدم الجنوح إلى اليمين واليسار، وهذا الاعتدال والوسطية يؤهّلها، لتكون شهيدة على الناس، ونفس الملاك ـ بالتأكيد وبدلالة السياق ـ هو السبب في شهادة الرسول ﷺ على الأُمّة وهذا التفسير واضح من متن الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾.

إذن، سِرُّ الشهادة كامن في حالة الاعتدال والوسطية بالذات، وهذه الحالة هي التي تؤهل الأُمّة لكي تكون شهيدة على الناس.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

إنّ الناس يجنحون لليمين واليسار في الأكثر، وترى هذه الكتل البشرية تمتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، تتلاعب بهم أمواج الفتن والشهوات والأهواء والانفعالات النفسية والمصالح والعواطف في اتجاهات شتى، ولابُدّ لهذه الكتل البشرية التائهة والضائعة في هذا الخضم البشري الواسع من (معالم محسوسة) وملموسة في الطريق، تستهدي بها وتميّز بها الصحيح من السقيم، والاستقامة من الاعوجاج والهدى من الضلال كما لابدّ لها من (كتاب) ووحي وشريعة وتعاليم، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

لا بدّ لها من تعاليم ودروس وتوجيهات، ولابدّ لها كذلك من معالم ملموسة وقائمة على الطريق، وهم الشهداء.

والخاصية المطلوبة في هذه المعالم: أن تكون معتدلة ومتوسطة وعلى الطريق تماماً، ليس على اليمين ولا على اليسار، ولا تجنح إلى يمين أو يسار.

وعند ذلك يمكن أن تكون (معالم) على الطريق، يهتدي الناس بمواقعهم ومواقفهم قبل أن يهتدوا بكلامهم وتوجيهاتهم.

فمن الناس من يكون موقفه وموقعه حجة على الآخرين، فيهتدي الناس بمواقفه ومواقعه وأعماله كما يهتدون بكلامه ورأيه وتوجيهه، وهؤلاء هم (القدوات) في حياة الناس و(معالم الطريق) على الطريق.

وهؤلاء سكوتهم، وكلامهم، وحركتهم، وسكونهم، وغضبهم، وثورتهم، وقيامهم، وقعودهم قدوة للآخرين وحجة عليهم.

وهؤلاء هم الشهداء لأنّهم مقاييس للآخرين ومعالم على الطريق، ومعايير للحكم وللحق، كما يكون(الشاهد) معياراً للقاضي في معرفة الحقّ من الباطل، وتمييز الصحيح من السقيم، وفرز الرديء عن الجيّد.

هذه الأُمّة شهيدة على سائر الأُمم:

وبهذا المعنى: فإن هذه الأُمّة ـ بما هداها الله تعالى إلى الوسط من الطريق، وبما منحها الله من الاعتدال في الرأي والحياة ـ شهيدة على سائر الناس وقدوة لهم، ومَعْلَم على الطريق ومقياس للناس في تصحيح أعمالهم وحركاتهم.

إنّ هذه الأُمّة ـ المتوسطة ـ تصلح لأن تكون المقياس الذي يقيس به الناس أنفسهم، ويصححون به أعمالهم وتحركاتهم.

لقد أراد الله تعالى لهذه الأُمّة أن تكون قدوة للناس جميعاً، وأن تكون شهيدة على الناس جميعاً، ومعلماً على طريق الناس، وأن تكون أفعالهم ومواقعهم مثالاً ونموذجاً للناس جميعاً. والذي يؤهل هذه الأُمّة لهذا الموقع الرائد هو؛ الاعتدال والتوسط في التفكير والعمل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾.

وكما أن الله تعالى أراد لهذه الأُمّة أن يكون لها موقع السيادة والقيادة والحاكمية على وجه الأرض وعلى الناس كذلك، أراد الله تعالى لهذه الأُمّة أن يكون لها موقع القدوة والريادة على وجه الأرض وبين الناس.

ورسول الله شاهد على هذه الأُمّة:

وبنفس الملاك فإن الرسول ﷺ يحتل موقع القدوة والريادة من هذه الأُمّة: ﴿...وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾[1]. كما يحتل موقع القيادة والإمامة والحاكمية من حياة هذه الأُمّة: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾[2]. هذا إلى موقع التبليغ والرسالة: ﴿...وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ...﴾[3].

عودة إلى مصطلح (الشهيد):

والآن نعود إلى الشهيد في المصطلح الإسلامي ضمن هذه الصورة القرآنية؛ فالشهيد ضمن هذا التصوّر يعتبر مقياساً في حياة الأُمّة، يقيسون به أنفسهم، وأساساً لمعرفة الحقّ والباطل وتمييز الرديء عن الجيد. إن الشهيد تبلور للصدق والعطاء والوعي والبصيرة، يقيس به الناس أنفسهم، وعطاءهم ووعيهم، وصدقهم، وبصيرتهم، واستقامتهم و... والشهيد المثل الأعلى دائماً في حياة الناس وهو القمة في كلّ ذلك.

التوجيه بـ (التثقيف) و(القدوة):

لابُدّ في هذه المسيرة الربّانية على وجه الأرض، وفي حياة الناس من (قدوات) للاقتداء والتأسي كما لابُدّ من معلمين وموجهين للتعليم والتوجيه والتثقيف، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

فإن التحرّك على طريق ذات الشوكة يكلّف الإنسان الكثير، ويتطلب منه العناء والعطاء، والتضحية والصدق، ولا يتيسر للإنسان أن يتجرد لهذه المسيرة الإلهية بسهولة ويسر. ولابُدّ من توجيه وإعداد وتربية، وتثقيف مركّز للدعاة إلى الله تعالى وللمؤمنين عامة، ليتمكنوا من مواصلة السير والاستمرار على الطريق، ولئلّا يتيهوا في متاهات الطريق، ويخضعوا لإغراءات الشيطان ومزالق النفس... وهذا الإعداد والتوجيه يتم على شكلين هما:

١ - (التوجيه) والتثقيف.

٢ - (القدوة).

ولا تقل قيمة التوجيه والإعداد بـ (القدوة) عن قيمة التوجيه والإعداد بـ (التثقيف).

والقرآن الكريم يشير إلى كلّ من هذين النحوين من التوجيه. يقول تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾[1].

لقد كان رسول الله ﷺ يتلو على الناس آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وهذا يدخل في حقل التعليم والتثقيف، وهو الشطر الأول. من شطري عملية الإعداد، والشطر الآخر هو التربية بـ (القدوة الصالحة)، على طريق ذات الشوكة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

إن دور (التثقيف) في إعداد الناس هو دور التوجيه و(الدلالة)؛ بينما القدوة الصالحة يأخذ الناس معه إلى الله تعالى. المُعَلّم المربي يَدُلُّكَ إلى الله تعالى دلالة، بينما (القدوة الصالحة) يأخذك معه إلى الله.

وان الإنسان ليعطي للمُعَلّم سمعه وعقله، ولكنه عندما يجد قدوة صالحة يعطيه سمعه وعقله وقلبه جميعاً، ويمكّنه من عقله وقلبه ليقوده إلى الله تعالى.

القدوة والأُسوة على طريق ذات الشوكة:

إن حضور القدوة الصالحة على أرض المعركة، ينفع العاملين في أمرين، يأخذون منه الصبر والصلاح والجهاد والعطاء والترفع عن الدنيا من جانب، ومن جانب آخر يشهدون معه

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

إمداد الله تعالى لهم، وتمكينهم من المجابهة وتثبيتهم على أرض المعركة ويشهدون معيّة الله تعالى لهم في هذه المرحلة الصعبة بصحبة الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام.

وهذهِ الإيحاءات الرسالية التي تعطيها حياة القدوات الصالحة لا تتأتى دائماً من الدرس والتعليم.

إنّ (القدوة الصالحة) توطّيء طريق ذات الشوكة الطويل للعاملين والسائرين.

فعلى رأس كلّ منعطف، وعند كلّ صعود وهبوط، وعند ملتقى كلّ طريق، وفي كلّ غمرة من غمرات السير والحركة، وعندما تهب العواصف العاتية في وجوه العاملين، وكلّما يتغلب اليأس والتعب والخوف على نفوس المؤمنين السائرين يلتقي العاملون السائرون على طريق ذات الشوكة بهذه القدوات الربّانية. يلتقون بأنبياء الله عليهم السلام إبراهيم ويحيى وعيسى وموسى وأيوب وهود وصالح ونوح وزكريا، فيطمئنون إلى معية الله تعالى وإمداده لهم في وحشة الطريق والتباس الأُمور؛ وظروف الإرهاب والملاحقة والمطاردة... يطمئنون إلى معية الله وإمداده من خلال حركة هؤلاء الربّانيين السائرين على الدرب الطويل باطمئنان وثقة وصدور منشرحة.

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وهو يريد أن يثبت قدمه على أرض المعركة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾(١).

ويقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بعد أن يذكّره بمعاناة الأنبياء وقصصهم وصبرهم ودأبهم على السير والعمل في سورة هود: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢).

فيثبّت الله فؤاد نبيّه صلى الله عليه وآله بسيرة هؤلاء الصالحين.

يا لله، ما هذا الأمر العظيم الذي يثبّت تعالى به فؤاد نبيّه صلى الله عليه وآله؟.

ذلك هو القدوة الصالحة والحضور الرسالي الحيّ للربانيين على ساحة المعركة وعمارة

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٠.

الطريق الطويل بنجوم الهدى، ومعالم الطريق: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾[1] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾[2].

وقد جعل الله تعالى من أنبياء السلف قدوات صالحة لنبيه ﷺ، يثبت بهم فؤاده ﷺ وأفئدتنا، وجعل لنا من رسول الله ﷺ قدوة صالحة نستهدي به وتطمئن به قلوبنا، وأفئدتنا ونفوسنا في زحمة الصراع، ومخاوف الطريق: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾[3]. إن حياة رسول الله ﷺ وعناؤه وجهاده ومثابرته وصبره واستقامته قدوة لكلّ العاملين.

وعلى الدعاة إلى الله أن يقرؤوا بإمعان سيرة رسول الله ﷺ وحياته العامّة والخاصّة، وعناءه، وحركته في مكّة، وبعد الهجرة، وسيرته في الحرب والسلم، وقبل إعلان الدعوة وبعدها، وقبل إعلان الحرب على المشركين وبعدها ومع المؤمنين ومع الأعداء، فإنّها للعاملين نور وهدى وقدوة صالحة ومثل أعلى يحتذي به المؤمنون.

الشهيد قدوة:

و(الشهيد) قدوة صالحة في طريق العاملين، وهذه الكلمة على وجازتها تحمل قيمة كبرى للشهيد في حركة التأريخ وتحريك الأُمّة.

والقيمة الحركية للشهيد تعود إلى هذه الحقيقة بالذات، فإنّ الشهيد عندما يتحوّل إلى (قدوة) للعمل الصالح وللعطاء والتضحية في حياة الناس، يستطيع أن ينقل هذه القيم من جيل إلى جيل.

وهذه خاصة من خصائص (القدوة) في الحياة الاجتماعية، أنّه يسهّل ويسرّع عملية نقل القيم الحضارية من جيل إلى جيل، ويعمّق هذه القيم في حياة الناس. وهذه القيم كلّما تنتقل من جيل إلى جيل تتسع دائرتها من الناحية الكمية، وتتعمق وتترسخ من الناحية الكيفية.

وهذه الحقيقة تصح بشكل دقيق في أصل التضحية والعطاء فقد يتصوّر بعض الناس أنّ الشهادة تفقد الأُمّة النخبة الصالحة من أبنائها، وما تحمل هذه النخبة من قيم ومزايا إيمانية وأخلاقية وجهادية.

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

والأمر على العكس تماماً فإنّ الشهادة لا تعتبر خسارة مهما كانت قيمة الشهيد، وحجم الشهداء وعددهم، بل هي ربح ونمو وبركة في حياة الأُمّة، وحتّى في الحسابات المادية.

والحديث التالي عن رسول الله ﷺ يوضح لنا هذه الرؤية الإيجابية للشهادة.

خطب النبيّ ﷺ المسلمين في المدينة في اليوم الذي استشهد فيه زيد، وجعفر وعبد الله بن رواحة رحمهم الله في حرب مؤتة مع الروم، وأخبرهم باستشهاد زيد، وجعفر، وعبد الله، فقال ﷺ: «أخذ اللواء زيد، فقاتل به فقتل، رحم الله زيداً، ثم أخذ اللواء جعفر، وقاتل، وقُتل رحم الله جعفراً. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وقاتل، فقتل، فرحم الله عبد الله».

فبكى أصحاب رسول الله ﷺ وهم حوله فقال لهم النبيّ ﷺ: وما يبكيكم؟ قالوا: وما لنا لا نبكي وقد ذهب خيارنا، وأشرافنا، وأهل الفضل منا؟ فقال لهم ﷺ: «لا تبكوا فإنما مثل أُمتي مثلُ حديقة قام عليها صاحبها فأصلح رواكبها، وبنى مساكنها، وحلق سعفها، فأطعمت عاماً فوجاً، ثم عاماً فوجاً، فلعلّ آخرها طعماً أن يكون أجودها قنواناً وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحقّ نبياً، ليجدن عيسى ابن مريم في أُمتي خلفاً من حوارييه»[١].

الوعي والعطاء:

ويتساءل السائل: وفيم يكون الشهيد قدوة؟ وكيف؟

إن دم الشهيد يجسد نقطتين أساسيتين في حياة الإنسان وفي مسيرة الحركة الإسلامية، وهما: (الوعي) و(العطاء).

وهاتان النقطتان تعتبران أساسيتين لقيمة دم الشهيد، وبهما يكون الشهيد قدوة للآخرين، فهذا الدم يجسّد أولاً مستوىً رفيعاً من الوعي والبصيرة واليقين.

١ ـ الوعي واليقين:

وهذه هي النقطة البارزة الأُولى في قيمة دم الشهيد، ولا قيمة للدم من دون هذا اليقين والوضوح، والدم الذي يراق من غير يقين من الانتحار وليس من الشهادة في شيء.

إنّ لدم الشهيد جذوراً تاريخية ضاربة في عمق التاريخ، وأهدافاً وغايات حضارية يرتبط بها الدم.

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ٥١، ومقاتل الطالبيين: ٧ ـ ٨ طبعة النجف، المكتبة الحيدرية ١٣٨٥ هـ.

أما الغايات والأهداف التي يحققها دم الشهيد فهي تحكيم شريعة الله وإرادته تعالى على وجه الأرض، ومجاهدة الهوى والطاغوت، وتعميق خط الحضارة الربّانية في الأرض، وفي حياة الإنسان، وإنقاذ الإنسان من شَرَك الهوى والطاغوت.

أما الأُصول والجذور التاريخية لدم الشهيد، فإنه يجري في امتداد تيّار عميق وواسع من الدماء والدموع والجهود والمعاناة والآلام والعذاب والصمود والصبر والجهاد في التاريخ، كلها في سبيل الله.

وفي هذا الإطار التأريخي والرسالي يكتسب دم الشهيد قيمته الرسالية والحركية.

وهذه الأهداف والغايات والعمق الحضاري هي التي تمنح الشهيد هذا الوعي والبصيرة واليقين الذي تحدثنا عنه، وإلّا فكثير من الناس يبذلون أموالهم ودماءهم، ولن تعود عليهم هذه التضحية بجدوى، ولن تخرجهم من دائرة نفوذ الهوى، ولن تدخلهم في دائرة الهدى. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1].

ولا يشك أحدٌ في صدقهم في العطاء والتضحية، وأي عطاء وتضحية أكثر من التضحية بالنفس، ولكن من دون أن يكون نابعاً من نبع الوعي والوضوح واليقين، بل هو الهوى يزيّن لهم أعمالهم ويخدعهم ويريهم الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ويسلبهم الرؤية والبصيرة وهؤلاء هم ضحايا على مذابح الهوى والجهل، وهم يتصوّرون أنّهم أصحاب مبادئ وقضايا.

فاليقين والوعي هو الأساس الأول في تقييم دم الشهيد، ومن دون ذلك لا قيمة للدم مهما كانت التضحية؛ وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «نوم على يقين خير من صلاة في شك»[2]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»[3].

ضحايا انعدام الوعي:

ومن ضحايا انعدام الوعي واليقين في تأريخ الإسلام (الخوارج) كانوا يلتزمون بالحلال والحرام ويتقيدون بأحكام الله، ويتورعون عن الحرام، ولكن ذلك كلّه من دون وعي ولا بصيرة

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٢٢ الكلام٩٧.

(٣) أُصول الكافي ٢: ٥٧.

ولا يقين، ولقد كانوا يريقون الدماء المحرمة الزاكية من دون ورع ولا تقوى، ثم يتورعون عن أن يأخذ أحدهم ثمرة سقطت من نخلة؛ يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

ولقيهم (أي الخوارج) عبد الله بن الخباب (من أصحاب أمير المؤمنين وابن الصحابي الجليل الخباب رحمهما الله) وهو راكب على حمار ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إنّ هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك (وكان يحمل معه قرآناً) فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه، وما أماته فأميتوه، فوثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة، فوضعها في فيّه، فصاحوا به، فلفظها تورعاً.

وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير.

ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك، فقال: إني سمعت أبي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون بعدي فتنة، يموت فيها قلب الرجل، كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، فكن عبد الله المقتول، ولاتكن القاتل، قالوا: فما تقول في علي عليه السلام بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إنّ علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة، فقالوا: إنّك لست تتبع الهدى، إنّما تتبع الرجال على أسمائهم، ثم قربوه إلى شاطئ النهر، فأضجعوه فذبحوه.

قال أبو العباس: وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له، فقال: هي لكم. فقالوا: ما كُنّا لنأخذه إلّا بثمن. فقال: واعجباً! أتقتلون مثل عبد الله بن الخباب ولا تأخذون نخلة إلّا بثمن[١].

وكان أمير المؤمنين يخاطب الخوارج فيقول لهم: «فأنا نذير لكم أن تُصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بيّنة من ربّكم ولا سلطان مبين معكم...»[٢].

ومرّ أمير المؤمنين بقتلى الخوارج يوم النهروان فقال: بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم. فقيل له: من غرّهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: الشيطان المضلّ، والأنفس الأمارة بالسوء، غرتهم بالأماني وسمحت لهم بالمعاصي، ووعدتهم الإظهار فاقتحمت بهم النار»[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) نهج البلاغة، د. صبحي الصالح: ٨ خطبة ٣٦.

(٣) نهج البلاغة: ٥٣٢ خطبة ٣٢٣.

وقتل رجل من الأصحاب فعرف بقتيل الحمار، وذلك أنه رأى مشركاً على حمار فأعجبه الحمار، وبرز لـه ليقتله ويسلب منه حماره، فقتل فعرف بقتيل الحمار، فلم يظفر بالحمار ولا بالشهادة؛ وهذا هو الأساس الأول في تقييم دم الشهيد.

٢ ـ العطاء:

والأساس الثاني في تقييم دم الشهيد: العطاء والتضحية؛ فالشهيد يعتبر قمّة في العطاء والتضحية، وليس بعد هذه القمة قمة، فإن الجود بالنفس أقصى غاية الجود.

والشهيد يبذل لله تعالى كلما يملك، ولا يدخر لنفسه شيئاً ـ ، فحقيق أن يرزقه الله كل ما يتمنى من رحمته.

وما أروع ما نقل عن السيد مهدي بحر العلوم ﷺ حيث لفت نظره كثرة ما يروى من الثواب لمن زار الحسين عليه السلام فسأل أستاذه عن سرّ ذلك. فقال له:

إنّ الحسين عليه السلام عبد فقير من عباد الله، أعطى كلّ ما يملك لله من غير تردّد، وحقيق بالله وهو الغني المطلق الذي لا حدود لخزائن رحمته، أن يعطيه من خزائن رحمته من غير حساب وفوق حساب الحاسبين.

والعطاء هو التصديق العملي للإيمان. فمن الناس من لا تُصَدِّقُ أعمالهم إيمانهم... إذا وقفوا في مواجهة أئمّة الكفر وفي مواجهة المنكرات، وليس دائماً ينشأ هذا التخالف بين الإيمان والعمل من الغموض والشكّ ـ وإن كان يؤدي إليه دائماً ـ وإنّما ينشأ أحياناً عن ضعف في النفس، وحبّ للدنيا، وإيثار للعافية، فيتخلف الموقف العملي للإنسان عن إيمانه وعقيدته، وتكون نتيجته الشح والبخل.

والقرآن الكريم دقيق في تعبيره عن العلاقة بين الإيمان النظري والصدق في الموقف العملي، حيث يقول تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

فليس كلّ المؤمنين صادقين في العمل، والفعل، في عهودهم مع الله تعالى، بل منهم الصادقون ومنهم غير ذلك، رغم إنهم مؤمنون، لكنهم لم يصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وتخلفوا في العمل عن الإيمان، وهذا النموذج من الناس شائع في مجتمعنا اليوم، وفي التأريخ.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

إن التضحية تعتبر أعلى درجات التفاعل النفسي والعاطفي مع الإيمان والعقيدة.

إن الإيمان قد يكون إيماناً عقلياً مجرداً ذا صبغة عقلية رياضية خالصة، إيماناً أكاديمياً لا يغيّر شيئاً من واقع حياة الإنسان ولا يصنع حباً ولا بغضاً ولا ولاءً ولا براءة، وليس له جذب ولا دفع في حياة الناس، وهذا هو إيمان الفلاسفة، الذين يعرفون الله من خلال المعادلات والقوانين الفلسفية، إيمان الفارابي وابن سينا وديكارت وإيمانوئيل كانت.

أمّا إيمان الشهداء فشيء آخر يختلف عن هذا الإيمان، إنّه عُمْلة ذات وجهين: وجه للعقل ووجه آخر للعاطفة والحب والشوق والولاء والحب والعطاء والإيثار والفعل والانفعال.

ترقُّ العاطفة حتّى تكون حباً، ويسمو البذل حتّى يكون تضحية. وما أجمل كلام هذا الشاعر الذي يحدثنا على لسان الحسين عليه السلام في مناجاة والهة مع الله تعالى يوم عاشوراء على مسرح الحبّ والشهادة:

تركت الخلق طُرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني في الحب إِرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

إيمان الشهيد خليط من هذين الأمرين معاً: إيمان وحبّ، إيمان يصدّق الحبّ، وحبّ يصدّق الإيمان، مزيج من العقل والعاطفة يمزج بين منطق الفلاسفة والحكماء وعاطفة المحبين الوالهين.

دم الشهيد تعبير رائع عن هذا المزيج المقدس من العقل والحبّ، من منطق الحكماء، ووله المحبين، ومن استحكام العقل وقوته وجاذبية الحبّ وفورانه.

وهذا التفاعل النفسي هو الذي يؤهل النفس للعطاء والتضحية. إن العقل وحده، والإيمان وحده لا يكفي ليبلغ الإنسان هذا المستوى الرفيع من تجاوز الذات، والإيثار، والتضحية.

ولكي يبلغ الإنسان هذه القمة من الكمال لابُدّ له من مدرسة أُخرى ومنطق آخر وإعداد آخر؛ وهي مدرسة الحبّ ومنطق المحبين. والعطاء الذي يكّون الشطر الآخر من شخصية الشهيد: نابع من هذا النبع.

وهذان الأساسان (اليقين والعطاء) هما الأساس والمفتاح لفهم قيمة الشهيد ودوره في تحريك المجتمع، ولا بُدّ من أن نبسط القول في هذه النقطة بعض البسط.

التخلف في الوعي والعطاء:

قلنا: إنّ الشهيد قدوة للمجتمع وللأجيال في مسألتين أساسيتين هما: الوعي والعطاء.

والتخلف عن الأوّل يعرّض الأُمّة للانحراف عن طريق الله، والتخلف عن الثاني يصيب الأُمّة بالعجز عن التحرك، والضعف والتعب واليأس.

وأكثر مشاكلنا السياسية والفكرية والحضارية والحركية تنبع من هذين: التخلف في الوعي، والتخلّف في العطاء.

والشهيد قدوة رفيعة للوعي والعطاء معاً.

وقد لا يتبيَّن في النظرة الأُولى أثر كلّ شهيد في مسيرة الحركة، ولكن الذين يرزقهم الله القدرة على رؤية المسيرة الربانية الكبرى على وجه الأرض يرون دائماً ـ إلى جنب كلّ مسيرة حاشدة بالمؤمنين إلى الله ـ نهراً من الدم ومسيرة حافلة بالشهداء يموّن هذه المسيرة ويمدها بالعزم والقدرة على المواصلة وتحدي الصعاب.

إنّ دماء الشهداء تهب الأحياء عزماً على الاستمرار، ومواصلة الحركة والسير، وقوّة على تجاوز العقبات والصعاب، وتهبهم القدرة على نكران الذات، وتجاوز النفس، والترفع عن صغائر الأُمور، وانتزاع حبّ الدنيا من النفوس، وإيثار الآخرة على الدنيا، واسترخاص الحياة الدنيا في سبيل مرضاة الله.

إنّ دماء الشهداء تعلم الأحياء الكثير، ومن أغرب ما في هذه المدرسة العجيبة في حياة الإنسان: أن تلاميذها أحياء وأساتذتها أموات، ولكن لا كما يتصور الناس الأموات، وإنّما كما يقول ربّنا سبحانه: ﴿...أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

إنّ كلّ شهيد ـ في النظرة الكونية الشاملة لحركة الدم ـ يربّي أجيالاً من العاملين المخلصين لله، وكلّ قطرة من دم الشهيد تتحول إلى أنهار من دم يفجّر براكين من المقاومة والثورة والتمرد على الظالمين في نفوس المؤمنين.

إنّ الشهادة تعلمنا كيف ينتصر المظلوم من الظالم، وكيف يستعيد المظلوم حقّه ومكانه في التأريخ، وكيف ينتصر المستضعفون من المستكبرين ويستعيدون مواقعهم في الحياة، وكيف ينتصر الدم على السيف، والحقّ على الباطل، وكيف يرزق الله القلّة المستضعفة التي تخاف أن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

يتخطفها الناس على الكثرة القويّة من المستكبرين وأضرابهم وجنودهم؛ والشهادة تعلمنا كيف نكسر الأغلال والقيود من أيدينا، ونتمرد على إرادة الذين يريدون أن يسلبونا الأمن والإرادة والقدرة؛ والشهادة تعلمنا كيف نعيش أحراراً، وكيف نتحرر من القيود والأغلال، وكيف نسترجع كرامتنا وحريتنا ومواقعنا ومراكزنا على وجه الأرض، وكيف نتحول من عبودية الطغاة والمستكبرين إلى عبودية الله ربّ العالمين.

الشهادة: عقيدة، وإيمان، وحبّ، وعطاء، وتضحية، وإيثار في سبيل الله، وإخلاص، وإقدام، وشجاعة، وحياة جديدة، وحاشا أن تكون الشهادة عقيمة أو تكون موتاً كما يفهم الناس الموت.

الطاقة الحركية لدم الشهيد:

للدم قابلية كبيرة في تحريك الضمائر الخاملة، ولا تهتز الضمائر الميّتة والخاملة لأمرٍ كما تهتز للتضحية والدم.

إن التضحية توقظ العقول، وتنبّه الضمائر، وتحرّك النفوس، وتهز الإنسان من الأعماق، وتبعث فيه الحياة، وتفتح مغاليق القلوب؛ وتشرح الصدور، وتفجّر كلّ الطاقات الخيرة الكامنة في نفس الإنسان، وتقتلع الإنسان من مستنقع الحياة الراكد، وتدفعه إلى قمم الحياة العليا، وتمزّق حجب التعلّق بالدنيا من على عينيه، وسمعه، وفؤاده، ليفتح أمامه آفاق الحياة الواسعة والتي تمتد إلى مرضاة الله؛ ذلك أن الإنسان بفطرته ينزع إلى الله تعالى ومرضاته. وليست حقيقة الإنسان هي هذه الكتلة من الأعصاب والعظام واللحم والجلد والغرائز والشهوات فقط.

إلّا أن التعلّق بالحياة الدنيا، وأعراضها القريبة، ومتاعها يحجبه عن تلك الأهداف والغايات العليا فتحبسه الحياة الدنيا وتعلقاتها وتثقله، كما تثقل الجاذبية الأشياء، فتعيق تحركه وصعوده؛ والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق: ﴿...مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

وكأنّ التعلّق بالحياة الدنيا يثقل الإنسان، ويجرّه إلى الأسفل (الأرض)، ويعيق تحليقه

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

إلى الله تعالى، ويرضيه من تلك القمم الرفيعة والآفاق الواسعة في الآخرة بهذا العرض الزائل القريب من الدنيا: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ...﴾.

ولكي يحلّق الإنسان ويرتفع لا يحتاج كثيراً إلى زخم أو دفع، وإنّما يحتاج إلى من يمزّق عنه هذه الحجب التي تحجبه عن الآخرة، ويحرّره، ويكسر عن يديه ورجليه هذه الأغلال التي تعيق تحركه، فيفتح عليه آفاق الآخرة، ويطلق يديه ورجليه للتحرك.

ودم الشهيد لـه هذا الدور الكبير في حياة الناس، إن دم الشهيد يزيل الخوف عن القلوب الضعيفة، ويقضي على رهبة الموت، ويعطي للموت معنى الانتقال إلى لقاء الله تعالى، ويهبه نكهة لقائه. إن دم الشهيد يرفع من قيمة الموت إلى قمة لقاء الله تعالى، ويضع من قيمة الحياة الدنيا حتّى لا تعد تستهوي أحداً من المؤمنين، إلّا بقدر ما يكون متجراً للآخرة وطريقاً إليها.

وأكثر ما يعيق حركة الإنسان إلى الله تعالى الخوف من الموت والتعلّق بالدنيا، فإذا حلّ محله الإقبال على لقاء الله: (الشهادة)، والزهد في الدنيا (بالمعنى الإيجابي من الزهد) تغيّر وجه الحضارة والتاريخ.

إن التضحيات الكبيرة تمزّق حجب التعلّق بالدنيا عن عيني الإنسان، وتفتح عينيه فجأة على الآفاق الواسعة المترامية من وراء هذه الحجب...

إن هناك من وراء هذه الحياة اليومية الرتيبة، بما تحتويه من تجارة وعمل ومعيشة ومعاشرة ومشاكل صغيرة، وخلافات وحساسيات، وصراعات... ـ أنَّ هناك من وراء هذا المستنقع ـ آفاقاً واسعة وقمماً عالية لتحرك الإنسان وصعوده، تكشفها تضحية الشهداء ودماؤهم، وكأنّ الإنسان كان في غفلة منها في حياته اليومية، فينبهه إليها الشهداء بتضحياتهم.

فدم الشهيد إذن يبعث الحياة والتحرك من جديد في المجتمع، ويمنح النور، والرؤية، والبصيرة للقلوب التي تبلّدت في الحياة الدنيا.

وعندما يمتلك الإنسان الرؤية الكافية ينكشف له الهدف والغاية، فيسعى إليه ويتحرك نحوه. فدم الشهيد إذن يمنح الإنسان الرؤية والهدف والتحرك وفي مساحة واسعة من المجتمع، ويخلق من الأجواء الخاملة، والبليدة أجواءً حركية وثورية.

ولذلك فليس في دم الشهيد خسارة إطلاقاً، حتّى بالمعنى المادي من الخسارة، بل الدم ربيح دائماً حتّى بالمعنى التجاري للربح؛ ذلك إن الشهيد، وإن كان يرحل عنا، ونخسر به عنصراً فاعلاً مخلصاً؛ إلّا أن تضحية شهيد واحد وإيثاره بنفسه يخلق روح الإيثار والتضحية

عند العشرات من الناس، ويكون قدوة لهم في الإيثار والتضحية، ويبعث القوّة والفاعلية والإخلاص في نفوسهم؛ فالشهادة موت للفرد وولادة للأُمّة، ومثل هذا الموت مربح ولن يُعدُّ خسارة حتّى في الحسابات التجارية من الربح والخسارة.

دم الشهيد يوسع رقعة التضحية داخل الأُمّة:

إن تنامي موجة الاستعداد للتضحية والإيثار في الثورة الإسلامية المعاصرة ـ وعلى مساحة واسعة جداً ـ دليل واضح على خصوبة الشهادة وعطائها؛ فلقد بدأ الوعي الإسلامي يتنامى في هذه المنطقة، يرافقه الاستعداد للتضحية والشوق إلى الشهادة في سبيل الله، إلّا أن هذا الاستعداد والشوق كان ضمن رقعة اجتماعية محدودة، هي المساحة الواعية من هذه الأُمّة، وواضح إن المساحة الواعية من الأُمّة، والتي انطلقت منها الحركة في مواجهة الطاغوت ـ كانت مساحة محدودة جداً ـ ، ولكن كلما كان يزداد عدد الشهداء في الساحة الإسلامية كانت تتسع رقعة الاستعداد للتضحية والشهادة، وتجاوز الاستعداد للتضحية المساحة الواعية التي انطلقت منها الحركة والثورة إلى الشارع، وارتفع ابن الشارع والريف في حركة نامية سريعة إلى مستوى الاستعداد للتضحية والشهادة.

ومعنى ذلك أنّ دماء الشهداء استطاعت أن توسع رقعة الوعي والتحرك والإيثار والتضحية والشهادة خلال هذه المدّة القصيرة بدرجة عالية جدّاً، تفوق تصوراتنا الحسابية، وهذا النمو المتصاعد لحركة الإيثار والتضحية داخل الأُمّة من أهم مصاديق الضمان الإلهي لإنجاح رسالة دم الشهيد وقضيته.

دم الشهيد يحسم الخلاف ويقطع التردّد:

ودم الشهيد يقطع طريق العودة على المهزومين سياسياً وفكرياً، إنّه أداة الحسم في القضية الإسلامية فكرياً وسياسياً وعسكرياً، وقبل أن يصبغ الشهداء ساحة المواجهة بدمائهم، تتوفر الفرص بشكل واسع دائماً للصلح والتفاهم مع الكفر، والنزول عن المبادئ والحلول النصفية لترضية أئمة الكفر.

أمّا عندما يراق دم الشهداء في الساحة فإن الأمر يختلف تماماً، وتنقطع الجسور بين هاتين الجبهتين، وتبقى المبادئ هي سيدة الموقف.

والمجتمع الإسلامي لا يخلو ـ على كل حال ـ من حالات الضعف التي تدفع المجتمع

غالباً باتجاه الترضية والتفاهم، وتجنب المواجهة إيثاراً للعافية والاستقرار، تحت غطاء من التبريرات الشرعية والسياسية، ولو لا دم الشهيد لكان هذا الاتجاه هو الاتجاه السائد والغالب، إلّا أنّ دم الشهيد يستلم الموقف السياسي والعسكري دائماً بالحسم، ويشكّل في المجتمع الإسلامي بؤرة القوّة والثورة في مقابل بؤرة الضعف التي أشرنا لها.

ولا نذهب بعيداً في أعماق التاريخ، فالثورة الإسلامية المعاصرة في إيران بمعطياتها الثورية والسياسية في متناول أيدينا، ولم تغب عنا أحداثها بعد، لقد كانت قيادة السيد الخميني ﷺ حاسمة منذ المراحل الأُولى للثورة، وكانت هذه القيادة تتجه من الأول باتجاه إسقاط النظام ـ مرة واحدة ـ وإقامة الحكم الإسلامي وبصورة قاطعة، ولكن المساحة الواسعة من الأُمّة لم تكن بهذا المستوى من التفكير الحازم، وكانت هناك قطاعات كبيرة من الأُمّة تميل إلى التفاهم مع النظام، للمحافظة على النظام والإسلام معاً بقدر الإمكان، وتجميع النظام القائم والإسلام (في الحد الأدنى) وكانوا يعتقدون بضرورة إيقاف الثورة عندما يتحقق الحد الأدنى من المصلحة للإسلام.

وبدأ (الشاه) في أُخريات أيّامه يميل إلى هذا الرأي، ويعتقد بضرورة تقديم تنازلات شكلية ومؤقتة للثورة، للإبقاء على عرشه ريثما تتم له فرصة الانقضاض من جديد على الإسلام، ولو كان يحدث شيء من هذا القبيل لحلّت بالإسلام كارثة، يصعب علينا تقدير سلبياتها وأضرارها الآن.

وقد كان لدماء الشهداء رضوان الله عليهم دور حاسم ومصيري في هذه المرحلة من حياة الثورة، قطعت الطريق على الحلول النصفيّة الضعيفة، وقطعت جسور التفاهم مع النظام، وصادرت كلّ الحلول المطروحة للترضية والتفاهم.

وكلّما كان يكثر عدد الشهداء في الساحة كانت ترتفع درجة مقاومة الثورة وقدرتها على المضي والاستمرار، وكانت الفجوة بين الجبهتين تتسع أكثر من ذي قبل، وتقل فرص اللقاء والتفاهم الذي كان الجناح الوطني لا يخفي رغبته إليه، حتّى بلغ الأمر حداً لم يكن من الممكن اللقاء والتفاهم مع الشاه، على كل المستويات الاجتماعية المواكبة للثورة، وانقطعت الجسور بصورة نهائية، ولم يعد لأحدٍ أمَلٌ معقول من الناحية السياسية، في إمكانية الإبقاء على الشاه، حتّى السفير الأمريكي في طهران، فقد كان يراسل حكومته ليؤكد لهم أن فكرة المحافظة على الشاه في الظروف الموجودة في إيران لم يعد إلّا وهماً سياسياً وسراباً خادعاً...

ومن الأفضل لأمريكا أن تعيد النظر في حساباتها السياسية تجاه قضية إيران، لتفكر تفكيراً واقعياً ينسجم مع الواقع الإسلامي القائم في إيران.

وبالتأكيد كان لدم الشهداء الدور الكبير البارز والفاعل في الحسم السياسي في هذه المرحلة الحساسة والمصيرية من التأريخ، إلى جانب الموقف التأريخي الحاسم الجريء الذي كان يمتلكه الإمام في مواجهة الأحداث.

وليس هذا فقط، بل كان لدم الشهداء رضوان الله عليهم في ساحة المواجهة دور في قطع طريق العودة على أمريكا وحلفائها إلى إيران من خلال المؤامرات العسكرية والالتفافات السياسية، لقد كان من الممكن أن تفكر أمريكا ـ بعد أن فقدت الأمل في المحافظة على الشاه ـ في مؤامرة عسكرية من خلال العناصر الموالية لها من العسكر، لكن التضحيات الكبيرة التي قدمتها الأُمّة في مواجهة النظام، بقيادة الإمام قطعت الطريق عليهم أيضاً، فلم يكن من الممكن أن تسكت الأُمّة ـ بعد تلك التضحيات والدماء المباركة ـ عن بديل أمريكي آخر، مقنّع بقناع جديد من الديمقراطية والوطنية والدين، من خلال حركة العسكر أو حركة السياسيين القدامى.

لقد منحت دماء الشهداء في (ساحة الشهداء) في طهران وفي سائر سوح المواجهة هذه الأُمّة الوعي والذكاء السياسيين والحذر من لعبة تبديل الأقنعة والوجوه وقوة الحسم في الموقف.

وهذه جميعاً وغيرها هي الأدوات التي يضمن الله تعالى بها قضية دم الشهيد والتي تساهم ـ بإذن الله ـ في إنجاح رسالة الشهيد. فدم الشهيد إذن يقود المسيرة الحضارية باتجاه المواقف القوية والحاسمة، ويفتح مغاليق القلوب المعتمة والمنغلقة، ويفجر الطاقات الكامنة في أعماق النفوس، ويهب النفوس البليدة والضعيفة ذكاءً ووعياً وقوةً... ولا شكّ أنّ هذه النقاط المضيئة في دم الشهيد جميعاً مواضع يهبط عليها نصر الله تعالى وتأييده.

الإمداد الغيبي والضمان الإلهي لدم الشهيد:

وبعد فليس معنى ما ذكرنا من نقاط حسيّة لهبوط النصر والتأييد من الله تعالى أن الضمانة الإلهية لقضية الشهداء تنحصر في هذه النقاط، فإن دائرة الإمداد الإلهي الغيبي لدم الشهيد أوسع من هذه الدائرة الحسية التي رسمناها هنا، ومصادر النصر ومنابعه في خزائن رحمة الله

تعالى لا تنحصر فيما ذكرنا من نقاط ووجوه، فإن خزائن رحمة الله تعالى ونصره وتأييده لمسيرة الشهداء واسعة وكثيرة لا يحددها ما ذكرنا من أسباب وأساليب.

فقد نصر الله تعالى أنبياءه بطرق غيبية لا تنالها يد الإنسان وقدرته، فنصر الله تعالى نوحاً عليه السلام ففجر الأرض ينابيع، وأنزل من السماء أمطاراً غزيرة وأغرق قومه الذين كذبوه:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

ولقد أرسل الله تعالى على قوم عادٍ ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر، فأبادتهم وأهلكتهم.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾[3].

وأمر الله تعالى الملائكة أن ينزلوا إلى ساحة بدر لنصرة المسلمين وتثبيتهم:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[4].

وكذلك يثبت الله عباده الصالحين في المواجهة مع الكافرين، وعلى أرض المعركة، ويضمن الله تعالى في هذه المواجهة الحضارية العنيفة أن العاقبة للمتقين:

﴿...إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

وعلى نحو من ذلك نفهم نحن الضمان الإلهي لدم الشهيد وهذه الضمانة الإلهية جزء من هذه الحقيقة والسنّة الإلهية الشاملة في تأييد ودعم ونصر المؤمنين المتقين، و(الثأر) لدماء الشهداء.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١١ ـ ١٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٥.

(٣) سورة القمر، الآيات: ١٩ ـ ٢١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

ثأر الله

رحلة الشهادة في القرآن الكريم

في سورتي التوبة وآل عمران

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾[١].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢].

يشير القرآن الكريم إلى هذه النقلة الإيمانية في حياة المؤمنين من محور الأنا إلى محور الله في أروع صورة وتمثيل، في آيتي التوبة وآل عمران. وسوف نتوقف وقفة تأمّل وتفقّه عند كل من هاتين الآيتين إن شاء الله:

رحلة الشهادة في آية (التوبة)

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[٣].

آية القتال في سورة التوبة تعبّر عن تجرّد الإنسان عن ذاته وعلاقاته لله تعالى باستخدام تعبير البيع والشراء، وهو تعبير ينطبق على الموضوع الذي نحن بصدده بشكل دقيق.

وكلّ بيع يتطلب أُموراً خمسة: المشتري، والبائع، والثمن، والمثمن، ووثيقة البيع. والمشتري: هنا هو الله عزّ اسمه؛ والبائع: الإنسان؛ والثمن: الجنة؛والمثمن: هي النفس

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١١١ ـ ١١٢.

وعلاقاتها ومتعلقاتها، ولذّاتها وغرائزها، وحبها، وبغضها، وميولها؛ ووثيقة البيع: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

البيع والشراء:

ويستوقفنا هنا هذا التعبير الرائع: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم...﴾. إنّ المؤمنين يبيعون أنفسهم وأموالهم لله، والله يشتري منهم أنفسهم وأموالهم، وليس للبائع ـ بعد أن يتخلى عن نفسه وعن الأنفس العزيزة عليه وعن ماله لله، ويقبض الثمن ـ أن يتراجع أو يتردد في تسليم البضاعة، أو يتحفظ في التسليم، أو يستقطع منها شيئاً، أو تحنّ نفسه إلى شيء منها، فقد باع، وقبض الثمن، ولا خيار ولا رجوع ولا عودة ولا استقطاع.

وعملية البيع هنا شاملة، ومستوعبة، لا تترك للإنسان شيئاً: ﴿...أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم...﴾ والأنفس هي أنفس المؤمنين، والأنفس العزيزة عليهم، من أبناء وأزواج وأُخوة وأعزاء؛ والأموال هي كلّ ما يملكونه من متاع وعقار ونقد. فلا تبقى لهم بقية في هذه الدنيا يتعلّقون بها، أو تحنّ إليها نفوسهم، ما داموا قد قبلوا البيع، وأتموا الصفقة، وقبضوا الثمن، فهي عائدة جميعاً لله، يتصرف بها كيفما يشاء، وكما يحبّ وكما يريد، وليس للمؤمن أن يتلكأ في التسليم، والعطاء، أو يتردد، فإنّ عملية التخلّي عن الأنفس والأموال تتم طواعية باختيار الإنسان ورغبته. وقيمة هذه العملية في أنّها تتم باختيار الإنسان ورغبته، ومن المعيب أن يُتمّ الإنسان صفقة بيع، ويقبض الثمن ثم لا تسمح له نفسه بالتخلّي عن البضاعة أو يتردّد في تسليمها أو تساوره نفسه بالفسخ والتراجع.

النقلة الكاملة:

وعملية البيع ـ وهذا هو موضع استشهادنا بهذه الآية الكريمة ـ تعبّر عن كلّ المسيرة والرحلة، وتطوي كلّ المسافة الفاصلة بين المحورين: محور (الأنا) و(المحور الإلهي)، فيتخلى المؤمن عن نفسه ومشتهياتها، وعلاقاتها، ولذاتها ومتعها، وعن كلّ علاقاته في هذه الدنيا لله تعالى، بصورة كاملة، وينتزع نفسه من هذا المحور انتزاعاً كاملاً، لينقلها إلى المحور الآخر وليضعها تحت سلطان الله تعالى وأمره ونهيه.

وهذه النقلة أو البيعة هي كلّ المسيرة الإنسانية إلى الله. والمؤمنون يطوون كلّ تلك الرحلة الطويلة والشاقة بهذه البيعة.

أمثلة عن النقلة الكبرى في حياة المسلمين الأُولى:

ولقد كان المسلمون في صدر الإسلام يتلقون هذه الحقائق والآيات من كتاب الله ويفهمونها بوضوح وبساطة، ومن غير تعقيد أو التواء، وتتحول هذه الآيات والمفاهيم القرآنية الجديدة في نفوسهم إلى وعي عميق، وإيمان وسلوك.

وإليكم بعض الصور المشرقة من هذا التأريخ:

١ - في بيعة العقبة الثانية وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، اجتمع رجال الأنصار إلى رسول الله ﷺ عند العقبة لمبايعته ﷺ والاتفاق معه على قرار بخصوص الهجرة والنصرة، فقال عبد الله بن رواحة رحمه الله للنبيّ ﷺ: اشترط لربّك ولنفسك ما شئت.

فقال النبيّ ﷺ: اشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم.

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟

قال: الجنّة.

قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[١].

فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾[٢].

٢ - وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ فكبّر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار، ثانياً طرفي ردائه على عاتقه؛ فقال:

يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم. فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل[٣].

٣ - وصورة ثالثة من هذا التفاعل المباشر والفهم الواضح الصافي لمفاهيم الإسلام وتصوّراته الجديدة على حياة الناس وهي ما جاء عن عبادة بن الصامت: أنّ أسعد بن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨: ٢٦٧.

(٢) بناءً على أن تكون الآية مكية والأرجح أنها مدنية.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٨٠.

زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة، فقال: أيّها الناس هل تدرون علامَ تبايعون محمّداً ﷺ؟

إنّكم تبايعونه على أن تحاربوا العربَ والعجم والجنَّ والإنس كافة.

فقالوا: نحن حرب لمن حارب، وسلم لمن سالم.

فقال أسعد بن زرارة: اشترط عليّ.

فقال ﷺ: تبايعوني على أن تشهدوا أن لا اله إلّا الله وأنّي رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الأمر أهله، وتمنعوني مما تمنعون أنفسكم وأهليكم.

قالوا: نعم.

قال قائل من الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول الله. فما لنا؟

قال: الجنّة والنصر[١].

٤ ـ وصورة أُخرى: وهي ما أخرجه ابن سعد عن الشعبي قال: انطلق النبيّ ﷺ بالعباس بن عبد المطّلب، وكان ذا رأي، إلى السبعين من الأنصار عند العقبة، فقال العباس: ليتكلّم متكلّمكم، ولا يطيل الخطبة، فإن عليكم للمشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم.

فقال قائلهم وهو أبو أُمامة أسعد: يا محمّد سَلْ لربّك ما شئت، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله، وعليكم، إذا فعلنا ذلك؟

فقال ﷺ: أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤونا، وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم.

قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: (الجنّة). فكان الشعبي إذا حدّث هذا الحديث قال: ما سمع الشيب والشبان بخطبة أقصر ولا أبلغ منها[٢].

ولهذه الصور أمثلة كثيرة في تأريخ الإسلام، عن التفاعل المباشر مع مفاهيم وتصوّرات الإسلام، والانصهار والذوبان الكامل في هذه المفاهيم، والتصوّرات، والفهم الواضح لها.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لقد كان المسلمون الأوائل يفهمون هذه الآية الكريمة بهذه البساطة والوضوح، ويتفاعلون معها بمثل هذه القوّة والعزم، ولعلّنا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنّ أبناءنا من هذا الجيل بدؤوا يستعيدون تلك البساطة والوضوح في فهم آيات الله؛ وأحداث الثورة الإسلامية المعاصرة في إيران والعراق ولبنان. وجبهات القتال الدامية مع النظام العراقي السفّاح شاهدة على هذه الحقيقة[١].

تكريم الإنسان بالبيع والشراء:

ومن عجب في هذا الشراء أنّ الشاري سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، وله الإنسان وما بيده، وله أن يتصرف في كلّ ذلك من غير بيع ولا شراء ومن غير سؤال ولا استئذان، والعبد وما في يده لمولاه.

ولكنّه ﷻ شاء أن يُكرم هذا الإنسان، ويرفعه إلى موضع التعاقد والمبايعة معه، وذلك تكريم من لدن الله تعالى لعباده بما يناسب لطفه وكرمه بهم؛ وقد كان الحسن إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ قال: «أنفس هو خلقها وأموال هو رزقها»[٢].

فهو سبحانه خلق الإنسان وخلق له ما شاء من الطيّبات وتلك كرامة، ثم ملّكه ذلك، وتلك كرامة أُخرى، ثم اشترى منه ما وهبه وما ملّكه، وتلك كرامة ثالثة يرفعه بها إلى موضع التعاقد والمبايعة معه، ثم جعل ثمن ما يأخذه منه من المتاع الفاني: الجنّة والخلود في رحمته ورضوانه وتلك كرامة رابعة.

والعطاء جميل على كلّ حال ولكن أجمل العطاء وأفضله ما يقترن بالتكريم وقد قرن الله تعالى عطاءه لعباده بالتكريم وتلك غاية في الكرم والتكريم، والحمد لله ربنا الذي أكرمنا بكل هذه الكرامات وأكرمنا بالإسلام والتقوى.

البيعة:

والبيع والشراء من الله يستدرجنا للحديث عن مصطلح إسلامي عريق يتصل بهذا المفهوم من قريب وذلك هو (البيعة).

---

(١) كتب هذا البحث أيّام الحرب التي فرضها حزب البعث على الجمهورية الإسلامية بتوجيه من الاستكبار الأمريكي.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٣٠٣ ح٥٠ ط. دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٩.

والبيعة مشتقة من مادة البيع، ولا نعلم ما إذا كان لـه في الجاهلية أصل قريب أم لا؟ إلّا أنّ الإسلام اتّخذ هذه الكلمة مصطلحاً للالتزام والتعهد الكامل بالطاعة من قبل الأُمّة للإمام فيكون معنى الكلمة الالتزام الكامل بالطاعة.

وذكروا في المناسبة التي اقتضت تسمية هذا الالتزام بالبيعة أنّ العرب كانوا إذا تبايعوا تصافقوا وضرب أحد المتبايعين بكفه على كف الآخر، وكان ذلك علامة رضاهما بالبيع والتزامهما به.

وقد أمضت السُنّة هذه الطريقة في التعبير عن التعهد والالتزام بالطاعة تجاه الإمام؛ فكان المسلمون إذا بايعوا رسول الله استلموا كفّه إيذاناً بالالتزام بالطاعة، ويسمى هذا الالتزام بهذه المناسبة: بيعة ومبايعة؛ ومن غير المستبعد أن تكون المناسبة في هذا المصطلح أنّ هذا الالتزام من مقولة البيع، ففي البيع يتخلى البائع عن المتاع الذي يملكه بشكل كامل في مقابل ما يتلقاه من الثمن، وإذا وجب البيع فلا يحق له أن يتراجع عمّا أمضاه.

وكذلك الأمر في الالتزام بالطاعة (البيعة) فإن المرء إذا دخل البيعة والتزم بالطاعة فليس لـه أن يتراجع أو يتخلى عن عهده والتزامه؛ فقد أمضى البيع وقبض الثمن (الجنة) وأعطى الله ماله ونفسه، والأنفس العزيزة عليه، فلا يحق لـه أن يتراجع أو يتردد أو يفسخ الالتزام؛ ورحم الله ذلك الرجل الأنصاري الذي قال لرسول الله ﷺ: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

البيعة التجرّد الكامل عن الأنفس والأموال:

إنّ حقيقة البيعة التخلّي الكامل عن الأنفس والأموال والالتزام الكامل بالتسليم والطاعة وفي مقابله الثمن الكبير وهو الجنّة؛ فإن حقيقة الطاعة هي (الولاء) والتسليم لله، ولا يتمّ الولاء لله والتسليم لأمر الله ورسوله والانقياد والطاعة لهما إلّا عندما يتخلّى الإنسان المسلم عن كلّ شيء يتعلق به من الأنفس والأموال، ويتجرد من ملكية كلّ شيء وضعه الله تحت تصرفه وملكه، ولا يرى لنفسه حقّاً في شيء منه ويرى أنّ الله ورسوله أولى بهما منه، وهي عنده وديعة إلى حين يسترجعها الله تعالى منه وهذا هو جوهر البيعة؛ وعجيب أمر هذه الوديعة الإلهية، وعجيب كرم الله تعالى وفضله ورحمته بعباده.

فما بأيدينا من الأنفس والأموال لله تعالى وليس لنا منه شيء، أودعها عندنا وهو أولى بها، وهو خالقها ومالكها، ثم يشتريها من عباده بعد ذلك، ويعدهم بالجنّة ثمناً لها، ثم يودعها لدينا إلى حين الدعوة والطلب.

ثم إذا شاء بعد ذلك أنْ يسترجع وديعته قال عزّ من قائل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ...﴾[١] سبحانك ما أكرمك، وأكرم عطاياك! وما أجملك وأجل أسماءك وصفاتك الحسنى! وما أبخلنا وألأمنا فنحن عبادك الذين نضن بأنفسنا وأموالنا عنك! فتول اللهم لؤمنا بكرمك وشحنا برحمتك.

البيعة ميثاق (الدعوة) والدولة:

والبيعة ميثاق، وهذا الميثاق يحمّل الإنسان المسلم مسؤوليتين كبيرتين:

الأولى: مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى والقيام بأعبائها وتحمّل الخسائر المترتبة عليها وتوطين النفس لذلك.

الثانية: مسؤولية الدولة الإسلامية وبناؤها والدفاع عنها.

وهاتان المهمّتان شاقتان عسيرتان ولا ينتهي دور الإنسان ومسؤوليته تجاه الإيمان بالله وبرسوله ما لم يتعهد أمر الدعوة والدولة معاً؛ وهذه المهمة المزدوجة هي أساس معاناة وابتلاء ومتاعب الأنبياء عليهم السلام، فلن تستقر الدعوة، ولن تتمكن من العقول والقلوب والحياة من دون التصدي والمواجهة ولن تشق طريقها إلّا على أنقاض الدعوات الجاهلية وعلى أجساد الطغاة والجبابرة الذين يحولون بين الناس والاستجابة لدعوة الله.

وما يقال في الدعوة يقال في الدولة بشكل أقوى وأوضح، فإن (الدولة) هي سيادة الدعوة وسلطانها على الأرض وكلمتها النافذة، ولا تستطيع الدولة أن تفرض سلطان الدعوة على الحياة الاجتماعية، دون أن تواجه صنوفاً من العقبات والتحديات، وهذه المواجهة في طريق تمكين الدعوة والدولة وتذليل العقبات تتطلب البذل والتضحية والصبر، وتوطين النفس لكلّ ذلك من قبل الأُمّة حاملة رسالة الدعوة والدولة؛ فلابدّ من مبايعة قائد المسيرة على البذل والعطاء والتضحية والفداء، وأن يجاهدوا خفافاً وثقالاً، وإلّا يعيقهم عن الجهاد في سبيل الله الأزواج والبنون والأموال والتعلقات والمواقع، وأن يتجردوا لله تبارك وتعالى من كلّ ارتباط وتعلّق عدا الارتباط بالله والتعلّق بالدعوة وهمومها وآلامها.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

البيعة طاعة وتضحية:

ولابُدّ في البيعة من أمرين:

١ - الطاعة والانقياد.

٢ - التضحية والعطاء.

قال ابن عمر: «كنّا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة»[١].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ وأكره، إلّا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٢].

وعن يزيد بن أبي عبيد مولى سلمة بن الأكوع قال قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟

قال: على الموت[٣].

فلا تستقيم الدعوة ومسيرتها، ولا تحقق أهدافها من دون هذين الأمرين.

والطاعة والتضحية أمران متلازمان وهما يساويان التخلّي الكامل عن النفس ورغباتها ومشتهياتها لله تبارك وتعالى؛ والجنّة هي الثمن الذي يتقاضاه الإنسان المؤمن إزاء ذلك.

آية البيعة:

والبيعة بهذا المحتوى الرفيع لن تكون إلّا مع الله تعالى، وأمّا الذين يبايعون النبيّ ﷺ فإنّما يبايعون الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

فلا تكون البيعة بالمحتوى الذي شرحناه مع طرف آخر غير الله، ولا يصح أن يتجرّد الإنسان ممّا آتاه الله تعالى لغير الله.

وكلمة «إنّما» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ...﴾ ذات دلالة عميقة؛ فهي تأتي لحصر البيعة والولاء بالبيعة لله تعالى ونفي أية بيعة أُخرى غير البيعة لله.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأحكام: باب البيعة، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب البيعة على السمع والطاعة ٦: ٢٩. دار الفكر.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٧ و١٤٢.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام ٦: ٢٧. دار الفكر.

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.

﴿...يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾ إن اليد التي يصافحونها في البيعة وإن كانت يد النبيّ ﷺ ولكنها تمثل يد الله، وعلوها من علو يد الله، وهذه الجملة تقرر عدة حقائق إيمانية وسياسية في وقت واحد، فلابدّ في هذه البيعة من يد أعلى فوق أيديهم، ومن دون هذا العلو لا تتم الولاية والبيعة والطاعة. ولابدّ أن يكون هذا العلو علوّاً حقيقياً، فاستعلاء بعض الناس على بعض ليس من ذلك، وإنّما هو من الاستكبار الذي يمقته الله تعالى.

و«يد الله» هي العليا في هذه البيعة ﴿...يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾ وهي وحدها الحَرِيّة بالبيعة والطاعة والولاء؛ أمّا يد النبيّ ﷺ فليست هي المقصودة بالذات في هذه البيعة، وإنّما المقصودة يد الله، وتكتسب العلو والولاية من الله، لأنها اليد التي تمثّل يد الله.

وهذه الحقائق بمجموعها ترسم لنا الأبعاد الكاملة لتوحيد الولاء، وهو بعد (توحيد الإيمان بالله) يعتبر الأساس والركيزة لبناء المجتمع الإسلامي، وتنظيم شبكة العلاقات داخل المجتمع؛ فالذي يتأمّل في نسيج (العلاقات) داخل المجتمع الإسلامي، سواء ما يتعلّق منها بالعلاقة بالله ورسوله وأوليائه والقيادة الإسلامية وهي (العلاقة العمودية) أو العلاقات التي تربط أعضاء المجتمع الإسلامي بعضهم ببعض وهي (العلاقات الأُفقية)... يجد أنّ هذه العلاقات تكوّن جميعاً شبكة واحدة ونظاماً واحداً يسمى بـ «الولاء»، وليست مجموعة من الشبكات والأنظمة، وأنّ هذه الشبكة الواحدة تنبع من مصدر واحد وهو الارتباط بالله تعالى، والولاء له (بمعنى الطاعة والنصرة والحبّ). ومن هذا المصدر تتشعب وتنبع العلاقات العمودية والأُفقية الأُخرى. وهذا هو الذي نقصده بتوحيد الولاء.

ولابدّ من هذه البيعة في كلّ جولة للدعوة، وفي كلّ مرّة تتصدى فيها الدعوة لإقامة الدولة وتتعرّض فيها الدولة لتحديات الجاهلية، وذلك لتعميق العلاقة بالقيادة وتعميق الإحساس بالمسؤولية الكبيرة في قيام الدعوة والدولة، وتوطين النفوس للطاعة والتضحية والتجرّد لله.

أربع بيعات في حياة رسول الله ﷺ:

وقد دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة أربع مرّات في حياته المباركة:

١ ـ بيعة العقبة الأُولى.

٢ ـ البيعة الكبرى بالعقبة أو بيعة العقبة الثانية.

٣ ـ بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة[(١)].

٤ ـ بيعة الغدير.

والبيعة الأُولى كانت تخص أمر التعهد بالدعوة والتزامها وتبنّيها، والبيعة الثانية والثالثة والرابعة، كانت تتعلق بأمر الدولة وبنائها وحمايتها.

البيعة الأُولى:

قال عبادة بن الصامت: «... بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه، من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفّارة لـه، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ﷻ، إن شاء عذّب، وإن شاء غفر»[(٢)].

البيعة الثانية:

قال كعب بن مالك: «خرجنا من المدينة للحج وتواعدنا مع رسول الله ﷺ بـ(العقبة) أواسط أيّام التشريق، وخرجنا بعد مضي ثلث الليل متسللين مستخفين، حتّى اجتمعنا في الشِعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فجاء رسول الله ومعه عمه العباس فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثم قال: أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون نساءكم وأطفالكم، فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحقّ لنمنعك مما نمنع به أُزُرنا (نساءنا). فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب.

فقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنّا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثمّ قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم»[(٣)].

قال ابن قتيبة: «كانت العرب تقول عند الحلف والجوار دمي دمك وهدمي هدمك، أي: ما هدمت من الدماء هدمته أنا».

---

(١) تراجع تفاصيل هذه البيعات في كتاب «معالم المدرستين» للعلاّمة المحقق السيد مرتضى العسكري ١: ٨٩ـ٨٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٧٥. ط. مصطفى البابي الحلبي.

(٣) سيرة ابن هشام ٢: ٨٤ـ٨٥.

البيعة الثالثة:

وهي بيعة الرضوان أو «بيعة الشجرة» في سنة سبع من الهجرة استنفر رسول الله ﷺ أصحابه للعمرة، فخرج معه ألف وثلاثمائة أو ألف وستمائة، ومعه سبعون بدنة، وقال: لست أحمل السلاح إنّما خرجت معتمراً، وأُحرم من ذي الحليفة، وساروا حتّى دنوا من الحديبية على تسعة أميال من مكة، فبلغ الخبر أهل مكّة، فراعهم واستنفروا من أطاعهم من القبائل حولهم، وقدموا مائة فارس عليهم خالد بن الوليد أو عكرمة بن أبي جهل، فاستعدّ لهم رسول الله ﷺ وقال: إنّ الله أمرني بالبيعة، فأقبل الناس يبايعونه على ألّا يفرّوا، وقيل بايعهم على الموت[١].

البيعة الرابعة:

وهي بيعة الغدير المعروفة، وفيها أخذ رسول الله ﷺ البيعة من المسلمين ـ وقد روي أنّهم يومذاك في غدير خم مائة وعشرون ألف شخص ـ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام من بعده بالإمامة وقيادة الدولة من بعده والحادث معروف يرويه عدد كبير من أرباب الحديث والسير والتأريخ.

(يقاتلون في سبيل الله):

نعود مرّة أُخرى للحديث عن آية الشهادة في القرآن: ﴿...يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ...﴾ وهذه ثلاث قضايا يقترن بعضها ببعض، لا يمكن تفكيكها وتجزئتها ولا يمكننا أن نفهمها فهماً صحيحاً إلّا بهذه الصورة المتّصلة، وضمن هذا الإطار الواحد الذي يرسمه القرآن ﴿...يُقَٰتِلُونَ...﴾ وتلك هي القضية الأُولى.

وفي سبيل الله وليس في سبيل الطاغوت، وعلى طريق الدعوة إلى الله. ومن أجل تقرير أُلوهية الله على وجه الأرض وبلوغ رضوانه ومرضاته، وتلك القضية الثانية في هذه الكلية.

وهذا الوعد بالجنّة، وهذه الدعوة إلى القتال وهذه المبايعة لا تخص الذين قاموا مع النبيّ الأُمي ﷺ لتطهير الأرض من الطاغوت وتقرير أُلوهية الله على وجه الأرض وإنّما هي سنة قديمة لله تعالى في عباده منذ التوراة والإنجيل، ومنذ حياة الأنبياء السابقين عليهم السلام إلى اليوم.

---

(١) امتاع الأسماع للمقريزي ٢٧٤ ـ ٢٩١. ويراجع ابن هشام ٣: ٣٣٠، ط. مصطفى البابي الحلبي. وقد نقلنا نصوص البيعة كلّها من كتاب معالم المدرستين عن المصادر التي أشرنا إليها في الهامش.

وشأن هذه الأُمّة اليوم شأنها في زمن موسى وعيسى عليهما السلام ومن قبلهما من الأنبياء والمرسلين، لن تنال رحمة الله ورضوانه إلّا بتحكيم أُلوهية الله، وحاكميته على وجه الأرض، ولن تحقق حاكمية الله على وجه الأرض إلّا من خلال هذه المعاناة والقتال والدماء: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ...﴾[1]، مسيرة واحدة مخضبة بالدم، منذ عهد موسى وعيسى عليهما السلام، ومن قبلهما من الأنبياء إلى أن يتولى المهدي من آل محمّد عليه السلام تطهير الأرض من رجس الطغاة وعبثهم وفسادهم وإلى أن تقوم القيامة، وينشر الناس للحساب وتلك القضية الثالثة في هذه الكلمة التي يعرضها هذا النصّ العجيب من كتاب الله تعالى.

حتمية القتال في مسيرة الدعوة:

ومن هذه النقاط الثلاثة نستطيع أن ندرك التصوّر الإسلامي الكامل لمسألة القتال، إنَّه ضرورة حتمية من ضرورات الدعوة إلى الله تعالى، ولا يمكن تفكيك مسيرة الدعوة إلى الله عنه، وهذه الضرورة والحتمية ليست قضية جديدة في مسيرة الدعوة، وإنّما هي ضرورة تأريخية وحتمية من الحتميات التأريخية للدعوة إلى الله.

فإنّ الدعوة إلى الله لا يمكن أنْ تشق طريقها على وجه الأرض إلى قلوب الناس وعقولهم، ولا يمكن أنْ تتحرك الدعوة إلى الله لتحرير عقول الناس وقلوبهم من «الإصر» و«الأغلال»، دون أنْ تواجه سخط الجاهلية وتحدّيها، وغضبها، ذلك أنّ الدعوة لا تتحرك في فراغ سياسي واقتصادي واجتماعي، وإنّما تتحرك في المساحة التي تحتلها الجاهلية من قبل، أو تريد احتلالها، وتتحرك على حساب نفوذ الجاهلية وسلطانها وطموحاتها في هذه المساحات، ولا يمكن أنْ تواجه الجاهلية تقدّم الدعوة ومسيرتها بالسكوت والاستسلام وأن تفسح الطريق لها.

إنّ الذين يتصوّرون أنّ الدعوة تتحرك في منطقة فراغ سياسية واجتماعية واقتصادية بعيدون عن الواقع وعلى درجة عالية من السذاجة والبساطة في فهم الأُمور، والأمر الواقع. إن الإنسان الذي تحرره الدعوة من الإصر والأغلال يخسره الطاغوت ولن يعود أداة طيّعة له، وموضعاً لاستثماره. وعليه فلا يمكن أنْ تتقدم الدعوة على وجه الأرض من دون أنْ تواجه تحدياً قوياً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

من الجاهلية، ومواجهة حادّة من الطاغوت ومعارضة بكل الوسائل الممكنة من قبل أقطاب الجاهلية وأئمّة الكفر.

وللجاهلية محاور وولاءات كثيرة، لكنها جميعاً تجتمع عند هذه النقطة في مواجهة محور الولاء لله، وتتناسى كلّ ما لديها من خلافات قديمة وحديثة، لمواجهة العدو المشترك الذي يصادر وجودها جميعاً.

إنّ الجاهلية فيما بينها ولاءات متعددة ومتقاطعة ولكنّها في مواجهة الإسلام كتلة واحدة وبراءة واحدة، وهذه الحقيقة تجعل من الجاهلية مواجهة واحدة صارمة وعنيفة لمسيرة الدعوة.

المواجهة المصيرية بين الإسلام والجاهلية:

هذا هو التصوّر الواقعي لمسيرة الدعوة والمواجهة الجاهلية لها، ولا تنتهي هذه المواجهة والتحدي الجاهلي إلّا عند التصفية الكاملة لحركة الدعوة والمصادرة الكاملة لإرادة الإنسان، والسيطرة الكاملة على كلّ مساحات الدعوة، والإنهاء الكامل لكلّ مواقع الدعوة إلى الله، وكلّ مواقع الاستجابة لدعوة الله تعالى وإلى هذه الحقيقة في بنية الجاهلية وتكوينها يشير القرآن الكريم: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا...﴾(١)، لا تتوقف الجاهلية إلّا عند تصفية هذه المراكز جميعاً: البيع، والصلوات، والمساجد، وكلّ موقع ومركز يذكر فيه اسم الله ويدعى فيه إلى الله تعالى.

ولا سبيل إلى إيقاف الجاهلية وصدّها عن العدوان وعن الفتنة في طريق الدعوة إلّا بالقتال والجهاد واستئصال الكفر والجاهلية ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ...﴾(٢).

فالقتال إذن ضرورة من ضرورات الدعوة، ولا يمكن أن تنطلق مسيرة الدعوة على وجه الأرض من دون قتال ودم، ولا يمكن أن تؤدي الدعوة رسالتها على وجه الأرض، دون أن تُعدّ الإعداد الكامل لهذه الحرب المصيرية والحضارية، ودون أن توطّن نفسها لهذه المواجهة العنيفة التي لا ترحم صغيراً ولا كبيراً؛ والتفكير في المصالحة والهدنة والتفاهم مع الجاهلية تفكير ساذج، وغير واقعي وغير مبدئي في نفس الوقت. فليس لنا مع الجاهلية، والطاغوت غير خيار واحد، وقرار واحد، وهو الاستمرار في القتال (ضمن مراحل العمل والحركة) حتّى يتم

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

القضاء الكامل على الجاهلية وبها يتم القضاء الكامل على الفتنة على وجه الأرض: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ...﴾، ولكن في تسلسل زمني، وضمن مراحل من العمل والحركة والجهاد.

ولابد هنا من توضيح على قدر كبير من الأهمية، وهو أننا لا نقصد بالجاهلية عامّة الناس ممن لا يؤمن بهذا الدين، وإنّما نقصد بالجاهلية التي يجب مقاومتها وإنهائها لتنتهي الفتنة على وجه الأرض أئمة الكفر، وأنظمة الاستكبار العالمي. وأمّا عامّة الناس فهم ضحايا الجاهلية وليسوا قادتها.

العلاقة العضوية بين أطراف الجاهلية:

إنّ الجاهلية المعاصرة كالجاهلية في أي وقت آخر ذات ولاءات ومحاور مختلفة، لكنها قبالة الإسلام تجمعها علاقة عضوية واحدة، وهذه الحقيقة التأريخية هي التي تفسر لنا كيف اجتمعت أميركا وروسيا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول الكبرى على دعم النظام العراقي في ضرب الثورة الإسلامية والكيد للدولة الإسلامية[1].

إنّ هذه المسائل السياسية تكشف عن طبيعة الجاهلية وارتباطها العضوي، ووحدة الموقف السياسي عندها في البراءة، وإن كانت هي في داخلها ذات محاور وولاءات متعددة ومتخالفة.

شراسة الجاهلية في صراعها مع الإسلام:

إنّ الفتك والبطش والشراسة من خصائص الجاهلية في صراعها مع الإسلام، وتحاول الكيانات الجاهلية في صراعها السياسي والعسكري مع الإسلام أن تتقنّع بقناع الإنسانية والأخلاق، فإذا طال الصراع واستنفذت الجاهلية وسائلها الممكنة، ووجدت نفسها في خطر حقيقي ألقت هذا القناع جانباً، وظهرت بكل بشاعتها للساحة وللرأي العام.

ويطول هذا الصراع ولا يمكن الوصول فيه إلى تفاهم أو مصالحة، ولا أمد للحرب غير سقوط الجاهلية ونهايتها وإخلاء الساحة الإنسانية لحركة الدعوة إلى الله؛ فالصراع هنا ليس صراعاً على أرض وماء أو حقل من حقول النفط وإنّما الصراع هنا (صراع حضاري) بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة وعمق.

---

(١) كتب هذا المقال في ظروف الحرب التي فرضها الاستكبار العالمي على يد حزب البعث على الجمهورية الإسلامية، وبين الشعبين المسلمَين في العراق وإيران.

وبكلمة موجزة جداً: إنّ الصراع هنا صراع الولاءات وليس صراع المصالح، حتّى يمكن فيه التفاهم، والصلح واللقاء.

الإيمان بالله يساوي التخلّي عن الأنفس والأموال:

ولابد أن نقف وقفة أُخرى عند كلمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم...﴾ فإنّ الآية الكريمة تقرّر قضية هذا البيع والشراء بصيغة الماضي، وليس بصيغة المضارع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ...﴾ من كلّ المؤمنين دون تخصيص.

إنّها لآية عجيبة حقّاً تهز الإنسان من الأعماق وتشعر الإنسان بعمق معنى الإيمان وبثقل الإيمان الكبير، فكلّ إيمان بيعة مع الله، وكلّ من آمن فقد باع نفسه لله وتخلّى عن نفسه وماله له تعالى من دون تردّد، إنّ القضية أعمق من الاستعداد للتخلي، انّه هو التخلّي بالفعل عن النفس، والمال لله، وهذا هو معنى (البيع) و(الشراء) وليس الاستعداد للتنازل عن الأنفس والأموال، وإنّما التخلّي الفعلي عن كلّ شيء يملكه لله تعالى من دون تردد، ولا تراجع، ولا نظرة إلى الوراء، فقد تمّ البيع وتمت الصفقة وحسم الأمر، فلا إقالة ولا رجعة.

وهكذا كان يفهم المسلمون الأوائل هذه الآية الكريمة عندما كبّروا لمّا تلا رسول الله ﷺ هذه الآية عليهم، وقال قائلهم: «بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل».

وثيقة البيع:

وأمّا الوفاء بالثمن ووثيقة البيع فإنّ الشاري هو الله تعالى وهو المتعهد بالثمن، ومن أوفى بعهده من الله؟

وإنّ المؤمن ليتصور هذا الثمن الكبير الباقي، لهذه البضاعة النافذة، ثم يعلم أنّ الله تعالى هو الذي يتولى الوفاء بهذا العهد فتمتلئ نفسه غبطة وراحة ويقيناً، ويطمئن قلبه بعهد الله تعالى وميثاقه.

ومن عجيب أمر هذا البيع والشراء وثيقة هذا البيع، فإنّ وثائق البيوع تختلف باختلاف أهمية درجة البيع وقيمته، وإذا كان المشتري في هذا البيع هو الله تعالى والبضاعة هي الأنفس والأموال والثمن الجنّة، فلابُدّ أن تكون وثيقة هذا البيع على قدر قيمته، وأعزّ الوثائق كُتب الله تعالى وألواح الوحي المرسلة إلى أنبيائه؛ ووثيقة هذا البيع من هذا النوع: التوراة والإنجيل والقرآن، وناهيك بها من وثائق تبعث الطمأنينة والثقة في أضعف النفوس.

ولأمر ما يأتي في هذه الآية الكريمة تأكيد الوثيقة في هذا البيع ويأتي ذكر المواثيق التي سجّل الله تعالى فيها عهده لعباده بالجنّة ويأتي قوله تعالى: ﴿...وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ...﴾.

فإنّ القلوب كلما تطمئن أكثر لوعد الله تُقدِم على هذه المبايعة مع الله بثقة ويقين أكبر. والضعف في الاطمئنان لا ينافي الإيمان؛ فقد يكون الإنسان مؤمناً ولكن لم يبلغ في تعامله مع الله تعالى درجة عالية من اليقين والاطمئنان، ومثل هذا الإيمان يشوبه الكثير من الضعف والتخلّف عند المبايعة والاستجابة لدعوة الله تعالى.

وأمّا عندما ترتفع درجة ثقة الإنسان بوعد الله تعالى إلى مستوى (الطمأنينة) و(اليقين) فإنّ الأمر يختلف بالنسبة إليه اختلافاً كبيراً وتكاد تكون (الجنّة) ثمناً مقبوضاً والبيع نقداً، وليس الثمن موعوداً.

إنّ الذين رزقهم الله الطمأنينة واليقين يرون وعد الله حاضراً ويرون الجنّة ماثلة أمام أعينهم، فلا يشكّون، ولا يتردّدون، ولا يحجمون، ولا يساورهم شكّ ولا ريب، ويقدمون على المبايعة مع الله، من دون خوف، أو تراجع، أو نظر إلى الوراء، ويقدّمون أنفسهم وأموالهم لله ببساطة وارتياح ومن غير معاناة.

روى مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

قال عمر بن حمام الأنصاري: يا رسول الله، جنّة عرضها السماوات والأرض؟

قال: نعم.

قال: بخٍ بخٍ.

فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ.

قال: لا والله يا رسول الله إلّا رجاء أن أكون من أهلها.

قال: فإنّك من أهلها.

فأخرج تمرات من قربه، فجعل يأكل منهن.

ثم قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة.

قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتّى قُتل»[١].

وروى مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: سمعت أبي، وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أبواب الجنّة تحت ظلال السيوف». فقام رجل رثّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتّى قُتل[٢].

بمثل هذه البساطة والثقة والطمأنينة كانوا يتعاملون مع الله تعالى.

وقد هازل برير عبد الرحمن الأنصاري (ليلة عاشوراء)، فقال له عبد الرحمن الأنصاري: ما هذه ساعة باطل! فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون؛ والله ما بيننا وبين الحور العين إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنّهم مالوا علينا الساعة[٣].

وخرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له يزيد بن الحصين: ما هذه ساعة ضحك يا حبيب!

قال حبيب: وأي موضع أحق بالسرور من هذا؟ ما هو إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم فنعانق الحور[٤].

روي عن جابر أنّ رجلاً قال (في ساحة المعركة): «أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال: في الجنّة. فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتّى قُتل»[٥].

والثمن هو الجنّة:

ثمّ إنّ الجنّة هي الثمن في هذه المبايعة ﴿...بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ ويستتبع الوعد بالجنّة البُشرى السارة التي يزفها القرآن إلى المجاهدين: ﴿...فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: الجنّة والبشرى والفوز العظيم.

---

(١) الجامع الصحيح لمسلم ٦: ٤٤، كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنّة للشهيد. دار الفكر ـ بيروت.
(٢) الجامع الصحيح لمسلم ٦: ٤٥، كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنّة للشهيد.
(٣) تأريخ الطبري ٦: ٢٤١.
(٤) مقتل المقرّم: ٢٣٨.
(٥) صحيح مسلم ٦: ٤٣.

وتنتهي الآية الكريمة مرّة أُخرى بالبشارة ﴿...وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنّ جو الآية يطفح بالبشرى والسرور والفوز، وهكذا يشعر الإنسان عندما يقرأ هذه الآية المباركة أنه ينتقل فيها من الجنّة إلى البشرى، ومن البشرى إلى الفوز العظيم، ومن الفوز العظيم إلى البشرى ثانية.

الفوز العظيم:

وأودّ أن أقف قليلاً عند هذه الكلمة ﴿...ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، فهو مصطلح محدد في كتاب الله والذي يتتبع مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يجد أنّها تستعمل في موارد متقاربة مفهوماً ومترابطة أو متحدة مصداقاً، فالجنّة من الفوز العظيم ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٨٩﴾[١]. والمبايعة مع الله من الفوز العظيم: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

وطاعة الله وطاعة رسوله (ولاية الله) من الفوز العظيم: ﴿...وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٣].

ورضوان الله وتبادل الرضا بين العبد وربّه من الفوز العظيم: ﴿...رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤].

ويطلق على الجنّة ورضوان الله معاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٥].

ويطلق على المغفرة والرحمة الإلهية، والوقاية من السيّئات ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٦].

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٦) سورة المؤمن، الآية: ٩.

وإجمال هذه المعاني: الرحمة والمغفرة الإلهية ورضوان الله وطاعة الله ورسوله (ولاية الله والجنّة).

وهذه النقاط كما هي واضحة تعتبر بمجموعها المحور الثاني الذي تحدثنا عنه في هذه التأملات في مسيرة الإنسان إلى الله والذي يقابل محور (الأنا) و(الذات).

وعليه فإنّ الثمن في هذه الآية الكريمة من جنس المبيع وهو (الفوز العظيم) وليس من نوع آخر كما في سائر البيوع، حيث يختلف المبيع عن الثمن وهذه من لطائف ورقائق القرآن في هذه الآية الكريمة.

فالفوز العظيم في الحقيقة هو التجرّد من محور الأنا والارتباط بمحور ولاية الله، والخروج من دائرة نفوذ سلطان الأنا والدخول في دائرة ولاية الله وطاعته ورحمته ومغفرته.

وهذا هو الفوز العظيم ـ في رحلة الإنسان الكبرى إلى الله ـ في الدنيا وفي الآخرة، وهو يشمل الإنسان في الآخرة كما يناله في الدنيا على نحو سواء.

والمتأمل في هذه الآية المباركة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1] يجد أنّ الفوز العظيم هو تحرر الإنسان وانطلاقه من أسر (الأنا) والشهوات وارتباطه بالله تعالى، وهو لا يخصّ الآخرة وإنّما يشمل الإنسان في الدنيا والآخرة.

فإنّ الجنّة هي الفوز العظيم، وهي مآل الفائزين برحمة الله، والمنزل الذي أعده الله تعالى لهم في الآخرة، فالفوز العظيم إذن هو مبايعة الله تعالى وتسليم الأنفس والأموال له وهو في نفس الوقت الثمن في هذا البيع[2].

صفة الذين باعوا أنفسهم لله:

ثم تصف الآية الكريمة هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله بأنّهم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

(١) سورة يونس، الآيتان: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) لست أُريد أن أقول إنّ الجنّة هي مبايعة الله تعالى وتسليم الأنفس والأموال لله، وانّما أُريد أن أقول: إنّ المبايعة لله هي الفوز العظيم فيتحد البيع والثمن؛ والجنّة هي الدار التي أعدها الله تعالى في الآخرة للفائزين الصالحين من عباده.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

تائبون عائدون إلى الله، أقلعوا عن الذنوب وفرّوا إلى الله تعالى.

عابدون حامدون شوقاً إلى الله تعالى، وأُنساً بذكره وعبادته، لأنّهم وجدوا الله أهلاً للعبادة فعبدوه وأهلاً للحمد والثناء فحمدوه.

وسائحون: وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الكلمة فقالوا: إنّها بمعنى الصيام، وقيل: إنّها بمعنى الجهاد، وقيل: إنّها بمعنى التأمل والسياحة الفكرية في آيات الله، وهو المعنى الذي أُرجحه هنا.

الراكعون الساجدون لله، والركوع والسجود أقصى درجات الخضوع والتذلل بين يدي الله يجسّدان حالة الخشوع والخضوع والإخبات والإنابة عند المؤمنين: ﴿...ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾ ﴿وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ...﴾.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الرقابة على تنفيذ أحكام الله ومراقبتها. وحفظ حدود الله هو تنفيذها، والالتزام والعمل بها.

فهؤلاء المجاهدون إذن منفّذون لأحكام الله، عاملون بحدود الله، وفي نفس الوقت يراقبون تنفيذها، ينفذون أحكام الله بأنفسهم، ويراقبون تنفيذها في حياة الآخرين، فهم يشعرون بالمسؤولية تجاه حدود الله وأحكامه في حياتهم وفي حياة الآخرين.

ثار الله

رحلة الشهادة في آية (آل عمران)

وفي سورة آل عمران نلتقي هذه اللوحة القرآنية الرائعة عن الشهيد والتي تستوقف الإنسان طويلاً، وتخرجه من دائرة تصوّراته البشرية المحدودة عن الموت والحياة إلى أُفق واسع جديد لم تعهده تصوّراتنا المحدودة عن الموت والحياة وتعطي للحياة معنىً جديداً لا تعرفه التصوّرات الجاهلية للإنسان. وها نحن نتلو معاً هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1].

الحياة الطيّبة:

الحقيقة الأُولى في هذه اللوحة القرآنية:

إن الذين قُتلوا في سبيل الله أحياء وليسوا بأموات، والنهي عن تصوّر أنّ الشهداء أموات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...﴾، إنّ المسألة ليست من المجاز في التعبير، وإنّما هي حقيقة داخلة في حيّز النفي والإثبات: النهي عن حسبان الشهداء أمواتاً، وإثبات أنّهم أحياء، وهذا تصور جديد على الذهنية المادية تماماً.

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ ـ ١٧٥.

ليست الحياة هي فقط هذه الفرصة وهذه الرقعة الضيّقة التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا.

وليست الحركة الحيوانية التي يمارسها الإنسان في هذه الدنيا من أكل وشرب، وتسابق على متاع الحياة الدنيا وزخرفها، ونشاط وحركة في حقل الغرائز الحيوانية هي المؤشر والمقياس الوحيد للحياة. فهذه رقعة صغيرة للحياة، محدودة الأمد، قصيرة المدى، حافلة باللهو واللعب. إنّ ما بأيدي الناس هنا ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾، وليس من الحياة في شيء، أما النبع الصافي والزلال للحياة فشيء آخر، يختلف تماماً عمّا يعرفه الناس، والله تعالى ورسوله يدعوانا إلى الحياة الطيّبة الحقيقية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾[1].

وهذا الذي يدعونا إليه الله تعالى ورسوله من الحياة شيء آخر غير ما يتنافس عليه الناس؛ من اللهو واللعب، والتفاخر، والزينة، وما يشوبه من البعد عن الله والبغضاء، والمعاصي والذنوب، والاستغراق في متاع الحياة الدنيا، والتعلّق بها، وحياة الذل والهوان والعبودية لغير الله، والاستسلام للأهواء والشهوات.

إنّ الحياة في التصوّر الإسلامي انطلاق من القيود والأغلال، وتحرر من أسر الهوى والشهوات، وخروج من ذل الانقياد والاستسلام للطغاة إلى عزّ العبودية لله تعالى؛ والحياة في هذا التصوّر الجديد على البشرية تحرر من كلّ تعلق بالدنيا، لا بمعنى ترك الدنيا ولذّاتها، فإنّ الإنسان المؤمن يأخذ نصيبه مما خلق الله من الطيّبات كالآخرين أو أفضل من الآخرين، إلّا أنّه لا يقع في قبضة التعلق بالدنيا ولا تتحكم فيه ولا يكون مصداقاً لقوله عليه السلام: «حب الدنيا رأس كلّ خطيئة»[2].

إنّ ما بأيدي الناس من الحياة ليس من الحياة في شيء، وإنّما هي أقرب إلى حياة البهائم منها إلى حياة الإنسان. أمّا الحياة الحقيقية فهي التي اختارها الله للصالحين من عباده في الدنيا والآخرة وهي (الحيوان) في الآخرة .﴿...وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[3] والحيوان مبالغة في الحياة، إنّها الحياة الحافلة بلقاء الله والإيمان، والحب،

(١) سورة الانفال، الآية: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار ٥١: ٢٥٨.

(٣) العنكبوت، الآية: ٦٤.

والشهود، والصدق، والطيّبات، وفي أُفق واسع عريض، وعلى مدى الخلود والأبدية، حياة الروح والجسم والعقل معاً. والشهيد في حركته الصاعدة إلى الله ينتقل من هذه الرقعة الضيقة من الحياة الفانية والمؤقتة إلى ذلك الأُفق الرحيب من الحياة، ومن هذه المشوبة بالأكدار والابتلاءات إلى النبع الصافي الزلال من الحياة، وليس إلى الموت والركود والغياب كما يتصوره الناس.

أعلى درجات القرب من الله:

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الفقرة تدخل لتكمل صورة هذه الحياة الحقيقية التي ينتقل إليها الشهيد في مسيرته إلى الله تعالى. إن غاية حركة الشهيد إلى الله، وهذه الغاية هي كلّ قيمة الحياة، وتكتسب الحياة قيمتها الحقيقية عندما تقترن بالقرب من الله وتوصل الإنسان إليه وتجعله بجواره، أمّا عندما تنقطع الحياة من التحرك إلى الله، ومن قربه، ومن التوجه إليه، فهي سراب وضياع له في متاهات الدنيا، واستغراق في متاعها وحطامها.

إنّ غاية الإنسان في مسيرته وحركته الكادحة الكبرى في الدنيا هي القرب من الله ولقاء الله، وهي الغاية التي يسعى إليها الشهيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[١].

وما يحققه الإنسان في الدنيا من هذه الغاية هو قيمته ودرجته، والقرب من الله هو المقياس الذي يقيس به الإسلام أقدار الناس ومراتبهم؛ والناس في القرب والبعد من الله درجات ومراتب... حتّى يكون الإنسان (عند الله)، فلا تكون ثمة درجة أقرب إلى الله منه إلى الله. ولا تجد في اللغة تعبيراً أقوى وأبلغ في (القرب) من كلمة (عند) وكأنّ الفواصل تنعدم في هذه الدرجة من القرب، وحاشا ربّنا من ملابسة خلقه وعباده وتبارك وتعالى من أن يرتفع عباده إلى مستوى كبريائه وعزّه وجلاله، ولكنّه تعبير بليغ عن أقرب درجات القرب إلى الله؛ وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «فوق كلّ برّ برٌّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله ﷻ، فليس فوقه برّ»[٢]. وروي عنه ﷺ: «فوق كلّ ذي برّ برٌّ حتى يُقتل الرجل في سبيل الله فليس فوقه برّ»[٣].

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٢) بحار الأنوار ١٠٠ : ١٠.
(٣) بحار الأنوار ٧٤: ٦١.

إنّ كلمة (عند ربّهم) لتستوقف الإنسان طويلاً! أيبلغ الأمر بالعبد الوضيع أن يكون (عند ربّه) هكذا من دون فواصل ومراحل، وبمثل هذه الدرجة من القرب (عند ربّه)، وتعالى الله عن ملابسة مخلوقاته علواً كبيراً. وقد ورد مثل هذا التعبير في القرب من الله في سورة القمر بالنسبة إلى المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝﴾[1]. وفي المناجاة الشعبانية: «... إلهي هبّ لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة...»[2].

وحالة «كمال الانقطاع إلى الله تعالى» هي التي توصل الإنسان إلى معدن العظمة، وتخرق له حجب الظلمة والنور إلى الله تعالى؛ وفي المناجاة:

«إلهي فاسلُك بنا سبل الوصول إليك، وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك»[3].

وليس من أحد تنطبق عليه هذه الفقرات أكثر من الشهيد، فهو يسلك إلى الله تعالى أقرب الطرق، وليس من طريق أقرب إلى الله من الشهادة ثم يفد على الله تعالى.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ لله عباداً في الأرض كأنّما رأوا أهل الجنّة في جنتهم، وأهل النار في نارهم، يجأرون إلى الله سبحانه بأدعيتهم، قد حلا في أفواههم، وحلا في قلوبهم طعم مناجاته، ولذيذ الخلوة به، قد أقسم الله على نفسه بجلاله وعزّته ليورثنّهم المقام الأعلى في مقعد صدق عنده»[4].

هؤلاء هم الذين يورّثهم الله المقام الأعلى، ويرزقهم الله جواره في الجنّة، ويسكنهم في مقعد صدق عنده، وهم الذين يفدون على الله.

(يرزقون):

وهذه الكلمة تشخص نوع الحياة، إنّها حياة حقيقية كاملة، وليست معنوية خالصة، بل هي الحياة بكل أبعادها المادية والمعنوية، وهذه الجملة لا تُبقي لأحد مجالاً للشكّ في تشخيص هذه الحياة بعد حياة الدنيا. ومن العجب أن بعض المفسرين يتردّدون في تفسير هذه

---

(١) سورة القمر، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) مفاتيح الجنان: ١٥٨. مناجاة الأئمة عليهم السلام في شعبان.

(٣) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٧.

(٤) تفسير البصائر ٤٢: ٣٩١.

الآية بالحياة الحقيقية، والآية الكريمة ترسم الحياة بصورة واضحة؛ فالشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون في حياتهم الجديدة، ويفرحون بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين من خلفهم، وهل بعد كلّ هذه النقاط غموض في معنى الحياة التي تلي هذه الحياة والتي تسبق الحياة الآخرة، إنّ هذه الثانية ليست هي الحياة الآخرة، فالحياة الآخرة ليست موضع إنكار أحد من المؤمنين، والآية حيث تنهى عن حسبان الشهداء من الأموات تكاد تكون صريحة في أنّ المقصود من هذه الحياة: حياة أُخرى غير حياة الآخرة؛ فإنّ أحداً من المؤمنين لا يشكّ في حياة الآخرة للشهيد ولغير الشهيد، فلابُدّ أن يكون المقصود حياة أُخرى بين حياة الدنيا وحياة الآخرة، وهي التي يجهلها الكثير من المؤمنين، ينتقل إليها الشهيد من الحياة الدنيا مباشرة، ويعيش فيها بجوار ربّه تبارك وتعالى، والناس ينظرون إلى الشهيد جثة هامدة فيتصوّرون أنّه ميّت، وليس هو بميّت، وإنّما ينعم في جوار ربّه بما أعدّ الله للصالحين من عباده من فضل ورحمة في الجنّة، حتّى ينتقل في الآخرة إلى حيث يختار الله تعالى له من مراتب رحمته وفضله في جنّه عرضها السماوات والأرض.

وفي أحاديث رسول الله ﷺ وأهل بيته شواهد كثيرة على هذه الحياة البرزخية التي يحياها الشهداء والصالحون من عباد الله في الجنّة، وينعمون فيها برحمة الله قبل الحشر والحياة الآخرة، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله فيما جرى للمسلمين في حرب مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة الأنصاري رحمهم الله الذين عيّنهم النبيّ ﷺ قادة للجيش على التوالي، إن استشهد منهم أحد، تولى الآخر محله، يقول جابر رحمه الله:

«فلمّا كان اليوم الذي وقع فيه حربهم صلّى النبيّ ﷺ بنا الفجر ثم صعد المنبر فقال: قد التقى إخوانكم مع المشركين للمحاربة، فأقبل يحدّثنا بكرّات بعضهم على بعض، إلى أن قال: قُتل زيد بن حارثة وسقطت الراية، ثم قال: قد أخذها جعفر بن أبي طالب وتقدّم للحرب، ثم قال: قد قُطعت يده، وقد أخذ الراية بيده الأُخرى، ثم قال: قُطعت يده الأُخرى، وقد أخذ الراية في صدره، ثم قال: قُتل جعفر بن أبي طالب وسقطت الراية، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، وقد قتل من المشركين كذا، وقُتل من المسلمين كذا، فلان وفلان إلى أن ذكر جميع من قتل من المسلمين بأسمائهم، ثم قال: قُتل عبد الله بن رواحة، فانصرف المسلمون، ثم نزل عن المنبر وصار إلى دار جعفر، فدعا عبد الله بن جعفر فأقعده في حجره وجعل يمسح على رأسه، فقالت والدته أسماء بنت عميس: يا رسول الله إنّك لتمسح على رأسه كأنّه يتيم

قال: قد استشهد جعفر في هذا اليوم، ودمعت عينا رسول الله ﷺ وقال: قطعت يداه قبل أن يستشهد وقد أبدله الله بجناحين من زمرد أخضر، فهو الآن يطير بهما في الجنّة مع الملائكة كيف يشاء»[1].

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾:

إن فرح الشهيد بما يؤتيه الله تعالى من فضله ورحمته الواسعة لا حدّ له، أنه يستقبل الرحمة الإلهية الواسعة، ويرى ما أعدّ الله تعالى له من فضل ورحمة قبل أن تفارق الروح جسده وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه. روى زيد بن علي عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين ﷺ، عن آبائه، قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد سبع خصال من الله:

أول قطرة من دمه: مغفور له كلّ ذنب.

والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه، وتقولان: مرحباً بك، ويقول: هو مثل ذلك لهما.

والثالثة: يكسى من كسوة الجنّة.

والرابعة: تبتدره خزنة الجنّة بكل ريح طيّبة أيهم يأخذه معه.

والخامسة: أن يرى منزله.

والسادسة: يقال لروحه اسرحي في الجنّة حيث شئت.

والسابعة: أن ينظر في وجه الله، وإنّها لراحة لكل نبيّ وشهيد»[2].

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾:

إنّ الشهداء لم يموتوا ولم يَنَل الموت منهم وعياً ودركاً؛ أنّهم يرون إخوانهم المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم بعد، ويتابعون حركتهم ومسيرتهم، ويدعون الله تعالى لهم، ويستبشرون بوفود إخوانهم الذين لم يلحقوا بعد بهم، وإن لكلّ لقاء جديد فرحة جديدة وبشرى جديدة، وفي كلّ يوم لهم بشرى جديدة بلقاء أخ جديد في الله، يفد على الله من بين لظى المعركة، ويقبل عليهم فيستقبلونه بالابتهاج والسرور.

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ٥٤ نقلاً عن الخرائج ١٨٨.

(٢) تهذيب الأحكام ٦: ١٢٢.

إنّهم حاضرون (وشهداء) المعركة، لم يغيبوا عنها بالموت ولم يكن الموت بالنسبة إليهم غياباً، إنهم عند ربّهم يشهدون المعركة ويتابعون أحداثها، ويدعون للمقاتلين ويستبشرون بالقادمين منهم إليهم، وحاشا أن يكون أُولئك أمواتاً بل هم من شهداء المعركة وحضّارها، إنّما الأموات هم أُولئك الغائبون عن مسيرة التأريخ وحياة الناس، وصراع الحقّ والباطل، وجهاد المؤمنين، وهم أولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا وعافيتها، ويخلدون إلى الراحة ويعتزلون تيّار العمل والحركة والجهاد، ويعيشون على هامش الحياة والتأريخ، يتفرجون على الصراع من بعيد، أُولئك هم الأموات، بالرغم من أنّهم يستنشقون الهواء ويتحركون، أُولئك أحياء الأموات، الذين لا يعرفون للحياة معنى غير هذه الحياة التي يعيشها البهائم، ولا يعرفون في الحياة لذّة ومتاعاً إلّا ما يعرفه الحيوان من اللذة والمتاع، ولا تتجاوز اهتماماتهم وطموحاتهم شهوات الحيوانات واهتماماتها، أُولئك هم الغائبون الأموات.

أما الشهداء فلا يغيبون عن هذه الساحة لحظة واحدة، ويشهدون عن كثب من عند ربهم كلّ تطورات المسيرة، وحركتها، وتقدّمها، وانتصاراتها، وانتكاساتها، وآلامها، وآمالها، وتطلعاتها، وطموحاتها، ومعاناتها، ولكن بنَفَس يختلف عن أنفاسنا ورؤية تختلف عن رؤانا وتصوّر يختلف عن تصوّراتنا المحدودة.

لا خوف ولا حزن:

وذلك قوله تعالى: ﴿...وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فهم ينظرون إلى إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم بعد وإلى المسيرة الحافلة بالدماء والجهاد والانتصارات والانتكاسات والآلام والمرارات. بهذه الرؤية الربّانية: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أما نحن، هنا في هذه الدنيا، فرؤيتنا تختلف، إننا ننظر إلى المسيرة من خلال تصوّراتنا البشرية التي يشوبها الضعف وقصر المدى والتشويش، وينتابنا القلق والارتباك كلما توقعنا مصيبة تنزل بنا في حركتنا، وكلما توقعنا عاصفة تعصف بنا، ولا تذر لنا رطباً ولا يابساً، وينتابنا الحزن والألم كلما نزلت بنا داهية، أو عمّتنا مصيبة فتضيق بنا الأرض بسعتها، وتعتصرنا الآلام: آلام الفراق ومرارة الانتكاسات وشدة الابتلاء في الأنفس والأموال والأرزاق والأمن، فالمسيرة بالنسبة إلينا ـ ومن خلال تصوّراتنا ـ حافلة بالخوف والحزن؛ الخوف على ما نتوقعه من الابتلاء، والحزن على ما نزل بنا من ابتلاء وشدة، وقليل من عباد

الله الذين تصفُو لهم الرؤية في وسط هذه المسيرة الحافلة بالدماء والآلام، فلا يعيشون خوفاً ولا حزناً.

أمّا الشهداء فرؤيتهم وتصوّرهم لهذه المسيرة يختلف عن رؤيتنا وتصوّراتنا البشرية المشوبة بضعف الإنسان، أنها رؤية اكتسبوها من عند الله صافية، بعيدة المدى، ملؤها الثقة والاطمئنان بالله تعالى، رزقهم الله تعالى إيّاها من عنده، فهم يرون المسيرة الربانية على وجه الأرض بهذه الثقة والطمأنينة وبهذه الرؤية الصافية من غير خوف ولا قلق ولا حزن، ومن ثم يستبشرون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم بعد، والذين يخوضون غمار المعركة ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ألّا يخافوا من شيء يستقبلهم ولا يحزنوا على شيء فاتهم، فلن يتجاوزهم نصر الله الذي وعد الله به الصالحين من عباده، ولن يتخطاهم النصر والتأييد والدعم والإمداد من الله، في وسط هذا الصراع الحافل بالدماء والآلام والمرارات والمعاناة.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[١].

فعلامَ الخوف والقلق والارتباك من المستقبل؟ فلن يصيبهم أذى أو تعب في سبيل الله، ولن تقسو عليهم الابتلاءات، إلّا كتب الله تعالى لهم بكل ذلك عملاً صالحاً وأجراً.

﴿...ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ...﴾[٢].

فعلامَ الحزن مما يصيبهم من ابتلاءات ومحن وآلام ومما يعانون في سبيل الله؟

إذن: (لا خوف ولا حزن) في هذه المسيرة، وليس على العاملين في هذه المسيرة الكادحة ذات الشوكة حزن أو خوف مما أصابهم أو يصيبهم من ابتلاء. تلك هي الرؤية الربانية الصافية الواثقة، بعيدة المدى للمسيرة، وإن علينا ـ نحن العاملين في سبيل الله على خطى الشهداء ـ أن نتسلح بهذه الرؤية ونبدل رؤيتنا القلقة والمرتبكة الخائفة بالرؤية الربانية الواثقة والمطمئنة بعيدة المدى لنتمكن من حمل عب ء المسؤولية الشاقة ومواصلة السير على طريق الأنبياء والمرسلين.

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥ ـ ٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

ثأر الله

رحلة الشهادة في السنّة الشريفة

باقة عطرة من الأحاديث الشريف في قيمة الشهيد

وإليكم هذه الباقة العطرة من الروايات في فضل الشهادة وقيمتها:

• عن الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فوق كلّ برّ برّ حتّى يُقتل الرجل في سبيل الله، فليس فوقه برّ، وان فوق كلّ عقوق عقوقاً حتّى يقتل الرجل أحد والديه، فإذا فعل ذلك فليس فوقه عقوق»[١].

• عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور، ويشفع في سبعين من أقاربه». قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب[٢].

• سأل أبو ذر النبيّ صلى الله عليه وآله: أي الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجلّ؟

فقال صلى الله عليه وآله: «إيمان بالله وجهاد في سبيله.

قال: فقلت: أي الجهاد أفضل؟

قال: من عقّر جواده، واهريق دمه في سبيل الله»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٦١. الكافي ٢: ٣٤٨. وباختلاف يسير، وسائل الشيعة ١١: ١٠. والتهذيب ٢: ٤١. والخصال ١: ٨. ومستدرك الوسائل ٢: ٢٤٢. والفروع ١: ٣٤٢. بحار الأنوار ٧٤: ٦١. الكافي ٢: ٣٤٨.

(٢) سنن الترمذي ٤: ١٨٧ ـ ١٨٨، الحديث ١٦٦٣، وقريب من هذا المضمون في سنن ابن ماجه ٢: ٩٣٥ ـ ٩٣٦ ح٢٧٩٩.

(٣) بحار الأنوار ١٠٠: ١١. عن الخصال ٢: ٣. وبمضمونه بطريق آخر سنن ابن ماجه ٢: ٩٣٤ ح٢٧٩٤. ومستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٤٤.

• العياشي في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني راغب نشيط في الجهاد. قال: فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل كنت حياً عند الله، وترزق، وإن متّ فقد وقع أجرُك على الله وإن رجعت خرجت من الذنوب إلى الله. هذا تفسير ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾[1].

• عن مسعدة بن صدقة عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعهم: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[2].

• وكان الإمام الحسين عليه السلام يقول في مسيرته إلى كربلاء: «إني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما»[3].

• وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: ما من عبد يموت لـه عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن لـه الدنيا وما فيها إلّا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنّه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرّة أُخرى[4].

• وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سريّة تغزو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لوددت أن أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل»[5].

• وعن جابر بن عبد الله: قال لـه رجل: أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال: في الجنّة. فألقى تمرات كُنّ في يده ثمّ قاتل حتّى قُتِل[6].

• عن ابن إسحاق عن البرّاء قال: جاء رجل من النبيت، قبيل من الأنصار. فقال أشهد

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٤٤.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٤٥.

(٣) تحف العقول: ١٧٦.

(٤) صحيح البخاري ٢: ١١٢، كتاب الجهاد. الترغيب والترهيب ٢: ٣١١. سنن الترمذي ٤: ١٧٦. مستدرك الوسائل ٢: ٢٤٣.

(٥) صحيح البخاري ٢: ١١٢. والترغيب والترهيب ٢: ٣١١.

(٦) صحيح مسلم بن الحجاج ٦: ٤٣ طبعة دار الفكر.

أن لا إله إلّا الله وأنك عبده ورسوله، ثم تقدّم فقاتل حتّى قتل. فقال النبيّ ﷺ: عَمِل هذا يسيراً وأُجِرَ كثيراً[١].

• وعن أنس بن مالك في حوادث معركة بدر قال: «قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. قال: يقول عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنّة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم. قال: بخٍ بخٍ فقال رسول الله: ما يحملك على قول بخٍ بخٍ، قال: لا والله يا رسول الله إلّا رجاء أنْ أكون من أهلها. قال: فإنّك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه يأكل منهن. ثمّ قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه أنها لحياة طويلة قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتّى قتل»[٢].

• وقال محمّد بن المنكدر: إنه سمع جابراً يقول: جيء بأبي إلى النبيّ ﷺ وقد مُثل به ووضع بين يديه فذهبت أكشف عن وجهه فنهاني قومي. فسمع صوت صائحة فقيل ابنة عمر أو أُخت عمر. فقال: لِمَ تبكي؟ أو لا تبكي مازالت الملائكة تظلله بأجنحتها[٣].

• عن مسروق قال سألنا عبد الله[٤] عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك. فقال أرواحكم في جوف طير خضر لها قناطيل معلقة بالعرش تسرح في الجنّة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل[٥].

• وكان أمير المؤمنين يقول:

«أيّها الناس إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص. من لم يقتل مات، إنّ أفضل الموت القتل.

والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش»[٦].

• عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

---

(١) صحيح مسلم بن الحجاج ٦: ٤٤ طبعة دار الفكر.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢: ١١٥ والترغيب والترهيب ٢: ٣١٣.

(٤) الظاهر انّه عبد الله بن مسعود.

(٥) صحيح مسلم بن الحجاج ٦: ٣٨ ـ ٣٩ طبعة دار الفكر. ورواه ابن ماجه في السنن ٢: ٩٣٦ ح٢٨٠١ وقريب منه عن كعب بن مالك في الترغيب والترهيب ٢: ٣١٦.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣٠٦.

قال: «ما من قطرة أحبّ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من قطرتين، قطرة دم في سبيل الله، وقطرة دمعة في سواد الليل، لا يريد بها عبد إلّا الله عَزَّ وَجَلَّ»(١).

• وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: قال: «ما من قطرة أحبّ إلى الله من قطرة دم في سبيل الله، أو قطرة من دموع عين في سواد الليل من خشية الله. وما من قدم أحب إلى الله من خطوة إلى ذي رحم أو خطوة يتمّ بها زحفاً في سبيل الله. وما من جرعة أحبّ إلى الله من جرعة غيظ أو جرعة يردّ بها العبد مصيبة»(٢).

• عن موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أبخل الناس من بخل بالسلام، وأجود الناس من جاد بنفسه وماله في سبيل الله»(٣).

• عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي بن الحسين عليه السلام قال: بينما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يخطب الناس، ويحضهم على الجهاد إذ قام إليه شابٌ فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله فقال علي عليه السلام: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته العضباء، ونحن قافلون من غزوة ذات السلاسل، فسألته عمّا سألتني فقال: إن الغزاة إذا همّوا بالغزو كتب الله لهم براءة من النار، فإذا تجهزوا لغزو باهى الله تعالى بهم الملائكة، فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان والبيوت ويخرجون من ذنوبهم كما تخرج الحيّة من سلخها، ويوكل الله عَزَّ وَجَلَّ بهم بكل رجل منهم أربعين ألف ملك يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. ولا يعمل حسنة إلّا ضعفت لـه، ويكتب لـه كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون ألف سنة، كلّ سنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم مثل عمر الدنيا، وإذا صاروا بحضرة عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إيّاهم، وإذا برزوا لعدوهم وأشرعت الأسنة وفوقت السهام وتقدّم الرجل إلى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتهم، ويدعون الله لهم بالنصر، والتثبت فينادي مناد: الجنّة تحت ظلال السيوف، فتكون الطعنة والضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد في اليوم الصائف، وإذا زل الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث الله عَزَّ وَجَلَّ زوجته من الحور العين، فتبشره بما أعد الله لـه من الكرامة، وإذا وصل إلى الأرض تقول لـه: مرحباً بالروح الطيبة التي أخرجت من البدن الطيب، أبشر فإن

---

(١) بحار الأنوار ١٠٠: ١٠ نقلاً عن الخصال ١: ٣١.

(٢) بحار الأنوار ١٠٠: ١٤.

(٣) بحار الأنوار ١٠٠: ١٥. نقلاً عن نوادر الراوندي: ٥.

لك ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويقول الله عَجَلّ: أنا خليفته في أهله، ومن أرضاهم فقد أرضاني، ومن أسخطهم فقد أسخطني، ويجعل الله روحه في حواصل طير خضر تسرح في الجنّة حيث تشاء تأكل من ثمارها. وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة بالعرش[١].

• ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾[٢] علمت أن الفتنة لا تنزل بنا، ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا. فقلت يا رسول الله أو ليس قد قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عنّي الشهادة، فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك. فقال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.

يقول ابن أبي الحديد[٣] في شرح هذه الفقرة من نهج البلاغة: وهذا الخبر مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قد رواه كثير من المحدثين عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين كما كتب عليَّ جهاد المشركين» قال: فقلت يا رسول الله ما هذهِ الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله وهم مخالفون للسنّة، فقلت يا رسول الله فعلامَ أُقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الأحداث في الدين ومخالفة الأمر. قلت يا رسول الله: إنك كنت وعدتني الشهادة فاسأل الله أن يعجلها لي بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، أما إني وعدتك الشهادة وستستشهد تضرب على هذه فتخضب هذه، فكيف صبرك إذن؟ قلت يا رسول الله: ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر، قال: أجل أصبت[٤].

• ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوّي الشهادة وتوطيني نفسي عند ذلك لأحببت ألّا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً»[٥].

---

(١) بحار الأنوار ١٠٠: ١٢ ـ ١٣. نقلاً عن صحيفة الإمام الرضا ٢٦ ـ ٢٨. ومستدرك الوسائل ٢: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٥٧. ونهج البلاغة لصبحي الصالح:٢٢.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٦.

(٥) شرح نهج البلاغة ٦: ٩٣.

ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه قال عليه السلام: «فزت ورب الكعبة»[١].

• وقال أمير المؤمنين عليه السلام بعدما ضربه ابن ملجم: «والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ولا طالع أنكرته وما كنت إلّا كقارب ورد وطالب وجد»[٢].

• عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف». فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول هذا؟ قال نعم. قال فرجع إلى أصحابه فقال أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتّى قتل[٣].

• عن أنس بن مالك قال جاء ناس إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنّة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء، فيهم خالي حرام يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء. فبعثهم النبيّ صلى الله عليه وآله إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا اللهم بلّغ عنّا نبيّنا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنّا. وأتى رجل حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتّى أنفذه فقال حرام: فزت وربّ الكعبة. فقال رسول الله لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلّغ عنّا نبيّنا إنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا[٤].

• وعن ثابت قال: قال أنس: عمي الذي سميّت به لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله بدراً فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله غُيبّت عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ليراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها. قال فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ. فقال لـه أنس يا أبا عمرو أين؟ فقال واهاً لريح الجنّة، أجده دون أُحُد... قال فقاتلهم حتّى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية قال: فقالت أُخته: عمتي الرُبيّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلّا ببنانه، ونزلت

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٣٩.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٦.
(٣) صحيح مسلم ٦: ٤٥، طبعة دار الفكر، ورواه الترمذي في السنن ٤: ١٨٦ ح١٦٥٩.
(٤) صحيح مسلم ٦: ٤٥ ط دار الفكر، ورواه البخاري وعنهما المنذري في الترغيب والترهيب ٢: ٣١٦.

هـــذهِ الآيـــة: ﴿...رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[١].

• وعن أنس قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالرجل من أهل الجنّة فيقول الله له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربّ خير منزل فيقول سل وتمنّه. فيقول: وما أسألك وأتمنى؟ أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتل في سبيلك عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة[٢].

• وعن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كلّ ذنب إلّا الدَين»[٣].

• وعن رسول الله ﷺ قال: «إن أوّل قطرة تنزل من دم الشهيد يكفر بها ذنوبه والثانية يكسى من حُلل الإيمان والثالثة يزَوّج من حور العين»[٤].

• وعن أبي هريرة قال: ذكر الشهيد عند النبيّ ﷺ فقال: لا يجف الأرض من دم الشهيد حتّى تبتدره زوجتاه كأنهما ظئران اظلّتا فصيليهما في براح من الأرض، وفي يد كلّ واحدة منهما حلّة خير من الدنيا وما فيها[٥].

قال المنذري في الترغيب في التعليق على الحديث، الظئر هي المرضع، ومعناه أن زوجتيه من الحور العين تبتدرانه وتحنوان عليه وتظللانه كما تحنو الناقة المرضع على فصيلها.

• وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق يهز بباب الجنة، في قبّة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[٦].

• وعن أنس بن مالك أن النبيّ ﷺ قال: إذا وقف العباد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم تقطر دماً، فازدحموا على باب الجنّة، فقيل من هؤلاء؟ قيل هؤلاء الشهداء كانوا أحياءً مرزوقين[٧].

• وعن نعيم بن عمّار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيّ الشهداء أفضل؟ قال: الذين

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٤٦ طبعة دار الفكر والترغيب والترهيب ٢: ٣١٢ ـ ٣١٣.
(٢) كنز العمال ٤: ٤٠٦ ح١١١٣٥ ط. دار الفكر، والترغيب والترهيب ٢: ٣١١.
(٣) الترغيب والترهيب ٢: ٣١١.
(٤) كنز العمال ٤: ٤٠٧ ح١١١٤١.
(٥) الترغيب والترهيب ٢: ٢٢٢.
(٦) الترغيب والترهيب ٢: ٢٢٣. وكنز العمال ٤: ٣٩٧ ح١١٠٩٩.
(٧) الترغيب والترهيب ٢: ٣١٨، ورواه الطبراني وقال المنذري في الترغيب أسفاه حسن.

إن يلقوا في الصف الأول لا يلفتون وجوههم حتّى يقتلوا أُولئك ينطلقون في الغرف العُلا من الجنّة[١].

• وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أُخبركم عن الأجود؟ الله الأجود الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل علم علماً فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أُمة واحدة، ورجل جاد بنفسه لله ﷷ حتّى يقتل. رواه أبو يعلى والبيهقي[٢].

• عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ أنّ رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلّا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة». رواه النسائي[٣].

• عن أنس بن مالك أنّ رجلاً أسود أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إني أسود منتن الريح قبيح الوجه لا مال لي. فإن أنا قاتلت هؤلاء حتّى أُقتل فأين أنا؟ قال: في الجنّة. فقاتل حتّى قتل، فأتاه النبيّ ﷺ فقال: «قد بيّض الله وجهك وطيّب ريحك وأكثر مالك»[٤].

• جاء النبيّ ﷺ إلى جسد شهيد نجدي فقعد عند رأسه مستبشراً يضحك ثم أعرض عنه، فقلنا يا رسول الله رأيناك مستبشراً تضحك ثم أعرضت عنه. فقال: أما ما رأيتم من استبشاري فلما رأيت من كرامة روحه على الله ﷷ، وأمّا إعراضي عنه فإن زوجته من الحور العين الآن عند رأسه. رواه البيهقي بإسناد حسن[٥].

• عن عامر بن سعد عن أبيه: أنّ رجلاً جاء إلى الصلاة والنبيّ ﷺ يصلي. فقال حين انتهى إلى الصف: اللهمَّ آتني أفضل ما تُؤتي عبادك الصالحين. فلما قضى النبيّ ﷺ الصلاة قال: من المتكلّم آنفاً؟ فقال الرجل: أنا يا رسول الله. قال: «إذاً يعفر جوادك وتستشهد». رواه أبو يعلى والبزاز وابن حيان في صحيحه وقال صحيح على شرط مسلم[٦].

• عن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء عند الله على منابر من ياقوت في ظل عرش الله يوم

(١) الترغيب والترهيب ٢: ٣١٨ ـ ٣١٩. وقريب منه في كنزل العمال ٤: ٣٩٨ ح١١١٠٤.

(٢) الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٠.

(٣) الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٤) الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٤.

(٥) الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٦) الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

لا ظِلّ إلّا ظلّه، على كثيب من مسك فيقول لهم الربّ: ألَمْ أوف لكم وأُصدقكم؟ فيقولون: بلى وربّنا»[١].

• عن رسول الله ﷺ قال: أول ما يهراق من دم الشهيد يغفر له ذنبه كلّه إلّا الدَين[٢].

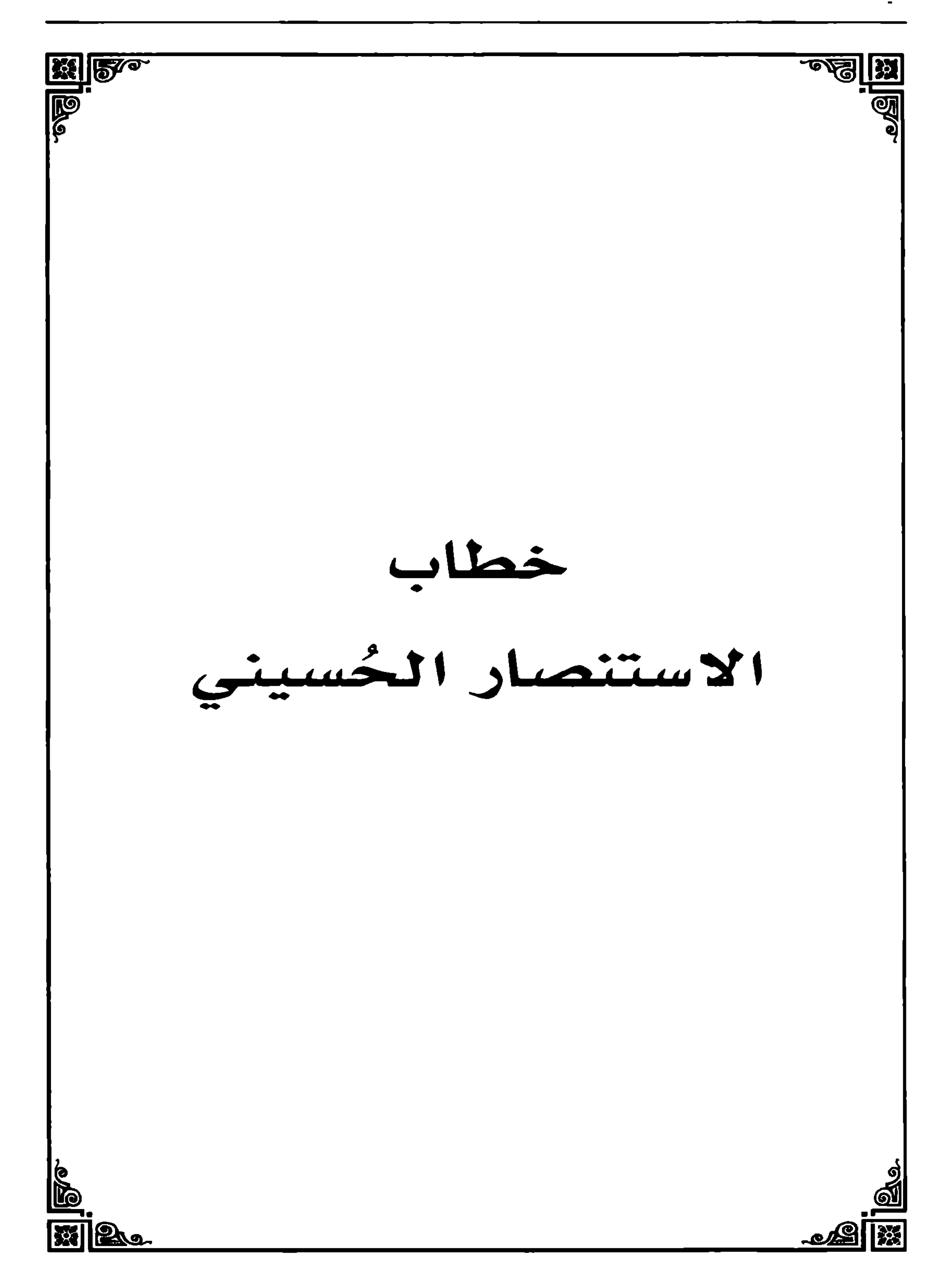
يعطى الشهيد ثلاثاً: أول دفعة من دمه يغفر لـه ذنوبه وأول من يمسح التراب عن وجهه زوجته من الحور العين وإذا وجب جنبه في الأرض وقع في الجنّة[٣]. (الدارقطني في الافراد والديلمي والرافعي عن أنس).

---

(١) كنز العمال ٤: ٣٩٧ ح١١١٠٠.

(٢) كنز العمال ٤: ٣٩٩ الحديث ١١١٠٩.

(٣) كنز العمال ٤: ٤١٠ الحديث ١١١٥٣.



خطاب
الاستنصار الحُسيني

الاستنصار الحُسيني

الاستعراض، والدلالات

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

يقول الشيخ جعفر التُستري رحمه الله في الخصائص الحسينية ـ إنّ الحسين عليه السلام (استنصر) الناس سبع مرّات و(استغاث) سبعاً.

ثمّ يقول رحمه الله: «إنّ التلبيات السبعة الواردة في زيارة الحُسين عليه السلام (لبّيك داعي الله) إجابة وإشارة إلى هذه الاستنصارات والاستغاثات»[1].

وفيما يلي نستعرض طائفة من استنصارات الحسين عليه السلام واستغاثته بالمسلمين منذ خروجه من المدينة إلى اليوم العاشر من المحرّم سنة (٦١ هـ) في كربلاء.

ثمّ نقوم بدراسة دلالات الاستنصار الحسيني.

* * *

(١) الخصائص الحسينية: ١٧٧ ـ ١٧٨.

أ ـ الاستعراض

نماذج من الاستنصار الحُسيني

١ ـ في المدينة

خرج الحسين عليه السلام من المدينة متوجّهاً نحو مكّة ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب، ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه الحسن عليه السلام وأهل بيته، وكتب قبل أن يخرج من المدينة، وصيّته التي يستنصر فيها المسلمين، وأودعها عند أخيه محمّد بن الحنفية.

قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أوصى به الحسين بن علي عليه السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية: أنّ الحسين يشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأنّ الجنّة حقّ، والنار حقّ والساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور... وإنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب.

فمن قبلني بقبول الحقّ، فالله أولى بالحقّ، ومَن ردّ علَيَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين.

ثمّ طوى الكتاب وختمه، ودفعه إلى أخيه محمّد[١].

الحسين عليه السلام يستنصر عبد الله بن عمر

وقال لعبد الله بن عمر لمّا طلب منه البقاء في المدينة: «يا عبد الله إنّ من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا يُهدى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل وإنّ رأسي يُهدى إلى بغي من بني أُميّة»[٢].

ولمّا عرف ابن عمر من الحسين العزم على مغادرة المدينة قال له: يا أبا عبد الله

---

(١) مقتل العوالم: ٥٤.

(٢) مقتل الحسين: للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٣٩.

اكشف لي عن الموضع الذي لم يزل رسول الله ﷺ يقبّله منك، فكشف له عن سُرّته فقبّلها ثلاثاً وبكى[١].

فقال له: اتّق الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تَدَعَنَّ نصرتي[٢].

٢ ـ في مكّة

وكتب الحسين نسخة واحدة (تعميماً) إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، وهم مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن القيس، والجارود بن المنذر، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد بن معمّر، وأرسله مع مولى لـه يُقال له سليمان[٣] وفيه: «أمّا بعد فإنّ الله اصطفى محمّداً ﷺ على خلقه وأكرمه بنبوّته واختاره لرسالته ثمّ قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلّغ ما أُرسل به ﷺ، وكُنّا أهله وأولياؤه وأوصياؤه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنّا أحق بذلك الحقّ المستحق علينا ممّن تولّاه. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، فإنّ السُنّة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد».

فسلّم الجارود بن المنذر العبدي رسول الحسين إلى ابن زياد فصلبه عشيّة الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة ليسبق الحسين إليها[٤]، وأمّا الأحنف فإنّه كتب إلى الحسين عليه السلام: أمّا بعد فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفنك الذين لا يُوقنون[٥].

وأمّا يزيد بن مسعود فإنّه جمع بني تميم وبني حنظلة وبني سعد فلمّا حضروا قال: يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ قالوا: بخ بخ! أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر حللت في الشرف وسطاً وتقدّمت فيه فرطاً قال: فإنّي قد جمعتكم لأمر أُريد أن أُشاوركم فيه وأستعين بكم عليه فقالوا: إنّا والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي، فقل حتّى نسمع.

---

(١) أمالي الصدوق: ٩٣ المجلس ٣٠.

(٢) اللهوف: ١٧.

(٣) هكذا في تاريخ الطبري ٦: ٢٠٠، وفي اللهوف: ٢١ «يُكنّى أبا رزين»، وفي مُثير الأحزان: ١٢ «أرسله مع ذراع السدوسي».

(٤) تاريخ الطبري ٦: ٢٠٠.

(٥) مُثير الأحزان: ١٣.

فقال: إنّ معاوية مات. فأهون به والله هالكاً ومُفقوداً، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم. وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظنّ أنّه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد. اجتهد والله ففشل، وشاور فخُذل، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتآمر عليهم بغير رضاً منهم، مع قصر حلم، وقلّة علم، لا يعرف من الحقّ موطأ قدميه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لَجِهادَهُ على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي وابن رسول الله ﷺ، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، لـه فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحسن إلى الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم وجبت لله به الحجة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشو عن نور الحقّ، ولا تسكعوا[1] في وهد الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ﷺ ونصرته، والله لا يقصّر أحدكم عن نصرته إلّا أورثه الله تعالى الذلّ في ولده، والقلّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها. من لم يُقتل يمُت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب.

فقالت بنو حنظلة: يا أبا خالد نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلّا خضناها، ولا تلقى والله شدّة إلّا لقيناها، ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا إذا شئت.

وتكلّمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نبقى إن ظعنت، والأمر إليك فادعنا إذا شئت.

وقالت بنو سعد بن زيد: أبا خالد إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل، فحمدنا ما أمرنا، وبقي عزّنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك برأينا.

فقال لهم لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبداً، ولا زال سيفكم فيكم.

ثمّ كتب إلى الحسين عليه السلام: أمّا بعد فقد وصل إليَّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني لـه من الأخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنّ الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير، ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته

(١) التسكع: التمادي في الباطل.

في أرضه، تفرّعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظمأ لورود الماء يوم خمسها، وقد ذللت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن قلوبها بماء سحاب مزن حين استهلّ برقها فلمع.

فلمّا قرأ الحسين عليه السلام كتابه قال: «آمنك الله من الخوف وأعزّك وأرواك يوم العطش الأكبر».

ولمّا تجهّز ابن مسعود إلى المسير بلغه قتل الحسين عليه السلام فاشتدّ جزعه وكثر أسفه لفوات الأُمنية من السعادة بالشهادة[1].

وكانت «مارية» ابنة سعد أو مُنقذ من الشيعة المخلصين، ودارها مألفاً لهم يتحدّثون فيه فضل أهل البيت عليهم السلام، فقال يزيد بن نبيط وهو من عبد القيس لأولاده وهم عشرة: أيّكم يخرج معي، فانتدب منهم اثنين عبد الله وعبيد الله، وقال لـه أصحابه في بيت تلك المرأة: نخاف عليك أصحاب ابن زياد، قال: والله لو قد استوت أخفافها بالجدد لهان عليَّ طلب مَن طلبني[2] وصحبه مولاه عامر وسيف بن مالك والأدهم بن أُميّة[3] فوافوا الحسين بمكّة وضمّوا رحلهم إلى رحله حتّى وردوا كربلاء وقُتلوا معه.

وخطب الحسين عليه السلام في المسلمين عشيّة خروجه من مكّة، وقال:

«خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخُير لي مصرع أنا لاقِيه.

كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسْلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأنّ منّي أكراشاً جَوَفاً، وأجربةً سغباً، لا محيص من يوم خطّ بالقلم.

رضا الله رضانا أهل البيت. نصبر على بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين.

لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، بل هي مجموعة لـه في حظيرة القدس، تقرّبهم عينه، وينجز بهم وعده. ألا ومَن كان فينا باذلاً مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه، فلْيَرحل معنا، فإنّي راحل مُصبحاً إن شاء الله»[4].

---

(١) مُثير الأحزان: ١٣. واللهوف: ٢١. حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي ٢: ٣٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ١٩٨.

(٣) ذخيرة الدارين: ص ٢٢٤.

(٤) اللهوف: ٣٣ وابن نما: ٢٠. والمقرم: ١٧٣.

وفي هذه الخطبة، ينعى الإمام نفسه، ويستنصر المسلمين، ويطلب منهم مُهجهم، ويطلب ممّن يريد أن يخرج معه أن يوطّن نفسه للقاء الله، ويعلن للمسلمين أنّه يخرج غداً إلى العراق، ومن أراد أن يلتحق به فليعدّ نفسه للخروج منذ الليلة.

وهي دعوة غريبة من نوعها في تاريخ الثائرين والخارجين. فلا يُمنّيهم الحسين عليه السلام بمُلك ولا سلطان، وإنّما يدعوهم إلى القتل.

وهذه الدعوة بهذه الخصوصية ممّا تتميز بها ثورة الحسين عليه السلام في التاريخ عن غيرها من الثورات والحركات.

إنّ الحسين عليه السلام يطلب من الناس مهجهم، ويطلب منهم أن ينتزعوا أنفسهم من الدنيا ويوطّنوا أنفسهم لِلقاء الله.

والحسين عليه السلام يقصد ما يقول.

ولو خرج يومئذٍ مع الحسين عليه السلام ناس يريدون الدنيا، وليس وجه الله، ويطلبون المال والسلطان في خروجهم مع الحسين عليه السلام لأخلّوا بهذه الحركة، وأفقدوها قيمتها وتأثيرها العميق الخالد في التاريخ.

وبهذه الطريقة يعلن الحسين عليه السلام من بدء خروجه عن رفضه لأُولئك الذين يريدون أن يلتحقوا به للمال والسلطان والدنيا.

هذه الخطبة عجيبة في لهجتها، عجيبة في مضامينها ودعوتها، وتتضمن الاستنصار، والاستماتة، والترغيب والتزهيد، والدعوة، والرفض.

٣ ـ في الحاجر:

ولمّا بلغ الحاجر[١] من بطن الرمة، كتب إلى أهل الكوفة جواب كتاب مسلم بن عقيل، وبعثه مع قيس بن مسهر الصيداوي[٢] وفيه: «أمّا بعد فقد ورد عليَ كتاب مسلم بن عقيل يخبرني باجتماعكم على نصرنا والطلب بحقّنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع، ويثيبكم على

---

(١) في معجم البلدان ٢: ٢١٤ الحاجر: ما يمسك الماء من شفة الوادي. وفيه ١: ٤٤ بطن الرمة: واد معروف بعالية نجد، وفي مراصد الاطلاع ٢: ٦٣٤ منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة، وفيه تجتمع أهل الكوفة والبصرة.

(٢) في روضة الواعظين لعلي بن محمّد الفتّال النيسابوري: ١٥٢: يُقال بعثه مع عبد الله بن يقطر ويجوز انّه أرسل إليهم كتابين أحدهما مع عبد الله بن يقطر والآخر مع قيس بن مسهر وفي الاصابة ٣: ٤٩٢ بعد أن ذكر نسب قيس قال: وكان مع الحسين لمّا قتل بالطف وهو اشتباه، فإنّ ابن زياد قتله بالكوفة.

ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكّة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجّة، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم، فإنّي قادم في أيامي هذه».

ولمّا وصل قيس إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير التميمي ـ وكان صاحب شرطة ابن زياد ـ أمره أن ينظِم الخيل ما بين القادسية إلى خفان[1] ومنها إلى القطقطانة فأراد أن يفتّشه فأخرج قيس الكتاب وخرّقه.

ولمّا مثل بين يدي ابن زياد قال: لماذا خرّقت الكتاب؟ قال: لئلّا تطّلع عليه، فأصرّ ابن زياد على الإخبار بما فيه فأبى قيس، فقال: إن لم تخبرني فاصعد المنبر وسبّ الحسين وأباه وأخاه، وإلّا قطّعتك إرباً إرباً.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ وآله، وأكثر من الترحّم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عبيد الله بن زياد وأباه وبني أُميّة.

ثمّ قال: أيّها الناس أنا رسول الحسين إليكم، وقد خلّفته في موضع كذا فأجيبوه. فأمر ابن زياد أن يرمى من أعلى القصر فتكسّرت عظامه ومات[2].

ويقال أمر ابن زياد أن يرمى مكتوفاً فرُميَ من أعلى القصر[3] وكان به رمق، فقام إليه عبدالملك بن عمير اللخمي فذبحه فعيب عليه قال: أردت أن أريحه[4].

٤ ـ في زرود:

ونزل الحسين في زرود، ونزل بالقرب منه زهير بن القين البجلي، وكان غير مُشايع له ويكره النزول معه، ولكن الماء جمعهم في المكان.

روى السدّي عن رجل من بني فزارة كان يُرافق زهيراً رحمه الله في السفر الذي التحق فيه بالحسين:

قال كُنّا مع زهير بن القين البجلي رحمه الله حين أقبلنا مكّة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن

---

(١) في معجم البلدان ٢: ٣٧٩ خفان: بفتح أوله وتشديد ثانيه، موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج احيانا. وفيه ٤: ٣٧٤ القطقطانة: بضم القاف ثمّ السكون، موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف تبعد عن الرهيمة نيّفاً وعشرين ميلاً.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٣٢٤، والبداية ٨: ١٦٨، والارشاد للمفيد، وروضة الواعظين: ١٥٢، وأعلام الورى: ١٣٦.

(٣) الإرشاد للمفيد ٢: ٧٢.

(٤) روضة الواعظين: ١٧٧، والارشاد ٢: ٧١، وفي ميزان الاعتدال ٢: ١٥١.

شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزله، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير، حتّى نزلنا يومئذٍ في منزل لم نجد بداً من أن نُنازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغذى من طعام لنا، إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّى سلّم ثمّ دخل، فقال: يا زهير بن القين إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه قال: فطرح كلّ إنسان ما في يده حتّى كأنّنا على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدّثتني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين قالت: فقلت لهِ: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه ثمّ انصرفت. قالت: فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه. قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم (فقوّض ظ) وحمل إلى الحسين عليه السلام ثمّ قال لامرأته: أنتِ طالق الحقي بأهلكِ فإنّي لا أُحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خير[1].

وفي رواية الملهوف قال: قد عزمت على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه بنفسي وأقيه بروحي. ثمّ أعطاها مالها وسلّمها إلى بعض بني عمّها ليوصلها إلى أهلها، فقامت إليه وبكت وودّعته وقالت: كان الله عوناً ومُعيناً، خار الله لك، أسألك أن تذكرني في القيامة عند جدّ الحسين عليه السلام[2].

قال الطبري: ثمّ قال لأصحابه: مَن أحبّ منكم أن يتبعني وإلّا فإنّه آخر العهد، إنّي سأُحدّثكم حديثاً. غزونا بلنجر[3] ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي ـ وفي

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠.

(٢) الملهوف: ٦٤.

(٣) بلنجر: من بلاد الترك، غزاها المسلمون وأصحاب النبي، وكان ذلك في سنة ٢٢هـ وفي القمقام: بلنجر بفتح الموحّدة واللام وسكون النون وجيم مفتوحة وراء، مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قالوا: فتحها عبد الرحمن بن ربيعة وقال البلاذري سلمان (أي فتحها سلمان) بن ربيعة الباهلي وتجاوزها ولقِيَه خاقان في جيشه خلف بلنجر فاستشهد هو وأصحابه وكانوا أربعة آلاف وكان في أوّل الأمر قد خافهم الترك، وقالوا إنّ هؤلاء ملائكة لا يعمل فيهم السلاح فاتفق أنّ تركيّاً اختفى في غيضه ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه، إنّ هؤلاء يموتون كما تموتون فلِمَ تخافونهم فأجروا عليهم وأوقعوهم حتى استشهد عبد الرحمن بن ربيعة، وأخذ الراية أخوه ولم يزل يقاتل حتى أمكنه دفن أخيه بنواحي بلنجر ورجع ببقية المسلمين على طريق جيلان وقتل سلمان بن ربيعة وأصحابه، وكانوا ينظرون في كلّ ليلة نوراً على مصارعهم فأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت فهم يستسقون به إذا قحطوا. واحتمل أن الكلمة (بالبحر) وليس (بلنجر) وقد أخطأ النّساخ في كتابة الكلمة. وقد بدأ المسلمون في ذلك التاريخ بغزوات البحر.

روايات أُخر سلمان الفارسي ﷺ ـ أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم. فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمّد ﷺ فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم. فأمّا أنا فإنّي أستودعكم الله. قال: ثمّ والله ما زال في أوّل القوم حتّى قتل (رضوان الله عليه)[١].

٥ ـ في قصر بني مقاتل:

وفي قصر بني مقاتل رأى فسطاطاً مضروباً ورمحاً مركوزاً وفرساً واقفاً فسأل عنه فقيل هو لعبيد الله بن الحر الجعفي، وبعث إليه الحجاج بن مسروق الجعفي فسأله ابن الحر عمّا وراءه؟

قال: هدية إليك وكرامة، إن قبلتها. هذا حسين يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أُجرت وإن قتلت استشهدت فقال ابن الحرّ: والله ما خرجت من الكوفة إلّا لكثرة ما رأيته خارجاً لمحاربته وخذلان شيعته فعلمت أنه مقتول ولا أقدر على نصره ولست أُحبّ أن يراني وأراه[٢].

فأعاد الحجاج كلامه على الحسين فقام صلوات الله عليه ومشى إليه في جماعة من أهل بيته وصحبه فدخل عليه الفسطاط فوسّع لـه عن صدر المجلس. يقول ابن الحرّ: ما رأيت أحداً قط أحسن من الحسين ولا أملأ للعين منه، ولا رققت على أحد قط رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله، ونظرت إلى لحيته فرأيتها كأنّها جناح غراب، فقلت لـه أسواد أم خضاب؟ قال: يا بن الحرّ عجّل عليّ الشيب، فعرفت إنّه خضاب[٣].

ولمّا استقر المجلس بأبي عبد الله حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «يا بن الحرّ إنّ أهل مصركم كتبوا إليَّ أنّهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا[٤]، وإنّ عليك ذنوباً كثيرة، فهل لك من توبة تمحي به ذنوبك؟

قال: وما هي يا بن رسول الله؟

---

(١) نفس المهموم للشيخ عباس القمّي: ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٤٩.

(٣) خزانة الأدب للبغدادي ١ : ٢٩٨ ط. بولاق. وأنساب الأشراف ٥ : ٢٩١.

(٤) نفس المهموم: ١٠٤.

فقال: «تنصر ابن بنت نبيّك وتقاتل معه»[١].

فقال ابن الحرّ: والله إنّي لأعلم أنّ من شايعك كان السعيد في الآخرة ولكن ما عسى أن أُغني عنك ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً؟ فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة فإنّ نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه «الملحقة» والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلّا لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلّا سبقته، فخذها فهي لك.

قال الحسين: «أمّا إذا رغبت بنفسك عنّا فلا حاجة لنا في فرسك[٢] ولا فيك، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٣]. وإنّي أنصحك كما نصحتني، إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلّا أكبّه الله في نار جهنم»[٤].

وندم ابن الحرّ على ما فاته من نصرة الحسين عليه السلام فأنشأ:

أيا لَكَ حسرةً ما دمت حيّاً	تَرَدَّد بين صدري والتراقي
غداة يقولُ لي بالقصر قولاً	أتتركنا وتعزم بالفراق
حسينٌ حين يطلب بذل نصري	على أهل العداوة والشقاق
فلو فَلَقَ التلهّفُ قلبَ حرٍّ	لهمَ اليومَ قلبي بانفلاق
ولو واَسيتُه يوماً بنفسي	لنلْتُ كرامةَ يوم التلاق
مع ابن محمّد تُفديه نفسي	فودع ثمّ أسرع بانطلاق
لقد فاز الأُلى نصروا حسيناً	وخاب الآخرون ذووا النفاق[٥]

وفي هذا الموضع اجتمع به عمرو بن قيس المشرقي وابن عمّه فقال لهما الحسين: «جئتما لنصرتي، قالا له إنّا كثيروا العيال، وفي أيدينا بضائع للناس، ولم ندرِ ماذا يكون، ونكره أن نضيّع الأمانة.

فقال لهما عليه السلام: انطلقا فلا تسمعا لي واعية ولا تَرَيا لي سواداً، فإنّه من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجبنا، كان حقّاً على الله عزّ وجلّ أن يكبّه على منخريه في النار»[٦].

---

(١) أسرار الشهادة: ٢٣٣.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٤٩.

(٣) أمالي الصدوق: ٩٤ المجلس ٣٠.

(٤) خزانة الأدب ١: ٢٩٨.

(٥) مقتل الخوارزمي ١: ٢٢٨ وذكره الدينوري في الأخبار الطوال: ٢٥٨.

(٦) مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرّم: ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

٦ ـ في منزل شراف:

وفي (شراف) طلع عليهم الحرّ الرياحي بألف فارس، بعثه ابن زياد ليحبس الحسين ﷺ عن الرجوع إلى المدينة أينما يجده، أو يقدم به إلى الكوفة.

فسقاهمُ الحسين ﷺ ماءً وكانوا عطاشى، ثمّ خطب فيهم الحسين ﷺ وقال:

«إنّها معذرة إلى الله ﷻ وإليكم، وإنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم، وقدمت بها عليَّ رُسُلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، ولعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فأعطوني ما أطمئن به من عهودكم ومواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم»[١].

٧ ـ في منزل البيضة:

وفي منزل البيضة خطب الحسين ﷺ في أصحاب الحرّ فقال:

أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وأنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر وقد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم إنّكم لا تسلّموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن عليّ وأُمّي فاطمة بنت رسول الله. نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، ولكم فيَّ أُسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فَلَعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها، بأبي وأخي وابن عمّي مسلم. فالمغرور من اغترّ بكم. فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[٢].

---

(١) مقتل الحسين ﷺ للمقرّم: ١٩٥.

(٢) الطبري ٦: ٢٢٩. ومقتل الحسين: للمقرّم: ١٩٨.

٨ ـ في كربلاء:

وفي كربلاء أقبل حبيب بن مظاهر الأسدي إلى الحسين بن علي عليه السلام فقال: هاهنا حي من بني أسد بالقرب منا أتأذن لي أن أسير إليهم أدعوهم إلى نصرتك؟ فعسى الله أن يدفع بهم عنك بعض ما تكره، فقال له الحسين عليه السلام: قد أذنت لك يا حبيب. قال: فخرج حبيب بن مظاهر في جوف الليل متنكّراً حتّى صار إلى أُولئك القوم، فحيّاهم وحيّوه وعرفوا انه من بني أسد؛ فقالوا: ما حاجتك يا بن عمّ!؟ فقال: حاجتي إليكم قد أتيتكم بخير ما أتى به وافد إلى قوم، أتيتكم أدعوكم إلى نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير من ألف رجل، لن يخذلوه ولن يسلموه وفيهم عين نظرت، وهذا عمر[١] بن سعد قد أحاط به في اثنين وعشرين ألف، وأنتم قومي وعشيرتي، وقد جئتكم بهذه النصيحة فأطيعوني اليوم في نصرته تنالون غداً شرفاً في الآخرة، فإنّي أُقسم بالله أنّه لا يُقتل منكم رجل مع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله صابراً محتسباً إلّا كان رفيق محمّد صلى الله عليه وآله في أعلى علّيين. قال: فوثب رجل من بني أسد يُقال له بشر بن عبيد الله فقال: والله أنا أوّل من أجاب إلى هذه الدعوة؛ ثمّ أنشأ يقول:

قد علِم القوم إذا تواكلوا ... وأحجم الفُرسان أو تناصلوا
إنّي شجاع بطل مقاتل ... كأنّني ليث عرين باسل

قال: ثمّ تبادر رجال الحيّ مع حبيب بن مظاهر الأسدي.

قال: وخرج رجل من الحيّ في ذلك الوقت حتّى صار إلى عمر[٢] بن سعد في جوف الليل فخبره بذلك، فأرسل عمر رجلاً من أصحابه يُقال له الأزرق بن حرب الصيداوي، فضمّ إليه أربعة آلاف فارس، ووجّه به في الليل إلى حي بني أسد مع الرجل الذي جاء بالخبر.

قال: فبينما القوم في جوف الليل قد أقبلوا يريدون معسكر الحسين إذ استقبلهم جُند عمر بن سعد على شاطئ الفرات، قال: فتناوش القوم بعضهم [بعضاً] واقتتلوا قتالاً شديداً؛ صاح به حبيب بن مظاهر: ويلك يا أزرق ما لك ولنا دعنا؟ قال: واقتتلوا قتالاً شديداً.

فلما رأى القوم ذلك انهزموا راجعين إلى منازلهم، فرجع حبيب بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام فأعلمه بذلك الخبر فقال: لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم[٣].

---

(١) في النسخ: عمرو.

(٢) في النسخ: عمرو.

(٣) كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ٥: ١٥٩ ـ ١٦٢، ط١.

وفي كربلاء دعا الحسين عليه السلام بدواة وبيضاء، وكتب إلى أشراف الكوفة ممّن كان يظن أنّه على رأيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى سليمان بن صرد الخزاعي[١].

أما بعد فقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال في حياته من رأى سلطاناً جائراً إلى آخر ما ذكره في خطبة الأصحاب».

يوم عاشوراء:

وللحسين عليه السلام يوم عاشوراء استنصاران واستغاثة:

وفيما يلي تفصيل كل من الاستنصارين والاستغاثة الحسينية في يوم عاشوراء.

٩ ـ الاستنصار الأوّل يوم عاشوراء:

دعا الحسين عليه السلام براحلته يوم عاشوراء فركبها ونادى بصوت عال يسمعه جلّهم:

«أيّها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى أعظكم بما هو حقّ لكم عليّ، وحتّى اعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم. ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾».

فلمّا سمعن النساء هذا منه صِحن وبكين وارتفعت أصواتهم، فأرسل إليهنّ أخاه العباس وابنه علي الأكبر وقال لهما: «سكّتاهن فَلَعمري لَيكثر بكاؤهن».

ولمّا سكتن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمّد وعلى الملائكة والأنبياء، وقال في ذلك ما لا يُحصى ذكره ولم يسمع متكلّم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه[٢].

ثمّ قال: «الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم،

(١) نفَس المهموم: ٢٠٧، البحار ٤٤: ٣٨٢.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٢.

وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنِعم الرب ربنا وبِئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمّد ﷺ، ثمّ إنّكم زحفتم إلى ذرّيته وعترته تريدون قتلهم، وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم ولِما تريدون إنّا لله وإنّا إليه راجعون هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبُعداً للقوم الظالمين»[١].

«أيّها الناس، انسبوني من أنا ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟ أوَ ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أوَ ليس جعفر الطيّار عمي، أوَ لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ فإن صدّقتموني بما أقول، وهو الحق فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه وإن كذّبتموني فإنّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم إنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي».

فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق، ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

ثمّ قال الحسين عليه السلام: «فإن كنتم في شكّ من هذا القول أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم! أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص جراحة؟ فأخذوا لا يكلمونه.

فنادى: يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن أقدم قد أينع الثمار واخضرّ الجناب وإنما تقدم على جُند لك مجندة.

فقالوا: لم نفعل.

قال: سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم. ثمّ قال: «أيّها الناس، إذا كرهتموني فدعوني

---

(١) بحار الانوار ٤٥: ٥. العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ٢٤٩.

أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض، فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنّهم لن يروك إلّا ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد[١]، عباد الله ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب[٢].

١٠ ـ الاستنصار الثاني في يوم عاشوراء:

ثمّ إنّ الحسين عليه السلام ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه، ووقف بإزاء القوم وقال: «يا قوم، إنّ بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله»[٣].

ثمّ استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبيّ صلى الله عليه وآله ودرعه وعمامته فأجابوه بالتصديق فسألهم عمّا أقدمهم على قتله قالوا: طاعة للأمير عبيد الله بن زياد، فقال عليه السلام:

«تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً! أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم؟ فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم فهلا، لكم الويلات، تركتمونا، والسيف مشيم، والجأش طاعن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم كطيرة[٤] الدبا، وتداعيتم عليها، كتهافت الفراش، ثم نفضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان ومطفئي السُنن! ويحكم! أهؤلاء تعضدون وعنّا تتخاذلون؟ أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أُصولكم، وتأزرت فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجىً للناظر وأكلة للغاصب».

---

(١) بالفاء الموحدة فيما رواه ابن نما في مثير الأحزان: ٢٦، وهو أصح ممّا يمضي على الألسن، ويوجد في بعض المقاتل بالقاف من الإقرار لأنّه على هذا تكون الجملة الثانية غير مفيدة إلّا ما أفادته التي قبلها، بخلاف على قراءة «الفرار» فإنّ الجملة الثانية تفيد أنّه لا يفر من الشدة والقتل كما يصنعه العبيد، وهو معنى غير ما تؤدي إليه الجملة التي قبلها، على أنّه يوجد في كلام أمير المؤمنين ما يشهد له، ففي تاريخ ابن الأثير ٣: ١٤٨، وشرح نهج البلاغة ١: ١٠٤ المطبعة الأميرية: أنّ أمير المؤمنين قال في مصقلة بن هبيرة لمّا فرّ إلى معاوية: ماله فعل فعل السيّد وفرّ فرار العبد وخان خيانة الفاجر؟

(٢) مقتل الحسين للسيّد عبد الرزاق المقرّم: ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٣) تذكرة الخواص: ١٤٣.

(٤) بالكسر فالفتح «تاج العروس».

«ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت وأُنوف حمية ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة على قلة العدد وخذلان الناصر»[١].

١١ ـ الاستغاثة الأخيرة للحسين عليه السلام يوم عاشوراء:

ولما نظر الحسين عليه السلام كثرة من قتل من أصحابه، قبض على شيبته المقدسة وقال: «اشتد غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتد غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيّهم، أما والله لا أُجيبهم إلى شيء يريدون حتّى ألقى الله وأنا مخضب بدمي» ثم صاح: «أما من مغيث يغيثنا أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله»[٢] فبكت النساء وعلا صراخهن.

وسمع الأنصاريّان سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف استنصار الحسين عليه السلام واستغاثته وبكاء عياله وكانا مع ابن سعد فمالا بسيفهما على أعداء الحسين وقاتلا حتّى قُتلا[٣].

قال السيّد رحمه الله: ولما رأى الإمام الحسين عليه السلام مصارع فتيانه وأحبّته عزم على لقاء القوم بمهجته ونادى: هل من ذاب يذبّ عن حرم رسول الله، هل من موحّد يخاف الله فينا، هل مغيث يرجو الله بإغاثتنا، هل من مُعين يرجو ما عند الله في إعانتنا. فارتفعت أصوات النساء بالعويل، فتقدم إلى باب الخيمة وقال لزينب: ناوليني ولدي الصغير حتّى أُودعه، فأخذه وأومأ إليه ليقبّله، فرماه حرملة ابن كاهل الأسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه[٤].

فقال عليه السلام لزينب: خُذيه، ثم تلقّى الدم بكفيه فلمّا امتلأت رمى بالدم نحو السماء ثم قال: هوّن عليَّ ما نزل بي إنّه بعين الله[٥].

---

(١) نقلناها من اللهوف: ٥٤، ورواها ابن العساكر في تاريخ الشام ٤: ٣٣٣، والخوارزمي في المقتل ٢: ٦.

(٢) اللهوف: ٥٧.

(٣) الحدائق الوردية (مخطوط).

(٤) الملهوف: ١٠٢.

(٥) الملهوف: ١٠٣.

وحكى السبط في التذكرة عن هشام بن محمّد الكعبي قال: لما رآهم الحسين عليه السلام مصرّين على قتله، أخذ المصحف ونشره وجعله على رأسه ونادى: «بيني وبينكم كتاب الله وجدّي محمّد رسول الله، يا قوم بِمَ تستحلّون دمي؟» فَسَاق الكلام[1] إلى أن قال: فالتفت الحسين عليه السلام فإذا بطفل له يبكي عطشاً، فأخذه على يده وقال: يا قوم إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل، فرماه رجل منهم بسهم فذبحه، فجعل الحسين عليه السلام يبكي ويقول: «اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا». فنودي من الهواء: دعه يا حسين فإنّ له مرضعاً في الجنّة.

ثمّ قال: ورماه حصين بن تميم بسهم فوقع في شفتيه، فجعل الدم يسيل من شفتيه وهو يبكي ويقول: «اللهم أشكو إليك ما يفعل بي وبإخوتي وولدي وأهلي ـ الخ»[2].

١٢ ـ استنصار زهير رحمه الله يوم عاشوراء:

وخرج إليهم زهير بن القين على فرس ذنوب، وهو شاك في السلاح فقال: «يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار، إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن أُخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكُنّا أُمّة وأنتم أُمّة. إن الله ابتلانا وإيّاكم بذرية نبيه محمّد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا سوء، عمر سلطانهما، ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه». فسبّوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له وقالوا: لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى عبيد الله بن زياد سلماً.

فقال زهير: عباد الله إنّ ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم

---

(١) هذا كلامه عليه السلام الذي ساقه: ألست ابن بنت نبيكم، ألم يبلغكم قول جدي فيّ وفي أخي «هذان سيّدا شباب أهل الجنة» إن لم تصدّقوني فاسألوا جابراً وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري، أليس جعفر الطيّار عمي؟ فناداه شمر: الساعة ترد الهاوية. فقال الحسين عليه السلام: الله أكبر أخبرني جدي رسول الله فقال: رأيت كأن كلباً ولغ في دماء أهل بيتي وما أخالك إلّا إيّاه. فقال شمر: أنا أعبد الله على حرف إن كنت أدري ما تقول. فالتفت الحسين فإذا بطفل له ـ الخ. تذكرة الخواص: ١٤٣.

(٢) تذكرة الخواص: ١٤٣.

فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فَلَعمري إنّه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

فرماه الشمر بسهم وقال: اسكت أسكت الله نامتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال زهير: يا بن البوّال على عقبيه ما إيّاك أُخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال الشمر: إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال زهير: أفَبالموت تخوّفني؟ فوالله لَلْموت معه أحبّ إلى من الخُلد معكم، ثم أقبل على القوم رافعاً صوته وقال:

عباد الله لا يغرّنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم.

فناداه رجل من أصحابه: أنّ أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فَلَعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ[1].

ب ـ الدلالات

العناصر الأربعة في خطاب الاستنصار الحسيني

يتضمن خطاب الاستنصار الحسيني المضامين الأربعة التالية:

١ ـ المضمون السياسي في الخطاب الحسيني.

٢ ـ المضمون الحركي في الخطاب الحسيني.

٣ ـ الولاء والبراءة في الخطاب الحسيني.

٤ ـ استمرارية الخطاب الحسيني عبر التاريخ.

وفيما يلي توضيح وشرح لهذه المضامين الأربعة التي يتضمنها الخطاب الحسيني:

١ ـ المضمون السياسي لخطاب الاستنصار الحسيني:

الاستنصار، والتعبئة، وتحشيد الرأي العام، والإعلام ضد الطاغية، من مقوّمات كلّ مواجهة سياسية ضد نظام حاكم، يحكم بالظلم.

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

فإنّ الصراع على الحكم بين الحاكم والمعارضة صراع غير متكافئ من الناحية الميدانية.

ذلك أن الحاكم يملك من القوّة والمال والإعلام والسلطان ما لا يتملكه المعارضة.

ولا غنى للمعارضة، أيّة معارضة، في معركة من هذا القبيل من أن تعمل كلّ جهدها، وتسعى لكسب الرأي العام إلى جانبها، وكسب القوّة والاستنصار، وتحشيد الرأي العام والتعبئة.

ونحن على يقين أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يفكر، يومَ أقدم على الخروج... في أن يهزم طاغية عصره في مواجهة عسكرية ميدانية، ولا نحتاج إلى محاسبات عسكرية وسياسية لنعرف أنّ الحسين عليه السلام لم يكن بصدد إسقاط يزيد، وانتزاع السلطان والمُلك والحكم من يده، وهو أولى به من غيره.

وإنّما كان الحسين عليه السلام يفكر في أمرين أحدهما سياسي، والآخر حركي.

أمّا الهدف السياسي من حركة الحسين عليه السلام فهو إلغاء شرعية الخلافة الأُموية وفضح يزيد، وكسر هيبته وعزله سياسياً واجتماعياً.

وأمّا الهدف الحركي فهو توعية الناس، وكسر حاجز الخوف، وتحريك الناس وتثويرهم لإسقاط نظام الطاغية، واستنهاض الأُمّة، وإعادة إرادتها المسلوبة ووعيها المسلوب إليها، وسوف أتحدث عنها في النقطة القادمة.

والهدف الأوّل هدف سياسي بالتأكيد، والحسين عليه السلام يدخل في مواجهة سياسية مع أعتى نظام سياسي وأشرسه، والاستنصار جزء من هذه المعركة.

والاستنصار دعوة إلى تطويق النظام الأُموي ومحاصرته وعزله، وتحجيم دوره وإلغاء شرعيّته... وهو جزء من رسالة الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعركة الشاملة.

٢ ـ المضمون الحركي لخطاب الاستنصار الحسيني

والدلالة الأُخرى لخطاب الاستنصار الحسيني هي الدلالة الحركية...

ولتوضيح ذلك لابدّ أن نرسم الإطار العام لخروج الحسين عليه السلام وعناصر هذا الإطار ثلاثة.

أ ـ رفض البيعة ليزيد:

وقد أعلن الحسين عليه السلام رفضه لبيعة يزيد عندما أرسل الوليد والي بني أُميّة في المدينة، يطالبه بالبيعة بعد هلاك معاوية، وكان ذلك بحضور مروان بن الحكم، فامتنع الإمام الحسين عليه السلام من البيعة، وقال مثلي لا يبايع سرّاً فإذا دعوت الناس دعوتنا معهم.

فاستجاب الوليد لكلام الإمام، لكن مروان ابتدره قائلاً: إن فارقك الساعة، ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتّى يبايع أو تضرب معهم.

فقال الحسين عليه السلام يا بن الزرقاء[1] أنت تقتلني أم هو، كذبت وأثمت.

ثم أقبل على الوليد، وقال: أيّها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون[2].

وفي كربلاء خطب الحسين عليه السلام وقال: «إنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد خيّر بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله وحجور طابت وطهرت».

ب ـ إعلان الرفض:

أعلن الحسين عليه السلام رفضه للبيعة ولم يتكتم به، وعرف الناس جميعاً إنّ الحسين عليه السلام ممتنع عن البيعة ونصحه بعض الناس بالبيعة وآخرون أن يخفي نفسه عن الأمصار..

فرفض هذا وذاك، وأعلن للناس أنّه يرفض البيعة ويريد الخروج إلى مكة، وترك وصيّته إلى بني هاشم وكافة المسلمين عند أخيه محمّد بن الحنفية وغادر المدينة إلى مكة، سالكاً الطريق العام الذي يسلكه الناس، ويراه الناس فيه، فقيل له لو تنكّبت الطريق الأعظم، كما فعل ابن الزبير قال: لا والله لا أُفارقه حتّى يقضي الله ما هو قاضٍ[3].

ودخل مكة، وهو يقرأ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) هي الزرقاء بنت موهب جدة مروان بن الحكم لأبيه وكانت من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغاء، فلذا كان الحكم وبنوه يذمون بها، نص على هذا كله ابن الأثير حيث ذكر صفة مروان ونسبه وأخباره في حوادث سنة ٦٥ للهجرة ص ٥٧ من الجزء الرابع من تاريخه الكامل ـ وصرح به غير واحد من أهل الأخبار.

(٢) لواعج الأشجان: ٢٥. واللهوف: ١٧. والفصول المهمة ٢: ٧٨٢. والفتوح ٥: ١٤. والأمالي للصدوق: ١٢٩ ضمن ح١. ومقتل الخوارزمي ١: ١٨٤. ومثير الأحزان: ٢٤. والبحار ٤٤: ٣٢٥، العوالم ١٧: ١٧٣.

(٣) إرشاد المفيد٢: ٣٥.

ونزل دار العباس بن عبد المطّلب[١]، واختلف إليه أهل مكة ومَن بها من المعتمرين وأهل الآفاق، وكان ابن الزبير يأتي إلى الحسين عليه السلام فيمن يأتيه.

وكان بإمكان الحسين عليه السلام أن يأخذ بنصيحة من ينصحه، بإخفاء نفسه، فيخفي نفسه عن الأنظار، ويذهب إلى بعض الثغور، ويبتعد عن الأضواء، وبذلك يسلم من أذى بني أُميّة وكيدهم، وكان لا يخفى هذا الوجه على الحسين عليه السلام، كما صرح بذلك لجملة من الذين نصحوه، ولكنّه أصرّ أن يرفض البيعة، وأصرّ أن يعلن رفضه، ويبقى تحت الأضواء، ويصارح الناس برأيه في يزيد وبيعته، وبأنه أحقّ بذلك من كل إنسان آخر على وجه الأرض.

ج ـ الخروج والثورة:

وأصرّ الحسين عليه السلام بعد ذلك أن يخرج من الحجاز إلى العراق ليواجه فيه بني أُميّة.

وإذا أنعمنا النظر في كلمات أُولئك الذين نصحوا الحسين عليه السلام بالامتناع عن الخروج إلى العراق نجد أنّ كلامهم يتضمن ثلاث نقاط:

الأولى: إنّ خروج الحسين عليه السلام إلى العراق بمعنى الثورة[٢] والمواجهة بعينها لنظام بني أُميّة.

والثانية: إنّ شيعة الحسين عليه السلام في العراق إذا وفوا للحسين عليه السلام بعهودهم ومواثيقهم، فلن يستطيعوا أن يدفعوا عن الحسين عليه السلام كيد بني أُميّة ومكرهم وشرّهم، ولن يغلبوا سلطان بني أُميّة على العراق، فكيف إذا خذلوه كما كانوا يتوقّعون.

والثالثة: بناءً على ذلك فإنّ الحسين عليه السلام إذا خرج إلى العراق فهو مقتول لا محالة.

ولم تكن هذه الحقائق تخفى على الإمام عليه السلام، ولم يكن يجهل الإمام عليه السلام إنّ خروجه إلى العراق بمعنى الخروج على سلطان بني أُميّة علانية، ولم تكن تخفى على الحسين عليه السلام عاقبة هذا الخروج.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٢٨.

(٢) انظر نصيحة محمد بن الحنفية للحسين عليه السلام في المدينة ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ٧، ونصيحته له في مكة ـ البحار ٤٤: ونصيحة عبد الله بن جعفر الطيّار له بالامتناع عن الخروج إلى العراق ـ الطبري ٦: ٢١٩، ونصيحة عبد الله بن العباس له ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٦، ونحن نشكّ في صدق كلّ هؤلاء في نصيحتهم للحسين عليه السلام، ولا نشك أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يخفى عليه هذا الوجه من الرأي.

ولا يصح ما يرويه بعض الناس أنّ الإمام الحسين عليه السلام طلب منهم أن يُخلوا له الطريق إلى بعض الثغور، بعيداً عن الأضواء، وبعيداً عن التصدّي والمواجهة، فلا يعطيهم يده للبيعة ولا يتصدّى للخروج والمواجهة.

روى الطبري وابن الأثير عن عقبة بن سمعان أنّه قال: صحبت حسيناً فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أُفارقه حتّى قتل عليه السلام، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة، ولا بمكة، ولا في الطريق ولا بالعراق، ولا في معسكر إلى يوم قتله إلّا وقد سمعتها. لا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: «دعوني في هذه الأرض حتّى ننظر ما يصير أمر الناس»[1].

وكان من رأي محمّد بن الحنفية أن يخفي الحسين عليه السلام نفسه عن الأنظار، ويبتعد عن أجواء المواجهة والتصدّي، ويلتحق بالجبال وشعب الجبال، ويخرج من بلد إلى آخر، حتّى ينظر ما يصير إليه أمر الناس[2].

فأبى الحسين عليه السلام وأصرّ على الخروج ونصحه ابن عباس أن يسير إلى اليمن، فإنّ بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيه عليه السلام بها شيعة، وهو عن الناس في عزلة.

فقال له الحسين عليه السلام: «يا بن العم إنّي والله أعلم إنّك ناصح مشفق، وقد أزمعت على المسير»[3].

إذن فإنّ الحسين عليه السلام كان يقصد الخروج ويريده، وهو على علم بكل لوازمه وتبعاته وعواقبه.

هذا هو الإطار العام لحركة الإمام الحسين عليه السلام وموقفه من المدينة إلى كربلاء، وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم خطاب الاستنصار الحسيني.

إنّ الحسين يعلم أنّه إن خرج إلى العراق يُقتل لا محالة، وكل القرائن والدلائل تشير إلى هذه الحقيقة.

إذن فإنّ الحسين عليه السلام يطلب النصر بالقتل والدم. ولم يكن يفطن يومئذٍ ابن عباس وعبد

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣١٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٥.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ١٩١، وأنساب الأشراف ٤: ١٥.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٦.

الله بن جعفر الطيار ومحمّد بن الحنفية لهذه الوسيلة التي اتخذها الحسين عليه السلام يومئذٍ طريقاً إلى النصر.

لقد كان الحسين عليه السلام شاهداً لنجاح المؤامرة الأُموية التي قادها آل أبي سفيان للانقلاب على الأعقاب... وقد فقدت الأمّة في عرضها العريض حصانتها تجاه هذه المؤامرة، وعاد الضمير الإسلامي لا يملك الدرجة الكافية من المناعة والمقاومة. ولا يختلف في ذلك أهل العراق عن أهل الشام، وأهل مصر عن أهل الحجاز، فأراد الحسين عليه السلام أن يحدث هزة بشهادته وشهادة الثلّة الطيبة من أهل بيته وأصحابه في الضمير الإسلامي، ويعيد إليهم ما سلبه منهم آل أبي سفيان من ضمائرهم وعزائمهم ورشدهم.

وقد كان الذي يريده الحسين عليه السلام بمصرعه ومصرع أهل بيته وأصحابه والمأساة التي يتناقلها أهل السير فأحدث في الضمير الإسلامي هزة عنيفة، وصحوة ضمير كانت مبدأ كثير من البركات والثورات والوعي واليقظة السياسية في تاريخ الإسلام.

المؤامرة الأموية على دم الحسين عليه السلام

وقد خطط آل الطلقاء لإهدار دم الحسين عليه السلام في مكة في موسم الحج، وبلغ الحسين عليه السلام أنّ يزيد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص في عسكر، وأمّره على الحج وولّاه أمر الموسم، وأوصاه بالفتك بالحسين أينما وَجَدهُ[1]، فعجّل الحسين بالخروج من مكّة قبل الوقوف بعرفات يوم التروية، ولم يمكّن بني أُميّة من اغتياله فيذهب دمه هدراً، وبذلك أحبط المؤامرة التي خطط لها بنو أُميّة.

يروي أبو مخنف عن أسديّين قالا: خرجنا من الكوفة حتّى قدمنا مكّة، فدخلنا يوم التروية فإذا نحن بالحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحجر والباب... فسمعنا ابن الزبير يقول للحسين عليه السلام: إن شئت أن تقيم أقمت فولّيت هذا الأمر؛ فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك.

فقال الحسين عليه السلام: «إنّ أبي حدّثني أنّ بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أحبّ أن أكون ذلك الكبش»[2].

---

(١) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٧٢، والمنتخب: ١٧٢.

(٢) تاريخ الطبري ٧: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

ولمّا بلغ عمرو بن سعيد أنّ حسيناً قد خرج فقال اطلبوه. اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض فاطلبوه. فعجب الناس من قوله هذا[١].

فاعترضه عليه السلام يحيى بن سعيد بن العاص ومعه جماعة أرسلهم عمرو بن سعيد إليه فقالوا له: انصرف أين تذهب؟ فأبى عليهم ومضى وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط وامتنع الحسين عليه السلام وأصحابه امتناعاً قويّاً[٢].

وواضح لمن يعلم خفايا كيد بني أُمية، أنّ بني أُمية كانوا لا يريدون أن يعطوا للحسين عليه السلام فرصة للخروج والثورة، وكانوا يخططون لاغتيال الحسين عليه السلام.

وقد جاء عمرو بن سعيد بن العاص من عند يزيد بخطة كاملة لاغتيال الحسين عليه السلام في الموسم.

فلمّا علم الإمام بذلك غادر مكّة إلى العراق يوم التروية، ليفوّت على آل أبي سفيان فرصة المؤامرة ويحبط عليهم خطّتهم.

وقد أزعج عمرو بن سعيد بن العاص نبأ مغادرة الحسين عليه السلام للموسم يوم التروية بهذه الصورة، وأرسل إليه يحيى بن سعيد بن العاص ليطلب من الحسين أن يعود إلى الموسم، إلّا انّه رجع من دون أن يحقق شيئاً ممّا كان يريده عمرو بن سعيد بن العاص، كما لم يصنع مروان بن الحكم قبله شيئاً، عندما أنكر على الوليد أن يترك الحسين عليه السلام ليخرج من عنده من غير بيعة في تلك الليلة.

وقال له بصراحة (إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتّى يبايع أو تضرب عنقه).

ولكن الحسين عليه السلام كان قد أعدّ العدّة لمثل هذه المفاجأة من قبل، فصحب معه جمعاً من الفتيان، وقفوا بسيوفهم على باب الأمير ليتدخّلوا بالقوّة إذا اقتضى الأمر، وكان كذلك.

عودة إلى الدلالة الحركية للخطاب الحسيني:

إذن، كان الحسين عليه السلام يعدّ للخروج والثورة على يزيد، وهو لا يريد بهذه لثورة إلحاق هزيمة عسكرية بيزيد، وإنّما يريد أن يستنهض المسلمين ويحفّزهم ويحرّكهم لمقاومة الظالم، ويعيد إليهم وعيهم وضمائرهم وعزائمهم كما قلنا.

---

(١) العقد الفريد ٤ : ٣٧٧.

(٢) الارشاد ٢: ٦٨.

فلست أدري ماذا دهى المسلمين حتّى رضوا بيزيد بن معاوية خليفة لرسول الله ﷺ ولم يمض من وفاة رسول الله ﷺ أكثر من نصف قرن.

وخطاب الاستنصار الحسيني يحمل الدعوة إلى الثورة والمقاومة في وجه الظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول عليه السلام في منزل البيضة في أصحاب الحر:

«أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله». وهذه هي الصفة البارزة الثانية في خطاب الاستنصار الحسيني.

٣ ـ الولاء والبراءة في خطاب الاستنصار الحسيني

للاستنصار علاقة وثيقة بشبكة الولاء، فتجب النصرة في شبكة الولاء عند الاستنصار. وشبكة الولاء ذات بعدين: البعد العمودي، والبعد الأُفقي، وهما سواء في وجوب النصرة عند الاستنصار.. ولذلك فقد كان الحسين عليه السلام ينذر الذين يعتذرون عن نصرته وينصحهم أن يغيبوا عن الساحة حتى لا يسمعوا واعيته (صرخة الاستنصار والاستنجاد) فإنهم إن سمعوا استنصاره فلم ينصروه أكبّهم الله في النار. ولابد لهذا الإجمال من تفصيل. وإليك هذه التفصيل:

أبعاد الولاء:

للولاء بعدان: بعد عمودي، وآخر أفقي، كخيوط النسيج (السدية واللحمة). ومن هذين البعدين يتكون نسيج الولاء، وهو أقوى نسيج حضاري في شبكة الولاء.

البعد العمودي لشبكة الولاء:

يتألف هذا النسيج الاجتماعي من علاقة عمودية، قوامها الطاعة والنصرة بين الناس من جانب والله ورسوله وأولياء الأمور من جانب آخر، وهو قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[١]، والمقصود من ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ هو علي بن أبي طالب عليه السلام، كما يقول المفسرون وحفاظ الحديث النبوي من الفريقين.

وعليه ففي آية المائدة ولاءات ثلاثة متتالية، بعضها يقع في امتداد بعض، وهي ولاية الله وولاية رسوله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وأهم مقومات هذا الولاء الطاعة والنصرة. وسوف يأتي الحديث عن متطلبات الولاء بعد الحديث عن الولاية على البعد الافقي.

البعد الأُفقي من شبكة الولاء:

وأمّا البعد الأُفقي في هذه الشبكة فهو الولاء للمؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٢] وعلى هذا البعد من شبكة الولاء: المؤمنون أُسرة واحدة، تربطهم رابطة الولاء، مهما كانت لغاتهم وألوانهم وأوطانهم وطبقاتهم.

ويشترك البعد العمودي والبعد الأُفقي في الولاء في وجوب الحبّ والنصر والنصيحة والسلام، ويتميّز البعد العمودي من الولاء بوجوب الطاعة، فتجب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر، وطاعة من يأمر الله تعالى ورسوله وأُولوا الأمر بطاعتهم.

الصيغة التوحيدية في شبكة الولاء:

وكلّ ما يجب في هذه الشبكة على أعضائها من الحبّ والنصر والتعاون والنصيحة والسلام والتعاون والطاعة، إنّما يجب بأمر الله تعالى.

ويأتي في امتداد طاعة الله تعالى وحده، فلا طاعة لرسول الله ولا لأُولي الأمر من دون طاعة الله، وإنّما يجب طاعتهما بأمر الله.

ولا يجب حبّ رسول الله ولا أُولي الأمر ولا المؤمنين، ولا يجب نصرهم ولا تجب نصيحتهم إلّا بأمر الله تعالى.

وهذه هي الصيغة (التوحيدية) لشبكة الولاء، وهي خصوصية بارزة ومحورية في كلّ هذه الشبكة، وفي كلّ ما يجب ويحرم في هذه الشبكة الواسعة، وفي أعضاء أُسرة التوحيد الكبيرة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

مقوّمات الولاء في البعد الأُفقي:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾(١).

وهذه المجموعة من العناصر هي التي تشدّ المؤمنين بعضهم ببعض بآصرة الولاء. وهذه المجموعة هي الإيمان، والهجرة، والجهاد، بالأموال والأنفس والإيواء والنصرة.

والآية الكريمة وإن كانت تُشير إلى المهاجرين والأنصار صدر الإسلام. ولكن تبقى هذه العناصر بروحها من ثوابت الولاء، ولا ولاء من دونها بين المؤمنين.

ذلك أنّ أُسرة التوحيد الكبيرة تقف في مواجهة الشِرك والكفر والظلم والاستكبار.

وهذه المواجهة حتمية من ناحية، ومصيرية من ناحية أُخرى.. حتمية بأمر من الله تعالى، لابد منها، ومصيرية بالنسبة إلى الأمة المسلمة، تسقط من دونها في الصراع القائم بين التوحيد والشرك، فلابدّ أن يدخل المؤمنون في هذه المواجهة كتلة واحدة وصفّاً واحداً، تربطهم آصرة الولاء «بعضهم من بعض» كما أنّ الأمر كذلك في أُسرة الشِرك والكفر تدخل في هذه المواجهة كتلة واحدة، تربطها علاقة الولاء العضوية وبعضهم من بعض.

الولاء والإيمان الحقّ:

والإيمان الحقّ، هو الإيمان الفاعل المؤثر الذي يشدّ بعض المؤمنين ببعض، ويجعلهم في مواجهة الكفر والشِرك والاستكبار. والإيمان الحقّ خصيب وليس بعقيم. يوصل ويفصل: يوصل المؤمنين بعضهم ببعض، ويفصل المؤمنين عن المشركين والكافرين.

والإيمان الحقّ مصدر عطاء وحركة ونصر وفعل في حياة الإنسان المسلم. ولا يكون الإيمان حقّاً إلّا ضمن شبكة الولاء بكل مقوماتها.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٢).

وهذه هي القضية الأُولى، والقضية الثانية أنّ المؤمنين حقّاً بعضهم من بعض.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٤.

يعني أن الإيمان الحقّ يجمع شتات المؤمنين، ويجعلهم كتلة واحدة وصفّاً واحداً، ويجعل بعضهم من بعض كأعضاء الجسد الواحد.

خصائص وآثار شبكة الولاء

السلام والعصمة في شبكة الولاء:

من أهم خصائص شبكة الولاء حالة (السلام) و(العصمة). الإنسان المسلم يتعامل مع الآخرين بسلام. ويتمتع تجاه تعامل الآخرين بالعصمة، يمنح الآخرين السلام في تعامله معهم وعلاقته بهم، ويتمتع هو بالعصمة فلا يحق له أن يعتدي على أحد، ولا أن يؤذي أحداً من المسلمين ويظلمه، كما لا يحق لأحد أن يخترق العصمة التي منحها الله تعالى، ويهتكها.

فهو يعيش مع الآخرين (بسلام) من طرف، ويطالب الآخرين (بالعصمة) من طرف آخر، وهذا أحد أهم بنود الولاء في علاقة المؤمنين بعضهم ببعض داخل شبكة الولاء.

وإليكم توضيحاً موجزاً لهاتين الكلمتين: (السلام) و(العصمة).

معنى السلام:

رُوي عن رسول الله ﷺ: (المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده إلّا بالحقّ، ولا يحق أذى المسلم إلّا بما يجب)[١].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يخونه، ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله رُحماء بينكم، متراحمين)[٢].

وشبكة الولاء على متانتها واستحكامها وقوّتها حسّاسة شديدة الحساسية تجاه الإساءة والأذى.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إذا قال رجل لأخيه المؤمن أُفّ خرج من ولايته.

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٣٥٤ ح٥٦ عن الكافي.

(٢) وسائل الشيعة ٨: ٥٤٣.

وإذا قال: أنت عدوّي كفر أحدهما، ولا يُقبل من مؤمن عملاً، وهو مُضمر على أخيه سوءاً»[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللعنة إذا خرجت من صاحبها ترددت بينه وبين الذي يُلعن، فإن وجدت مساغاً، وإلّا رجعت إلى صاحبها، وكان أحقّ بها، فاحذروا أن تلعنوا، فيحلّ بكم»[٢].

العصمة:

وعن العصمة روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذّبه ولا يخذله. كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه»[٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كل مسلم على مسلم محرّم»[٥].

عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وقف بمنى حين قضى مناسكها في حجة الوداع فقال: «أيّها الناس اسمعوا ما أقول لكم واعقلوا عنّي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا ثمّ قال: أيّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا هذا اليوم، قال: فأيّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: فأي بلد أعظم حرمة قالوا: هذا البلد.

قال: فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم. ألا هل بلغت؟ قالوا نعم[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا اله إلّا الله، فإذا قالوا فقد حرم عليَّ دماؤهم وأموالهم»[٧].

---

(١) وسائل الشيعة ٨: ٦١١.
(٢) وسائل الشيعة ٨: ٦١٣.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٩١.
(٤) سُنن الترمذي ٤: ٣٢٥، ح١٩٢٧.
(٥) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤ و٥.
(٦) الكافي، الفروع ٧: ٢٧٣، ووسائل الشيعة ١٩: ٢.
(٧) بحار الأنوار ٦٨: ٢٤٢.

وعن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، فإذا قالوا لا إله إلّا الله. عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله»[١].

علاقة النصر بشبكة الولاء:

وعلاقة النصر بشبكة الولاء علاقة وثيقة ومُحكمة.

يقول تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[٢].

فإذا استنصر المسلمين مسلمون من مشارق الأرض أو مغاربها وجب على المسلمين ـ على نحو الكفاية ـ المبادرة إلى نصرهم.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أصبح ولم يهتم بأُمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً يُنادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[٣].

وعن البراء بن العازب قال: أمر النبيّ ﷺ بسبع ونهانا عن سبع. فذكر ردّ السلام ونصر المظلوم وإجابة الداعي وإبرار القسم[٤].

وعن الصادق عن أبيه عليه السلام قال: «لا يحضرن أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً ولا مقتولاً ولا مظلوماً إذا لم ينصره، لأنّ نصرة المؤمن على المؤمن فريضة واجبة، إذا هو حضره، والعافية أوسع ما لم يلزمك الحجّة الظاهرة»[٥].

ويحرم خذلان المسلم إذا دعاه إلى نصرته وهو قادر على نصرته.

عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأُمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء، ومَن شهد رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس من المسلمين»[٦].

وقد سبق هذا الحديث بلفظ قريب.

---

(١) مشكاة المصابيح: ١٢ ـ ١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٣) وسائل الشيعة ١١: ٥٦٠.

(٤) صحيح البخاري ٢: كتاب المظالم باب ٥.

(٥) بحار الأنوار ٧٥: ١٧ عن قرب الإسناد: ٢٦.

(٦) بحار الأنوار ٧٥: ٢١ عن نوادر الراوندي: ٢١.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من مؤمن يخذل أخاه، وهو يقدر على نصرته إلّا خذله الله في الدنيا والآخرة»[١].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما من مؤمن يعين مؤمناً مظلوماً إلّا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلّا نصره الله في الدنيا والآخرة»[٢].

عندما ينتهك السلام ترتفع النصيحة والعصمة:

ومن دون (السلام) تنتفي الولاية. وإذا انقطعت الولاية انقطعت معها (النصيحة) و(العصمة) فلا تجب نصيحة ولا تحق عصمة، وكان كل فئة منهم (أمة) فإذا كانت إحداهما على الحق، كانت الأخرى على الباطل، لا محالة.

وهذا هو الذي يشير إليه زهير بن القين رضوان الله عليه، عندما خطب الناس يوم عاشوراء.

فقال: (يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله. نذار إنّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة).

وهو كلام دقيق، يحمل فهماً دقيقاً للولاء.. فإن الناس الذين جاؤوا من الكوفة لقتال الحسين عليه السلام لا يزالون قبل أن يرفعوا السيف على أصحاب الحسين عليه السلام، أخوة لهم، وهم جميعاً أمة واحدة وعلى دين واحد، تجب نصيحتهم، ويحق لهم (العصمة) ويجب الكف عن حربهم، وإعلان السلم لهم، فإذا وقع السيف وانتهك السلام انتهكت الولاية معها، وإذا سقطت الولاية سقطت العصمة.. وعندئذ تتحول هذه الأمة من المسلمين المجتمعين على ساحة الطف إلى أمتين متقاتلتين.. فإذا كان الحسين عليه السلام وأنصاره على دين الله، كان أولئك على دين غير دين الله، لا محالة.

وقبل أن يفوت الأوان، وقبل أن يقع بينهم السيف، يدعوهم زهير أن يحددوا موقعهم من هذا الصراع الدائر بين الحسين أبي عبد الله عليه السلام والطاغية يزيد وابن زياد، فلا يجوز أن

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٧ عن أمالي الصدوق: ٢٩١.

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٢٠ عن ثواب الأعمال: ١٣.

يقفوا في هذا الصراع موقف المتفرج اللامنتمي، الذي لا يهمه أمر هذا الصراع كما يقف أحدنا على مشهد مباراة بين فريقين على أرض الملعب. ويحرم عليهم أعظم الحرمة أن ينتهكوا حرمة أصحاب الحسين (رضوان عليهم).

إنّه الصراع الذي يفرض الموقف على الإنسان نصراً وحرباً، فيقول لهم زهير رحمه الله: (عباد الله، إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية)، ثم ينذرهم الانذار الاخير، لئلا تكون لاولئك من حجة وعذر يوم القيامة، فيقول لهم: (فان لم تنصروهم فاعيذكم بالله أن تقتلوهم). ولست أدري كم كانت معاناة زهير (رضوان الله عليه) وكم كان الألم يعصر قلبه، وهو يقول لهم هذه الكلمة الأخيرة.. فيقول لهم: (فإن أبيتم أداء حق الولاية لآل محمد ونصرتهم كما أمرنا الله تعالى، فقفوا من هذا الصراع الدامي بين الإمام وأنصاره من جانب والطاغية وجنده من جانب آخر موقف المتفرج اللامبالي الذي يغضب الله ورسوله والمؤمنين بالتأكيد، ولا تنحدروا أكثر من ذلك، فتقاتلوهم، وترجعوا بخزي الدنيا وخسارة الأخرى والخلود في عذاب الجحيم.

لقد أنذرهم (زهير) رضوان الله عليه ما كان بوسعه من انذار، وبين لهم على أية حافة خطرة يقفون، قبل ان يسقطوا في الهاوية، وكان لابد في حساب الله من هذا الأنذار ليهلك من يهلك عن بينة ويحيى من يحيى عن بينة، وقد جعل الله هذا الانذار الاخير على لسان زهير رحمه الله.

فناداه رجل من أصحابه: إن أبا عبد الله عليه السلام يقول لك: أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ.

استنصاران للحسين عليه السلام في قصر بني مقاتل:

وإذا لم يسع المسلم تلبية استنصار المسلمين وإجابة دعوتهم، ونصرهم فلا يحضر استغاثتهم واستنصارهم.

وقد مرّ بنا قريباً قول الإمام الصادق عليه السلام، حسب الرواية: «لا يحضرن أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً».

وقد كان الحسين عليه السلام إذا استنصر رجلاً فأبى عليه ينصحه أن يبتعد عنه ويغيب عن مصرعه لئلّا يسمع باستغاثته.

وكان للحسين عليه السلام لقاءان في منزل قصر بني مقاتل[1] في طريقه إلى كربلاء:

اللقاء الأوّل بعبيد الله بن الحرّ الجعفي، واللقاء الثاني بعمرو بن قيس المشرقي وابن عمّه.

وقد استنصرهم الحسين عليه السلام جميعاً، فاعتذروا ولم تطب نفسهم بالموت، فنصحهم الحسين عليه السلام أن يبتعدوا عنه ويغيبوا عن مصرعه، لئلّا يسمعوا استغاثته فلا يجيبوه فيكبّهم الله تعالى في النار.

في اللقاء الأول التقى بعبيد الله بن الحرّ الجعفي فاستنصره، فاعتذر عبيد الله كما ذكرنا ذلك من قبل، وقال له انه لا يشك أنّ من شايعه كان سعيداً في الآخرة، ولكن نفسه لا تطيب بالموت، وأهدى إلى الحسين عليه السلام فرسه(الملحقة) ومدحها.

فقال له الحسين عليه السلام: «أما إذا رغبت بنفسك عنّا فلا حاجة لنا في فرسك، ولا فيك، وما كنت متّخذ المضلّين عضُداً، وإنّي أنصحك كما نصحتني إن استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلّا أكبّه الله في نار جهنّم»[2].

واللقاء الثاني في نفس المنزل بعمرو بن القيس المشرقي وابن عمّه، رواه الصدوق في عقاب الأعمال.

قال: دخلت على الحسين أنا وابن عمّ لي، وهو في قصر بني مقاتل فسلمنا عليه.

فقال له ابن عمّي: يا أبا عبد الله هذا الذي أراه خضاب أو شعرك، فقال خضاب والشيب إلينا بني هاشم يعجّل.

ثمّ أقبل علينا. فقال: جئتما لنصرتي، فقلت: إنّي رجل كبير السن، كثير الدين كثير العيال، وفي يدي بضائع الناس ولا أدري ما يكون، وأكره أن أضيع أمانتي.

وقال له ابن عمّي مثل ذلك.

---

(١) يقول السيّد عبد الرزّاق المقرّم: إنّ القصر ينسب إلى مقاتل بن حسّان بن ثعلبة يقع بين عين التمر والقطقطانة والقربات، خرّبه عيسى بن علي بن عبد الله بن العبّاس ثمّ جدّده.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٠٢ ـ ٢٠٤ نقلاً عن أمالي الصدوق، المجلس ٣٠، وخزانة الأدب ١: ٢٩٨.

قال لنا: فانطلقا فلا تسمعا لي واعية، ولا تَرَيا لي سواداً، فإنّه من سمع واعيتنا، أو رأى سوادنا فلم يجبنا، ولم يعبأ، كان حقّاً على الله ﷻ أن يكبّه على منخره في النار.

الاستنصار لإتمام الحجّة:

عاشوراء مفترق طريق، ومن فارق الحسين عليه السلام في عاشوراء عن علم وعمد، وسمع واعيته، وحضر استغاثته فلم ينصره فسبيله نار جهنم، لا شكّ في ذلك.

وقد شطر الناس عاشوراء منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم، شطرين: شطر إلى الجنّة وشطر إلى النار.

فمن كان رأيه من رأي الحسين عليه السلام وهواه مع الحسين عليه السلام وموقفه مع الحسين عليه السلام كان سبيله الجنّة.

ومن كان رأيه من رأي يزيد وهواه مع يزيد وموقفه مع يزيد كان سبيله النار.

ذلك أنّ الحسين عليه السلام وارث الأنبياء والصدّيقين والمرسلين في مسير التاريخ كلّه، فمن كان هواه مع الحسين عليه السلام، كان لا محالة مع حركة الأنبياء والمرسلين والصدّيقين، ومن كان هواه مع آل أبي سفيان، كان موقفه لا محالة، مع أعداء الأنبياء وخصومهم.

وقد شطر عاشوراء الناس كما ذكرنا منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم شطرين: (أنصاراً) و(أعداءً).

ولسنا نعرف شطراً وسطاً بينهما إلّا أن يكون من المستضعفين الذين يرجون رحمة الله بالاستضعاف. إذن (عاشوراء) مفترق طريق.

وقد كان الحسين عليه السلام يحرص يوم عاشوراء وقبله أن يتمّ الحجّة على كلّ أُولئك الذين وقفوا مع آل أبي سفيان، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾، وكان يحرص أن ينقذ من يمكن إنقاذه، ويصلح من يمكن إصلاحه ويهدي من يمكن هدايته.

كان الحسين عليه السلام يتمّ الحجّة في استنصاره واستغاثته الذي تكرّر منه على كلّ الذين قاتلوه وحاربوه وظلموه، أو وقفوا من مصرعه موقف المتفرّج الذي لا يبالي ماذا حدث.

فقد كان عليه السلام يعلم بأنّ لهذا اليوم شأناً كبيراً في التاريخ، وأنّه مفترق الطريق بين الحق والباطل والهدى والضلال، فأراد أن يتمّ الحجّة على الناس لئلّا يكون للناس حجّة.

تنوّع الخطاب الحسيني:

ولذلك نجد أنّ الخطاب الحسيني للاستنصار خطاب متنوّع.

فهو عليه السلام حريص على أن ينفذ إلى تلك القلوب المغلقة، ويفتحها بأي أُسلوب ممكن.

فهو يخاطب عقولهم تارة، ويخاطب ضمائرهم تارة، والضمير آخر قلعة يقاوم الباطل في نفس الإنسان.

ويخاطب قلوبهم وعواطفهم تارة، والعاطفة خزين مبارك من الخير والرحمة في نفس الإنسان، وآخر ما ينضب من نفس الإنسان قلبه وعاطفته.

لقد خاطب الحسين عليه السلام عقولهم يوم عاشوراء فقال لهم: (أحين استنصرتمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحشيتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، من عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

وخاطب ضمائرهم فقال: (يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم).

وخاطب عواطفهم ثالثاً فقال في آخر استغاثة له عليه السلام: (أما من مغيث يغيثنا أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله)، ومن مشاهد الاستغاثة المؤثرة استسقاؤه للطفل الرضيع يوم عاشوراء وهو يتلظّى عطشاً، فرفع إليهم الرضيع وقال: (أما منكم من أحد يأتنا بشربةٍ من الماء لهذا الطفل الرضيع؟) ثم قال لهم: (اسقوا هذا الرضيع)[1].

والعاطفة خزين مبارك من الخير والرحمة كما ذكرنا، وآخر ما ينضب في نفس الإنسان، تفيض بالرقة والرحمة.

وهذه الرقة والرحمة التي تفيض بها العاطفة تطهّر القلب مما يعلق به من الدرن وتلين القلب. وتفتح مغاليق القلوب.

وقد تنغلق العقول ويتصامم الناس عن نداء العقل ولكنهم يستجيبون لنداء العاطفة، وتنفتح له قلوبهم.

(١) الخصائص الحسينية: للشيخ جعفر التُستري: ١٨٦.

٤ ـ استمرارية الخطاب الحسيني عبر التاريخ

لا نجد مبرراً للقول بأنّ خطاب الحسين عليه السلام بالاستنصار كان مقتصراً على أُولئك الذين عاصروا الحسين عليه السلام وشهدوا وقعة الطف.

وليس ثمة دليل في خطاب الحسين عليه السلام لحجب هذا الخطاب عن الأجيال التي تعاقبت من بعده، ممّن لبوا هذا الخطاب وأسرعوا في الاستجابة له.. فقد كان المجتمع الإسلامي يومئذٍ يمرّ بفترة رهيبة من التاريخ فقدَ فيها الكثير من أخلاقيّته وقيمه وكفاءاته.

ولست أدري ماذا فعل معاوية، خلال سني حكمه من إفساد وظلم، حتّى بلغ المجتمع الإسلامي في عصر ابنه يزيد هذا المبلغ من ضعف الإرادة ونضوب القيم، وفقدان الأخلاق، وليس أدل على ما نقول من أنّ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى الخروج على يزيد، وهم يعرفون الحسين عليه السلام ويعرفون يزيد. ثمّ لا يستجيب له من كلّ أُولئك الذين خاطبهم الحسين عليه السلام أو بلغهم خطابه إلّا اثنين وسبعين رجلاً فقط.

وأصدق وصف لهذا العصر هو الوصف الذي يصفهم به الحسين عليه السلام، كما يرويه الطبري في التاريخ، وهو أول خطبة له عليه السلام بعد وصوله إلى كربلاء:

يقول عليه السلام: «إنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلّا صُبابة كصُبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟».

وهو وصف دقيق لذلك العصر، ولإثبات هذا الوصف يقول الإمام عليه السلام: **«ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به؟»**.

ومن أجل ذلك نعتقد أنّ خطاب الحسين عليه السلام لا يقتصر على عصره، وليس من سبب لحَجب هذا الخطاب عن العصور التي تلي ذلك العصر.

ولسنا نريد أن ننفي مخاطبة الناس في ذلك العصر من جانب الحسين عليه السلام، ولكنّا نريد أن نقول إنّ روح هذا الخطاب أوسع من ذلك العصر.

إنّ الصراع الذي خاضه عليه السلام في سنة إحدى وستين هجرية حلقة متوسطة من سلسلة طويلة من الصراع بين التوحيد والشِرك والهدى والضلال، يتصل طرف منه بصراع الأنبياء عليهم السلام مع أئمّة الكفر، والحسين عليه السلام وارث هذه السلسلة المتّصلة من أئمّة التوحيد، ويتصل الطرف

الآخر منه بسلسلة طويلة من الصراع، في امتداد الطف يقوده أئمّة التوحيد، حتّى يتسلّم المهدي من آل محمّد ﷺ لواء التوحيد، ويطهّر الأرض من رجس الشِرك والظلم.

وعاشوراء من المفاصل الأساسية في هذه السلسلة الممتدة من الصراع بين التوحيد والشرك والهدى والضلال.

وخطاب الحسين عليه السلام خطاب شامل لكل أُولئك الذين بلغهم هذا الخطاب، ومكّنهم الله تعالى. من وراثة تراث عاشوراء، ورزقهم الله الوعي والبصيرة.

التلبية:

والتلبية الواردة في نصوص الزيارات التي يزور المسلمين بها الحسين عليه السلام تشير إلى هذه الحقيقة التاريخية.

فإنّ الحسين عليه السلام (داعي الله) ونداؤه ودعوته توحيد الله.

وخطابه الدعوة إلى نصرة دين الله وشريعته وأحكامه وحدوده، ورفض الطاغوت والكفر به.

وهذه دعوة عامة، وخطاب شامل لتلك الأجيال الذين تعاقبوا بعد عاشوراء.

وإذا حجَبَنا عصرنا عن التلبية المباشرة لدعوة الحسين عليه السلام لاستنصاره، فنحن اليوم نلبّي ذلك الخطاب، ونستجيب لتلك الدعوة في إزالة الظلم والشرك ومجاهدة الظالمين، وتثبيت أركان التوحيد في الأرض، وهدم بنيان الشرك والظلم والاستكبار.

وقد ورد في نصوص زيارة الحسين عليه السلام «لبيك داعي الله. إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري ورأسي وهواي» والتلبية من مقولة (العزم) و(الفعل)، وليس من مقولة (القول). والقول تعبير عن عزم الإنسان على الفعل.

فالتلبية الحقيقية لخطاب الحسين عليه السلام أن يَصُفّ الناس مع الحسين عليه السلام في مواجهة الظالمين، ويرفضونهم ولا يركنون إليهم، ويبرأون منهم، ويقاومون ويصمدون في وجوههم.

ولست أعتقد أنّ مرور ألف وثلاثمائة عاماً على مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته الذين لبّوا دعوته... قد خفف من قسوة الصراع وضراوة المعركة، ولا أعتقد أنّ التلبية لذلك الخطاب أيسر في عصرنا، من التلبية لنفس الخطاب في ذلك العصر.

فالمعركة هي المعركة، والخطاب هو الخطاب، والتلبية هي نفس التلبية، وضريبة التلبية هي نفسها.

حركتان في التاريخ (النصر والثأر):

ولا تختلف مسؤوليتنا اليوم تجاه استنصار الحسين. فإنّ قضية عاشوراء هي رفض الظلم والكفر بالطاغوت، وطالما يوجد في حياة المسلمين ظلم وشرك واستكبار، يبقى خطاب الحسين في يوم عاشوراء نافذاً فاعلاً في حياة المسلمين.

ونحن اليوم مسؤولون عن نصر الحسين عليه السلام، مخاطبون بالاستنصار، كما كان الناس مخاطبين بالاستنصار مطالبين بالنصر في عصره عليه السلام.

غير إنّا نحمل بعد مصرع الحسين عليه السلام مسؤولية أُخرى غير مسؤولية (النصر) وهي مسؤولية (الثأر) لدماء الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه (رضوان الله عليهم)، وهي مسؤولية أُخرى غير مسؤولية النصر.

فهاتان مسؤوليتان تتطلبان حركتين في تاريخ وارثي عاشوراء:

حركة باتجاه النصر، وأُخرى باتجاه الثأر، لدماء الشهداء في كربلاء.

وقضية (النصر) غير قضية (الثأر). إنّ (النصر) هو الوقوف إلى جانب الأنبياء عليهم السلام وأوليائهم في تشييد أركان التوحيد والعدل، وهدم بنيان الشرك والظلم، ونصر المسلمين المستضعفين وإمدادهم وإغاثتهم، في معاناتهم وعذابهم على أيدي الظالمين.

(والثأر) يعني المطالبة بدماء الشهداء من أُسرة التوحيد، وبدماء الشهداء في يوم عاشوراء. فهذه دماء حرّمها الله تعالى، وأهدرها الناس، ولابدّ من الثأر لها، شأن كلّ دم حرّمه الله تعالى.

غير أنّ دماء الشهداء لمّا كانت في سبيل الله، فإنّ الله تعالى هو الثائر الأوّل لها، وهي ثأر الله قبل كلّ شيء، وهذه قيمة كبيرة لدم الشهيد في هذا الدين ومفهوم رفيع من مفاهيم هذا الدين، ونحن نخاطب الحسين عليه السلام في الزيارة بثأر الله، فنقول السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره، وعلينا نحن في امتداد (ثأر الله) أن نثأر لهذه الدماء، ودماء كلّ الشهداء التي أُريقت ظلماً وعدواناً في سبيل الله.

ولمّا كانت هذه الدماء قد أُريقت في الصراع بين الحقّ والباطل، فالمُطالَب بالدم ليس هو شخص المجرم القاتل، بل يُطالَب به كل من وقف معه في تلك الجبهة، وكلّ من يقف معه بعد ذلك في تلك الجبهة...

شأن كلّ دم يُهراق في معركة. فإنّ المطالَب بالدم في ساحة المعركة لا يكون هو القاتل فقط، وإنّما كلّ من يقف مع القاتل في نفس الجبهة في نفس المعركة.

ولمّا كانت معركة عاشوراء قائمة مستمرة ومتّصلة الحلقات إلى اليوم، فكل من يقف مع أعداء الحسين عليه السلام، ويتعاطف معهم، ويهواهم ويميل إليهم، ويرضى بفعلهم، ويحبّهم... يكون مطالباً بدماء الحسين عليه السلام والثلّة الطاهرة من أصحابه.

وهو شأن (عاشوراء) كما إنَّ ذلك شأن كلّ صراع قائم بين الحقّ والباطل، وكلّ دم يُهراق ظلماً في وسط المعركة. حيث تعم مسؤولية المطالبة بدم الشهيد كلّ الذين وقفوا معه وإلى جنبه أو خلفه في المعركة (فهم أولياء الدم جميعاً) وتعم الجريمة كلّ من وقف مع القاتل أو خلفه في نفس الصراع فيكون مطالَباً بالدم الذي أُهريق ظلماً في ذلك الصراع، إذن نحن اليوم بعد مصرع الحسين عليه السلام في عاشوراء مسئولون عن قضيّتين، وليست قضية واحدة، وهما (النصر) و(الثأر).

وقضية الحسين عليه السلام حلقة واحدة، ولكنها مفصلية، في مسلسل الصراع التاريخي بين الأنبياء وخصومهم من أئمّة الكفر.

والحسين وارث كلّ ذلك التراث وحفيده المهدي من آل محمّد (عجّل الله فرجه) يرث جدّه وينهض بتلبية خطاب جدّه الحسين لنصرة دين الله، كما ينهض بالثأر لدماء الشهداء في كربلاء ودماء الشهداء قبل كربلاء وبعده، ولذلك فهو الإمام (الوارث) (الثائر) من آل محمّد، (عجّل الله فرجه).

تحليل بعض المضامين الواردة في خطاب الاستنصار الحسيني

ويستوقفنا في خطابات الحسين عليه السلام خطابه المعروف في مكّة عشية خروجه إلى العراق، وقد تناقل أرباب السِيَر هذا الخطاب، وورد في أكثر المصادر التي دوّنت سيرة الحسين عليه السلام وخروجه إلى العراق.

وقد ذكرنا الخطاب في بداية هذه المقالة، يبدأ الإمام الخطاب بهذه الكلمة العجيبة: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جِيد الفتاة».

وهذه البداية تفسّر كلّ حركة الإمام وخروجه، وتوضح للناس الذين يستنصرهم الحسين عليه السلام ما يؤول إليه أمره وأمر من معه ليخرج من يخرج معه، وهو على بيّنة من أمره، وهو أمر يهمّ الإمام كثيراً، ويصرّ عليه في كلّ مراحل حركته بمقدار إصراره على استنصار الناس ودعوتهم للخروج معه على يزيد.

فهو يدعوهم ويعفيهم في وقت واحد، يدعوهم إذا صحّ عزمهم على لقاء الله في خروجهم هذا، وطابت أنفسهم بالقتل في سبيل الله.

ويعفيهم، إذا لم تطب نفوسهم بالقتل في سبيل الله، فإنّ الحسين يسعى إلى الموت، وليس إلى سلطان ولا مال.

ويطلب من الأنصار من يصدق عزمه وتصدق نيّته على ابتغاء القتل في سبيل الله.

ومصيبة الناس في دنياهم إقبالهم على الدنيا وتعلّقهم بها وهروبهم وخوفهم من الموت.

وهو سرّ ضعفهم، وسقوطهم، وخضوعهم للظالمين، وهوان أنفسهم عليهم، وهو نقطة الضعف الكبرى في حياتهم. فإذا هانت الدنيا في أعين الناس، وزال الخوف من الموت عن نفوسهم لم يتمكن الظالم من ظلمهم، ولم يعطوا أنفسهم للظلم. وكيف يهرب الإنسان من الموت وقد «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جِيد الفتاة».

فالموت يحاصر الإنسان، ولا يستطيع ابن آدم أن يخرج من حصار الموت ولا ينفعه هروب.

ثمّ لماذا يخاف الإنسان من الموت والموت جمال المؤمن وكماله، ويزدان به كما يزدان جيد الفتاة بالقلادة... ولا ينقص من جمال الموت أنّه يحاصر الإنسان كما لا ينقص من جمال القلادة أنّها تطوّق جيد الفتاة. فليس كلّ طوق ذلّ وأسر.

ولست أعرف تصويراً للموت أجمل من هذا التصوير الذي يقدّمه الحسين عليه السلام للموت عشية خروجه إلى العراق.

ثمّ يقول عليه السلام: «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف».

إنّ الموت عند الحسين عليه السلام لقاء الله، ولقاء أسلافه الصالحين إبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله. وهو يشتاق إلى هذا اللقاء اشتياق يعقوب إلى يوسف. فهو غصن من تلك الشجرة وثمرة طيبة لها يحنّ إليها حنين الثمرة إلى أصلها. فليس بالموت يمكن ردع الحسين عليه السلام عن رسالته وقضيّته.

وهذه رسالة الحسين عليه السلام إلى طاغية عصره وإلى أنصاره معاً.

ثمّ يقول عليه السلام: «لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت». وهي صورة أُخرى لنفس المشهد ولكن بلون آخر... فقد كان المشهد السابق مشهد الشوق والوله إلى لقاء الله ولقاء أحبّائه، وهذا مشهد التسليم والرضا لأمر الله.

وهو نفس المشهد، ولكن بصيغة أُخرى: وسواء عرض الإمام هذه العاقبة من خلال الاشتياق والوله أو من خلال التسليم والرضا، فالرسالة واحدة والنتيجة واحدة. ثمّ يقول عليه السلام: «لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس».

إنّه من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله ودمه وبضعة من رسول الله، من جسمه وروحه، ووعيه، وهداه، وبصيرته، ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الخير والهدى كلّه، وما تفرّق من رسول الله صلى الله عليه وآله يجتمع لـه في حظيرة القدس، ولا تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمة ولا بضعة له.

ومن أراد أن يجتمع برسول الله صلى الله عليه وآله مع الصدّيقين والصالحين في حظيرة القدس فعليه أن يلتحق بالحسين عليه السلام. ومن شذّ عنه عليه السلام شذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله. ثمّ يختم عليه السلام كلامه بهذا الخطاب «ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله».

إنّ السبط الشهيد يسعى إلى لقاء الله، ويطلب من الناس مهجهم ويدعو الناس إلى أن ينتزعوا حبّ الدنيا من قلوبهم، ويوطّنوا أنفسهم للقاء الله.

وهو خطاب عجيب. قلّما نعهد نظيراً له في خطابات القادة السياسيين والعسكريين إذا دعوا الناس للقتال.

فهو عليه السلام لا يمنّيهم بمال ولا سلطان، إنّما يمنّيهم بلقاء الله، ويطلب منهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله، ولا يرضى منهم بغير (مهجهم).

ثم يقول لهم أنّه يتقدّمهم في هذه الرحلة «فإنّي راحل مصبحاً غداً إن شاء الله» ولست أدري ماذا تستبطن هذه الجملة القصيرة «فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله» من العزم، والإرادة، والقوّة، والبصيرة، والهدى، والتسليم لمشيئة الله وإرادته.

وقد شاء الله تعالى أن يكون هذا العزم والإرادة والبصيرة والتسليم مبدأ لبركات كثيرة في تاريخ الإسلام.

وفي منزل البيضة خطب الحسين عليه السلام في أصحاب الحرّ فقال: أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً، ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله».

وهذا الحديث الذي يرويه السبط الشهيد عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله منهج في العمل السياسي والحركي للمسلمين، يختلف عن المنهج الذي تبنّاه بنو أُميّة في عصرهم، ويلخصه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب في كلمته المعروفة «نحن مع من غلب».

وقد عمل بنو أُميّة على إشاعة هذا المنهج السياسي بين المسلمين، واختلقوا في ذلك الأحاديث، وبشّروا به من على المنابر لإجهاض كلّ معارضة سياسية وحركية في وجوههم، ولإسباغ الشرعية على حكمهم.

فمن هذه الأحاديث...

روى الحجاج قال: قال لي أبو هريرة:

ممن أنت؟ قلت: من أهل العراق. قال: يوشك أن يأتيك رجال من أهل الشام، فيأخذوا صدقتك. فإذا أتوك فتلقهم بها فإذا دخلوها، فكن في أقاصيها، وخلِّ عنهم وعنها،

وإيّاك وأن تسبّهم فإنّك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك وإن صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة[١].

وعن زيد بن وهب قال سمعت عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: إنّكم سترون بعدي أثرة وأُموراً تنكرونها.

قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدّوا إليهم حقّهم، وسلوا الله حقّكم[٢].

وعن جنادة بن أُميّة قال: دخلنا علىٰ عبادة بن الصامت، وهو مريض، فقلنا: (أصلحك الله حدّثنا بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبيّ ﷺ فقال: دعانا النبيّ ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)[٣].

وهذا أقصى ما يطلبه الحكّام الظلمة من الناس، وفي كتب الحديث الكثير من هذه الروايات التي يأباها القرآن ويرفضها الإسلام.

ونحن من دون أن نناقش هذه الأحاديث مناقشة سندية، نقطع بأنّها منحلة موضوعة على رسول الله ﷺ، ونتّهم في ذلك بني أُميّة أوّلاً. وقد خفى أمر ذلك على كبار المحدّثين الذين رووا هذه الأحاديث وأكثروا من روايتها.

ودليلنا على ذلك هو القرآن.

ونعتقد أنّ المنهج العلمي الصحيح في نقد الرواية هو عرض الرواية على القرآن.

والنقد من حيث السند يأتي بعد العرض على القرآن، فما خالف القرآن نرفضه ونردّه صحّ سنده أم لم يصحّ. وهذا هو منهج أهل البيت عليهم السلام في نقد الرواية.

ولذلك فنحن لا نطيل الوقوف عند مناقشة هذه الروايات ونقدها من حيث السند، فالأمر عندنا أوضح من ذلك. ودليلنا على ذلك آيات مُحكمات من كتاب الله تنهي عن الركون إلى الظالمين وعن طاعة المسرفين.

---

(١) الشعر والشعراء: لابن قتيبة: ٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٤ : ١٨١ (كتاب الفتن) ط. مصر ١٢٨٦ هـ.

(٣) المصدر السابق. وإذا صح الحديث فإن بني أمية وسلاطين الجور ليسوا من (أهله) الذين أمرنا أن لا ننازعهم وإنما أهله الذين جعلهم الله تعالى أئمة للمسلمين.

وإليك إضمامة من آيات كتاب الله:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[4].

وينهض أبو عبد الله سيد الشهداء يومئذٍ لإزالة هذا اللبس عن سنّة رسول الله ﷺ، فيعلن في الناس، أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً... فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله».

وهي مسؤولية شاقّة وصعبة، وانطلاقاً من هذه المسؤولية خرج الحسين عليه السلام على طاغية عصره.

فإذا ابتلى الله تعالى المسلمين بسلطان جائر... فلا يسع المسلمين جميعاً إلّا أن ينهضوا لتغييره، بفعل أو قول، ومَن يسكن إلى الظالم ويسكت عنه «كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»... وهي كلمة عجيبة، تستوقف الإنسان طويلاً، وتُشعر الإنسان بثقل المسؤولية الصعبة في ظروف الظلم والاستبداد السياسي. فلا يكفي ألّا يركن الإنسان إلى الظالم ولا يتعاون معه، ولا يسنده حتّى لا يدخل مدخله في النار، وإنّما يجب عليه أن يسعى إلى تغييره بفعل أو قول، فإن لم يفعل كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ثمّ يقول عليه السلام «وأنا أحق من غيّر»، ومن أولى من ابن بنت رسول الله ﷺ أن ينهض بالتغيير ويقود حركة التغيير ويدعوا إلى التغيير.

وهو عليه السلام في هذه الرحلة قائد وقدوة، قائد يقود حركة التغيير ويدعو إلى التغيير «وأنا أحق من غيّر».

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٠.

و(قدوة)، يتقدّمهم في كلّ محنة وعذاب، ويكون نصيبه منه الأوفى. يقول عليه السلام: «فإن أتممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم. فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله. نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، ولكم فيّ أُسوة».

ثمّ يقول: «وإن لم تفعلوا ونقضتم بيعتي.... فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه».

إنّ آل أبي سفيان أعداء الناس، وقد تمكّنوا من رقاب الناس، وأفسدوا أخلاق الناس ودينهم وقيمهم وأذلّوهم... والحسين عليه السلام يخرج ليقود حركة التغيير، وإن نقضوا عهدهم، فلم يضرّوا إلّا أنفسهم، وأمكنوا آل أبي سفيان من رقابهم، ووطّئوا أنفسهم لظلم آل أبي سفيان واستكبارهم، وأورثوا أبناءهم ذلّاً، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه.



الولاء والبراءة في مرآة عاشوراء

لـ (عاشوراء) علاقة وثيقة بـ (الولاء) و(البراءة).

فهي حركة سياسية كبرى في هذه الأُمّة في مواجهة الطاغوت نهض بها ابن بنت رسول الله ﷺ.

ولهذه الحركة عمق وامتداد. عمق في حركة الأنبياء عليهم السلام في مواجهة طغاة عصرهم، وامتداد في مواجهة الصالحين من هذه الأُمّة لأئمّة الكفر.

وهذه الحركة بمالها من عمق وامتداد محفوفة بـ (الولاء) و(البراءة).

وفيما يلي توضيح لعلاقة (عاشوراء) بـ (الولاء والبراءة).

الـولاء

توحيد الولاء:

قبل أن ندخل في تفاصيل الكلام عن الولاء والبراءة، نقول: إن الولاء من مقولة التوحيد دائماً، فلا يقبل الولاء الشرك مطلقاً، وتوحيد الولاء من أهم مقولات التوحيد.

وليس من الممكن أن يجمع الإنسان إلى ولاء الله ولاءً آخر، مهما كان ذلك الولاء...

وأي ولاء آخر، غير ولاء الله فهو لا محالة يقع في مقابل ولاء الله إلّا أن يكون في امتداد الولاء لله.

وإن أكثر مصاديق الشرك الذي كان يحاربه الأنبياء عليهم السلام، وينقله القرآن الكريم، هو من الشرك في الولاء، وليس من الشرك بالخالق.

فقليل من الناس الذين يشركون بالخالق، ويعتقدون بوجود إله خالق غير الله لهذا الكون... ولكن الكثير من الناس من يشرك بالله في الولاء، ويشرك غير الله تعالى مع الله في

ولائه، ويوزّع ولاءه وطاعتهُ لله تعالى ولغير الله معاً، ويعطي للطاغوت حظاً من ولائه. وصراع التوحيد والشرك في حياة الأنبياء، في هذا الأمر بالذات في أغلب الحالات.

وهذا الصراع في جوهره صراع عقائدي حضاري.

والبشرية تنشطر شطرين حول هذه المسألة:

- شطر يوحّد الله بالولاء والطاعة، ولا يقبل لله تعالى شريكاً في الولاية والحاكمية.
- وشطر آخر يتخذ في الحياة محاور أُخرى للولاية، وينقاد لها...

وقد تكون الطاعة للهوى، وقد يكون الولاء للطاغوت... ولا يختلف الأمر كثيراً.

والصراع بين هذين الشطرين في حياة البشرية يعتبر كبرى قضايا الإنسان، وأهم الأحداث التي عاشتها البشرية على وجه الأرض في التاريخ.

عناصر الولاء:

الولاء: هو الارتباط بالله سبحانه وتعالى، وأهم عناصر الولاء هو:

أولاً: في الطاعة والانقياد والتسليم لله تعالى.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾(١).

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٣).

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾(٤).

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾(٦).

---

(١) سورة النور، الآية: ٥١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢.
(٦) سورة النساء، الآية: ٥٩.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾[1].

وكما إن الولاء لله يتطلب الطاعة لله وللرسول والانقياد والتسليم... كذلك يتطلب رفض الطاعة لغير الله.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾[2].

ثانياً: الحبّ والإخلاص لله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[4].

ثالثاً: النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[5].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[6].

قيمة الولاية:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيء، كما نودي بالولاية»[7].

وعن عجلان أبي صالح قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام أوقفني على حدود الإيمان. فقال: بشهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمّد رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة

(١) سورة النور، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.
(٥) سورة محمّد، الآية: ٧.
(٦) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٧) أصول الكافي ٢: ١٨.

الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والدخول مع الصادقين»[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «بُنِيَ الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية».

قال زرارة (راوي الحديث): فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن... ثم قال: ذروة الأمر، وسنامه ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضى الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته.

إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾.

أما لو أنّ رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحجّ بجميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله حقّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان. ثمّ قال: «أُولئك المحسن منهم يدخله الله الجنّة بفضل رحمته»[٢].

وهذا الحديث يوقف الإنسان للتأمل طويلاً فمن قام ليله وصام نهاره... ولم يعرف ولي الله لم يكن له على الله حقّ في ثواب، ولا كان من أهل الإيمان.

الولاية ومسألة الحاكمية والسيادة:

ولا تتم الولاية، من دون ممارسة فعلية للحاكمية والسيادة في حياة الناس.

فإن الإسلام شريعة قائدة في حياة الإنسان يتولّى تنظيم وإدارة المجتمع، وتوجيه المجتمع الإسلامي باتجاه تحقيق أهداف الدعوة وغاياتها، ولا يمكن أن يتحقق شيء من ذلك دون وجود ممارسة فعلية للقيادة والحاكمية في المجتمع الإسلامي.

وهذه القيادة والحاكمية هي التي يسميها القرآن الكريم بـ «الإمامة».

وهي شيء آخر غير الجانب التشريعي من هذا الدين، فإن الطاعة فيما يبّلغ النبيّ صلى الله عليه وآله من أحكام وتشريعات، إنّما هي طاعة لله تعالى، وليس للأنبياء في ذلك دور غير التبليغ والتوجيه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أُصول الكافي ٢: ١٨، وبحار الأنوار ٦٨: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

والقرآن يصرّح بوجوب طاعة الرسول ﷺ وطاعة أُولي الأمر من بعد الرسول ﷺ في امتداد طاعة الله ومن بعد طاعة الله.

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

وهذه الطاعة هي غير طاعة الله في امتثال أحكامه، والالتزام بالحلال والحرام، وإلّا لم يكن شيئاً آخر غير طاعة الله.. ولم يكن معنى لطاعة الرسول وأُولي الأمر، بعد طاعة الله تعالى وفي امتداده.

فهي طاعة أُخرى إذن غير طاعة الله، وإن كانت في امتدادها... تأتي في مساحة الفراغ التي تتركها الشريعة لأولياء أُمور المسلمين، وتتطلبه مصلحة الأُمّة والإسلام، مما لا يمكن ضبطها في الشريعة بأحكام ثابتة. ولأجل أن يمارس هذا الدين دوره في حياة الإنسان، لابدّ من وجود ممارسة فعلية لهذه القيادة والحاكمية في حياة الناس.

البـــراءة

والوجه الآخر لمسألة الولاية البراءة.. ولا ولاية من دون البراءة.. والولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة.

ويصدق الإنسان في ولائه بقدر ما يصدق في البراءة... فإن الولاء وحده لا يكلف الإنسان كثيراً.. وأكثر مما يصيب الإنسان من أذى وعناء في البراءة.. وليس من الصعب من أن يجامل الإنسان الجميع.. ويمدّ يده إلى الجميع، ويعيش مع الكلّ بسلام، ويداري كلّ العواطف والأحاسيس، ويلعب على كلّ الحبال.. ويتجنب الصدام مع الجميع، ويوزع الابتسامة في كلّ مكان ويُرضّي الجميع.. أن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يعيش في رغد وعافية، ويستطيع أن يكسب ودّ الجميع وتعاطفهم.. ويستطيع أن يعيش من دون مشاكل ومتاعب.. ولكن لا يستطيع أن يرتبط بمحور الولاية الإلهية على وجه الأرض، ولا يستطيع أن ينتمي إلى هذه الأُسرة المسلمة، التي أعطت ولاءها لله ولرسوله ولأوليائه، ولا يستطيع أن يملك موقفاً، ولا يستطيع أن يُحب ويُبغض ويرضى ويسخط بصدق.. ولا يستطيع أن يتجاوز حدود المجاملة السياسية والاجتماعية في علاقاته.. إن الصدق في التعامل، والموقف من الأحداث، والقوّة والحرّية والصراحة في المواقف لا تتم من دون ولاء.. والولاء لا يتم من دون براءة.. والبراءة تكلف الإنسان الكثير في علاقاته الاجتماعية، وصِلاته في المجتمع وفي الأُسرة وفي راحته وعافيته، وفي استقراره.. وهذه حقيقة من ورائها حقائق كثيرة. أن البراءة

ضريبة الولاء.. والتعب والعناء والأذى ضريبة البراءة وهذه معادلات أجراها الله تعالى، بسننه التي لا تتبدل في حياة الإنسان.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (عشرٌ من لقى الله عزّ وجلّ بهنَّ دخل الجنّة، شهادة أن لا اله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، والولاية لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله، واجتناب كلّ مسكر)[١].

فالفاصلة بين الإسلام والكفر هي الولاية.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «... إن أوثق عرى الإيمان، الحبّ في الله، والبغض في الله، وتوالي وليّ الله، وتعادي عدو الله»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: (روي أن الله أوحى إلى بعض عبّاد بني إسرائيل وقد دخل قلبه شيء: «أما عبادتك لي فقد تغرّرت بي، وأما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، فهل واليت ليّ ولياً وعاديت ليّ عدواً؟..)[٣].

ولاء (الأعور):

روي أن رجلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام: (فقال يا أمير المؤمنين أني أُحبّك وأُحبّ فلاناً وسمي بعض أعدائه.. فقال له عليه السلام: أما الآن فأنت أعور، فإما أن تعمي وإما أن تبصر)[٤].

ورؤية الأعور رؤية نصفية، فهو يرى بإحدى عينيه فقط.

---

(١) خصال الصدوق ٢: ٥٢.
وقد ورد في رسالة رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة: (وإني أدعوك إلى الله وحده، ولا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني إني رسول الله). (مكاتيب الرسول: ١٢٠).
وفي رسالته إلى أسقف نجران: (إني أدعوكم إلى عبادة الله عن عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله عن ولاية العباد، فإن أتيتم لا جزية، وان أبيتم آذنتكم بحرب). (مكاتيب الرسول: ١٧٠).

(٢) المحاسن: ١٦٥. وبحار الأنوار ٢٧: ٥٧.

(٣) فقه الرضا: ٥١. وبحار الأنوار ٢٧: ٥٧.

(٤) بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

وكذلك ولاء الإنسان الذي يفقد البراءة.. ولا يجرأ على البراءة.. ويريد أن يجمع بين الكلّ.. ويُرضّي الجميع.

ومثل هذا النمط من الناس لا يبقى أعوراً إلى آخر عمره، بنصف الرؤية.. فإما يهديه الله تعالى فتكتمل لديه الرؤية، وإما أن يفقد هذه الرؤية النصفية، الضعيفة، فيعمى، ويفقد الولاء مطلقاً.

وقيل للصادق عليه السلام: (إن فلاناً يواليكم إلّا أنه يضعف عن البراءة من عدوكم، فقال عليه السلام: هيهات.. كذب من ادّعى محبتنا، ولم يتبرأ من عدونا)[1].

والسائل، في هذا الحديث، دقيق في طرح السؤال، أن الشخص الذي هو موضع السؤال لا يُشك في ولائه ولكنه يضعف عن البراءة، وضعفه يجعل موقفه من البراءة مهزوزاً وضعيفاً، ولا يملك القوّة الكافية في أن يعلن عن موقفه في الولاء والبراءة، والوصل والفصل، والارتباط والمقاطعة، بشكل صريح وحاسم.

فيجيبه الإمام عليه السلام: إن الولاء الصادق لا يمكن أن ينفصل عن البراءة، ومن يجد في نفسه ضعفاً عن البراءة، فهو كاذب في ولائه.

وفي حديث الأعمش عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (حبّ أولياء الله واجب، والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبة.. والبراءة من الناكثين والقاسطين والمارقين واجبة، والبراءة من الأنصاب والأزلام وأئمة الضلال وقادة الجور كلّهم، أولهم وآخرهم واجبة)[2].

وعن أبي محمّد الحسن العسكري عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه ذات يوم: (يا عبد الله أحبّ في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فأنه لا تنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى يكون كذلك. وقد صارت مؤاخاة الناس في يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادّون، وعليها يتباغضون وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً.

فقال له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عزّ وجلّ؟ ومَنْ وليّ الله عزّ وجلّ حتّى أواليه؟ ومن عدوه حتّى أُعاديه؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الخصال ٢: ١٥٣ و١٥٤. وبحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

فأشار لـه رسول الله ﷺ إلى عليّ عليه السلام. فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى. قال: وليّ هذا ولي الله فواله. وعدو هذا عدو الله فعاده. قال والِ وليّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعادِ عدوِ هذا ولو انه أبوك أو ولدك)[١].

وهذا المضمون قد وردّ تأكيده في حديث الغدير المعروف، والمروّي عن رسول الله ﷺ:

(من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله).

وقد استوفى العلامة حجّة الحقّ السيد مير حامد حسين اللكهنوي رحمه الله في عبقات الأنوار والعلّامة الأميني رحمه الله في الغدير دراسة هذا الحديث الشريف من حيث السند والمتن.

وقد صدّر العلّامة الأميني كتابه القيّم (الغدير) بحديث عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى نود أن نختم به أحاديث الولاء والبراءة..

عن رسول الله ﷺ قال: (من سره أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن التي غرسها ربي فليوالي علياً من بعدي، وليوالي وليه، وليقتد بالأئمّة من بعدي، فأنهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، وويلٌ للمكذبين بفضلهم من أُمّتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي)[٢].

البراءة والمفاصلة:

إنّ طبيعة هذا الدين طبيعة حركية جهادية، ذلك أنَّ مهمة هذا الدين إبلاغ رسالة التوحيد إلى البشرية جميعاً، وتحرير الإنسان من الطاغوت، وتعبيده لله تعالى. وتقرير أُلوهية الله في حياة الناس. وهذا كلّه ممّا يغيظ الكفر، ويصادر نفوذهم وسلطانهم، ويدفعهم إلى عرقلة مسيرة هذا الدين وتطويقه وإعاقة حركته... ولكي تستطيع هذه الأُمّة أن تحتفظ بأصالتها في هذا الصراع الحضاري وبموقعها الحضاري على وجه الأرض في الدعوة إلى الله لابدّ لها من أن تقاوم كيد أئمّة الكفر ومكرهم، وتدخل معهم في مواجهة حقيقته أولاً، وتعلن المفاصلة عنهم ثانياً والأول (الجهاد) والثاني (البراءة).

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٨، معاني الأخبار: ١١٣.

(٢) اخرجه الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) ١: ٨٦، وأخرجه الحافظ الخطيب البغدادي في تأريخه ٤: ٤١٠.

وهذه المفاصلة هي التي يقول تعالى عنها: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

المواصلة والمفاصلة في المجتمع الإسلامي:

إن طبيعة هذا الدين الحركية ورسالته تتطلبان من الأُمّة حالتين في الداخل والخارج:

التماسك والترابط في الداخل، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2].

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[3].

حتّى كأنَّ الأُمّة جسم واحد متضامن الأعضاء والأطراف.

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[4].

«المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضاً»[5].

«تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا أُخوة بررة كما أمركم الله»[6].

هذا فيما يتعلّق بالعلاقة بين أطراف هذه الأُمّة من الداخل، وأمّا العلاقة مع الخارج، مع أعداء الله ورسوله وأئمّة الكفر وقادة الاستكبار فهي المفاصلة والبراءة. وتحريم موالاتهم ومودتهم والتحبب إليهم.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[8].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[9].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١ ـ ٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٤) رواهما عن رسول الله مسلم في صحيحه ٤: ٨ دار الفكر.

(٥) المصدر السابق.

(٦) بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٨) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

(٩) سورة المائدة، الآية: ٥١.

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾[١].

وهاتان الحالتان: الترابط والتماسك من الداخل والمفاصلة من الخارج، يتطلبان وجود قيادة مركزية، تربط هذه الأُمّة بعضها ببعض في كتلة متراصة واحدة من الداخل، وتفصلها عن أعدائها الذين يريدون بها سوءاً من الخارج[٢].

ثم توجه هذه الكتلة المجتمعة باتجاه تحقيق الأهداف الكبرى لهذه الدعوة على وجه الأرض.

وهذه القيادة المركزية التي تمتلك من الأُمّة الطاعة والنصرة والحب (العناصر الثلاثة للولاء).. هي التي يصطلح عليها القرآن الكريم باسم (الولي) أو (الإمام).

وولايته على الأُمّة امتداد لولاية الله ورسوله، وطاعته ونصرته وحبّه امتداد لما يجب على المؤمنين من الطاعة والحب والنصرة لله تعالى، وليس محوراً آخر في عرض هذا المحور.

التوحيد والشرك في الولاء:

قد قلنا إن الولاء من مقولة التوحيد، ولا ولاية لأحد إلّا في امتداد ولاية الله وبأمر وإذن من الله.

والولاء لله أما أن يكون أو لا يكون... فإذا كان فلابدّ أن يكون بوجهيه الإيجابي والسلبي، ولا تقل قيمة الوجه السلبي عن الوجه الإيجابي... والوجه السلبي هنا، رفض الولاء لغير الله... ولا يتم الولاء لله تعالى إلّا برفض أي ولاء آخر من دون إذن الله.

وقبول أي ولاء بغير إذن الله يعني الشرك بالله العظيم، وقد قلت إنّ أكثر مصاديق الشرك في القرآن ليس هو الشرك بالخالق، وإنّما هو الشرك في الولاء.

تأملوا في قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ...﴾[٣].

يضرب الله لنا مثلاً في التوحيد والشرك برجلين: رجل يتنازعه شركاء متشاكسون، كلٌّ

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

(٢) راجع البحث القيم الذي كتبه سماحة السيد علي الخامنئي ولي أمر المسلمين حفظه الله بعنوان (الولاية).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

له ولاية وسلطان عليه، وهم فيما بينهم متشاكسون مختلفون، وهو موزع بين هؤلاء الشركاء المتشاكسين. ورجلٌ قد أسلم أمره إلى رجل واحد آخر ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ يطيعه في كلّ شيء، وينقاد له، ويتقبل ولايته وحاكميته.

كذلك التوحيد والشرك، فالموحدون من الناس كالرجل الذي أسلم أمره لرجل آخر في راحة من أمره. والمشركون من الناس كالذي يتنازعه شركاء متشاكسون... وواضح من هذا المثال أن المقصود بالشرك والتوحيد، الشرك في الولاء، والتوحيد في الولاء.

يقول القرآن عن لسان يوسف عليه السلام:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[١].

إن صاحبي يوسف عليه السلام لم يكونوا ينكرون الله الواحد القهار، وإنما كانوا يشركون أرباباً متفرقين مع الله في الولاية والحاكمية، فينكر عليهم يوسف عليه السلام ذلك، لأنهم أنهم لم يُسلموا أمرهم كلّه لله الواحد القهار.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في أسباب البعثة: «بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله، ليخرج عباده من عبادة عباده، إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته»[٢].

فالولاية إذن لله سبحانه وتعالى، وتمتدُّ الولاية الإلهية إلى من يشاء ومن يرتضي من عباده فلن تكون ولاية في قبال ولاية الله، ولن تكون ولاية بغير إذن الله، وإنّما هي بإذن الله وأمره، وفي امتداد ولاية الله.

مصدر الحاكمية في حياة الإنسان هو الله:

ويجب أنْ نقف عند هذه النقطة قليلاً، فإن الولاية المشروعة في حياة الأُمّة لما كانت امتداداً لولاية الله لابدّ أن تكون الولاية بإذن الله وأمره، وما لم يأذن الله لأحدٍ بأن يلي أمر عبادهِ لن يكون له الحقّ في أن يتولى شيئاً من أُمور الأُمّة.

وبمراجعة القرآن الكريم نجد هذه الحقيقة واضحة، فيما يحكي الله تعالى لنا من تنصيب

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

(٢) الوافي ٣: ٢٢.

عباد له ليكونوا أولياء وأئمّة على الناس، ولا تتم لهم إمامة وولاية على الناس، لولا أن الله تعالى قد خصّهم بذلك، وأناط إليهم هذا الأمر. ففي قضية إبراهيم يقول تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

والإمامة هنا بمعنى الولاية... وقد جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً بعد إن كان نبياً.

وفي قصة داود عليه السلام يقول تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2].

والخلافة هنا بقرينة «فاحكم بين الناس بالحقّ» هي الولاية والحاكمية.

ويقول تعالى في ذرية إبراهيم لما نجاه الله تعالى من القوم الظالمين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾[3].

ولسنا نريد أن نسهب هنا في هذا القول، فله مجاله الخاص به في البحث، وإنما نريد أن نشير إشارة سريعة فقط إلى إن مصدر الحاكمية والسلطان في حياة الإنسان هو الله تعالى، وليست الأُمّة كما تُفسر ذلك النظم والاتجاهات الديمقراطية... فليس لأحد من دون إرادة الله أن يتولى أمراً من أُمور المسلمين.

والله عزّ وجلّ هو مصدر السلطة والحاكمية في حياة الناس، ولا يقتصر أمر ولاية الله في حياة الناس على نفوذ الأحكام الشرعية المحددة من قبل الله في عباده، وإنّما تشمل الممارسة الفعلية للحاكمية والأمر والنهي في حياة الإنسان من خلال الذين اتخذهم الله أولياء وجعلهم أئمّة وخلفاء على الناس.

التحدّي والصراع:

وهذه الحقيقة تنتج لا محالة حتميّة الصراع بين محوري الولاية والطاغوت بشكل دائم في تاريخ الإنسان.

إن هذين المحورين يعملان باتجاهين متعاكسين في حياة الإنسان، وكلّ منهما يعمل لاستقطاب ولاء الناس، وقطع الإنسان من المحور الآخر.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

إن مُهمّة هذا الدين ورسالته هي استقطاب ولاء الناس لله تعالى، وإنقاذ الناس من التشتّت والتيه والضياع والاختلاف، وتحرير الإنسان من عبودية الطاغوت والهوى، وإزالة العقبات من أمام طريق الإنسان إلى الله تعالى، وربط الإنسان بالله وتعبيده لله تعالى، وإخراجه من الظلمات إلى النور.

وفي قبال هذا المحور الربّاني، يعمل الطاغوت على استقطاب ولاء الناس، ووضع الحواجز والعقبات في طريق الناس إلى الله تعالى، واستعباد الإنسان وإخراجه من النور إلى الظلمات.

وإلى هذا الصراع بين المحورين، تشير الآية الكريمة:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

الاستضعاف والاستكبار:

ولما كانت هذه المهمّة التي يتولّى أمرها الطاغوت لا تتحقق إلّا من خلال استضعاف الإنسان، فإن الطاغوت يتبع أساليب كثيرة في استضعاف الناس، وانتزاع ما أودع الله تعالى في نفوسهم من القيم والمواهب والكفاءات، ليتأتّى له استعبادهم وترويضهم للطاعة من دون طاعة الله. وهذا هو معنى الاستضعاف. ويعبّر القرآن عن هذا المعنى بالاستخفاف. وإذا استخف الطاغوت الإنسان وسلبه ثقله ووزنه وقيمه وفطرته كان كالخشبة العائمة تأخذه الأمواج حيث تريد.

يقول تعالى عن فرعون وقوم فرعون:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[2].

ومهما يكن من أمر فإن الصراع بين هذين المحورين، من كبريات قضايا التاريخ، ومن أهم العوامل المحركة لعجلة التاريخ.

ومن خلال فهم هذا الصراع نستطيع أن نفهم الكثير من أحداث التاريخ وقضاياه الكبرى ومنعطفاته وثوابته ومتغيراته.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

خصائص الصراع:

ونشير هنا إلى بعض خصائص هذا الصراع التاريخي بين هذين المحورين: (الحقّ والباطل).

إن هذه المعركة، معركة عقائدية تستبطن صراعاً عقائدياً ضارياً حول الشرك والتوحيد. وقد أشرنا قريباً، إن جوهر هذا الصراع يدور حول الشرك والتوحيد، وإن أكثر معاني الشرك والتوحيد في القرآن الشرك في الولاء والتوحيد في الولاء.

ولهذا السبب فهي معركة عقائدية في جوهرها. هذا **أولاً**.

وثانياً: هي معركة حضارية لأنها تعتبر صداماً بين حضارتين: الحضارة الربانية والحضارة الجاهلية، ولكلّ منهما خصائصها... والانتماء إلى أي من المحورين ليس انتماءً سياسياً فقط إلى أحد محاور القوّة والسيادة، وإنّما هو انتماء حضاري ويستتبع هذا الانتماء خصائص وميزات حضارية في أُسلوب التفكير، والإخلاص، والعمل، والعلاقة مع الله تعالى، ومع النفس ومع الآخرين ومع الأشياء... والصراع بين هذين المحورين يعني الصراع بين حضارتين بشكل دقيق.

وثالثاً: إن هذا الصراع صراع سياسي على مراكز القوى.

ولاشك إن كلّاً من هذين المحورين يعمل للاستيلاء على مراكز القوى في المجتمع: المال والسلطان، والقوة العسكرية، وثقة الناس ومراكز التوجيه، والرأي العام، والإعلام، والثقافة.

وكلّ منهما يعمل لاستخدام هذه المراكز في تمكين محوره وخطه.

ورابعاً: هذه المعركة تدخل في حتميات التاريخ الكبرى، ولا يمكن أن يتخلص منها الإنسان بحال من الأحوال، فإن تعاكس المحاور والخطوط تستدعي بصورة حتمية هذه المعركة في كلّ زمان ومكان. ولا يمكن أن يتخلص منها الإنسان.

إن هذا الدين يصادر كلّ مصالح الطاغوت ووجوده ومراكزه ومواقعه، ولا يمكن أن يتخلى الطاغوت عن دوره في الإفساد على وجه الأرض من دون أن يخوض هو وجنده صراعاً مريراً مع هذا الدين. وهذا الصراع لم يخل منه عصر من العصور، منذ أن خلق الله تعالى الإنسان بهذه التركيبة الخاصّة على وجه الأرض إلى اليوم الحاضر.

والقرآن الكريم يقرّر حتميّة الصراع بين هذين المحورين بشكل جازم، يقول تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(١).

خامساً: إن هذا الصراع معركة مصيرية تدوم وتطول... ويعمل كلّ من المحورين على استئصال المحور الآخر من على وجه الأرض، وإنهائه وتصفيّة وجوده ومراكزه ومواقعه بشكل عام... وليست معركة على قطعة من الأرض، أو حدود برية أو بحرية، وليست معركة على بضعة آبار من النفط، أو على كمية من الذهب والفضة... إنها معركة على الوجود والكيان والحياة، ولا يرضى كلّ من الطرفين بأقلّ من التصفية الكاملة للطرف الآخر.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾(٢).

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾(٣).

فهذه المعركة تستمر حتّى الاستئصال الكامل للفتنة من على وجه الأرض... وبطبيعة الحال لن تكون معركة بسيطة يسيرة، وإنّما هي معركة شرسة، لا يعرف التاريخ نظيراً لها في الحروب من حيث الشراسة والقسوة.

ولذلك فالتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت تفكير فيه كثير من الفجاجة والبساطة والضعف والهزيمة النفسية.

وإن بداية كلّ هزيمة ميدانية، هزيمة في النفس... وبداية الهزيمة النفسية التفكير في إمكان اللقاء والتفاهم مع الطاغوت، وإنهاء الصراع، والجلوس مع الطاغوت على موائد الصلح.

إن المعركة مع الطاغوت على الوجود، وليس على حدود برّية أو آبار من النفط أو مساحات من الأرض، حتّى يمكن التفاهم والتصافي والتعايش بسلام وتطبيع العلاقات، إلّا أن يكون من قبيل مشاغلة الطاغوت ونظامه والاستفادة من عامل الزمن.

سادساً: إن هذه المعركة التاريخية تتطلب من الأُمّة المؤمنة مواقف واضحة وحدّية وصارخة في إعلان الولاء والبراءة... الولاء لله ولرسوله ولأولياء أُمور المسلمين، والبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة الانفال، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

فلابدّ من موقف...

ولابدّ أن يكون الموقف جدياً...

ولابدّ أن يكون الموقف واضحاً ومعلناً...

لأن المعركة مع أئمّة الكفر جدّ لا هزل فيه، ولا يكفي أن يضمر الإنسان الحبّ لله ولرسوله، ولأوليائه، من دون موقف، ومن دون أن يعرف الناس عنه ذلك... ولا يكفي أن يكون قلبه مع الله ورسوله وأوليائه، وسيفه وحرابه عليهم[1].

ولا يكفي أن يعطي لله ورسوله وأوليائه بعض وقته وماله... ليعطي للطاغوت البعض الآخر... إن الولاء كلّ لا يتجزأ، فإما أن يكون الكلُّ لله، أو لا يكون لله منه شيء، فإن الله غنيٌ عن العالمين.

إن الولاء، يتطلب الموقف المحدّد، والإشهار بالموقف في الانتماء والانفصال.. وفي الحبّ والبغض.. وفي المودة والمعاداة.. وفي السلم والحرب..

سابعاً: أن الولاء والبراءة وجهان لحقيقة واحدة في هذه المعركة... ولا ينفع ولاء من دون براءة، ولا يؤدي الولاء دوره الفاعل في حياة الأُمة ما لم يقترن بالبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

ولا يتكون الموقف هنا من الولاء فحسب، إن للموقف وجهين: وجه إيجابي ووجه سلبي، سلم وحرب، وانتماء وانفصال، وحب وبغض، وما لم يجتمع هذا وذاك لن يكون الموقف موقفاً حقيقياً وإنّما يكون شُعبُه من شُعب النفاق وطوراً من أطوار المجاملة السياسية واللعب على الحبال...

يقول تعالى في هذين الوجهين:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

---

(١) التقى الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق بمنزل الصفاح بالفرزدق بن غالب، فسأله عن خبر الناس خلفه فقال الفرزدق: قلوبهم معك والسيوف مع بني أمية فقال الحسين عليه السلام والقضاء ينزل من السماء، وكلّ يوم ربنا في شأن ان نزل القضاء، بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر، وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحقّ نسبه والتقوى سريرته. مقتل الحسين للمقرّم: ١٨٢، نقلاً عن الطبري ٦: ٢١٨، وابن الأثير ٤: ١٦.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

ثامناً: وكما إنَّ محور الولاية، مركز واحد، وخط واحد، وامتداد واحد، على طول التاريخ، كذلك محور البراءة.

ونحن لا نفرق في الولاء بين أنبياء الله وأوليائه القريب منهم من عصرنا والبعيد منهم عن عصرنا... فكلهم يحملون رسالة الله ويبلّغون دين الله، وآتاهم الله من لدنه النبوّة والإمامة والولاية على عباده... نواليهم جميعاً، ونؤمن بما أنزل الله إليهم، لا نفرق بين أحدٌ منهم.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2].

كذلك.. نتبرأ من أعدائهم جميعاً.. نتبرأ من فرعون ونمرود، كما نتبرأ من أبي جهل ويزيد، وكما نتبرأ من طغاة عصرنا وجلاوزتهم.

وكما أن الولاء أمر واحد، كذلك البراءة أمر واحد.

ومثلما نتبرأ من طغاة عصرنا ونلعنهم، لنفس الأسباب نلعن الحجّاج ويزيد وأبا جهل ونمرود وفرعون وقابيل.

فإن المعركة بين محوري الحق والباطل ليست معركة شخصية، وإنّما هي معركة حضارية، تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ.

وكما أن المعركة في جوهرها واحدة في كل مراحلها، كذلك الولاء والبراءة.

عاشوراء مسرح للولاء والبراءة:

وننتقل الآن إلى (عاشوراء).

إن وقعة الطف من المواقع المؤثرة، العقائدية والحضارية الكبرى في التاريخ. التي لا يملك الإنسان نفسه من.. أن يمر عليها مروراً عابراً، أو يقف عليها وقوفاً متفرجاً أو يقرأها بلا مبالاة ولا اكتراث.. ورغم مرور أكثر من ألف وثلاثمائة عام على هذه الواقعة المفجعة.. فإنّها

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

لا تزال تملك تأثيراً فوق العادة على النفوس والقلوب والعقول، وتفرض نفسها على كل من آتاه الله بصيرة ووعياً في دينه.

ولا تزال الأجيال تتلقى قضية كربلاء بحرارة وحماسة، وتتفاعل معها في الإيجاب والسلب والولاء والبراءة.

فما هو السرّ الكامن في هذه الوقعة، والذي جعل منها مرآة للولاء والبراءة. عبر هذا التاريخ الطويل.

عاشوراء يوم الفرقان:

إن عاشوراء تتميز بالوضوح الكامل الذي لا يبقى شكاً لأحدٍ في طرفي المعركة.

فلم يكن هناك التباس في أمر المعركة التي حدثت على أرض الطف، ولم يكن أحدٌ من المسلمين يومئذٍ يشك في أن الحسين عليه السلام، يدعو إلى الله ورسوله وإلى الاستقامة على صراط الله المستقيم، وإن يزيد بن معاوية قد تجاوز حدود الله، وأعلن الحرب على الله رسوله، وأعلن الفسق والفجور، وهو يجلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولم يكن أحدٌ من المسلمين يومئذٍ يتردّد لحظة واحدة وهو يقف على ساحة الصراع بين أبي عبد الله الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية، أن الحسين على هدى ويزيد على ضلالة.

وعليه فلم يكن في أمر هذه المعركة خفاء أو لبس.. فمن وقف مع الحسين عليه السلام وقف عن بيّنة، ومن وقف مع يزيد وقف عن بيّنة...

وقليل من مشاهد الصراع بين الحقّ والباطل يمتلك هذا الوضوح الذي تمتلكه واقعة الطف.

وقف الحسين يوم عاشوراء بين الصّفين وقال مخاطباً جيش ابن زياد: (أيّها الناس أنبئوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّي؟ أوليس جعفر الطيار عمي؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول وهو الحقّ. فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت إن الله يمقت عليه أهله، ويضرُ به من اختلقه.

وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله

الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي.

فقال شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر (رضوان الله عليه): (والله أني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً. وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك)[1].

وقال الحسين عليه السلام للوليد عامل يزيد على المدينة، لمّا دعاه أن لا يفارق الحسين عليه السلام حتى يأخذ منه البيعة:

(يا أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة معلن الفسق، ومثلي لا يبايع مثله)[2].

الفاصل الحضاري بين المعسكرين في عاشوراء:

لقد كانت الجبهتان المتصارعتان في كربلاء متميزتين في انتمائهما لمحور الولاية الإلهية، والطاغوت، ولم يكن الأمر يخفى على أحد.

(لقد مضى أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دويّ كدوي النحل، بين قائم وقاعد وراكع وساجد)[3].

سمة العبيد من الخشوع عليهم	لله أن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم	بيض القواضب إنّهم أحرار[4]

وتقول فاطمة بنت الحسين: (وأما عمتي زينب فإنّها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها.. والله، فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنّة)[5].

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٢٣.

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٢٧ ط. النجف.

(٣) مقتل الحسين للمقرّم: ٢٣٨.

(٤) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة له يرثي بها الحسين عليه السلام.

(٥) مثير الأحزان: ٥٦.

كذلك كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام الشوق إلى لقاء الله والإعراض عن الدنيا وزخرفها، والانقطاع عن الدنيا إلى الله حتّى لقد كان بعضهم يداعب أصحابه ويمازحهم في تلك الليلة فقد هازل برير عبد الرحمن الأنصاري رحمه الله.

فقال لـه عبد الرحمن: (ما هذه ساعة باطل. فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكنّي مستبشر بما نحن لاقون والله ما بيننا وبين الحور العين، إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم.. ولوددت أنّهم مالوا علينا الساعة)[1].

والطرف الآخر في هذه المعركة كان همّه ما يصيب من الذهب والفضة والإمارة والجائزة في قتال ابن بنت رسول الله.

فقد تولى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: (ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملّكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي وفيه يقول:

أأترك ملك الري والري بغيتي	وأرجع مأثوماً بقتلِ حسين

ثمّ يقول: (وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة والفاسقين وحمله إلى ابن زياد ودخل به عليه وهو يقول:

أوقر ركابي فضةً أو ذهباً	إني قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا	وخيرهم إذ يذكرون نسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال لـه: (إذا علمت أنه كذلك فلمَ قتلته؟ والله لا سلمت مني خيراً أبداً)[2].

ويتبجح الأخنس بن مرثد الخضرمي في رضّهِ للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره ويقول كما يروي الخوارزمي:

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر	بكل يعبوب شديد الأسر
حتى عصينا الله رب الأمر	بصنعنا مع الحسين الطهر[3]

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

(٢) انظر مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢. روايات السيد المهزبان.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام للخطيب الخوارزمي ٢: ٣٩.

لقد كان هم الحسين وأصحابه في كربلاء مرضاة الله ولقاء الله... وكان هم جند ابن زياد، ما يدفع لهم الأمير من الجائزة والإمارة والذهب والفضة.

لم يكن في الأمر إذَنْ أي خفاء. وجميع الذين عاصروا المعركة أو شاهدوها أو وقفوا عليها من قريب أو بعيد... كانوا يميزون فيها الحقّ من الباطل، ودعوة الله عن دعوة الطاغوت.

ولم يتخلف أحد عنها عن جهل أو لبس، وإنما عن إيثار العافية والراحة على القتل في سبيل الله... ولم يشهر أحد فيها السيف على ابن رسول الله عن لبس أو جهل... وإنما عن وضوح وعلم بأنهم يحاربون الله ورسوله وأوليائه بقتال الحسين عليه السلام.

وهذا الوضوح في ساحة المعركة يجعل معركة الطف معركة متميزة من بين سائر المواقع التاريخية... أنها تعكس صورة صارخة من صراع الحقّ والباطل، ومجابهة بين الولاء الله والولاء والطاغوت. ولذلك كانت هذه المعركة رمزاً خالداً للصراع بين الحقّ والباطل. ومسرحاً للولاء والبراءة، في حياة المؤمنين.

إن وقعة الطف لا تبقي مجالاً لأحد في التردّد والتأمل.

فهي المواجهة الصارخة بين الحقّ والباطل، وجند الله وجند الشيطان، والهدى والضلال...

... فلابدّ من موقف محدد واضح في هذه القضية... فإن لم يكن هذا الموقف موقف الولاء لجند الله والبراءة من أعدائهم... فهو لا محالة موقف الرضى بفعل يزيد وجنده، وهو الموقف الذي يستحق اللعن والطرد من رحمة الله، كما في زيارة وارث.

وحدة الولاء والبراءة في زيارة (وارث):

إن النصّ المعروف في زيارة الحسين عليه السلام باسم زيارة (وارث) نصّ حافل بمشاهد الولاء والبراءة.

ومن أهم هذه المشاهد: وحدة الولاء والبراءة، ووراثة الحسين عليه السلام للأنبياء عليهم السلام، وارتباط الولاء للحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بالولاء للأنبياء: وربط قيم عاشوراء بالقيم الموروثة من تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

ولعلَّ التسليم على الحسين عليه السلام في زيارة وارث، بصفته وارثاً للأنبياء عليهم السلام للإشارة إلى هذه الحقيقة.

(السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله،

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله،

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله،

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله،

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله،

السلام عليك يا وارث محمّد حبيب الله،

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله)[١].

فإن هذه الصفوة من أولياء الله وعباده الصالحين امتداد واحد لولاية الله على وجه الأرض، وخط حضاري واحد، يَدعون إلى الالتفاف حول محور واحد، ويحملون قضية واحدة، كما أن أعداءهم أُمّة واحدة، وخط حضاري واحد، وحرب واحدة، رغم كلّ التباينات والتقاطعات الموجودة بينهم.

فالإحساس بوحدة الولاء، ووحدة البراءة، يعمّق الشعور بأن الأُمّة المسلمة على امتداد التاريخ منذ آدم عليه السلام إلى اليوم الحاضر أُسرة واحدة، تلتف حول محور واحد، وتحارب جبهة واحدة، وتشترك في الحبّ والبغض والسلم والحرب، وقضيتها قضية واحدة، ومهمتها على وجه الأرض مهمة واحدة، وخطها واحد، وحضارتها واحدة، وإيمانها واحد.

إنَّ هذا الإحساس بمعية الله ومعيّة المؤمنين يزيل الشعور بالوحشة عن نفوس الدعاة إلى الله تعالى في خضم الصراع مع الطاغوت، وفي مواجهة شوكة الطاغوت وجبروته وكبريائه.

فقد كان إبراهيم عليه السلام وحده أُمّة قانتاً لله في مواجهة نمرود.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

* * *

---

(١) زيارة وارث.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

مشاهد الولاء في زيارة (وارث)

مشاهد الولاء في متن هذه الزيارة ثلاثة:

١ ـ التسليم: السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...

٢ ـ الشهادة: أشهد أنك الإمام البر التقي الرضي...

٣ ـ الموقف: قلبي لقلبكم سلّم، وأمري لأمركم متّبع...

وضمن هذه المراحل الثلاثة يعبّر الزائر عن ولائه للحسين عليه السلام في المعركة الكبرى التي وقف فيها أبو عبد الله في مواجهة طاغية عصره... ينطلق فيها من جذور هذه المعركة التاريخية إلى يومنا هذا.

والولاء يتجسد في هذه الزيارة ضمن هذه المفاهيم الثلاثة وهي:

١ ـ السلام والأمن والمحبة (التسليم).

٢ ـ الثقة المطلقة (الشهادة بالإمامة وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٣ ـ الموقف تجاه محور الولاية.

وسنعرض فيما يأتي هذه المشاهد الثلاثة للولاء في زيارة وارث.

السلام في (النفس) و(المجتمع):

وأول هذه المشاهد التسليم ضمن ثلاث فقرات:

(السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...

السلام عليك يا بن محمّد المصطفى...

السلام عليك يا ثأر الله وابن ثاره...).

والتسليم من أهم عناصر الولاء، وهو بمعنى ترك المشاكسة، والمشاققة، والاختلاف، واللجاج، والعناد، داخل النفس وفي السلوك، وإزالة عوامل البغضاء والكراهية والضغينة والاختلاف في الرأي والمخالفة، وإحلال المحبّة والمودّة والانسجام النفسي والطاعة والانقياد والتسليم محل المشاققة والمخالفة واللجاج والبغضاء.

وهذه العلاقة، في التسليم، تأتي في خاتمة الصلاة، في السلام، (السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته).

وكأنَّ حصيلة هذا العروج الروحي إلى الله تعالى هي التسليم والطاعة والانقياد والمحبّة والمودّة لله ولرسوله ولأوليائه.

و(السلام) ليس فقط أساساً للعلاقة مع الله ورسوله، وإنّما هو أيضاً أساس للعلاقة مع الأُمّة المسلمة الملتفة حول هذا المحور.

وقد اعتبر الإسلام (السلام) تحيّة بين المؤمنين. وجعل هذه التحية خاتمة للصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين). وهذا الاهتمام بنشر السلام بين أعضاء هذه الأُسرة للتأكيد على نوع العلاقة القائمة بين أفراد وأعضاء الأُسرة المسلمة، وأن هذه العلاقة قائمة على أساس ترك المشاققة والمخالفة، وإزالة البغضاء والضغائن والكراهية من النفوس، وبذل المحبّة والمودّة من النفوس، والانسجام، والوفاق، والتعاون، والتناصر في السلوك.

الشهادة للحسين عليه السلام بإمامة المسيرة:

تأتي بعد ذلك الشهادة ضمن ثلاثة فقرات:

١ ـ الشهادة للحسين عليه السلام بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف (أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين)[1].

و(إقامة الصلاة) هنا غير أداء الصلاة.

إن أداء الصلاة تكليف شخصي وفريضة شخصية.

أمّا إقامة الصلاة فهي تثبيت الصلاة والارتباط بالله وإعلان الصلاة وتفعيلها في حياة الإنسان.

... ثم (وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر).

فلم يكن الحسين عليه السلام يبتغي من خروجه على يزيد ملكاً أو سلطاناً أو جاهاً، وإنّما كان يعمل لتثبيت دعائم المعروف وهدم أُسس المنكر وإقامة محور الولاية لله وهدم محور الطاغوت.

وقد خطب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء فقال:

---

(١) زيارة وارث.

(ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله... إني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا بَرما)[١].

وفي منزل (البيضة) خطب الحسين عليه السلام في أصحابه فقال: (أيّها الناس إن رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غيّر...)[٢].

فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب سلطاناً أو مالاً... وهو يرى أنه يستقبل الموت في سفره هذا، وإنّما كان يرى ظالماً جائراً، يفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، ويحلل حرام الله، ويتجاوز حدود الله.. فنهض عليه السلام بالعصبة المؤمنة التي احتفت به في كربلاء، لفضح الطاغية وكسره والتشهير به وتسقيطه أمام الرأي العام الإسلامي المضلّل، وتوعية الرأي العام بحقيقة الطاغية وإفساده في الأرض، وانتزاع الأُمّة من محور الطاغوت وإعادتها إلى محور الولاية الإلهية.

٢ ـ الشهادة بـ (الطهر) والنزاهة للحسين عليه السلام. النزاهة من كلّ إثم وذنب، والعصمة من كلّ خطأ وزلل وعصيان... طهارة النفس والسلوك ...﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣].

والشهادة بأن هذه النزاهة وهذا الطهر، طهر موروث، خلفاً عن سلف. وقد شاء الله تعالى أن يحتفظ بهذا الطهر في هذه السلالة الطيبة، عبر الحضارات الجاهلية التي سادت حياة الإنسان... وعبر ظلمات الحضارات الجاهلية. استمر إشعاع هذا النور الإلهي في ظلمات حياة الإنسان، واستمر هذا الطهر بين أرجاس الجاهلية لم يتلوث ولم يلبسه شيء من مدّلهمات ثيابها...

وقد اصطفى الله تعالى هذه السلالة المباركة للإمامة في حياة الإنسان عبر العصور

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢: ٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

المختلفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[١].

ولنقرأ هذه الفقرة من الشهادة في زيارة وارث:

(أشهد أنك كنتَّ نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهليةُ بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها...)[٢].

ولا أُحبّ أن أَتجاوز هذه الفقرة دون أن أُشير إلى جمال التعبير في هذه الفقرة...

إن الطهر في هذا البيت الطاهر حصيلة اللقاح بين أصلاب شامخة وأرحام مطهرة. أصلاب شمخت وترفعت مما يتساقط حوله الناس من متاع وزخرف زائل، وأرحام طُهرت وسلمت من أوضار وأوساخ وأدناس الحضارات الجاهلية التي تناوبت على حياة الإنسان........

٣ ـ الشهادة بموقع الحسين عليه السلام من حياة الأُمّة ومركزه القيادي الذي وضعه الله فيه، وما آتاه الله تعالى من الإمامة والولاية على المسلمين.

(أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البرّ التقي، الرضي، الزكي، الهادي، المهدي.

وأشهد أن الأئمّة من ولدك كلمة التقوى، وأعلام الهدى، والعروة الوثقى، والحجّة على أهل الدنيا)[٣].

الموقف:

والمشهد الثالث للولاء في هذه الزيارة (الموقف) بعد مشهد التسليم والشهادة.

والموقف هنا في (الإيمان والرأي) اوّلاً وفي (العمل) ثانياً.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٢ ـ ٣٣. (حماة الوحي) للشيخ شهاب الدين الاشرافي والشيخ محمّد موحد يفاضل في تفسير هذه الآية الكريمة وعلاقتها بإمامة أهل البيت عليهم السلام: ص ١٧٦ ـ ١٨٦.

(٢) زيارة وارث.

(٣) زيارة وارث.

الموقف النفسي في (الإيمان والرأي): (أنّي بكم مؤمن وبإيابكم موقن، بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم)[١].

والموقف في (العمل): (وأمري لأمركم متبع)[٢].

مؤمن بولايتكم وإمامتكم وقيادتكم. وأصدق دليل على هذه الدعوى: أنني أُسلّمكم شرائع ديني وخواتيم عملي.. فليس شيء أعز عند الإنسان المؤمن، من شرائع دينه الذي يدين به لله تعالى، وخواتيم عمله، الذي يختم بها حياته، حيث لا يمكن أن يتدارك منه شيئاً. فإن من الممكن أن يتدارك الإنسان ما فرّط فيه من أعماله، وإصلاحها بالتوبة.. ومراجعة النفس، وتصحيح العمل... أما خواتيم العمل فهي التي تقرر عاقبة الإنسان ومصيره.. ونحن نأخذ منكم شرائع ديننا وخواتيم أعمالنا... وليس شيء أدل على الثقة والصدق في الولاء من ذلك.. ومن خلالكم نأخذ معالم ديننا وبكم هدانا الله تعالى.

ثمّ هذا التسليم المطلق الذي لا يشوبه شقاق، ولا يعكّره ريب في أعماق النفوس: تسليم القلب للقلب، (وقلبي لقلبكم سلم)، فإنّ انسجام القلوب، وتلاقي القلوب، وتفاهم القلوب من أسمى معاني ومصاديق (السلم)... هذا أولاً.

وثانياً (التبعية المطلقة) والانقياد والتسليم في مقام العمل (وأمري لأمركم متبع) وهو يؤول إلى التسليم لأمر الله تعالى.

والموقف هنا إيمان مطلق، وتسليم مطلق، وثقة مطلقة في النفس.. ويستتبعه الالتزام الكامل، والتبعية الكاملة في مقام العمل.

وورد في زيارة الحسين عليه السلام الخاصّة في يوم عرفة (إنّي سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم وعدوٌ لمن عاداكم إلى يوم القيامة)[٣].

وفي زيارة الأربعين الخاصّة: (أشهدُ أني بكم مؤمن، وبإيابكم موقن، بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم، وأمري لأمركم متبع، ونصرتي لكم معدّة حتى يأذن الله

---

(١) زيارة وارث.

(٢) زيارة وارث.

(٣) انظر زيارة الحسين الخاصّة ليوم عرفة، وزيارة عاشوراء.

لكم، فمعكم معكم، لا مع عدوكم، صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وأجسامكم وشاهدكم وغائبكم)[١].

فالنصرة معدّة وجاهزة انتظر فيها إذن الله تعالى.

معكم، معكم:

ثم بعد ذلك يأتي هذا النّشيد الولائي الرائع.. وهذه النغمة الإيمانية العذبة... (فمعكم، معكم، لا مع عدوكم...).

بالتأكيد، بتكرار المعيّة (فمعكم، معكم) وبالسلب والإيجاب... والولاء والبراءة (لا مع عدوكم) نردّد هذه التلبية الولائية لداعي الله، الذي وقف يوم عاشوراء في كربلاء... يدعو البشرية إلى العودة إلى الله وتحطيم الطاغوت، وكسر كبريائه وجبروته، والعودة إلى عبودية الله.

(لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي..)[٢].

وإن أفضل التّلبية تّلبية القلب... فإذا فاتتنا تلبية داعي الله بأبداننا في كربلاء، فإن قلوبنا التي عمرها الله تعالى بولائه وولاء أوليائه لا تنفك عن الاستجابة لدعوته، بمقارعة الظالمين، وكسر شوكتهم وسلطانهم، وتعبيد الناس لله، وتحكيم شريعة الله تعالى وحدوده في حياة الإنسان، وانتزاع الإنسان من محور الطاغوت إلى محور الولاء لله تعالى.

الطوائف الثلاثة الملعونة

وقد وردّ اللعن والبراءة في زيارة وارث لثلاثة أُمم وطوائف:

(فلعن الله أمّة قتلتك.

ولعن الله أُمّة ظلمتك.

ولعن الله أُمّة سمعت بذلك فرضيت به)[٣].

---

(١) زيارة الأربعين.

(٢) الزيارة المخصوصة لأول من رجب.

(٣) زيارة وارث.

١ ـ الطائفة الأولى (المباشِرة بالقتل):

والطائفة الأولى: هي الطائفة التي باشرت قتال الحسين عليه السلام، (لعن الله أُمّة أسرجت وألجمت وتهيأت وتنقبت لقتالك يا مولاي يا أبا عبد الله)(١).

٢ ـ الطائفة الثانية (المعينة بالقتل):

والطائفة الثانية: هي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه، ومكنت منه، وشايعت، وبايعت، وظاهرت عليه، وخالفته. وهذه الطائفة تشمل كلّ أُولئك الذين أعدوا لقتال الحسين عليه السلام، أو مكّنوا منه، أو خالفوه، أو ظاهروا عليه، أو ساهموا في الإعداد لقتاله، أو أعانوا الطاغية في قتاله بطريقة أو أُخرى... وأشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

وقد ورد اللعن والبراءة من هذه الطائفة، في طائفة واسعة من الزيارات بصيغ مختلفة. ففي زيارة عاشوراء المخصوصة:

(فلعن الله أُمّة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أُمّة دفعتكم عن مقامكم، وإزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم الله فيها.. ولعن الله أُمّة قتلتكم ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم)(٢).

وأيضاً جاء في زيارة عاشوراء (وأبرأ إلى الله ورسوله ممن أسس أساس ذلك ـ الظلم والجور عليكم أهل البيت ـ وبنى عليه بنيانه وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم برئت إلى الله وإليكم منهم)(٣).

وهذه الطائفة طائفة واسعة تشمل كلّ أُولئك الذين ساهموا في قتال الحسين أو مكّنوا من قتاله أو أعدوا له أو بايعوا الطاغية على قتاله أو شايعوا أو ظاهروا عليه..

٣ ـ الطائفة الثالثة (الشريحة الراضية):

والطائفة الثالثة: هي الطائفة التي سمعت بذلك فرضيت به.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلاً فمن هم أُولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به؟

---

(١) زيارة وارث المطلقة. وباختلاف يسير عن زيارة عاشوراء المخصوصة.

(٢) زيارة عاشوراء المخصوصة.

(٣) زيارة عاشوراء المخصوصة.

إن هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عملية، ولا كانت تدخل ضمن الطائفة الأُولى أو الثانية وإلّا لم يكن من موجب لإفرادها بالذكر ثالثاً.

فهذه الطائفة ممن سمعوا استنصار الحسين عليه السلام ولم ينصروه وآثروا العافية على الوقوف بجانب سيد الشهداء عليه السلام في معركة الطف... وخذلوا سيد الشهداء عليه السلام ولم ينصروه في يوم عاشوراء... ورضوا بهذه الجريمة.

وقد يؤول أمر الذين خذلوا الحسين عليه السلام ولم ينصروه، وآثروا العافية على الشهادة إلى الرضا بما فعله الطاغية ابن زياد بهم عليهم السلام.

وقد ذكرت هذه الطائفة في نصوص أُخرى للزيارة بصيغ مختلفة كلّها تصب في معنى التخاذل عن نصرة (أبي عبد الله الحسين) عليه السلام والتقاعس عن الالتحاق به وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداء عليه السلام.

فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

(لُعنت أُمّة قتلتكم وأُمّة خالفتكم وأُمّة جحدت ولايتكم وأُمّة ظاهرت عليكم وأُمّة شهدت ولم تستشهد...)[١].

وورد في الزيارة المطلقة السابعة:

(وأشهد إن قاتلك في النار، أدين الله بالبراءة ممن قتلك وممن قاتلك وشايع عليك، وممن جمع عليك، وممن سمع صوتك ولم يعنك)[٢].

وورد في زيارة ليلة القدر وليلة العيدين:

(أشهد أن الذين خالفوك وحاربوك، والذين خذلوك والذين قتلوك ملعونون على لسان النبيّ الأُميّ)[٣].

وواضح في هذا النص إن الطوائف الثلاثة الملعونة هي:

١ ـ الطائفة التي خالفت وظلمت.

---

(١) الزيارة المطلقة الثانية.

(٢) الزيارة المطلقة السابعة.

(٣) الزيارة المخصوصة لليلة القدر وليلة العيدين.

٢ ـ والطائفة التي قاتلت الحسين وقتلت.

٣ ـ والطائفة التي خذلت الحسين عليه السلام ولم تُلَبِّ دعوة الحسين عليه السلام ولم تنصره، هؤلاء من أهل البراءة، ومن الذين يستحقون اللعن، بناء على هذا النص.

عاشوراء، (يوم الفرقان):

إن معركة الطف كانت معركة حقيقية في الأبعاد العقائدية والحضارية والسياسية.

ولذلك فهي تتطلب مواقف حقيقية من الولاء والبراءة، وترفض التفرج واللامبالاة..

إنّ طبيعة المعارك والصراعات الحضارية والعقائدية إنها تشطر الناس شطرين، مخالف وموافق، ويجري هذا التشطير والانقسام بصورة مستمرة فيما بعد إلى ما شاء الله من العصور.

ومعركة الطف في القمة من هذهِ المعارك والصراعات، نظراً إلى المواجهة والمقابلة العقائدية والحضارية والسياسية التي تمت في هذه المعركة.. ولوضوح الطرفين في اتجاهاتهما العقائدية والحضارية، فلم يكن خافياً أمر الحسين ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنّة على أحد من المسلمين، كما لم يكن خافياً أمر يزيد بن معاوية ابن آكلة الأكباد... وابن الطلقاء، وسلالة الشجرة الملعونة في القرآن على أحد، ولا أحد يشك في ماهية وحقيقة الطرفين المتصارعين.. ومن منهما كان يدعو إلى الله، ومن منهما كان يشاقق الله ويعصي الله.

هذه المأساة والمواجهة التاريخية شطّرت الناس، شطرين متميزين..

الشطر الأول: الموالي والناصر والمنتمي والمرتبط والمساند..

والشطر الثاني: المخالف والمعادي.

وهذا الصراع لم يَدَعْ أحداً يقف بين الصفين ليتفرج على المعركة من دون أن يصيبه غبار من هذا الطرف أو ذاك.

فلابدّ من موقف محدد من ولاء أو براءة.

ولذلك قلنا إن هذه المعركة شطرت الناس في الولاء والبراءة شطرين متميزين من سنة إحدى وستين هجرية.. إلى يومنا الحاضر وإلى ما شاء الله من العصور.

يوم الفرقان الأول في تاريخ الإسلام:

ولقد كان يوم بدر (يوم الفرقان) الأول في تاريخ الإسلام، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾[1].

وهو أول مواجهة قتالية بين التوحيد والشرك في تاريخ الإسلام..

وعلى نتائج هذه المواجهة الميدانية كان يتوقف مصير البشرية جميعاً.

صحيح إن الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ في بدر ثلاثمائة أو يزيدون، وإن الذين وقفوا إلى جانب قريش لقتال رسول الله ﷺ ألف أو يزيدون قليلاً، إلّا أن هذه المواجهة كانت أعمق وأوسع مما يتراءى لنا لأول مرّة من خلال التاريخ في وادي بدر في السنة الثانية بعد الهجرة.

فقد كان يقف من وراء المشركين من قريش في بدر جبهة عريضة من الشرك في الجزيرة وخارجها.. وتصاعد الأحداث بعد هذا اليوم أثبت هذه الحقيقة.. ولقد وقف رسول الله ﷺ بهذه العصابة الصغيرة أمام جبهة الشرك العريضة.

فيوم بدر إذن فرّق الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء:

شطر قوامه ثلاثمائة وخمسة مقاتلين.

وشطر قوامه جبهة الشرك العريضة وبكل إمكاناتها الواسعة.

فهو (يوم الفرقان) الأول حقّاً في تاريخ الإسلام.

إن النظرة الساذجة الأُولى لساحة بدر، في السنة الثانية من الهجرة لا تلتقي إلّا بهذين الجمعين الصغيرين المتقاتلين.. ولكن النظرة العميقة الممعنة تلتقي في هذه الساحة بحضارتين وعقيدتين تتصارعان على البقاء، وفي جبهات عريضة واسعة وليس مع ألف من المقاتلين أو يزيدون فقط..

ولم يكن يوم بدر (يوم الفرقان) الذي يشطر الناس في الولاء والبراءة إلى شطرين في السنة الثانية من الهجرة فقط، وإنما يظل هذا اليوم يوم فرقان في تاريخ الإسلام إلى أن يأذن الله بنهاية الأرض.

---

(١) سورة الانفال، الآية: ٤١.

يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام:

وإذا كان يوم بدر (يوم الفرقان) الأول في تاريخ الإسلام.

فإن يوم عاشوراء (يوم الفرقان) الثاني في تاريخ الإسلام[١].

كان يقف فيه الحسين عليه السلام مع ثلة صغيرة من أهل بيته وأصحابه.

وفي الجانب الآخر، يقف ابن زياد مع جيش واسع، ومن ورائه يزيد وسلطانه وملكه الواسع وأمواله الكثيرة وإمكاناته، وكلّ الموالين لـه والمستفيدين منه.

ففي يوم عاشوراء إذن نجد كلّ خصائص (الفرقان).. فقد شطر الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء والأخلاق والفكر والخط والعقيدة..

ولا يزال هذا اليوم (فرقاناً) في تاريخ الإسلام، يفرّق الناس في الولاء والبراءة إلى أن يأذن الله بنهاية الأرض.

يوم الفرقان الثالث في تاريخ الإسلام:

وما دمنا قد أشرنا إلى يومين من أيام (الفرقان) في التاريخ الإسلامي:

يوم بدر، ويوم عاشوراء، فلا نستطيع أن نتجاوز هذا الحديث دون أن نشير إلى اليوم الثالث من أيّام (الفرقان) في تاريخ الإسلام الحديث، والذي يأتي امتداداً ليوم بدر، ويوم عاشوراء.

وهو يوم انتصار الثورة الإسلامية في إيران. والذي هو من أيّام الله الكبرى في التاريخ.. هدم الله تعالى فيه عرش أكبر إمبراطورية في آسيا، تحميه أضخم الأجهزة السرية والعلنية وأكبر قلعة للاستكبار في المنطقة. يحميها سادس قوّة عسكرية في العالم، وذلك على يد حفيد من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وآله وذريته السيد روح الله الخميني قدس سره.

إن هذا اليوم لا يعني فقط سقوط نظام أُسرة بهلوي في تاريخ إيران، وإنّما يعني نهاية مرحلة من التاريخ، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام. فإن سقوط أُسرة بهلوي، وقيام الجمهورية الإسلامية يعتبر نهاية لعصر من الخمول والركود والاستضعاف واليأس والارتماء في أحضان الغرب والشرق.. والتخلف الفكري والثقافي والسياسي والعسكري والاقتصادي..

---

(١) بالإمكان أن نَعُدّ (يوم صفّين) يوم الفرقان الثاني في تاريخ الاسلام، و(يوم الطّف) الفرقان الثالث.

والهزيمة النفسية.. وبداية عصر جديد من التحرّك باتجاه حاكمية دين الله على وجه الأرض، وفك القيود والأغلال من الأيدي والأقدام.. وكسر الطوق السياسي، والاقتصادي، والعسكري، والعلمي، والحضاري، الذي فرضه الاستكبار الغربي والشرقي على العالم الإسلامي.. والعودة إلى الله، وتعبيد الإنسان لله، وتحكيم شريعة الله في حياة الإنسان، وإعادة الأعراف والقيم والأخلاق، والحدود الإسلامية إلى صلب الحياة من جديد.. وبالإجمال مرحلة جديدة للتاريخ.. إن هذا اليوم امتداد حقيقي ليوم عاشوراء، كما كان يوم عاشوراء امتداداً واقعياً ليوم صفين وبدر.

انتصار الثورة الإسلامية والقيمة الحضارية لهذه الثورة:

ونلخّص فيما يلي أبرز نقاط وعناصر هذه الثورة المباركة:

إن هذه الثورة، ثورة مبدئية بكل معنى الكلمة.. وهي نوع جديد من العمل والحركة الثورية في تاريخنا المعاصر.. وحدث سياسي بارز لا شبيه له في الأحداث المعاصرة.. وصراع جديد بين التوحيد والشرك.. بين التوحيد في الولاء والشرك في الولاء.. فهي تتّجه لفك ارتباط الإنسان المسلم بالاستكبار الشرقي والغربي.. وفك ارتباطه بمحاور الولاء المصطنعة: (القومية، الوطنية، العشائرية، الحزبية..) وربط ولائه بالله تعالى، ورسوله وأوليائه، وتوحيد الولاء لله تعالى.. ومقاطعة كلّ المحاور الأُخرى التي تعمل لانتزاع الولاء من الناس.

تلك كانت طبيعة الثورة ومحتواها..

إن من المهم أن نفهم نحن مسار الثورة الإسلامية المعاصرة ومحتواها، ومن دون ذلك لا نستطيع أن نساهم أو ندعم أو نساند هذه الثورة.

إنّها ليست ثورة على التخلف العلمي والتقني.. ولا هي ثورة على التخلف الاقتصادي والفقر الاجتماعي.. ولا هي ثورة ضد الاستعمار.. ولا هي ثورة من أجل تحرير آبار النفط من قبضة ملوك النفط.. أو من الشركات الاحتكارية.. ولا هي ثورة طبقة على طبقة أُخرى (صراع طبقي).. كما حدث في ثورة الزنج في تاريخ الإسلام.. وإن كانت تحتوي على كلّ هذه الأُمور، وتطمح لكلّ هذه المكاسب، وتحقق هذه النتائج كلّها إن شاء الله، إلّا أنها في جوهرها شيء آخر، أنها ثورة الولاء لله تعالى، على الولاء للطاغوت.. وثورة التوحيد على الشرك.. وثورة الإسلام على الجاهلية الحديثة..

وهي إذا حققت غايتها على وجه الأرض فسوف تقضي على التخلف العلمي والثقافي

والتقني، وتقضي على الفقر والتخلف الاقتصادي، وتقضي على الاستثمار والاستعمار، وتقضي على الاحتكار، وعلى الشركات الاستعمارية، وتقضي على التلاعب بأموال المسلمين وثرواتهم، وتقضي على الاستضعاف والاستكبار، وعلى استضعاف طبقة لطبقة أُخرى، وممارسة السيادة لطبقة على أخرى.. إن هذه الثورة سوف تحقق كلّ هذه الغايات، وغايات أخرى أبعد من هذه وأسمى منها إن شاء الله.. ولكن على أن تحافظ على جوهرها ومحتواها الحقيقي.. **وهو ثورة التوحيد على الشرك.**

إن السمة البارزة والأولى لهذه الثورة هي: (الربانية)، وهذه السمة هي التي تربطها ببدر وصفّين وعاشوراء وبحركة الأنبياء ﷺ وبمسار الصالحين من أولياء الله.

ومتى أُفرغت الثورة من هذه السمة، وتشبعت بالأهداف والشعارات الجانبية.. فقدت كلّ قيمتها، وفقدت تأييد الله تعالى لها.

.. إن هذه الثورة تختلف اختلافاً جوهرياً عن كلّ الثورات المعاصرة لنا كالثورة الفرنسية، وثورة أكتوبر، والثورات التي قامت في القارة الأفريقية وفي آسيا بعد الحرب العالمية الثانية. والثورات في المنطقة العربية..

إن الكثير من هذه الثورات كانت ثورات طبقية، ثورة طبقة مستضعفة على طبقة مستأثرة.. أو ثورات تحررية من الاستعمار وسيطرة الأجنبي.. أو القضاء على أنظمة ديكتاتورية.. أو حكام مجرمين..

ولا نستطيع أن نستثني ثورة معاصرة عن هذه المنطلقات.

والثورة الإسلامية هي الوحيدة التي انطلقت من منطلق آخر يختلف اختلافاً نوعياً عن هذه الثورات جميعاً.. انطلقت باتجاه تحرير الإنسان من المحاور البشرية للولاء، مهما كان نوعها.. إن لم يكن مرتبطاً بالله تعالى، وتعبيد الإنسان لله تعالى، وتحكيم شريعته في حياة الإنسان. وترسيخ محور الولاية الإلهية بكل امتداداتها في حياة الإنسان.

تراكم من الفعل والحرمان (الفعل والانفعال):

إن هذه الثورة حصيلة جهود كثيرة وكبيرة، من قبل كلّ العاملين في سبيل الله وطلائع العمل الإسلامي، من الذين وعوا محنة تخلّف الأُمّة وتحملوا المسؤولية، ونهضوا بأعباء المسؤولية، إن هؤلاء جميعاً لهم دور في بناء قواعد هذه الثورة، وفي إنجاز هذه الحركة الربانية على وجه الأرض، وفي تحريك هذا السيل البشري الهادر الذي زعزع مكان

الطاغوت.. أن الطالب الذي كان يدعو إلى الله ورسوله وإلى تحكيم شريعة الله، بين زملائه الطلبة، لـه دور في بناء هذه الثورة، والعامل الذي كان يبثّ الوعي الإسلامي في صفوف إخوانه العمال، لـه دور في هذه الثورة، والخطيب الذي كان يخطب في المساجد والاجتماعات، وينشر هدي الإسلام ووعيه، له دور في هذه الثورة، والعالم، والكاتب، والشاعر، والأديب، والمعلم وكلّ حملة الرسالة، من النساء والرجال، من الذين وضعوا حجراً في أساس هذه الثورة من مشارق الأرض ومغاربها، كلّ أولئك وغيرهم لهم دور وحظّ في هذه الثورة المباركة..

إن هذه الثورة التي زلزلت الأرض تحت أقدام الطغاة، لم تكن حصيلة فترة زمنية محدودة. وجهد جماعة من العاملين، وإنما كانت حصيلة أجيال من العمل في سبيل الله من قبل كلّ العاملين في حقول العمل الإسلامي.. كما أن هذه الثورة حصيلة كلّ الآلام والحرمان والاضطهاد والعذاب والعناء الذي لاقاه المسلمون في مرحلة الركود والضعف.. وساهم في هذه الثورة كلّ الشهداء الذين اضطهدوا في سبيل الله.. وكلّ من التفّت السياط على جسمه في غيابات السجون.. وكلّ الدموع والدماء والآهات.. وكلّ الهجرات التي كانت في سبيل الله..

أجل إن هذه الثورة كانت انفجاراً هائلاً لكلّ هذه الآلآم والمحن.. ولو كان الأمر في هذه الثورة الإسلامية يقتصر على العامل الثاني: (ركام الآلآم والعذاب) لكان من الممكن أن تغلب على هذه الثورة الصفة الانفعالية.. إلّا أن وجود العامل الأول وقوته وفعاليته في تحقيق هذه الثورة المباركة كان عاملاً قوياً في توجيه الثورة وتصحيح مسارها والمحافظة عليها من الانحراف.

محاولات لأقلمة الثورة:

فليست هذه الثورة ثورة إقليمية كما يحاول أعداء الإسلام أن يصفوها، وكما تنطلي أحياناً على بعض السذّج من المسلمين، وليست ثورة إسلامية إيرانية، وإنما هي ثورة إسلامية شاملة.. وشاء الله تعالى أن تكون نقطة انفجار هذه الثورة أرض إيران.. والشعب الذي يُفجرّ هذهِ الثورة، الشعب الإيراني المسلم.

وأية محاولة لأقلمة هذه الثورة وعزلها عن مشاعر وأحاسيس وقلوب المسلمين خيانة لهذه الأُمّة، إن كانت من قبل أعداء هذه الأُمّة والمتربصين بها سوءاً.. أو من أبنائها الذين لم

يعّوا خطورة هذا الدور.. إن عزل الثورة الإسلامية عن مشاعر المسلمين، وعن الرأي العام الإسلامي وتطويقها يُعدُّ خيانة كبرى ومقدمة للإجهاز عليها.

ويجب علينا كمسلمين أن نواجه هذه المؤامرات بوعي وانتباه، وبعيداً عن جو الحساسيات... وفي جوّ من المسؤولية الشرعية.

إن هذه الثورة بداية لانفجار شامل وثورات إسلامية كثيرة على وجه الأرض. وليست تلك الثورات شيئاً آخر غير هذه الثورة، ولا امتداداً لها، وإنّما هي مراحل مختلفة لثورة واحدة، شاء الله تعالى أن تتم المرحلة الأُولى منها في إيران، وفي أحضان هذا الشعب المسلم الشجاع.

أرأيت خط الزلزال ينطلق من نقطة ويمتد على منطقة واسعة من الأرض، بفعل التفاعلات غير المرئية في طبقات الأرض.. كذلك هذه الثورة.

التفاعلات التي كانت تجري في الأعماق غير المرئية لهذه الأُمّة:

لقد تمَّ في عمق هذه الأُمّة تفاعلات واسعة وكبيرة وقوية.. بتأثير الفعل (العامل الأول) والانفعالات (العامل الثاني) في غياب من رصد الاستكبار العالمي.. وحيث كان الاستكبار العالمي يزهو بانتصاراته الكبيرة في العالم الإسلامي، ويعيش في نشوة هذه الانتصارات على العالم الإسلامي.. جرت هذه الانفعالات في أعماق الأُمّة الإسلامية، وتفاعلت وتفاقمت.. ثمّ كانت الثورة التي تشبه الزلزال.. فاهتزت الأرض من تحت أقدام حكّام الغرب وأتباعهم ولم ينتبه هؤلاء الطغاة من نشوة سكر السلطان إلّا بعد أن حدث الزلزال.

إن الذي حدث في طهران كان شيئاً أكبر بكثير من تصوراتنا المحدودة.. وكان تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى للصالحين المستضعفين من عباده في هذه الأُمّة، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وعلينا قبل كلّ شيء أن نعي بصورة جيدة الأبعاد الحقيقية لهذهِ الثورة، وأن ننشر هذا الوعي في صفوف المسلمين، لنحبط المؤامرات التي يحيكها أعداء الإسلام لتطويق ومحاصرة الثورة الإسلامية.

إن الذي يقرأ كتب ومحاضرات السيّد الخميني ﷺ، يجد وعياً دقيقاً لهذه المؤامرة،

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥ ـ ٦.

وتوجيهاً عملياً لإحباطها. وحرصاً مسؤولاً لوحدة ومصير المسلمين، ولارتباطهم بالثورة سواءً كانوا سنة أو شيعة، عرباً أو فرساً، وتعمّيم مسؤولية المحافظة على هذه الثورة على المسلمين جميعاً..

إن هذه الثورة نتاج من جهد كلّ المسلمين الصالحين وعملهم وعنائهم وجهادهم، ورسالة هذه الثورة فك الأغلال والقيود، عن أيدي وأقدام كلّ المسلمين. ومسؤولية المحافظة على هذه الثورة من واجب كلّ المسلمين كذلك. ومن أجل هذه الشمولية الواسعة في هذه الثورة.. نجد أن فكرة تصدير الثورة رافقت ولادة الثورة.

إن من يعرف أعماق هذه الثورة وجذورها.. يدرك أن هذه الثورة لا تعترف بالحدود الإقليمية، ولا بالنزعة القومية.. وإنها لا تقف من وراء الحدود تستأذن سدنة الحدود ليفتحوا إليها الطريق.. إنها السيل الذي لا يقف ولا يتردّد ولا ينتظر.

ونحن نضع هذه الحقائق في طريق الثورة، وبين يديّ هذه الأمّة المؤمنة ومفكريها وقادتها وعلمائها والعاملين في صفوفها.. ليعرف كلّ واحد منا مسؤوليته إزاء هذا الحدث الكبير.

الولاء والبراءة بعدان للثورة:

هذه الثورة من أيّام الفرقان في تاريخ الإسلام انشطر الناس تجاهها إلى شطرين:

شطر الموالين..

وشطر المعادين..

وليس للثورة ولاء جديد في قبال الولاء لله ولرسوله ولأوليائه، وإنّما هو امتداد للولاء لله..

إن هذه الثورة كانت من الأحداث القليلة والنادرة في التاريخ التي لم تسمح للإنسان أن يقف منها موقف المتفرج واللامبالاة وإنّما تفرض على كلّ الناس أن يحكموا لها وعليها.. ومنذ أيّام بزوغ هذه الثورة، ومنذ أن اندلع لهيبها في طهران وجدنا كلّ القلوب المؤمنة والضمائر الحية، قد تجمعت حول هذه الثورة وتعاطفت معها..

وكانت تعيش باهتمام بالغ ساعات ميلاد هذه الدولة المباركة.. وحبس التاريخ أنفاسه ليتابع لحظات هذا الميلاد.. لحظات (عودة الحضارة الربانية، وعودة سيادة الإسلام على وجه الأرض).. و(حاكمية الله في حياة الإنسان).. بعد تلك السنوات العجاف من الركود،

والخمول، والضعف، والهزائم النفسية.. والانصهار المذل في حضارة الاستكبار الشرقي، والاستكبار الغربي.. ونفوذ الكفر العالمي على بلادنا وأُمتنا وثرواتنا..

وفي مقابل ذلك.. فقد أحس كلّ الظالمين العتاة والجلادين والذين باعوا دينهم وضمائرهم، كلّ أُولئك أحسّوا بالشر وأحسوا بالخطر، وبأن هناك حدثاً جديداً، وميلاداً جديداً.. وأن الذي يجري في طهران ليس أمراً كسائر الأُمور التي تجري هنا وهناك.. أنه نهاية لمرحلة، وبداية لمرحلة، ونهاية لحضارة، وبداية لحضارة..

لقد أحس هؤلاء بالشر، وبالخطر يُفاجئهم على حين غفلة.. فأعلنوا عدائهم تجاه الثورة منذ اللحظات الأُولى لانطلاقتها.. ولم يخفوا حقدهم وتخوفهم من هذه الثورة.

لقد استقبلت الثورة طائفتان من الناس.

الطائفة الأُولى: استقبلتها بقلوب ملؤها العطف والحبّ والحماس والاندفاع لنصرتها.. والدعاء إلى الله بتأييدها.

الطائفة الثانية: استقبلتها بقلوب حاقدة متخوّفة متحسّسة.. لم تتمكن من إخفاء هذا الحقد والخوف والتحسس.

وهذا الانشطار في الولاء والبراءة من خصائص أيّام الفرقان في التاريخ.. ولسوف تبقى هذه الثورة تحتفظ بهذه الخاصية المزدوجة في مراحلها المختلفة..

حتمية الصراع:

ولقد كان من الطبيعي أن يكون ميلاد هذه الدولة المباركة واستمرارها، إيذاناً بصراع ممتد طويل بينها وبين الجاهلية الحديثة..

فلا يمكن أن يسكت أو يهدأ الغرب أمام هذه الموجة الربانية.. دون إثارة الفتن والمتاعب في طريق دعاة هذه الثورة.. ودون أن تعمل على تطويق ومصادرة هذه الثورة..

إن الذي يتفهم سنن الله في التاريخ، يستطيع أن يفهم بوضوح حتمية هذا الصراع بين هاتين القوتين؛ القوّة الإسلامية النامية.. وقوّة الكفر العالمي.. وأن هذا الصراع سوف يكون من أقسى أنواع الصراع وأطوله.. ذلك أن هذا الصراع صراع من أجل البقاء.. والصراع على البقاء يطول ويقسو ويستمر.. لأنه صراع عقائدي حضاري.. وليس صراعاً على ماء وطين، وعلى نفط وصلب ونحاس، حتّى يمكن اللقاء والتفاهم فيها.

ولا يمكن تجنب هذا بحال من الأحوال إن هذه الثورة والدولة قد كسرتا دائرة النفوذ الاستكباري: الشرقي والغربي، على العالم الإسلامي، وخرجت الدولة الإسلامية لأول مرّة عن منطقة نفوذ القوى الكبرى بشكل كامل، وتعمل الثورة الآن لفك هذا الحصار عن كلّ العالم الإسلامي.. ومن الطبيعي أن تواجه الاستكبار هذه الثورة ودولتها الناشئة بكل أنواع الضغوط والمؤامرات من الداخل والخارج لتحجيمها واستهلاكها وتطويقها.

والعاقبة للمتقين:

والعاقبة في هذا الصراع للمتقين.

ومهما نشك في شيء فلا نشك في هذه الحقيقة..

أن الأُمّة المؤمنة لا تدافع عن نفسها، وإنما تدافع عن دين الله، وشريعة الله وحدوده.. ولا تواجه أعداءها وإنما تواجه أعداء الله.. ولا تحارب بحولها وقوّتها وإنما تحارب بحول الله وقوّته.

فإذا استوفت هذه الأُمّة الشروط، ووضعت ثقتها في الله، وأعطت نفسها لله وابتعدت عن التعلّق بالدنيا وحبها.. وتخلصت من أهوائها.. وقامت لله تعالى مثنى وفرادى.. فإن الله تعالى ينصرها، طال عليها الأمر أم قصر. فإن ذلك وعد الله تعالى، ولا يخلف الله وعده.. واستمعوا إلى كتاب الله الكريم وآياته لبيّنات:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[١].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٣].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٤].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[٥].

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٤٥.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١].

إن المعركة إذا طالت، وإذا قستْ، فلن يتركنا الله لأعدائنا، ولن يتخل الله تعالى عنا، ولن يخلف وعده.. تبارك وتعالى عن ذلك علوا كبيراً.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[٢].

ليحق الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين:

إن محنة المسلمين إذا طالت.. فلكي يمتحن الله قلوب عباده، ويعرف الثابتين منهم عن المهزومين.. وهو العالم بخفايا القلوب، ولكي يثبّت الله للمؤمنين قدم صدق على أرض المعركة، ولكي يتخفَّف المؤمنون في هذا الصراع من حب الدنيا والتعلق بها.

ولكي يزدادوا يقيناً بالله تعالى في هذا الصراع.. فإن الإنسان لا يرزق اليقين في ساعات الرخاء والراحة والعافية.. مثل ما يناله في الابتلاء.. ولكي يتمرس المؤمنون على مواجهة التحديات الكبيرة.. وتجاوز الصعاب في سبيل الله ويزدادوا بأساً وقوّة وإيماناً.. ولكي يقّوى ولاؤهم وبراءتهم.. فإن الولاء يقوى من خلال التضحية والعطاء والبراءة، تقوى من خلال المواجهة والقتال.

وليس هذا الصراع وما يستتبعه من آلام وعناء يخص هذه الثورة أو يخص هذا الدين، وإنما هو سنة الله تعالى في حياة الصالحين من عباده، الذين يرتضيهم الله تعالى لرحمته والذين يسكنهم الله تعالى جنته مع عباده الصادقين. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾[٤].

إن نفوسنا الضعيفة لتهوى أن تقتطف النصر من أقرب الأسباب وأيسره.. وأن لا يكلفها دينها شيئاً.. وأن نمد أيدينا فننال النصر والإمامة والخلافة على وجه الأرض..

---

(١) سورة محمّد، الآية: ٧.

(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٢٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

ولكن الله الحكيم.. يعلم أن النصر إذا جاء بيسر، وعلى غير طريق ذات الشوكة، لا يؤهل الإنسان للإمامة وخلافة الله على وجه الأرض.

فيريد الله تعالى لنا أن نتمرس ونقوى، ونحقق حاكمية دين الله في الحياة على طريق ذات الشوكة..

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1].

آية آل عمران:

واستمعوا إلى هذه الآيات البيّنات من سورة آل عمران توضّح الصراع، والعناء، والمحنة، والنصر، والفتح، في تسلسل رائع جميل:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾[2].

وفي هذه الآيات المباركة من سورة آل عمران إجابات شافية على كلّ الأسئلة التي تخطر على بال المؤمنين في هذا الصراع الرهيب بين الإسلام والكفر..

وإليك التوضيح والشرح:

تداول النصر والهزيمة في ساحة المعركة:

لقد كان المسلمون يظنون بعد أن نصرهم الله تعالى ببدر.. أن النصر حليف الفئة المؤمنة دائماً، لا يفارقهم ولا يعدوهم.. وأنهم إذا آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله، فلن يتخلّف عنهم النصر في حال من الأحوال، فلما أذاقهم الله مُرَّ الانتكاسة في أُحد، وانتكس المسلمون في هذه المعركة عندما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، وتخلفوا عن مواقعهم بحثاً عن الغنائم.. اهتزت نفوس ضعاف المسلمين.. واهتزت الثقة في نفوسهم بالنصر.. وعادوا يشكّون في أن تكون لهم عاقبة الأمر، وغلب الضعف على النفوس.. وتمكن الحزن في

(١) سورة الانفال، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٢.

نفوسهم على الذين استشهدوا في هذه المعركة من سراة المسلمين ومن الصفوة المؤمنة، الذين صدقوا الله وأخلصوا له في العمل والجهاد..

فيعيد الله تعالى إلى نفوسهم الثقة بالنصر أولاً.

ويطمئنهم بأن العاقبة للمؤمنين، مهما كانت القروح، والآلام، والانتكاسات، والعناء خلال طريق ذات الشوكة ثانياً.

ويزيل الضعف والوهن، والحزن عن نفوسهم ويثبت أفئدتهم وقلوبهم بالنصر والعلو.. ثالثاً.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ يذكرهم الله تعالى إنّ ما مسهّم من القرح في الحرب لم يخصهم فقط، وإنما مسّ أعداءهم أيضاً.. وهذا القرح وما يصيب المقاتلين من أذى وتعبْ وخسائر من متطلبات المعركة.. لا يمكن أن يخص طرفاً دون الآخر.. ولا يمكن أن تجري معركة من دون قروح. . ﴿...إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾. وقد جرت سنة الله تعالى أن يداول الأيّام بين الناس، فيجعل يوماً للمؤمنين على الكافرين، وآخر للكافرين على المؤمنين، وينصر هؤلاء في يوم، ويذيقهم مرّ الانتكاسة في يوم آخر.. وهكذا يداول بينهم النصر.. على أن العاقبة للمؤمنين فقط.

وهذه المداولة لا تغيّر مشيئة الله تعالى وتبقى العاقبة للمتقين.

وإنما يداول الأيّام بين الناس، ويذيق المؤمنين الشدّة والرخاء ونشوة النصر حيناً ومرارة الانتكاسة حيناً آخر، ليتميّز الذين آمنوا وصدقوا في إيمانهم وثبتوا على الإيمان.. عن المنافقين وضعاف النفوس وأصحاب النفوس المهزومة.

تمحيص وتهذيب المسيرة في المجتمع:

إن مسيرة الدعوة لو كانت محفوفة بالنصر دائماً ومفروشة باليسر والرخاء، تراكمت عليها العناصر المنافقة التي تحسن التسلق على الجدران العالية، أُولئك الذين يغيبون حين البأس، ويحضرون حين توزيع الغنائم، وتطول ألسنتهم في المطالبة بالغنائم ﴿فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[1].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

إن مسيرة الدعوة إن كانت تخلو من المكاره ومرارة الانتكاسات تجمعت حولها طائفة واسعة من المنافقين وضعفاء النفوس، واحتلوا منها المواقع الحساسة.. وإذا ما تولت هذه الطائفة أُمور الدعوة والمسيرة تعطل دورها القيادي في حياة الناس، وفقدت الدعوة قدرتها على التغيير والقيادة، وتحولت الدعوة من طريق ذات الشوكة في مواجهة الطاغوت.. إلى مسيرة مُتْرفة عامرة باللذات ومتع الحياة، وفقدت كلّ إمكاناتها على العمل والتغيير والحركة، كما حصل ذلك في عصر بني أُمية وبني العبّاس.

فلابدّ في هذه المسيرة بين حين وآخر من انتفاضة قوية تطرد فيها المنافقين وضعفاء النفوس عن موكب هذه الدعوة، وتستخلص المؤمنين الأقوياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا لله في عملهم.

فليست مسيرة هذه الدعوة كسائر ما يألفه الناس من مسيرات الأنظمة والحكومات التي تطلب الحياة الوديعة المترفة والبعيدة عن المتاعب والمنغصات.. فإن هذه الحياة الوديعة والمترفة تجعل جوّ الدعوة مرتعاً للمنافقين وضعفاء النفوس، فإذا تعرضت هذه المسيرة للآلام والمحن والمصائب.. ومتاعب الطريق والدم والانتكاسات المرّة صفا جوّ الدعوة للمؤمنين.. وتخلصت هذه المسيرة للصفوة الصادقة من المؤمنين والمجاهدين، ويتميز المؤمنون عندها عن غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

متى يتخذ الله الشهداء في هذه الأُمّة قيّمين على المسيرة؟

وليس هذا فقط فائدة تداول الأيّام، وتناوب النصر والهزيمة والشدّة والرخاء على المؤمنين.

وإنّما ينفعهم عندما يريد الله تعالى أن يتخذ منهم شهداء وقدوات وقيّمين على حياة البشرية.. فمن خلال الابتلاءات والمحن التي تتناوب عليهم يؤهلهم الله تعالى لموقع الشهادة والقيمومة على الناس، ويتخذ منهم شهداء وقيّمين.

ومن خلال هذه المعاناة، ومن خلال مرارة الانتكاسات، وقروح الحروب وآلام المواجهة تتكون في هذه الأُمّة شهداء على الناس وأئمّة وقدوات في المجتمع، وأمثلة في الصبر والثبات والمقاومة.

إن النماذج الإيمانية الفريدة في تاريخ البشرية لا تتكون في الحياة الهادئة الوديعة، المترفة.. وإنما تتكون في زحام متاعب الحياة، وفي وسط متاعب العمل، وبين الدماء

والدموع. ولابدّ للمسيرة من هذه النماذج الفريدة في الإيمان والثبات.. وهذه النماذج يتخذها الله تعالى ويختارها شهداء في ظروف المحنة والتداول.. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

التمحيص والتهذيب داخل النفوس:

ولهذا التداول فائدة ثالثة في تكوين هذه الأُمّة وتقويم شخصيتها وذلك هو تمحيص المؤمنين وتزكيتهم وتطهير قلوبهم من ريب الشك ومن سلطان الهوى وتخليص نفوسهم من نقاط الضعف.. فإن الشدّة والمعاناة، كما تنقّي صفوف المؤمنين من المنافقين على البعد الأُفقي.. كذلك تنقّي قلوب المؤمنين من نقاط الضعف والنفاق والوهن والشكّ، وتُمحّص المؤمنين على البعد العمودي أيضاً.

أما بالنسبة إلى الكافرين فإن المعاناة والمحنة تمحقهم وتهلكم وتبيدهم.. فلا يستطيع أُولئك أن يقاوموا المعاناة والمحنة..

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

درجات المؤمنين في الجنّة على قدر معاناتهم في الدنيا:

ليس من الصحيح أن نتصور أن كلّ من شهد الشهادتين، وأسلم أو آمن بالله ورسوله يدخل الجنّة بدرجة واحدة.

فإن في الناس منافقين لا تتجاوز الشهادتان ألسنتهم، ولا تستقر في قلوبهم..

والمؤمنون درجات ومراتب في إيمانهم، فليس كلّهم بمستوى واحد من الإيمان والعمل الصالح.

فهناك المؤمنون الذين يُؤثرون العافية على الجهاد والقتال في سبيل الله، وهناك المؤمنون المجاهدون الصابرون.. ومن الخطأ أن نتصور أن هؤلاء جميعاً في الجنّة في درجة واحدة.. فلكلّ درجته ومرتبته ومكانته عند الله.

وهذه المرتبة والمكانة تتحدّد في ظروف المحنة فقط، حيث يتميز المؤمن من المنافق، ويتميز الصابرون عن غيرهم من المجاهدين..

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

دولة الموّطئين:

وهذه الثورة المباركة بداية انعطاف كبير في تاريخ وحضارة الإنسان، وأمر ذو وبال وذو خطر كبير في حياة الإنسان ومستقبله..

والذي يستقرأ الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيته، لا يشك أن هذه الثورة بخصائصها البارزة وقيادتها سوف تمهد للانقلاب الكبير في تاريخ الإنسان وهو ظهور الإمام المهدي من آل محمّد ﷺ.

وأن اليوم الموعود الذي وعدنا الله به ورسوله بقيام دولة الإسلام الكبرى.. وتمكين المستضعفين من الأرض.. وقيام الإمام المهدي بثورته الكبرى في الأرض.. لقريب أن شاء الله..

وأنّ هذه الثورة توطّئ الأرض لتلك الثورة الكبرى، وتمهّد الأُمّة لظهور القائم من آل محمّد عليه السلام وقيامه.

وفيما يلي ننقل اضمامة من هذه الروايات:

عن عبد الله بن مسعود قال: أتينا رسول الله ﷺ فخرج إلينا مستبشراً يُعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلّا أخبرنا به، ولا سكتنا إلّا إبتدأنا.. حتّى مرت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين فلما رآهم التزمهم وانهملت عيناه.. فقلنا: يا رسول الله ما نزال نرى في وجهك شيئاً تكرهه؟

فقال: إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وأنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد حتّى ترتفع رايات سود من المشرق فيسألون الحقّ فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون.. فمن أدركهم منكم ومن أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج، فإنها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي فيملك الأرض فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[١].

وروى المجلسي في بحار الأنوار عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

(كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحقّ فلا يعطونه ثم يطلبونه، فإذا رأوا ذلك

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤: ٤٦٤ و٥٥٣، والمتقي في كنز العمال ٧: ١٨٧، وابن ماجة في سننه ٢: ٥١٨ و٢٦٩، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ١٠٠ هذا الحديث.

وضعوا سيوفهم على عواتقهم.. فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتّى يقوموا، ولا يدفعونها إلّا إلى صاحبكم (أي المهدي عليه السلام) قتلاهم شهداء، أما إني لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر)[١].

وروي في البحار عن بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً إذ قرأ هذه الآيـة: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فقلنا جُعلنا فداك من هؤلاء؟ فقال ثلاث مرّات: (هم والله أهل قم، هم والله أهل قم، هم والله أهل قم)[٢].

وروي في البحار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: (رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحقّ يجتمع معه قوم كزبر الحديد لا تُزلهم الرياح والعواصف، ولا يملّون من الحرب ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين)[٣].

وروي في البحار عن علي بن ميمون الصائغ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجّة على أهل الخلائق وذلك في زمان غيبة قائمنا إلى ظهوره، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها)[٤].

وروي بأسانيد أُخرى أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه ذكر الكوفة وقال: (ستخلو الكوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحية، يظهر العلم ببلدة يقال لها قم وتصير معدناً للعلم والفضل حتّى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتّى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهله قائمين مقام الحجّة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها، ولم يبق في الأرض حجّة، فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب، فتتم حجّة الله على الخلق، حتّى لا يبقى أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم. ثمّ يظهر القائم ويصير سبباً لنقمة الله وسخطه على العباد لأن الله لا ينتقم من العباد إلّا بعد إنكارهم حجته)[٥].

---

(١) بحار الأنوار ٥١: ٨٣ و٥٢: ٢٤٣.

(٢) بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦.

(٣) البحار ٦٠: ٢١٦ و٤٤٦.

(٤) بحار الأنوار ٥٧: ٢١٣.

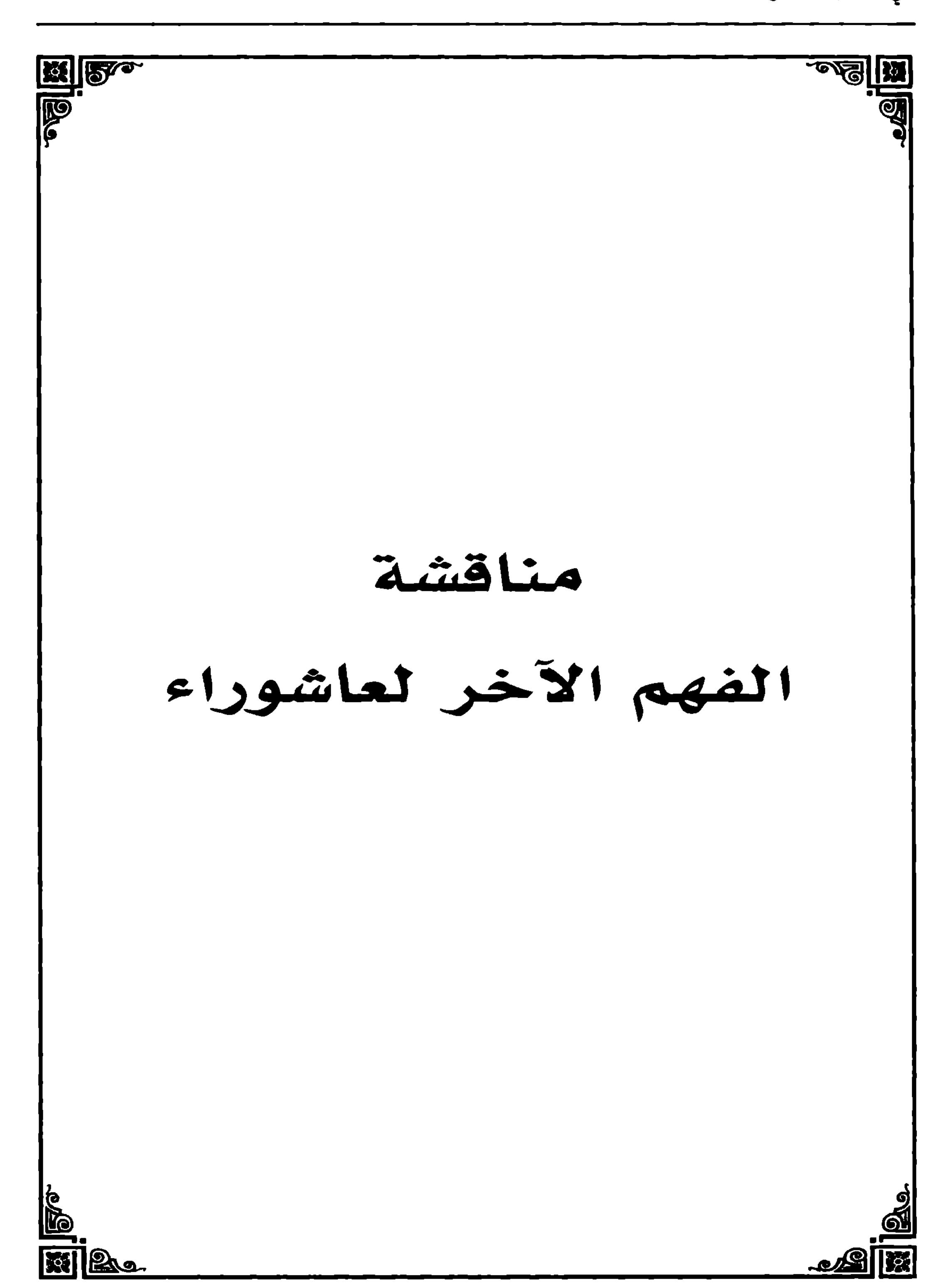
(٥) بحار الأنوار ٦٠: ٢١٣.

وقال صاحب تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

قال: وسئل رسول الله ﷺ عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه وقال: هذا وقومه[2].

هذه اضمامة من الروايات التي تشير إلى استمرارية هذه الثورة المباركة حتّى ظهور الإمام المهدي من آل محمّد عليه السلام وأن هذه الثورة المباركة سوف تمهّد لظهور وقيام الإمام المهدي عجّل الله فرجه إن شاء الله.

(١) سورة محمّد: ٣٨.
(٢) تفسير الكشاف: ٤: ٣٣١.



مناقشة
الفهم الآخر لعاشوراء

توطئة

هل إن معركة الطف عثرة على الطريق أم مرحلة من الطريق؟

يقول الدكتور عبد العظيم الديب بعد أن يذكر الفتوحات الإسلامية: هذا هو تاريخ الإسلام، أما معركة الجمل وصفين وكربلاء... فتلك عثرات على الطريق[١].

وهذا المقال يناقش هذا الرأي. وإليك تفصيل القول في ذلك من خلال مجموعة من النقاط:

الصراع بين حركة التوحيد وحركة الشرك

إنّ قوام التاريخ هو الصراع بين (التوحيد والشرك) وبين (الحق والباطل)، حتى وإن ضاقت مساحة هذا الصراع، واختفى عن الرأي العام، ولم يستقطب اهتمام الناس على وجه الأرض.

والحتمية من أهم قوانين وسنن هذا الصراع، فلا يمكن أن يمتد هذان الخطان على وجه الأرض وفي حياة الناس دون أن يتقاطعا، ودون أن يؤدي هذا التقاطع إلى المواجهة والصراع، فإن حركة التوحيد تقوم في المجتمع على أنقاض الكفر والشرك، ولا يقوم للشرك والكفر أساس ولا أثر في حياة الناس إلا بزوال التوحيد. فكل منهما يطرد الآخر. وهذا التناقض بين التوحيد والشرك هو الذي يؤكد حتمية الصراع بينهما.

وإذا أردنا أن نفهم التاريخ وسننه وقوانينه وأحكامه التي يرسمها الله تعالى لنا في كتابه الكريم فعلينا أن نقرأ تاريخ الأنبياء وحركتهم في ساحة المواجهة لأقوامهم.

إنّ حركة الأنبياء ترسم لنا المعنى الحقيقي لـ (الصراع) و(التاريخ)، وترسم سنن الصراع في جبهة التوحيد والشرك، وما يتطلبه الصراع من الصبر والتضحية والعطاء في كل من

(١) كتاب النهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي: ٦٧ سلسلة كتاب الأُمة عدد: ٢٧ عبد العظيم محمود الدين.

الجبهتين، وما يتخلل الصراع من ألوان المحنة والعذاب، وما يتعقب الصراع من نصر القلة المؤمنة وسقوط جبهة الكفر والشرك، وما يرافق الصراع من تساقط وتخاذل في صفوف أنصار الحق، ومن تبادل المواقع في كل من الجبهتين[١].

ولا شك أن من واجب الأنبياء الدفاع عن المحرومين والمستضعفين ولا شك أن الأنبياء دافعوا ووقفوا إلى جنب المستضعفين وضد المستغلين والظالمين.

ولكن هذه المعركة ليست هي المعركة الأساسية والمحورية في حركة الأنبياء، وليست هي محور صراع معركة الأنبياء، وإنما محور هذه الحركة وهذا الصراع هو الصراع بين التوحيد والشرك والحق والباطل.

حركة موسى بن عمران عليه السلام

ضمن هذا التصور للتاريخ لابدّ أن ندرس حركة موسى بن عمران عليه السلام في التاريخ.

إن تاريخ حركة كليم الله موسى بن عمران عليه السلام هو في الصراع بين التوحيد والشرك. ومن خلال هذا الصراع نستطيع أن نفهم تاريخ موسى عليه السلام والمنعطفات الحساسة في حركته، والعقبات التي واجهها، والأسلوب الذي اتبعه في مواجهة هذه العقبات، والإنجازات التي حققها الله تعالى على يده، والمراحل التي اجتازها وتخطّاها في هذا الصراع.

ومن خلال هذه الرؤية نستطيع أن نفهم الفتن التي حدثت في مجتمع بني إسرائيل بعد أن نصرهم الله تعالى على فرعون وأنقذهم من الغرق، وكيف دبّ الشرك مرة ثانية، من خلال حركة السامري وتضليله لبني إسرائيل، ومن خلال استجابة بني إسرائيل لتضليل السامري واستضعافهم لهارون عليه السلام وتمردهم عليه، وطلبهم للعكوف على عبادة الأصنام، وامتناعهم عن الاستجابة لدعوة موسى بن عمران عليه السلام، لقتال القوم الجبارين، وابتلاء الله تعالى لهم بعد ذلك بالتيه أربعين سنة[٢].

وهكذا تتلقى حركة التوحيد تحديات صعبة من الشرك، وقد واجه موسى بن عمران عليه السلام هذه التحديات مرتين قبل غرق فرعون وبعده من خارج الجماعة المؤمنة من بني إسرائيل قبل الغرق والاجتياز، ومن داخل الجماعة المسلمة من قومه بعد الغرق والاجتياز، فإن الشرك لا

---

(١) في رحاب القرآن ٩: ٦٩ ـ ٨٨.

(٢) في رحاب القرآن: ٩: ٨١ ـ ٨٢.

يكفّ عن المقاومة بعد السقوط في المرحلة الأولى من المواجهة، وإنما يمارس هذه المرّة المقاومة من داخل الجهة المسلمة.

وهذه المقاومة أشقّ على الإسلام من المقاومة الأولى.

ويبقى أن نقول إذا كان التوحيد (والإسلام) حركة في التاريخ والمجتمع، فأن (الشرك) و(الجاهلية) أيضاً حركة في مواجهة حركة التوحيد والإسلام، ومتقاطعة معها، ومهمة هذه الحركة إعاقة حركة التوحيد والإسلام، وتعطيل حدود الله تعالى وفرائضه على وجه الأرض... والخصال والشروط المقوّمة للحركة موجودة فيها، إلا أنها في الجهة المعاكسة لحركة التوحيد والإسلام، في كلّ شيء.

الفهم الصحيح للتاريخ:

واعتقد أن هذا الفهم هو أساس الفهم الصحيح للتاريخ.

فإن التاريخ صراع بين هاتين الحركتين. وليس من التاريخ كل صراع على وجه الأرض، مهما اتسعت رقعته، ومهما استهلك من الجهود والأموال والدماء، وإنما قوام التاريخ ـ كما قلنا ـ هو الصراع بين (التوحيد والشرك).

وفي المراحل الأولى من ظهور حركة التوحيد تكون المقاومة من الخارج على كيان التوحيد، وعندما تنهزم حركة الشرك في الجبهة الخارجية أمام حركة التوحيد تتحول المقاومة إلى الداخل.

والعدو عندما يعجز عن تسقيط حركة التوحيد من الخارج يبدأ العمل في تحريف مسار التوحيد من الداخل.

وبتعبير آخر يكون الصراع في المرحلة الأولى على التنزيل وفي المرحلة الثانية على التأويل.

والتوحيد بذلك يواجه خطرين خطر الاستئصال من الخارج وخطر التحريف والإفساد من الداخل، والأول يقوم به المشركون والثاني يقوم به المنافقون.

ولكل من هاتين المواجهتين من الخارج والداخل أثر تخريبي واسع في الدعوة، إلّا أن الأثر التخريبي للمواجهة الثانية أوسع بكثير من الأثر التخريبي للمواجهة الأولى.

ذلك أن المواجهة الأولى تزيد الأمة في طريق تحمّل رسالة الدعوة إلى الله صلابة ومتانة

وقوة، وتزيدهم استحكاماً وتماسكاً، أما المواجهة الثانية فهي تشقّق الأمة الداعية إلى الله، وتذرهم فرقاً وطوائف متناحرة، ويدخل التحريف إلى صلب الدعوة وتستهلك الدعوة وحملتها من الداخل، بينما كانت المواجهة الأولى من عوامل قوة العصابة المسلمة التي تحمل رسالة الدعوة إلى الله تعالى.

وهذه هي ظاهرة النفاق.

وقد واجه موسى بن عمران وأخوه هارون عليهما السلام بعد هلاك فرعون وجنده والهزيمة المنكرة التي لحقتهم... وبعد النصر الذي كتبه الله تعالى لبني إسرائيل على أعدائهم... واجه موسى بن عمران وأخوه هارون عليهما السلام هذه الحركة التخريبية الواسعة من الداخل بشكل فاعل وقوي، يندر مثله في حركة التوحيد في تاريخ الأنبياء عليهم السلام[١].

حتمية الصراع بين التوحيد والشرك

ما هي الأسباب التي تدعو إلى القول بحتمية الصراع بين التوحيد والشرك؟

قدّمنا سابقاً القول بأن حركة التوحيد تقوم في المجتمع على أنقاض الكفر والشرك، ولا يقوم للشرك والكفر أساس ولا أثر في حياة الناس إلّا بزوال التوحيد. فكل منهما يطرد الآخر، وهذا التناقض بين التوحيد والشرك هو الذي يؤكد حتمية الصراع بينهما.

ولابدّ أن يتحقق هذا الصراع، لأن حركة التوحيد تمتدّ على مساحة نفوذ الشرك وسلطانه كلّها، ولا تمتد في الفراغ، وتحتل مساحة سلطانه ونفوذه.

ومساحة الحياة لا تتسع للشرك والتوحيد معاً، فإذا تقدّم التوحيد شوطاً كان على الشرك أن ينسحب نفس الشوط.

إنّ حركة التوحيد تمتدّ على مواقع النفوذ والقوة في المجتمع، الإعلامية منها والسياسية، والمالية، والعسكرية، والثقافية، والإدارية، ويتحرّك التوحيد باتجاه بسط نفوذه على هذه المواقع جميعاً.

وذلك أن هذه المواقع هي التي تمكّن حركة التوحيد من إزالة العقبات التي تعيق إبلاغ خطاب الله إلى الناس، وتعيق تنفيذ حدود الله... أولاً، وتمكّنها من إبلاغ خطاب الله إلى

---

(١) في رحاب القرآن: ٩: ٩٣ ـ ٩٤.

الناس ثانياً، وتمكّنها من تنفيذ خطاب الله على وجه الأرض ثالثاً... وهذه ثلاث نقاط لا يمكن أن تتحقق بغير هذه المواقع.

إنّ الصراع لدى حركة التوحيد على مواقع القوة والنفوذ ليس بَطَراً ولا رئاءاً، كما لدى الجاهلية، وإنما هو وسيلة لتحقيق رسالة التوحيد على وجه الأرض وهي هداية الناس وتطبيق حدود الله في حياة الناس.

وهذا هو تفسير صراع التوحيد والشرك (أو الإسلام والجاهلية) على مواقع القوة والقرار والمال والإعلام... والرأي القائل بأنّ كلمة التوحيد تتحرّك في حياة الناس وتتبعها إقامة الصلاة وإقامة حدود الله بالوعظ والنصح والإرشاد من دون حرب وقتال... تسطيح لهذه القضية الحضارية المعقدة، وتبسيط لها... ولو كان كذلك لم يدخل رسول الله ﷺ في عشرات الغزوات والسرايا خلال عشرة سنوات قضاهن في المدينة بعد الهجرة.

إنّ مواقع السلطة والقرار لا يكتسبها الإسلام بغير القوّة، ولا يحافظ عليها من دون القوّة.

إذن، لكي تنطلق حركة التوحيد على وجه الأرض، لابدّ أن تنطلق من موقع القوة والسلطة والقرار، وهذه المواقع ليست شواغر وفراغات بطبيعة الحال، وإنما يحتلّها الشرك والجاهلية... فقد كانت مكّة موقعاً لنفوذ المشركين، والجزيرة العربية موقعاً لنفوذ المشركين واليهود والنصارى، وإيران موقعاً لنفوذ المجوس وسلاطين آل ساسان.

وبلاد الشام (الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان) موقعاً لنفوذ الروم الشرقية، وهكذا مصر وسائر بلاد شمال أفريقيا والمغرب الإفريقي وشرق أفريقيا، ولم يكن الإسلام يتقدّم في هذه الأرض العريضة بغير صراع وقتال على مواقع القوة. ولو كانت مواقع القوة في هذه البلاد العريضة التي حرّرها المسلمون خلال أقل من قرن باقية بيد أقطاب الجاهلية وأئمة الكفر، لم يكن بوسع الإسلام أن يزحف على هذه الأقاليم العريضة في آسيا وأفريقيا، ويحرر الناس من الإصر والأغلال في أقل من قرن.

ولا يتقدّم الإسلام إلى موقع من هذه المواقع إلّا بانسحاب الجاهلية من نفس الموقع، فلا يجتمع الإسلام والجاهلية في موقع واحد للقوّة والقرار أبداً. والتعايش النصفي بين الإسلام والجاهلية في بعض مواقع القرار في واقعنا السياسي اليوم حالة مؤقتة تعبّر عن تقدم إحدى الحركتين وانسحاب الأخرى بالتدريج، وحالة التدرج حالة مؤقتة بالضرورة.

وعليه، فإن الصراع على موقع القوة، والقرار، والمال، والإعلام، والعسكر من حتميات التاريخ والمجتمع.

والقرآن الكريم يقرّر حتمية الصراع بين هذين المحورين بشكل جازم.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

ولذلك فالتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت تفكير فيه كثير من التسطيح وتبسيط القضايا والضعف والهزيمة النفسية.

وقد صدق ذلك الاعرابي الذي اكتشف بفطرته هذه الحقيقة حينما قال: (إن هذا الدين تخافه الملوك)، بعد ما سمع آيات من القرآن من رسول الله ﷺ.

الصراع بين التوحيد والشرك ليس على المال والسلطان:

وبناء على هذا الفهم فلا يمكن أن نقول: إن سبب الصراع بين حركة التوحيد وحركة الشرك هو المال والسلطان.

لأن الصراع بين التوحيد والشرك صراع حضاري، ليس على المال والسلطان، وليس على مساحة من الأرض وآبار من النفط ليمكن الوصول فيه إلى التفاهم والحلول الوسطية. وإنما الصراع فيه على نفي كل سلطان وحكم عن حياة الإنسان، وحصر الحكم والولاية لله تعالى في حياة الإنسان. ومثل هذا الصراع، صراع حضاري عميق، لا ينتهي إلّا بهدم كل سلطان عدا سلطان الله، وتحكيم حكم الله وأمره على حياة الإنسان بشكل مطلق، وهذا الصراع يكون عادة صراعاً حضارياً شرساً، أشرس ما يكون الصراع في حياة الإنسان[2].

ولو كان هذا الصراع على المال والسلطان لأمكن أن يتفاهما، ويصلا إلى حدّ من التفاهم، ولكن الصراع حول حاكمية الله، وهذا صراع حضاري لا يمكن التفاهم حوله، فلا تنازل ولا تفاهم، ولا مصالحة، ولا مهادنة.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) في رحاب القرآن ٩: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) سورة الكافرون، الآيات: ١ ـ ٦.

والأنبياء ﷺ في هذا الصراع يطلبون المال والسلطان، بلا ريب، ويستولون عليهما، ولكن ليس لأنهما غاية في هذا الصراع، بل لأنّ الصراع ليس صراعاً نظرياً، وإنما هو صراع ميداني، والمال والسلطان من أهم العوامل التي تحقق حاكمية الله على وجه الأرض.

نعم هناك حالات سلام ومصالحة وتحالف مع الكفر والاستكبار، كما صنع رسول الله ﷺ، مع قبائل من اليهود ومع قريش، ولكن لا تحمل هذه الحالات نظرياً عندنا، معنى إمكانية الوصول إلى تفاهم دائم وصلح دائم مع الكفر... فإنّ الكفر لا محالة يخترق هذا العهود وينقضها، كما صنعوا بعهودهم مع رسول الله ﷺ... هذا أمر مؤكد، وفائدة الصلح والمصالحة أنها تهيئ لجبهة التوحيد فترة من الوقت، تستعيد فيها ما استهلكت الحروب من قدراتها وكفاءتها.

فليس إذن معنى هذا الكلام: إن حركة التوحيد لا تدع السلاح، ولا تتقبل الصلح من أعدائها أو أنها تنقض العهود والمواثيق الدولية التي تعقدها لاتاحة الفرصة لها لاستعادة قوتها... كلا، وإنما معنى ذلك أنّ هذه الجبهة تفهم حقيقية العلاقة بين الجبهتين، ولا تغرّها تصريحات العدو السلمية... وتبقى هذه الجبهة في ساحة الصراع تستجيب لنداءات الصلح لو وجدت في ذلك مصالحها، وتدخل في عهود هدنة وصلح، ولا تبادر بنقضها أبداً، ولكنها في نفس الوقت تعرف أن جبهة الاستكبار لا محالة تنقض هذه العهود وتمارس التخريب والإفساد والصد عن سبيل الله، وتعد العدة من الآن للجولة القادمة.

كيف واجه الإسلام هذين التحديين؟

تقدّم سابقاً أنّ حركة الأنبياء ﷺ ترسم لنا المعنى الحقيقي لـ (الصراع) و(التاريخ)، وترسم سنن الصراع في جبهة التوحيد وفي جبهة الشرك، من خارج كيان الدعوة من داخله.

وقد واجه الإسلام التحدي الأول (من الخارج) في مكة والمدينة مع عتاة قريش، وبعد ذلك إتسعت دائرة المعركة وشملت اليهود والائتلاف الواسع بين مشركي قريش واليهود في الأحزاب، وانتهى هذا الشوط بهزيمة الشرك وتحالفاته ضد حركة التوحيد.

وفي هذه المرحلة عندما انهزمت الجبهة المعادية للتوحيد هزيمة منكرة، ولم تعد هذه الجبهة قادرة على المقاومة والصمود والمشاكسة في مسيرة الدعوة، كما حدثت هذه الهزيمة في صفوف المشركين والكفار، بعد فتح مكة والطائف، وكما حدثت هذه الهزيمة المنكرة في جيش فرعون وملأه بعد ما أهلك الله فرعون وجنده في البحر... أقول: عندما تنهزم جبهة

الشرك في التقابل مع جبهة التوحيد لا تعطل مشروعها في التخريب والإفساد في جبهة التوحيد، وإنما تبادر هذه المرّة بحركة سريعة إلى تغيير موقعها في تخريب الدعوة ومهاجمتها إلى المواجهة من الداخل تحت غطاء الدين، وفي الحقيقة تنقل هذه الجبهة مهمتها التخريبية من خارج الدعوة إلى داخل الدعوة، بعد أن يتبين لهم أن محاربة الدعوة من الخارج أصبحت أمراً غير ممكن على الإطلاق.

وفي هذه المرحلة يكون الهدف القضاء على نقاوة الدين وسلامته وأصالته واستقامته وربانيته.

وأبرز مواقع صراع المرحلة الثانية في تاريخ الإسلام (صفين) و(الطف).

فإنّ معارك (صفين)، و(الطف) امتداد لـ (بدر)، و(الأحزاب)، و(حنين).

تحوّل بذلك المشركون إلى منافقين، يوجهون ضرباتهم إلى الإسلام من الداخل.

والآن نتساءل: أيهما أخطر على الإسلام: الذين حاربوا رسول الله ﷺ تحت لواء أبي سفيان في بدر وأُحد والأحزاب؟ أم الذين حاربوا وصيّ رسول الله وابن رسول الله ﷺ في صفين والطف، تحت لواء نجل أبي سفيان وحفيده؟ وأيّهما أشرس؟

أحيل الجواب إلى عمار بن ياسر رحمه الله في القضية التاريخية التالية التي يرويها نصر بن مزاحم في كتاب (صفين).

فقد عاش عمار بن ياسر رحمه الله المواجهتين، وعاش المعركتين، في مرحلة الصراع على التنزيل، وفي مرحلة الصراع على التأويل، فقد عاش بدراً وأُحداً والأحزاب وعاش (صفين).

كان عمار بن ياسر يقول عن راية عمرو بن العاص في معركة صفين لمن تسرب إلى نفسه الشك بعد أن سمعهم يرفعون الآذان، ويقرأون القرآن، ويقيمون الصلاة، كما يرفع الناس في جيش علي الآذان، ويقرأون القرآن، ويقيمون الصلاة!!!

قال له عمار بن ياسر رحمه الله:

هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتي (المقابلة لي) فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن.

ثم قال له:

أشهدت بدراً وأحداً وحنيناً أو شهدها لك أب فيخبرك عنها قال: لا.

قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب[1].

عودة إلى عاشوراء

عرفنا لحد الآن ثلاث نقاط هي:

١ - إن الصراع بين التوحيد والشرك صراع حضاري وليس على المال والسلطان، وإذا كانت حركة التوحيد تطلب المال والسلطان فهو ليتوصل بهما إلى المبادئ والقيم والأصول.

٢ - إن هذا الصراع صراع حتمي، لابدّ منه، ولا يخلو منه التاريخ.

٣ - الصراع بين التوحيد والشرك يمر بمرحلتين، مرحلة التنزيل ومرحلة التأويل... ولا تَقِلّ خطورة وضراوة هذه المعركة، في مرحلة التأويل، عنها في مرحلة التنزيل.

والآن نقول: إن الذين حاربوا رسول الله ﷺ في بدر وحنين لم يتغيّروا عن مواقعهم ومراكزهم كما يقول عمار ﷺ في صفين، وتعبير عمار ﷺ دقيق (على مراكزهم يوم بدر وأُحد).

هؤلاء دخلوا الإسلام مرغمين، لكنهم التفّوا على الإسلام في صفين والطف، وحاولوا أن يستعيدوا أمرين:

١ - مواقعهم التي سلبها الإسلام عنهم.

٢ - القيم الجاهلية، والعشائرية، والطبقية، والمنكرات التي كانوا يمارسونها قبل الإسلام، ومنعها الإسلام.

حاولوا أن يستعيدوا كل ذلك من خلال الإسلام، وباسم الإسلام والتوحيد، وتحت غطاء الإسلام لا باسم الجاهلية.

وهذا الخطر هو الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الإسلام والذي عرفه علي والحسن والحسين ﷺ، فحاولوا مواجهته في (صفين) و(كربلاء).

الدور التخريبي لبني أميّة في الإسلام

بنو أمية لم يكونوا تجمعاً ساذجاً وبسيطاً وإنما كانوا تجمعاً سياسياً وحركياً.

وكانوا حركة سياسية بالتعبير الدقيق لهذه الكلمة، تخطط لاستعادة مواقعها السياسية

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٣٢١.

والسلطوية في المجتمع الإسلامي. وأبو سفيان كان الرأس، والعقل المخطط لهذا الأمر، والعقل الثاني معاوية، وعمر بن العاص العقل الثالث حيث كان في خدمة بني أمية وان لم يكن منهم.

كان أبو سفيان عقلاً سياسياً، يخطط لكي يصل الأمويون إلى الحكم.

وعندما تولى الخليفة الثالث أمور المسلمين دخل أبو سفيان على عثمان وقال: قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار. فصاح به عثمان: قم فعل الله بك وفعل[١].

وعمل بنو أمية على عزل الطبقة المستضعفة الصالحة التي رفعها الإسلام إلى قمة الهرم الاجتماعي مثل سلمان وأبي ذر وعمار، وعزلهم عن قمّة الهرم الاجتماعي عزلاً كاملاً.

مرّ أبو سفيان بقبر حمزة فرفسه برجله، وقال: يا أبا عمارة، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف صار في يد غلماننا يتلعبون به[٢].

وأعادوا إلى قمة الهرم الطبقة التي وضعها الإسلام، واستعادت هذه الطبقة كل مواقعها في عهد معاوية ويزيد، وما بعد ذلك واستعادت معها في هذه النقلة قيم الجاهلية ومنكراتها وأعرافها.

والفرق بين معاوية ويزيد أن يزيد كان يأتي بالمنكرات جهاراً، ولكن معاوية كان يمارسها بالخفاء.

أقرأوا (الأغاني) لأبي الفرج، و(تاريخ دمشق) لابن عساكر لتعرفوا كيف حاول بنو أمية أن يضعوا من مكان (رسول الله ﷺ).

وقد كان الحجاج يقول: إن خليفة أحدكم خير من رسوله[٣]، مشيراً إلى أن الخليفة أفضل من رسول الله ﷺ.

وقد حاولوا إثارة النعرة القومية فيما بين المسلمين والتمييز فيما بين المسلمين العرب

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر٤: ٨٧.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦/١٢٦.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ٤: ٧٢، شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد١٥: ٢٤٢. توضيح المشتبه في ضبط اسماء الرواة لشمس الدين القيسي الدمشقي ١/٢٠٨.

وغير العرب من الموالي، ومحاولة طرد المسلمين من غير العرب من الساحة السياسية، بل من حواضر العالم الإسلامي أحياناً، كما حدث في عهد معاوية والحجاج، وعدم الاعتراف بإسلامهم لئلّا تسقط عنهم الجزية.

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلّا ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى.

وكانوا يمارسون إذلال الأمة بالإرهاب.

وقد سلك حكّام بني أمية مسالك عجيبة في إذلال الأمة وتحطيم معنوياتها لغرض السيطرة عليها، وتمكين قبضتهم منها، وتصفية كل حالات المعارضة والتمرد ضد النظام.

وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمارسون استرقاق المسلمين، وسبي المسلمات المؤمنات، واسترقاقهن، وعرضهن في الأسواق.

وبسر بن أرطأة هو أول من اقترف هذه الجريمة في تاريخ الإسلام، فسبى المؤمنات من همدان المعروفة بولائها لأهل البيت ﷺ، وعرَضَهُنْ في الأسواق للبيع، وكان الناس يكشفون عن سيقانهن ليشتروهن، كما يصنع تجار الرقيق في أسواق النخاسة والرقيق، وكما فعل ذلك بسر بن أرطأة عندما أرسله معاوية إلى اليمن بالمسلمات المؤمنات اليمانيات، سباهن وأقامهن في الأسواق للبيع. وقد شرحنا ذلك كله ووثقناها في كتاب (وارث الأنبياء) بالتفصيل فراجع إن شئت، والأمر أوضح من ذلك.

هكذا كانت سيرة بني أمية في إذلال المسلمين، وقد أسرفوا في ذلك أيّما إسراف، حتى قالوا: إن بني أمية كانت تبيع الرجل في دين يلزمه، وترى إنه يصير بذلك رقيقاً[1].

وأفظع من ذلك كله وأبلغ في إذلال المسلمين، ما كان من فعل مسلم بن عقبة (وكان يسمى بمسرف) قائد جيش بني أميّة في عهد يزيد بن معاوية إلى المدينة المنورة، في وقعة الحرة المعروفة... عندما احتل يزيد المدينة المنورة، وأباحها لجيشه، حيث دعا المسلمين إلى بيعة يزيد بن معاوية على دمائهم وأموالهم وأهليهم. وأنهم عبيد ليزيد بن معاوية يقضي في دمائهم وأموالهم وأنفسهم بما شاء[2]. وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إذلال المسلمين

(1) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(2) الكامل لابن الأثير٤: ١١٨، ط ١٣٨٥هـ، الإمامة والسياسة لابن قتيبة١: ٢١٤، ط. ١٣٨٨هـ، وتاريخ اليعقوبي٢: ٢٣٧، ط ١٣٩٤هـ، ومروج الذهب٣: ٧٠، ط ١٤٠٤هـ

وإخضاعهم لنزواتهم، ورغباتهم، وتصفية حالات المعارضة السياسية والعسكرية، وتحكيم قبضتهم على مصائر الناس وأقدارهم[١].

وكانوا يمارسون ألوان الدعارة والابتذال في قصورهم.

ولعل الخلاعة والمجون يعتبر من أبرز سمات بني أمية.

وقد دخل الغناء والطرب والشرب والسكر والاستهتار على أيدي بني أمية إلى الإسلام من باب واسع، حتى أنهم كانوا يمارسون الغناء والطرب واستدعاء المغنين والمطربين في نوادي مفتوحة للطرب في خيام عرفة في (قلعة التوحيد والعبادة) وفي سرادقات منى.

وزاول الحكام من بني أمية ألواناً مختلفة من اللهو والمجون والخلاعة على مرأى ومسمع من المسلمين وبصورة مكشوفة وعارية، وأدخلوا الفساد إلى قصر الخلافة بأبشع صوره وأشكاله.

وكان الشرب والسكر أمراً شائعاً في قصور الخلفاء من بين أمية، وكان معاوية يمارس هذا المنكر في الخفاء، فلما تولّى يزيد ابنه أمر الخلافة أعلن هذا المنكر إعلاناً، وجرى من بعده خلفاء بني أمية على طريقته، إلّا ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز. وكان معاوية أول خليفة يدخل الخمر في قصره[٢].

يقول الجاحظ: وكان يزيد لا يمسي إلّا سكراناً، ولا يصبح إلّا مخموراً.

وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء.

وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً.

وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة.

وكان هشام يشرب في كل جمعة.

وكان يزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب. فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار، ولا يوجد أبداً إلّا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء، وليلة السبت[٣].

---

(١) وارث الأنبياء: ٦٥ ـ ٦٧.

(٢) وارث الأنبياء: ٤٩.

(٣) التاج في أخلاق الملوك: ١٥١.

وقد خرجت ظاهرة الشرب والسكر عند الخلفاء في عهد يزيد بن معاوية من طور الكتمان إلى طور الإعلان والاجهار، وكان يزيد بن معاوية أول خليفة يعلن اقتراف هذا المنكر إعلاناً، ويتحدى به مشاعر المسلمين[١].

وأما الغناء، فقد ولع به حكام بني أمية وكان يحمل إلى قصر الخليفة المغنون من سائر البلاد، فيستمع إليهم الخليفة فيجيزهم من أموال بيت مال المسلمين المبالغ الكبيرة، ويستبقي عنده من ينتقي منهم، ويصرف منهم من يشاء.

وأما عن مجون الخلفاء من بني أمية وخلاعتهم واستهتارهم فحدّث ولا حرج، وما نقرأه في التاريخ لا يكاد أن يصدقه الإنسان، لولا أن المؤرخين من كل المذاهب يتفقون على مجمل ما كان يجري في قصر الخلافة الأموية من مجون وخلاعة[٢].

وكان كل ذلك يتم من خلال موقع الخلافة الإسلامية، خلافة رسول الله ﷺ.

لقد كان الخط الأموي تهديداً حقيقياً للإسلام في الصميم... وقد عرف الحسين عليه السلام هذه الحقائق جميعاً، فنهض للمحافظة على الإسلام من عبث بني أمية وفسادهم.

كيف ولماذا واجههم الحسين عليه السلام في كربلاء؟

وكان همّ الحسين عليه السلام تسقيط آل أمية، وسلب الصفة الشرعية عنهم، وتجريدهم عن موقع الشرعية.

وذلك أن هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية، الذي كان يمتلك في نفوس المسلمين رصيداً كبيراً من الشرعية والقدسية، وقد كان بنو أمية يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والاجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو آخر أن موقع الخلافة أرفع من موقع الرسالة فيقول قائلهم كما ذكرنا سابقا.

وكانوا يرون في هذا الموقع أداةً قوية مؤثرة لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق،

---

(١) وارث الأنبياء: ٥١.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤٠، والأغاني للأصفهاني٧: ١٧، ٤٧، ٥٩، ٦٠، ٦١. ط. دار الكتب.. وقد شرحنا طرفاً من فساد بني أمية وعبثهم بالإسلام في (وارث الأنبياء) ووثقناه بالمصادر بصورة عملية، فعليك بمراجعته.

وأسهلها... فلذلك دأب معاوية على التسلط على هذا الموقع لنفسه ولابنه يزيد من بعده ولبني أمية من بعد يزيد.

وكان هذا الموقع الذي حرص عليه حكّام بني أمية من أكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أمية. فقد كان الانحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء، في إطار من الشرعية، ومن موقع خلافة رسول الله ﷺ.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية من علماء البلاط... وبالتالي كان هذا الانحراف ينعكس وينسحب على الإسلام، ويفقد الإسلام بذلك أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة.

وقد حرص الإمام عليه السلام في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية من حكومة بني أمية، وتجريدها عن القدسية الشرعية التي كان يحرص عليها بنو أمية كل الحرص... وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام.

وكان الإمام يجاهر بهذه الحقيقة جهاراً، ويعلن برأيه في يزيد، وعدم أهليته للخلافة، وينال منه، كلما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال عليه السلام له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد، وموقفه من البيعة:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله»[1].

وخاطب معاوية، عندما خاطبه معاوية في أمر ولاية العهد ليزيد من بعده، ومَدَحَهُ للحسين عليه السلام:

«وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ﷺ أتريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه. فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده باصراً ودع عنك ما تحاول.

(١) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي (المتوفى ٥٦٨هـ) تحقيق الشيخ محمد السماوي: ١: ١٨٤.

وما أغناك أن تلقى الله ﷻ (من) جور هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه... وما بينك وبين الموت إلا غمضة»[١].

وقد كان لخروج الإمام عليه السلام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة ليزيد، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة... كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها عن الشرعية والقدسية التي كانت الخلافة تتمتع بها[٢].

وبذلك يمكن القول أن مُهِمّة عاشوراء وكربلاء كانت بالدقة انتزاع الصفة الشرعية من آل أمية، وتجريدهم من الشرعية الإسلامية.

عودة إلى الدكتور عبد العظيم الديب

يقول الدكتور عبد العظيم الديب أنَّ كربلاء عثرة على الطريق، فكيف نفسر ذلك؟

أقول: إذا كان يقصد بالعثرة بني أمية فإنه لم يفهم دور بني أمية في تخريب الإسلام.

بنو أمية لم يكونوا عثرة وإنما كانوا عقبة.

وإذا كان يقصد بذلك واقعة كربلاء، فهو لم يفهم التاريخ ولا الإسلام.

فلو كان بنو أمية يمضون في طريقهم، ويستبدلون ما شاءوا من قيم الإسلام وأفكاره، من موقع الشرعية، لم يبق اليوم من الإسلام شيء.

إنّ نقاء الإسلام الذي يعرفه المسلمون جميعاً شيعة وسُنّة بمفاهيمه النقية الناصعة، هو من بركات نهضة الحسين عليه السلام.

إن الحسين عليه السلام أفلح في إسقاط شرعية بني أمية، واستطاع أن ينتزع الشرعية من بني أمية ويجرّدهم عنها.

ومنذ عاشوراء نجد في الإسلام خطين: خط الخلفاء، وخط الفقهاء.

ونجد أن الخط الثاني يحاول أن يبتعد عن خط الأول.

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٨٦، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٨، أعيان الشيعة ١: ٥٨٣، الغدير ١٠: ٢٤٨.

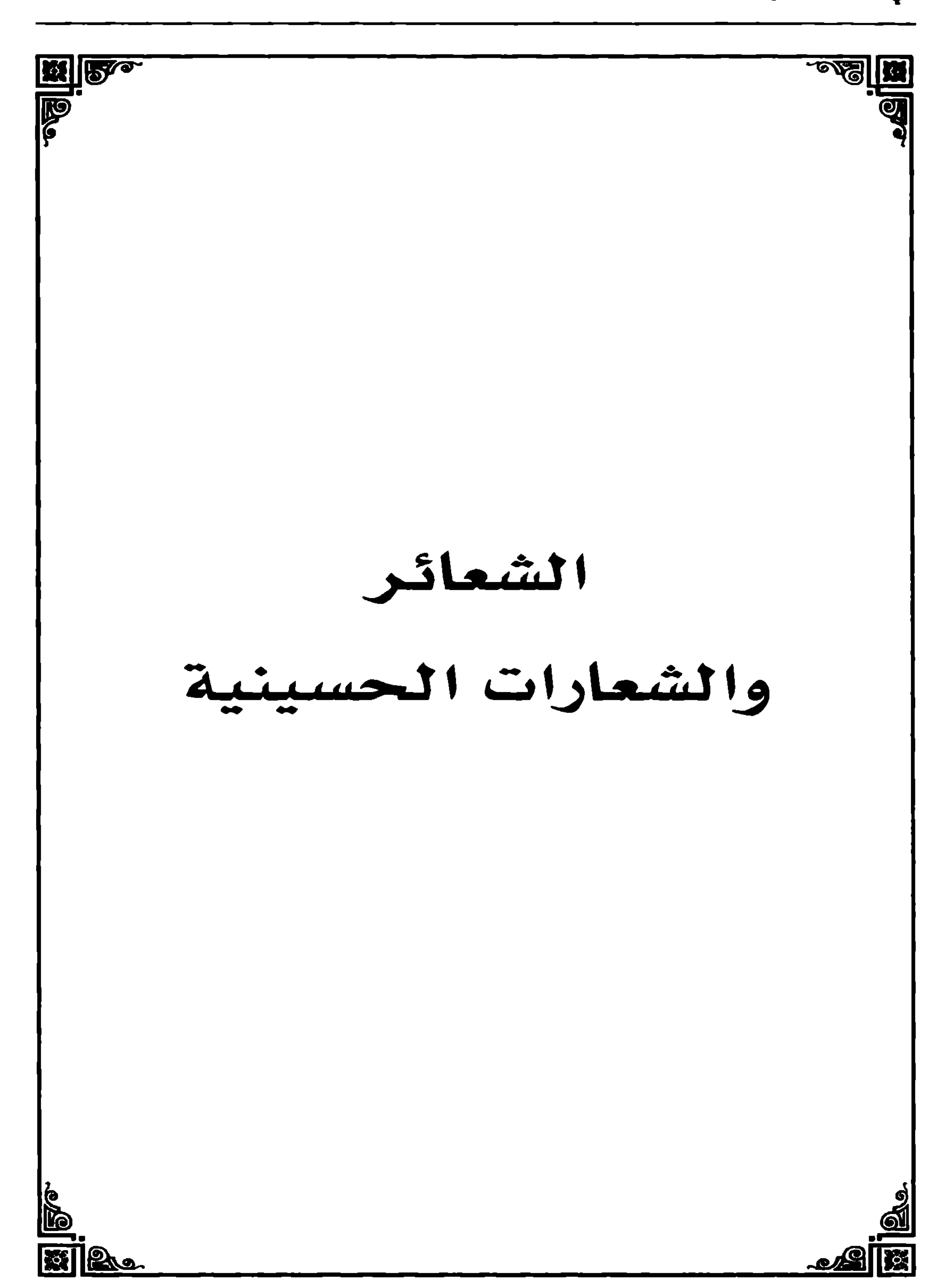
(٢) وارث الأنبياء: ٢١٩ ـ ٢٢١.

بينما كان الأمر قبل كربلاء على شاكلة أخرى، فقد كانت الخلافة تمثل كلّ الشرعية الإسلاميّة وتمثل السيادة والشرعية في وقت واحد... تمثل شرعية الفقيه والحاكم معاً.

كان الخليفة يمثل دورين متضامنين، الفقاهة والحاكمية.

وبعد حادث كربلاء تجردت الخلافة الأموية عن الجانب الفقهي، (الشرعي)، وبقى الخلفاء يمارسون السلطان والسيادة الزمنية، كما يمارسه الحكام في سائر الأنظمة، وتكوّن إلى جانب الخلفاء خط آخر هو خط الفقهاء.

وكان الناس يستمدون الشرعية من هذا الخط، وكان الفقهاء يحرصون أن يبتعدوا عن الخلفاء، وعلى قدر بعدهم من الخلفاء كان الناس يقبلون عليهم، وهكذا جرّدت كربلاء خلفاء بني أمية من صبغة خلافة رسول الله ﷺ ولم يبق لهم من هذا العنوان الرفيع إلا الاسم، وهذا هو الأمر الذي حصل في كربلاء، وقد حفظت كربلاء (الإسلام) من أن يتسرّب إليه الانحراف والعبث والفساد من جانب خلفاء أمية، وقصورهم، ولهوهم، وفجورهم، وظلمهم، واستهتارهم.



الشعائر
والشعارات الحسينية

الولاء والتعبير عن الولاء

المدخل:

الشعائر والشعارات من اصل واحد غير أن مفرد كلمة الشعائر (الشعيرة) ومفرد كلمة الشعارات (الشعار).

و(الشعيرة) هي ما يُشعر بالعبادة لله تعالى أو الانتماء إلى الله ومنه الحج، وجميعها شعائر.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[2] أي ما يهدى إلى بيت الله ويسمى بذلك ـ كما يقول الراغب[3] ـ لأنها تشعر أي تعلم، والشعار ما يشعر به الإنسان ويعرّف به نفسه في الحرب، وجمعه (شعارات).

فالشعائر إذن هي مجموعة الطقوس والأعمال التي تُشعر بالانتماء والولاء والعبادة وما يشبه ذلك، والشعارات ما يُعرّف به المقاتل نفسه في ساحة الحرب من انتماء أو أصل أو قدرة قتالية أو استقامة على الحق وما يشبه ذلك، فهما إذن يشتقان من أصل واحد وهو الإشعار والإعلام.

وسوف نتحدث في هذا البحث إن شاء الله عن (الشعائر الحسينية) أولاً ثم نتحدث عن (الشعارات الحسينية)، ونقصد بـ (الشعارات الحسينية) ما تعارف عليه المؤمنون من أتباع أهل البيت عليهم السلام من إحياء ذكرى استشهاد أبي عبد الله عليه السلام في كل عام، بإقامة مجالس العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام وأنصاره، والتفجع بمقتله عليه السلام، وإنشاد الشعر في ذلك بالفصحى واللهجات الشعبية الدارجة عند الناس، وخروج مسيرات العزاء على الحسين عليه السلام على هيئة

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٣) مفردات الراغب: ٢٦٢.

مواكب إلى الشوارع، وزيارة الحسين عليه السلام من قرب وبعد، وأمثال ذلك مما يتعارف عليه المؤمنون من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويتوارثونه جيلاً بعد جيل إلى اليوم... وقد كان لأهل البيت عليهم السلام عناية خاصة بإقامة هذه الشعائر، لإبقاء ذكرى شهادة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في وجدان المسلمين حيّة، غضّة.

ونقصد بالشعارات الحسينية ما كان يرتجزه الحسين عليه السلام وأنصاره عليهم السلام في ساحة المواجهة، في مقابلة العدو من الشعر، وأكثره من بحر (الرجز) و(فعل يرتجز اشتق منه)... وقد كان من عادة المقاتلين أيام القتال بالسلاح الأبيض أن يتبارز المقاتلان في الساحة فيعرّف كل منهما بنفسه، ويذكر أصله، وحسبه، وشجاعته، ومقدرته، وصولاته القتالية.

وهذا الشعر يكشف كثيراً عن هوية المتقاتلين ونفسياتهم، والغايات التي يطلبونها في المعركة من ثأر، وسلطة، أو الدفاع عن القوم والعشيرة، أو تعصّب للأقوام والعشائر وحلفائهم، أو الدفاع عن الحق، والعدل والتوحيد... وديوان الرجز في تاريخ الجاهلية والإسلام لو جمع لكان ديواناً حافلاً بهذه المضامين الحضارية، جاهلية وإسلامية... ويسمى هذا الرجز في ساحة القتال بـ (الشعار) (وجمعه شعارات)، ووجه التسمية أن المقاتل يُشْعر أو (يُعرّف) بهذا الرجز نفسه، وأهدافه، وانتماءه القبلي أو القومي، أو الديني، وقدراته القتالية.

وفي معركة الطف يوم عاشوراء نجد ألواناً ونماذج مختلفة من (الشعارات) القتالية للحسين عليه السلام وأنصاره من جانب، ولجند ابن زياد من جانب أخر.

ودراسة هذه الشعارات في وقعة الطف تنفع الجمهور، لأنها تكشف عن نموذجين من الناس، تقاتلا في كربلاء، يمثل أحدهما قمة من قمم التاريخ في الوعي، والإخلاص، وابتغاء وجه الله، والإيثار، والتضحية، والعطاء، والأيمان، والصبر، والمقاومة، والشجاعة، والاستماتة، في سبيل الله... ويمثل الآخر حضيض الدناءة، والفسوق، والظلم، والقسوة، والتكالب على حطام الدنيا، وابتغاء الذهب والفضة، وابتغاء وجوه الطغاة والجبابرة.

والشعر الذي يرتجز به هؤلاء وأولئك يكشف عن هذه الخصال وتلك، ويكشف عن عروج الإنسان إلى الله، وسقوطه في أوحال الفساد.

والتعريف بهذا العروج وذلك السقوط ينفع الناس في نهج حياتهم.

ولم تتوفر دراسة مناسبة لهذا الرجز المتقابل في ساحة الطف، واكتشاف المفاهيم والقيم وخلفيات المعسكرين المتقاتلين في كربلاء... وهي دراسة نافعة ومفيدة للجمهور الذي يحتشد

حول المنبر الحسيني بالتأكيد، ونحن سوف نتوفّر على هذه الدراسة إن شاء الله في الشطر الثاني من هذا البحث وفي الشطر الأول منه نتوجه إلى دراسة الشعائر الحسينية التي يألفها شيعة أهل البيت عليهم السلام في أيام ذكرى الحسين عليه السلام في كل سنة.

ولا أدّعي أنها دراسة، ولكنها على كل حال محاولة وخطوات على الطريق، نرجو أن تتبعها خطوات إن شاء الله.

وهذا البحث إذن يتألف من فصلين: (الشعائر الحسينية)، و(الشعارات الحسينية) ولهذين الفصلين جميعاً علاقته بالخطاب الحسيني، فإنّ الشعارات الحسينية تحمل الخط والنهج الحسيني، وهذا البحث يتناول (الشعائر الحسينية) أولاً، ثم (الشعارات الحسينية)، ونرجو أن يكون نافعاً لجمهور المنبر الحسيني إن شاء الله.

الفصل الأول

الشعائر الحسينية

نتحدث أولاً عن الشعائر الحسينية، المتمثلة في مجالس النياحة والعزاء، والهيئات والمواكب الحسينية (المسيرات الشعبية)، وزيارة الحسين عليه السلام في كربلاء، وعن بُعد، كما هو مألوف في أوساط المؤمنين في قراءة (زيارة عاشوراء) و(زيارة وارث) عن بُعد، وقرض الشعر في رثاء الحسين عليه السلام وأنصاره. وما يشبه ذلك مما هو مألوف ومتعارف في أوساط المؤمنين من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وأوّل ما يجب أن نعرفه في هذا السياق هو الدلالات التي تحملها هذه الشعائر التي ورد التأكيد عليها كثيراً في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والتي يتعاطاها المؤمنون من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ هذه الشعائر التي تتجدد كل سنة، تحمل دلالات سياسية وثقافية واضحة، ولا نحتاج إلى توقف كثير لنكتشف الدلالات التي تختزنها مجالس النياحة، والعزاء، ومسيرات التعاطف، والتفاعل، والتضامن مع القضية الحسينية في عاشوراء.

إن هذه المسيرات والتجمّعات تحمل معنى (الشعار)، ومعنى الشعار: الإعلام، والإعلان، والإشهار... هذا أولاً، وهذا الإعلام والإعلان إظهار وإشهار لـ (الموقف) و(الانتماء) ثانياً.

إنّ هذه الشعائر إعلان للموقف السياسي والثقافي، وإعلان للانتماء، والهوية الحضارية والثقافية والسياسية للناس... وهذه هي النقطة الثانية.

ولماذا هذا الإصرار على إعلان (الموقف) والانتماء؟

هذا هو السؤال الخطير الذي تثيره هذه الشعائر ويتطلب الجواب الصحيح.

إنّ الإصرار على إعلان (الموقف) و(الانتماء) بهذه الصورة من المتابعة، والتأكيد، والتجديد، لا يكون إلا في ظروف صراعات حضارية صعبة، لابدّ أن يتميّز فيها كل من المعسكرين المتصارعين... عندئذ لابدّ للأطراف المتقابلة في هذا الصراع أن تكشف عن هويتها، وتعلن عن انتمائها السياسي والحضاري... وإلا فسوف تمحق في هذه المعركة، ويكتسحها الطرف الآخر.

إنّ الصراع اصطفاف لمعسكرين متقابلين... وكل عنصر يدخل في هذا الصراع لابدّ أن يحدّد موقعه وصفّه من هذه المعركة، وفي غير هذه الصورة يكتسحه ويجرفه الطرف الآخر، ولكي لا ينجرف في ساحة الصراع إلى طرف العدو، لابدّ أن يحدّد موقعه من المعركة، ويصطفّ إلى جانب المعسكر الذي ينتمي إليه، ويعلن عن انتمائه وموقعه وموقفه في تلك المعركة... وهذه قضية معروفة واضحة في المعارك العسكرية: (الاصطفاف)، (الانتماء)، ولا يختلف الأمر في الصراعات الحضارية والسياسية والثقافية عن المعارك العسكرية، ففي كلّ منهما لابدّ من تحديد الانتماء، والموقف، والمواقع من المعركة، وإعلان الانتماء وإشهار الموقف.

ونحن نعيش على وجه الأرض في ساحة صراع سياسي وحضاري وثقافي... ويجب إلا تخدعنا حالة السلام العسكري أو الهدنة العسكرية عما تختزنه الساحة السياسية والحضارية من صراع ومواجهة وصدام... وإذا كانت المعارك العسكرية تقبل الحلول النصفية والترقيعية؛ لأنها حالة الحرب، فلا تقبل الصراعات السياسية الحلول النصفية.

وليس معنى هذا الكلام إننا ننفي أو نرفض (حوار الحضارات)، فإن الإسلام ينفتح على هذا المشروع الحضاري في الحدود المعقولة، ولكننا بصدد بيان الواقع الحضاري في حياة الناس، بعيداً عن الشعارات، وما يختزنه الواقع من صراع قاس شديد، ينتقل من جيل إلى جيل، حتى يرث الصالحون بإذن الله تعالى الأرض وما عليها، وتنتقل السيادة على وجه الأرض إلى الصالحين من عباد الله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[١].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

إنّ الصراع القائم بين فرعون وموسى عليه السلام، وبين عيسى عليه السلام وقومه، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعتاة قريش... لم ينقطع بعد موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام، وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والقتال في (صفين) امتداد للقتال في (بدر).

وعلي عليه السلام وعمار رضي الله عنه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقفوا في صفين على مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في (بدر)، ومعاوية وعمر بن العاص وقفوا في صفين على مواقف أبي سفيان وأبي جهل في بدر.

ومعركة الطف امتداد لمعركة (صفين).

ولم ينقطع هذا الصراع في تاريخنا، وإن اختفى الوجه العسكري لهذا الصراع.

إنّ هذا الصراع يمتد من جيل إلى جيل، ومن أرض إلى أرض. وما أصدق الكلمة المعروفة (كل أرض كربلاء، وكل يوم عاشوراء)... إنّ هذه الكلمة تعبّر عن وعي دقيق وعميق للتاريخ والصراع.

فما دام يحكم حاكم على وجه الأرض بغير حكم الله.

وما دامت حدود الله معطلة.

وما دامت الفرائض الإلهية لا تقام على وجه الأرض.

وما دام السلطان والقوة لغير دين الله.

وما دام الشرك يلوّث وجه الأرض.

وما دام الظلم يحكم عباد الله.

وما دام الاستكبار والاستضعاف يشطر الناس إلى شطرين.

وما دام الطاغوت يصدّ الناس عن دين الله، ويحمل الفساد والظلم إلى الناس...

أقول: ما دام للظلم والشرك سلطان على وجه الأرض فالصراع باق لا محالة، ولم يكن خروج الحسين عليه السلام على حكومة بني أُمية إلا تجسيداً لهذا الصراع، وتأكيداً وتعميقاً له...

ولم يكن للحسين عليه السلام دعوة ولا غاية في هذا الخروج إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونحن اليوم في ساحة الصراع نقف عند مواقف إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام ومواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى مواقف الحسن والحسين عليهما السلام، والطغاة، والجبابرة، وأئمة الضلال

والكفر وأذنابهم، يقفون على مواقف نمرود وفرعون وأبي جهل وأبي سفيان وآل أبي سفيان.

وفي هذا الاصطفاف الحضاري والسياسي والثقافي لابدّ من إعلان (الموقف) وإشهار (الانتماء).

وهذا هو معنى الشعار والشعائر.

والشعائر الحسينية تقع في هذا السياق.

إذن لكي نفهم قيمة الشعائر الحسينية ودورها في حياتنا الحضارية، والسياسية، والثقافية، وضرورتها، وأهميتها التاريخية لابدّ أن نتوقف عند المفاهيم التالية التي تحدثنا عنها في هذه المقدمة وهي:

(الشعار) و(الانتماء) و(الصراع):

الحاجة إلى الشعار والإشعار تبرز في ساحات الصراع العقائدي والعسكري غالباً، فإن الشعار: إشعار بالانتماء. ونقصد بالانتماء ما نقصده بكلمة (الولاء) في المصطلحات الإسلامية.

والشعار إشعار بالولاء، وليس هو الولاء.

وتتأكد الحاجة إليه في ساحات الصراع، لأن الإنسان يحتاج إلى أن يذكّر نفسه بولائه وانتمائه في ساحات الصراع، فإن الشعور بالانتماء والولاء يثبّت أقدام الإنسان في ساحة الصراع، ويختلف المنتمي عن اللامنتمي كثيراً في الثبات على الموقف... ولذلك يحتاج المقاتل أن يشعر نفسه ويذكّرها بولائه بصورة مستمرة، ليثبّت أقدامه على أرض المعركة.

وكان المقاتلون يحتاجون في ساحات القتال والمعارك والعسكرية إلى الشعار حتى يعرف به عدوه عن صديقه... فقد كانت صفوف المقاتلين تشتبك في القتال عندما كان القتال يجري بالسلاح الأبيض، فلكي يميّز المقاتلون خصومهم عن أصدقائهم، ومن يقاتلونه عمّن يقاتلون معه، كان يتّخذ كل معسكر لنفسه شعاراً واحداً ليتمايزوا به عندما تشتبك صفوف المقاتلين... وهذه الشعارات كانت تعبّر غالباً عن انتماء كل منهما العقائدي والقومي والوطني والديني، حسب نوع المعركة... وهكذا شاعت ظاهرة الشعارات في الحروب... هذا عن (الشعارات) في ساحة المعركة.

وأمّا (الشعائر) التي يتخذها الناس في سلوكهم الاجتماعي الديني والحضاري فهي أيضاً

نوع من التعريف بانتمائهم الديني والثقافي والحضاري في ساحة الحياة... وساحة الحياة ساحة صراع دائماً، وهذا الصراع هو صراع الولاءات... وما يحتاجه المقاتل في ساحات القتال يحتاجه في ساحات الصراع الحضارية أيضاً من الإعلان عن انتمائه وولائه، تثبيتاً لمواقفه في هذه الساحة، وتعريفاً بانتمائه وولائه.

وفي هذا البحث نتحدث إن شاء الله عن الشعائر الحسينية والشعارات الحسينية.

وحديثنا عن (الشعائر الحسينية) يخصّ ساحات الصراع العقائدي والثقافي وهي ساحات لصراع الولاءات... وهو من أضرى أنواع الصراع في حياة الإنسان.

وهذا الصراع قائم بين أنصار الحسين عليه السلام ـ على امتداد التاريخ ـ وخصومه.

ولم تنقطع المقابلة والمواجهة بين جبهة الأنصار والخصوم منذ يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ إلى اليوم البتة، وسوف يمتدّ ويستمر هذا الصراع، حتى يظهر من يثأر لخط الحسين عليه السلام ودعوته، آخر الزمان، وهو المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله، من أحفاد الحسين عليه السلام.

وأمّا (الشعارات الحسينية)، فسوف نتحدث عنها في فصل آخر من هذا البحث إن شاء الله.

ونقصد بها الشعارات التي كان الحسين عليه السلام وأنصاره يرفعونها في ساحة القتال للتعريف بأنفسهم ودعوتهم وانتمائهم وولائهم.

وعلى كل حال، فإنّ (الشعائر) و(الشعارات) من باب واحد، تخصّ ساحات الصراع والمواجهة، للتعريف بانتماء الإنسان وولائه في ساحة الصراع.

وعليه فسوف نتحدث عن ثلاثة مفاهيم للدخول في البحث عن (الشعائر) و(الشعارات الحسينية).

وهذه المفاهيم الثلاثة هي:

(الصراع) أولاً.

و**(الانتماء والولاء)** ثانياً.

و**(الشعار)** ثالثاً.

وفيما يلي إيجاز لهذه المفاهيم الثلاثة تمهيداً للدخول في هذا البحث إن شاء الله.

أولاً: الصراع

نقصد بالصراع الصراع بين الحق والباطل.

ونلخص الحق في كلمة (التوحيد)، لأن التوحيد محض الحق والحق الخالص، ونلخص الباطل في كلمة (الشرك)، لأن أعظم أمرين يرجع إليه الشرك هو: الهوى والطاغوت، وهما دعامتا الشرك، وهما محور كل فساد وشر في حياة الإنسان.

إنّ جوهر الصراع هو الصراع بين (التوحيد) و(الشرك)، وهذا الصراع هو العمود الفقري للتاريخ.

والتاريخ ليس مسلسل أحداث من نوع (ألف ليلة وليلة) حتى وان لم تكن أحداثها من نسيج الخيال، كما في ألف ليلة وليلة.

وإنما قوام التاريخ هو الصراع بين (التوحيد والشرك) وبين (الحق والباطل) وإن ضاقت مساحته، واختفى عن الرأي العام، ولم يستقطب اهتمام الناس على وجه الأرض.

ذلك أنّ التاريخ حركة الإنسان إلى الله تعالى.

وفي هذه الحركة يتكامل الفرد والمجتمع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1].

وكل ما يسهم في حركة الإنسان إلى الله، ويقدمه إلى الله مرحلة، أو خطوة يدخل في حركة التاريخ، وما لا يدخل في هذه الحركة من جهد وعمل وصراع من (استهلاك التاريخ) وليس من حركة التاريخ وإنتاجه، وهو على هامش التاريخ، وليس من صلبه.

وحركة الإنسان إلى الله تعالى تتم من خلال مكافحة (الهوى) و(الطاغوت). وهما أهم عاملين من عوامل الشرك.

وفيما يلي مجموعة من النقاط الجوهرية في الصراع:

١ ـ حتمية الصراع:

التاريخ هو الصراع بين التوحيد والشرك وهذا الصراع من حتميات التاريخ.

والسبب في ذلك واضح لأن ساحة الحياة لا تتسع للتوحيد والشرك معاً. إن كلا من

---

(١) سورة الانشقاق:، الآية ٦.

هاتين الحركتين (ونسميهما حركتين لان الطابع الحركي هو الطابع البارز عليهما في ساحة الصراع عندما يتقابلان في جبهتين متصارعتين)...

أقول: إن كلا من هاتين الحركتين يسعى للتمدّد على كل الساحة الثقافية والسياسية والاقتصادية، وملأ كل الفراغات. وهذا التمدّد، بطبيعة الحال يتم على حساب الحركة الأخرى، وبهذا التوجيه لا تتسع لهما ساحة الحياة.

إن (التوحيد) حركة شاملة واسعة في حياة الإنسان يسعى لكي يطبع حياة الإنسان بطابعه المتميز الخاص، ويكوّن ثقافة الإنسان ووعيه وحضارته وأعرافه وتقاليده، ويحكم حياته، ويدخل في نسيج علاقاته الاجتماعية والعائلية... ولا يتم هذا التمدّد الواسع للتوحيد في حياة الإنسان إلّا على حساب الشرك، وعلى مواقعه ومراكزه الذي يطلبه أو يحكمه ويقيم فيه... وكذلك الأمر بالعكس.

إن الغاية التي تسعى إليه حركة التوحيد في الحياة هي تحقيق السيادة والحاكمية (التشريعية) لدين الله وشريعته في حياة الإنسان... وهذه الحاكمية تتم بطبيعة الحال على حساب سلطان الهوى والطاغوت في الحياة... ولا تتسع الحياة لسلطان الله (تشريعا) وسلطان الهوى والطاغوت.

والهوى والطاغوت كما قلنا هما دعامتان أساسيتان لحركة الشرك.

لذلك فإن الصراع صراع على الحياة والموت، وهو صراع مصيري لا ينتهي إلّا بنهاية أحدهما، ولا يمكن المصالحة بينهما إطلاقاً.

إذن هذا الصراع حتمي وهذه نقطة أساسية في هذا البحث.

٢ ـ محور الصراع

الذي يقرأ القرآن بإمعان، ويستعرض حركة الأنبياء، ومسار التاريخ في كتاب الله ويجرّد نفسه وفكره عن كل المسبقات الذهنية لا يشك للحظة واحدة أن التاريخ هو الصراع، وأن محور هذا الصراع هو المواجهة بين التوحيد والشرك.

بقي أن نقول: إن كلّا من التوحيد والشرك محور حضاري وثقافي يستتبع طائفة من القيم وأضداد القيم والسنن والمفاهيم والأفكار والأعمال.

ومن قيم التوحيد وأفكاره وأصوله: الخضوع والتذلل لله تعالى، مقابل الاستكبار

والعصيان والطغيان، والشكر مقابل الكفران، والزهد مقابل الجشع والطمع، والسيطرة على الشهوات والغرائز (التقوى) مقابل الخضوع لسلطان الشهوات، والإخلاص لله ونكران الذات في مقابل الأنانية، والرقة مقابل القسوة، والتحرر من الشهوات مقابل الخضوع لسلطان الشهوات، والتوازن والموازنة في مقابل الإفراط والتفريط.

وإذا وجدنا (قيماً) في جناح الشرك فهي ليست من نتائج الشرك وإنما هي من بقايا فطرة التوحيد في نفس الإنسان.

ذلك أن القيم دائماً في جبهة التوحيد، وإذا وجدنا ضدها في هذه الجبهة فقد تسلل من جبهة الشرك إليها والعكس كذلك صحيح. فلا يكاد ينتج من الهوى والطاغوت إلّا الظلم والمنكرات والقبائح وسائر أضداد القيم.

إن التوحيد ثقافة وقوة، ونظام اجتماعي، وعلاقات، وكذلك الشرك ثقافة، وقوة، ونظام اجتماعي، وعلاقات، فلا محالة يتزاحمان على مواقع الحياة الاجتماعية والسياسية والإعلامية والمالية، ويتصارعان.

٣ ـ والتاريخ هو الصراع

إن الذي ينعم النظر في القرآن ينتهي إلى نتيجة لا يشك فيها، وهي أن التاريخ في القرآن، هو الصراع في طريق الحركة إلى الله، بين الحركة الصاعدة إلى الله، والحركات المعيقة للإنسان عن هذا الصعود.

والذي نجده في القرآن من التاريخ، في سياق هذا الصراع مباشرة، أو بصورة غير مباشرة.

وما عدا ذلك من أحداث التاريخ وعلى هامش التاريخ.

وقد يحتل هذا الهامش مساحة واسعة من حديث الناس واهتمامهم، ومن اهتمام وكالات الأنباء والصحافة في عصرنا، ولكن رغم ذلك كله يبقى على هامش التاريخ، كما تستقطب لعبة كرة القدم اهتمام الناس جميعاً وتشدّهم إليها، إلّا أنها تبقى على الهامش. وقد لا يستقطب الحدث اهتمام الناس كثيراً، ولكنه يدخل في صلب التاريخ.

فقد حدثت معركة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بين المسلمين والمشركين، ونصر الله المسلمين على المشركين في تلك المعركة... حدثت هذه المعركة في رقعة نائية من الصحراء، ولم ينتبه الناس يومئذٍ على وجه الأرض إلى هذه المعركة ونتائجها،

ولكنها دخلت صلب التاريخ، وقررت مصير الحضارة الإنسانية... وفي نفس الوقت تقريباً حدثت معركة أخرى بين الروم والفرس (القوتان الكبريان في الأرض حينئذٍ)، وانتصر الروم على الفرس، واستقطبت هذه المعركة اهتمام الناس كثيراً في ذلك الوقت، فقد كان حدثاً كبيراً جداً في حساب معادلات القوى يومئذٍ على وجه الأرض.

ولكن هذا الحدث الثاني، رغم استقطابه لاهتمام الناس لا يدخل في صلب التاريخ.

إن معركة بدر تقرّر التاريخ، وتدخل في صلب التاريخ، ولم يكد يشعر بها إلّا قلة من الناس في الجزيرة يومئذٍ. أمّا هذه المعركة الكبرى التي بين قوتين عملاقتين على وجه الأرض، فلا يحلّ في التصور القرآني إلّا على هامش التاريخ.

يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾[1].

لقد انتصر الفرس على الروم، والمسلمون يومئذٍ بمكة، فسُرّ المشركون بذلك، لأن الروم كانوا ينتحلون المسيحية، ولم يكن الفرس ينتحلون هذا الدين.

فأخبرهم الله تعالى أن الروم سيغلبون الفرس بعد هذه المعركة في بضع سنين وهذه واحدة من أخبار القرآن الغيبية التي تحققت بعد ذلك.

ثم يخبرهم الله أن انتصار الروم على الفرس يقترن بفرحة المؤمنين يومئذٍ بنصر الله تعالى لهم ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

ولقد اقترن انتصار الروم على الفرس بانتصار المسلمين على المشركين ببدر... وهذا إخبار غيبي آخر من أخبار القرآن الغيبية.

أقول: إن الحدث الأول في هذا التقارن وهو انتصار الروم على الفرس استقطب يومئذٍ كل اهتمام الناس، بينما الحدث الثاني المقارن للحدث الأول وهو انتصار المسلمين على المشركين ببدر وفرحة المؤمنين يومئذ بهذا النصر لم يثر انتباه الناس إلّا في دائرة محدودة جداً.

ورغم ذلك يدخل الحدث الثاني في صلب التاريخ، ويبقى الحدث الأول على هامش التاريخ، في التصور القرآني وفي واقع التاريخ.

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٥.

ونحن عندما نقرأ القرآن لا نتوقف كثيراً في أن نقول أن التاريخ في التصور القرآني هو الصراع.

وإليك نماذج من هذه الآيات:

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

وفي سورة الحج:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[2].

في آيتي البقرة والحج، يتقرر التاريخ من خلال الصراع. فلولا الصراع لا يمكن إزالة الباطل عن مواقعه، ولولا الصراع لركن المؤمنون إلى الدعة وحياة اليسر والعافية، فلم يقدروا على الدفاع عن الصلوات والمساجد التي يذكر فيها اسم الله، وضعفوا عن الدعوة والعمل لبسط التوحيد على وجه الأرض[3].

٤ ـ عمق الصراع

إن الصراع بين جبهة التوحيد وجبهة الشرك صراع بين القيم وأضداد القيم، وبين الأخلاق واللاأخلاق، وبين عروج الإنسان وسقوط الإنسان.

لقد سمع الناس يوم عاشوراء للحسين عليه السلام خطاباً عجيباً، يدخل في صلب حديثنا هذا.

يقول عليه السلام لهم: «**إن لم يكن لكم دين... فكونوا أحراراً في دنياكم**»[4].

ومعنى هذا الخطاب: إنكم إذا تحولتم عن دين الله وتخليتم عنه، فلا تتخلوا عن القيم

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) في رحاب القرآن ٥: ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٤) بحار الأنوار ٤٥: ٥١.

التي أودعها الله تعالى في أنفسكم، إن الطاغوت لا يفسد دين الناس فقط، وإنما يفسد قيمهم وأخلاقهم وفطرتهم وضمائرهم أيضاً.

فالصراع إذن بين هذين المحورين صراع حضاري، صراع على القيم والأفكار والمفاهيم، لا يقبل المصالحة والحلول النصفية، وليس صراعاً على آبار من النفط، أو مساحة من الأرض، أو نهر من الماء. ليتأتى لهم المصالحة والوصول إلى حلول وسطيّة.

٥ ـ شمولية الصراع وحتميته

وهذا الصراع بالضرورة صراع شامل حتمي يشمل كل المساحة التاريخية وكل المساحة الجغرافية.

كل التاريخ وكل الجغرافية السياسية للأرض، أعني كل زمان ومكان. والزمان والمكان وعاءان في المفهوم الفلسفي، وهما وعاءان للحركة في المفهوم الحضاري ونفس الوقت مقومان للحركة.

وهذا الصراع قائم في كل زمان ومكان، لأن الصراع بين الحق والباطل قائم في كل زمان ومكان، كما أن الدعوة إلى التوحيد والحق قائمة في كل زمان ومكان، ومهمة الهوى والطاغوت إعاقة حركة التوحيد والحق في كل زمان ومكان.

وهذا هو معنى شمولية الصراع الوارد في الكلمة المعروفة (كل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء).

فالزمان (:كل يوم) والمكان (:كل أرض) أكثر من وعائين لحضارة الإنسان... إنهما وعاءان لحضارة الإنسان، ومقومان لها أيضاً، يتفاعلان مع الإنسان، ويمنحانه ويأخذان منه. والإنسان في تفاعل مستمر مع الزمان والمكان، يأخذ منهما ويمنحهما ويؤثر فيهما ويتأثر بهما.

وعندما نقول: (كل أرض كربلاء، وكل يوم عاشوراء) يعني: أن الصراع جزء حتمي لا يتجزأ من حضارة الإنسان. وهذا الصراع يمتد زماناً ومكاناً مع حضارة الإنسان.. وهذا إجمال في (الصراع).

ثانياً: الانتماء

نقصد بالانتماء الانتماء الحضاري والحركي والسياسي، وهو ما يسميه القرآن بـ (الولاء).

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(١)].

والذين ينتمون إلى ولاء واحد يشكّلون نسيجاً حضارياً وسياسياً وحركياً واحداً، لا اختلاف بين أجزائه.

ولا علاقة لهذا النسيج بالنسب والدم واللغة والعرق. فقد نفى الله تعالى ابن نوح من نوح عليه السلام وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[(٢)]، وهو ابنه من لحمه ودمه..

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وآله الصحابي الجليل سلمان رضي الله عنه إلى أهل بيته، فقال صلى الله عليه وآله: «**سلمان منّا أهل البيت**»[(٣)]، وهو فارسي من أصل مجوسي.

والانتماء والولاء، يشطران الناس شطرين اثنين: (شطر الولاء والانتماء، وشطر البراءة والمقاطعة).

ولا تحتمل ساحة الولاء شطراً ثالثاً، فإذا لم يكن الإنسان مع الله ورسوله والمؤمنين، فهو لا محالة مع أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين، كما قال العبد الصالح نوح عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[(٤)(٥)]. فمن لم يركب السفينة مع نوح عليه السلام وأتباعه... لا محالة يكون مع الكافرين.

والولاء في الإسلام من مقولة (التوحيد)، وعندما تتعدد محاور الارتباط في حياة الإنسان ينتفي الولاء رأساً.

فليس كل ارتباط في حياة الإنسان من الولاء الحق، وإنما الولاء الحق هو الارتباط النابع من القلب الحاكم على كل صلات الإنسان وعلاقاته[(٦)].

إن الانتماء من ضرورات ساحة الصراع في كل صراع حضاري بين التوحيد والشرك. والناس لا خيار لهم في ساحة الصراع بين الانتماء واللاانتماء، وإنما خيارهم بين شقّي الانتماء، أي الانتماء إلى جبهة الحق أو الباطل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١: ٧٠.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٢.

(٥) في رحاب القرآن ٥: ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٦) في رحاب القرآن ٣: ٣٣٠.

وكل إنسان يستطيع أن يختار إحدى الجبهتين هذه أو تلك، ولكن لا يستطيع أن يقف موقف اللامنتمي من ساحة الصراع، إنّه عندما يقف على حافة الصراع بين الحق والباطل لا يملك إلّا واحداً من خيارين، وهو الانتماء إلى الحق أو إلى الباطل.

ومعنى ذلك أن المواقع الحضارية والسياسية على ساحة الصراع موقعان: الولاء لله أو للطاغوت، وليس ثلاث مواقع.

وأما المواقع في ساحات الصراع والتنافس غير الحضارية فهي ثلاثة: فعندما تحدث مشكلة بين دولتين، لك أن تنحاز إلى جانب الدولة الأولى أو الثانية، ولك أن لا تقف مع هذا ولا ذاك، فتكون محايداً.

ولكن في ساحة الصراع الحضاري تكون المواقع اثنتان: الانتماء إلى جبهة الحق أو الباطل، وليس من ثالث.

والسبب في ذلك أن الله تعالى وهو محور جبهة التوحيد الحق في هذا الصراع يطلب من الناس جميعاً الانتماء والنصرة، ويدعوهم إلى النصرة، والانتماء، والولاء، وشدّ حبلهم بحبل الله تعالى.

وهذا الارتباط والانتماء هو الذي يعصم الإنسان في ساحة الصراع من سلطان الهوى والطاغوت، ويحصّنه منهما، فإذا قطع ما بينه وبين الله من الولاء والانتماء وقع في شرك الشيطان وأسر الطاغوت والهوى لا محالة.

يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[1] وحبل الله ليس فقط محور للانتماء إلى الله، وإنما هو عاصم من الانتماء إلى جبهة الباطل أيضاً. ويحصّن الإنسان من الانتماء إلى الطاغوت والهوى.

والإنسان الذي ينتمي إلى ولاء الله يحصّنه الله ويحميه.

وولاء الله في حياة الإنسان موقع حصين.

وقد ورد في الحديث القدسي الصحيح: «**لا إله إلّا الله حصني**»[2].

والإنسان الذي لا ينتمي إلى هذا الحصن ويعيش في الموقع الوسط... مكشوف للعدو لا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) حديث سلسلة الذهب، عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١: ١٤٤.

محالة، لأن الموقع الوسط (موقع اللامنتمي) موقع مكشوف، ومعرّض لسطو الطاغوت والهوى والشيطان.

ومن خلال هذه المعادلة نقول:

إن اللامنتمي إلى الله ينتمي إلى الطاغوت لا محالة، فإنه لا يوجد موقع وسط بين الانتماء إلى الله والانتماء إلى الطاغوت، وإنما هما موقعان وليس ثلاثة على الخارطة السياسية بين الحق والباطل.

والى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها[١] على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم»[٢].

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد: (سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم). هذا السيف الذي كان بأيدي الناس في كربلاء يقاتلون به الحسين عليه السلام كان للإسلام وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله. أعطاهم هذا السيف وهذه القوة، بعد أن كانوا أمة ضعيفة مستضعفة في قلب الصحراء، لا تكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوة على المواجهة، فاستثار الإسلام كوامن الحركة، والقوة والعزم والانطلاق والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحولت هذه الأمة الراكدة إلى حركة حضارية جبارة على وجه الأرض وفي التاريخ، تحرق الجبابرة والطغاة[٣].

ثمّ إنّ هذا السيف الذي أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله ليقاتلوا به أعداء البشرية وطغاتها: كسرى وقيصر وأبا سفيان، وأبا جهل وأقطاب الجاهلية، تحول من قتال آل أبي سفيان إلى قتال آل رسول الله صلى الله عليه وآله وابنه.

يا ترى كيف حصلت هذه الانتكاسة الكبيرة في مسيرة الرسالة؟

---

(١) أي: أوقدتم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدوّنا وعدوّكم.

(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢٦٢، ط. النجف ١٣٧٦هـ.

(٣) وارث الأنبياء: ٢١٤.

هذا هو السؤال؟

وهذا هو ما يشير إليه الإمام في خطابه لجيش بني أمية يوم عاشوراء.

(سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم... فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم) يعني: لم يتحول السيف فقط من قتال أعداء الله إلى قتال أولياء الله، وإنما انقلب نسيجكم إلى نسيج آل أبي سفيان، فأصبحتم من ذلك النسيج إلباً لأعدائكم على أوليائكم. دون أن يتغير شيء منهم، أي دون أن يتحول آل أبي سفيان من مواقعهم إلى مواقعكم، وإنما أنتم الذين تحولتم من مواقعكم إلى مواقعهم. فالانقلاب في السيوف حصل نتيجة للانقلاب في المواقع السياسية والحضارية.

ولماذا هذا الانقلاب في السيوف وفي المواقع؟

هذا هو السؤال الخطير.

والجواب يكمن في موقع اللاإنتماء من ساحة الصراع بين الحق والباطل.

في ساحة الصراع إتخذ بعض الناس سياسة اللامنتمي، وقالوا نحن نعتزل المعركة ما دامت المعركة بين المسلمين.

وهذه سياسة الاعتزال التي سلكها عبد الله بن عمر وغيره قادته أخيراً إلى بيعة يزيد والحجاج.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكنه من اتخاذ موقف قوي تجاه البيعة ليزيد، فقد كان أمر يزيد في ظلمه واستهتاره بحدود الله، وفسقه وشربه، أشهر من أن يخفى على أحد، وما كان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد بما يعرفه عامة الناس من يزيد من فسوق وفجور.

هؤلاء رفعوا شعار: (إذا ظهرت الفتنة فالجالس خيرٌ من القائم، والمضطجع خير من الجالس)، فغمدوا سيوفهم في صفين والجمل والنهروان، وفي قتال الحسن عليه السلام ومعاوية، ثم انقلبت هذه السيوف التي غمدوها أيام علي والحسن عليهما السلام إلى جانب بني أميّة في وجه الحسين عليه السلام، بعد هلاك معاوية في ولاية يزيد.

ثم يقول عليه السلام في نفس الخطاب:

(فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم).

أرأيتم كيف ينقلب اللامنتمي إلى المنتمي؟ لقد قلنا قبل قليل: ليس لنا ثلاثة مواقع على خارطة الصراع بين الحق والباطل وإنما هما موقعان؟

ووقعة الطف واحدة من الأحداث الكبرى التي لا تسمح لأحد بأن يتردد طويلاً، ويقف موقف المتردد والشاك، أو المتفرج الذي لا يعنيه الأمر... فمن لم يقف مع الحسين عليه السلام يوم الطف بسيفه وعواطفه وأحاسيسه وولائه... كان مع يزيد لا محالة.

والبراءة واللعن لا يخصّ فقط أولئك الذين قاتلوا الحسين عليه السلام أو أمروا بقتله يوم الطف، وإنما يعمّ أيضاً الذين سمعوا بمصرع الحسين عليه السلام ورضوا به. هكذا ورد في زيارة وارث (**فلعن الله أمة قتلتك، ولعن الله أمة ظلمتك، ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به**)...

ونضيف هنا ونقول: إن الذين سمعوا، ولم يثوروا، ولم يقفوا مع الحسين عليه السلام، انجرّوا لا محالة إلى موقع الرضا بما فعله بنو أمية، وموقع الرضا من مواقع اللعن والبراءة.

الطوائف الملعونة في زيارة وارث

وهذا اللعن يشمل ثلاث طوائف:

١ ـ **الطائفة المباشرة للقتال.**

٢ ـ **الطائفة غير المباشرة الداعمة للقتال.**

وهي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه ومكّنت منه، وشايعت، وبايعت، وظاهرت عليه، وخالفته... وحالفت أعداءه.

وهذه الطائفة تشمل كل أولئك الذين أعَدُّوا لقتال الحسين عليه السلام أو مكّنوا منه، أو خالفوه، أو ظاهروا عليه، أو ساهموا في الإعداد لقتله، أو أعانوا الطاغية في قتاله، بنحو من الأنحاء، وتشمل أشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

وقد ورد اللعن والبراءة عن هذه الطائفة، (وهي طائفة واسعة) بصيغ مختلفة في زيارات الحسين عليه السلام، ففي زيارة عاشوراء:

(لعن الله أمة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أمة دفعتكم عن مقامكم، وأزالتكم عن مراتبكم التي رتّبكم الله فيها... ولعن الله الممهّدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم).

٣ ـ **الطائفة المتفرجة على القتال**، الراضية بما جرى على أبن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي التي سمعت بذلك فرضيت به.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلاً، فمن هم أولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به؟

إن هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال، ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عملية، وإلا لكانت تدخل ضمن الطائفة الأولى والثانية، ولم يكن من موجب لأفرادها بالذكر ثالثاً، فهذه الطائفة لابدّ وان تكون ـ إذن ـ ممن سمعوا استنصار الحسين عليه السلام ولم ينصروه، وآثروا العافية على الوقوف بجانب سيد الشهداء عليه السلام في معركة الطف، وخذلوا سيد الشهداء عليه السلام ولم ينصروه يوم عاشوراء...

وقد ذكرت هذه الطائفة في نصوص أخرى للزيارة بصيغ مختلفة، كلها تَصُبّ في معنى التخاذل عن نصرة أبي عبد الله عليه السلام والتقاعس عن الالتحاق به، وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداء عليه السلام، فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

(لعن الله أمة قتلتكم وأمة خالفتكم، وأمة جحدت ولايتكم، وأمة ظاهرت عليكم، وأمة شهدت ولم تستشهد)[1].

وهذه هي مساحة البراءة واللعن وهي مساحة واسعة جداً في الماضي والحاضر لأن الطائفة الثالثة تشمل كل الناس في كل العصور، ولا يبقى خارج المساحة إلّا المنتمي إلى جهة التوحيد.

وهذا هو معنى حتمية الانتماء، أن الإنسان لا يمكن أن يعيش من دون انتماء في ساحة الصراع بين الحق والباطل.

ثالثاً: الشعار

قلنا إن الشعار بمعنى الإشعار أي الإعلام، إعلام الموقف وإعلان الانتماء.

والإشعار بالموقف من ضرورات الانتماء والموقف، فلا ينجح موقف بدون إعلان، إلّا في ظروف التقية، ولا يجوز أن يتكتّم الإنسان على انتمائه إلّا إذا اقتضت ذلك مصلحة الانتماء نفسه، وهذا هو التقية، وهي التكتم وإخفاء الموقف لمصلحة نفس الانتماء.

والصراع بين الحق والباطل عميق، وواسع، وشامل، وجذري، ولا يمكن أن يتم من دون إعلام وإعلان وإشهار.

إن هذا الصراع دائم وشامل، ولا يختص بمكان دون مكان، وزمان، دون زمان حتى يمكن إخفاؤه في زمان دون زمان آخر.

---

(١) في رحاب القرآن ١٢ : ٢٢٠ ـ ٢٢١.

والإعلام جزء من الصراع، والمعترك معترك الانتماء والإعلان للانتماء.

ونحن علينا أن نعلن عن ارتباطنا وولائنا وانتمائنا على كل حال.

وهذا الإعلان والإشعار يتم (بالشعار) في ساحة المعركة. عندما يشتبك الصفّان يتمايز الطرفان بالشعار، فقد كانت الحروب سابقا بالسلاح البارد، فإذا اشتبك الطرفان بالقتال، فلا يكاد يميز المقاتل عدوه، فيتمايزان بالشعارات.

إن ساحة الصراع ساحة متشابكة متداخلة والشعار هو الذي يميز الناس بعضهم عن بعض.

إن الشعار يدعم نفوس المقاتلين ويحصّنهم من الهزيمة النفسية، ويمنحهم مناعة ضد الهزيمة النفسية، ولذلك يقول تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[1].

والتقوى الحصانة والمناعة من الانزلاق.

والشعار يكشف عن مساحة الانتماء والولاء والانصهار.

فإنّ إقامة صلاة الجمعة في البيوت عبادة، وليست شعاراً، ولكن إقامتها في المساجد عبادة وشعار، وهذا الشعار يُرهب العدو ويخيفه، وفي نفس الوقت يدعم نفوس الأنصار وأولياء الله.

وبعد مرحلة التقية السياسية تأتي مرحلة الشعار والإعلان مباشرة، فإننا في التقية نحافظ على النبتة الناشئة حتى لا يقتلعها العدو، وبعد ذلك يأتي دور الإعلان والإشهار حتى تنمو وتتكامل.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2].

وإقامة الصلاة إعلان للصلاة وإبراز لها، كما ورد في زيارة الحسين عليه السلام: **(أشهد أنك قد أقمت الصلاة)**.

وعليه، فلابدّ من إعلان الانتماء وإشهاره، وهذه اللابدّية جزء من لابدّية الانتماء وحتمية الصراع.

وكما يجب الانتماء يجب الإعلان عنه.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٤.

الصراع بين القيم وأضداد القيم في عاشوراء

إن عاشوراء نموذج ممثل لكل صراع في التاريخ بين التوحيد والشرك وبين الحق والباطل.

فقد كانت معركة كربلاء على صغر مساحتها العسكرية تُجَسدُ صراعاً ضخماً بين معسكرين، وحضارتين، وفكرين، وثقافتين، ومدرستين بين الإسلام والجاهلية.

وللصراع بين الحق والباطل سنن وقوانين.

وعاشوراء يختزل كل هذه القوانين والقيم.

في يوم عاشوراء، وفي ساعاته المحدودة تتجلى كل هذه القوانين والقيم، يتقابل في هذا الصراع طرفان، أحدهما حق خالص وتوحيد خالص، والآخر باطل خالص، أحدهما يُجَسّدُ الإخلاص خالصاً، والآخر يجسد الهوى والطغيان خالصاً.

عاشوراء نموذج نادر من الصراع الحضاري الذي تتجسد فيها سنن التاريخ بشكل قوي ومركّز، وعيّنة ممثلة لمساحة التاريخ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومرآة صافية لحركة التاريخ... يجد فيها الإنسان الصراع القديم بين جند الله وجند الشيطان، وأسباب وموجبات هذا الصراع، وقيم كل من طرفي المواجهة، وأساليبهم في هذا الصراع، وحتمية هذا الصراع، ومعاناة طرفي الصراع في هذه المعركة التاريخية، وما يستتبع هذا الصراع من سقوط، وثبات، وولادة وهلاك، واستبدال، واستدراج، وتساقط العناصر الضعيفة، وصعود وتسامي العناصر القوية المؤمنة، ونصر الله للفئة القليلة المؤمنة، وهلاك جند الشيطان... كل ذلك ينعكس في مرآة عاشوراء... في هذه الساعات القليلة الحافلة بالأحداث الكبيرة من يوم عاشوراء... والجمهور من المؤمنين يقرأون كل ذلك وغير ذلك من قوانين وسنن التاريخ والمجتمع والصراع في مرآة عاشوراء.

وفي عاشوراء يتقابل طرفان، طرف منه يمثل التوحيد الخالص، والإخلاص الخالص فنسمع منه في يوم عاشوراء:

إن كان دين محمد لا يستقم ... إلّا بقتلي يا سيوف خذيني

ويقول:

إن تقطعوا ببغيكم يميني ... إني أحامي أبداً عن ديني

ونسمع الطرف الآخر الذي يمثل الباطل الخالص يقول مخاطباً للأمير ابن زياد في الكوفة:

إمــلأ ركــابــي فــضــة أو ذهــبــا إنــي قــتــلــت الــســيــد الــمــهــذبــا
قــتــلــت خــيــر الــنــاس أمــاً وأبــا

ويقول:

أأترك ملك الري والري منيتي أم أصبح مأثوماً بقتل حسين

أحد الطرفين يطلب دين الله والدفاع عنه وإسناده والذبّ عنه، والطرف الآخر يطلب الذهب والفضة وملك الري، وشتّان بينهما.

ونسمع يزيد يقول:

قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناها ببدر فاعتدل

ولو كان هذا الطائش المغرور يعلم أن عاشوراء تجديد واستمرار لبدر، وعودة جديدة لبدر لقال غير ذلك.

هذان طرفان مختلفان تماماً من جهة المفاهيم والقيم، يُجسّدُ أحدهما في سلوكه وقتاله أسمى القيم وأنبلها حتى في القتال، ويجسد الطرف الآخر أحطّ ألوان السلوك في ابتغاء الدنيا وفي الإجرام.

إن التقابل العجيب بين هاتين الفئتين اللتين تقاتلا في كربلاء وبين أهدافهما يعتبر واحداً من أغرب نماذج الصراع بين الحق والباطل في التاريخ.

وهذا الصراع يتضمن كل قوانين وقيم المعارك السابقة، ولذلك أصبح الحسين عليه السلام وارث كل الأنبياء عليهم السلام وكل الشهداء، والمعارك التي تأتي من بعد الحسين عليه السلام امتداد لتلك المعركة، كما أن القتلة ورثوا كل خصال الظالمين والجلاوزة من قبلهم.

عاشوراء النموذج الممثّل للتاريخ

ولابدّ من توضيح لكلمة (النموذج الممثّل) الذي وصفنا به عاشوراء فنقول:

إن عاشوراء مرآة لكل حركة التاريخ، وامتداد للصراع القائم بين الحق والباطل في التاريخ.

والعكس أيضاً صحيح، فإن كل صراع في التاريخ بين الدعاة إلى الله وأولياء الطاغوت نسخة من عاشوراء على درجات مختلفة من التمثيل وهذا هو معنى الكلمة المأثورة الدقيقة المعروفة: (كل أرض، كربلاء، وكل يوم، عاشوراء).

ففي كل أرض وفي كل يوم صراع بين الحق والباطل، بموجب قانون حتمية الصراع بين أولياء الله، وأولياء الطاغوت، ولا تخلو أرض من هذا الصراع، ولا يخلو يوم من أيام التاريخ منه.

وكل صراع في هذه السلسلة الطويلة من الصراعات والحروب والقتال يعتبر تمثيلاً لـ (كربلاء) ولـ (عاشوراء) على درجات مختلفة من التمثيل، حسب سعة وعمق هذا الصراع، وأبعاده في حياة الإنسان.

وبذلك فإن كربلاء رمز للصراع بين الحق والباطل.

والانتماء إلى الرمز يعني الانتماء إلى كل جبهة الحق فإن الحسين عليه السلام وارث الأنبياء.

والشعائر الحسينية هي تعبير عن هذا الانتماء إلى جبهة الحق وجبهة التوحيد.

ووسائل التعبير مختلفة مثل الزيارات والاحتفالات وإقامة مجالس العزاء والنياحة والهيئات الحسينية والمواكب الحسينية... تأتي في هذا السياق.

وهي في نفس الوقت تعبير عن تبني قيم التوحيد وإباء الضيم ورفض الظلم.

قيمة الشعائر الحسينية

منذ حادث الطف إلى اليوم الحاضر كان لحضور الجماهير دور فاعل في إحياء حادث الطف.

ولولا حضور الجماهير واهتمامهم بإحياء عاشوراء لتعرّضت معطيات الطف إلى النسيان والإهمال.

وهذا ما نراه فعلاً في حيوية (عاشوراء)، في وجدان جمهور المسلمين وعواطفهم، وتفاعل الجمهور الواسع والعميق مع عاشوراء خلال هذه الفترة الطويلة، والتي تزيد على ثلاثة عشر قرن من الزمان، وعلى هذه المساحة الواسعة من الأرض، وهذا أمر فوق العادة بالتأكيد... ولا ينبغي أن نمرّ عليه مروراً سريعاً من دون وقفة تأمل وتفكير.

ولا نعرف نحن إلى الآن حدثاً يستقطب عواطف جماهير المسلمين بهذه الصورة من القوة والفاعلية كعاشوراء، ولا نعرف أمراً في حياة المسلمين يستقطب الجماهير، ويجمعهم تجمعاً غفيراً بهذه الصورة الواسعة والقوية إلّا الحج...

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إن لقتل الحسين عليه السلام حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»[١].

ولذلك حرص بنو أمية والحكام الذين تعاقبوا بعد بني أمية، على القضاء على ذكرى وقعة الطف قضاءً تاماً.

ولأمر مّا كان يحسّ السلاطين والملوك أن في مظاهر الحزن والحداد على الإمام الشهيد شيئاً يضرهم، ويسيء إلى سلطانهم وملكهم، وكانوا يواجهون الجمهور الحسيني بالجفاء والإنكار حيناً، وأحياناً بالإرهاب والمطاردة، تماماً، كما كان الجمهور يشعر أن في قضية الحسين عليه السلام شيئاً يرتبط بمصيره ومصير الإسلام...

والتاريخ يشهد أن تطويق حادث الطف كان من أهم أهداف بني أمية بعد مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

وحضور الجماهير الفاعل ومشاركتهم القوية في إحياء ذكرى عاشوراء كان هو السبب الأقوى والاهم في إفشال كل المخططات الأموية لإحباط ذكرى عاشوراء ودوره الحركي في تحريك المسلمين.

ونحن نجد في التاريخ منذ العصر الأموي وعبر العصر العباسي إلى اليوم الكثير من الأمثلة على تنكّر السلاطين وامتعاضهم من إقبال الجمهور على زيارة الحسين والتعاطف مع قضية الحسين عليه السلام حتى بلغ الأمر أن هارون الرشيد أمر بهدم القبر الشريف وكربه[٢] كما أمر المتوكل العباسي بهدم القبر وما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقي موضع القبر ويمنع الناس من الزيارة[٣]... ومع كل هذه الضغوط السياسية والإرهاب الذي كان يمارسه السلاطين بشأن قضية الحسين عليه السلام وعاشوراء فإن عاشوراء لا تزال تتفاعل مع عواطف الجماهير ومشاعرهم في حركة تصاعدية.

فقد امتزجت عاشوراء بفعل الشعائر الحسينية بمشاعر المسلمين وعواطفهم وأحاسيسهم، وأصبح عاشوراء جزءاً لا يتجزأ من عواطف ومشاعر جماهير المسلمين الموالين لأهل

---

(١) مستدرك الوسائل ٢: ٢١٧.

(٢) تاريخ النياحة على الإمام الشهيد للسيد صالح الشهرستاني: ٢: ١٢، نقلاً عن نزهة أهل الحرمين للسيد حسن الصدر الكاظمي: ٢٧.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٢٧٠.

البيت عليهم السلام من السنة والشيعة، وحتى من غير المسلمين الذين تأثروا بثورة الحسين عليه السلام وحركته.

الدور المزدوج للشعائر الحسينية

للشعائر الحسينية دور مزدوج بالغ الأهمية، فهي أولاً وسائل للتعبير عن حالة إنشداد الجمهور بعاشوراء، وارتباطهم العاطفي بهذا الحدث المأساوي المفجع في تاريخ الإسلام.

والشعائر تؤدي ثانياً دوراً فاعلاً في إذكاء جذوة الثورة والتحريك لذكرى هذا اليوم الحساس في تاريخ المسلمين.

وبذلك فإن للشعائر الحسينية دور (التعبير) عن عواطف الجمهور، ودور (التفعيل) للحالة الثورية والحركية لهذا اليوم الخطير في تاريخ الإسلام.

ولا أعرف يوماً آخر في تاريخ الإسلام يستقطب عواطف الجمهور بقوة، ويفعّل في نفوسهم الحالة الحركية والعاطفية كهذا اليوم.

ولا شك أن لهذه الشعائر قيمة كبيرة في كل ذلك.

اهتمام أهل البيت عليهم السلام بالشعائر الحسينية

وقد كان أهل البيت عليهم السلام يعطون اهتماماً كبيراً لإقامة الشعائر الحسينية.

يقول بشير بن حذلم: لما قربنا من المدينة في العودة من الشام نزل علي بن الحسين عليه السلام وحطّ رحله وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه وقال: **يا بشير، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟** قلت: بلى يا بن رسول الله إني لشاعر.

فقال عليه السلام: **أدخل المدينة وانع أبا عبد الله عليه السلام.**

قال بشير: فركبت فرسي حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء، وأنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها	قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج	والرأس منه على القناة يُدار

وقلت: هذا علي بن الحسين عليه السلام مع عماته وأخواته قد حلّوا بساحتكم، وأنا رسوله

إليكم أعرّفكم مكانه، فخرج الناس يهرعون ولم تبق مخدّرة إلّا برزت تدعو بالويل والثبور وضجّت المدينة بالبكاء فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم(١).

وكان أهل البيت عليهم السلام يؤكدون على زيارة الحسين عليه السلام في مناسبات مختلفة.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يدعو في سجوده الذي يرويه معاوية بن وهب لزوار قبر جده الحسين عليه السلام ويقول:

«اللهم يا من خصّنا بالكرامة، اغفر لي ولإخواني وزوّار قبر جدي الحسين عليه السلام، الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم، رغبة في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا.

اللهم إن أعدائنا عابوا عليهم خروجهم إلينا، فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا.

اللهم ارحم تلك الوجوه التي غيرّتها الشمس.

اللهم ارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا»(٢).

وكان الإمام الباقر عليه السلام يحضّ المؤمنين على إقامة مجالس عزاء الحسين في (منى) أيام التشريق، حيث يجتمع المسلمون من أقطار الأرض ليسمعهم مصيبة الحسين عليه السلام وفاجعة عاشوراء(٣).

وقال الصادق عليه السلام لحمّاد:

«بلغني أن أناساً من أهل الكوفة وقوماً آخرين من نواحيها يأتون قبر أبي عبد الله في النصف من شعبان فبين قارئ يقرأ القرآن ومادح لنا ونساء يندبنه.

فقال حمّاد: قد شهدت بعض ما تصف.

قال عليه السلام: **الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدونا يطعن عليهم ويقبحون ما يصنعون»**(٤).

وعن أبي هارون المكفوف، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي:

---

(١) اللهوف لابن طاوس: ١١٦.

(٢) كامل الزيارة لابن قولويه: ١١٦.

(٣) المنتهى للعلامة الحلي ٢: ١١٢.

(٤) مزار البحار: ١٢٤.

أنشدني، فأنشدته، فقال:

لا، كما تنشدون، وكما ترثيه عند قبره، فأنشدته:

أمــرر عــلــى جــدث الــحــســيــن ... فــقــل لأعــظــمــه الــزكــيــة

مــا لــذّ عــيــش بــعــد رضّـــك ... بــالــجــيــاد الأعــوجــيــة

فبكى، قال: فلما بكى أمسكت أنا، فقال:

مُرْ، فمررت، قال: ثم قال:

زدني. قال: فأنشدته:

يــا فــرو قــومــي وانــدبــي مــولاك ... وعلى الحسين فاسعدي ببكاك

قال: فبكى، وتهايج النساء. قال: فلما أن سكتن، قال لي:

يا أبا هارون من أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنة، ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد فقال: **مَن أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنة**. ثم قال: **من ذكره فبكى فله الجنة**»[1].

وعن مسمع قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام:

«أنت من أهل العراق، أما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟

قلت: لا، أنا رجل مشهور من أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة وأعدائنا كثيرة من أهل القبائل، من النُصّاب، وغيرهم، ولستُ آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيميلون عليّ. قال لي:

أفما تذكر ما صنع به؟

قلت: بلى، قال: **فتجزع؟**

قلت: أي والله وأستعبر لذلك حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فامتنع من الطعام، حتى يستبين ذلك في وجهي. قال:

رحم الله دمعتك، أما أنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا أمنا، أما أنك سترى عند موتك حضور آبائي

---

(١) كامل الزيارات: ١٠٥، عن نفس المهموم: ٣٦.

لك، ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة ما تقرّ به عينك قبل الموت، فملك الموت أرقُّ عليك، وأشدُّ رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها.

قال: ثم استعبر واستعبرت معه، فقال:

الحمد لله الذي فضلنا على خلقه بالرحمة»[١].

وروى ابن شهر آشوب في المناقب، قال: حكي أن المنصور تقدّم إلى موسى بن جعفر عليه السلام بالجلوس للتهنئة يوم النيروز، وقبض ما يحمل إليه، فقال عليه السلام: (إني فتشت الأخبار عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله فلم أجد لهذا العيد خبراً، وأنه سنّة للفرس ومحاها الإسلام، ومعاذ الله أن نحيي ما محاه الإسلام). فقال المنصور: إنما نفعل هذا سياسة للجند، فسألتك بالله العظيم إلا جلست، فجلس ودخل عليه الملوك والأجناد يهنئونه، ويحملون إليه الهدايا والتحف، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل إليه. فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السن، فقال له: يابن بنت رسول الله، إنني رجل صعلوك لا مال لي أتحفك ولكن اتحفك بثلاث أبيات قالها جدي في جدك الحسين بن علي عليه السلام:

عجبت لمصقول علاك فِرِنْدُهُ	يوم الهياج وقد علاك غبار
ولأسهُمٍ نفذتك دون حرائرٍ	يدعون جدك والدموع غزار
ألّا تقضقضت السهام وعاقها[٢]	عن جسمك الإجلال والإكبار

فقال عليه السلام: قبلت هديتك، اجلس بارك الله فيك، ورفع رأسه إلى الخادم وطلب منه أن يذهب إلى الخليفة، ويعرفه بهذا المال وما يصنع به، فمضى الخادم وعاد وهو يقول: كلها هبة منّي له يفعل به ما أراد، فقال موسى عليه السلام للشيخ: اقبض جميع هذا المال فهو هبة مني إليك[٣].

وعن دعبل الخزاعي قال:

«دخلت على سيدي ومولاي علي بن موسى الرضا عليه السلام في أيام عشر المحرم فرأيته جالساً جلسة الحزين الكئيب وأصحابه من حوله، فلما رآني مقبلاً قال لي:

---

(١) كامل الزيارات: ١٠١، عن نفس المهموم: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) تقضقض الشيء تكسر وتحطم.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب ٤/٣١٨، ومستدرك الوسائل ١٠/٣٨٦، وبحار الأنوار للمجلسي ٤٨/١٠٨، وجامع أحاديث الشيعة ١٢/٥٨٦.

مرحباً بك يا دعبل، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه، ثم انه وسّع لي في مجلسه وأجلسني إلى جنبه، ثم قال لي:

يا دعبل أحب أن تنشدني شعراً، فان هذه الأيام أيام حزن، كانت علينا أهل البيت، وأيام سرور كانت على أعدائنا خصوصاً بني أمية، يا دعبل من ذرفت عيناه على مصابنا ولو واحداً كان أجره على الله، يا دعبل من ذرفت عيناه على مصابنا وبكى على مصاب جدي الحسين غفر الله له ذنوبه البتة.

ثم انه نهض وضرب ستراً بيننا وبين حرمه واجلس أهل بيته من وراء الستر ليبكوا على مصاب جدهم الحسين، ثم التفت إلي وقال:

يا دعبل إرث الحسين، فأنت ناصرنا، ومادحنا ما دمت حيًّا فلا تقصّر في نصرتنا ما استطعت.

قال دعبل: فاستعبرت وسالت عبرتي وأنشأت أقول:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً — وقد مات عطشاناً بشط فرات
إذن للطمت الخدّ فاطم عنده — وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يابنة الخير واندبي — نجوم سماوات بأرض فلات
قبور بكوفان وأخرى بطيبة — وأخرى بفخّ نالها صلواتي
قبور ببطن النهر من جنب كربلا — معرّسهم فيها بشط فرات
توفوا عطاشى بالعراء فليتني — توفيت فيهم قبل يوم وفاتي
إلى الله أشكو لوعة عند ذكرهم — سقتني بكأس الثكل والفضعات
إذا فخروا يوماً أتوا بمحمد — وجبريل والقرآن والسورات
وعدّوا علياً ذا المناقب والعُلى — وفاطمة الزهراء خير بنات
وحمزة والعباس ذا الدين والتقى — وجعفر ها الطيار في الحجبات
أولئك مشؤومون هند وحزبها — سمية من نوكي ومن قذرات
هم منعوا الآباء من أخذ حقهم — وهم تركوا الأبناء رهن شتات
سأبكيهم ما حجّ لله راكب — وما ناح قُمري على الشجرات
فياعين إبكيهم وجودي بعبرة — فقد آن للتسكاب والهملات
بنات زياد في القصور مصونة — وآل رسول الله منهتكات
وآل زياد في الحصون منيعة — وآل رسول الله في الفلوات

وآل رسـول الله نـحـف جـسـومـهـم	وآل زيـــاد غـــلّـــظ الـقـصـرات
وآل رسـول الله تُـدمـى نـحـورهـم	وآل زيـــاد ربــة الـحـجـلات
وآل رسـول الله تُـسـبـى حـريـمـهـم	وآل زيـــاد آمـنـوا الـسـربـات
إذا وتـروا مـدّوا إلـى واتـريـهـم	أكـفـاً عـن الاوتـار مـنـقـبـضـات
سـأبـكـيـهـم مـا ذرّ فـي الأرض شـارق	ونـادى مـنـادي الـخـيـر لـلـصـلـوات
ومـا طـلـعـت شـمـس وحـان غـروبـهـا	وبـالـلـيـل أبـكـيـهـم وبـالـغـدوات[1]

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول:

«كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام منها فإذا كان العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وبكائه، ويقول هو اليوم الذي قتل فيه جدي الحسين عليه السلام»[2].

وروى الصدوق في الأمالي بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام:

«من تذكر مصابنا، وبكى لما ارتكب فينا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[3].

عن أبي عمارة المنشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال لي:

يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي قال: فأنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلت انشده ويبكي حتى سمعت البكاء من الدار. قال: فقال:

يا أبا عمارة من أنشد في الحسين بن علي شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين فأبكى عشرين فله الجنة،

---

(١) بحار الانوار ٤٥/٢٥٧، العوالم/الإمام الحسين، للشيخ عبد الله البحراني ص ٥٤٥، والدر النضيد ٢٤٦ ومستدرك الوسائل ١٠/٣٨٦.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق ١٩١ ط ١٤١٧ مؤسسة البعثة، روضة الواعظين للفتال النيسابوري ١٦٩، منشورات الشريف الرضي.

(٣) عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق ٢/٢٦٤، ووسائل الشيعة ١٠/٢٩٣ ط بيروت دار إحياء التراث العربي.

ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة[١].

وعن زيد الشحّام، قال: «كنا عند أبي عبد الله، ونحن جماعة من الكوفيين، فدخل جعفر بن عفان على أبي عبد الله عليه السلام فقرّبه وأدناه ثم قال:

يا جعفر، قال: لبيك جعلني الله فداك، قال:

بلغني أنك تقول الشعر في الحسين وتجيد، فقال له: نعم جعلني الله فداك، قال: فأنشده:

ليبك على الإسلام من كان باكياً	فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غداة حسين للرماح ذريئة	وقد نهلت منه السيوف وعلّت
وغودر في الصحراء شلواً مبدداً	عليه عتاق الطير باتت وظلّت
فما نصرته أمة السوء إذ دعا	لقد طاشت الأحلام منهم وضلّت
وما حفظت قرب النبي ولا رعت	وزلّت بها أقدامها واستزلت
أذاقته حرّ القتل أمة جده	فتبّت أكفّ الظالمين وشلّت
فلا قدّس الرحمن جند أمية	وإن هي صامت للإله وصلّت
كما فُجعت بنت الرسول بنسلها	وكانوا كماة الحرب حين استقلت
وكانوا سروراً ثم عادوا رزية	لقد عظمت تلك الرزايا وجلّت

فبكى الصادق عليه السلام ومن حوله حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته، ثم قال: يا جعفر، لقد شهدك الملائكة المقربون، وإنهم لها هنا يسمعون قولك في الحسين. ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، وقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعتك الجنّة، وغفر لك.

ثم قال عليه السلام: والا أزيدك يا جعفر؟

قال: نعم، يا سيدي.

قال عليه السلام: (ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى إلا أوجب الله تعالى له الجنة وغفر له)[٢].

---

(١) بحار الأنوار٤٤: ٢٨٢.

(٢) وقد روى الشعر طائفة من المحدثين والأدباء والمؤرخين وأصحاب السير، وانظر عيون أخبار الرضا ١/ ١٨٨، أمالي الطوسي ٢: ٢٤، الاحتجاج ١/ ٢١٤، الأغاني ٧: ٨ و٩: ٤٥ و٧/١٢، وأخبار شعراء الشيعة للمرزباني ١١٥ ـ ١١٦، ومقتل الخوارزمي ٢/ ١٤٤.

يقول صاحب المجالس الفاخرة السيد عبد الحسين شرف الدين رحمه الله: وقد نسج جعفر بن عفان (العبدي) في هذا الرثاء على روي سليمان بن قنة (العدوي) إذ مرّ بكربلاء لثلاث بعد قتل الحسين عليه السلام فنظر إلى مصارعهم ومضاربهم فأنشأ يقول ويبكي:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أر أمثالاً لها حين حلّت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلّت
وإنّ قتيل الطف من آل هاشم ... أذلّ رقاب المسلمين فذلّت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزية ... الا عظمت تلك الرزايا وجلّت
وقد اعولت تبكي السماء لفقده ... وأنجمها ناجت عليه وصلّت

عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الرضا عليه السلام:

«إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه القتال فاستُحلت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثقلنا، ولم ترع لرسول الله حرمة في أمرنا.

إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذل عزيزنا بأرض كرب وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون فأن البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام.

ثم قال عليه السلام: **كان أبي إذ دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلى الله عليه**»[1].

وعن الريان بن شبيب قال: «دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم فقال لي:

يا بن شبيب أصائم أنت؟

فقلت: لا، فقال:

إن هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريا ربه عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً

وراجع القصة في المجالس الفاخرة للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي رحمه الله ١٤١ ـ ١٤٢ ط ١٤٢١ هـ، مؤسسة المعارف الاسلامية قم، والحر العاملي رحمه الله في وسائل الشيعة ١٤/ ٥٩٤ و١٠/ ٤٦٤ ط ١٤١٤هـ مؤسسة آل البيت، وبحار الأنوار ٤٤/ ٢٨٣، وروى القصة السيد الخوئي رحمه الله في معجم رجال الحديث ٥/ ٢١.

(١) بحار الأنوار٤٤: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1] فاستجاب الله له وأمر الملائكة، فنادت زكريا، وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى، فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله ﷻ استجاب الله له كما استجاب لزكريا عليه السلام. ثم قال:

يا بن شبيب إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأمة حرمة شهرها ولا حرمة نبيها. لقد قتلوا في هذا الشهر ذريته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك ابداً.

يا بن شبيب أن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب فإنه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السموات السبع والارضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره، فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره، وشعارهم (يا لثارات الحسين).

يا بن شبيب، لقد حدثني أبي، عن أبيه، عن جده أنه لما قتل جدي الحسين أمطرت السماء دماً وتراباً احمر.

يا بن شبيب، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خديك غفرا الله لك كل ذنب أذنبته صغيراً كان أم كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً.

يا بن شبيب، إن سرّك أن تلقى الله ﷻ ولا ذنب عليك، فزر الحسين.

يا بن شبيب، إن سرك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبي ﷺ فالعن قتلة الحسين.

يا بن شبيب، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استُشهد مع الحسين فقل متى ما ذكرته: (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً).

يا بن شبيب، إن سرك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أنّ رجلاً تولى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة»[2].

وروى ثقة الإسلام، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، في الكافي بإسناده عن العبدي سفيان بن مصعب الشاعر، قال:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) امالي الصدوق المجلس ٢٧ ـ الرقم ٥، عيون أخبار الرضا ١ : ٢٩٩.

«دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فقال:

قولوا فروة تجيء فتسمع ما صنع بجدها. قال: فجاءت، فقعدت خلف الستر، ثم قال عليه السلام: **أنشدنا**، قال: فقلت:

(فرو جودي بدمعك المسكوب).

قال: فصاحت، وصحن النساء[1].

وعن ابن شعبة، عن عبد الله بن غالب، قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فأنشدته مرثية الحسين بن علي عليه السلام، فلما انتهيت إلى هذا الموضع:

لبلية تسفوا حسيناً	بمسفاه الثرى غير التراب

صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه[2].

وقال ابن الجوزي: نظر سليمان بن قبة الشاعر البارع إلى مصارع القوم بكربلاء، فبكى حتى كاد أن يموت، ثم قال:

وان قتيل الطف من آل هاشم	أذل رقاباً من قريش فذلت
مررت على أبيات آل محمد	فلم أر امثالاً لها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها	وان أصبحت منهم برغمي تخلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة	لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وقد تقدم هذا الشعر.

تسرّب بعض الشوائب إلى الشعائر الحسينية

الشعائر الحسينية وسائل الجمهور للتعبير عن حزنه العميق وارتباطه العاطفي وإنشداده النفسي بمأساة كربلاء.

والجمهور الحسيني من أصدق الجماهير في التفاعل مع مأساة الطف، ويبلغ هذا التفاعل قمته في العشرة الأولى من شهر محرم، وقمة هذه العشرة اليوم العاشر، ويبلغ من تفاعل شيعة أهل البيت عليهم السلام مع المأساة أن يتعطل المألوف من حياتهم اليومية تماماً في هذا اليوم.

---

(١) الكافي ٨: ٢١٦، وفي هامشه: (ام فروة هي كنية لام الصادق عليه السلام بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، ولبنته، على ما ذكره الشيخ الطبرسي رحمه الله في أعلام الورى، والمراد هنا الثانية).

(٢) كامل الزيارات: ١٠٥.

ويتوزّع الجمهور على مجالس الحسين عليه السلام ومواكب العزاء أفواجاً في حالة مشجية وحالة عزاء ونياحة.

وبطبيعة الحال إن مثل هذا التعاطف الفاعل والمؤثر يفتح باباً واسعاً تدخل من خلاله بعض الطقوس والأعمال غير الموجّهة في الشعائر الحسينية، كما يفتح على المنبر الحسيني باباً لتدخل من خلاله طائفة من الأحاديث والروايات المرسلة وغير الموثقة في مأساة الطف.

وهذا وذاك مع الأسف أمران يحدثان في الشعائر الحسينية والمجالس الحسينية.

الشعائر والمجالس الموجّهة

ولكي تبقى المجالس والشعائر الحسينية فاعلة ومؤثرة وقوية، وتحتفظ بدورها في تصعيد تفاعل الجمهور مع القضية الحسينية، وتحتفظ بكفاءتها العالية في تفجير غضب الجمهور وثورته على الظالمين، وتحريك الجمهور وتثويره، لابدّ أن يقوم العلماء دائماً بدور الإرشاد والتوجيه لتهذيب الشعائر والمجالس الحسينية، وتوجيهها وتصفية هذه الشعائر مما لحقها من الطقوس والأعمال التي لا يستسيغها الذوق السليم، ولا روح الإسلام، ومنهجه في العزاء، ولا تعاليم أهل البيت عليهم السلام في إقامة عزاء الحسين عليه السلام وإقامة الشعائر، وهذا واجب العلماء والخطباء، الذين أوكل الإسلام إليهم مهمة توجيه الجمهور وتوعيته وإن من المعيب أن يضعف العلماء عن أداء واجبهم في تنزيه الشعائر الحسينية من أمثال هذه الطقوس.

الخطوط العامة لتوجيه الشعائر الحسينية

والخطوط والعناصر الأساسية لتوجيه الشعائر الحسينية هي:

١ - التمسك بنصوص روايات أهل البيت عليهم السلام الصحيحة في إقامة مجالس العزاء الحسيني وإقامة الشعائر الحسينية، وهذه الروايات كما ذكرنا كثيرة ومنتشرة في الكتب الموثوقة، والعمل في إطارها بشكل دقيق.

٢ - الشعائر الموروثة من سلفنا الصالح على أيدي العلماء العاملين منذ عصر الغيبة الكبرى إلى اليوم، والتي تلقاها علماؤنا جيلاً بعد جيل بالتأييد والدعم، كإقامة مجالس العزاء ومواكب العزاء والنياحة والبكاء والزيارة وما أشبه ذلك.

٣ - أن لا يكون في هذه الشعائر ما يُسببّ وهناً أو ضعفاً للطائفة، ولا لمذهب أهل البيت عليهم السلام، ولا يعكس صورة سلبية أو موهونة لمذهب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم للناس.

٤ ـ أن تعكس ظلامة أهل البيت ﷺ والمآسي التي مرّت عليهم، وتعكس ظلم الظالمين وتجرءهم على الله ورسوله وأوليائه.

٥ ـ أن تعكس ثورة أهل البيت ﷺ وحركتهم وخروجهم على الظالمين وعدم رضوخهم لهم وشجاعتهم ومقاومتهم وصلابتهم في الله، ولا تسلب الرقة المطلوبة في العزاء والنياحة مشاهد القوّة، والثورة، والفتوة، والمقاومة، والصلابة المنتشرة في طول هذه الواقعة المفجعة وعرضها.

٦ ـ أن تحفظ للجمهور عاطفته وانشداده بمأساة عاشوراء، وتصعّد هذه العلاقة والانشداد النفسي بمأساة الطف.

٧ ـ أن تعكس رسالة أهل البيت ﷺ ووعيهم للإسلام ومواقفهم في التاريخ الإسلامي التي حافظت على نقاوة الإسلام ومنعت تحريفه، ويكون مجالاً خصباً لدعوة الناس إلى الإسلام وتوجيههم إلى هدى أهل البيت ﷺ ومجالاً خصباً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعريف بمفاهيم الإسلام وهدى القرآن، ودعوة الناس إلى إقامة الصلاة وسائر فرائض الله.

وكذلك ينبغي أن يسعى العلماء والخطباء دائماً إلى توجيه الشعائر والمجالس الحسينية وتهذيبها وجردها وفق برنامج ومنهج مدروس، وليس أن يتطابقوا في حركة عاطفية وانفعالية واضحة مع شرائح من الجمهور في تفاعلها الوجداني والعاطفي القوي مع فاجعة الطف.

دور الجمهور في ترشيد الشعائر الحسينية:

ولئن كان يجب على العلماء أن يقوموا بدور رائد ومسؤول في توجيه الشعائر الحسينية، فإن على الجمهور الحسيني أن يدعم هذه الحركة الواعية المسؤولة في تصحيح وتهذيب الشعائر الحسينية.

إن لتصحيح الشعائر الحسينية دور كبير ومؤثر في إنشداد الجمهور بمأساة الطف، وبعكس ذلك فإن إهمال توجيه الشعائر الحسينية يفتح الباب لدخول الكثير من الطقوس والأعمال التي لا تلائم روح الإسلام ولا نصوص أهل البيت ﷺ ولا الذوق السليم، وتؤدي إلى تحجيم دور الشعائر الحسينية في تحريك الجمهور وتوعيته وربطه بالحسين ﷺ وقضية الحسين ﷺ.

ولذلك فإن من واجب الجمهور أن يواجه هذا التوجيه والتهذيب للشعائر الحسينية بوعي ومسؤولية. وقد أثبت الجمهور الحسيني دائماً انه على مستوى الوعي والمسؤولية، كما هو أهل للعطاء والتضحية.

الفصل الثاني

الشعارات الحسينية يوم عاشوراء

في سياق الحديث عن الشعائر الحسينية... لابدّ أن نرجع إلى ساحة الملحمة الخالدة في التاريخ يوم عاشوراء وهو المعين الأول لكل هذه الشعارات... لنستعرض الشعارات التي اشهرها الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في ساحة الطف.

وهذه النقطة بالتأكيد ضرورية في دراستنا للشعائر الحسينية... فإن تلك الشعارات هي الأساس والعمق الأول للشعائر الحسينية في امتداد التاريخ وعلى مساحة واسعة جداً من الأرض.

وهذه الشعارات تتجسد في الهتافات والرجز الذي كان يلقيه ويردده الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في ذلك اليوم في ساحة المعركة.

ولا شك أن هذه الدراسة على قدر كبير من الأهمية... فهي تكشف لنا الأهداف والغايات الحقيقية لثورة الحسين عليه السلام في عاشوراء، والإطار والمضمون الحقيقي لهذه الملحمة المأساوية الخالدة والتي كتبها الحسين للأجيال بدمائه ودماء أهل بيته وأصحابه الزاكية.

الخطاب والشعار

إنّ أفضل ما يعكس لنا ثقافة عاشوراء هو (الخطاب) و(الشعار)... وقد حفظ الله تعالى لنا هذين المعينين الثقافيين اللذين يرفدانا بثقافة عاشوراء من الضياع والسطو في حكومة بني أمية وبني العباس الذين كانوا يكافحون هذه الثقافة، ويعملون على استئصالها بكل الوسائل الممكنة.

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من الخطاب الحسيني وخطاب أهل بيته وأصحابه منذ أن خرج من المدينة إلى أن رجع أهل بيته إلى المدينة من الشام، في تلك الظروف التي كان يحكمها الإرهاب، كما حفظ الله تعالى لنا الكثير من الهتافات والرجز الذي ألقاه الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه يومئذ في ساحة المعركة، وهو الذي سميناه بـ (الشعارات الحسينية) في ساحة المعركة.

ولئن كانت تلك الخطابات والشعارات التي أطلقها الحسين عليه السلام وأنصاره وأهل بيته في ظروف الإرهاب والاضطهاد الأموي أمراً غريباً واختراقاً لجدار الرعب والإرهاب، فإن ثبات هذه الخطابات والشعارات في ذاكرة التاريخ ـ عبر حكم بني أمية وبني العباس ـ إلى اليوم لا تقل غرابة.

ونحن هنا نتحدث عن (الشعارات الحسينية) أما الخطاب الحسيني، فقد تحدثنا عنه في كتاب (الخطاب الحسيني).

هذه الشعارات كانت في الغالب شعراً من بحر (الرجز) يرتجز فيه المقاتلون ساعة النزول إلى الساحة والاشتباك مع العدو، وكانت في الغالب على نحو الارتجال... وهي على عفويتها تحمل مفاهيم وأفكار وقيما يحتاج إلى كثير من التأمل والتوقف والدراسة.

وليست لدينا هنا فرصة دراسة دقيقة وعميقة لدراسة هذا الرجز وندعو خطباء المنبر الحسيني أن يتناولوا هذا الموضوع باهتمام أكثر... ولكننا نشير في هذه العجالة إلى مجموعة من المفاهيم والقيم التي نقتبسها نحن من هذه الشعارات التي كان يطلقها أنصار الحسين في ساحة الوغى، عند الاشتباك.

مفردات وعناوين الشعارات الحسينية يوم عاشوراء

١ ـ ثقافة المقاومة

الظلم لا محالة واقع في التاريخ في حياة الأمم والأفراد، ولا سبيل إلى قطع دابر الظلم، فهو جزء لا يتجزأ من سنة الابتلاء التي جعلها الله تعالى وسيلة لامتحان عباده في التاريخ والمجتمع.

ولكن كيف نتعامل مع الظلم؟

وهذا هو السؤال العملي الذي نواجهه دائماً في التاريخ والمجتمع تجاه ظاهرة الظلم.

هل نعارض، ونقاوم الظالم؟ أو ننقاد ونطيع ونسكت، أو نغيب ونهرب عن مواجهة الظالم.

في التاريخ الإسلامي نجد ثقافتين مختلفتين تماماً تجاه هذه الظاهرة.

الثقافة الأولى ثقافة المعارضة والمقاومة للظالم، والثقافة الثانية ثقافة الطاعة والمطاوعة للظالم.

وهاتان الثقافتان تنبعان من رأيين فقهيين في الفقه السياسي في الإسلام.

الرأي الأول: هو معارضة الظالم ومقاومته.

والرأي الثاني: هو طاعة الظلم وحرمة الخروج عليه.

وتتبنى الرأي الأول مدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية، وطائفة من فقهاء أهل السنة.

ويتبنى الرأي الثاني طائفة كبيرة من الفقهاء منذ الصدر الأول للإسلام، من أيام بني أمية إلى اليوم.

وفي مقدمة من اشتهر بهذا الرأي من الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة، ونظراء لهم، وتبعهم تابعون من جيل التابعين، كانوا يرون حرمة الخروج على السلطان الجائر، ولزوم طاعته وتحريم المعارضة السياسية والمقاومة المسلحة تجاهه.

وذهب إلى هذا المذهب طائفة كبيرة من أئمة الفقه الإسلامي مثل أحمد بن حنبل، فقد عرف عنه بما لا يقبل الشك أنه يرى وجوب السمع والطاعة للأئمة والأمراء، براً وفاجراً، ممن ولي الخلافة، وغلبهم بالسيف، وليس لأحد أن يطعن فيهم وينازعهم، ويجوز دفع الصدقات والزكوات إليهم ويجزي عنهم براً كان أو فاجراً، ويجوز إقامة الجمعة خلفه، ومن أعادها فهو مبتدع مخالف للسنة[١].

ويعلل أحمد بن حنبل وجوب الطاعة وحرمة الخروج بالمحافظة على أمن المجتمع والدولة من الفتن السياسية والعسكرية.

وإلى هذا المذهب يذهب أمة كبيرة من الفقهاء فقد ادعى النووي في شرحه على صحيح مسلم: إجماع فقهاء أهل السنة على ذلك... قال: وإما الخروج عليهم ـ يعني الخلفاء ـ

(١) راجع تاريخ المذاهب الإسلامية لابن زهرة ٢: ٣٢٢.

وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وان كانوا فسقة ظالمين، وأجمع أهل السنة (على) أنه لا يُعزل السلطان بالفسق.

كما نقل الإجماع نفسه ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري (فتح الباري) عن ابن بطّال قال: وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وإن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين للدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلّا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح[١].

وكلمات فقهاء أهل السنة في ذلك كثيرة نقلنا طائفة منها في كتابنا (حوار بين التسامح والعنف) و(ولاية الأمر)[٢].

وقد دخل هذا الرأي الفقهي السياسي في المجتمع الإسلامي وفي صلب الثقافة الإسلامية الرائجة الرسمية في التاريخ الإسلامي، وتحول إلى ثقافة فقهية قائمة في أوساط المسلمين.

واشتهرت مدرسة أهل البيت عليهم السلام كما قلنا بالرأي الأول في الفقه السياسي، وتكوّنت من هذا الرأي الفقهي ثقافة سياسية هي ثقافة المعارضة والخروج والمقاومة المسلحة ويعتمد هذا المذهب الفقهي آيات محكمات من كتاب الله وأحاديث صحيحة وصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد انطلق منها الإمام الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن محكمات كتاب الله الآيات الناهية عن طاعة الكافرين والفاسقين، والآمرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرادعة عن طاعة الظالمين قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٥].

---

(١) فتح الباري ٢٠/٥٨ حسب ترقيم المكتبة الشاملة.

(٢) ولاية الأمر ط ٢٠٠٥م ص ٢٤٨ ـ ٢٦٣.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٥) سورة القلم، الآية: ٨.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٣][٤].

انطلق الحسين عليه السلام في الخروج على يزيد من هذا المنطلق من الكتاب والسنة، وشاع هذا الفقه في الأوساط الإسلامية بعد ثورة الحسين عليه السلام شياعاً واسعاً وتبنّاه الكثير من العلماء والفقهاء.

إذن نحن نواجه في التاريخ الإسلامي ثقافتين فقهيتين مختلفتين اختلافا كبيراً، إلى حدّ التقاطع والتقابل، وهما ثقافة مقاومة الظالم وثقافة مطاوعة الظالم والانقياد له.

وما تلوناه عليك من آيات كتاب الله المحكمات، وما نعرفه من ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشريعة يكفي في الاحتجاج به للرأي الأول، فضلا عن الأحاديث المروية بطرق صحيحة في مجامع الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله... ولسنا نريد أن ندخل التفاصيل الفقهية في هذه المسألة فقد شرحناها بشيء من التفصيل في كتاب (ولاية الأمر) وفي كتاب (حوار بين التسامح والعنف)، فلا نريد هنا أن نتوقف عندها في دراسة هذه المسألة من الناحية الفقهية.

ونحن نتّهم بني أمية ثم بني العباس، ثم الحكام الظالمين في التاريخ الإسلامي ومنهم حكام ظالمون في عصرنا أهلكوا الحرث والنسل وظلموا وأسرفوا في الظلم، وقتلوا النفوس البريئة، وأراقوا الدماء التي حرّمها الله تعالى.. نتّهمهم في إشاعة هذا الرأي الفقهي والثقافة الفقهية القائمة على طاعة الظالم ومطاوعته وتبنّيها إلى اليوم.

ونُحمّل هذا الرأي الفقهي مسؤولية الظلم الكبير والانحراف الذي وقع في التاريخ الإسلامي في دائرة الخلافة الإسلامية، وبعدها في دائرة الأنظمة.

فقد كان الحكّام الظالمون المنحرفون يجدون في هذا الرأي الفقهي إسناداً لهم في الاستمرار في ممارسة الظلم والانحراف عن الإسلام... وكان ينزل على نفوسهم بَرْداً وسلاماً،

---

(١) سورة القلم، الآية: ١٠.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥١.

(٤) راجع تفصيل هذا البحث في كتابينا: (حوار بين التسامح والعنف) و(ولاية الأمر).

ويتعهّد لهم هذا الرأي الفقهي بخنق كل صوت للمعارضة، ومتى يجد الحكام الجائرون إسناداً أو دعماً لحكمهم أفضل من ذلك.

ولا نشك في أن الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ في ترك المعارضة للظالم، والركون إليه والتسليم والطاعة له منتحلة على رسول الله ﷺ، إن لم يكن قد أسيئ فهمها.

وآية ذلك معارضة هذه الأحاديث لمحكمات كتاب الله، ولما صح عن رسول الله ﷺ، ولسيرة الحسين عليه السلام في ثورته على يزيد وسيرة الصحابة والتابعين في وقعة الحرة التي أعلنوا فيها الخروج على يزيد بن معاوية بعد خروج الحسين عليه السلام في كربلاء فأبادهم يزيد، وأوقع فيهم مذبحة عظيمة، يحدثنا عنها المؤرخون.

ولولا ثورة الحسين عليه السلام لكان لهذا الرأي الفقهي في طاعة الظالم والباغي دور أكبر وأوسع في القضاء على الحركات السياسية الإسلامية المعارضة، وحركات المقاومة المسلحة، وكان سبباً في إفساح المجال للحكام الجائرين بشكل مطلق، ليعيثوا في الأرض فساداً وليهلكوا الحرث والنسل، فإنهم في أمان من كل اعتراض ومقاومة من قبل المسلمين، ما داموا لم ينطقوا بالكفر الصراح، كما يقول أصحاب هذا الرأي.

وقد جاءت ثورة الحسين عليه السلام رحمة على هذه الأمة، ولم يكن بوسع أحد يحترم دينه وعلمه وعقله أن يُخطّئ الحسين عليه السلام، فكانت ثورته المأساوية الدامية اختراقاً لهذه الفتاوى التي أضرّت بدور الرأي العام الإسلامي في إسقاط الحكومات الظالمة ورداً عمليا لهذه الفتاوى، وقدوة صالحة للمسلمين في الموقف من الحكام الجائرين.

روى الطبري وابن الأثير في تاريخيهما: أن الحسين عليه السلام خطب في أصحابه في بعض المنازل، فقال:

«أيها الناس أن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرام الله، ناكثا لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله، ألا وان هؤلاء، قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر»[١].

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠، والكامل ٤: ٤٨.

وفي الخطاب الحسيني والشعارات التي رفعها الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء تأكيد وتعميق لثقافة الرفض والمعارضة والمقاومة.

وقد خطب الإمام عليه السلام في بعض منازل الطريق في أصحابه وأصحاب الحرّ فقال:

«إن الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله».

ويرتجز علي بن الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين يدي أبيه ويقول:

أنا علي بن الحسين بن علي — نحن وبيت الله أولى بالنبي

والله لا يحكم فينا ابن الدعي — أطعنكم بالرمح حتى ينثني[1]

كلما يطلبه الحسين عليه السلام في هذه المقاومة المسلحة لجيش بني أمية هو هاتان الكلمتان اللتان قالهما علي بن الحسين عليه السلام:

(نحن وبيت الله أولى بالنبي) و(والله لا يحكم فينا ابن الدعي).

يعلن علي بن الحسين عليه السلام في هذا الرجز حقّ أبيه الحسين عليه السلام في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمامة هذه الأمة، ورفض إمامة وولاية بني أمية عامة على المسلمين.

٢ ـ الفتح والهزيمة

للإمام الحسين عليه السلام أبيات من الشعر يوم عاشوراء ألقاها على جيش بني أمية في ساحة القتال تستوقف الإنسان وتدعوه إلى التأمل والتفكير، يقول عليه السلام:

فإن نَهْزِم فهزّامون قُدْماً — وإن نُهْزم فغير مُهَزَّمينا

وما أن شابنا جبن ولكن — منايانا ودولة آخرينا[2]

---

(١) مقتل أبي مخنف ١٢٧، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من طبقات ابن سعد ١٨٢، تاريخ الطبري ٥: ٤٤٦، مروج الذهب ٣: ٦١، مقاتل الطالبيين ٧٦، الفتوح لابن اعثم ٥: ١٣٠، الإرشاد للمفيد ٢: ١٠٦، مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٠، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٩، مثير الأحزان: ٦٨، البداية والنهاية ٨: ١٨٧، انساب الأشراف ٣: ٣٦١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٣، ٦٥، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧٠، ٢٨٦، ٣٣٥، أعيان الشيعة ١: ٦٠٧ و٨: ٢٠٧.

ملاحظة: أخذنا مصادر الارجاز عن كتاب (منظومة الحب الارغواني)، ترجمة وتأليف الدكتور علي رضا ميرزا محمد، شكر الله سعيه.

(٢) مناقب ابن شهر اشوب٤: ٨٠، بحار الانوار٢٥: ٩٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٨.

يقول عليه السلام: إن نحن هزمناكم فطالما هزمناكم من قبل في بدر، وما بعد بدر حتى رضختم للإسلام ودخلتم الإسلام مكرهين: (فان نهزم فهزامون قدماً)، ثم أطلقنا رقابكم في فتح مكة.

وان كان الآخر، وَهُزِمْنا، فليس علينا في ذلك من بأس، فلم ننهزم نحن في الصراع على المبادئ والقيم، ولكن هُزمنا في معركة عسكرية غير متكافئة وظالمة... وما على المؤمن بأس أن ينهزم في معركة عسكرية غير متكافئة إذا كان في موقع الدفاع عن الحق وخصيمه في موقع الباطل، ولكن البأس كل البأس أن ينسحب ويتراجع من موقع المبادئ والقيم: (وإن نُهزم فغير مهزمينا).

ولا بد من وقفة قصيرة لهذا الشطر من كلام الإمام عليه السلام... وهو كلام دقيق وعميق.

إن الفتح والهزيمة في المعارك العسكرية يختلفان عنهما في المعارك الحضارية... والمعركة غير المتكافئة التي يدخلها الإمام الحسين عليه السلام في قبالة بني أمية معركة حضارية في الحقيقة، على هيئة معركة عسكرية... والإمام في هذه المعركة يطلب أهدافاً حضارية، أما بنو أمية فكانوا يطلبون في هذه المعركة التصفية الجسدية والإعلامية والسياسية الكاملة للمعسكر العلوي في كربلاء.

إن الفتح والهزيمة في المعركة الحضارية غيرها في المعارك العسكرية.

الهزيمة في المعركة العسكرية تقع من طرف على طرف آخر، شاء الطرف الآخر أو لم يشأ، قبل أم لم يقبل... فليس للهزيمة طرفان(كالعقود)، وإنما هي كـ (الإيقاعات)، يفرضها أقوى الطرفين عسكرياً على أضعفهما.

وليست الهزائم في المعارك الحضارية كذلك... إنّ الهزيمة في المعارك الحضارية لا تقع من طرف واحد على الطرف الآخر، كما في المعارك العسكرية، وإنما تتحقق بقبول الطرف الآخر للهزيمة وتنازله عن أهدافه وغاياته ومواقفه وقيمه... فهو من قبيل العقود، إذا صح هذا التعبير، وليس من قبيل الإيقاعات.

إن الهزيمة الحضارية لا تقع بإرادة الطرف الهازم وفعله فقط، وبصورة قهرية من جانب الطرف المنهزم، وإنّما تقع مع قبول الطرف الآخر للهزيمة، وأقصد بالقبول تنازله عن مواقفه ومواقعه، وأهدافه، وقيمه الحضارية، واستسلامه للطرف الهازم.

فإذا كان الطرف الآخر يرفض الهزيمة، ويُصرُّ على مواقفه وأهدافه ورسالته، رغم ما نزل

به من فتك وبطش وقتل من الطرف الهازم، فلا تتحقق الهزيمة بمعناها الحضاري والثقافي، إطلاقاً.

الهزيمة العسكرية قضية رياضية من حيث الكم، الكم الأكبر يغلب الكم الأقل في اغلب الأحوال، وقضية فيزيائية... من حيث السلاح، نوع السلاح القوي يقطع السلاح الضعيف ويوقفه، فهي قضية مادية رياضية ـ فيزياوية بحتة.

أما الهزيمة الحضارية فهي أمر آخر لا تتحقق إلا بتنازل الطرف المهزوم عسكرياً عن مواقفه، ومواقعه، وقيمه، وأهدافه، وأخلاقه، ومبادئه، تبعاً لرأي الطرف الهازم وإملائه، وبتقبّل الطرف المنهزم للهزيمة.

وهذا ما لم يتحقق قط في كربلاء يوم عاشوراء... فلم يزل الحسين عليه السلام وأنصاره على نفس المواقع التي أعلنها الحسين في المدينة، وفي مكة، وفي طريقه إلى العراق ثم في كربلاء، لم يتجاوزا موقع الرفض والاعتراض حتى آخر لحظة من حياتهم، ولم يتنازلوا عن شيء من أهدافهم وغاياتهم ومواقعهم في خروجهم على يزيد بن معاوية.

والفتك والبطش الحاقد الذي مارسه بنو أميه بحق الحسين عليه السلام وأنصاره، حتى داسوا جسده الطاهر بحوافر خيولهم لم يثن أهل بيته عليه السلام وشيعتهم(رضوان الله عليهم) من مواصلة الخطاب الحسيني والإصرار على رفض سلطان بنو أمية، وإعلان إلغاء شرعيته، والدعوة إلى الخروج عليهم، والتشهير والتسقيط بهم وإعلان ظلامة الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء.

ولم يزد هذا النصر العسكري الذي كسبه بنو أمية في وقعة الطف أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم غير الإصرار على إعلان الخطاب الحسيني، ونشره والتأكيد، على مواقع الحسين عليه السلام الرافضة والمعارضة لبني أمية.

ولم يزد الناس إلا نفوراً من بني أمية، وغضباً عليهم.

ولم تعد الشرعية لبني أمية في الخلافة والسلطان بعد ذلك اليوم قط، وكانت ثورة الحسين عليه السلام نهاية قطعية لشرعية حكومة بني أمية... فأين موضع الهزيمة في ثورة الحسين عليه السلام؟.

إن الهزيمة التي ألحقها جند بني أمية بالحسين عليه السلام وأنصاره لم تكن غير هزيمة عسكرية، وهي ما كان يتوقعها الحسين عليه السلام وأعلنها يوم خطب في الناس بمكة، وأعلن خروجه إلى العراق بمن يصحبه لإعلان الثورة على سلطان بني أمية في الشام، ونعي إليهم نفسه...

فلم يكن في النصر العسكري الذي ناله بنو أمية أمر جديد لم يدخل في حساب الإمام عليه السلام وأنصاره.

الهزيمة العسكرية التي استبطنت فخاً حضارياً:

وكان من غرائب القدر أن تحمل هذه الهزيمة العسكرية نواة فتح كبير في تاريخ الإسلام بقيادة الحسين عليه السلام وأهل بيته، بالمضمون الحضاري... وهو ما لم يكن يتوقعه بنو أمية قط. ورغم كل الجهد الذي بذلوه لإخماد الخطاب الحسيني بعد استشهاده فقد أخفقوا إخفاقا كاملاً في ذلك، وارتفع الخطاب الحسيني على لسان علي بن الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام في قصر الطاغية في الشام، ومن قبله في الكوفة بين جماهير العراق، الذين تخلفوا عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله... وبعد ذلك في المدينة، عند عودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة، ثم زحف الخطاب الحسيني إلى كل أقاليم العالم الإسلامي، وتحوّل إلى وعي ويقظة وثورة على الطاغية في نفوس المسلمين إلى اليوم.

وهكذا تحولت الهزيمة العسكرية في كربلاء يوم العاشر من محرم إلى فتح حضاري واسع.

الفتح الذي وعد به الحسين عليه السلام بني هاشم:

وكان الإمام الحسين عليه السلام يتوقع هذا الفتح من المدينة إلى كربلاء، ولم يكن يتردد فيه أهل بيته من بعده، حتى بعد مأساة عاشوراء.

ففي مكة أمر الإمام عليه السلام بقرطاس، وكتب إلى بني هاشم:

«أما بعد... فأنه من لحق بي استشهد، ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح والسلام»[(١)].

وفي هذا الكتاب الذي عمّمه الإمام على بني هاشم يذكر الإمام عليه السلام نقاطاً هامة جديرة بالاهتمام، رغم إيجاز الكتاب.

١ - ينعى نفسه ونفوس من معه إلى بني هاشم، فإذن هو لم يخرج إلى فتح عسكري، وإنما يوطّن نفسه، ونفوس أنصاره لمصرعه ومصرعهم، ولا يمكن أن يخرج الإنسان لفتح عسكري ثم ينعى نفسه ونفوس أصحابه.

٢ - يعلن لبني هاشم أنه لا محالة يتم الفتح له بخروجه على يزيد... وهذا هو معنى (ومن

---

(١) السيد ابن طاوس في الملهوف تحت عنوان: تخلف محمد بن الحنفية عن أخيه الحسين عليه السلام.

تخلف عني لم يبلغ الفتح) فإن المفهوم الواضح من سياق الكلام أن من خرج معه يبلغ الفتح.

٣ ـ ومن تخلف عنه يفوته الفتح الأكبر الذي يبقى أثره قائماً في تاريخ الإسلام إلى ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

وفي يوم عاشوراء يعلن الحسين عليه السلام لمعسكر بني أمية في الأبيات التي يلقيها عليهم من موقع القتال، مرتجلاً، مرتجزاً، أن هزيمته ومصرعه ومصرع أنصاره في هذه المعركة لن يكون إلا هزيمة عسكرية، وهي ما لا قيمة لـه في حساب الحسين عليه السلام، وله تأثير وقتي وموضعي محدود، يعبر عنه الإمام عليه السلام بهذا التعبير الجميل: (منايانا ودولة آخرينا).

فلا يزيد هذا الفتح العسكري في جانب بني أمية ومصرع الحسين عليه السلام وأنصاره على أن يكون قضاءً وقدراً من الله تعالى في حلول منايا أنصار الحسين عليه السلام، وتمادي دولة بني أمية (منايانا ودولة آخرينا) وهو ليس بذي شأن قطعاً في حساب الله، ولا في حساب التاريخ.

الحسين عليه السلام هو الفاتح في يوم عاشوراء:

ويقرر لهم بصراحة في ذلك اليوم الصعب: أن هذه الهزيمة العسكرية لا تعني الهزيمة له ولأنصاره إطلاقا.

فـان نـهـزم فـهـزامـون قـدمـاً وان نـهـزم فـغـيـر مـهـزمـيـنـا

وبعد مأساة الطف ـ في الشام ـ عندما دخل أهل بيت الحسين عليه السلام الشام، عاصمة حكم الطاغية، أسرى بتلك الصورة المشجية يسأل رجل الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وهو في رأينا غير شامت، ولكنه متوجّع: من الغالب يا بن رسول الله؟ فقال لـه علي بن الحسين عليه السلام: إذا أذّن المؤذن تعرف من الغالب... وبهذا التعبير الوجيز يذّكر الإمام زين العابدين عليه السلام السائل المتوجع من حادث الطف... إنّ هذه المأساة تتحول إلى فتح كبير، يحفظ الإسلام، ويحفظ التوحيد والتكبير والتهليل والصلاة والأذان، ويلغي شريعة بني أمية، فلا يكون لبني أمية موقع شرعي في الإسلام، ولا يكون لانحرافهم وإسرافهم وإفسادهم تأثير كبير على الإسلام، وإنما تبقى دولة بني أمية دولة طائشة في عداد الدول الطائشة في التاريخ، وهي كثيرة ولا يكون لها دور منذ اليوم في تخريب الإسلام بسبب ثورة الحسين عليه السلام.

إذن، رغم ما شاهده أهل البيت عليهم السلام من مأساة الطف الموجعة المفجعة لم يتغير رأيهم

في نتيجة هذه المأساة قط، وبقوا يعتقدون ويؤمنون: أن الفتح كان في جانب الحسين عليه السلام في هذه الملحمة، وأن الهزيمة كانت في جانب بني أمية.

تداول الأيام بين حزب الله وحزب الشيطان:

وفي البيت الثاني يقول الإمام عليه السلام:

وما أن شابنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا

إن الهزيمة العسكرية التي تصيبنا في كربلاء والانتصار العسكري الذي ناله أعداؤنا في هذه المعركة... لا يكون دليلاً على جبن منا ولا على شجاعة منهم... فقد ينتكس الشجاع في معركة عسكرية، ويغلب الجبان فيها... فإن المعركة العسكرية لها موازينها الخاصة بها، والانتصار والهزيمة فيها لا تدل على شجاعة ولا على جبن.

إن النصر والهزيمة في المعركة العسكرية تأتي ضمن سنن إلهية، فقد ينتصر دعاة الحق، وينهزم دعاة الباطل كما حصل في بدر، وقد ينعكس الأمر فينتصر دعاة الباطل وينتكس دعاة الحق كما حصل في (أُحد).

إلا أن الأساس الثابت الذي لا يتغير في هذه المعارك التي يتردد فيها النصر والهزيمة بين الجبهتين المتقاتلتين: إن العاقبة للمتقين، من خلال هذا الخط البياني المتعرج بين النصر والهزيمة. والمؤمنون المتقون هم الأعلون، والكافرون والمشركون هم المندحرون في هذه المعركة، في العاقبة.

إن تداول الأيام للغلبة والنصر والهزيمة في هذا الصراع لا يغير من هذه السنّة الإلهية الثابتة شيئاً (ما دام الصراع بين الإيمان والشرك، وبين الجاهلية والإسلام).

إن استعلاء الإيمان وسقوط الكفر من حتميات التاريخ الثابتة التي لا تتغير. ما ثبت أهل الإيمان على إيمانهم ومتطلباته في ساحة المعركة... وأما النصر والهزيمة والصعود والنزول الذي يتخلل هذه المعركة فهو من (تداول الأيام) الذي لابدّ منه في هذا الصراع، ولا يغير من عاقبة المعركة شيئاً.

ولولا تداول الأيام لحملة التوحيد بين النصر والهزيمة العسكرية لدخل العجب والزهو والغرور نفوس المؤمنين، وأفسد عليهم نفوسهم، ونفذ المنافقون وضعاف الإيمان إلى صفوفهم، ولم يكن بإمكانهم فرز المؤمنين عن المنافقين، ولا معرفة أقوياء الإيمان من ضعفائهم... إن هذه الانتكاسات والهزائم التي تتخلل هذا الصراع الطويل، تحصّن المؤمنين من

العجب والغرور والزهو والبطر، وتمحصّهم وتهذب نفوسهم، وتبقيهم في حالة النفر والتأهّب الدائم، وتنّقي صفوفهم من المنافقين وضعفاء الإيمان، كما تنّقي نفوسهم من الزهو والغرور، وتبقى علاقتهم بالله، وثقتهم بالله، وتوكلهم على الله في ساحة المعركة... ولو كان النصر يتوالى عليهم مرة بعد أخرى لدخلهم الغرور والعجب والبطر، وأفسد عليهم ثقتهم بالله وتوكلهم على الله وإخلاصهم لله في المعركة.

ولأمر ما يصيب الله تعالى عباده المؤمنين بالانتكاسة في الصراع الطويل بينهم وبين خصومهم، مرة بعد أخرى، وكان الله تعالى قادراً على أن ينقلهم من نصر إلى نصر، ولكن الله تعالى يعلم أن مرارة هذه الانتكاسات أفضل لهم من نشوة الانتصارات التي تتوالى عليهم، فلا يتابع لهم الهزيمة بعد الهزيمة كي لا يغلبهم الشيطان، فيدخل اليأس في نفوسهم، ولا يوالي عليهم الانتصار كي لا يبطروا، ويدخل الشيطان عليهم نشوة النصر وما يستتبعه من الغرور والبطر والزهو الباطل.

إن هذه القروح التي تصيب المؤمنين في المعركة تنفعهم أولاً، ولا تغير من السُنّة الإلهية الثابتة باستعلاء المؤمنين وسقوط الكافرين ثانياً.

وتبقى هذه السنّة تحكم التاريخ، مهما كانت الظروف التي تمّر على المؤمنين في هذا الصراع، صعبة وقاسية، بل إن قسوة ظروف الابتلاء في هذه المعركة تُعدّهم لمواصلة هذه المعركة إلى أن يأذن الله تعالى لهم بالنصر الأكيد ولخصومهم بالاندحار والسقوط.

ومن خلال هذه القروح والانتكاسات والابتلاءات يتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء وقيمين وأئمة على مسيرة الحضارة الإنسانية في التاريخ.

إذن ليس فيما يصيب المؤمنين في هذا الصراع من القتل والهزيمة والابتلاءات الصعبة القاسية دلالة على جبن أو ضعف أو انهيار، ما بقوا مؤمنين، وإنما هي من سنن الله تعالى في تداول الأيام الغلبة والهزيمة بين حملة التوحيد ودعاة الشرك، وهي تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين، وإلى هذه المعاني الرفيعة يشير الإمام الحسين عليه السلام في هذا البيت من الشعر الذي أنشده يوم عاشوراء على جند بني أمية في ساحة الطف.

وما إن شابنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

إن ما أصابنا من قتل وجرح وقرح وهو ما كتبه الله تعالى لنا ـ في هذا الصراع ـ من المنايا، وما كتبه الله تعالى لأعدائنا من الغلبة والسلطة، ليكون ذلك تمحيصاً لنا ولأوليائنا وأتباعنا، ومحقاً لسلطان بني أمية، وابتلاءاً لنا، واستدراجاً وإملاءً لخصومنا.

والإمام عليه السلام يستقي هذه المعاني الرفيعة التي تضمنها هذا البيت من الآيات المباركات من سورة آل عمران التي نزلت بعد معركة (أُحُد)، وهي آيات عجيبة تحول الهزيمة العسكرية في ساحة المعركة إلى شعور قوي بالاستعلاء والنصر في نفوس المؤمنين، فلنقرأ هذه الآيات من آل عمران، ولنتوقف عندها بعض الوقت:

تداول الأيام في آيات آل عمران:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

ثمانية دروس في آية آل عمران:

إنها آيات عجيبة تستوقف الإنسان، وتبعث على كثير من التأمل والتفكير، وفيها دروس عميقة في الثقافة القيادية والإدارية.

وأول شيء نلاحظه في هذه الآيات هو هذا الاستعلاء على الضعف والوهن والحزن، والدعوة إلى تجاوز حالة الخوف والإحساس بالضعف، وتعميق الشعور باستعلاء المسلمين على الكافرين ما كانوا مؤمنين بالله، قد شدوا حبلهم بحبل الله، واستمدوا حولهم وقوتهم من الله، واطمأنت قلوبهم بالله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ذلك التخلص عن الوهن والخوف والحزن، وهذا الاستعلاء على الكافرين من حقائق الإيمان، يعرفها المؤمنون جيداً، وليس وهما، ولا من الإلقاءات والإيحاءات الوهمية.

وهذا هو **الدرس الأول** في آيات آل عمران ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

والدرس الثاني الاستخفاف بالقروح التي تصيبهم في المعركة، فإن هذه القروح تصيبهم

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٢.

وتصيب أعداءهم على حد سواء، والذي يدخل المعركة يجب أن يوطّن نفسه لمثلها. والتعبير بـ (المس)، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يوحي بالاستهانة بما يصيبهم من القروح، وسرعان ما تزول وتندمل، ويعقبه الثواب والرضوان من عند الله، وهي بعد من متطلبات كل معركة، ومن أي مدخل يدخل الإنسان المعركة، من مداخل الحق أو من مداخل الباطل .﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

وهذا هو الدرس الثاني في آيات آل عمران.

والدرس الثالث أعظم هذه الدروس جميعاً، وأعظم مما قرأناه سابقاً. إن هذا الدرس يعطينا رؤية كونية تاريخية شاملة لمسألة الانتصار والهزيمة والانتكاسة والنجاح.

إن الرؤية الموضعية القريبة، للهزيمة والنكسة تصيب الإنسان بالوهن والحزن والخوف.

وأما الرؤية الكونية البعيدة من خلال سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع فتمنح الإنسان ثقة وقدرة على مواجهة التحديات وتجاوزها والاطمئنان بالعاقبة البعيدة أو القريبة من خلال سنن الله.

إن الذي يقتطع حدث الانتكاسة من أسبابها وعواقبها وموضعها في التاريخ يصيبه الوهن والضعف والحزن.

وأما الذي يضع (الانتكاسة) في موضعها من التاريخ ومن تداول الأيام، وضمن سنن الله تعالى، فلا يصيبه شيء من ذلك الوهن والحزن والخوف، ويخرج من المحنة والانتكاسة مطمئناً بالله واثقاً بنصر الله، عاملا لإنجاز ما يريده الله تعالى من المؤمنين لتحقيق النصر، واثقاً بوعد الله تعالى لهم بالنصر .﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وليس من الصحيح أن يقتطع الإنسان المسلم يوم النكسة من مدار التاريخ.

والدرس الرابع هو دور هذه الانتكاسات في تصفية صفوف المسلمين من العناصر المسلمة الضعيفة والمنافقة التي تدخل في الجماعة المسلمة أيام الرفاه والعافية وتتميز عنهم أيام البأساء والضراء.

وهذا هو التمحيص الأفقي داخل المجتمع وهو قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

والدرس الخامس أن أمثال هذه الانتكاسات تبني الجماعة المؤمنة بناءً قوياً، وتجعل منهم أئمة، وسادة، وشهداء، وقيّمين على وجه الأرض... ولو كانت أيامهم كلّها تعمّها نشوة

الفتوح والانتصارات، وأيام عافية ورخاء لم يتمكنوا أن يحلوا في مواقع القيمومة والشهادة والإمامة على وجه الأرض.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

إن الله تعالى إنما يتخذ منهم شهداء في مثل هذه الانتكاسات والأيام والظروف الصعبة. ليجعل منهم أمّة صعبة ومقاومة، شاهدة وراشدة وقيّمة على مسيرة التاريخ والحضارات.

والدرس السادس هو دورة التمحيص العمودي التي تدخلها هذه الأمة في مثل هذه الانتكاسات.

وهو غير دورة التمحيص الأفقي التي تحدثنا عنها.

فكما أن في المجتمع قوي وضعيف وصالح وطالح ومؤمن ومنافق... وهذه الانتكاسات تفرز المؤمن عن المنافق والأقوياء عن الضعفاء... كذلك في نفوس المؤمنين نقاط قوة وضعف، يقين، وريب، ثقة وشك، نزوع إلى التحدي والمواجهة وإيثار للعافية، حلم وغضب، عفو وانتقام.

ومثل هذه الانتكاسات تؤدي دوراً مؤثراً في تهذيب نفوس المؤمنين وعلاج نقاط الضعف، والريب، والهلع، والجزع، والخوف، والجبن، والحرص، والحسد في نفوسهم، وتعمّق حالات اليقين، والثقة، والإيمان، والعزم، والحزم، والحسم في نفوسهم... وهذا هو التمحيص العمودي داخل النفوس وهو لا يكون إلّا في أيام البأساء والضرّاء وهو قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو غير التمحيص الافقي الذي تحدثنا عنه.

والدرس السابع هو إن هذه الانتكاسات تصيب المؤمنين والكافرين على نحو سواء في (تداول الأيام)، ولا يمكن لأمة أن تسلم منها، مهما كانت مؤمنة أم كافرة، ولكن بفارق نوعي كبير في العاقبة.

فإن هذه الانتكاسات للمؤمنين تمحيص وتهذيب وتشذيب في عرض الأمة العريض وهو (التمحيص الأفقي)، وتمحيص في عمق شخصية المؤمنين (التمحيص العمودي). ولكنها للكافرين محق وهلاك.

وشتان بين هذه العاقبة وتلك.

إن مخاض الولادة صعب، ونزع الموت صعب، ولكن شتان بين الصعبين.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

للمؤمنين ولادة جديدة وبعث جديد، وللكافرين محق وسقوط.

و**الدرس الثامن** أن أمثال هذه الانتكاسات هي السبيل إلى دخول الجنة، ولا يحسبنّ أحدٌ أن السبيل إلى الجنة سهل يسير.

فلن يدخل الجنة إلّا المجاهدين الصابرين الذين يعرف عنهم الله تعالى الصدق في الجهاد والصبر في المواقف... ولن يكون ذلك إلّا في مثل هذه الانتكاسات .﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

إن أمة تتلقى الانتكاسات والهزائم في التاريخ في مثل هذا الإطار الثقافي الرفيع حَريّة أن لا يصيبها الوهن والحزن والخوف في مسيرتها التاريخية في نشر دعوة الله وتقرير دين الله على وجه الأرض وتعبيد الناس لله تعالى وتحكيم شريعة الله على وجه الأرض.

٣ ـ الفاصل الكبير بين المعسكرين

إذا كان المقاتلون في معسكر بني أمية يقاتلون ابتغاء الجائزة والذهب والفضة، ويخاطب (سنان) عبيد الله بن زياد، بعد وقعة الطف بهذا الخطاب الوقح الصلف:

امــلأ ركــابــي فــضــة أو ذهــبــا ... أنـا قـتـلـت الـمـلـك الـمـحـجـبـا[(١)]

فإن أنصار الحسين عليه السلام يقاتلون ويقتلون رجاء رحمة الله، وليس ابتغاء شيء من متاع الدنيا... وهذا فاصل كبير وشاسع بين المعسكرين. أحدهما يعمل ابتغاء الذهب والفضة، والآخر ابتغاء رحمة الله وفضله. ورجز أنصار الحسين عليه السلام يحفل بالكثير من هذا الشعر الهادف الذي يتضمن الإخلاص لله والعمل لوجهه الكريم وابتغاء مرضاته، والاستهانة بكل شيء آخر دون ذلك.

رحم الله (جون) بارز القوم وهو يقول:

كـيـف يـرى الـفـجّـار ضـرب الأسـود ... بـالـمـشـرفـي الـقـاطـع الـمـهـنـد

بـالـسـيـف صـلـتـا عـن بـنـي مـحـمـد ... أذب عـنـهـم بـالـلـسـان والـيـد

أرجـو بـذاك الـفـوز عـنـد الـمـورد ... مـن الإلـه الـواحـد الـمـوحّـد

---

(١) ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من طبقات ابن سعد: ١٨٤، تاريخ الطبري ٥: ٤٥٤، الفتوح لابن أعثم ٥: ١٣٨، مقاتل الطالبيين: ٨٠، امالي الصدوق: ٢٢٧ـ ٢٣٩، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٧: ١٥٦.

إذ لا شفيع عنده كأحمد[١]

ويقول عبد الرحمن بن عبد الله الارحبي، وهو يرتجز يوم عاشوراء بين يدي الحسين عليه السلام في ساحة القتال الصعب، ويقول:

أنا ابن عبد الله من آل يزن   ديني على دين حسين وحسن
أضربكم ضرب فتى من اليمن   أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[٢]

ويقول آخر من أنصار الحسين عليه السلام في ساحة القتال، وهو مالك بن دودان:

إليكم من مالك الضرغام   ضرب فتى يحمي عن الكرام
يرجو ثواب الله ذو الإنعام[٣]

إن الفاصل المكاني الذي يفصل بين المعسكرين قليل فقد كانت تجمعها ساحة واحدة صغيرة... ولكن الفاصل المعنوي بينهما عظيم.

أحدهما، همه الدنيا ومتاعها، وجائزة الأمير والذهب والفضة، ولا يتجاوز همه هذه الدنيا ومتاعها، والآخر همه مرضاة الله، لا يطلب من هذه الدنيا شيئاً. قد عزف عنها عزوفاً كاملاً، ورغب فيما عند الله تعالى مما لا ينفذ، من رحمته يرجو رحمة الله ويطلب مرضاته، ويبيع نفسه لله تعالى.

وهذه المقارنة بين المعسكرين يذكرنا بالمقارنة التي يذكرها أنصار الحسين عليه السلام في أرجازهم بين القيادتين: القيادة العلوية والقيادة الأموية، وما بين هاتين القيادتين من بعد شاسع في المفاهيم، والقيم، والأخلاق، والغايات، والانتماء... فهؤلاء آل علي، ينتمون إلى الله ورسوله وأعداءهم إلى حزب الشيطان، وهذا الاختلاف بين القيادتين تتطلب، لا محالة، اختلافاً بين المعسكرين.

ولنستمع إلى أنس بن حارث الكاهلي رحمه الله، من أنصار الحسين عليه السلام، يرتجز يوم

---

(١) مقتل أبي مخنف: ١١١، الفتوح، ابن اعثم ٥: ١٢٢، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٩، مناقب بن شهر أشوب ٤: ١٠٣، أنساب الأشراف ٣: ٤٠٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٦، أعيان الشيعة٤: ٢٩٧.

(٢) الفتوح، ابن أعثم ٥: ١١٩، مقتل الحسين، الخوارزمي ٢: ١٧، ، مناقب ابن شهر أشوب ٤: ١٠٢، أنساب الاشراف ٣: ٤٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٥.

(٣) مقتل أبي مخنف: ١١٦، مناقب بن شهرأشوب ٤: ١٠٤

عاشوراء، بين يدي الإمام، ويعلن عن هذا الفارق الشاسع بين القيادة العلوية والقيادة الأموية في الغايات، والاهتمامات، والقيم، والأخلاق، فيقول:

قد علمت (كاهلها) و(الدودان) و(الخندفيون) و(قيس عيلان)
بأن قومي قصّم الأقران يا قوم كونوا كأسود الجان
آل علي شيعة الرحمن وآل (حرب) شيعة الشيطان[1]

ويرتجز حبيب بن مظاهر رحمه الله في ساحة المعركة، ويذكّرهم بهذا الفاصل الشاسع بين المعسكرين والقيادتين في الكم، والكيف، والأخلاق، والقيم، فيقول:

أنا حبيب وأبي مظهّرُ فارس هيجاء وحرب تسعرُ
أنتم أعدّ عدة وأكثرُ ونحن أعلى حجّة واظهر
وانتم عند الهياج غدّر ونحن أوفى منكم واصبر[2]

وهذه مقارنة دقيقة في الكم، والكيف، وفي القيم، والأخلاق، فهم أكثر عدة، وعددا، وقوة، ومالاً، وأنصار الحسين عليه السلام أعلى منهم وأظهر حجة، يغلبونهم بموازين العدد والعدة، ويغلبهم أنصار الحسين عليه السلام بموازين الحجة والبرهان.

وأولئك قوم غدّر ضعاف عند الهياج، وأنصار الحسين عليه السلام أوفياء لإمامهم، واصبر منهم في تحمل معاناة الحروب ومعاناتها.

وإذا كان أنصار الإمام يتميزون عن معسكر بني أمية بالحجة والبرهان، فهم يتميزون بالعناد واللجاج.

يقول حبيب رحمه الله في رجز آخر له في ساحة المعركة:

اقسم لو كنا لكم أعدادا أو شطركم وليتم أكتادا[3]

---

(١) الفتوح، ابن أعثم ٥: ١٢١، أمالي الصدوق٢٢٤ـ ٢٣٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٨، مناقب ابن شهرأشوب ٤: ١٠٢، مثير الأحزان: ٦٣، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٠و٤٥: ٢٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٦٩، ٢٦٨.

(٢) مقتل أبي مخنف ١٠٣، انساب الأشراف ٣: ٤٠٢، الفتوح، ابن اعثم٥: ١٢٢، مناقب ابن شهر أشوب ٤: ١٠٣، مثير الاحزان٦٢، البداية والنهاية ٨: ١٨٥، بحار الانوار٤٥، ٢٦، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٦٩، ٢٧٠، أعيان الشيعة ٤: ٥٥٥.

(٣) أكتاداً: أي وليتم فرقاً وجموعا من المعركة ورد الأمر الفضيع المنكر (ظ).

يـا شـر قـوم حـسـبـاً وآدا ويـا أشـدّ مـعـشـر عـنـادا[١]

فلو كان عدد أنصار الحسين عليه السلام بعدد جيش بني أمية، أو كانوا يعدون من حيث الكم شطراً يعتد به منهم ومن قوتهم لولى الجيش الأموي فراراً من بأسهم، ثم يصفهم بأنهم شر قوم حسباً وعوناً.

ونجد هذه المقارنة في قطعتين من الشعر للإمام عليه السلام في إحداهما يشير إلى أصله، وأهل بيته، وجده، وأبيه، وأمه، وفيما خصهم الله تعالى به من النور والهدية، وما خص الله تعالى شيعتهم من الكرامة.

وفي الأخرى يشير الإمام عليه السلام إلى بني أمية وأصولهم ومحاربتهم للإسلام وقتالهم لأبيه وأخيه من قبل وحقدهم ونفورهم من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله واليك هاتين القطعتين:

القطعة الأولى: يقول عليه السلام في التعريف بنفسه وأسرته وأصوله:

أنـا ابـن عـلـي الـخـيـر مـن آل هـاشـم كـفـانـي بـهـذا مـفـخـراً حـيـن أفـخـر
وجـدي رسـول الله أكـرم مـن مـضـى ونـحـن سـراج الله فـي الأرض نـزهـر
وفـاطـمـة أمـي ابـنـة الـطـهـر أحـمـد وعـمـي يـدعـى ذو الـجـنـاحـيـن جـعـفـر
وفـيـنـا كـتـاب الله أُنـزل صـادعـاً وفـيـنـا الـهـدى والـوحـي بـالـخـيـر يـذكـر
ونـحـن أمـان الله فـي الـخـلـق كـلـهـم نـسـرّ بـهـذا فـي الأنـام ونـجـهـر
ونـحـن ولاة الـحـوض نـسـقـى مـحـبـنـا بـكـأس رسـول الله مـا لـيـس يـنـكـر
وشـيـعـتـنـا فـي الـنـاس أكـرم شـيـعـة ومـبـغـضـنـا يـوم الـقـيـامـة يـخـسـر[٢]

ويقول في القطعة الثانية في التعريف بأعدائه من معسكر بني أمية أولاً، ثم التعريف بنفسه وجده وأبيه وأمه صلوات الله عليهم:

كـفـر الـقـوم وقـدمـا رغـبـوا عـن ثـواب الله رب الـثـقـلـيـن
قـتـلـوا قـدمـاً عـلـيّـاً وابـنـه حَـسَـنَ الـخـيـر كـريـم الأبـويـن

(١) تاريخ الطبري٥: ٤٣٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٨، بحار الانوار٤٥: ٢٦، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٠، أعيان الشيعة ٤: ٥٥٥. والمعنى: أنكم شر قوم في الحسب وفي المعونة (وآدا بمعنى: أعان).

(٢) مقتل أبي مخنف ١١٨، الفتوح، ابن اعثم ٥: ١٣٤، مقتل الحسين، الخوارزمي ٢: ٣٢، بحار الانوار ٤٥: ٤٩، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩١.

حَنقاً منهم وقالوا: اجمعوا نفتك اليوم جميعاً بالحسين
يا لقوم من أناس رُذّل جمعوا الجمع لأهل الحرمين
ثم ساروا وتواصوا كلّهم باجتياح لرضاء الملحدين
لم يخافوا الله في سفك دمي لعبيد الله نسل الكافرين
وابن سعد قد رماني عنوة بجنود كوكوف الهاطلين
لا لشيء كان منّا قبل ذا غير فخري بضياء الفرقدين
بعلي الخير من بعد النبي والنبي القرشي الوالدين
خيرة الله من الخلق أبي ثم أمي فأنا ابن الخيرتين
فضة قد خلصت من ذهب فأنا الفضة وابن الذهبين
من له جدّ كجدي في الورى؟ أو كشيخي فأنا ابن العلمين
فاطم الزهراء أمي وأبي قاصم الكفر ببدر وحنين
عبد الله غلاما يافعاً وقريش يعبدون الوثنين
يعبدون اللات والعزى معاً وعليّ كان صلى القبلتين
فأبي شمس وأمي قمر فأنا الكوكب وابن القمرين
وله في يوم أحد وقعة شفت الغل بفضّ العسكرين
ثم في الأحزاب والفتح معاً كان فيها حتف أهل الفيلقين
في سبيل الله ماذا صنعت امة السوء معاً بالعترتين
عترة البر النبي المصطفى وعليّ القوم يوم الجحفلين[1]

* * *

إن هذه المقارنة بين الجيشين والقيادتين شيء أساس في فهم طبيعة

هذه المعركة، وما تتضمن من الفرقان الذي لا لبس فيه... فلم يتّبع من اتّبع آل أمية في هذه المعركة وشهر سيفه على الحسين عليه السلام، ولم يتخلف من تخلف عن الحسين عليه السلام لالتباس في أمر هذه المعركة... فقد كان يزيد اشهر من أن يخفى أمر فسقه وظلمه على أحد وكان

(١) مقتل أبي مخنف١٣٤، الفتوح، ابن اعثم٥: ١٣٢، مناقب ابن شهر اشوب٤: ٧٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ٣٣، كشف الغمة ٢: ٢٦، بحار الانوار٤٥: ٤٧، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٠.

الحسين وموقعه من رسول الله ﷺ أوضح من أن يخفى على أحد... فلم يتخلف أحد عن الحسين عليه السلام إلا إيثاراً للعافية، ولم يشهر أحد ممن شهر سيفه على الحسين، إلا حرباً على الله ورسوله ﷺ وأهل بيته.

إن إعلان الفاصل الشاسع بينهما من حيث العروج والسقوط والقيم وأضداد القيم، أمر هام في هذه المعركة.

وهذه النقطة هي السبب في كل هذا التأكيد الذي نجده في ميراث عاشوراء من الخطاب والشعارات في طبيعة المعسكرين المتقاتلين في يوم عاشوراء، والاختلاف الشاسع بينهما، بل التقابل بينهما من حيث القيم والأهداف والأخلاق والتوحيد.

فنرى القاسم بن الحسن المجتبى عليه السلام يرتجز، ويخاطب عصبة القتلة والجلاوزة التي أحاطت بابن رسول الله ﷺ، تريد قتله، فيقول:

يا عصبة جارت على نبيها ... وكدّرت من عيشها ما قد نقى
في كل يوم تقتلون سيداً ... من أهله ظلماً وذبحاً من قفا[1]

ويقول محمد بن عبد الله بن جعفر ابن عمّ الحسين عليه السلام منددا بهذه العصبة الأثيمة وشاكياً إلى الله تعالى ظلمهم وجوره لأهل البيت:

نشكو إلى الله من العدوان ... فعال قوم في الردى عميان
قد تركوا معالم القرآن ... ومحكم التنزيل والتبيان[2]

واظهروا الكفر مع الطغيان

إن قيمة التشهير بالظالمين وتسقيطهم في الإسلام لا تقل عن قيمة تعظيم الصالحين وتوقيرهم وتكريمهم، والبراءة في الإسلام توازي الولاء قيمة، وهما طرفا قضية واحدة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

٤ ـ خيارات الحرب الصعبة

يرتجز علي بن الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذا الرجز القوي الحاسم:

---

(١) مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠٧.

(٢) الفتوح، ابن اعثم٥: ١٢٧، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ٢٦، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠٦، بحار الانوار٤٥: ٣٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٧.

الحرب قد بانت لها حقائق وظهرت من بعدها مصادق
والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تُغمد البوارق[(١)]

لقد بادرتم أنتم بإشعال نار الحرب، وأشهرتم علينا سيوفكم من غمادها، فقبلناها ودخلناها.

والآن، وقد اشتعلت الحرب ودخلها أبطال منا، وتساقطت منكم الرؤوس والأيدي والأرجل، وأزهقت منكم الأرواح، وتجلّت لكم منها مصاديق الحرب وحقائقها... فلا سبيل لكم للانسحاب، ولا خيار لكم إلّا أن تغمدوا السيوف (البوارق)، التي أشهرتم بوجهنا ظلماً وعدواناً. تغمدوها هذه المرة، استسلاماً وصغاراً، أو تتساقط منكم الرؤوس والأيدي، وتتقبلوا عارها وخزيها (عار قتال ابن رسول الله ﷺ)، بين يدي الله وفي التاريخ.

إن خيارات الحرب التي أشعلها بنو أمية على الحسين عليه السلام اثنتان وليس أكثر، فأما أن يعلن جيش بني أمية العجز عن مواجهة أنصار الحسين عليه السلام، ويعيدوا السيوف إلى الغماد، ويعلنوا الانسحاب والاستسلام... وهذا هو الخيار الأول، وإن لم يقبل جيش بني امية بهذا الخيار، فليس أمام أنصار الحسين عليه السلام إلّا خيار واحد فقط، وهو مواصلة الكر والقتال، حتى الهزيمة الكاملة لجيش العدو، وتسجيل الخزي والعار عليهم إلى الأبد حيث بادروا بقتال ابن رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الله ورسوله.

وهذا هو معنى إنذار علي بن الحسين عليه السلام يومئذ لجيش بني أمية:

والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تُغمد البوارق

وهذه هي الحقائق والمصاديق التي تجلّت في الحرب لجيوش بني أمية.

ونقرأ نحن اليوم هذا الرجز، ونعجب مما كان ينشده هذا الفتى الهاشمي يومئذ على الأعداء بثقة كاملة ومن دون أي تردد أو تلجلج.

فماذا يقصد علي بن الحسين عليه السلام؟ هل يريد إخافة العدو بسطو أنصار الحسين عليه السلام عليهم، وبأسهم، وشجاعتهم النادرة، فيلقي في قلوبهم الرعب... قد يكون ذلك. فقد يجوز في الحرب من المبالغة في إظهار القوة ما لا يجوز في السلم.

---

(١) الفتوح لابن اعثم ٥: ١٣١، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٣١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٩، بحار الأنوار ٤٥: ٤٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٨٦.

ولكنني أعتقد أنّ علي بن الحسين عليه السلام يريد أمراً آخر غير هذا الوجه، فليس من المقبول أن ينكر علي بن الحسين عليه السلام في رجزه ما لا يشك أحد في ذلك وهو أن هذا اليوم (عاشوراء) يشهد مصرع أبيه الحسين عليه السلام وأنصاره جميعاً... وليس من المعقول أن علي بن الحسين عليه السلام ينفي هذه النقطة في رجزه.

إنني اتصوّر أن علي بن الحسين عليه السلام يقول لتلك العصابة المجرمة من جيش ابن زياد إنكم قدمتم إلى قتال الحسين عليه السلام وأنصاره بوهم كبير... فقد تراءى لكم إنكم سوف تكبلونهم في ساعة أو بعض ساعة، وتأتون بهم إلى ابن زياد أسرى، فيأخذ منهم البيعة للطاغية... فلما واجهتم الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء، تبين لكم أن تلك الأمنية كانت وهماً، وإنكم تواجهون اليوم ابطالاً لا يدعون السيف عن أيديهم، حتى يقتلوا منكم جمعاً كبيراً، وَيُقْتَلوا في ساحة المعركة عن آخرهم، صغيرهم، وكبيرهم. فلن تجدوا السبيل إلى ما تطلبون اطلاقاً.

وأمام جيش ابن زياد خياران لا ثالث لهما، فإما أن يتقبلوا القتال فيَقتلوا، ويُقتلوا، قبل أن تسمعوا منهم البيعة والطاعة... وعندئذ تبوؤن بخسارة الدنيا والآخرة، وبخزي الدنيا والآخرة.

فماذا يتوقع في الدنيا والآخرة ناس خرجوا لقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ليرغموه على البيعة والطاعة للطاغية ابن الطاغية، يزيد بن معاوية؟

والخيار الآخر، وهو اقرب إليكم وأيسر، وآمن لدينكم ودنياكم أن تغمدوا السيوف وتنسحبوا من القتال راضخين مستسلمين لبأس أنصار الحسين عليه السلام، وقوتهم، وصمودهم في ساحة القتال.

وهذا الخيار أولى لكم، لدينكم ودنياكم، إن كنتم احراراً في دينكم ودنياكم، إن لم يستعبدكم الطاغية.

٥ ـ أولو الأيدي والأبصار:

في يوم عاشوراء نلتقي ظاهرة نادرة في المعارك والوقائع، وهي خليط من الشجاعة والبصيرة وهذا الخليط ذو قيمة كبيرة جداً في نتائج المعركة. وبين البصيرة والشجاعة علاقة قويّة فأن البصيرة تأتي بالشجاعة، والمقاتل الذي يمتلك بصيرة في القضية التي يقاتل من أجلها يزداد قوة وشجاعة وكفاءة في القتال.

ونحن نجد في أنصار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء هذا المزيج من البصيرة والشجاعة،

بينما نجد أن المقاتلين في الجهة المقابلة يقاتلون من غير قضية ولا بصيرة... وفقدان القضية والبصيرة ينعكس سلّبياً على كفاءاتهم وقدراتهم القتالية وشجاعتهم وبسالتهم في ساحات القتال.

ونعجب ممّا ينقل أرباب السير عن الشهود الذين شهدوا المعركة كيف كان المقاتلون من جيش ابن زياد ينهزمون من أمام أنصار الحسين عليه السلام حتى كانت الخيل تقتلهم تحت حوافرها، في تزاحم الهزيمة، والتدافع للفرار، من أمام صولات أنصار الحسين عليه السلام. وهذه النقطة تفسّر لنا كثرة القتلى في صفوف جيش ابن زياد.

فلما أثخنوا جيش ابن زياد بالقتل والجرح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تصايح رجال عمر بن سعد، وقالوا لو استمرت الحرب برازاً بيننا وبينهم لأفنونا إلى آخرنا... فأمر قائدهم أن يرشقوهم بالحجار والنبال، فأحاطوا بهم وضيّقوا عليهم، وقتلوهم بالنبال والأحجار، حتى قتلوا أكثر أنصار الحسين عليه السلام بهذا النحو.

يقول الطبري في التاريخ:

لما أكثر أصحاب الحسين عليه السلام القتل في أهل الكوفة فزع أهل الكوفة من بأس أصحاب الحسين عليه السلام وسطوتهم... فصاح عمرو بن الحجاج بأصحابه: أتدرون من تقاتلون، تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم إلّا قتلوه على قلّتهم. والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت. أرسل في الناس من يعزم عليهم ألّا يبارزهم رجل منهم ولو خرجتم إليهم وحداناً لأتوا عليكم[1].

وكانت العرب تترفع عن هذا النحو من القتال، وتعتبره جبناً وفراراً من المواجهة ولجوءً إلى أساليب الضعاف والمهزومين. غير أنهم لم تكن لهم حيلة في هذه المواجهة غير هذا الأسلوب من القتال.

فلما برز الإمام عليه السلام إليهم بالقتال طلب منهم البراز لم يبرز أحد إليه بالقتال حتى قتله، فأحجموا عن مبارزته فشدّ عليهم، بالهجوم فانهزموا من أمامه.. وهو رابط الجأش، يقاتل ببسالة وشجاعة وثقة كبيرة.

يقول حميد بن مسلم، وهو راوية الطف: (ما رأيت مكثوراً[2] قط، قد قتل ولده وأهل

---

(١) تاريخ الطبري: ٦: ٢٥٥.

(٢) المكثور: الذي كثر عليه الناس في القتال.

بيته وأصحابه اربط جأشاً ولا أمضى جناناً منه، إن كانت الرجّالة لتشدّ عليه، فيشدّ عليها بسيفه، فتنكشف عن شماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الأسد).

فلما عجز عن مواجهته أمرهم الشمر (لعنه الله) أن يرشقوه بالنبال والحجارة، فرموه بالنبال حتى صار جسمه سلام الله عليه كالقنفذ.

وليست الكفاءات القتالية والقوة الجسدية في أنصار الحسين عليه السلام هو كل شيء في هذا التفوق الحربي البارز على جند ابن زياد يوم عاشوراء، فقد كان في جند ابن زياد أبطال وقادة عسكريون معروفون بالبسالة والشجاعة... وإنما يعود السبب الأكبر في هذا التفوق القتالي إلى البصيرة التي كان يمتلكها أنصار الحسين عليه السلام في هذه المعركة، وفي الجهة المقابلة فقدان البصيرة والقضية في جيش ابن زياد... وهذه البصيرة كانت تمنحهم جرأة وشجاعة وقوّة، وتزيد في كفاءاتهم القتالية، بينما كان فقدان القضية والبصيرة في الجهة المقابلة من أهم عوامل ضعفهم عن مبارزة أنصار الحسين عليه السلام يومئذ.

عابت زوجة كعب بن جابر عليه، فقالت: أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القرّاء (برير). لقد أتيت أمراً عظيماً من الأمر، والله لا أكلمك كلمة واحدة، فقال يخاطبها:

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ... ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ... ألا كُلّ من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطعن حسرة ... وقد نازلوا لو أن ذلك نافع[1]

لقد كانت المرأة العجوزة تأخذ بيدها عمود الخيمة، فتبرز لقتال العدو، فتقتل منهم اثنين أو ثلاث، فيسترجعها الإمام عليه السلام ويترحّم عليها، ويطلب منها أن ترجع إلى النساء، ويقتل القاسم بن الحسن عليه السلام وهو في عمر المراهقة لا يزيد عليها، رجالاً أشداء من القوم، ويكرّ عليهم فينهزمون من أمامه، وينحني في ساحة المعركة ـ وهو بين رجال مقاتلين أشدّاء ـ ليصلح شسع نعل له، انفلت من النعل، غير هيّاب بمن يواجه من الرجال الأشداء، فيكمن له أحدهم ويضربه بسيفه، فيرديه الأرض... وكذلك سائر أنصار الحسين عليه السلام شبابا وشيوخا ومراهقين، ولسنا نعرف تفسيراً واضحاً لكل هذه البسالة، والقوة، والكفاءة القتالية العالية، والتفوق القتالي البارز غير البصيرة التي كان يتمتع بها أنصار الحسين عليه السلام، وكان يفقدها جند ابن زياد.

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٧.

وقد ذكر أرباب السير عمن شهد المعركة يومئذ أن جند ابن زياد لم يكونوا يقتلون أحدا من أنصار الحسين عليه السلام حتى يقتل منهم العشرة أو العشرين أو الأكثر...

وكلما تزاحمت عليهم المصائب ليلة عاشوراء ويومه كان يزداد وجوههم إشراقا وابتهاجا، وكان بعضهم يمازح بعض في تلك الليلة الصعبة، وهم في حصار كامل من ناحية العدو، ولا أمل لهم مطلقاً في الخلاص من هذا الحصار.

لقد كانوا على بيّنة كاملة من أمرهم، ولم يخالجهم شك قط أن مصيرهم إلى الجنة، ومصير أعدائهم إلى النار، وأنهم على هدى وأن أعداءهم على ضلال، وأنهم سائرون إلى الله، وعدوهم إلى الشيطان.

وهذه البصيرة الكاملة والشجاعة النادرة التي تستتبعها هي سّر قوتهم وبأسهم في ساحة القتال وسّر الرعب الذي كان يدخل قلوب المقاتلين من رجال ابن زياد، فيحجمون عن قتالهم.

ولقد استغرب بعضهم عن هذا التخاذل والفرار من أمام أنصار الحسين عليه السلام، وهم قلة قليلة وأعداؤهم كثيرون.

(قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟!.

فقال: عضضت بالجندل، إنّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها، كالأسود الضارية تحطّم الفرسان يميناً وشمالا، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيّة، أو الاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فما كنا فاعلين لا أم لك)؟![1].

وتبرز هذه الشجاعة والبصيرة في ساحة القتال فيما أثر عنهم من الرجز الذي كانوا يلقونه في ساحة القتال على أعدائهم، فتنعكس هذه الشجاعة النادرة والبصيرة الشفافة في الرجز والشعارات التي كانوا يرفعونها في ساحة القتال، فيرهبهم أعداؤهم، ويدخلهم الرعب منهم.

والمقاتل الجيد هو الذي يرهب عدوه قبل أن ينازله... ولا زال للإعلام العسكري دور كبير في تصعيد معنويات المقاتلين... وإذا كان للإعلام العسكري هذا الدور الكبير في تصعيد

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٣: ٢٦٣.

قدرات وكفاءات ومعنويات المقاتلين، فان الإحساس بالضعف والعجز والهزيمة النفسية من سطوة العدو له دور كبير في إحباط معنويات المقاتلين وإحباط كفاءاتهم وقدراتهم القتالية.

وفي الرجز الذي يلقيه أنصار الحسين عليه السلام في كربلاء نجد هذا العنوان واحداً من أبرز العناوين التي تغطي مساحة كبيرة من هذه الشعارات.

يقول برير رحمه الله:

أنا برير وأبي خضير ... ليث يروع الأسد عند الزئير[1]

ويقول بشر بن عبد الله رحمه الله:

قد علم القوم إذا تواكلوا ... وأحجم الفرسان أو تناضلوا
إني شجاع بطل مقاتل ... كأنني ليث عرين باسلُ[2]

ويقول أنيس بن معقل الأصبحي رحمه الله:

أنا أنيس وأنا ابن معقل ... وفي يميني نصل سيف مُصقل[3]
أعلو به الهامات وسط القسطل ... حتى أزيل خطبه فينجلي

ويقول جون رحمه الله غلام أبي ذر:

كيف يرى الفجار ضرب الأسود ... بالمشرفي القاطع المهند[4]

ويقول الغلام التركي الذي ورد اسمه في بعض المصادر بإسم (اسلم) رحمه الله:

البحر من طعني وضربي يصطلي ... والجو من نبلي وسهمي يمتلي
إذا حسامي في يميني ينجلي ... يشق قلب الحاسد المبُجّل[5]

---

(١) الفتوح لابن اعثم ٥: ١١٥، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٥: ١٥، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٦٩، ٢٥٩، أعيان الشيعة ٣: ٥٦٢.

(٢) الفتوح لابن اعثم ٥: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٧، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٣٨.

(٣) الفتوح لابن اعثم ٥: ١٢٣، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١٩، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٣، أعيان الشيعة ٣: ٥٠٧.

(٤) مقتل أبي مخنف: ١١١، الفتوح لابن اعثم ٥: ١٢٢، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١٩، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٣، أنساب الأشراف ٣: ٤٠٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٦، أعيان الشيعة ٤: ٢٩٧.

(٥) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٢٤، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٣٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٣.

وهو من أروع ما نعرف من الرجز في التغني بالشجاعة والقوة.

وفي شعر الرجز لأنصار الحسين عليه السلام الكثير من هذا اللون من الشعر.

ثم تمتزج هذه البطولة والشجاعة في رجزهم بالتعريف والإعلان بالبصائر التي رزقهم الله تعالى في هذه المواجهة فيكون الرجز من أجمل وأروع ما نعرف من رجز المقاتلين في ساحة القتال.

يرتجز جون غلام أبي ذر رحمه الله يوم عاشوراء ويعلن للعدو شجاعته النادرة وبصيرته النافذة، فيقول:

كيف يرى الفجار ضرب الأسود	بالمشرفي القاطع المهند
بالسيف صلنا عن بني محمد	أذب عنهم باللسان واليد
أرجو بذاك الفوز عند المورد	من الإله الواحد الموحد

شجاعة نادرة ورجاء وثيق بالفوز عند الله.

ويضرب الفتى اليمني عبد الرحمن بن عبد الله الأرحبي رحمه الله العدو بسيفه، وهو يرجو بثقة واطمئنان الفوز، عند الله بالجنة:

أنا ابن عبد الله من آل يزن	ديني على دين حسين وحسن
أضربكم ضرب فتى من اليمن	أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[1]

وهذا المزيج من الشجاعة والبصيرة هو الذي يحدثنا عنه القرآن في وصف إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2].

أي اولوا القوة والبصيرة. والله تعالى يحب اجتماع القوة والبصيرة في عباده. وكما تجتمع البصيرة مع القوة والشجاعة في أنصار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، كذلك تجتمع البصيرة مع الصبر والصمود فيهم في هذا اليوم. وسوف نتحدث عنه إن شاء الله فيما بعد.

٦ ـ الصبر والبصيرة

هما ضرورتان من أهم ضرورات الصراع... فلا بد في الصراع من الصبر.

ومن لا يصبر أو ينفذ صبره في ساحة الصراع يسقط لا محالة ولا بد مع الصبر من

---

(١) الفتوح لابن اعثم ٥: ١١٩، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١٧، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٢، أنساب الأشراف ٣: ٤٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٥.

بصيرة... وقد كان أنصار الحسين عليه السلام أولي بصيرة وصبر، وكان جند ابن زياد يفقدون هذا وذاك.

وهذا هو سرّ عجزهم عن مبارزة أنصار الحسين عليه السلام، ومحاربتهم لهم عليهم السلام بالرشق بالنبال والأحجار، وهو حيلة العاجز عن القتال.

نعم. لابدّ للمقاتل في ساحة القتال من الصبر والبصيرة.

ولكن أيهما قبل الآخر البصيرة أم الصبر؟

لا شك في أن البصيرة هي مفتاح الصبر، وكلما كان الإنسان أكثر بصيرة كان أعظم صبراً، والإنسان يصبر على ما يعلم ولا يصبر على ما لا يعلم.

ولكن مع ذلك كله فان الصبر يزيد صاحبه بصيرة، وبين الصبر والبصيرة علاقة جدلية، كل منهما يؤدي إلى الآخر، ولهذه الحالة التبادلية بين خصال النفس مظاهر كثيرة في نفس الإنسان.

ولقد كان أنصار الحسين يجمعون بين الصبر والبصيرة... وفي الرجز الذي كان يلقيه أنصار الحسين عليه السلام في ساحة القتال... نجد هذا التزاوج بين الصبر والبصيرة بارزاً، يملأ مساحة واسعة من الرجز.

فكان خالد بن عمر (رضوان الله عليه) ينشد في ساحة القتال هذه الأبيات من الشعر:

صبراً على الموت بني قحطان ... كيما تكونوا في رضا الرحمن

ذي المجد والعزة والبرهان ... وذي العلى والطول والإحسان

يا أبتا قد صرت في الجنان ... في قصر ربّ حسن البنيان[1]

يدعو نفسه إلى الصبر، كيما ينال رضا الله تعالى.

ثم يخاطب أباه بما صار إليه، وكأن الله تعالى فتح عن بصيرته في تلك الساعة، فرأى ما حباه الله تعالى من الجنان.

يا أبتا قد صرت في الجنان ... في قصر ربّ حسن البنيان

ويتشوّق سعد بن حنظلة التميمي(من أنصار الحسين عليه السلام) في تلك الساعة إلى الجنة، وإلى ما يرزقه إليه فيها من حور العين، فيدعوا نفسه أن يجتهد في القتال لينالها. فيقول:

(١) الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٨، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦١.

صبراً على الأسياف والأسنة ... صبراً عليها لدخول الجنة
وحور عين ناعمات هنه ... لمن يريد الفوز لا بالظنة
يا نفس للراحة فأجهدنه ... وفي طلاب الخير فارغبنه[(١)]

ويخاطب عمر بن خالد الأزدي رحمه الله نفسه في ساحة القتال ويدعوها إلى الصبر والصمود بوجه الأعداء وألّا يجزع من بريق السيف... فمن لا يجزع اليوم من مواجهة السيوف والأسنة يعيش في رحاب الأمان عند الله غداً.

يقول رحمه الله:

اليوم يا نفس إلى الرحمن ... تمضين بالروح وبالريحان
لا تجزعي فكل حي فان ... والصبر أحظى لك بالأمان[(٢)]

ويرتجز شبل الحسن المجتبى القاسم عليه السلام، ويقول:

لا تجزعي نفسي فكل فاني ... اليوم تلقين ذرى الجنان[(٣)]

ولماذا الجزع؟ وهل يبقى أحد إلى الأبد؟ فإذا كان الإنسان لا محالة يموت فخير الموتِ الموتُ تحت بريق السيوف.

ثم يخاطب نفسه مطمئناً، واثقا بما يعدها (اليوم تلقين ذرى الجنان).

ونجد هذا الصبر والبصيرة فيما كان ينشده الإمام الحسين عليه السلام في ساحة القتال، يخاطب نفسه بان هذا الذي يلقاه هو الموت الذي لا مفر منه لأحد، ولا بد أن يتجرعه كل أحد، وهو أمر الله تعالى وقضاؤه الذي لا راد له عن عباده وأنّ الموت يطال الجميع، ولا أحد ينجو من الموت.

فهو حكم الله تعالى في خلقه لا يسلم منه بر ولا فاجر، وإذا قضى الموت على سروات قومه وأنصاره، فقد أفنى القرون الأولى.

---

(١) الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٢.

(٢) الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٨، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١، انساب الاشراف٣: ٤٠٤، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام) ٢٦١.

(٣) أمالي الصدوق:٢٢٦: ٢٣٩، بحار الانوار٤٤: ٣٢١، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧١.

فلا يشمت الشامتون بموتهم، فسوف يلقون من الموت ما يكرهون، وهم خاسرون:

إذا ما الموت رفّع عن أُناس كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الاولينا
فلو خلد الملوك، إذن خلدنا ولو يبقى الكرام إذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

فإذا أبصر الإنسان هذه الحقائق، وعلم أنه لا رادّ لقضاء الله، صبر لأمر الله وقضائه، وتقبله أحسن قبول بالصبر والاطمئنان إلى أمر الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول مسلم بن عقيل عليه السلام:

فأنت لكأس الموت لا شك جارع هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع
فصبراً لأمر الله جلّ جلالُه فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

ونقرأ في الزيارة المعروفة بـ (بأمين الله):

(اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك).

إن الاطمئنان بقضاء الله وقدره عند نزول البلاء وحلول المصيبة يرتبط بشكل مباشر بما يملك الإنسان من البصيرة، فكلّما كان حظّه من البصيرة أعظم كان صبره واطمئنانه بقضاء الله تعالى وقدره أعظم.

٧ ـ السيف الأداة المفضلة للإثبات

رحم الله أحمد بن محمد الهاشمي من أنصار الحسين عليه السلام كان يرتجز يوم عاشوراء بين يدي الحسين عليه السلام ويقول:

اليوم أبلو حسبي وديني بصارم تحمله يميني
أحمي به يوم الوغى عن ديني[2]

السيف رمز القوة ورمز الحرب والمعارك الدامية و(أبلو حسبي وديني) أي اختبر صدق

---

(١) مثير الأحزان: ٥٥ والملهوف: ١٥٧ مقتل الحسين للخوارزمي: ٢: ٧ بحار الأنوار: ٤٥: ٩ العوالم: (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٥٣.

(٢) مقتل أبي مخنف: ١١٧، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٥، أعيان الشيعة ٣: ١٥٧.

شرف حسبي وقوة ديني بالسيف... ويمكن أن يكون المقصود من (أبلو) الإثبات، أي اثبت شرف حسبي وصدق ديني بالسيف.

وفي حياة الناس الادعاء كثير، والإثبات قليل. وما أكثر ما يدعي الناس الاحساب، والقيم، والثبات، والقوة، والمواقع، وقليل منهم من يستطيع أن يثبت ما يدعيه، حين يجدّ الجدّ.

ومن أفضل وسائل الإثبات (السيف).

السيف أصدق أنباءً من الكتب — في حدّه الحد بين الجدّ واللعب

كما أن السيف أقوى وسيلة للدفاع. ولا يحمي الإنسان دينه وتراثه وأصوله وعروقه وقيمه وأمته بأفضل من السيف.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[(١)].

ويرتجز أبو الفضل العباس عليه السلام يوم عاشوراء في ساحة القتال ويقول في هذا السياق، بعد أن قطع الأعداء يمينه:

والله إن قطعتم يميني — إنّي أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين — سبط النبي الطاهر الأمين[(٢)]

وناهيك من موقف وشعار، يعلنه أبو الفضل العباس عليه السلام وقد قطع العدو يمينه، والدم ينزف من يده نزيفاً، وهو يعلن ولاءه لأخيه، ودفاعه عن الدين بالسيف والدم.

٨ ـ تحدي الموت

الموت حتمية من الحتميات الكونية في حياة الإنسان، شاء الإنسان أو لم يشأ. ومن مواضع قهر الله لعباده، تتجلى فيه صفة القهر الإلهي، ولا أحد يرجو أن يفلت من الموت، ولا أحد يحاول أن يسترجع حياة من تعزّ عليه حياته إذا وقع عليه الموت، حتى بالدعاء، لأن الإنسان يعلم إن الموت هو قضاء الله الحتم، الذي لا رادّ له، فإذا وقع القضاء استسلم الناس لمشيئة الله، وعلموا أنه القضاء الحتم الذي يقهر الله تعالى به عباده.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) مقتل أبي مخنف: ٩١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٨٣.

والموت حق لا يرتاب فيه أحد إنه نازل به، ولكن الناس مع ذلك يتغافلون عنه حتى كأنّ الموت يتجاوزهم.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما خلق الله عزّ وجلّ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت**»[1]

ولا يكاد أن يفلت أحد من قبضة الموت.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**انتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وان فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلّكم، الموت معقود بنواصيكم**»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً: «**إذا كنت في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى**»[3].

فكيف إذن نتعامل مع الموت؟

وعلى الإجابة على هذا السؤال تتوقف الإجابة على سؤال آخر وهو كيف نعيش؟

فان لنهج معيشة الإنسان وحياته وكرامته علاقة وثيقة بطريقة تعامله مع الموت، فإذا كان يخاف الموت ويجزع منه، وهو حق لا مفر منه تُذلّه الحياة، وإذا كان يتلقى الموت من غير جزع ولا فزع، ويتقبل هذه الحقيقة الحتمية التي لا مفر لأحد منها، من غير خوف وجزع عاش عزيزاً.

فان الهوى والطاغوت يذلّان من يلتصق بالحياة، ويتهرب من الموت... ولا يتمكنان ممن يتقبل الموت ويوطّن نفسه له، فإذا حلّ به تلقاه من غير رعب ولا فزع.

وعندما نقرأ نحن اليوم الرجز الذي كان ينشده الحسين عليه السلام وأنصاره يوم عاشوراء... نجد تعاملاً متميزاً من قبلهم عليهم السلام تجاه الموت.

فهذا أبو إسحاق إبراهيم بن حصين الأسدي رحمه الله يرتجز فيقول:

اضرب منكم مفصلاً وساقا ليهرق اليوم دمي اهراقا
أو يُرْزَق الموتَ أبو إسحاقا[4]

---

(١) ميزان الحكمة ٩: ٣٩١٠.

(٢) المصدر نفسه ٩: ٣٩١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠٥، أعيان الشيعة٢: ١٣٦.

إنه يتقدم إلى ساحة القتال طالباً للموت:

لـيـهـرق الـيـوم دمـي إهـراقـا أو يـرزق الـمـوت أبـو إسـحـاقـا

والذي يستقبل الموت لا يجزع من شيء، ولا يرعبه شيء.

ونستمع إلى رجز مسلم بن عقيل عليه السلام، وقد أحاط به القوم في الكوفة، فيقول، مستقبلاً للموت صابراً عليه، مؤمناً بقضاء الله وقدره في الموت، إذا حلّ بالإنسان، غير متهيّب وفزع ممن يحيطه من القتلة، فاستمع إليه:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع فأنت لكاس الموت لا شك جارع

فـصـبـراً لأمـر الله جـلّ جـلالـه فحكم قضاء الله في الخلق ذائع[1]

ونستمع إلى يحيى بن سليم المازني رحمه الله يرتجز يوم عاشوراء، مستقبلاً الموت غير متهيب، منه يعلن ذلك للقتلة الذين يحيطون به:

لا ضـربـن الـقـوم ضـربـاً فـيـصـلا ضـربـاً شـديـداً فـي الـعـدى مـعـجّـلا

لا عـاجـزاً فـيـهـا، ولا مـولـولا ولا أخـاف الـيـوم مـوتـاً مـقـبـلا

لكنني كالليث احمي أشبلا[2]

ويعلن أبو الفضل العباس عليه السلام أخ الحسين عليه السلام للعدو في قلب العسكر أنه غير متهيب من الموت، ولا جازع منه، وأنه خرج من المدينة مع الحسين عليه السلام طالباً للموت:

لا أرهـب الـمـوت إذا الـمـوت رقـا حـتـى أوارى فـي الـمـصـاليـت لـقـى

نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا أنـي أنـا الـعـبـاس أغـدو بـالـسـقـا

ولا أخـاف الـشـر يـوم الـمـلـتـقـى[3]

ثم يقسم بالله الأعز الأعظم وبالحجون وبزمزم وبالحطيم وبالمسجد الحرام: أن يواصل اليوم القتال حتى يخضب دمه جسمه، ويلقى الله مخضباً بدمائه على يد شر خلقه، وهو يدعوهم إليه عزّ وجلّ:

---

(١) مناقب ابن شهر أشوب ٤ : ٩٣، بحار الانوار٤٤ : ٣٥٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٠٣.

(٢) الفتوح، ابن اعثم٥ : ١٢٠، مقتل الحسين، الخوارزمي٢ : ١٨، مناقب بن شهراشوب٤ : ١٠٢، بحار الانوار٤٥ : ٢٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٦٧.

(٣) مقتل أبي مخنف:٩٠، مناقب ابن شهر اشوب٤ : ١٠٨، بحار الانوار٤٥ : ٤٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٣٨٣، العباس بن علي، المقرم: ٢٠٩.

أقسمت بالله الأعز الأعظم وبالحجون صادقاً وزمزم
وبالحطيم والفنا المحرم ليُخضبنّ اليوم جسمي بالدم
دون الحسين ذي الفخار الأقدم إمام أهل الفضل والتكرم[١]

ويهوّن على نفسه الموت، ويسترخص قيمة الحياة الدنيا ولذاتها بعد مصرع الحسين عليه السلام ويرفض أن يعيش من بعد الحسين عليه السلام فيتمتع بالدنيا من دونه عليه السلام:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني
هذا الحسين شارب المنون وتشربين بارد المعين
هيهات ما هذا فعال ديني ولا فعال صادق اليقين[٢]

٩ - ثلاثية (الموت والعار والنار)

ينشد الإمام الحسين عليه السلام بيتاً من الرجز في يوم عاشوراء، يستوقف الإنسان عنده طويلاً ويحتاج إلى تأمل وتفكير ليدرك مغزى هذا الرجز الحسيني وهو:

الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النار[٣]

في هذا البيت يشير الإمام عليه السلام إلى الخيارات التي تتفق للإنسان في مفارق الحياة الصعبة من (الموت) و(العار) و(النار).

وهذه الخيارات تصادف الناس كثيراً، فيجب على الإنسان أن يحافظ على الأولويات في هذه الخيارات.

والإمام عليه السلام يحدد منهج الأولوية في هذه الخيارات بهذا الشكل الواضح، إذا كان خيارات الإنسان بين الموت والذل فلا يتردد من اختيار الموت على الذل. (الموت أولى من ركوب العار)

وقد روي في هذا المعنى عن الإمام علي عليه السلام: **(إن المنيّة قبل الدنية)**[٤].

---

(١) مقتل أبي مخنف٩١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مثير الأحزان: ٧٢، مناقب ابن شهر أشوب ٤: ٦٨، ١١٠، بحار الأنوار ٤٥: ٥٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٣.

(٤) تحف العقول: ٩٥.

وروي أيضاً عنه عليه السلام: **(المنية ولا الدنية، والتقلّل ولا التوسل)**[١].

إن الالتصاق بالحياة الدنيا والجزع من مفارقة الدنيا هو مصدر الذل والصغار.

في حياة الإنسان، وكلما كان طمع الإنسان في الدنيا وطول أمله فيها أكثر كان أذلّ.

عن الإمام الصادق عليه السلام: **(من أحب الحياة ذلّ)**[٢].

إن حب الحياة يدفع الإنسان إلى ركوب الذل، فإذا شاء الإنسان أن يعيش عزيزاً، فعليه أن لا يلتصق بالدنيا، ولا يُدخل حب الدنيا إلى قلبه، فما دخل حب الدنيا قلباً إلا أذلّ صاحبه، ووطّنه لقبول الذل والصغار.

وقد خاطب الحسين يوم عاشوراء معسكر بني أمية في كربلاء، وقال:

«ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين: بين (السلة) و(الذلة)، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، لا تؤثر مصارع اللئام على مصارع الكرام»[٣].

وقد روى عنه عليه السلام في هذا المعنى أيضاً:

«موت في عز خير من حياة في ذل»[٤].

وهذا هو المفرق الأول... والخيار الكريم فيه الموت.

والمفرق الثاني أن يقف الإنسان بين (العار) و(النار)، والمقصود بـ (النار) هو غضب الله سبحانه. وفي هذا المفرق لا يتردّد الإمام عليه السلام في أن يقدم العار على النار: (والعار أولى من دخول النار).

وقد ذكرنا أن دخول النار هو غضب الرحمن وخلافه هو رضا الله... فإذا كان غضب الرحمن في الهروب من العار، ورضاه في تحمّل العار، فيما يبتلى الله تعالى عباده في دائرة الابتلاء الصعب، فلا شك أن مرضاة الله تتقدم على كل شيء آخر، وفوق كل شيء، ولا يزاحمه شيء... إن رضا الله لا يكون قسيماً لشيء إلّا ويتقدّم عليه...

---

(١) غرر الحكم: ٣٦٢.

(٢) ميزان الحكمة ٣: ١٣٢٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٩.

(٤) بحار الأنوار ٤٤: ١٩٢.

وقد عرف إبراهيم عليه السلام إن الله تعالى يأمره أن يذبح ابنه إسماعيل، فلم يتردد في أن يفاتح ابنه بذلك، ولم يتردد الولد أن يستجيب لأمر الله، ولم يتردد الوالد والولد عليهما السلام، في أن ينفّذا أمر الله تعالى، من غير تردد وتوقف.

وها هنا عقبة صعبة من عقبات الحركة إلى الله تعالى.

فقد جعل الله تعالى في نفوسنا أهواءً وشهوات، وجعل في نفوسنا رحمة ورأفة، وجعل في نفوسنا فطرة ووعياً فطرياً.

ثم جعل أمره وحكمه فوق كل ذلك، وابتلانا نحن عباده بتقديم أمره وحكمه على كل ذلك.

فيأمرنا بتقديم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من غرائز وشهوات.

ويأمرنا أن نقدم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من رأفة ورحمة... يقول تعالى في إجراء الحد على الزاني والزانية:

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقد يهون على الإنسان أن يعارض ما أودع الله في نفسه من الغرائز والشهوات، ولكن يشق عليه أن يتغلب على ما جعل الله في نفسه من الرأفة والرحمة.

ويأمرنا بتقديم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من الفطرة، وفطرة الإنسان تأبى قبول الذل، وقد يمتحن الله تعالى عبده في هذه النقطة بالذات، وهي من اشق النقاط على المؤمن، وامتحان الله تعالى لعباده صعب، وليس امتحان الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل حالة استثنائية في تعامل الله مع عباده، فإن الامتحان سنة إلهية جارية، يمتحن الله تعالى بها انقياد عباده وخضوعهم له... فإذا كان كذلك وتعلّقت إرادته تعالى بامتحان عباده في الذل، فالأمر كما قال الحسين عليه السلام، (والعار أولى من دخول النار).

١٠ ـ الموت الأخضر

جميع الناس يموتون، ولا أحد يفلت من قبضة الموت ولكنّ الموت على نحوين... فقد يكون الموت عقيماً، ينقص به من الأحياء حي، ولا يضيف إلى عدد الأحياء شيئاً... وهذا هو

(١) سورة النور، الآية: ٢.

الموت العقيم... وقد يكون الموت حدثاً مباركاً في حياة الأحياء يمنحهم العزة والقوة، ويدفع عنهم كابوس الظلم... وهذا هو الموت الأخضر، الذي يتحول إلى الحياة الطيبة في حياة الناس في الدنيا، وفي حياته هو في الآخرة... وليس بين الموت العقيم والموت الأخضر النافع للناس من فرق إلا أياماً معدودة، والذين بخلوا بأنفسهم عن موافقة الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد لم يبقوا بعد الحسين عليه السلام غير بضع أيام أو بضع أشهر أو بضع سنوات... وهي فترة قصيرة في حساب التاريخ، ولكنهم خسروا الموت والحياة جميعاً.

آثروا حياة الذل والخنوع على موتة العز والكرامة والدفاع عن دين الله والمستضعفين من عباده، فخسروا الحياة العزيزة والموت العزيز.

وما أجمل كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في مخاطبة أهل العراق عندما كان يدعوهم ليخرج بهم إلى قتال معاوية:

«الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»(١).

إن الذين يعيشون مقهورين للظالمين، أذلاء عندهم، يسلبونهم إرادتهم وكرامتهم... هؤلاء في الحقيقة أموات، وليسوا بأحياء، فإن حياة الذليل المقهور للظالم نحو من الموت على هيئة الحياة، وبالعكس، الذين يؤثرون مصارع الكرام على حياة اللئام أحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وإن غابت أجسامهم عن الناس... يورثون مجتمعهم وأبنائهم العزة والكرامة من بعدهم... وهذا هو الموت الأخضر الذي تحدثنا عنه.

وهذا الموت هو الذي يصوّره الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذه الصورة الجميلة الرائعة.

إن القتل في وسط الهيجاء ليس من الهزيمة، ولا من الذل في شيء، إذا قاتل الإنسان وواسى الصالحين بنفسه، وجاهد الكفار، وفارق الأشقياء العصاة، وخالف المجرمين، وجاهدهم... فإذا كتب الله تعالى له العيش عاش سعيداً، من غير تأنيب الضمير، وإن مات مات سعيد من غير لوم...

سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبوراً وخالف مجرما

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥١.

فان عشت لم اندم وان متّ لم أُلَمْ كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما[١]

وإنما الذل والعار أن يعيش الإنسان مرغماً مقهورا للظالمين، وليس العار في أن يموت الإنسان وهو يجاهد الظالمين والمجرمين.

وللحسين عليه السلام كلام عن الموت في مكافحة الظالمين والحياة مع الظالمين عندما التقى بالحر بن يزيد الرياحي رحمه الله في بعض منازل الطريق، له صلة بهذا الحديث. يقول عليه السلام:

«ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه. ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، فأني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

إن الموت في مجاهدة الظالمين سعادة والحياة مع الظالمين مذلة، ومهانة، وشاقة، وصعبة، ومملة.

ويرتجز عبد الله بن مسلم بن عقيل رحمه الله، ويقول:

أقسمت لا اقتل إلا حُرّا وإن وجدت الموت شيئاً مرّا
أكره أن أدعى جباناً فرّا إنّ الجبان من عصى وفرا[٢]

يؤثر هذا الشاب الهاشمي موت الأحرار، مهما كان مرّاً، على حياة الجبناء، الفارين من الموت، وهو رحمه الله يقتبس هذا الرجز من رجز لأبيه مسلم بن عقيل رحمه الله بالكوفة، عندما كان يقاتل جلاوزة ابن زياد، وهم يقاتلونه بالسيوف والرماح والنبال، فيقول:

أقسمت لا أقتل إلّا حُرّا وان رأيت الموت شيئاً نُكرا
أكره أن أخدع أو أغرا أو يخلط البارد سخناً مرا[٣]

فيقسم ألّا يقتل إلا حرّا، ويضرب بسيفه ويجندل الرجال وأن كان الموت أمراً نكراً صعباً.

---

(١) مقتل أبي مخنف ٦٩، تاريخ الطبري ٥: ٤٠٤، مثير الاحزان ٤٥، مناقب ابن شهر أشوب٤: ٦٩، الكامل في التاريخ ٤: ٤٩، انساب الاشراف ٣: ٣٨٢، بحار الانوار ٤٤: ١٩٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٢٩.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٢٥، ٢٣٩، بحار الانوار ٤٤: ٣٢١: ١، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧٠.

(٣) مقتل أبي مخنف: ٥٤، مروج الذهب ٣: ٥٨، مقاتل الطالبين: ٦٩، الفتوح، ابن اعثم ٥: ٦١، تاريخ الطبري٥: ٣٧٤، الإرشاد المفيد ٢: ٥٨، مثير الاحزان ٣٥، الكامل في التاريخ ٤: ٣٣، بحار الانوار ٤٤: ٣٥٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٠٢، أعيان الشيعة ١: ٥٩٢، الشعر العربي في تراث الشيخ المفيد: ٣١٧، ٢٢٩.

ويكره أن يخدع عن نفسه أو يملكه الغرور، أو يختلط في حياته برد الكرام بسخونة الحياة الذليلة مع الظالمين، ويستسلم للموت في كرامة وعزة في مجاهدة الظالمين ويصبّر نفسه بذلك.

ويقول الحسين عليه السلام:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع ... فأنت لكاس الموت لا شك جارع
فصبراً لأمر الله جل جلاله ... فحكم قضاء الله في الخلق ذائع[1]

١١ ـ القراءة الصحيحة للتاريخ

من تجليات الوعي والبصيرة في ساحة كربلاء لأنصار الحسين عليه السلام الفهم الدقيق لموقع بني أمية في الإسلام... وهذا الوعي مما يفقده الكثير من أصحاب الفكر والنظر من المسلمين حتى اليوم.

لقد حارب أبو سفيان والد معاوية وجد يزيد الإسلام طويلا قبل الهجرة وبعد الهجرة، وكاد للإسلام، ومعه ابنه معاوية، وأم معاوية (هند)، ووزيره عمرو، ثم دخل الإسلام مُكْرَها في فتح مكة، حيث لم يجد بُدّاً من إعلان الإسلام... ولم يُعْرف عنه في إسلامه غير أحاديث وقضايا منكرة، يذكرها أصحاب السير، ورغم حرص بني أمية على التعتيم على إخباره وأحاديثه المنكرة بعد دخوله في الإسلام فإن ما يظهر من فلتات أقلام المؤرخين أمر فظيع، مثل: قوله لجيش الروم حين كانوا يميلون على جيوش المسلمين (إيه بني الأصفر)، وقوله لعثمان، وقد تولى الخلافة، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار، فزجره عثمان. ومرّ بقبر حمزة سيد الشهداء في أُحد، عم رسول الله صلى الله عليه وآله فضربه برجله وقال: يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذي تجالدنا عليه قد صار بيد صبياننا... وأمثال ذلك...

وتولى ابنه يزيد الشام في عهد الخليفة الثاني، ثم تولى من بعده ابنه الآخر معاوية ولاية الشام على عهد الخليفة الثاني أيضاً... فلما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان امتنع عن بيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وشقّ جماعة المسلمين وفصل الشام، ودخل في معركة ضارية مع أمير المؤمنين عليه السلام، ثم مع الإمام الحسن عليه السلام ثم قاتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام وأستمر

---

(١) مناقب ابن شهر اشوب ٤: ٩٣، بحار الأنوار: ٤٤: ٣٥٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٠٣.

خلفاء بني أمية في لهوهم، وفجورهم، وإسرافهم في بيت المال، وإفسادهم في الدولة، وبذخهم، وترفهم، ومجونهم، وظلمهم، وتحريفهم للإسلام، وحدِّث ولا حرج عليك.

فكيف نفهم هذا التاريخ؟ وأين نضع بني أمية بعد دخولهم في الإسلام بهذا التاريخ الذي نعرفه عنهم؟

أين يقع صفين والطف من بدر؟

وأين مواقع بني أمية من الإسلام؟

روي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: «كنا بصفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى ـ استظللنا ببُرد احمر، إذ أقبل رجل يستقري الوجوه حتى انتهى إلينا فقال: أفيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار بن ياسر: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إن لي حاجة إليك فانطق بها علانية أو سراً؟ قال: أختر لنفسك أي ذلك شئت. قال: لا، بل علانية، قال: فانطق.

قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً بالحق الذي نحن عليه، لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنهّم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه صباح يومنا هذا، فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة، فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبتّ بليلة لا يعلمها إلّا الله حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: **هل لقيت عمار بن ياسر؟** قلت: لا، قال: **فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه،** فجئتك لذلك.

قال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن، ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن.

أشَهِدْتَ بدراً وأُحداً وحنيناً أو شَهِدَها لك أبٌ فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم حنين، وإنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب.

هل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا، مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً، فقطّعته، وذبحته. والله لدماؤهم جميعاً أحلّ

من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا، بل حلال، قال: فأنهم كذلك حلال دماؤهم، أتراني بيّنت لك؟ قال: قد بيّنت لي، قال: فاختر أيّ ذلك أحببت.

قال: فانصرف الرجل، ثم دعاه عمار بن ياسر فقال: أما أنّهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا، والله ما هم من الحق على ما يُقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يُبلغونا سعفات هجر، لعرفت إنّا على حق، وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سلما سالما أبداً حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة، ولا ينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة، وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان احياؤهم على الباطل»[1].

إنّ القراءة صحيحة للتاريخ تربط ما بين بني أمية قبل الإسلام وما بعد الإسلام للتشابه الكبير بين سلوكية هذه الأسرة قبل وبعد الإسلام.

لقد انتزع الإسلام من آل أبي سفيان الطلقاء مواقعهم وزعامتهم في الجاهلية.

كما أحدث تغييراً واسعاً في الأعراف الجاهلية التي كانت تحتضن هذه المواقع...

وكانت مهمة آل أبي سفيان بعد دخولهم في الإسلام استعادة مواقعهم في الجاهلية وإعادة الأعراف الجاهلية التي كانت تحتضن هذه المواقع في الجاهلية.

فلا يمكن أن يعيش معاوية في قصور الشام، يسرف في أموال المسلمين، ويقتل، ويظلم، ويقترف الإثم إلّا بتحريف القيم التي جاء بها الإسلام في علاقة الحاكم بالرعية ومواساة الحاكم لرعيته، وتقشّف الحاكم في مصرف بيت المال وكانت هذه النقطة بالذات السبب الرئيسي في معارضة أبي ذر ﷺ لمعاوية...

فقد وجد أبو ذر ﷺ أن معاوية أحدث بدعا واسعة في دين الله من موقع الخلافة، فثار في وجه معاوية، وقام في أسواق الشام ومجامعه ينكر على معاوية سرفه وإفساده وما يرتكب من المنكرات، وما يدخل في قصره من الشراب الذي حرمه الله، واختراقاته لحدود الله تعالى وأحكامه.

إن آل معاوية يعرفون، ما يعملون، إنهم يستعيدون مواقعهم الذي جرّدهم الإسلام عنها،

---

(١) صفين لنصر بن مزاحم: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

من خلال الإسلام نفسه هذه المرة. فكان خطر بني أمية على الإسلام بعد إسلامهم أكبر من خطرهم على الإسلام قبل إسلامهم...

ويصطف الطرفان هذه المرة في (صفين) و(الطف) بعد (بدر) و(أُحد).

يقف معاوية وعمرو على مواقع أبي سفيان وأبي جهل في بدر، ويصطف معهم طائفة كبيرة من أهل الشام ممّن غَرّر بهم عمرو ومعاوية، فجاؤوا بهم إلى هذا الموقع للنيل من الإسلام، ولتثبيت ما استعادوه من مواقعهم في الجاهلية بعد رسول الله ﷺ.

ويقف علي والحسن والحسين عليهم السلام على التوالي في صفين، إلى الطف عند مواقع رسول الله وأصحابه في بدر للدفاع عن الإسلام وتحصين الإسلام من عدوان بني أمية وتحريفاتهم، ولحماية مواقع القيادة والولاية في الإسلام من أمثال معاوية ويزيد.

إذن المعركة في صفين والطف هي ذاتها المعركة في بدر، غير أن بني أمية حاربوا الإسلام في بدر من خارج الجسم الإسلامي، وحاربوا الإسلام في هذه المرّة من داخل الجسم الإسلامي... وها هنا موقع الخطر.

ويضيف ابن معاوية بن أبي سفيان، في موقع الطف، على ما فعله أبوه وجده من قبل في موقع بدر أنه قتل وسبى آل محمد في الطف انتقاماً وثأراً لقتلاهم في بدر من آل أبي سفيان... وإذا كان نصيب جده وأبيه في بدر الهزيمة من المسلمين من رسول الله ﷺ وأصحابه... فهذه المرة كانت الهزيمة (العسكرية) في كربلاء في جانب آل محمد ﷺ فيقول يزيد على ملأ من الناس:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحا	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم انتقم	من بني أحمد ما كان فعل

والأبيات هذه أشهر من أن يشك بها أحد فقد رواها المؤرخون وأرباب السير جميعاً، وحكم فقهاء الإسلام من المذاهب المختلفة بكفر يزيد وجواز لعنه بهذه الأبيات[1].

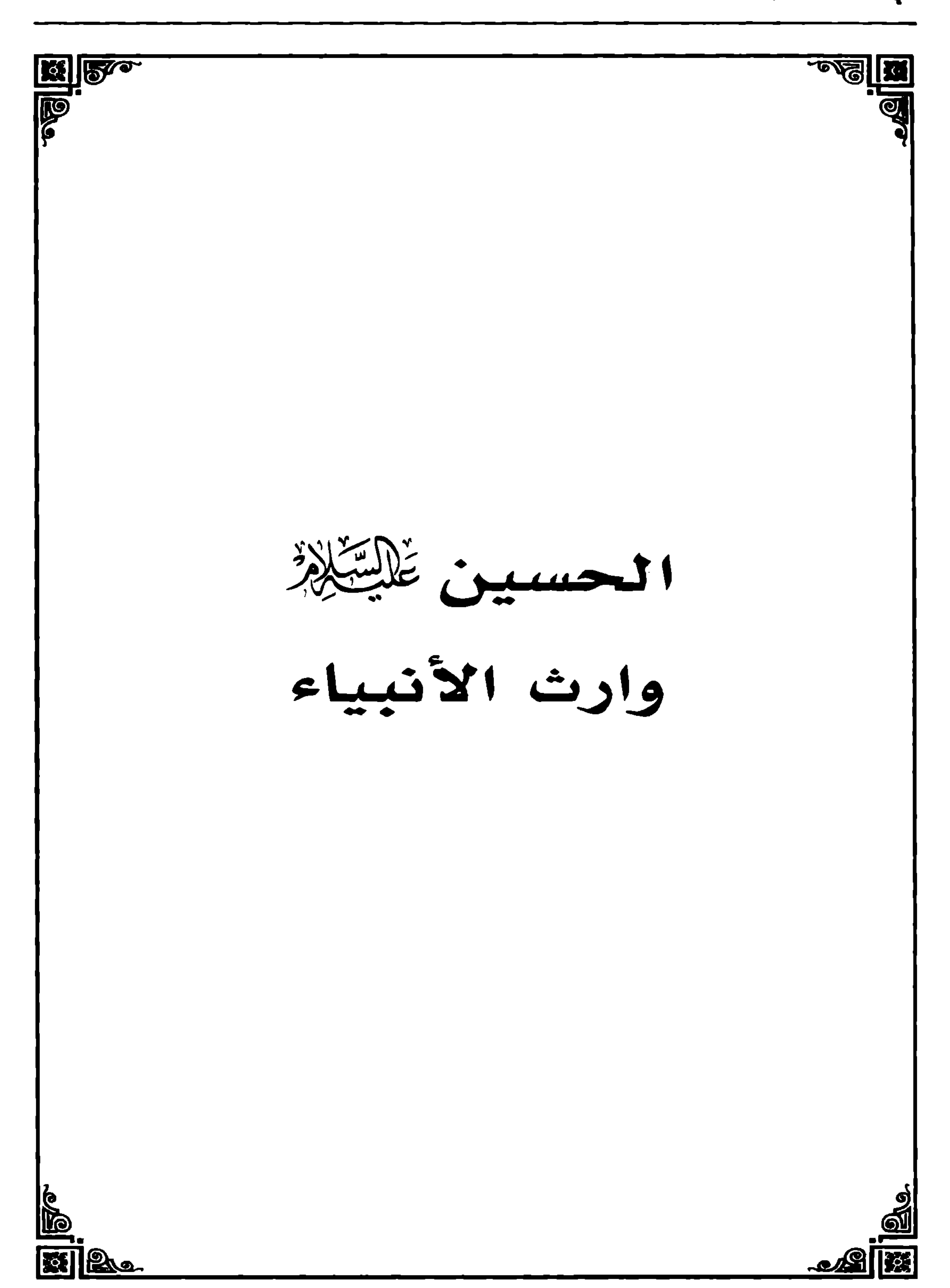
(١) راجع كتاب (الخطاب الحسيني): ١٠٦ في مصادر هذا الشعر وكلمات العلماء في تكفير يزيد ولعنه بسببه.

اجل، انه يبتهج بقتل سادات أهل البيت عليهم السلام انتقاما لمصرع جدّه عتبة وخاله وغيرهم من المشركين في بدر، فعادلت مأساة آل محمد صلى الله عليه وآله في الطف هزيمة المشركين في بدر (وعدلناه ببدر فاعتدل)... إنّ من يفهم (صفين) و(الطف)... بغير هذا الفهم، ويفسّرها بغير هذا الوجه، لا يستطيع أن يفهم دور أهل البيت عليهم السلام العظيم في تصحيح حركة الإسلام ومساره خلال هذه الفترة الصعبة من التاريخ. وعندما نقرأ نحن الشعر الذي كان يلقيه أنصار الحسين عليه السلام بساحة الطف نجد هذا الوعي والفهم الدقيق للتاريخ، والقراءة الواعية لمعركة بدر ووقعة الطف، والعلاقة بينهما بشكل واضح.

ونذكر مثلا على ذلك شعر عمرو بن جنادة الأنصاري رحمه الله من أنصار الحسين عليه السلام، ونختم به هذا البحث:

أضق الخناق من ابن هند وارمه	في عقره بفوارس الأنصار
ومهاجرين مخضبين رماحهم	تحت العجاجة من دم الكفار
خُضِبَتْ على عهد النبي محمد	فاليوم تُخْضَبُ من دم الفجار
واليوم تخضب من دماء أراذل	رفضوا القرآن لنصرة الأشرار
طلبوا بثأرهم ببدر إذ أتوا	بالمرهفات وبالقنا الخطار
والله ربي لا أزال مضاربا	في الفاسقين بمرهف بتّار
هذا عَلَيَّ اليوم حق واجب	في كل يوم تعانق وكرار[1]

(١) الفتوح لابن اعثم ٥: ١٢٥، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٢١، بحار الأنوار ٤٥: ٢٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧١.



الحسين عليه السلام وارث الأنبياء

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

الوراثة

مفهوم (الوارث) من أبرز المفاهيم الواردة في هذه الزيارة. وقد عرفت به الزيارة. ونقف هنا قليلاً عند كلمة (الوراثة).

الوراثة الحياتية والحضارية:

الوراثة الحياتية: هي انتقال الخصائص الشخصية والاجتماعية من جيل إلى جيل أو من فئة إلى فئة أو من شخص إلى شخص.

وكما تنتقل بالوراثة الخصائص الحياتية والعضوية من جيل إلى جيل، كذلك تنتقل الخصائص الحضارية والثقافية من جيل إلى آخر، ومن فئة اجتماعية إلى فئة اجتماعية أخرى.

والوراثة والتكامل الحضاريان هما سُلّم الكمال في تاريخ الإنسان، والإنسان يتكوّن بالتدريج، وتتكون فيه خصائصه ومكوناته الثقافية والحضارية خلال تاريخ طويل.

إننا عندما نلاحظ سلوكاً اجتماعياً معيّناً أو نموذجاً حضاريّاً معيناً من الناس فإننا نلاحظ فيه اختزالاً شديداً لتاريخ طويل من حياة الإنسان وحضارته وفكره وجهده ومعيشته، وكل منا يرث من حيث يشعر أو لا يشعر أجيالاً من أسلافه جيلاً بعد جيل.

التاريخ الحضاري للإنسان:

فالإنسان: مجموعة من المواريث الحضارية التي ينقلها كل جيل إلى الجيل الذي يأتي من بعده، بعد أن يتلقاها من الجيل السابق وينمّيها ويطوّرها.

وهكذا تتحرّك الحضارة الإنسانية عبر الأجيال، وتنتقل من جيل إلى آخر، وتنمو، وتتطور بموجب قانون الوراثة، وتنتقل الأفكار والعقائد والتصورات والأعراف والتقاليد والأخلاق من جيل إلى آخر، ولا يمكن أن تتكون الحضارات مرّة واحدة وفجأة وخلال جيل واحد، وإنّما تتكون بصورة تدريجية، عبر سنن وقرون طويلة، وخلال التاريخ.

المواريث الحضارية بين الإسلام والجاهلية:

هناك مجموعتان من المواريث الحضارية يتوارثهما الناس جيلاً بعد جيل في جهتين متقابلتين: المواريث الحضارية الإلهية والمواريث الحضارية الجاهلية.

ومواريث الحضارة الربانية في حياة الإنسان هي التي يتلقاها الناس جيلاً بعد جيل من الأنبياء والمرسلين والصدّيقين، وترسّخت وتأصّلت خلال هذه المسافة الزمنية الطويلة في حياة الإنسان.

إنّ الإيمان بالله تعالى والتسليم المطلق له تعالى وتعبيد الناس لله ﷻ، وتحكيم شريعته في حياة الإنسان، ورفض الطاغوت والتمرّد عليه، وكسر شوكته وسلطانه، ومجابهته بالنفس والمال وأفلاذ الأكباد ليس ظاهرة جديدة في حياة الإنسان، ولا تخص مرحلة من مراحل حياة الإنسان، وإنّما هو ميراث اجتماعي ضخم يتوارثه الإنسان جيلاً بعد جيل في تاريخه، ويتصل هذا الميراث الحضاري بأنبياء الله عليهم السلام ويمتدّ في حياة الإنسان عبر جهاد الأنبياء ودعوتهم وتبليغهم.

وفي حياة كل نبي من الأنبياء والمرسلين يزداد هذا الميراث الحضاري عمقاً وأصالة ونضجاً عمن كان قبله من الأنبياء عبر الصراع المستمر القائم بين هاتين الحضارتين، وعبر الجهود التي يتحملها الأنبياء وأنصارهم في حمل الدعوة وتبليغها إلى الناس، فتتبلور عبر هذه المسيرة الحضارية المفاهيم الرسالية أكثر من ذي قبل، ويتأصّل الجهاد والدعوة إلى الله وأصولها وأساليبها في حياة الإنسان في خط تصاعدي.

كما يصح العكس أيضاً فتتصاعد الذنوب، والمعاصي، والإسراف، والتكبّر، والاستكبار، في الطرف الآخر ويتعمّق هذا الحقد في نفوسهم، وتتطور أساليبهم في مواجهة الدعاة إلى الله كلما تتسع الحضارة الجاهلية وتنمو وتتطور بصورة تصاعدية مستمرة.

الحسين عليه السلام وارث الأنبياء:

وسيّد الشهداء أبو عبد الله عليه السلام وارث هذه المسيرة الحضارية الربانية الضخمة التي تمتد عبر حياة وجهود ودعوة الأنبياء والمرسلين والشهداء والصدّيقين عليهم السلام، وتأتي واقعة الطف امتداداً لهذا الجهاد التاريخي المستميت مع الجاهلية.

إن الحسين عليه السلام يوم الطف كان امتداداً واختزالاً وتأصيلاً لهذه الحركة الربانية الممتدة في عمق التاريخ.

وتأتي الخصائص الحسينية التي جسدتها واقعة الطف يوم عاشوراء، امتداداً لهذه المواريث الحضارية والأخلاقية التي ورثها الحسين عليه السلام من أسلافه الطاهرين، الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين.

فالإخلاص لله، والتضحية، والبذل، والعطاء، والشجاعة، والصمود، والصرامة، والصبر، وعزّة النفس، وإباء الضيم، والاستقامة في الدعوة إلى الله، والتمرّد على الطاغوت، والرفض، والتسليم لله، وغير ذلك من الخصائص التي جسّدها الحسين عليه السلام التي تجسدت في معركة الطف ليست خصائص وظواهر فردية، وإنّما هي موارث حضارية ورسالية عريقة ورثها الحسين عليه السلام من آبائه الطاهرين في هذه المسيرة الربانية من آدم صفوة الله، ونوح نبي الله، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله عليه السلام، ومن المصطفى رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخيه الحسن المجتبى عليه السلام.

فالحسين عليه السلام حصيلة هذه المسيرة الحضارية الإلهية ونتيجتها وثمرة هذه الشجرة المباركة.

وهذا هو سرّ أصالة وقعة الطف وعراقتها وقوتها وما تجلى فيها من خصائص الحركة الربانية في التاريخ، وسرّ استمرار وبقاء هذه الوقعة في التاريخ.

كما أن الجيش الأموي كان يرث في ساحة الطف خصائص الجاهلية من الظلم، والاستكبار، والتهافت على حطام الدنيا، والقهر، والقسوة، والإرهاب، والاضطهاد، والتكالب على حطام الدنيا، والبطر والرئاء.

الشجرة الخبيثة والشجرة الطيبة في كتاب الله:

وهذه المسيرة الحضارية هي الكلمة والشجرة الطيبة التي تضرب أُصولها في عمق التاريخ، وتمتد فروعها إلى أعماق المستقبل، وهي ذات قرار مكين في الأرض، تؤتي ثمارها بإذن الله كل حين، وهذه الشجرة ثابتة قوية لا تهزها الأعاصير والعواصف.

أمّا الحضارة الجاهلية فهي الكلمة الخبيثة والشجرة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، ورغم قدمها ضعيفة مهزوزة، وعلى أرض رخوة، وغير ذات قرار مكين، تقتلعها الأعاصير، وتلقي بها على قارعة الطريق، يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[1].

ومن عجب أنّ هاتين الحضارتين يمتدان معاً إلى أعماق التاريخ إلى هابيل وقابيل، ويتكونان معاً عبر الأجيال، ومع ذلك فهما يختلفان في العراقة والأصالة والثبات، فالحضارة الإلهية أصيلة عريقة ذات جذور قوية ثابتة وراسخة لا تحركها الأعاصير الهوجاء، والحضارة الجاهلية مهزوزة ضعيفة مبتورة الجذور ما لها من قرار. وهذا هو الفارق بين هاتين الحضارتين اللتين يتوارثهما الناس.

سرّ القوة والثبات في الشجرة الطيبة:

والسرّ في ذلك أن الحضارة الإلهية تستمد حيويتها من العقل والضمير والقلب، والحضارة الجاهلية تستمد وجودها من الأهواء والشهوات، تلك تستمد كيانها من الإيمان والعقيدة، وهذه تستمد وجودها من الأحقاد والأهواء، تلك تستمد وجودها من الإيمان والتسليم لله، وهذه تستمد وجودها من اتّباع الشيطان، تلك تختزل كل ما في حضارة الإنسان من قيم وأخلاق وفضائل، وهذه تختزل كل ما في التاريخ الإنسان من أحقاد وضغائن وشهوات وأهواء.

وهذا الفارق هو الذي يهب الأولى القوة والمتانة والثبات في وجه الأعاصير والهزات والابتلاءات، ويسلب الثانية القرار والثبات ويدعها مهزوزة غير ذات قرار.

ولذلك تعقّب الآية الكريمة على هذا الاختلاف في الأُصول والجذور بقوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَۚ...﴾[2].

فأولئك يمنحهم الله الثبات في القول في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهؤلاء يسلبهم الله تعالى الثبات والهدى ويدعهم في الضلالة.

لماذا التأكيد على مفهوم الوارث في زيارة الحسين عليه السلام؟

لقد ورد هذا المفهوم في أكثر من زيارة وكأن هناك عناية خاصة لدى أهل البيت عليهم السلام في إبراز هذا المفهوم في حياة الحسين عليه السلام؛ ذلك لأنّ معركة الطف من أصدق مشاهد صراع

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٧.

الحضارات في التاريخ، لقد جسّد الحسين عليه السلام الصراع بين الحق والباطل في كربلاء، فكانت معركة الطف تبلوراً حقيقياً لهذا الصراع التاريخي بين الحق والباطل، ولذلك نجد في هذه المعركة أنبل القيم والمفاهيم الربانية في طرف، وأخسّ الرذائل والأهواء الشيطانية في طرف آخر.

ويأتي تأكيد الوراثة في زيارة الحسين عليه السلام:

أولاً ـ للتنبيه على عراقة وأصالة الجهاد الحسيني، وأنه ليس ظاهرة فردية في سيرة الإمام الحسين عليه السلام وإنّما هي خاصية عريقة للمسيرة الإلهية على وجه الأرض، ورثها الحسين عليه السلام عمّن كان قبله من الأنبياء والأوصياء الدعاة إلى الله، وهذا هو سرّ قوة وصلابة الموقف الحسيني في كربلاء، رغم عدم التكافؤ الواضح بين معسكر الحسين عليه السلام ومعسكر بني أمية في هذه المعركة.

ثانياً ـ إذا كانت هذه الحركة بهذه الدرجة من الأصالة والعراقة والعمق والقوة فلابدّ ان تنتصر على الجبهة المناوئة التي كان يتزعمها الحاكم الأموي يزيد بن معاوية.

وليس الانتصار هنا بمعنى الانتصار العسكري في ساحة القتال، فقد كان الجيش الأموي هو المنتصر في ساحة القتال إذا فسّرنا الانتصار بالمعنى العسكري وإنما الانتصار هنا انتصار خط على خط، ولا شك أن المعسكر الحسيني هو المعسكر المنتصر بهذا المعنى من النصر، فإن العمق التاريخي والأصالة والعراقة والمتانة التي يملكها هذا الخط يؤهله لنصر الله تعالى.

إن المعركة بين هاتين الجبهتين في كربلاء كانت معركة ميدانية وحضارية بالمعنى العميق لهذه الكلمة.

والفئة التي تقف على مواقف الأنبياء والأوصياء والصالحين هي الفئة المنتصرة، لا محالة، والله تعالى هو الضامن لهذا النصر، والفئة التي تقف على مواقف الطغاة والجبارين والمسرفين والمفسدين هي الفئة الخاسرة في هذه المعركة.

ثالثاً ـ لا تتوقف هذه المعركة عند وقعة الطف، فهي حلقة واحدة من سلسلة من المواقف الجهادية والتضحيات والبذل والعطاء في سبيل الله تبدأ منذ أيام نوح عليه السلام وقبله وتمتد إلى أن يأذن الله تعالى بالاضمحلال الكامل للجاهلية على وجه الأرض على يد واحد من أحفاد الحسين عليه السلام عجل الله فرجه.

وليست هذه الحركة نبتة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وإنّما هي شجرة طيبة ممتدة الجذور والأُصول إلى أعماق تاريخ الإسلام والإيمان.

وكما ورث الحسين عليه السلام هذا الميراث من أبيه المرتضى عليه السلام وجده المصطفى صلى الله عليه وآله وأسلافه الطاهرين من الأنبياء المرسلين فإن أجيال المؤمنين والمجاهدين والدعاة إلى الله تعالى سوف يرثون من الحسين هذا الميراث ويتحركون على خطاه عليه السلام ويرثون منه الخصائص والمواريث التي تجلت يوم عاشوراء في كربلاء.

وهذا هو سرّ استمرارية الثورة الحسينية في كربلاء.

آلية الارتباط ومادة الارتباط

الحسين وارث الأنبياء والصالحين عليهم السلام ونحن ورثة الحسين عليه السلام، وميراثنا الذي نرثه من الحسين هو مواريث الأنبياء وواسطة العقد في هذا الارتباط يوم الطف، فلابدّ لهذا الارتباط من أن يمر بمحطات تفعيل في التاريخ، تحافظ على حرارة الخط وحيويته لئلّا تضعف وتبرد، ويوم الطف عقد الواسطة وحلقة الارتباط الأم ولابدّ من هذه الحلقات في التاريخ لئلّا ينقطع الخط.

وهنا نواجه سؤالين:

الأول: كيف نرتبط؟ وما هي آلية الارتباط؟

والثاني: ما هي المواريث التي نرثها من الأنبياء عبر يوم الطف.

والسؤال الثاني غير السؤال الأول.

١ ـ آلية الارتباط:

مأساة الطف هي حلقة الارتباط، ولولا هذا اليوم العظيم في تاريخ الإسلام ونظائره لانقطع الخط، فهي تستقطب عواطف الجمهور وأحاسيسهم وحبهم و... وهذه العواطف والمشاعر هي الآلية التي تحافظ على فاعلية الارتباط، وقوته، وحيويته.

والإحياء السنوي لذكرى الحسين عليه السلام، والبكاء، وإقامة مجالس العزاء، وخروج مواكب العزاء في الشوارع، ما هي إلّا وسائل تعبير عن هذه العاطفة القوية التي يشعر بها المسلمون تجاه سيد الشهداء عليه السلام، ولابدّ من هذه العاطفة الحسينية ولابدّ من التعبير عن هذه العاطفة للإبقاء على ارتباط الأمّة بكوكبة شهداء كربلاء، ولولا هذا الزخم العاطفي القوي لم تبق هذه الثورة قوية وفاعلة في وجدان الأُمّة إلى اليوم، ولذلك أكد أهل البيت عليهم السلام على أهمية إقامة مجالس العزاء والبكاء على مصاب الحسين عليه السلام... ولكن هذه الشعائر والمجالس والعواطف آليات للارتباط، تحفظ لنا حرارة الارتباط بهذا الخط الربّاني الممتدّ من عمق التاريخ، منذ آدم عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصيائه، وأمّا مادة الارتباط فهو شيء آخر.

إنّ التعبير عن عواطفنا تجاه مصاب الحسين عليه السلام شيء ومادة الارتباط والمواريث التي نرثها من الحسين عليه السلام شيء آخر، ولكن الأولى تُعِد للثانية وتؤهل الإنسان لها. إن هذه العواطف والمجالس وسيلة وأداة لتحقيق وتفعيل تلك المواريث في حياتنا وتاريخنا.

إن زيارة (وارث) تبيّن لنا أن حقيقة الارتباط بالحسين عليه السلام هي بالقيام بالمواريث التي نرثها منه عليه السلام، كما أن ارتباط الحسين عليه السلام بالأنبياء هي بقيامه بالمواريث التي ورثها من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والمرتضى عليه السلام، وهذا هو ميراث الحسين عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام وميراثنا من الحسين عليه السلام.

وهذه هي حقيقة الارتباط وحقيقة الوراثة، وآلية الارتباط وأداته.

ويوم الطف هو واسطة العقد بيننا وبين هذه المسيرة الحضارية الربانية الكادحة على وجه الأرض. وبقدر ما نحمل من رسالة الحسين عليه السلام ودعوته وجهاده ومواقفه الشامخة الصلبة ومقاومته، وصبره، وتضحيته، وصلاته، وإنفاقه، وعطائه، وإخلاصه لله، وصموده، وصلابته... يكون ارتباطنا بالحسين عليه السلام، وعلاقتنا بيوم الطف، وعند ذلك يسهل قياس الارتباط والعلاقة بكربلاء، فإن المقاييس واضحة لا تقبل الخطأ.

٢ ـ ما هي المواريث؟

وها نحن نقرأ في زيارة وارث المواريث التي ورثها الحسين عليه السلام من سلفه لنقيس أنفسنا بها وعلاقتنا بكربلاء.

«أشهد أنّك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين».

وتأتي هذه الشهادة للحسين عليه السلام بإقامة الصلاة عقيب التحية له بعنوان الوارث، وكأن هذه الشهادة تأتي تأكيداً لوراثة الحسين عليه السلام وتشخيصاً للمواريث التي ورثها الحسين عليه السلام من سلفه عليه السلام وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، والطاعة لله ورسوله حتى اليقين، هذه مواريث الحسين عليه السلام من سلفه عليهم السلام ومواريثنا نحن من الحسين عليه السلام، ومن تقدم الحسين عليه السلام من الأنبياء والأوصياء والصالحين عليهم السلام.

وترد هذه الشهادة للحسين عليه السلام في أكثر الزيارات المطلقة والمخصوصة، وكأنّ هناك عناية خاصة بإبراز هذا البعد الموروث من أبعاد حركة الإمام الحسين عليه السلام والتنبيه إلى أن

الارتباط به ﷺ يتمّ بموجب هذه النقاط، ونورد بعض هذه الفقرات من الزيارات المطلقة والمخصوصة الواردة. ففي الزيارة المطلقة الثانية:

«أشهد أنك قد بلغت، ونصحت، ووفيت، وأوفيت، وجاهدت في سبيل الله».

التبليغ، والتضحية، والوفاء للرسالة، والإيفاء بالمسؤولية، والجهاد في سبيل الله.

وقريب من هذا المضمون في الزيارة المطلقة الثانية والرابعة والسادسة والسابعة.

وفي مخصوصة الليلة الأولى من رجب:

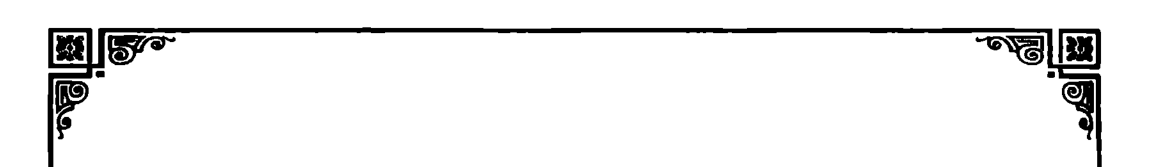
«أشهد أنك قد أمرت بالقسط والعدل، ودعوت إليهما، وأنك صادق صدّيق، صدقت فيما دعوت إليه».

وفي مخصوصة ليلة النصف من رجب قريب من المضامين السابقة، وفي مخصوصة ليالي القدر ويومي العيدين:

«أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وتلوت الكتاب حق تلاوته، وجاهدت في الله حق جهاده، وصبرت على الأذى في جنبه محتسباً حتى أتاك اليقين».

وتضاف هنا إلى قائمة المواريث الحسينية تلاوة الكتاب حق التلاوة، والجهاد في سبيل الله حق الجهاد، والصبر على الأذى في جنب الله محتسباً حتى اليقين، وقريب منه في مخصوصة ليلة العيدين ومخصوصة ليلة عرفة ويومها.

وبهذه الطريقة الإيحائية الرائعة تجعل هذه الزيارات الزائر في الأجواء الرسالية لكربلاء، والتي ورثها الحسين ﷺ من سلفه الطاهر ﷺ، وأورثها لخلفه الذين يأتون من بعده على هداه وخطه.



انقلاب زهير بن القين رحمه الله من العثمانية إلى الحسينية



الانقلابات الإنسانية

الأحداث في حياة الإنسان والكون على قسمين: تدريجية ودفعية (انقلابية): ومن الأمثلة على التحول التدريجي تحول الصيف إلى الخريف بالتدريج والخريف إلى الشتاء وكل مخلوق ينطوي على درجات من الكمال غير حاصلة بالفعل، وقد جرت سنة الله تعالى في الكون على أن هذه المراحل من الكمال تبرز وتظهر بالتدريج، وبهذه الحركة يتحول الكائن من القوة إلى الفعل، فرن الكمالات التي يستبطنها الكائن هي كمالات موجودة بالقوة غير حاصلة بالفعل[1].

وكذلك في صلاح الإنسان وفساده وقراره يتحول من الفساد إلى الصلاح بالتدريج.

وقد يأخذ قراراً مفاجئاً ويتحول من مذنب خاطيء غارق في المعاصي إلى ولي صالح من أولياء الله وهذا هو الانقلاب... وهذا هو التحول الدفعي الذي يتفق في حياة الناس كثيراً، وسميناه (الانقلاب).

إذن الانقلاب هو التحول الدفعي سواءً كان الانقلاب كونياً أو اجتماعياً أو في حياة الأفراد.

وقد يتصور الإنسان أن شيئاً طارئاً من الخارج كان هو السبب في هذا الانقلاب ولكن ليس الأمر كذلك، وإنما هو سبب داخلي يتنامى ويتكامل، ثم يظهر إلى الوجود دفعةً، ويتم هذا التكامل عبر طريق شاق وعسير، وعبر كفاح طويل للأهواء والغرائز الكامنة في النفس، ولكنها تبرز على السطح الظاهر من حياة الإنسان دفعة واحدة كالزلزال والبركان.

انقلابان في عاشوراء وكربلاء

كربلاء ساحة لكثير من الظواهر الإنسانية والحضارية ولسنن الله، ونستطيع أن نجد نماذج كثيرة للسنن الإلهية في هذه الساحة خلال يوم عاشوراء وساعاته القليلة الحاشدة بالأحداث

(١) في رحاب القرآن ٨: ٢٤٠.

الكبيرة... ومن خلال هذا اليوم نقرأ سنن الله في التاريخ، ونفهم كيف تسقط أمة، ويستدرجها الله تعالى، ويعذبها، ويهلكها، وكيف يستبدلها بأمة أخرى[1].

وفي هذا السياق نحن نجد في كربلاء على الأقل نموذجين من الانقلاب بارزين هما: انقلاب الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله وانقلاب زهير بن القين البجلي رحمه الله.

ونحن هنا نحاول أن نلقي نظرة على الانقلاب الذي حدث في حياة زهير بن القين رحمه الله فحوّله من إنسان أموي عثماني الهوى إلى عنصر هائم في الحسين عليه السلام وهديه وخطه.

الانقلاب هو القرار

ما هو سر هذا الانقلاب العظيم الذي ينقل الإنسان من الشقاء إلى السعادة، ومن السقوط والهلاك إلى العروج؟

إنه: القرار.

ولم يغيّر شيء من حياة (الحر) و(زهير) غير القرار، والقرار يعني الإرادة وهو أصعب الأشياء وأسهل الأشياء.

إن عاشوراء من أيام الفرقان في التاريخ، وأيام الفرقان تشطر الناس وتفرزهم كما أن أيام العافية تجمعهم.

وفي أيام الفرقان يحتاج الإنسان إلى القرار أكثر من أي وقت آخر، وهذا من خصائص هذه الأيام.

عند نقطة المفترق لابدّ أن يتخذ الإنسان القرار، ومن دون القرار يتحول إلى حالة عائمة خفيفة الوزن.

إن عاشوراء شطرت الناس إلى شطرين: شطر مع الحسين عليه السلام، وآخر مع بني أمية.

قبل عاشوراء كان الناس يجمعون بين حب الحسين عليه السلام وطاعة بني أمية، ولا يجدون حرجاً في ذلك، ولكن عاشوراء وضعت حداً لهذا التداخل المتجانس. وكان لابدّ ان ينتخب الناس أحدهما. أما الحسين عليه السلام أو بني أمية، ولا بد من القرار والموقف.

وقد حاول الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله أن يتجنب نقطة المفرق هذه، فلا يقاتل

---

(١) في رحاب عاشوراء: ١٣.

الحسين عليه السلام ولا ينضم إلى معسكر الحسين عليه السلام عندما طلب من الإمام أن يأخذ طريقاً لا يصله إلى الكوفة ولا الحجاز، وبذلك لا يدخل في إثم قتل الحسين عليه السلام ولا يتخلى عن قيادة الجيش الأموي، ولكن الله أراد أن يوصله إلى نقطة المفرق الذي أراد أن يتحاشاه والذي لابدّ له فيه من القرار.

وعندما يتخذ الإنسان هذا القرار بوعي أو بصيرة من أمره. ينتزع نفسه بحركة قوية وسريعة مرة واحدة من وسط كل العلاقات والصلات والأواصر التي تشدّه إلى هذه الدنيا من مال وبنين، وأزواج، ومتاع الدنيا، ولذات، وشهوات، وجاه، واعتبارات اجتماعية، بحركة واحدة يقطع كل هذه الحبال، والخيوط، والوشائج التي تشده إلى الدنيا ويخف للصعود إلى الله.

قصة فضيل بن عياض:

يروى أن الفضيل بن عياض كان في أول حياته من رؤساء العصابات، تسلق في أحدى الليالي داراً فوجد صاحبها يقرأ في أثناء الليل القرآن، وقد بلغ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[١]، فتاب ورجع وأصبح من الصالحين من عباد الله وقال: بلى والله لقد آن أن يخشع قلبي لذكر الله، وكان من التوابين المعروفين[٢].

التوبة:

والتوبة تحمل هذا النوع من الانقلاب العميق.

وقيمة التوبة في العزم على العودة إلى الله، والكف عن معصية الله، والاستحياء منه تعالى، والندم. وليست التوبة في حقيقتها إلا هذا العزم، والاستحياء والندم[٣].

وهي حالات يحبها الله تعالى لعبده، تستنزل رحمته، وقيمة التوبة عند الله تقدر بها.

والذي يتوب إلى ربه توبة نصوحاً لا شك يستشعر بهذا الانقلاب في نفسه.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٢) له ترجمة في تذكرة الحفاظ١: ٢٢٥، وتهذيب التهذيب ٨: ٢٩٤، والجواهر المضيئة ١: ٤٩٠، وحلية الاولياء ٨: ٨٤؛ والرسالة التفسيرية، ووفيات الاعيان ٣: ٢١٥.

(٣) في رحاب القران ٩: ١٨٦.

انقلاب وليس اضطراب

وينبغي أن نقول إن هذا الذي نتحدث عنه هو الانقلاب وليس الاضطراب والتقلب في المواقف بين الإقدام والإحجام..

كما نجد في الناس من يصلي يوماً ويترك الصلاة يوماً آخر ويتوب ويرجع من توبته.

إن ظواهر التقلب والاضطراب ظواهر سطحية، أما الانقلاب فظاهرة عميقة تتطلب الدراسة.

وما حدث للحر ولزهير (رحمهما الله) من الانقلاب وليس من الاضطراب والتقلب السريع في المواقف والآراء والقرارات..

عوامل الانقلاب عند (الحر) و(زهير)

كان الحر يشغل موقعاً حساساً في قيادة قطع عسكرية لابن زياد، أرسلها لاعتقال الحسين عليه السلام.

وكان إلى جنب هذه المهمة وهذا الموقع يتمتع بضمير حر، وكان لسلامة الضمير دور فاعل في تأريخ الحر رحمه الله والانقلاب الكبير الذي حدث له في كربلاء يوم العاشر من محرم، فتحول من جيش ابن زياد إلى جانب الحسين عليه السلام، وقد عبّر هو رحمه الله عن هذا الانقلاب بقوله: أني أخيّر نفسي بين الجنة والنار، والله لا اختار على الجنة شيئاً ولو أحرقت، ثم ضرب جواده نحو الحسين عليه السلام منكساً برأسه حياءً من الحسين حيث جعجع بهم في هذا المكان[1].

هكذا في لحظات قصيرة، وسريعة، وبحركة خفيفة، ينتقل الحر من محور إلى محور، ومن موقع إلى موقع معاكس للأول تماماً، ويهجر إمارة جيش عمر بن سعد ويتحوّل إلى جانب الحسين عليه السلام، ومن الأنا إلى الله تعالى، وتلك هجرتان تتمان في اللحظات الأخيرة من حياته في لحظة قصيرة وسريعة[2].

وأما الانقلاب الذي حدث في حياة زهير بن القين رحمه الله فكان من نوع آخر.

زهير لم يكن قائداً لابن زياد ولا في جيش يزيد، ولم يكن خارجاً إلى قتال الحسين، وإنما كان يحترز من أن يلقى الحسين عليه السلام.

---

(١) مقتل المقرم: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) في رحاب عاشوراء: ٧١.

وظروفه لم تكن تجعله بين الجنة والنار كالذي حدث مع الحر، وإنما كان بإمكانه أن يتجنب النار بالابتعاد عن مسيرة الحسين وقد حاول بالفعل ذلك.

إن التحليل الذي ذكرناه للحر لا يكاد يصح في قضية زهير بن القين.

ونحن لا نشك في سلامة ضمير زهير، ولكن ظروف زهير لم تجعله في مواجهة توبيخ وتعنيف الضمير وجهاً لوجه.

ولذلك نحن نميل إلى القول بأن شيئاً آخر كان من وراء انقلاب زهير، ولم يحدث هذا الانقلاب على الطريقة التي تم للحر رحمه الله فقد كان زهير رحمه الله عثماني الهوى، ولم يكن هواه مع آل محمد صلى الله عليه وآله وقد حج البيت في عام(٦٠هـ)، وكان يساير موكب الحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق إلّا انه كان يحرص إلا ينزل بالقرب من خيام الإمام، مخافة الاجتماع به، حتى انتهت قافلة الإمام إلى منطقة (زرود)، فلم يجد زهير رحمه الله بداً من أن ينزل بالقرب من خيام الحسين عليه السلام فأرسل إليه الحسين عليه السلام رسولاً يدعوه إليه وكان زهير مع صحبه يتناولون الطعام، فجاءه رسول الحسين عليه السلام وأبلغه دعوة الحسين فطرحوا ما في أيديهم من الطعام، وكَأَنَّ على رؤوسهم الطير، فأنكرت عليه زوجته (دلهم رحمها الله) ذلك، وقالت: «سبحان الله، يبعث اليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه! لو أتيته وسمعت كلامه!».

فانطلق زهير على كراهية منه إلى الإمام، فلم يلبث أن عاد مسرعاً، وقد تهلّل وجهه وامتلأ غبطة وسروراً ثم أمر بفسطاطه وما كان له من ثقل ومتاع، ان يتحول إلى خيام الحسين، وقال لزوجته: «أنت طالق» ثم قال لأصحابه سأحدثكم حديثاً: «غزونا (بلنجر) ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، ففرحنا وكان معنا سلمان[1] الفارسي. فقال لنا أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمد، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من الغنائم)[2]..

سبحان الله! ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رحمه الله وماذا سمع زهير من الحسين عليه السلام؟

---

(١) في اغلب الظن ان سلمان هذا هو سلمان الباهلي القائد الإسلامي المعروف بفتوحاته العسكرية وليس هو سلمان الفارسي كما ورد في الرواية، كما نعتقد ان كلمة (بلنجر) وقع سهواً من النساخ والصحيح هو بالبحر ففي تللك الفترة كان المسلمون يغزون ما وراء البحار.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ باقر شريف القرشي ٣: ٦٦-٦٧. نقلاً عن الإرشاد: ٢٦٤. وتاريخ ابن الأثير: ٣: ١٧٧. وانساب الأشراف ق١: ١. والدر النظيم: ١٦٧.

إنّا لا نعرف شيئاً من ذلك.

الرواية تقول إن زهير حكى بعد ذلك قصته مع سلمان.

وأنا لا أنفي الرواية ولا استبعدها، ولكن أقول: أن قصة سلمان لم يكن السبب في عودة زهير وانقلابه، وان لهذا الأمر شأناً آخر.

عناصر التحليل:

والآن نعود إلى تحليل قصة زهير في ضوء الرواية التاريخية المعروفة في السيرة، وعناصر هذه القصة كما يلي:

أولاً ـ الشخصية العثمانية:

إن في شخصية زهير هوى لعثمان وبني أمية، ولا شأن لنا بذلك (فقد كان عثمانياً) ولم تكن العثمانية يومئذ تكلف صاحبها، فقد كان الحكم عثمانياً أموياً. والاتجاه الحاكم لا يحتاج إلى تفسير وتبرير وإنما الاتجاه المعارض هو الذي يحتاج إلى التفسير والتبرير، والناس على دين ملوكهم، وزهير كان من هذا القبيل، ولذلك لا نتوقف طويلاً عند عثمانية زهير.

ثانياً ـ الابتعاد عن الحسين عليه السلام:

ولابدّ هنا من الإشارة إلى النقاط التالية:

١ ـ لم يسجل لنا التاريخ موقفاً سلبياً عن زهير اتجاه الحسين عليه السلام كما سجل لنا مثل هذا الموقف عن الحر رحمه الله.

٢ ـ لم يكن زهير يريد أن يدخل في شيء من أمر الحسين عليه السلام من خير أو شر، وكان يريد أن يبتعد عن الحسين عليه السلام، لذلك كان يحاول أن يتخلف عنه في المكان حتى لا يلتقي به.

٣ ـ كان من رأيه أن لا يبتلي في شيء من أمر الحسين عليه السلام فإنه إن استجاب لدعوة الحسين عليه السلام فقد دنياه، وإن أصبح في مواجهته وفي مقابلته فقد آخرته. فمن الأسلم لدينه أن يبتعد عن طريق الحسين عليه السلام حتى يحافظ على دينه ودنياه معاً.

٤ ـ لم تكن لديه نقطة واضحة يسجلها على الحسين عليه السلام، وإنما كان يعاني من تراكم عاطفي جرّاء ولائه لعثمان، فكان حاله يشبه حال الانغلاق والعناد، دون عزم وقرار، ولم يكن لديه قرار وعزم في القضية.

ولذلك لما دعاه الحسين عليه السلام أصيب بالوجوم، وحالة الوجوم هي حالة الإنسان الفاقد للقرار.

ثالثاً ـ تدخّل زوجته دلهم بنت عمرو وإنقاذ زهير من حالة التردد:

كانت زوجته دلهم بنت عمرو رحمها الله هي التي دفعته وشجعته على الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، فقد أصابه وأصاب رفاقه وجوم غريب عندما جاء رسول الحسين عليه السلام وهو وصحبه على الطعام، يدعوه إلى زيارة الإمام، فصمت وصمتوا، وكأنّ على رؤوسهم الطير.

فاخترقت المرأة الشجاعة (دلهم بنت عمرو) رحمها الله، هذا الصمت والوجوم بقوّة، وقالت لزوجها ـ ورسول الحسين يسمعها ويشهد الموقف ـ: (سبحان الله أيبعث اليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه، لو تأتيه فسمعت كلامه؟!!).

ومع ذلك فلم يتردد زهير عندما قرر الوفود على الله تعالى مع الحسين عليه السلام أن يقول لزوجته دلهم ـ هذه المرأة الشجاعة: (الحقي بأهلك)، لئلا يلحقها شيء مما يصيبه من الأذى.

رابعاً ـ الانجذاب إلى الحسين عليه السلام:

فلم يجالس (زهير) الحسين عليه السلام حتى جذبته شخصية الحسين عليه السلام جذباً قوياً، ورجع زهير عائداً إلى أهله بغير الوجه الذي خرج عنهم إلى الحسين عليه السلام وبشخصية أخرى تماماً، فلم يلبث أن عاد مسرعاً، وقد تهلل وجهه وامتلأ غبطة وسروراً ثم أمر بفسطاطه وما كان عنده من ثقل ومتاع، فحوله إلى خيام الإمام.

الدراسة التحليلية

١ ـ الوجهان المختلفان لشخصية زهير

إن زهير يستبطن في داخله شخصيتين واتجاهين:

الشخصية الأولى تبتغي الراحة في الدنيا والآخرة، وتطلب الدنيا والآخرة معاً، وهو لذلك كان يتجنب اللقاء بالحسين عليه السلام، وكان عثماني الهوى في غير إفراط لا يكلفه آخرته.

وهذه هي الشخصية الأولى، تطلب العافية وتؤثر الراحة.

والشخصية الثانية شخصية مختلفة عن الشخصية الأولى تحتفظ بسلامة الفطرة وتؤثر التضحية والعطاء والفداء على الراحة والعافية.

٢ ـ الصراع بين شطري شخصية زهير (الصراع الداخلي)

كانت الشخصية الثانية أقوى في زهير من الأولى التي كانت تحاول أن تحجب الشطر الثاني من شخصيته، وكانت تعمل لإبعاد صاحبها عن مسير حركة الحسين عليه السلام لئلا يلتقي به، فيسلبه العافية والدنيا التي كان يتمتع بها، في غير تقاطع مع الآخرة.

إن هذا الصراع والتدافع بين شطري شخصية زهير واضح لمن يتأمل في محاولة زهير الابتعاد عن مسير حركة الحسين عليه السلام، ثم وجوم زهير عند دعوة الحسين عليه السلام له وتردده في الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام.

وعندما تتدخل زوجته، مستنكرة حالة التردد والوجوم البارز عليه وصحبه يستجيب لرسول الحسين عليه السلام، ويمضي معه إلى الحسين عليه السلام.

٣ ـ زهير في مجال الجاذبية الحسينية:

وفي هذا اللقاء يقع زهير تحت تأثير الجاذبية الحسينية بصورة مباشرة وينجذب بصورة قوية للشخصية الحسينية.

ويتلقى زهير بفطرته السليمة الجاذبية الحسينية.

لأن الفطرة السليمة تنجذب للقيم والكمال والجمال بصورة قوية وسريعة.

وكما أن للجاذبية في الفيزياء قوانين فإن للجاذبية فيما بين النفوس قوانين.

وكلما تكون الفطرة أنقى وأصفى، وكلما تكون القيم أرفع وأكمل تكون الجاذبية أقوى وأسرع.

إن علماء الفيزياء بعد نيوتن استطاعوا أن يدرسوا قانون الجاذبية بتفصيل ويكتشفوا أسرارها ولكن لم يدرس العلماء إلى اليوم قوانين التجاذب بين النفوس لحد الآن.

ولكننا مع ذلك نعلم حقيقتين:

الحقيقة الأولى:

إن هذه الجاذبية سريعة جداً وتتم في لحظات قليلة وبصورة سريعة.

يقولون علماء الفيزياء أن سرعة الجاذبية سرعة خارقة، وأكثر من سرعة النور ولا تقصر عنها سرعة التجاذب فيما بين نفوس الصالحين.

أنا لا أعلم ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير، ولكني أعلم أن لقاء الحسين عليه السلام بزهير رحمه الله لم يكن يخضع للصيغ المألوفة للهداية والإرشاد والتوجيه.

إن هذه الصيغ تتطلب زماناً طويلاً ومعاناة طويلة تواجه عادة صدوداً من الطرف الآخر، فماذا قال الحسين لزهير، حتى استطاع أن يغير رأيه واتجاهه في بضع دقائق.

إن هذا اللقاء لا يفسره غير قانون التجاذب بين القلوب والأرواح.

فماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رحمه الله في هذه اللحظات، وكيف استجاب له زهير بهذه السرعة من غير صدود وتمنع، وبصورة سريعة.

إن الجواب يبقى مجهولاً لدينا حتى نكتشف قوانين الجاذبية في عالم الميتافيزياء، كما كشفها العلماء من قبل في الفيزياء.

الحقيقة الثانية:

إن زهير عندما انصرف إلى أهله كان شخصاً آخر، تماماً فقد انزوى الشطر الأول من شخصيته الذي كان يطلب العافية ويؤثرها، وها هو زهير يطلب المواجهة والقتال، ويطلّق زوجته ويتخلى عن كل شيء، ويتجرد من كل علاقة تشده إلى هذه الدنيا في حركة سريعة وخفيفة ويعيد زوجته إلى أهلها ويضم رحله إلى رحل الحسين عليه السلام.

كان عثماني الهوى فأصبح علوياً- حسينياً، وكان يؤثر العافية فأصبح يبحث عن الابتلاء والمواجهة، وكان يحاول أن يبتعد عن الحسين عليه السلام فأصبح يتابع الحسين عليه السلام ولا يكاد يفارقه.

إن أمر هذا الانقلاب الشامل وقوته وسرعته ونفاذه يبقى مجهولاً لدينا ما دامت قوانين الجاذبية بين النفوس مجهولة لنا.

ومن المستبعد جداً أن يكون الحديث الذي سمعه زهير من سلمان، فذكّره الحسين عليه السلام به، كان سبب هذا الانقلاب وان كنا لا ننفي الحديث.

ونحن نجد أثر هذا الانقلاب في كلمات زهير رحمه الله يوم عاشوراء حينما خاطب الشمر بقوله: «أفبالموت تخوفني؟ فوالله للموت معه أحب إلي من الخلد معكم»[1].

قوانين تجاذب القلوب:

إننا نجهل تماماً قوانين التجاذب فيما بين القلوب، ولكن نعلم أنها واقعة وحاصلة.

ومن نماذج هذه الجاذبية (الحب) ولع الناس وهيامهم العجيب بالحسين عليه السلام وزيارة قبره، ومجالس عزائه.

وحبّ الناس من قبله لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته. ولأولياء الله الصالحين من عباده ولأنبياء الله وأوصيائهم، وإتصال هذا الحب جيلاً من بعد جيل.

وليس من تفسير لهذا الحب والانجذاب والهيام غير هذه الجاذبية الروحية التي نعرفها بحضورها الواسع في حياتنا وعلاقاتنا الدينية والأخلاقية، ونجهل أسرارها وقوانينها.

وهذا الودّ والحبّ غير الحب والغرام الذي يتحدث عنه الناس، إنّه من مقولة أخرى تختلف اختلافاً جوهرياً عنه، إن ذلك الحب والغرام من مقولة الأجسام والأهواء، حتى المشروع المعقول منه، وهذا الودّ والحب من مقولة النفوس والفطرة والأرواح والقلوب. هو موهبة ربانية يهبها الله تعالى لمن يحبه الله تعالى من عباده الصالحين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[2]، والذين ينجذبون إلى هذا المحور هم من ذوي الفطرة السليمة الذين لم يفسدوا فطرتهم التي رزقهم الله بالأهواء والشهوات.

---

(١) مقتل المقرم: ٢٣٢.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٩.

بؤر الانجذاب في الإنسان:

في حياة الإنسان بؤرتان للانجذاب ينجذب الإنسان من خلالهما.

البؤرة الأولى الروح والفطرة.

البؤرة الثانية الأهواء والغرائز.

البؤرة الأولى نفحة من روح الله والبؤرة الثانية من متطلبات الحمأ المسنون.

تنجذب البؤرة الأولى إلى صفات الجلال والجمال والمعرفة والقيم، ولذلك فإنها تجتذب لله تعالى رب الجلال والجمال والقيم وخالق الجلال والجمال والكمال والقيم. وقد أودع الله تعالى في فطرة الإنسان ونفسه هذا الانجذاب إليه تعالى ثم في المواضع التي أودع فيها هذا الجمال والجلال والكمال والقيم.

والبؤرة الثانية تنجذب إلى المغريات والمثيرات المادية القائمة في الحياة الدنيا، وهي الفتن التي تشير إلى طائفة منها الآية ١٤ من آل عمران ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

ولذلك تنجذب فطرة الإنسان بصورة قهرية إلى مواضع الجمال والجلال، حيث يكون في الخالق والمخلوق في ربوبية الله وجبروته وكبريائه وجلاله وجماله، وفي خشوع العبد وخضوعه وإخباته وصدقه وتقواه.

وتطرّد نسبة الانجذاب والحب إلى مشاهد الجلال والجمال بمقياس سلامة فطرة الإنسان ونفسه.

ومهما تكن الفطرة سليمة نقية يكون هذا الانجذاب أقوى وأشد، فإذا تلوثت الفطرة والنفس بالأهواء والشهوات تضاءلت حالة الانجذاب حتى تصل حد الصفر، ثم يبدأ العد العكسي تحت الصفر.

إن الفطرة السليمة تنجذب إلى الله تعالى، رب الجلال والجمال، وخالق الجلال والجمال، جذباً قوياً، ومشاهد هذا الانجذاب هو الصلاة والمناجاة والسجود والذكر والشكر والطاعة، كما تنجذب إلى المواضع التي أودع الله فيها الجلال والجمال، في خلقه وعباده من

الصدق والصلاح والتقوى والعبودية والتواضع والإخلاص والخشوع والإخبات.. ومشاهد هذا الانجذاب إقبال النفوس على الصالحين الصادقين، أصحاب التقوى واليقين من عباد الله. كما تنفر الفطرة السليمة من الفاسدين والمجرمين المتكبرين والمستكبرين والطغاة والجبارين.

وبعكس ذلك تميل الفطرة التي تلوثها الأهواء والمعاصي والذنوب، وتستغرقها الشهوات إلى الفاسدين المجرمين وتنجذب إليهم، كما تنفر من الصالحين، كما كان أبو جهل ينفر من رسول الله ﷺ...

وهذا الباب من المعرفة يفسر لنا الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ في علي عليه السلام: **يا علي (لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق)**[١]، **يقول علي** عليه السلام: **(لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما ابغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها**[٢] **على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك انه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي ﷺ انه قال: (يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق)**[٣] والذي يثير الجذب الثاني في نفس الإنسان (القناطير المقنطرة من الذهب والخيل المسومة)، وبؤرة هذا الانجذاب في النفس الأهواء والشهوات..

تقارن الانجذابين

تخضع الملائكة- كما ورد في الروايات - للجذب الأول والحيوانات للجذب الثاني.

أما في الإنسان فان هاتين الجاذبيتين تتقارنان. ذلك ان الحيوان تراكم من الأهواء والشهوات والملائكة مجردة من الأهواء والشهوات.

أما الإنسان فهو تركيب من حمأ مسنون ونفخه من الروح، وهو مزيج منهما، ولهذا تقترن فيه هاتان الجاذبيتان.

وهذا الاقتران للجاذبيتين هو الذي يؤهل الإنسان ليكون خليفة الله تعالى من دون الحيوانات والملائكة، لأن حركته إلى الله تعالى(إلى الأعلى) تتم من خلال معاناة الابتلاء للتخلص من جاذبية الأهواء.

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٩٢، كنز العمال ١١: ٦٢٢، تاريخ دمشق ٤٢: ٢٧٩.

(٢) أي بأجمعها.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٧٣، البحار: ٣٤: ٣٤٤ قال المجلسي: الخيشوم أقصى الانف والجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1] والأمشاج الأخلاط الحاصلة من خليط الروح والجسم وحاجاتهما ومكوّناتهما وهذا الخليط يعرّض الإنسان للابتلاء والمعاناة، وهذه المعاناة تجعل حركة الإنسان إلى الله بالإرادة، وبمعاناة ومشقة.

إن الملائكة تتحرك إلى الله بالطبع وبفعل سلطان الجاذبية، أمّا في الإنسان فإن هذه الجاذبية تقابلها جاذبية أخرى، ولكي يتحرك إلى الأعلى لابدّ له من أن يتخلص من جاذبية (الحمأ المسنون) ولا يتم ذلك بدون معاناة.

وهذه المعاناة تتطلب استخدام الإرادة، وحركة الإنسان إلى الأعلى عبر الإرادة حركة غير محدودة، ولا سقف لها... بينما حركة الملائكة محدودة.

ومن هنا ورد في بعض الأحاديث أن هناك ملائكة تسبح فقط، وملائكة تركع فقط وملائكة تسجد وملائكة تدعوا.

أما الإنسان فلما كانت حركته إلى الله بالإرادة فهي حركة غير محدودة وغير مقيّدة.

والعكس أيضاً يصح فإن سقوطه أيضاً غير محدود.

والى ذلك يشير القرآن: ﴿أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[2].

بعكس الحيوانات فان لها حظاً محدوداً من الهوى، فليس لها حب المال والمنصب مثلاً، بينما دائرة أهواء الإنسان واسعة ولا حدود لها.

إن جاذبية الحمأ المسنون تجذب الإنسان إلى الأسفل وتعمق الأنا في الإنسان إذا استسلم لها الإنسان، وجاذبية الروح تجذب الإنسان إلى الأعلى وتُخلّص الإنسان من الأنا والأنانية والهوى، وتحرك الإنسان باتجاه القرب من الله.

الطرف المنجذب والطرف الجاذب

والآن نتحدث عن جاذبية الروح في جانبين:

الطرف المنجذب

فيما تقدم عرفنا أن مركز الانجذاب (الفطرة) السليمة تنجذب إلى الله تعالى (الكمال المطلق) بقوة كما تنجذب إلى كل جمال وكمال.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ودرجة الجذب تتوقف على سلامة الفطرة، فأن الفطرة السليمة تنجذب لله تعالى وللكمال وحملة الكمال والقيم من خلق الله، ولكن الأهواء والشهوات قد تحجب الفطرة فتضعف في الإنسان حالة الانجذاب، وقد تتعدى الشهوات هذه المرحلة فتفسد فطرة الإنسان بشكل كامل وعندها يفقد الإنسان خاصية الانجذاب.

فلا يكون لمركز الجاذبية أي تأثير في روح هذا الإنسان، وبالعكس تقوى جاذبية المال والموقع واللذات الأخرى في الإنسان فيتحرك الإنسان باتجاه السقوط فقط، وقد يزيد على ذلك فينفر من مراكز الجذب، وليس فقط لا يستجيب لله بل ويعرض عن الله تعالى.

لقد كان أبو ذر رحمه الله يلتقي رسول الله ﷺ كما كان يلتقيه أبو جهل، ولكن الأول ينجذب من النظرة الأولى ويلتصق برسول الله ﷺ والثاني ينفر ويعادي رسول الله ﷺ، ورسول الله لم يتغير في لقاء أبي ذر رحمه الله عن لقاء أبي جهل، وإنما الفرق في سلامة فطرة الأول وفساد فطرة الثاني.

الإحساس المجهول:

ويمكن القول إنّ هناك إحساساً مجهولاً يحرك الإنسان باتجاه مركز الجذب من دون أن يفهم هو ماذا يريد، فان سلمان الفارسي رحمه الله عندما تحرك من بلاد فارس كان يبحث عن رسول الله ﷺ وهو لا يعلم. وهذه الجاذبية كانت تجذبه من فارس إلى المدينة من دون أن يعرف ذلك هو في دائرة وعيه وشعوره.

وهذا الإحساس المجهول يغني الإنسان عن التوجيه والأدلة والبراهين والقضايا العلمية.

وعندما يصل أبو ذر وسلمان إلى رسول الله ﷺ يجدان سكوناً في النفس، واستقراراً، وركوناً، واطمئناناً لا يعرفان كنهه وجوهره.

هذه الجاذبية هي الحب: والركون وسكون النفس.

وقد ورد حب الله وحب أولياء الله والصالحين من عباده كثيراً في كتاب الله، وإليك نماذج من ذلك:

١ ـ الحب المتبادل بين الله وعباده:

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

٢ ـ حب العباد لله:

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[١].

٣ ـ حب الله لعباده:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

٤ ـ حب المؤمنين بعضهم لبعض:

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣].

إن حب الله وحب رسول الله ﷺ وأهل بيته وحب أولياء الله وحب المؤمنين من المسائل الأساسية في الإسلام، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (**وهل الدين إلا الحب؟**) في جواب سؤال من سأل(هل الحب من الدين؟)[٤].

والحب لله تعالى أساس ومحور في حياة الإنسان المسلم، فهو أساس لكل حب آخر، فلا بد من أن يكون أشدّ من أي حب في حياته، ومحور لأي حب آخر، ولا بد أن يكون أي حب آخر متشعباً من هذا الحب ومتفرعاً عنه، ولا بد أن يملك هذا الحب على الإنسان كل مشاعره وعواطفه ويتحكم في حبه وبغضه وحتى في درجات حبه وبغضه.

عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «لا يمحض رجل الأيمان بالله حتى يكون **الله أحب إليه من نفسه وأبيه وأمه وولده وأهله ومن الناس كلهم**»[٥].

جانبية الجمال والكمال والخير:

وهذه الجاذبية هي الحب الذي تقدم الكلام عنه.

وبؤرة الانجذاب في هذه الجاذبية، هي الفطرة والقلب وبؤرة الاستقطاب والجذب في هذه الجاذبية الخير جمال القيم والخصال والأخلاق.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٤) بحار الانوار ٢٧: ٩٥ و٦٥: ٦٣ و١٠١: ١٣٠.

(٥) كنز العمال ٨: ٣٧.

وبؤرة الاستقطاب الأول والأقوى في هذه الجاذبية هو الله تعالى حيث تجتمع لديه كل الخير والجمال والكمال بما لانهاية له، ثم بعد ذلك قيم الجلال والجمال والخير حيث يوجد الخير والجلال والجمال والكمال في أولياء الله تعالى وعباده الصالحين.

ودرجة الجاذبية ترتبط بأمرين:

بقوة مصدر الجاذبية.

واستعداد الطرف الآخر للانجذاب.

وهناك نوع آخر من الجذب والاستقطاب في نفس الإنسان ومركز هذا الانجذاب في النفس الهوى، وبؤرة الاستقطاب والجذب في هذه الجاذبية المغريات والمثيرات في الحياة الدنيا.

الحب والعشق:

هذا الذي شرحناه هو الحب.

وهو ينشطر إلى شطرين: شطر الهوى وشطر الفطرة والقلب.

وللحب درجات ولا نقصد بالحب هنا درجات الدنيا، بل الدرجات العليا من (الحب) وهو (الوله والعشق).

ولهذه المرحلة من الحب جاذبية فوق العادة.

ولسنا بصدد الحديث عن الحب الذي يصدر عن الشهوة والهوى، وإنما نقصد النمط الآخر من الحب (العشق) الذي يصدر عن القلب.

وهذا الحب يكون لله تعالى ولأوليائه في قلوب عباده.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[1].

هذا الحب هو الحب الإلهي سواء تعلق الحب بالله تعالى أو تعلق بعباده الصالحين، فإن مصدر هذا الحب هو الله تعالى، ومآله إلى الله. فإن هذا النمط من الحب لابد أن يكون من الحب لله وفي الله، ومن دون ذلك فلا قيمة له ولا كرامة.

إن قوانين هذا الحب مجهولة لنا كما قلنا، ولكن نحن نجد أن هناك بعض النفوس لها تأثير قوي في البعض الآخر عندما يلتقيان، حيث ينجذب أحدهما للآخر انجذاباً قوياً.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٦.

الحب استجابة لجاذبية الحبيب:

ليس المحب هو الذي يسعى إلى من يُحبّ، وإنما قيمة الحب أنّه استجابة من المحب لمن يُحبّ استجابة والحبيب هو الذي يجذب المحب، فيستجيب المحب لجاذبية الحبيب.

وحركة الإنسان إلى الله (صلاته، دعائه، مناجاته، حبه، عمله لله، جهاده في سبيل الله)، كل ذلك من فعل جاذبية الله للإنسان والفرق بين المؤمنين والكفار ان الكفار يعاكسون هذه الجاذبية والمؤمنون يستجيبون لهذه الجاذبية.

مسكين هذا الإنسان يتصور أنه هو يتحرك إلى الله، ويسعى، ويعمل، ويدعو، ويصلي، ثم لا يقبل عليه الله، ولا يتقبّله ولا يستجيب لـه. ولا يعلم أنّ صلاته، ودعائه، وحرقته، وبكاءه، ومناجاته هو من فعل جاذبية الله... وأكثر ما يفعل العبد هو أن يستجيب لهذه الجاذبية ولا يعارض، ولا يعاكس هذه الجاذبية.

وهذه المسالة من المسائل الدقيقة الحساسة في علاقة الحب بين المحب ومن يُحبّ.

إنّ (الحب) ليس فعلاً للمحب، وإنما هو استجابة لجاذبية الحبيب فقط وعليه فان الحركة الكبيرة والانقلاب الكبير الذي يتم في حياة المحبين من محور الذات والأنانية إلى محور حب الله. هذه الحركة والانقلاب، والتوبة، والعودة إلى الله تعالى، والإخبات، والتضرع، والشوق، والذوق، والأنس، والذكر، والشكر، والسجود، والقيام بين يدي الله... كل ذلك يتم بفعل جاذبية الحبيب.

والمطلوب من الإنسان في دائرة الجاذبية الإلهية أن لا يعاند ولا يشاقق فقط.

أثر الحب في النفس:

الحب مصدر الانقلابات الكبرى في داخل النفس، وعندما يعيش الإنسان خارج دائرة الحب، فإنه يعيش حياة خاملة، ولا يشعر بقيمة الحياة إلا حينما يدخل في دائرة الحب، عندئذ يتذوق الإنسان طعم الحياة.

وللحب آثار عديدة في داخل النفس، أهمها:

١ ـ التحرر من الأنا:

أول أثر لفعل الحب في النفس أنّ الحب يحرّر الإنسان من الأنا ويكسر غلواء الأنا. والإنسان الذي يدخل في دائرة حب الله ورسوله وأوليائه يتحرر من الأنا، ويتحرر من الآثار

والتبعات التي تلحق الـ (أنا)، كالحرص، والطمع، والجشع، وطول الأمل، والحسد، وحب المال، والدنيا والأهواء.

وهذا هو الانقلاب الأعظم في داخل النفس.

الحب ينتزع الأنانية من نفس الإنسان، لأن الإنسان عندما يحب ينتقل اهتمامه وتعلقه من محور (الأنا) إلى محور آخر خارج (الأنا)... وهذا أمر طبيعي في كل حب.

والحب يوسع من دائرة شخصية الإنسان (الأنا)، ويرقق الأنا، ويلطّفه، ويسلب منه الحالات السلبية. وفي هذه التوسعة تلطيف وترقيق وتهذيب للأنا. فإذا أحب الإنسان شيئاً استبطن حبه في نفسه وأصبح شطراً منه.

٢ ـ الحب أداة لتهذيب النفوس:

قلنا إنّ الحب يوسع دائرة الأنا، ويرقّق (الأنانية) ويلطّفها والإنسان بقدر ما يحب يفنى ويذوب فيمن يحب، وبنفس المقياس يرقّ الأنا ويضعف في شخصيته فلا يكون (الأنا) كل همّه وطلبه وسعيه.

ومحور الأنا في حياة الإنسان يستتبع جملة من الخصال الذميمة التي يجب أن يسعى الإنسان لتهذيب نفسه منها كالبخل، والشح، والطمع، والحرص، والحسد. وكل ذلك أعراض (الأنا) وآثاره وكلما يضعف (الأنا) في شخصية الإنسان تضعف هذه الخصال. ولما كان الحب يلطّف (الأنا) ويرقّقه ويكسر حدّته فمن الطبيعي أن يكون الحب وسيلة لتهذيب النفس، واستخلاص النفوس من خصال الأنا والهوى السلبية.

٣ ـ تفجير الطاقات:

الأثر الآخر الذي يتركه الحب هو تفجير الطاقات الكامنة في نفس الإنسان. فإن الله تعالى قد أودع في الإنسان كنوزاً من المواهب والطاقات وهذه الطاقات تتفجر عندما يدخل الإنسان دائرة جاذبية الحب.

إن الحب يمنح الإنسان الجرأة، والشجاعة، والفداء، والعطاء، والإقدام، والإخلاص، والشوق، وقد يكون الإنسان واحداً من عامة الناس فإذا دخل في دائرة الحب تفجرت هذه الطاقات والكنوز في نفسه، فكأنه يتحول إلى شيء آخر، يختلف تماماً عمّا كان عليه.

وحب الله تعالى وحب أولياء الله في الله يربط الإنسان بمبدأ كل موهبة ويفجر في نفسه هذه المواهب، ويمنح الإنسان رقّة وعاطفة في القلب.

٤ ـ الحب باب من أبواب الإلهام:

وكما يسلك الإنسان إلى المعرفة سبل الهداية والتوجيه والتعليم والدراسة، كذلك قد يسلك سبل الحبّ إلى المعرفة والوعي. فإذا أحب الإنسان الله تعالى فتح الله على قلبه أبواب المعرفة والوعي.

والحب لله وفي الله الطريق الأقصر إلى المعرفة وليس معنى ذلك إلغاء دور التعليم والإرشاد في اكتساب المعرفة والاكتفاء بالحب عن التعلم والدراسة، كما يقول بعض المتصوفة.

محور الحركة إلى الله تعالى:

إن للحركة إلى الله تعالى محورين ومسلكين، أحدهما عن طريق (القلب) والثاني عن طريق (العقل)، والطريق الأول أسرع وأقوى من الطريق الثاني.

وقد ينجذب الإنسان إلى الله تعالى وإلى أولياء الله بلقاء سريع أو بكلمة عابرة، وهذا طريق سريع يقترن بالشوق والحب، وكذلك كان لقاء أبو ذر، وسلمان، وعمار، ومصعب برسول الله ﷺ.

وقد تكون الحركة إلى الله بالهداية والتوجيه والتعقل وهذا طريق بطيء لا يحمل حرارة وشوقاً كالأول ولكن فيه قناعة وقبول وتسليم عقلي.

وقد يقترن هذان الطريقان: (الهداية، والجذب)، ببعض، فيكون الجذب بعد التوجيه والنصيحة ومعه.

إنّ طريق الحركة إلى الله بالجذب طريق سالك إلى الله، سلكه الكثيرون من عباد الله، وبلغوا ما يشاؤون من معرفة الله، والمعرفة التي تأتي عن طريق الحب والجذب شفّافة، والطريق إليها سريع وقصير.

إن آية من القرآن يقرأها رسول الله ﷺ على أعرابي يقدم عليه من البادية فتجذبه وتغير أفكاره ومنهجه وحياته، وتحدث داخل نفسه انقلاباً عميقاً لا يمكن ان تفسر بما يألف الناس من وسائل الإقناع والاقتناع.

الانقلاب:

هذه الجاذبية تؤدي إلى انقلاب كامل وسريع في شخصية الإنسان. يحرّر الإنسان من سلطان الهوى، ويدخله في دائرة نفوذ سلطان الله تعالى، وينقله من بؤرة الهوى في نفسه إلى

بؤرة الفطرة، وإذا انتقل الإنسان من محور الهوى إلى محور الفطرة، يتغير كل شيء في حياته: حبه، وبغضه، وحركته، وميوله، ورغباته، وعواطفه، وأخلاقه، وسكونه، وغضبه ورضاه.

هذا الانقلاب هو من فعل الجاذبية وتأثيرها، ومن خصائصه أنه يتم بسرعة، ويغير كل شيء في الإنسان وحياته.

* * *

وبعد فقد أطلت الحديث عن الحديث، واسترسلت فيه، ولم أكن أقصد ذلك، ولعل في ذلك فائدة ونفع للمؤمنين.

زهير رحمه الله في مواجهة الجاذبية الحسينية:

لقد كان زهير في مواجهة الجاذبية الحسينية، وكان قريباً من هذه الجاذبية جداً. وكانت هذه الجاذبية تشدّه وتجذبه بقوة... وكان يحتفظ في نفسه بشخصية أخرى، تعاكس هذه الجاذبية، وتحاول أن تحجبه عن الحسين عليه السلام بينما تستجيب له فطرته... لقد حاول كثيراً ان يبتعد عن طريق الحسين عليه السلام لئلا يقع في هذا التقاطع الغريب بين الهوى من جانب والفطرة من جانب آخر.

إن سلوك زهير رحمه الله النفسي في هذه المرحلة يدعو إلى كثير من التأمل... ان زهير يحتفظ في داخله بحالة من التمنع من لقاء الحسين عليه السلام والاستماع إليه يشبه العناد، ونجد في هذه النفس أيضاً حالة من الاستجابة السريعة القوية، والانشداد يشبه الهيام والشطر الأول من شخصيته يعرف أنه إذا التقى بالحسين عليه السلام وسمع إليه، فسوف ينجذب إليه لا محالة انجذاباً قوياً ويقع في دائرة نفوذ كلام الحسين عليه السلام فيحاول ان يمنعه من اللقاء بالحسين عليه السلام، ويحاول ان يبعد زهير عن طريق الحسين عليه السلام حتى لا يقع في هذا المجال المغناطيسي القاهر.

ولكن الله تعالى يريد لزهير رحمه الله ان يدخل مجال الجذب، وينجذب إلى الحسين عليه السلام رغم كل العناد والتمنع الذي يعمل في نفسه، فلنستمع إلى قصته برواية الطبري عن أبي مخنف.

الرواية التاريخية:

يقول أبو مخنف، عن بعض الفزاريين قال: (كنا مع زهير بن القين حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلف زهير وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدم زهير)[١].

وهذا هو شطر العناد والصدود في شخصية زهير رحمه الله يحاول ان يبتعد عن الالتقاء بالحسين عليه السلام...

ثم تقول الرواية: (حتى نزلنا يوماً في منزل لم نجد بداً من أن ننازله فيه فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب فبينا نحن نتغذى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام فسلّم ودخل. فقال: يا زهير، إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأنّ على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدثتني دلهم بنت عمر امرأة زهير، قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت، قالت: فأتاه زهير)[٢].

إن المنزل الذي جمع زهير رحمه الله بالحسين عليه السلام هو الماء الوحيد في مساحة شاسعة من الصحراء، لا يمكن ان يتجاوزه زهير رحمه الله ولابدّ له من الاجتماع بالحسين عليه السلام في منزل واحد... وهنا يتدخل طرف ثالث في القصة.

لحدّ الآن كنّا مع زهير والحسين عليه السلام.

الحسين عليه السلام يطلب زهيراً، وزهير يبتعد حتى لا يلتقي بالحسين عليه السلام.

ويدخل الآن عنصر ثالث طالما دخل في حياة الإنسان وهو يد الله تعالى لكي يجمعهما من غير ميعاد، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾[٣].

فيبعث الحسين عليه السلام رسولاً إلى زهير ليقول له: (أن أبا عبد الله الحسين عليه السلام بعثني إليك لتأتيه).

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٩٨ ط الأعلمي ـ بيروت.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة الانفال، الآية: ٤٢.

فيغلبهم الوجوم، فيلقي كل منهم ما في يده من الطعام، كأن على رؤوسهم الطير.

مفاجأة للشطر المعاند الصاد من شخصية زهير ﷺ، يفاجؤه الحسين ﷺ بهذه الرسالة التي لم يكن يتوقعها، فلا يدري ماذا يفعل، ولا يدري ماذا يقول.

ومرة ثانية تتدخل يد الله تعالى وعنايته فتتكلم دلهم زوجة زهير لتنقذ الموقف فتقول في تعجّب وإنكار لوجوم زهير: (أيبعث إليك ابن رسول الله ﷺ لتأتيه ثم لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت)... فتتدخل الإرادة الإلهية مرة ثانية لتنطق دلهم(رحمها الله) لتنقذ الموقف المحرج.

رحمك الله يا دلهم، لولا هذا التدخل السريع، والتذكير السريع، واختراق سكون الوجوم بالرأي الحاسم القاطع، بسرعة، وحسم، لكان تاريخ زهير يجري مجرى آخر.

لكان زوجك زهير شخصاً من عامة الناس، من الذين يأكل الدهر عليهم ويشرب، ويعيشون أيام ثم لا يكون لهم ذكر ولا يأبه به التاريخ.

رحمك الله يا دلهم، هذه الكلمة الحاسمة القاطعة أنقذت الموقف المحرج، وأدخلت زهير في دائرة رحمة الله الواسعة في الآخرة، وفي رحاب التاريخ في الدنيا من أوسع الأبواب.

ونرجو ونسأل الله تعالى أن تكوني أنتِ شريكة زوجك فيما أتاه الله تعالى من عظيم الثواب... ولم لا؟ وأنتِ صاحبة الفضل عليه فيما بلغه من رحمة الله الواسعة.

الكلمة التي صنعت التاريخ:

ما هو التاريخ؟

إنه إرادة الله ومشيئة الله وتوفيقه.

ومن لا يرى يد الله تعالى وإرادته في صناعة التاريخ فهو لا يبصر شيئاً من التاريخ، ولا يبصر من التاريخ إلّا السطح الضحل.

وما أكثر ما يصل الإنسان في مسيرته السياسية والاجتماعية إلى طريق مسدود تماماً، فيفتح الله لهم الطريق.

وما أكثر نماذج السلطان الذي بلغ اقصاه في حياة الطغاة والجبابرة، ثم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر في عشية أو ضحاها، وهم يلعبون، وسادرون في غيهم وغفلاتهم وسكرهم.

وما أكثر المستضعفين الذين بسط الله تعالى السلطان والقوة والعزة لهم، وكانوا من قبل يعيشون الظلم والاضطهاد، تضيق بهم الأرض بما وسعت.

وما أكثر ما يبذل الناس من جهد من أجل الدنيا وسلطانها ولذاتها فتذهب هباءً منثوراً لا يأتي بشيء ويذهب صاحبها معها، فلا يبقى له ذكر ولا خبر.

وما أكثر الذين رفعهم الله تعالى بكلمة أو موقف أرادوا به وجه الله، فأعزهم، وأكرمهم، وأدخلهم في رحاب رحمته الواسعة، ومكنهم من الأرض، وأدخلهم في رحاب التاريخ من أوسع الأبواب.

إن الذين لا يرون يد الله تعالى لا يستطيعون ان يعرفوا التاريخ.

لقد شاء الله ان يغير مسار حياة زهير رحمه الله وهو في صدوده للحسين عليه السلام وامتناعه عنه بكلمة من رسول الحسين عليه السلام وكلمة من زوجته تبدد الوجوم الذي حكمهم عندما أبلغهم رسول الحسين عليه السلام دعوته، ثم بلقاء سريع مع الحسين عليه السلام، فيتغير كل شيء في حياة زهير، وينقلب زهير رحمه الله انقلاباً كاملاً عما كان عليه بهذه الكلمة، وبذلك اللقاء.

ينقلب من العثمانية (الأموية) إلى العلوية الحسينية. وينقلب من الصدود والتمنع إلى الاستجابة الكاملة، ومن الكراهية إلى الحب، ومن إيثار العافية إلى المخاطرة والقدوم على الابتلاء والشهادة في سبيل الله، ومن الدنيا إلى الآخرة.

ومن الأنا إلى الله.

وكانت لكلمة دلهم (رحمها الله) الدور الأساسي في هذا كله... ولو لم ينطقها الله تعالى بهذه الكلمة الحاسمة لم نكن نعلم ماذا كان يؤول إليه أمر زهير في مجاهل التاريخ.

ولو أنها كانت تتأخر ولم تبادر لسبق الشيطان دلهم إلى زهير رحمه الله وألقى على لسانه الاعتذار وأعانه رجاله على ذلك. ولكن كلمة دلهم كانت أسرع وأنفذ من مكر الشيطان وكيده فسلبت المبادرة مرة أخرى من الشطر الآخر من شخصية زهير ومن الشيطان الذي يجلس له بالمرصاد.

توفيق الله في منازل التوفيق:

إن التوفيق من الله تعالى، لا شك في ذلك، ولكن أسبابه ومفاتيحه بيد الإنسان، ولولا أن زهير يستحق هذا التوفيق، ولولا ان دلهم تستحق هذا الإلهام لما ألهمها الله بهذه الكلمة، ولما رزقه الله هذا التوفيق.

روى ثقة الإسلام الكليني ﷺ في الكافي عن ابن جميلة قال: سمعت أبا عبد الله (الصادق) ﷺ يقول: **كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى ﷺ ذهب يقتبس ناراً، فانصرف إليهم وهو نبي مرسل**[١].

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة التوفيق في حياة الإنسان ظاهرة واسعة وممتدة. وأيّ إنسان أنعم الله عليه بالبصيرة وأنعم النظر، لا يكاد تخفى عليه لمسات يد الله تعالى في حياته، في سرّائه وضرّائه، في الشدة والرخاء. ولا تغيب عنه رعاية الله، ولا يتخلى عنه التوفيق الإلهي، في حياته المادية وحياته المعنوية، وفي حركته وعمله.

إن الإنسان قد يريد الوصول إلى شيء من معصية الله، فيخرج إليه، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة.

وقد يسلك طريقاً إلى الراحة والعافية وإيثار الحياة الدنيا، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى ذات الشدة والشوكة وإلى الجنة.

وقد يسلك طريقاً إلى متاع قريب من متاع الدنيا، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى رضوانه وقربه.

وقد يخرج من بيته في مهمة، ولا يعلم ماذا يصنع وأين يذهب، وأي باب يطرق ومن أي وجه يطلب حاجته، فيأخذ الله بيده، ويسلك به الطريق إلى حاجته، خطوة خطوة راشداً مهدياً[٢].

إن زهير ﷺ غادر الموسم بعد الحج يريد العودة إلى أهله وقومه، فيسعى إليه التوفيق من عند الله، فيتمنع عليه، فيسوقه التوفيق إلى الجنة، رغم تحرجه وارتباكه، فلما ان يلتقي الحسين ﷺ، ويدعوه الحسين ﷺ إلى أن يخرج معه إلى لقاء الله، فيركن إلى الحسين ﷺ وتسكن إليه نفسه، ويستجيب لدعوته، ويودّع أهله وزوجته، ويرحل إلى لقاء الله، ويبقى ذكره في دائرة النور، إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٣١ ـ ٣٢، وفروع الكافي ١: ٣٥١. وفيه: فإن موسى ﷺ ذهب ليقتبس لأهله ناراً.
(٢) في رحاب القرآن ١٠: ٥٥ ـ ٥٦.

الكلمة التي خلّدت دلهم:

من كان يعرف دلهم بنت عمرو لولا هذه الكلمة التي خلّدت بها دلهم ودخلت دائرة النور، كثيرون من مثل دلهم ماتوا ولم يذكرهم التاريخ. ولكن دلهم تبقى بهذه الكلمة في صلب الطف. ومن يذكر قصة الطف يذكر زهيراً لا محالة، ومن يذكر زهيراً يذكر قصة دلهم.

وهذا هو التوفيق الذي يؤتيه الله تعالى لمن يشاء من عباده.

لقد تعاونت دلهم والجزء الخيّر من شخصية زهير للتغلب على جانب الصدود والانغلاق من شخصيته.

رحمك الله يا زهير، لولا دلهم، لما دخلت في دائرة النور، ولولاك لم يكن لدلهم ذكر في العالمين.

رحمكما الله وحشركما معاً مع رسول الله ﷺ، وإذا حشر الله تعالى العباد ليوم الحساب فسوف يحشر زهير ﷺ ويحمل معه شهادته في كربلاء بين يدي حفيد رسول الله ﷺ، وتحشر دلهم وهي تحمل إلى الله هذه الكلمة تتلألأ نوراً في عرصات يوم القيامة.

المرأة التي كتبت شطراً من ملحمة الطف:

لو سألنا التاريخ: مَنْ دلهم؟ لم يحدثنا التاريخ عنها بشيء، والتاريخ لا يعرف عنها شيئاً كثيراً، ولكن هذه المرأة المجهولة كتبت شطراً من تاريخ الطف من الملحمة الكبرى في تاريخ الإنسانية.

إن زهيراً شطر هام من ملحمة الطف، ومع عظيم التقدير لشخصية زهير نقول: إن دلهم هي التي صنعت زهير وموقف زهير.

إن سيدة البلاط العباسي في عصره الذهبي أم الأمين وزوجة هارون (زبيدة)، ماتت في ترفها وبذخها، ولم تترك شيئاً، والتاريخ يحدث عنها الكثير ولكن لا نجد لها في غير الليالي الحمراء ذكراً... أما هذه المرأة الصالحة، المجهولة التي لا يعرف التاريخ عنها غير هذه الكلمة، فلها شأن آخر، شاركت بهذه الكلمة في رسم ملحمة الطف، وأصبح ذكرها واسمها جزءً من هذه الملحمة الخالدة في التاريخ.

كانت أشجع من الرجال تكلمت حينما سكت الرجال.

وعندما وجم زهير ووجم ورجاله، ولم يملك أي منهم الشجاعة الكافية ليقول لزهير:

سبحان الله، يا زهير، إنّ رحمة الله الواسعة في الآخرة، وجوار رسول الله ﷺ في الجنة، والدخول في دائرة النور في الدنيا تنتظرك على الباب في دعوة الحسين عليه السلام وأنت متردد متحرج!

لم يملك أيّ منهم القوة والشجاعة، حتى زهير نفسه، ولكن هذه المرأة كانت تملك القوة والشجاعة التي كان يفقدها أولئك الرجال الأشداء.

الدخول في المجال المغناطيسي:

يقول أبو مخنف: قالت (والكلام لا زال لدلهم):

(فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً، قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقُوّض وحمل إلى الحسين عليه السلام ثم قال لي: أنت طالق. الحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلّا خيراً. ثم قال لأصحابه: من أحبّ منكم أن يتبعني وإلّا فإنه آخر العهد)[1].

وهذا قرار سريع، قوي، حاسم، نافذ، قاطع، لا يدع مجالاً لأحد للمناقشة. لقد دخل زهير في المجال المغناطيسي، وفي مجال الجاذبية الحسينية منذ أن ترك الصدود واستجاب لدعوة الحسين عليه السلام وأخذ بنصيحة زوجته.

ومن ذلك يتبين أن الحاجز العازل في الجاذبية الروحية ليس المكان وإنما العناد والهوى والصدود والانغلاق النفسي، فلما ان تنازل عن صدوده جذبته الجاذبية الحسينية. ودخل في المجال المغناطيسي.

وكان اللقاء سريعاً، لأن الرواية التاريخية تقول: (فما لبث).

ولكن هذا اللقاء السريع فعل فعله، وحوّل شخصية زهير رأساً على عقب وتغير زهير تغيراً كاملاً، وأصبح شخصاً آخر يختلف عما كان عليه قبل ساعة اختلافاً كبيراً.

لقد حدث الانقلاب الكامل السريع، فقد ذهب زهير إلى الحسين عثمانياً، أُمويّاً، ورجع علوياً حسينياً، انقلاب كامل سريع في لحظات قصيرة ومعدودة، انقلاب من الأنا إلى الله، ومن الدنيا إلى الآخرة، هجر الدنيا وأقبل على الآخرة.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٩٨ ط الاعلمي ـ بيروت.

قرّر زهير مرة واحدة ان يترك دنياه ويلتحق بآخرة الحسين عليه السلام.

لقد قال الحسين عليه السلام من قبل: **كأن الدنيا لم تكن وكأن الآخرة لم تزل.**

لقد قرر زهير رحمه الله ان يقطع علاقته بالدنيا مرة واحدة بشجاعة وبسرعة (وكأن الدنيا لم تكن)، وأن يركن إلى الآخرة مع الحسين عليه السلام (وكأن الآخرة لم تزل).

فقوّض خيامه ورحله، وحملها إلى خيام الحسين عليه السلام، وتحوّل عن كل شيء من دنياه، حتى زوجته التي دلته على هذا الطريق طلّقها، لأنها شطر من دنياه، ولقد كانت من شطر الخير في دنياه، إلّا ان زهير رحمه الله كان قد قرر في نفسه أن يتخلى عن الدنيا كلها خيرها وشرّها.

كل ذلك تمّ خلال لحظات، بسرعة وبقوة، وكأنه يخاف إذا أبطأ أن تلاحقه الوساوس وينشدّ من جديد إلى الدنيا.

كيف حدث ذلك؟

لم يحدث كل هذا الانقلاب لأن دنيا زهير كانت هزيلة أو قليلة فقد كان زعيماً في قومه. ولكن السرّ أنّ تعلقه بها لم يكن عظيماً، وفطرته وضميره كان نقياً صافياً لم تلوّثه الهوى بعد، وإرادته كانت قوية.

وأراده الله تعالى، وسعى إليه التوفيق من عند الله.

وإن أحدنا ليضع خطوة ويرفع أخرى في الطريق إلى الله وفي زمن طويل يتعثر ويسقط ثم يقوم وينهض، وأمّا زهير ففي لحظات ينقلب من الدنيا إلى الآخرة.

المظاهر النفسية للانقلاب:

هذا الانقلاب السريع المفاجئ الحاسم يتم في جو نفسي مريح، فهو لا يرجع مكتئباً لأنه قرّر أن يطلق دنياه وزوجته، وإنّما يرجع مستبشراً قد أسفر وجهه:

١ ـ لأنه انتصر أخيراً في صراعه مع نفسه على نفسه، فقد حاولت نفسه ان تصدّه وتمنعه عن الاستجابة للحسين عليه السلام فأذلّها أخيراً وانتصر عليها.

٢ ـ ولأنه سَلم من حالة التردد الطويل الذي كان يعاني منه.

٣ ـ ولأنه وجد أخيراً عند الحسين عليه السلام ما يبتغيه من الاطمئنان، والركون، وسكون النفس، والاستقرار النفسي... إن الحياة الدنيا مهما كانت أبعادها تبقى داراً للعذاب والقلق، وأمّا عندما يتحرك الإنسان إلى الله فإنه يجد في حركته الاطمئنان والركون الذي يطلبه.

نماذج أخرى من مواقف زهير بعد الانقلاب:

ولكي نستكمل الحديث عن زهير نذكر مواقف أخرى لـه بعد هذا الانقلاب:

روى أبو مخنف أنّ الحسين عليه السلام لما بلغ ذا حسم خطب أصحابه، فقال:

(أما بعد، فإنه نزل بنا من الأمر ما قد ترون...).

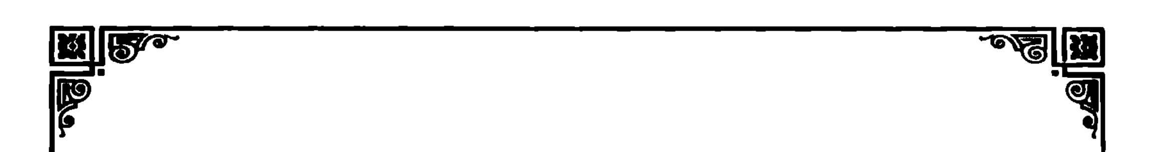
فقام زهير، وقال لأصحابه: أتتكلمون، أم أتكلم؟ قالوا: بل تكلّم. **فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا بن رسول الله مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية،** وكنا فيها مخلدين، إلّا أن فراقها في نصرك، ومواساتك، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها، فدعا له الحسين عليه السلام، وقال: **خيراً)**[1].

وروى أبو مخنف عن الضحاك بن عبد الله المشرقي، قال: لما كانت الليلة العاشرة خطب الحسين عليه السلام أصحابه وأهل بيته، فقال: **هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فإن القوم إنما يطلبونني،** فقام زهير فقال: والله لوددت أني قتلت، ثم نشرت، ثم قتلت، حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك)[2].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٣٠٥.

(٢) روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ١٨٣.



الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام

دراسة وتحليل

آفاق الثورة الحسينية:

سيرة الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق وشهادته وشهادة الكوكبة التي حفت به، في الحركة إلى لقاء الله، من أهل بيته وأصحابه... سيرة غنية بالأفكار والمفاهيم، وتتصل هذه الأفكار والمفاهيم في الغالب بحياتنا اليومية، في حقول السياسة والثقافة والعلاقات الاجتماعية.

ولذلك فهي تستحق الكثير من التوقف والتأمل والدراسة، ورغم الدراسات الكثيرة لـ(عاشوراء) فلا يزال هذا الحدث العظيم يختزن الكثير من المفاهيم والأفكار والقيم، ويجد الباحث في(عاشوراء) أمامه آفاقاً ورؤى جديدة لم يكتشفها الباحثون والمنظرون إلى هذا اليوم.

ومن هذه الآفاق دراسة الجماعات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق لإعلان الثورة على حكومة بني أمية.

تصنيف الناس تجاه الثورة الحسينية:

بإمكاننا أن نصنف الناس من حيث موقعهم من الحسين عليه السلام في عاشوراء إلى خمسة أصناف.

١ - أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه الذين صحبوه إلى لقاء الله، وهم القمة الشامخة التي يعرفها التاريخ من التسامي والتعالي على الدنيا والتضحية والإيثار والعطاء والصمود والقيم والإخلاص.

٢ - الفئات المعارضة التي كانت تعارض خروج الإمام إلى العراق للخروج على حكومة بني أمية، إشفاقاً على الامام عليه السلام حيناً، وتظاهراً بالإشفاق حيناً آخر.

٣ - المتفرجون، وهم الكثرة الكاثرة من الأمة يومئذ. وقد علموا أن الحسين عليه السلام خرج على

طاغية عصره، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعرفوا ما يقترفه بنو أمية من الإثم والعدوان في هذه الأمة والتبذير والبذخ في بيت المال والإفساد في الساحة، ولكنهم آثروا العافية ووقفوا موقف المتفرج ينتظرون نهاية هذا المشهد الأليم (إنا ها هنا قاعدون).

٤ ـ القتلة الذين اقترفت أياديهم قتال ابن رسول الله والكوكبة الطاهرة التي رافقته إلى الله، وإذا كانت الفئة الأولى قمة في التوحيد والإخلاص والقيم والخلق والصمود والعطاء والوعي.... نجد إن هذه الفئة في حضيض السقوط والشقاء والبؤس.

٥ ـ الفئة الخامسة هي التي لم تشارك في القتال، ولكنها أعلنت عن رضاها ودعمها وإسنادها للقتلة، وتنكرت لخروج السبط الشهيد على حكومة بني أمية.

وكل واحدة من هذه الفئات الخمسة تحتاج إلى دراسة دقيقة وتوقف وتأمل طويلين... ولا تقل حاجتنا إلى دراسة الفئات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة عن حاجتنا إلى دراسة الفئة الأولى. فان هذه الدراسة بإبعادها الخمسة لصيقة الصلة بحياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية... وفيما يلي نتوقف ونتأمل في الجماعات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق.

١ ـ تصنيف المعارضة

دراسة الساحة المعارضة لخروج الحسين عليه السلام والمثبطين والمعارضين تعكس لنا صورة دقيقة عن الأوساط المعارضة للعمل الإسلامي والحركة والثورة الإسلامية في الساحة الإسلامية المعاصرة.

إن التثبيط نفس التثبيط، والمعارضة نفسها، وعوامل ومصادر المعارضة للثورة نفسها.

يريد الحسين عليه السلام الخروج على طاغوت عصره، فيواجه مساحة واسعة من المعارضة، كما تواجه قيادات الثورة الإسلامية نفسها هذه المعارضة عند أي تحرك سياسي.

وأسباب هذه المعارضة وعواملها في الساحة السياسية يومذاك ثلاثة:

١ ـ الحسد والضغينة.

٢ ـ الضعف والجبن والتخاذل.

٣ ـ الجهل وفقدان الوعي السياسي.

وسوف نذكر أمثلة على هذه العوامل الثلاثة.

العامل الأول للمعارضة: العداء والحسد والحقد والمكر.

من أبرز مصاديق هذه الحالة عمرو بن سعيد الأشدق عامل بني أمية على مكة، كتب إلى الحسين عليه السلام عندما علم بخروجه عليه السلام إلى العراق، يطلب منه أن يعدل عن الخروج ويعده بالأمان إذا عدل عن الخروج.

وعلى هذه الرسالة مسحة خفيفة من النصيحة الكاذبة، كما تستبطن الكثير من المكر والكيد والخبث والحقد.

وقد قرأ الحسين عليه السلام هذه الرسالة وردّها بأدب وصرامة وقوة كعادته عليه السلام في مواجهة أمثال هذه الحالات.

وإليك الرسالة وردّها:

يقول عمرو بن سعيد الأشدق في رسالته للإمام الحسين عليه السلام:

(إني أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يعرّفك عما يُراد بك، بلغني إنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، فإني أعيذك بالله من الشقاق، فإن كنت خائفاً فاقبل إليّ فلك عندي الأمان والصلة).

فكتب إليه الحسين عليه السلام:

(أما بعد، فانه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين. وقد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة فخير الأمان أمان الله عزّ وجلّ، ولم يؤمّن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة.

فإن كنت نويت بالكتاب صلتي وبريّ فجزيت في الدنيا والآخرة والسلام)[1].

والذي يستعرض موقف عمرو بن سعيد الأشدق لا يشك أن الأشدق كان يدبّر للحسين عليه السلام مؤامرة يستعيد فيها الحسين عليه السلام إلى مكّة ثم يغتال الحسين عليه السلام في الحرم، حيث لا يستطيع الحسين عليه السلام أن يقاتل بني أمية.

والحسين عليه السلام لا يريد أن يقتل في الحرم مكتوف اليدين.

ولا نحتاج إلى تأمل طويل لنعرف أن أسلوب الحسين عليه السلام في الخروج من المدينة إلى

---

(١) وقعة الطف المستخرجة من تاريخ الطبري تحقيق الشيخ هادي اليوسفي: ١٥٥ ط. مؤسسة النشر الإسلامي. وبلفظ قريب منه تاريخ ابن عساكر ١٣: ٧٠.

مكة على الطريق العام (الجادة الرئيسية بين مكة والمدينة) ثم مقامه في مكة بدار العباس بن عبد المطلب، ثم إعلانه للمغادرة إلى العراق، كان بهدف التعبير والإعلان عن رفضه للبيعة، ولو كان الإمام يريد ان يتجنب البيعة فقط، دون تنبيه وإلفات الرأي العام الإسلامي لهذا الموقف السياسي لما احتاج إلى كل هذه الخطوات التي كلفتّه وكلفّت أهل بيته وأصحابه كثيراً، وأثارت عليه سخط بني أمية وغضبهم، وكان بوسعِه أن يعتزل بني أمية في صقع من أصقاع الأرض، من دون هذا الإعلان والإشهار.

وقد اتفقت المصادر التاريخية أن الحسين عليه السلام خرج من مكة إلى العراق يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، عندما كان الحجاج يتوجهون إلى عرفات، استعداداً ليوم عرفة، وقد أثار خروج ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم التروية ـ من بين الحجاج ـ إلى العراق انتباه عامّة الحجاج الذين كانوا قد أمّوا البيت الحرام من مختلف الآفاق. فهذا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يحلّ من العمرة ويغادر مكة في وقت يتوجه فيه الحجاج إلى عرفات لأداء الحج[١].

العامل الثاني للمعارضة: الضعف عن القرار الصعب.

وهو من أقوى عوامل التثبيط. ونضرب مثلا لذلك بموقف عبد الله بن عمر من المعارضة.

ونحن لا نستطيع ان نتهم عبد الله بالمكر بالحسين عليه السلام ولكن نجد في موقفه من معارضة حركة الحسين عليه السلام علامة ضعف واضحة.

فقد كان عبد الله شخصية ضعيفة، وضعفه جرّ عليه كثيراً من الابتلاءات فقد امتنع أولاً عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنه لا يبايع لأميرين في وقت واحد[٢].

وهو جواب ضعيف وموقفه أضعف منه فإن معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميراً ليصح منه هذا العذر وإنما طلب منه أن يبايعه ولياً للعهد.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكّنه من اتخاذ موقف جريء تجاه البيعة ليزيد فقد كان أمر يزيد في الفسق والشرب أشهر من ان يخفى على أحد، وقد كان أولى

---

(١) في رحاب عاشوراء: ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٢) فتح الباري: ١٣ : ٦٠.

بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر، ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد لما يعرفه فيه هو وعامّة المسلمين من فسوق وفجور.

إلّا أن ابن عمر لم يكن يملك هذه الجرأة والشجاعة، ولم يكن يريد أن يسرع في البيعة قبل غيره من المسلمين، فاعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف. فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم، فأخذها، فدسّ إليه رجلاً فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟ فقال: إن ذاك لذاك (يعني ان ذلك المال لأجل البيعة) **إن ديني إذن لرخيص**[1].

ولم يروِ لنا التاريخ أنه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الأسلوب الملتوي الماكر في أخذ البيعة ليزيد[2].

كما أن موقفه من الحسين عليه السلام فيه غطاء رقيق من النصح ولكن فيه أيضاً إيهام بأن خروج الحسين عليه السلام خروج عمّا دخل فيه المسلمون، وفيه دعم وتأييد لسلطان يزيد. وقد استدرج هذا الموقف عبد الله إلى دعم وتأييد يزيد بصورة تدريجية، وأدى ذلك إلى استحداث مذهب سياسي فقهي ابتدعه عبد الله ودخل هذا المذهب من خلال رواياته في الثقافة الإسلامية وهذا المذهب هو مهادنة الظالم والسكوت عنه وتحريم الخروج عليه.

فإن المعروف عن عبد الله بن عمر انه كان يرى وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره، واعتداؤه على المسلمين، وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الاستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد من الطاعة، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين، وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات... فاستمع إلى الحديث التالي:

روى مسلم عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«ما من نبيّ بعثه الله في أمة قبلي إلّا كان في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل»**.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وارث الأنبياء: ١٥٣ ـ ١٥٤.

قال أبو رافع: فحدّثت عبد الله بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلمّا جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدّثنيه، كما حدثت ابن عمر[١].

إن من حقنا أن نسمح لأنفسنا بالشك في موقف عبد الله بن عمر من شرعية الخروج والمعارضة السياسية والمسلحة للحكام الظلمة، وفي موقفه الاستسلامي من قبل من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردد، وفي موقفه الضعيف الأول من قبول هدية معاوية والاعتذار إليه بأنه لا يريد أن يبايع لأميرين في وقت واحد.

وإن من حقّنا أن نحتمل أن معاوية قد استطاع ان يستغل ضعف عبد الله وسذاجته أسوأ استغلال، وأن يلين عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكرة الملتوية المعروفة، والتي لم تخف حتى على عبد الله بن عمر نفسه، بما عرف به من بساطة وسذاجة، حتى قال لرسول معاوية: (إن ذاك لذاك، إن ديني عندي إذن لرخيص)[٢].

العامل الثالث للمعارضة: عدم وعي أهداف الثورة

لقد كان البعض يتصور أن الإمام الحسين عليه السلام خرج على يزيد لينتزع منه الحكم والسلطان، وليتولاه بنفسه.

فهو حقه، وليس ليزيد حق فيه. لاشك في ذلك.

وهذه كانت وجهة نظر الامام عليه السلام عندما خرج من الحجاز إلى العراق، تلبية لدعوات شيعته له، إلى الخروج على يزيد.

وكان هؤلاء يعرفون جيداً أن أهل العراق لا يفون للحسين عليه السلام بعهودهم، وسوف يتخلّون عنه، إذا جدّ الجدّ، والذين يفون له عليه السلام ببيعتهم، ويقفون معه إلى الأخير قلة لا تقاوم جيوش بني أمية... إذن الامام عليه السلام يسعى بنفسه في هذه الرحلة إلى مصرعه... وكان ذلك يحزّ في انفسهم ويحزنهم، فيقبلون عليه، ويسألونه أن يكف عن الذهاب إلى العراق.

---

(١) صحيح مسلم ١: ٥٠ ـ ٥١، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان. ط. دار الفكر ـ بيروت ـ.

(٢) وارث الأنبياء: ١٥٦.

ولم يكن يخفى على الامام عليه السلام ما يعرفه هؤلاء الناصحون له، الذين لم يكن الإمام يشك في صدقهم ونصحهم وحبهم.

ولا يمكن أن نتصور أن الإمام عليه السلام كان يرجو فيمن يجتمع حوله من شيعته في العراق أن يقاوم بهم جيوش الشام، فضلاً عن العراق... وقد عاش الإمام عليه السلام من قبل ظروف تخاذل الناس في العراق عن أبيه في صفين وعن أخيه الحسن عليه السلام بعد وفاة أبيه... فماذا يمكن أن يرجو الإمام في الناس بعد هاتين التجربتين.

لقد كان الإمام يطلب في خروجه أمراً آخر، يختلف كثيراً عما كان يتصور عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية رحمهم الله ونظراؤهم من الناصحين له.

كان الإمام يطلب في خروجه أن يهزَّ ضمير الأمة بملحمة مأساوية تنتهي بمصرعه وبمصرع أهل بيته وأصحابه في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإنكار على يزيد وإدانته، فيرتاع الناس لذلك ويعودون إلى أنفسهم ورشدهم، ويحيي بذلك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليواجه الناس بها طغاة بني أمية ويكسر حاجز الرهبة والخوف، ويسقط شرعية الخلافة الأموية في أنظار المسلمين، ويجردها عن قيمتها الشرعية التي كان الناس يعرفونها من قبل للخلفاء.

إذن لم يكن الإمام يطلب في خروجه زحفاً عسكرياً على جيش الشام وحكامها كما يصنع القادة العسكريون، ولو كان يطلب شيئاً من ذلك لكان الحق لأولئك الذين كانوا ينصحون الإمام بالامتناع عن الخروج إلى العراق.

وليس ما نقوله هنا نوع من التوجيه السياسي والثقافي لخروج الحسين عليه السلام بعد مصرعه عليه السلام الدامي في كربلاء، ومصرع أنصاره رضوان الله عليهم، وإنما نقتبس هذا التفسير لخروجه من آخر خطاب ألقاه في الناس في مكة، عند خروجه إلى العراق حيث نعى نفسه وأهل بيته وأصحابه إلى المسلمين يومئذ.

ولا يمكن أن يقدم على هذا العمل قائد عسكري ينوي أن يخرج على طاغية عصره لينتزع منه الحكم والسلطان، ويحل محله... ان هذا الخطاب في عرف القادة العسكريين تثبيط للناس، وليس دعوة إلى الخروج على الحاكم الظالم.

ولم يكن الأمر يخفى عن الامام عليه السلام، ولا يمكن أن يخفى عليه مثل ذلك ولكن الإمام كان يطلب في خروجه أمراً آخر أعلنه، وصرّح به، ولم يتفقهه الناس من حوله يومذاك.

... هؤلاء طائفة ثالثة من المثبطين للحسين عليه السلام والمعارضين لخروجه.

ونحن لا نتهم هؤلاء بالعداوة ولا بالضعف، ويكفي ان فيهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية (رحمهم الله)... إلّا أننا لا نشك أنهم لم يستوعبوا حركة الحسين عليه السلام، وقضية معارضتهم كانت نابعة من هذه النقطة.

وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة، ونأتي ببعض الشواهد على هذه الطائفة من الذين نصحوا الامام عليه السلام بعدم الخروج، وعزّ عليهم أن يخرج ابن رسول الله صلى الله عليه وآله **إلى مصرعه،** واليك بعض النماذج من موقف هؤلاء الناصحين:

١ ـ المسور بن مخرمة

ذعر المسور بن مخرمة[1] حينما سمع بعزم الإمام على مغادرة الحجاز والتوجه إلى العراق فكتب إليه هذه الرسالة:

(إياك أن تغتر بكتب أهل العراق، ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم فإنهم ناصروك، إياك أن تبرح الحرم، فإنهم ـ أي أهل العراق ـ إن كانت لهم بك حاجة فسيضربون آباط الإبل حتى يوافوك، فتخرج إليهم في قوة وعدة).

ولما قرأ الإمام رسالته أثنى عليه: وقال لرسوله: «**استخير الله في ذلك**»[2].

٢ ـ عبد الله بن جعفر

وخاف عبد الله بن جعفر على ابن عمه حينما علم بعزمه على التوجه إلى العراق، وشق عليه ذلك، فبعث إليه بابنيه عون ومحمد، وكتب معهما هذه الرسالة:

(أما بعد، فإني أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم أطفأ نور الأرض فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي والسلام).

وأسرع ابن جعفر وهو خائر القوى ذاهل اللب إلى عمرو بن سعيد حاكم مكة فأخذ منه

---

(١) المسور بن مخرمة بن نوفل القرشي الزهري، ولد بعد الهجرة بسنتين، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وكان من أهل الفضل والدين، كان مع ابن الزبير فلما كان حصار مكة أصابه حجر من حجارة المنجنيق فتوفي. جاء ذلك في الإصابة ٣: ٤٠٠.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٣: ٦٩، من مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

كتاباً فيه أمان للحسين عليه السلام، وجاء مسرعاً إليه وكان معه يحيى بن سعيد بن العاص، فعرض عليه الإقامة في مكة وعدم النزوح إلى العراق فلم يستجيب الإمام لـه، وأخذ عبد الله يلتمس إليه ويطلب منه أن ينصرف عن نيته، فقال الإمام:

«إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي، وأمرني بأمر لابدّ أن انتهي إليه..».

فسأله ابن جعفر عن الرؤيا، فأبى أن يحدثه بها، وقال لـه: «ما حدثت بها أحداً، وما أنا بمحدّث بها حتى ألقى الله ﷻ»[1]. وانصرف ابن جعفر وهو غارق بالأسى والشجون وأيقن بنزول الرزء القاصم وقد أمر إبنيه بمصاحبة خالهما الحسين عليه السلام.

٣ ـ عبد الله بن عباس

وأسرع عبد الله بن عباس وهو حزين كئيب إلى الإمام، فقال لـه: (إن الناس أرجفوا بأنك سائر إلى العراق، فهل عزمت على شيء من ذلك؟).

فقال الإمام عليه السلام:

«نعم، قد أجمعت على المسير في أحد يومي هذين إلى الكوفة أريد اللحاق بابن عمي مسلم إن شاء الله تعالى».

وفزع ابن عباس فقال للإمام:

(إني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم، فإن كان قد فعلوا سِرْ إليهم وإن كانوا إنما دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعمالهم تجبي بلادهم، وتأخذ خراجهم فإنما دعوك إلى الحرب، ولا آمن عليك أن يغروك، ويكذبوك، ويخذلوك، ويبيعوك، فيكونوا أشدّ الناس عليك).

ولم يخف شيء من هذه النقاط على الإمام عليه السلام، فقد كان على بصيرة من أمره فقال لابن عباس:

«إني أستخير الله، وأنظر ماذا يكون؟».

وأحاطت بابن عباس موجة من القلق والاضطراب، فلم يمتلك نفسه، فراجع الإمام، وقال له:

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢١٩، البداية والنهاية ٨: ١٦٣، سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٣.

(إني أتصبّر، ولا أصبر إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال... إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم، أقم في هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدوك ـ كما زعموا ـ فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلّا أن تخرج فَسِرْ إلى اليمن فإن بها حصوناً، وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية...).

فأخبره الإمام عن تصميمه على مغادرة الحجاز إلى العراق، وأنه قد بتّ به، فقال له ابن عباس: (إن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه... لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك).

وفقد ابن عباس صبره، واندفع إلى الإمام بانفعال قائلاً ـ حسبما يروي المؤرخون ـ:

(والله الذي لا إله إلّا هو لو أعلم إني إن أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس أطعتني فأقمت لفعلت) ولم يخف على الإمام كل ما قاله ابن عباس، ولم يكن يخفى على الإمام نصحه وصدقه في النصيحة، إلّا أن الإمام كان قد عزم على الخروج للدفاع عن حمى الإسلام.

وخرج ابن عباس وهو يتعثر في خطاه، قد نخر الحزن قلبه فاتجه نحو ابن الزبير فقال له:

(لقد قرّت عينك يا بن الزبير، ثم أنشد:

يا لك من قنبرة بمعمر خلا　　لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز...[1].

إن الإمام لو كان يروم الملك والسلطان لاستجاب لرأي ابن عباس ولكنه عليه السلام كان يبتغي أمراً آخر غير ما يفهمه ابن عمه وكان يعلم أن ذلك لا يتحقق إلّا من خلال تضحية مأساوية فهي وحدها التي تحقق ما يصبو إليه.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٤ ـ أبو بكر المخزومي

وهرع أبو بكر بن عبد الرحمن المخزومي[١] إلى الإمام فقال لـه: (إن الرحم يظأرني[٢] عليك ولا أدري كيف أنا في النصيحة؟ كان أبوك أشدّ بأساً، والناس له أرجى، ومنه أسمع، وعليه أجمع فسار إلى معاوية، والناس مجتمعون عليه إلّا أهل الشام ـ وهو أعزّ منه ـ فخذلوه، وتثاقلوا عنه، حرصاً على الدنيا، وضناً بها فجرعوه الغيظ، وخالفوه حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه... ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ـ وقد شهدت ذلك كله ورأيته ـ ثم أنت تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق، ومن هو أعدى منك، وأقوى، والناس منه أخوف، وله أرجى، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعموا الناس بالأموال ـ وهم عبيد الدنيا ـ فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحبّ إليه من ينصره، فاذكر الله في نفسك...).

وشكر لـه الإمام نصيحته وحبه، وعرفه أنه مصمم على ما عزم عليه، ويئس أبو بكر فانطلق وهو يقول:

(عند الله نحتسب أبا عبد الله).

وأقبل أبو بكر على والي مكة وهو يقول:

كم ترى ناصحاً يقول فيعصى ... وظنين المغيب يلقى نصيحا

فقال له:

(ما ذاك يا أبا بكر؟

فأخبره بما قال للحسين عليه السلام: فقال له: نصحت له وربّ الكعبة)[٣].

٥ ـ عبد الله بن جعدة

وأشفق عبد الله بن جعدة بن هبيرة على الإمام فألحق به ولده عون وبعث إليه رسالة

---

(١) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي القرشي أحد الفقهاء السبعة، ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش لكثرة صلاته، وكان مكفوفاً، وهو من سادات قريش توفي سنة (٩٥ هـ). جاء ذلك في تهذيب التهذيب: ٢: ٣٠.

(٢) يظأرني: أي يدفعني عليك العطف والحنو.

(٣) مروج الذهب ٣: ٦، الطبري ٦: ٢١٦.

يسأله فيها الرجوع، ويذكر فيه تخوفه في مسيره إلى العراق، فلم يستجب الإمام له، وقال له خيراً[١].

٦ ـ جابر بن عبد الله

وخفَّ جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله إلى الإمام وطلب منه أن لا يخرج فأبى عليه السلام[٢].

٧ ـ عبد الله بن مطيع

والتقى الإمام بعبد الله بن مطيع، وكان في طريقه إلى العراق، وعرف عبد الله قصد الإمام عليه السلام فقال له:

(يا بن رسول الله أذكرك الله في حرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش وذمة العرب، والله لئن طلبت ما في يد بني أمية ليقتلوك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً... والله أنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب. فالله الله لا تفعل، ولا تأت الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني أمية)[٣].

٨ ـ محمد بن الحنفية

وكان محمد بن الحنفية في المدينة، فلما علم بعزم أخيه على الخروج إلى العراق توجه إلى مكة[٤]، وقد وصل إليها في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها إلى العراق، وقصده فور وصوله فبادره قائلاً:

(يا أخي، إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك حال من مضى، فإن أردت ان تقيم في الحرم فإنك أعزّ من بالحرم، وأمنعهم).

وشكر له الإمام نصحه وقال له:

«خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية، فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت».

فقال محمد: (فإن خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد).

---

(١) أنساب الأشراف: ق١ ج ١.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١: ٣٤٢.

(٣) وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل: ١٨٩، وحياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ٢٩ ـ ٣٠.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ١: ٣٤٢.

قال الحسين عليه السلام: **«انظر فيما قلت»**[١].

ولما كان وقت السحر بلغه شخوصه إلى العراق وكان يتوضّأ فبكى حتى سمع وقع دموعه في الطست[٢] وأسرع محمد إلى أخيه، فأخذ بزمام ناقته، وقال له:

(يا أخي ألم تعدني فيما سألتك؟).

«بلى، ولكن أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك، وقال لي: يا حسين، اخرج فإن الله شاء أن يراك **قتيلاً»**.

وذعر محمد، وسرت الرعدة بأوصاله، ودموعه تنحدر على خديه وهو يقول:

(فما معنى حمل هؤلاء النساء والأطفال، وأنت خارج على مثل هذا الحال).

فأجابه الإمام بعزم وطمأنينة قائلاً:

«قد شاء الله أن يراهن سبايا»[٣].

٩ ـ السيدة أم سلمة (أم المؤمنين)

وفزعت أم المؤمنين السيدة أم سلمة حينما علمت أن الإمام عليه السلام قد عزم على الخروج إلى العراق، وكان في ذلك الوقت في المدينة قبل ان يتوجه إلى مكة فهرعت إليه قائلة بصوت حزين النبرات:

(يا بني لا تُحْزنّي بخروجك إلى العراق فإني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها: كربلاء، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبي** صلى الله عليه وآله).

فأجابها الإمام بعزم ورباطة جأش قائلاً:

«يا أماه، وأنا أعلم إني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشردين، وأطفالي مذبوحين، مأسورين».

* * *

(١) الدر المسلوك ١: ١٠٩، وقريب من هذا الحديث ما جرى بين الإمام وأخيه حينما كان في المدينة.

(٢) أنساب الأشراف: ق١ ج١، وفي الصواعق المحرقة: ، ١٧: أنه بكى حتى ملأ الطست من دموعه.

(٣) الدر المسلوك ١: ١٠٩.

هذه ثلاثة عوامل ومصادر للمعارضة: (المكر)، و(الضعف)، و(العجز في الوعي).

وقد ساهمت هذه العوامل الثلاثة في تكوين المعارضة الشديدة التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام عند الخروج من الحجاز إلى العراق.

صنفان من الناس مع الحسين عليه السلام

وإلى جانب هذه الأصناف الثلاثة التي شكلت الجبهة المعارضة لحركة الحسين عليه السلام رحل مع الحسين عليه السلام صنفان من الناس:

الصنف الأول: نخبة من المؤمنين وعوا قضية الحسين عليه السلام وانقادوا واستسلموا له، وخرجوا معه عليه السلام من غير نقاش، ولا ترديد، ولا تشكيك، ولا اعتذار، وهم النخبة الصالحة التي ثبتت مع الحسين عليه السلام إلى الأخير وقد غيّروا بهذا الوعي والعطاء والصمود النادر مجرى التاريخ.

والصنف الثاني: وهم طائفة من الناس حسبوا أن الحسين عليه السلام غير جاد فيما يقول من أمر الاستشهاد والموت، ويسعى إلى تحصيل الحكم والسلطان.

فلما جدّ الجد ووجدوا أن الحسين عليه السلام جاد فيما يقول تركوه وتخلوا عنه.

فلم يبق معه غير العصبة المؤمنة التي لزمته إلى آخر رمق من حياتها سلام الله عليهم.

٢ ـ رأي المعارضة في خروج الحسين عليه السلام

ونقصد بالمعارضة الطائفة الثالثة التي وصفناها بالنصح والصدق.

أما الطائفة الأولى والثانية فلا رأي لهما لندرس رأيهما، فقد كان منطلق الفئة الأولى في معارضة خروج الحسين عليه السلام العداوة والحقد والمكر بالحسين عليه السلام، وليس لهم رأي لنناقشه.

وكان منطلق الفئة الثانية الصمت والجبن والخوف من الدخول في مواجهة مسلحة ضد دولة بني أمية، ولم يكن لهم من رأي لنناقشه.

وأما الطائفة الثالثة، فقد كان لهم رأي في النصح للحسين عليه السلام والصدق في النصيحة.

وعليه سوف ندرس رأي هذه الفئة من المعارضة، ونناقشها وننظر في رأي الحسين عليه السلام في نصيحة هذه الفئة من الصحابة والتابعين رحمهم الله الذين كانوا يصرون على الحسين عليه السلام أن يتراجع عن مقصده إلى العراق.

هذه الطائفة تضمّ وجوه الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية، وهؤلاء كانوا يرون أن الحسين عليه السلام لا محالة يقصد أحد أمرين لا ثالث لهما:

١ - إما أن يريد الخروج والثورة على سلطان بني أمية.

٢ - أو يريد الهروب والتخلص من البيعة.

ولا يتصوّر هؤلاء تفسيراً ثالثاً لخروج الحسين عليه السلام إلى العراق غير هذين التفسيرين.

وخروج الحسين عليه السلام لا يصح على كل من هذين التفسيرين.

أما على التفسير الأول، فان شيعة الحسين عليه السلام في العراق لا يقاومون سلطان بني أمية وجيوشهم، وسرعان ما ينفرطون عنه، ويتخاذلون عن القتال معه، كما تخاذلوا عن أبيه وأخيه من قبل.... وهذه النتيجة المتوقعة تدعمها شواهد وقرائن كثيرة هذا عن الأمر الأول.

وأما إذا كان الحسين عليه السلام يغادر الحجاز إلى العراق ليحتمي باهله في التخلص من بيعة يزيد فإن العراق أرض مكشوفة لبني أمية، ولا يصلح لإيواء الحسين عليه السلام وحمايته ولا يصلح أهله للدفاع عن الحسين عليه السلام وحمايته.

ولو كان الحسين عليه السلام يطلب التخلص من مبايعة يزيد، فإن اليمن أصلح لأنها أرض جبلية ونائية وبعيدة عن مركز سلطان بني أمية وللحسين عليه السلام فيها شيعة أما العراق فلا يصلح لهذه المهمة كما قال له عبد الله بن عباس ذلك صراحة.

(فإن أبيت إلّا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة)[1].

ولم يكن يغيب عن الإمام الحسين عليه السلام ما كان يراه، ويذكره به الكثير من شيعته والناصحين والمحبين له، ممن كان الإمام لا يتهمهم في النصح والصدق وفهمهم لساحة العراق.

وإذا كان العراق لا يصلح لهذا ولا ذاك فلا محالة فإن الحسين عليه السلام لا يحقق كلا من الهدفين في العراق (إسقاط يزيد أو التهرب من بيعته).

وبالنتيجة، فإن الحسين عليه السلام يلقى مصرعه في العراق على يد بني أمية على كل حال، وبمصرع الحسين عليه السلام تسقط وتنتهك حرمة عظيمة من حرمات الإسلام على يد بني أمية ويُجَرّأ

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٣٨ - ٣٩، دار صادر - بيروت - ١٩٦٥.

ذلك بني أمية على انتهاك سائر حرمات الإسلام ولا يبقى أحد بعد الحسين عليه السلام تحترمه بنو أمية، وقد صرح بذلك للحسين عليه السلام عبد الله بن مطيع العدوي الذي التقى الإمام في الطريق إلى العراق على ماء من مياه العرب، فقال للإمام:

(بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ما أقدمك؟ فقال له الحسين عليه السلام: **كتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم**) .فقال له عبد الله بن مطيع: (أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام ان تنتهك... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً)[1].

هذه خلاصة آراء الفئة الثالثة التي تميزت بالنصح للحسين عليه السلام.

٣ ـ رأي الحسَين عليه السلام في الخروج

أما الحسين عليه السلام فكان يرى أمامه خياراً ثالثاً لا هو بالخيار الأول ولا هو بالخيار الثاني، ولم يكن أولئك الناصحون للحسين عليه السلام يعون هذا الخيار.

ويتلخص الرأي الذي كان يراه الحسين عليه السلام على ما نظن في النقاط التالية:

١ ـ إن البقاء في الحرم المكي كما كان يقول له ابن الزبير وعمرو بن سعيد الأشدق غير صحيح إطلاقاً، فإن بني أمية يخططون لاغتياله عليه السلام في الحرم وهو لا يريد أن يقاتلهم في الحرم، وبذلك يتعرض للقتل والعدوان من قبل بني أمية وهو مكتوف اليدين وبمصرعه تنتهك حرمة الحرم.

ولذلك قال لابن الزبير: «**إن أبي حدّثني: أن بمكة كبشاً به تستحلّ حرمتها فما أحب أن أكون ذلك الكبش ولئن أقتل خارجاً عنها بشبر أحبّ إليّ ان أقتل فيها. والله لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم، والله ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في السبت**»[2].

٢ ـ ولا يمكن أن يغادر الإمام عليه السلام الحجاز إلى اليمن ليحتمي بجبالها الصعبة عن البيعة ليزيد، فلم يكن هم الحسين عليه السلام أن يمتنع عن البيعة ليزيد فقط، ولو كان يطلب الامتناع عن بيعة يزيد فقط لوسعه ذلك بأهون مما حصل له عليه السلام، وإنما كان يريد أن

---

(١) الطبري ٧: ٢٩٠. وكذلك بحار الأنوار ٤٤: ٣٧١.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٦٦.

يعلن للمسلمين يومئذ رفضه للبيعة... ومن يتابع مغادرة الإمام عليه السلام المدينة إلى مكة على الطريق الأعظم، ومقامه في مكة، في دار العباس بن عبد المطلب، والإعلان عن الخروج إلى العراق، واستنصار الناس في مسيره إلى العراق، يعرف جيداً أن همّ الحسين عليه السلام في هذه الرحلة، لم يكن الهروب من البيعة، ولو كان ذلك لتغاضى عنه بنو أمية وتغافلوا عنه، وإنما كان الإمام يريد أن يعلن رفضه للبيعة أعلاناً عاماً، وإلى ذلك يشير الإمام عليه السلام في كلمته المعروفة (**والله لا أعطيكم يدي أعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد**). ويقصد بالأول البيعة ليزيد (والله لا أعطيهم يدي) ويقصد عليه السلام بالثاني أن يغيّب وجهه عن الساحة فلا يبايع، ولكنه لا يعلن الرفض والخروج... وإنما الذي كان يطلبه الإمام عليه السلام أن يرفض البيعة رفضاً قاطعاً، على ملأ من جماهير المسلمين، معلناً رفضه وامتناعه عن البيعة. وهو ما لا يطيقه طغاة بني أمية، وإلى ذلك يشير عليه السلام بقوله (ولا أفرّ فرار العبيد)... وعليه فلا يبقى أمام الإمام عليه السلام إلّا الخيار الثالث وهو الخروج والمقاومة وإعلان الرفض.

ولا يمكن أن يسكت عُمّال بني أمية وجلاوزتهم عن ذلك، ولا يمكن أن يتغاضوا عنه... فهم يطلبون الحسين عليه السلام أينما يذهب حتى يتمكنوا منه فيأخذون منه البيعة أو يقتلوه.

وكان الإمام عليه السلام يدرك هذا المعنى جيداً، فيقول في جواب من يطلب منه أن يتحصن ببعض شعاب اليمن من ملاحقة بني أمية.

«والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة».

٣ ـ إذن لم يبق للحسين عليه السلام خيار إلّا ان يقدم على التضحية بنفسه وأهل بيته وأصحابه في مواجهة مسلحة لبني أمية فيقتلونه لا محالة فإذا قتلوه كان في مصرعه سقوطاً لبني أمية، وكما قال عليه السلام: «**يكونوا أذلّ من فرام المرأة**».

وأصلح أرض للخروج على بني أمية العراق لأنه مركز العالم الإسلامي وموضع شيعته. وقد كتب إليه شيعته بذلك. وبخروجه عليه السلام يتم مصرعه لا محالة، ويكون لمصرعه عليه السلام وأهل بيته وصحبه تأثير قوي في إعادة الناس إلى أنفسهم ورشدهم ودينهم.

وكان لابدّ للناس من هزة قوية عنيفة لضمائرهم تعيد إليهم وعيهم، وإرادتهم، وقيمهم، وتشعرهم بعمق الكارثة التي حلّت بهم، وتبعث الندم في نفوسهم... وكان خروج الحسين عليه السلام

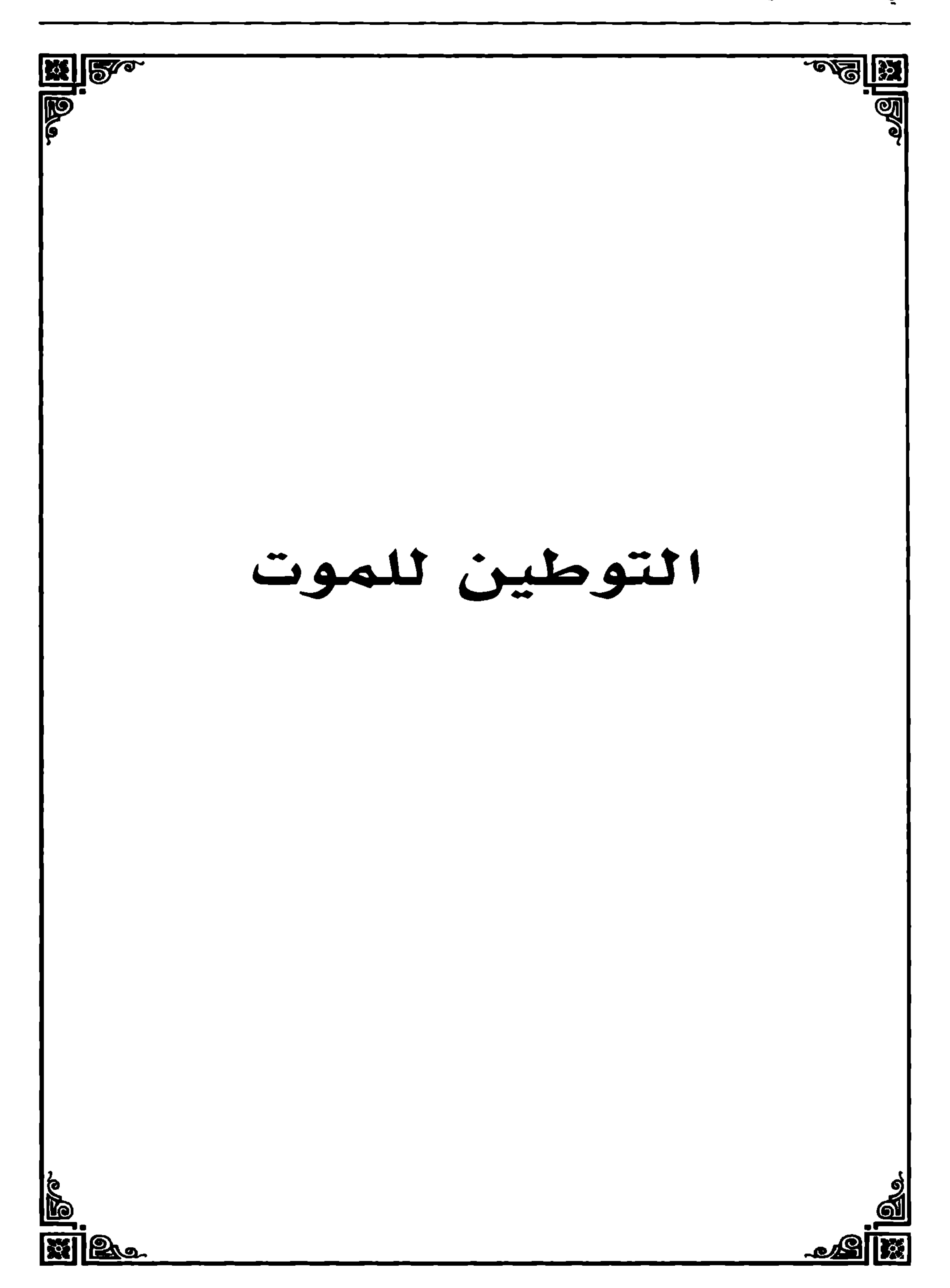
ومصرعه بالصورة المفجعة التي يحدثنا بها التاريخ هو مبعث هذه الهزة العميقة في ضمائر المسلمين يومئذ.

ولقد نبّهت شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، بالطريقة المفجعة التي تمت بها، ضمائر المسلمين، وأشعرتهم بالندم، ومكنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم، من جديد، فيفكروا ويقرروا مصيرهم بأنفسهم[1].

وهذا الخيار الثالث لم يدركه ابن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية والآخرون ممن كانوا ينصحون الإمام عليه السلام بعدم الخروج.

ونود أن نسجل هنا ملاحظة هامة وهي أننا نحتمل أن بني أمية كانوا يعملون لمنع الحسين عليه السلام من الخروج إلى العراق وكان لهم دور غير مباشر في توجيه وتحريك هذه المعارضة، ليتقبل الحسين عليه السلام أحد الخيارين السابقين فلا يكون لموقف الحسين عليه السلام عندئذٍ خطر على سلطان بني أمية وخلافتهم في العالم الإسلامي، وكان الحسين عليه السلام واعياً للمؤامرة الأموية، ولم يمكنهم من نفسه، كما يحبون..

(١) وارث الأنبياء: ٢١٩.



التوطين للموت

توطئة

التهرب من الموت

من طبيعة الإنسان أن يتهرب من الموت، ويتخذ الإنسان كافة الوسائل الميسورة والممكنة له في التهرب من الموت... ولما كان دفع الموت أمراً غير ممكن فإن هذه المحاولة تنقلب في داخل النفس إلى محاولة التهرب من الموت إذا عجز عن دفعه في الواقع الموضوعي للحياة.

وهذا الهروب النفسي يتم على نحو تناسي الموت والهروب من ذكر الموت والتشاؤم منه، وطول الأمل في الدنيا. ومن أعجب الأمور أن الإنسان يحاول ان يشكك في هذه الحقيقة الحتمية الواضحة والشائعة للجميع.

عن الإمام الصادق عليه السلام: **(لم يخلق الله عزّ وجلّ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت)**[1].

وإذا كان من غير الميسور للإنسان أن ينفلت من قبضة الموت فهو يحاول أن ينسى الموت كالنعامة تخفي رأسها في التراب وتتوهم بذلك أنّ الصياد لا يراها إذا كانت هي لا ترى الصياد.

الآثار السلبية للتهرب من الموت

والتوطين للموت هو سر قوة الإنسان وحياته، ونقصد بالحياة الحياة الكريمة التي لا ذل فيها.

فإن أكثر ضعف الإنسان وفشله ينشأ عن التعلق بالحياة الدنيا وتتكون لديه مجموعة من الصفات الذميمة مثل: طول الأمل، الحرص، البخل، الجشع، الحسد، الطمع، الكذب، النفاق، الجبن.

---

(١) من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٤.

فيكون بهذه الصفات طويل الأمل، حريصاً، بخيلاً، جشعاً، حسوداً، طماعاً، كذاباً، منافقاً جباناً.

هذه الأعراض التي تلوث الروح كلها نابعة من التعلق بالدنيا والأنانية القوية وكلاهما يؤولان إلى أمر واحد.

أما عندما ينتزع الإنسان (الأنا) من الدنيا أو ينتزع نفسه من (الأنا)، ويوطئ نفسه للقاء الله، فإن أمله يقصر في الدنيا، فلا يحرص، ولا يبخل، ولا يجبن، ولا يخاف.

إن لقاء الله لا يتم للإنسان إلّا عندما ينقطع إلى الله تعالى انقطاعاً كاملاً، ويزيل ما بينه وبين الله من حجب الظلمات من الذنوب والسيئات، ومن حب الهوى والشهوات، والدنيا وسلطانها على النفس.

ولقاء الله بهذا المعنى أقصى درجات القرب إلى الله. والوصول إلى هذه الغاية لا يتم إلّا بعد كدح طويل في تهذيب النفس وتخليصها من سلطان (الهوى) و(الأنا) ومن سلطان الدنيا وفتنها... فإنّ الانصراف إلى الدنيا والاقبال عليها يحجب الإنسان عن الانصراف إلى الله والانقطاع إليه والاقبال عليه[١].

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[٢].

ولا نشك في (لقاء الله) فإن القرآن أنبأنا به، ولا نجد مسوغاً من الناحية العلمية لتأويل (لقاء الله) في القرآن وفي النصوص الإسلامية بالموت، فإننا إذا استعرضنا هذه النصوص جميعاً ووضعنا بعضها إلى جنب بعض نجد أن هذه النصوص تقرر (لقاء الله) بصورة مستقلة عن الموت... فما هو (لقاء الله) وماذا تحمل هذه الكلمة الواردة في الثقافة التوحيدية من مفاهيم وأفكار وتصورات؟

إن (لقاء الله) هو شهود جمال الله وجلاله وأسمائه وصفاته الحسنى. وقليل من الناس ينعمون بهذه النعمة الجليلة، أمّا عامة الناس فلا يجدون سبيلاً إلى هذه الموهبة الجليلة، وتحول بينهم وبين مشاهدة الجمال والجلال الإلهي حجب كثيفة من سلطان الاهواء والشهوات، وتراكم الذنوب والسيئات، وحب الدنيا وسلطانها على نفوسهم[٣].

---

(١) في رحاب القرآن ٣: ٣٢٣، ٣٢٥.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٣) في رحاب القرآن: ٣٢٢، ٣٢٣.

بقي ان نعرف ان الدنيا ليست مذمومة في الإسلام وإنما المذموم هو حب الدنيا، وليس على المؤمن بأس في ان يتملّك من الدنيا ما رزقه الله تعالى من مصادرها المشروعة وإنّما البأس في ان يتملكه حب الدنيا وبينهما فرق كبير[١].

فقد يسعى المؤمن إلى الدنيا فيصيب منها ما يشاء الله قلّ أو كثر، ولكنه لا يلهث خلف الدنيا ولا يزيده السعي إلى الدنيا طمعاً ولهاثاً من ورائها.

إذن الإقبال على الدنيا والاعتماد عليها، والتعلق بها يؤدي بالإنسان إلى الاعراض عن الله، بدرجات مختلفة، على قدر إقباله على الدنيا، وتعلقه بها، وانشداده إليها، ويؤدي به إلى ضعف الثقة بالله، وضعف التوكل على الله، وضعف اليقين بالله، وينعكس انعكاساً سلبياً على يقينه وثقته وإقباله وتوكله على الله.

مكافحة حالة التهرب من الموت:

إن توطين النفس للموت هو العلاج النفسي لحالة التهرب من الموت، ومعنى التوطين هو أن يُعدّ الإنسان نفسه للموت، ويستحضر حالة الموت حتى لا يفاجئه الموت.

والتوطين للموت عملية معاكسة تماماً للتهرب من الموت. ومضمون هذا الفعل النفسي هو توقع الموت، وتحضير ذكر الموت في النفس، وفي الثقافة الأخلاقية في الإسلام تسمى هذه الحالة بـ(تقصير الأمل).

وحالة قِصَر الامل تأتي نتيجة التركيب بين حالتين:

١ - **وعي حصار الموت.**

٢ - **واستحضار ذكر الموت في النفس.**

وسنتحدث عن هاتين الحالتين بشيء من التفصيل.

١ - وعي حصار الموت:

إن الموت حقيقة حتمية حيث يواجه الإنسان ويحاصره ولا يمكن ان يتخلص منه أي الإنسان.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: **(خطّ الموت على ابن آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة)**[٢].

(١) المصدر السابق: ص ٣٢٥ (الهامش).

(٢) مثير الاحزان: ٢٩، الملهوف: ٥٢، كشف الغمة٢: ٢٣٩.

وتشبيه الإمام الموت بالقلادة إشارة إلى أن الإنسان في محاصرة كاملة للموت.

وفي وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: **(وإنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوته طالبه، ولابدّ انه مدركه، فكن منه على حذر ان يدركك على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة، فيحول بينك وبين ذلك)**[1].

وفي النهج أيضاً: **(أنتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وأن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم)**[2].

وهذه المطاردة بين الإنسان والموت يرسمها الإمام في أكثر من موضع.

يقول عليه السلام: **(إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب)**[3].

والإمام في ذلك تلميذ القرآن حيث يبين هذه المطاردة في أكثر من آية.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[4].

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[5].

إذن اللقاء بين الإنسان والموت أمر لابدّ منه رغم هروب الإنسان منه.

عن علي عليه السلام: **(إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى)**[6].

وهي صورة دقيقة ومعبرة عن لقاء الإنسان بالموت، كلما تقدم العمر بالإنسان. كأنّ الإنسان يولد برصيد من العمر، ومهما طال عمر الإنسان فإن رصيده لا محالة معدود بالسنوات والأشهر والأسابيع والأيام والساعات والدقائق والثواني.

وإذا كان عمره محدوداً فلابدّ من بلوغ اللحظة الأخيرة.

عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١٦ : ٨٩، البحار٧٤: ٢٢٤.

(٢) شرح النهج ١٥ : ١٦٣، البحار٣٣: ٥٤٥و٥٨١.

(٣) شرح النهج ٧: ٣٠٠، البحار٣٣: ٤٥٥و٩٧: ١٤.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٦) بحار الأنوار ٧٣: ١٢٨، نهج البلاغة: الحكمة ٢٩.

مُلَٰقِيكُمْ﴾[١]، تُعدّ السنين ثم تُعدّ الشهور، ثم تُعدّ الأيام، ثم تُعدّ الساعات، ثم تُعدّ الأنفاس﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٢][٣].

وهكذا نجد أن قبضة الموت قبضة متمكنة من الإنسان ومسيطرة على كيانه.

عن الإمام الصادق عليه السلام مكتوب في التوارة:

(أبناء الخمسين زرع قد دنا حصاده، أبناء الستين ماذا قدمتم وماذا أخرتم، أبناء السبعين عدّوا أنفسكم من الموتى... إلى أن قال: **أبناء التسعين أنتم أسراء الله في أرضه)**.

ثم قال: **ما يقول كريم أسّر رجلاً، ماذا يصنع به؟**

قلت: يطعمه ويسقيه.

فقال: **ما ترى الله صانعاً بأسيره**[٤].

والإنسان في آخر عمره يكون أسيراً لله لأنه يكون في قبضة الأجل، ويكون أسير الامراض، وأسير الضعف والعجز، وعندما كان شاباً كان طليقاً وكان بينه وبين الموت فاصلة، إلّا ان العمر والامراض ضيّقوا عليه الدائرة وحشروه في زاوية ولا يعلم متى ينقضّ عليه الأجل.

والأجل يحاصر الإنسان ويضيق على الإنسان الدائرة حتى يحشره في دائرة ضيقة ثم ينقض عليه.

إن الموت مظهر لصفة القهر الإلهي، ومعبّر عن حتمية القهر الإلهي، وهذه الحتمية والقهر والحصار والإلهي هو الذي يعبّر عنه الإمام الحسين عليه السلام بـ**(خطّ الموت على ابن آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة)**.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **(أفضل العبادة ذكر الموت، وأفضل التفكر ذكر الموت، فمن ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنة)**[٥].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٨.

(٢) سورة الاعراف، الآية: ٣٤.

(٣) فروع الكافي ٣: ٢ ـ ٢٦.

(٤) بحار الأنوار ٦: ١٣٦ ح ٣٩.

(٥) بحار الأنوار ٦: ١٣٧.

وروى بعضهم ان رسول الله ﷺ مرّ بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: شوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات. قالوا: وما مكدّر اللذات؟ قال: الموت[١].

وعن علي عليه السلام: (**أوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم... فكفى واعظاً بموتى عايتموها**)[٢].

وعن رسول الله ﷺ: (**الموت أقرب الاشياء من بني آدم وهو يعده أبعد فما أجرأ الإنسان على نفسه**)[٣].

٢ ـ استحضار ذكر الموت في النفس:

عن علي عليه السلام: (**من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير**)[٤].

وعن رسول الله ﷺ: (**اذكروا هادم اللذات**).

فقيل: وما هو يا رسول الله؟ فقال: (**الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلّا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلّا اتسعت عليه**)[٥].

إن الموت يهدم كل لذات الإنسان لأنه يسلب الإنسان مصادر هذه اللذات، يسلبه المال والبنين والازواج والمناصب. هذه اللذات يسلبها الموت جميعاً من الإنسان فيهدم بذلك جميع لذّاته.

ثم تذكر الرواية حقيقتين متقابلتين:

(فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلّا ضاقت عليه الدنيا ولا في شدة إلّا اتسعت عليه).

إذا ذكر الإنسان الموت في سعة الدنيا ضاقت عليه هذه الدنيا، وذهب عنه طيشه وغروره، وهدم ذكر الموت لذة الدنيا عنه، لأن ذكر الموت يسلبه التعلق بالدنيا ولذّاتها، وما ذكر الموت في ضيق وشدة، إلّا اتسعت عليه الشدة لان ذكر الموت يهون عليه أمر الدنيا فتهون عليه شدائد الدنيا.

---

(١) تنبيه الخواطر: ٢٢٣.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٨٨.

(٣) بحار الأنوار ٦: ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه ٦: ١٣٦.

(٥) المصدر نفسهر ٦: ١٣٣.

والموت أقرب الاشياء لانه قد يكون في لحظة واحدة وهو يراه أبعد الاشياء.

وقوله ﷺ: فما أجرأ الإنسان على نفسه، يشير إلى جرأة الإنسان في علاقته بنفسه لأنه يخدعها ويغرّها ويغشها، فيصوّر لنفسه البعيد قريباً والقريب بعيداً.

هذه الحالة النفسية والهروب النفسي من الموت ومحاولة تناسي الموت والتغافل عن الموت هي حالة (طول الامل) التي هي إحدى اثنتين هما أخوف ما يخاف رسول الله ﷺ منهما على المسلمين: (اتباع الهوى وطول الامل)[1].

وعن الصادق عليه السلام: **(ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله...)**[2].

كلمات الحسين عليه السلام في التوطين للموت

للإمام الحسين عليه السلام في الموت كلمات، يحسن أن نقف عندها:

الكلمة الأولى:

قول الحسين عليه السلام: **(خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة).**

والحسين عليه السلام يقرر بذلك حقيقتين في هذه الكلمة:

الحقيقة الأولى: إن الموت أمر لا مفر منه، فهو يطوّق الإنسان ويحاصره، يقول تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[3]. فلا ملجأ للإنسان من الموت.

والموت ـ كما تقدم ـ من مظاهر قهر الله تعالى للإنسان.

فإن من صفات الله القاهرة (المميت)، وحتى الدعاء والالتماس من الله ينقطع بالموت.

وإن الأجل الذي يحلّ على الإنسان يدركه ولو كان في مضجعه، وما أكثر الناس الذين ماتوا في مضاجعهم الوثيرة، وما أكثر الذين سلموا من الأخطار كالامراض والحروب.

إذن الحقيقة الأولى في قول الحسين عليه السلام هي حتمية الموت وقهره للإنسان ومحاصرته له، وأثر هذه الحقيقة هو توطين النفس للموت.

---

(١) كنز العمال ١٦: ٢٠٣.

(٢) بحار الأنوار ٦: ١٣٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٨.

وتوطين النفس يخفف على الإنسان وقع الموت كثيراً حيث يصبح الموت أمراً ينتظره ويتوقعه ولا يثير ذكره الفزع والخوف.

الحقيقة الثانية: إن الموت تكريم للإنسان وزينة للإنسان وهو نقلة للإنسان إلى حياة أفضل من الدنيا البائسة.

يقول الحسين عليه السلام: (**مخطّ القلادة من جيد الفتاة**).

إن القلادة على جيد الفتاة والاغلال على عنق المجرمين لهما أثر واحد وهو محاصرة العنق، ولكن القلادة زينة والاغلال إذلال.

والاسلام ينزع المعاني السلبية والسيئة من الموت ويعطي للموت صورة مشرقة (لقاء الله)، لكي يصبح الموت أمراً محبباً إلى نفس الإنسان.

بعكس الجاهلية التي تكرّه الموت للإنسان لأنها تشدّ الإنسان إلى الدنيا وتزيد من تعلقه بها.

والتصور الإسلامي للموت وكذلك التصور الجاهلي كلاهما حق، فإن حلاوة الموت ومرارته لها علاقة مباشرة بعمل الإنسان.

فإذا أحسن الإنسان عمله فالموت يكون بالنسبة له نقلة إلى حياة أفضل.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في مناجاته: (**وأصلح لي آخرتي فإنها دار مقرّي واليها من مجاورة اللئام مفرّي**).

والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران. فإذا أساء الإنسان عمله فالموت يكون أمراً مبغوضاً لديه، وإنما يكره المنافقون الموت لسوء أعمالهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

والحسين عليه السلام يقرر هاتين الحقيقتين في الموت وهما: إن الموت أمر لا مفرّ منها، فلابدّ من توطين النفس له، والموت زينة للإنسان وجمال للإنسان.

الكلمة الثانية:

عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: (**خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً وما ارتحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريا وقتله**).

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٧.

وقال يوماً: (**ومن هوان الدنيا على الله** ﷻ ان رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل)[١].

وان هناك شبهاً عظيماً بين مقتل يحيى بن زكريا عليه السلام ومقتل الحسين بن علي عليه السلام:

١ ـ إن الجريمة ـ جريمة القتل ـ تقع في الصالحين لأهداف سياسية، وهذه مرحلة من الجريمة كما قتلوا الحسين عليه السلام.

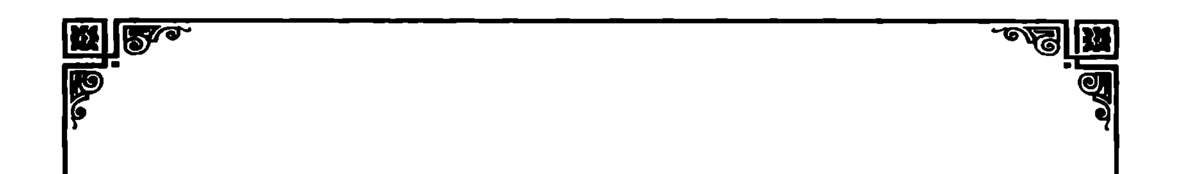
٢ ـ وأحياناً يتجاوز هذا الحد ويصل إلى حد التشفي والحقد وذلك كما سحقوا وداسوا صدر الحسين عليه السلام بسنابك الخيول وحرقوا خيام الحسين عليه السلام.

٣ ـ وأحياناً يتجاوز هذا الحد ويصل إلى حد الاستهتار بحرمات الله تعالى، كما أخذوا رأس الحسين عليه السلام ووضعوه في طست من ذهب بين يدي يزيد في مجلسه وأخذ يزيد يقرع بخيزران معه ثنايا الحسين عليه السلام.

وفي قصة يحيى بن زكريا أهدي رأسه عليه السلام إلى بغية من بغايا بني إسرائيل.

ولا أعلم ماذا في هاتين الحادثتين من التشابه والاستهتار بحرمات الله تعالى. فإن الجريمة بلغت في كلتا الحادثتين أقصاها، فلابدّ ان تكون درجة السمو في كلتا القصتين أيضاً أقصى درجات السمو، وبالتالي فإن هاتين الحادثتين تمثلان من التاريخ آخر درجات الانحطاط في حياة الإنسان وأسمى درجات التعالي والسمو ايضاً.

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٩٠.



مناقشة المواقع
الثلاثة على خارطة الصراع

مواقع الناس على خارطة الصراع

للناس على خارطة الصراع ثلاثة مواقع:

موقع الولاء والبراءة: وهو الموقع المتقدم على هذه الخارطة، وأصحاب هذا الموقع يقفون في الصف الأول من مواجهة العدو، وبطبيعة الحال يملكون في ساحة المواجهة رؤية واضحة وموقعاً واضحاً. وهذا هو الموقع الأول.

موقع المتخلفين: وهو موقع المتفرجين على ساحة المعركة، وهؤلاء يقفون بعيدين عن خط المواجهة، ويحرصون إلا يصيبهم بأس أو ضر من ساحة المعركة، وفي الغالب يرصدون نتيجة المعركة، ليعلنوا هويتهم بصورة مكشوفة بعد انكشاف نتيجة المعركة. وهذا هو الموقع الثاني.

موقع العداء والبراءة والمحاربة في الجهة المقابلة.. وهذا هو الموقع الثالث.

الفئتان المتحاربتان:

والموقع الأول والثالث هما اللذان يدفعان ضريبة المواجهة من طرفي (الحق) و(الباطل)، فان لموقع المواجهة من معسكر (الحق) ضريبة، كما أن لموقع المواجهة من معسكر الباطل ضريبة، ولكل منها هزيمة وفوز، وانسحاب وتقدم، ولله تعالى سنن ثابتة ومحكمة في هذا وذاك، والحرب بينهما سجال، فقد يفوز الحق وقد يفوز الباطل، وقد ينهزم هذا الجانب، وقد ينهزم الجانب الأخر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، ولكن هناك حقيقتين ثابتتين لا تتغيران، هما أن الجانب الأول يعرج إلى الله في هذه الحركة والجانب الثاني يسقط إلى الشيطان. أولهما إلى الجنة وثانيهما إلى النار. وهذه هي **الحقيقة الأولى**.

والحقيقة الثانية: أن العاقبة للمتقين، وهم الذين يرثون الأرض في نهاية الشوط،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

ويكسبون نتيجة المعركة. وأن مآل المعركة لصالح جبهة التوحيد والعدل دائماً. وهاتان حقيقتان لا تتغيران، مهما تغيرت ظروف المواجهة والصراع.

الفئة الوسطى:

أما الفئة الوسطى (المتخلفون) فهي فئة معقدة شديدة التعقيد. ولها قوانين وسنن تخصّها، ونحن نستعرض جملة من هذه السنن بإيجاز:

أن موقع (التخلّف) يتميز بسهولة الانزلاق إلى الموقع المقابل المعادي للحق. وقلّما يتفق أن يصعد الإنسان من موقع التخلف إلى الموقع الأول، (موقع التصدي لمواجهة الباطل)، وأكثر ما يقع لصفوف المتخلفين هو الانزلاق من موقع التخلّف إلى الموقع المناوئ للحق.

إن موقع التخلف يُطْمعُ الأعداء، فهو موقع ضعيف، وليس بموقع قوة، والموقع الضعيف يغري الأعداء دائماً.

إن جدار الموقع الأول رفيع ومنيع، يحجز الأعداء ويعجزهم، وجدار الموقع المتخلف واطئ يغري الأعداء بالتسلق.

إن هذه المنطقة منطقة مكشوفة للأعداء، يسهل غزوها والاستيلاء عليها من جانب العدو، فهي معرّضة دائماً للغزو والعدوان.

الخطاب الحسيني للجيش الأموي يوم عاشوراء

للإمام الحسين عليه السلام خطاب إلى جيش ابن زياد يوم عاشوراء وهو خطاب دقيق ويحتاج إلى توقف وتأمّل... وسبق أن تحدثنا عن هذا الخطاب سابقاً، إلا إننا سوف نتحدث في هذا الخطاب في سياق التعريف بالفئة المتخلفة وما يؤول إليه أمرهم من الانزلاق إلى جانب الأعداء.

فقد كان الجيش الأموي الذي خرج إلى قتال الحسين عليه السلام في كربلاء، جلّهم، ممن كان يسكن الكوفة، وكانت الكوفة عاصمة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام... وكان الكثير منهم، ومن قادتهم ممن قاتل أهل الجمل وبني أمية والخوارج مع الإمام علي عليه السلام في (الجمل) و(صفين) و(النهروان) ثم غمدوا سيوفهم، وأحجموا عن القتال إلى جانب الإمام الحسين.

فكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يناديهم ويدعوهم إلى الخروج لأنهاء فتنة بني أمية فيحجمون عن الاستجابة له، حتى كان يقول لهم: «**يا أشباه الرجال ولا رجال... لوددت أني**

لم أركم، ولم أعرفكم... قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيضاً... وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان...»[١].

(ويقول): **«إذا أمرتكم بالسير اليهم في أيام الحر، قلتم: هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يُسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير اليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فانتم والله من السيف افر»**[٢].

ثم لما تولى الإمام الحسن عليه السلام الأمر بعد أبيه، انفرطوا عنه، وأبقوه وحده، مع زمرة قليلة ممن يتبعه حتى اضطر إلى قبول الهدنة مع معاوية، وتجرع مرارة الهدنة مع بني أمية.

فلما آل الأمر إلى بني أمية بشكل كامل أرغمهم معاوية على قبول ولايته وحكمه، والدخول في سلطانه، وقبلوا ذلك راغمين، ثم تدرّج أمرهم في الانزلاق من الموقع الوسط إلى موقف العداء لاهل البيت عليهم السلام أنْ خرجوا لقتال الحسين عليه السلام في عهد يزيد، وهو الأمر الذي اخبر عنه الفرزدق، عندما سأله الحسين عليه السلام عن خبر الناس خلفه، فقال: (قلوبهم معك وسيوفهم عليك)... فقد استل يزيد بن معاوية السيوف التي غمدها أصحابها عن القتال مع علي عليه السلام... استلها هذه المرة لقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ونجل علي وفاطمة في كربلاء، وسرعان ما تبعت قلوبهم سيوفهم، ولم تطل لهم حالة الانشطار بين القلوب والسيوف، فتوافقت قلوبهم وسيوفهم لقتال آل علي عليهم السلام في كربلاء.

... هؤلاء الذين غمدوا سيوفهم إلى جانب عليّ عليه السلام عن قتال معاوية، ثم شهروا سيوفهم لقتال آل علي عليهم السلام مع ابن زياد في كربلاء... أقول: هؤلاء هم الذين يخاطبهم الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذا الخطاب المشجي، الحزين، المفجع.

لقد ناداهم علي عليه السلام حتى بحُّ نداؤه، فلم يستجيبوا لقتال أعدائهم من آل أمية، فآل أمرهم إلى أن يقفوا مع أعدائهم من آل أمية لقتال أوليائهم من آل علي عليهم السلام، من غير أن يتغير شيء من الخارطة السياسية يومئذ، فلم يزل بنو أمية أعداء الناس يقهرون الناس ويذلّونهم، ويحكمونهم بالإرهاب والتجويع والإذلال[٣]، ولم يزل آل عليّ عليهم السلام أولياء الناس

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٧٥ دار احياء الكتب العربية بتحقيق محمد ابو الفضل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع فصول الكتاب الأول من هذا المسلسل (وارث الأنبياء) لتعرف دور بني أمية في الإفساد في دين الله وأمة رسول الله صلى الله عليه وآله من أمهات المصادر التاريخية.

وأولياء هذا الدين الناصحون له، يدفعون عنه التحريف والتبديل، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

... هؤلاء الناس، يخاطبهم الحسين عليه السلام في كربلاء، يوم عاشوراء بهذا الخطاب المؤثر الحزين، فلنستمع إلى الحسين عليه السلام، يخاطب أولئك الناس الذين وقفوا مع ابن مرجانة لقتاله وقتال أنصاره، يقول لهم:

(تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً، وبؤساً لكم، أحين استصرختمونا والهين، **فأصرخناكم موجفين**[1] **سللتم علينا سيفاً لنا في ايمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل افشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم... فسحقا لكم يا عبيد الامة وشذاذ الاحزاب... ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون، أجل والله غدر قديم، وشجت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجي للناظر، واكلة للغاصب)**[2].

والآن نتوقف عند جُملّ هذا الخطاب العجيب، جملة بعد جملة:

السيف الذي سله رسول الله والنار التي فجرها صلى الله عليه وآله:

يقول عليه السلام:

(سللّتم علينا سيفا لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم).

فهذا السيف الذي سلّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهره في وجوه أعداء الناس قد غمده الناس في أيام عليّ والحسن عليهما السلام، فلم يستجيبوا لدعوة الإمامين علي وابنه الحسن عليهما السلام للحرب، إلا بمشقة وصعوبة وبطء، فلم يبق هذا السيف طويلاً في غمده، وإنما استله معاوية وابنه يزيد، ولكن على أولاد علي وشيعته هذه المرة.

فإن السيف لن يبقى في غمده طويلاً. وهذا هو الذي يشير إليه الفرزدق عندما سأله

---

(١) تواترت كتب أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام ليقدم عليهم بعد هلاك معاوية، فيقاتلون معه بني أمية، ليعيدوا الحق إلى أهله ونصابه فاستجاب لهم الإمام الحسين عليه السلام وقدم عليهم من الحجاز إلى العراق.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي٢: ٦، تاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٢١٦، بحارالانوار٤٥: ٨، العوالم١٧: ٢٥١، الاحتجاج٢: ٢٤.

الحسين عليه السلام عما راءه في العراق فقال: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»، فإن السيف الذي غمده الناس أيام علي والحسن عن محاربة معاوية سله يزيد بن معاوية لقتال الحسين عليه السلام.

إن مساحة الصراع ترفض الذي يقفون موقف المتفرجين على المعركة، ويطلوّن على الساحة من بعيد، فتجرهم ساحة الصراع إلى جهة الباطل، رغماً عنهم، إذا امتنعوا عن الاستجابة لدعوة الحق والوقوف إلى جنب الحق طوع إرادتهم.. وهذه ضريبة التخلي عن نصرة الحق.

ولقد كانت تلك الطفلة الصغيرة من بنات الحسين عليه السلام أوعى من حميد بنت قحطبة (راوية الطف).... عندما وجد تلك الطفلة التائهة من بنات الحسين تركض في الصحراء عشية عاشوراء وهي عطشى وقد أخذت النار جزءاً من ثوبها، فقالت له يا شيخ: (لنا أم علينا) فقال لها: (لا لكم ولا عليكم).

فليس من الممكن أن يبقى الإنسان طويلاً، لا للحق ولا على الحق، فان لم يكن للحق فسرعان ما ينزلق إلى جبهة الباطل.

ولقد أدركت تلك الطفلة الصغيرة بحسّها المرهف وفطرتها السليمة أن موقف الناس لا يمكن أن يخلو من واحد من اثنين، إن كان في البدء أو في العاقبة، إما أن يكون لهم أو عليهم.

إذن النتيجة التي ننتهي إليها: أنّ الإنسان ينزلق بسبب (الضعف) و(الجبن) و(الجزع من الموت) إلى موقع التخلف، ومن هذا الموقع ينزلق الإنسان مرة أخرى إلى موقف العداء والمجابهة للحق.

مبدأ ثنائية الموقف

إذن المواقع الحقيقية على ساحة المعركة اثنان، وليست ثلاثة، كما يقول الناس، وينشطر الناس، كل الناس إلى هذين الموقعين في أيّة معركة حضارية بين الحق الباطل.

وذلك إمّا لأنّ المواقف المتخاذلة للمتفرجين على ساحة المعركة تؤول في نهاية الشوط إلى موقف العداء والمجابهة، وينزلق المتخلفون إليه، أو لأن (الولاء) و(البراءة) بمعنى (الطاعة) و(العصيان). لا تحتمل مساحة فاصلة بينهما برزخاً، لا هو بالولاء ولا هو بالبراءة، فانّ الذي لا يطيع دعوة الحق يكون عاصياً له، لا محالة.

ولذلك كان الإمام الحسين عليه السلام يحرص على أن يبتعد عنه المتخلفون الذين كانوا يضمرون الحب للحسين عليه السلام في قلوبهم، ولكن كانوا يؤثرون العافية لأنفسهم، ولا يريدون أن يدخلوا فيما دخل فيه الحسين عليه السلام من مواجهة وصراع مع بني أمية.

روت جرداء بنت سمين عن زوجها هرثمة بن أبي مسلم، قال: غزونا مع علي عليه السلام صفين، فلما انصرفنا نزل كربلاء، فصلى بها الغداة، ثم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: **(واها لك أيتها التربة، ليحشرن منك أقوامٌ يدخلون الجنة بغير حساب).**

فرجع هرثمة إلى زوجته، وكانت شيعة لعليّ عليه السلام، فقال: ألا أحدثك عن وليك أبي الحسن؟ نزل بكربلاء، فصلّى ثم رفع إليه من ترابها، فقال: **(واهاً لك أيتها التربة ليحشرن منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب).**

قالت: أيها الرجل إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل إلا حقاً.

فلما قدم الحسين عليه السلام، قال هرثمة كنت في البعث الذين بعثهم عبيدالله بن زياد لعنه الله، فلما رأيت المنزل والشجر- ذكرت الحديث -، فجلست على بعيري، ثم صرت إلى الحسين عليه السلام، فسلّمت عليه، وأخبرته بما سمعت من أبيه في ذلك المنزل الذي نزل فيه الحسين عليه السلام.

فقال: **معنا أنت أم علينا؟**

فقلت: لا معك ولا عليك، خلّفت صبية أخاف عليهم عبيد الله بن زياد.

قال: **(فامض، حيث لا ترى لنا مقتلاً، ولا تسمع لنا صوتاً، فوالذي نفس حسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا[١] أحد، فلا يعيننا إلا أكبّه الله لوجهه في جهنم)**[٢].

وأتصور أن الأمر بحاجة إلى مزيد من التوضيح لنثبت مبدأ (ثنائية الموقف)، وننفي مبدأ (ثلاثية الموقف السياسي).

لنفترض أن حرباً وقعت اليوم بين دولة وأخرى فانه من الممكن أن تقف دولة ثالثة لا شان لها في هذه الحرب موقفاً محايداً وسطاً، لا تميل فيه إلى أي من الدولتين المتقاتلتين،

(١) الواعية: نداء الاستغاثة.

(٢) أمالي الصدوق: ١١٧، تاريخ ابن عساكر(ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٢٢٥)، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٣٧٩.

وليس من حقهما أن تطالبا الدولة الثالثة بتصنيف موقعها السياسي من هذا الصراع، فلا شان لها في هذه الحرب الدائرة بين هذين الطرفين.

ولكن المواطن الذي يعيش في كل من هاتين الدولتين إذا تخلّف عن ساحة المواجهة، ووقف موقف المتفرج من المعركة الدائرة بين بلده وبلد آخر، يرفع القانون عنه (حق العصمة)، ويتعرّض لعقوبة القانون، ولا يسمع القانون منه عذراً في ذلك، أن القانون في كل من البلدين يعتبر الفرد من هذا البلد أو ذاك مشمولاً بقانون الولاء لهذا البلد أو ذاك، فـ(التخلف) عن حضور المعركة (مخالفة)، والمخالفة ترفع عن صاحبها عصمة القانون.

نعم إذا ألغينا عنصر (الولاء) من ساحة الصراع، ولم تكن العلاقة التي تربط عناصر الساحة بعضهم ببعض عنصر (الولاء) فإن من الممكن تثليث الموقف، فتكون هناك ثلاثة مواقف، وليس موقفان.

ففي الساحة الدولية ـ مثلاً ـ لا توجد علاقة ولاء بين دولة ودولة أخرى، وطبيعة العلاقة الدبلوماسية والسياسية بين الأنظمة في العالم ليس من نسيج الولاء والبراءة، ولذلك فان من الممكن توزيع مواقع الأنظمة من ساحة المعارك الدولية، كالحرب العالمية الأولى والثانية إلى ثلاثة مواقع، وليس إلى موقعين: (الجبهتين المتقاتلتين)، والطرف المحايد في المعركة... وعلى هذه الطريقة جرى تاريخياً توزيع المواقع الدولية على خارطة الصراع والحرب في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

إلا أن الذي يصح بين الأنظمة والدول في العالم لا يصح في داخل النظام الواحد بين النظام والمواطنين، فان كل نظام يفترض أن تكون العلاقة بينه وبين المواطنين (علاقة ولاء)، ولذلك لا يسمح النظام للمواطن أن يقف موقف المتفرج من ساحة المعركة، إذا نشبت معركة بينه وبين نظام آخر، ولا يسمح بوجود نقطة ثالثة على ساحة المعركة، فإما أن يقف المواطن إلى جنب النظام، أو يدرج اسمه وموقعه في قائمة المعارضين لذلك النظام والدولة.

والناس في داخل أي نظام ينشطرون إلى شطرين اثنين فقط: مسالم وهو الذي يعطي ولاءه للنظام ومتمرد على سيادة النظام، وهو الذي يحجب ولاءه عن النظام، وليس من موقع ثالث.

وفي زيارة (الجامعة) المعروفة تتجلّى هذه الحالة الثنائية في ساحة الولاء والبراءة، وعلى خارطة الصراع بصورة واضحة... ففي هذه الزيارة تجد هذه الفقرة الدقيقة: «**فمعكم معكم، لا**

مع عدوكم». ومعنى ذلك أن موقف الإنسان المسلم تجاه أهل البيت عليهم السلام لا يكون إلا واحداً من اثنين، إما أن يكون معهم أو يكون عليهم، وليس هناك من موقع ثالث على الإطلاق، لا لهم، ولا عليهم.

عودة إلى خطاب الإمام الحسين عليه السلام:

يقول عليه السلام لجند ابن زياد يوم عاشوراء: **«وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم»**.

ومن أجل أن نفهم هذا الخطاب الحسيني فهماً أفضل، نتساءل:

ما هي هذه النار التي يتحدث عنها الإمام الحسين عليه السلام؟

ومن أين اقتدحوها؟

ومن الذي اقتدحها؟

ثم بباب من أوقد الناس هذه النار؟

وأي دار احرق الناس بهذه النار؟

هذه أربعة أسئلة تطلب الجواب، ولننطلق في الحديث عن هذه الفقرات من كلام الحسين عليه السلام من هذه الأسئلة الأربعة.

النار التي يتحدّث عنها الإمام عليه السلام هي القوة الماردة التي انطلقت من جزيرة العرب إلى ساحة الحضارة الإنسانية على وجه الأرض، لتحرق عروش الظالمين، وقلاعهم وقصورهم وتدّمر قواعد ملكهم وسلطانهم، لتحرير المستضعفين والمحرومين على وجه الأرض، بهذه النار فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، وأحرقوا الحضارات الجاهلية، وأسقطوا الأوثان والطغاة.

وهي من أغرب ما يعرفه الإنسان في التاريخ.

فقد كان العرب قوماً معزولين عن ساحات الحضارة المعاصرة لهم يومذاك لا يصلون إليها بسبب، اللهم إلا ما كان من رحلة الشتاء والصيف، وكانت طبيعة الصحراء تفرض عليهم هذه العزلة.

وتصف الزهراء عليها السلام حالهم قبل الإسلام، فتقول:

«وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطأ

الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد والورق، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد ﷺ بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾»[1].

فانطلق هؤلاء العرب ـ بالذات ـ من عمق الصحراء، بالإسلام، ليقوموا بأعظم انقلاب حضاري في تاريخ الإنسان، وليغيروا مسار حركة التاريخ، وليحولوا القوّة والسلطان من محور الطغاة الجبارين إلى محور المستضعفين والمحرومين، ومن محور التمرد على الله، إلى محور التسليم لأمر الله.

من أين اقتدح رسول الله ﷺ هذه النار الحارقة والمضيئة؟ اقتدحها من عمق فطرة هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون الحياة الجاهلية، ومن ظلمات هذه النفوس الغارقة في الجاهلية، وتلك كانت من أعظم معجزات هذا الدين.

من هذا الشعب الضعيف والمعزول، استخرج الإسلام هذه القوة، وهذه النار الحارقة وهذه الغيرة والشجاعة، وهذا الغضب الذي انصبّ على الطغاة والجبارين، والرحمة التي نزلت على المحرومين والمستضعفين.

إن وقود هذه النار كان في ظلمات الجاهلية، في تلك الكتلة البشرية التي كانت تعيش في عمق الصحراء.

وعلى يد هؤلاء المعزولين في عمق الصحراء، بالذات، سقطت حضارة الفرس والروم، ومن هؤلاء بالذات اختار الله تعالى للناس على وجه الأرض أئمة وقادة وسادة.

فيا ترى ماذا أودع الله تعالى في عمق هذه النفوس من كنوز القيم والشجاعة، والغيرة، والغضب، والرحمة، والوعي، والإبداع، والإيثار، والإيمان، والإخلاص؟

وماذا يُهدِر الإنسان من هذه الكنوز التي أودعها الله تعالى في عمق فطرته عندما يستسلم للأنظمة والحضارات الجاهلية؟

والسؤال الثالث: من هو الذي اقتدح هذه النار؟

اقتدحها رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين من أهل بيته، وأصحابه، وكما يقتدح

---

(١) الاحتجاج ١: ٢٦٠، بحار الانوار ٢٩: ٢٢٤، دلائل الإمامة للطبري: ١١٤، شرح الأخبار للقاضي المغربي٣: ٣٥، الشافي٤: ٧٢.

الإنسان النور من الصخرة المعتمة، وكما يستخرج الإنسان الحرارة والنور من الحطب البارد المعتم كذلك، اقتدح رسول الله ﷺ من ظلمات هذه الجاهلية هذا النور والنار وهذا الوهج والألق.

وان الإنسان لينظر إلى قطعة الصخرة المعتمة، وإلى قطعة الخشب الباردة. فيقول أن لا نور في هذه ولا نار في تلك، ولكن المهندس الخبير يعرف ماذا أودع الله تعالى في هذه وتلك من نور ونار.

وكذلك اقتدح رسول الله ﷺ من هذه الظلمات نوراً وناراً، أشرقت الأرض بهما في مشارقها ومغاربها.

وان الإنسان ليجهل، فيما يرى من ظاهر هذا الإنسان، ما أودع الله في عمق نفسه من وعي وقوة وقيم ومظهر، فلا يرى في هذا الإنسان غير البؤس والفقر والشقاء فيصيبه اليأس من إصلاح هذا الإنسان.

وأخر، ينفذ نظره في العمق، فيرى ما وراء هذا البؤس والشقاء والفقر الذي يطفح على ظاهرة الإنسان، كنوزاً من المعرفة والوعي والغيرة، والشجاعة، والقيم، فيمتلئ ثقة، واملأ في استخراج هذه الكنوز وتفجير هذه الطاقات.

والفارق بين هذا وذاك: (النظر والرؤية).

فمن الناس من لا ينفذ صبره إلى ما وراء السطح الظاهر من (الإنسان)، ومن الناس من ينفذ نظره إلى العمق.

ولقد آتى الله تعالى رسوله من البصيرة بالإنسان ما استطاع بها أن يكتشف في عمق أولئك العرب في حياتهم الجاهلية الأولى هذه الكنوز من المعرفة واليقين، وهذه الكنوز من القيم، والشجاعة، والقوة، فاقتدحها واستخرجها، وفجّرها، وحرق بها قلاع الظالمين وقصورهم وعروشهم، وحرّر بها المحرومين والمستضعفين على وجه الأرض.

ثم ماذا كانت عاقبة هذه الانطلاقة الجبارة؟ وماذا آل إليه أمر هذه النار الحارقة؟

لقد أحرق الناس بهذه النار دار أهل بيت رسول الله ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

لقد وضع الناس هذه القوة، وهذا السلطان، وهذا النفوذ، وهذا المال، وهذه الامكانات الضخمة في خدمة بني أمية أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته في الجاهلية والإسلام،

فاستخدموها في محاربة علي والحسن والحسين، أهل بيت رسول الله ﷺ والسائرين على هدى رسول الله ﷺ من بعده.

فأي حق أضاع الناس في هذا الانقلاب الحضاري الكبير؟

وأي عهد نقض هؤلاء النّاس؟

وأين ظلامة (سنمّار)[١] من ظلامة آل محمد عليهم السلام؟

وهذا هو الذي يخاطب به الإمام الحسين عليه السلام جيش ابن زياد يوم عاشوراء في كربلاء: (وحششتم علينا ناراً اقتدحناها لعدونا وعدوكم).

(فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم)

وهذه هي الردة الثانية، وهي أعظم من الردة الأولى، وناتجة عنها.

الردة الأولى: هي التي تحدث عنها الفرزدق وتنبأ بها، حين قال للحسين عليه السلام: (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك).

وهذه هي ردة السيوف، وهي الردة الأولى، ولا بد أن تتبعها ردة القلوب، وهي **الردة الثانية**.

في الردة الأولى وضع الناس السيوف التي وضعها رسول الله ﷺ في أيديهم... تحت تصرف أعداء رسول الله ﷺ أعداء أهل بيته في الجاهلية والإسلام، إلاّ أن قلوبهم وولاءهم وحبهم استمر مع ذلك مع أهل بيت رسول الله، وتلك درجة من الخيانة، أن سلموا السيف الذي أعطاهم رسول الله ﷺ إلى أعداء الله ورسوله.

والخيانة الثانية: وهي أعظم من الأولى، أنّ قلوبهم التي حررها رسول الله ﷺ من اسر الطاغوت والهوى مالت إلى بني أمية، فسحب الناس حبهم وولائهم من آل البيت عليهم السلام، وقدموها لأعدائهم، فانحرفت قلوبهم من علي والحسن إلى معاوية ومن الحسين إلى يزيد بن معاوية.

---

(١) سنمّار: اسم رجل رومي بنى الخورنق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امريء القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه، فخرّ ميتا، وإنّما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره، فضرب العرب به المثل لمن يجزي بالاساءة الاحسان.

وفي الحقيقة تحولوا في هذه المرة من ولاء أهل البيت إلى البراءة منهم، ومن البراءة من بني أمية إلى تقديم الولاء لهم... وهي الردة الكبرى في حياة الأمة، والانتكاسة الكاملة لها.

ولنعد إلى كلمة الإمام من جديد: (فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم).

و(الألب) القوم تجمعهم عداوة واحدة، كما يقول أهل اللغة.

نقول إن هذا الجيش ألب على الجيش الأخر يعني أن هذا الجيش يجمعهم العداء للجيش الآخر، وتألّبوا عليه، أي اجتمعوا على عداوتهم.

والحسين عليه السلام يقول لأولئك الناس الذين جاؤوا إلى كربلاء لقتاله: إنكم انضممتم إلى صفوف أعدائكم وتضامنتم معهم في العداء لنا، والبراءة منا، فأصبحتم (انتم وأعدائكم) نسيجاً واحداً في العداء لنا والبراءة منا.

وهي حالة غريبة في الإنسان يتبدّل فيها نسيج الإنسان، بشكل كامل، فيكون نسيجه من نسيج أعدائه، وبخلاف نسيج أوليائه، ويكون هو وعدوه من نسيج فكري وسياسي واجد ضد نسيج أوليائه في الفكر والسياسة.

وهذا الأمر يساوي ردّة كاملة في شخصية الإنسان، فإن نسيج الإنسان السياسي والفكري هو ولاؤه، وبراءته، وحبه، وبغضه، وتبدل هذا النسيج من البراءة من الأعداء وولاية الأولياء، إلى ولاية الأعداء، والبراءة من الأولياء، هو الردة الكاملة في شخصية الإنسان.

ولا بد من توضيح أكثر لهذه الفقرة من كلمة الإمام الحسين عليه السلام.

يريد الإمام عليه السلام في هذه الفقرة أن يقول لأولئك الذين شهروا سيوفهم بوجهه في الطفّ: إنكم تعرضتم لردة كاملة في هويتكم (الفكرية السياسية).

وهذا الذي يذكره الإمام عليه السلام هو أكثر ما يمكن أن يحصل من ردة، في هوية الإنسان، وهو المسخ الكامل لهوية الإنسان، وليس الأمر هنا من قبيل الفساد والانحراف الذي يحدث داخل شخصية الإنسان، في بُعد أو عنصر من عناصر شخصيته، فهذا من الفساد والانحراف، وليس من (المسخ).

و(انقلاب الهوية) والذي يذكّرهم الحسين عليه السلام به في هذه الفقرة من القبيل الثاني، وليس من قبيل الفساد والانحراف الذي يطرأ على شخصية الأمة.

ونذكر توضيحاً، نريد به المزيد من الوضوح في هذه النقطة:

يقول علماء المنطق إن لتعريف كل شيء (طرد) و(عكس) وبهذا الطرد والعكس تتحدد

ماهيته وحقيقته، ويقصدون بالطرد طرد كل مفهوم آخر مغاير لهذا المفهوم عن حدّ هذا المفهوم وتعريفه، ويقصدون بالعكس إدخال كل شيء ينطوي تحت هذا المفهوم في حد هذا المفهوم وتعريفه فمثلاً لو قلنا في تعريف مفهوم الإنسان: (الإنسان حيوان مدرك) فإن هذا التعريف يعكس أفراد الإنسان كاملاً ويطرد النبات والجماد وبقية الحيوان كاملاً.

فإذا انقلب أمر المفهوم فأصبح يعكس الجماد ويطرد الإنسان. فقد حصل انقلاب في الهوية والماهية والحقيقة، لا في الإعراض، فأصبح هذا المفهوم مفهوماً لشيء آخر غير الإنسان.

وهذا هو الذي قلنا عنه انه ردة في الهويّة، وليس من الفساد والانحراف، والإمام هنا يقول لأولئك القتلة أنّ هذه الأمة المسلمة، لها نسيجها الاجتماعي والسياسي الخاص بها، وهذا النسيج هو تمام هوية هذه الأمة، وفيه يندرج كامل شخصية هذه الأمة التي جعلها الله تعالى امة وسطاً.

ولهذا النسيج مهمتان، الأولى الولاء للأولياء، والثانية البراءة من الأعداء (والولاء هو الوصل والبراءة هي الفصل) وهذا الوصل والفصل هو تمام هذا النسيج، كما أن هذا النسيج هو تمام هذا الدين.

والإمام عليه السلام يريد أن يقول لجند ابن زياد: أن هذا النسيج قد تعرض في نفوسهم لردة كاملة، وليس للتفتت والتمزق، فأصبح يعكس الأعداء ويطرد الأولياء (ينفصل عن الأولياء ويتصل بالأعداء)، وعلى عكس الحقيقة تماماً.

إذن هناك ردة كاملة في هويّة هؤلاء الناس الذين خرجوا لقتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وسقوط ومسخ كامل.

والإمام يطرح هنا مقياساً بالغ الأهمية لمعرفة درجة الانحراف والردة والسقوط في شخصية الأمة، وهذا المقياس الذي يضعه الإمام بين أيدينا يستحق منا الكثير من التأمل والتفكير.

يقول لهم أنكم تعرضتم لردة كاملة في هويتكم الإسلامية وآية ذلك التعاكس في بؤرتي الحب والبغض في قلوبكم، حيث أصبحتم تحبون من يعاديكم وتبغضون من يحبكم.

وعندما تتعاكس هاتان البؤرتان في قلب الإنسان، تتبدل شخصية الإنسان وهويته بصورة كاملة.

وهذه غاية في السقوط والردة.

(بغير عدل افشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم).

في هذه الفقرة يشير الإمام إلى نقطة أخرى مهمة في التبدل الذي حدث عند هؤلاء الناس في بؤرتي الولاء والبراءة والحب والبغض، وهي أن التبدّل الذي حدث عند الناس في الولاء والبراءة لم يرافقه تبدل آخر في الواقع الموضوعي لأوليائهم وأعدائهم ليتطابق التعاكس في بؤرتي الولاء والبراءة في القلوب والتعاكس في مساحتي الأولياء والأعداء في ساحة المجتمع.

وإنّما بقي أوليائهم أولياءً لهم، وبقي أعداؤهم أعداءً لهم، ولم يتغير لهم عدو إلى وليّ ولم يتغير لهم ولي إلى عدو.

ومن العجب أنهم كانوا يقاتلون الحسين عليه السلام في ساحة المعركة بأمر من عبيد الله بن زياد، وكان الحسين يحبهم ويريد لهم الهداية والسعادة والخير وعبيد الله بن زياد يعاديهم ويريد لهم السوء والشر ونار الجحيم.

ويؤكد لهم الإمام عليه السلام في هذه الكلمة أن هؤلاء كانوا أعداء للناس من قبل في الجاهلية، ولا زالوا أعداء الناس بعد الإسلام، وسيبقون أعداء للناس في المستقبل.

فهم الشجرة الخبيثة التي لا تحمل إلا أسوأ الثمرات.

فهم عريقون في الشر والعداء للناس من الجذور إلى الفروع والأغصان والثمرات.

واليك إشارات الإمام للناس في هذه المراحل الثلاثة:

فهم أعداء للناس في الجاهلية وقبل الإسلام، يقول عليه السلام: «وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم» أي عدونا وعدوكم في الجاهلية وبدء ظهور الإسلام، حيث وقف هؤلاء في وجه هذا الدين، وحاربوه بكل جهدهم وإمكاناتهم.

وهم لا زالوا أعداء الناس إلى اليوم الذي وقف فيه الحسين عليه السلام أمام الناس في ساحة كربلاء سنة ٦١هـ يقول لهم: «فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم».

ثم يقول لهم الإمام عليه السلام أن هؤلاء سوف يبقون أعداء للناس في المستقبل أيضاً، ولا أمل في انتقالهم من موقع الأعداء إلى موقع الأولياء للناس محل العداء للناس، فيقول لهم الإمام عليه السلام: «ولا أمل أصبح لكم فيهم».

إذن لم تتغير هذه الشجرة الخبيثة إطلاقاً ولا أمل للناس أن تتغير في المستقبل، فهم

أعداء الناس في الماضي والحاضر والمستقبل، لم تتغير هويتهم العدائية للناس، ولكن أولئك الناس هم الذين تغيّروا وانقلبوا على أعقابهم، وأي انقلاب، انقلبوا في العمق، والهوية، وفي الحب والبغض، وفي الولاء والبراءة.

وهذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام تستوقف الإنسان وتكشف عن حقيقة خطيرة. فان هؤلاء الناس لم يكونوا مخدوعين ببني أمية، كما قد يتصوره الإنسان، ولذلك يقول لهم الإمام عليه السلام يقول لهم: «بلا أمل أصبح لكم فيها».

إذن هؤلاء لم يكن لهم أمل في صلاح بني أمية، وأن يترك بنو أمية خبثهم ومكرهم وكيدهم بالإسلام والمسلمين.

فلماذا اتبعوهم؟

وإذا كان ذلك بالإجبار والقهر والقوة، فلماذا أحبوهم ووالوهم؟

وهذا من أغرب الأمور. فإذا كان هناك من سبب يبرّر للناس اتّباعهم لهم في المواقف المعلنة أو كما يقول الفرزدق أن يُسلّموا سيوفهم لبني أمية، ويحتفظوا بقلوبهم لبني عليّ عليه السلام، فليس من سبب يبرّر لهم أن يُسلّموا قلوبهم وحبّهم وولاءهم لبني أمية، إلاّ أن ينخدعوا بهم.

ولكن الإمام عليه السلام يؤكد أنهم كانوا غير مخدوعين ببني أمية، وليس لهم من أمل في بني أمية.

فكيف أحب الناس بني أمية إذن، ووالوهم، وهم يعرفونهم؟ وكيف عادى الناس الحسين عليه السلام وحاربوه وهم يعرفونه؟

إن جذور المسألة تكمن في حالة (الذل)، إن حالة (الذل) توطّئ نفس الإنسان للمسخ والردة، وللانقلاب في الحب والبغض والهوية.

وليس كذلك أمر التضليل والخداع، فقد ينخدع الإنسان بعدوه فيتوهمه ولياً له فينصره، وينخدع في وليه، فيتصوره عدواً، فيحاربه، دون أن ينتكس قلبه، فإذا انكشف له وليّه وعدوه، عاد إلى وليه بالحب وإلى عدوه بالعداء.

هذا فيما إذا انقلب السيف في يد الإنسان لعدوه على وليه بالتضليل والخداع.

إما عندما ينقلب السيف في يد الإنسان لعدوه على وليه بالقهر والإذلال، فإن الأمر يختلف كثيراً فتتبع القلوبُ السيوف، عن علم، لا عن جهل، فيكون ولاء الإنسان وحبه حيث يعطي سيفه، ويكون عداء الإنسان وبراءته حيث يشهر سيفه.

بل ماذا أقول: إن القلوب تفقد في (حالة الذل والقهر) خاصيتها الطبيعية في تنظيم الحب والبغض والولاء والبراءة على محاورها الأصلية من المجتمع، وتتبلّد القلوب، بصورة كاملة، فيتدخل الطاغية بنفسه، لينظم مواقع الحب والبغض والولاء والبراءة في قلوب الناس، كما يريد، وبموجب نظام جديد يخدم مصالحه، لا بموجب النظام الذي خلق الله تعالى القلوب عليها.

وقد أذل بنو أمية الناس بالترهيب والترغيب، وبالسيف والذهب، فنكّسوا قلوب هؤلاء الناس، فأصبحوا يعادون أولياءهم، ويوالون أعدائهم عن علم، ومن غير أمل لهم فيهم.

نسيان الذات:

ولعلنا لا نجد تعبيراً دقيقاً لهذه الحالة التي يصفها الإمام الحسين عليه السلام في نفوس هؤلاء الناس في علم النفس الحديث... ولكن في القرآن تسمية معبرة ودقيقة لهذه الحالة:

يقول تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

هؤلاء الناس يصدق عليهم هذا التعريف بشكل دقيق فهم في الحقيقة، قد نسو أنفسهم، فعادوا لا يذكرون أنفسهم.

فإن الإنسان في الحياة الاجتماعية شبكة من العلاقات الايجابية والسلبية الموزعة بين الحب والبغض.

ويشخّص الإنسان في المجتمع، وفي حركته الاجتماعية، بهذا الحب والبغض، وليس باسمه واسم أبيه وعنوانه، وعمله، كما يألف الناس ذلك في سجلات النفوس والعناوين البريدية.

فهو يحب أباه وأمه وأبناءه وعائلته وأصدقاءه، ويكره أعداءه، ويحب من أحسن إليه، ويبغض من أساء إليه، وضمن هذه الشبكة الواسعة من الحب والبغض والولاء والبراءة، يتشخص الإنسان ويتعين.

فإذا اختلت هذه الشبكة من العلاقات الايجابية والسلبية، وتداخلت خيوط هذه الشبكة واضطربت ضيّع الإنسان نفسه وفقدها ونسى نفسه، ولم يعد يذكرها، فهو يتشخص في حبه

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

وبغضه، وقد اضطربت عليه خارطة الولاء والبراءة، فعاد يوالي عدوه من غير مبرر ويعادي وليه من غير سبب.

ولكي نتصور مقدار الضياع ونسيان الذات في هذه الردة النفسية العميقة والمسخ الذي يصيب الإنسان نحاول أن نستعين بالمسألة التالية:

تصوروا أن إنساناً يعيش ويتحرك في وسط مجتمع تربطه به علاقات حب وبغض، وولاء وبراءة، في شبكة واسعة... ثم يفقد هذا الإنسان ذاكرته مرة واحدة، مائة في مائة (١٠٠٪)، فلم يعد يذكر أي شيء ممن يحبهم أو يبغضهم، ويتساوى عنده في اللقاء أبوه وأمه وأبناءه وزوجته مع أعداؤه والذين حاربوه وظلموه.

أي مصيبة تحل بهذا الإنسان، وأي إخلال يدخل على قلب هذا الإنسان، وعلى صفحة الولاء والبراءة من نفسه، وعلى شبكة علاقاته في المجتمع.

أنه يتحول إلى شخص آخر يختلف تماماً عن الشخص الذي كان يعيش فيما بين الناس قبل أن يفقد ذاكرته.

لقد أصيب هؤلاء الناس الذين قاتلوا الحسين عليه السلام من دون ذنب ولا سبب بشيء يشبه هذه الحالة من نسيان الذات فأصبحوا يوالون أعداءهم من غير سبب، ويعادون أولياءهم من دون مبرر.

ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون

ثم يستصرخ الإمام ضمائرهم في هذه الفقرة.

وقد تكون فيهم بقية من الضمير، فتكون لهم بمثابة حبل الإنقاذ. ففي هذا الانهيار الذي يحدث في شخصية الإنسان من الداخل يكون (الضمير) الحصن الأخير الذي يقاوم في داخل النفس موجة الردّة والخراب، فإذا سقط الضمير، سقط كل شيء، ولم يبق بعد أمل في هذا الإنسان.

وما دام للضمير بقية في نفس الإنسان ففي هذا الانسان بقية من الأمل.

والخطاب هنا إلى ضمائر هؤلاء القوم. ولست أدري ماذا في هذا الخطاب من معاناة ومرارة تختلج في نفس الإمام.

يا عبيد الأمة وشُذاّذ الاحزاب

وهذه أخلاق العبيد، وحالة العبيد، وليست بحالة الأحرار.

إن العبيد ولاءهم لمن يشتريهم من سوق النخاسة، وليس لولائهم أصل ثابت.

فمن يشتري العبد يستحق ولاءه، سواء كان يحبه أم يكرهه، وسواء كان ينفعه أم يضره.

فيتحول ولاءه من مولى إلى مولى.

في لحظة واحدة، يدفع المولى الجديد الثمن إلى المولى القديم فينتقل ولاء العبد من المولى القديم إلى المولى الجديد، عندما ينتقل الثمن من المولى الجديد إلى المولى القديم، وعندما يدفع المولى القديم السوط إلى المولى الجديد... فينتقل مع الثمن والسوط ولاء العبد وطاعته من المولى القديم إلى مولاه الجديد.

في لحظة واحدة، فقط، ينسى ولاءه القديم، ويفسخ ميثاقه مع المولى القديم، وينقض طاعته له، ويحل محله ولاء جديد، وميثاق جديد، وطاعة جديدة للمولى الجديد.. في نظام الرقّ.

أين يحصل هذا الانقلاب كله في ولاء العبد؟

وكيف يحصل بهذه السهولة في لحظة واحدة؟

هذا الانقلاب كله يحصل في أسوق النخاسة وبانتقال الثمن من المشتري إلى البائع وبانتقال السوط من البائع إلى المشتري ببساطة وسرعة.

الدينار والسوط العاملان الرئيسيان في ولاء العبيد

وهذه حالة (شذاذ الاحزاب)، فإن الناس في معسكر الحق والباطل ولاؤهم لأوليائهم، وبراءتهم لأعدائهم في السراء والضراء، على نحو سواء، ولكن (شذاذ الأمة) لا يستقيم لهم ولاء وبراءة على حال، ولا يستقيم ولاءهم لأحزابهم وأولياءهم، ولا يكون لهم محور ثابت للولاء والبراءة، وإنما يكسب المنتصر دائماً ولائهم، ويفرض عليهم البراءة من أعدائه، مهما كان هذا المنتصر.. (نحن مع من غلب).

(فسحقاً لكم)

وهذا دعاء الإمام عليه السلام على أولئك الذين خرجوا لقتاله وقتال الفتية من أهل بيته وأصحابه.

ودعاء الإمام عليه السلام يجري على سنن الله، ويعكس سنن الله تعالى في خلقه، وأروع ما في الدعاء هذا التطابق بين الدعاء وسنن الله.

عندما دعا العبد الصالح نوح عليه السلام ربه تبارك وتعالى أن ينجي ابنه من الغرق، فقال بكل أدب العبودية: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، فأجابه الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]، وليس على نوح من بأس أن يدعو الله تعالى بما يشاء، وليس في ذلك ما ينافي العصمة ومقام النبوة، ولكن مع ذلك كله لم يكن لنوح عليه السلام أن يدعو الله تعالى على خلاف سنن الله.

وسلام الله على نوح نبي الله، العبد الصالح الصابر الذي أدبّه ربه فأحسن تأديبه، فما أسرع ما تذكر واستسلم وانقاد لمشيئة الله وسننه في ابنه واستغفر ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2].

إن أفضل الدعاء وأقربه إلى الاستجابة الدعاء الذي يعكس سنن الله تعالى، ويجري في اتجاه سنن الله.

والحسين عليه السلام هنا يدعو على هؤلاء الناس الذين خرجوا لقتاله عندما لم يجد فيهم أملاً للخير فيقول لهم (سحقاً لكم).

ويدعو الله تعالى أن يقطع عنهم رحمته ويُبعدهم عنها، وهذا دعاء يعكس سنن الله تعالى في أولئك الناس عندما ينضب في نفوسهم معين الخير، ولنتأمل في هذا الدعاء:

علاقة الرحمة بمواقع نزولها

إن بين رحمة الله تعالى ومواضع نزولها علاقة وصلة متبادلة.

فإن رحمة الله تعالى إذا نزلت على موقع من حياة الإنسان ازدهرت وأثمرت، فإذا نزل المطر على أرض إخضرّت وأثمرت وأينعت، وآتت أكلها، وتفجرت فيها العيون، وجرت عليها المياه، وتأهلت بالإنسان والحيوان.

وهذه هي علاقة (الرحمة النازلة)، بـ (مواقع نزولها).

والعكس أيضاً صحيح، فإن للموقع تأثير على نزول الرحمة وانقطاعها.

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٧.

فيستنزل الموقع الرحمة الإلهية، عندما يكون مؤهّلاً ومستعداً لقبول الرحمة، وتنقطع الرحمة إذا فقد الموقع الاستعداد لقبول الرحمة.

وان هذا التأهيل والاستعداد في مواقع الرحمة هو بمثابة طلب نزول الرحمة، ولكنه طلب بالتكوين، كما أن الدعاء طلب باللسان، وكما أن الرجاء طلب بالقلب والحال.

وفقدان الأهلية والاستعداد لقبول الرحمة بمثابة رفض الرحمة وردها، وبمثابة الإعراض عن الرحمة. فلا تهبط الرحمة الإلهية على ذلك الموقع حينئذ.

وهذه الحقيقة التكوينية في العلاقة بين الرحمة ومواقع نزولها، أو بين العرض والطلب في الرحمة، تصح في حياة الإنسان، بشكل دقيق.

فإذا نضب معين الخير في نفس الإنسان، انقطعت عنه رحمة الله. ورحمة الله تنزل على الإنسان بقدر ما ينبع في نفسه الخير والرحمة.

ومنابع الخير في نفس الإنسان في القلب والعقل والضمير والفطرة والإرادة.

فإذا نضبت هذه النبوع، فلا خير يرجى من هذا الإنسان، ولا تنزل عليه الرحمة الإلهية، ويكون مطروداً عن رحمة الله.

تأملوا في دعاء العبد الصالح نوح نبي الله عليه السلام بعد ما يأس من قومه، وعلم أن معين الهداية قد جف في نفوس قومه، فلا يرجى منهم خير بعد ذلك ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

فلم يبق في نفوس هؤلاء القوم من خير، ولا أمل في أن يكون في نفوس ذرياتهم من خير. فقد نضبت ضمائرهم وقلوبهم وفطرتهم بشكل كامل. ولم يبق في نفوسهم موقع لنزول الرحمة.

إذن فقد استحقوا الطرد من رحمة الله، وهو بمعنى (اللعن).

فيدعوا نوح عليه السلام عليهم أن يهلكهم الله.

وهذا التطابق بين سنن الله تعالى التكوينية والدعاء نجده هنا في دعاء الحسين عليه السلام على هؤلاء الناس الذين خرجوا لقتاله في كربلاء.

فلم يبق في نفوس هؤلاء موضع لنزول رحمة الله، فعلى ماذا تهبط رحمة الله.

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

فيقول عليه السلام لهم: (فسحقاً لكم).

(غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم)

وكما للخير في نفس الإنسان أصالة وعمق، وكما يزداد العمق التاريخي والوراثي للخير في نفس الإنسان، فيتأهّل ويترسخ أكثر، كذلك للشر في نفس الإنسان أصالة، وكلما يزداد العمق التاريخي والوراثي للشر في نفس الإنسان ويزداد قوّة ويترسخ أكثر. وهذا القانون يجري في الخير والشر على نحو سواء في نفس الإنسان.

وقانون الوراثة هو عامل هذا التأهيل والترسيخ، يؤصّل الخير، فينقحه ويزيده ويركزه، ويؤصّل الشر، فينقحه ويزيده، ويركزه.

ولست أريد أن أقول إن عامل الوراثة يسلب الإرادة والقدرة على الاختيار من الإنسان في الخير والشر، فيقهر هؤلاء وأولئك على الخير والشر. فإن ذلك مما لا يصح حتماً، وعامل الإرادة يبقى نقطة ثابتة في حياة الإنسان.

ولكن مما لا يمكن الشك فيه أن البشرية شجرتان: شجرة طيبة وشجرة خبيثة، ولكل من الشجرتين جذور وثمار، وتتشابه الجذور والثمرات، وتكون الثمار من جنس الشجرة والشجرة من جنس الجذور.

وتنتقل خصائص الجذور في كل شجرة إلى الشجرة، من خير أو شر، فجذور الشر تنقل الشر إلى الأغصان والثمرات، وجذور الخير تنقل الخير إلى الأغصان والثمرات، وتنقحه وتؤصّله.

وهذه حقيقة في الوراثة لا يمكن أن نشكك فيها بغض النظر عن التفاصيل الفنية والعلمية لهذه الحقيقة.

وكذلك الناس شجرتان شجرة طيبة وشجرة خبيثة، ولكل من هاتين الشجرتين جذور وراثية في عمق التاريخ. وهذه الجذور تنقل إلى الفروع الطيّب والخبيث، كلّ على شاكلة فتنقل الجذور الطيبة الإبراهيمية التوحيد، والعبودية، والإخلاص، والقيم إلى فروعها، وتنقل الجذور النمرودية الخبيثة إلى فروعها الشرك والتمرد والاستكبار.

وتتوزع البشرية، هاتان الأسرتان (الأسرة الإبراهيمية والأسرة النمرودية) و(الأسرة الموسوية والأسرة الفرعونية).

وعامل الوراثة عنصر أساسي في نقل مواريث التوحيد والعبودية، والشرك، والاستكبار،

من جيل إلى جيل، وفي تأصيل وتركيز حالة التوحيد والعبودية وحالة الشرك والاستكبار فيهما أيضاً.

ولكن هاتين الأسرتين منفتحتان على بعض، ويمكن كل عضو في كل من هاتين الأسرتين أن ينتقل من أسرة إلى أخرى، وعامل هذا الانتقال (حرية الإرادة). وليس في تكوين هاتين الأسرتين حالة الانغلاق، كما في الوراثة الحياتية وما أكثر ما انتقل أعضاء هذه الأسرة إلى تلك الأسرة، وبالعكس، ويتّم العبور هنا بحرية كاملة من كل من الطرفين، ولكلٍّ من هاتين الشجرتين جذورهما الوراثية في عمق التاريخ، وثمراتهما من طيب وخبيث على شاكلة الجذور.

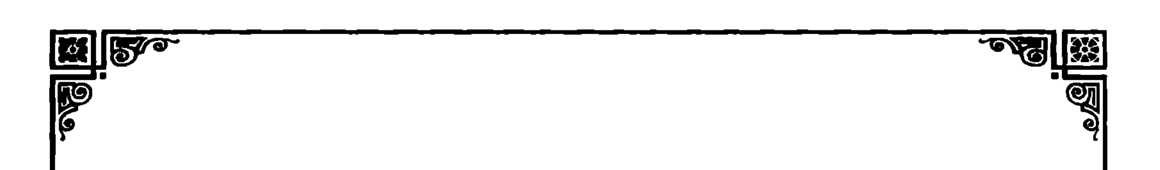
ويبقى في تاريخ الإنسان خط إبراهيمي صاعد وخط نمرودي هابط، والأول يزداد بمرور الزمان عروجاً نوراً وهدى والثاني يزداد بمرور الزمن سقوطاً وظلاماً وضلالاً.

وذلك أن مهمة هذه الجذور ليست فقط نقل الخصائص التاريخية لكل من الأسرتين، وإنما تُنقّح هذه الخصائص ايضاً، فيزداد أحدهما عروجاً ويزداد الآخر سقوطاً، وتتسع الفجوة بينهما عبر التاريخ، حتى تنقطع أسباب الرحمة عن هذه الشجرة، ولا يبقى فيها موضع لنزول الرحمة، ولا أمل للعودة إلى الله، فتهلك هذه الشجر، فيبدأ التاريخ دورة جديدة في هذا المضمار. وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام عليه السلام في خطابه لهؤلاء الناس يوم عاشوراء في كربلاء.

(اجل والله غدر قديم، وشجت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجي للناظر، واكلة للغاصب).

يقول لهم الإمام عليه السلام أن هذا الغدر والخبث فيكم أصل عريق، وشجت عليه أصولكم (اشتبكت عليه أصولكم) وتآزرت (هاجت وتنقحت وتأصلت) عليه فروعكم، فانتم أخبث ثمر لأخبث شجر.

وكان الإمام عليه السلام ينذرهم بعذاب البوار والهلاك، كما انذر نوح عليه السلام قومه قبل بالبوار والهلاك.



الأبعاد السياسية والحركية
لثورة الإمام الحسين عليه السلام

حينما نستعرض كلمات الإمام الحسين عليه السلام ومواقفَه حين تولّى «يزيد» الأمر بعد أبيه «معاوية» ودُعِيَ الإمام من قبل عامل يزيد على المدينة إلى البيعة، إلى أن هبط الإمام أرض كربلاء، ووقف بها في مواجهة جيش بني أُمية... نجد عاملين اثنين رئيسيين كانا السبب الباعث على الخروج والثورة على الحكم الأموي، والذي انتهى إلى استشهاد الإمام عليه السلام في وقعة الطف.

الأول: العامل السياسي.

الثاني: العامل الحركي.

لابدّ لنا من أن ندرس هذين العاملين في كلمات الإمام الحسين عليه السلام في هذا المسير (من المدينة إلى كربلاء) لنستطيع أن نقدم تفسيراً وافياً ودقيقاً لحركة الإمام وثورته.

العامل السياسي

ونبدأ بدراسة العامل السياسي في هذه القضية. كان أول شيء اهتم به يزيد بن معاوية بعد أن تولّى الخلافة من بعد أبيه هو فرض البيعة على الحرمين الشريفين، وكان الحرمان الشريفان يعتبران نقطتي الثقل السياسي في إعطاء الشرعية أو سلب الشرعية من مركز الخلافة في الشام. وأكثر ما كان يهم يزيد من أمر البيعة ثلاثة أشخاص: الإمام الحسين عليه السلام وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير.

ولذلك فقد كانت بيعة الحرمين الشريفين، أول ما فكر فيها يزيد بن معاوية بعد أن تولّى الأمر في الشام.

ولاشكّ أن أمر الحسين عليه السلام كان يشغل بال الخليفة الجديد ومستشاريه من بني أُمية أكثر من أي شخص آخر. وكان معاوية قد سعى من قبل لأخذ البيعة من الحسين عليه السلام بولاية العهد لابنه يزيد فلم يفلح. وكان من جواب الإمام الحسين عليه السلام له حين دعاه إلى قبول ولاية العهد لابنه يزيد:

«وهيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتّى محلت، وجزت حتى جاوزت، ما بذلت لذي حقّ من اسم حقّه بنصيب، حتّى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل. وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمّة محمّد ﷺ، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد، فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم، حتّى ملأت الأسقية. ما بينك وبين الموت إلّا غمضة، فتقّدم على عملٍ محفوظ في يومٍ مشهود، ولات حين مناص»[1].

فلما مات معاوية، وتولّى يزيد الأمر كان أول ما فكر فيه أن يأخذ البيعة من الحسين عليه السلام، فكتب في ذلك إلى عامله على المدينة «الوليد بن عتبة»[2]، فامتنع الحسين عليه السلام امتناعاً شديداً في قصة طويلة، يذكرها الطبري[3]، وابن الأعثم[4]، وغيرهما من المؤرّخين. فقد قال الحسين عليه السلام لمروان، وكان حاضراً ذلك المجلس، وكان يحث الوليد ألا يترك الحسين حتّى يأخذ البيعة منه في ذلك المجلس، وإلّا فيضرب عنقه.. فقال له الإمام الحسين:

«ويلي عليك يا ابن الزرقاء[5] أتأمر بضرب عنقي، كذبت والله. والله لو رام ذلك أحد من الناس لسقيت الأرض من دمه قبل ذلك. فرم ضرب عنقي إن كنت صادقاً».

ثمّ أقبل الحسين عليه السلام على الوليد بن عتبة فقال:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، بنا

---

(١) الإمامة والسياسة: ١٨٦. ط. مصر ـ ١٩٦٩م.

(٢) الفتوح لابن الأعثم ١٠ : ٥، وتاريخ الطبري ٧: ٢١٦. وقد ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة:٢٠٣، أن عامل المدينة حينذاك كان خالد بن الحكم، كتب إليه يزيد يطلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين عليه السلام.

(٣) الطبري ٧: ٢١٦ ـ ٢١٩ ط. ليدن.

(٤) الفتوح ٥: ١٠ ـ ١٩ ط. حيدر آباد ـ ١٩٦٨م.

(٥) الزرقاء هي جدّة مروان وكانت من البغايا الموسمات ذوات الرايات.

فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[١].

وعندما خرج الحسين عليه السلام من عند الوليد، لَامُه مروان على ذلك لوماً شديداً، فقال له عامل يزيد:

«ويحك أتشير عليّ أن أقتل الحسين، فوالله ما يسرّني أن لي بذلك الدنيا وما فيها، وما أحسب أن **قاتله يلقى الله بدمه إلّا خفيف الميزان يوم القيامة».**

فقال له مروان مستهزئاً:

إن كنت إنّما تركت ذلك لذلك فقد أصبت[٢].

وقد كان موقف الإمام عليه السلام في الامتناع من البيعة ليزيد موقفاً واضحاً، لا يشكّ فيه أحد، وكلمات الإمام في مواقف متعدّدة في مسيره من المدينة إلى كربلاء توضح هذه الحقيقة. يقول الإمام عليه السلام لمحمّد بن الحنفية (أخيه):

«يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأً ولا مأوىً لما بايعت والله يزيد بن معاوية أبداً»[٣].

وخطب الإمام يوم عاشوراء في جيش بني أُمية فقال:

«ألا وأن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة. يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهرت، تؤثر مصارع الكرام على طاعة اللئام»[٤].

وقال لأخيه عمر الأطرف عندما دعاه إلى أن يتجنب مجاهدة يزيد:

«إني لا أُعطي الدنيةَ من نفسي أبداً، ولتلقينّ فاطمة أباها شاكيةً مما لقيت ذريته من أمته»[٥].

---

(١) الفتوح لابن الأعثم ١٨: ٥.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢٠٥.

(٣) الفتوح لابن الأعثم ٣٢: ٥. والمقتل للخوارزمي: ١٨٨. ومقتل المقرّم: ص ١٣٤. ط٢ النجف ١٩٥٦م. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ٧٤.

(٤) إثبات الوصية للمسعودي: ١٤٢، ط. النجف: الحيدرية.

(٥) اللهوف: ١٥، ط. صيدا.

وعندما خرج الإمام عليه السلام يوم عاشوراء، ليقاتل جيش ابن سعد بنفسه كان يرتجز ويقول:

الموت أوّلى من ركوب العار والعار أوّلى من دخول النار[١]

فلم يكن الإمام ـ إذن ـ ليبايع يزيد مهما يكن من أمر. ومن طرف آخر لم يكن يزيد ليترك الإمام عليه السلام من دون بيعة مهما تكن النتيجة.

وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يؤمن بهاتين القضيتين معاً. فلا سبيل إلى بيعة يزيدَ مهما يكن من أمر، ولا يمكن أن يتركه يزيد من دون بيعة أيضاً. وكانت النتيجة المترتبة على هذين الأمرين واضحة للإمام كلّ الوضوح، لا يشك فيها لحظة واحدة.

وقال الإمام لأصحابه حينما أرادوا الخروج من الحجاز إلى العراق: «**وأيم الله لو كنتُ في جحر هامة لاستخرجوني**»[٢].

ولما علم عبد الله بن جعفر أن الحسين يريد الخروج إلى العراق كتب إليه يدعوه إلى البقاء، فكتب إليه الحسين عليه السلام:

«**والله يا بن عمّ لو كنتُ في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني حتّى يقتلوني. والله يا بن عمِّ ليعدينَّ عليّ كما عدت اليهود على السبت**»[٣].

وفي رواية أُخرى يرويها الشيخ المفيد في الإرشاد عن الإمام عليه السلام بنفس المضمون:

«**والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلهم، حتّى يكونوا أذل فرق الأُمم**»[٤].

إذاً فلم يكن للإمام الحسين عليه السلام غير طريق واحد؛ وهو الشهادة... فإنَّ يزيد لا يقبل من الإمام بغير البيعة، والحسين عليه السلام لا يعطي البيعة ليزيد، مهما تكن الأسباب، فلا طريق للحسين إلّا الشهادة، ولابدّ أن يكون الحسين عليه السلام عازماً على الشهادة، حين خرج من الحجاز إلى العراق.

---

(١) نفس المهموم: ٣٥٣. تحقيق الشيخ رضا استادي، ١٤٠٥هـ ـ قم.

(٢) الطبري ٧: ٢٧٦، الكامل لابن الأثير ٢٨: ٤.

(٣) الفتوح لابن الأعثم ١١٦: ٥. مقتل الخوارزمي: ط. المفيد قم ٢: ٨ باختلاف يسير.

(٤) الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٠٦. وفي رواية ابن الأثير في الكامل ٣٩: ٤. «حتى يكونوا اذل من فرام المرأة» أو (الأمة في بعض الروايات) وفرام المرأة: الخرقة التي تستعملها المرأة في الحيض. راجع كذلك بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٥.

الخيار الثالث:

وكان هناك خيار آخر ثالث، اقترحه عليه بعض الناصحين، رفضه الإمام رفضاً قاطعاً، وهو أن يبتعد عن ساحة المعركة، ويعتزل الناس، ويذهب بعيداً إلى اليمن، أو إلى بعض شُعب الجبال، ويحتجب عن الناس فيكون قد حقّق الغاية، وهو الامتناع عن البيعة ليزيد، دون أن يعرّض نفسه وأهل بيته وأصحابه للأذى والهلاك من قبل يزيد وولاته وعمّاله.

يقول ابن الأثير: لما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من الحجاز إلى العراق جاءه ابن عباس فقال:

«يا ابن العم إني أتصبر، ولا أصبر. إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إن أهل العراق قوم غُدّر، فلا تقربنهم. أقم في هذا البلد (مكة المكرّمة)، فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثمّ أقدم عليهم، فإن أبيت إلّا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضةِ طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة»[1].

وكان ممن يحمل هذا الرأي أخوه محمّد بن الحنفية إذ جاء إلى الحسين عليه السلام لمّا عزم على مغادرة المدينة بأهل بيته، فقال له كما يروي ابن الأثير:

«يا أخي أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك. تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث رسلك إلى الناس... فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك... قال الحسين عليه السلام: **فأين أذهب**؟ قال: أنزل مكّة فإن أطمأنت بك الدار فبسبيل ذلك، وان نأت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتّى تنظر إلى ما يصير أمر الناس[2].

وفي العراق اقترح الطرمّاح بن عدي على الإمام أن يمتنع عن جيش يزيد بن معاوية بمعاقل طيّ المنيعة، فقال للإمام:

«فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به، حتّى ترى من رأيك وتستبين لك ما أنت صانع،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٣٨ ـ ٣٩. دار صادر بيروت ١٩٦٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ٤: ١٦ ـ ١٧.

فسر حتّى أنزلك مناع جبلنا، الذي يدعى (أجا) امتنعنا والله به عن ملوك غسان، وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر. والله أن دخل علينا ذل قط، فأسير معك حتّى أنزلك القرية»[1].

إلّا أنّ الإمام ردّ هؤلاء جميعاً من دون تردّد، لا لأنه كان يشكّ في صدقهم ونصحهم لـه، ولا لأنّهم كانوا موضع ارتياب وشكّ عند الإمام، ولكن لأن هؤلاء لم يكونوا يفهمون الإمام ورأيه وموقفه بالشكل الصحيح، فلم يكن همّ الإمام فقط أنّه لا يبايع يزيد، وألّا يضع يده في يد ابن معاوية، ولو كان الإمام يكتفي بهذا الحدّ ما كلّفه ذلك كثيراً. فما كان أيسر على الإمام أن يعتزل الناس ويغادر الحجاز إلى بلد ناء من هذه البلاد النائية التي نصحه بها أخوه محمّد وابن عمّه عبد الله بن عباس، أو نصحه بها الطرمّاح بن عديّ، إلّا أن الإمام لم يكن يكتفي بهذا الموقف السلبي في أمر خلافة يزيد بن معاوية، ولم يكن هذا الموقف السلبي في رفض البيعة إلّا وجهاً واحداً من وجهي الموقف. أما الوجه الآخر وهو الأهم، والذي كلّف الإمام نفسه، وأهل بيته، وأصحابه، وشيعته، فهو إعلان هذا الرفض على الملأ من المسلمين.

وهذا الإعلان هو الذي أغضب بني أُميّة وأثارهم، فقد اعتبروه تحدياً صارخاً لسلطانهم وحكمهم، وخروجاً على حكمهم وسلطانهم، ولم يكن بنو أُميّة يتحملون شيئاً من ذلك في أيّام سطوتهم وسلطانهم وزهوهم. وكان الإمام الحسين عليه السلام يتوخى من هذا الإعلان مطلباً سياسياً لم يكن يتحقّق لولا إعلان الرفض؛ وهو إسقاط شرعية خلافة بني أُميّة في نظر العامّة من المسلمين. فقد كانت الخلافة رغم كلّ السلبيات التي أحاطت بها إلى هذا الحين تتمتع بالشرعية في نظر الأكثرية من المسلمين، وكانت هذه الشرعية تمكّن بني أُميّة من رقاب المسلمين، وتشل عمل ودور المعارضة، وتعطي للنظام الأُموي قوّة ومقاومة كبيرة. وأخطر من هذا كلّه، إن هذه الشرعية كانت تمكّن بني أُميّة من إدخال الانحرافات الجاهلية ـ التي جاء بها بنو أُمية معهم إلى الحكم ـ إلى الإسلام، فيمسّ الخطر عندئذٍ الإسلام، وتكون مصيبة المسلمين مصيبتين: مصيبة في حياتهم ونظام أُمورهم، ومصيبة أُخرى أكبر وأخطر في دينهم. وكانت هذه النقطة الثانية تشغل بال سيد الشهداء أكثر من أي شيء آخر، فقد بدأ هذا

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٠٤. وكتاب نفس المهموم للشيخ عباس القمي: ١٩٤. والمقتل للسيد عبد الرزاق المقرّم: ٢٠٠. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٩. دار إحياء التراث ـ بيروت ١٩٨٣م.

الانحراف يتسرب إلى الإسلام نفسه من داخل قصور بني أُميّة، بما يقترفون من لهو وفساد وظلم. وإلى هذه النقطة بالذات يشير الإمام عليه السلام في كلامه مع مروان بن الحكم صبيحة الليلة التي خرج فيها الإمام من بيت الوليد، رافضاً البيعة، حيث التقى مروان بالإمام في الطريق فنصح الإمام بالبيعة ليزيد، فقال الإمام لمروان:

«على الإسلام السلام، إذ بليت الأُمّة، براع مثل يزيد. ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **الخلافة محرمة على آل أبي سفيان**»[1].

إذن كان الإمام يخشى أكثر ما يخشى على الإسلام ـ بالذات ـ من أن يدخل عليه ما جاء به بنو أُميّة إلى الحكم من انحراف وفساد، وإذا كان لا يمكن إسقاط الخليفة وانتزاع السلطان منه، فإن من الممكن انتزاع الشرعية من الخلافة، وتجريد الحكم الأُموي من الشرعية التي كان يحرص عليها حكام بني أُميّة. ومثل هذا الأمر يتطلب موقفاً صريحاً معلناً في رفض البيعة، والامتناع عن قبول خلافة يزيد من جانب الإمام في وسط الرأي العام الإسلامي حينذاك. وهذا ما عمد إليه الحسين عليه السلام عندما رفض البيعة ورفض أن يخفي موقفه السلبي هذا، ويعتزل الوسط السياسي إلى بعض الشعاب والوديان والجبال، ليسلم بنفسه وأهل بيته وأصحابه من ملاحقة حكّام بني أُميّة. لقد كان الإمام يخطط ليجعل من موقفه هذا موقفاً سياسياً صارخاً، واحتجاجاً في وجه حكّام بني أُميّة وإعلاناً لسحب الثقة والشرعية من حكّام بني أُميّة وإعلام الأُمّة كلّها بذلك. وهذه بعض النماذج من كلمات الإمام ومواقفه الصريحة في هذا الصدد:

أولاً: غادر الإمام المدينة إلى مكّة ليلاً بجميع أهله وسار على الجادة التي يسلكها الناس، فقال له ابن عمه مسلم بن عقيل: «لو عدلنا عن الطريق وسلكنا غير الجادة، كما فعل عبد الله بن الزبير[2] كان عندي الرأي، فإنّا نخاف أن يلحقنا الطلب». فقال له الحسين عليه السلام:

«لا والله يا بن عمّ لا فارقت هذا الطريق أبداً أو أنظر إلى أبيات مكّة أو يقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى»[3].

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاوس: ١٣. والفتوح لابن الأعثم ٥: ٢٤. مقتل الخوارزمي: ١٨٤ـ ١٨٥. وليس في المصدرين الأخيرين عبارة «ولقد سمعتُ جدي رسول الله». ومقتل المقرّم: ١٣٠.

(٢) تنكّب عبد الله بن الزبير عند مغادرة المدينة الجادة العامّة التي يسلكها الناس. راجع الطبري ٧: ٢١٩ ـ ٢٢٠. والإرشاد للمفيد: ٢٠٣ مكتبة بصيرتي قم.

(٣) الفتوح لابن الأعثم ٥: ٣٤ ـ ٣٥. ومقتل الخوارزمي: ١٨٩. والطبري ٧: ٢٣٢.

ثانياً: دخل الإمام مكّة بصورة علنية متحدياً سلطان بني أُمية. ويصف الخوارزمي نزول الحسين عليه السلام بمكّة فيقول: «وكان قد نزل بأعلى مكّة، وضرب هناك فسطاطاً ضخماً، ثمّ تحول الحسين إلى دار العباس، حولّها إليه عبد الله بن عباس... فأقام الحسين مؤذناً يؤذن، رافعاً صوته، فيصلي بالناس»[1]. وتجمع الناس حول ابن بنت رسول الله في مكّة اجتماعاً كبيراً. يقول ابن أعثم:

دخل الحسين إلى مكّة ففرح به أهلها، فرحاً شديداً، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية؛ واشتد ذلك على عبد الله بن الزبير لأنه قد كان طمع أن يبايعه أهل مكّة. فلما قدم الحسين شقّ ذلك عليه... لكنه كان يختلف إليه (إلى الحسين)، ويصلي بصلاته، ويقعد عنده ويسمع من حديثه، وهو مع ذلك يعلم أنه لا يبايعه أحد من أهل مكّة، والحسين بن علي بها، لأن الحسين عندهم أعظم في أنفسهم من ابن الزبير[2] وكان عمرو بن سعيد الأشدق يومئذٍ عامل يزيد على مكّة، فهاب الحسين، وهرب إلى المدينة، وكتب إلى يزيد بأمر الحسين: يقول الخوارزمي: وهاب ابن سعيد أن يميل الحُجاج مع الحسين، لما يرى من كثرة اختلاف الناس إليه من الآفاق فانحدر إلى المدينة وكتب بذلك إلى يزيد[3].

ثالثاً: تتفق المصادر التاريخية؛ إن الحسين عليه السلام خرج من مكّة إلى العراق يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، عندما كان الحجاج يتوجهون إلى عرفات استعداداً ليوم عرفة، وقد أثار خروج ابن بنت رسول الله يوم التروية ـ من بين الحجاج ـ إلى العراق انتباه عامّة الحجاج الذين كانوا قد أمّوا البيت الحرام من مختلف الآفاق. فهذا ابن بنت رسول الله يحل من العمرة ويغادر مكّة في وقت يتوجه فيه الحجاج إلى عرفات لأداء الحج.

ولا نحتاج إلى تأمل طويل لنكشف أن طريقة الحسين عليه السلام في الخروج من المدينة إلى مكّة ثم مقامه في مكّة، ثمّ مغادرته لها إلى العراق، كان بهدف التعبير والإعلان عن رفضه للبيعة، ولو كان الإمام يريد أن يتجنب البيعة فقط، دون تنبيه وإلفات الرأي العام الإسلامي لهذا الموقف السياسي لما احتاج إلى كلّ هذه الخطوات التي كلفته وكلفت أهل بيته وأصحابه كثيراً، وأثارت عليه سخط بني أُميّة وغضبهم، ولقد كان بنو أُميّة يكتفون من الحسين عليه السلام ـ في

---

(١) مقتل الخوارزمي: ١٩٠.
(٢) الفتوح لابن الأعثم ٥: ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) مقتل الخوارزمي: ١٩٠.

أغلب الظن ـ أن يحتجب ويبتعد عن الرأي العام، ويخرج إلى ثغر بعيد من ثغور المسلمين، بعيداً عن الأجواء السياسية، لكن الحسين عليه السلام أبى أن يبايع إباءً قاطعاً، وأبى أن يخرج إلى ثغر من ثغور المسلمين، ويترك الساحة السياسية والاجتماعية ومسؤوليته الشرعية.

وإليك النصّ الذي يرويه الطبري عن عقبة بن سمعان بهذا الشأن. وعقبة هذا كان قد رافق الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء، ولم يفته شيء من كلمات الإمام وإشاراته ومواقفه. يقول ابن سمعان:

«صحبتُ حسيناً فخرجتُ معه من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق، ولم أفارقه حتّى قتل، وليس من مخاطبتهِ الناس كلمة بالمدينة ولا بمكّة، ولا في الطريق، ولا بالعراق، ولا في عسكر، إلى يوم مقتله، إلّا وقد سمعتها. لا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس، وما يزعمون، من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه، **قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمر الناس**»(١).

الخيارات الثلاثة:

إذن كان أمام الإمام الحسين عليه السلام خيارات ثلاثة:

الأول: أن يبايع يزيد بن معاوية.

الثاني: أن يغادر الساحة السياسية ووسط الرأي العام إلى ثغرٍ ناءٍ من ثغور المسلمين. حتّى لا يكون خطراً على الحكم الأُموي. ونكتشف من كلمة عقبة بن سمعان أن هذا الخيار كان أيضاً مما يطرحه عليه بنو أُميّة على نحو الإبعاد والإقصاء، كما فعل عثمان بن عفان بأبي ذر من قبل. وهذه الطريقة من الإقصاء عن الساحة السياسية لتعطيل المعارضة وإفشال دورها، كان معمولاً بها في تلك الأيّام. وكلمة عقبة بن سمعان واضحة أيضاً في ذلك... «ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين».

وأما الناصحون للإمام فكانوا يقترحون عليه أن يختار هذا الشق ويختار هو الجهة التي يعتزل فيها الساحة السياسية، من آفاق الأرض.

ومهما كان من أمر فقد رفض الإمام هذا الخيار من بني أُميّة ومن ناصحيه، ورفض أن يترك الساحة ويعتزلها، ولم يقتصر في أمر رفض البيعة على هذا الحد السلبي، الذي كان لا

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣١٤.

يرفع التكليف الشرعي، والمسؤولية عن عاتقه، فقد كان الإمام يُصرُّ على أن يترك لشأنه ليذهب ـ كما يقول عقبة بن سمعان في كلمته ـ في هذه الأرض العريضة معلناً عن رأيه في يزيد، ورفضه لبيعته، وعاملاً بتكليفه الشرعي في الحكم الأموي، وهذا ما كان يرفضه بنو أُميّة رفضاً قاطعاً وقد عبّر الإمام عن ذلك لأصحابه حينما أراد الخروج من الحجاز إلى العراق بقوله:

«والله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني»[١].

الثالث: هو خيار المواجهة والشهادة، وقد اختاره الإمام ـ بالذات ـ من بين هذه الخيارات.

ومن كلمات الإمام في كربلاء، أمام جيش ابن سعد:

«لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد»[٢].

فلا يعطيهم يده للبيعة، إعطاء الذليل، وهو الخيار الأول الذي تحدّثنا عنه، ولا يفر فرار العبيد، وهو الخيار الثاني الذي أقترحه عليه بنو أُميّة، لإلغاء دوره، وتعطيل موقفه عن خبث ومكر، واقترحه عليه بعض الناصحين له عن عدم وعي.

وهذا هو العامل الأول لثورة الإمام الحسين عليه السلام.

(١) الطبري ٧: ٢٧٦. والكامل ٤: ٣٨.

(٢) مقتل المقرّم: ٢٥٦، وقد أورد النص بعض أرباب المقاتل بصيغة «ولا أقر لكم إقرار العبيد»، ومثير الأحزان: ٦٢، ط. النجف الحيدرية ١٣٨٦، وفي رأينا ان النصّ الأول ارجح وأوفق إلى موقف الإمام.

العامل الحركي

العامل الثاني لحركة الإمام وخروجه وثورته؛ هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لتحريك الأُمة وتوعيتها وكسر حالة الركود والجمود والاستسلام في الأُمة.

وقد بيّنا ـ فيما مرّ ـ كيف عمل حكّام بني أُمية على نشر الإرهاب والفساد في المجتمع. وقد تمكنوا فيما أرادوا من تمييع المجتمع الإسلامي، والقضاء على روح المقاومة والثورة والتمرد في المسلمين، ونشر روح الاستكانة والاستسلام للواقع الفاسد.

وأبرز دليل على انتشار هذه الحالة السلبية في المجتمع الإسلامي ـ يومذاك ـ هو أن يتولى يزيد أُمور المسلمين، ثمّ لا ترتفع صرخات الاستنكار والاحتجاج في العالم الإسلامي، إلّا ما كان هنا وهناك من اعتراضات ضعيفة ومبتورة للمعارضة، لا يسمعها ولا يدعمها أحد. وكان لابدّ من حركة قوية في وسط العالم الإسلامي، تهز ضمائر المسلمين هزة عنيفة، وتبعث في نفوسهم الحياة والإحساس بالمسؤولية، وتكسر عنهم طوق الخوف والرعب الذي كان يملأ نفوسهم آنذاك، وتعيد إليهم ثقتهم بالله ثمّ بأنفسهم.

لقد كان لابدّ من تضحية عزيزة نادرة تهز ضمائر المسلمين من الأعماق، وتعيد إليهم شخصيتهم وإرادتهم التي انتزعها النظام الأُموي منهم، وتشعرهم بعمق المأساة، وعمق المسؤولية.

وإن للدم والتضحية والفداء من الأثر في تحريك النفوس، وكسر حاجز الخوف، وإعادة الثقة إلى النفوس، والتحسيس بالمسؤولية ما ليس لغيره من عوامل التحريك. فإقدام الإمام على الخروج والثورة على النظام الأُموي، والمواجهة، والمجابهة لم يكن فقط لغرض رفض البيعة، وإعلان هذا الرفض، وإنما كان أيضاً لتحريك المسلمين، وتحسيسهم بالمسؤولية، وإعلان الموقف الشرعي، ودعوة المسلمين إلى المواجهة والمجابهة والمعارضة، والتمرد على النظام والسلطة الأُموية. والإنكار بالعمل والتضحية والقوّة من أهم شعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد روي عن رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً، فلينكر بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله أنه لذلك كاره**»[١].

وروي عن عليّ عليه السلام إنه قال في صفين:

«**أيها المؤمنون، أنه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه، فقد أُجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف، لتكون كلمة الله العليا، وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق**»[٢].

والخروج والثورة لإنكار المنكر والأمر بالمعروف، ولتحريك المسلمين، وتنبيههم من أوضح مصاديق (الإنكار باليد)، وأقوى عوامل التحريك والتوعية في صفوف المسلمين.

وعندما نستعرض كلمات الإمام في مسيره من المدينة إلى كربلاء، نجد أن مسألة رفض البيعة، وإعلان الرفض كموقف سياسي ضد النظام الحاكم لا تعبّر عن كلّ أبعاد حركة الحسين عليه السلام وثورته، فهناك بعد آخر لهذه الحركة؛ هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتحريك المسلمين لمواجهة الطاغية ومجابهته وإسقاطه. وعنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنصر بارز في حركة الإمام الحسين عليه السلام كما نقرأ في زيارته «**أشهدُ أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر**»[٣].

يقول أصحاب السير أن الحسين عليه السلام لما تهيأ لمغادرة المدينة زار قبر جدّه رسول الله ﷺ، وصلّى ركعتين، ثمّ قال: «**اللهم إن هذا قبر نبيّك محمّد، وأنا ابن بنت محمّد، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت.**

اللهم إني أحب المعروف؛ وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ هذا القبر، ومن فيه، إلا ما اخترت من أمري هذا ما هو لك رضا»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة ٦: ٤٠٧. دار إحياء التراث بيروت ١٣٩١هـ عن تفسير الإمام العسكري.

(٢) وسائل الشيعة ٦: ٤٠٥ وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ٢: ٣٦٤ ـ ٣٦٥ المطبعة الحيدرية النجف ـ ١٣٨٦هـ ق.

(٣) زيارة وارث.

(٤) الفتوح لابن الأعثم ٥: ٢٧. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٨. مقتل الخوارزمي ١: ١٨٦. ومقتل المقرّم: ١٣٠. ونفس المهموم: ٧٣.

وعندما نستعرض كلمات الإمام في مسيرته من المدينة إلى كربلاء؛ نجد أن الإمام يؤكد كثيراً في حركته هذه على عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الكثير من المواقف، ويعلن للمسلمين أن خروجه على بني أُمية لم يكن من أجل أن ينال سلطاناً أو ملكاً، وإنّما ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وفي وصيته عليه السلام التي أودعها عند أخيه محمد بن الحنفية قبل الخروج من المدينة إلى مكّة يقول:

«إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمّد ﷺ. أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمّد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب»[1].

وفي مكّة كتب الإمام نسخة واحدة إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، جاء فيها:

«وأنا أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، فإن السنّة قد أميتت، وأن البدعة **قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد**»[2].

وفي منزل البيضة[3] في طريق العراق خطب الحسين عليه السلام في أصحابه وأصحاب الحرّ، فقال:

«أيها الناس أن رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألا أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيّر»[4].

---

(١) مقتل الخوارزمي ١٠: ١٨٨، والفتوح لابن الأعثم ٥: ٣٣ ـ ٣٤. ونفس المهموم: ٧٤. ومعالم المدرستين ٣: ٦١، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) الطبري ٧: ٢٤٠، ومقتل المقرّم: ١٤٢ ـ ١٤٣، ونفس المهموم: ٩٠.

(٣) البيضة: ما بين واقصة إلى عذيب الهجانات. وهي أرض واسعة لبني يربوع بن حنظلة.

(٤) تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠. ونفس المهموم: ١٩٠. ومقتل المقرّم: ١٩٧ـ ١٩٨. وفي بحار الأنوار ورواه باختلاف يسير بعنوان كتاب بعثة الإمام من كربلاء إلى أشراف الكوفة ٤٤: ٣٨١ ـ ٣٨٢. والفتوح لابن الأعثم ٥: ١٤٣ ـ ١٤٤.

وفي منزل «ذي حُسْم» (بالقرب من كربلاء)، خطب الحسين عليه السلام بعد أن حَمَدَ الله وأثنى عليه قائلاً:

«أنه قد نزل من الأمر ما قد ترون. وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، واستمرّت جذّاء فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحقّ لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه؟ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً»[١].

ومما يؤكد عزم الإمام على الخروج والثورة؛ أن الإمام صادر أموالاً كان قد بعثها عامل يزيد على اليمن إلى يزيد «بالتنعيم» بالقرب من مكّة المكرّمة. يقول الطبري:

«ثم إن الحسين أقبل حتّى مَرَّ بالتنعيم، فلقى بها عيراً قد أُقبل بها من اليمن، بعث بها مجير بن ريسان الحميري إلى يزيد بن معاوية، وكان عامله على اليمن. وعلى العير الورس والحل، يُنطلق بها إلى يزيد، فأخذها الحسين عليه السلام، فانطلق بها. ثمّ قال لأصحاب الإبل: **لا أكرهكم، من أحب أن يمضي معنا إلى العراق أوفينا كراءه، وأحسنّا صحبته، ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الأرض»**[٢].

وعليه فإن حركة الإمام عليه السلام ـ كانت ذات بعدين: سياسي وحركي. في البُعد الأول، كان هدف الإمام الحسين عليه السلام رفض البيعة، وإعلان هذا الرفض على المجتمع الإسلامي ـ يومذاك ـ والاستفادة من الجانب الإعلامي للرفض. وفي البُعد الثاني، كان الإمام يخطط للخروج على النظام الحاكم، وما يسمى اليوم بـ«الثورة المسلحة»، والجهاد المسلح بهدف تحريك المجتمع ضد الظلم، وإيقاظ الأُمّة، وبعث روح الجهاد ومقاومة الظالم في نفوسهم ودفع الناس للثورة على الظالم وإسقاطه، وكسر حاجز الخوف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذان البعدان واضحان من كلمات الإمام ومواقفه في مسيره من المدينة إلى كربلاء كما رأينا طرفاً من ذلك في هذه الدراسة.

وقد كان الإمام خلال هذه الحركة السياسية الجهادية على بيّنة من أمرين اثنين، لابدّ أن نشير إليهما، لنتمكن من رسم الصورة الكاملة للمسيرة الحسينية:

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١ وبحار الأنوار ٤٤: ٣٨١. ونفس المهموم: ١٩١.

(٢) تاريخ الطبري ٧: ٢٧٧. كذلك راجع الكامل لابن الأثير ٤: ٤٠ والبداية والنهاية ٨: ١٦٦. ومقتل الخوارزمي ١: ٢٢٠. ونفس المهموم: ١٧١ ـ ١٧٢. ومقتل المقرّم/ ١٨١.

الأمر الأول:

إن هذه الحركة ـ ببعديها السياسي والحركي ـ غير قادرة على إسقاط النظام الأُموي، فقد كان النظام الأُموي قوياً مرهوب الجانب، قد أعدّ لـه معاوية كلّ أسباب القوّة والمنعة، من مال وقوّة عسكرية، وإعلام، وإرهاب، وإدارة. ولم يكن الإمام عليه السلام بقادر ـ بما كان يتهيأ له يومذاك من أنصار ـ أن يقاوم قوّة الشام المركزية بصورة أكيدة.

كما أن النظام الأُموي استطاع خلال هذه المدّة أن يخمد جذوة الثورة في نفوس الناس، وأن يقنع الناس بأن من الخير لهم أن يؤثروا السلامة والعافية، على الثورة والتمرد على النظام، وأن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة والسمع والطاعة، ولا يفكروا في شيء من أمور الدولة ونظامها، ولا ينقادوا لدعوات دعاة المعارضة. وقد أفلح معاوية بشكل خاصّ في تدجين الناس للنظام، وتثبيت رهبة النظام وسطوته في نفوس الناس، وتعويدهم على الاستسلام والرضوخ. وكان الإمام الحسين عليه السلام يعرف هذا جيداً ولا يجادل فيه، ولم يكن يأمل أن يجد في العراق جيشاً قوياً يدعمه في موقفه ضد سلطان بني أُمية، ويتبنى دعوته لإسقاط النظام، ويقف إلى جانبه، ويثبت، وكان يعلم جيداً أن هؤلاء الناس الذين تجمّعوا لدعوته وبيعته وكتبوا إليه سرعان ما ينقشعون أمام قوّة الشام والحكومة المركزية، ولا يبقى معه غير قلّة قليلة من شيعته الذين دبّ فيهم التفكك والضعف وروح الاستسلام والانهزامية. ولقد كان الإمام عليه السلام يعرف ذلك أيضاً معرفة جيدة. ولم يكن خروج أخيه الحسن عليه السلام لقتال معاوية، وما أصاب جيشه من التفكك والخيانة، واضطرار الإمام الحسن لإيقاف القتال ببعيد عنه، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام يتوقع أن تتهيأ لـه من الظروف السياسية والقتالية أفضل مما توفرت لأخيه الحسن عليه السلام من قبل.

التحذير من الخروج إلى العراق:

ولم يكن يغيب عن الإمام الحسين عليه السلام ما كان يراه، ويذكّره به الكثير من شيعته والناصحين والمحبين لـه، ممن كان الإمام لا يتّهم نصحهم وصدقهم وفهمهم لساحة العراق. يقول ابن الأعثم (في الفتوح) والخوارزمي (في المقتل): قدم ابن عباس إلى مكّة وقد بلغه أن الحسين عليه السلام عزم على المسير، فأتى إليه، ودخل عليه مسلّماً، ثمّ قال له: جعلت فداك، أنه قد شاع الخبر في الناس وارجفوا بأنك سائر إلى العراق. فقال: **نعم، قد أزمعت على ذلك،**

في أيّامي إن شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم. فقال ابن عباس: أُعيذك بالله من ذلك، وأنت تعلم أنه بلد قد قتل فيه أبوك واغتيل فيه أخوك»[١].

«ودخل عليه عمر بن عبد الرحمن بن هشام المخزومي فقال: يا بن رسول الله إني أتيتُ إليك لحاجة أُريد أن أذكرها، فأنا غير غاش لك فيها، فهل لك أن تسمعها؟ فقال الحسين: هات فوالله ما أنت عندي بسيئ الرأي فقل ما أحببت. فقال: قد بلغني أنك تريد العراق، وأني مشفق عليك من ذلك. أنك ترد إلى قوم فيهم الأُمراء، ومعهم بيوت الأموال، ولا آمن عليك أن يقاتلك من أنت أحب إليه من أبيه وأُمه ميلاً إلى الدينار والدرهم، فقال له الحسين: جزاك الله خيراً يا بن عم. فقد علمتُ أنك أمرت بنصح.

ومهما يقضي الله من أمرٍ فهو كائن أخذت برأيك أم تركته»[٢].

ولم يكن الإمام يكذّب هؤلاء أو يتردد في كلامهم، وقد كانوا يؤكدون للإمام أن أهل العراق لا يثبتون طويلاً أمام جيوش الشام وإن العاقبة لن تختلف عن عاقبة الجيش الذي صحب أخاه الحسن عليه السلام من قبل.

كان الإمام يتقبل كلّ ذلك ويصدّقه من دون مناقشة أو تردد. يقول الخوارزمي: أن الإمام عندما بلغ «ذات عرق» في خروجه إلى العراق لقيه رجل من بني أسد: يقال لـه بشر بن غالب، فقال لـه الحسين عليه السلام: **ممن الرجل؟** قال: من بني أسد. قال: **فمن أين أقبلت؟** قال: من العراق. قال: **فكيف خلفت أهل العراق؟** فقال: يا بن رسول الله خلفت القلوب معك، والسيوف مع بني أُمية. فقال لـه الحسين: **صدقت يا أخا بني أسد. إن الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد**»[٣].

وفي الطريق في منزل «الصفاح» لقي الإمام الفرزدق بن غالب الشاعر، «فواقف حسيناً فقال لـه: أعطاك سؤلك، وآملك فيما تحب. فقال لـه الحسين عليه السلام: **بيّن لنا نبأ الناس خلفك.** فقال لـه الفرزدق: من الخبير سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُمية... والقضاء ينزل

(١) مقتل الخوارزمي ١: ٢١٦، والفتوح لابن الأعثم ٥: ١١١ ـ ١١٢.

(٢) الفتوح لابن الأعثم ٥: ١١٠ ـ ١١١، وباختلاف يسير مقتل الخوارزمي ١: ٢١٦.

(٣) مقتل الخوارزمي ١: ٢٢٠ ـ ٢٢١، ومثير الأحزان لابن نما: ٣١، والمقتل للمقرّم: ١٨٢ ـ ١٨٣.

من السماء والله يفعل ما يشاء. فقال له الحسين عليه السلام **صدقت، لله الأمر، ويفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربنا في شأن»**[١].

ولما بلغ عبد الله بن جعفر سفر الحسين عليه السلام إلى العراق، أرسل إليه كتاباً مع ولديه عون ومحمّد يخبره بأنه خائف عليه من الوجه الذي يسير إليه (العراق)[٢]، فلم ينثن الإمام عن عزمه.

ومع هذه التأكيدات التي ذكرنا طرفاً منها هنا، فإن من غير المعقول أن يغيب عن الإمام ما كان يعرفه هؤلاء الناس الذين لم يكن الإمام يشك في نصحهم وصدقهم وحبهم له. فلم يكن الإمام ـ إذن ـ يطمح في إسقاط نظام بني أُمية بهذه القوّة التي تطّوعت له في العراق. وكلّ القرائن التاريخية التي رافقت خروج الإمام تنفي هذا الاحتمال من الأساس. إذن لم يفكر الإمام في خروجه إلّا بتوعية الرأي العام وإثارة سخط الناس ضد حكم بني أُمية، وتثوير المجتمع الإسلامي وتحريكه ضد سلطان بني أُمية، دون الإسقاط المباشر.

الأمر الثاني:

إن الإمام عليه السلام كان مصمماً على الشهادة، عالماً بأن غاية خروجه هذا هي الشهادة في سبيل الله، وكلّ القرائن التي رافقت حركة الإمام عليه السلام تؤكد هذه الحقيقة، فلم يكن من الممكن أن يترك بنو أُمية الحسين عليه السلام معلناً رفضه للبيعة، خارجاً على بني أُمية في رفضه وامتناعه عن البيعة. ولم يكن الإمام يقبل بالتنازل عن رفضه للبيعة، وإعلانه للرفض، وخروجه على يزيد، مهما بلغ الأمر في وقت لم تكن له قوّة تحميه. فليس بد ـ إذن ـ من الشهادة، إلّا أن يتنازل الحسين عليه السلام عن رفضه للبيعة، والخروج على يزيد، ويتقبل بيعة يزيد أو يعتزل الساحة السياسية إلى بعض شعاب الجبال أو البوادي، وهو ما كان يرفضه الإمام رفضاً قاطعاً وأكيداً لا يقبل المناقشة. وكلمات الإمام في هذه المسيرة صريحة أيضاً على عزمه الأكيد على الإقدام على الشهادة.

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٢٧٧ ـ ٢٧٨. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٥. وارشاد المفيد: ٢١٨. ومقتل المقرّم: ١٨٢. والكامل ٤: ٤٠. والفتوح لابن الأعثم ٥: ١٢٤ والنصّ للأول وبين النصوص اختلاف يسير.

(٢) الكامل ٤: ٤٠. والطبري ٧: ٢٧٩. والفتوح لابن الأعثم ٥: ١١٥. والإرشاد للمفيد: ٢١٩ مكتبة بصيرتي ـ قم.

ونذكر فيما يلي بعض النصوص:

أولاً: كان الإمام الحسين عليه السلام قد وعد أخاه محمّد بن الحنفية بأن ينظر في رأيه في الإعراض عن العراق، فلما غادر عليه السلام مكّة متوجهاً إلى العراق جاءه محمّد بن الحنفية، وأخذ بزمام ناقته، واستنجزه الوعد، فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟، قال: **بلى**. قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟، قال: **أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله** بعدما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً. فقال محمّد بن الحنفية: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك، وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ قال: **فقال لي صلى الله عليه وآله**: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا، فسلّم عليه ومضى[1].

ثانياً: لمّا عزم الإمام على الخروج من المدينة أتته أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ، فقالت: «يا بُني لا تحزنني بخروجك إلى العراق، فإني سمعت جدّك يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها كربلاء. فقال لها: **يا أُماه أنا والله أعلم ذلك، وأني مقتول لا محالة وليس لي من هذا بد**»[2].

ثالثاً: في الليلة الثانية (أو الثالثة) من دعوة الوليد الإمام إلى البيعة، ذهب الإمام إلى قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقضى الليل كلّه في الصلاة والدعاء، «حتى إذا كان في بياض الصبح وضع رأسه على القبر، فأغفى ساعة، فرأى النبيّ صلى الله عليه وآله قد أقبل في كوكبة من الملائكة... حتّى ضم الحسين عليه السلام إلى صدره، وقبّل بين عينيه، وقال: **يا بُني يا حسين؛ كأني عن قريب أراك مقتولاً مذبوحاً بأرض كرب وبلاء، من عصابة من أُمتي، وأنت في ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، ما لهم لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة**»[3].

رابعاً: روي أن الإمام الحسين عليه السلام لما عزم إلى الخروج إلى العراق من مكّة، قام خطيباً، فقال: «**الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله وصلّى الله على رسوله وسلم: خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي،**

---

(١) الملهوف: ٥٦. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤. ونفس المهموم: ١٦٤ ـ ١٦٥ ومقتل المقرّم: ١٧٤.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١. وقريباً من هذا المضمون في إثبات الوصية: ١٤١. ونفس المهموم: ٧٧. ومقتل المقرّم: ١٣٥.

(٣) الفتوح لابن الأعثم ٥: ٢٧ ـ ٢٨. وقد أورد هذه الرواية آخرون كالمقتل للخوارزمي في ١: ١٨٦ ـ ١٨٧. والمجلسي في البحار ٤٤: ٣٢٨. ونفس المهموم: ٧٢ ـ ٧٣. ومقتل المقرّم: ١٣٠ ـ ١٣١. وروى الرواية أيضاً في معالم المدرستين ٢: ١٨٥ ـ ١٨٦. ط. ١٤٠٥ هـ.

اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت. لن تشذَّ عن رسول الله لُحمته، وهي مجموعة لـه في حظيرة القدس، تُقِرُّ بهم عينه، وتنجز لهم وعده، من كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى»[1].

خامساً: يقول الإمام الصادق عليه السلام: لما مضى الإمام متوجهاً، دعا بقرطاس وكتب فيه إلى بني هاشم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي بن أبي طالب إلى بني هاشم. أما بعد فإنه من لحق بي منكم استشهد ومن تخلف لم يبلغ مبلغ الفتح والسلام»[2].

سادساً: كتب الإمام من كربلاء إلى أخيه محمّد بن الحنفية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي عليه السلام، إلى محمّد بن علي ومن قبله من بني هاشم. أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، والآخرة لم تزل والسلام»[3].

فالإمام ـ إذن ـ كان قد خرج بدافع إعلان رفض البيعة، وإعلان الثورة على يزيد، ولم تكن لدعوة أهل العراق أثر في مسيرة الحسين عليه السلام وحركته، إلّا بقدر ما يتعلق بتحديد الجهة في حركة الإمام وسيره. ولما تبين الإمام أن القوم قد انقلبوا عن رأيهم وموقفهم عندما أعترضه الحرّ بن يزيد الرياحي بجيشه، عرض عليهم الحسين أن ينصرف عنهم إلى حيث يشاء من الأرض، على أن يختار هو عليه السلام الجهة التي يريدها، لا أن تفرض عليه من قبل ابن زياد. وقد عرض الإمام عليه السلام هذا الأمر على الحرّ مرتين يوم اللقاء، مرّة بعد صلاة الظهر ومرّة بعد صلاة العصر[4].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦ ـ ٣٦٧. واللهوف: ٥٢ ـ ٥٣. وكذلك نفس المهموم: ١٦٣. ومعالم المدرستين ٢: ١٩٩. ولواعج الأشجان للسيد محسن الأمين: ٦٣ مكتبة بصيرتي. والوثائق الرسمية لثورة الحسين: ٧٧ ـ ٧٨. دار التعارف للمطبوعات.

(٢) اللهوف: ٥٧. وكامل الزيارات: ٧٥. والمقتل للمقرّم ٤٨. ونفس المهموم: ٧٥ وفي الروايات اختلاف يسير في النصّ.

(٣) كامل الزيارات: ٧٥. المطبعة المرتضوية في النجف ١٩٥٦ ومثير الأحزان للجواهري: ٤٨.

(٤) الفتوح لابن الأعثم ٥: ١٣٥ ـ ١٣٧. والإرشاد للمفيد: ٢٢٤ ـ ٢٢٥. ونفس المهموم: ١٨٨ ـ ١٩٠. إلّا أن رواية الإرشاد حددت المرتين قبل صلاة الظهر وبعد صلاة العصر من نفس اليوم، واتبعه في ذلك الشيخ عباس القمي في نفس المهموم.

وليس في كلام الإمام هذا إشارة إلى أنه أن انصرف عن العراق فسوف يكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة الناس للثورة ضد سلطان بني أُمية، أو يحتجب برأيه وموقفه السلبي تجاه بني أُمية في بعض شعاب الجبال أو ثغور المسلمين. ولم يتعهد الإمام للحر يومذاك بشيء من هذا، وإنّما طلب منه أن يتنحى عنه، حتّى ينصرف إلى حيث يشاء من أرض الله الواسعة. وقد ذكرنا قبل هذا كلمة عقبة بن سمعان ـ التي رواها الطبري ـ في امتناع الحسين عليه السلام من أن يضع يده بيد يزيد، أو يعتزل الناس في ثغرٍ ناءٍ من ثغور المسلمين.

إذن.. كان الحسين عليه السلام مقدماً على إعلان الخروج على يزيد، على كلّ حال، وكان يبحث عن الفرصة التي تهي له هذا الإعلان، ووجد في دعوة أهل العراق وبيعتهم هذه الفرصة، وكان على يقين أن هذا الموقف السياسي والثوري سوف يكلفه نفسه والنخبة الصالحة من أهل بيته وأصحابه.. ولم يكن من ذلك بد. ولذلك فقد قدم الإمام على الشهادة راضياً مطمئن البال.

وكان هناك من شيعة الإمام الناصحين له من كان يحمل رأياً آخر يختلف عن رأي الإمام، ويعتقد أن الإمام إذا خرج وقُتل انتهكت بقتله حرمة الإسلام، ولا يحترم بعده بنو أُمية أحداً من وجوه المسلمين وأعلامهم، ومن هؤلاء ابن عمه عبد الله بن جعفر، وكان ممن لا يشك الإمام في صدقه ونصحه، أرسل إلى الإمام كتاباً مع ولديه عون ومحمّد ـ كما أسلفنا ـ والإمام في طريقه إلى العراق، يقول فيه للإمام:

«فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك. إن هلكت اليوم أُطفيء نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي»(١).

ومنهم عبد الله بن مطيع العدوي؛ التقى الإمام في الطريق إلى العراق على ماء من مياه العرب، فقال للإمام:

---

(١) الكامل ٤: ٤٠. والطبري ٧: ٢٧٩. والبداية لابن كثير ٨: ١٦٣. والإرشاد للمفيد: ٢١٩. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦. ومقتل المقرّم: ١٧٤ ـ ١٧٥، ومقتل الخوارزمي ١: ٢١٨. ولواعج الأشجان: ٧٧ ـ ٧٨.

«بأبي أنت وأُمي يا بن رسول الله ما أقدمك؟ فقال له الحسين عليه السلام: **كتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم.** فقال له عبد الله بن المطيع: أُذكرك الله يا بن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أُمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً»[١].

وكان الإمام عليه السلام يرى على خلاف هؤلاء، أن الشهادة هي الفتح، وأن هذه الأُمّة لا يمكن تحريكها، ولا يمكن أن تُبعث فيها الحياة والحركة والعزم من جديد، إلّا بشهادته وشهادة النخبة الطاهرة من أهل بيته وأصحابه. وقد كتب بذلك إلى أخيه محمّد بن الحنفية: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى محمّد بن علي ومن قبله من بني هاشم، أما بعد، فإن من لحق بي أستشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام**»[٢].

وليس من الممكن الإجابة بأفضل من هذا الجواب: فمن لحق بالحسين عليه السلام لابدّ أن يستشهد ومن لم يلحق به فاتته الشهادة، وهي الفتح الذي لا يشك به الحسين؛ عندما ينظر إليها في امتداداتها البعيدة، والنتائج التي تحققها في حياة المسلمين.

فلولا شهادة الحسين عليه السلام والنخبة المؤمنة التي خرجت معه إلى العراق، والهزة العميقة التي أحدثتها في وجدان الأُمّة وضميرها... لمضى بنو أُمية في غيّهم وطيشهم وعبثهم بمقدرات الأُمّة ورسالتها. بيد أن شهادة الحسين عليه السلام أعادت الأُمّة إلى وعيها ورشدها وأحسّتها بمسؤوليتها الشرعية في مواجهة طغيان بني أُمية وضلالهم.

يقول الشيخ جعفر التستري رحمه الله في كتابه القيّم «الخصائص الحسينية»:

(فلو كان الحسين يبايعهم ـ بني أُمية ـ تقية، ويسلم لهم، لم يبق من الحقّ أثر، فإنّ كثيراً من الناس اعتقدوا أنه لا مخالف لهم في جميع الأُمّة، وأنهم خلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله حقّاً. فبعد أن حاربهم الحسين عليه السلام وصدر ما صدر إلى نفسه، وعياله، وأطفاله، وحرم الرسول، تنبّه الناس لضلالتهم، وأنهم سلاطين الجور، لا حجج الله وخلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله»[٣].

---

(١) الطبري ٧: ٢٩٠. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٧١. ونفس المهموم: ١٧٩. ومعالم المدرستين ٢: ٢٠٢. وجاء في المصدر السابق ٣: ٦٣ «لا يهابون بعدك أحدا أبداً».

(٢) كامل الزيارات لابن قولويه: ٧٥، الباب الثالث والعشرون. واللهوف: ٥٧، ومقتل المقرّم: ٤٨. ونفس المهموم: ٧٥.

(٣) الخصائص الحسينية للشيخ جعفر التستري: ٤٤. المطبعة الحيدرية في النجف ١٩٥٦م.

وقد سأل إبراهيم بن طلحة بن عبد الله الإمام زين العابدين عليه السلام عن الغالب في معركة الطف حين الرجوع إلى المدينة. فقال الإمام زين العابدين عليه السلام:

«**إذا دخل وقت الصلاة، فأذّن وأقم، تعرف الغالب**»[١].

وجواب الإمام السجاد عليه السلام دقيق متين، لمن يتمكن أن ينفذ من ظواهر الأحداث وسطحها إلى الأعماق، وعندما يتمكن الإنسان من رؤية الامتدادات والنتائج البعيدة للأحداث.

(١) مقتل المقرّم: ٤٨. عن أمالي الشيخ الطوسي: ٦٦. مكتبة الداوري ـ قم.



من الغالب في كربلاء؟

مَن الغالب في كربلاء؟

من هو الغالب؟

روى الشيخ الطوسي رحمه الله في الأمالي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «لما قدم علي بن الحسين عليه السلام وقد قتل الحسين عليه السلام استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبد الله، قال: يا علي بن الحسين من غلب؟ والإمام يغطّي رأسه وهو في المحمل، قال: فقال له علي بن الحسين عليه السلام: **إذا أردت أن تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة، فأذّن وأقم تعرف الغالب**»[1].

هذا سؤال كان يردّده المحبّون للحسين عليه السلام بعد مصرعه.

ومن قبل مصرعه كان يشكّون، شكّاً قويّاً أن ينتصر الحسين عليه السلام على بني أُمية في هذه المعركة التي يُقدم عليها الحسين، ولذلك كانوا ينصحون الحسين عليه السلام ألّا يخرج إلى العراق، ويحذّرونه من أن يغدر الناس به، كما غدر الناس بأبيه وأخيه عليهما السلام من قبل.

ويرى بعضهم أن بني أُمية كانوا يوحون إلى هؤلاء بتحذير الحسين عليه السلام من أن يخرج إلى العراق، لئلا يدخلوا في مواجهة مسلّحة مع الحسين عليه السلام، وإن هذا التحذير والنصح الذي تكرّر من العبادلة الثلاثة، ومن عبد الله بن جعفر ومحمدبن الحنفية وأُم المؤمنين أُم سلمة وغيرهم كان بإيحاء منهم ليجنّبوا بني أُمية من مواجهة مسلّحة مع الحسين عليه السلام، وليوفروا لهم الفرصة الكافية للتخلّص منه عليه السلام غيلة وغدراً.

ولا نجد نحن سبيلاً إلى اتهام هؤلاء جميعاً بأنهم وقعوا في شراك مؤامرة أُموية في تثبيط الإمام عليه السلام عن الخروج إلى العراق، ولا نشك في نصح وصدق وعقل جملة منهم ـ على الأقل ـ وقد قال الحسين عليه السلام لعبد الله بن عباس لما نصحه بعدم الخروج إلى العراق: **«يابن عم إنّي لأعلم إنّك ناصح وعليّ شفيق»**.

---

(١) أمالي الطوسي: ٢٩٠ ط. النجف.

هذا التساؤل بقرينة (المحمل) في الرواية أما أن يكون في الكوفة أو في الشام. والسؤال والجواب أقرب إلى أجواء الشام من الكوفة، والكل محتمل.

كما أن الذين كانوا يواجهون علي بن الحسين بعد منصرفه من كربلاء بمثل السؤال المقدّم (من الغالب يا علي بن الحسين؟) لا نتهمهم بالتشمت بأهل البيت:، فقد كان الكثير منهم يحبّون الحسين عليه السلام ويوَدّون لو أنه عليه السلام لم يخرج إلى العراق، ولم يُصب بما أصاب، وكانوا يتوجّعون لما أصاب الحسين عليه السلام ولا يتشمتون، كما كانوا قبل ذلك ينصحون الحسين ألا يخرج إلى العراق.

وكان اختلافهم مع الحسين عليه السلام في تشخيص مفهوم النصر والغلبة والفتح.

وكان هؤلاء يشكّون، أن يكون للحسين عليه السلام النصر والغلبة والفتح في هذه المعركة.

ولم يكن الحسين عليه السلام يشك قط أن النصر والغلبة والفتح له في هذه المعركة ولا يخالجه في ذلك شك.

لا ينال الفتح من تخلّف عن الحسين عليه السلام

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**انّ الحسين عليه السلام لما توجه إلى العراق أمر بقرطاس، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى بني هاشم.**

أما بعد، فإنّه من لحق بي استشهد، ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح والسلام»[1].

وفي هذه الرسالة يقرر الإمام عليه السلام لبني هاشم أربع حقائق حتمية، لا يشك فيها وهي:

١ ـ إنّ من يخرج معه يستشهد.

٢ ـ وأن من لم يخرج معه لا يبلغ الفتح.

٣ ـ والحقيقة الثالثة التي نستخرجها من ضمّ الأولى إلى الثانية هي أن من يخرج مع الحسين عليه السلام يبلغ الفتح.. والمعادلة واضحة بين (الأُولى والثانية) من جانب، وبينهما وبين (الثالثة) من جانب آخر فإنّ مفهوم المخالفة ـ في التفاهم العرفي ـ للجملة الثانية:

إن من يخرج مع الحسين عليه السلام ينال الفتح، وقد عرفنا في الجملة الأُولى أن من يخرج مع الحسين عليه السلام ينال الشهادة.

٤ ـ والحقيقة الرابعة، وهي التي نقصدها في هذا الحديث أنّ الشهادة تساوي الفتح في المنظور الحسيني، وأن الشهادة تؤدي إلى الفتح.

---

(١) الملهوف للسيد ابن طاوس: ٥٧.

ما هو الفتح في المنظور الحضاري

وهذا هو الذي نريد أن نتحدّث عنه هنا.

إن الخلاف بين الحسين عليه السلام وبين أُولئك الذين كانوا ينصحونه بعدم الخروج إلى العراق، ومن توجّع لمصرعه عليه السلام فيما بعد، وتساءل متوجعاً، لا شامتاً: ماذا حقق الحسين عليه السلام بخروجه إلى العراق؟ ومن هو الغالب في هذه المعركة الخاسرة؟

أقول: إنّ الخلاف بين الحسين عليه السلام وهؤلاء خلاف في الرؤية، وفي مفهوم النصر والغلبة والفتح.

لقد كان هؤلاء يتصوّرون الفتح والنصر والغلبة من منظور عسكري، فلا يشكّون أن الحسين عليه السلام يخسر هذه المعركة، فكانوا ينصحون الحسين عليه السلام بعدم الخروج.

وكان الحسين عليه السلام ينظر إلى (الفتح) و(النصر) و(الغلبة) من منظور حضاري تاريخي، فلا يشك أن الله تعالى سوف ينصره في هذه المعركة، ويفتح له ويحقق له الغلبة على بني أُمية، وتنتهي المعركة لصالحه وخسارة معسكر بني أُمية وفضيحتهم.

ولابدّ أن نتوقف عند هذه الجملة الأخيرة قليلاً.

الرؤية القرآنية للفتح والهزيمة

لقد انتهت معركة (أُحد) بخسارة المسلمين، ونكسة مُرّة، لازلنا نتجرّع مرارتها حتى اليوم، وعادت قريش إلى مكة منتصرة في حساباتها العسكرية، قد استوفت ثأرها من المسلمين عن قتلاها في بدر، وعاد المسلمون إلى المدينة، مثخنين بالجراح، وعاد المنافقون ـ من جماعة عبد الله بن أبي ـ يتشمتون بالمسلمين.

ولكن آيات آل عمران ١٣٩ ـ ١٤٢، التي نزلت يومئذ على المسلمين من بعد انتكاسة أُحد تقدّم للبشرية رؤية جديدة تماماً عن النصر والهزيمة، تختلف اختلافاً كاملاً عما في أيدي الناس من مفهوم النصر والهزيمة.

ولأتلو عليكم آيات آل عمران (١٣٩ ـ ١٤٢): ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

وإليك هذا الإيضاح

حقائق خمسة في آية آل عمران

في هذه الآيات من آل عمران نلتقي حقائق خمسة لابد من التوقف عندها والتأمل فيها:

الحقيقة الأولى:

يقرر القرآن حقيقة فريدة من نوعها في تاريخ الثقافة عندما يقرر للجماعة المسلمة التي أصابتها النكسة المرة في (أُحد): أنهم الأعلون ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، وبذلك فإنّ هذا (العلوّ) يستلزم أن يكون عدوهم الذي رجع إلى مكة منتشياً بالنصر، هم (الساقطون) المهزومون في هذه المعركة، وأن هذه المعركة بكل مرارتها أفرزت: (عُلوّاً) و(سقوطاً). أما العلو فكان من نصيب الجماعة المسلمة، وأما السقوط فكان من نصيب مشركي قريش.

ولكن هذا العلو مشروط بالإيمان ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

العلاقة بين النصر والإيمان

وبين الإيمان والعلوّ علاقة وثيقة، ومعادلة حتمية بمعنى أن الإيمان يساوي العلوّ. وهذه الحقيقة من الحقائق الأساسية في القرآن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

نعم في الحياة الدنيا وليس في الآخرة فقط.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إن القرآن يسجل هذه المعادلة بين الإيمان والنصر من دون ترديد.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

العلاقة بين الإيمان والابتلاء

ولكن بشرط أن يجتاز الإيمان محنة الفتنة، ومن دون عبور هذه المحنة والفتنة، والثبات فيها لن يتحقق النصر، بل لم يكن أصحابه من المؤمنين حقاً.

تأمّلوا الآيات الأوائل من سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[1]... تجد:

إنّ الإيمان لابدّ أن يَعْبُرَ هذه الفتنة والمحنة، ويمتحن فيهما، فإذا صدق صاحبه نصره الله، وإذا تساقط في الفتنة والمحنة فلن ينصره الله.

وإن فتنة المحنة مفرزة يفرز فيها الله الصادقين في إيمانهم عن الكاذبين وضعفاء الإيمان: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هذا أوّلاً. وثانياً:

أن ينصروا الله تعالى فإذا نصر المؤمنون الله، وانتصروا لله نصرهم الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

وبهذا الشرط وذاك: الإيمان يساوي النصر دائماً. وهذه من سنن الله تعالى، ولا تتخلّف سنن الله.

وإذا أُصيبوا في موقع أو أكثر بنكسة موجعة، فليس ذلك بمعنى أن النصر قد أخطأهم وأصاب أعداءهم، وإنّما هو من القروح التي تصيبهم وتصيب أعداءهم على نحو سواء، في هذا المعترك، ويبقى الطرف المؤمن هو الفاتح والغالب والمنتصر دائماً، والطرف الآخر هو المهزوم المغلوب.

وهذه الحقيقة الأولى في آية آل عمران ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

الحقيقة الثانية:

ويترتب على الحقيقة أن لا يضعف المسلمون، ولا يحزنوا ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ والوهن: الضعف.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة محمد، الآية: ٧.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.

فلم يتخطاهم النصر والفتح في هذه المعركة، رغم كل ما أصابهم من قروح، فلا يصحّ ولا يجوز أن يهنوا (يضعفوا)، ولا يصح أن يحزنوا لما فاتهم من النصر، فإنّ النصر لم يتخطاهم، ولم يفتهم، وإنّما فاتتهم العافية والغنيمة.

وبين الأمرين فرق، فلا يجوز أن يهنوا ويحزنوا لما فاتهم من العافية والغنيمة، إذا كان الله تعالى قد جعل الفتح والنصر والعلوّ في جانبهم، والسقوط في جانب أعدائهم، وإنّما الوهن والحزن لأعدائهم خاصّة دونهم.

وهذه الحقيقة الثانية في الآية الكريمة ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

الحقيقة الثالثة:

إن ما أصابهم من القروح والآلام في هذه المعركة لم تخصّهم وحدهم، وإنّما عمّتهم وعمّت أعداءهم بطبيعة الحال، ولم يسلم عنها أعداؤهم، فقد رجعوا إلى مكة بالقتل والجرح وخسارة الأموال والأنفس ولا يتوقع أحداً من الحروب والقتال غير الطعون والقروح والجروح والقتل والأسر في كل من المعسكرين.

واختلاف حجم الخسارة في المعسكرين ليس هو الذي يقرّر الطرف المنتصر والطرف المهزوم، وإنّما الذي يقرر النصر والهزيمة هو الإيمان الصادق، والجحود والشرك فما أصابهم وما مسّهم من القروح فقد أصاب القوم أيضاً ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

ولكن بفارق واحد بين القرح والقرح، وذلك هو الرجاء من الله، وانعدام الرجاء. فأنتم وهم قد أصابتكم القروح على نحو سواء، ولكنكم ترجون من الله من الفتح والنصر والثبات والتسديد والتوفيق ما لا يرجون، ذلك إنّ (الإيمان) يَشدّ حبلكم بحبل الله، فترجون الله في خضمّ هذه المعركة، و(الكفر والجحود) يفصلهم ويحجبهم عن الله، فلا يرجون من الله شيئاً: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[١].

وهذه هي الحقيقة الثالثة في هذه الآيات.

الحقيقة الرابعة:

إنّ الله تعالى يتداول الأيام بين الناس؛ فتنتقل السلطة والقوة من ناس إلى ناس، فتنتكس مرّة فئة، وتنتكس مرة أخرى فئة أُخرى، وهذا التداول للقوّة والسلطان ليس بمعنى النصر

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

والهزيمة دائماً وبالضرورة. فقد يكون بمعنى النصر والهزيمة، وقد يكون بمعنى الانتكاسة العسكرية في جانب، والفوز العسكري في جانب آخر، والانتكاسة والفوز العسكريان لا يقرران مصير الأمم في التاريخ من حيث النصر والهزيمة.

وهذا التداول لا يجري في فراغ، وإنّما يجري في وسط ساحة الصراع، ومن خلال القروح والآلام والبأساء والضرّاء، ومن خلال هذا التداول يحقّق الله أمرين خطيرين في التاريخ، لا يكونان لولا التداول، وهما (التمحيص) و(المحق).

المحق والسقوط والهلاك للكافرين والتمحيص للمؤمنين.

والتمحيص في مقابل المحق، فإنّ المحق سقوط وهلاك، والتمحيص تأهيل للبقاء والمقاومة التاريخية وهذا التأهيل من خلال البأساء والضرّاء، وفي ظروف تداول السلطة. ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

والمؤمنون يمحصون في ظروف (التداول) من خلال البأساء والضرّاء التي تكتنف التداول عادة، كما يُصهر الذهب في درجات حرارية عالية، فينفصل الذهب عما يخلطه من ذرات التراب، ويسيل، فتكون منه السبائك الذهبية والحُليّ. وهذا التمحيص على نحوين:

على الخط الأُفقي وعلى الخط العمودي.

أما على الخط الأُفقي: فإنّ ظروف التداول وما يكتنفه من البأساء والضرّاء تفصل العناصر الضعيفة من المؤمنين والمنافقين عن المؤمنين الصادقين الأقوياء... ومن هؤلاء الصادقين الأقوياء الصامدين يتخذ الله (الشهداء) والقيمين على مسيرة البشرية، ومنهم يتخذ الله الأئمة الصالحين الذين يحكمون الأرض.

وهذا الفرز على الخط الأُفقي داخل المجتمع، يتم في ظروف التداول والبأساء والضرّاء، ولولا ظروف التداول لا يتم هذا الفرز.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والله تعالى يعلم الذين آمنوا حقاً ويميزهم عمّن دخلوا الإسلام نفاقاً، ولكن ليفصل هؤلاء عن أُولئك وليتم فرز العناصر الصالحة الصادقة عن غيرهم في وسط محنة البأساء والضرّاء.

والنوع الآخر من التمحيص، التمحيص على الخط العمودي داخل النفوس، فإنّ في نفوسنا هذا أيضاً إيمان وريب، وقوة وضعف، وعطاء وشُح، وإقبال وإعراض، وحقّ وباطل، وزهد وإقبال على الدنيا، وذكر وغفلة.

وظروف البأساء والضرّاء التي تكتنف التداول كما تفصل الصالحين عن غير الصالحين في المجتمع، كذلك تفصل نقاط الضعف في نفوسنا عن نقاط القوّة وتلغيها، وتطردها عن انفسنا، فتخلص أنفسنا عندئذ في ظروف المحنة من نقاط الضعف التي كانت تثقلنا في ظروف العافية. فيكون المؤمنون عندئذ من (المخلَصين)، بالفتح، أي الخالصين.

وهذا هو التمحيص داخل النفوس، وعلى الخط العمودي، والذي تشير إليه آية آل عمران ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وهذه هي الحقيقة الرابعة.

الحقيقة الخامسة:

في هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

بعد هذا التمحيص والتخليص والتنقيح والتصفية داخل النفوس، تخلص نفوس المؤمنين من نقاط الضعف، ومن الخبث الذي يحجبهم عن الجنّة، فيصلحون لدخول الجنة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ...﴾.

هذه هي الحقائق الخمسة في آيات آل عمران.

والذي نفهمه من خلال هذه الجولة في آيات آل عمران أن الرؤية القرآنية للنصر والهزيمة تختلف عن رؤية الناس.

وإنّ قريشاً كانت ترى أنها انتصرت في هذه المعركة، وأنهم قد هزموا المسلمين هزيمة مُرّة.

ولكن القرآن يُقرر لهم يومئذ، طبقاً لهذه الرؤية: إنّ ما حدث في ساحة (أُحد) لا تزيد على (تداول الأيّام) وما يكتنفه من القروح والآلام والبأساء والضرّاء، وأمّا النصر والاستعلاء فهو للمؤمنين خاصة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقد أثبتت الأيام والتاريخ إنّ الرؤية القرآنية للنصر والهزيمة هي الصحيحة، وإنّ ما عادت به قريش إلى مكة لم تزد على نشوة وقتية ونصر كاذب.

هذه هي الرؤية القرآنية للنصر والهزيمة، وهي رؤية حضارية وثقافية جديدة على أفكار الناس وتصوراتهم.

وبهذا المقياس الجديد نستطيع أن نفهم التاريخ على غير ما يفهمه الناس.

إنّ الذين حضروا ساحة (أُحد) يومئذ لم يشكو أن المسلمين مهزومون، وأن قريش منتصرة.

ولكن الذين يعيشون اليوم، وقد أخذ هذا الدين مشارق الأرض ومغاربها، وارتفعت كلمة التوحيد في كل بقاع الأرض، يعرفون جيداً أن الذين انتصروا في أُحد هم المسلمون والذين انهزموا هم المشركون من قريش.

وبهذه الرؤية القرآنية التاريخية حقق الله تعالى لعبده الحسين بن فاطمة عليه السلام كلّما كان يطلبه في هذه المعركة، ونصره.

والذين كانوا ينظرون إلى ساحة كربلاء يوم عاشوراء من خلال اليوم والساعة لم يشكّوا أن الحسين عليه السلام مغلوب على أمره وبنو أُمية غالبون.

ولكن من كان ينظر إلى تلك الساحة يومئذ بهذه الرؤية التاريخية البعيدة المدى لم يشك أن الحسين عليه السلام هو الفاتح في هذه المعركة، وأن بني أُمية قد خسروا هذه المعركة خسارة كاملة.

الغايات التي كان الحسين عليه السلام يطلبها في خروجه

فلنتأمل ماذا حقق الله تعالى لعبده الحسين عليه السلام من النصر في هذه المعركة.

لقد كان الحسين عليه السلام يطلب في هذه المعركة أمرين اثنين:

١ ـ تحرير إرادة الناس من سلطان بني أُمية، وهذه هي الغاية الحركية.

٢ ـ إلغاء شرعية الخلافة الأُموية، وهذه هي الغاية السياسية لحركة الحسين عليه السلام وقد حقّق الله تعالى له الفتح والنصر في هذه وتلك فلنتأمّل، ولنمعن النظر.

١ ـ تحرير إرادة الناس من سلطان بني أُمية

وكانت هذه هي المهمة الأُولى أو النتيجة الأُولى لمصرع الحسين عليه السلام وأصحابه.

ورحم الله الشاعر العربي همام بن غالب الفرزدق يقول:

التقيت الحسين عليه السلام وهو مغادر الحجاز إلى العراق يوم التروية، فسلّمت عليه وحيّيته وقلت له:

بأبي أنت وأُمي يابن رسول الله ما أعجلك عن الحج.

فقال الإمام عليه السلام: **لو لم أعجل لأخذت.**

ثم سألني عن خبر الناس في العراق.

فقلت على الخبير سقطت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أُمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء.

فقال الإمام عليه السلام: **صدقت** ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[1].

وقد صدق الفرزدق، فإن السياسة الأُموية تمكّنت من تعطيل إرادة الناس، وشلّ عزيمتهم وحركتهم، وتمكنوا من إحداث هذا الانشطار الغريب في نفوس المسلمين، والذي يعبر عنه الفرزدق بهذا التعبير الدقيق (قلوبهم معك، وسيوفهم عليك).

ويريد الفرزدق بكلمة (قلوبهم معك) ولاؤهم وعقيدتهم وحبّهم، وقد كان العراق شيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ووقفوا معه مواقفه كلها ضد خصومه في (الجمل) و(صفين) و(النهروان)، ولم يتمكن معاوية خلال حكمه أن ينفذ إلى قلوب الناس في العراق فينزع منها ولاء علي وذريته وحبّهم، ولكنّه تمكن أن ينتزع من أيديهم السيوف التي شهروها في وجهه بصفين وكلمة (السيف) في كلام الفرزدق كلمة رمزية، ترمز إلى الموقف السياسي والإرادة السياسية، ويتبعهما الموقف العسكري بطبيعة الحال.

لقد استطاع معاوية بما أُوتي من الدهاء والمكر أن يُرضخ العراق لإرادته، ويسلب الناس عزمهم وإرادتهم، ويعطّل بالكامل موقفهم السياسي تجاه مظالم بني أُمية ومفاسدهم، ويجعل منهم ناساً طيّعين، يطاوعون عمال بني أُمية في كل ما يريدون، لا يعترضون ولا يمتنعون، ثم يبقى لهم حبّهم وبغضهم وإقبالهم وإدبارهم، ولم يكن لمعاوية في ذلك شأن.

وهذا الانشطار الذي أحدثه الحكم الأُموي في نفوس الناس كان أخطر ما نعرفه من الانشطارات النفسية في التاريخ، يعكسه الفرزدق للإمام عليه السلام في هذه الجملة الوجيزة.

وإذا فقد الناس إرادتهم في وسط الصراع، فسوف يفقدون كل شيء، وقد عرف بنو أُمية هذه الحقيقة وقد أمعنوا في إذلال الناس ومارسوا في الناس صنوفاً من الإذلال لم يسبق له مثيل لا في تاريخ الإسلام، ولا الجاهلية.

---

(١) الأخبار الطوال، للدينوري: ٢٤٥.

حتى إن مسلم بن عقبة الذي عهد إليه يزيد احتلال المدينة عسكرياً أخذ من التابعين وأبناء الأصحاب عهداً بأنهم خِوَل وعبيد ليزيد في مجزرة الحرّة المعروفة التي تمت على عهد يزيد، والتي استباح فيها يزيد مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام وارتكب فيها الجيش الأُموي من الرزايا والمنكرات ما يندر نظيره في التاريخ.

ويدخل الطاغية ابن مرجانة بنات رسول الله ﷺ وأولاده: على هيئة الأسرى إلى جامع الكوفة، ويرقى المنبر ويشتم علياً والحسين عليهما السلام فلا يقوم له أحد غير عبد الله بن عفيف رحمه الله.

ويجلس ابن زياد في قصره ويحضر أهل بيت رسول الله ﷺ على هيئة الأسرى، ويضع رأس الحسين عليه السلام بين يديه وينكث بقضيبه شفتي الحسين عليه السلام فلا ينكر عليه أحد غير زيد بن أرقم.

ويمارس حكّام بني أُمية ألواناً من الظلم والإفساد والتبذير في بيت المال فلا ينكر عليهم أحد، ولا يخرج عليهم خارج، ولا يشهر أحد سيفاً في وجوههم، ولست أعلم ماذا أصاب الناس خلال هذه الفترة من حكم بني أُمية حتى فقدوا بهذه الصورة إرادتهم ووعيهم، وعادوا أدوات طيّعة بيد عمّال بني أُمية.

المشروع الأُموي في تعطيل الإرادة والموقف السياسي

ونعجب نحن عندما نقرأ تاريخ هذه الفترة فقد دخل بنو أُمية هذه المرحلة بخطة سياسية وثقافية متكاملة تحتاج إلى دراسة واسعة، وليس تتوفر لدينا الآن أسباب هذه الدراسة، ولكن ما لا أشك فيه إنّها خطة محكمة ومحبوكة لغرض السيطرة السياسية والفكرية على الناس وتطويع الناس لإراداتهم، واذكر الآن ثلاث نقاط عاجلة من هذه الخطة:

١ ـ **التنظير العقائدي**: للرضوخ للظلم والفساد والكفّ عن الاعتراض على السلطان، لأنّ السلطان يمارس قضاء الله وقدره على الأرض والاعتراض على السلطان اعتراض على قضاء الله وقدره، وقد كان بنو أُمية يدافعون عن القدر، ويلاحقون مَن يخالفهم في الرأي.

٢ ـ **التنظير الفقهي**: لتحريم المعارضة، وإدخال الخروج على الحاكم والمعارضة السياسية تحت طائلة الحرمة والحظر الشرعي.

٣ ـ **سياسة الإرهاب**: والفتك والبطش بالمعارضة.

وليس بوسعنا التفصيل في هذه النقاط الثلاثة، ولكن ما لا يدرك كلّه، لا يترك كلّه، وسوف نوجز الحديث في هذه النقاط الثلاثة:

أ ـ التنظير العقائدي (الفلسفي)

مارس بنو أُمية ظلماً وإفساداً واسعاً في المجتمع ونجحوا في إرضاخ الناس لقبول الظلم، والكفّ عن المعارضة. وكانوا يدعون إلى (القدرية)[1] أي: الإيمان بالحتمية التاريخية، وإنّ ما يجري في المجتمع من خير وشر، إنّما يجري بقضاء وقدر حتميين من جانب الله، ولا سبيل إلى تغييره.

وقد عُرف بنو أُمية بذلك، وكانوا يفرضون على الناس هذه العقيدة، ويعاقبون من يعارضها ويوجّهون بذلك ممارساتهم السياسية والاقتصادية في الافساد والبذخ.

وكان الحسن البصري يميل إلى مخالفة بني أُمية في مسألة القدرية ويرى أن الناس أحرار في تقرير مصيرهم، وليس عليهم قضاء وقدر حتم من جانب الله، وكان يجاهر برأيه فخوّفه بعضهم بالسلطان فكفّ من الإجهار برأيه.

روى ابن سعد في الطبقات عن أيوب، قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة، حتّى خوّفته من السلطان، فقال لا أعود[2].

والسلطان الذي كان يحكم المسلمين في عهد الحسن هو سلطان بني أُمية.

ب ـ التنظير الفقهي للرضوخ للظالمين والهروب من المسؤولية

شاعت في عصر بني أُمية الفتوى بوجوب الرضوخ للحاكم الظالم والمفسد، وحرمة الخروج ووجوب الانقياد لـه، مهما بلغ من الظلم والجور والإفساد اللهم إلّا أن يروا الناس منه (كفراً بواحاً) فيصح عندئذ الخروج عليه، وروي الرواة في ذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ. وقد دخلت جملة من هذه الروايات الصحاح.

كان عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص من أكثر أصحاب رسول الله ﷺ اهتماماً بتثبيت هذه الثقافة التي كان يسعى بنو أُمية لاشاعتها.

روى البخاري في الصحيح عن أيوب عن نافع، قال لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر(عبد الله) حشمه وولده، فقال إني سمعت النبي ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة» وإنّا قد بايعنا هذا الرجل بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من

---

(١) تستعمل كلمة (القدر) بالمعنيين: حرية الإرادة، والحتمية والجبر، وهنا نقصد بهذه الكلمة المعنى الثاني.

(٢) طبقات ابن سعد ٧: ١٦٧.

أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال. وإني لا أعلم أحداً خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلّا كانت الفيصِل بيني وبينه[١].

وروى مسلم في الصحيح عن زيد بن محمد بن نافع، قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، اتيتك لأحدثك حديثاً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقى الله ﷻ يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[٢].

وليس في هذا الحديث أو ذاك، شيء يقتضي التشكيك بإسناده إلى رسول الله ﷺ، وإنما الخلل في اجتهاد عبد الله بن عمر في تطبيق هذا الحديث أو ذاك على من نزع يداً من بيعة يزيد. فإن يزيد رجل فاسق، شارب للخمر قاتل للنفوس المحرّمة، منتهك لحرمات الله، ومثله لا يلي الخلافة، ولا تصح له بيعة، وحديث رسول الله ﷺ تختص بما إذا صحّت البيعة لأحد، وصلح للبيعة واستمر فيه الصلاح.

وروى عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة، قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو جالس في ظلّ الكعبة، فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً، فمنّا من يضرب خباءه، ومنّا من هو في جشره[٣]، ومنا من يتنضّل، إذ نادى مناديه: الصلاة جامعة، قال فاجتمعنا، قال، فقام رسول الله ﷺ فخطبنا، فقال: إنّه لم يكن نبي قبلي إلا دلّ أُمته على ما يعلمه خيراً لهم، ويُحذّرهم ما يعلمه شراً لهم، وان أُمتكم هذه جعلت عافيتها في أوّلها، وأن آخرها سيصيبهم بلاء شديد، وأُمور تنكرونها، تجيء فتن، يرقق بعضها لبعض، تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف فيقول المؤمن هذه، ثم تنكشف. فمن سرّه منكم أن يزحزح عن النار، وأن يدخل الجنّة فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر.

قال: فادخلت رأسي من بين الناس، فقلت: انشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول

---

(١) صحيح البخاري ٤: ١٨٨ ط. مصر سنة ١٢٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٦: ٢٢ دار الفكر، بيروت.

(٣) أي في رعيه.

الله ﷺ؟ قال: فأشار بيده إلى أُذنيه، فقال سمعته أُذناي ووعاه قلبي. فقلت: هذا ابن عمك ـ معاوية ـ يأمرنا بأكل أموالنا بيننا بالباطل، وأن نقتل أنفسنا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ قال: فجمع يديه فوضعها على جبهته ثم نكس هنيئة، ثم رفع رأسه فقال: أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله ﷻ[1].

وروى أحمد في (المسند) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به[2].

وروى أحمد أيضاً في المسند عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ: أنها ستكون فتن، فالماشي خير من الساعي إليها، والقاعد فيها خير من القائم فيها، والمضطجع فيها خير من القاعد. ألا فإذا نزلت، فمن كانت لـه غنم فليلحق بغنمه، ألا ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ألا ومن كانت له إبل فليلحق بإبله.

فقال رجل من القوم: يا نبي الله، جعلني الله فداك، أرأيت من ليست لـه غنم ولا أرض كيف يصنع؟

قال: فليأخذ سيفه ثم ليعمد به إلى صخرة ثم ليدق على حدّه بحجره ثم لينجّ ان استطاع[3].

هذه هي ثقافة (الرضوخ) و(الهروب)، شاعت في عصر بني أُمية، وكان لخلفاء بني أُمية وعمّالهم دور كبير في اشاعتها والترويج لها، لدعوة الناس إلى الرضوخ والطاعة والكف عن الاعتراض، أو الهروب من ساحة المعارضة على أقل التقادير لتثبيت أركان حكمهم وسلطانهم في المنطقة الإسلامية.

وقد دخلت هذه الروايات في المدونات الحديثية حتى الصحاح منها، وأُدخلت هذه الفتاوى في المدونات الفقهية حتى أصبحت جزءاً من الثقافة الحديثية والفقهية الإسلامية في العلاقة بين الحاكم الظالم والفاسق والرعايا مع الأسف، ويفتي الفقهاء إلى اليوم بحرمة الخروج على الحاكم الظالم، الفاسق، وإن أعلن الفسق والظلم وحرمة مخالفته في غير

---

(١) مسند أحمد بن حنبل٢: ١٦١.

(٢) مسند أحمد ٢: ٢٨٢.

(٣) مسند أحمد ٥: ٤٨٥.

الحرام، وحرمة مقاطعته، والتشويش عليه، وحرمة إثارة الناس عليه وازعاجه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (المعلن)، ونحن لا نشك بأن هذه الروايات انتحلت في الغالب على رسول الله ﷺ وأنها تعارض معارضة واضحة محكمات كتاب الله وروح تعاليم هذا الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يمكن أن يدعو رسول الله ﷺ المسلمين إلى الرضوخ للحاكم الظالم الذي ينتهك حرمات الله، ولا يمكن أن يدعو المسلمين إلى الهروب عن الفتن، والذي يتطابق من حديث رسول الله ﷺ مع القرآن، هو بعكس ذلك تماماً، وهو عدم الركون إلى الظالمين ومقاومته ومواجهته وإزالته عن مواقع القوة، والتصدي للفتنة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو الذي يلائم القرآن وروح هذا الدين.

ونحن لا نشك أن بني أُمية هم الذين انتحلوا هذه الروايات وأوّلوها ووظّفوها لتثبيت أركان حكمهم وسلطانهم وأنهم وظّفوا بعض العلماء للتنظير لهذه الثقافة واشاعتها مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وأمثالهم.

إلّا أن خروج الحسين عليه السلام على يزيد وهتافاته وصرخاته للمسلمين ومصرعه ومصرع الثلة الطاهرة من أصحابه كان لـه التأثير الكبير في إلغاء واحباط هذه الثقافة.

خطب الحسين عليه السلام أصحاب الحرّ بن يزيد في منزل البيضة، فقال عليه السلام: **أيها الناس أنّ رسول الله ﷺ** قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغَيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[١].

وخطب الناس في كربلاء، فقال عليه السلام:

«ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً»[٢].

كان لصرخات الحسين وهتافاته في الحجاز والعراق ومصرعه في العراق الأثر الكبير في إلغاء ثقافة الرضوخ والهروب الأُموية.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٠.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٠١.

ومن يطلع على الثقافة الفقهية والحركية في تاريخ الإسلام بعد موقعة الطف يعرف جيداً؛ أنّ الحسين عليه السلام تمكن من إلغاء هذه الثقافة، وكلّما تجدد من بعد مصرع الحسين عليه السلام من الحركات، ومنها وقعة (الحرّة) في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل آثار هذه الثقافة الحركية التي أحياها الحسين عليه السلام بمصرعه وهتافاته في المسلمين[1].

ورغم أن هذه النظرية الفقهية لا تزال قائمة في الفقه الرسمي، ولكنها فقدت قيمتها العلمية والدينية بعد ثورة الحسين عليه السلام وخروجه على يزيد ولم يعد لفتاوى وكلمات القاضي أبوبكر بن العربي المالكي[2] وأمثاله مثل محمد عزّت دروزة المعاصر وغيرهم دور وقيمة في الفقه السياسي في تاريخ الإسلام.

فقد أنهى الحسين عليه السلام هذه الأُطروحة الفقهية الأُموية وألغاها بمصرعه ودماء أهل بيته وأصحابه[3].

ولولا ثورة الحسين عليه السلام لاستقرت هذه الثقافة الفقهية الأُموية في حياة المسلمين السياسية

---

(١) راجع كتابنا حوار في التسامح والعنف: ١٠١ ـ ١١٢ ط. بيروت، لتلمس بوضوح تأثير هتافات الحسين عليه السلام ومصرعه ومصرع أصحابه في الغاء هذه الثقافة.

(٢) يقول القاضي أبي بكر بن العربي في كتابه (العواصم) ص٢٣٢: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ستكون هنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، فما خرج عليه أحد إلّا بتأويل ولا قاتلوه إلّا بما سمعوه من جدّه صلى الله عليه وآله.

وخطّأ ابن خلدون في المقدمة: (ص٢٥٤ ـ ٢٥٥) القاضي أبابكر ابن العربي المالكي في رأيه في الحسين عليه السلام إذ قال: إنّ الحسين قتل بسيف جده غفلة عن اشتراط الإمام العادل.

وقال الشوكاني: لقد أفرط بعض أهل العلم فحكموا بأنّ الحسين السبط(رضي الله عنه) باغ على الخمير السكير الهاتك لحرمة الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية لعنهم الله فيا للعجب من مقالات يقشعر من سماعها كل جلمود، (نيل الأوطار٧: ١٤٧) راجع مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٨ ـ ١٠.

ومن المعاصرين، يقول محمد عزت دروزه في كتابه (تاريخ الجنس العربي) ٨: ٣٨٢ (بنقل حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي: ٤٠٥ ـ ٤٠٦):

فقد كان (عمّال بني أُمية) يريدون أن يعافيهم الله من الابتلاء بقتاله فضلاً عن قتله ويبذلون جهدهم في إقناعه بالنزول على حكم ابن زياد ومبايعة يزيد، فإذا كان الحسين أبى أن يستسلم ليدخل فيما دخل فيه المسلمون وقاوم بالقوة فمقاومته وقتاله من الوجهة الشرعية والوجهة السياسية سائغ.

(٣) يقول ابن مفلح الحنبلي: جوّز ابن عقيل الخروج على الإمام الغير العادل بدليل خروج الحسين على يزيد لإقامة الحق (مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٩).

وقرّت عيون الظالمين بالظلم والإفساد، وأفسد الحكّام المفسدون أحكام هذا الدين وشرائعه وقيم هذه الأُمة وأخلاقها.

فكانت ثورة الحسين عليه السلام رحمة لهذه الأمة، وضعت أساساً فقهياً قوياً للخروج على الظالم ومقاومته بالسيف إن لم يتراجع عن الظلم والإفساد، ولم يشك فقهاء المسلمون منذ ذلك اليوم في تفسيق يزيد وتكفيره والإشادة بذكر الحسين عليه السلام وجهاده ومقاومته، ورغم انّ هذه الثقافة لا تزال قائمة في كتب الحديث والفقه، لكنها ملغاة في الواقع السياسي والحركي للتاريخ الإسلامي.

ج ـ سياسة الإرهاب والقمع

واتخذ بنو أُمية سياسة الإرهاب والقمع (إلى جانب التطميع والاغراء بالمال) لإنهاء المعارضة السياسية، وإرغام الناس على قبول بني أُمية والسكوت عن مظالمهم ومفاسدهم والركون إليهم، والوقوف إلى جانبهم في كل مظلمة ومفسدة.

وقد شاعت هذه السياسة وعرفت من بني أُمية وبالغ بنو أُمية في تصفية شيعة علي عليه السلام في العراق، وبشكل خاص في الكوفة، وتتبعوهم، وحاربوهم في أرزاقهم واستأصلوهم، وأخافوهم وشردوهم وسلبوهم الأمن في دورهم.

يروي ابن أبي الحديد في شرح النهج كلاماً لأبي جعفر الباقر عليه السلام عمّا لاقاه شيعة علي أيام بني أُمية من الظلم والإضطهاد والقمع والإرهاب، يقول عليه السلام: «**ثم لم نزل** ـ أهل البيت ـ **نستذل ونستضام، ونقصى، ونمتهن ونحرم، ونقتل، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله، ليبغّضونا إلى الناس، وكان أعظم ذلك وكبره في زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكل من يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمن عبيد الله بن زياد، قاتل الحسين عليه السلام، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنّة وتهمة. حتى أن الرجل يقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال له شيعة علي عليه السلام**»[1].

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد١١: ٤٤ ورواه المجلسي في البحار٤٤: ٦٨.

ولعلّ كتاب الغارات الذي وضعه إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي المتوفّى سنة (٢٨٣ هـ) يلقي بعض الضوء على غارات الإبادة والاستئصال التي كان يشنها معاوية على أطراف الحجاز واليمن والعراق لإبادة واستئصال شيعة الإمام ومحبّيه.

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي في كتاب (الغارات) عن سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إنّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فاقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغر عليهم وإلّا فامضِ حتى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جُنداً فامض حتى توغل في المدائن... إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب القلوب، وتفرح كل من له فينا هوى منهم وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك وأخرب كلّما مررت به من القرى وأخرب الأموال فإن خرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب[١].

ونشير هنا إلى بعض المجازر التي حصلت على يد خلفاء بني أُمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت في الفترة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

مجازر بُسر بن أرطأة

بعث معاوية بسر بن أرطأة ـ وكان قاسي القلب سفّاكاً لا رأفة له ولا رحمة، كما يقول الثقفي في الغارات ـ إلى اليمن وقال له: (أُقتل شيعة عليّ حيث كانوا)[٢] فأقبل من الشام حتى قدم المدينة (فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ، وتوعّدهم وقال: شاهت الوجوه)[٣].

(... ثم شتم الأنصار، فقال: يا معاشر اليهود وأبناء العبيد بني زريق وبني النجّار وبني سالم وبني عبدالأشهل، أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان. أما والله لأدعنّكم أحاديث كالأُمم السالفة[٤] ونزل بُسر فأحرق دار زرارة بن جرول ودار رفاعة بن رافع ودار أبي أيوب الأنصاري[٥].

---

(١) شرح النهج بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٢: ٨٥ ـ ٨٦، والغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي: ٤٦٤ ـ ٤٦٧ ط. طهران بتحقيق السيد جلال الدين المحدث.

(٢) الغارات للثقفي: ٥٩٨ ط٢. طهران سنة (١٣٩٥ هـ).

(٣) الغارات: ٦٠٢.

(٤) الغارات: ٦٠٣.

(٥) المصدر نفسه: ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

وعن الوليد بن هشام قال: صعد (بُسر) منبر النبي ﷺ فقال: يا أهل المدينة اخضبتم لِحاكُم وقتلتم عثمان مخضوباً والله لا أدع في المسجد مخضوباً إلّا قتلته، ثم قال لأصحابه خذوا بأبواب المسجد وهو يريد أن يستعرضهم، فقام إليه عبد الله بن الزبير وأبو قيس رجل من بني عامر بن لؤي فطلبا إليه حتى كفّ عنهم[١]، وتوجّه بُسر إلى اليمن وقتل في مسيره ذلك جماعة من شيعة عليّ باليمن[٢].

وقتل ابني عبيد الله بن عباس (عامل أمير المؤمنين على اليمن) وهما صغيران بين يدي أمهما[٣] فولهت أُمهما وهامت على وجهها وكانت تأتي الموسم وتنشدهما فتقول:

يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما	كالدرتين تشظّى عنهما الصّدف
يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما	مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما	قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
نُبئت بُسراً وما صدّقت ما زعموا	من افكهم ومن الإثم الذي اقترفوا
انحى على ودجي ابنيّ مرهفة	مشحوذة وكذاك الإثم يقترف
من دلّ والهة حرّى مسلبة	على صبيين ضلّا إذ مضى السلف

ولما قتل بُسر الغلامين بين يدي أُمهما خرج[٤] نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن: هذه الرجال تقتلها فعلام تقتل الولدان؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا في الإسلام. والله إن سلطاناً لا يشتدّ إلّا بقتل الرضّع الضعيف ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء، فقال بُسر: والله لهممت أن أضع فيكنّ السيف. قالت: والله إنّه لأحبّ إليّ[٥].

يقول ابن الأثير: فلمّا سمع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بُسر فقال: **اللهمّ اسلبه دينه وعقله**، فأصابه ذلك وفقد عقله[٦].

---

(١) المصدر نفسه: ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٢) الكامل ٣: ٣٨٤.

(٣) الاستيعاب بهامش الإصابة في تميز الصحابة١: ١٥٥، ط١. مصر سنة (١٣٢٨ هـ).

(٤) راجع الغارات: ٦١٣، والاستيعاب بترجمة (بُسر) بهامش الإصابة١: ١٥٦، والكامل ٣: ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وبحار الأنوار الطبعة الحجرية ١٠: ١٣٠.

(٥) الغارات: ٦١٥ ـ ٦١٦، الكامل٣: ٣٨٤ باختلاف يسير.

(٦) الكامل لابن الأثير ٣: ٣٨٥.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: وأغار بُسر على همدان وسبى نساءهم فكنّ أوّل مسلمات سُبين في الإسلام[١] وأقمن في السوق[٢].

وكان أبو ذر يعوذ بالله من أن يدرك زماناً تُسبى فيه النساء المسلمات ويكشف عن سيقانهنّ، فأيهن كانت أعظم ساقاً اشتُريت[٣].

مجازر زياد بن أبيه

من دهاة العرب والمعروفين بالقسوة وسفك الدماء استعمله معاوية على البصرة ثم أضاف إليه إمارة الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فمكّن لمعاوية في العراقين البصرة والكوفة وأحكم قواعد حكم بني أُمية على العراقين بالإرهاب والدم. فكتب إلى معاوية: أنه قد ضبط العراقين البصرة والكوفة بيمينه، وشماله فارغة، فأضاف معاوية إلى إمارته إمارة الحجاز.

ولما عرف أهل المدينة بأن معاوية قد ولّى زياداً إمارة الحجاز، اجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله ﷺ وضجّوا إلى الله، ولاذوا بقبر النبي ﷺ ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعنف[٤]، وقد كان حاقداً على عليّ عليه السلام وشيعته أبلغ ما يكون الحقد وقاسياً عليهم يتّبعهم في كل مكان ويسلّط عليهم جلاوزته وعمّاله.

يقول ابن أعثم المتوفى سنة (٣١٤ هـ) في كتاب الفتوح: (وجعل زياد يتتبّع شيعة علي بن أبي طالب فيقتلهم تحت كل حجر ومدر، حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، وبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: **اللهمّ خذ لنا ولشيعتنا من زياد ابن أبيه، وأرنا فيه نكالاً عاجلاً**[٥].

ويقول ابن أبي الحديد المتوفى سنة (٦٥٦ هـ): فكان (زياد) يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام[٦] فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه ١: ١٥٨.

(٣) المصدر نفسه ١: ١٥٧.

(٤) مروج الذهب ٣: ٢٦ فهارس يوسف أسعد داغر.

(٥) كتاب الفتوح لابن الأعثم٤: ٢٠٣ ط. حيدر آباد الهند، دائرة المعارف العثمانية سنة (١٣٨١هـ).

(٦) كان زياد والياً من قبل الإمام على فارس فكتب إليه معاوية يتهدده ويغريه فلمّا قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ـ أي معاوية ـ ورأس النفاق يخوّفني بقصده إيّاي وبيني وبينه ابنا عم رسول الله في المهاجرين والأنصار ـ الكامل لابن الأثير٣: ٤٤٤.

والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق معروف منهم[١].

وهذه الصورة التي يرسمها ابن أعثم من مؤرخي القرن الثالث الهجري وابن أبي الحديد من مؤرخي القرن السابع تكفي لتعطينا صورة واضحة عن الفترة الدموية التي حكم فيها زياد بن أبيه على الحجاز والكوفة والبصرة وما والاهما وبضمنها الريّ وخراسان.

ويروي الطبري قصة من قصص الإرهاب العجيبة في حكم زياد تكشف لنا أبعاد المجازر الرهيبة في أيام زياد وخلاصة هذه القصة: أنّ زياداً لما مات المغيرة وُنيطت به ولاية الكوفة جاء إلى الكوفة وصعد المنبر فخطب في الناس فَحُصِبَ وهو على المنبر، يقول الطبري: فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولنّ لا أدري مَن جليسي.

ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما منّا من حصبك فمن حلف خلّاه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار إلى ثلثين ويقال: بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان[٢].

ويقول ابن الأثير: (وكان زياد أوّل من شدّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية وأخذ بالظِنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً)[٣].

وروى اليعقوبي المتوفى سنة (٢٩٢ هـ) والمسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ): أن زياداً جمع جمعاً من شيعة الإمام عليه السلام في أُخريات حياته ليعرض عليهم البراءة من الإمام ولعنه فإن لم يتبرأوا ولم يلعنوا قتلهم فعجّل الله تعالى بهلاك الطاغية قبل أن يصل إلى غايته[٤].

وأما ابن أبي الحديد المتوفى سنة (٦٥٦ هـ) فقد روى الرواية بالشكل التالي: وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه؛ وأن يقتل كل من امتنع من ذلك ويخرّب منزله فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام[٥].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤.

(٢) تاريخ الطبري حوادث سنة ٥٠ الجزء السابع ١١: ٨٨ طبعة لندن.

(٣) الكامل لابن الأثير٣: ٤٥٠.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣، المسعودي ٣: ٢٦.

(٥) شرح النهج ٤: ٥٨.

دور الملحمة الحسينية في احباط المشروع الأموي

لقد كان لمصرع الحسين عليه السلام وأصحابه أثر الزلزال في نفوس المسلمين يومئذ، فقد هزّهم هذا الحدث المفجع هزّة عنيفة، وأثارت في نفوسهم الحمية والشجاعة والغيرة، وأعادت إليهم الشارد من أنفسهم وإرادتهم التي سلبها عنهم بنو أُمية، واهتزّ الضمير الإسلامي، الذي عطّله بنو أُمية هزّة قوية، وتهاوت أمامهم حواجز الخوف والإرهاب الذي أقامها بنو أُمية واندفعوا للثأر لدماء أهل البيت والإنتقام من القتلة والتكفير عن تخاذلهم عن نصرة ابن بنت رسول الله، فكثر الخارجون على بني أُمية، وتعددت الثورات، وامتدت شعارات: (يا لثارات الحسين) في كثير من هذه الواجهات، وكثر التوابون النادمون على تخلّفهم عن نصرة الحسين وخذلانهم له، عند خروجه على يزيد، وسقطت هيبة بني أُمية في نفوس الناس، ولم تعد سياسة القمع والإرهاب التي كان يستخدمها بنو أُمية لتطويع الناس كافية في إنهاء المعارضة السياسية، ولم تزل تتسع رقعة هذه المعارضة في التاريخ السياسي الإسلامي منذ ذلك الحين.

٢ ـ إلغاء الشرعية السياسية لخلافة بني أُمية

وهذه نتيجة سياسية لثورة الحسين عليه السلام في مقابل النقطة الأُولى (تحرير إرادة الأُمة) التي كانت نتيجة حركية.. وكلمات الإمام عليه السلام من المدينة إلى كربلاء إلى ساحة الطف يوم عاشوراء تؤكد إنّ الإمام عليه السلام كان يطلب هذه الغاية، ويعمل لإلغاء الشرعية السياسية لبني أُمية في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان الإمام عليه السلام يشعر أن خطر بني أُمية على الإسلام أكبر من خطرهم وإساءتهم إلى المسلمين، إذا كان الناس يعتقدون أنّهم يمثلون الموقع الشرعي السياسي لخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله. وحينئذ فمهما يمارس بنو أُمية في الأُمة من إفساد وإخلال يتم باسم الإسلام، لأنهم يمثلون الموقع الشرعي للخلافة.. ـ وبذلك يفقد الإسلام استقامة الوحي ونقاوته ـ وليس فقط يستعيد بنو أُمية مواقعهم التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية في ظل الإسلام، وإنّما يردون الإسلام إلى القيم والأحكام والأعراف والأفكار والتصورات الجاهلية، وهي ردّة كاملة في القيم والمواقع.

وقد كان الإمام عليه السلام يقول:

«وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان»[1].

وفي هذه الكلمة يعلن الإمام عن أمرين هما روح هذه الثورة والتضحية المفجعة التي قام بها الحسين عليه السلام وهما:

١ - إنّ الإسلام سوف لا يسلم إذا حكمه بنو أُمية، وسوف لا يبقون على شيء من الإسلام من قيمه وأحكامه وأعرافه وأفكاره. وسوف تحلّ الأعراف والأفكار والأحكام الجاهلية في الإسلام، وتكتسب صفة الإسلام.

٢ - إلغاء شرعية خلافة بني أُمية لأن هذه الخلافة سوف تؤدي إلى الإخلال والتحريف في روح هذا الدين وأحكامه وقيمه، ولذلك أعلن الحسين عليه السلام انّ هذه الخلافة غير شرعية وإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان»**.

ولم يكن هذا الانذار الذي أطلقه الحسين عليه السلام يومئذ، هاجساً وإنّما كان الإمام يلمس هذا الواقع في سني حكم معاوية، ويعرف أن يزيد سوف يواصل منهج معاوية بشكل أبشع وأقبح، وأكثر تجافياً لروح الإسلام ومنهجه.

وقد كان منهج الإمام عليه السلام واضحاً وصريحاً منذ اليوم الأوّل في رفض شرعية البيعة ليزيد وإعلان فسقه وانحرافه عن الإسلام، ولقد قالها صراحة في الاجتماع الأوّل الذي دُعي إليه من قبل أمير المدينة الوليد بن عتبة:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحلّ الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر، قاتل النفس المحرّمة معلن للفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[2].

وقد حقّق الله تعالى للحسين عليه السلام ما كان يطلب من إلغاء شرعية الخلافة الأُموية، ليسلم الإسلام من التحريف والتشويه خلال حكم بني أُمية.

ومنذ ذلك الحين أصبحت الخلافة سلطة زمنية كأيّ سلطة أُخرى لا تحمل قيمة إسلامية،

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، العوالم ١٧: ١٧٥.

(٢) الفتوح لابن الأعثم ٥: ١٤، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

ويتعامل معها الناس، كما يتعاملون مع أيّ موقع آخر من مواقع القوة والسلطة غير الشرعية.

وقد كانت الخلافة تتمتع قبل هذا الوقت، وقبل أن يتولّى معاوية الحكم بموقع شرعي، وكان الناس يأخذون دينهم ودنياهم من هذا الموقع، رغم كل المسائل التي حدثت أيام خلافة الخليفة الثالث.

ومن هذا التاريخ نجد ظهور خط آخر في الشارع الإسلامي (السُنّي) يضع فيه الناس ثقتهم ويستودعونهم دينهم، وهو خط الفقهاء، وكان الناس يعرفون مواقع العلماء، ويضعون ثقتهم فيهم على قدر ابتعادهم من جهاز الخلافة.

والذي يقرأ التاريخ الإسلامي يعرف جيداً كيف كان الفقهاء الصالحون يتهرّبون عن ارتياد بلاط الخليفة واستلام المسؤوليات السياسية، وحتى القضائية، من قبل الخليفة، وكانوا يعلمون أنهم على قدر تقربهم إلى الخلفاء يفقدون ثقة الناس واعتمادهم وموقعهم عند الجمهور.

وأما المسلمون الشيعة، فكان ولاؤهم منذ وفاة رسول الله ﷺ لأهل بيت رسول الله، ولم يتغير خطّهم السياسي في الولاء والبراءة منذ وفاة رسول الله إلى اليوم.

أجل، إنّ للحسين عليه السلام دوراً كبيراً في حفظ الإسلام من التحريف والتشويه الذي جاء به بنو أُمية وحقاً عظيماً على المسلمين شيعة وسنّة.

فلولا عاشوراء ومصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة لبقي خلفاء بني أُمية في موقع الشرعية السياسية، وكان للمظالم والمفاسد التي يرتكبونها انعكاس واسع على الإسلام، وأثر تحريفي على هذا الدين، ولم يسلم لنا الإسلام بالشكل الذي نتلقاه اليوم من مصادر الكتاب والسنّة، وقد حدث مثل هذا التحريف في الأديان السابقة بأسباب مشابهة. وقد شاء الله تعالى أن يسلم هذا الدين بمصرع الحسين. وهو معنى قوله ﷺ: **«حسين مني وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً»**[١].

فقد تغيّر رأي المسلمين في بني أُمية وشرعيتهم، واطلق فقهاء المسلمين وعلماؤهم القول في تفسيق يزيد وشجبه وسلب الثقة من خلافة بني أُمية عامة.

يقول ابن خلدون في المقدمة (غلط القاضي أبوبكر بن العربي المالكي إذ قال إنّ

---

(١) صحيح الترمذي ٢: ٣٠٧، ورواه البخاري في الأدب المفرد باب معانقة الصبي، ورواه ابن ماجة في باب فضائل أصحاب رسول الله، ورواه المتقي في الكنز ٦: ٣٢١.

الحسين قتل بسيف جدّه، وهو غفلة عن اشتراط الإمام العادل في الخلافة الإسلامية. ومن أعدل من الحسين في زمانه وإمامته وعدالته في قتال أهل الآراء).

وذكر الاجماع على فسق يزيد، ومعه لا يكون صالحاً للإمامة[١].

ويقول ابن مفلح الحنبلي: جوّز ابن عقيل الخروج على الإمام غير العادل بدليل خروج الحسين على يزيد لإقامة الحق.

ويقول ابن الجوزي في يزيد: (ولو قدرنا صحة خلافته، فقد بدرت منه بوادر، وظهرت منه أُمور كل منها يوجب فسخ ذلك العقد، من نهب المدينة، ورمي الكعبة بالمنجنيق، وقتل الحسين وأهل بيته[٢].

ويقول التفتازاني: (لا نتوقف في شأنه (يزيد)، بل في إيمانه، لعنة الله عليه، وعلى أنصاره وأعوانه)[٣].

ويقول ابن حزم في (المحلّى): قيام يزيد بن معاوية لغرض دنيا فقط، فلا تأويل له وهو بغي مجرد[٤].

ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان يزيد ناصبياً، غليظاً فظاً جلفاً، يتناول المسكر، ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين عليه السلام، واختتمها بوقعة الحرة، فمقته الناس، ولم يبارك في عمره وخرج عليه غير واحد بعد الحسين كأهل المدينة[٥].

ومهما يكن من أمر، فقد تجردت خلافة بني أُمية بعد مصرع الحسين عليه السلام من الشرعية السياسية وقدسية الخلافة النبوية التي كانت تمتلكها الخلافة قبل ذلك، وأصبح الناس يتعاملون معها، كما يتعاملون مع أية سلطة زمنية غير شرعية، وحلّ الفقهاء محل الخلفاء في إدارة شؤون دين الناس، واستمر الأمر على هذا النهج إلى اليوم.

وبعد هذا الشرح الذي طال بعض الشيء، لا نتوقف كثيراً عندما نسأل عن الغالب في كربلاء.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢٥٤ و٢٥٥.

(٢) مقتل الحسين للمقرّم: ٩.

(٣) شرح العقائد النسفية: ١٨١ عن مقتل المقرم: ٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٥، ٨٢، ٨٤.

فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب في خروجه إلى العراق فتحاً عسكرياً على الطريقة التي يألفها الناس في الحروب، ولا يمكن ـ على كل الحسابات ـ أن يخفي أمر هذه المواجهة العسكرية على الحسين عليه السلام، ولايكون الحسين عليه السلام أقل وعياً لظروف العراق والشام من كل أُولئك الذين نصحوه بعدم الخروج، ولم يكن الإمام يتهمهم في نصحهم وصدقهم.

لقد كان الحسين عليه السلام يطلب إثارة الوعي في نفوس الناس، وإحداث هزّة عميقة وقوية في الضمير الإسلامي الذي ركن إلى بني أُمية، وإعادة الحركة والإرادة والعزم، والغيرة على الإسلام والمسلمين إلى نفوس المسلمين، وكسر حاجز الخوف وإسقاط هيبة ورهبة بني أُمية في النفوس وهذه هي الغاية الحركية من ثورة الحسين عليه السلام وقد حققها الله تعالى لـه في هذه المعركة.

وكانت الغاية الأُخرى سياسية، وتتلخص في تجريد بني أُمية من الشرعية السياسية لئلا تنعكس ممارستهم في الظلم والإفساد على الإسلام، ويسلم الإسلام من الحالات الجاهلية التي حملها معهم بنو أُمية إلى مواقع القوة والحكم في المجتمع الإسلامي يومذاك.

وهذه هي الغاية السياسية، وقد حققّ الله تعالى لـه النصر والفتح في هذه وتلك، وألحق الله الهزيمة ببني أُمية في كل منهما.

وكان جواب الإمام علي بن الحسين عليه السلام للسائل دقيقاً عندما قال له: انتظر حتى يحل وقت الصلاة، ويؤذّن الناس ويقيمون لترى من هو الغالب في كربلاء.



الخطاب الحسيني

إجمال المراحل الثلاثة للثورة الحسينية

المدخل

ثورة الإمام الحسين عليه السلام ثلاث مراحل، نذكرها تباعاً:

المرحلة الأُولى: التضحية والشهادة.

المرحلة الثانية: الخطاب.

المرحلة الثالثة: الثأر.

وهذه المراحل الثلاثة يتلو بعضها بعضاً في الرتبة، وليس في الزمن.

تمت المرحلة الأُولى من هذا الحدث التاريخي العظيم في كربلاء يوم العاشر من محرم سنة (٦١ هـ).

وافتتح أهل البيت عليهم السلام المرحلة الثانية عند دخول الكوفة في مدخل المدينة، عندما استقبل أهل الكوفة الرؤوس الشريفة وسبايا أهل البيت عليهم السلام.

ثم توالت بعد ذلك حلقات الخطاب، حلقة بعد حلقة، عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل، ولم يزل الخطاب الحسيني قائماً في حياتنا منذ ذلك الحين، من خلال المنبر الحسيني والشعر والنثر والشعارات السياسية الحسينية ونصوص الزيارات الواردة من أهل البيت عند زيارة الحسين عليه السلام مثل زيارة (وارث) و(عاشوراء) وغيرهما إلى اليوم.

والمرحلة الثالثة: الثأر، بدأها أهل الكوفة النادمون على تخلّيهم عن نصرة الحسين عليه السلام، فاجتمعوا حول سليمان بن صرد الخزاعي وفي منزله بالكوفة ليتجهزوا للثأر، ثم لمّا هلك يزيد سنة (٦٤ هـ) وثب المختار الثقفي على إمارة الكوفة، وتولّى أخذ الثأر، وكانت هذه هي البداية، ثم تتابعت حلقات الثأر تحت شعار: (يا لثارات الحسين)، ولا يزال الخطاب قائماً ولا يزال الثأر قائماً، ويختم الإمام المهدي من آل محمد عليهم السلام، هذه الحركة في التاريخ

بالقضاء الكامل على مواقع الظلم، وأئمة الجور في المجتمع، فيكون خاتمة الثائرين، كما تواترت بذلك روايات الفريقين عن رسول الله ﷺ.

* * *

إنّ مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه بكربلاء، ليس حدثاً كسائر الأحداث في التاريخ... بدأ الحسين عليه السلام البداية المفجعة لهذا الحدث في سنة (٦١هـ) بكربلاء وامتدت آثاره ونتائجه وتفاعلاته إلى اليوم.

وليس من ريب أن الإرادة الإلهية تدخلت في تجريد هذا الحدث من الحدود الزمانية والمكانية التي تحدُّ كل حدث، واسباغ صفة الشمولية والعمومية عليه لكل التاريخ، ولكل المساحة الجغرافية التي يجري عليها الصراع بين الحق والباطل من وجه الأرض.

فكانت عاشوراء رمزاً لكل خروج وتمرّد على الطغاة والأنظمة الجائرة في تاريخ الإسلام، وكانت عاشوراء عاملاً لتحفيز المحرومين والمستضعفين على مواجهة المستكبرين، والدعاة إلى الله على مواجهة أئمة الكفر، وكانت عاشوراء شعاراً دائماً في هذا الصراع للصالحين والمستضعفين في مواجهة الجبارين والمستكبرين.

وإسباغ هذه العمومية والشمولية لكل التاريخ، ولكل المساحة التي يجري عليها الصراع من وجه الأرض لعاشوراء وكربلاء من صنع الله وبإرادة الله بالتأكيد، وليس لإنسان أن يوسع الدائرة التاريخية والجغرافية لحدث، مهما كان بهذه الصورة إلّا بإذن الله. فكانت عاشوراء كل التاريخ، وكانت كربلاء كل الأرض.

ولو كان الناس هم الذين يتولّون إدارة حلقات ومراحل هذا الحدث لانتهى أمده منذ حين، وفقد بريقه وتأثيره في وجدان الأُمة بمرور الزمن، مهما كان هذا الحدث.

ولكن الله تعالى شاء أن يجعل من هذا الحدث ضماناً لسلامة هذا الدين، وسلامة هذه الأُمة من تحريف الظالمين وبطشهم، وعاملاً لتحفيز الصالحين على الفاسدين، والمستضعفين على المستكبرين في تاريخ الإسلام.

وشاء الله أن تتحول عاشوراء من حدث في التاريخ إلى ثقافة، وشاء الله أن يكون لهذه الثقافة دور كبير في تحفيز الصالحين وتحريكهم وتثويرهم، وان تتحول هذه الثقافة إلى عامل من أهم عوامل المقاومة والصمود في تاريخ الإسلام.

فكان كل خطاب في مقارعة الظالمين وإنذارهم ومواجهتهم امتداد للخطاب الحسيني، وكان كل خطاب في تحفيز الصالحين ودعوتهم للخروج والمقاومة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتداد لذلك الخطاب.

وكان كل انتصار للصالحين على الفاسدين والمظلومين على الظالمين حلقة جديدة من حلقات ثارات الحسين عليه السلام.

إنّ هذا الفهم وهذه الرؤية العامّة والشاملة للخطاب الحسيني، ولثارات الحسين عليه السلام هي مدار هذا البحث ومحوره.

إنّ المرحلة الأُولى من شهادة سيد الشهداء الحسين عليه السلام حدثت وانتهت في يوم العاشر من المحرم سنة (٦١ هـ).

ولكن المرحلة الثانية والثالثة من هذا الحدث التاريخي سوف تبقى وتدوم ولن تنتهي، ما كان للظلم والشرك حضور في مراكز القوة على وجه الأرض.

وفي هذه الدراسة سوف نشير إشارة إجمالية إلى المراحل الثلاثة لثورة الحسين عليه السلام، ثم نعقبه بدراسة للمرحلة الثانية فقط، وهي مرحلة الخطاب، على أمل أن يوفقني الله لدراسة المرحلة الثالثة وهي الثأر، وإليك هذا الاجمال والتفصيل.

المرحلة الأُولى لثورة الحسين عليه السلام

التضحية والشهادة

المرحلة الأُولى لثورة الحسين: هي شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه... وكان حدثاً مفجعاً مأساوياً، لا نظير له في تاريخ الإسلام، وفي نفس الوقت ملحمة من أنصع ملاحم البطولة والصمود والتضحية والإباء والرفض في تاريخ الإسلام.

وقد ترك هذا الحدث المفجع أثراً عميقاً في وجدان المسلمين إلى اليوم.

وتعود قيمة هذا الحدث وأهميته وتأثيره العميق في وجدان المسلمين إلى العناصر التي ساهمت في تكوين هذه الملحمة البطولية الرائعة والمشهد المأساوي المفجع.

فقد اجتمعت كوكبة من خير من على وجه الأرض هدىً وصلاحاً ورشداً وتقوى وبصيرة وإخلاصاً ويقيناً وما لست أعلم من القيم، حول الحسين عليه السلام في كربلاء لتساهم في تكوين هذا الحدث المأساوي والبطولي الخالد.

وقد قرأنا الكثير من ملاحم البطولة ومن مواقف الصمود في تاريخ الإسلام... ولكن قلّما نجد مشهداً يجمع هذه النخبة من أصحاب البصائر والوعي ومن أصحاب المقاومة والصمود، ومن أصحاب الإخلاص واليقين كالذي اجتمع حول الحسين في كربلاء.

فقد كان أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء من أكثر الناس وعياً ومن أصدق الناس في التعامل مع الله. ومن أكثر الناس بصيرة وشجاعة وصلابة وثباتاً. ومن أخلص الناس لله وأكثرهم يقيناً بالله، وحباً له وثقة به وتوكلاً عليه.

اجتمع في هذه الرقعة المحدودة من الأرض في كربلاء يوم عاشوراء قمم رفيعة من البصيرة والوعي والإخلاص واليقين، والإيثار والمعرفة والاستقامة والصمود والبطولة والخشوع والعبودية لله، والصبر على الأذى في جنب الله، وما لست أعلم ولا أقدر على احصائه من القيم والفضائل.. حول الحسين عليه السلام ودخلت هذه المجموعة من القيم في تضحية مأساوية وبطولية نادرة، أعجبت ملائكة الرحمن وأفجعتهم... وليس من ريب أن هذا المشهد التاريخي

الفريد في الإخلاص والإيقان والإيثار والصبر والصمود والحب والشوق إلى الله كان من أعظم منازل رحمة الله تعالى.

وما نعرفه من بقاء هذا الحدث حياً فاعلاً مؤثراً في وجدان المسلمين إلى اليوم، وإلى ما شاء الله من الأيام يعود إلى هذه النقطة بالذات.

وإليك تفصيل هذه النقاط، بقدر ما يتسع له صدر هذا المقال:

١ ـ أصحاب الحسين عليه السلام أكثر الناس وعياً

كان الحسين عليه السلام وأصحابه أوعى الناس وأبصر الناس بالواقع الموضوعي للفتنة التي عمّت المسلمين يومئذ على يد بني أُمية وآثارها السلبية على حاضر الإسلام ومستقبله.

وهذا هو الوعي للواقع الموضوعي الذي كان يعيشه المسلمون، وهو أحد شقي الوعي.

وكانوا أوعى الناس وأبصرهم بالمسؤولية الشرعية التي يفرضها الله تعالى عليهم في هذه الفتنة... وهذا هو الوعي الفقهي لأحكام الله في ظروف الفتنة وهو الشق الآخر للوعي.

وللوعي شقّان يتكاملان: وعي الواقع الموضوعي ووعي الحكم الذي يفرضه الله تعالى على المسلمين، في مثل ذلك الظرف في الفقه، وقد كان الحسين عليه السلام وأصحابه من أبصر الناس وأوعى الناس بهذا وذاك.

ونحن نقرأ في الخطاب الحسيني يومئذ صورة دقيقة للواقع الموضوعي الذي كان يعيشه المسلمون، ولمأساة الإسلام والمسلمين في فتنة بني أُمية.

كما نقرأ فهماً دقيقاً شرعيّاً للحكم الشرعي في مثل هذه الفتن.

وإليك الصورة والفهم.

أما الصورة

روى الطبري، قال: قام الحسين عليه السلام بذي حُسم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد، إنّه قد نزل بنا من الأمر ما ترون، وان الدنيا قد تغيرت، وتنكرت، وأدبر معروفها، فلم يبق إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً.. فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً**»[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

وهو تصوير دقيق ومعبر للفتنة التي حلّت بالمسلمين على يد بني أُمية، ولا أجد الوقت للتعليق على هذا النص.

وأما الحكم الشرعي

روى السيد ابن طاوس في اللهوف: أن مروان التقى الحسين عليه السلام صبيحة الليلة التي طلب الوالي ومروان فيها من الحسين عليه السلام البيعة فامتنع، فقال مروان للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله أني لك ناصح فاطعني ترشد.

فقال له الحسين عليه السلام: «**وما ذاك قل حتى اسمع**».

فقال مروان: إنّي آمرك ببيعة يزيد بن معاوية، فإنّه خير لك في دينك ودنياك.

فقال له الحسين عليه السلام: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمّة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله** يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان»[(١)].

وعندما ألحّ مروان على الحسين بالبيعة ليزيد ليلتها وطلب حبس الحسين عليه السلام وقتله حتى يبايع ليزيد... أقبل الحسين على الوليد (أمير المدينة) وقال: «**أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحرّمة ومثلي لا يبايع مثله**»[(٢)].

روى الطبري في التاريخ إن الحسين عليه السلام خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بـ (البيضة. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر)[(٣)].

* * *

---

(١) الملهوف: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧و٨٧، بحار الأنوار٤٤: ٣٢٥، تاريخ ابن الأثير٣: ٢٦٤، الفتوح ٥: ١٨.

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٣٠٠، حوادث سنة ٦١ هـ.

والى جانب هذا الوضوح والوعي الفقهي والسياسي في جانب الحسين عليه السلام وأصحابه.. نجد في وسط الأُمة يومئذ اتجاهين آخرين، في طريقة التعامل مع الفتن السياسية والنظام الأُموي الظالم والفاسد وولاتهم في الولايات.

وكل من هذين الاتجاهين كان يخدم بني أُمية، ويذلّل المعارضة السياسية لهم، ويطوّع الجمهور لقبول هذا الظلم من ناحية ولاة وحكام ونظام بني أُمية، وكل ذلك من منطلقات شرعية، وباسم الإسلام.

وكان بنو أُمية يثقّفون الناس بثقافة السكوت، وقبول الظلم، ويعملون لإجهاض المعارضة السياسية لحكمهم بالوسائل الثقافية الدينية.

وقد نجح هذا الأُسلوب في عزل المعارضة وتحجيمها أكثر من أي أُسلوب آخر... ولو كنت أجد فرصة للحديث عن هذا الجانب لأسهبت في تفاصيل الوسائل الثقافية الدينية التي استخدمها بنو أُمية، كالترويج لفكرة الجبر والقدر، لاقناع الناس بأن الذي يجري عليهم من ظلم، قضاء وقدر من الله لا سبيل لتغييره، والمعارضة السياسية والمسلحة إنّما هي محاولة لتغيير القضاء والقدر الإلهي، وهو من العبث بإرادة الله ومشيئته.

وقد بذل بنو أُمية الكثير لترسيخ وتثبيت هذه العقيدة وهي كفيلة بإجهاض كل معارضة سياسية لهم يمكن أن تنشأ في رحم الظلم والإفساد.

ومهما يكن من أمر: لقد كان هناك اتجاهان سياسيان في طريقة التعامل مع الفتن السياسية والنظام الاُموي وولاتهم.

الاتجاه الأوّل: التهرب من مواجهة الفتن والصراعات بكل أطرافها، والغياب الكامل عن مواقع الفتنة والمواجهة والصراع بكل أطرافها من حقّ أو باطل، فلم يستجيبوا لدعوة علي عليه السلام وابنيه الحسن والحسين عليهما السلام لمواجهة فتنة بني أُميّة، وكان شعارهم في ذلك حديث يروونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

روى أحمد في (المسند) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به»[1].

(١) مسند أحمد ٢: ٢٨٢.

وروى أيضاً أحمد في (المسند) عن أبي بكرة عن رسول الله ﷺ: «أنها ستكون فتن الماشي خير من الساعي إليها، والقاعد فيها خير من القائم فيها، والمضطجع فيها خير من القاعد»[١].

ولست أشك إنّ هذه الأحاديث منتحلة موضوعة على رسول الله ﷺ، قد انتحلها بنو أمية... وهي بخلاف صريح القرآن ومحكمه، وحديث رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعارض القرآن.

والاتجاه الثاني: وجوب الطاعة والانقياد وتحريم الخروج والتمرّد على الحاكم الذي بيده السوط، مهما بلغ ظلمه وجوره وإفساده في المسلمين، وكان هذا رأي عبد الله بن عمر في هذه الفتنة، ومن وقف معه في إسناد دولة بني أُمية ودعمهم.

وقد وقف عبد الله بن عمر في وقعة الحرة التي أباد فيها بنو أُمية مدينة رسول الله ﷺ وقتلوا فيها الرجال وفجروا بالنساء، وأراقوا الدماء وهتكوا الحرمات، وأهلكوا الحرث والنسل... أقول وقف عبد الله بن عمر في هذه الوقعة مع بني أُمية ضد الثائرين على بني أُمية من أصحاب رسول الله ﷺوأبناء الصحابة.

روى مسلم عن زيد بن محمد عن نافع، قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر (الحَرَّة) ما كان زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: اني لم آتك لأجلس. أتيتك لأُحدثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة لـه، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[٢]. **هذا إذا كان الأمير مسلّطاً قائماً غالباً، وان كان فاجراً معلناً للفسق.**

وإذا اختلط الأمر في الفتنة، فلا يعرف فيها الغالب من المغلوب، كان يقول: (نحن مع من غلب).

وكان بنو أُمية يشجعون ويدعون إلى هذا النمط من الفقه الذي كان يحمله عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ونظراؤهما من فقهاء بني أُمية.

وبين هذا الاتجاه وذلك الاتجاه... برز هؤلاء الفتية من أهل بيت الحسين عليه السلام وخلف السبط الشهيد الحسين عليه السلام يعلنون الاتجاه الثالث الذي دعا إليه الحسين عليه السلام يومذاك.

---

(١) المصدر نفسه ٥: ٤٨٥.

(٢) صحيح مسلم ٦: ٢٢، كتاب الأمارة باب الأمر بلزوم الجماعة، ط دار الفكر.

وعندما دعا الحسين عليه السلام الناس للخروج إلى قتال يزيد، لم يستجب له من المسلمين إلّا عدد قليل آثروا القتل على العافية، ونهضوا مع الحسين ينكرون على بني أُمية، الفساد والظلم والبدع التي ادخلوها في الإسلام... أما عامّة المسلمين فقد أخلدوا إلى العافية، وأخذوا بالاتجاهين الذين كان يدعو إليه عبد الله بن عمر ونظرائه من (فقهاء العافية).

ويعجب الإنسان كيف غاب عن فقهاء المسلمين من التابعين وأبناء الصحابة الآيات المحكمة من الكتاب الداعية إلى الأمر بالمعروف والناهية عن المنكر، والرادعة عن الرضوخ للظالمين، والأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المضمون.

وهذا الوعي الفقهي والسياسي من أبرز خصائص أصحاب الحسين عليه السلام.

٢ ـ أصدق الناس في التعامل مع الله

وكان أصحاب الحسين عليه السلام من أصدق الناس مع الله تعالى.

ونقصد بالصدق التطابق بين القول والعمل.

وإمارة هذا الصدق في سلوك أصحاب الحسين عليه السلام ثباتهم مع الحسين عليه السلام في هذا الطريق، من غير تردد، ولا تلكأ، إلى أن لقوا الله تعالى.

فلم يدعهم الحسين عليه السلام إلى مال أو سلطان أو نصر، وإنما أعلن لهم منذ أوّل يوم في بيانه الأوّل الذي أعلنه للمسلمين اعلاناً في مكة قبل مغادرته الحجاز إلى العراق، انه قادم إلى الموت، وليس إلى ملك وسلطان ونصر.

رُوي أنه خطب الناس عشية مغادرته مكة إلى العراق فقال:

«خطّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى **أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيِّر لي مصرع أنا لاقيه، وكأنّي بأوصالي تقطعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء... لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه، ويوفينا أُجور الصابرين**»[1].

ولا أعرف قائداً، غير الحسين عليه السلام يدعو أصحابه إلى الموت، فقد يدعوا القادة أصحابهم إلى أن يوطنوا أنفسهم للموت في طريق تحقيق النصر، ولكن الحسين عليه السلام لم يلمح

---

(١) المسائل العكبرية للمفيد: ٧١، مثير الأحزان لابن نما: ٢٩، كشف الغمة٢: ٢٣٩.

إلى أصحابه بالنصر قط. وطلب منهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله... وأعلمهم أنه لا يرجو في حركته هذه إلّا الموت.

وتكرر منه هذا التلميح والتصريح، وقبل أن يدخل كربلاء، استرجع عليه السلام وكرّر ذلك وقال: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**» فسأله ولده علي الأكبر عن استرجاعه، فقال: **إنّي خفقت برأسي، فعنّ لي فارس، وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.**

فقال علي الأكبر: لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟ قال: **بلى والذي إليه مرجع العباد**، فقال: يا أبت، إذن لا نبالي أن نموت محقين، فقال عليه السلام: **جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده**»[١].

ولم يزل يطلب النصر ممن يلقاه في الطريق، فإذا اعتذر إليه بعذر يوصيه أن يبتعد عن هذا المشهد، ويقول له: «**ان استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد، ولا ينصرنا إلّا أكبّه الله في النار**»[٢].

ولم يزل يكرر على أصحابه أنهم مقبلون على الموت إلى ليلة مصرعهم في كربلاء.

ولم يزل يجعلهم في حلّ من بيعته حتى ليلة العاشر من محرم، خرج عليه السلام في جوف الليل يتفقّد التلاع والعقبات، فتبعه نافع بن هلال، فسأله الحسين عليه السلام عما أخرجه؟ قال: يا بن رسول الله أفزعني خروجك إلى جهة معسكر هذا الطاغي، فقال له الحسين: إني خرجت أتفقد التلاع والروابي مخافة أن تكون مكمناً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

ثم رجع عليه السلام، وهو قابض على يد نافع، ويقول: **هي هي والله، وعد لا خلف فيه.**

ثم قال: **ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل، وتنجو بنفسك** ...فقال نافع ثكلتني أُمي أن تركتك إن سيفي بألف وفرسي مثله. فوالله الذي مَنّ بك عليّ لا أفارقنك حتى يكِلّا عن فري وجري[٣].

وفي ليلة العاشر جمع الحسين عليه السلام أصحابه وأهل بيته، وقال لهم:

«ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٣١.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرم: ٢٠٤، ٢٠٥، عن خزانة الأدب ١: ٢٩٨.

(٣) نفس المصدر ٢٤٠ ـ ٢٤١.

غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم، حتى يفرج الله، فإن القوم إنّما يطلبوني، ولو قد أصابوني للهو عن طلب غيري».

فقال له إخوته وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: ولِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك. لا أرانا الله ذلك ابداً.

وقام إليه مسلم بن عوسجة رحمه الله **يقول:** أما والله لو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، **والله لا نخليك حتى يعلم الله إنّا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك.**

وقام زهير بن القين رحمه الله، فقال: والله اني وددت أنني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرة، وان الله عزّ وجلّ يدفع بذلك عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وقال الحسين عليه السلام لمحمد بن البشير الحضرمي، وقد أُسر ابن له في ثغر ري: **رحمك الله أنت في حل من بيعتي فأعمل في فكاك ابنك** . فقال: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك[1].

ومع كل هذا التصريح بالقتل، والتأكيد لهم بأنهم في حل من بيعته، لم يتراجع منهم أحد، ولم يدخل قلب أحدهم ريب، وثبتوا معه إلى الموت.

فقال لهم الحسين عليه السلام: **«اني لا أعرف أصحاباً أوفى من أصحابي، ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً»**[2].

ولم يختص هذا الصدق في التعامل مع الله، وفي الصبر في لقاء العدو بالرجال، فقد كان النساء كالرجال صلابة وعزماً وصبراً.

تطلب أُم وهب في كربلاء، من ابنها وهب أن ينصر ابن بنت رسول الله، فيقول: أفعل يا أُماه ولا أقصّر، ثم يرجع إليها بعد أن قتل منهم مقتله، فيقول: يا أُماه أرضيتِ؟ فتقول له: ارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله، فيقاتل حتى يقتل، فتذهب زوجته حتى تمسح الدم عن وجهه، فيبصر بها شمر فأمر غلاماً له فضربها بعمود كان معه فشدخها وقتلها[3].

---

(١) نفس المهموم للمحدث القمي: ٢٢٨ ـ ٢٢٩، تحقيق الشيخ رضا استادي، نقلاً عن مجموعة من المصادر: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) نفس المهموم: ٢٢٧.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ١٧، المناقب للخوارزمي ٤: ١٠١.

وكان وهب نصرانياً أسلم هو وأُمه على يد الحسين عليه السلام فاتبعه إلى كربلاء.

رحم الله أصحاب الحسين في كربلاء رجالاً ونساءً، شيوخاً وكهولاً، وشباباً ومراهقين، كانوا جمعاً من ذوي العزم والبصيرة والصدق ولا نستثني منهم المراهقين والصبية.

وقد كان القاسم بن الحسن بن علي عليه السلام يومئذ صبيّاً في عمر المراهقة سأل عمّه الحسين عليه السلام ليلة العاشر عندما منّى أصحابه القتل صبيحة تلك الليلة، فقال وأنا فيمن أُقتل يا عم؟ فاشفق عليه الحسين عليه السلام، **وقال له: كيف الموت عندك؟ فقال**: يا عم أحلى من العسل. فقال له الحسين: **أي والله فداك عمّك، انّك لأحد مَن يقتل، وابني عبد الله** (الرضيع)، فقال: ياعم ويصلون إلى النساء حتى يقتل عبد الله، وهو رضيع ...[١]

٣ ـ أكثر الناس بصيرة وشجاعة وثباتاً

وليس أدل على ذلك من شهادة أعدائهم.

لما أكثر أصحاب الحسين القتل في أهل الكوفة وفزع أهل الكوفة من بأس أصحاب الحسين عليه السلام وسطوتهم صاح عمرو بن الحجاج ـ كما يقول الطبري ـ بأصحابه، وقال: أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم، إلّا قتلوه على قلّتهم، والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت. أرسل في الناس من يعزم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم، ولو خرجتم إليهم وُحداناً لأتوا عليكم[٢].

إنّهم كانوا قوماً مستميتين، كما يقول عمرو بن الحجاج، والمستميت يقذف بنفسه على الموت، ولا يهرب من الموت، والذي يقذف بنفسه في لهوات الموت لا يمكن أن يثبت له الذي يهرب من الموت.

ولذلك كان التكافؤ مفقوداً بين أصحاب الحسين عليه السلام وجيش ابن زياد، حتى شاع الذعر والخوف فيهم، فنصحهم عمر بن الحجاج أن لا يبرزوا إليهم وحداناً.

وقيل لرجل شهد الطف مع ابن سعد: ويحك أقتلتم ذرّية الرسول؟ فقال: عضضت بالجندل انّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا. ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض

---

(١) نفس المهموم للمحدث القمي: ٢٣٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٢٥٥.

سيوفها كالأُسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، تلقي نفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين المنيّة، أو الاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رويداً، لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فماذا كنّا فاعلين لا أُمّ لك[١].

وعابت زوجة كعب بن جابر عليه، فقال: أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيّد القرّاء (برير) لقد أتيت عظيماً من الأمر؛ والله لا أُكلّمك كلمة واحدة، فقال يخاطبها:

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ... ولا قبلهم في الناس اذ أنا يافع
أشد قراعاً بالسيوف لدى الوغى ... ألا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطعن حسرة ... وقد نازلو لو أن ذلك نافع[٢]

وعن هؤلاء يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**ان أصحاب جدي الحسين لم يجدوا ألم مس الحديد**»[٣].

٤ ـ اخلص الناس لله واكثرهم يقيناً

وأخيراً كان الحسين عليه السلام وأصحابه من أخلص الناس لله، وأنقاهم نية في هذه المواجهة الضارية في سبيل الله...

ولم يدعهم الحسين عليه السلام في مكة إلى مال أو سلطان، ولكن دعاهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله: «**ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله**»[٤].

وقاتلوا وقُتِلوا على يقين بالله، واليقين من أعزّ ما قسم الله تعالى بين عباده من نعمة ومواهب، ولقد كان أصحاب الحسين من أصحاب اليقين.

وهازل (برير) عبد الرحمن الأنصاري، فقال له عبد الرحمن:

ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ٣٠٧.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٧.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٥٣.

(٤) تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

مستبشر بما نحن لاقون. والله ما بيننا وبين الحور العين، إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة[١].

وخرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له يزيد بن الحصين: ما هذه ساعة ضحك، فقال حبيب: وأي موضع أحق بالسرور من هذا الموضع؟ ماهو إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، فنعانق الحور العين[٢].

ويقول الحسين عليه السلام في ساحة الطف يوم عاشوراء، وقد كثر القتل في أصحابه وأهل بيته عليهم السلام: «اللهمّ إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى».

وينظر عليه السلام إلى ما حل به وبأهل بيته وأصحابه وحرمه من المآسي فيقول مستسلماً لإرادة الله، راضياً بقضاء الله وحكمه: **«هوّن ما نزل بي أنه بعين الله»**[٣].

وتقف زينب بنت علي عليهما السلام على جسد أخيها، محزوز الرأس مقطع الأعضاء، فترفع رأسها إلى السماء، فتقول: «اللهمّ تقبّل منا هذا القربان»[٤].

والرجز الذي كان يرتجز به أصحاب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء يحمل مفاهيم رفيعة في الاخلاص والايقان وابتغاء مرضاة الله وحب الله والبراءة من أعداء الله...

ولنستمع إلى بعض هذا الرجز:

يرتجز عمر بن خالد الأزدي من أصحاب الحسين عليه السلام فيقول:

إليك يا نفس إلى الرحمن ... فأبشري بالروح والريحان
ما خُطّ في اللوح لدى الديان ... لا تجزعي فكل حيٍّ فان

ويقول ابنه خالد رحمه الله:

صبراً على الموت بني قطحان ... كيما تكونوا في رضى الرحمن

ويبرز سعد بن حنظلة التميمي من أصحاب الحسين عليه السلام فيرتجز:

صبراً على الأسياف والأسنّة ... صبراً عليها لدخول الجنة[٥]

---

(١) المصدر السابق.
(٢) اختيار معرفة الرجال للطوسي ١: ٢٩٢.
(٣) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٣٤٣.
(٤) الكبريت الأحمر ٣: ١٣.
(٥) لواعج الأشجان للسيد محسن الأمين العاملي: ١٦٠ ـ ١٦١.

ويرتجز القاسم بن الحسن (المراهق):

لا تجزعي نفسي فكل فاني اليوم تلقين ذوي الجنان[١]

ويرتجز العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن قطعوا يمينه فيقول:

والله إن قطعتمُ يميني إنّي أُحامي أبداً عن ديني

ولما قطعوا يساره ارتجز قائلاً:

يا نفس لا تخشي من الكفار وابشري برحمة الجبّار
مع النبي السيد المختار قد قطعوا ببغيهم يساري
فاصلهم يا ربّ حرّ النار[٢]

يستمع الإنسان إلى هذا الرجز في ساعة الحرب، في أحرج ساعة في حياة الإنسان، وهو يواجه الموت، ويراه بعينه، فلا يرى غير الاخلاص واليقين، والثقة المطلقة بالله، والتسليم لقضائه وقدره والرضا بأمره، وابتغاء مرضاته، والشوق إلى لقائه، والأنس بمناجاته، والوجد والهيام والحب.

ويقارن الإنسان كل هذا الوجد والهيام والحب والشوق والتسليم والرضا بالله في أصحاب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، إلى ما كان يجده في الصف المقابل له في هذه الساحة فيجد اللؤم والشحّ والحقد والجبن، وابتغاء عرض الدنيا والتهالك عليه... فيعجب الإنسان في هذا اللقاء العجيب بين هذين المعسكرين المتحاربين، فاستمع إلى سنان بن أنس جاء إلى ابن زياد، وهو يرجو الجائزة لقتله الحسين عليه السلام فيقول:

أوقر ركابي فضة أو ذهبا إنّي قتلتُ السيد المهذبا
قتلتُ خير الناس أُماً وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسباً[٣]

ويقول عمر بن سعد، وهو يعيش حالة القلق النفسي السّي، والصراع المرير في عمق ضميره، عندما عرض عليه ابن زياد قتال الحسين عليه السلام مقابل ولاية الري:

أأترك ملك الري والري منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

---

(١) المصدر السابق: ١٧٥.

(٢) المناقب لابن شهرآشوب ٣: ٢٥٦.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام ٢: ٦٠، تسلية المجالس وزينة المجالس ٢: ٣٧٩، البحار ٢٥: ١٢٧، العوالم ١٧: ٤٢٧.

وفي قتله النار التي ليس دونها حجاب، وملك الري قرة عيني[(١)]

يقارن الإنسان بين هذا المعسكر وذاك، وما يختزنه كل منهما من القيم وأضداد القيم، فيعجب الإنسان من هذا الفاصل الشاسع والتناقض في القيم والأُصول بين هذا المعسكر وذاك، يقول السيد ابن طاوس رحمه الله:

وبات أصحاب الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء، ولهم دويّ كدويّ النحل، ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد[(٢)].

ويروي الطبري هذه المناجاة عن الحسين عليه السلام في تلك الساعات العصيبة من المواجهة والقتال:

«صبراً على قضائك يا ربّ، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، مالي يارب سواك، ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك.

يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاذ له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كل نفس بما كسبت أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين»[(٣)].

وكان من مناجاته عليه السلام يوم عاشوراء:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدّة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك فكشفته وفرّجته، فأنت ولي كل نعمة، ومنتهى كل رغبة»[(٤)].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣: ٢٨٣.

(٢) اللهوف: ٥٧.

(٣) الطبري ٥: ٤٥٢.

(٤) الكامل لابن الأثير٤: ٢٥، تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٣، وذكره الكفعمي في المصباح أنه كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر.

المرحلة الثانية لثورة الحسين عليه السلام

ـ الخطاب ـ

بدأ أهل البيت عليهم السلام هذه المرحلة عند دخولهم إلى الكوفة حيث أعد الطاغية ابن مرجانة لهم استقبالاً للتشهير والتسقيط، فأحبط الله تعالى كل ذلك بخطاب علي بن الحسين وزينب وأخواته عليهم السلام.

وعندما يعرف الإنسان ما بذل الطاغية وأعدّ لهذا المشهد من مال وإعداد، يعجب كيف أحبط الله تعالى كل هذا الإعداد والبذل بكلمات علي بن الحسين وزينب وفاطمة عليهم السلام، وهم أسرى وسبايا يومئذ بيد الطاغية.

وتوالت حلقات الخطاب منذ ذلك الحين إلى اليوم، ورافق التأييد والإسناد الإلهي لهذا الخطاب في كلّ مراحله في مواجهة الطغاة والجبابرة في التاريخ.

ولسنا نريد الآن أن نتحدث، حتى بالإيجاز عن هذا الخطاب، وحلقاته ودوره في تاريخ الإسلام، فسوف يوافينا الحديث عنه قريباً إن شاء الله.

المرحلة الثالثة لثورة الحسين عليه السلام

الثأر

وهي المرحلة الأخيرة من مراحل الثورة الثلاثة، وليس معنى ذلك أنها مرحلة متأخرة زمنياً عن مرحلة الخطاب، فإنّ الثأر والخطاب يتقدمان مع بعض، وقد بدأ الثأر منذ الأشهر الأُولى من مقتل الحسين عليه السلام، وتولّى المختار الثقفي رحمه الله أمر الثأر بعد فترة قصيرة من يوم عاشوراء.

ولكن هذه المرحلة هي نتيجة وإفراز الخطاب، والثأر يتكون في رحم الخطاب، إلّا أنهما يتقدمان مع بعض في التاريخ.

ولدينا أربعة أسئلة:

١ ـ ماهو الثأر؟

٢ ـ ومن هو الثائر؟

٣ ـ ومن هم القتلة الذين نثأر منهم؟

٤ ـ وكيف يكون الثأر؟

وإليك هذه الأسئلة الأربعة بأجوبتها:

١ ـ ماهو الثأر؟

في زيارة الحسين عليه السلام نقرأ: «السلام عليك يا ثار الله» فما هو الثأر؟

الثأر: الانتقام من الظالم، وهذا حكم الله تعالى في القرآن، وهو حقّ طبيعي وفطري لولي الدم على القاتل، وقد أقرّ القرآن هذا الحقّ الطبيعي لولي الدم، يقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

وقد جعل الله تعالى للدم حرمة في هذا الدين، وهو من أعظم حرمات الله تعالى على وجه الأرض.

ولكل دم يهراق ظلماً في الإسلام ثأر، يتولّاه وليّ الدم، ودماء الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه أُريق ظلماً وعدواناً بكربلاء. فلابد لها من ثأر ولابد لها من ثائر يتولّى الثأر، بحكم القرآن والفطرة الإنسانية. وقد كان العرب في الجاهلية يتجاوزون في الثأر الحدود المعقولة العادلة، حتى أن مهلهل قتل بأخيه كليب من بكر بن وائل مقتلة كبيرة، حتى كاد أن يفنيهم، فجاء الإسلام وشرّع القصاص والمساواة والعدالة في الثأر والقصاص، يقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾[2].

٢ ـ ومن هم الثائرون؟

لقد كان الدم في حياة العرب في الجاهلية قبل الإسلام مسألة اجتماعية تعمّ قبيلة القاتل وقبيلة المقتول، وليست مسألة شخصية تخص شخص القاتل وولي المقتول، فإن العدوان بإراقة الدم، عدوان من ناحية قبيلة القاتل كلّها على قبيلة المقتول كلها. ولذلك كان يحق لكل فرد من قبيلة المقتول أن يقتل ـ بهذا الدم ـ أيّ فرد من قبيلة القاتل. لأن الدم مسألة اجتماعية تخص القبيلة كلها، وعلى الجميع ان يعملوا لحماية دمائهم، والثأر من القاتل أو القبيلة التي تؤوي القاتل وتتبناه.

ولهذا الفهم أصل في الإسلام، ولكن الإسلام أجرى تعديلاً كثيراً وتهذيباً لمسألة الدم والثأر كما سنوضّح.

يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

وذلك لأن العدوان على فرد، عند الله، عدوان على الجميع: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

ولكن الإسلام قام بتهذيب وتعديل واسع لنظام (الثأر)، فخصّ القصاص بشخص القاتل، ومن ناحية ولي المقتول ليمنع من الفوضى الاجتماعية في حياة الناس. وفي حادثة عاشوراء ومصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه لمسألة (الثأر) حالة متميّزة على الدماء التي تراق في قضايا وخلافات شخصية أو عائلية أو قبلية...

فإنّ هذا الدم أُهريق في الدفاع عن التوحيد والعدل، وعن دين الله وشريعته، فقد كان بنو أُمية يعملون لتغيير معالم هذا الدين، فيحلّون أعراف الجاهلية وأخلاقها وقواعدها محل الإسلام، ويعملون لتغيير المواقع الاجتماعية والسياسية في هذا الدين ليستعيد أبوسفيان ومعاوية ويزيد مواقعهم الذي سلبه عنهم الإسلام، ولتعود الطبقة المترفة المستكبرة الفاسدة محل الطبقة الصالحة المستضعفة.

فكانت ثورة الحسين عليه السلام للمحافظة على معالم دين الله ومواقعه، وللمحافظة على التوحيد والعدل في حياة الإنسان.

والمسألة هنا تختلف عن مسألة الثأر في سائر الدماء الفردية، وحتى القبليّة.

فإنّ الدم هنا يتعلق بالأُسرة المؤمنة الصالحة وهي كل من آمن بالله ورسوله، ووقف مع الحسين، أو رضي بموقف الحسين عليه السلام وتمنّى أن يكون معه، وليست هي أُسرة بني هاشم فقط، بل تشمل هذه الأُسرة كل من رضي بعمل الحسين عليه السلام وتمنّى أن يكون معه، كان يعيش قبل الحسين عليه السلام أو في عصره أو من بعده.

والعدوان حاصل من قبل الأُسرة الظالمة المعتدية، وهي ليست بني أُمية فقط، وإنّما يشملهم وكل من اشترك معهم في الجريمة وأسندهم، ورضي بفعلهم، ولم ينكر عليهم، وهم كثيرون، ويعيشون إلى اليوم. وهذا هو تعريف الأُسرة في دائرة الولاء والبراءة.

والقتل هنا من قبل الأُسرة الظالمة على الأُسرة الصالحة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، وليس هذا القتل من فرد على فرد ولا من قبيلة على أُخرى، وكذلك الثأر ليس هنا حقاً فردياً، وإنّما هو حق للأُسرة الصالحة على الأُسرة الظالمة.

وهكذا يكون الأمر عندما يكون الصراع بين الحقّ والباطل، والإسلام والجاهلية، وليس بين فرد وفرد على شأن من شؤون الدنيا، أو بين عشيرة وأُخرى، أو بين دولة ودولة على قطعة من الأرض أو نهر من الماء.

وأولياء الثأر في مقتل الحسين، على هذا التعريف ثلاثة:

الثائر الأوّل: هو الله تعالى، ولي الذين آمنوا: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[1].

وقد وردت في زيارة الحسين عليه السلام هذه الكلمة: **«السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»**.

ومعنى ثار الله، ان الله تعالى هو الذي يتولّى الثأر لهذا الدم من القتلة، كما أن الله تعالى هو الذي يتولّى الثأر لدم أبيه من قبل: **«ثار الله وابن ثاره»**.

وهذا المفهوم ينبع من الفهم الشمولي الإسلامي (للتاريخ) و(المجتمع) و(الصراع).

والثائر الثاني: هو عميد هذه الأُسرة، حفيد الحسين عليه السلام الذي بشّر بظهوره رسول الله صلى الله عليه وآله، فيما اتفق عليه المسلمون وهو المهدي من آل محمد عجّل الله لنا فرجه، إذا ظهر يخاطب البشرية، فيقول: **«يا أهل العالم، إنّ جدي الحسين عليه السلام قتل عطشاناً»**[2].

والثائر الثالث: عامّة المؤمنين الصالحين من أعضاء هذه الأُسرة الكبيرة، وأُولئك هم السائرون على خط الحسين عليه السلام، والذين يتمنون صادقين لو كانوا مع الحسين عليه السلام، وأُولئك هم الذين يرثون هذا الميراث عن الحسين عليه السلام كما ورث الحسين عليه السلام هذا الميراث عن سلفه من الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام.

٣ ـ والسؤال الثالث: مَن هُم القتلة الذين نثأر منهم؟

وبنفس المقياس نستطيع أن نفهم القتلة الذين نثأر منهم. إن من الخطأ بناءً على المقياس الحضاري السابق، في فهم التاريخ والمجتمع والصراع؛ أن نحصر القتلة في الذين قاتلوا الحسين عليه السلام في كربلاء عام (٦١ هـ)، إنّ القتلة أُمة كبيرة من الناس في التاريخ والمجتمع، وتلك الشريحة التي حضرت كربلاء، لا تزيد على أن تكون شريحة ممثلة لهذه الأُمة.

ولهذه الأُمة ثلاث أبعاد ترسمها زيارة (وارث) المشهورة بشكل دقيق:

«لعن الله أُمة قتلتك، ولعن الله أُمة ظلمتك، ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) إلزام الناصب للحائري ١: ١٣٨. وشجرة طوبى للشيخ محمد مهدي الحائري٢/ ٢٣٩.

فهم ثلاثة طوائف:

الطائفة الأولى: الجماعة التي حضرت كربلاء عام (٦١ هـ) لقتال الحسين وهم جماعة محدودة بطبيعة الحال.

و**الطائفة الثانية**: الجماعة التي أسندت ودعمت وأيّدت أُولئك القتلة، وهؤلاء هم الذين مارسوا ظلماً للحسين عليه السلام، وهم جماعة أوسع من الجماعة الأُولى.

و**الطائفة الثالثة**: الجماعة التي رضيت بفعلهم، وهم جماعة واسعة لا ينتظمها مكان ولا زمان، وإنّما هم على أمتداد التاريخ والجغرافيا.

إذن، فإنّ القتلة يشكّلون خطّاً من الولاء والبراءة والثقافة في التاريخ ولا يمكن حصرهم في الذين حضروا كربلاء لقتال الحسين في محرم سنة (٦١ هـ)، كما أن الثائرين للحسين عليه السلام يشكّلون خطاً من الولاء والبراء والانتماء والثقافة في التاريخ.

إذن فإن الأُسرة المعتدية ليست هي الأسرة التي وُليت القتل، وإنّما يشترك معهم في الجريمة وينتمي إليهم كل من رضي بالجريمة منذ ذلك اليوم.

وعندما نقول في زيارة الحسين عليه السلام (في يوم عاشوراء): «**رزقنا الله ثأركم مع إمام منصور**» نقصد بالثأر ومن نثأر منهم هذا المعنى الشامل الواسع.

وهذا المفهوم يبلور درجة عالية من وعي التاريخ والمجتمع، والولاء والبراءة. وهذه الأُمة قائمة في كل مكان وفي كل زمان، وما دامت هذه الأُمة قائمة في واقع حياة الناس، فإنّ الصراع بين الحق والباطل قائم، والفتنة قائمة.

٤ ـ كيف يكون الثأر؟

وهذا هو السؤال الرابع والأخير؟

إنّ الثأر هنا ليس فقط انتقاماً من القتلة الذين حضروا كربلاء، ولا الظالمين الذين أسندوهم يومئذ فأُولئك في الدرك الأسفل من النار.

وإنّما هو انتصار خط على خط، وحضارة على أُخرى، وثقافة على ثقافة.

إنّ الصراع من صراع الحضارات والولاءات والثقافات، ولذلك، الثأر يكون من نوع الصراع، إنّ الحسين عليه السلام لم يخرج ليطلب سلطاناً وملكاً لنفسه وللجماعة التي رافقته، وإنّما خرج ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولذلك فإنّ الثأر في الانتصار للمعروف على المنكر، وفي ازالة المنكر، وتصفيته عن وجه الأرض. وهي قضية واسعة شاملة.

ومقتل الحسين عليه السلام حلقة من سلسلة طويلة من الجرائم التي ارتكبها أئمة الجور لإعاقة حركة التوحيد والعدل والمعروف على وجه الأرض، ولكن الله تعالى شاء أن يجعل من مصرع الحسين عليه السلام رمزاً لصراع الحقّ والباطل، وان تكون ثارات الحسين عليه السلام رمزاً لثأر الصالحين من الظالمين في التاريخ.

ولا يزال أئمة الجور يعملون لإعاقة حركة التوحيد والمعروف في التاريخ، ويقتلون العاملين بالمعروف، ولا يزال الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر يواجهون هذه العوائق بالعمل والتضحية، ولا يزال الصراع قائماً، وتتوالى حلقات النصر في التاريخ، وكل انتصار للحق على الباطل يحقّق شطراً من هذا الثأر حتى يرث الصالحون كل مواقع القوّة على وجه الأرض من الظالمين: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] وذلك عندما يظهر الإمام المهدي من آل محمد عليه السلام، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً وتوحيداً، كما تواترت بذلك روايات الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وذلك هو خاتمة الثأر، والإمام المهدي عليه السلام خاتمة الثائرين في التاريخ ينصره الله على الباطل نصراً مبيناً كاملاً.

وهذه الرؤية الشاملة للصراع والنصر والثأر والميراث رؤية مقتبسة من القرآن يطول شرحها، ونكتفي الآن بما بنينا من أصول الرؤية القرآنية للتاريخ والمجتمع.

* * *

وهذه هي المرحلة الثالثة من شهادة الحسين عليه السلام في كربلاء: تضحية نادرة، يتبعها خطاب، وينتهي إلى الثأر من الظالمين.

ولا تزال حلقات الخطاب والثأر تتتابع وتتلاحق منذ مصرع الحسين عليه السلام بكربلاء إلى اليوم.

وفي كل انتصار للحق على الباطل يتحقق شطر من هذا الثأر العظيم، حتى يرث الصالحون الأرض ومن عليها، فيتحقق الثأر بالكامل لدماء شهداء كربلاء، على أعدائهم، ولكل الدماء التي أُريقت في الدفاع عن التوحيد والعدل والمعروف على يد الظالمين.

---

(١) سورة الانبياء: ، الآية ١٠٥.

تفصيل المرحلة الثانية من مراحل الثورة الحسينية

ـ الخطاب ـ

والآن بعد هذه الجولة في المراحل الثلاثة للشهادة نتحدث إن شاء الله بتفصيل عن المرحلة الثانية لشهادة الإمام الحسين عليه السلام، وهي مرحلة الخطاب.

وسوف نجد في دراسة هذه المرحلة: إنّ الطاغية يدرك أهمية هذه المرحلة وحساسيتها فهماً دقيقاً ويدرك أن الصراع لم ينته في مرحلة القتل والتصفية الجسدية للشهداء، وأن خطر هذه المرحلة عليه أشدّ من خطر المرحلة الأُولى، ولئن خسر المعركة في هذه المرحلة، فسوف يخسر عرشه وسلطانه بالكامل، ويُعدُّ إعداداً كاملاً لخوض المعركة في هذه المرحلة لإخماد صوت الشهيد وخطابه، وخطاب الشهود الذين يخلفون الشهيد، كما قضى على أشخاصهم من قبل.

ولكن الله تعالى يفشل الطاغية فشلاً ذريعاً، ويحبط مكره وكيده وعمله، ويعود عليه بالخسران والخيبة.

فلننظر إلى تفاصيل هذه المرحلة لشهادة الحسين عليه السلام.

المرحلة الثانية من مراحل الثورة: الخطاب

وتمتد مرحلة الخطاب من اليوم الذي يلي يوم عاشوراء، إلى اليوم الحاضر، وسوف يمتدُّ هذا الخطاب حتى يستنفذ هذا الخطاب أهدافه، وذلك عند قيام خاتم الثائرين من آل محمد عليه السلام بالمرحلة الأخيرة من الثأر لدماء الشهداء في الطف.

والعلاقة بين (الخطاب) و(الشهادة) كالعلاقة بين الثأر والخطاب، علاقة طبيعية في دائرة سنن الله في التاريخ والمجتمع، ذلك أن التضحية الصادقة من الشهيد تهزُّ كل وتر في ضمير الإنسان، وتهزّ الإنسان من الأعماق، وتذيب جليد الجمود والركود في النفوس، إنّ صدق الشهيد وشجاعته والملحمة المأساوية التي يصنعها بدمه تبعث الصدق والشجاعة والاقدام في نفوس الآخرين.

وهنا يتحول (الدم) إلى (الخطاب) ويتحول (الخطاب) إلى (الدم)، ولا يزال هذا التعامل والتداول المتبادل بين الخطاب والدم يجري في حركة صاعدة حتى يتم الثأر، وهو سر علاقة الثأر بالخطاب... فإنّ الخطاب لا يزال يمنح الناس الوعي والنضج والصدق، ولايزال يتدفّق من الخطاب الدم، ومن الدم الخطاب، حتى يستأصلا الظلم والظالم من الجذور، وهذا هو الثأر الذي قلنا أنه المرحلة الثالثة والأخيرة من الشهادة.

ومحتوى هذا الخطاب ثابت دائماً.

الدعوة إلى توحيد الله بالعبودية والطاعة والعبادة والاستعانة والتشريع والولاية والسيادة، ورفض كل ولاية وحاكمية وسيادة ودين ونظام في حياة الإنسان من غير إذن الله وأمره والدعوة إلى العدالة ومكافحة الظلم والظالمين والطاغوت.

ولكن آليّات هذا الخطاب وأشكاله تختلف من حين إلى حين ومن حال إلى حال. وأبرز هذه الآليات في الخطاب الحسيني بعد عاشوراء، مجالس النياحة والعزاء، والمنبر، والشعر الرثائي، والاحتفاء بزيارة الحسين عليه السلام والأطوار الشعبيّة الدارجة المعبّرة في الأوساط الشيعية في النياحة والعزاء والزيارة.

ولا إشكال أنّ الرثاء والإلمام بالجانب المأساوي من حادث الطف جزء لا يتجزأ من الخطاب الحسيني، منذ اليوم الحادي عشر من المحرم عام (٦١هـ) إلى اليوم، وان الغاء هذا الجانب يساوي الغاء كل الخطاب الحسيني، ولا اشكال أن الاقتصار على الجانب المأساوي من هذا الخطاب يؤدّي إلى تعطيل دور هذا الخطاب في حياتنا السياسية والثقافية، وتحرمنا بركات هذا الخطاب وآثاره.

وقد كان هذا الخطاب كان ولا يزال موضع مقت وكراهية الحكّام الجائرين منذ مقتل الحسين عليه السلام إلى اليوم.

ولست أدري ماذا يجد هؤلاء الحكّام في الخطاب الحسيني من تهديد مبطّن أو ظاهر لعروشهم وسلطانهم وأساليبهم، فلا يطيقون هذا الخطاب، ولا تقرّ لهم عين إلّا بالقضاء الكامل على هذا الخطاب.

وقد بلغ هذا المقت والكره حدوداً غريبة لا يألفها الحكّام في أمثال هذه الأُمور، فقد أمر هارون العباسي بكرب قبر الحسين عليه السلام ومنع الزائرين، وعقوبتهم، كما أمر المتوكل العباسي بكرب قبر الحسين عليه السلام للمرة الثانية وعقوبة الوافدين من البلاد لزيارة الحسين عليه السلام، وتعاقبت

الرقابة المشدّدة على زيارة الحسين عليه السلام منذ العصر الأُموي حتى العصر العباسي، ولا نعرف في التاريخ محاربة للزيارات مثل هذه الحرب الضارية التي أعلنها الحكّام من بني أُمية وبني العباس على زوّار قبر الحسين عليه السلام، ويقابل هذا الكره والمقت المتزايد إقبالاً وإندفاعاً وحُبّاً من ناحية الجمهور للحسين عليه السلام وللخطاب الحسيني، وحزناً على مصرعه بالصورة المشجية التي حصلت في كربلاء، وبراءة من أعدائه الذين قاتلوه، ومن الذين يوالونهم عبر القرون.

قصة أبي بكر بن عياش والطاغية موسى بن عيسى

ولست أدري ماذا أودع الله في هذا الخطاب وفي هذه التضحية من التأثير والقوّة في اجتذاب الجمهور واستقطاب المشاعر والأحاسيس، فإنّ هذا الخطاب وتلك التضحية تزداد تألقاً وتأثيراً في الجمهور عاماً بعد عام، ولست أعرف في تاريخ الإسلام حدثاً يملك هذا التأثير والقوّة والخطاب القوي المؤثّر مثل عاشوراء.

وقد شاء الله أن يجعل من حادث (الطف) رمزاً للتضحية والإخلاص لله ومقاومة الظالمين، ولهذا السبب يحمل خطاب الطف قوّة وتأثير كل خطاب في تاريخ الإسلام من هذا القبيل.

ويعجبني أن أروي هذه القصة التي يرويها ابن الشيخ الطوسي في الأمالي عن والده الشيخ أبي جعفر الطوسي رحمه الله مسنداً عن يحيى بن عبد الحميد الحمّاني قال: خرجت ـ أيّام ولاية موسى بن عيسى الهاشميّ للكوفة ـ من منزلي فلقيني أبو بكر بن عيّاش فقال لي: امضِ بنا يا يحيى إلى هذا، فلم أدرِ مَن يعني، وكنت أُجلّ أبا بكر عن مراجعته، وكان راكباً حماراً له، فجعل يسير عليه وأنا أمشي مع رِكابه، فلمّا صرنا عند الدار المعروفة بدار عبد الله بن حازم، التفت إليّ وقال: يابن الحمّاني، إنّما جررتك وجشّمتك خلفي لأُسمعك ما أقول لهذا الطاغية، قال: فقلت: من هو يا أبا بكر؟ قال: هذا الفاجر الكافر موسى بن عيسى، فسكتُّ عنه ومضى وأنا أتبعه حتى إذا صرنا إلى باب موسى بن عيسى وبصر به الحاجب وتبيّنه، وكان الناس ينزلون عند الرحبة فلم ينزل أبوبكر هناك، وكان عليه يومئذ قميص وإزار وهو محلول الأزرار قال: فدخل على حماره وناداني: تعال يابن الحمّاني، فمنعني الحاجب فزجره أبوبكر وقال له: أتمنعه يا فاعل وهو معي؟! فتركني، فمازال يسير على حماره حتى دخل الإيوان فبصُر بنا موسى وهو قاعد في صدر الإيوان على سريره، وبجنبتي السرير رجال متسلّحون وكذلك كانوا يصنعون.

فلمّا أن رآه موسى رحّب به وقرّبه وأقعده على سريره، ومُنعت أنا حين وصلت إلى الإيوان أن أتجاوزه، فلمّا استقرّ أبوبكر على السرير التفت فرآني حيث أنا واقف فناداني فقال: ويحك، فصرت إليه ونعلي في رجلي وعليّ قميص وإزار، فأجلسني بين يديه، فالتفت إليه موسى فقال: هذا رجل تكلّمنا فيه؟ قال: لا ولكن جئت به شاهداً عليك، قال: في ماذا؟ قال: إني رأيتك وما صنعت بهذا القبر! قال: أيّ قبر؟ قال: قبر الحسين بن عليّ بن فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليهم أجمعين، وكان موسى قد وجّه إليه مَن كَرَبه وكرب جميع أرض الحائر وحرثها وزرع فيها الزرع، فانتفخ موسى حتى كاد أن يتقدّ ثم قال: وما أنت وذا؟ قال: اسمع حتى أُخبرك.

ثم ذكر لـه رؤيا طويلة تتضمن خروجه إلىٰ قومه بني غاضرة، وتعرّض عشرة خنازير عليه، وتخلّصه منها برجل من بني أسد، وسيره إلى نينوى وتشرّفه بالحائر الشريف، وأنّ على الباب منه جماعة كثيرة فأراد الدخول قالوا: لا تقدر على الوصول في هذا الوقت لأنه وقت زيارة إبراهيم خليل الله ومحمد رسول الله صلوات الله عليهما وآلهما ومعهما جبرئيل وميكائيل في رعيل[1] من الملائكة كثير، ثم انتبه وجرى لـه في اليقظة مثل ما رأى في النوم إلّا أنّ الخنازير كانت في اليقظة عشرة من اللصوص، وفي دخوله الحائر لم يكن إذن ولا حائر.

قال له موسى: إنّما أمسكت عن إجابة كلامك لأستوفي هذه الحمقة التي ظهرت منك، وتالله إن بلغني بعد هذا الوقت أنّك تحدّث بهذا لأضربنّ عنقك وعنق هذا الذي جئت به شاهداً عليّ، فقال له أبوبكر: إذن يمنعني الله وإيّاه منك، فإنّي إنّما أردت الله بما كلّمتك به، فقال له: أتراجعني يا ماصّ؟! وشتمه، فقال لـه: اسكت أخزاك الله وقطع لسانك، فأزعل[2] موسى على سريره ثم قال: خذوه، فأخذوا الشيخ عن السرير وأُخذت أنا، فوالله لقد مرّ بنا من السّحب والجرّ والضرب ما ظننت أننا لا نُكثر الإحياء أبداً، وكان أشدّ ما مرّ بي من ذلك أن رأسي كان يجرّ على الصخر، وكان بعض مواليه يأتيني فينتف لحيتي وموسى يقول: اقتلوهما ابنَيْ كذا وكذا ـ بالزاني ولا يكنّي ـ وأبوبكر يقول لـه: امسك قطع الله لسانك وانتقم منك، اللّهمّ إيّاك أردنا ولولد نبيّك غضبنا، وعليك توكّلنا، فصير بنا جميعاً إلى الحبس فما لبثنا في

(١) الرعيل: القطعة من الخيل.
(٢) أزعله: أي أزعجه.

الحبس إلّا قليلاً، فالتفت إليّ أبوبكر ورأى ثيابي قد خُرقت وسالت دمائي فقال: يا حمّاني، قد قضينا لله حقّنا واكتسبنا في يومنا أجراً ولن يضيع ذلك عند الله ولا عند رسوله[1].

ولعلّه لذلك كان شعار الطف شعار لكثير من الثورات التي حدثت في التاريخ الإسلامي في العهدين الأُموي والعباسي، وبعدهما إلى عصرنا الحاضر.

وقد تحوّل هذا الخطاب إلى ثقافة ومواقف سياسية وحركية وإلى حركات وثورات وانتفاضات في التاريخ.. ولم يزل لهذا الخطاب دور وتأثير فاعل في نفوس الناس، وفي واقعهم السياسي إلى هذا اليوم.

ولا تزال الأجيال تتسلّم هذا الخطاب جيلاً بعد جيل، فقد انتقل الخطاب في المرحلة الأُولى بعد عاشوراء من ذمة الشهداء إلى ذمة الشهود الذين شهدوا مصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه وشهدوا الصراع على أرض الطف في يوم عاشوراء، شهدوا المعركة أم غابوا عنها.

وقد بذل الشهيد كل ما آتاه الله في أداء الرسالة ولم يدّخر لنفسه مالاً وولداً وجاهاً، إلّا وبذله لله باخلاص.. فيخلفه الشاهد على أداء الرسالة بإذن الله.

وسوف نرى في هذا الحديث كيف تسلّم الأجيال مسؤولية هذا الخطاب جيلاً بعد جيل.

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ١ : ٣٢٩ ط النجف.

مراحل الخطاب الحسيني
بعد يوم عاشوراء

نستطيع أن ننظم أهم مراحل الخطاب في الفترة الأُولى بعد مصرع الحسين عليه السلام بالشكل التالي، حسب ما نقرأه في التاريخ.

المرحلة الأُولى في الكوفة.

المرحلة الثانية في الشام.

المرحلة الثالثة في المدينة المنوّرة.

ثم تشعّب الخطاب وتوسعت دائرته وتجاوز العراق والحجاز والشام وشمل العالم الإسلامي كلّه، ولم يتمكن بنو أُمية، رغم كل الجهد السياسي والاعلامي والارهابي الذي بذلوه من ايقاف مدّ هذا الخطاب.

المرحلة الأُولى من خطاب الثورة الحسينية:
في الكوفة

نظم ابن زياد طائفة من المشاهد للتشهير بأهل البيت عليهم السلام نفذ منها ثلاثة، ولم يتمكن من تنفيذ الباقي، وغُلب على أمره.

المشهد الأوّل

كان المشهد الأوّل في مدخل الكوفة، ويبدو أن ابن زياد قد أعدّ لاستقبال رؤوس الشهداء وسبايا آل رسول الله صلى الله عليه وآله مشهداً حافلاً للتسقيط والتشهير بهم في مدخل المدينة، وطلب من الناس أن يخرجوا خارج الكوفة لاستقبال الرؤوس والسبايا. وقد شهد هذا المشهد جصّاص كان ابن زياد قد كلّفه بتجصيص بعض أروقة قصره... يقول:

(بينما أنا أُجصص، وإذا بالزعقات قد ارتفعت من جميع الكوفة، فأقبلت على أحد خدّام القصر، فقلت له: مالي أرى الكوفة تضجّ؟

فقال: الساعة يأتون برأس خارجي على يزيد.

فقلت له: ومَن هذا الخارجي؟

فقال: الحسين بن علي.

يقول فتركت الخادم حتى خرج، وأخذت ألطم على وجهي حتى خشيت على عينيّ أن تذهبا، وغسلت يديّ من الجص، وخرجت من القصر حتى أتيت إلى الكناس، فبينا أنا واقف والناس يتوقعون وصول السبايا إذ أقبل أربعون جملاً يحمل النساء والأطفال، وإذا بعلي بن الحسين على بعير بغير وطاء، وهو يبكي ويقول:

يا أُمة السوء لا سقياً لرعيكم — يا أُمة لم تراع جدّنا فينا

لو اننا ورسول الله تجمعنا — يوم القيامة ما كنتم تقولونا

تسيرونا على الأقتاب عارية   كأننا لم نشيّد فيكم دينا[1]

يقول المحدث القمي ﷺ في نفس المهموم:

قد ثبت عن الرواة الثقاة ان عمر بن سعد لعنه الله حمل ودائع خير الأنبياء على الجمال بلاغطاء ولا وطاء، فساقوهنّ كما تساق الأُسارى، فلمّا وردوا الكوفة أمر ابن زياد أن يستقبلوهنّ برأس الحسين عليه السلام فحملوا الرأس الشريف على الرمح، وفعلوا برؤوس الباقين ذلك، وسلكوا بها قدّام القوم حتى وردوا البلد، ثم طافوا بالرؤوس الشريفة في السكك والأسواق[2]. كما ورد في الفتوح لابن أعثم[3].

وكان هذا أوّل رأس حمل في الإسلام[4] أو ثاني رأس كما يروى، يقول المحدث القمي في نفس المهموم[5]:

يقول ابن طاوس، فلمّا قاربوا الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهنّ (السبايا)، فأشرفت امرأة من الكوفة، فقالت: من أيّ السبايا انتنّ، فقلن: نحن من سبايا آل محمد، فنزلت المرأة، فجمعت لهنّ ملاءة (ملاحف) وازاراً ومقانع، واعطتهنّ ليغطين رؤوسهن[6].

خطاب السيّدة زينب لأهل الكوفة

قال بشير بن حذلم (خُزيم) ونظرت إلى زينب ابنة علي يومئذ، فلم أر خفرة انطق منها، كأنّها تفرغ من لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا فارتدّت الأنفاس وسكنت الأجراس ثمّ قالت:

«الحمْدُ للهِ والصّلاةُ عَلى أبي (جَدّي) مُحمّد وَآله الطّيّبين الأخْيار.

أما بَعْدُ، يا أهْلَ الكُوفَةِ، يا أهْلَ الخَتْلِ والغَدْرِ! أتَبْكُون؟! فَلا رَقَأتِ الدّمْعةُ، وَلا هَدَأتِ الرَنّةُ، إنّما مَثَلُكُم كَمَثَلِ الّتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوّة أنكاثاً، تَتَخّذونَ أيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ.

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣: ٣٣٣، للشيخ باقر القرشي نقلاً عن مخطوطة مقتل الحسين عليه السلام لعبد الله نور الله.

(٢) نفس المهموم: ٤٠١ ـ ٤٠٢، تحقيق الشيخ رضا استادي.

(٣) الفتوح لابن أعثم ٥: ٢٢١.

(٤) كشف الغمة ٢: ٢٣٧.

(٥) نفس المهموم: ٤٠٢، ويروي ذلك كما في الهامش ابن الأثير في الكامل ٤: ٨٣.

(٦) اللهوف لابن طاووس: ١٧٢.

ألا وَهَلْ فِيكُمْ إلّا الصَّلِفُ النَّطَفُ وَالصَّدْرُ الشَّنَفُ وَمَلَقُ الإماءِ، وَغمْزُ الأعْداءِ؟ أو كَمَرْعىً عَلى دِمْنَة، أو كَفِضَّة عَلى مَلْحُودَة، ألا ساءَ ما قَدّمَتْ لَكُمْ أنفُسُكُم أنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَفي العَذابِ أنْتُمْ خالِدُونَ.

أتبكُونَ وَتَنْتحِبُونَ؟! إيْ واللهِ فَأبكُوا كَثيراً، وَاضْحَكُوا قَليلاً، فَلَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِعارِها وَشَنارِها، وَلَنْ تَرْحَضُوها بِغُسْل بَعْدها أبَداً، وأنّى تَرْحضُون، قَتْلَ سَليلِ خاتِمِ النُّبوَةِ، وَمَعْدِنِ الرّسالَةِ، وَسَيّدِ شَبابِ أهلِ الجنّة وَمَلاذِ خيرَتِكُمْ وَمَفْزَعِ نازِلَتِكُمْ وَمَنارِ حُجّتِكُمْ وَمِدْرَةِ سُنّتِكُمْ.

ألا ساءَ ما تَزِرُونَ، وَبُعْداً لَكُمْ وَسُحْقاً. فَلَقَدْ خابَ السّعْيُ وَتَبّتِ الأيْدي وَخَسِرَتِ الصَفْقَةُ وَبُؤْتُمْ بَغَضَب مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذّلّةُ والمَسْكَنَةُ.

وَيْلَكُمْ يا أهلَ الكُوفَةِ! أتدرُونَ أيَّ كَبِد لِرَسُولِ اللهِ فَرَيْتُمْ؟ وَأيَّ كَرِيمَة لَهُ أبْرَزْتُمْ، وأيَّ دَم لَهُ سَفَكْتُم؟ وأيَّ حُرْمَة لَهُ إنْتَهَكْتُمْ؟! لَقَدْ جِئْتُمْ بِها صَلْعاءَ عَنْقاءَ سَوْداءَ فَقْماءَ (وفي بعضها) خَرْقاءَ شَوْهاءَ كَطِلاعِ الأرْضِ أوْ مِلاءَ السَّماءِ.

أَفَعَجِبْتُمْ أنْ مَطَرَتِ السّماءُ دَماً، وَلَعَذابُ الآخِرِةِ أخزى، وَأنْتُمْ لا تُنْصَرُونَ، فَلا يَسْتَخِفَنّكُمُ المُهَلُ فإنّهُ لا يَحْفِزُهُ البِدارُ، وَلا يَخافُ فَوْتَ الثّأْرِ وَإنَّ رَبّكُمْ لَبِالمِرْصادِ...».

قال الراوي: فوالله لقد رأيت الناس يؤمئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتّى اخضلّت لحيته وهو يقول: «بأبي أنتم وأُمي! كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونسائكم خير النّساء ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يُبزّى»[1].

تأمّلات في خطاب السيدة زينب عليها السلام

إنّ خطاب السيدة زينب عليها السلام كان يومئذ يتدفق كالشلال الهادر الذي ينحدر من قمة الجبل، يجرف معه ما يواجهه من الصخور، والأحجار، التي يقتلعها عن مستقرّها لا يصده شيء، ويرغمك أن تفتح لـه سمعك وقلبك... كذلك كان تأثير هذا الكلام يومئذ على ذلك الجمهور الغفير الذي جاء متفرجاً على مأساة أهل البيت عليهم السلام، وليس متعاطفاً، كما يتفرج الناس على أي مشهد يثير فضولهم... فارغمهم الخطاب ان يعدلوا عن هذا الموقف إلى

---

(١) اللهوف لابن طاوس: ١٧٦.

التعاطف والتفاعل، وأبكاهم فاجهشوا بالبكاء، وارتفع نحيبهم وصراخهم، وهزّهم من الأعماق. لقد احبطت السيدة زينب عليها السلام بكلماتها كل الجهد الذي بذله الطاغية في إدارة وإعداد هذا المشهد الاعلامي.

إنّها كانت حمماً، وليست كلمات، قذفتها ابنة علي والزهراء عليهما السلام على كل ما شيّده طاغية بني أمية في الشام وعاملهم في الكوفة فهدمت كلما صنعوا من مجد كاذب وغرور وكبرياء وسلطان.

ولست أدري ماذا أودع الله تعالى في خطابها واشاراتها، من التأثير والنفوذ والقوة يومئذ، عندما أشارت إلى ذلك الجمهور المتفرّج اللاغط: إن اسكتوا، فسكنت الأنفاس والأجراس، كما تقول الرواية.

وليس لنا أن نتوقف بالتأمّل في كلمات ابنة الزهراء عليها السلام ووارثة علم علي عليه السلام وشجاعته وبلاغته، ومن الخير أن نمضي مع هذا السيل الجارف المتدفق من الخطاب الزينبي الهادر، ولا نشوّش على القارئ هذه الفرصة، حتى يرتوي من الخطاب كما يحب ويشتهي.

ولكن أجد من النافع أن أشرح بعض مقاطع هذا الخطاب ليعرف القارئ خلفياته في القرآن والحديث والتاريخ. وإليك طائفة من هذه النقاط، معتذراً إلى سيدة نساء كربلاء وابنة سيدة نساء العالمين عليها السلام.

١ ـ الشجب والتأنيب والتقريع

كان أهل البيت عليهم السلام عند دخولهم إلى الكوفة بعد مأساة كربلاء، بتلك الحالة المزرية، يتحدثون إلى أهل الكوفة بمرارة وألم، لا نعرف في تاريخ أهل البيت عليهم السلام مثله قط، وكانوا يؤنّبون أهل الكوفة، ويشجبون تخاذلهم عن نصرة الحسين عليه السلام وغدرهم، وقعودهم عنه، بل خروجهم لقتال الحسين عليه السلام ومشاركتهم في محاربته.. أشدّ ما يكون الشجب والتقريع بعدما دعوه وكاتبوه، ووعدوه أن ينصروه ويقفوا معه، وتواترت إليه عليه السلام كتبهم، فتقول ابنة عليّ عليه السلام بحرقة وبألم، ما بعده ألم:

«يا أهل الكوفة يا أهل الختل والخذل (الغدر)».

وعندما رأتهم يتصارخون بالبكاء قالت لهم:

«أتبكون فلا رقأت الدمعة».

وتقرّعهم بما جنت أيديهم من الجريمة التي تخر الجبال لها هداً، فتقول:

«أتدرون، ويلكم أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم لـه سفكتم، وأي حرمة لـه انتهكتم، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾.

ويتكرر هذا التأنيب والتقريع والشجب بكل ما تحمل الكلمة من حرقة وألم وأذى في كلمات الإمام علي بن الحسين عليه السلام وفاطمة الصغرى والسيدة أُم كلثوم عليها السلام في أوّل لقاء التقوا أهل الكوفة وجهاً لوجه.

وعندما ارتفع نحيبهم واجهشوا بالبكاء ندماً وحسرة، قالت لهم:

«أتبكون وتنتحبون، أي والله، فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً».

ولسوف يطول بكاؤكم، ويقل فرحكم وسروركم، ولن تغلسوا عار تلك الجريمة، وأنّى تغسل الدموع عار تلك الجريمة التي شاركوا فيها ودخلوها، وتخاذلوا فيها عن الحسين عليه السلام ونصرته، واصطفّوا مع اعدائه، رَهَباً أو رَغباً.

سبحان الله! ما هذه بكلمات، ولكنها أفلاذ من كبد الحوراء، بنت فاطمة عليها السلام، تتقطّع حسرة وألماً في هذه المأساة التي سجلها الله تعالى في ذاكرة التاريخ ليعرف الأجيال التي تأتي فيما بعد، بأيّ ثمن حفظت هذه الثلة من أهل البيت عليهم السلام الإسلام في تلك البرهة الصعبة من التاريخ.

٢ ـ عاقبة الخذلان

ولن يطول الأمر بالذين تركوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وحده، في مقابلة عدوان بني أُمية وبطشهم، وانتهاكهم لحرمات الله، فلم يغضبوا لله، ولم يضربوا معه بسيف، وخذلوه وخانوه، وصفوا مع الطاغية، وتعاونوا معه على قتله، وهو يدعوهم إلى الله، والطاغية يدعوهم إلى النار...

فلن يطول بهم الأمر حتى يذلهم الله على يد طغاة بني أُمية الذين آثروا نصرهم والوقوف معهم على الانتصار للحسين عليه السلام، وهذه سنن الله عزّ وجلّ تلقيها عليهم الحوراء زينب عليها السلام في ذلك المشهد العجيب، بعد عودتها من مأساة كربلاء... فلن يطول بهم الزمان حتى يحكمهم الحجّاج بالسيف والقهر والذل والبطش، ويذلهم ببطشه، ويسفك دماءهم.

وكأنما ترى الحوراء في ذلك اليوم بطش الحجاج بهم وإذلاله لهم، بعد أن تخاذلوا عن نصرة أخيها بكربلاء وهو يدعوهم إلى الله ورسوله «**فتعساً ونكساً، وبعداً لكم، وسحقاً، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة**».

إنّ السيوف التي غُمدت عن نصرة الحسين عليه السلام سُلّت بعد ذلك لقتال الحسين عليه السلام جنباً إلى جنب مع الطاغية يوم عاشوراء، ثم لم تطل بهم العافية التي طلبوها في الدنيا بجانب بني أُمية، حتى استبدّ بهم طغاة بني أُمية وحكمهم الحجّاج فأكثر فيهم القتل وانتهك حرماتهم، وأراهم الرعب والخوف والذل والبطش.

وتتنبأ الحوراء زينب عليها السلام بهذه العاقبة لأُولئك الناس يومئذ، حينما تقول:

«وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

٣ ـ التعميم في الخطاب

ممّا يلفت النظر في هذا الخطاب التقريعي أنّ السيّدة زينب عليها السلام تعمّم التقريع والتأنيب بقتلهم للحسين عليه السلام على الحاضرين الذين استقبلوهم بظهر الكوفة، والمشاركين في قتال أخيها على نحو سواء فتقول:

«أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة لـه أبرزتم، وأي دم لـه سفكتم، وأي حرمة لـه انتهكتم. فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً».

ولم يكن في ذلك الجمهور نفر كثير ممن شارك في قتل الحسين عليه السلام، فإنّ الجلاوزة جاؤوا بأهل البيت عليهم السلام والرؤوس الشريفة قبل عودة الجيش إلى الكوفة، على أننا نستبعد أن يكون هؤلاء الذين استقبلوا أهل البيت عليهم السلام بالبكاء والنحيب ممن تلطّخت أيديهم بدماء شهداء الطف.

فمن ذا تخاطب الحوراء عليها السلام بهذه الكلمات الأليمة الشديدة.

إنّ هذا الخطاب، كما هو ظاهر لا يخص الذين تولّوا قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام، وإنّما يشمل جمهوراً كبيراً من أهل الكوفة، الذين تخاذلوا عن نصرة الحسين عليه السلام، ورضوا بمقتله ولم يغضبوا لقتل الحسين عليه السلام، هؤلاء يشملهم هذا الخطاب، وملاك التعميم هو الرضا والسخط.

فإنّ الرضا والسخط يجمعان الناس الذين يجمعهم الرضا والسخط، وان تباعدت أزمانهم وبلادهم ويبعّدان الناس الذين يفرّقهم الرضا والسخط، وإن تقارب مكانهم وزمانهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيّها الناس إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة من الأرض الخوارة»[1].

إنّ هؤلاء الناس رضوا بقتل الحسين عليه السلام، حتى الذين لم يشاركوا منهم في قتال الحسين عليه السلام وأصحابه يوم عاشوراء، وآية هذا الرضا انّهم لم يسخطوا ولم يغضبوا، ولم يثوروا بوجه الطاغية، ولم يتلاوموا فيما بينهم على تخاذلهم عن دعوة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نستثني منهم إلّا (التوّابين) الذين عادوا إلى رشدهم فيما بعد، وتلاوموا وتعاهدوا على الثأر لدم الحسين عليه السلام، إذا فاتهم الانتصار للحسين عليه السلام.

روى محمد بن الأرقط قال: جئت إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام بالمدينة، قال: **«تنزل الكوفة؟** قلت: نعم. قال: **فترون قتلة الحسين بين أظهركم،** قلت: جعلت فداك ما رأيت أحداً منهم. قال: **فإذن أنت لا ترى القاتل إلّا من قتل أو وُلي القتل، ألم تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ:** ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فأي رسول قتل الذي كان محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم ولم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول. وإنّما رضوا قتل أُولئك فسمّوا قاتلين»[2].

ويشير الإمام عليه السلام في هذه الرواية إلى الآيات (١٨١ـ ١٨٣) من سورة آل عمران: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾.

فإنّ هؤلاء الذين ينسب الله تعالى إليهم القول بأن الله فقير ونحن أغنياء وقتلوا الأنبياء

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٢٠٧.

(٢) تفسير البرهان ١: ٣٢٨ ط. قم إسماعيليان. بحار الأنوار ٩٧/ ٩٥، ووسائل الشيعة ١٦/ ١٣١. وتفسير العيّاشي ١/ ٢٠٩.

بغير حق... قد قالوا هذه الكلمة، كما يثبتها المفسرون في شأن نزول هذه الآية، ولكن لم يقتلوا نبيّاً قط... وقد جاءت هذه النسبة إليهم بوضوح في موضعين من هذه الآيات، فأي نبي قتل هؤلاء، وبينهم وبين أنبياء بني إسرائيل عدّة قرون من الزمان... وإنّما الذي قتل الأنبياء من بني إسرائيل وأنكر نبوتهم وجحدهم سلفهم من اليهود.

والجواب: إنّ اليهود في عصر رسول الله ﷺ كانوا راضين بجرائم آبائهم، ولم يتبرّأوا منهم، ولم ينكروا عليهم، ولم يعلنوا رفضهم وبراءتهم عنهم، فنسب الله تعالى إليهم جرائم آباءهم في قتل الأنبياء.

وتشير السيدة زينب بطلة مأساة كربلاء إلى هذه الحقيقة.

فإنّ هؤلاء شاهدوا أبشع جريمة في عمل بني أُمية، وأنصع دعوة في تاريخ الإسلام في دعوة الحسين عليه السلام، فلم يقفوا مع الحسين عليه السلام ولم ينكروا على طغاة بني أُمية جريمتهم بحق الحسين عليه السلام وأصحابه، ولم يتبرأوا من فعلهم، ولم يعلنوا سخطهم وانكارهم وبراءتهم منهم، وآثروا العافية في كل ذلك على مرضاة الله، فسكتوا ورضخوا وخذلوا إمام المسلمين عليه السلام... ولا نستثني منهم إلّا الذين عادوا إلى رشدهم، وتابوا وأعلنوا غضبهم وخروجهم على بني أُمية بعد ذلك.

فتخاطبهم الحوراء بهذا الخطاب المؤلم الشامل، وبهذا التقريع الشديد العام:

«فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون.

ويلكم ياأهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم لـه سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟».

ثم تعمّهم بالدعاء بعد أن عمّتهم الجريمة:

«فتعساً، ونكساً، وبعداً لكم، وسُحقاً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

٤ ـ الإمهال في العذاب

وتنذرهم ابنة علي عليها السلام في هذا الخطاب بعذاب الدنيا وأليم عذاب الآخرة:

«أفعجبتم إن مطرت السماء دماً، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾».

وأي عذاب هذا العذاب؟ أن تمطر السماء دماً، ثم تنذرهم بأنّ عذاب الآخرة أشد وآلم.

ثم تنذرهم مرة أُخرى أن لا يغرّنهم، ولا يستخفّنهم تأجيل العذاب عنهم إلى حين، فإنّ الله تعالى يمهل ولا يهمل، تقول عليها السلام:

«فلا يستخفنكم المهل، فإنّه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثار، وان ربّكم لبالمرصاد».

ومن أشد ما يعاقب الله تعالى عباده أن يمهلهم ويستدرجهم إلى العصيان والإثم، ويملي لهم، ثم ينقضّ عليهم العذاب، فيأخذهم فجأة، ضحىً وهم يلعبون.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٢].

فتنذرهم عقيلة بني هاشم أن لا يستخفنهم الإمهال في العذاب، فإنّ الله تعالى لا يحفزه البدار، ولا يستعجل بعذاب عباده، وفي ذلك نقمة وعقاب لمن يستحق النقمة والعقاب فلا يتوب ولا يؤوب إلى رشده فيزداد إثما، ويستدرجه الإمهال إلى الامعان في العصيان والإثم.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إذا أراد الله عزّ وجلّ** بعبد خيراً، فأذنب ذنباً تبعه بنقمة يُذكِّره الاستغفار، وإذا أراد الله بعبد شرّاً فأذنب تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿...سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وما من عقوبة للأُمم التي استحقت العقوبة بالعصيان والإثم أشد من الاملاء والإمهال.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام في نهج البلاغة:

«**أيها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين، إنّه مَن وسّع عليه في ذات يده، فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولاً**»[٤].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٣) بحار الأنوار ٧٣: ٣٨٧.

(٤) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٥٨.

ويقول عليه السلام: **«كم من مستدرج بالاحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له»**[1].

ولم يطل الإملاء والإمهال الإلهي بهؤلاء القوم الذين انذرتهم ابنة الزهراء عليها السلام بعذاب الله في ذلك اليوم الرهيب طويلاً، فما مرّ عليهم سنون خمسة حتى سلّط الله تعالى عليهم المختار رحمه الله فتتبعهم ولاحقهم والتقطهم وعاقبهم تحت شعار: «الثأر من قتلة الحسين» ولم يسلم منهم إلّا القليل وأذاقهم الذل والخوف والرعب وحرّ الحديد، ولعذاب الآخرة آلم وأشد وأقسى.

ثم لم يمضِ بعد ذلك سنون حتى سلط الله عليهم الحجاج بن يوسف لعنه الله، فأذاقهم الذل والهوان والقتل وسلب منهم الأمان والعافية التي كانوا يطلبونها لدنياهم خذلوا الحسين عليه السلام، فعاقبهم الله بالحجّاج.

ثم توالت عليهم المحن والنكبات محنة بعد محنة ونكبة بعد نكبة، وتتابع عليهم طغاة بني أُمية طاغية بعد طاغية.

٥ ـ الإحباط

وتذكّرهم زينب عليها السلام بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾[2][3].

فقد نقض القوم كل ما شيّدوه وعملوه من قبل، وقد كان فيهم من وقف مع علي في الجمل وصفين والنهروان، ولكنهم نقضوا كل ذلك في عاشوراء عام (٦١ هـ) بخذلانهم للحسين عليه السلام ووقوفهم إلى جنب الطاغية وقتالهم للحسين عليه السلام، ورضاهم بقتالهم.

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١١٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٢.

(٣) النقض يقابل الإبرام، وهو بمعنى إفساد ما أحكم من حبل أو غزل. والنكث بمعنى النقض، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاً كان أو غزلاً، والآية الكريمة تمنعهم أن يكونوا كالمرأة التي تغزل ثم تعود فتنقض ما غزلت وتهدم ما بنت.

و(الدخل) كل ما دخل الشيء وليس منه، ويكنى به عن الخيانة والغدر، ومعنى الآية الكريمة لا تتخذوا إيمانكم وسيلة للغدر والخيانة تطيّبون بها النفوس ثم تخونون وتخدعون بنقضها. راجع تفسير الميزان١٢: ٣٥٨.

إنّ المحافظة على الأعمال الصالحة قد تكون أشق من أصل العمل، وليس بقليل الذين أحسنوا وأصلحوا، وعملوا الأعمال الصالحة، ثمّ أفسدوا أعمالهم وأبطلوها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٣٢ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[2].

وكما أن السيئات تحبط الحسنات، كذلك الحسنات تكفّر السيئات وتغطيها.

والقرآن يشير إلى كل من هذين: الاحباط والتكفير، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾[4].

فالأعمال، كالأشياء المادية، فيها بناء وهدم، وفيها إعادة بناء ما هدمه الإنسان، وهدم ما بناه.

إنّ السلوك الاجتماعي والسياسي والمالي في وسط المجتمع من أشق الأُمور، فقد يهدم الإنسان في موقف سياسي أو اجتماعي ما بناه وعمله في حياته.

وتنذرهم السيدة زينب عليها السلام، من أن يكونوا ممّن أحبطوا أعمالهم «**لا تكونوا كَالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثاً**»، وأن يتخذوا أيمانهم ومواثيقهم التي أعطوها للحسين عليه السلام من قبل عندما سألوه القدوم إليهم، دخلاً وأداة للغدر والخيانة.

وطالما يجدون فرصة للعودة والتوبة إلى الله فعليهم أن يعودوا ويتوبوا إلى الله عن الخذلان والتقصير، الذي حصل منهم تجاه دعوة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام.

ولئن كان في كلمات السيدة زينب عليها السلام تقريع موجع يعبّر عن آلام بطلة مأساة كربلاء...

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٤) سورة هود، الآية: ١١٤.

فإنّها عليها السلام تفتح لهم طريق العودة إلى الله مرة أُخرى، وأن يؤوبوا إلى أنفسهم، ويستغفروا الله، ولئن فاتهم أن ينصروا الحسين عليه السلام فلا يفوتهم أن يثأروا له وللكوكبة الصالحة التي خرجت معه، وأن ينتقموا من الظالمين الذين أكثروا الفساد في الأرض.

٦ ـ علاقة الكوارث الكونية بسيّئات الناس

نجد في كلام السيدة زينب عليها السلام إشارتين جديرتين بالتوقف والتأمّل في علاقة الكوارث الكونية والعذاب الإلهي النازل على الأرض بسيّئات الناس وذنوبهم.

فهي تخاطبهم منذرة إيّاهم من عذاب الله: «**ويلكم، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم لـه سفكتم،** ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾»[١].

ثم تقول بعد ذلك، وفي نفس السياق: «**ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض، وملأ السماء، أفعجبتم ان مطرت السماء دماً،** ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾».

الكوارث الكونية عند مصرع الحسين عليه السلام

وقد استفاضت الروايات إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد أخبر أُم المؤمنين أُم سلمة رحمها الله بمصرع الحسين عليه السلام وأودع عندها قارورة، وعرّفها أنها إذا فاضت دماً فهو علامة مصرع ولده الحسين عليه السلام... فلمّا خرج الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة ومنها إلى العراق كانت أُم سلمة تنظر إلى القارورة كل يوم، وتقول: إنّ يوماً تتحولين إلى دم ليوم عظيم.

فرأت رسول الله صلى الله عليه وآله في اليوم العاشر من المحرم في المنام أشعث، مغبرّاً، وعلى رأسه التراب، فقالت له: مالي أراك يا رسول الله مغبراً؟!

فقال لها: **قتل ولدي الحسين، ومازلت أحفر القبور لـه ولأصحابه،** فانتبهت من منامها مذعورة، فبادرت إلى القارورة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله علامة لها فإذا بها تفور دماً.

(١) سورة مريم، الآيتان: ٨٩ ـ ٩٠.

الآيات الكريمة من سورة مريم بصدد تهويل الشرك بالله، وأن بالشرك بالله تكاد السماوات أن تتفطر وتكاد الأرض أن تنشق وتكاد الجبال أن تسقط (تخر) هدّاً (أي هدماً) يعني تكاد أن تنهدم الجبال وتتساقط. و(الإد) الذنب الفظيع، وواضح أن الآية الكريمة بصدد التهويل، وتحسيس المشركين بهذه المظاهر الكونية المحسوسة على عظم الجريمة. ولكنها واضحة في علاقة العذابات الكونية كالزلازل والكوارث الكونية بسيّئات أعمال الناس وجرائمهم.

فنادت أُم سلمة: قتلوا الحسين، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، فأقبلت النساء عليها، وقلنّ لها: من أين علمت ذلك فأخبرتهنّ برؤياها، وتصارخت النسوة، حتى ضجت المدينة، وهذه الرواية معروفة وقد ذكرها جملة من المؤرخين»[١].

وقال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: «ومما ظهر يوم قتله عليه السلام من الآيات أيضاً أن السماء اسودّت، إسوداداً عظيماً، حتى رؤيت النجوم نهاراً، ولم يرفع حجر إلّا وجد تحته دم عبيط»[٢].

«وان السماء احمرت لقتله، وانكسفت حتى بدت الكواكب نصف النهار، وظن الناس ان القيامة قد قامت، ولم يرفع حجر في الشام إلّا رؤي تحته دم عبيط»[٣].

يقول السيد عبدالرزاق المقرّم في المقتل[٤]:

«أظلمت الدنيا ثلاثة أيام[٥] واسودت سواداً عظيماً[٦] حتى ظن الناس ان القيامة قامت[٧] وبدت الكواكب نصف النهار[٨] ولم ير نور الشمس»[٩].

والروايات التاريخية في ذلك متضافرة، تناقلها أئمة التاريخ

---

(١) منهم ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣ : ٨٥ و٤ : ٣٤٠، واليافعي في مرآة الجنان ١ : ١٣٤، وأحمد في (المسند) ١ : ٢٤٢، وابن الأثير في الكامل٤ : ٣٨، والخوارزمي في المقتل ٢ : ٩٥، والمحب الطبري في ذخائر العقبى: ١٤٨، والسيوطي في تاريخ الخلفاء: ١٣٩، وابن حجر في تهذيب التهذيب٢ : ٣٥٥. وابن الشيخ الطوسي في الأمالي ٣ : ٥٦، والطريحي في (المنتخب): ٢٣٥، والسيوطي في (الخصائص) ٢ : ١٢٦، ومصادر أُخرى أخذناها من مقتل الحسين عليه السلام للعلامة الفقيد السيد عبدالرزاق المقرّم رحمه الله: ٣٤٣.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٩٢.

(٣) الصواعق المحرقة: ١٩٢.

(٤) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٣٤٥، ونقلنا المصادر التالية عن هذا المصدر.

(٥) تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٩، والخصائص الكبرى ٢: ١٢٦، والخطط المقريزية ٢: ٢٨٩، وتذكرة الخواص: ١٥٥، والمقتل للخوارزمي ٢: ٩٠.

(٦) الإتحاف بحب الأشراف: ٢٤، وتهذيب التهذيب ٢: ٣٥٤، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٣٣٩.

(٧) الصواعق المحرقة: ١١٦ والإتحاف: ٢٤.

(٨) تهذيب التهذيب ٢: ٣٥٤، والصواعق المحرقة: ١١٦، وتاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٩، وتاريخ الخلفاء: ١٣٨.

(٩) مجمع الزوائد ٩: ١٩٧، تاريخ الخلفاء: ١٣٨، الكواكب الدرية ١ : ٥٦.

والسيرة، وحفّاظ الحديث النبوي، ولا نريد أن نسهب في هذا الأمر أكثر من هذا الحد.

الكوارث الكونية وعلاقتها بسيئات الناس في القرآن

والقرآن صريح وواضح بعلاقة الكوارث الكونية بسيئات أعمال الناس.

وإليك هذه الآيات من كتاب الله:

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[4].

ويقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾[6].

ويقول تعالى في قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾[7].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٣) سورة المؤمن، الآية: ٢١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٥) سورة الشمس، الآيات: ١١ ـ ١٥.

(٦) سورة الفجر، الآيات: ٦ ـ ١٤.

(٧) سورة نوح، الآية: ٢٥.

النعمة وعلاقتها بالتقوى

والعكس أيضاً صحيح، فكما تنزل الكوارث والنقم بسيئات أعمال الإنسان، كذلك تنزل النعم والخيرات والبركات على الأرض بحسنات أفعال الناس.

وكما تكون الآثام والمعاصي سبباً في نزول الكوارث من زلزال وصاعقة وفقر وبأس وابتلاء وأمراض وحروب كذلك تكون التقوى سبباً لنزول الرحمة، من لدن الله إلى الأرض، ويفتح الله تعالى على الناس بالتقوى بركات الأرض والسماء.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

والسنّة الإلهية العامة في هذا وذاك انّ الله تعالى لا يغير ما بالناس من نعمة ورحمة أو ابتلاء وشدّة إلّا بسيئات أعمالهم وحسناتها، فإذا حسنت أعمالهم أحسن الله إليهم، وإذا ساءت أعمالهم عاقبهم الله تعالى فساءت أحوالهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3].

وهاتان الآيتان واضحتان في الدلالة على العلاقة بين أحوال الناس وأوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين أعمالهم، فإذا ساءت أعمالهم ساءت أحوالهم وأوضاعهم، وإذا حسنت أعمالهم طابت وحسنت أوضاعهم وأحوالهم.

العلاقة بين العمل والجزاء

ولا نريد أن نترك هذا الحديث قبل أن نتطرق إلى القانون العام الشامل لكل ما ذكرناه، وهو علاقة العمل بالجزاء في المعايير الإلهية.

إنّ الجزاء الوارد في النصوص الإسلامية من كتاب وسنّة من قبيل نتائج الأعمال وآثارها التكوينية، وليست من قبيل العلاقة بين العمل والجزاء في الدنيا. فإنّ العلاقة بين العمل

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

والجزاء في الدنيا علاقة قانونية تدخل في دائرة التقنين والتشريع، ويختلف الجزاء من أُمة إلى أُخرى، حسب اختلاف القوانين والتشريعات، فقد تكون القوانين متسامحة في تقدير العقوبة، فتكون العقوبة هيّنة، وقد تكون القوانين متشدّدة فتكون العقوبة شديدة وقاسية.

ولكن الجزاء في الآخرة، عقوبة ومثوبة، من قبيل النتائج والآثار التكوينية للأعمال، ولا تدخل في حقل القرارات التشريعية... ومثل ذلك في الدنيا أن من لا يتحفظ على صحته ولا يحتمي يمرض. والمرض هنا نتيجة عدم الاحتماء، والتاجر الذي يهمل الحركة في السوق يصيبه الفقر والخسران. والفقر والخسارة نتيجة لانعدام السعي والحركة في السوق. والطالب الذي يكسل عن الدراسة ولا يجتهد في الدرس يفشل في الامتحان، والذي يسعى ويجتهد ينجح ويتقدم.

كذلك العلاقة بين العمل والجزاء في الآخرة من هذا القبيل.

٧ ـ ما يقدمه الإنسان بين يديه إلى الله

تقول الحوراء زينب عليها السلام في خطابها لأهل الكوفة: **«ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون»** وهذه الفقرة من كلام السيدة مقتبسة من قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[١].

وهذه النقطة من كلام السيدة عليها السلام ذات علاقة بالنقطة السابقة، في علاقة العمل بالجزاء.

إنّ جزاء عمل الإنسان في الآخرة هو نتيجة عمله في الدنيا، وهذه النتيجة هي باطن عمل الإنسان تتراءى له في الدنيا بغير هذه الصورة، وتتجلى له في الآخرة بصورته الحقيقية، حيث يكشف عن بصر الإنسان، فيرى واقع عمله وباطنه الذي كان يخفى عليه في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢].

وكأنّ الإنسان كان في غفلة من حقيقة السيئة وواقعها وجوهرها فارتكبها، فلمّا كُشِفَ عن عينه الغطاء بالموت وجد ما غفل عنه.

إنّ مال اليتيم الذي يأكله الناس حراماً، ظاهره ذهب وفضة ومتاع وضياع، وباطنه نار

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

يغفل عنها الإنسان، فإذا حل به الموت وكشف عن عينيه الغطاء، عرف ما غفل عنه في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(١).

إنّ الناس لا يرون من هذه النقود والضياع في الدنيا إلّا ظاهرها، فإذا ماتوا عرفوا ما كانوا يجهلونه منها، وعرفوا أنّ الذي أكلوه من أموال اليتامى كان ناراً في بطونهم.

وان الثمن البخس الذي باع به علماء أهل الكتاب ما عرفوا من التوراة والانجيل فاخفوه عن الناس وتكتموا به... وتقاضوه أزاء هذا الكتمان سوف يكون ناراً في بطونهم غفلوا عنه في الدنيا، ويعرفونها في الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾(٣).

إنّ تعبيرات القرآن في هذه النقطة واضحة وصريحة مثل: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾ ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ وأمثال ذلك، وهي تأبى الحمل على المجاز.

وهذا هو باطن عمل الإنسان وجوهره الذي كان يخفى عليه في الدنيا.

وما يصدر عن الإنسان من عمل من خير وشر، يبقى ولا ينعدم، فإذا مات الإنسان أحضره الله تعالى عنده، فوجد ما عمله من خير أو شر حاضراً.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ...﴾ ها هنا يجد الإنسان عمله حاضراً أمامه بعينه، فإذا كان عمله سوءً تمنى أن يكون بينه وبين عمله أمداً بعيداً، وان

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

يتخلص من عمله، ولكن هيهات ﴿...تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].

إنّ الإنسان يُجزى في الآخرة بنفس عمله، وعمله جزاؤه.

يقول تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[3].

إذن جزاء الإنسان في الآخرة هو نفس ما كسبه في الدنيا.

وفي سورة الإسراء نلتقي آية عجيبة من آيات كتاب الله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾[4].

و(الطائر) هو (العمل). ويوم القيامة يجعل الله أعمال الناس في أعناقهم، وهو كتابهم الذي يعكس أعمالهم. إنّ أعمالهم هو كتابهم الذي يلقون به الله تعالى، والإنسان هو الذي يقرأ كتابه يومئذ، لاغيره ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾، وهو الذي يحاسب نفسه ويحكم على نفسه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

إذن جزاء الإنسان هو عمل الإنسان، باطن عمل الإنسان، وهذا الباطن كان قائماً في الدنيا غير أن الإنسان كان غافلاً عنه.

فإذا مات الإنسان انكشف باطن عمله، وأُحضر عمله إليه، ويرى الإنسان عندئذ عمله الذي قدمه لنفسه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[5].

إنّ الإنسان يومئذ يرى عمله من خير أو شر. فإذا عمل خيراً رآه أمامه، ولو كان مثقال ذرة من الخير.

ومن عمل شرّاً يراه أمامه، ولو كان مثقال ذرّة من الشّر، فإنّ الميزان والحساب دقيق، غير أن الله رؤوف بعباده رحيم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.
(٥) سورة الزلزلة، الآيات: ٦ ـ ٨.

فما يعمله الإنسان من عمل في الدنيا من خير أو شر، إنّما يقدمه الإنسان لنفسه في الآخرة فإذا مات وجده أمامه.

يقول تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(١).

وهذا (الإمام المبين) لا يغفل عن شيء قدّمه الإنسان أبداً، فهو يحصي كل صغيرة وكبيرة مما قدّمه الإنسان لنفسه احصاءً دقيقاً.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾(٢).

وتأمّلوا في هذه الآية من كتاب الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

حيث يأتي الأمر بأن ينظر الإنسان فيما يقدمه لآخرته، بعد الأمر بالتقوى وقبله، وهو يستوقف الإنسان طويلاً، فإذا كان ما يعمله الإنسان من عمل هو ما يقدّمه لغد، فما أحراه بأن يتقي الله تعالى في كل عمل يعمله من صغير وكبير.

عودة إلى أهل البيت عليهم السلام في ساحة الكوفة

ونعود مرة أُخرى إلى ساحة الكوفة لنستمع إلى الخطاب الحسيني الذي يرفعه أهل البيت عليهم السلام في ذلك الحشد من الناس.

خطاب فاطمة بنت الحسين عليها السلام

وخطبت يومئذ السيدة فاطمة بنت الحسين عليهما السلام، وكانت جليلة القدر، شهد لها أبوها بذلك عندما خطب إليه الحسن المثنى إحدى ابنتيه، قال له: **اني اختار لك فاطمة فهي أكثر شبهاً بأُمي فاطمة. أما في الدين فتقوم الليل كلّه وتصوم النهار.**

قامت فاطمة عليها السلام في ذلك الجمع بعد خطاب عمّتها، وقالت(٤):

---

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١١٠ و٢٢٣.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٤) هذه رواية زيد بن موسى. قال حدثني أبي عن جدي عليهما السلام قال: خطبت فاطمة الصغرى بعد أن وردت من كربلاء فقالت: (وأورد الخطبة).

وزيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ثائر خرج في العراق مع أبي السرايا وتوفي نحو سنة (٢٥٠ هـ) (مقاتل الطالبيين: ٥٣٤).

«الحَمْدُ للهِ عَدَدَ الرّمْلِ والحَصى، وَزِنَةَ العَرْشِ إلى الثّرى، أحْمَدُهُ وَأُؤمِنُ بِهِ وَأَتَوَكّلُ عَلَيْهِ وَأَشْهَدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ وَأَنّ مُحَمّداً ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ ذريّتَهُ ذُبِحُوا بِشَطِّ الفُراتِ بِغَيْرِ ذَحْلٍ وَلا تَرات.

اللّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ أنْ أفْتَرِيَ عَلَيْكَ الْكَذْبِ وَأنْ أقُولَ عَلَيْكَ خِلافَ ما أنْزَلْتَ مِنْ أخْذِ العُهُودِ لِوَصِيِّهِ عَليِّ بن أبي طالِب عليه السلام الْمَسلُوبِ حَقُّهُ الْمَقْتُولِ بِغَيْرِ ذَنْب ـ كَما قُتِلَ وُلْدُهُ بالأمْسِ ـ في بَيْت مِنْ بيُوتِ اللهِ، فيهِ مَعْشَرٌ مُسْلِمة بِألْسِنَتِهِمْ، تَعْساً لِرُؤوسِهِمْ ما دَفَعَتْ عَنْهُ ضَيْماً في حَياتهِ وَلا عِنْدَ مَماتِهِ، حَتّى قَبَضْتَهُ إليكَ مَحمُودَ النّقيبَةِ طَيِّبَ العَريكَةِ، مَعرُوفَ المَناقِبِ، مَشْهُورَ المَذاهِبِ، لَمْ تَأخُذْهُ فيكَ لَوْمَةُ لائِم وَلا عَذْلُ عاذِل، هَدَيْتَهُ يا ربِّ لِلاسلامِ صَغيراً وَحَمِدتَ مَناقِبَهُ كَبيراً، وَلَمْ يَزَلْ ناصِحاً لَكَ وَلِرَسُولِكَ صَلواتِكَ عليه وَآله حَتّى قَبَضْتَهُ إليكَ زاهِداً في الدّنْيا غَيْرَ حَريص عَلَيْها، راغِباً في الآخِرَةِ مُجاهِداً لَكَ في سبيلِكَ، رَضَيْتَهُ فاخْتَرْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إلى صِراط مُسْتقيم.

أمّا بَعْدُ: يا أهْلَ الكُوفَةِ! يا أهْلَ المَكْرِ وَالغَدْرِ وَالخُيلاء! فإنّا أهْلُ بَيْت، ابتَلانا اللهُ بِكُمْ وَابْتَلاكُمْ بِنا، فَجَعَلَ بَلاءَنا حَسَناً وَجَعَلَ عِلْمَهُ عِنْدَنا، وَفَهْمَهُ لَدَيْنا. فَنَحْنُ عَيْبَةُ عِلْمِهِ وَوِعاء فَهْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَحُجّتُهُ عَلى الأرْضِ في بِلادِهِ لِعِبادِهِ أكْرَمَنا اللهُ بِكَرامَتِهِ وَفَضّلَنا بِنَبيِّهِ مُحمّد ﷺ عَلى كَثير مِمّن خَلَقَ تَفْضيلاً بَيِّناً.

فَكَذَّبْتُمُونا وكَفَّرْتُمُونا وَرَأيْتُمْ قِتالَنا حَلالاً وَأمْوالَنا نَهْباً، كأنّنا أوْلادُ تَرْكِ أو كابُل، كما قَتَلْتُمْ جَدّنا بِالأمْسِ، وَسُيُوفُكُمْ تَقْطُرُ مِن دِمائِنا أهْلِ البَيْتِ، لِحِقد مُتقَدّم. قَرّت لِذلكَ عُيُونُكُمْ، وَفَرِحَتْ قُلُوبُكُمْ افتراءً على اللهِ وَمَكراً مَكَرْتُمْ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَـٰكِرِينَ﴾.

فَلا تَدْعُوَنّكُمْ انفُسُكُمْ إلى الجَذَلِ بِما أصَبْتُمْ مِن دِمائنا وَنالَتْ أيديكُمْ مِنْ أموالِنا، فإنّ ما أصابَنا مِنَ المَصائِبِ الجَليلَةِ وَالرّزايا العَظيمَةِ ﴿فِي كِتَـٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

تَبّاً لَكُمْ فانْتَظِرُوا اللّعْنَةَ وَالعَذابَ، فَكَأنْ قَدْ حَلَّ بِكُمْ وَتَواتَرَتْ مِن السّماءِ نَقِماتٌ فَيُسحِتَكُمْ بِعذاب وَيُذيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعض، ثُمّ تَخْلُدونَ في العذابِ الأليمِ يَوْمَ القِيامَةِ، بِما ظَلَمْتُمُونا، ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وَيْلَكُمْ! أتدرُونَ أيّةَ يد طاعَنَتْنا مِنكُمْ؟ وَأيّةَ نَفْس نَزَعَتْ إلى قِتالِنا؟! أمْ بِأيّة رِجْل مَشَيْتُمْ

إلينا تَبْغُونَ مُحارَبَتَنا؟ قَسَتْ والله قُلُوبُكُمْ وَغَلُظَتْ أكبادُكُمْ وَطُبِعَ عَلى أفْئِدَتكُمْ، وَخُتِمَ عَلى سَمْعِكُمْ وَبَصَرِكُمْ، وَسَوّلَ لَكُمْ الشّيْطانُ وأَمْلى لَكُمْ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِكُمْ غِشاوَةً فَأنْتُم لا تَهتَدُون.

فَتَبّاً لَكُمْ يا اهْلَ الكُوفَةِ! أيَّ تُراث[1] لِرَسُولِ اللهِ قِبَلَكُمْ وَذُحُول لَهُ لَدَيْكُمْ بِما عَنِدْتُمْ بِأخيهِ عَليِّ بْنِ أبي طالِب جَدّي، وَبنيهِ وَعِتْرَتِهِ الطّيّبينَ الأخْيارِ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ فافْتَخر بِذلِكَ مُفْتَخِرٌ فَقالَ:

نَحْنُ قَتَلْنا عَلِيّاً وَبَني عَليٍّ	**بِسُيُوف هِنْديّة وَرِماحِ**
وَسَبَيْنا نِساءَهُمْ سَبْيَ تُرْك	**وَنَطَحْناهُمُ فَأيَّ نِطاحِ**

بِفيكَ أيّها القائلُ! الْكَثْكَثُ[2] وَالأثْلَبُ[3]، إفْتَخَرْتَ بِقَتْلِ قَوْم زَكّاهُمُ اللهُ، وَأذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهرَهُمْ تَطْهيراً، فَاكظِمْ[4] وَاقْعِ[5] كَما أقعى أبُوكَ فإنّما «لكل إمرىء ما اكتسب» وَما قَدَّمَتْ يَداهُ؟

أحَسَدْتُمُونا ـ وَيلاً لَكُمْ ـ عَلى ما فَضّلنا اللهُ؟

فَما ذَنْبُنا إنْ جاشَ دَهراً بُحُورُنا	**وَبَحرُكَ ساج لا يُواري الدّعامِصا[6]**

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب، وقالوا: حسبك يا ابنة الطيّبين. فقد احرقت قلوبنا وانضجت نحورنا، واضرمت أجوافنا، فسكتت[7].

خطاب السيدة أم كلثوم لأهل الكوفة

خطبت أُمّ كُلثوم بنت عليّ عليه السلام في ذلك اليوم من وراء كِلّتها رافِعَةً صَوْتَها بِالبُكاءِ. فقالت:

(١) في نسخة أُخرى: تراث.

(٢) الكثكث: دقاق التراب.

(٣) الاثلب: دقاق الحجر.

(٤) اسكت على غيضك.

(٥) الاقعاء جلوس الكلب على استه.

(٦) ساج: ساكن. والدعموص: دُوَيْبَة تغوص في الماء، الجوهري في الصحاح، والبيت للأعشى.

(٧) الملهوف للسيد ابن طاوس: ١٨٠ ـ ١٨٤ تحقيق عقيقي بخشايشي.

«يا أهْلَ الكُوفَةِ! سَوْأةً لَكُم ما لَكَمْ خَذَلْتُم حُسيناً، وَقَتَلْتُمُوهُ وَانْتَهَبْتُمْ أموالَهُ وَوَرِثتمُوهُ وَسَبَيْتُمْ نِساءَهُ، وَنَكَبْتُمُوهُ؟ فَتَبّاً لَكُمْ وَسُحْقاً.

وَيْلَكُمْ! أتَدْرُونَ أيّ دَواه دَهَتْكُمْ؟ وَأيَّ وِزْر عَلى ظُهُورِكُمْ حَمَلْتُم؟ وَأيّ دِماء سَفَكتُمُوها؟ وَأيَّ كَريمَة أصبتُمُوها؟ وَأيّ صَبيّة سَلَبْتُمُوها؟ وَأيَّ أمْوال إنتَهَبْتُمُوها؟ قَتَلْتُمْ خَيْرَ رِجالات بَعْدَ النَّبيّ وَنُزِعَتِ الرَّحْمةُ مِنْ قُلُوبِكُمْ ألا إنّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبُونَ وَحِزْبَ الشّيطانِ هُمُ الخاسِرُونَ.

ثم قالت:

قَتَلْتُمْ أخي صَبْراً فَوَيلٌ لِأُمّكُمْ ... سَتُجْزَوْنَ ناراً حَرُّها يَتَوَقَّدُ

سَفَكْتُمْ دِماءً حَرّمَ اللهُ سَفْكَها ... وَحَرَّمَها اَلْقرآنُ ثُمَّ مُحَمّدُ

ألا فَأبشِرُوا بِالنّارِ إنّكُمُ غداً ... لَفي قَعْرِ نار، حَرُّها يَتَصَعَّدُ[1]

وإنّي لأبْكي في حَياتي عَلى أخي ... عَلى خَيْرِ مَنْ بَعْدَ النّبِي سَيُولَدُ

بِدَمْع غزيرٍ مُسْتَهِلٍّ مُكَفْكَف ... عَلى الخَدِّ مِنّي دائِماً لَيسَ يَخْمُدُ

قال الرّاوي: فَضجّ الناس بالبكاء والنّوح ونشرت النّساء شُعُورهنّ، ووضعن التّرابَ على رؤوسهنّ، وخمشنَ وجوههنّ، ولطمن خُدُودَهنّ، ودَعَونَ بِالويلِ والثُّبورِ، وبكى الرّجال ونتفوا لِحاهُم، فلم يُرَ باكيةٌ وباك أكثرُ من ذلك اليوم»[2].

خطاب علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

وجيء بعليّ بن الحسين عليه السلام على بعير ضالع والجامعة في عنقه ويداه مغلولتان إلى عنقه وأوداجه تشخب دماً وأومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا، فقامَ قائماً فَحمد الله وأثنى عليه وذكر النبيّ بما هو أهله ثم صلّى عليه ثم قال:

«أيُّها النّاسُ! مَنْ عَرَفني فَقَدْ عَرَفني وَمَنْ لَمْ يَعرِفْني فأنا أُعرِّفُهُ بِنَفْسي: أنا عليُّ بْنُ الحُسَيْنِ بِن عليّ بن أبي طالب، أنا ابْنُ مَنْ انْتُهِكَتْ حُرْمَتُهُ وَسُلِبَتْ نِعْمَتُهُ وَانْتُهِبَ مالَهُ وَسُبِيَ عيالُهُ.

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣: ٣٣٣، للشيخ باقر القرشي نقلاً عن مخطوطة مقتل الحسين عليه السلام لعبد الله نور الله.

(٢) اللهوف للسيد ابن طاوس: ١٨٢ ـ ١٨٤.

أنا ابْنُ المَذْبُوحِ بِشَطِّ الفُراتِ مِنْ غَيْرِ ذَحْل وَلا تُرات، أنا ابْنُ مَنْ قُتِلَ صَبْراً، وكَفى بِذَلِكَ فَخراً.

أيّها النّاسُ! ناشَدْتُكُمُ اللهَ! هَلْ تَعْلَمُونَ أنّكُمْ كَتَبْتُمْ إلى أبي وَخَدَعْتُمُوهُ، وَأعْطَيْتُمُوهُ مِنْ أنْفُسِكُمْ العَهْدَ وَالمِيثاقَ وَالبَيْعَةَ وَقاتَلْتُمُوهُ وَخَذَلْتُمُوهُ، فَتَبّاً لِما قَدَّمْتُمْ لِانْفُسِكُمْ وَسَوْأَةً لِرَأيِكُمْ، بِأيّةِ عَيْن تَنْظُرُونَ إلى رَسُولِ الله ﷺ إذْ يَقُولُ لَكُمْ قَتَلْتُمْ عِتْرَتي وَانْتَهَكْتُمْ حُرْمَتي فَلَسْتُمْ مِنْ أُمّتي؟

قال الرّاوي: فارتفعت الأصوات من كلّ ناحية، ويقول بعضهم لبعض: هَلكتم وما تعلمون.

فقال عليه السلام: رَحِمَ اللهُ امرَءاً قَبِلَ نَصِيحَتي وَحَفِظَ وَصِيَّتي في اللهِ وَفي رَسُولِهِ وَأهْلِ بَيْتِهِ، فإنّ لَنا في رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

فقالوا بأجمعهم: نحن كلنّا يابن رسول الله! سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك فأمرْنا يرحمك الله فإنّا حربٌ لحربك وسلمٌ لسلمكَ لنأخذنَّ يزيداً (لعنه الله) ونبرأ ممّن ظلمكَ وظلمنا»[1].

وانقلب المشهد الأوّل الذي أعدّه الطاغية عبيد الله بن زياد في الكوفة إلى مشهد عاطفي لصالح أهل البيت عليهم السلام، أثار سخط الناس على ابن زياد ومن استعمله على الكوفة، ورفع الناس أصواتهم في شجب الجريمة، والبراءة من عمل الطاغية ابن زياد.

ولم يجد الحرس الذين أوكلهم ابن زياد لحفظ النظم وحراسة الساحة إلّا أن يُبعدوا سبايا أهل البيت عليهم السلام والرؤوس الشريفة عن الجمهور الغاضب والنساء النائحات من أهل الكوفة.

وهكذا انتهى المشهد الأول من مشاهد الاحتفاء بانتصار بني أُمية في الطف، بفضيحة اعلامية وسياسية لبني أُمية.

* * *

(١) راجع الملهوف للسيد ابن طاوس، ومقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم.

المشهد الثاني

أعدّ الطاغية حفلاً آخر في قصره لاستقبال السبايا من بنات رسول الله ﷺ فادخل الرؤوس الشريفة في المجلس، للتشهير بأهل البيت ؑ، وكسر شوكتهم وحرمتهم في نفوس الناس، وكان أثر هذا المشهد أسوا على الطاغية من المشهد الأوّل، وأثار الناس، وغضب الناس وبكوا، واستنكر هذا المشهد بعض من كان حاضراً في هذا المشهد من أصحاب رسول الله ﷺ.

يقول الشيخ المفيد: «جلس ابن زياد للناس في قصر الإمارة وأذن للناس إذناً عاماً، وأمر باحضار الرأس، فاحضر بين يديه فجعل ينظر إليه، ويبتسم، وبيده قضيب يضرب به ثناياه»[١].

وروى ابن حجر في الصواعق: «ان ابن زياد أمر بالرأس فوضع على ترس في يمينه، والناس سماطان»[٢].

أنس بن مالك يستنكر المشهد

يقول سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: «لما وُضِعَ رأس الحسين ؑ في طست بين يدي ابن زياد وجعل يضرب ثناياه بالقضيب، وقال في حُسنه شيئاً، وكان عنده أنس بن مالك، فبكى، وقال: كان أشبههم برسول الله ﷺ»[٣].

وقال ابن نما في مثير الأحزان: «ان أنس بن مالك قال: شهدت عبيد الله بن زياد، وهو ينكث بقضيب على أسنان الحسين ؑ ويقول: انّه كان حسن الثغر، فقلت: أما والله لا سوأنك، لقد رأيت رسول الله ﷺ يُقبّل موضع قضيبك من فيه»[٤].

قيس بن عباد يستنكر المشهد

يقول السبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: «قال الشعبي: وكان عند ابن زياد قيس بن عباد، فقال له ابن زياد: ما تقول فيّ وفي الحسين ؑ، فقال: يأتي يوم القيامة جده

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٢٧.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٩٦.

(٣) تذكرة الخواص: ١٤٦.

(٤) مثير الأحزان لابن نما، الطبعة الحجرية ٤٩، كما في هامش نفس المهموم للمحدث القمي تحقيق الاستادي: ٤٠٣.

وأبوه فيشفعون فيه، ويأتي جدّك وأبوك فيشفعون فيك، فغضب ابن زياد وأقامه من المجلس»[١].

رجل من بكر بن وائل يقسم أن يقاتل ابن زياد

يقول المدائني: «وكان ممّن حضر الواقعة رجل من بكر بن وائل، يقال له جابر أو (جبير)، فلمّا رأى ما صنع ابن زياد قال في نفسه، لله عليَّ أن لا أُصيب عشرة من المسلمين خرجوا على ابن زياد إلّا خرجت معهم، فلمّا طلب المختار بثأر الحسين عليه السلام، والتقى العسكران برز هذا الرجل، وهو يقول:

وكــل عــيــش قــد أراه فــاســداً ... إلا مقام الرمح في ظل الفرس[٢]

صرخة زيد بن أرقم في وجه الطاغية

وروى الطبري في تفاصيل هذا المشهد عن أبي مخنف الأزدي عن حميد بن مسلم، قال: دعاني عمر بن سعد، فسرّحني إلى أهله لأبشرهم بما فتح الله عليه، وبعافيته، فاقبلت حتى أتيت أهله، فاعلمتهم ذلك، ثم أقبلت حتى أدخل فوجدت ابن زياد قد جلس للناس فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس الحسين عليه السلام موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم[٣] عن نكته بالقضيب. قال له: أَعْلِ بهذا القضيب عن هاتين الثنيين فوالذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله على هاتين الشفتين يقبلهما ثم انفضح[٤] الشيخ يبكي.

فقال له ابن زياد: ابكى الله عينيك، فوالله لولا انّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك. قال فنهض فخرج.

فلمّا خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله، قال قلت: ما قال؟

---

(١) تذكرة الخواص: ١٤٦.

(٢) تاريخ الطبري٤: ٥٥٦، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر٣٧: ٤٦٠ والشعر لشريك ابن جرير الثعلبي وعند الطبري التغلبي.

(٣) لا يكف، لا يقلع، لا ينقطع.

(٤) انفجر باكياً، لا يملك نفسه عن البكاء.

قالوا: مرّ بنا وهو يقول: ملّك عبد عبداً فاتخذهم تَلُدا[١]. أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضى بالذل[٢].

وقفة عند كلمة زيد بن أرقم

كلمة زيد بن أرقم دقيقة، وتحتاج إلى وقفة طويلة لانجدها الآن، ولكننا نشرح بعض مفردات هذه الكلمة، إذا كنّا لا نجد وقتاً في تفصيل هذه الكلمة وشرحها.

فهو يشير إلى طبقات ثلاثة من (العبيد) ويقصد بالعبد المعنى النفسي للعبد، وليس المعنى الشرعي، وهو من لا يملك القرار والإرادة، وهذا هو الفرق بين الحر والعبد، فإنّ الحر يملك حق القرار والإرادة، والعبيد لا يملكون، وإنّما قرارهم وإرادتهم بيد مولاهم الذي يملك أمرهم، ولا فرق أن يكون مسيّراً محكوماً لاهوائه وشهواته، أو مُسيّراً ومحكوماً لطاغوت يحكمه من فوقه، فكلّ منهما عبد مسلوب الإرادة والقرار.

وهذا اللون من العبودية حالة شائعة في أوساط الناس والناس لا يعرفون، فمن الناس من يكون عبداً لهواه، أسيراً لشهواته في زي الأحرار، ومن الناس من يكون محكوماً مسيّراً للطغاة الذين يتحكمون فيه، وهو في زي الأحرار.

وهنا يقول زيد بن أرقم: أمامنا ثلاث طبقات من العبيد، الطبقة الأُولى يزيد بن معاوية طاغوت عصره وهو أسير شهواته وعبد أهوائه. والطبقة الثانية عبيد الله بن زياد، وهو طاغوت على الناس، ذليل محكوم عند يزيد، وهو نوع غريب من العبودية المطعّمة بالطغيان والاستكبار، والطبقة الثالثة من العبيد (الناس) الذين ملّكهم يزيد لابن زياد، ومَلكهم ابن زياد بأمر من يزيد بن معاوية.

وهكذا ملّك الناس عبدٌ لعبد آخر مثله.

وهذا التمليك بالضرورة بمعنى قبول العبودية من الناس، فإنّ العبودية هنا مقولة (عقديّة) ذات طرفين، وليست ايقاعاً قائماً بطرف واحد، فلابد فيها من التمليك وقبول التملّك (التعبيد من جانب وقبول العبودية من جانب آخر).

---

(١) التلد: بفتح التاء، وضم اللام ما ولد عندك من الإماء، والجملة يمكن أن تقرأ، كما سجلناه وهو أقوى (ملّك عبد عبداً) أي أن يزيد ملّك ابن زياد الناس فاتخذ ابن زياد الناس تلُدا عبيداً وإماءً.

(٢) تاريخ الطبري ٧: ٣٧١.

وقد كان بوسع الناس أن لا يقبلوا هذه العبودية لابن زياد ولطاغيته يزيد من فوقه، ويرفضوا خلافة يزيد وامارة ابن زياد، ولكنهم ـ للأسف ـ فعلوا ذلك، واستجابوا لهذا التأمير والتمليك والتعبيد، ولم يرفضوا، ولم يقاوموا، وإلى ذلك يشير زيد بن أرقم، فيقول: (أمّرتم ابن زياد)، أي قبلتم إمارته، ولم ترفضوا، ولم تقاوموا، ويقول: (فرضيتم بالذل).

وبهذه الصورة تتم عقد العبودية، تمليك وإذلال من طرف ورضا بالذل من طرف آخر. وهذا هو جوهر العبودية، وعندما يتحوّل الإنسان من الحرية إلى العبودية لإنسان مثله، يفقد الإرادة وحق القرار، ويتولّى عنه الذين يستعبدونه القرار والإرادة.

وهذه العلاقة المشؤومة بين الطاغية والذين يستضعفهم لا تنتج إلّا (تَلُدا). وهو نتاج مشؤوم لعلاقة مشؤومة.

فإن نتاج العبيد العبودية، ونتاج الذليل الذل، ونتاج الرضوخ للظلم الرضوخ للظلم.

وهذا هو ما كان يقوله زيد للراضخين للظلم من حوله، الذين حضروا مجلس ابن زياد ورأوا ما يفعله ابن زياد برأس ابن بنت رسول الله، فلم يغضب منهم أحد، ولم يشهر منهم أحد سيفه ولم يرفع منهم أحد صوته على ابن زياد.

فقال لهم: (ملّك عبد عبداً) وهذه هي العلاقة الاستكبارية المشؤومة بين المستكبرين والمستضعفين. (فاتخذهم تَلُدا)، وهذه هي النتيجة المشؤومة لتلك العلاقة المشؤومة، بين المستكبرين والمستضعفين الراضخين للذلّ.

ثم يبيّن لهم زيد أن هذا الذل والرضوخ سوف يدوم وتتصل حلقاته في حياتهم ما لم يكفّر الأبناء عن ذنب الآباء بدمائهم فيقول:

(أنتم يا معشر العرب الأذلّاء بعد اليوم).

إنّ ما جنى الناس على أنفسهم في عهد بني أُمية، وما جناه بنو أُمية على الناس أمر غريب، يستتبع هذه النتيجة المشؤومة بالتأكيد، فإنّ هؤلاء قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، وهو وليّهم، وأمّروا ابن مرجانة، وهو عدوّهم، فوالوا عدوّهم وتبرأوا من وليّهم، وكان ينبغي بهم إن كانوا أحراراً في دنياهم أن يصنعوا بخلاف ذلك، يوالوان وليّهم ويعادون عدوّهم، وهؤلاء والوا أعداءهم وعادوا أولياءهم.

فيقول لهم: (قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة)، وهي حالة ردّة كاملة في مقاييس الولاء والبراءة، وعندما تنتكس الأُمة في ولائها وبراءتها، فتضع ولاءها مكان البراءة، وبراءتها مكان الولاء، تفقد كل إرادتها وكرامتها وحريّتها، وتتحول إلى سلعة في سوق النخاسين.

وماذا يتوقع الناس يومئذ من هذه الردّة العجيبة في الولاء والبراءة، غير أن يقتل الطاغية خيارهم الذين لا يرضخون للطاغية ويقاومونه ولا يطاوعونه، ويستعبد شرارهم الذين يطاوعونه، ولا يقاومونه، وكذلك كان، فقد قتل بنو أُمية خيار الناس واشرافهم الذين أعلنوا رفضهم لهم، واستعبدوا الذين طاوعوهم، وأذلوا رقابهم لهم، فيقول لهم زيد، وهو ينتحب بالبكاء، خارجاً من مجلس ابن زياد: (فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم).

ولم يسمع الطاغية ابن زياد كلمة (زيد) بالتأكيد وإلّا لقتله، كائناً من كان، ولكن هل سمع الناس يومئذ كلمة زيد ووعوها، وعرفوا ما ينتهي إليهم أمرهم، عندما أعرضوا عن بني علي عليه السلام وطاوعوا بني أُمية؟!!

حوار السيدة زينب عليها السلام مع الطاغية

وانحازت زينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام عن النساء وهي متنكرة، فقال الطاغية من هذه المتنكّرة؟

قيل له: ابنة أمير المؤمنين، زينب العقيلة.

فأراد أن يحرق قلبها بأكثر ممّا جاء إليهم، فقال متشمتاً: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أُحدوثتكم.

فقالت عليها السلام: **الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمداً وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنّما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا.**

قال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

قالت عليها السلام: **ما رأيت إلّا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّ وتخاصم[١] فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أُمك يابن مرجانة[٢].**

فغضب ابن زياد واستشاط من كلامها معه في ذلك الحشد.

فقال له عمرو بن حريث: إنّها امرأة وهل تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تلام على خطل.

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٦٢.

(٢) الملهوف للسيد ابن طاوس: ٩٠.

فالتفت إليها ابن زياد وقال: لقد شفى الله قلبي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك.

فرقّت العقيلة وقالت: **لعمري لقد قتلت كهلي وأبرت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن يشفك هذا فقد اشتفيت**(١).

وفي كلام السيدة زينب عليها السلام رقّة العاطفة ونفوذ البصيرة والوعي، فهي إنسانة مرهفة الحس والعاطفة ترق للمصاب الفجيع الذي ألمّ بها، فتقول:

«لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت».

وهي في نفس الوقت ذات بصيرة نافذة في سنن الله تعالى ودينه، تلملم جراحها، وتترفع على العاطفة، لتبصر هذه الفجيعة الموجعة من خلال دين الله وسننه في التاريخ والمجتمع.

فتقول عندما سألها الطاغية كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ فتقول: **«ما رأيت إلّا جميلاً»** ان الذي حدث لها ولأخيها ولأهل بيتها حَدَثَ بعلم الله وسلطانه فقد كان الله يعلم بما يحدث في كربلاء، وكان قادراً عى أن يحول بينهم وبين ما صنعوا بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، والله تعالى جميل، رؤوف بعباده، ولو كان الذي حدث لآل البيت يضرّ بهم، لحال الله تعالى بينهم وبين ما يريدون، وكان الله تعالى على ذلك قديراً، ولم يخرج الطاغية في بطشه وفتكه عن قبضة سلطان الله تعالى.

ولكن الله تعالى جعل ابتلاء المؤمنين بالخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات طريقاً إلى رضوانه وصلواته ورحمته... وقد جعل الله تعالى أهل البيت على طريق رضوانه ورحمته وصلواته.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٢).

ولن يسلك الإنسان الطريق إلى رضوان الله ورحمته إلّا من خلال هذه الضرّاء والبأساء، وما يصيب الإنسان في أزمات الابتلاء من زلزال في النفوس ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

يأتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

إنّ هذه الهزّات والزلازل التي تصيب المؤمنين وهذه البأساء والضرّاء والقتل هو السبيل السالك إلى رضوان الله ورحمته، وهذه مشيئة الله تعالى، وليس في مشيئة الله إلّا الجميل.

والسيدة زينب عليها السلام تدرك هذه البصائر من كتاب الله، وتعرف أن أخاها وأهل بيتها خرجوا **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**.

وقد قدّر الله تعالى وكتب لهم القتل، فبرزوا إلى مصارعهم بأمر من الله تعالى ورضاه وابتغاءً لمرضاته، فلا ترى فيما أراد الله تعالى به وبها وبأهل بيتها إلّا الجميل. وهي مطمئنة إلى ذلك، واثقة بذلك، فتقول وبكل ثقة واطمئنان في جواب الطاغية: «**ما رأيت إلّا جميلا**» ولكن أنّى يدرك الطاغية البليد هذا الجمال.

وبهذه البصيرة الصافية النفّاذة تتجاوز عواطفها وآلامها وتتقبل المصاب الفجيع بسكون واطمئنان **وقوّة وثقة بالله تعالى. وهي تعلم ان الله تعالى سوف يجمع بين أخيها الإمام** الشهيد عليه السلام وبين الطاغية الذي اسكرته نشوة النصر ومصرع الطيبين من آل محمد صلى الله عليه وآله، وهناك ينقلب الحال، ويخزى الطاغية ومن أمّره، ويفلح الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

فتقول لـه، وهو في نشوة النصر، وسكرة الغرور: «**وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّ وتخاصم، فانظر لمن يكون النصر يومئذ**».

اللغط والاستنكار والبكاء في القصر

وكان لهذا المشهد اسوأ الأثر على القصر، وارتفع اللغط والاستنكار، وضجّ الناس بالاستنكار والبكاء وخاف الطاغية أن يفقد السيطرة على الأمن، فأمر بإعادة أهل البيت إلى الحبس بدار جنب المسجد الأعظم في الكوفة، فأُعيدوا إلى الحبس[2].

يقول حاجب الطاغية: «كنت معهم حين أمر بهم إلى السجن، فرأيت الرجال والنساء مجتمعين يبكون ويلطمون وجوههم»[3].

وروى الشيخ الصدوق في الأمالي عن حاجب الطاغية: «ان الطاغية بعدما سمع اعتراض

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) راجع الملهوف: ٩١، والمقتل للخوارزمي٢: ٤٢.

(٣) روضة الواعظين: ١٦٣.

الناس ورأى سخطهم أمر بعلي بن الحسين عليه السلام فَغُلَّ وحمل مع النسوة والسبايا إلى السجن، وكنت معهم فما مررنا بزقاق إلّا وجدناه ملء رجال ونساء يضربون وجوههم ويبكون، فحبسوا في سجن وطبق عليها»(١).

وهكذا ينتهي هذا المشهد باعتراض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله والتابعين وسخط الناس وغضبهم ولغطهم في المجلس، مما يضطرّ ابن زياد أن يأمر بوقف هذا العرض، ويأمر بارجاع أهل البيت عليهم السلام مخفورين مغلولين إلى السجن، ويطبق عليهم فيه، ويفشل العرض فشلاً كاملاً.

المشهد الثالث

كان الطاغية قد أعدّ المشهد الثالث لاستعراض انتصارات الأُمويين على أهل البيت عليهم السلام، في الجامع الأعظم في الكوفة، وأعد لذلك الجامع، واعلن للناس الأمر فاجتمع الناس في الجامع، وبدأ ابن زياد العرض بخطابه فأحبط الله كيد الطاغية وعرضه من بدايته، حيث قام العبد الصالح عبد الله بن عفيف الأزدي رحمه الله فشتمه وشتم أباه وشتم يزيد وأباه ولعنهم، فأمر الجلاوزة بالقبض عليه، فوقف الأزد معه، فلم يتمكنوا منه، وكثر اللغط بين الناس في المجلس، وانفضّ المجلس بخيبة الطاغية وفشله.

وإليك تفصيل ما حدث يومئذ برواية السيد ابن طاوس رحمه الله في اللهوف:

«ثم ابن زياد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال في بعض كلامه: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين وأشياعه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب، فما زاد على هذا الكلام شيئاً حتى قام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، وكان من خيار الشيعة وزهّادها، وكانت عينه اليسرى ذهبت في يوم الجمل والأُخرى في يوم صفين، وكان يلازم المسجد الأعظم يصلي فيه إلى الليل، فقال: يابن مرجانة إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، ياعدوّ الله أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين.

قال الراوي: فغضب ابن زياد فقال: من هذا المتكلم؟ فقال: أنا المتكلم يا عدوّ الله، أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام، واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من طاغيتك ـ أي يزيد ـ اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين صلى الله عليه وآله.

(١) أمالي الصدوق: ٩٩، المجلس ٣١.

قال الرواي: فازداد غضب ابن زياد حتى انتفخت أوداجه وقال: عليّ به. فتبادرت إليه الجلاوزة من كل ناحية ليأخذوه، فقامت الأشراف من الأزد من بني عمّه فخلصوه من أيدي الجلاوزة وأخرجوه من باب المسجد وانطلقوا به إلى منزله.

فقال ابن زياد: اذهبوا إلى هذا الأعمى أعمى الأزد أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه فأتوني به.

قال: فانطلقوا إليه، فلما بلغ ذلك الأزد اجتمعوا واجتمعت معهم قبائل اليمن ليمنعوا صاحبهم.

قال: فلما بلغ ذلك ابن زياد جمع قبائل مضر وضمهم إلى محمد بن الأشعث وأمرهم بقتال القوم.

قال الراوي: فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل بينهم جماعة من العرب.

قال: ووصل أصحاب ابن زياد إلى دارعبد الله بن عفيف فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: أتاك القوم من حيث تحذر. فقال: لا عليك ناوليني سيفي.

قال: فناولته إياه فجعل يذب عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر عفيف شيخي وابن أُم عامر
كم دارع من جمعكم وحاسر وبطل جدلته مغاور

قال: وجعلت ابنته تقول: يا أبت ليتني كنت رجلاً أخاصم بين يديك اليوم، هؤلاء الفجرة قاتلي العترة البررة.

قال: وجعل القوم يدورون عليه من كل جهة وهو يذب عن نفسه فلم يقدر عليه أحد، وكلما جاؤوه من جهة قالت: يا أبت جاؤوك من جهة كذا، حتى تكاثروا عليه وأحاطوا به، فقالت ابنته: وا ذلّاه يحاط بأبي وليس له ناصر يستعين به. فجعل يدير سيفه ويقول:

أقسم لو يفسح لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

قال الراوي: فما زالوا به حتى أخذوه، ثم حمل فأدخل على ابن زياد، فلما رآه قال: الحمد لله الذي أخزاك، فقال له عبد الله بن عفيف: يا عدوّ الله وبماذا أخزاني الله:

والله لو فرّج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

فقال ابن زياد: يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟ فقال: يا بني عبد علاج يا بن مرجانة ـ وشتمه ـ ما أنت وعثمان بن عفان أساء أو أحسن وأصلح أم أفسد، والله تبارك وتعالى

ولي خلقه يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أ بيك وعنك وعن يزيد وأبيه. فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت غصة غصة. فقال عبد الله بن عفيف: الحمد لله رب العالمين، أما أني قد كنت اسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أُمك، وسألت الله أن يجعل ذلك على يدي ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلمّا كف بصري يئست عن الشهادة، والآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها وعرفني الإجابة منه في قديم دعائي، فقال ابن زياد لعنه الله: اضربوا عنقه، فضرب عنقه وصلب في السبخة[1].

رحمك الله يابن عفيف. ماذا كنت ترجو أن تعيش من بعد ذلك اليوم، لو كنت تؤثر العافية، وتلوذ بالسكوت كما سكت غيرك. إنّ امرءً في مثل عمرك لا يطمع أن يعيش طويلاً أكثر من خمس أو سبع سنين أو مثل ذلك. ولكن خطابك الغاضب وصرختك الساخطة أفسدت على الطاغية زهوه وغروره وكبرياءه، وأذلّه أمام ذلك الحشد الكبير من الناس، كسرت بصرختك شوكته وكبرياءه واحتقرته أمام جلاوزته، وكسرت حاجز الخوف الذي كان يهيمن على ذلك الجمهور الكبير.

ماذا كان ينفعك الخمس والسبع سنين، لو كنت تخلد إلى العافية، كما أخلد غيرك... ولكن صرختك الغاضبة التي ارسلتها كزئير الأسد في وجه الطاغية خلّدتك مع علي بن الحسين وزينب عليهما السلام، وحيثما ذكرا ذُكرت معهما.

إنّ كلمة واحدة يشجُّ بها المؤمن ناصية الطاغوت، ويكسر بها كبرياءه، ويعكّر بها صفو أحلامه، ويقلق بها باله، ويسلبه كبرياءه تعادل عند الله سنين من الصلاة والصيام، على ما للصلاة والصيام عند الله من قدر كبير.

إنّ موقف عبد الله بن عفيف يومئذ يدل على أن بني أُمية أخفقوا في خطتهم الرامية إلى إذلال الأُمة، وتطويعها لإرادتهم، وسلب إرادتها وكرامتها وضميرها.

إنّها خمس كلمات، لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة (الكذّاب بن الكذّاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه) التي أزعجت الطاغية وأحبطت كل خطته في إقامة هذا الحفل في المسجد الأعظم بالكوفة وسفّهت أحلامه، ولو كان المؤمن لا يأخذ معه إلى الله، إلّا هذه الكلمات الخمسة التي حملها معه ابن عفيف إلى الله لكفاه ذلك. وودت أنّي استبدلت خمسين سنة من عمري بهذه الكلمات (الخمسة) لو كان لي خمسون سنة صالحة في عمري.

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاوس: ١٤٦ ـ ١٥٠.

وقد روى المحدثون عن رسول الله ﷺ: (أنّ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

وروى ابن ادريس في السرائر عن ابن قولويه عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: (من مشى إلى سلطان جائر فأمره بتقوى الله ووعظه، وخوفه، كان له مثل أجر الثقلين من الجن والأنس ومثل أعمالهم).

وهكذا عاد هذا المشهد الثالث بالفشل والخيبة على الطاغية، وغضب الناس وسخطوا، وتحدث الناس عن جريمة بني أُمية وابن زياد، فكان عيون الطاغية يرجعون إليه بأخبار سيئة من داخل الكوفة. وكان ممّن يعلن السخط والبراءة من عمل الطاغية، جندب بن عبد الأزدي، وكان شيخاً فأحضره الطاغية ابن زياد فقال لـه: يا عدو الله ألست صاحب أبي تراب في صفين؟ قال: نعم وأني لأُحبّه وافتخر به وامقتك وأباك، سيما الآن وقد قتلت سبط الرسول وصحبه وأهله ولم تخف من العزيز الجبار المنتقم.

فقال ابن زياد: إنّك لأقل حياء من ذلك الأعمى وأني ما أراني إلّا متقرباً إلى الله بدمك.

فقال ابن جندب: إذاً لا يقربك الله.

وخاف ابن زياد من ثورة عشيرته فتركه وقال: إنّه شيخ ذهب عقله وخرف وخلى سبيله[1].

فخاف الطاغية أن تتمرّد الكوفة، ويتفاعل هذا الغضب والسخط في نفوس الناس، ويخرج الناس عليه فأمر الطاغية بتسريح الرؤوس الشريفة والسبايا والأسرى من آل البيت عليهم السلام إلى الشام مركز الخلافة.

فخرجت الكوفة لتوديع أهل البيت عليهم السلام، وعجّت نساء همدان بالبكاء والنياحة[2] وضجّ الناس بالبكاء عندما غادر موكب أهل البيت عليهم السلام الكوفة مغلولين، قد أوثقوا بالحبال بحالة تقشعر من ذكرها الأبدان، وترتعد مفاصل الإنسان بل الحيوان، كما يقول الفاخوري[3].

وكان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «**تنوحون وتبكون فمن الذي قتلنا**»[4].

---

(١) مقتل الخوارزمي٢: ٥٥، نقلاً عن مقتل المقرّم: ٣٩٨.

(٢) حياة الإمام الحسين للشيخ باقر القرشي٣: ٣٦٨ نقلاً عن الحدائق الوردية١: ١٢٩.

(٣) تحفة الأنام في مختصر تاريخ الإسلام: ٨٤.

(٤) اللهوف: ١٢٩.

المرحلة الثانية من خطاب الثورة الحسينية:

في الشام

كان بنو أُمية يتوقعون شرّاً كثيراً وإنكاراً واسعاً من قبل الناس بجريمتهم في قتل الحسين عليه السلام.

ولذلك خطّطوا لعمل إعلامي مضاد في أهم ثلاثة مراكز في العالم الإسلامي يومذاك وهي: الكوفة والشام والحرمان الشريفان.

فأحبط الله تعالى الخطّة بالكامل في الكوفة، حتى كاد أهل الكوفة أن يثوروا على عبيد الله بن زياد، مما اضطرّ ابن زياد إلى التعجيل في تسريح أهل البيت عليهم السلام إلى الشام.

وسوف نجد أن دخول أهل البيت عليهم السلام بتلك الهيئة إلى الشام كان له أثر عكسي على الخطّة الاعلامية لبني أُمية، وأن الأثر السلبي الذي تركه تسريح أهل البيت عليهم السلام إلى الشام بتلك الهيئة المزرية كان أشد على بني أُمية من الأثر الذي تركه في الكوفة.

وسوف نستعرض أحداث دخول أهل البيت عليهم السلام إلى الشام.

وقد استعرَضْتُ كتب السيرة والتاريخ، عن دخول أهل البيت عليهم السلام على الطاغية يزيد بن معاوية، وما جرى بينهم وبين الطاغية من كلام، فوجدت أن أصحاب السِير يسردون الأحداث بعضها مع بعض في غير نظام وترتيب.

ويظهر لي أن يزيد قد أعدّ لاستقبال سبايا وأسرى أهل البيت عليهم السلام أكثر من مشهد ومجلس، وأن كل ما يسرده المؤرخون لا يمكن أن يجتمع في مكان واحد وزمان واحد.

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ ان الاحتفال الأوّل بدخول الأسرى والسبايا من أهل البيت عليهم السلام كان في قصر لـه بجيرون من ضواحي دمشق يطل على دمشق، وكان لـه فيها قصر ومنظر يعرف بمنظر جيرون، وفيه وضع الرأس الشريف أمامه وأخذ يضرب على شفتيه بخيزران بيده، فأنكرت عليه زينب عليها السلام، وخطبت خطبتها الشهيرة، وهذا المجلس كان مجلساً رسمياً حضره السفراء والأعيان في المدينة.

والمشهد الآخر في الجامع الأعظم، في محل جامع بني أُمية اليوم، وكان الاذن في هذا اللقاء عاماً، وقد حضره جمهور غفير من الناس، وتكلم فيه علي بن الحسين عليه السلام حتى حلّ وقت الظهر، فقطعوا خطابه عليه السلام بالأذان، ثم أقاموا الصلاة في نفس المكان. ولم أجد هذا التفصيل فيما بين يدي من مصادر السيرة، ولكن استنبطته من القرائن التي يذكرها المؤرخون وأرباب السِير، وسوف تتضح هذه القرائن خلال العرض إن شاء الله[١].

الدخول إلى الشام

تزيّنت مدينة الشام لاستقبال مظاهر النصر الذي أحرزه الطاغية يزيد في قتال أهل البيت عليهم السلام بكربلاء وخرج الناس بالأفراح والأهازيج لاستقبال الأسرى والسبايا من أهل البيت عليهم السلام.

يقول السيد في اللهوف:

«لما قربوا من دمشق دنت أُم كلثوم من شمر وكان من جملتهم، فقالت له: لي إليك حاجة.

فقال: ما حاجتك؟

قالت: **إذا دخلت بنا البلد فاحملنا في درب قليل النظّارة، وتقدّم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل، وينحّونا عنها، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا، ونحن في هذه الحال.**

فأمر في جواب سؤالها أن يُجعل الرؤوس على المحامل في أوساط المحامل، بغياً منه وكفراً، وسلك بهم بين النظّارة على تلك الصفة حتى أتى بهم باب دمشق، فوقفوا على درج باب المسجد، حيث يقام السبي»[٢].

---

(١) قال ياقوت الحموي: جيرون: بناء عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود وقيل أن حصن جيرون بدمشق، ثم قال: والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو الباب الشرقي يقال له باب جيرون. معجم البلدان: ٢: ١٩٩.
ويحتمل أن منظر جيرون شرفة داخل المسجد من قِبل الباب الشرقي ونحن نرجّح القول الأوّل لياقوت وأن جيرون كان على مدخل دمشق (ومن ضواحيها) وكان للطاغية فيها قصر وهو مطلّ على الوديان والرُبى. وقد يشعر بذلك ما أنشده الطاغية:
لما بدت تلك الحمول وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرون

(٢) اللهوف: ١٥٥ ـ ١٥٦.

هكذا يصف أصحاب السير دخول أهل البيت عليهم السلام على هيئة الأسرى والسبايا مغلولين، مصفدين وسط مظاهر الزينة والفرح في المدينة.

ودنا شيخ من الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فقال: الحمد لله الذي أهلككم وأمكن الأمير منكم.

فقال عليه السلام له: **يا شيخ أقرأت القرآن.**

قال: بلى.

قال عليه السلام: **أقرأت:** ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1] وقرأت قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[3]؟

قال الشيخ: نعم قرأت ذلك.

قال عليه السلام: **نحن والله القربى في هذه الآيات.**

ثم قال له الإمام: **أقرأت قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾؟

قال: بلى.

فقال عليه السلام: **نحن أهل البيت الذين خصّهم الله بالتطهير.**

قال الشيخ: بالله عليك أنتم هم؟

فقال عليه السلام: **وحق جدنا رسول الله إنّا لنحن هم من غير شك.**

فوقع الشيخ على قدميه يقبّلهما ويقول: أبرأ إلى الله ممّن قتلكم وتاب على يد الإمام ممّا فرط في القول معه[4].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٤) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٤١٦، نقلاً عن اللهوف: ١٠٠، وتفسير ابن كثير٤: ١١٢، ومقتل الخوارزمي ٢: ٦١.

المشهد الأوّل: في جامع الشام

وكان الاحتفال الأوّل بانتصار الخليفة في قتال أهل البيت عليهم السلام في جامع الشام الكبير، شدّوا أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبناته بحبال، واحداً تلو الآخر على هيئة الأسرى.

وأُقيموا على درج باب الجامع حيث يقام السبي[١]. وأنشأ يزيد يقول، وهو ينظر إليهم:

صبرنا وكان الصبر منا عزيمة	واسيافنا يقطعن هاماً ومعصما
نفلق هاماً من رجال أعزّة	علينا، وهم كانوا اعق واظلما[٢]

قال الشيخ ابن نما: قال علي بن الحسين عليه السلام: «**أُدخلنا على يزيد، ونحن اثنا عشر رجلاً مغللون.**

فلمّا وقفنا بين يديه قلت: انشدك الله يا يزيد، **ما ظنّك** برسول الله لو رآنا على هذه الحال؟

فقال له النعمان بن بشير: اصنع ما كان رسول الله **يصنع** لو رآهم بهذه الهيئة.

وقالت فاطمة بنت الحسين عليه السلام: **يا يزيد بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا؟!** فبكى الناس وبكى أهل داره[٣].

وقال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: كان علي بن الحسين والنساء موثقين في الحبال، فناداه علي عليه السلام: **يا يزيد، ما ظنّك برسول الله لو رآنا موثقين في الحبال على أقتاب الجمال**، فلم يبق في القوم إلّا من بكى[٤].

فالتفت يزيد إلى الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وقال: «ايه يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت».

فأجابه الإمام علي بن الحسين عليه السلام: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ فنحن لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا.

---

(١) مقتل الخوارزمي ٢: ٦١، والكواكب الدريّة ١: ٥٦.

(٢) مرآة الجنان لليافعي١: ١٣٥.

(٣) مثير الأحزان لابن نما: ٥٤.

(٤) تذكره الخواص: ١٤٩.

فغضب يزيد وتلا قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

فأجابه الإمام: «**هذا في حقّ من ظَلَم لا في حقّ مَن ظُلِم**»(١).

ورقى خطيب المنبر في مجلس يزيد فأكثر الوقيعة في علي والحسين عليهما السلام وأكثر الثناء والمديح لمعاوية ويزيد.

فصاح به علي بن الحسين عليه السلام: «**لقد اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار**»(٢).

فسأل الإمام علي بن الحسين عليه السلام يزيد أن يخطب في الناس، وفي كامل البهائي: إنّ ذلك كان يوم الجمعة، وكان الجامع حاشداً بالمصلين، فلم يأذن له يزيد في ذلك، فلمّا ألحّ عليه حاشيته ومعاوية ابنه أذن له.

يقول المحدث القمي في نفس المهموم:

إنّ علي بن الحسين عليه السلام قال ليزيد:

«أتأذن لي أن أرقى هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه لله تعالى رضى ولهؤلاء أجر وثواب».

فأبى يزيد، وألح الناس عليه فلم يقبل، فقال ابنه معاوية: إئذن له ما قدر أن يأتي به؟

فقال يزيد: إنّ هؤلاء ورثوا العلم والفصاحة وزقّوا العلم زقاً، ومازالوا به حتى إذن له.

فقال عليه السلام: الحَمْدُللهِ الّذي لا بِدايةَ لَه، والدّائمُ الّذي لا نَفَاذَ لَه، والأوّلُ الّذي لا أوّليةَ لَهُ، والآخرُ الّذي لا آخريةَ لَهُ، وَالباقي بَعدَ فَناء الخَلْق، قَدّرَ اللّيالي والأيام، وَقَسّم فيما بَيْنَهم الأقسام، فَتباركَ اللهُ المَلِكُ العَلام . إلى أنْ قال: أيُّها النّاس أُعطينا سِتّاً وفُضّلْنا بِسَبْع، أُعطينا العِلمُ والحِلمُ والسّماحةَ والفَصَاحَةَ والشّجاعةَ والمَحبّة في قُلوبِ المُؤمِنِينَ، وفُضّلنا بأنَّ منّا النَبيّ وَالصّديق وَالطيّار وَأسدُ الله وأسدُ رَسُولهُ وسِبطا هذِهِ الأمة، أيُّها النّاس مَنْ عَرفني فَقَد عَرَفَني وَمنْ لَمْ يعرفني أنبأتِه بِحَسَبي وَنَسَبي، أيُّها النّاس أنا ابنُ مكةُ ومُنى، أنا ابنُ زَمْزَمَ والصّفا، أنا ابنُ مَنْ حَمَلَ الرُكنَ بأطرافِ الرّدا، أنا ابنُ خَيرَ مَنْ إئتزر وارتدَى وخير مَنْ طافَ

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٦٧، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، والنص الذي نقلناه أعلاه خرج مما وجدناه في المصدرين.

(٢) نفس المهموم: ٤٤٩.

وَسَعى، وحجَّ ولبّى، أنا ابن مَنْ حُمِلَ على البِراق وَبَلَغَ بِهِ جبرائيل سِدرَةَ المُنتهى، فَكَانَ مِنْ رَبّه كَقابِ قَوسين أوْ أدنى، أنا ابنُ مَن صلّى بملائكة السماء، أنا ابنُ مَن أوحى إليه الخَليلُ ما أوْحى، أنا ابنُ مَنْ ضَرَبَ بَين يديّ رسول الله ببدر وحُنين، ولم يكفر بالله طَرْفَةَ عَيْن، أنا ابنُ صَالح المؤمنين ووارثَ النَّبيّين، وَيَعسوبَ المُسلِمين، وَنورَ المُجاهدين وقاتلُ الناكثين، والقاسطين، والمارقين ومفرّق الأحزاب، أربطهم جأشاً، وأمْضاهُمْ عَزيمةً ذاكَ أبوالسِبْطَين الحَسنِ والحُسينِ، عليّ بن أبي طالب. أنا ابنُ فاطمةَ الزَهراء، وَسيّدة النّساء، وابنُ خَديجَة الكُبرى. أنا ابنُ المرمّلُ بالدّماء، أنا ابنُ ذبيحَ كربلاء، أنا ابن من بَكى عليهِ الجِنّ في الظّلماء، وَناحَتْ الطّيرُ في الهواء.

فلما بلغ إلى هذا الموضع ضجّ الناس بالبكاء وخشي يزيد الفتنة فأمر المؤذن أن يؤذن للصلاة فقال المؤذن: الله أكبر.

قال الإمام: **اللهُ أكبَرُ وأجلّ وأعلا وأكرمُ ممّا أخافُ وأحْذَر.**

فلما قال المؤذن أشهد أن لا إله إلّا الله.

قال عليه السلام: **نعم أشهد مع كل شاهد أن لا إله غيره ولا ربّ سواه.**

فلمّا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله.

قال الإمام للمؤذن: **أسألك بحقّ مُحمّد أنْ تَسكُتْ حتّى أُكلّم هذا.**

التفت إلى يزيد، وقال: هذا الرسولُ العَزيز الكريم جدُّك أمْ جَدّي، فإن قُلتْ جَدّك عَلِمَ الحاضِرون والنّاس كُلّهم إنّك كاذب وإن قلت جدي فَلِم قتلت أبي ظلماً وعدواناً وانتُهبْتَ ماله وسُبيتْ نساءه فويلٌ لَكَ يومَ القيامة إذا كان جدّي خَصمُك.

فلم يجد يزيداً بدّاً من أن يأمر بالإقامة للصلاة، فوقع بين الناس لغط كثير وصلّى بعض، ولم يصلّ آخرون اعتراضاً على يزيد وفعله وإعلاناً لرفض إمامته للمسلمين.

المشهد الثاني: في الشام في قصر الطاغية بـ (جيرون)

وكان للطاغية قصر بضواحي دمشق بـ (جيرون)، وكان له في هذا القصر منظر يطلّ على دمشق، أو على وديان ورُبى دمشق الخضراء... فجلس الطاغية في قصره بجيرون ودعا إلى المجلس أعيان دمشق كما دعا ممثل قيصر في الشام وطائفة من أحبار اليهود وقساوسة النصارى، ونعرف ذلك من خلال الاعتراضات التي أشهرت في وجهه في نفس المجلس.

وأراد الطاغية أن يكون هذا الاجتماع اجتماعاً رسمياً حافلاً بالشخصيات السياسية والدينية وأعيان البلد ليحتفل بالانتصار الذي أحرزه على آل البيت عليهم السلام.

وأدخل عليه الرؤوس والأسرى والسبايا مغلولين مصفدين، قد غلت أيديهم إلى أعناقهم[١].

يزيد يعلن الكفر بالرسالة

قال الزهري: لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظره على جيرون، فلمّا رأى يزيد السبايا والرؤوس على أطراف الرماح، وقد أشرفوا على ثنية جيرون، نعب غراب فقال يزيد:

لما بدت تلك الحمول وأاشرقت ... تلك الرؤوس على ربا جيرون

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يقول السيد عبدالرزاق المقرّم في كتاب (المقتل): ومن هنا حكم ابن الجوزي والقاضي وأبويعلي والتفتازاني والجلال السيوطي بكفره ولعنه[٢].

وقال الآلوسي في روح المعاني (٦/ ٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ...﴾[٣] بعد ما أورد أبيات يزيد المتقدمة، أنه أراد بقوله (فقد قضيت من الرسول ديوني) انه قتل بما قتله رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر كجده عتبة وخاله وغيرهما. وهذا كفر صريح، ومثله تمثله بقوله ابن الزبعرى قبل إسلامه:

(ليت أشياخي ببدر)[٤].

يزيد ينكث ثغر الحسين بمخصرته

فدعا الطاغية رأس الحسين عليه السلام فوضع في طست من ذهب بين يديه، وكان النساء خلفه، فجعلت سكينة وفاطمة يتطاولان النظر إليه، فلما رأينه صرخن بالبكاء.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربّه ٤: ٣٨٢.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام، للسيد المقرّم: ٤١٥، وتذكرة الخواص: ١٤٩.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٢.

(٤) المقتل للسيد عبدالرزاق المقرم: ٤٢٢، في مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٥، والكامل لابن الأثير ٤: ٣٥، مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٩٥، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٠٥.

فأخذ يزيد ينكت ثغر الحسين عليه السلام بخيزران بيده[١]، ويقول يوم بيوم بدر[٢].

وأنشد يقول:

أبى قومنا أن ينصفونا فانصفت ... قواضب في أيماننا تقطر الدما

نفلق هاماً من رجال أعزّة ... علينا، وهم كانوا أعق واظلما

اعتراض يحيى بن الحكم

فقال يحيى بن الحكم بن أبي العاص أخو مروان:

لهام بجنب الطف أدنى قرابة ... من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سُميّة أمسى نسلها عدد الحصى ... وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

فدفعه يزيد في صدره، وقال: اسكت لا أُم لك[٣].

اعتراض الصحابي أبو برزة الأسلمي

وكان الصحابي أبو برزة الأسلمي يومئذ حاضراً مجلس يزيد، فلمّا رأى يزيد يضرب بمخصرته ثغر الحسين عليه السلام، وينشد ما ينشد لم يتمالك نفسه فصاح: «ويحك يا يزيد اتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة، أشهد لقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله يرشف ثناياه، وثنايا أخيه الحسن، ويقول أنتما سيدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما، ولعنه، واعدّ له جنهم وساءت مصيراً»، فغضب يزيد وأمر باخراجه، فاخرج سحباً[٤].

يزيد يعلن كفره مرة أُخرى، وينشد أبيات ابن الزبعرى

وجعل يزيد ينشد أبياتاً من شعر ابن الزبعرى قالها قبل أن يسلم يوم أُحد، بعد انتكاسة المسلمين، وهو يتمثل في الانتقام من رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) المقتل للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٤٢٣، عن تاريخ الطبري ٦: ٢٦٧، وكامل ابن الأثير ٤: ٣٥، وتذكرة الخواص: ١٤٨، والصواعق المحرقة: ١١٩ ومجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي ٩: ١٩٥، والفصول المهمة لابن الصباغ: ٢٠٥، والخطط المقريزية ٢: ٢٨٩، والبداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٩٢... إلى مصادر أُخرى.

(٢) المصدر السابق: ٤٢٣، عن مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٢٦.

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٢٦٥، والكامل لابن الأثير ٤: ٣٧.

(٤) نفس المهموم: ٤٤٣، المقتل للمقرّم: ٤٢٤، حياة الإمام الحسين للقرشي ٣: ٣٧٤، الكامل لابن الأثير ٣: ٢٩٨، اللهوف: ١٠٢، الطبري ٦: ٢٦٧ باختلاف يسير بين المصادر.

لـيـت أشـيـاخـي بـبـدر شـهـدوا جـزع الـخـزرج مـن وقـع الأسـل
لأهـلّـوا واسـتـهـلّـوا فـرحـاً ثـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تـشـل
قـد قـتـلـنـا الـقـرم مـن سـاداتـهـم وعـدلـنـاه بـبـدر فـاعـتـدل
لـسـت مـن خـنـدف إن لـم انـتـقـم مـن بـنـي أحـمـد مـا كـان فـعـل[1]

صرخة السيدة زينب عليها السلام في قصر الطاغية

ولما سمعت السيدة زينب بنت علي عليهما السلام هذا التحدي السافر من الطاغية قامت متحدية لسلطانه محتقرة لكبريائه وغروره وبطشه فقالت:

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٤٢٨.
قال رحمه الله بعد ما أورد الأبيات في هامش الصفحة: نص سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ١٤٨ على ما عدى الثاني منها: وفي مقتل الخوارزمي٢: ٥٨.
وذكر بعدهما الأبيات المذكورة هنا، وفي ص٦٧ ذكر أنها من قصيدة لعبد الله بن الزبعرى قالها يوم أُحد وذكر منها ستة عشر بيتاً، ولم يتوقف الآلوسي في روح المعاني ٢٦: ٧٣ في تمثله بها ولأجلها ولما صنعه بآل الرسول حكم أحمد بن حنبل وسعد التفتازاني وجماعة كثيرة بكفره.
ثم قال الآلوسي: ومن يقول أن يزيد لم يعص بذلك ولا يجوز لعنه ينبغي أن ينتظم في سلسلة أنصار يزيد «وأنا أقول» أن الخبيث لم يكن مصدقاً برسالة النبي صلى الله عليه وآله وأن مجموع ما فعله مع أهل حرم الله وأهل حرم نبيّه صلى الله عليه وآله وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر، ولا أظن أن أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين، ولكن كانوا مغلوبين مقهورين ولم يسعهم إلّا الصبر ولو سلم أن الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين، والظاهر أنه لم يتب واحتمال توبته أضعف من إيمانه.
ويلحق به ابن زياد وابن سعد وجماعة فلعنة الله عليهم وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دمعت عين على أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصلي وقد سئل عن لعن يزيد فقال:
يـزيـد عـلـى لـعـنـي عـريـض جـنـابـه فـأغـدو بـه طـول الـمـدى ألـعـن الـلـعـنـا
ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضليل فليقل لعن الله عزّ وجلّ من رضى بقتل الحسين ومن آذى عترة النبي بغير حق ومن غصبهم حقّهم فإنّه يكون لاعناً له لدخوله تحت العموم دخولاً أولياً في نفس الأمر ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي وموافقيه فإنهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوّزون لعن من رضي بقتل الحسين وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد. انتهى كلامه في روح المعاني ٢٦: ٧٢ ـ ٧٤ في آية ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ من سورة محمد.

«الحمدُ لله ربِّ العالمين، وَصَلّى الله عَلى رَسُولِهِ وآلِهِ أجمَعين، صدقَ اللهُ سُبحانَهَ حَيْثُ يَقولُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أظننت يا يزيدَ حيثُ أخذتَ علينا أقطارَ الأرض، وآفاق السّماء، فأصبَحْنا نُساقُ كما تُساق الأسارى أنّ بنا عَلى الله هَواناً، وَبِكَ عليهِ كَرامَة، وإنّ ذلِكَ لِعظمْ خَطَرَك عِنْده فَشَمخْتَ بأنفِكَ، وَنَظَرت في عِطفك، جذلان مَسروراً، حِينَ رَأيتَ الدُّنيا لَكَ مُستوسَقة، والأمورُ مُتَسِقة، وَحينَ صَفَا لَكَ مُلَكنا وَسُلطاننا فَمَهلاً مهلاً، أنسيتَ قَوْل الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أمِنَ العَدلِ يا بْنَ الطُلقاءِ، تَخدِيرَكَ حَرائِرَكَ وإماءَكْ، وَسَوْقَكَ بَناتَ رَسُول الله سَبايا، قَد هَتكْت ستورَهُنّ، وأبديتَ وُجُوهَهُنّ، تَحدو بِهنّ الأعداءِ مِنْ بَلَد إلى بَلد، وَيَستَشرفُهنّ أهلُ المَناهِلْ والمَعاقِلْ، وَيَتَصفحُ وجوهَهنّ القَريبُ والبَعيدُ، والدَنْيّ والشَّريف، لَيسَ مَعَهُنّ مِن حِماتهنّ حَميّ، وَلا مِنْ رِجالِهنّ وَليّ، وَكيفَ يُرتجى مُراقبةَ مَنْ لَفَظَ فُوهُ أكبادُ الأزكياء، وَنَبتَ لَحمهُ مِنْ دِماء الشُّهداء، وَكَيفَ يستبطأ في بُغضِنا أهلَ البيتَ مَنْ نَظَرَ إلينا بِالشَنَفَ والشَنآن، والأحن والأضغان ثُمّ تقولُ غير مُتَأثِمْ ولا مُسْتَعظِم:

لأهـلـوا واسـتـهـلـوا فـرحـاً ثـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تـشـل

مُنحَنياً عَلى ثَنايا أبي عبد الله سَيّدِ شَبابِ أهلِ الجّنة تَنكُتها بمخصِرتِك وَكيفَ لا تَقولُ ذلِك، وَقَدْ نكأت القُرحةِ، واستأصلت الشَأفة، بإراقتِكَ دِماءِ ذُرّية مُحمّد ﷺ وَنُجومِ الأرض مِنْ آل عَبْد المُطلِبْ وَتهتُف بأشياخِكَ، زَعمْت أنْك تُنادِيهُمْ فَلتردَنّ وَشيكاً مَورِدَهُمْ وَلَتودّن انّك شَللتَ وَبَكُمتَ وَلَمْ تَكُنْ قُلتَ ما قُلْتَ وَفعلتَ ما فَعَلْت.

اللهمّ خُذْ لنا بِحقّنا، وانْتَقِم مِمّنْ ظَلَمَنا، وَأحْلُلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَنا، وَقَتَلَ حُماتَنا.

فَوالله ما فَريتَ إلّا جِلدَكَ، وَلا حززَت إلّا لَحمَك، وَلتردنّ عَلى رَسُول اللهِ ﷺ بما تَحَمْلتَ مِنْ سَفكِ دِماءَ ذُريّته وَانتهَكتَ مِنْ حُرمَته في عِتْرَتِهِ وَلحْمَتِه، حَيثُ يَجمعُ الله شَملَهُمْ، وَيَلمْ شَعثَهُم، وَيَأخذ بِحَقِهُم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وَحسبُك باللهِ حاكِماً، وَبِمُحمّد ﷺ خَصِيماً، وَبِجبرائيل ظَهيراً، وَسَيَعْلَم مَنْ سوّل لَكَ وَمكّنكَ مِنْ رِقابِ المُسلمين بِئس للظّالمينَ بَدلاً، وَأيّكم شَرّ مَكاناً، وأضعفُ جُنداً.

وَلَئن جَرّت عليّ الدَواهي مُخاطَبَتُك، إنّي لأستصغِر قَدْرَكَ، واستعظم تَقريعَكَ، واستَكثُر تَوبيخَكَ، لكِنّ العُيونُ عَبْرى، وَالصُّدوُر حَرّى.

ألا فَالعَجَب كُلّ العَجَبْ، لِقَتلِ حِزب اللهِ النُجباء، بحزب الشّيطانِ الطُلقاء، فَهذِه الأيدي تَنطُفُ مِنْ دِمائَنا، والأفواهُ تَتَحلّبُ مِنْ لحُومنا وَتلكَ الجِثَثُ الطَواهِر الزواكي تَنتابُها العواسل[1]، وتُعفِرُها أُمّهات الفَراعل[2]، وَلِئنْ اِتَخذْتَنا مَغْنَماً، لتجِدنا وَشيكاً مَغْرَما، حِينَ لا تَجِدُ إلّا ما قَدَمَتْ يَداكَ، وَما رَبُّكَ بِظلّام لِلعبيد، وَإلى الله المُشتكى وعليهِ المُعوّل، فَكِدْ كَيْدَك واسعَ سَعيَك، وَناصِبْ جُهدَك، فَوالله لا تَمحو ذِكرَنا، وَلا تُميتُ وَحينَا، ولا يَرحضُ عَنكَ عارَها أبداً، وَهلْ رَأيكَ إلّا فَنَدُ، وأيامَكَ إلّا عَدَد، وَجَمعَكَ إلّا بَدَدْ، يَومَ يُنادي المنادي ألا لَعنةُ اللهِ على الظالِمين.

والحمدُ لله ربّ العالمين، الّذي خَتَمَ لأوّلِنا بِالسعادةِ وَالمغفِرة، وَلآخرنا بالشهادةِ والرَحْمَة، ونسأل الله أن يُكمِلْ لَهُمْ الثوابَ، وَيُوجِب لَهُمْ المَزيد، وَيُحسِنْ عَلَينا الخِلافَة، إنّهُ رَحيمٌ وَدودَ وَحسُبنا الله وَنِعمَ الوَكيل».

فارتبك يزيد ارتباكاً شديداً، وانزعج وغضب، وقال:

يا صيحة تحمد من صوائح ... ما أهون النوح على النوائح[3]

الخربة

وأمر الطاغية بايواء أهل البيت في خربة لا تقيهم من حرّ ولا برد فأقاموا به حتى تقشرت وجوههم وكانوا مدة اقامتهم في الشام ينوحون الحسين عليه السلام ويبكون عليه[4] وكانوا يقولون إنّما جعلنا يزيد في هذا البيت ليقع علينا فيقتلنا، فعرف الحرس ما يقولون فكان يقول بعضهم لبعض: أُنظروا إلى هؤلاء يخافون أن يقع عليهم البيت، وإنّما يخرجون غداً ليقتلون[5].

---

(١) تنتابها العواسل: تأتي مرة بعد أخرى والعواسل: الذئاب.

(٢) تعفرها: تمرغها في التراب. والفواعل: أولاد الضباع.

(٣) راجع مصادر السيرة: اللهوف: ١٦١ ـ ١٦٦، مقتل الخوارزمي٢: ٦٤، بلاغات النساء: ٢١، مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٤٢٨ ـ ٤٣٢، نفس الملهوف: ٤٤٤ ـ ٤٤٦، حياة الإمام الحسين للقرشي٣: ٣٨٠ ـ ٣٨١، وغير ذلك من المصادر.

(٤) راجع اللهوف: ١٦٨، ونقل السيد المقرّم في المقتل: ٤٣٣ نفس المعنى عن تاريخ الطبري ٦: ٢٦٦، والبداية والنهاية٨: ١٩٥.

(٥) بصائر الدرجات: ٣٣٨.

الأصداء وردود الأفعال

كان لخطاب علي بن الحسين عليه السلام في جامع الشام ولخطاب السيدة زينب بنت علي عليها السلام في قصر الطاغية وللدور الذي قام به أهل البيت عليهم السلام في تعرية يزيد وفضحه أثر كبير في نفوس الناس.

فقد وجدنا أن الجمهور الذي حضر الجمعة في الجامع الأعظم بدمشق ضجّوا بالبكاء عندما ذكر لهم علي بن الحسين عليه السلام كيف قتل بنو أُمية أباه الحسين عليه السلام في كربلاء.

ووقع من الناس كما يقول المؤرخون (دمدمة وزمزمة عظمية وتفرق الناس وقد صلّى بعضهم وترك الصلاة آخرون).

وعندما تمثل يزيد بأبيات لابن الزبعرى لم يبق أحد في المجلس إلّا عابه، وانتقصه كما يقول المؤرخون.

وقد أنكر عليه فعله حتى ممثل ملك الروم الذي حضر الاحتفال بانتصار الطاغية على أهل البيت عليهم السلام [١]. وبعض رجال الدين من اليهود الذين حضروا الحفل[٢].

وضجّت الشام بهذه الجريمة فقصد الناس أن يهجموا على يزيد في داره ويقتلوه[٣].

بنو أُمية يتوجسون الخطر على سلطانهم

وعرف بنو أُمية أن يزيد إذا لم يكفّ عن غيّه في الاستمرار في هذا الاستعراض الطائش، ويواصل عمله في ظلم أهل البيت عليهم السلام والبطش بهم، فسوف يذهب ذلك بسلطان بني أُمية، ويثور الناس على بني أُمية في كل مكان.

ولذلك فقد قاوم العقلاء منهم طيش يزيد وحاولوا أن يحولوا بين يزيد والاستمرار في هذا الاستعراض القبيح.

وقد رأينا أن يحيى بن الحكم بن أبي العاص عارض يزيد ـ على ملأ من الناس ـ علانية في القصر عندما رأى أن يزيد ـ لعنه الله ـ ينكت بمخصرته على ثغر الحسين عليه السلام ويتمثل بقول الحصين بن الحمام:

---

(١) راجع مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٤٢٥.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٥: ٢٤٦.

(٣) الشيخ عباس القمي في نفس المهموم: ٤٥٢، نقلاً عن الكامل للبهائي٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

أبى قومنا أن يُنصفونا فانصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما

فقال يحيى بن الحكم، معرضاً به، ومحاولاً أن يخفف وقع هذا الطيش على الناس.

لـهـام بـجـنـب الـطـف أدنـى قـرابـة

مـن ابـن زياد الـوغد ذي الـحسـب الـوغـل[١]

ولكن يزيد لم ينتبه إلى طيشه وما يحمله له من عواقب سيّئة، ولم يرتدع فدفعه في صدره، واسكته.

وبعثت عاتكة ابنته ليأتوا لها بالرأس الشريف فطيّبته واعادته فأنكر ذلك عليها يزيد، وقال لها: ما هذا؟

فقالت: (وجدت رأس عمّي شعثاً فلممته وطيّبته)[٢]. ولكن يزيد لم يكف عن غيّه وغروره.

ودخلت عليه هند فزعة، مهتوكة الحجاب، وهي تقول:

رأس ابن بنت رسول الله ﷺ على باب دارنا[٣].

وكان من أشد الناس انكاراً لـه ولده معاوية. فأخذ يزيد يثوب إلى عقله عندما أكثروا عتابه ولومه، وتكرر عليه انكار الناس، وقد ذكروا أن مروان كان يومئذ بالشام[٤]، فقال ليزيد ـ وهو يرى تردي الحالة الاجتماعية والسياسية وتصاعد انكار المسلمين على بني أُمية ـ : (لا يصلح لك توقف أهل بيت الحسين في الشام فأعدّ لهم الجهاز، وابعث بهم إلى الحجاز)[٥].

الطاغية يضطر إلى التراجع

ويكف الطاغية أخيراً عن غيّه وطيشه، ويبدأ بالتراجع، والتظاهر بالندم، وإلقاء عبئ هذه الجريمة على ابن مرجانة في الكوفة، والتبري منه والاعتذار لأهل البيت عليهم السلام والإعداد لعودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة بهيئة تختلف عن الهيئة التي أتوا بهم عليهم السلام إلى الشام.

(١) الكامل لابن الأثير٤: ٣٥.

(٢) حياة الإمام الحسين للشيخ باقر القرشي٣: ٣٧٦ عن الكواكب الدرية ١: ٥٦.

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٢٦٧، ومقتل الخوارزمي٢: ٧٤.

(٤) هذه إحدى الروايتين، والرواية الأُخرى أنه كان يومئذ بالمدينة.

(٥) نفس المهموم: ٤٥٢ عن الكامل للبهائي٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

فكان يقول، نادماً على ما صدر منه، ملقياً تبعات هذه الجريمة على ابن زياد:

ما كان عليّ لو احتملت الأذى وانزلته ـ أي الحسين ـ معي في داري، وكلّمته فيما يريد. لعن الله ابن مرجانة، فقد بغّض بقتله إليّ المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغّضني إلى البرّ والفاجر بما استعظم الناس في قتلي حسيناً، مالي ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه[١].

وقال لعلي بن الحسين: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة إلّا أعطيته إياها ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولكن الله قضى ما رأيت[٢].

الطاغية يامر بإقامة مجلس العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام

وأفرد يزيد لأهل البيت عليهم السلام، داراً عامرة قريبة من قصوره (دار الحجارة) وأذن لهم بإقامة العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام، من بعد ما كان ذلك محظوراً عليهم، حتى يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: **«كلّما دمعت عين واحد منّا قرعوا رأسه بالرمح»**، فأقمن المأتم على الحسين عليه السلام سبعة أيام، وكان يجتمع عندهنّ كل يوم جماعة كثيرة لا تحصى من النساء[٣]. فلم تبق هاشمية، ولا قرشيّة إلّا لبست السواد حزناً على الحسين عليه السلام.

وروى المفيد في الإرشاد: إنّ الطاغية أمر بالنسوة أن ينزلنّ في دار على حدة معهن أخوهنّ علي بن الحسين عليه السلام، فأفرد لـه داراً يتصل بدار يزيد فأقاموا أيّاماً[٤].

نياحة الحسين عليه السلام في قصر الطاغية

وامعاناً في الأمر، أمر الطاغية باقامة النياحة على الحسين عليه السلام في قصره، فأدخل أهل البيت عليهم السلام في قصره، فلما دخلت النسوة من آل البيت عليهم السلام دار يزيد لم يبق من آل معاوية ولا آل أبي سفيان أحد إلّا استقبلهنّ بالبكاء والصراخ والنياحة على الحسين عليه السلام وأقمن المآتم عليه ثلاثة أيام[٥].

---

(١) راجع تاريخ الطبري ٧: ١٩، وابن الأثير٣: ٣٠٠، ومصادر أُخرى تجد هذا المضمون يتكرر من يزيد.

(٢) الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

(٣) نفس المهموم: ٤٥١ عن كامل البهائي٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

(٤) الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

(٥) جلاء العيون لسيد شبر ٢: ٢٦٤.

وروى سبط ابن الجوزي في التذكرة قال:

قال الزهري: لما دخلت نساء الحسين عليه السلام وبناته على نساء يزيد قمن إليهن، وصحن، وبكين، وأقمن المآتم على الحسين عليه السلام.

وقال الشعبي: لما دخل نساء الحسين عليه السلام على نساء يزيد قلن:

واحسيناه، فسمعهنّ يزيد، فقال:

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون الموت على النوائح[١]

ونحن لانشك أن نفوس بني أُمية لم تطب عن أهل البيت قط، وأما الأحقاد التي كان يكنّها يزيد لآل البيت لم تزل ولم تتغيّر، ولم يأمر يزيد بالتخفيف عن آل البيت عليهم السلام ولم يأمر باخراجهم عن الخربة التي كانت لا تقيهم من حرّ ولا برد حتى تقشر الجلود، كما يقول الشيخ ابن نما في مثير الأحزان[٢] ولم يأمر باستقبال أهل البيت عليهم السلام في قصوره واقامة النياحة على الحسين عليه السلام فيها إلّا بعدما أحسّ أنّ الخطر قد أحدق به وتزلزل عرشه وسلطانه، فرأى أن يرعوي عن غيّه وطيشه، ويلقي ثقل الجريمة على ابن مرجانة، ويتبرأ منها، ويتظاهر بالحزن على الحسين عليه السلام، ويأمر بإعادة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة بإكرام، وقد أوقفهنّ قبل أيام على هيئة الأسرى مغلولين مصفدين على مدرج جامع دمشق يوم الجمعة، رجالاً ونساءً.

ولم يؤثر عنه أنه عاقب ابن مرجانة أو عاتبه على فعله، ولم يعزله، ولم يحاسبه بل أكرمه على جريرته.

قال السبط في التذكرة:

«إنّ يزيد استدعى ابن زياد إليه وأعطاه أموالاً كثيرة وتحفاً عظيمة، وقرّب مجلسه، ورفع منزلته، وادخله على نسائه وجعله نديمه، وسكر معه ليله، وقال للمغني غنِّ:

أسقني شربة تروي فؤادي ثم مُلْ فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السرّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

قاتل الخارجي أعني حسيناً ومبيد الأعداء والحسّاد[٣]

(١) تذكرة الخواص: ١٥٠.

(٢) مثير الأحزان لابن نما: ٥٦.

(٣) تذكرة الخواص: ١٦٤.

الطاغية يعرض المال على أهل البيت عليهم السلام

وبعد سبعة أيّام من النياحة والعزاء المعلن على الحسين عليه السلام والمشاركة الواسعة لنساء الشام والهاشميات والقرشيات والأمويات في عزاء الحسين عليه السلام، دعا يزيد أهل البيت عليهم السلام واعتذر إلى زين العابدين عليه السلام ما حدث، وألقى ثقل المسؤولية على ابن مرجانة، ثم خيّرهم بين المقام معه بدمشق أو العودة إلى المدينة، فأبوا المقام بدمشق وطلبوا العودة إلى المدينة.

وعرض الطاغية على أهل البيت عليهم السلام أموالاً كثيرة ليرضوا عنه عوضاً عما ارتكب بحقهم من الجريمة.

فلم تطق أُم كلثوم أن تتحمّل هذه الصلافة من يزيد، فقالت له:

«ما أقلّ حياؤك يا يزيد، واصلف وجهك، تقتل أخي وأهل بيتي، وتعطيني عوضهم مالاً».

فأنكروا عليه هذا العرض، ورفضوه، واحتقروا عرضه وماله وسلطانه[١].

---

(١) راجع بحار الأنوار ٤٥: ١٩٧.

المرحلة الثالثة من خطاب الثورة الحسينية:

في المدينة المنورة

لبست المدينة الحداد لمقتل الحسين عليه السلام وأقامت عليه النياحة والعزاء مرتين.

أقامت النياحة على الحسين في المرة الأُولى عندما بلغهم نبأ شهادة الحسين من جانب رسول ابن زياد إلى عمرو بن سعد الأشدق عامل يزيد على المدينة.

وفى المرة الثانية بعد وصول أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة، وسوف نتحدث عنهما تباعاً، بقدر ما يتعلق بموضوع بحثنا (الخطاب الحسيني في المدينة المنوّرة).

١ ـ الحداد الأوّل للمدينة بمصرع الحسين عليه السلام

وصول نبأ شهادة الحسين عليه السلام إلى المدينة:

للحرمين الشريفين أهمية كبيرة في كل السياسات المركزية لدولة بني أُمية... ولذلك فقد بادر ابن زياد إلى ارسال رسول من الكوفة إلى الأشدق عامل بني أُمية على المدينة ليعرفه بخبر مقتل الحسين عليه السلام، وحاول الرسول أن يعتذر بالمرض، فأبى ابن زياد إلّا أن يعجّل بابلاغ أمير المدينة عمرو بن سعيد الأشدق بخبر مقتل الحسين، وأمر أن يجدّ في السير حتى لا يسبقه غيره بالخبر إلى المدينة، مخافة أن يخرج الأمر عن إدارة أمير المدينة.

فبلغ الرسول المدينة، فلقيه رجل من قريش عند مدخل المدينة، وتبيّن في وجهه الارهاق والاستعجال فشكّ في أمره، فسأله عن الخبر، فقال له: الخبر عند الأمير[١].

فعرف الرجل أن الخبر يتعلق بمقتل الحسين عليه السلام.

فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قتل والله الحسين، صدقت أُم سلمة بما نُبّأت به[٢].

---

(١) راجع تاريخ الطبري ٦: ٢٦٨.

(٢) حياة الإمام الحسين للقرشي ٣: ٤١٦، زينب بنت علي لعبد العزيز سيد الأهل.

ودخل الرسول على الأشدق أمير المدينة، فألقى إليه الخبر، فسُرّ الأشدق بالخبر وفرح به وقال:

(واعية بواعية عثمان)[١].

خطاب الأشدق

ودعا الأشدق الناس إلى مسجد رسول الله ﷺ فرقى الأعواد، وهو لا يملك نفسه فرحاً بمقتل الحسين عليه السلام فقال: (أيها الناس، إنّها لدمة بلدمة، وصدمة بصدمة، كم خطبة بعد خطبة، حكمة بالغة، فما تغني النذر، لقد كان يثلبنا ونمدحه، ويقطعنا ونصله، كعادتنا وعادته، ولكن كيف نصنع بمن سلّ سيفه علينا يريد قتلنا، إلّا أن ندفعه عن أنفسنا)[٢].

ردود الفعل

فقام إليه عبد الله بن السائب، وقال: لو كانت فاطمة عليها السلام حيّة، ورأت رأس الحسين عليه السلام لبكت عليه.

وكان هذا هو الإنكار الأوّل، وبداية السخط والاعتراض والإنكار على جريمة بني أُمية.

فردّ عليه الأشدق، وكان فظّاً، فقال:

(نحن أحقّ بفاطمة منك، أبوها عمّنا، وزوجها أخونا، وأُمها ابنتنا، ولو كانت فاطمة حيّة لبكت عينها، وما لامت من قتله)[٣].

وعلى طريقة بني أُمية في إرهاب الناس وإرغامهم على السكوت ومطاوعة الحكّام في جرائمهم، والكفّ عن الاعتراض، أمر الأشدق بهدم دور بني هاشم في المدينة، وضرب الناس إذا عرف منهم المعارضة والإنكار، فضرب الناس ضرباً شديداً مبرحاً، وهرب الناس منه إلى ابن الزبير في مكة[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٦٨.

(٢) مقتل المقرم ٤: ٤٠٦.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم ٤: ٤٠٦.

(٤) المصدر السابق عن الأغاني٤: ١٥٥.

نساء بني هاشم يندبن الحسين عليه السلام

فضجّت نساء بني هاشم بالبكاء والنياحة على الحسين عليه السلام، واتصل الخبر بالطاغية الأشدق، فضحك وتمثل بقول عمرو بن معد يكرب:

عجّت نساء بني زياد عجّة ... كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[1]

وخرجت أسماء بنت عقيل بن أبي طالب عليه السلام في جماعة من نساء قومها حتى انتهت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فلاذت به وشهقت عنده، ثم خاطبت الأنصار والمهاجرين:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ... يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتموا عترتي أو كنتم غُيبا ... والحق عند ولي الأمر مجموع
اسلمتموهم بأيدي الظالمين فما ... منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند غداة الطف إذ حضروا ... تلك المنايا ولا عنهنّ مدفوع

فبكت وأبكت القوم، يقول الشيخ الطوسي في أماليه:

فلم يُر باك وباكية مثل ذلك اليوم[2].

وندبت زينب بنت عقيل بن أبي طالب، الحسين عليه السلام بأشجى ندبة، وأنشدت:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأُمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أُسارى، ومنهم ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحتكم ... أن تخلفوني بسوءفي ذوي رحمي[3]

فأجابها أبو الأسود، وهو غارق في البكاء والشجون: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وأخذ يقول:

أقول، وزادني حنقاً وغيظا ... أزال الله ملك بني زياد
وابعدهم، كما بعدوا وخانوا ... كما بعدت ثمود وقوم عاد
ولا رجعت ركائبهم إليهم ... إذا وقفت بهم يوم التناد[4]

---

(١) راجع تاريخ الطبري٦: ٢٦٨.
(٢) مقتل المقرم: ٤٠٧، عن الأمالي للشيخ الطوسي: ٥٥.
(٣) اللهوف لابن طاوس: ٩٦.
(٤) حياة الإمام الحسين للقرشي٣: ٤١٩، نقلاً عن مجمع الزوائد للهيثمي: ٩: ١٩٩.

وأقامت أُم البنين زوجة أمير المؤمنين العزاء على الحسين عليه السلام، وكانت نساء بني هاشم يجتمعن عندها للعزاء والنياحة[١].

عبد الله بن جعفر يقيم المأتم للحسين عليه السلام

وأخذ الناس يتوافدون على عبد الله بن جعفر، يعزّونه بمصرع الحسين عليه السلام والشهداء من أهل بيته وأصحابه.

وكان له مولى يقال له أبوالسلاسل، فقال متأثراً بمقتل أبناء عبد الله: (هذا ما لقيناه من الحسين).

فخذفه عبد الله بنعله، وقال لـه: (يابن اللخناء[٢] تقول ذلك في الحسين، والله لو شهدته لأحببت أن لا أُفارقه حتى أُقتل معه والله أنه لمما يسخي نفسي عن ولدي، ويهوّن عليّ المصاب بهما إنّهما أُصيبا مع أخي وابن عمي مواسين لـه صابرين معه) ثم أقبل على حضّار مجلسه، فقال لهم: (الحمد لله وإن عزَّ عليَّ المصاب بمصرع الحسين عليه السلام أن لا أكون واسيته بنفسي، فلقد واساه ولدي)[٣].

وهكذا انتشر الخبر بمقتل الحسين عليه السلام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله في وسط جوٍّ من الأسى والنياحة والعزاء، والإحساس بالذنب: إنّهم لم يواسوا الحسين عليه السلام بأنفسهم، كما قرأنا شطراً من ذلك في كلام أبي الأسود.

عبد الله بن عباس يفجع بالحسين ويقيم المأتم

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق: إنّ عبد الله بن العباس كان في الحرم، إذ أسرّ إليه شخص بالحادث المفجع في العراق فذعر، واجهش بالبكاء.

فسأله محمد بن عبد الله:

ما حدث يا أبا العباس؟

قال: مصيبة عظيمة نحتسبها عند الله، وارتفع صوته بالبكاء، وانصرف إلى منزله، واقام في منزله مأتماً على الحسين عليه السلام واقبل الناس يعزّونه بمصيبة الحسين[٤].

---

(١) مقتل المقرم: ٤٠٨، عن رياض الأحزان: ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) اللخناء: الأمة التي لم تختن عن القاموس المحيط ٤: ٢٦٨.

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٢١٨.

(٤) تاريخ ابن عساكر ١٣: ٨٦.

٢ ـ الحداد الثاني للمدينة بمصرع الحسين عليه السلام

عودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة

كان لابد للطاغية أن يحدث تغييراً في سياسته تجاه أهل البيت عليهم السلام من العنف والارهاب إلى الارفاق والتعاطف، وأن يتظاهر بالندم، ويلقي عبئ المسؤولية على عهدة ابن مرجانة، كما ذكرنا.

فأمر الطاغية بتجهيز أهل البيت عليهم السلام للعودة، وطلب من النعمان بن البشير، وكان محبّاً لأهل البيت عليهم السلام أن يرافقهم من الشام إلى المدينة، وأن يرفق بهم في المسير[(١)].

وأمر يزيد أن يغادر أهل البيت عليهم السلام الشام ليلاً، ومن غير إعلان[(٢)]، لئلا يعلم الناس بخروجهم، فيخرجوا لتوديعهم، كما حصل في الكوفة، وكان يزيد يخاف سخط الناس وغضبهم ويخاف الاضطراب والفتنة.

فخرج النعمان بأهل البيت عليهم السلام ولم يزل يرافقهم وينازلهم في الطريق، ويرفق بهم حتى دخلوا المدينة[(٣)].

بشير بن حذلم ينعى الحسين عليه السلام إلى مدينة جدّه

قال بشير بن حذلم: لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين وحطّ رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال: يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعراً فهل تقدر على شيء منه؟ قلت: بلى يا بن رسول الله إني لشاعر.

فقال عليه السلام: **ادخل المدينة وانع أبا عبد الله عليه السلام.**

قال بشير: فركبت فرسي حتى دخلت المدينة فلمّا بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء وانشأت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج والرأس منه على القناة يدار

(١) الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

(٢) حياة الإمام الحسين للقرشي ٣: ١٩٧.

(٣) الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

وقلت: هذا علي بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه. فخرج الناس يهرعون ولم تبق مخدّرة إلّا برزت بالويل والثبور، وضجّت بالبكاء، فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم[1].

جمهور المدينة يستقبلون أهل البيت عليهم السلام بالبكاء والنياحة

يقول بشير بن حذلم (جذلم): وسمعت جارية تنوح على الحسين فتقول:

نعى سيدي ناع نعاه فأوجعا ... وأمرضني ناع نعاه فأفجعا
فعينيّ جودا بالدموع وأسكبا ... وجودا بدمع بعد دمعكما دمعا
على من دهى عرش الخليل فزعزعا ... فأصبح هذا المجد والدين أجدعا
على ابن نبيّ الله وابن وصيّه ... وإن كان عنّا شاحط الدار اشسعا

ثم قالت: أيها الناعي جددت حزننا بأبي عبد الله عليه السلام، وخدشت منا قروحاً لم تندمل، فمن أنت رحمك الله؟

قلت: أنا بشير بن حذلم وجّهني مولاي علي بن الحسين، وهو نازل في موضع كذا وكذا مع عيال أبي عبد الله الحسين عليه السلام ونسائه.

قال: فتركوني مكاني وبادروني (سبقوني إلى أهل البيت عليهم السلام خارج المدينة). فضربت فرسي حتى رجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسي، وتخطّيت رقاب الناس حتى قربت من الفسطاط، وكان علي بن الحسين عليه السلام داخلاً، فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له، وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء وحنين النساء والجواري، والناس يعزّونه من كل ناحية، فضجّت تلك البقعة ضجّة شديدة، فأومأ بيده أن اسكتوا، فلمّا سكنت فورتهم قال:

خطبة علي بن الحسين عليه السلام في المدينة

«الحَمْدُلله ربّ العالَمينَ، الرّحمنُ الرّحيمْ، مالِكِ يَوم الدّينِ، بارئُ الخلائِق أجمَعين، الّذي بعُد، فارتفع في السّموات العُلى، وَقَرُبَ فَشَهَدَ النَجوى، نَحمُدُه عَلى عظائِم الأُمورِ،

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاوس: ١١٦.

وَفجائع الدُهورِ، وألِم الفَجائع، ومَضاضَةِ اللواذع، وَجلِيلِ الرزأ، وَعَظيمِ المصائِب الفاظِعة الكاظّة الفادِحة الجائِحة.

أيُها القُوم، إنَّ الله تَعالى وَلهُ الحَمْدُ اِبتَلانا بمصائبِ جَليلة، وَثَلمَةٍ في الإسلام عَظيمَة، قُتَل أبوعبد الله الحُسَين عليه السلام وَعترِتِه، وَسُبيتْ نِساؤه وَصبْيَتِهِ، وَدارُوا برأسِهِ في البُلدانِ، مِنْ فَوقِ عامِلِ السِنان، وهذهِ الرّزيةِ التي لا مِثلها رَزّية.

أيُها النّاس، فأيُّ رِجالات مِنكُمْ يُسرّون بَعدَ قَتلِه، أمْ أيّ فؤاد لا يَحزنْ مِن أجلهِ، أم أية عَين مِنكُم تَحبُس دَمعَها، وَتَضنْ عَنْ انهمالِها، فَلَقَد بَكَتْ السَبعُ الشِداد لِقَتلِه، وَبَكَتْ البِحارُ بأمواجِها، والسَّماواتِ بأركانِها، والأرضُ بأرجائِها، والأشجارُ بأغصانِها، والحيتانُ في لُججْ البِحارُ، والمَلائِكَةُ المقرّبون، وأهل السَّماوات أجمَعُونَ.

أيُها النّاسُ، أيُّ قَلب لا يَنصَدِعُ لِقَتلهِ، أمْ أي فُؤاد لا يحنّ إليه، أمْ أيَّ سَمع يَسمْعُ بِهذِه الثّلْمةِ الّتي ثُلِمتْ في الإسلام ولا يُصَمْ.

أيُها النّاس، أصبَحنا مُشرّدين مَطرُودِينَ مذودين شاسِعين عَنْ الأمصارِ كأنّا أولادُ تُرك وكابُل، مِنْ غَيرِ جُرم اجترمناه، ولا مَكرُوه ارتكبناه، ولا ثَلمةٌ في الإسلام ثَلَمناها، ما سمعنا بِهذِا في آبائِنا الأوّلين، إنّ هذا إلّا اِختِلاق والله لَو أن النّبيّ تقدّم إليهِ في قِتالِنا كما تَقدْم إليهم فِي الوصيةِ بنا لما زادوا عَلى ما فَعلوا بِنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعُون من مُصيبة ما أعَظَمها وأفَجَعها وأوجَعها وأكظّها وأفظَعَها وأمرّها وأفدَحها، فعِندَ الله نَحتَسِبُ ما أصابَنا، وما بَلغ بِنا، فإنّه عزيزٌ ذو انتقام[1].

زينب تنعي الحسين إلى جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله

ودخلت زينب عليها السلام على قبر جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي ملتاعة، ناعية إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أخاها الحس شاكية إليه ما رأته من ظلم وسفك واضطهاد فأخذت بعضادتيّ باب المسجد، ونادت:

يا جداه، إنّي ناعية إليك أخي الحسين[2].

(١) المصدر السابق.
(٢) مقتل المقرم: ٤٥٢.

أم كلثوم تشكوا إلى جدّها مصرع الحسين عليه السلام

وأنشدت أُم كلثوم تنعى إلى جدّها مصرع الحسين عليه السلام وتشكوا إليه غدر الأُمة، وبطش الظالمين، وتقول في شجي وأسى:

مدينة جدّنا لا تقبلينا ... فبالحسرات والأحزان جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعاً ... رجعنا لا رجال ولا بنينا
وكنا في الخروج بجمع شمل ... رجعنا خاسرين مسلبينا
وكنّا في أمان الله جهراً ... رجعنا بالقطيعة خائفينا
ومولانا الحسين لنا أنيس ... رجعنا والحسين به رهينا
فنحن الضائعات بلا كفيل ... ونحن النائحات على أخينا
ألا يا جدّنا قتلوا حسيناً ... ولم يرعوا جناب الله فينا
ألا يا جدّنا بلغت عدانا ... مناها واشتفى الأعداء فينا
لقد هتكوا النساء وحمّلوها ... على الأقتاب قهراً أجمعينا[1]

نياحة بنات رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله

وصاحت سكينة: يا جدّاه إليك المشتكى مما جرى علينا فوالله ما رأيت أقسى من يزيد ولا رأيت كافراً ولا مشركاً شراً منه ولا أجفا وأغلظ فلقد كان يقرع ثغر أبي بمخصرته وهو يقول: كيف رأيت الضرب يا حسين[2].

رثاء الرباب للحسين عليه السلام

والرباب بنت امرئ القيس زوجة الحسينت وهي أُم سكينة وجداً شديداً، وحزنت عليه حزناً بليغاً، وكانت ترثاه رثاءَ شجياً، فماتت رحمها الله حزناً وكمداً.

ومن رثائها في الحسين عليه السلام ما يرويه أبوالفرج الاصفهاني في الأغاني:

إنّ الذي كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبي جزاك الله صالحة ... عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
مَن لليتامى ومن للسائلين ومَن ... يغني ويأوي إليه كل مسكين[3]

---

(١) منتخب الطريحي: ٣٥٧.

(٢) مقتل المقرم: ٤٥٢.

(٣) الأغاني لأبي الفرج ١٤: ١٥٨.

نياحة أهل البيت عليهم السلام على الحسين عليه السلام في المدينة

وأقمن نساء أهل البيت عليهم السلام النياحة على الحسين، ولم تزل حرائر آل البيت يداومن على النياحة للحسين عليه السلام وزين العابدين عليه السلام يتعهدهنّ بالطعام كما في رواية البرقي في المحاسن[١].

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام: «ما اختضبت هاشمية ولا ادهنت ولا أُحيل مرود في عين هاشمية خمس حجج، حتى بعث المختار رحمه الله برأس عبيد الله بن زياد»[٢].

وكان مسوّر بن مخرمة وأبو هريرة والمشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون متسترين، مخافة عيون بني أُمية وجواسيسهم، ويبكون لنياحة نساء أهل البيت عليهم السلام وحزنهنّ على الحسين عليه السلام[٣].

أحزان علي بن الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام

ولم تنقطع أحزان زين العابدين وعمته زينب، وكان كلما ذُكر الحسين عليه السلام استغرقه البكاء، فإذا ذكره عند الطعام والشراب بكى حتى يبلّ الطعام من بكائه.

وقال له بعض مواليه يوماً: أما آن لحزنك أن ينقضي يا سيدي؟

فقال له: **ويحك أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبيّاً ابن نبي، وكان له اثني عشر ابناً، فغيَّب الله سبحانه واحداً منهم فذهب بصره من البكاء، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي»**[٤].

وكانت زينب بنت علي عليه السلام لا تجف لها عبرة ولا تفتر من البكاء والنحيب، وكلّما نظرت إلى علي بن الحسين عليه السلام ابن أخيها تجدّد حزنها وزاد وجدها[٥].

---

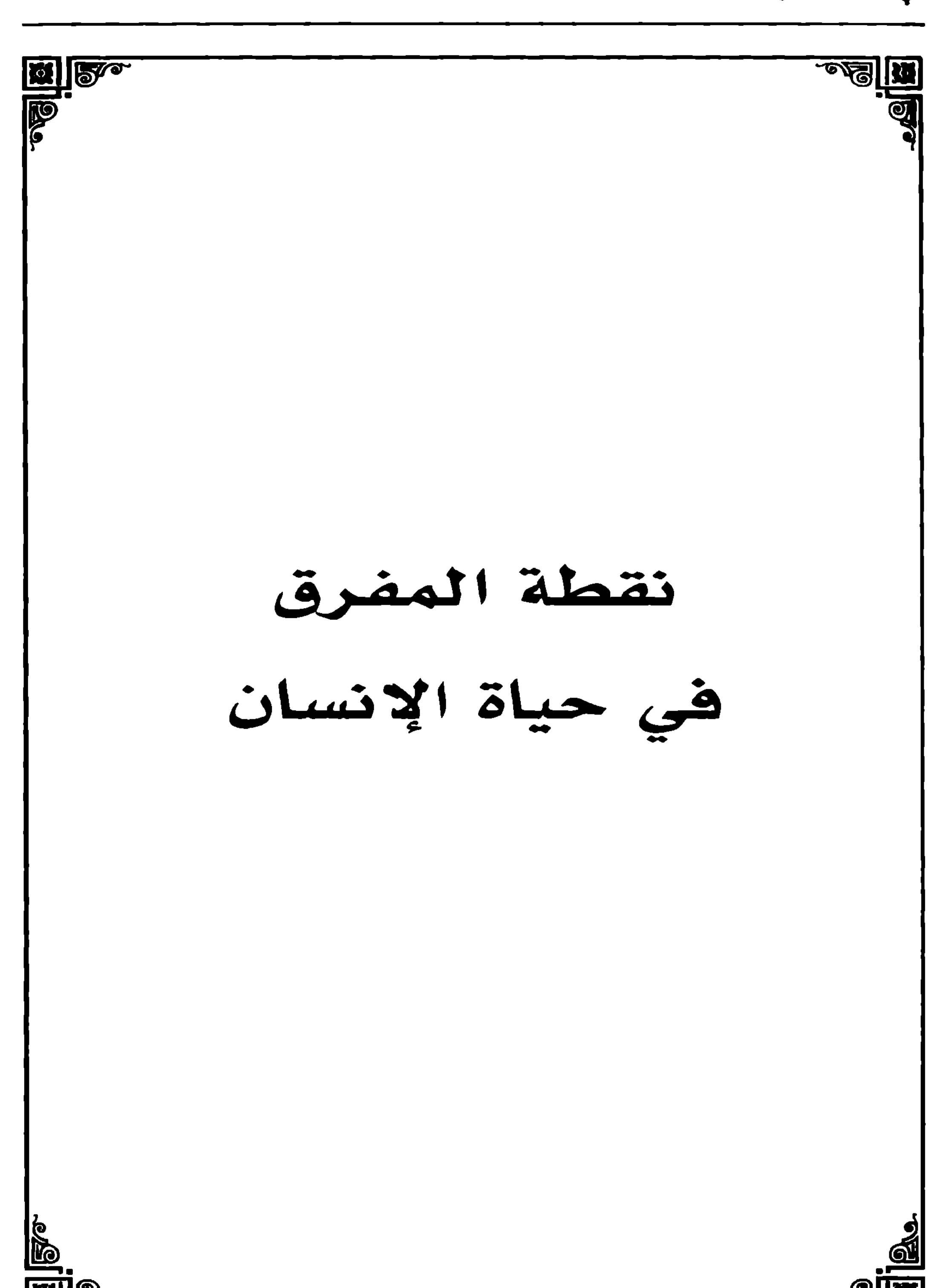
(١) المحاسن للبرقي: ٢: ٤٢٠.

(٢) بحار الأنوار ٤٥ : ٣٨٧.

(٣) دعائم الإسلام ١ : ٢٣٠، حسبما ورد في حياة الإمام الحسين ٣: ٤٢٨.

(٤) اللهوف: ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٥) منتخب الطريحي: ٣٥٨.



نقطة المفرق في حياة الإنسان

نقطة المفرق في حياة الإنسان

أيام الفرقان

أيام (الفرقان) فترات ممتازة في التاريخ تُميّز الناس، وتشطرهم إلى شطرين أو أكثر. وحكمها في التأريخ حكم (المفرق) في حركة الناس على وجه الأرض.

فإن الطرق والمسالك العامة تجمع الناس السالكين على الطريق الواحد، فإذا بلغوا المفارق تفرقوا إلى شطرين أو ثلاث أو أكثر... كذلك أيام الفرقان تُفرّق الناس الذين تجمعهم أيام العافية.

ويسمي القرآن يوم بدر ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[1]، لأنّ هذا اليوم شطر الناس الذين كانت تجمعهم محافل مكة أيام اليسر والعافية والفراغ والبطر إلى شطرين متصارعين متقاتلين.

وليس دائماً يستطيع الإنسان أن يعيش مع كل الناس ويجاملهم، ويلقاهم، ويعاشرهم جميعاً. فإن الله تعالى قد جعل في التاريخ، وفي حياة الناس أياماً، لابد لهم فيها من (القرار) فيما يفعلون، وفيما يقولون، وفي الحرب والسلم، وفي المواصلة والمقاطعة، وفي الإقبال على الله أو الإعراض عن الله... وهذه هي أيام الفرقان.

عاشوراء من أيام الفرقان

ويوم عاشوراء من أيام الفرقان في تاريخ الإسلام، شطر الناس شطرين مختلفين، بعد أن كانت تجمعهم أيام العافية واليُسْر: شطر وقف مع الحسين عليه السلام وقاتل بني أُمية، والشطر الآخر وقف مع بني أُمية، وقاتل الحسين عليه السلام أو آزر بني أمية وأيدهم وخذل سيد شباب أهل الجنة عليه السلام في خروجه على بني أمية، وكان لابد للناس أن يختاروا، ويقرّروا الجهة التي يصفّون معها والتي يقاتلونها، ولم يكن للناس يومئذ بدّ من ذلك. وهذه هي ميزة أيام الفرقان، تجبر الناس على اتخاذ القرار واختيار الجهة التي ينتمون إليها بالولاء والتي يعادونها بالبراءة.

---

(١) يقول تعالى عن يوم بدر في سورة الأنفال الآية ٤١: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

والناس يختلفون في القوّة والضعف، والشجاعة، والجبن، والإيمان والنفاق، والعطاء والشح، والولاء والبراءة، ولكنهم لا يتمايزون عن بعض كثيراً في أيام العافية واليُسْر، فتجمعهم الأسواق، والمساجد، والمجامع من دون تمييز، ومن دون أن يعرف بعضهم بعضاً، حتّى من دون أن يعرف الإنسان نفسه، في بعض الأحيان، فإذا جاءت أيام الفرقان تمايز الناس فيما بينهم وافترقوا، وانكشف للآخرين ولهم أحياناً من أنفسهم ما كانوا يجهلونه من قبل.

ويوم عاشوراء من أيام الفرقان في التاريخ، شطر الناس إلى ثلاثة أشطر: شطر من الناس سقطوا في فتنة الدنيا واستسلموا لأهوائهم، وهلكوا. والشطر الآخر من الناس تحرّروا من سلطان الهوى، وتجاوزوا الفتنة، ولكن بمعاناة وجهد كبيرين، إلّا إنهم بلغوا شاطئ الأمان أخيراً ووصلوا إلى لقاء الله.

والشطر الثالث من الناس أسرعوا إلى لقاء الله خفافاً من دون معاناة ولا عذاب، ولا ترديد، وفصلوا أنفسهم عن الفتنة، كما تفصل الشعرة من داخل اللبن.

وهذه حالات ثلاثة في الإقبال والإعراض عن الله توجد في كل زمان ومكان، إلّا أن الناس لا يتمايزون فيما بينهم بعضهم عن بعض أيّام العافية والبطر والفراغ، فتميزهم (أيام الفرقان).

فلنتأمّل في هذه الطوائف الثلاثة التي أفرزتها عاشوراء.

طوائف الناس الثلاثة في يوم عاشوراء

الطائفة الأُولى

وهي التي سقطت في الفتنة.

إنّ هذه الطائفة لم تكن تحب السقوط في الفتنة، من أوّل الأمر، ولم تكن ترفض الحقّ، ولا تحب الإعراض عن الله، وكانت تحب الله، وتطلب الحقّ، وهذا أمر غرسه الله تعالى في فطرة كل إنسان. هذا **أوّلاً**.

وثانياً: كانت تحب أن يجمع الله لها بين الدين والدنيا، وكانت تريد أن تنعم بهما معاً. وهذا أمر مغروس في نفس كل إنسان، فإن الله تعالى خلق في نفوسنا أهواءً وشهوات، وهي جزء من كياننا النفسي.

وثالثاً: كان النزوع إلى الدنيا هو النزوع الأقوى والنزوع إلى الله هو النزوع الأضعف في نفوسهم.

إلّا أنهم لم يكونوا يعرفون من قبل أن يبلغوا مفرق (الفرقان) هذه الحقيقة من نفوسهم، ولم يكن الناس يعرفون منهم هذه الخصلة حتّى بلغوا نقطة المفرق (الفرقان).

ونقطة المفرق فضحتهم للآخرين، وكشفتهم لأنفسهم.

الطائفة الثانية

وهي التي تجاوزت الفتنة، وبلغت شاطئ الأمان، ولكن بعذاب ومعاناة. وعند التحليل نجد:

١ - إن هذه الطائفة كانت تحبّ أن تنعم بالدنيا ونعيمها ولذاتها، ولم تكن تكره هذه الدنيا التي يتمتع بها الناس.

٢ - وكانت تتمنى أن يجمع الله لها بين الدين والدنيا. ويجنبها المفارق، التي تضطرهم إلى الاختيار الصعب، ويتمنون أن تكون أيامهم كلها عافية، يجمع الله لهم بين الدين والدنيا، فيؤدون حقّ الله تعالى، كما يحب الله، وينعمون بدنياهم كما تهوى أنفسهم.

٣ - ولكنهم كانوا يحرصون ألّا يكون النزوع إلى الدنيا في نفوسهم هو النزوع الأقوى، وأن لا يسلبهم النزوع إلى الدنيا السلطان على أنفسهم، ولا يسلبهم القرار والاختيار، وبالتالي كانوا يحرصون أن يحافظوا في أنفسهم على حريّة القرار، وسلامة الضمير، رغم أنهم كانوا يدخلون الدنيا التي يدخلها الناس، وينعمون بما ينعم بها الناس من هذه الدنيا.

٤ - فإذا بلغوا نقطة المفرق (الفرقان) حيث يجب عليهم أن يختاروا أحد الطريقين، إمّا إلى الله، وإمّا إلى الدنيا، ملكوا من أنفسهم حرية القرار، ولم يفقدوا السلطان على أنفسهم، وانحازوا من الدنيا إلى الآخرة، ومن الباطل إلى الحقّ، ومن الهوى والطاغوت إلى الله، ولكن بمشقة ومعاناة، وكأنهم ينتزعون أنفسهم من الدنيا انتزاعا.

وهذا هو (القرار الصعب) في حياة الإنسان. فإن القرار في حياة الناس على نحوين: القرار الصعب والقرار السهل، والقرار في حياة هؤلاء في نقطة المفرق من أصعب الأُمور، إلّا أنهم يفلحون أخيراً في انتزاع أنفسهم من سلطان الدنيا، ويقبلون على الله مهما كلّفهم الأمر.

ونقرأ في كتاب الله صورة عن هؤلاء في أصحاب بدر من صحابة رسول الله ﷺ. وقد

كان أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا معه معركة بدر ووقفوا فيها معه ﷺ قمة في الإيمان والثبات والتضحية، ولا يزال يضرب بهم المثل في الإيمان والإخلاص والتضحية.

ولكن القرآن يعكس لنا صورة عن معاناتهم النفسية الشديدة في مداهمة أعدائهم من مشركي قريش تدعوا إلى التأمل... يقول تعالى فيهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[١] أرأيت كيف ينتزع الإنسان نفسه من الدنيا وهو يساق إلى الموت، ويشهد الموت أمام عينيه، كذلك كان أُولئك الخيّرون الصالحون من أصحاب رسول الله ﷺ في بدر.

ولكنهم مع ذلك لم يتوانوا عن الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ، وأقبلوا على القتال، وقاتلوا وقتلوا ونالوا الشهادة، ورضي الله عنهم، ورفع لهم في الجنة مقاماً علياً مع النبيين والمرسلين والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً.

٥ ـ هؤلاء يؤيدهم الله بما يبذلون من جهد في تخليص أنفسهم من سلطان الهوى أو الدنيا، ويرزقهم أمرين، وأي أمرين؟

يرزقهما البصيرة والنور والهدى حتّى لا يضلّوا الطريق، ولا يتيهوا، أوّلاً، ويرزقهما القوة والدعم والإسناد حتّى لا يضعفوا عن إتمام الحركة الصعبة على طريق ذات الشوكة ثانياً.

ولا يحتاج الإنسان إلى غيرهما في السلوك، فإن كل ما يحتاجه الإنسان في السلوك إلى الله: بصيرة ونور يهتدي بهما، ولا يضل الطريق، وقوة ودعم وإسناد، من الله ليكّمل السير.

وقد ضمنهما الله تعالى لكل من يجاهد نفسه من عباده في السلوك والحركة إلى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

الهداية أوّلاً: وهي نور وبصيرة، ومعية الله ثانياً: وهي قوة ودعم وإسناد من عند الله لعباده. فإذا عرف الله تعالى من عبده صدق العزم والنية آتاه هذا وذاك، ويسّر الله له هذا السلوك الصعب.

الطائفة الثالثة

وهي التي تخفّ إلى لقاء الله براحة، ومن دون معاناة، وتتجاوز الدنيا وما يحفّها من الفتن من دون عناء ولا مشقة، وكأنهم لم يدخلوا الدنيا قط، حتّى ينتزعوا أنفسهم منها انتزاعا.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

هؤلاء يعيشون مع الناس في دنياهم، ولا يعيشون معهم. يتحركون مع الناس في الأسواق وساحات الحياة بأجسامهم، ولكن قلوبهم لم تتعلق بالدنيا قط.

ونذكر من هؤلاء نموذجين من شباب بني هاشم في كربلاء وهما عليّ الأكبر، والقاسم بن الحسن عليه السلام. هاذان لم يترددا قط في الاستجابة لنداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله وأوليائه، ولم يدخل حب الدنيا قط في قلوبهم، ولم يفكروا أن يجمعوا بين الدنيا والدين، كما يجمع الناس، ولم يتحرّجوا في نقطة المفرق التي تفرّق الناس، وتجبر الناس على اتخاذ القرار.

هؤلاء تلقّوا دعوة الحسين عليه السلام من دون أيّة معاناة، وخفّوا للقاء الله، كما يخفّ أحدنا لما يحدوه الشوق إليه، من دون تردّد، ولا توقف، ولا تأمّل، ولا معاناة.

ولعلّ فترة الشباب في حياة الإنسان أفضل فترة للتحضير لمثل هذه الحالة من خفّة الروح. فإن قلوب الشبّان غضة طريّة، لم تتمكن منها الدنيا، ولم تتعلق هي بالدنيا بعد، فيسهل عليهم انتزاعها من الدنيا من دون عناء... وكلما يمر على الإنسان يوم في التعامل مع الدنيا، يزداد تعلقاً بالدنيا، وإقبالاً عليها.

في هذه الفترة من عمر الإنسان بالذات، يختلط القرآن بقلوب الشبان وعقولهم بسرعة، إذا أقبلوا على القرآن.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرء القرآن، وهو شاب أختلط القرآن بلحمه ودمه»[1].

في هذه الفترة من العمر يسهل على الشبان أن يحفظوا أنفسهم ويقوها من الاستغراق في الدنيا، لأن الدنيا لم تتمكن بعد من قلوبهم، وليس كذلك من تقدّم به العمر، ولذلك يجري القرآن عليها كما يجري الماء على التربة الصالحة.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلّا ظله: الإمام العدل، وشاب نشأ في عبادة الله»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من شيء أحبّ إلى الله من شاب تائب»[3].

هؤلاء ثلاثة نماذج من الذين شهدوا عاشوراء...

---

(١) وسائل الشيعة ٢: ١٤١.

(٢) مجمع البيان ٢: ٣٨٥.

(٣) مشكاة الأنوار: ١٥٥.

وفيما يلي نأخذ بدراسة تحليلية في مقارنة هذه النماذج الثلاثة بعضها ببعض:

فنقارن أوّلاً بين نموذج من الطائفة الأُولى وآخر من الطائفة الثانية، وهما عمر بن سعد والحر بن يزيد الرياحي ﷺ، ثمّ نأخذ بمقارنة أُخرى بين نموذج من الطائفة الثانية ونموذج من الطائفة الثالثة، وهما الحر بن يزيد الرياحي وزهير بن القين رحمهما الله.

مقارنة بين الطائفة الأُولى والثانية

ونختار لهذه المقارنة من ساحة عاشوراء نموذجين معروفين واضحين.

النموذج الأوّل: هو الحر بن يزيد الرياحي ﷺ من الطائفة الثانية.

والنموذج الثاني: هو عمر بن سعد من الطائفة الأُولى.

وكل منهما من أبطال المعسكر الذي ينتمي إليه. الأوّل من معسكر الحسين عليه السلام والثاني من معسكر الأمويين، وبين الشخصين تشابه عجيب يلفت النظر، ويدعو للدراسة والتأمل والتحليل.

١ ـ كلاهما قائدان مرموقان معروفان في الجيش الأُموي، وسيّدان في قومهما. فهما ينزعان إلى الدنيا نزوعاً قوياً، ويحبان أن ينعما فيها بالزعامة والدعة والسيادة والاحترام.

٢ ـ وكل منهما يحب أن يجمع لنفسه بين الدنيا والدين. ولا يحب أن يفرط بأحدهما... هذا قبل نقطة المفرق التي يفترق فيها الدين عن الدنيا، ولابد للإنسان فيها من الاختيار والقرار.

٣ ـ وكل منهما يحاول أن يتجنب نقطة المفرق التي يفترق فيها الدين عن الدنيا، ولابد فيها من الاختيار والقرار.

وها نحن نقرأ قصة محاولة كل منهما في الابتعاد عن نقطة المفرق (الفرقان).

قصة عمر بن سعد ومحاولته للتخلص من قتال الحسين عليه السلام

روى الطبري قصة عمر بن سعد عندما أمره ابن زياد بالخروج إلى قتال الحسين عليه السلام، وكان عمر بن سعد يومئذ معسكراً بـ (حمام أعين) في أربعة آلاف ليسير بهم إلى (دَسْتَبِي)[1]

---

(١) هذه المنطقة تقع بين همدان وري في الجغرافية التاريخية في ذلك الوقت، ولا نعرف هذه المنطقة على الخارطة الجغرافية الحديثة.

و(الدّيلم) حيث ولّاه ابن زياد عليهما... فأمره ابن زياد: أن يتوقف عن المسير إلى (دستبي) و(الديلم) ويتوجه إلى قتال الحسين عليه السلام قبل ذلك ثم يسير إلى (الري ودستبي والديلم).

فاستعفاه عمر بن سعد. وهذه هي المحاولة الأُولى لابن سعد في تجنب نقطة المفرق (الفرقان)، فلما هدّده ابن زياد باسترداد عهد إمارة الري منه استمهله ليله ليفكر في الأمر[١].

ونلاحظ في المحاولة الأُولى لتجنب نقطة المفرق: أن ابن سعد ضعف عن رد ابن زياد عندما هدّده باسترداد عهد الإمارة منه، ولم يحسم الأمر. وكان بوسعه أن يرجع إليه عهده، ويتخلص من هذا الإثم العظيم الذي دعاه إليه ابن زياد ويواجه تهديد ابن زياد بعزم وحزم وحسم يكافؤه.

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما استمهله ليله ليفكر ويقرر...!!!

وهذه أُولى إمارات الضعف في القرار، عرفها عنه ابن زياد، وعرف بها نقطة الضعف في شخصية صاحبه الذي يريد أن يبعثه إلى قتال الحسين عليه السلام، فاستشار عمر بن سعد ليله أصدقاءه ونصحائه فنهوه عن المسير إلى قتال الحسين عليه السلام، وشدّدوا عليه، وقال له ابن أُخته حمزة بن المغيرة بن شعبة: (أنشدك الله أن لا تسير لحرب الحسين عليه السلام، فتقطع رحمك، وتأثم بربك. فوالله لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كله، لو كان لك، لكان خيراً لك من أن تلقى الله بدم الحسين).

(فقال ابن سعد: أفعل إن شاء الله[٢]). وعند الصباح أتى ابن زياد، وقال: إنك وليتني هذا العمل (يعني ولاية دستبي والديلم). وقد سمع به الناس، فأنفذني له (إلى ولاية دستبي والديلم)، وابعث إلى الحسين عليه السلام من لست أغني في الحرب منه، وسمى له ناساً من أشراف الكوفة.

وهذه هي المحاولة الثانية لعمر بن سعد في الفرار من (نقطة المفرق).

ولكن ابن زياد لما عرف ضعف صاحبه احتقره. فلما سمى له أشرافاً من أهل الكوفة ليبعثهم إلى قتال الحسين عليه السلام قال لـه: (لست أستأمرك (أستشيرك) فيمن أريد أن أبعث فإن سرت بجندنا، وإلّا فابعث إلينا عهدنا)[٣].

---

(١) راجع تاريخ الطبري ٦: ٢٣٢.
(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢١٤.
(٣) المصدر نفسه ٢١٤ ـ ٢١٥.

وهكذا فشل عمر بن سعد في كل من هاتين المحاولتين أن يتجنب نقطة المفرق، ولو نجح لسلم له دينه ودنياه معاً، وبلغ عمر رغم هذا الجهد الفاشل حافّة المفرق تماماً.

ولنترك عمر على حافة المفرق لننظر في قصة الحر رحمه الله عند هذه النقطة.

قصة الحر رحمه الله ومحاولته للتخلص من قتال الحسين عليه السلام

والآن نلقي نظرة إلى الحرّ بن يزيد الرياحي رحمه الله، في نفس النقطة لنجد كيف يحاول هذا القائد العسكري الشريف لجيش بني أُمية أن يتجنب هذه النقطة، ويسلم من الابتلاء بقتال سيد شباب أهل الجنة، من غير أن يفرّط في دنياه شيئاً، فلا يستطع.

يقول أرباب السير:

إنّ الحرّ التقى الحسين عليه السلام بمنزل (ذي حُسَمْ)[1]، فطلب من الحسين عليه السلام أن يرافقه حتّى يقدم به إلى الكوفة على ابن زياد!!.

فقال له الحسين عليه السلام: «الموت أدنى لك من ذلك».

فقال الحرّ: (خذ طريقاً نصفاً بيني وبينك، لا يدخلك الكوفة، ولا يردك إلى المدينة، حتّى أكتب إلى ابن زياد. ولعل الله أن يرزقني العافية، ولا يبتليني بشي من أمرك.

ثمّ قال للحسين عليه السلام: «إني اذكّرك الله في نفسك فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن»[2].

إذن فإن الحر يحاول صادقاً أن يعافيه الله من قتال الحسين عليه السلام ولا يقع في هذا الإثم الذي ليس فوقه إثم، ويلتمس لنفسه السبيل إلى ذلك، ويقترح على الحسين عليه السلام أن يجنبه الابتلاء بشي من أمره.

وإذا كان الحر رحمه الله صادقاً في هذه المحاولة فعلينا أن نقول إنه لم يكن يريد أن يفرط في شيء من دنياه إلى هذا الحد من القصة.

٣ ـ ولكنهما رغم هذه المحاولات كلها يصلان إلى نقطة المفرق الذي كانا يفرّان منها، وتواجههما نقطة الفرقان، حيث لابدّ أن يختار الإنسان بين الدنيا والآخرة أحدهما وليس بوسعه أن يجمع بينهما.

---

(١) جبل كان النعمان بن المنذر يصطاد فيه.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٩٦.

وها هنا يتميز أحدهما عن الآخر، فيضعف عمر بن سعد عن (القرار الصعب)، ويستجيب لدعوة ابن زياد، ويذهب بالجيش لقتال الحسين عليه السلام ويبوء بعار الدنيا وعظيم إثم الآخرة.

ويقوى الحر رحمه الله على اتخاذ القرار الصعب في اللحظة الأخيرة، وتسلم له آخرته، ويذهب بشرف الدنيا والآخرة، ولكنه يخسر الإمارة التي حرص عليها عمر بن سعد، وأهون بها من خسارة.

فلنواصل قراءة قرار كل من هذين الرجلين عند نقطة المفرق.

عودة إلى عمر بن سعد عند نقطة المفرق

يقول أرباب السير، إن عمر بن سعد بات ليلته كلها في قلق وحيرة، بعد أن هدّده ابن زياد بسحب الإمارة منه، وكان يردد هذين البيتين الذين يرويهما عنه المؤرخون:

أأترك ملك الري، والري منيتي ... أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها ... حجاب، وملك الري قرة عيني

وهذان البيتان يعكسان معاناة الرجل النفسية، وعذاب الضمير الذي كان يعاني منه، إلّا أنه عجز أخيراً من أن يأخذ القرار الصعب، واستسلم لفتنة ملك الري، واسترخى عزمه واشترى بملك الري عذاب النار التي (ليس دونها حجاب)، كما يقول، وانهارت مقاومته، واستجاب لطلب ابن زياد.

الحرّ رحمه الله عند نقطة المفرق

ولكن الحر رحمه الله عند نقطة المفرق كان له شأن غير هذا الشأن. لقد وجد نفسه عند نقطة المفرق بين الجنة والنار تماماً، ولابدّ من أن يختار، وكان يعرف أن اختيار الجنة على النار يذهب بدنياه كله، ولابد له من الاختيار والقرار، فاختار الآخرة على الدنيا، واختار مرضاة الله على الدنيا، ودفع الضريبة... وفاز وأفلح.

يقول المهاجر بن أوس: وجدت الحر يوم عاشوراء، وقد أخذه مثل الأفكل (الرعدّة).

فقلت له أن أمرك لمريب. والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا. ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك.

فما هذا الذي أرى منك؟

فقال لـه الحر: أني والله أُخيّر نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قطعت وحُرّقت[١].

ولكن يبقى أن نقول إنّ هذا القرار كان قراراً صعباً في حياة الحر ﵀ بالغ الصعوبة، فيأخذه مثل الأفكل (الرعدة)، وهو يعبر عن عمق المعاناة التي كان يتطلبها مثل هذا القرار.

مقارنة بين الطائفة الثانية والثالثة

والآن ندخل في مقارنة ثانية بين الطائفة الثانية والثالثة.

وهذه المقارنة أصعب من المقارنة الأُولى ولكن لابد لنا منها لإكمال هذا البحث، فنقول:

١ ـ كلتا الطائفتين (الثانية والثالثة) تفلحان في تجاوز الفتنة عند نقطة الفرقان، ويفدان على الله، ويؤثران لقاء الله على ما في أيدي الناس، ويتخذان هذا القرار في اللحظات الصعبة عند مفترق الطرق. وإنما يحتاج الإنسان إلى (القرار) عندما يقف على مفترق الطرق، في اللحظات الصعبة.

فهما يملكان إذن مقوّمات هذا القرار ويفلحان في تجاوز الفتنة، والوفود إلى الله.

ويشتركان إلى هذا الحد، وهو أهم ما في هذا الأمر.

٢ ـ ولكن الطائفة الثانية تقطع هذا الشوط الصعب من الطريق بمشقة وصعوبة، وجهد بليغ، ومعاناة، بينما تقطعه الطائفة الثالثة بيسر وراحة، ومن غير معاناة.

وإذا اشتركا في القرار فهما يختلفان في كيفية القرار. لقد سمع علي الأكبر ﵇ أباه يسترجع، وهو راكب على فرسه، فيقول له: «**لا أراك الله سوءً يا أبت مم أسترجعت؟**.

قال: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا. فقال له يا أبت لا أراك الله سوءً: أولسنا على الحقّ؟

فيقول الحسين ﵇: بلى والذي إليه مرجع العباد.

(١) الإرشاد للمفيد: ٢٣٥.

فيقول علي بن الحسين عليه السلام: إذن لا نبالي نموت محقين»[١]. هكذا براحة ويسر، ومن دون معاناة.

إنّ علي بن الحسين عليه السلام لم يلق أيّ مشقة أو عناء في اتخاذ مثل هذا القرار.

ويسأل القاسم بن الحسن عليه السلام ليلة العاشر عمه الحسين عليه السلام عن شهادته في غد، وقد بشر أصحابه بالشهادة يوم عاشوراء، وهو حينئذ لم يتجاوز سن المراهقة: فيقول له الحسين عليه السلام «وكيف الموت عندك؟»، فيقول: أحلى من العسل يا عم.

فيبشره الحسين عليه السلام عندئذ بالشهادة يوم عاشوراء.

وشتّان بين قرار علي الأكبر والقاسم عليهما السلام، وقرار الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله.

إنّ القاسم وعلي بن الحسين عليهما السلام لم تدخل الدنيا في قلبهما قط، ولم يتعلّق قلباهما بالدنيا قط، حتّى يشق عليهما أن ينتزعا قلبهما من الدنيا. وليس الأمر في الحرّ رحمه الله كذلك.

فقد انتابه مثل (الأفكَل)[٢] عندما قرر الإقلاع عن الدنيا والوفود على الله مع الحسين عليه السلام.

إنهما يشتركان في الوفود على الله والعروج إليه تعالى، ولكن كل منهما بطريقة تختلف عن الآخر.

لقد قال القاسم لعمه الحسين عليه السلام ليلة العاشر، عندما سأله: كيف تجد الموت عندك،

---

(١) قال أبو مخنف قال عقبة بن سمعان: فلما ارتحلنا من قصر بني مقاتل، وسرنا ساعة خفق الحسين عليه السلام رأسه خفقة، ثمّ أنتبه وهو يقول إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين. ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً. فأقبل إليه علي بن الحسين عليه السلام على فرس له، فقال، إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. يا أبت جعلت فداك مِمَّ حمدت الله وأسترجعت؟
قال عليه السلام: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعن لي فارس على فرس، فقال: (القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.
قال له يا أبت ـ لا أراك الله سوءَ ـ أولسنا على الحقّ؟
قال عليه السلام: بلى والذي إليه مرجع العباد.
قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.
فقال له: جزاك الله خيراً من ولي خير ما جزى ولداً على والده.
تاريخ الطبري ٧: ٣٠٧ الطبعة الأُوربية، حوادث سنة (٦١ هـ).

(٢) وهي الرعدة من برد أو خوف.

قال: (يا عم أحلى من العسل)، مترسلاً، من غير تكلف، ولا تأمل، وهو يشبه كلمة جده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما سأله رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف صبرك على الشهادة، فقال: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر»[١].

وهذه الكلمة العلوية فارقة بين نحوين من التعامل مع الشهادة: الأول: انتزاع النفس بصعوبة ومشقّة من الدنيا، والثاني: التجرّد الدفعي عن الحياة الدنيا بغير جهد ولا معاناة، وهما حالتا الصبر والشكر، وكل منهما فضيلة ولا شك. الصبر على الشهادة فضيلة، والشكر على الشهادة فضيلة، إلّا أن الذي يتلقى الشهادة شاكراً، ويتعامل معها كما يتعامل مع أي نعمة من نعم الله لا يجد مشقة في القرار... وكيف يشق على الإنسان القرار إذا طلب منه أن يقبل على نعمة من نعم الله.

وأما الذي يتلقّى الشهادة، إبتلاءً من جانب الله، فهو يحتاج إلى كثير من الصبر والمعاناة والجهد لقبول الإبتلاء... كلّ منهما فضيلة، لا شك في ذلك.

ولكن أيّهما أفضل عند الله؟

لا أعلم... ولا أحبّ أن أدخل هذا المدخل من السؤال والجواب.

فإن كلّا منهما يفد على الله ببضاعة تختلف عن الاُخرى.

إن الحرّ يفد على الله بمعاناة وجهد كبيرين، وهذه بضاعة يحبّها الله تعالى... وكلما يتطلب العمل جهداً ومعاناة أكثر من الإنسان، يكون أرضى وأحبّ إلى الله تعالى.

وقد روي: «إن أفضل الأعمال أحمزها[٢]».

ويفد الشابان الهاشميان علي بن الحسين والقاسم بن الحسن عليهما السلام على الله بقلب غضّ

---

(١) الكلمة في نهج البلاغة ٢: ٤٨ من كلام له رقم ١٥٦. قلت يا رسول الله: أو ليس قد قلت لي يوم اُحد حيث أستشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة فشق ذلك عليّ، فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك.
فقال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت يا رسول الله. ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.

(٢) خبر مشهور بين الخاصة والعامة أورده ابن الأثير في النهاية ١: ٤٤٠ باب (حمز) في حديث ابن عباس (سئل رسول الله: أي الأعمال أفضل؟ فقال أحمزها) أي أقواها وأشدها. انظر الصحاح٣: ٨٧٥ مادة حمز. ومجمع البحرين.

سليم لم يتعلق بالدنيا قط، ولم تتمكن منه الدنيا قط، حتّى يجدا مشقة في انتزاعه من الدنيا، وهذه بضاعة أُخرى يحبها الله تعالى، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١]، كما أنّ الله يحب (الكدح) على طريق ذات الشوكة، فكل منهما وفد على الله ببضاعة يحبها الله تعالى الجهد والجهاد والمعاناة، والقلوب النقية التي لم تتعلق بالدنيا ولم يتمكن منها الدنيا.

٣ ـ ولماذا أختلف الوفود على الله بينهما إنّ من حقّ المؤمن أن ينعم بطيبات الحياة الدنيا، وليس له أن يُحَرّم ما أحل الله له من الطيبات.

وهذان أصلان هامان في الشريعة، يدل على الأوّل منهما قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾[٢]. ويدل على الأصل الثاني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٣] وليس في هذا ولا ذاك شك.

ولكن إلى جنب هذا وذاك أصل ثالث لا يقل أهمية عنهما، وهو أن لا يأخذ الإنسان من الدنيا الكثير الذي يشغله عن ذكر الله، ويستدرجه إلى التعلّق بالدنيا، حتّى من الطيّب الذي أحلّه الله. ذاك أن الاشتغال بالحياة الدنيا يُلْهي الإنسان عن ذكر الله، حتّى لو طاب مورده، وكان حلالاً في دين الله، فإن قلب الإنسان سرعان ما يتعلق بالدنيا، إذا طابت له الدنيا، وأكثر منها.

ولذلك كان رسول الله ﷺ والصالحون من عباد الله يحرصون ألّا يكثروا من طيبّات الحياة الدنيا. فقد روي إن بعضهم قدم لرسول الله ﷺ خبيصاً (نوع من الحلوى)، فأبى أن يأكله، فقيل أتحرمه؟ قال: لا، ولكن أكره أن تتوق نفسي إليه، ثمّ تلا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[٤].

وهذه حقيقة: إن الإنسان إذا أكثر من الطيبات تتوق إليها نفسه، وإذا تاقت نفسه إلى طيبات الحياة الدنيا، تمكّنت منه، وسلطان الدنيا على قلوب الصالحين على قدر حظوظهم من الدنيا.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٨٧.

(٤) نور الثقلين ٥: ١٥ والآية من سورة الأحقاف: ٢٠.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كلما فاتك من الدنيا شيء فهو غنيمة»[١].

إنّ الله تعالى لم يحرم على عباده الطيبات من الرزق والإكثار منها، إذا كان من حلال. ولكن الإكثار منها يترك هذا الأثر السلبي في نفس الإنسان وهو التعلّق التدريجي بالدنيا أو الزحف التدريجي الهادئ للدنيا إلى قلبه.

وليس من بأس في دين الله أن يتمتع الإنسان بطيبات الحياة الدنيا، إذا تمكن الإنسان أن يحفظ نفسه في لحظة الصفر من الإنزلاق والسقوط. ولكن كيف يضمن لنفسه السلامة من السقوط في لحظة الصفر... وقد أسقطت الدنيا قبله الكثير من أمثاله، أنه المجازفة التي لا يسلم صاحبها أحياناً منها، ولاضمان فيها على السلامة من السقوط. هذا أوّلاً، وثانياً: أن التعلّق بالدنيا يترك في نفس الإنسان آثاراً قهرية، لا سبيل للإنسان للتخلص منها، يشغله عن ذكر الله في بعض الحدود، ويسلب منه صفاء نفسه وشفافيتها، ويعكّر أجواء نفسه. حتّى وإن كان الإنسان يفلح أخيراً في السيطرة على هواه، ويتوفق في اتخاذ القرار الصحيح في لحظة الصفر.

وهذا هو الفارق بين الطائفة الثانية والطائفة الثالثة.

مقارنة أُخرى بين الحرّ وزهير (رحمهما الله).

بين الرجلين تشابه كبير، كل منهما كان زعيماً في قومه. كان الحرّ رحمه الله قائداً من قادة الجيش الأموي. وكان زهير أموي الهوى (عثمانياً) كما ورد في الرواية.

فكل منهما كان معرضاً عن الحسين عليه السلام، وكان سبب انحراف زهير رحمه الله عن الحسين عليه السلام حجاب في الرأي والفهم، ولم يكن هذا الحجاب من نوع الهوى وفتن الحياة الدنيا، فلما تبين له الحقّ، واتضح له خطاه في الرأي والتقدير لم يتردد لحظة واحدة في تغيير مسار حياته، وكان هذا التغيير انقلاباً كاملاً في حياته.

فلنقرأ قصة هذا الانقلاب في حياة زهير رحمه الله برواية الطبري عن أبي مخنف.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ للواسطي ط. ١ دار الحديث. وميزان الحكمة للريشهري ٢: ٩١٢ نقلا عن غرر الحكم.

تحليل لموقف زهير

روى الطبري عن أبي مخنف، قال أبو مخنف: حدثني السدي عن رجل من بني فزارة، لما كان زمن الحجاج بن يوسف كنا في دار الحارث بن أبي ربيعة مختبئين فيها... فقلت للفزاري: حدثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي عليه السلام.

قال: كنّا مع زهير بن القين البجلي، حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدم زهير، حتّى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بُداً من أن ننازله فيه.

فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّى سلّم ثمّ دخل فقال: يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه.

قال فطرح كل إنسان ما في يده حتّى كأنّ على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدثتني (دلهم بنت عمرو) امرأة زهير بن القين.

قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه، ثمّ انصرفت.

قالت: فأتاه زهير بن القين. فما لبث أن جاء مستبشراً. قد أسفر وجهه.

قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقدم وحمل إلى الحسين عليه السلام، ثمّ قال: لامرأته أنت طالق. إلحقي بأهلك فإني لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خيراً.

ثمّ قال لأصحابه: «من أحبّ منكم أن يتّبعني، وإلّا فإنه آخر العهد مني»[1].

وفي هذه الرواية نجد حالات أربعة متعاقبة.

صدود وأحجام عن اللقاء بالحسين عليه السلام **أوّلاً**: حتّى كان يحرص ألّا ينزل بماء في الطريق ينزل عنده الحسين عليه السلام، وهذا الصدود كان عن حجاب في الرأي والتقدير، كما قلنا، ولم يكن هذا الحجاب من نوع الهوى.

ثمّ صدمة نفسية قوّية، **ثانياً**: عندما جاء رسول الحسين عليه السلام يبلّغه رغبة الإمام عليه السلام في اللقاء به.

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠. ٢٩١. الطبعة الاوربية، حوادث سنة ٦٠ هـ

وثالثاً: وجوم وارتباك عند زهير رحمه الله وأصحابه، سلبهم القدرة على القرار، لولا أن زوجته الصالحة الشجاعة «دلهم» رحمها الله، أدركت الموقف، وقطعت عليه حالة التردد، وطلبت منه أن يستجيب لدعوة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فزال عنه التردد، وقام مع الرسول إلى الحسين عليه السلام ليلقاه ويتحدث معه.

ورابعاً: انفتاح سريع واستجابة كاملة لدعوة الحسين عليه السلام من دون تردّد، ومن دون معاناة، وبعزم وقوة.

وقد قرأنا هذه الحالات الأربعة تباعاً برواية الطبري، عن أبي مخنف عن السدي الذي روى القصة عن رجل من الفزاريين كان مختبئاً مع السدي في دار الحارث بن أبي ربيعة أيام الحجاج بن يوسف الثقفي خوفاً من الحجاج، وكان الرجل الفزاري مصاحباً لزهير رحمه الله في عودته من الحج إلى العراق.

فسأله السدي عن خبر زهير مع الحسين عليه السلام.

وإليك هذه الحالات الأربعة التي انتابت زهير رحمه الله في هذه الواقعة بإجمال:

١ ـ الصدود والإحجام

قال كنّا مع زهير بن القين، حين أقبلنا من مكة، نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير، وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدّم زهير.

وهذه هي حالة الصدود والإحجام التي تحدثنا عنها من قبل.

٢ ـ الصدمة والتردّد

حتّى نزلنا يوماً في منزل لم نجد بُداً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينما نحن نتغدى من طعام لنا، إذا أقبل رسول الحسين عليه السلام فسلّم ودخل. فقال: يا زهير أن أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام، بعثني إليك، لتأتيه، فطرح كل إنسان ما في يده، حتّى كأنّ على رؤوسنا الطير.

وهذه هي الصدمة التي كان يحاول زهير أن يتجنبها، فواجهها فجأة، فسلبت منه المبادرة، وأوقعته في ارتباك وتردّد شديدين، لولا أن زوجته (دلهم) رحمها الله، أدركت الموقف بشجاعة، وسرعة.

٣ ـ الإستجابة للّقاء وزوال حالة التردّد

فانبرت دلهم زوجة زهير(رحمها الله)، فقالت مستنكرة، متعجبة: (أيبعث إليك ابن رسول الله ﷺ ثمّ لا تأتيه. سبحان الله، لو أتيته، فسمعت كلامه، ثمّ انصرفت).

فاستجاب زهير لكلامها، وكأنما أكسبته (دلهم) شجاعة من شجاعتها بهذه الكلمة، فأقبل مع الرسول إلى الحسين عليه السلام.

٤ ـ الانفراج والاستجابة والانفتاح

فتقول (دلهم)، والحديث لها، والرواية عن الطبري، عن أبي مخنف: (فما لبثَ أن جاء مستبشراً، قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقوّض، وحمل إلى رحال الحسين عليه السلام.

ثمّ قال لي (والحديث لازال لدلهم): أنت طالق، والحقي بأهلك، فإني لا أُحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خيراً.

ثمّ قال لأصحابه: (من أحبّ منكم أن يتبعني، وإلّا فإنه آخر العهد مني...) كل ذلك بسهولة وخفة وراحة، كما ينزع الإنسان ثوبه ويلبس ثوباً آخراً، من دون معاناة في القرار.

ولسنا نعلم ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رحمه الله، وماذا سمع زهير من الحسين عليه السلام، وماذا يمكن أن يقوله الحسين عليه السلام لزهير في هذه الفرصة القصيرة. فلم يطل بقاء زهير عند الحسين كثيراً، والرواية تقول: (فما لبثَ أن جاء مستبشراً) وهذه الكلمة تدل على أن لقاء زهير بالحسين عليه السلام لم يطل حتّى انقلب زهير من الأُموية إلى العلوية. استجابة سريعة للحسين عليه السلام لم يتردّد فيها، ولم يتوقّف عنها، ولم يطل به المقام حتّى استجاب للحسين.

وعناصر هذه الاستجابة:

١ ـ عزم وقرار لا ينثني عنه زهير بأي ثمن. حتّى قال لزوجته التي يدين لها في هذا الانقلاب: (أنت طالق)، ويقول لأصحابه: (قوّضوا رحلي إلى رحال الحسين).

٢ ـ السرعة والسهولة في اتخاذ القرار، من دون معاناة، ولا تردد (فما لبثَ أن جاء مستبشراً).

تحليل موقف الحّر رحمه الله

وليس أمر الحرّ كذلك.

١ ـ ليس بين الحرّ وبين الإمام حجاب في الرأي، فهو يعرف الإمام عليه السلام ويصلّي بصلاته،

ويقول للإمام لمّا خيّره بين أن يُصلي بصلاته أو يصلّي بأصحابه ويصلّي الإمام بأصحابه (بل تصلي ونصلّي بصلاتك). ويذكر الإمام أُمّه فيقول له (ثكلتك أُمك)، فتشق عليه هذه الكلمة. ويقول والله لو ذكرها غيرك من العرب، لما تركت ذكر أُمّه، كائناً من كان، ولكن مالي إلى ذكر أمك من سبيل، إلّا بأحسن ما نقدر عليه.

٢ ـ يطلب منه ابن زياد أن يأتي بالإمام عليه السلام مخفوراً إلى الكوفة، فيمتنع عليه الإمام عليه السلام إمتناعاً شديداً، فيحاول أن يتخلص من المسؤولية التي ألقاها عليه أميره بأيسر الطرق، دون أن يقع في شيء من أمر الحسين عليه السلام، ويتمنى أن يعافيه الله تعالى من أن يقع في شيء من أمر الإمام، فيقول للإمام (خذ طريقاً نصفاً بيني وبينك، لا يوصلك إلى الكوفة، ولا يعيدك إلى المدينة)، فيوافقه الإمام عليه السلام.

٣ ـ ولكن خلال ذلك كله يحاول أن يتشبث بموقعه من جيش ابن زياد، ولا يريد أن يتجرد عما أوكله إليه ابن زياد من قيادة الجيش إلّا أنّ هذا التشبّث بالدنيا ومواقعها لا يسلب عنه أدب اللقاء بالإمام عليه السلام، وأدب اللقاء مع الإمام لا ينفي عنه هذا التشبث.

٤ ـ ولكنه رغم كل ما يبذله من جُهد ليتجنب نقطة المفرق، الذي لابد له فيها من أن يختار أحدهما: الدنيا أو الآخرة، ولا يستطيع عندها أن يجمع بين الدنيا والآخرة... رغم ذلك كله تتعلق مشيئة الله تعالى أن يبلغ (الحرّ) هذه النقطة المصيرية وذلك عندما ذهب يوم العاشر من محرم إلى عمر بن سعد في كربلاء، فقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل، قال: (أي والله قتالاً أيسره أن تطيح فيه الرؤوس والأيدي).

٥ ـ عند ذلك عرف الحُرّ أنه لابد لـه من أن يختار، ولا سبيل لـه إلى الجمع بين الدنيا والآخرة. فإما أن يختار الدنيا على الآخرة، أو يختار الآخرة على الدنيا.

٦ ـ فشقّ عليه القرار، وأخذه مثل الأفكَل (الرعدة)، وهي حالة فوق حالة القلق والإرتباك، ووجد نفسه في موضع لابد لـه فيها من أن يأخذ القرار بالأعراض والتخلي عن دنياه كلّها، وهو أمر كان يريد الحرّ رحمه الله أن يتجنّبه بكلّ جهده، وكان يسعى للتشبث بما أمكن منها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولا نعرف صراعاً داخل النفس الإنسانية أعنف وأضرى من هذا الصراع. فقد شهد الحرّ رحمه الله، عند لحظة الصفر من حياته، في داخل نفسه، صراعاً بين الدنيا والآخرة. المسألة التي كان يتجنبها ويحذرها هذه المُدّة كلها، وكان يحاول أن يؤلف ويصالح بينهما، ولكن مشيئة الله تعالى فوق مشيئة الحُرّ، فواجه هذه النقطة وجهاً لوجه.

٧ - فأخذ القرار الذي لابد منه، وضرب بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، أمام دهشة أصحابه ودهشة الجيش، وقائد الجيش عمر بن سعد، الذي لم يكن يصدق ما تشاهده عينه من إنحياز الحُرّ رحمه الله إلى جانب الحسين عليه السلام في اللحظة الحرجة.

فجاء إلى الحسين عليه السلام مطأطئ الرأس خجلاً من موقفه من الإمام عليه السلام قبل أيام في طريقه إلى كربلاء. وهو يقول: هل من توبة؟، فقال له الإمام عليه السلام: «إن تبت تاب الله عليك».

ويضرب (الحرّ) فرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، وكأنّه يفرّ من شيء يطارده ويخافه، وقد كان الحُرّ شجاعاً لا يخاف من شيء، فلماذا يضرب الحرّ بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، بهذه الصورة، وكأنّ شيئاً يلاحقه ويطارده... فمن هو الذي يلاحق الحرّ؟

إن (الحرّ) يخاف من نفسه التي بين جنبيه أن تطارده، فتمنعه عن الإنحياز إلى جانب الحسين عليه السلام، وتغريه بالدنيا، فكان يريد أن يجعل نفسه أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيع أن يتراجع عنه، فيضرب بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام بهذه الصورة ليضع نفسه أمام أمر واقع فيقف بين يدي الحسين عليه السلام، خجلاً، معتذراً، يطلب منه العفو، ليتوب الله عليه.

رحمك الله (يا حرّ) كنت كما سمتك أمك حُرّاً، لا تلين للدنيا مهما كان إغراؤها.

رحمك الله يا حرّ، لئن شهد لك أصحابك بالشجاعة في ساحات القتال، فنحن نشهد أنك كنت في ساحة نفسك أكثر شجاعة وقوة، وأن القرار الصعب الذي اتخذته يومئذ، أمام حيرة ودهشة الجيش وقادة الجيش ينوء به الرجال الأشدّاء.

لقد أحبّك الله، وآثرك برفقة الحسين عليه السلام للقتال والشهادة إلى جانبه، والذبّ عنه، فهنيئاً لك هذه الموهبة الإلهية العظيمة.

عودة إلى التحليل والمقارنة

وقبل أن نفارق هذا الحديث، أود أن ألقي نظرة تحليلية أخيرة إلى المقارنة بين الطائفة الثانية والطائفة الثالثة بنفس السياق.

إن (الحرّ) و(زهير)، رحمهما الله، إلتقيا أخيراً في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ووقفا مع الحسين عليه السلام، وقاتلا وقتلا ونالا الشهادة معاً، وجاورا رسول الله صلى الله عليه وآله في الجنة.

فلماذا هذا التحليل والمقارنة؟

وقد لا تقل قيمة المعاناة المُرّة التي لقاها الحُرّ رحمه الله عن الانفتاح والإقبال السريع عند زهير رحمه الله.

فما هو جدوى هذه المقارنة والتحليل.

أقول: لاشك في صحة هذه المقولة، ولكن ما أكثر الناس الذين سقطوا في هذا العبور الصعب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأنا إلى الله، وعندما أرادوا أن ينتزعوا أنفسهم من فتن الدنيا، غلبتهم الدنيا، وما أكثر ضحايا وخسائر هذا الطريق، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾[١] إنّ أكثر الناس في خسر والذين يفلحون، فئة قليلة هم الذين تواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر (في حدود الإستثناء).

ولكي يسلم الإنسان من مجازفات هذا الطريق، وهي كثيرة وخطرة فعليه أن لا يعطي نفسه للدنيا، وهذا هو الشرط الأوّل الذي لابد منه على كل حال، وأن لا يأخذ من الدنيا كثيراً، وإنما يأخذ من الدنيا على قدر حاجته، وهذا ثانياً.

فإن الذي يأخذ من الدنيا تأخذ منه الدنيا لا محالة، إلّا أنّ يأخذ منها على قدر حاجته، عفافاً وكفافاً، فلا تجد فتن الدنيا سبيلاً إلى نفسه.

وقد ورد في خطبة المتقين لأمير المؤمنين عليه السلام:

«وتراه، قريباً أمله، قانعة نفسه، منزوراً[٢] أكله، سهلاً أمره، ميتة شهوته»[٣].

وليس معنى ذلك أنّ يُحَرّم الإنسان طيبات الحياة الدنيا على نفسه، ولكن معنى ذلك أن يقتنع من طيبات الحياة الدنيا على قدر حاجته، لئلّا تجد الدنيا سبيلاً إليه، وتملك عليه إرادته، وتحكم فيه.

ويعلمنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كيف نعالج أنفسنا إذا استصعبت علينا فيما نكره من التكليف والتقوى... بأنّ نعاقبها، فنمنع عنها سؤلها فيما تحبّ من لذات الدنيا وطيّباتها.

وهو نعم العلاج، يرّوض النفس على قبول الصعب الشاق من التكاليف والتقوى.

«إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يُعطها سؤلها فيما تحب»[٤].

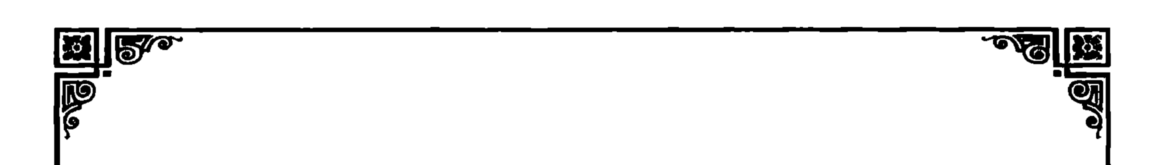
---

(١) سورة العصر، الآيتان: ٢ ـ ٣.

(٢) أي قليلا.

(٣) نهج البلاغة ٢: ١٦٣، خ١٩٣، تحقيق الإمام محمد عبده.

(٤) روضة الواعظين ـ للفتال النيسابوري: ٤٣٩، مكارم الأخلاق للطبرسي: ٤٤٧.



تأملات
في الخطاب الحسيني
يوم عاشوراء

السيف الذي غمده الناس في صِفّين عن عليّ عليه السلام سلّوه في عاشوراء بوجه الحسين عليه السلام

خطب الحسين عليه السلام الناس في يوم عاشوراء فقال:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم. فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم»[١].

هذا خطاب الحسين عليه السلام للناس يوم عاشوراء. وهو خطاب عجيب، خطب به الناس في تلك الساعة الحرجة قبل أن يسلّوا عليه السيوف، ويحمل هذا الخطاب ما لا حدّ له من الأسى والحسرة على أُولئك الناس الذين سلّوا سيوفهم بوجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. وسوف أتحدث عن جملة من النقاط في هذا الخطاب:

١ ـ سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم

الناس على خارطة الصراع ثلاث طوائف:

الأُولى والثانية طرفاً الصراع والثالثة الفئة المتفرجة على ساحة الصراع، المتخلفة عن الحقّ، وهي شريحة واسعة من المجتمع.

أما الأُولى والثانية: فهما يدفعان ضريبة الصراع، وضريبة الصراع أن تتساقط الأيدي والرؤوس، وهي تعّم طرفي الصراع على نحو سواء، ولا يختص بجانب (الحقّ) أو (الباطل)، وهذه سنة الله تعالى في كل صراع، يقول تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[٢].

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاوس الحسيني: ٥٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

ويقول تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1].

ويتميّز جانب الحقّ في هذا الصراع، بتأييد الله وإسناده تعالى ونصره لهم في الصراع، وقد وعد الله تعالى المؤمنين بذلك، يقول تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[3].

وهو ما يرجوه المؤمنون من الله في ساحة الصراع ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ولهذا الرجاء أثر في تطمين نفوس المؤمنين في ساحة المعركة بالنصر الإلهي الذي يقرر نتيجة الصراع لصالح المؤمنين.

هذا عن الفئتين المتقاتلتين.

وأما الفئة الثالثة فهي فئة معقدة، شديدة التعقيد، سهلة الانزلاق إلى جانب الباطل مكشوفة للعدو.

وهذه الخصائص تجعل هذه الفئة معرضة للانزلاق إلى جانب الباطل في كل حال.

وهؤلاء هم الذين يخاطبهم الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، فقد غمد هؤلاء سيوفهم في أيام علي عليه السلام والحسن عليه السلام، وتخاذلوا عن نصرة علي عليه السلام في صفين، وعن نصرة الحسن عليه السلام في قتاله لمعاوية بعد ذلك، حتّى التجأ الإمام الحسن عليه السلام، لأن يهادن معاوية للإبقاء على من تبقى من شيعة أبيه عليه السلام.

فلما غمدوا سيوفهم عن نصرة علي والحسن عليهما السلام سلّها معاوية، وبعده يزيد في وجه الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

ولم يطل الغمد بهذه السيوف، فإن ساحة الصراع ترفض المتفرجين والمتخلفين، ومن لم يقف مع الحقّ في ساحة الصراع، وآثر العافية على ضرّاء القتال لابد أن يقف إلى جانب الباطل في وقت قريب، فإن مواقف أنصار الحقّ ثابتة وحصينة لا ينال منها العدو، ومواقف المتخلّفين سهلة الانزلاق إلى جانب العدو، ومكشوفة لهم، يسهل لهم الوصول إليها، وإغرائهم واستمالتهم إليهم، أو إرهابهم وإرعابهم لإجبارهم على الانقلاب إلى جهة الباطل.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

(٢) سورة محمّد، الآية: ٧.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

ومن هنا نقول: إن مواقع الناس في ساحة الصراع تؤول إلى موقعين في النتيجة النهائية: إما الوقوف إلى جانب الحقّ، ولاءً، وبراءةً، وإما الوقوف إلى جانب الباطل في الولاء والبراءة، كذلك.

وعلى كل حال فإن الحسين عليه السلام يخاطب يوم عاشوراء، فس ساحة القتال في كربلاء أولئك الذين غمدوا سيوفهم عن نصرة أبيه وأخيه الحسن عليه السلام من قبل، وهاهم يسلّون سيوفهم عليه اليوم في كربلاء.

فيقول لهم:

سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم..

والسيف: القوّة، وقد كان العرب قبل الإسلام أُمة معزولة في الصحراء عن العالم، ضعيفة، لا قوة لها ولا سلطان ولا مال، فمكنهم الإسلام من القوة والمال، وحمّلهم رسالة التوحيد، وفتح لهم مشارق الأرض ومغاربها، وجعلهم سادة وأئمة وحكاماً على وجه الأرض.

والشام كانت يومئذ مركزاً لهذا السلطان الذي جاء به الإسلام إلى العرب، وكانت الشام تبسط نفوذها السياسي والعسكري على أجزاء واسعة من آسيا وأفريقيا.

فيقول لهم الحسين عليه السلام في كربلاء، يوم عاشوراء:

إن الله هداكم بجدي رسول الله، ورزقكم به صلى الله عليه وآله هذا السلطان الواسع على وجه الأرض. وجعلكم به أئمة وسادة في الأرض... فهذا السلطان و(السيف) لنا في أيمانكم، ولكنكم تخاذلتم من نصرة أبي وأخي من قبل، وغمدتم سيوفكم عن نصرتهم، وها أنتم اليوم تسلّون السيف الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وآله في أيمانكم، بوجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وتقاتلونه به.

وكان أحرى بكم أن تقاتلوا بهذا السيف معاوية بن أبي سفيان من قبل إلى جانب أبي وأخي، ويزيد بن معاوية اليوم إلى جانبي... وقد عدلا عن سنّة رسول الله، وقاتلناهما ليعتدلا على الصراط المستقيم فلم يعتدلا.

٢ ـ وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم

ما هي هذه النار التي يتحدث الحسين عليه السلام عنها يوم عاشوراء؟

ومن اقتدحها؟

وأين اقتدحها؟

هذه النار هي انفجار النور الهائل في جزيرة العرب، وكانت تحمل إلى البشرية وهجاً ساطعاً، أنار قلوب الناس وعقولهم في الشرق والغرب، ودخل كل بيت، وبهذا النور أذهب الله عن الناس ظلمات الجاهلية؛ فتحوّل هذا النور إلى إيمان، وإخلاص، وعطاء، ويقين، وقيم، وتضحية وصلاة، ودعاء، وإلى مدارس للعلم، ومساجد للعبادة، انتشرت على وجه الأرض، وإلى ثورات وحركات للمظلومين على الظالمين، كما أحرقت هذه النار عروش الطغاة والجبابرة في فارس والروم ومصر، وكسرت الأغلال والقيود من معاصم الناس وأقدامهم، وأطلقتهم من أسر الظالمين.

واقتدح رسول الله ﷺ هذه النار في جزيرة العرب، ثمّ عمت الدنيا كلّها، فلم يمض على هذه القدحة خمسون سنة؛ حتّى كانت هذه النار تنير مشارق الأرض ومغاربها.

اقتحدها رسول الله ﷺ في هذا الوسط الجاهلي من جزيرة العرب، ولم ينتق لهذه الدعوة طبقة معينة، وإنما فجر كوامن الفطرة والعقل في نفوس من استجاب منهم لهذه الدعوة، وجعل منهم قوة هائلة هزمت جيوش الفرس والروم، وأطاحت بعروش كسرى وقيصر.

تماماً، كما يستخرج المهندس من صخرة معتمة باردة النور والحرارة، وكما تعطينا الخشبة المعتمة الباردة النور والحرارة، إذا مسّتها النار.

كذلك فجّر رسول الله ﷺ كوامن الفطرة والعقل والضمير في نفوس هؤلاء الناس الخاملين في الجزيرة، فجعل منهم قمماً في الصلاح والتقوى، والقوّة، والصمود والإيمان والخشوع، استطاعوا فيما بعد أن ينشروا هذه الدعوة على وجه الأرض، ويكونوا سادة وأئمة وقادة للبشرية، بعد أن كانوا معزولين عن الحضارات في رقعة صحراوية غير ذات زرع.

أجل، ثمّ لم يمض خمسون سنة على وفاة رسول الله ﷺ الذي اقتدح هذه النار فيهم، ليحرقوا بها عروش الظالمين، حتّى حرق الناس بهذه النار أبيات آل رسول الله ﷺ، وحرقوا بها باب علي وفاطمة، وحرقوا بها خيام أهل بيت رسول الله ﷺ في كربلاء.

فأي حقّ أضاعه هؤلاء الناس؟

وكيف ردّوا لرسول الله ﷺ الجميل؟

يا حسرة على العباد!!

وقد قال الله تعالى لهم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

٣ ـ فاصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم

وهذه هي الردة الثانية، وهي أعظم من الأولى. وتحدّث الإمام عليه السلام عن الردة الأُولى في قوله عليه السلام: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم...» في الردّة الأُولى تحوّلت السيوف من جانب أهل بيت رسول الله إلى جانب أعداء أهل البيت وخصومهم، وقد حددها الفرزدق عندما إلتقى بالحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق بشكل دقيق حيث قال للإمام عليه السلام: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[1]. وهو تشخيص دقيق للحالة النفسية والسياسية للناس يومئذ؛ فقد كانت قلوبهم مع الحسين عليه السلام حتّى ذلك الوقت، ولكن مواقفهم السياسية كانت لبني أُمية... وهذه هي البداية، وهي الردّة الأُولى.

والحالة السوية أن تتوافق القلوب والسيوف في جانب الحقّ فإذا تخالفت السيوف والقلوب فتلك هي المحطة الأُولى للردّة.

والمحطة الثانية للردّة، هي أن تتوافق القلوب والسيوف على عداء وقتال أهل البيت عليهم السلام.

وهذا هو الذي يحدّثنا عنه الإمام عليه السلام في هذه الفقرة:

«فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم».

والإلب: القوم يجمعهم عداء واحد. ومنه تألبوا عليه، أي اجتمعوا على عدائه.

ولابد من توضيح وشرح لهذه الكلمة:

إن (الأُمة) مجموعة من الناس، يجمعهم ولاء واحد وبراءة واحدة، وهذا هو أسلم وأدقّ تعبير للأمة.

وهذه الأُمة يجمعها الولاء لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[2] فمن يقبل بهذا الولاء، فهو من هذه الأُمة، ومن يرفض هذا الولاء أو بعضه فليس من هذه الأُمة.

وتجمع هذه الأُمة البراءة من الطاغوت الذي أمرنا الله تعالى أن نكفر به، والبراءة من المشركين؛ فمن تبرأ منهما دخل في هذه الأُمة، ومن لم يتبرأ منهما لم يدخل في هذه الأُمة:

---

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي: ٣٧٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾(١) فيقول لهم الإمام عليه السلام يوم عاشوراء: لقد كانت تجمعنا بكم براءة واحدة من أعداء الله، وعداء واحد لهم، وولاء واحد لأولياء الله وقد أصبحتم اليوم: «إلباً لأعدائكم على أوليائكم».

يجمعكم بأعدائكم العداء لأوليائكم، بعكس ما يجب أن يكون تماماً. والحالة السوية أن يجمعكم بأوليائكم العداء لأعدائكم، وهذه ردة كاملة بعد الردة الأُولى، وهي المحطة الثانية من الردة، وهو تعبير دقيق جداً لحال الناس الذين خاطبهم الحسين عليه السلام في عاشوراء.

وهذا هو الانقلاب في بؤرتي (الحب والبغض) أو (الولاء والبراءة). وهو أقصى درجات الردة في شخصية الإنسان.

٤ ـ بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم

يقول لهم الإمام عليه السلام إنّ الذي تغير هو القلوب، تحولت من الهدى إلى الضلال، ومن أولياء الله إلى أعداء الله، وانقلبت من الولاء إلى البراءة، ومن البراءة إلى الولاء، دون أن يتغير بنو أُمية عما كانوا عليه. «بغير عدل أفشوه فيكم»:

هاهم بنو أُمية يمارسون الظلم، كما كانوا يمارسونه من قبل، وقد أمعنوا في الظلم والضلال، وأسرفوا على أنفسهم وعلى الناس في ذلك أيّما إسراف.

فلم يحدث انقلاب في واقع بني أُمية، إنما الذي حدث ردة في القلوب، من محور الولاء إلى البراءة، ومن محور البراءة إلى الولاء. فإن هؤلاء الناس انقلبوا من ولاء أهل البيت إلى ولاء بني أُمية، دون أن يتغير أهل بيت الرسالة عليهم السلام عما كانوا عليه من الهدى والصلاح، أو يتغير بنو أُمية عما كانوا عليه من الضلال والظلم.

«ولا أمل أصبح لكم فيهم».

وكما لم يكن هذا الانقلاب بسبب حصول انقلاب في بني أُمية من الظلم إلى العدل، كذلك لم يكن لأن الناس أصبح لهم أمل في عدل بني أُمية بعد ذلك.

إذن لم ينخدع الناس ببني أُمية حينما والوهُم، وقاتلوا أعداءهم وخصومهم.

فماذا جرى في نفوس الناس حتّى انقلبوا من آل رسول الله إلى آل أُمية؟ إنّ الذي حدث هو إن بني أُمية أذلوهم بالإرهاب والتطميع.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

وفرق بين الخداع والإذلال؛ فإن الذي ينخدع بعدوه: يُحِبُ عدوه ويواليه ويحارب أعداءه خطأً، وهذا عجز في الوعي والمعرفة، وليس ذُلاً وعجزاً في الكرامة. وأما الذي يوالي عدوه ويعطيه سيفه وماله ثمّ يعطيه قلبه وحبه وهو يعلم أنه له عدو فهذا هو الذل بعينه وانعدام الكرامة.

وهذا لن يكون في أُمة إلّا بالإذلال، وهو قد يكون بالإرهاب والقوة، وقد يكون بالمال والذهب.

وقد استعمل بنو أُمية كلا الأمرين: الإذلال بالقوّة والإرهاب،

والإذلال بالمال والسلطان. نعم، قد استعملوا التغرير والإعلام والخداع، إلّا أن إسرافهم في الظلم والترف والمعصية والفسوق كان أظهر من أن يخفيه الإعلام على أحد.

٥ ـ ويحكم، اهؤلاء تقصدون وعنا تتخاذلون؟

وهذه أعجب ردة في حياة الإنسان؛ ينقلب فيها الإنسان على نفسه، فيحب عدوه ويعادي وليه، وهو بمعنى أن ينسى الإنسان نفسه.

لأنّ الإنسان حب وبغض، يحب أولياءه ويبغض أعداءه، فإذا نسي الإنسان نفسه، نسي من يجب أن يحب ومن يجب أن يبغض، وأعظم من ذلك أن ينقلب عنده الحب والبغض، فيحب عدوه ويبغض وليه.

وهذه الحالة هي التي يعاقب الله بها الذين ينسونه؛ فينسيهم أنفسهم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١).

والذين خاطبهم الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، كانوا من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ونسوا حبهم وبغضهم، فأحبوا بني أُمية، وكان عليهم أن يعادوهم، لما جنت أيديهم من الظلم والعصيان والفسوق وقاتلوا أولياءهم الذين أمر الله تعالى المسلمين بمودتهم واتّباعهم في آيات محكمات من كتابه(٢).

ولست أدري ماذا في هذا الخطاب من ألم يعتصر قلب الإمام عليه السلام؟ ألم نابع من

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٢) ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ سورة الشورى، الآية: ٢٣.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

الإشفاق عليهم لهذه الحالة التي وصلوا إليها من البؤس، وليس لأن الإمام فقد نصرتهم له في محنته.

٦ ـ يا عبيد الأمة وشذاذ الآفاق (الأحزاب):

هذه أخلاقية العبيد، إن العبيد ولاؤهم لمن يشتريهم، وليس لولائهم أصل ثابت، فمن يشتريهم من سوق النخاسة يستحق ولاءهم، كانوا يحبونه أم يحقدون عليه، فيتحول ولاؤهم من مولى إلى مولى في سوق النخاسة في لحظة واحدة، عندما يدفع المولى الجديد الثمن إلى المولى القديم، وعندما يدفع المولى القديم السوط إلى المولى الجديد، فيتحول ولاؤهم في نفس الساعة من المولى القديم إلى المولى الجديد.

إنهم في ساعة واحدة ينسون ولاءهم لمولاهم وحبهم القديم، ليقدموا إلى المولى الجديد ولاءهم وطاعتهم.

(وشذاذ الأحزاب) إن الناس ولاؤهم لأحزابهم، في السراء والضراء، وفي الهزيمة والانتصار، ولكن شذاذ الأحزاب، ولاؤهم للمنتصر دائماً، حقاً كان أم باطلاً.

وهذه حالة ولاء سياسية عائمة، لها مدلولات نفسية خطيرة، تكشف عن فقدان الأصالة والقيم في النفس، والتبعية المطلقة للمنتصر والقاهر، والانسلاخ الكامل من الذات والقيم.

٧ ـ فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب

وهنا يدعوا عليهم الإمام عليه السلام بالبعد من رحمة الله، والسحق هو البعد، والإمام هنا ينطق في هذا الدعاء عن سنن الله؛ ذلك إن لرحمة الله تعالى منازل في حياة الإنسان، تنزل عليها منه الرحمة، فإذا ابتعد الإنسان عن هذه المنازل ابتعد عن رحمة الله، وهذه سنة الله في عباده ولنتأمل في هذه السنة: إن بين رحمة الله الهابطة على الناس ومنازل هذه الرحمة علاقة متبادلة.

فالرحمة النازلة تُفَعّلُ مواضع نزولها، فإذا نزل المطر على أرض اخضرّت وأثمرت وأينعت وازدهرت وأتت أكلها. وهذا هو فعل (الرحمة النازلة) بـ (مواضع نزولها).

ومواضع الرحمة تستنزل الرحمة، ولا تنزل الرحمة على مواضعها إلّا إذا كانت مؤهلة لنزول الرحمة، وهذا التأهيل هو (الطلب التكويني) لرحمة الله بلسان الاستعداد، ولابد من هذا التأهيل والاستعداد لقبول الرحمة حتّى تنزل الرحمة، وبعكسه الإعراض عن رحمة الله، فإنه

يدفع الرحمة ويبعدها وينفّرها. والرحمة الإلهية هابطة لا تنقطع، ولكن هناك عوامل لاستقبال رحمة الله، تستنزل الرحمة، وعوامل لرفض رحمة الله.

تأمّلوا في دعاء العبد الصالح نوح عليه السلام على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

وهو دعاء عجيب، ينطق فيه نوح عليه السلام بسنن الله في نزول الرحمة وانقطاعها، لقد نضب فيهم كل استعداد لقبول الخير، وكل استعداد بطلب الرحمة: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فعلى ماذا تنزل رحمة الله؟

إن لرحمة الله تعالى في حياة الإنسان منازل تتنزل عليها، فإذا انعدمت هذه المنازل ونضب معينها في نفس الإنسان، فلا يبقى لرحمة الله تعالى موضع في حياة الإنسان، فيستحقون عندئذ البعد من رحمة الله.

والحسين عليه السلام يدعوا الله تعالى على أُولئك الناس يوم عاشوراء؛ لأن هذه القلوب فقدت كل القيم التي هي منازل الرحمة في نفوسهم، فلم يبق لنزول رحمة الله موضع في نفوس هؤلاء وحياتهم، فيقول لهم: (فسحقاً يا عبيد الأمة).

٨ ـ غدر قديم وشجت عليه أُصولكم

في هذه الحالة يتحول الشر من حالة طارئة عارضة إلى حالة أصيلة عريقة داخل النفس، وكما أن للخير عراقة وأصالة كذلك للشر عراقة وأصالة، وجذور الخير تمتد إلى الفطرة والعقل والضمير والقلب، وجذور الشرّ تمتد إلى الهوى، وعندما يتأصل الشر والهوى في النفس يفقد صاحبه كل منابع الخير في نفسه وتنضب في قلبه وضميره وعقله وفطرته كل جذور الخير وأُصول الخير.

ويدخل عامل الوراثة في تأصيل حالة الخير وحالة الشر معاً. ولست أقول: إن الوراثة عامل قهري في تأصيل الخير والشر، ولكن أقول: إنّ عامل الوراثة له دور هام في تأصيل الخير والشرّ.

إن الوراثة تنقّح الخير وتنقح الشر، ولكن من دون إجبار وقهر.

ومن هنا فإن البشرية تنشطر إلى شطرين: الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، كل منهما

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

شجرة، وللشجرة جذور وثمار، وتتشابه الجذور والثمار في الشجرة، إن الجذور أصل الشجرة والثمار فرعها، والشجرة واسطة في نقل الخصائص من الجذور إلى الثمار.

كذلك الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة من الناس، كل منهما ينقلان الطيب والخبيث من الأسلاف إلى الأبناء فيتعرق في كل منهما الخير والشر.

وبالتالي فهاتان الشجرتان تشكلان خطين في تاريخ البشر: خطاً صاعداً، مستمراً في الصعود، وخطاً هابطاً مستمراً في السقوط. الأسرة النمرودية في سقوط، والأُسرة الإبراهمية في صعود، والأسرة الموسوية في صعود، والأسرة الفرعونية في سقوط.

وقانون الوراثة ينقح هذا الصعود، وذلك الهبوط، لا ينقل فقط خصائص الخير والشر من الأسلاف إلى الأبناء، وإنما ينقحه ويصفيه، ويفرز الشر عن الخير، ويفرز الخير عن الشر، وكلما يمر الزمن على هاتين الأسرتين تتسع الفاصلة بينهما، حتّى إذا خلصت نفوسهم عن الخير، ونضب معين الخير في نفوسه، نزل عليهم العذاب؛ لأنهم لا يستحقون الرحمة عندئذ كما حدث في عهد نوح عليه السلام. والذي حدث في عهد نوح عليه السلام يحدث في أي وقت آخر، فتنتهي الأسرة الخبيثة وتسقط، فتبدأ دورة جديدة من التاريخ.

إنّ قانون الوراثة ينقل خصائص الطيب والخبيث من جيل إلى جيل، وينقّح الطيب والخبيث معاً.

وإلى هذا القانون، (قانون الوراثة) يشير الإمام الحسين عليه السلام: «أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت[١] عليه أُصولكم، وتأزّرت[٢] عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمرة، شجى للناظر، وأكلة للغاصب».

يقول لهم الإمام عليه السلام: إن هذا الغدر والخبث فيكم أصيل وعريق من يوم صفّين، ورثه الأبناء من الآباء، اشتبكت عليه أُصولكم وتأزرت وهاجت وتفتحت عليه فروعكم، فأنتم أخبث ثمرة للشجرة الخبيثة.

ويبقى أن نضيف إلى هذا: أن الوراثة هنا، في القيم والسلوك لا ينطبق على الوراثة

---

(١) وشجت: اشتبكت. تأزرت: هاجت. لسان العرب، ابن منظور: ٣٩٨.

(٢) تقوّت والتفّت.

الحياتية (البيولوجية)، وقانون الوراثة الحياتية في النبات والحيوان والإنسان لا ينطبق بالضرورة على قانون الوراثة في القيم والسلوك والأفكار.

وقد يتخالفان تماماً، كما حدث ذلك في ابن نوح عليه السلام، وتعبير القرآن عن ابن نوح عليه السلام تعبير دقيق، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[1]، وإن كان من ذرية نوح عليه السلام، وهو إمام الصالحين.

وهذا الاختلاف نابع من عامل الحتمية في الوراثة الحياتية، دون وراثة الأعمال والقيم وأضداد القيم، فإنها تجري بالإرادة والاختيار ومن غير إجبار.

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.



رسالة الحسين عليه السلام
إلى أخيه محمد بن الحنفية

من كربلاء



عن ميسر بن عبد العزيز عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كتب الحسين بن علي عليه السلام إلى محمّد بن علي من كربلاء «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى محمّد بن علي، ومن قبله من بني هاشم. أما بعد. فكأن الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل والسلام»[1].

ظروف الرسالة

يكتب الحسين عليه السلام هذه الرسالة من كربلاء إلى أخيه محمّد بن الحنفية، في ظروف صعبة عسيرة من تاريخ هذه الأمّة. فقد بالغ بنو أُمية في الظلم والإفساد في المجتمع الإسلامي، وتمكنوا من بسط (الإرهاب) و(الإغراء) و(التضليل) في أطراف العالم الإسلامي، واستجاب الناس لعامل الإرهاب والإغراء والتضليل، وسكتوا عمّا يمارسه بنو أُمية من ظلم وإفساد. وكاد بنو أُمية أن يغيروا معالم هذا الدين، فلا يبقى من الإسلام إلّا اسمه، كما قال الحسين عليه السلام: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمة براع مثل يزيد»[2].

وتملّك الناس الرعب والإرهاب من جانب، والإغراء والتطميع وإيثار العافية من جانب آخر.

وقد عاش الإمام الحسين عليه السلام هذه المحنة، بعرضها العريض في مسيرته المعلنة من المدينة إلى كربلاء... وها هو يقف في وجه جند بني أُمية، وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن لا يشكّ أحد في كرامته عند الله واستحقاقه لإمامة المسلمين، ولا يقف معه في هذا الموقف غير اثنين وسبعين من أهل بيته وأصحابه، من عرض هذه الأُمة العريض.

وهذه المحنة لها وجهان: وجه ظاهر في الحياة الإجتماعية والسياسية وما يمارسه بنو أُمية من ظلم وإفساد، ووجه باطن في نفوس الناس، في حب الدنيا، وإيثار العافية، والجزع

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٨٧.

(٢) مثير الأحزان: ١٥، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، والعوالم: ١٧٥، ولواعج الأشجان: ٢٦.

من الموت. وبين هذا الوجهين تبادل وتعامل واضح، فإن الإرهاب والإفساد يخلق هذا الضعف، والعجز النفسي، وحبّ الدنيا يمكّن الحكام من الظلم والإفساد.

أجل، كان الحسين عليه السلام أمام محنة عريضة، عرض العالم الإسلامي، ذات وجهين، وجه داخل النفوس، ووجه في الحياة السياسية، وكان عليه السلام يعمل لتغيير كل من هذين الوجهين.

يعمل للتشهير بحكم آل أُمية وتسقيطهم ونفي الشرعية عن سلطانهم، وفضح جرائمهم وإفسادهم في المسلمين. وهذا هو أحد الوجهين.

وفي الوجه الثاني: كان يعمل لكسر حاجز الخوف في النفوس، وإثارة الحمية والغيرة في نفوس المسلمين، وإعادة إرادتهم السليبة إليهم، وإعادة الثقة والقوّة والعزيمة، والشجاعة، والإتّكال على الله إلى نفوسهم.

كان الإمام عليه السلام يعمل لإزالة حالة الإحباط الواسعة في نفوس المسلمين يومئذ.

وكان يعرف أن سبب هذا الإحباط كله داخل النفوس: (حب الدنيا)، (نسيان الآخرة)، وكان يرى أن علاج هذه الحالة الواسعة من الإحباط النفسي الترغيب في الآخرة، والتخفيف من إفتتان الناس بالدنيا، وحبّهم لها، والجزع من الموت.

فكتب إلى أخيه محمّد بن الحنفية هذا الخطاب الذي وجهّه إليه من كربلاء، وهو يخاطب به أُمة جده، في وسط هذه المحنة المزدوجة، ويُقَدمُ إليهم التشخيص والوصف الدقيق للعلاج، لتجاوز المحنة.

«أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل والسلام».

الانقطاع إلى الله عن الدنيا

هذه الكلمة على اختصارها تتضمن كل العلاج. إن علاج هذه المحنة في الانقطاع إلى الله تعالى وحده. ولا يتم الانقطاع إلى الله، إلّا بالانقطاع عن الدنيا، ولكي يتمكن الإنسان من الانقطاع عن الدنيا لابد له من تخفيف فتنة الدنيا في نفسه وتقليل بريق الدنيا وفتنتها في عينه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن عثمان بن مظعون رحمه الله «كان لي أخ في الله يُعَّظمه في عيني صغر الدنيا في عينه»[1].

---

(١) أعلام الدين للديلمي: ١٤٧.

ولابدّ له إلى جانب هذا التخفيف والتقليل أنّ يعظّم الآخرة في نفسه، ويرغّب نفسه إليها.

وهذا هو الذي يشير إليه الإمام عليه السلام في خطابة: «كأنّ الدنيا لم تكن، وكَأنّ الآخرة لم تزل».

ولنتأمل في كلام الإمام عليه السلام إلى كل من هاتين الفقرتين.

وقبل ذلك نتساءل ما هي الدنيا وما هي الآخرة؟

ما هي الدنيا وما هي الآخرة؟

وقبل أن أشرح خطاب الإمام عليه السلام إلى محمد بن الحنفية لابد من توضيح لمعنى (الدنيا) و(الآخرة) في هذا الخطاب.

المقصود من الدنيا (التعلّق بالدنيا)، وهو شيء آخر غير الحياة على الأرض التي تسبق الموت، والتعبير عن الدنيا بالتعلق بالدنيا تعبير شائع في النصوص الإسلامية.

والذم الذي ورد للدنيا في النصوص الإسلامية يقصد به هذا المعنى على العموم.

والمقصود بالآخرة (التعلّق بالحياة الآخرة)، وما أعدّ الله تعالى فيها من النعيم لعباده وما هو أعظم من النعيم المادي، وهو (لقاء الله) و(رضوانه).

والتعلق الأول هو التعلّق بما عندنا في الدنيا، وهو أمر زائل يسرع إليه الزوال، ومشوب بكثير من الابتلاء والمكروه.

والتعلق الثاني تعلق بما عند الله من النعيم المقيم، ورضوان الله، ولقاؤه، وهو أمر دائم لا سبيل للزوال إليه، ولا ينقطع، ولا يخالطه الابتلاء والمكروه.

وإليها تشير آية النحل/٩٦: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

فإن (ما عندنا) هو الدنيا، وما عند الله هو الآخرة، وإن كان كلٌ من عند الله، من دون شك.

والتعلق بالأول هو الدنيا، والتعلق بالثاني هو الآخرة.

وعندئذ يمكن أن يعيش الإنسان في الدنيا، وهو من أبناء الآخرة. وكثيرون يعيشون في الدنيا وهم من أهل الآخرة. ويصح أن نقول عنهم: إنهم يعيشون في الدنيا ولا يعيشون. يعيشون الدنيا بمعنى إنهم يتقلّبون مع سائر الناس من أبناء الدنيا في مسالك حياة الدنيا.

يدخلون الأسواق مع الناس ويقيمون الحياة الزوجية، كما يقيمها الناس، ولكنهم لا يعيشون الدنيا لأن قلوبهم لم تتعلق قط بالدنيا، ولم تنفذ الدنيا إلى قلوبهم، وإنما تعلقت قلوبهم بالله ورضوان الله ولقاء الله، يعيشون نعيم الجنة، ويخافون عذاب النار في هذه الدنيا.

وبين يدينا نصّين عن الذين يعيشون الآخرة وهم في الدنيا قبل أن ينتقلوا إلى الآخرة، ويهجرون الدنيا، وهم يعيشون في الدنيا، مع الناس، ويتقلبون فيها، كما يتنلّب الناس، ولكن قلوبهم متعلقة بالآخرة.

١ ـ همّام:

كان همّام من أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام، وكان رجلاً عابداً كما يقول الرضي رحمه الله في النهج، سأل أمير المؤمنين عليه السلام أن يصف له المتقين فتثاقل أمير المؤمنين عليه السلام عن جوابه، ثم قال: يا همام اتق الله، فلم يقنع همّام بذلك، وعزم عليه أن يصف له المتقين.

فحدثه الإمام عليه السلام بصفة المتقين فقال: بعد الحمد والصلاة كلاماً نذكر منها موضع الحاجة والشاهد فقط.. فالمتقون فيها هم أهل الفضائل.. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم له تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون.. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسَرَتهم ففدوا أنفسهم منها.. أمّا الليل فصافون أقدامهم، يرتلون القرآن يرتلونها ترتيلاً، فاذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب اعينهم. واذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم.. ينظر إليها الناظر، فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم.

قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى.. إلى آخر كلام الامام عليه السلام لهمّام.

قال: فصعق همّام صعقة كانت نفسه فيها.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما والله لقد كنت أخافها عليه.

ثم قال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها[1].

---

(١) راجع تمام كلام الإمام امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، قسم الخطب خطبة/ ١٩٣.

٢ ـ حارثة بن مالك

والنص الثاني عن حارثة بن مالك.. جاء في أصول الكافي كتاب الإيمان والكفر باب حقيقة الايمان واليقين عن اسحاق بن عمار، قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد، وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه. فقال له رسول الله: كيف أصبحت يا فلان[١]؟

قال: أصبحت يا رسول الله موقناً.

فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله. وقال: إن لكل يقين حقيقة (يعني إمارة ودليل وعلامة) فما حقيقة يقينك؟

فقال: إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم.

كأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون، وعلى الأرائك متكؤون. وكأني أنظر إلى أهل النار، وهم فيها معذّبون مصطرخون. وكأنّي الآن أسمع زفير جهنم يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان.

ثم قال له: الزم ما أنت عليه.

فقال الشاب: ادْعُ الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله. فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله، فاستشهد معه بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر[٢].

وهذا هو النص الثاني.

---

(١) في الرواية التي تلي هذه في أصول الكافي تصريح باسمه: (استقبل رسول الله حارثة بن مالك بن النعمان الانصاري) والمضمون واحد. ومن أشير إليه بـ (فلان) في هذه الرواية هو حارثة بن مالك، كما هو ظاهر.

(٢) أصول الكافي كتاب الكفر والإيمان باب حقيقة الإيمان واليقين ح ٢٥.

هؤلاء الذين وصفهم الامام عليه السلام، ومنهم همّام رضوان الله عليه، وهذا الشاب الذي كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله بعزوفه عن الدنيا وإقباله على الآخرة، وهو حارثة بن مالك بن النعمان الانصاري، من الذين عاشوا الآخرة قبل ان ينتقلوا إليها، وهجروا الدنيا، وهم لا زالوا مع الناس في الدنيا يتقلّبون معهم في وجوه الحياة، من السوق إلى البيت، كما يفعل سائر الناس.

كيف يكون الإنسان من أبناء الآخرة وهو في الدنيا

وإذا أردنا أن نعرف كيف يكون الإنسان من أبناء الآخرة وهو في الدنيا، وكيف يعالج في نفسه «التعلّق بالدنيا»، ويتجرد عنها، ويتعلّق بالآخرة وهم في الدنيا، علينا أن نتأمّل في هذه الكلمة التي وجهها الإمام عليه السلام إلى محمّد بن الحنفية «فكأنّ الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل».

إنّ الحياة الدنيا تؤول إلى الزوال وتنتهي لا محالة، وتنقطع علاقة الإنسان بالدنيا ولا تدوم له، وينفذ كلما يملكه الإنسان من هذه الدنيا وما يتعلّق به، وأما الآخرة فهي باقية ودائمة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[١]. وما عندنا هو ما نملكه، ونتعلق به من متاع الحياة الدنيا، وما عند الله هو ما يعدنا به الله من نعيم الآخرة ومتاعها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

والمتاع الباقي الدائم هو الذي يستحق أن يتعلّق به الإنسان، أما المتاع الزائل النافذ الذي يُسْرع إليه الزوال والنفاذ ولا يدوم للإنسان، ولا يطول بقاؤه له فلا يستحق أن يتعلق به الإنسان.

وكل متاع، يستحقّ التعلّق من الإنسان، على قدر بقائه له، ونسبة بقاء متاع الدنيا إلى الآخرة نسبة المحدود القصير إلى الدوام والخلود (المطلق).

فينبغي أن يكون التعلّق بالدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالنسبة بين بقاء متاع الدنيا المحدود إلى بقاء نعيم الآخرة غير المحدود.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.

وتعلّق الإنسان بهذه الدنيا ومتاعها، وانصرافه عن الآخرة، ناشئ عن وهم البقاء وهو طول الأمل أولاً، ونسيان الآخرة ثانياً، وهو أمر مرّكب من (الوهم) و(النسيان): وهَم بقاء الدنيا له، ونسيان الموت والآخرة.

وعلاجه أن يفترض الإنسان: كأنّ الدنيا لم تكن، وهذا الإفتراض يتحقّق في وقت قريب لا محالة، فلا تكون له الدنيا إلى الأبد لا محالة، ويسلب عن الإنسان كل شيء مما تعلق به في الدنيا البتّة.

ومثل هذا المتاع الذي يسرع إليه الزوال والفناء، ويسلب من صاحبه وشيكاً، رضي أم لم يرض، وتشبّث به أم زهد فيه.. ويشوبه الابتلاء والمكروه.. أقول: مثل هذا المتاع لا ينبغي أن يتعلق به الانسان، ويُخلي له قلبه وفؤاده.

وعليه لكي يهون عليه أن يفكّ قلبه من التعلّق به: أن يفترض كأنّ هذه الدنيا لم تكن، وهو افتراض قريب من الحقيقة جداً، فما اسرع ما تسلب عنه هذه الدنيا قهراً.. فاذا كان الأمر كذلك فليُقدم هو على فك تعلقه بالدنيا اختياراً، قبل أن يفكّ الموت هذه العلاقة كرهاً.

وهذا هو قوله عليه السلام: (كأنّ الدنيا لم تكن).

وهذا هو الشوط الأول من الطريق.

والشوط الثاني: أن يفترض أن الآخرة التي آمن بها، وعايشها في هذه الدنيا، بقدر من المعايشة، في نعيمها، وعذابها، ولقائها، وفراقها (لقاء الله، وفراق الله) وتعلق بها، بقدر من التعلّق، لم تزل قائمة في حياته، وتتصل حلقاتها بالموت وما بعد الموت.

فهو قد هجر الدنيا وهو لا يزال في الدنيا، وتنعّم بالآخرة، وعايشها، وعاش فيها نعيم الجنة وعذاب جهنم، قبل أن يخرج من الدنيا.

وهذان الافتراضان اللذان هما اقرب إلى الحقيقة منهما إلى الافتراض، كفيلان بفكّ علاقة الانسان بالدنيا، وشدّه بالآخرة، وهو لا يزال في الدنيا، وهما يعالجان في نفس الانسان ذلك (الوهم) و(النسيان) اللذين تحدثنا عنهما، وهما توهم البقاء (وهو طول الأمل) ونسيان الآخرة. وهما اللذان كان يخافهما رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر ما يخاف على أمته: (إنّ أخوف ما أخاف على أمتي طول الأمل ونسيان الآخرة).

من الآخرة إلى الآخرة

بناءً على ما ذكرنا من معنى (الدنيا) و(الآخرة).

فإنّ أبناء الآخرة، يتنقّلون في هذه الدنيا من الآخرة إلى الآخرة، كلّما تقلّبوا في وجوه الحياة الدنيا وساحاتها، وإذا ماتوا انتقلوا من الآخرة إلى الآخرة. وليس من الدنيا إلى الآخرة، لأنهم لم يعيشوا الدنيا قط، ولم تتعلق بها قلوبهم، حتّى ينتقلوا منها إلى الآخرة... وإنّما كانوا يعيشون الآخرة قبل أن ينتقلوا إلى الآخرة. والناس على هذا الفهم القرآني للدنيا والآخرة على أربعة أصناف:

الصنف الأوّل منهم ينتقل من الدنيا إلى الدنيا

والصنف الثاني ينتقل من الآخرة إلى الدنيا

والصنف الثالث ينتقل من الدنيا إلى الآخرة

والصنف الرابع ينتقل من الآخرة إلى الآخرة

أما الذين ينتقلون من الدنيا إلى الدنيا فهم الذين يريدون الدنيا في كل حركة لهم في هذه الدنيا، ولا يطلبون وجه الله وثواب الآخرة في شيء. فهم يتحركون من الدنيا إلى الدنيا فهو إذا غادر البيت إلى السوق، فإنه يتحرك من الدنيا إلى الدنيا، لأنه يعيش في بيته للدنيا. فإذا دخل السوق، تحرك فيه أيضاً للدنيا، فهو (من الدنيا إلى الدنيا). وهذا هو الصنف الأوّل من الناس.

والصنف الثاني: من الآخرة إلى الدنيا وهم الذين يتحوّلون من التعلّق بالآخرة إلى التعلّق بالدنيا، ومن العمل لله، إلى الانصراف إلى الأنا والهوى. هؤلاء انتقلوا من العمل والحركة في الدنيا لله، إبتغاءً لوجه الله، وثواب الآخرة إلى إبتغاء عرض الحياة الدنيا، وانصرفوا من الله إلى الدنيا، وأولئك هم الذين ساءت عاقبتهم.

والصنف الثالث: من الدنيا إلى الآخرة. وهؤلاء بخلاف الطائفة الثانية ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، من ابتغاء عرض الدنيا الزائل والتعلق به، إلى ابتغاء وجه الله وثواب الآخرة، والتعلق بالآخرة، كما انتقل زهير، وكما انتقل الحر رضوان الله عليهما.

والصنف الرابع: من الآخرة إلى الآخرة... وقد تحدثنا عنهم، وهم الذين يعيشون في الدنيا مع الناس، ويتحركون في السوق والشارع، كما يتحرك الناس، ويقيمون العلاقات الاجتماعية، ويقيمون العلاقة الزوجية، كما يقيمها الناس ولكن قلوبهم لم تتعلّق بالدنيا قط، ولم تنفذ الدنيا إلى قلوبهم.

هؤلاء يتحركون من الآخرة إلى الآخرة في كل حركة لهم في الدنيا، وإذا ماتوا انتقلوا كذلك من الآخرة إلى الآخرة.

الحوافز والعوائق

للحركة إلى الله (حوافز) و(عوائق)، شأن كل حركة أُخرى، فإذا توفرت الحوافز وانتفت العوائق انطلق الإنسان إلى الله، وإذا انتفت الحوافز وقامت العوائق في وجه الإنسان تعذرت حركة الإنسان إلى الله تعالى.

ومن أهم الحوافز الشوق إلى لقاء الله (في الآخرة)، ومن أهم العوائق حب الدنيا والتعلق بها.

ولكي ينطلق الإنسان إلى الله تعالى لابد له من تغييب الدنيا عن نفسه، حتّى لا ينجذب الإنسان إليها، ولا تعيقه عن الله، وهذا هو الذي يقصده الإمام عليه السلام بهذه الكلمة الموجزة المعبّرة القويّة (كأن الدنيا لم تكن)، ولابدّ له من تحضير الآخرة في الحسّ والنفس حتّى تجذب الإنسان إلى الله... وهذا هو الذي يقصده الإمام عليه السلام بقوله (وكأن الآخرة لم تزل)، أي لم تزل حاضرة منذ الأوّل إلى الآن، لم تغب ولن تغيب.

فإذا غيّب الإنسان الدنيا عن قلبه ونفسه، وحضّر الآخرة في نفسه وقلبه، انطلق إلى الله تعالى في حركة صاعدة سريعة وقوية، لقوة الحافز وانتفاء العائق.

وإذا كان حضور الدنيا في قلب الإنسان ونفسه وإحساسه قوياً مؤثراً، وغاب الآخرة عن نفسه وقلبه توقف عن الحركة بشكل كامل لانتفاء الحافز وقوة العائق.

وبينهما مراتب ودرجات يتكامل الإنسان خلالها أو يسقط من خلالها سقوطاً تدريجياً.

وقد كان الإمام عليه السلام شاهداً لحالة واسعة من السكوت عن الباطل والتجافي عن الحقّ، وإقرار الظلم، والمطاوعة للظالم، مصدرها إيثار الدنيا على الآخرة، وإيثار العافية على الابتلاء، والإشفاق من الموت والملاحقة والمطاردة ومعاناة الملاحقة والمطاردة... ومصدر كل ذلك حبُّ الدنيا ونسيان الآخرة.

وهو عليه السلام يريد أن يعالج الظاهرة الشائعة في الناس يومئذ بهذه الرسالة التي يوجهها إلى محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم وسائر الناس.

والآن نعيد النظر مرة أخرى إلى دراسة هاتين النقطتين في رسالة الإمام الحسين عليه السلام:

كأنّ الدنيا لم تكن

هذا الافتراض (كأنّ الدنيا لم تكن) ليس افتراضاً وهمياً، وإنما هو حقيقة، يرسمها الإمام بهذه الصورة. وأساس هذا الافتراض الإستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها ودوامها ولذاتها. وهذه الاستهانة بمعنى تسقيط الدنيا عن أية قيمة واعتبار، إلّا أن تكون الدنيا طريقاً وجسراً إلى عمارة الآخرة، وأداءً لحقوق العبودية ومسؤولية خلافة الله على وجه الأرض... وعندئذ تسقط الدنيا عن عين الإنسان، (كأن الدنيا لم تكن).. وهذا إلغاء لقيمة الدنيا، ومن ثمّ إلغاء للدنيا كلها.

وقد ورد في النصوص الإسلامية أنّ مثل الإنسان في الدنيا كمن يلجأ إلى ظل شجرة ليستريح إليها عن حرارة الشمس في النهار ساعة أو بعض ساعة، ثمّ يتركها ويذهب لشأنه... هكذا يكون مكث الإنسان في الدنيا.

عن رسول الله ﷺ «مالي وللدنيا، إنّما مثلي كمثل راكب مرّ للقيلولة في ظل شجرة، في يوم صائف، ثمّ راح وتركها»[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «ما لي وللدنيا، ما مَثَلي ومَثَل الدنيا إلّا كراكب سار في يوم صائف، فأستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار، ثمّ راح وتركها»[٢].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الدنيا ليست بدار قرار، وإنّما أنتم فيها كركب عرشوا وارتاحوا ثمّ استقلوا وراحوا، دخلوها خفافاً، وارتحلوا عنها ثقالاً، فلم يجدوا عنها نزوعاً، ولا إلى ما تركوا بها رجوعاً»[٣].

وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يكون الرجل في الدنيا؟ قال: «كما تمرّ القافلة. قيل: فكم القرار فيها؟ قال: كقدر المتخلف عن القافلة. قيل فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال: غمضة عين. قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾»[٤].

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الدنيا ظل الغمام، وحلم المنام»[٥].

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ١١٩.
(٢) المصدر نفسه ٧٣: ١٢٣.
(٣) البحار ٧٨: ١٨.
(٤) البحار ٧٣: ١٢٢، والآية الكريمة في الأحقاف: ٣٥.
(٥) غرر الحكم ١: ١٠٢.

وعنه عليه السلام أيضاً: «ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلّا فيها، ولا يُنْجى بشيء كان لها. ابتُلي الناس فيها فتنة. فما أخذوه منها لها أُخرجوا منها وحوسبوا عليه، وما أخذوه لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه. فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل بينا تراه سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص»(١).

ويقول علي عليه السلام في الدنيا: «لا تصفو لشارب، ولا تفي لصاحب»(٢).

وهذه الصورة (الواقعية) التي ترسمها النصوص الإسلامية للدنيا تُسقّط الدنيا عن عين الإنسان تماماً، (فكأنها لم تكن).

وهذا هو الذي يريده الحسين عليه السلام أن يبينه للناس يومئذ: إن هذه الدنيا لا تبقى لأحد، ولا تصفو لأحد، ولا تفي لأحد فلا ينبغي ولا يجوز أن يستسلم ويركن الحُرّ إليها، ويدع مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الظالمين إيثاراً للعافية في هذه الدنيا على الإبتلاء.

وكأنّ الآخرة لم تزل

وهذا هو الشطر الثاني من رسالة الإمام عليه السلام.

وأذكر تفسيرين لهذه الفقرة:

الأول ما ذكرته آنفاً: وهو أنّ الآخرة هي معايشة الآخرة، والانشداد إلى نعيمها وما أعدّ الله فيها لعباده الصالحين من لقاء ورضوان، ونعيم مقيم، لا نفاذ له.

وهذه المعايشة للآخرة ليست هي الآخرة، وإنّما هي مفارقة للدنيا ومعايشة للآخرة. وبين الآخرة ومعايشة الآخرة فرق بالضرورة. ولكنّها كأنّها الآخرة، لأن الإنسان في الآخرة يعيش النعيم والعذاب، فالذين يعايشون نعيم الآخرة وعذابها في الدنيا كأنّهم في الآخرة. تأمّلوا في هذه الكلمات التي تحدث بها الإمام علي عليه السلام لهمّام: (فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون). (وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم).

ولا معايشة أبلغ من هذه المعايشة، ولا عيش يزيد على هذه المعايشة.. إذن وكأن

(١) نهج البلاغة الخطبة: ٦٣.

(٢) غرر الحكم ١: ٨٥.

الآخرة قائمة بالنسبة إلى هؤلاء، ولما كانت هذه المعايشة بدرجة من الدرجات قائمة في حياتهم منذ ان وعوا التوحيد، والمعاد، والآخرة ونعيمها، وعذابها إلى هذه الساعة، فكأن الآخرة لم تزل قائمة في حياتهم، كما يقول الإمام الحسين عليه السلام في خطابه لمحمد بن الحنفية.

ولابد من بيان وتفصيل آخر لهذه الكلمة:

إنّ الدنيا عمل والآخرة حساب وحصاد، كما وردت بذلك النصوص الاسلامية، إنّ الدنيا عمل والآخرة حساب، والدنيا حرث والآخرة حصاد. ها هنا يزرع الناس، وفي الآخرة يحصدون ما يزرعونه في الدنيا من قبل، وكل إنسان يزرع الذي يحصده.

وقد ورد في الحديث (وكل إنسان مبتلى بحرسه إلّا قارئ القرآن). فكلّ حرث الإنسان فيه خير وشر (إن لم يكن حرثه كلّه الشر)، فكل إنسان مبتلى بحرسه، إلّا قارئ القرآن، فإنّ حرسه كله خير، وليس في حرس قارئ القرآن والعامل به شر على الإطلاق.

إذن هناك قانونان في العلاقة بين الدنيا والآخرة.

القانون الأول: إن الدنيا عمل والآخرة حساب.

القانون الثاني: إن الدنيا حرث والآخرة حصاد.

وقد شرحت هذا القانون باختصار، وسوف نبدأ بدراسة كل واحدة من هذين القانونين:

الدنيا عمل والآخرة حساب

وهذا هو القانون الأول.

وقد روي في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

(ألا وأنكم في يوم عمل لا حساب فيه، ويوشك أن تكونوا في يوم حساب لا عمل فيه)[١].

وروى الشريف الرضي هذا المعنى عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: (إن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل)[٢].

---

(١) بحار الأنوار ٧٧/ ١٨٨.

(٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام: (ألا وأن الدنيا قد ترحّلت مدبرة، وأن الآخرة قد دنت مقبلة، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا ان استطعتم من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل). الارشاد للمفيد/ ٢٣٦. أمالي الطوسي ١/ ٢٣٦. نهج البلاغة، خطبة رقم/ ٤٢.

ومعنى ذلك أن المميزة الكبيرة في الآخرة الحساب.

ومن الناس من يعمل في الدنيا، ولا يحاسب نفسه، ويغفل الحساب ويتناساه ويهمله، ويخلّي بين نفسه وبين شهواتها وأهوائها كالدابّة المرسلة. وهؤلاء هم أبناء الدنيا، الذين يعيشون الدنيا محضاً، ويتعلقون بها، وتحجبهم الدنيا عن الآخرة وما فيها من الحساب.

ومن الناس من يحاسب نفسه في الدنيا، قبل أن يحاسبه الله في الآخرة، يحاسب نفسه اختياراً، حيث يتمكن من التدارك والتوبة وجبر ما فاته، قبل أن يحلّ به يوم يقدم إلى الحساب قهراً، ولا يمكنه جبر ما فاته من العمل وتداركها، ولا التوبة.

وهؤلاء هم أبناء الآخرة، وهم في الدنيا. لم تحجبهم الدنيا عن الآخرة، ولم تشغلهم لذات الدنيا وفتنتها وشهواتها عن ان يحاسبوا أنفسهم فيها الحساب العسير، الذي لا هوادة فيه.

وإلى هؤلاء يشير الحديث المعروف (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا).

هؤلاء يخضعون أنفسهم للحساب العسير، كما لو كانوا في الآخرة، ويعايشون الحساب في الدنيا، قبل أن يعيشوا الحساب في الآخرة.

هؤلاء يعايشون الحساب في الدنيا، قبل ان يعيشوا الحساب في الآخرة.. هؤلاء كأنّهم في الآخرة، وكأن الآخرة قائمة فيهم، وهم لا يزالون في الدنيا، وتتقلب بهم الدنيا، كما تتقلب بسائر أبنائها، ولكنهم كأنّ الآخرة لم تزل قائمة فيهم، فلا ينصرفون من الآخرة إلى الدنيا، ولا من الحساب العسير إلى إرسال أزمّة أنفسهم في شهواتها ولذاتها من غير حساب.

الدنيا حرث والآخرة حصاد

وهذا هو القانون الثاني في علاقة الدنيا بالآخرة. اشرحها في ثلاث نقاط كما يلي:

أولاً: إن الدنيا حرث والآخرة حصاد.. وبين الحرث والحصاد علاقة المسانخة، فإن الحصاد من سنخ الحرث لا محالة، وليس من الممكن أن يحرث الإنسان الشوك والحنظل ويحصد الأزهار والطيبات من الفواكه.. إن من يحرث الشوك في الدنيا يحصد الشوك في الآخرة، ومن يحرث الحنظل في الدنيا يحصد الحنظل في الآخرة، ومن يحرث الطيبات والفواكه والأزهار والرياحين في الدنيا يحصد الفواكه والأزهار والرياحين في الآخرة.

وخلاصة القول إن من يحرث الخبائث في الدنيا يحصد الخبائث في الآخرة، ومن

يحرث الطيبات في الدنيا يحصد الطيبات في الآخرة لا محالة. وإنّ الذي يحرث الكلمة الخبيثة والنظرة الخبيثة والعمل الخبيث والنيّة الخبيثة يحصد الخبائث في الآخرة.

ومن يحرث الكلمة الطيبة، والصدق، والوفاء، والأمانة، والاخلاص، والتوحيد، والعمل الصالح، والذكر، والشكر، وطاعة الله يحصد في الآخرة ما يطيب ويلذ من نعيم الجنة ولذاتها.

يقول تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ۝٤٠﴾ [النجم: ٣٩]. ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ۝٨﴾ [الزلزال: ٧ ـ ٨]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠].

إذن الدنيا دار حرث، والآخرة دار حصاد وجزاء.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قراءة القرآن: (واعلموا أن القرآن شافع مشفع، وقائل مصدق، وأنّ من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن مَحَل به القرآن (سعى به: وشى به) يوم القيامة صُدّق عليه، فإنه ينادى يوم القيامة: إلاّ أن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن فكونوا من حرثته واتباعه)[١].

إن في كل حرث شر، فأما أن يكون حرث الإنسان كله شرّ، وأما أن يكون فيه خير وشر إلّا حارث القرآن فإن حرثه كله خير..

فإن قارئ القرآن والعامل به لا ينطق إلا بالطيّب، ولا يسعى إلا إلى الصالح، ولا ينوي الا الخير، ولا يمدّ يده إلى الآخرين الا بالجميل، ولا يقابل الله الا بالذكر والشكر والطاعة والاخبات والانابة، فليس في حرث قارئ القرآن شرٌّ على الإطلاق، وحرثه كله خير، وبالضرورة يكون حصاده وجزاؤه كله طيّب وخير وصلاح ورحمة.. وهذا هو قول علي عليه السلام: (ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته واتباعه)..

إذن هناك علاقة بين عمل الإنسان في الدنيا وجزاؤه في الآخرة، ولا يكون جزاؤه إلا من سنخ عمله..

وجزاؤه في الآخرة بنفس عمله، وعمله في الدنيا هو جزاؤه في الآخرة.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة/رقم ١٧٦، وأصول الكافي ٢/ ٤٤٧، كتاب القرآن.

وأن الإنسان يعذب بذنوبه في الآخرة، وأن ذنوبه وخبائث أعماله هي عذابه وعقابه وجزاؤه في الآخرة، وليس جزاؤه الا عمله، كمن يقتل نفسه، فإن جزاؤه هو القتل، وهو نفس عمله، وكمن يلقي بنفسه من شاهق، فإن عقابه هو عمله وليس شيئاً آخر، ومن يتناول السم يعاقب بعمله، وعقابه وعذابه نفس عمله..

إنّ العذاب الذي يلقاه في الآخرة هو ما قدمّه لنفسه في الدنيا، وكذلك العكس في أصحاب الاعمال الصالحة والطيبات من الاعمال والاقوال فإن جزاءهم يوم القيامة هو نفس أعمالهم، وأنهم يقدمون على أعمالهم يوم القيامة فيجدونها قد سبقتهم إلى الله.

تأملوا في هذه الآيات المباركات من كتاب الله:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزال: ٧ ـ ٨].

إن الإنسان يرى يومئذ عمله من خير وشر، فإن كان قدّم الخير يراه أمامه، وإن كان الذي قدمه في الدنيا الشر يراه أمامه كذلك.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

هكذا بوضوح يجد الإنسان ما عمله من خير قد أحضر أمامه ويجد الإنسان ما عمله من سوء قد أحضر أمامه، ويود أن يكون بينه وبين عمله أمداً بعيداً، ولكن هيهات، فقد أقبل على عمله، وهو عقابه إن كان خبيثاً، وثوابه إن كان طيباً... هذا أولاً.

وثانياً إن لعمل الإنسان ظاهر وباطن.. أما ظاهره فهو ما يقدم عليه في الدنيا، وهو لا يرى فيما يقترفه من الذنوب غير لذة الشهوة والهوى. وهذا هو ظاهر عمله، فاذا مات أبصره الله تعالى بباطن عمله ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وعندئذ يرى باطن ذنوبه التي كان يتلذذ بها في الدنيا، فيستبشعه ويستقذره، ولكنه لا يستطيع أن يفك نفسه عنه، ويودّ أن يتخلص منه، ويكون بينه وبينه أمداً بعيداً، ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، ولكن هيهات، إنه مرهون بعمله ﴿كُلُّ امْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

غير أنه لم يكن يجد في الدنيا لعمله هذه البشاعة والقذارة التي كان يستبطنهما عمله في الدنيا، فاذا مات وجدهما في عمله، وقد كانتا خافيتين عليه من قبل.

تأملوا في هذه الآية من سورة النساء:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

إن مال اليتيم نار من عذاب الله يأكله الظالمون في بطونهم، وهم لا يشعرون بهذه النار التي يأكلونها، فإذا ماتوا وجدوا سعير ذلك في بطونهم.. فقد أكلوا النار، وهم لا يعلمون.. إن أكل مال اليتيم يستبطن هذه النار الحارقة في بطون الظلمة لو كانوا يحسون بها في الدنيا.

ويقول تعالى في إبراز بشاعة (الغيبة): ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

إن هذا الإثم الذي يقترفه الناس، بلا مبالاة، من أبشع أنواع الذنوب. إنهم يأكلون بالغيبة لحوم اخوانهم، وهم موتى، ولا يشعرون بهذه البشاعة التي يحدثنا عنها القرآن الا في الآخرة. ولو شعروا بأن الغيبة تستبطن هذه البشاعة لكفّوا عنها في الدنيا.

إن الذنوب التي يقترفها الناس ظاهرها لذيذ من شهوات الإنسان، وهي تستبطن أقبح الأمور وأقذرها وأبشعها.

والأمر بالعكس في الاعمال الصالحة، فإن هذه الأعمال تستبطن كمال الإنسان وعروجه إلى الله، وهو يستبطن النعيم المقيم عند الله، ورضوان الله ولقاءه.

إن الناس لا يرون من الصلاة الا الركوع والسجود والقراءة والتشهد والتسليم، ولكنها تستبطن عروج العبد إلى الله ولقاء الله ورضوانه[(١)].

وقد ورد في الحديث أن (الصلاة معراج المؤمن) و(الصلاة قربان كل تقي). وهذا العروج والقربان كامنان في الصلاة والذكر والشكر، غير انّ الناس لا يرون هذا العروج والقربان في الصلاة والذكر الا عندما يكشف الله عن بصرهم غطاء الدنيا (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد).

ولقد كان رسول الله ﷺ يجد في الصلاة هذا العروج والقربان ولقاء الله فيجد في الصلاة لذة لا تعادلها لذة، وكان يقول: (وقرة عيني الصلاة).

---

(١) راجع للمزيد من التفصيل والتحقيق في هذا الموضوع كتاب (العدل الالهي) القيم للشهيد السعيد الشيخ مرتضى المطهري رحمه الله.

إن الذنوب تستبطن سقوط الإنسان وهلاكه والاعمال الصالحة تستبطن عروج الإنسان إلى الله وكماله.

إنّ نعيم المؤمنين في الآخرة بدرجات كمالهم التي تتضمنها وتستبطنها اعمالهم الصالحة، وعذاب الكافرين والمنافقين والمذنبين بنفس درجات سقوطهم.

إن أعمال الناس من خير وشرّ هي درجات كمالهم، وسقوطهم في الطاعة والمعصية.

إن الإنسان يتكامل ويعرج إلى الله بالتقوى والذكر، وهما مرقاتان له إلى الله، ويسقط بذنوبه وإعراضه عن الله.

إن النعيم والعقاب في الآخرة حسب مرتبة الإنسان ودرجته من الكمال والسقوط في الآخرة، ودرجاته في الآخرة هي درجاته في الدنيا، ودرجاته من الكمال والسقوط في الدنيا هي أعماله الصالحة والسيئة.

وللكمال درجات صاعدة، وللسقوط درجات عكسية هابطة. ونعيم الإنسان وعقابه حسب درجته في الكمال والسقوط.

وقد ورد في الحديث عن قراءة القرآن عن رسول الله ﷺ: «يقال له (لقاريء القرآن): إقرأ وأرق فكلما قرأ آية صعد درجة»[1].

وعن علي بن الحسين عليه السلام، زين العابدين: «من قرأ القرآن، قيل له: إقرأ وأرق. ومن دخل الجنة منهم لم يكن في الجنة أعلى درجة منه ما خلا النبيون والصديقون»[2].

مفاد هذه النصوص إن قرّاء القرآن في الجنة درجات، وما يرزقهم الله من النعيم في الجنة فهو على قدر درجاتهم في الآخرة، ودرجاتهم في الآخرة على قدر درجاتهم في الدنيا، ودرجاتهم في الدنيا على قدر ما قرأوا من القرآن.

عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك في الدنيا عند آخر آية تقرؤها»[3].

وهذا مسلسل من المعادلات، وما يلقاه المؤمن من نعيم الجنة على قدر درجته في

---

(١) أُصول الكافي ٢: ٤٤١.

(٢) مستدرك الوسائل ١: ٢٩٩ ط. الأولى الحجرية.

(٣) مجمع البيان ١: ١٦.

الآخرة. ودرجته في الآخرة على قدر درجته في الدنيا، ودرجته في الدنيا على قدر ما قرأ ووعى وعمل من القرآن.

وهو معنى (اقرأ وارق)، بعد إسقاط الوسائط.

وأبلغ من هذا وأدق في تصوير هذه الحقيقة الآية ٤٦ من سورة هود التي ترسم هذه اللوحة الخالدة لابن نوح: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾. وهذه اللوحة من كنوز المعرفة في القرآن.

إنّ الإنسان هو عمله، وقد كان ابن نوح عمل غير صالح. وعمل الإنسان هو رتبته في الدنيا، ورتبته في الدنيا هي رتبته في الآخرة.

وكما كان ابن نوح عمل غير صالح فهناك أعمال صالحة في هذه الدنيا كثيرة.

وإذا تسلسلنا مع المعادلات السابقة، فإننا ننتهي إلى هذه النتيجة العجيبة التي يلفت نظرنا إليها الإمام الحسين عليه السلام وهي أن الآخرة قائمة في دنيانا هذه، غير إنّا لا نشعر بها.

وللإحساس بالآخرة في الدنيا، دور كبير في تعديل سلوك الإنسان وتهذيبه وتجريده عن الخضوع لعامل الهوى، وفي انطلاق النفس، وعروجها إلى الله، وإزالة العوائق التي تعيق حركة الإنسان إلى الله.

والذي نريد أن نقول بعد هذا الاستعراض للنصوص الإسلامية من الكتاب والسنّة.

إن درجة المؤمن في الآخرة صعوداً وسقوطاً، على قدر درجته ومرتبته في الدنيا.

ودرجته في الدنيا صعوداً وسقوطاً على قدر ما عمله من الصالحات والسيئات، إذن كل عمل صالح يعمله الإنسان في هذه الدنيا يرفعه درجة وكل عمل سيئ يضعه درجة.

ودرجات صعوده وسقوطه في الجنة والنار هي درجاته في الدنيا.

وهذه مسألة ـ في غاية الأهمية ـ في الثقافة الإسلامية، وخلاصتها إن الإنسان يتلقى جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة، وإن كان لا يحسّ بذلك، وما يتلقاه في الآخرة من النعيم والعقاب هو أحد وجهي هذه القضية، والوجه الآخر هو ما يتلقاه في الدنيا من الصعود والسقوط في داخل نفسه.

والإنسان، إذا أنعم النظر في نفسه، بهذا المقياس يرى إنه يصعد ويسقط بأعماله في الدنيا، ومعنى ذلك انه يتقرب إلى الله ويبتعد عن الله بحسناته وسيئاته.

فكأنّه في الآخرة، وكأنّ الآخرة لم تزل، فهو يصعد ويسقط في هذه الدنيا، ويتصل هذا

الصعود والسقوط بالصعود والسقوط في الآخرة، إلّا أنه يمكنه أن يتدارك سقوطه في الدنيا، ولا يتمكن من ذلك في الآخرة.

إذن الآخرة قائمة في الدنيا، وهذا هو معنى «وكأنّ الآخرة لم تزل» في خطاب الإمام الحسين عليه السلام إلى محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم.

النتائج المترتبة على هذين الافتراضين

بين يدينا افتراضين، وهما:

حضور الدنيا وغياب الآخرة.

وغياب الدنيا وحضور الآخرة.

وهاتان رؤيتان مختلفتان، ولكل من الرؤيتين آثار ونتائج في سلوك الإنسان.

الرؤية الأُولى: حضور الدنيا وغياب الآخرة.

الرؤية الثانية: غياب الدنيا وحضور الآخرة «كَأَنَّ الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل».

النتائج المترتبة على الرؤية الأُولى

والنتائج المترتبة على هذه الرؤية هي:

حبّ الدنيا، والتعلق بالدنيا، والإقبال عليها، والإعراض عن الآخرة، وطول الأمل في الدنيا، حتّى كأنّ الدنيا لا تفنى، ونسيان الآخرة، حتّى كأن الآخرة لا تأتي.

وهذه النتيجة هي أحد طرفي المعادلة، والطرف الآخر للمعادلة أنّ من أحبّ الدنيا ذلّ، وخاف، وجبن عن المواجهة وآثر العافية، وهانت عليه نفسه وكرامته.

وسلام الله على أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: «الدنيا تُذِلّ»[1].

إنّ حب الدنيا والتعلّق بها تورث الإنسان الضعف والجبن والذل، وفقدان الموقف والركون للظالمين، والتثاقل عن جهاد الظالمين. وإيثار العافية في الحياة الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

---

(١) غرر الحكم ١: ١١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

إن الرضا بالحياة الدنيا، والركون إليها والإقبال على متاعها يثقل الإنسان عن النفير في سبيل الله، ويكسب الإنسان حالة الترهّل والتثاقل، وهي آفة الإنسان في الحركة إلى الله.

النتائج المترتبة على الرؤية الثانية

وأعظم هذه النتائج الزهد في الحياة الدنيا والإقبال على الآخرة. وخصلة الزهد من الخصال الحميدة في النفس. تمنح الإنسان القوّة والشجاعة والبصيرة والإقبال على الله، وتكسب الإنسان الشجاعة والجرأة والموقف، وتسلب عنه حالة التردد والتثاقل والضعف والجبن والذل.

إنّ الاستهانة بالدنيا والموت، والإقبال على الآخرة مصدر كل جرأة وشجاعة وموقف وصلابة في حياة الإنسان.

وبعكس ذلك الالتصاق بالدنيا، والركون إليها، والإقبال عليها يسلب الإنسان القدرة على اتخاذ الموقف والصلابة في الموقف والرأي، ويسوق الإنسان إلى التبرير، والاعتذار، والغياب عن الموقف ثمّ إلى التثبيط، والإنكار والتكذيب.

ويبقى أن أقول إن حبّ الدنيا والتعلّق بها شيء آخر غير المعيشة في الدنيا، والتقلب في وجوهها والدخول إلى السوق، والسعي إلى مراكز القوة والمال.. من غير إسراف، ولا استهلاك للانسان.. ذلك كله غير محظور في الاسلام، والمحظور والمذموم هو التعلّق بالدنيا وحب الدنيا، وهو شيء آخر غير السعي إلى الدنيا والعمل فيها والتقلب في وجوه الحياة.

بل الإسلام يأمر بهذا الاخير، في غير إسراف.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

ومن الممكن أن يسعى الإنسان إلى الدنيا ويطلبها ويتقلّب فيها، في غير إسراف، ثم لا يتعلق بها ولا ينقطع إليها، ولا تكون كل همّه، وتبقى نفسه مشدودة متعلقة بالله، وما أعدّ الله تعالى للمؤمنين من رضوانه ولقائه ورحمته.

ولسنا نحتاج إلى هذا التذكير لولا سوء الوعي وسوء المعرفة الذي مُنيت به بعض الاتجاهات الصوفية، التي استنتجت من المسائل المتقدمة في هذا البحث: أن الإسلام ينهى عن التقلّب في الدنيا والسعي إليها، وابتغاء الرزق الحلال منها، وكسب المواقع المالية والسياسية والاعلامية فيها.. وهو فهم لا يستقيم مع النصوص الاسلامية الكثيرة التي تأمرنا

بالسعي والحركة على وجه الأرض، وابتغاء الرزق الحلال في الدنيا، والسعي إلى مواقع المال، والحكم، والقوة، والعلم، والاعلام في الدنيا.

تغييب الدنيا وتحضير الآخرة في النفس

وهذه هي خلاصة رسالة الحسين عليه السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية رضي الله عنه ومن قبله من بني هاشم، وهي تغييب الدنيا في النفس وتحضير الآخرة فيها.

«كأنّ الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل».

وهي وصفة دقيقة لعلاج عجز المسلمين يومئذ من اتخاذ الموقف المسؤول الشجاع تجاه فتنة بني أُمية.

فقد أضرّت هذه الفتنة بالمسلمين كثيراً، وأفسدت نفوسهم، وعقولهم، وثقافتهم، ونكّست ولاءهم وبراءتهم، فجعلت ولاءهم لأعدائهم وبراءتهم عن أوليائهم، من غير عدل أفشوه فيهم، وسلبتهم إرادتهم ووعيهم.

وهذه حلقات ومراحل من التخريب الثقافي والنفسي والعقلي والاجتماعي قام به بنو أُمية (حكومة الطلقاء) في المجتمع الإسلامي يومئذ.

وكان لابد من حركة واسعة للقضاء على هذه الفتنة، إلّا أن هذه الفتنة كانت قد عطّلت إرادة الناس وضمائرهم، فلم يعد الناس يستجيبون لدعوة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في مقاومة هذه الفتنة والقضاء عليها.

فيكتب الإمام الحسين عليه السلام في هذه الرسالة وصفة دقيقة لعلاج ما أصاب الناس من فتور في الجهاد، وضعف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعجز عن العزم على المواجهة واتخاذ الموقف، وركون إلى الدنيا، وإيثار للعافية والسلامة والأمن، وهي وصفة دقيقة لعلاج هذه الحالة.

وهذه الوصفة تتضمن النقاط التالية:

النقطة الأُولى

النقطة الأُولى في هذه الوصفة: توطين النفس للتخلّي عن الدنيا للوفود على الله، وسبيل ذلك الاستهانة بالدنيا ولذّاتها ومتاعها وبقائها وتقلباتها.

وثمرة هذا التوطين:

١ ـ أن لا يفرح الإنسان بالدنيا، ولا يتعلّق بها، ولا يركن إليها.

٢ ـ ولا يحزن لما فاته منها، وما حلت به من المصائب فيها.

٣ ـ ولا يخاف ولا يقلق لما يفوته مما آتاه الله تعالى منها في المستقبل.

يقول تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1] وعذاب الإنسان في هذه الدنيا، وتثاقله عن النفير في سبيل الله، وإسفافه ومحنته في هذه الثلاثة:

الفرح والحزن والخوف.

الفرح بما أتاه الله من نعيم الدنيا.

والحزن لما فاته منها، والخوف والقلق لما يفوته منها في المستقبل، فإذا تجرد منها هانت عليه الدنيا وتمكن أن يخفّ للقاء الله، وأن يترفع على الدنيا وهمومها.

وعندئذ ينطلق من عقال الخوف والضعف والفتور والتردد.

وسبيل ذلك كله كما قلنا أن يستهين بالدنيا ويفترض إن الله لم يرزقه ما رزقه من هذه الدنيا من فتنة الأولاد، والأموال، والأزواج، ويفك قلبه عن أسر الدنيا وحبها.

عندئذ يتحرّر من الخوف والطمع والجشع والحزن والفرح والركون والرضا بالدنيا.

ومثل الدنيا في (التعلّق) مثل فضاء جاذبية الأرض، فإنك إذا استطعت أن تخرج من فضاء الكرة الأرضية لا تجد هذه الجاذبية التي تجدها للأرض وتتحكم فيك وأنت عليها[2].

وكذلك إذا استطاع الإنسان أن يُخْرِجَ نفسه من الدنيا، وهو فيها، لا يجد عندئذ ما يجده سائر الناس من مصيبة (التعلّق بالدنيا)، وإن كان يتقلب في ساحات الدنيا ويسعى إليها.

والذين يموتون ويخرجون من هذه الدنيا، يعجبون من تعلق الأحياء بهذه الدنيا وزخرفها ومتاعها.

وقد قلنا قريباً: إن الإسلام يدعوا الناس إلى الحركة على وجه الأرض سعياً لابتغاء

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٢) كان يقول أحد الحكماء لو خرجت من الأرض لأستطعت أن أجذب الأرض وهو كلام لم يثبت صحته في علم الفضاء، ولكن ينطوي على فهم دقيق للجاذبية.

الرزق وعمران الأرض... ولكن شريطة أن لا تغلبهم جاذبية الدنيا على أنفسهم، ولا تستحوذ عليهم، ولا تسلبهم حرية إرادتهم.

وهذه الحالة هي حالة انتزاع النفس من حبّ الدنيا والتعلق بها، وليس من الدنيا نفسها، وبينهما فرق، والفرق واضح.

ومقياس ذلك هو ما يذكره الله تعالى في كتابه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وهو مقياس دقيق، فإذا عرفنا من أنفسنا ذلك في (الحزن) و(الفرح) و(الخوف) فلا بأس على الإنسان عندئذ، أن يتمتّع بما أذن الله له من الطيّبات.

ولا يكون ذلك إلّا أن ينتزع الإنسان نفسه من دائرة جاذبية الدنيا، وهو معنى الحديث المعروف «موتوا قبل أن تموتوا»[١].

والموت الأوّل المأمور به في النص هو الموت الاختياري، والموت الثاني في النص هو الموت القهري، والمطلوب أن يموت الإنسان باختياره قبل أن يموت الموت القهري الذي لابد منه.

والموت الاختياري هو أن ينتزع الإنسان نفسه من التعلّق بالحياة الدنيا قبل أن يخرجه الموت القهري من الدنيا.

وهذا هو معنى تغييب الدنيا عن النفس وهي عملية نفسية شاقة وصعبة.

وهي النقطة الأُولى من الوصفة التي يصفها الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم وسائر الناس.

فإن الإنسان بين افتراضين: أحدهما يشدّد عذابه وقلقه، والآخر يزيل عنه القلق والعذاب والخوف.

أمّا الأوّل: فهو افتراض أن يبقى الإنسان على أمد طويل من العمر، وهو معنى (طول الأمل)، ولا شك أنه افتراض باطل، ووهم لا حقيقة له، ولكن هذا الوهم يطيل عذاب الإنسان وقلقه في الدنيا.

وأما الثاني: فهو قِصَرُ الأمل، وهو افتراض في مقابل هذا الافتراض وقوام هذا الافتراض أن تغيب الدنيا عن نفس الإنسان، ولا يزال يستحضر الموت حتّى كأنما الدنيا لم

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٥٩.

تكن بيده، ولم يكن في الدنيا من قبل، ليشق عليه مفارقته... وهذا الافتراض يحرّر الإنسان من فتنة الدنيا وأسرها، وليس معنى هذا الافتراض أن يعزل الإنسان نفسه عن الدنيا، وإنما يحرّرها عن التعلّق بالدنيا فقط.

فينطلق صاحبه مع الناس إلى السوق والشارع والمدرسة والمزرعة والبيت، لكنه يتعامل معها جميعاً من منطلق التكليف والمسؤولية، وليس من منطلق التعلّق والركون.

والفارق بينهما أنه لو أصابته مصيبة في تجارته في السوق، أو في أبنائه في البيت لا يملكه الحزن والأسى في الحالة الثانية ويستسلم لقضاء الله وقدره، بعكس الحالة الأولى، حيث يحكمه الحزن والخوف والفرح.

وهذه هي النقطة الأُولى في هذه الوصفة.

النقطة الثانية

هي تحضير الآخرة في النفس، وهو أيضاً جُهْد نفسي شاق.

وتعبير الإمام عليه السلام دقيق في هذه النقطة «وكأن الآخرة لم تزل» أي لم تزل قائمة منذ أوّل دخول الإنسان في هذه الدنيا إلى أن يلقى الله... وهو يختلف عمّا لو كان يقول «وكأنَّ الآخرة قائمة».

أوَليس معنى الدنيا هو التعلّق بالدنيا، ومعنى الآخرة هو التعلّق بنعيم الآخرة ولقاء الله... فقد يعيش الإنسان في هذه الدنيا عمراً طويلاً، يدخل مع الناس السوق والبيت، ويتقلّب مع الناس في الحياة الإجتماعية، وهو لم يتعلق بالدنيا قط منذ أن خالطها، ولم يفارق التعلّق بالله ونعيمه ورضوانه ولقائه قط منذ أن عرفه بفطرته وعقله.

دخلوا الدنيا ولم يدخلوها، وعرفوا الله ولم يفارقوه. أبدانهم في الدنيا مع الناس، وقلوبهم نافرة عما يألفه الناس من متاع الدنيا ويركنون إليه.

وللإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وصف دقيق لأحوال هؤلاء في الدنيا، يذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة، في خطبته المعروفة بخطبة المتقين[1]، يقول عليه السلام:

«ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم.

---

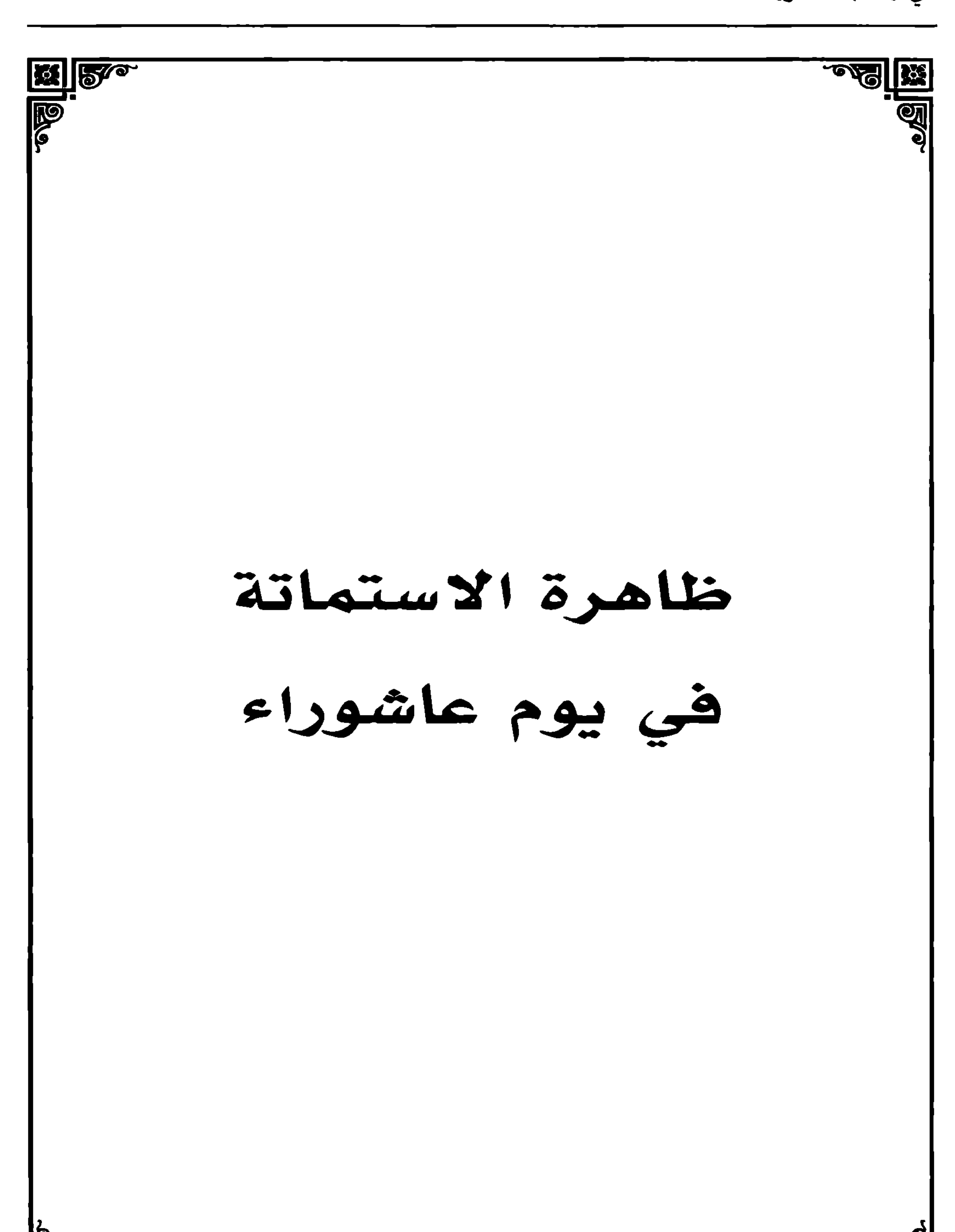
(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

وفي هذه الخطبة يذكر الإمام عليه السلام المنهج النفسي عند هؤلاء لتحضير الآخرة ماثلةً أمام أعينهم وهم يعيشون فيما بين الناس ويتقلبون معهم في هذه الدنيا.

«فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نُصْبَ أعينهم.

وإذا مرّوا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول أذانهم».

وهذه هي عملية تحضير للآخرة. وهي النقطة الثانية من رسالة الإمام عليه السلام إلى محمّد بن الحنفية، وفي هاتين النقطتين علاج كل مصائب الإنسان في الدنيا، وسبيل الإنسان إلى التحرر عن أسر الدنيا والتعلق بها، والانطلاق إلى الله تعالى، فينقلب الإنسان من خشبة عائمة على مجرى الأحداث إلى عنصر فاعل مغير مسؤول بين يدي الله عن تقرير مصير الإنسان وبناء المجتمع، كما ينقلب من صدى لرغبات الحكام الظالمين وأهوائهم إلى هتاف ونداء لإيقاظ الأمة وتحريكها وزجر الحكام الظالمين وردعهم.



ظاهرة الاستماتة
في يوم عاشوراء

كيف نتعامل مع الموت؟

مسألة (الموت) وطريقة التعامل معه من أبرز العناصر التي تدخل في تكوين ملحمة الطف يوم عاشوراء.

وعاشوراء حدث متميز من بين الأحداث الكبيرة في التاريخ من هذه الزاوية.

فقد أعلن الحسين عليه السلام عند مغادرته الحجاز إلى العراق: أنه سوف يلقى مصرعه في هذه الرحلة: «وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عُسلان الفَلوات بين النواويس وكربلاء»[١].

ونعى نفسه إلى الناس، وطلب منهم أن يبذلوا مهجهم في هذا السبيل، ويوطّنوا معه أنفسهم للقاء الله: «من كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا»[٢].

وبدأ خطابه العجيب هذا بتقديم صورة زاهية جميلة للموت، تمهيداً لهذه الدعوة، فقال عليه السلام: «خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»[٣].

وعلى امتداد الطريق إلى كربلاء كان الحسين عليه السلام يصارح الناس ويصارح أصحابه أنهم سائرون إلى الموت الذي لابد منه، ولم يكن يشك في ذلك أصحاب الحسين عليه السلام، وكانوا على يقين من هذا الأمر، ما بعده يقين.

وكان عذر منَ يتخلّف عن نصرة الحسين عليه السلام ـ إلى الحسين عليه السلام ـ : أنّ نفسه لا تطيب بالموت، والشواهد على ذلك كثيرة في مسيرة الحسين عليه السلام إلى كربلاء، وهذه هي الصفة المميزة لحادثة الطف من بين كثير من الأحداث المشابهة لها.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ١٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٩٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٣.

فلسنا نجد، أو قلما نجد في قادة الحركات والثورات من يدعوا الناس إلى الموت، أنهم يدعون الناس إلى الحركة والثورة، ويطلبون منهم أن يكونوا على استعداد لتقديم دمائهم للثورة كلما اقتضى الأمر.

أما الحسين ﷺ فله شأن آخر. إنه لا يطلب في رحلته هذه فتحاً عسكرياً بالمعنى الذي يتصوره الناس، وإنما يريد أن يُقْدِم على تضحية مأساوية فريدة في التاريخ يهز بها ضمير الأُمة.

لقد وجد الحسين ﷺ أن حكومة الطلقاء تمكّنت من ترويض إرادة الناس وتطويعهم بعامل الإرهاب والترغيب، وفي هذا الجو حاول بنو أُمية أن يستعيدوا قيم ومواقع الجاهلية في المجتمع الإسلامي الجديد، دون أن يجدوا مقاومة تذكر من ناحية الأُمة، فكان لابد من هزة قوية لنفوس الناس، تعيد إليهم إرادتهم السليبة، ولا تتم هذه الهزة القوية إلّا بتضحية مأساوية فريدة في التاريخ! فأعدَّ الحسين ﷺ أهل بيته وأصحابه لمثل هذا المشهد المأساوي!

وانطلاقاً من هذا الفهم قلت: إنّ هذه الصفة هي الصفة المميزة لحادثة الطف من كثير من الأحداث الأُخرى المشابهة له في التاريخ.

ومن أعظم الخيانة للتاريخ أن يُجرِّد أحد (عاشوراء) من هذه الصفة المميزة لها، فلا يبقى من عاشوراء إذا جردها عن (الاستماتة) وطلب الشهادة إلّا ثورة على النظام الأُموي وهي ثورة غير متكافئة لقوة نظام الطلقاء في الشام، فلم تنجح في تحقيق أهدافها، كما كان يتوقّع ذلك الذين كانوا ينصحون الحسين ﷺ ألّا يخرج إلى العراق، ولم يكن الحسين ﷺ يتهم أُولئك في صدقهم للنصح.

لكن الإمام ﷺ كان يرى ما لا يرون، ويعرف ما لا يعرفون.

كيف يواجه الناس الموت؟

للموت شأن كبير في تنظيم حياة الناس، والناس أمام هذه الظاهرة الطبيعية من سنن الله القهرية طائفتان: طائفة وهي الأكثرية الساحقة من الناس يجزعون عن مواجهة الموت ويهربون منه. وطائفة وهي الأقليّة من الناس يتحدّون الموت ويستقبلون الموت.

ولهذه الحالات: (الجزع من الموت، وتحدي الموت) شأن كبير في تنظيم حياة الناس، وتقرير مصيرهم.

فالأُمة التي تجزع من الموت لا تحوج الطغاة والجبابرة إلى جهد كبير لتطويعها،

وترويضها، وتعبيدها لإرادتهم وسلطانهم، فتتحول حياتها إلى نوع من التبعية والانقياد للطاغوت، وبالتدريج يفقدون الوعي والفطرة ومقومات الحياة الكريمة، وهذه صورة من الحياة.

والأمة التي تمتلك القدرة على تحدي الموت ولا تجزع منه، وتملك القدرة على تجاوز الموت لا يمكن ترويضها وتذليلها لإرادة الطغاة والجبابرة، ولا يمكن مصادرة إرادتها ومقاومتها.

وهذه صورة ثانية من الحياة، وفيما يلي نحاول أن نتوقف بعض الوقت عند هاتين الحالتين:

الجزع من الموت

الجزع من الموت ظاهرة واسعة في حياة الناس، ولهذه الظاهرة آثار واسعة في المجتمع من حيث الحركة والمقاومة، وهذه الظاهرة تستحق أن نتوقف عندها وننظر فيها، وفيما يلي نستعرض إن شاء الله تعالى: أسباب هذه الظاهرة أوّلاً، وآثارها وأعراضها السلبية في المجتمع ثانياً، والوسائل التربوية المفيدة لعلاج هذه الحالة في نفوس الناس ثالثاً.

أولاً: أسباب الجزع من الموت

(التعلّق بالدنيا) من أهم أسباب الجزع من الموت، ولو أنّ إنساناً يعيش في الدنيا كما يعيش الناس، ويتمتع بطيباتها كما يتمتع الناس، ولكن قلبه لا يتعلق بالدنيا... لا يخيفه الموت ولا يجزع منه إذا حلَّ به.

وعدم الإعداد للآخرة أيضاً من آثار التعلّق بالدنيا... إذن التعلّق بالدنيا العامل الرئيسي للجزع من الموت.

ونضيف إلى هذه المعادلة معادلة ثانية، وهي أن الجزع من الموت يطوع الإنسان لإرادة الطغاة، وما من أمّة أو شعب يجزع من الموت إلا كانوا أطوع لطغاة عصرهم من أصابعهم.

وقد روي في هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أحبّ الحياة ذل»[1].

وتحليل هذه الرواية وتفسيرها: أن حبّ الدنيا والتعلق بها من أسباب الجزع من الموت، وهما وجهان لقضية واحدة، فمن أحبّ الدنيا جزع من الموت، وبينهما نسبة طردية دائماً، وهذه هي **المعادلة الأولى**.

---

(١) بحار الأنوار ٦: ١٢٨ح١٤.

والمعادلة الثانية: إن من يجزع من الموت يذل، لأنه لا يملك القدرة على إتخاذ الموقف والقرار الصعب، وإذا عجز الإنسان عن إتخاذ الموقف وعن القرار الصعب كان آلة طيّعة للمستكبرين، وتبعاً لهم في الموقف والقرار، وهذا هو الذل الذي يحدثنا عنه الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية.

وسوف نتحدث عن هذه النقطة فيما يأتي إن شاء الله.

ومن أسباب الجزع من الموت سوء الإعداد للآخرة، فيجزع الإنسان من أن يُقدم على مرحلة جديدة من حياة خالدة لا تفنى، وهو لم يُعِدّ لها في حياته الدنيا إعداداً كافياً، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة مخاطباً اليهود الذين كانوا يعتقدون إن الله يؤثرهم على غيرهم من الأُمم، وإنهم أولياء الله من دون سائر الناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾[1]، وهو محك دقيق لاختبار صدقهم في هذه الدعوى.

وهو مقياس دقيق لمعرفة درجة إعداد الإنسان للآخرة في الدنيا، فكلما كان تعلّق الإنسان بالحياة الدنيا أكثر كان إعداده للآخرة أقل، وكلما كان استعداد الإنسان للحياة الآخرة أقل كان جزعه من الموت أكبر.

قال رجل لأبي ذر رحمه الله: مالنا نكره الموت، قال: لأنكم عمّرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب.

قيل له: فكيف ترى قدومنا على الله، قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

قيل: كيف ترى حالنا عند الله؟

قال: أعرضوا أعمالكم على كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[2].

قال الرجل: فأين رحمة الله، قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الجمعة، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.

(٣) بحار الأنوار ٦: ١٣٧، ح٤٢.

وروي في هذا المعنى أن أحدهم سأل الإمام الحسن عليه السلام: ما بالنا نكره الموت ولا نحبه، فقال عليه السلام:

«إنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب»[١].

الموقف

من المؤكّد أن القوة والشجاعة والإقدام، أحد العنصرين الأساسيين اللذين يتكون منهما الموقف، والعنصر الآخر: الوعي السياسي.

فإذا كان الجزع من الموت يضعف الإنسان فهو لا محالة يفقده القدرة على إتخاذ الموقف العملي في القضايا الصعبة.

وقيمة الإنسان في ساحة المواجهة والصراع ليس في النية وعقد القلب فقط، وإنما في الموقف، وقد كان كثير من المسلمين في عصر الإمام الحسين عليه السلام لا يرتضون يزيد وأعماله، وبني أمية عامة، ويكرهونهم أشد الكره ويمقتون حكومة الطلقاء في الشام، ولكن الإمام الحسين عليه السلام حوّل هذه الكراهية وهذا الرفض إلى موقف عملي، وهذه هي قيمة عمل الإمام الحسين عليه السلام.

فإن الموقف هو التجسيد العملي للرأي والانتماء، وإخراج الرأي، والانتماء، والولاء، والبراءة من داخل النفس إلى ساحة المواجهة والصراع.

إن الناس جميعاً لا يرضون الظلم، ولكن هناك من يجاهر بهذا الرفض ويعلن عن رفضه، وهو قد يكون بالخروج عن الطاعة، وقد يكون بالثورة، وقد يكون بالتظاهر والاعتصام.

ومن الطبيعي أن الرفض الذي يضمره الإنسان في نفسه وحده لا يكلف الإنسان شيئاً، وإنما الموقف العملي في ساحة المواجهة والصراع، هو الذي يكلف الإنسان ويثقله، وهو الذي يتطلب المقاومة والبذل، ويلزم صاحبه بضريبة العمل.

وصاحب الرأي السلبي والرفض المريح لا يغيّر مجرى التاريخ، وإنما الذي يغيّر مجرى التاريخ هو صاحب الموقف الصعب.

---

(١) بحار الأنوار ٦: ١٢٩، ح١٨.

والرفض والكراهية التي يضمرها الإنسان في نفسه لا يغير شيئاً من واقع الحياة السياسية والاجتماعية، ولا يحرك الناس، وإنما الموقف هو الذي يحرك الناس، ويحدث التغيير السياسي والاجتماعي.

وأخيراً فإن المواجهة والصراع هو الموقف.

انقلاب اللّاموقف إلى الموقف المضاد

إن الصراعات الحضارية لا تتحمّل (اللّاموقف) فإذا كان الإنسان لا يتحمل الموقف الصعب، وضعف عن اتخاذ الموقف الحقّ، فلا يمكن أن يبقى في منطقة الحياد من دون موقف إلى الأخير، وإنما ينقلب اللّاموقف في حياته إلى الموقف المضاد.

والسبب في انقلاب اللّاموقف إلى الموقف المضاد هو نفسه السبب في انقلاب الموقف إلى اللّاموقف، وهو الجزع من الموت.

إنّ السبب الذي أعجزه عن اتخاذ الموقف الحقّ يعجزه عن الامتناع من الانحدار إلى الباطل، وبذلك يتم تصنيفه في جبهة الباطل، فإن ساحة الصراع ـ كما ذكرنا ـ لا تترك الإنسان من دون تصنيف، فإن لم يبادر الإنسان ليُصنف نفسه ضمن جبهة الحقّ الذي يؤمن به، فإن الساحة تُصنفه ضمن الخط الحاكم فيكون عندئذ من جند الطاغوت، وإن كان قلبه ورأيه في اتجاه معاكس.

وهنا ينشطر الإنسان شطرين متعاكسين: رأيه (عقله)، وعاطفته (قلبه) في اتجاه الحقّ، وموقفه وموضعه الرسمي (إرادته) المعلن في اتجاه الباطل.

وهذه هي ظاهرة انفلاق الشخصية، حيث ينشطر الإنسان إلى شطرين متخالفين: فيفقد الإنسان الانسجام في شخصيته، ويتضارب ظاهره مع باطنه.

سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم

وهذا هو المفهوم الذي يطرحه الإمام الحسين عليه السلام على جند ابن زياد في كربلاء يوم عاشوراء: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم»[١].

إن هذا السيف الذي يذكره الإمام هو القوة والسلطان. والإسلام هو الذي أعطاهم هذا

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٨٦.

السلطان. لقد كان العرب أُمة ضعيفة معزولة في الصحراء، فجاءهم رسول الله ﷺ بالإسلام من عند الله، فأقام منهم قوّة كبيرة على وجه الأرض، لتفتح مشارق الأرض ومغاربها، وتسقط عروش الطغاة والجبابرة، وتحرّر الشعوب المستضعفة، وتطلق عباد الله من عقال الأسر والإستضعاف والعبودية، وتوجههم من عبودية الإنسان إلى عبودية الواحد القهار. لقد قلدهم رسول الله ﷺ هذه القوة في أيمانهم.

وقد كانت هذه القوة الهائلة المعجزة من صنائع رسول الله ﷺ بفضل الله تعالى في هذه الأُمة.

وهذا هو المقصود من هذه الكلمة الدقيقة المعبرة عن عمق المأساة (سيفاً لنا في أيمانكم)، وكان حريّاً بهم أن يسّلوا هذا السيف في وجه أعداء الله ورسوله وأعداء الناس، فوضع الناس هذا السيف في أهل بيت رسول الله وخلفائه، وكان حريّاً بهم أن يوظفوا هذا السيف لقتال أئمة الظلم والشرك، في حكومة الطلقاء في الشام، فوظّف الناس هذا السيف لقتال أئمة التوحيد، والعدل، وفي نصرة أئمة الشرك والجور.

وهذا هو عمق المأساة التي حلت بهذه الأُمة في عهد ولاية سلاطين بني أُمية.

وهذا هو التشخيص الدقيق الذي قدّمه الفرزدق عن أهل الكوفة عندما سأله الإمام الحسين عليه السلام عما وراءه فقال: قلوبهم معك وسيوفهم عليك[1]، فإن أهل الكوفة كانوا في الأغلب علويين، وقلوب العلويين كانت مع الحسين، ولكن سيوفهم انقلبت عليه عليه السلام، وكثير من الذين خرجوا في جيش ابن زياد لقتال الإمام الحسين، كانوا يحبون الحسين عليه السلام، وكانوا من الذين كتبوا إليه يطلبون منه أن يأتيهم.

والإنسان (رأي) «وحب، وبغض» و(موقف)، وهذه الثلاثة عندما تكون منسجمة ومتكاملة يكون الإنسان قوياً، فإذا تخالفت وتضاربت ضعف الإنسان، وأصبح بذلك أداة طيعة بيد الطغاة.

آخر مراحل الردّة

لقد فات الفرزدق أن يقول ـ وكان حريّاً به أن لا يفوته ذلك ـ : إن انسحاب الإنسان يبتدئ أوّلاً وثانياً من الموقف إلى اللّاموقف، ومن اللّاموقف إلى الموقف المضاد المعاكس،

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٠٣.

وهذه هي المرحلة الأُولى والثانية من الردة، والمرحلة الثالثة إن الموقف المضاد يصادر الرأي والفكر عند الإنسان ويوجهه إلى الرأي الآخر ويبرّره له، حتّى يصادر الرأي الأوّل تماماً فينقلب الرأي إلى رأي معاكس، وينقلب (الحب) إلى (بغض)، وينقلب البغض إلى الحب، وهذه هي المرحلة الأخيرة من الردة التي لم يذكرها الفرزدق.

وإذا غابت عن الفرزدق هذه المرحلة الأخيرة من الردة فإن القرآن يسجّلها بوضوح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

ومن إساءة السوأى أن يحمل الإنسان المؤمن السيف على الله ورسوله وأوليائه، ويقاتلهم في الدفاع عن الطاغوت، فإذا فعل ذلك فإن الله تعالى يسلب عنه التصديق والإيمان والوعي والرأي، فيكذّب بآيات الله، وإذا كذّب بآيات الله ورسوله وأولياءه... عاداهم وأبغضهم، وهذه هي الردة الكاملة في ثلاث مراحل.

عودة الانسجام في الطرف المعاكس والانقلاب على الأعقاب

وهكذا يعود الانسجام بين البؤر الثلاثة لشخصية الإنسان: (العقل، القلب، الإرادة) أو (الرأي، العاطفة، الموقف) بعد أن انفلقت الشخصية واختلّت وظهر عليها الارتباك والقلق، يعود الانسجام مرة أُخرى إلى شخصية الإنسان، ولكن هذه المرة في خط معاكس تماماً، باتجاه مُشاقّة الله ورسوله وأوليائه.

(١) سورة الروم، الآية: ١٠.

الأطوار الثلاثة في حياة الإنسان

للإنسان ثلاثة أطوار:

الطور الأوّل: الانسجام بين القلوب والسيوف في اتجاه الحقّ.

الطور الثاني: التخالف بين القلوب والسيوف بين الحقّ والباطل.

الطور الثالث: الانسجام بين القلوب والسيوف في اتجاه الباطل.

الحالة الأُولى

حالة الانسجام بين القلوب والسيوف حالة فطرية وسليمة وصحيحة، وفيها تجتمع البؤر الثلاثة: (العقل، القلب، الإرادة) فيقترن الرأي بالحب والبغض وهما بالموقف.

وهذه الحالة هي حالة الانسجام والاستقامة والقوة، لأن اجتماع هذه البؤر الثلاثة يمنح الإنسان القوة، وهذه البؤر الثلاثة تتبادل التأثير فيما بينها، وبعضها يؤثر في البعض الآخر.

ومن آثار هذه الحالة: إن الإنسان يعيش مطمئناً لا يعاني من القلق، لأن الراحة النفسية ليست في الأمن والرفاه، وإنما في الانسجام النفسي الداخلي، ويتكامل الإنسان في هذه الحالة وينمو بصورة سوية.

الحالة الثانية

وهي حالة تخالف القلوب والسيوف، عندما تخضع إرادة الإنسان لعامل الترغيب والترهيب من ناحية الطاغوت، والطاغوت يعمل لاحتلال البؤر الثلاثة في شخصية الإنسان جميعاً: (الموقف) و(الحب والبغض) و(العقل والرأي)، ولكنه يبدأ بالضغط على الموقف وهذه هي المرحلة الأولى من الردّة، ويبقى له (عقله) و(عاطفته) في هذه المرحلة.

ولكن يفقد الإنسان عندئذ الراحة النفسية وحالة الاطمئنان والانسجام النفسي، ويعاني من القلق وعدم الانسجام، ويفقد صبغة الله في شخصيته، وهذه المرحلة هي بداية السقوط في شخصية الإنسان، ويكافح الضمير لاستعادة التوازن والتعادل والانسجام داخل النفس من

جديد، فإذا نجح فلا بد أن تعود الشخصية إلى توازنها، وانسجامها، وينقسم الناس في هذه المرحلة إلى شطرين: شطر من نموذج شخصية (الحرّ) يمتلك ضميراً سليماً قوياً يعيده إلى الله مرة أُخرى، وشطر من نموذج (عمر بن سعد) لا يمتلك مثل هذه القوة في الإرادة والنقاء في الضمير فيسقط إلى المرحلة الأخيرة من السقوط.

الحالة الثالثة

في هذه الحالة يعود الإنسجام مرة أُخرى بين البؤر الثلاث، ولكن في اتجاه السقوط، والإنسان في داخله يطلب الإنسجام، فإذا لم يتيسر لـه في اتجاه الحقّ وضعف الضمير من استعادة الإنسجام في طرف الحقّ، فإن الانسجام يعود إليه في طرف الباطل، فيكون قلب الإنسان وعقله باتجاه إرادته وعمله، وهذه هي مرحلة الصفر من سقوط الإنسان يستفرغ فيها (الطاغوت) و(الهوى) الضمير، ويحتلان (العقل) و(القلب)، وعندئذ يحتل الطاغوت المعاقل الثلاثة جميعاً لشخصية الإنسان، ويستفرغ الضمير من كل ما أودع الله تعالى فيه من المقاومة، وعندئذ تنقطع رحمة الله عن الإنسان، لأن الرحمة تنزل على الضمير والقلب والعقل والإرادة، فإذا نفذت واستُهلِكَتْ جميعاً فلا يبقى موقع لنزول الرحمة من لدن الله تعالى على الإنسان.

ثانياً: آثار ونتائج الجزع من الموت في المجتمع

لظاهرة الجزع من الموت آثار سلبية واسعة على حياة الإنسان، فهي تسلب الناس القدرة على المقاومة، وتُمَكّنْ منهم الطاغية، وتستنفد ما أودع الله تعالى في ضميره من مقاومة، وفي إرادته من قوة، وفي نفسه من وعي، ومن ثمّ تستفرغ كل ما أودع الله تعالى في نفسه من قيم وأخلاق وإرادة ومقاومة.

وهذه الحالة من الاستفراغ الكامل والاستنفاذ هي حالة الاستخفاف التي يذكرها الله تعالى في منهج تعامل الطغاة مع الناس: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ...﴾[1]، إن فرعون لم يكن يقدر على تطويع الناس لإرادته وسلطانه لولا إنه استنفذ ما أودع الله تعالى في نفوسهم من قيم وأخلاق، ومقاومة، وإرادة، وضمير، وعندئذ يخف وزن الإنسان، وينقلب إلى حالة عائمة من التبعية الكاملة للطاغية، وأساس هذه الحالة الإرهاب وهي الأداة المفضّلة لدى المستكبرين، و(الجزع من الموت)، (الخوف) هو التربة الصالحة لزرع الإرهاب في المجتمع.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

ثالثاً: المناهج التربوية لمكافحة هذه الحالة

وأهم هذه المناهج منهجان:

١ ـ تقصير الأمل في الحياة الدنيا.

٢ ـ ذكر الله وتعميق حالة الشوق إلى لقاء الله تعالى.

وهما من أفضل المناهج التربوية لمكافحة حالة الجزع والرهبة من الموت، وهناك مناهج حركية لا يسعنا المجال استعراضها والحديث عنها.

المنهج الأوّل:

هو تقصير الأمل في الدنيا، وترقيق العلاقة بالدنيا. فإن شدة التعلّق بالدنيا وطول الأمل فيها من أكبر الأصر والأغلال التي تعيق حركة الإنسان إلى الله، فإذا تحرر الإنسان منها خفَّ للقاء الله تعالى، ولم يرهبه الموت ولم يعبأ به، وقع الموت عليه أم وقع على الموت، كما قال علي الأكبر عليه السلام لأبيه عندما قارب كربلاء:

«روى أبو مخنف عن عقبة بن سمعان قال: لما كان السحر من الليلة التي بات الحسين عليه السلام عند قصر بني مقاتل أمرنا الحسين بالإستسقاء من الماء، ثمّ أمرنا بالرحيل ففعلنا، فلما ارتحلنا عن قصر بني مقاتل خفق برأسه خفقة ثمّ انتبه، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، ثمّ كررها مرتين أو ثلاثاً، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليه السلام، وكان على فرس له فقال: يا أبت، جُعلت فداك ممّ استرجعت وحمدت الله، فقال الحسين عليه السلام: يا بني، إني خفقت رأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا. فقال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحقّ، قال: بلى والذي إليه مرجع العباد. قال: يا أبت، إذن لا نبالي نموت محقين. فقال له: جزاك الله خير ما جزى ولداً عن والده»[١].

المنهج الثاني:

الذكر وتركيز الشوق إلى لقاء الله فإن تعميق ذكر الله في النفس وتركيز حالة الشوق إلى الله يحببان الموت إلى نفس المؤمن، فإنّ الموت للمؤمن نافذة إلى لقاء الله، ولقاء الله

---

(١) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للشيخ السماوي: ٢١ ـ ٢٢.

للمؤمنين لذة لا تفوقها لذة، والحياة الدنيا تحجبه عن لقاء الله، فإذا حلَّ به الموت زال من بصره هذا الحجاب ﴿...فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١] وعندئذ ينظر المؤمن إلى أسماء الله وصفاته الحسنى وجلاله وجماله وجبروته وكبريائه تعالى من غير حجاب، وهو أعظم اللّذات عند المؤمنين، أين منها الجنة ونعيمها وحورها وما خلق الله فيها من نعيم؟

في مكارم الأخلاق عن رسول الله ﷺ: «يا بن مسعود، قصِّر أملك فإذا أصبحت فقل: إني لا أمسي وإذا أمسيت فقل إني لا أُصبح، واعزم على مفارقة الدنيا، وأحبَّ لقاء الله ولا تكره لقاءه، فإن الله يحب لقاء من يحب لقاءه ويكره لقاء من يكره لقاءه»[٢].

وعن رسول الله ﷺ: «إنّ النور إذا دخل الصدر انفسح، قيل: هل لذلك من علم (علامة) يعرف به، قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[٣].

وعن علي ﵇: «شوِّقوا أنفسكم إلى نعيم الجنة تحبوا الموت وتمقتوا الحياة»[٤].

مشهد من مشاهد الاستماتة في الطف

وفيما يلي أستعرض مشهداً واحداً من مشاهد الاستماتة والاستهانة بالموت والتشوّق إلى لقاء الله في الطف، وهو من أروع ما يعرفه التاريخ.

جمع الإمام أصحابه وأهل بيته ليلة العاشر من المحرم، وطلب منهم أن ينطلقوا في رحاب الأرض ويتركوه وحده، وقد أراد لهم أن يكونوا على بيّنة من أمرهم، فقال لهم:

«اثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللّهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، وعلّمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين. أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ، ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً، ألا وإنّي لا أظن ليومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم جميعاً فانطَلِقوا في حِلٍّ ليس عليكم مني

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) مكارم الأخلاق: ٤٥٢، الباب ١٢، الفصل ٤.

(٣) كنز العمال ١: ٧٦ ح٣٠٢.

(٤) غرر الحكم: ٤١٣، الفصل ٤٢، الرقم ٢٥.

ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً، ثمّ تفرقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم، حتّى يفرج الله، فإن القوم إنّما يطلبونني، ولو أصابوني للهوا عن طلب غيري»[1].

جواب أهل بيته:

ولم يكد يفرغ الإمام من كلماته حتّى هبت الصفوة الطيبة من أهل بيته، وهم يعلنون اختيار الطريق الذي يسلكه، ويتبعونه في مسيرته ولا يختارون غير منهجه، فانبَروا جميعاً وعيونهم تفيض دموعاً قائلين:

«لِمَ نفعل هذا؟ لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً».

بدأهم بهذا القول أخوه أبو الفضل العباس، وتابعته الفتية الطيبة من أبناء الأسرة النبوية، والتفت الإمام إلى أبناء عمه من بني عقيل فقال لهم:

«حسبكم من القتل بمسلم أذهبوا فقد أذنت لكم».

جواب آل عقيل:

وهبت فتية آل عقيل تتعالى أصواتهم قائلين بلسان واحد:

«وما نقول للناس، نقول: تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله لا

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ٥٧، طبعة بيروت ١٩٦٥م، وروى ابن الجوزي في المنتظم كلامه بصورة أُخرى، فقد جاء في مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرّم أنه قال: أنتم في حل من بيعتي فالحقوا بعشائركم ومواليكم، وقال لأهل بيته: قد جعلتكم في حلّ من مفارقتي؛ فإنكم لا تطيقونهم لتضاعف أعدادهم وقواهم، وما المقصود غيري فدعوني والقوم، فإنّ الله عزّ وجلّ يعينني ولا يخليني من حسن نظره كعادته مع أسلافنا الطيّبين، ففارقه جماعة من معسكره فقال له أهله: لا نفارقك، ويحزننا ما يحزنك، ويصيبنا ما يصيبك، إنا أقرب ما نكون إلى الله إذا كنّا معك، فقال لهم: إن كنتم وطّنتم أنفسكم على ما وطنت نفسي عليه، فاعلموا إن الله إنّما يهب المنازل الشريفة لعباده لاحتمال المكاره، وأن الله كان خصني مع من مضى من أهلي الذين أنا آخرهم بقاءً في الدنيا من الكرامات بما يسهل عليّ معها احتمال المكروهات، فإن لكم شطراً من كرامات الله، واعلموا أن الدنيا حلوها ومرّها حلم، والانتباه في الآخرة، والفائز من فاز فيها، والشقي من شقي فيها.

نفعل، ولكننا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتّى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك»[١].

جواب أصحابه:

انبرى مسلم بن عوسجة ودموعه تتحادر على وجهه فخاطب الإمام قائلاً: «أنحن نخلي عنك، وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك، أما والله لا أفارقك حتّى أطعن في صدورهم برمحي، واضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم لقذفتهم بالحجارة حتّى أموت معك».

وتكلم سعد بن عبد الله الحنفي قائلاً: «والله لا نخليك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثمّ أحيا ثمّ أُحرق ثمّ أُذرّى، يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً».

وقال زهير رحمه الله: «والله لوددت أني قتلت ثمّ نشرت، ثمّ قتلت حتّى أقتل كذا ألف مرة، وأن الله عزّ وجلّ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك...».

وانبرى بقية أصحاب الإمام فأعلنوا الترحيب بالموت في سبيله والتفاني في الفداء من أجله.

فجزاهم الإمام خيراً[٢]، وأكد لهم جميعاً أنهم سيلاقون حتفهم فهتفوا جميعاً:

«الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أو لا ترضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله؟»[٣].

لقد اختبرهم الإمام فوجدهم من خيرة الرجال صدقاً ووفاءً، قد أشرقت نفوسهم بنور الإيمان، وتحرروا من جميع شواغل الحياة، وكانوا ـ فيما يقول المؤرخون ـ في ظمأ إلى الشهادة ليفوزوا بنعيم الآخرة.

وقال محمّد بن بشير الحضرمي ـ وكان قد بلغه أن ابنه قد أُسر بثغر الري ـ فقال: ما

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٤: ٥٨.

(٢) المنتظم ٥: ١٧٩، وتاريخ الطبري ٦: ٢٣٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٨، والعوالم للبحراني: ٣٥٠.

أحبّ أن يؤسر ابني وأنا أبقى بعده حياً، فأستشعر الإمام من هذه الكلمات رغبته في إنقاذ ابنه من الأسر فأذن له في التخلي عنه قائلاً: أنت في حل فاعمل في فكاك ولدك، فقال: «أكلتني السباع حياً إن فارقتك...»(١).

فلما أستوثق الحسين عليه السلام من إقبالهم على الموت وعزمهم على الشهادة في سبيل الله قال لهم: «يا قوم، إني غداً أُقتل، وتقتلون كلكم معي، ولا يبقى منكم واحد» فقالوا: الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أو لا ترضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله، فقال: جزاكم الله خيراً؟ ودعا لهم بخير.

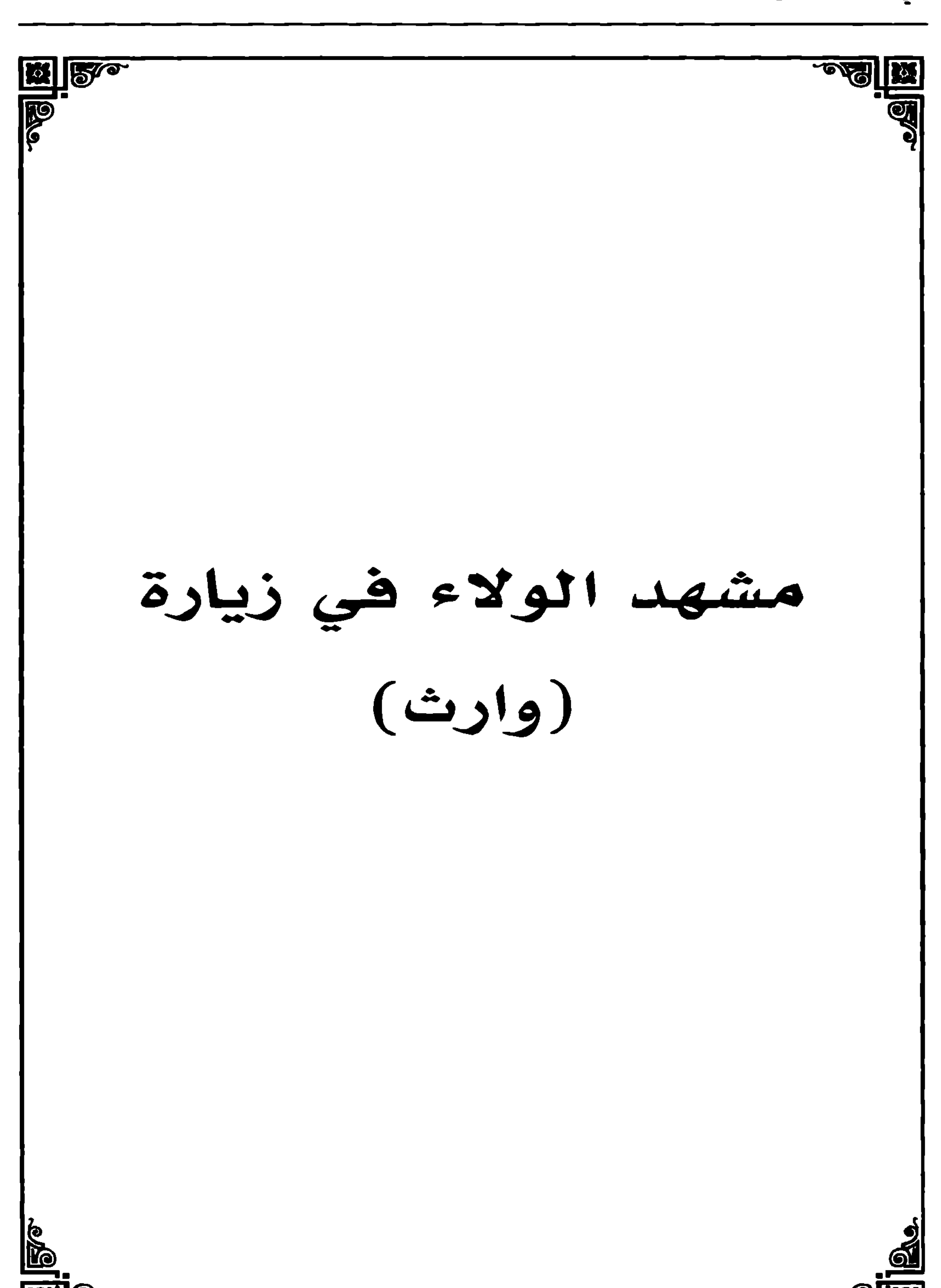
فقال له القاسم بن الحسن عليه السلام وكان فتىً مراهقاً، لم يبلغ الحلم: «وأنا فيمن يُقتل، فأشفق عليه الحسين عليه السلام، فقال: يا بني كيف الموت عندك، قال: يا عم أحلى من العسل».

فقال: أي والله فداك عمّك، إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي بعد أن تبلوا ببلاء عظيم، وابني عبد الله (الرضيع)(٢) أيضاً.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٣: ٥٤، وتهذيب التهذيب ١: ١٥٠، ومقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ١٦٥ ـ ١٧٠.

(٢) نفس المهموم للمحدث القمّي: ٢٣٠.



مشهد الولاء في زيارة (وارث)

المشاهد الثلاثة للولاء في زيارة وارث

في هذه الزيارة ثلاثة مشاهد للولاء؟ هي:

١ ـ التسليم: وهو «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله».

٢ ـ الشهادة: وهي «أشهد أنك الإمام البرّ التّقي الرضي».

٣ ـ الموقف: وهو «قلبي لقلبكم سلم وأمري لأمركم متبع».

وسنتحدث فيما يلي عن هذه المشاهد الثلاثة للولاء في هذه الزيارة.

المشهد الأوّل: التسليم

وهو أوّل مشاهد الولاء، ويكون ضمن ثلاث فقرات:

الأولى: السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...

الثانية: السلام عليك يا بن محمّد المصطفى...

الثالثة: السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره ...[١].

والتسليم من عناصر الولاء، ومعناه: ترك المشاكسة والمشاققة والاختلاف داخل النفس وعلى سطح السلوك.

ومعنى التسليم على سطح السلوك ترك المخالفة والمشاكسة واللجاج والعناد والشقاق، وهو بمعنى الطاعة والإنقياد والتسليم.

إلّا أنّ هذه الطاعة نابعة عن انسجام نفسي ومحبّة ومودّة، وليست طاعة نابعة عن الإجبار والإكراه.

وعلاقة الأُمة بأولياء الأُمور علاقة التسليم كما أنّ علاقتها بأعداء الله ورسوله وأوليائه داخل النفس، وعلى سطح السلوك.. علاقة البراءة والمفاصلة والمقاطعة.

---

(١) زيارة وارث.

وهذه العلاقة هي التي تأتي في خاتمة الصلاة في السلام: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

إنّ الثمرة التي يجنيها العبد من صلاته، في عروجه إلى الله هي الطاعة والإنقياد والمحبّة والمودّة لأولياء الأُمور.

وقد اعتبر الإسلام (السلام) تحية بين المؤمنين، وجعل هذه التحية الشاملة خاتمة للصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) يخرج به المصلون عن صلاتهم بين يدي الله.

وهذا الاهتمام بنشر السلام جاء للتأكيد على نوع العلاقة القائمة بين أعضاء الأمة المسلمة. وإنّ هذه العلاقة قائمة على أساس اجتناب المشاققة والمخالفة داخل الأُمة، وإزالة البغضاء والضغائن والكراهية من النفوس، وإحلال المحبّة والمودّة في النفوس، والإنسجام والوفاق والتعاون والتناصر في العمل.

المشهد الثاني: الشهادة

الشهادة هي إعلان الثقة والإيمان بالولاية، ولابدّ أن تنضمّ هذه الشهادة إلى التسليم ليكمل كلّ منهما الآخر.

والشهادة تأتي في هذه الزيارة ضمن ثلاث فقرات:

١ - الشهادة برسالة الحسين عليه السلام وقضيته وحركته.

(أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وأطعت الله ورسوله حتّى أتاك اليقين).

و(إقامة الصلاة) غير أداء الصلاة، فإنّ أداء الصلاة تكليف شخصي وفريضة شخصية، وإقامة الصلاة رسالة وقضية في حياة الإنسان المؤمن.

إنّ إقامة الصلاة تثبيت الصلاة والارتباط بالله في حياة الناس، ودعوة الناس لإقامة الصلاة لله على وجه الأرض وإعلان الصلاة في حياة الناس.

ثمّ (وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر) فلم يكن الحسين عليه السلام يبتغي في خروجه على يزيد مُلكاً أو سلطاناً، وإن كان السلطان والولاية حقّه الذي لا يصح أن ينازعه فيه أحد، وإنّما كان يعمل لتثبيت دعائم المعروف وإلغاء المنكر ورفضه وهدمه وإقامة الولاية لله، وهدم الطاغوت.

وقد خطب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء فقال: «ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، وأني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما»[1].

وفي منزل (البيضة) خطب الحسين عليه السلام في أصحاب الحُرّ فقال: «يا أيّها الناس إنّ رسول الله قال: مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلّاً لحرام الله، ناكثاً لعهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، وأستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله»[2].

فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب سلطاناً أو مالاً، وإنما كان يرى حاكماً جائراً، يفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، ويحلل حرام الله، ويتجاوز حدود الله، فنهض بالعصبة المؤمنة التي احتفت به في كربلاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتثبيت الحقّ، وإبطال الباطل.

٢ ـ الشهادة له عليه السلام بالطهارة في نفسه وسلوكه، وهذه الطهارة هي التي خصّ الله تعالى بها أهل البيت عليهم السلام. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

والشهادة بأن هذه النزاهة وهذا الطهر طهر موروث خلفاً عن سلف. وقد شاء الله تعالى أن يحتفظ بهذا الطهر في هذه السلالة الطيّبة عبر تأريخ طويل من الحضارات الجاهلية التي سادت حياة الإنسان.

وقد اصطفى الله تعالى هذه السلالة المباركة للإمامة في حياة الإنسان عبر العصور المختلفة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[4].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢: ٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

ولنقرأ هذه الفقرة من الشهادة في زيارة وارث:

«أشهد انك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها»[١].

ولا أُريد أن أتجاوز هذه الفقرة دون أن أشير إلى جمال التعبير في هذه الفقرة، فإن الطهر في هذا البيت الطاهر حصيلة اللقاح بين أصلاب شامخة وأرحام مطهرة. أصلاب شمخت وترفّعت عما يتساقط حوله الناس من متاع الحياة الدنيا وزخرفها، وأرحام طهرت وسلمت من أوضار الحضارات الجاهلية وأوساخها وأدناسها التي تناوبت على حياة الإنسان.

٣ ـ الشهادة بموقع الحسين عليه السلام من حياة الأُمة ومركزه القيادي الذي وضعه الله فيه، وما أتاه الله تعالى من الإمامة والولاية على المسلمين والدور الذي أتاه الله تعالى في هداية هذه الأُمة. وموضع ذريته الطاهرة في قيادة الأُمة وإمامتها وهدايتها إلى الله تعالى. نقرأ في هذا النصّ:

«أشهد أنك من دعائم الدين، وأركان المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البرّ، التقيّ، الرضيّ، الزكيّ، الهادي المهدي، وأشهد أن الأئمة من ولدك كلمة التقوى، وأعلام الهدى، والعروة الوثقى، والحجّة على أهل الدنيا».

المشهد الثالث: الموقف

وهو مرحلة التعبير عن الولاء بعد (التسليم) و(الشهادة).

والموقف هنا في (الإيمان) وفي (العمل). أما في (الإيمان) فيتجسد في هذه الكلمة «إني بكم مؤمن وبإيابكم موقن بشرائع ديني وخواتيم عملي وقلبي لقلبكم سلم» كما ورد في نصّ زيارة وارث.

وأما الموقف في (العمل) ففي التبعية والطاعة «وأمري لأمركم متبع».

وأصدق دليل على الصدق في هذه الدعوى: التسليم لهم بشرائع الدين وخواتيم الأعمال، فليس شيء أعزّ على الإنسان من شرائع دينه الذي يدين به لله تعالى وخواتيم أعماله التي يختم بها حياته، حيث لا يمكن أن يتلافى منها شيئاً، فإنّ في الإمكان تلافي ما فرّط

---

(١) زيارة وارث.

الإنسان من بدايات أعماله وأواسطها بالتوبة ومراجعة النفس وتصحيح العمل. أما خواتيم العمل فهي التي تقرّر عاقبة الإنسان ومصيره.

وليس من شيء أدل على الثقة بهم عليهم السلام والصدق في الولاء لهم من أن يأخذ الإنسان منهم عليهم السلام شرائع دينه وخواتيم عمله.

ثمّ إنّ هذا التسليم المطلق: هو أسمى معاني (السلم) لأنّه تسليم لا يشوبه شقاق، ولا يعكّره ريب في أعماق النفوس: تسليم القلب للقلب «وقلبي لقلبكم سلم»، فهو تلاقي القلوب.

وأما الموقف في (العمل) فيتجسّد في: «وأمري لأمركم متبع» ويمثّل ذلك التبعيّة المطلقة والإنقياد التام وهو يعود إلى التسليم لأمر الله تعالى.

والموقف هو إيمان مطلق، وتسليم مطلق، وثقة مطلقة في النفس، ويستتبعه الالتزام الكامل والتبعيّة الكاملة في مقام العمل.

وورد أيضاً في زيارة الحسين عليه السلام الخاصة في يوم عرفة:

«أنا سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وعدوّ لمن عاداكم، ووليّ لمن والاكم إلى يوم القيامة»[1].

وفي زيارة الأربعين الخاصة:

«أشهد أني بكم مؤمن وبإيّابكم موقن بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم وأمري لأمركم متّبع، ونصرتي لكم معدّة، حتّى يأذن الله، فمعكم معكم لا مع عدوّكم، صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم وشاهدكم وغائبكم».

وهذا إعلان وإشهار بالاستعداد الكامل للنصر.

ثمّ بعد ذلك يأتي هذا النشيد الولائي الرائع وهذه النغمة الإيمانية العذبة.

«فمعكم معكم لا مع عدوكم».

ليؤكد الولاء من خلال تكرار المعيّة (فمعكم، معكم) ومن خلال الإيجاب والسلب والولاء والبراءة «لا مع عدوكم».

وفي زيارة أوّل رجب المخصوصة ترد هذه التلبية الولائية لداعي الله، الذي وقف يوم

---

(١) زيارة الإمام الحسين عليه السلام المخصوصة في يوم عرفة.

عاشوراء في كربلاء، يدعوا البشرية إلى الله ومجاهدة الطاغوت وكسر كبريائه وجبروته، والعودة إلى عبودية الله.

«لبّيك يا داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي».

وإنّ أفضل التلبية هي تلبية القلب، فإذا فاتتنا تلبية داعي الله بأبداننا في كربلاء، فإن قلوبنا التي عمّرها الله تعالى بولائه وولاء أوليائه لا تنفك عن تلبيته، والإستجابة لدعوته في مقارعة الظالمين وكسر شوكتهم وسلطانهم، وتعبيد الناس لله، وتحكيم شريعة الله تعالى وحدوده في حياة الإنسان، وانتزاع الإنسان من محور الطاغوت إلى محور الولاء لله تعالى.

البراءة، الوجه الآخر للولاية

ثمّ يأتي ـ بعد ذلك ـ الوجه الآخر للولاء وهو البراءة، فلا ولاية من دون البراءة، الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة، وشطران من حقيقة واحدة. ومنهما يتألّف الموقف.

ويصدق الإنسان في ولائه بقدر ما يصدق في البراءة فإن الولاء وحده لا يُكلف الإنسان كثيراً، وأكثر ما يصيب الإنسان من أذى وعناء إنّما هو في أمر البراءة.

وليس أيسر من أن يجامل الإنسان الجميع، ويمّد يده إلى الجميع، ويعيش مع الكل بسلام، ويداري كلّ العواطف والأحاسيس، ويلعب على كل الحبال، ويتجنب الصدام بالجميع، ويوزع الإبتسامة في كل مكان، ليرضي الجميع.

إن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يعيش في رغد وعافية، ويستطيع أنّ يكسب ودّ الجميع وتعاطفهم، ويستطيع أن يعيش من دون مشاكل ومتاعب، ولكن لا يستطيع أنّ يعيش في دائرة الولاء لله ولرسوله ولأوليائه وللمؤمنين، ولا يستطيع أن ينتمي إلى هذه الأسرة المسلمة التي أعطت ولاءها لله ولرسوله ولأوليائه، ولا يستطيع أن يمتلك موقفاً، ولا يستطيع أن يحبّ، ويبغض، ويسخط، بصدق، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود المجاملة السياسية والاجتماعية في علاقته.

إنّ الصدق في التعامل، والموقف، والقوة والجدّية والصراحة في المواقف لا تتم من دون ولاء، والولاء لا يتم من دون براءة.

والبراءة تُكلف الإنسان الكثير في علاقاته الإجتماعية وصِلاته في المجتمع، وفي الأُسرة، وفي راحته وعافيته، وفي استقراره.

إنّ البراءة ضريبة الولاء، والتعب والعناء والأذى ضريبة البراءة، وهذه معادلات أجراها الله تعالى بسننه التي لا تتبدل في حياة الإنسان.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «عشر من لقي الله عزّ وجلّ بهن دخل الجنة:

١ ـ شهادة أن لا إله إلّا الله.

٢ ـ وأنّ محمّداً رسول الله.

٣ ـ والإقرار بما جاء من عند الله عزّ وجلّ.

٤ ـ وإقام الصلاة.

٥ ـ وإيتاء الزكاة.

٦ ـ وصوم شهر رمضان.

٧ ـ وحجّ البيت.

٨ ـ والولاية لأولياء الله.

٩ ـ والبراءة من أعداء الله.

١٠ ـ واجتناب كلّ مسكر»(١).

وفي رسالته صلى الله عليه وآله إلى أُسقف نجران: «إني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، وإن أبيتم فالجزية، وان أبيتم آذنتكم بحرب»(٢).

فالفاصل بين الإسلام والكفر إذن هو الولاية والبراءة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي وليّ الله، وتعادي عدو الله»(٣).

وعن الرضا عليه السلام: «أنّ الله أوحى إلى بعض عباد بني إسرائيل وقد دخل قلبه شيء: أمّا

(١) خصال الصدوق ٢: ٥٢، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٣.

(٢) مكاتيب الرسول للأحمدي الميانجي: ١٢٠.

(٣) المحاسن للبرقي: ١٦٥، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

عبادتك لي فقد تعززت بي، وأما زهدك في الدنيا فقد تعجّلت الراحة، فهل واليت لي ولياً وعاديت لي عدواً»[(١)].

وروى أن رجلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أحبّك وأحبّ فلاناً وسمّى بعض أعدائه. فقال، : «أمّا الآن فأنت أعور، فأما أن تعمى وأما أن تبصر»[(٢)].

ورؤية الأعور، رؤية نصفية، فهو يرى بإحدى عينيه فقط، وكذلك ولاء الإنسان الذي يفقد البراءة، أو لا يجرؤ على البراءة، ويريد أن يجمع بين الجميع ويُرضي الجميع.

ومثل هذا النمط من الناس لا يبقى أعوراً إلى الأخير بنصف الرؤية، فأمّا أن يهديه الله تعالى، فتكتمل لديه الرؤية، وأما أن يفقد هذه الرؤية النصفية الضعيفة، فيعمى ويفقد الولاء مطلقاً.

قيل للصادق عليه السلام إنّ فلاناً يواليكم إلّا أنّه يضعف عن البراءة من عدوكم فقال، : «هيهات كذب من ادعى محبتنا، ولم يتبرأ من عدوّنا»[(٣)].

والسائل في هذا الحديث دقيق في طرح السؤال: فالشخص الذي هو موضوع السؤال لا يُشكّ في ولائه، ولكنّه يضعف عن البراءة، وضعفه يجعل موقفه من البراءة مهزوزاً، وضعيفاً، ولا يملك القوة الكافية ليعلن موقفه في الولاء والبراءة، والوصل والفصل، والمواصلة والمقاطعة، بشكل صريح وحاسم، فيجيبه الإمام عليه السلام: إنّ الولاء الصادق لا يمكن أن ينفصل عن البراءة، ومن يجد في نفسه ضعفاً عن البراءة، فهو ضعيف في ولائه أيضاً.

وفي حديث الأعمش عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «حبّ أولياء الله واجب، والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبة. والبراءة من الناكثين والقاسطين والمارقين واجبة، والبراءة من الأنصاب والأزلام أئمة الضلال وقادة الجور كلّهم، أوّلهم وآخرهم واجبة»[(٤)].

وعن أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه ذات يوم: «يا عبد الله، أحبّ في الله، وأبغض في الله، ووال في الله وعاد في الله، فإنّه لا تنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى

(١) فقه الرضا: ٥١، وبحار الأنوار ٢٧ : ٥٢.

(٢) بحار الأنوار ٢٧ : ٥٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الخصال ٢ : ١٥٣ ـ ١٥٤، وبحار الأنوار ٢٧ : ٥٢.

يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون، وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً».

«فقال له: وكيف لي أنّ أعلم أنّي واليت وعاديت في الله ﷻ، ومَن وليّ الله ﷻ حتّى أواليه، ومَن عدوّه حتّى أعاديه؟».

«فأشار له رسول الله ﷺ إلى علي عليه السلام، فقال: «أترى هذا، فقال: بلى، قال: وليّ هذا وليّ الله فوالِه. وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده. قال: والِ وليّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعادِ عدوّ هذا ولو أنه أبوك أو ولدك»[1].

وهذا المضمون قد ورد بشكل آكد في حديث الغدير المعروف عن رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله»[2].

وحديث الغدير من أوضح الأحاديث في تعميق معنى الولاية وتشخيصها وإبراز أبعادها الإيجابية في الولاء وأبعادها السلبية في البراءة.

وقد صدّر العلّامة الأميني كتابه القيم (الغدير) بحديث عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى نود أن نختم به أحاديث الولاء والبراءة في هذا الحديث.

عن رسول الله ﷺ، قال: «من سرّه أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن غرسها ربّي فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتد (بأهل بيتي) بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي، خُلُقوا من طينتي، رزُقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي»[3].

والآن بعد هذه الجولة الواسعة في البراءة نعود إلى زيارة (وارث) لنعرف مواضع البراءة واللعن في هذه الزيارة.

---

(١) التفسير للإمام العسكري: ١٨، ومعاني الأخبار: ١١٣، وعيون الأخبار: ١٦١، وعلل الشرائع: ٥٨، وروى عنهم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار ٢٧: ٥٤.

(٢) الحديث من المتواترات بين العامة والخاصة، انظر كتاب الغدير ١: ١٤ـ ١٥٨.

(٣) الغدير ١: ١٨. والجامع الكبير للسيوطي (حرف الميم) وحلية الاولياء ترجمة علي بن أبي طالب عليه السلام، وجامع الاحاديث للسيوطي.

الطوائف الملعونة في زيارة وارث

ورد اللعن والبراءة في زيارة وارث لثلاث طوائف:

«لعن الله أُمة قتلتك

ولعن الله أُمة ظلمتك

ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به».

١ ـ الطائفة الأُولى:

هي الطائفة التي باشرت قتال الحسين عليه السلام: «لعن الله أُمة أسرجت وألجمت وتهيّأت وتنقبت لقتالك يا مولاي يا أبا عبد الله»(١).

٢ ـ الطائفة الثانية:

هي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه ومكّنت منه وشايعت وبايعت وظاهرت عليه وخالفته. وهذه الطائفة تشمل كل أُولئك الذين أعدّوا لقتال الحسين عليه السلام أو مكّنوا منه، أو ظاهروا عليه، أو ساهموا في الإعداد لقتاله، أو أعانوا الطاغية في قتاله وأشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

وقد ورد اللعن والبراءة عن هذه الطائفة، (وهي طائفة واسعة) بصيغ مختلفة في زيارات الحسين عليه السلام المطلقة والمخصوصة.

ففي زيارة عاشوراء المخصوصة: «ولعن الله أُمة قتلتكم، ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم».

وأيضاً في زيارة عاشوراء «وأبرأ إلى الله ورسوله ممن أسس أساس ذلك الظلم والجور عليكم أهل البيت، وبنى عليه بنيانه، وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم، وبرئت إلى الله وإليك منهم».

وفي الزيارة المخصوصة الثانية لعاشوراء والمروية في المزار القديم: «لعن الله أُمة أسست أساس الظلم لكم، ومهدت للجور عليكم، وطرقت إلى أذيتكم وتحيفكم، وجارت ذلك في دياركم وأشياعكم، وبرئت إلي الله عزّ وجلّ وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم»(٢).

---

(١) زيارة وارث المطلقة، وزيارة عاشوراء المخصوصة باختلاف يسير.

(٢) مستدرك الوسائل ١٠: ٤١٣.

وكما نرى أن هذه الطائفة واسعة تشمل كل أُولئك الذين ساهموا في قتال الحسين عليه السلام أو مكّنوا من قتاله أو أعدوا لـه أو بايعوا الطاغية على القتال، أو شايعوا وظاهروا عليه عليه السلام، وأشياعهم واتباعهم.

٣ ـ الطائفة الثالثة:

وهي الطائفة التي سمعت بذلك فرضيت به.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلاً، فمن هم أُولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به، إنّ هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال، ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عمليّة، وإلّا لكانت تدخل ضمن الطائفة الأُولى والثانية، ولم يكن موجب لإفرادها بالذكر ثالثاً.

فهذه الطائفة لا بدّ وأن تكون ـ إذن ـ ممن سمعت استنصار الحسين عليه السلام ولم تنصره، وآثرت العافية على الوقوف مع سيد الشهداء عليه السلام، في معركة الطف، وخذلت سيد الشهداء عليه السلام، ولم تنصره يوم عاشوراء.

وهذه الطائفة لابد أن تكون راضية بما حدث يوم عاشوراء، فلا يمكن أن يتم هذا الخذلان والسكوت والقعود عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في معركته مع طاغوت عصره، والقعود بعد ذلك عن أخذ ثأره، لولا أنهم كانوا راضين بما حدث.

فإن تخلّف هؤلاء عن الالتحاق بالحسين عليه السلام ونصرته، وإيثارهم للعافية في دنياهم على آخرتهم ينطوي على الرضا بما صنع يزيد، وان لم يكن كذلك، فإنهم خذلوا سيد شباب أهل الجنة والخذلان يؤدي إلى الرضا بفعل بني أمية شاءوا أم أبوا.

وقد ذُكرت هذه الطائفة في نصوص أُخرى بالتخاذل عن نصرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداء عليه السلام. فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

«لعن الله أُمة قتلتكم، وأُمة خالفتكم، وأُمة جحدت ولايتكم، وأُمة ظاهرت عليكم، وأُمة شهدت ولم تستشهد».

وموضع الشاهد من هذا المقطع من الزيارة هو الفقرة الأخيرة (وأُمة شهدت ولم تستشهد).

وورد في الزيارة المطلقة السابعة: «وأشهد أنّ قاتلك في النار. أدين لله بالبراءة ممن قتلك، وممّن قاتلك، وشايع عليك، وممن جمع عليك، وممن سمع صوتك ولم يعنك».

وموضع الشاهد: (وممن سمع صوتك ولم يعنك).

وورد في زيارة ليلة القدر وليلة العيدين:

«أشهد أنّ الذين خالفوك وحاربوك والذين خذلوك والذين قتلوك ملعونون على لسان النبيّ الأُمي».

وواضح في هذا النص أنّ الطوائف الثلاث الملعونة هي:

١ ـ الطائفة التي قاتلت الحسين عليه السلام.

٢ ـ الطائفة التي دعمت القتلة وأيدتهم وساندتهم.

٣ ـ الطائفة التي خذلت الحسين عليه السلام، ولم تلبّ دعوة الحسين، ولم تنصره.

أجل إنّ معركة الطف كانت معركة حقيقية في الأبعاد العقائدية والحضارية والسياسية، ولذلك فهي تتطلب مواقف حقيقية من الولاء والبراءة، أمس واليوم، وترفض موقف المتفرج واللّامبالاة اليوم كما كانت ترفضه أمس وتضم المواقف المتفرجة إلى الموقف المعادي.

ما تفعله الصراعات الحضارية بالناس

إنّ الصراعات الحضارية والعقائدية تشطر الناس إلى شطرين: سلباً وإيجاباً، ويجري هذا التشطير والانقسام بصورة مستمرة فيما بعد وإلى ما شاء الله من العصور، وكلما يكون امتداد القضيّة أعمق في وجدان الناس، كلما تكون الآثار الحضارية المترتبة عليها أوسع وأقوى.

ومعركة الطف أبرز هذه المعارك والصراعات نظراً للمواجهة والمقابلة العقائدّية والحضاريّة والسياسية التي تمت في هذه المعركة، **أوّلاً**.

وثانياً: وضوح كلّ من المعسكرين في هذا التباين الحضاري والخلقي، فلم يكن يخفى أمر الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيّد شباب أهل الجنة على أحد من المسلمين، كما لم يكن يخفى أمر يزيد بن معاوية ابن آكلة الأكباد، وسلالة الشجرة الملعونة في القرآن على أحد، ولم يكن يشك أحد (في ذلك التاريخ وإلى اليوم) في ماهية وحقيقة الطرفين المتصارعين ومَن منهما يدعوا إلى الله، ومَن منهما يدعوا إلى النار.

وثالثاً: المأساة الأليمة التي حدثت لسبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته وأصحابه في كربلاء يوم عاشوراء.

كلّ هذه العوامل، وغيرها، تجعل قضية الطف قضيّة متميزة في التاريخ، تفرض نفسها على الإنسان فرضاً، وتشطر الناس تجاهها شطرين متميزين، الشطر الموافق والناصر والمنتمي والمرتبط والموالي، والشطر المخالف والمعادي. ولا تدع أحداً يقف بين الصفين ليتفرج على المعركة من دون أن يصيبه غبار من المعركة من هنا أو من هناك.

فلابدّ من موقف محدّد، ولابد من ولاء وبراءة، فلا يلتبس الحقّ بالباطل على أحد يلمّ بظروف هذه المعركة في أمرها.

يوم الفرقان الأوّل

قلنا: إنّ هذه المعركة شطرت الناس في الولاء والبراءة شطرين متميّزين من سنة إحدى وستين هجرية إلى اليوم الحاضر وسوف يحتفظ بهذه الميزة إلى ما شاء الله من العصور.

وهذه الخاصية يسميها القرآن الكريم بالفرقان، وهو الأمر الذي يفرق الناس شطرين متميزين في الولاء والبراءة، أو يفرق الحق عن الباطل تفريقاً واضحاً يعرفه كل الناس.

ولقد كان يوم بدر هو «يوم الفرقان الأوّل» في تاريخ الإسلام، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[1].

وذلك لأن هذا هو اليوم الأوّل الذي التقى فيه المسلمون بالمشركين في مواجهة عسكرية مصيريّة شطر الناس شطرين متمايزين في الولاء والبراءة.

فهو أوّل مواجهة قتالية بين التوحيد والشرك في تاريخ الإسلام. وعلى نتائج هذه الحرب الميدانية يتوقف مصير البشرية جميعاً. صحيح أن الذين وقفوا مع رسول الله في بدر هم ثلثمائة أو يزيدون قليلاً، وإن الذين وقفوا إلى جانب قريش لقتال رسول الله ألف أو يزيدون قليلاً إلّا أن هذه المواجهة كانت أعمق وأوسع مما يتراءى لنا لأوّل مرّة من خلال التأريخ في وادي بدر في السنة الثانية من الهجرة.

لقد كان يقف من وراء المشركين من قريش في بدر جبهة عريضة من الشرك في الجزيرة وخارجها، وتصاعد الأحداث بعد هذا اليوم أثبتت هذه الحقيقة.

وقد وقف رسول الله ﷺ بهذه العصبة الصغيرة أمام جبهة الشرك العريضة في هذا اليوم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

فنصره الله تعالى عليها. ولولا أن الله تعالى نصر تلك العصبة يوم بدر... لم يكن يعبد الله على وجه الأرض، ولم يكن يرفع لله تعالى ذكر.

فيوم بدر ـ إذن ـ فرّق البشرية إلى شطرين متمايزين في الولاء: شطر قوامه ثلثمائة مقاتل وخمسة مقاتلين، وشطر آخر قوامه جبهة الشرك العريضة، بكل إمكاناتها الواسعة فهو «يوم الفرقان الأوّل» حقاً في تأريخ الإسلام.

إنّ النظرة الساذجة الأُولى لساحة بدر في السنة الثانية من الهجرة لا تلتقي إلّا بهذين الجمعين المتقاتلين، ولكن النظرة العميقة الممعنة في الدقة تلتقي في هذه الساحة بحضارتين وكيانين وعقيدتين، تتصارعان على الوجود والبقاء ولم يكن الصراع على حفنة من متاع تجارة قريش، كما يتصوّره الإنسان الذي يقرأ ظاهر التاريخ. وهذان المعسكران يلتقيان بجبهات عريضة من الناس في التاريخ، لا يقتصر أمرها على ثلاثمائة أو ألف ويمتدان إلى ما شاء الله من العصور والدهور.

ولم يكن يوم بدر هو يوم الفرقان الذي يشطر الناس في الولاء والبراءة إلى شطرين في السنة الثانية من الهجرة فقط، وإنّما يظل يوم بدر هو يوم الفرقان في تأريخ الإسلام كلّه.

يوم الفرقان الثاني[1]

وإذا كان «يوم بدر» هو «يوم الفرقان الأوّل» في تاريخ الإسلام، فإن يوم عاشوراء هو يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام.

وقف فيه الحسين عليه السلام مع ثلّة صغيرة من أهل بيته وأصحابه في هذه المعركة غير المتكافئة المصيرية، ووقف فيها ابن زياد في جيش واسع في الطرف الآخر من المعركة، ومن ورائه يزيد وسلطانه وملكه الواسع وأمواله الكثيرة وجيشه وإمكاناته، وكل الموالين له، وكل المستفيدين منه وكلّ المضلّلين به، وكلّ المقاتلين معه حتّى كلّ المتفرّجين على الساحة السياسيّة من الذين آثروا العافية، فوقفوا يتفرّجون على ساحة الصراع وميدان القتال، وكل أشياع هؤلاء وأتباعهم.

ففي يوم عاشوراء إذن تتوفر خاصية (الفرقان) بشكل واضح، فقد شطر الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء والبراءة والأخلاق والفكر والخط والعقيدة والحق والباطل.

---

(١) ويصحّ أن نقول: إنّ (صفّين) يوم الفرقان الثاني في الإسلام، وعاشوراء هو يوم الفرقان الثالث.

ولا يزال هذا اليوم (فرقاناً) في تأريخ الإسلام يفرّق الناس في الولاء والبراءة إلى يومنا الحاضر وإلى ما شاء الله من العصور.

يوم الفرقان الثالث

ومادمنا قد أشرنا إلى يومين من أيام الفرقان في التاريخ الإسلامي هما: «يوم بدر» و«يوم عاشوراء»، فلا نستطيع أن نتجاوز هذا الحديث دون أن نشير إلى اليوم الثالث من أيام الفرقان في التاريخ الإسلامي، والذي يأتي امتداداً ليوم بدر ويوم عاشوراء.

وهو يوم انتصار الثورة الإسلامية المعاصرة من سنة (١٣٩٩هـ) والذي هو من أيّام الله في التاريخ، والذي سقط فيه نظام بهلوي، وانتصرت فيه الثورة الإسلامية المعاصرة الكبرى في إيران بقيادة الإمام الخميني ﷺ.

إنّ هذا اليوم لا يعني فقط سقوط نظام أسرة بهلوي في تاريخ إيران، وإنّما يعني انتهاء مرحلة من تاريخ الإسلام، وبداية مرحلة جديدة من التاريخ.

إنّ القيمة التاريخية لسقوط أسرة بهلوي وقيام الجمهورية الإسلامية تكمن في كونها:

أوّلاً: نهاية لعصر من الخمول والركود والاستضعاف واليأس والارتماء في أحضان الغرب والشرق، والتخلّف الفكري والعلمي والسياسي والعسكري والاقتصادي، والرضوخ لسيادة الاستكبار العالمي، والهزيمة النفسية أمام موجة الحضارة الغربية.

ثانياً: بداية عصر جديد من التحرك باتجاه الإسلام وحاكمية دين الله على وجه الأرض، وفك القيود والأغلال من الأيدي والإقدام، وكسر الطوق السياسي والاقتصادي والعسكري والعلمي والحضاري الذي فرضه علينا الاستكبار الغربي والشرقي، والعودة إلى الله وإلى الإسلام، وتعبيد الإنسان لله، وتحكيم شريعة الله في حياة الإنسان وإعادة الأعراف والقيم والأخلاق والحدود الإسلامية إلى صلب الحياة من جديد. وبالإجمال فإنه بداية لمرحلة جديدة للتأريخ.

إنّ هذا اليوم هو امتداد حقيقي ليوم عاشوراء، كما كان يوم عاشوراء امتداداً واقعياً ليوم بدر.

ونُلخص فيما يلي أبرز النقاط والعناصر التي تشكل القيمة الحضارية للانقلاب الإسلامي الشامل والكبير الذي تحقق في هذا اليوم، وللثورة الإسلامية الكبرى التي انتصرت في هذا اليوم على الاستكبار العالمي:

١ ـ هذه الثورة ثورة مبدئية بالمعنى الدقيق للكلمة، وهي نوع جديد من العمل والحركات الثورية في تأريخنا المعاصر، وفي الأجواء السياسية المعاصرة التي لم تألف هذا النوع من العمل والحركة، فهي ثورة التوحيد على الشرك، بالمعنى الذي فسّرناه في هذا الحديث وهو: توحيد الولاء والشرك في الولاء، فهي تتجه إلى فك ارتباط الإنسان المسلم عن الطاغوت المتمثل في الاستكبار الشرقي والغربي وعملائهما في المنطقة. وفك الارتباط بمحاور الولاء البديلة المفتعلة (القومية، الوطنية، العشائرية الحزبية...)، وربط الإنسان بالله تعالى ورسوله وأوليائه، وتوحيد الولاء لله تعالى، ومقاطعة ومحاربة كلّ المحاور الأُخرى التي تعمل لانتزاع الولاء من الناس.

إنّها ليست ثورة على التخلف العلمي والتقني، وليست ثورة على التخلّف الاقتصادي والفقر، وليست ثورة على الاستعمار والاستغلال، وليست ثورة من أجل تحرير آبار النفط من قبضة ملوك النفط، ولا هي بثورة طبقة أُخرى (ثورة طبقية)، وليست هي ثورة المستضعفين على المستكبرين، كما حدث في ثورة الزنج في تأريخ الإسلام، وإن كانت تحتوي على هذه الأُمور جميعاً، وتحقق هذه النتائج كلّها.

وإنّما هي في جوهرها شيء آخر، إنها ثورة الولاء لله على المحاور البديلة المزيفة للولاء، وثورة التوحيد على الشرك، وثورة الإسلام على الجاهلية.

وهي إذا حققت غاياتها على وجه الأرض فلسوف تقضي على التخلف العلمي والثقافي والتقني، وتقضي على الفقر والتخلف الاقتصادي، وتقضي على الاستغلال والاستعمار، وتقضي على استثمار آبار النفط من قبل الشركات الاستعمارية، وتقضي على التلاعب بأموال المسلمين وثرواتهم، وتقضي على الاستضعاف والاستكبار، وعلى استضعاف طبقة من قبل طبقة أُخرى وممارسة السيادة لطبقة على أُخرى.

إنّ هذه الثورة سوف تحقق كل هذه الغايات، وتحقق غايات أُخرى أبعد من هذه الأُمور وأسمى منها. ولكن على أن تحافظ على جوهرها ومحتواها الحقيقي، فتبقى ثورة التوحيد على الشرك، ولا تنحرف إلى الغايات الفرعية التي تتفرع منها.

إنّ السمة البارزة والأُولى لهذه الثورة هي «الربانية»، وهذه السمة هي التي تربطها ببدر وصفين وعاشوراء، وبحركة الأنبياء عليهم السلام وبمسار الصالحين من أولياء الله. ومتى أُفرغت الثورة من هذه السمة، وتشبعت بالأهداف والشعارات الجانبية فقدت قيمتها، وفقدت تأييد الله تعالى لها.

إنّ هذه الثورة تختلف اختلافاً جوهرياً عن كل الثورات المعاصرة لها، كالثورة الفرنسية، وثورة اكتوبر، والثورات التي قامت في القارة الأفريقية، وفي آسيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم الحاضر.

إنّ هذه الثورات جميعاً ـ في أفضل الفروض ـ كانت ثورة طبقة على طبقة، وثورة التحرّر من نفوذ وسيطرة الاستعمار الأجنبي أو التحرر من سيطرة حاكم ظالم. ولا نستطيع أن نستثني ثورة معاصرة لنا عن هذه المنطلقات.

وأما الثورة الإسلامية فهي الثورة الوحيدة التي انطلقت من منطلق آخر يختلف اختلافاً نوعياً عنها جميعاً، فانطلقت باتجاه تحرير الإنسان من المحاور البشرية للولاء ـ مهما كان نوع هذا المحور ـ إن لم يكن مرتبطاً بالولاء لله تعالى، وتعبيد الإنسان لله، وتحكيم شريعته في حياة الإنسان، وترسيخ محور الولاية الإلهية بكلّ امتداداتها في حياة الإنسان.

٢ ـ إنّ هذه الثورة حصيلة جهود كثيرة وكبيرة من قبل كل العاملين في سبيل الله والمجاهدين وطلائع العمل الإسلامي، من الذين وعوا محنة تخلف الأُمة وتحملوا المسؤولية، ونهضوا بأعبائها، وتقبّلوا المتاعب التي واجهتهم على طريق ذات الشوكة.

وهؤلاء أُمة كبيرة من العاملين في سبيل الله، في أقطار شتى من أقاليم العالم الإسلامي، وعلى مستويات مختلفة من الثقافة والعلم.

إنّ هؤلاء جميعاً في عصرنا وقبل هذا العصر لهم دور في بناء قواعد هذه الثورة، وفي إنجاز هذه الحركة الربانية على وجه الأرض، وفي تحريك هذا السيل البشري الهادر الذي زعزع أركان الطاغوت.

إنّ الطالب الذي كان يدعوا إلى الله ورسوله وإلى تحكيم شريعة الله بين زملائه الطلبة، والخطيب الذي يخطب في المساجد والاجتماعات وينشر هدى الإسلام ووعيه، والعالم، والكاتب، والشاعر، والأديب، والمعلم والعامل والطبيب... من النساء والرجال، وكل حملة الرسالة، وكل الذين وضعوا حجراً في أساس هذه الثورة في مشارق الأرض ومغاربها... كل هؤلاء لهم دور في هذه الثورة المباركة، وحقّ عليها، وأجر فيها عند الله.

إنّ هذه الثورة التي زلزلت الأرض تحت أقدام الطغاة، وهدّدت كيانهم ومصالحهم، لم تكن حصيلة فترة زمنية محدودة، وجهد جماعة محدودة من العاملين والمجاهدين، وإنّما كانت حصيلة أجيال من العمل الإسلامي.

ولذلك فسوف تكون خسارة الأُمة الإسلامية كبيرة إذا تعرّضت هذه الثورة لانتكاسة، مهما كانت الأسباب... ولن يقتصر أثر هذه الخسارة على الشعب الإيراني والقيادات الإسلامية الإيرانية فقط.

وكما كانت هذه الثورة حصيلة كل الآلام، والحرمان، والإضطهاد، والعذاب، والعناء الذي لاقاه المسلمون في مرحلة الركود والضعف والهزيمة النفسيّة من تاريخهم.

وساهم في هذه الثورة كل من اضطهد في سبيل الله وكل من الّتفتْ السياط على جسمه في غياهب السجون، وكل الدموع، وكل الدماء، وكلّ الآهات، وكلّ اليُتم والثُكل والترمل، وكل المطاردات الأمنية والهجرات التي كانت في سبيل الله.

أجل إنّ هذه الثورة كانت تجسيداً لكل تلك الآلام والمحن، كما كانت تجسيداً لكل الاعمال والجهود.

ولو كان الأمر في هذه الثورة يقتصر على العامل الثاني (ركام الآلام والعذاب) لكان من الممكن أن تتغلّب على هذه الثورة صفة الغوغائية والتخريب والانفعال؛ إلّا أن وجود العامل الأوّل (المبدئية) وقوته وفاعليته في تحقيق هذه الثورة المباركة كان عاملاً قوياً في توجيه الثورة وتصحيح مسارها والمحافظة عليها من الانحراف.

لقد كان الفعل الهادف الذي تمّ خلال هذه المدة من قبل العاملين في سبيل الله يصب في مصب خط الإسلام النقي، الخط الفقهي الذي تجسد في قيادة الإمام الخميني، والذي عُرف فيما بعد بخط الإمام. لقد كانت هناك بالتأكيد خطوط انحرافية، عن يمين ويسار، ولكن هذه الخطوط لم تكن تشكل تياراً للحركة الإسلامية.

إنّ التيار كان يجري في اتجاه الخط الإسلامي الأصيل، ولقد كان للفقهاء والعلماء والمرجعية الإسلامية الرشيدة دور هام في توجيه هذا التيار وتنظيم مساره والمحافظة عليه.

أجل، لقد كان لكل العاملين في سبيل الله دور في بناء وتشييد هذه الثورة.

إنها ليست الثورة ثورة إقليم كما يحاول أعداء الإسلام أنّ يبرّزوها، وكما تنطلي أحياناً على بعض السذج من المسلمين، وليست ثورة إسلامية إيرانية، وإنما هي ثورة إسلامية كونية شاملة، شاء الله تعالى أن تكون نقطة انفجارها في أرض إيران، وأية محاولة لأقلمة هذه الثورة وعزلها عن مشاعر وأحاسيس وقلوب المسلمين هي خيانة لهذه الثورة وللمسلمين، إن كانت من قبل أعداء هذه الأُمة والمتربصين بها السوء، وسذاجة وجهل إن كانت من قبل أبناء هذه

الأُمة، ومن وراء هذه السذاجة خيانة. والغاية من هذه الخيانة عزل الثورة الإسلامية عن مشاعر المسلمين. وعن الرأي العام الإسلامي وتطويقها مقدمة للإجهاز عليها.

وعلينا نحن المسلمين أن نواجه هذه المؤامرة بوعي وانتباه، وبعيداً عن جو الحسّاسيّات، وفي جو من المسؤولية الشرعية.

وكل الثورات التي تحدث فيما بعد في أقطار العالم الإسلامي بهذا الاتجاه تُعدّ مراحل مختلفة لثورة واحدة وشاملة، وهي ليست ثورات أُخرى في مقابل هذه الثورة، ولا امتدادات لهذه الثورة، وإنما هي مراحل مختلفة لثورة واحدة شاملة، وقد شاء الله تعالى أن تتم المرحلة الأُولى منها في إيران، وفي أحضان هذا الشعب المسلم المضحي الشجاع.

أرأيت خط الزلزال الذي ينطلق من نقطة، ثمّ يمتد على منطقة واسعة من الأرض بفعل التفاعلات الجيولوجية غير المرئية لنا في عمق الأرض، كذلك كانت هذه الثورة. لقد تم في عمق هذه الأُمة تفاعلات واسعة وكبيرة وقوية بتأثير الفعل: (العامل الأوّل) والانفعالات: (العامل الثاني) في غياب من رصد الاستكبار العالمي، وحين كان الاستكبار العالمي يزهو بانتصاراته الكبيرة على العالم الإسلامي، ويعيش في نشوة سلطانه وسيطرته على العالم الإسلامي، كانت تجري هذه الانفعالات في أعماق الأُمة الإسلامية وتفاعلت وتفاقمت، ثمّ كان الزلزال الذي هزّ الأرض بغتة من تحت أقدام حكام البيت الأبيض والكرملين والإليزيه، ولم ينتبه هؤلاء الطغاة من نشوة السلطان وسكره إلّا بعد أن حدث الزلزال. وكانت نقطة البداية للزلزال في إيران، إلّا أن خط الزلزال كان خطاً واحداً ممتداً لم ينقطع. يمتد من طهران إلى بغداد إلى القدس وإلى كابل وبلاد آسيا الوسطى وإلى لبنان، وإلى ما شاء الله من أقاليم القبلة.

إن الذي حدث في إيران كان شيئاً أكبر بكثير من تصوراتنا السياسية المحدودة، كان تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى للصالحين المستضعفين من عباده في هذه الأُمة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وعلينا قبل كل شيء أن نعي بصورة جيدة الأبعاد الحقيقية لهذه الثورة، وان ننشر هذا الوعي في صفوف المسلمين، لنحبط المؤامرات التي يحيكها أعداء الإسلام لتطويق الثورة الإسلامية المعاصرة ومحاصرتها في دائرة الإقليم الإيراني، والقومية الفارسية، لتنعزل الثورة ـ بعد ذلك ـ عن الرأي العام الإسلامي وعن مشاعر المسلمين.

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥ ـ ٦.

إنّ الذي يتابع كلام الإمام الخميني ﷺ قائد الثورة، يجد وعياً دقيقاً لهذه المؤامرة، وسعياً وافراً لإحباطها.

ومن أجل هذه الشمولية الواسعة في هذه الثورة نجد أن فكرة تصدير الثورة رافقت ولادة هذه الثورة في كلمات قائد الثورة بالذات.

إنّ من يعرف طبيعة وجذور وأعماق هذه الثورة يعرف جيداً أنّ هذه الثورة لا تعترف بالحدود الإقليمية والقومية، وأنها لا تقف من وراء الحدود، تستأذن سدنة هذه الحدود ليفتحوا لها الطريق، إنها السيل، لا تستأذن ولا تقف ولا تعترف بالحدود ولا تنتظر ولا تتردد. ووعي هذه الحقائق ضروري في حماية ودعم الثورة، كما أن تضبيب أفق الثورة بالحساسيات يؤدي إلى تحجيم الثورة في الحالة الإقليمية أو القومية.

ونحن نضع هذه الحقائق بين يدي المفكرين والعاملين الإسلاميين، ليتحملوا مسئوليتهم عن هذه الثورة بين يدي الله تعالى.

٣ ـ إن هذه الثورة من أيام الفرقان في تاريخ الإسلام فقد شطرت الناس تجاهها شطرين: شطر الموالين، وشطر المعادين.

ومنذ الأيام الأُولى لبزوغ هذه الثورة وجدنا أن القلوب المؤمنة والضمائر الحية قد تجمعت حول هذه الثورة، وكانت تعيش بإهتمام بالغ ساعات ميلاد هذه الدولة المباركة. وحبس التاريخ أنفاسه ليتابع لحظات هذا الميلاد العظيم (عودة الحضارة الربانية) و(عودة سيادة الإسلام على وجه الأرض) و(حاكمية الله في حياة الإنسان) بعد تلك السنوات العجاف من الركود، والخمول، والضعف، والهزائم النفسية، والإنصهار المذل في حضارة الإستكبار الشرقي والإستكبار الغربي الجاهلي، ونفوذ وسيطرة الكفر العالمي على أُمتنا وبلادنا وثرواتنا.

وفي مقابل ذلك: فقد أحسّ الظالمون والعتاة والذين باعوا دينهم وضمائرهم، وكل الطغاة والجبارين في الأرض، أحسّوا بالخطر، وبأن هناك ميلاداً جديداً بحجم التاريخ، وان الذي يجري في طهران ليس أمراً كسائر الاُمور التي تجري هنا وهناك، انه نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة، لقد أحسّ هؤلاء بالخطر يفاجئهم على حين غرة، فأعلنوا عداءهم تجاه الثورة منذ اللحظات الأُولى، ولم يخفوا تخوفهم من الثورة من ساعة ميلادها الأُولى.

استقبلت الثورة طائفتان. استقبلتها طائفة بقلوب ملؤها العطف والحبّ والإقبال والاندفاع لنصرة الثورة، والدعاء إلى الله بتأييد الثورة، وطائفة أُخرى استقبلتها بقلوب حاقدة متخوفة

ومتحسسة، ولم تتمكن من إخفاء تخوفاتها وحساسيتها حتّى منذ الساعات الأُولى لميلاد هذه الدولة المباركة وانتصار الثورة.

وهذا الانشطار في الولاء والبراءة من خصائص أيام الفرقان في التاريخ، ولسوف تبقى هذه الثورة تحتفظ بهذه الخاصية المزدوجة في مراحلها المختلفة.

٤ ـ ولقد كان من الطبيعي أن يكون ميلاد هذه الدولة إيذاناً بصراع ممتد طويل بين الإسلام والجاهلية فلقد كانت هذه الثورة تمتد لإسقاط معاقل الجاهلية والاستكبار على وجه الأرض، وإطلاق أيدي المستضعفين من العقال والقيود وفك الأغلال عنهم، وكسر هيبة القوى الكبرى في نفوس المسلمين، ولهذا فلا يمكن أن يسكت الاستكبار العالمي أمام هذه الموجة الربّانية دون إثارة الفتن والمتاعب في طريق الدعوة والثورة، ودون أن يعمل على تطويق ومصادرة هذه الثورة.

إنّ الذي يتفهم سنن الله تعالى في التاريخ يستطيع أن يفهم بوضوح حتمية الصراع بين هاتين القوتين: القوة الإسلامية النامية وقوة الكفر العالمي، وان هذا الصراع سوف يكون من أقسى أنواع الصراع وأطوله وأكثره دواماً واستمرارية، ذلك أن هذا الصراع صراع على البقاء كما قلنا، والصراع على البقاء يطول ويقسو ويستمر، وليس صراعاً على ماء وطين وعلى نفط وصلب ونحاس حتّى يمكن التفاهم واللقاء، فلا يمكن تجنب هذا الصراع بحال من الأحوال.

إنّ هذه الثورة خرجت لأول مرة عن منطقة نفوذ القوى الكبرى بشكل كامل، وتعمل الآن لفك هذا الحصار عن كل العالم الإسلامي. ومن الطبيعي أن يواجه الاستكبار هذه الثورة ودولتها الناشئة بكل أنواع الضغوط والمؤامرات من الداخل والخارج لتحجيمها واستهلاكها وتطويقها.

إنّ الحرب العراقية الإيرانية جزء من هذا المخطط الاستكباري الرهيب، وجزء من هذا الصراع الذي تحدثنا عنه. والنظام العراقي الظالم الفاسد الذي أعلن الحرب على الجمهورية الإسلامية ليس هو الطرف في هذه الحرب، وإنّما هو منفّذ لإرادة القوى الكبرى، والطرف الحقيقي في هذا الصراع الدول الكبرى التي تتقاسم فيما بينها الشعوب المستضعفة والمضطهدة على وجه الأرض.

إنّ الثورة الإسلامية يجب أن تواجه الصراع الطويل والقاسي، وهذه سنة من سنن الله تعالى ليس فيها تبديل.

ولا تستطيع الثورة أن تحقّق الإنجازات الكبرى، ولا تستطيع أن تؤهل أبناءها للقيام بأعمال كبيرة ومواجهة التحديات الصعبة، من دون أن يتمرسوا طويلاً في هذا الصراع.

٥ ـ والعاقبة في هذا الصراع للمتقين. ومهما نشك في شيء فلا نشك في هذه الحقيقة. إن الأُمة المؤمنة لا تدافع عن نفسها، وإنما تدافع عن دين الله وشريعة الله وحدوده، ولا تواجه أعداءها وإنما تواجه أعداء الله. ولا تحارب بحولها وقوتها وإنّما تحارب بحول الله وقوته.

فإذا استوفت هذه الأُمة الشروط ووضعت ثقتها في الله، وأعطت نفسها لله، وتخففّت عن التعلّق بالدنيا وحبها، وتحصنت عن أهوائها، وقامت لله تعالى مثنى وفرادى، فإن الله تعالى ينصرها لا محالة، طال عليها الأمر أم قصر.

فإن ذلك وعد الله تعالى، ولا يخلف الله وعده. فلنستمع إلى كتاب الله الكريم وآياته إلينا:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(١).

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٣).

﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٤).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾(٥).

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٧).

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٤٥.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٣١.
(٧) سورة محمّد، الآية: ٧.

إن المعركة مهما طالت، وقست، فلن يتركنا الله لأعدائنا، ولن يتخلى الله تعالى عنا، ولن يخلف الله وعده، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾(١).

وإن محنة الصراع إن طالت فلكي يمتحن الله قلوب عباده، ويعرف الثابتين منهم عن المهزومين ـ وهو العالم بخفايا القلوب ـ ولكي يثبت الله للمؤمنين قدم صدق على أرض المعركة، ولكي يتخفف المؤمنون في هذا الصراع من حب الدنيا والتعلق بها، ولكي يزدادوا يقيناً بالله تعالى في خضم هذا الصراع، ذلك أن الإنسان لا يرزق اليقين في أيام الراحة والعافية، كما يناله في ساعات الابتلاء، ولكي يتمرّس المؤمنون على مواجهة التحديات الكبيرة وتجاوز الصعاب في سبيل الله، ويزدادوا بأساً وقوة وشجاعة، ولكي يقوى في قلوبهم الولاء والبراءة، فإن الولاء يقوى من خلال التضحية والعطاء، والبراءة تقوى من خلال المواجهة والقتال.

وليس هذا الصراع وما يستتبعه من آلام وعناء يخص هذه الثورة أو يخص هذا الدين، وإنما هو سنة الله تعالى في حياة الصالحين من عباده الذين يرتضيهم الله تعالى لرحمته، والذين يسكنهم الله تعالى جنّته مع عباده الصادقين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾(٣).

إن نفوسنا لتهوى أن تقتطف النصر من أقرب الطرق وبأيسر الأسباب، وأن لا يُكلّفها دينها شيئاً، وأن نمد أيدينا فننال النصر والإمامة والخلافة على وجه الأرض.

لكن الله الحكيم يعلم أنّ النصر إذا جاء يسيراً، وعلى غير طريق ذات الشوكة لا يؤهّل الإنسان للإمامة وخلافة الله على وجه الأرض، فيريد الله تعالى لنا أن نتمرس ونقوى، ونحقق حاكمية دين الله في الحياة على طريق ذات الشوكة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1].

ولنستمع إلى هذه الآيات البينات من كتاب الله من سورة آل عمران تشرح سنن الله تعالى في الصراع، والعناء والمحنة والنصر والفتح في تسلسل رائع جميل.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾[2].

ففي هذه الآيات المباركة من سورة آل عمران إجابات شافية على كل الأسئلة التي تخطر على بال المؤمنين في هذا الصراع الرهيب بين الإسلام والكفر.

لقد كان المسلمون يظنون بعد أن نصرهم الله تعالى ببدر.. أنّ النصر حليف الفئة المؤمنة دائماً، لا يفارقهم ولا يعدوهم، وأنهم إذا آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله فلن يتخلّفوا عن النصر في حال من الأحوال. فلما أذاقهم الله مُرّ الهزيمة في أُحد، وانتكس المسلمون في هذه المعركة عندما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وتخلّوا عن مواقعهم بحثاً عن الغنائم.. اهتزّت نفوسهم واهتزّت الثّقة في نفوسهم بالنصر، وعادوا يشكّون في أن تكون لهم عاقبة الأمر، وغلب الضعف على النفوس، وتمكّن الحزن منهم على الذين استشهدوا في هذه المعركة من سراة المسلمين، ومن الصفوة المؤمنة الذين صدقوا الله وأخلصوا له في العمل والجهاد.

فيعيد الله تعالى إلى نفوسهم الثقة بالنصر أوّلاً، ويطمئنهم بأن العاقبة للمؤمنين مهما كانت القروح والآلام والإنتكاسات والعناء خلال الطريق ذات الشوكة، ويمسح الضعف والوهن والحزن عن نفوسهم، ويثبت أفئدتهم وقلوبهم بالنصر والعلوّ ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ يذكّرهم الله تعالى أنّ ما مسّهم من القرح في الحرب لم يخصهم فقط؟ وإنما مسّ

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٢.

أعداءهم أيضاً، وهذا القرح وما يصيب المقاتلين من أذى وتعب وخسائر من متطلبات المعركة في كل من الطرفين، ولا يمكن أن تجري معركة من دون قروح وآلام.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ...﴾.

وقد جرت سنة الله تعالى أن يداول الأيام بين الناس فيجعل يوماً للمؤمنين على الكافرين وآخر للكافرين على المؤمنين، وينصر هؤلاء في يوم ويذيقهم مُرّ الإنتكاسة في يوم آخر... وهكذا يداول بينهم النصر... على أن العاقبة للمؤمنين فقط. وهذه المداولة لا تغيّر مشيئة الله تعالى في أن العاقبة للمتقين.

وإنما يداول الله الأيام بين الناس، ويذيق المؤمنين الشدة والرخاء، ونشوة النصر حيناً ومرارة الهزيمة حيناً آخر، ليتميز الذين آمنوا وصدقوا وثبتوا على الإيمان عن المنافقين وضعاف النفوس وأصحاب النفوس المهزومة.

فإن مسيرة الدعوة لو كانت محفوفة كلّها بالنصر والغنائم دائماً، ومقرونة باليسر والرخاء لتراكمت عليها العناصر المنافقة والعناصر التي تحسن التسلق، الذين يغيبون حين البأس، ويحضرون حين توزيع الغنائم، وتطول ألسنتهم في المطالبة بالغنائم والحصص.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾(١).

إنّ مسيرة الدعوة لو كانت تخلوا من المكاره ومرارة الانتكاسات لتجمعت حولها هذه الطائفة من المنافقين، وضعفاء النفوس، واحتلوا منها المواقع الحساسة. وإذا ما تولت هذه الطائفة أُمور الدعوة والمسيرة تعطل دورها القيادي في حياة الناس، وفقدت الدعوة قدرتها على التغيير والقيادة، وتحولت الدعوة من طريق ذات الشوكة في مواجهة الطاغوت إلى مسيرة مترفة عامرة باللذات ومتع الحياة، وفقدت كل إمكاناتها على العمل والتغيير والحركة. كما حصل في أيام بني أُمية وبني العباس.

فلابدّ في هذه المسيرة بين حين وآخر من انتفاضة قوية تطرد المنافقين وضعفاء النفوس عن موكب هذه الدعوة، وتستخلص المؤمنين الأقوياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا لله في عملهم.

فليست مسيرة هذه الدعوة كسائر ما يألفه الناس من مسيرات الأنظمة والحكومات التي تطلب الحياة الوديعة المترفة والعافية والابتعاد عن المنغّصات.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

وما يضر هذه الدعوة شيء كما تضرها الحياة الوديعة والترف والبذخ... عندئذ تفقد الدعوة أهم ميزاتها وخصائصها وقد جعل الله تعالى أيام البأساء والضراء سبباً لتنقية جو الدعوة من أمثال هؤلاء من ضعفاء النفوس، الذي ينزعون إلى الحياة المترفة الوادعة.

فإذا تعرضت هذه المسيرة للبأساء والضراء والإنتكاسات صفى جوّ الدعوة للمؤمنين، وخلصت المسيرة للصفوة الصادقة منهم وتميز المؤمنون عن غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وليس هذا فقط فائدة تداول الأيام وتناوب النصر والهزيمة والشدة والرخاء على المؤمنين، وإنّما لكي يتخذ الله منهم شهداء وقدوات وأئمة في الأرض أيضاً.

فمن خلال هذه المعاناة، ومن خلال مرارة الإنتكاسات وقروح الحروب، وآلام المواجهة تتكون في هذه الأمة شهداء ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1]... وقدوات وأئمة وأمثلة في الثبات والصبر والإيمان.

إنّ النماذج الإيمانية الفريدة في تاريخ البشرية لا تتكون في الحياة الهادئة الوديعة المترفة، وإنما تتكون في زحام متاعب الحياة، وفي وسط متاعب العمل، وبين الدماء والدموع.

ولابد للمسيرة من هذه النماذج الفريدة في الإيمان والثبات، وهذه النماذج يتخذها الله تعالى ويختارها في ظروف المحنة والتداول ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

ثمّ لهذا التداول فائدة ثالثة في تكوين هذه الأُمة وتقويم شخصيتها، وهي أن هذه القروح والآلام والمتاعب تمحّص المؤمنين وتزكّيهم وتطهر قلوبهم من ريب الشك، ومن سلطان الأهواء وتخلص نفوسهم من نقاط الضعف، فلرب إنسان مؤمن تخفى عليه نقاط الضعف والوهن في نفسه، فيكتشف نقاط الضعف في نفسه ساعات المحنة، فيصلحها.

ولرب ضعف في نفس الإنسان لا يستطيع أن يسده الإنسان ويصلحه في أيام العافية، وإنّما تصلحه الشدة والمعاناة. فإن المعاناة والشدة كما تصفّي صفوف المؤمنين من المنافقين، كذلك تصفّي نفوس المؤمنين من نقاط الضعف والوهن والشك، وتمحّص المؤمنين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

أما بالنسبة إلى الكافرين فإن المعاناة والمحنة تمحقهم وتهلكهم وتبيدهم، فلا يستطيع أُولئك أن يقاوموا المعاناة والمحنة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وبعد: فليس من الصحيح أن نتصور أن كل من شهد هاتين الشهادتين وأسلم، وآمن بالله ورسوله يدخل الجنة، فإن في الناس منافقين، لا تتجاوز الشهادتان ألسنتهم، ولا تستقر في قلوبهم.

والمؤمنون درجات ومراتب في إيمانهم، فليس كلهم بمستوى واحد من الإيمان والعمل الصالح.

فهناك المؤمنون الذين يؤثرون العافية على الجهاد والقتال في سبيل الله.

وهناك المؤمنون المجاهدون.

وهناك المؤمنون المجاهدون الصابرون.

ومن الخطأ أن نتصوّر أنّ هؤلاء جميعاً في الجنة في درجة واحدة. فلكلّ درجته ورتبته ومكانته عند الله. وهذه المرتبة والمكانة تتحدد في ظروف المحنة فقط، حيث يتميز المؤمن عن المنافق، ويتميز المجاهدون عن غيرهم من المؤمنين، ويتميز الصابرون عن غيرهم من المجاهدين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٦ ـ وهذه الثورة المباركة بداية انعطاف كبير في تاريخ وحضارة الإنسان، وأمر ذو بال وذو خطر كبير في حياة الإنسان ومستقبله. والذي يستقرئ الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيته لا يشك في أنّ هذه الثورة بخصائصها البارزة وقيادتها سوف تمهد للانقلاب الكوني الكبير في تاريخ الإنسان ولظهور الإمام المهدي من آل محمّد عليه السلام.

وان اليوم الموعود الذي وعدنا الله تعالى ورسوله لقيام دولة الإسلام الكبرى، وتمكين المستضعفين من الأرض وقيام الإمام المهدي بثورته الكبرى في الأرض لقريب إن شاء الله، وأن هذه الثورة توطئ الأرض لتلك الثورة الكبرى، وتمهّد الأُمة لظهور القائم من آل محمّد عليه السلام وقيامه، وفيما يلي ننقل أضمامة من هذه الروايات:

عن عبد الله بن مسعود قال: أتينا رسول الله، فخرج إلينا مستبشراً، يعرف السرور في

وجهه، فما سألناه عن شيء إلّا أخبرنا به، ولا سكتنا إلّا ابتدأنا، حتّى مرّت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين عليهما السلام فلمّا رآهم إلتزمهم وانهملت عيناه فقلنا: يا رسول الله، ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه، فقال:

«إنا أهل بيت، اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد حتّى ترتفع رايات سود في المشرق، فيسألون الحقّ فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه فيقاتلون فينتصرون، فمن أدركه منكم أو من أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج، فإنها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي يواطئ اسمُه اسمي واسم أبيه اسم أبي فيملك الأرض فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»(١).

وروى المجلسي في بحار الأنوار عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «كأنّي بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحقّ فلا يعطونه ثمّ يطلبونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتّى يقوموا، ولا يدفعونها إلّا إلى صاحبكم (أي المهدي عليه السلام) قتلاهم شهداء، أما إني لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»(٢).

وروى المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار عن بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً إذ قرأ هذه الآية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾(٣) فقلنا: جعلنا فداك! من هؤلاء، فقال ثلاث مرات: هم والله أهل قم، هم والله أهل قم، هم والله أهل قم(٤).

وروي في بحار الأنوار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «رجل من أهل قم يدعوا الناس إلى الحقّ، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولا يملون من الحرب ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين»(٥).

وروي في البحار عن علي بن ميمون الصائغ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «وسيأتي

(١) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٦٤.

(٢) بحار الأنوار ٥١: ٨٣، و٥٢: ٤٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥.

(٤) بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦.

(٥) بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦، ٤٤٦.

زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على أهل الخلائق وذلك في زمان غيبة قائمنا إلى ظهوره، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها»[١].

وروي بأسانيد أُخرى أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام: يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدناً للعلم والفضل حتّى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتّى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهلها قائمين مقام الحجة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها ولم يبق في الأرض حجة فيفيض العلم منها إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب فتتم حجة الله على الخلق حتّى لا يبقى أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم، ثمّ يظهر القائم ويصير سبباً لنقمة الله وسخطه على العباد لأن الله لا ينتقم من العباد إلّا بعد إنكارهم حجته».

وقال الزمخشري صاحب تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[٢] قال: وسئل رسول الله عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه، وقال: هذا وقومه. والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من أهل فارس[٣].

هذه أضمامة من الروايات تشير إلى استمرارية هذه الثورة المباركة حتّى ظهور الإمام المهدي من آل محمّد صلى الله عليه وآله إن شاء الله ولظهور وقيام الإمام عليه السلام وتوطئ له الأرض[٤].

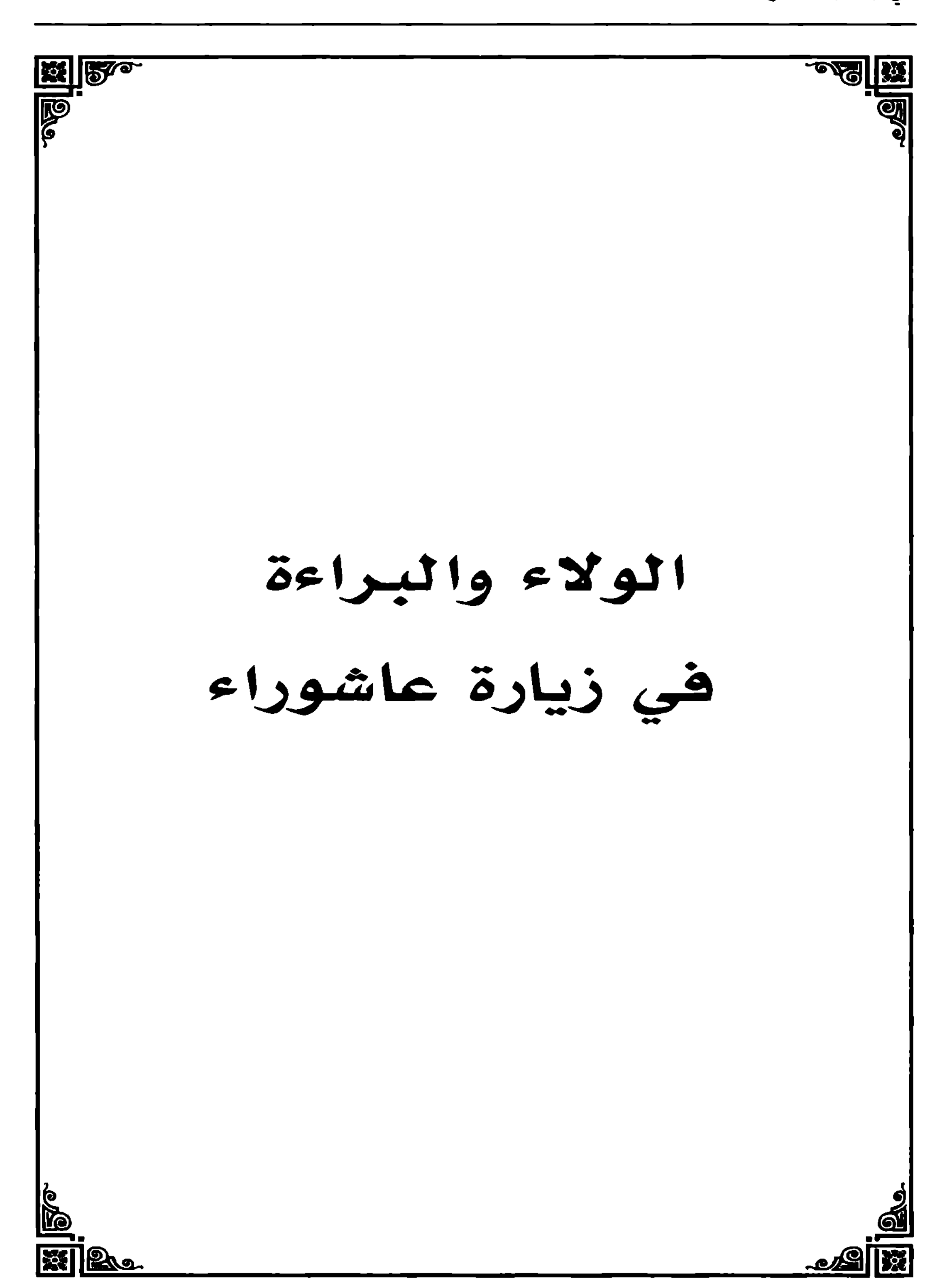
---

(١) بحار الأنوار ٦٠: ٢١٣.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.

(٣) تفسير الكشاف ٤: ٣٣١.

(٤) نحيل القارئ في شرح وتحليل هذه الروايات وتطابقها مع ظروف الثورة الإسلامية المباركة في يومنا الحاضر والقرائن والشواهد المؤيدة لذلك إلى كتاب (الممهدين للمهدي عليه السلام) للشيخ علي الكوراني.



الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

زيارة عاشوراء، من الزيارات الصحيحة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام وقد رواها (ابن قولويه) في كامل الزيارات بسند معتبر، كما التزم بذلك رحمه الله في كل ما يرويه في هذا الكتاب، كما رواها الشيخ الطوسي رحمه الله وغيرهم من ثقاة المحدثين[١].

وقد دأب المؤمنون على المواظبة على قراءة هذه الزيارة على امتداد السنة، يعلنون بها انتماءهم إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومقاطعتهم لأعدائهم والناصبين لهم الحرب، ويشهرون بها ولاءهم للحسين عليه السلام وأهل بيته، والبراءة من أعدائهم في المعركة الفاصلة التي حصلت بين الحسين عليه السلام وأهل بيته من جانب وبني أُمية من جانب آخر في سنة (٦١هـ) بكربلاء.

وهذه الزيارة حافلة بمفاهيم الولاء والبراءة، والانتماء والمقاطعة، والسلام واللعن.

وبين يدي القارئ مقالاً موجزاً يتضمن مجموعة من الأفكار حول (الولاء والبراءة) في هذه الزيارة.

الولاء والبراءة أبرز خصائص يوم عاشوراء

يوم عاشوراء يوم حافل بالإيمان والإخلاص والعطاء والقيم. ولكن أبرز خصائص هذا اليوم هو الولاء لله ولرسوله وأُولي الأمر، والبراءة من أعدائهم.

ويتجلّى هذا الولاء والبراءة في التضحية النادرة التي قام بها أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء. فقد شهدت كربلاء أروع مشاهد التضحية والعطاء والصمود والمقاومة في التاريخ، وهذه التضحية النادرة من ثمرات الولاء والبراءة.

ونجد في هذا المشهد النادر والعجيب من مشاهد الولاء والبراءة مشاهد جمالية نادرة في

---

(١) كامل الزيارات: ٣٢٩، وعنه بحار الأنوار ٩٨: ٢٩٣ ـ ٢٩٩. مصباح المتهجد: ٧١٣ ـ ٧١٨، مصباح الكفعمي: ٤٨٢ ـ ٤٨٥، مزار الشهيد الأول: ١٨٠، مزار ابن المشهدي: ٤٨١، مفاتيح الجنان للقمي: ٥٥٥.

القيم والأخلاق، هي التي شدّت الناس إلى عاشوراء منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً إلى اليوم، من الإيمان، والتوحيد، والإخلاص، والإيثار، والعطاء، والعبر، والمقاومة، والحب لله وفي الله، والبغض في الله، والزهد عن الدنيا، والإقبال على الله، والوفاء، وعزة النفس، والقوة، والشجاعة، والصراحة والوضوح، والذكر، والشكر، والتقوى، وبعد النظر، ونفاذ البصيرة، وما لست أعلم من المشاهد الجمالية، وروائع الأخلاق، والقيم التي عرفها التاريخ لهذه الكوكبة المباركة التي رافقت الحسين عليه السلام في مسيره إلى الله يوم عاشوراء. وقبل هذا اليوم.

وهذه المشاهد الجمالية هي التي شدّت الناس إلى هذا اليوم العجيب في التاريخ، والجمال يجذب الإنسان أينما يكون في الطبيعة أم في المجتمع، وفي الصور والأشكال، أم في القيم والأخلاق والمعاني.

ومن عجب أننا نجد الولاء والبراءة أيضاً في المعسكر المقابل لمعسكر الحسين عليه السلام، ولكن في الاتجاه المعاكس تماماً: الولاء للطاغوت والبراءة من أولياء الله، والولاء لحزب الشيطان والبراءة من حزب الله.

وعندما ينعكس الولاء والبراءة تنعكس القيم والأخلاق أيضاً، وهذه من سنن الله، كما أن تلك من سنن الله. فنشهد في هذا المعسكر المقاتل للحسين عليه السلام.

الغفلة عن الله في مقابل الذكر.

والإقبال على الدنيا والاستغراق فيها، مقابل الزهد.

والشرك في مقابل التوحيد.

والاثرة مقابل الإيثار.

والجبن مقابل الشجاعة.

والضعف مقابل القوّة.

والكفر مقابل الشكر.

والفجور مقابل التقوى.

وحب أعداء الله وبغض أولياءه، مقابل الحب لله وفي الله والبغض في الله.

والأنانية في مقابل الإيثار.

واللؤم مقابل العطاء.

والذل مقابل العزّة والكرامة.

والجزع مقابل الصبر.

وغير ذلك من أضداد القيم في هذا المعسكر مقابل القيم التي يزخر بها معسكر الحسين عليه السلام.

في المعسكر الأوّل يرفع أبو الفضل العباس عليه السلام في المعركة هذا الشعار بعد أن قطعوا يمينه في ساحة القتال:

والله إن قطعتموا يميني إنّي أُحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين

وفي المعسكر الثاني نقرأ أن الذي قتل الحسين عليه السلام لما قابل ابن زياد قال له مطالباً بالجائزة.

أوقر ركابي فضة أو ذهبا إنّي قتلت السيد المهذبا
قتلت خير الناس أُماً وأبا وخيرهم إذ يذكرون نسبا[1]

وهذان الولاءان المتعاكسان، والبراءتان المتعاكستان والتي نجدها يوم عاشوراء في كربلاء في المعسكرين المتقابلين نجدها في امتداد التاريخ، في أنصار الحسين وأنصار بني أمية.

فنقرأ في التاريخ أن أُناساً كانوا يتحملون ألوان العذاب والاضطهاد ومشاق السفر ليزوروا قبر الحسين عليه السلام وآخرين كانوا يكربون موضع القبر ويحرثونه ويزرعونه ويروون الأرض بالماء ليضيّعوا معالم مرقد الحسين وكانوا يقتلون زوّار الحسين عليه السلام، ويقطعون أيديهم ليصدوا الناس ويردعوهم عن زيارة الحسين عليه السلام.

لقد حفلت ساحة الطف يوم عاشوراء بمشاهد الولاء والبراءة في كل من المعسكرين، في اتجاهين متعاكسين ومتقاطعين، وحفلت بالقيم وأضداد القيم، التي يفرزها الولاء والبراءة في هذا المعسكر وذاك، وشطرت الناس منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم إلى شطرين من الولاء والبراءة.

---

(١) مرآة الجنان لليافعي ١ : ١٣٢.

الخصائص الثلاثة لساحة الطف

ومن أبرز خصائص هذه الساحة في الولاء والبراءة ثلاث خصائص:

فهي الساحة الوارثة للولاء والبراءة، ولم يكن الولاء والبراءة في هذه الساحة أمراً جديداً، وإنما ورثتها هذه الساحة من ساحات الصراع الطويل بين الأنبياء وأتباعهم من جانب، والطغاة من جانب آخر.

وهي الساحة الفاصلة التي شطرت الناس من سنة (٦١ هـ) إلى اليوم إلى شطرين متمايزين متعاكسين في الولاء والبراءة.

وهي الساحة المورِّثة التي ورثنا منها الولاء والبراءة، ولولا هذا الميراث الذي تلقيناه من كربلاء، لم يسلم لنا الولاء والبراءة، فقد أفسد بنو أُمية (حكومة الطلقاء) على الناس الولاء والبراءة، كما أفسدوا عليهم كثيراً من أُصول دينهم ومعالمه وأحكامه، وسلبوا منهم ولاءهم وبراءتهم وحرّفوهما عن مجاريهما، فوضعهما الحسين بمصرعه ومصرع الفتية من أهل بيته وأصحابه في مواضعهما. وإليك توضيحاً وتفصيلاً لهذه النقاط الثلاثة:

١ ـ الساحة الوارثة

ساحة الطف ساحة الصراع بين الحقّ والباطل، والتوحيد والشرك، والدعوة إلى عبودية الله والتسليم له، والدعوة إلى الطاغوت وتحكيمه على رقاب الناس وتعبيد الناس له. وهذا الصراع من أضرى ألوان الصراع في التاريخ، وأكثرها شراسة؛ وذلك لأنه صراع على الولاء والبراءة. بين الولاء لله، والبراءة من الطاغوت من جانب، والولاء للطاغوت من جانب آخر، ولم يكن هذا الصراع حدثاً جديداً في التاريخ، حدث في كربلاء سنة (٦١ هـ)، وإنما كان امتداداً للصراع الحضاري حول محوري الولاء والبراءة بين الأنبياء وأتباعهم من جانب، والطغاة والسلاطين ومن يحفُّ بهم من الملأ من جانب آخر.

فقد كان الحسين عليه السلام على خط الأنبياء وأتباعهم، وكان بنو أُمية وأعوانهم وعمّالهم على خط الجبابرة والطغاة والسلاطين.

يقول أرباب السِيَر: كان الإمام الحسين عليه السلام يردّد في خروجه من المدينة ذِكر يحيى بن زكريا كثيراً وقتله.

وكانت القيم التي تميز بها معسكر الحسين في كربلاء هي نفس القيم والسنن التي تميز بها معسكر الأنبياء في التاريخ، من التوحيد، والإخلاص، والإعراض عن الدنيا وزهوها،

والاستقامة، والتضحية في سبيل الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الظالمين والذِكر، والتقوى، والبر، والمعروف.

وكانت الخصال التي يتميز بها معسكر بني أُمية في كربلاء هي نفس الخصال والسنن التي كان يتصف بها معسكر الظالمين والجبابرة والطغاة في التاريخ.

لقد قضى أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دويّ كدويّ النحل، بين قائم وقاعد وراكع وساجد[١].

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله أن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيض القواضب إنّهم أحرار[٢]

تقول فاطمة بنت الحسين: «وأما عمتي زينب فإنّها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها، والله، فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنّة»[٣].

كذلك كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام: الشوق إلى لقاء الله، والإعراض عن الدنيا وزخرفها، والانقطاع عن الدنيا إلى الله، والاستبشار بما يلقون من الشهادة في سبيل الله، حتّى لقد كان بعضهم يداعب أصحابه ويمازحهم في الليلة العاشرة. فقد هازل برير عبد الرحمن الأنصاري رحمه الله. فقال له عبد الرحمن: ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين، إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة[٤].

والطرف الآخر في هذه المعركة كان همّه ما يصيب من الذهب والفضة والإمارة والجائزة في قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد تولى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملّكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي وفيه يقول:

أأترك ملك الري والري بغيتي ... أو أرجع مأثوماً بقتلِ حسين

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٢٣٨.
(٢) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة له يرثي بها الحسين عليه السلام.
(٣) مثير الأحزان: ٥٦.
(٤) تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

ثمّ يقول: وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة والفاسقين وحمله إلى ابن زياد ودخل به عليه وهو يقول:

أوقر ركابي فضّة أو ذهبا إنّي قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أُماً وأبا وخيرهم إذ يذكرون نسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال له: إذا علمت أنه كذلك فَلِمَ قتلته؟ والله لا سلمت مني خيراً أبداً[1].

ويتبجح الأخنس بن مرثد الخضرمي في رضّه للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره ويقول كما يروي الخوارزمي:

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر حتّى عصينا الله رب الأمر
بكل يعبوب شديد الأسر بصنعنا مع الحسين الطهر[2]

لقد كان همّ الحسين وأصحابه في كربلاء مرضاة الله ولقاء الله، وكان هم جند ابن زياد، ما يدفع لهم الأمير من الجائزة والإمارة والذهب والفضة.

هذان سلوكان، وثقافتان، ومنهجان في الحياة، وأُسلوبان في العمل وسنّتان، وهما متميزان على امتداد تاريخ الصراع بين حزب الله وحزب الطاغوت.

ورغم أن مرور الزمن يغيّر ملامح وأشكال المناهج والأساليب والسنن، ولكن يبقى جوهر هاتين السنتين والثقافتين والمنهجين واحداً.

وهاتان السنّتان هما سُنّة أولياء الله ومناهجهم وسنّة أولياء الطاغوت ومناهجهم.

ونحن نجد بوضوح هذا الفارق العظيم بين هذين المنهجين والثقافتين والسنّتين في ساحة كربلاء في مواجهة هذين المعسكرين، على فاصل بضعة أمتار عن بعض.

نقرأ في زيارة أميرالمؤمنين عليه السلام المعروفة بـ (زيارة أمين الله): «فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك، مستنّة بسنن أوليائك، مفارقة لأخلاق أعدائك».

سنّتان، ومنهجان، ونحن نسأل الله تعالى أن يرزقنا سنن أولياءه في الحياة، ويفارق بيننا وبين سنن أعدائه.

---

(١) أُنظر مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للخطيب الخوارزمي ٢: ٣٩.

لقد كانت ساحة الطف امتداداً لساحة الصراع في تاريخ الأنبياء من قبل، وكان الحسين عليه السلام على مواقع الأنبياء والأوصياء وأولياء الله، وكان بنو أُمية (حكومة الطلقاء) على مواقع السلاطين والجبابرة في التاريخ.

وقد كان الولاء والبراءة في صف الحسين عليه السلام نفس الولاء والبراءة في صفوف الأنبياء عليهم السلام، وتلقّت العصبة المؤمنة التي وقفت مع الحسين عليه السلام يوم عاشوراء في ساحة الطف مواريث الأنبياء عليهم السلام في التوحيد، والعدل، والدعوة إلى الله، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والدعوة إلى القيم، ومكافحة أضداد القيم، والتضحية، والعطاء، والصبر، والاستقامة، والعزم، والإرادة.. وما لا أستطيع إحصائه من القيم التي تجمعت في هذه الساحة عند الحسين عليه السلام وأنصاره من مواريث الأنبياء عليهم السلام على امتداد التاريخ.

وبطبيعة الحال تتجدد هذه القيم وتتأصل كلما ينتقل من جيل إلى جيل، وتزداد صلابة وقوة وعمقاً.

وهكذا نجد أن الولاء والبراءة وما يتضمنانه من القيم تكسب كل أصالة واستحكام الولاء والبراءة وقيم الولاء والبراءة في تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

ولأمر ما، ورد السلام على الحسين عليه السلام في زيارة وارث بهذه الصيغة العجيبة المعبرة عن موقع الحسين عليه السلام في كربلاء، وهي صيغة وراثة الأنبياء:

السلام على وارث آدم صفوة الله

السلام على وارث نوح نبي الله

السلام على وارث إبراهيم خليل الله

السلام على وارث موسى كليم الله

السلام على وارث عيسى روح الله

السلام على وارث محمّد حبيب الله

٢ ـ الساحة الفاصلة

لقد كان يوم عاشوراء يوماً من أيام الفرقان في التاريخ، وأعظم أيام الفرقان في هذه الأُمة (بدر) و(صفين) و(الطف).

يقول الله تعالى عن يوم بدر: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[1].

وأيام الفرقان تشطر الناس، في حوزة الصراع شطرين، ولا تستثني أحداً في هذه الساحة، فقد كان الناس يومئذ على وضوح كامل وبيّنة كاملة من أمر الحقّ والباطل والهدى والضلال في هذا الصراع، ولم يكن ليلتبس الأمر على أحد في الساحة التي عاصرت هذا الصراع وكان الأمر في هذه المعركة أوضح وأجلى من أن يتمكن إعلام بني أُمية من تلبيسه وتضبيبه.

وقد ضل من ضل يومئذ عن علم وبيّنة، ولم يضل أحد عن التباس الحقّ بالباطل.

وقف الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين الصَفين وخاطب الجيش الأُموي، فقال:

«أيها الناس، أنبئوني من أنا؟ ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه، وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عمّي؟ أوليس جعفر الطيار عمّي؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة[2]؟ فإن صدقتموني بما أقول وهو الحقّ، فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه.

وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي».

فقال شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) رواه المجلسي في البحار٤٣: ٣٠٣ وابن عساكر في ترجمة الحسن عليه السلام: ٧٨ عن ابن عمر قال: قال النبي (ابني هذين سيدا شباب أهل الجنة)، وفي كنز العمال ١٢: ١١٢ ح٣٤٢٤٧ عن ابن عساكر عن علي وابن عمر ولفظ الحديث (ابناي هذان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما). ورواه الصدوق في عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٣: ٥٦، والخطيب البغدادي في تاريخه ١: ١٤٠، والحاكم في المستدرك٣: ١٦٧ وأخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن تحت رقم ١١٨.

فقال له حبيب بن مظاهر: (والله أني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً. وأنا أشهد أنك صادقٌ ما تدري ما يقول، وقد طبع الله على قلبك)[١].

وقال الحسين عليه السلام للوليد عامل يزيد على المدينة، لما أراد أن يجبر الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد والرضوخ له:

«يا أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، معلن الفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[٢].

ووضوح الحقّ والباطل، والهدى والضلال، في هذه الساحة شَطَرَ الساحة يومئذ إلى شطرين كاملين، في الولاء والبراءة.

فمن وقف مع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه كان ولاؤه لله ولرسوله ولأئمة المسلمين من بعده، وبراءته من يزيد وعمّاله وجلاوزته والملأ الذي يحف به من حكومة (الطلقاء).

ومن لم يقف مع الحسين عليه السلام يومئذ فولاؤه ليزيد وبراءته من حزب الله الشرفاء ولا نقبل من أحد عذر في اللبس والجهل. ولا يقبل من أحد عذر أن يقف موقف المتفرج، الذي لا يبالي ماذا يحدث في الساحة.

فمن عرف استغاثة الحسين عليه السلام لنصرة دين الله، ومن سمع واعية الحسين عليه السلام، ثمّ لم يقف مع الحسين عليه السلام، ولم يغضب له، ولم يحزن له، ولم يحاول أن يذب عنه، فقد كان راضياً بفعل القوم، ويدخل بالضرورة في حوزة اللعن والبراءة.

ولقد نقرأ في زيارة وارث:

لعن الله أُمة قتلتك...

ولعن الله أُمة ظلمتك...

ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به...

وهذه من خصائص أيام الفرقان في التاريخ يفصل بين الناس فصلاً كاملاً.

والمعيار الفاصل في هذا الفصل هو الولاء والبراءة، يقسم الناس إلى معسكرين، حول محور الولاء والبراءة، ويرفض المتفرجين، الذين يقفون على هامش الساحة، إيثاراً للعافية.

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٢٣.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرم: ١٢٧ ط. النجف.

وقد يتصور هؤلاء المتفرجون في ساحات الصراع عندما يحتدم، أنّهم يسلمون بدينهم، إذا تجنّبوا الوقوف مع كل من المعسكرين، ولا يعلمون أنهم يدخلون الفتنة من أوسع أبوابها!

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾(١).

فمن يشهد حقاً وباطلاً في صراع محتدم، ثمّ لا يقف مع الحقّ، فقد وقف مع الباطل لا محالة، شاء أم لم يشأ.

لقد كانت المعركة يوم عاشوراء فاصلة، شطرت الناس إلى شطرين، ومحور هذا الانشطار الولاء والبراءة.

ورحم الله زهير بن القين، فلقد كان ملء إهابه الوعي والبصيرة يوم خرج إليهم على فرس ذنوب له، وهو شاك في السلاح، فقال:

«يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار. إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف، انقطعت العصمة وكنا أُمة، وأنتم أُمة. إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيّه محمّد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، أنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلّا السوء عمر سلطانهما ليسملا أعينكم، ويقطعا أيديكم وأرجلكم، ويمثلا بكم، ويرفعاكم على جذوع النخل، ويقتلا أماثلكم، وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه».

فسبّوه، وأثنوا على عبيدالله بن زياد، وقالوا: لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى عبيدالله بن زياد مسلّماً.

فقال زهير: عباد الله إن ولد فاطمة أحقّ بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم، فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فلعمري انه يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

فرماه الشمر بسهم، وقال: اسكت، اسكت الله نأمتك. أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال زهير: يا بن البوال على عقبيه ما إياك أُخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنّك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

ثمّ أقبل على القوم رافعاً صوته، وقال:

عباد الله لا يغرنّكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد ﷺ قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم.

فناداه رجل من أصحابه؛ إنّ أبا عبدالله يقول لك: أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ[1].

٣ ـ الساحة المورّثة

وقد ورثنا نحن (الولاء والبراءة) من ساحة الطف يوم عاشوراء، ولولا عاشوراء، لم نعرف نحن من الولاء والبراءة إلّا الولاء للحكام والسلاطين كيف ما كانوا، والبراءة من أعدائهم، مهما كانوا إذ أن الولاء كان لمن بيده السوط وإن جار، والولاء عمن خرج عليه، وإن كان يدعو إلى الله ورسوله.

فقد أفسد بنو أُمية على الناس الولاء والبراءة، والإفساد والتخريب في الولاء والبراءة يعني الإفساد والتخريب في كل شيء في هذه الأمة، وما الأمة في أصح تعاريفها إلّا الولاء والبراءة، وقد عرف بنو أُمية هذه الحقيقة جيداً، وعرفوا كيف يكون السطو على هذين العمودين في كيان الأُمة.

ورحم الله الفرزدق، لمّا سأله الإمام عندما التقاه في الطريق، عن الناس من خلفه، قال له الفرزدق: على الخبير سقطت، قلوبهم معك وسيوفهم عليك.

وهذه نقطة البداية، في تخريب الولاء والبراءة، وبعد هذه النقطة ينتقل الإفساد والتخريب من السيوف والمواقف، إلى القلوب والحب والبغض، وهو كل شيء في الولاء والبراءة.

لقد عمد بنو أُمية (حكومة الطلقاء) إلى أهم شيء في كيان الأُمة، وهو الولاء والبراءة، فأفسدوهما وسلبوهما من الناس، ولكي يفسدوا على الناس الولاء والبراءة، كان لابد لهم أن يسلبوا الناس (وعيهم)، و(إرادتهم)، و(مقاومتهم) وعندما يفقد الناس هذه الثلاثة لا يبقى منهم إلّا الزبد والرغوة.

وقصة هذا السطو طويلة، لا يسعنا هنا تفصيلها وقد فصلناها في كتاب (وارث الأنبياء)، الجزء الأول من هذا الكتاب.

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

لقد واجه الحسين عليه السلام هذا الواقع المؤلم المؤسف، حيث يقول ـ وهو يصور مأساة المسلمين في ذلك العصر كلاماً كله حسرة وألم ـ :

«إن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش، كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه»[1].

فلم يجد الحسين عليه السلام بداً أن يخرج لقتال الطاغية بنفسه وأهل بيته، وأصحابه، وان قلّوا. وحقق بمصرعه المفجع أعظم مكسبين للإسلام والمسلمين، وهما:

- **إعادة الوعي والإرادة السلبية والمقاومة إلى نفوس المسلمين.**
- **سلب الشرعية عن حكومة بني أُمية.**

لقد أحدث مصرع الحسين عليه السلام والكوكبة المباركة من أهل بيته وأصحابه هزّة عميقة في نفوس المسلمين الخاملة يومئذ، الذين تركوا الحسين عليه السلام وحده مع فئة صغيرة من أهل بيته وأصحابه، وأقبلوا يتفرجون على المعركة الرهيبة التي دارت رحاها في كربلاء بين الحسين عليه السلام والطاغية، دون أن يحرّكوا ساكناً.

لقد هزّ مصرع الحسين عليه السلام بتلك الصورة المفجعة ضمائر المسلمين التي عطّلها بنو أُمية هزّة قوية عنيفة، وأعاد إلى نفوسهم ما سلبهم بنو أُمية من إرادتهم ووعيهم ومقاومتهم، وهذا هو أعظم المكسبين.

والمكسب الآخر: أن الحسين عليه السلام سلب بمصرعه شرعية حكومة بني أُمية، فقد كان بنو أُمية يحكمون المسلمون من موقع خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانوا يكسبون شرعية الحكم من هذا الموقع، وكانوا يحرفون أحكام هذا الدين وقيمه وأُصوله من خلال هذا الموقع بالذات.

فلمّا خرج الحسين عليه السلام لقتال الطاغية، وسقط شهيداً على يد جلاوزة بني أُمية عرف الناس أن رسول الله ودينه وأُمته براء من بني أُمية.

واستمر بنو أُمية في الحكم، بعد مصرع الحسين عليه السلام، ولكن كأي أُسرة حاكمة من الحكّام والسلاطين الزمنيين، وما عادوا يمثلون خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله في نفوس المسلمين.

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٥٠، مناقب آل أبي طالب ٤: ٦٨ ومصادر أخرى للخاصة. وبتفاوت في المعجم الكبير ٣: ١١٥، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢١٧ وغيرها من مصادر العامة.

وعرف المسلمون منذ ذلك التاريخ خطين مختلفين: خط الفقهاء، وخط الحكّام.

وكان خط الفقهاء لدى المسلمين هو الخط الشرعي، ما لم يقفوا على أبواب الحكّام.

هذا في حوزة أهل السنّة من المسلمين، وأما في مساحة أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، فقد كان الأمر أوضح من ذلك وأجلى.

ولولا مصرع الحسين عليه السلام، لم يعرف الناس الدين إلّا من خلال قصور (حكومة الطلقاء) من بني أُمية، الحافلة بالترف، والبذخ، واللهو الحرام، والطرب، والظلم، والفتك، والسكر.

ولو لم يحدث الذي حدث من مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته لما بقي من الإسلام إلّا اسمه، وكان الأمر كما قال الحسين عليه السلام لمروان يوم دعاه إلى بيعة يزيد:

«وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمة براع مثل يزيد»[١].

إذن، فإن الحسين عليه السلام حفظ لهذه الأُمة دينها ورسالتها، وولاءها وبراءتها.

ونحن اليوم نرث ما نعرف من الولاء والبراءة من يوم عاشوراء، ولولا عاشوراء، لم نكد نعرف من الولاء والبراءة إلّا ما يعرفه الناس من الولاء للحكام كيفما كانوا، والبراءة من أعدائهم مهما كانوا، الولاء لمن بيده السيف وان جار، والبراءة عمّن خرج عليه، وان كان يدعو إلى الله ورسوله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

المعايشة الوجدانية لمأساة الطف في زيارة عاشوراء

والنص المعروف بـ (زيارة عاشوراء) يجسّد الولاء والبراءة تجسيداً قوياً واضحاً، ويبلور بصراحة ووضوح كل الولاء والبراءة الذي تحفل به ساحة الطف، وكل الولاء والبراءة الذي يستقطبه هذا اليوم العجيب في التاريخ منذ سنة (٦١ هـ).

والذي يقرأ هذا النص المعروف بـ (زيارة عاشوراء) يستشعر بقوّة المعايشة المباشرة لهذا اليوم منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وهو شعور صادق، يعرفه ويلمسه الذين ألفوا قراءة هذا النص وواظبوا عليه. وما أصدق وأدق وأرق هذه المعايشة الوجدانية الشفّافة لمأساة الطف في هذه الكلمات المفجعة الواردة في هذه الزيارة:

«لقد عظمت الرزية، وجلّت وعظمت المصيبة بك علينا وعلى جميع أهل الإسلام،

---

(١) مثير الأحزان: ١٥، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، والعوالم: ١٧٥، ولواعج الأشجان: ٢٦.

وجلّت وعظمت مصيبتك في السموات على جميع أهل السموات... مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام، وفي جميع السموات والأرض».

ولأمر ما ورد التأكيد من أهل البيت عليهم السلام وعلماء مدرستهم في المواظبة على قراءة هذه الزيارة والمواظبة عليها[١].

فإن قراءة هذا النص تجعلنا في أجواء عاشوراء، وتنقل إلينا معاني الولاء والبراءة التي كانت تحفل بها عاشوراء، وتنقل إلينا القيم التي يحفل بها الولاء والبراءة، وتعمق وتجذّر في نفوسنا الولاء والبراءة، فإن الولاء والبراءة يقرّبان البعيد ويبعّدان القريب.

والأفكار التي أدوّنها في هذه المقالة هي مجموعة تأملات حول الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء، لعل الله أن يرزقنا تذوّق الولاء والبراءة، وتذوّق المفاهيم الرفيعة التي تزخر بها هذه الزيارة.

وإليك فيما يلي طائفة من هذه الأفكار والتأملات، مقتبسة منها.

---

(١) الروايات في فضل زيارة أبي عبد الله عليه السلام كثيرة، فإن شئت راجع الكافي ٤ : ٥٨٠، وكامل الزيارات: ١١١ وما بعدها في أكثر من مائة صفحة، والمزار: ٣٧ وما بعدها لشيخنا المفيد، وتهذيب الأحكام ٦ : ٤٢، وبحار الأنوار ١٠١ : ١ ط. إيران، ووسائل الشيعة ١٤ : ٤٠٩، في أكثر من مائة صفحة، ومستدرك الوسائل ١٠ : ٢٢٨ في قريب من مائة صفحة، وجامع أحاديث الشيعة ١٥ : ١٧٩ في مأتي صفحة. وللزيارة المعروفة بـ(زيارة عاشوراء) خصوصية فريدة في زيارات الحسين عليه السلام، وقد أكد أهل البيت على هذه الزيارة وحثوا شيعتهم عليها بما فيها دعاء علقمة والذي يقرأ بعد الزيارة. روي عن صفوان أنه قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: تعاهد هذه الزيارة وادع بهذا الدعاء وزر به فإني ضامن على الله لكل من زار بهذه الزيارة ودعا بهذا الدعاء من قرب أو بعد، أن زيارته مقبولة وسعيه مشكور وسلامه واصل غير محجوب وحاجته مقضية من الله تعالى.

مشاهد الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

(الولاء) و(البراءة) تغطيان كلّ مساحة حياة الإنسان، وكل مساحة الزمان والتاريخ، وكل مساحة المكان و(الجغرافيا).

ولا أعرف حالة تغطي حياة الإنسان مثل هذه الحالة.

والولاء والبراءة، يشطران التاريخ شطرين، شطر أولياء الله، وشطر أعداء الله.

فنحن اليوم نعيش مع إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة المهديين عليهم السلام من بعده من أهل بيته، ونتولاهم ونهتدي بهداهم، كما لو كنا نعيش في عصرهم، ونتمنى أن نكون معهم في الدنيا والآخرة، كما نتبرأ إلى الله من فرعون، وهامان، ونمرود، وأصحاب السبت، وأصحاب الأخدود، وقتلة الأنبياء من بني إسرائيل، ومن أبي سفيان وأبي جهل، ومعاوية ويزيد كما لو كنا في عصورهم.

لا يحجب التاريخ والقرون والعصور ولاءنا من الطائفة الأُولى، ولا براءتنا عن الطائفة الثانية. ومن خصائص الولاء والبراءة أنّهما يخترقان العصور والقرون، ويصلان بين أطراف المسيرة الواحدة عبر العصور.

ونحن اليوم نتفجع لمصاب الحسين عليه السلام ومصرعه في كربلاء، كما لو كان قد حدثت المصيبة المفجعة في حياتنا اليوم.

وكما يخترق الولاء والبراءة (التاريخ)، كذلك يخترق (الجغرافيا). فنحن اليوم نشارك المسلمين في فلسطين وكشمير والبوسنة والشيشان، والباكستان والعراق فيما يلقون من اضطهاد وعذاب على يد أعداء الله، ومن قتل وحرمان كما لو كان ذلك يقع في صفوفنا وداخل عوائلنا.

ونعادي إسرائيل وأمريكا، كما لو كانت إسرائيل وأمريكا يمارسان العدوان على أُسرنا وبيوتنا.

إنّ الولاء والبراءة يقربان البعداء، ويبعدان المتقاربين في المكان.

ولرب أخ يعادي أخاه الشقيق، من أبيه وأُمه، ويوالي ويحن إلى إخوان له من غير أبيه وأُمه، في بقاع نائية من الأرض، لم يشهدهم، ولم يعرف لهم اسماً ولا صورة.

إنّ الولاء والبراءة، يجمع سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) إلى البيت النبوي، ويفصل أبا لهب، ويطرده، ويشجبه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

فالولاء والبراءة يخترقان الزمان والمكان، ويغطيان كل مساحة التاريخ والجغرافيا.

وكذلك الولاء والبراءة يغطّيان كل مساحة حياة الإنسان: داخل نفسه وقلبه، وعقله وثقافته وفي علاقاته الاجتماعية، وحياته السياسية وفي حربه وسلمه، فلا يبقى من حياته، وسلوكه، وشخصه، وفكره، وحبه، وبغضه، وهواه، وما حوله شيء خارج الولاء والبراءة.

وفي زيارة عاشوراء نلتقي مشاهد عجيبة من الولاء والبراءة، تتوّزع على كل جوانب وأبعاد حياة الإنسان.

وإليك نماذج من هذه المشاهد في كلمات هذه الزيارة.

الولاء والبراءة والعداء

وهذا عنوان عريض في المواصلة، والمفاصلة، والانتماء، والقطيعة، والحب والبغض. وقد تكرر ذكره في هذه الزيارة:

«إنّي أتقرب إلى الله بموالاتك، وبالبراءة ممن قاتلك ونصب لك الحرب».

«وولي لمن والاك، وعدو لمن عاداك».

وهذا إعلان صريح في الولاء والبراءة.

وتقابُل الولاء والبراءة، يوضح بشكل دقيق وصريح موقف الجماعة المؤمنة في ساحة الصراع التي امتدت عبر العصور إلى اليوم.

وهو الولاء لآل رسول الله والبراءة من أعدائهم ومعاداتهم، وليس بعد هذا الوضوح وضوح.

السلام واللعن

ويتحول هذا الولاء إلى «سلام» في العلاقات الاجتماعية، كما تتحول البراءة إلى لعن ومقاطعة، ومفاصلة في العلاقات الاجتماعية.

---

(١) سورة المسد، الآية: ١.

جاء في زيارة عاشوراء:

«السلام عليك يا بن رسول الله، السلام عليك يا بن أمير المؤمنين، السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء، لعن الله أُمة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أُمة دفعتكم عن مقامكم، وأزالتكم عن مراتبكم التي رتّبكم الله فيها».

والسلام إعلان للمودة، والمحبة، والتعاون، والتسالم وهو الولاء. واللعن إعلان للمقاطعة، والانفصال، والطرد وهو البراءة.

السلم والحرب

عجيب أمر الولاء والبراءة، يمتدان من النيات، والقلوب، والثقافة والإعلام، والأدب، والشعر، والمساجلات الأدبية إلى ساحة القتال والمواجهة والمقارعة.

ورد في زيارة عاشوراء:

«إني سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة».

ولا ينتهي أمد هذا السلم والحرب حتّى يوم القيامة، حيث يفصل الله تعالى بين الناس.

ولأمر ما هذا التكرار والتأكيد والتثبت.

إن الولاء والبراءة هو جوهر هذا الدين وروحه، ويجب أن يتثبّت منهما المؤمن في كل مساحات حياته، ولاءً وبراءةً، وحرباً وسلماً، وانتماء وقطيعةً، ومن دون ذلك لا يكتمل إيمانه.

المعيّة والمفاصلة

ومن مشاهد الولاء والبراءة في هذه الزيارة (المعيّة) الكاملة في الدنيا والآخرة. ورد في هذه الزيارة:

«فأسأل الله أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة، وأن يثبت لي عندكم قدم صدق...».

والمعية على نحوين: معية صادقة ومعية كاذبة، من قبيل معية صاحب الجنّتين في سورة الكهف لصاحبه المؤمن الذي كان يحاوره، وهذه المعية ليس هي المطلوبة، وإنّما المطلوب المعيّة الصادقة في السرّاء والضرّاء، بأنّ يثبت لنا قدم صدق معهم «وأن يثبت لي عندكم قدم صدق».

وورد أيضاً في نفس الزيارة في الدعاء:

«وثبت لي قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين».

والثبات والصدق هنا عند الله مع الحسين عليه السلام، والفقرة التي ذكرتها من الزيارة تشتمل على كلا الأمرين معاً (عند الله) و(مع الحسين).

ولابد أن يكون كذلك.

فكل قدم صدق (عند الله) لابد أن يكون (مع) عباد الله الصالحين وأولياء الله، وكل قدم صدق (مع أولياء الله) لابد أن يكون (عند الله).

والله تعالى يأمرنا بمعيّة الصادقين من عباده والصالحين في السراء والضراء:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1].

وهذه المعية تحتاج إلى صبر وسعة صدر:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

وهذه المعية، هي معية المسيرة الطويلة الشاقّة في طاعة الله ورسوله، فمن أطاع الله ورسوله كان مع الصالحين من عباد الله، في مسيرة شاقة صعبة على طريق ذات الشوكة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[3].

ونعمت الصحبة هذه الصحبة، ونعمت الرفقة هذه الرفقة ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ وهي معية شاملة في الدنيا والآخرة، وفي الحياة والممات.

فنسأل الله تعالى أن يجعل محيانا محيا محمّد وآل محمّد عليهم السلام، ومماتنا ممات محمّد وآل محمّد عليهم السلام، فنكون معهم في الحياة والممات.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.

ففي زيارة عاشوراء:

«اللهمّ اجعل محياي محيا محمّد وآل محمّد، ومماتي ممات محمّد وآل محمّد».

وهو من غرر الأدعية القصار. فلا حياة أفضل من حياة محمّد وآل محمّد، ولا ممات أفضل من مماتهم، ولا معية أفضل من معية الله ومعية محمّد وآل محمّد ﷺ.

وورد في دعاء القنوت من صلاة عيد الفطر:

«اللهم إنّي اسألك بحق هذا اليوم... أن تصلي على محمّد وآل محمّد، وأن تدخلني في كل خير أدخلت فيه محمّداً وآل محمّد وأن تخرجني من كل سوء أخرجت منه محمّداً وآل محمّد، صلواتك عليه وعليهم أجمعين».

هذه المعية الشاملة للصالحين ولمحمد وآل محمّد ﷺ هي خير ما يطلبه العبد من الله تعالى في دعائه.

وفي مقابل هذه المعية، المفاصلة التامة لأعداء الله ورسوله وأوليائه في أحزانهم وأفراحهم وعاداتهم وتقاليدهم ومجتمعاتهم ومحافلهم وثقافتهم وسننهم وأخلاقهم.

فها نحن نتبرأ في زيارة عاشوراء ممّا كانوا يشعرون به من الفرح والسرور والانشراح لما وجدوا من الظفر بأهل بيت رسول الله ﷺ، ومن مصرع الحسين وأهل بيته، فنفارقهم ونفاصلهم في المشاعر والعواطف والأحاسيس، تأمّلوا:

«اللهمّ أن هذا (يوم عاشوراء) يوم تبركت به بنو أُمية وابن آكلة الأكباد.. وهذا يوم فرحت به آل زياد وآل مروان بقتلهم الحسين صلوات الله عليه... اللهم فضاعف عليهم اللعن منك والعذاب الأليم.

اللّهم إنّي أتقرّب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا، وأيام حياتي بالبراءة منهم واللعنة عليهم وبالموالاة لنبيّك وآل نبيّك عليه و ﷺ».

هذه المفاصلة الكاملة، وتلك المعية الشاملة من مشاهد وآثار البراءة والولاء في حياة الإنسان.

التفجّع والثأر

ومن مشاهد الولاء والبراءة في هذه الزيارة التفجّع بمصاب الحسين ؑ وأهل بيته والدعاء بالتوفيق للثأر والانتقام من أعدائه وقتلته لعنهم الله.

ونتساءل ومن هم قتلة الحسين حتّى نثأر منهم وننتقم؟

فأقول: كل من رضي بمصرع الحسين عليه السلام وسرّه ذلك فهو شريك لقتلة الحسين، أينما وضعه الزمان في عصرنا أم قبل هذا العصر.

وفجيعتنا بمصرع الحسين من آثار الولاء وإفرازاته في حياتنا، ولا يصح الولاء من دون هذه المشاركة العاطفية والوجدانية لأهل البيت عليهم السلام في مصابهم وما حلّ بهم من الظلم على أيدي الظالمين.

تأمّلوا في زيارة عاشوراء:

«لقد عظمت الرزية، وجلّت وعظمت المصيبة بك علينا وعلى جميع أهل الإسلام، وجلّت وعظمت مصيبتك في السماوات على جميع أهل السماوات، مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام، وفي جميع السماوات والأرض».

وقد صحّ في الحديث أن من تفجّع بما أصابهم من المؤمنين رزقه الله تعالى ثواب أصحاب الحسين عليه السلام وحشره الله معهم.

وفي مقابل هذا التفجّع والتأسّف على مصرع الحسين عليه السلام؛ الدعاء بالتوفيق للثأر والانتقام من قتلة الحسين.

وإذا فاتنا أن نقف إلى جنب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء سنة (٦١ هـ) في كربلاء، فلن يفوتنا إن شاء الله الانتقام لدم الحسين عليه السلام وأصحابه، من قتلتهم، ومَنْ على هواهم.

تأملوا في زيارة عاشوراء:

«فأسأل الله الذي أكرم مقامك، وأكرمني بك أن يرزقني طلب ثارك مع إمام منصور من أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله».

«وأسأله أن يرزقني طلب ثأرك مع إمام منصور».

ولربما تسأل وأين نجد قتلة الحسين والظالمين له لنثأر للحسين عليه السلام، وننتقم منهم؟

ونترك الجواب للقرآن، ففي القرآن نور وبصائر:

يقول تعالى في اليهود الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وطالبوه أن يأتي لهم بقربان تأكله النار حتّى يؤمنوا به، يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

ولا شكّ أنّ اليهود لم يقتلوا نبياً في عصر رسول الله ﷺ قط، فكيف نسب الله تعالى إليهم قتل الأنبياء ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟

والجواب على ذلك أنّ هؤلاء رضوا بفعل أسلافهم، فحسب الله تعالى عليهم جرائم أسلافهم، وأدانهم بها، وسوف نتحدث عن هذه النقطة لدى الحديث عن تعميمات الولاء والبراءة إن شاء الله.

وعلى هذا النهج القرآني فكل ظالم، وقاتل، ومجرم، من طغاة الأرض، سرّه مصرع الحسين، فهو شريك لقتلة الحسين عليه السلام في قتلهم وحربهم للحسين عليه السلام.

الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة

الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة، وقيمة الولاء بالبراءة، فإن الولاء من دون البراءة لا يكلّف الإنسان شيئاً، ولا يشقّ على الإنسان إن يشمل جميع الأطراف المتصارعة بالمجاملة والمداراة والتظاهر بالمودّة والحب، فيكسب ودّ الجميع واحترامهم، ويوفّر على نفسه معاناة المواجهة.

ولكن ذلك لا يزيد على المجاملة والتظاهر بالمودة والحبّ، ولا يمكن أن يكون من الولاء في شيء، فإن الولاء انتماء، وليس مجاملة ولا تظاهراً بالمودّة والحب، والإنتماء لا يكون من دون الانفصال عن الجهة المقابلة، وليس يمكن تحقيق الانتماء في جبهات الصراع من دون انفصال.

جاء رجل إلى الإمام علي عليه السلام فقال لـه: إنّي أُحبك وأُحب خصومك. فقال عليه السلام: «أمّا الآن فأنت أعور، فأما أن تعمى أو تبصر»[٢].

ورؤية الأعور رؤية نصفية، غير كاملة، والرؤية الكاملة في ساحة الصراع لن تتحقق بغير اقتران الولاء والبراءة معاً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٧: ٥٨ ح١٧، كنز الفوائد لابي الفتح الكراجكي: ١١٢.

إن الولاء من دون براءة ولاء ناقص وضعيف وعقيم. ففي حديث صفوان، قيل للصادق عليه السلام:

إنّ فلاناً يواليكم، إلّا أنه يضعف عن البراءة من عدوّكم، فقال: «هيهات كذب من ادّعى محبّتنا، ولم يتبرّأ من عدونا»(١).

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام:

«إن ولايتك لا تقبل إلّا بالبراءة من أعدائك. بذلك أخبرني جبرائيل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال للصفواني: «واعلم انه لا تتم الولاية ولا تخلص المحبّة، ولا تثبت المودة إلّا بالبراءة من عدوهم، قريباً كان أو بعيداً»(٣).

وقد ورد في زيارة عاشوراء التأكيد البليغ على شعار الولاء والبراءة في مواضع عديدة.

«إنّي سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة».

«إنّي أتقرّب إلى الله وإلى رسوله وإلى أمير المؤمنين وإلى فاطمة والحسن وإليك بموالاتك وبالبراءة ممن قاتلك، ونصب لك الحرب، والبراءة ممن أسس أساس الظلم والجور عليكم».

«أتقرّب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم، والبراءة من أعدائكم والناصبين لكم الحرب، والبراءة من أشياعهم».

«إنّي سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم وعدو لمن عاداكم». وغير ذلك.

وكل هذا التأكيد لئلّا يميل الناس إلى الدعة والعافية، فيأخذون بالولاء ويدعون البراءة فلا معنى للانتماء والولاء في ساحة المعركة، من دون البراءة.

---

(١) المصدر نفسه ٢٧: ٥٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٧: ٦٣.

(٣) بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

الولاء والبراءة: رزق وتكريم من الله للإنسان

إن ساحة الحياة ساحة صراع منذ أول ما أسكن الله بني آدم على وجه الأرض... وهذا هو التاريخ، ومحور هذا الصراع التوحيد والشرك، والحقّ والباطل، فمن الناس من ينتمي إلى محور التوحيد، ومن الناس من ينتمي إلى محور الشرك ويدافع عنه، وهذا هو جوهر الصراع.

فالتاريخ، هو الصراع بين محور التوحيد ومحور الشرك، والناس كل الناس شريحتان: منهم من ينتمي إلى محور ولاية الله، وهؤلاء هم دعاة التوحيد، ومنهم من ينتمي إلى محور ولاية الطاغوت، وأولئك هم المشركون.

والله تعالى يخرج الطائفة الأُولى من الظلمات إلى النور، والطائفة الثانية يخرجهم الطاغوت من النور إلى الظلمات.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

ولكل من هذين المحورين امتدادات ومساحات من الحياة، وامتداد عن المحور الأوّل: يقول تعالى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3].

والمحور الآخر: محور الطاغوت ولهذا المحور امتدادات ومساحات، كما لمحور التوحيد والأُلوهية، ولكل من هذين المحورين مساحة في الحب.

هنا أُمة توحّد الله وتوالي الله ورسوله وأُولي الأمر من بعده، والمؤمنين والمؤمنات، وهناك أُمة توالي الطاغوت وامتداداته.

وكل أُمة مجموعة مترابطة، تربطها ببعض علاقة عضوية، يعبر عنها القرآن الكريم بهذا التعبير الدقيق: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾[4] ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

فالمؤمنون أُمة واحدة.

يقول تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2].

والكُفّار وَالْمُنَافِقُونَ أُمّة بَعْضَهُم مِن بَعْض.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[3]

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[4].

إذن المجتمع البشري، شريحتان، وأُمتان، ومحوران، ولكل منهما ولاء وبراءة، واتصال وانفصال، وإنتماء وابتعاد.

والولاء والبراءة يشطران ساحة الحياة إلى شطرين متمايزين مختلفين.

فأين يكون موضع الإنسان من هذه الخارطة؟

وإلى أي محور ينتمي؟

ومع أي فئة يصنّف؟

هذا السؤال هو من أهم الأسئلة وأخطرها التي يواجهها الإنسان، وقيمة الإنسان في الموقع الذي يختاره لنفسه من هذه الخارطة.

ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يعيش ساحة الحياة الدنيا، ولا يعرف أين يقف، ومع من يقف وإلى أي محور ينتمي، ومن يحارب ويقاتل، ومن يسالم وينصر؟

إنّ أقل ما يقال في هؤلاء أنهم يعيشون حالة الضياع والتيه، وأخطر ما يكون الضياع والتيه في ساحات الصراع، حيث يجب على الإنسان أن يحدد موقعه منها.

والإنسان يعيش في هذه الدنيا ساحة الصراع البتّة، وليس له مفر منها؛ فلابدّ من أن يحدد موقعه فيها.

ومن لم يحدد موقعه في ساحة الصراع بين التوحيد والشرك والحق والباطل فإنه لا محالة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

ينزلق إلى الجهة المقابلة للتوحيد، ولا يطول بهم الضياع، حتّى يقفوا في موقف المناوئ والعداء لأولياء الله.

إنّ الولاء لله ولرسوله وأوليائه والبراءة من أعدائهم وعي ومعرفة، ومن أجلّ أنواع الوعي والمعرفة، وقد أكرمنا الله تعالى بهذه المعرفة، وأخرجنا من الضياع والتيه، ومن الظلمات.

ونعم الله كثيرة، وعظيمة، ولكن من أعظم النعم التي أكرمنا بها الله تعالى هي نعمة المعرفة والولاء والبراءة.

وفي زيارة عاشوراء إشارة إلى ما أكرمنا الله تعالى به من نعمة المعرفة والولاء والبراءة.

«فأسأل الله الذي أكرمني بمعرفتكم، ومعرفة أوليائكم، ورزقني البراءة من أعدائكم، أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة».

لقد حبانا الله تعالى بمواهب عظيمة ونعم جليلة ومن أجل هذه النعم وأعظم هذه المواهب الولاء.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل لأنها مفتاحهنّ، والوالي هو الدليل عليهنّ، ثمّ قال: ذروة الأمر وسنامه، وباب الأشياء ورضى الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته»[1].

وعن جعفر بن محمّد عن أبيه، عن علي عليه السلام أو الحسن بن علي عليه السلام قال: «إنّ الله افترض خمساً، ولم يفترض إلّا حسناً جميلاً: الصلاة والزكاة والحج والصيام وولايتنا أهل البيت، فعمل الناس بأربع واستخفّوا بالخامسة، والله لا يستكملوا الأربع حتّى يستكملوها بالخامسة»[2].

والإنسان من دون الولاء والبراءة، يبقى هائماً لا ينظم حركته وحياته محور، ولا خط، فإذا تولّى الله ورسوله وأولياءه الذين أمرنا الله بولايتهم، والتبرّي من أعدائهم، وجد موضعه ومكانه في هذه الحياة، وثبت عليه.

---

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٢.

(٢) بحار الأنوار ٢٣: ١٠٥ عن بشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري: ١٧٣ وفيه (عن علي بن الحسين بن علي).

تعميمات الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

التعميم في الولاء والبراءة من معارف هذا الدين.

وبموجب هذا التعميم تتسع رقعة الولاء ورقعة البراءة اتساعاً عظيماً، فيعمّ الولاء من أوجب الله على المؤمنين ولاءهم، ومن والاهم، ومن أحبّهم، ومن رضي بهم من جميع العصور.

وتتسع رقعة البراءة، فتشمل من أمر الله تعالى بالبراءة منهم، من أعداء الله، ومن يرضى بفعلهم ويحبهم من جميع العصور.

وليس التعميم في الولاء والبراءة فقط، وإنّما يشمل التعميم الثواب والعقاب، والإدانة والاحتجاج أيضاً.

فيعمّ الثواب قوماً لم يحضروا الجهاد، ولم يتحملوا جوعاً وظلماً ولم يمسهم السيف، ولكنهم كانوا يحبّون أُولئك المجاهدين، ويرضون بفعلهم.

ويعم العقوبة قوماً لم يرتكبوا قتلاً، ولكنهم كانوا يحبون القتلة ويرضون بفعلهم، فيعاقبهم الله بجرائم القتلة.

عامل التعميم

وعامل التعميم (الرضا والسخط) والرضا والسخط من الحبّ والبغض. فإذا رضي الإنسان بعمل قوم أُشرِكَ في عملهم[1] من خير أو شر، عوقب عليه إن كان شراً، وأُثيب عليه، إن كان خيراً.

وإذا سخط الإنسان على قوم تبرأ منهم.

فالحبّ والرضا يلحقان الإنسان بالآخرين الذين يحبهم ويرضى عنهم.

---

(١) عن عطية العوفي عن جابر بن عبد الله الأنصاري في خروجه لزيارة الحسين عليه السلام قال جابر: يا عطية سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله: «من احب قوما حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم». بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ و٩٨: ١٩٦ عن بشارة المصطفى للطبري ص١٢٦. وراجع مستدرك الوسائل للميرزا النوري ١٢: ١٠٧ تجد أحاديث عديدة في باب تحريم الرضى بالظلم والمعونة للظالم وإقامة عذره.

والبغض والسخط يفصلان الإنسان عن الآخرين الذين يبغضهم ويسخط عليهم. فهما عاملان للوصل والفصل.

وحيث كان اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ راضين بفعل آبائهم في قتل الأنبياء؛ فإن الله تعالى يحمّلهم مسؤولية جرائم آبائهم ويدينهم بها ويعاقبهم عليها، ويلزمهم الحجة بذلك، مع أنهم لم يعاصروا أُولئك الأنبياء ولم يدركوهم فضلاً من أن يكون لهم دور في قتلهم.

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنّ الله حكى عن قوم في كتابه: ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

قال عليه السلام: كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام، فألزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا»[2].

وعن محمّد بن الأرقط عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال:

«تنزل الكوفة؟

قلت: نعم.

قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم؟

قال: قلت: جعلت فداك ما رأيت منهم أحداً.

قال: فإذن أنت لا ترى القاتل إلّا من قتل أو من وليَّ القتل.

ألم تسمع إلى قوله الله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فأي رسول قتل الذين كان محمّد ﷺ بين أظهرهم.

ولم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول؟

إنّما رضوا قتل أُولئك، فسمّوا قاتلين»[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

(٢) الكافي ٢: ٤٠٩.

(٣) وسائل الشيعة ١٦: ١٤٢ح١٤، عن تفسير العياشي ١: ٢٠٩ح١٦٥، تفسير البرهان ١: ٣٢٨.

الإشراك بـ (الرضا)

فالرضا يشرك الراضي في فعل من يرضى عنه، من خير أو شر، مارس الفعل أم لم يُمارسه، وفي كل الآثار: في المثوبة والعقوبة، والمسؤولية والإدانة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، برواية الشريف الرضي في نهج البلاغة:

«أيها الناس، إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب، لما عمّوه بالرضا».

قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾[1].

فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثمّ العمل به، والرضا به»[3].

والإمام عليه السلام يحلّل: في هذه الكلمة العناصر التي تتركب منها الجريمة إلى إثمين: إثمّ العمل به وإثمّ الرضا به.

ولا يختص أمر هذا التعميم على الباطل والإثمّ، بل يعمّ الحقّ والثواب أيضاً.

المشاركة في الرضا والسخط

ورد في بعض النصوص الجامعة في زيارة الأئمة عليهم السلام:

(فنحن نشهد أنا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدمين في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين وقتلة أبي عبدالله عليه السلام سيد شباب أهل الجنة بالنيّات والقلوب والتأسّف على فوت تلك المواقع). وهو نصّ عجيب لا يفقهه إلّا ذو علم بصير بسنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع.

وهذا باب واسع من الفقه في هذا الدين. وهو فقه «الرضا» و«السخط»، وانطلاقاً من هذا الفقه، فنحن قد شاركنا إن شاء الله إبراهيم عليه السلام رائد التوحيد في دعوة التوحيد، وفي

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢٠٧.

(٣) نهج البلاغة ٣: ١٩١.

تحطيم الأصنام، ومقاومة طاغية عصره نمرود، وشاركنا موسى عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام في دعوة التوحيد، ورفض طغاة عصرهم، وشاركنا رسول الله صلى الله عليه وآله في حربه وغزواته، ونشارك الصلحاء والأولياء وأئمة التوحيد والدعاة الهداة، والذاكرين المسبحين لله تعالى، عبر التاريخ في الدعوة إلى الله، والنصيحة لعباد الله، والذكر والتسبيح، والآلام، والهموم، وما أراقوا من دماء الظالمين، وما أُريق لهم من الدماء وما هدموا من أركان الظلم والشرك وما أشادوا من أركان التوحيد والعدل ...»[1].

تعميمات الولاء في زيارة عاشوراء

ونجد في الزيارة عدّة مراحل وتعميمات من الولاء:

المرحلة الأُولى من الولاء:

في هذه المرحلة نعلن ولاءنا للحسين عليه السلام في المعركة التي خاضها ضد بني أُمية.

«إنّي أتقرب إلى الله بموالاتك، والبراءة ممن قاتلك».

وهذه هي المرحلة الأُولى من الولاء يخص الإمام الحسين عليه السلام.

المرحلة الثانية من الولاء:

في المرحلة الثانية من الولاء نعمم الولاء له عليه السلام وللأرواح التي حلّت بفنائه في كربلاء، وضحّت ووقفت دون ابن بنت رسول الله، ونصرته وذبّت عنه «وعلى الأرواح التي حلت بفنائك».

المرحلة الثالثة من الولاء:

في المرحلة الثالثة، الولاء لمن يتولاهم، وهذه المرحلة من الولاء، تمتد، وتشمل كل الموالين لهم، من كل العصور، وكل من يتولاهم مشمول بهذا الولاء.

«وأتقرب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم وموالاة وليكم».

«إني سلم لمن سالمكم وولي لمن والاكم».

وهذا التعميم الأخير للولاء تعميم شامل يمتد على امتداد الزمان والمكان.

---

(١) الهجرة والولاء: ١٦٤ ـ ١٦٧ لكاتب هذه السطور.

عن الرضا عليه السلام فيما كتبه للمأمون من محض الإسلام فيما ذكر من الولاية: «الولاية للمؤمنين والذين مضوا على منهاج نبيّهم، ولم يغيروا ولم يبدلوا مثل سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، والمقداد، والولاية لأتباعهم وأشياعهم والمهتدين بهداهم والسالكين على منهاجهم»[١].

تعميمات البراءة في زيارة عاشوراء

وكما عرفنا للولاء عدة تعميمات، فكذلك للبراءة عدة تعميمات.

التعميم الأوّل للبراءة:

التعميم الأوّل للبراءة، البراءة من القتلة والذين نصبوا الحرب على الحسين عليه السلام، والذين مهّدوا لقتاله، ومكّنوا من قتاله.

«لعن الله أُمة قتلتكم، ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم».

«لعن الله آل زياد وآل مروان، ولعن الله بني أُمية قاطبة، ولعن الله ابن مرجانة، ولعن الله عمر بن سعد، ولعن الله شمراً، ولعن الله أُمة أسرجت وألجمت وتنقبت لقتالك».

«اللهم العن العصابة التي جاهدت الحسين، وشايعت وبايعت وتابعت على قتله».

التعميم الثاني للبراءة:

في التعميم الأوّل أعلنّا البراءة عن الظالمين والممهدين لهم، والذين مكّنوهم من الجريمة.

في التعميم الثاني نعلن البراءة عن أشياعهم وأتباعهم وأوليائهم ومن بايعهم ومن رضي عنهم من الناس.

وهذا التعميم تعميم واسع، يمتد على امتداد الزمان والمكان.

«برئت إلى الله وإليكم منهم، ومن أشياعهم وأتباعم وأوليائهم».

«أتقرب إلى الله بموالاتكم، وبالبراءة من أعدائكم والناصبين لكم الحرب، وبالبراءة من أشياعهم وأتباعهم».

---

(١) بحار الأنوار ١٠: ٣٥٨.

التعميم الثالث للبراءة:

التعميم الثالث للبراءة يشمل الجذور: الذين أسسوا أساس الظلم لأهل البيت، والذين وضعوا الأُسس في هذه الظلامة الكبيرة لآل البيت عليهم السلام.

«والبراءة ممّن أسس أساس الظلم والجور عليكم، وأبرأ إلى الله وإلى رسوله ممّن أسّس أساس ذلك».

التعميم الرابع للبراءة:

التعميم الرابع للبراءة يشمل الذين جاروا على أشياع أهل البيت وأتباعهم، وليس عليهم فقط، فإن الجور على أشياعهم وأتباعهم من الجور والظلم عليهم.

«وأبرأُ إلى الله وإلى رسوله ممن أسس أساس ذلك وبنى عليه بنيانه، وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم، برئت إلى الله وإليكم منهم».

التعميم الخامس للبراءة:

وهو أشمل التعميمات وأوسعها:

«اللّهم العن أوّل ظالم ظلم حقّ محمّد وآل محمّد، وآخر تابع له على ذلك...».

وهذا التعميم يشمل الظالمين لهم، والراضين بظلمهم من أوّل يوم ومن أول ظالم إلى آخر ظالم وإلى آخر مَن يرضى بهذا الظلم.

وهو من أوسع وأشمل التعميمات في البراءة.

التوحيد والإخلاص في الولاء والبراءة

الولاء من مقولة التوحيد

وهذا أصل هام من أُصول هذا الدين والقرآن حافل بهذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾(١)

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٢).

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٣).

والآيات بهذا المضمون كثيرة.

ولا يصح من الولاء إلّا ما كان في امتداد ولاية الله تعالى وبإذنه وبأمره، يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾(٤).

وكل ولاء لا يقع في امتداد ولاية الله، فهو من الولاء الباطل الذي يرفضه الإسلام.

يقول تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾(٥)

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٦)

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٩. لا موجب لصرف الولي عن المعنى الذي يقصده فإن الولاية من المشتركات المعنوية وحتى لو افترضنا صحة افتراض الاشتراك اللفظي في (الولي) فإن الآيات اللاحقة كافية لإثبات التوحيد في الولاية.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٢٢.

والقرآن الكريم صريح في تقرير هذه الحقيقة. وإليك طائفة من آيات الله المباركات من كتابه الحكيم في إيضاح هذه الحقيقة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[١].

فالآية الكريمة تقرّر أنّ ملك السماوات والأرض كلّه لله، ولا يملك غير الله تعالى شيئاً من السماوات والأرض... وانطلاقاً من هذه الحقيقة فإنّ له تعالى الولاية المطلقة على الإنسان، وليس للإنسان أن يتخذ غير الله وليّاً، وله سبحانه الولاية المطلقة والسلطان المطلق على كل شؤون الإنسان، ما يتعلّق منه بجوارحه أو جوانحه، وليس لأحد من دون الله تعالى سلطان وولاية على الإنسان إلّا أن يكون بإذن الله وأمره، وفي امتداد ولاية الله. والآية الكريمة تفيد حصر الولاية في الله تعالى من ناحيتين:

أ ـ من حيث إن ملك السماوات والأرض لله تعالى وحده، فلابدّ أن تكون الولاية لله تعالى وحده على الإنسان، دون سائر مخلوقاته.

ب ـ ومن ناحية الدلالة اللفظية أيضاً، فإن (ما وإلّا) من أدوات الحصر في اللغة العربية[٢].

ويحل (غير) محل (إلّا)، فيجوز الحصر بـ (ما وغير)[٣]، كما تقول: (ما جاءني أحدٌ غير محمّد).

وكلمة (دون) في الآية الكريمة: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بمعنى (غير)[٤].

فعليه، فإن صياغة الآية الكريمة صياغة حاصرة تحصر الولاية في الله من ناحية (المعنى) ومن ناحية (اللفظ).

والحصر يأتي بمعنى السلب والإيجاب والنفي والإثبات معاً، فينفي الولاية عن غير الله ويثبتها لله تعالى.

وبهذا المضمون وردت آيات عديدة في كتاب الله، يقول تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٧.

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني: ٢٦٠.

(٣) المصدر السابق: ٢٦٨.

(٤) تفسير الجلالين، الآية: ١٦، ومفردات الراغب: ١٧٦.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١].

ويقول تعالى:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٣].

وفي سورة السجدة:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[٤].

وتربط الآية الكريمة بشكل واضح بين سلطان الله على السماوات والأرض وولايته التكوينية الشاملة على الكون، وبين ولاية الله التشريعية على الإنسان، وانحصار الولاية فيه تعالى دون غيره ممّن يتّخذهم الناس أولياء من دون الله.

وكما كان الولاء لأولياء الله من مقولة (التوحيد)، كذلك يدخل الولاء بنفس الدليل وبنفس السبب في مقولة (الإخلاص)، فيصحّ الولاء لأولياء الله إذا كان لله تعالى، فحسب، ويتقرّب به صاحبه إلى الله، ومن دون ذلك فلا قيمة لهذا الولاء، فالولاء إذن من مقولتي (التوحيد) و(الإخلاص).

عن أبي خالد الكابلي، قال: أتى نفر إلى علي بن الحسين بن علي عليه السلام فقالوا: إنّ بني عمّنا وفدوا إلى معاوية بن أبي سفيان طلب رفده وجائزته، وإنّا وفدنا إليك صلة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: «من أحبنا لا لدنيا يصيبها منا، وعادى عدوّنا، لا لشحناء كانت بينه وبينه، أتى الله يوم القيامة مع محمّد وإبراهيم وعلي»[٥].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٦.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٤.
(٥) بحار الأنوار ٢٧: ٥٦.

فالولاء الحقّ هو ما كان مما يتقرّب به الإنسان إلى الله، ولا يتقرّب الإنسان إلى الله إلّا بما أمر به الله تعالى.

فلا يكون الولاء صحيحاً وحقاً، إلّا إذا كان قد أمر به الله تعالى.

وولاء رسول الله ﷺ وأهل بيته مما أمر به الله تعالى ورسوله، عن الإمام الصادق عليه السلام: «وشد الله حبل طاعة ولي أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته...»(١).

بهذا الولاء إذن نتقرب إلى الله تعالى، ولا نطلب من ولاء أهل البيت عليهم السلام شيئاً من حطام الدنيا ومرضاة أحد من الناس، وإنما نطلب رضى الله تعالى، ونتقرب به إليه عزّ شأنه، وقد ورد في زيارة عاشوراء:

«إنّي أتقرب إلى الله تعالى بموالاتك».

وورد في هذه الزيارة أيضاً عن الإخلاص في البراءة: «اللهمّ إنّي أتقرّب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا وأيام حياتي بالموالاة لنبيّك وآل نبيّك عليه و عليهم السلام».

وورد أيضاً في هذه الزيارة:

«إنّي أتقرب إلى الله، وإلى رسوله، وإلى أميرالمؤمنين، وإلى فاطمة، وإلى الحسن، وإليك بموالاتك، وبالبراءة ممّن أسس ذلك ـ ظلم أهل البيت ـ وبنى عليه بنيانه، وجرى في ظلمه وجوره عليكم، وعلى أشياعكم، وأتقرب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم وموالاة وليّكم...».

التوحيد في البراءة

وكما الولاء من مقولة التوحيد، كذلك البراءة من مقولة التوحيد.

فليست البراءة انفعالاً نفسياً، وحالة مزاجية، وإنّما (البراءة) موقف، في امتداد الولاء، والوجه الثاني للولاء، ولا يمكن أن ينفصل عنه. فكما كان الولاء من مقولة التوحيد فكذلك البراءة من مقولة التوحيد. فلا تحصل البراءة في فراغ وإنّما تتحقق البراءة في ساحة الصراع. فمن يوالي أولياء الله، يوالي الله، ومن يعاديهم يعادي الله.

في الزيارة الجامعة:

«من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أحبّكم فقد أحبّ الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله، ومن أعتصم بكم فقد اعتصم بالله».

---

(١) الكافي ١ : ١٨٢.

ولا معنى للبراءة في ساحة الصراع من دون الولاء، فإنّ البراءة هي إعلان الإنفصال والمواجهة والحرب في ساحة الصراع.

ولا معنى للانفصال في ساحة الصراع من دون الإنتماء والإنضمام إلى المحور الآخر.

والذين يتصوّرون أنّ بالإمكان تجريد البراءة عن الولاء، يُخطئون في تعريف البراءة، ويتصورون أنّ البراءة من قبيل الإنفعالات النفسية والمزاجية التي تحصل في العلاقات ما بين الأشخاص، والأمر ليس كذلك.

فإن البراءة إعلان لموقف الإنفصال والمواجهة في ساحة الصراع، وهو لا يمكن من دون الإنتماء والإنضمام إلى المحور الآخر في الساحة، وهو الولاء.

فلا براءة من غير الولاء، ولا يمكن تجريد البراءة عن الولاء، كما لا ولاء من دون براءة، ولا يمكن تجريد الولاء عن البراءة.

فكل براءة إنفصال واتصال، كما لو كان المقاتل ينفصل في ساحة المعركة والمواجهة من جهة، فإنه بالضرورة يتصل بالجهة الاُخرى.

وإلى هذا المعنى الدقيق تشير الكلمات الواردة في زيارة عاشوراء:

«وأبرأ إلى الله وإلى رسوله ممن أسس أساس ذلك ـ ظلم أهل البيت ـ وبنى عليه بنيانه».

«برئت إلى الله وإليكم منهم».

وهو تعبير دقيق ورقيق وينطوي على مغزى عميق، يستوقف الإنسان، فكل براءة في ساحة الصراع تتحدد بنقطتين وليس بنقطة واحدة.

وهاتان النقطتان هما (من) و(إلى). ولا يصح تحديد البراءة بالجهة التي يتبرأ الإنسان منها، وهي الجهة التي تحددها كلمة (من) ما لم ينضم إلى هذه الجهة، الجهة التي ينضم إليها الإنسان، وينتمي إليها في ساحة المعركة، وهي التي تحددها كلمة (إلى)، أمّا البراءة التي تتحدد من جهة واحدة فقط بكلمة (من) فليست من البراءة، وإنما هي حالة من الانفعال النفسي.

فالبراءة في ساحة الصراع تتحدد في وقت واحد بالجهتين معاً: الجهة التي يتبرأ منها الإنسان، والجهة التي ينضم وينتمي إليها، وهو ما عبرنا عنه بـ (من) و(إلى).

وإلى هذا المعنى تُشير الكلمات الواردة في زيارة عاشوراء:

«برئت إلى الله وإليكم منهم (قتلة الحسين عليه السلام) ومن أشياعهم وأتباعهم وأوليائهم».

«برئت إلى الله وإليكم منهم».

«وأبرأ إلى الله وإلى رسوله ممن أسّس أساس ذلك (الظلم)».

وعندئذ تدخل (البراءة) في مقولة التوحيد، فإنّ البراءة لا تصح إلّا إذا كانت لله، وفي سبيل الله، وتصل وتفصل وتضم صاحبها إلى المحور الإلهي في ساحة المعركة، وتفصله عن جهة أعداء الله.

ومهما تعددت نقاط البراءة، فإن البراءة في جميع هذه النقاط تنتهي إلى ما يبرأ منه الله تعالى وإلى الانتماء إلى المعسكر الموالي لله تعالى لا محالة، وهذا هو معنى التوحيد في البراءة.

الإخلاص في البراءة

وكما كانت البراءة من مقولة (التوحيد)، فإنها كذلك من مقولة (الإخلاص لله).

فإن من أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله، البراءة من أعداء الله، فإذا أخلص الإنسان في حبّه وبغضه لله تعالى، فأحبّ في الله، وأبغض في الله كان من خيار عباد الله.

فإن الدين حبّ وبغض، والإخلاص لله في الحبّ والبغض معاً، في حبّ أولياء الله، وبغض أعداء الله.

وقد وردت الإشارة في زيارة عاشوراء إلى هذا المعنى:

«وإنّي أتقرب إلى الله وإلى رسوله... بالبراءة ممن قاتلك ونصب لك الحرب».

فالبراءة ليست انفعالا، ولا مزاجاً، وإنّما هي موقف وإعلان للانفصال والمقاطعة في ساحة الصراع، يتقرب به العبد إلى الله تعالى.

وقد تواترت النصوص الإسلامية في قيمة البراءة والبغض لأعداء الله، إذا كانت البراءة لله تعالى. وإنّ حقيقة الإيمان هي الحبّ في الله، والبغض في الله، وأنّ الحبّ في الله، والبغض في الله من محض الإيمان.

عن أبي محمّد العسكري عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال رسول الله لبعض أصحابه ذات يوم:

«يا عبدالله، أحبّ في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتّى يكون

كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادّون وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً»(١).

عن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه ذات يوم: «يا عبدالله، أحبب في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فإنه لا تُنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى يكون كذلك»(٢).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إن من أوثق عرى الإيمان أن تحبّ في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله عزّ وجلّ»(٣).

فلا ينال أحد ولاية الله ـ إذن ـ إلّا إذا أخلص قلبه لله، فكان في الله حبّه وبغضه وقربه وبعده وولايته وبراءته، ولن يكون بين عرى الإيمان، وهي كثيرة، عروة أوثق من الحبّ والبغض في الله.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «من أحبّ كافراً فقد أبغض الله، ومن أبغض كافراً فقد أحبّ الله، ثمّ قال عليه السلام: صديق عدوّ الله عدوّ الله»(٤).

وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء:

أما زهدك في الدنيا فتعجّلك الراحة، وأمّا انقطاعك إليّ فتحرزك بي، ولكن هل عاديت لي عدوّاً أو واليت لي وليّاً»(٥).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «من أحبّ لله، وأبغض لله وأعطى لله، ومنع لله فهو ممن كمل إيمانه»(٦).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان ألا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله»(٧).

---

(١) بحار الأنوار ٢٧: ٥٤.

(٢) أمالي الصدوق: ٨.

(٣) أمالي الصدوق: ٣٤٥.

(٤) أمالي الصدوق: ٣٦٠.

(٥) تحف العقول: ٤٧٩.

(٦) المحاسن: ٢٦٣.

(٧) أصول الكافي ٢: ١٢٥.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: «أي عرى الإيمان أوثق؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم الصلاة، وقال بعضهم، الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم الحج، وقال بعضهم الجهاد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وكل ما قلتم فضل، وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله، والبغض في الله، وتوالي أولياء الله والتبري من أعداء الله»[1].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إذا أردت أن تعلم أنّ فيك خيراً، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعة الله عزّ وجلّ، ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله، ويحب أهل معصيته، فليس فيك خير، والله يبغضك، والمرء مع من أحبّ»[2].

وقد ورد في زيارة عاشوراء هذا المعنى أكثر من مرة تثبيتاً وتأكيداً:

«اللهمّ إنّي أتقرب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا وأيّام حياتي بالبراءة منهم (أعداء آل محمّد) واللّعنة عليهم».

وورد أيضاً: «إنّي أتقرب إلى الله وإلى رسوله، وإلى أمير المؤمنين، وإلى فاطمة، وإلى الحسن، وإليك بموالاتك، وبالبراءة ممّن أسّس أساس ذلك - ظلم أهل البيت - ، وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم».

فالبراءة من أعداء الله وأعداء أوليائه إذن كالولاء، من مقولة (التوحيد) و(الإخلاص) في وقت واحد.

لا يجتمع ولاءان في قلب عبد مؤمن

وذلك لأن الولاء، كما قدمنا، من مقولة التوحيد، والولاء الحقّ لله تعالى ولمن يأمر الله بولائه، فكل ولاء يأتي على هذا الامتداد فهو من الولاء الحقّ، وكل ولاء ليس لله، ولم يأمر الله تعالى به، ولا يأتي في امتداد ولاية الله، فهو من الولاء الباطل.

والولاءات الحقة، بعضها من بعضها، وهي تقع جميعاً في امتداد ولاية الله، فهي ولاية واحدة بالضرورة.

---

(١) أُصول الكافي ٢: ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه ٢: ١٢٦.

ولا يجتمع ولاءان مختلفان في قلب سليم.

وذلك أن القلب الواحد لا يحتمل غير ولاء واحد، وحبّ واحد. وليس في جوف الإنسان إلّا قلب واحد، إلّا أن يفسد القلب أو يفسد الولاء.

يقول تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[١].

وقد جاء في زيارة الجامعة: «فمعكم معكم لا مع غيركم»[٢].

وتكرار (المعيّة) لهم عليهم السلام في هذه الفقرة من الزيارة، ونفي معيّة الغير يؤكد معنى وحدة الولاء التي أشرنا إليها، فإن ولاءهم عليهم السلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، وما كان بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله فهو من الولاء لله، وفي امتداد ولاية الله، وذلك مثل ولاية أنبياء الله ورسله وخلفائهم عليهم السلام والمؤمنين.. فإنّ هذا كلّه ولاء واحد، لوحدة الامتداد (لأنها تقع جميعاً في امتداد ولاية الله) لا تتقاطع، ولا تتحالف.. وأما ما لم يكن كذلك فهو من الولاء غير المشروع، الذي لا يقع في امتداد ولاية الله، ولا يجتمع ولاءان في قلب واحد، ولا يجتمع قلبان في جوف امرئ واحد، كما يقول تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ فيحب بهذا أو يبغض بهذا. فأما محبّتنا فيخلص الحبّ لنا، كما يخلص الذهب النار، لا كدر فيه، من أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبنا عدوّنا، فليس منا، ولسنا منه»[٣].

فلا يمكن أن يجمع الإنسان ولاءين في قلب واحد، إلّا أن يكون الولاء ناقصاً أو القلب مريضاً.

قالوا إنّ رجلاً قدم إلى عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي أُحبّك، وأحبّ فلاناً، وسمّى بعض أعدائه، فقال عليه السلام: «أما الآن فأنت أعور، فأما أن تعمى، وأما أن تبصر»[٤].

والمعروف أن الأعور يرى رؤية نصفية ناقصة فهو لا يملك رؤية كاملة، والرؤية الناقصة رؤية عاجزة على كل حال من الإدراك والإبصار الصحيح.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) كما في بعض نسخ الزيارة الجامعة راجع الفقيه ٢: ٦٠٩ ح٣٢١٣، والتهذيب ٦: ٦٥ ب٤٦ ح١، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٧٢ ح١. ومزار المشهدي ص٢٣٧، والبحار ٩٧: ٣٤١و٩٩: ١٥٣.

(٣) بحار الأنوار ٢٧: ٥١ ح ١.

(٤) المصدر نفسه ٢٧: ٥٨.

روي أن الناس وجدوا في قراب سيف رسول الله ﷺ بعد وفاته صحيفة (قصاصة) صغيرة فيها: «من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله...»[1].

معارج الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء

أكثر شيء ينقّي التوحيد والإخلاص، الولاء والبراءة، وذلك لأنّ الولاء والبراءة أشق اختبار للتوحيد والإخلاص، ولا يمكن إختبار درجة الإخلاص والتوحيد بشيء أدق وأشق من الولاء والبراءة.

ففي الولاء والبراءة تبرز درجة صدق الإنسان في التوحيد والإخلاص. فليس كل من يدعي الإخلاص والتوحيد يصدق في التوحيد، ويخلص في الإيمان والتوحيد، حتّى يختبره الله تعالى في ساحة الصراع والمواجهة بالولاء والبراءة، فيعلم الله صدقه في الحبّ، والبغض، والنصرة، والتضحية لمن أمر الله بولائهم، والمقاومة والثبات، وتحمل العذاب والاضطهاد من أجله، وفي حبّ من يحبّهم، وبغض من يبغضهم، ومقاطعة من يحاربهم ويبغضهم، حتّى لو تضرر بذلك. وليس في ساحة الحياة الدنيا، اختبار أفضل وأدق للتوحيد والإخلاص من الولاء والبراءة.

فلا يمكن معرفة التوحيد والإخلاص في ساعات اليسر والعافية، وبالتنظير والدعوى، قبل أن يحلّ التوحيد والإخلاص في ساحة الصراع والمواجهة، ويتطلّب من صاحبه الولاء والبراءة والنصرة، والتضحية، والعطاء وتحمل العذاب والاضطهاد، وفقدان البنين والأموال، والمخاطر والمجازفة. عندئذ يعلم الله الصادقين من غيرهم.

ولذلك فقد جعل الله تعالى (الولاء والبراءة) من أعظم منازل رحمته في حياة الإنسان، فإن منازل الرحمة تتناسب مع درجة خلوص التوحيد ونقاء الإيمان، ولمّا كان الولاء والبراءة في ساحة المواجهة والصراع، تبلوراً لأعلى درجات التوحيد والإخلاص، كانت من أعظم منازل الرحمة في حياة الإنسان.

ورحمة الله تعالى هابطة نازلة في كل مكان وزمان، ولكن هناك منازل للرحمة تتميز من غيرها في (الزمان) و(المكان) و(الأحوال).

وأقصد بالزمان الأيام والليالي والساعات المتميّزة عن غيرها في استنزال رحمة الله مثل: (ليلة القدر) و(شهر رمضان).

---

(١) المصدر نفسه ٢٧: ٦٤.

وأقصد بالمكان المواضع والمحال التي تستنزل رحمة الله أكثر من غيرها مثل: المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ووادي عرفة، يوم عرفة والحائر الحسيني.

وأقصد بالحالات، الحالات التي تستنزل الرحمة مثل حالة (الدعاء) و(الاضطرار إلى الله) و(انكسار القلب) و(البكاء) و(التضرع) فهي تستنزل رحمة الله أكثر من غيرها من الحالات.

والولاء والبراءة الصادقتان من أفضل الحالات التي تستنزل رحمة الله تعالى.

فهي من أفضل منازل الرحمة في حياة الإنسان. فيها يستجاب الدعاء، وفيها تنزل الرحمة والبركة على الإنسان، وفيها ترق القلوب.

ومنازل الرحمة في حياة الإنسان، هي معارج الإنسان إلى الله، ومن هذه المنازل يعرج دعاء الإنسان وذكره، وحبه وشوقه، وإخلاصه وتوحيده، وتضرّعه إلى الله.

فهي منازل الرحمة، ومعارج الإنسان إلى الله تعالى، و(ولاء أهل البيت والبراءة من أعدائهم). من أفضل منازل الرحمة، ومعارج الإنسان إلى الله تعالى.

فقد علّمنا الله تعالى بالولاء والبراءة معالم ديننا، وأخرجنا من ظلمات الجهل، وأنقذنا من الهلكة.

نجد في الزيارة الجامعة الإشارة إلى طائفة من هذه (المنازل): و(المعارج) «بموالاتكم علمنا الله معالم ديننا، وأصلح ما كان فسد من دنيانا، وبموالاتكم تمّت الكلمة، وعظمت النعمة، وأئتلفت الفرقة، وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة».

«وبكم أخرجنا الله من الذل، وفرّج عنا غمرات الكروب، وأنقذنا من شفا جرف الهلكات ومن النار».

«سعد من والاكم، وهلك من عاداكم، وخاب من جحدكم، وضلّ من فارقكم، وفاز من تمسّك بكم، وأمن من لجأ إليكم، وسلم من صدقكم، وهدي من اعتصم بكم...».

ولنتأمل الآن في منازل الرحمة ومعارج الإنسان إلى الله في الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء.

١ ـ التكريم والوجاهة

وأوّل هذه المنازل: أنّ الله تعالى أكرمنا بولاء أهل البيت ومعرفتهم والتبرّي من أعدائهم، ورزقنا بهم هذه الكرامة والوجاهة في الدنيا والآخرة، وما أدراك ما هذه الكرامة والوجاهة عند الله.

«فأسأل الله الذي أكرم مقامك، وأكرمني بك».

فقد أكرمنا الله بالحسين، وكما أكرم الله مقام الحسين، فقد أكرمنا بالحسين عليه السلام وولايته والبراءة من أعدائه.

ومن هذه المنازل والمعارج الوجاهة عند الله في الدنيا والآخرة، وتلك منزلة يتمناها كل صدّيق وشهيد.

«اللهمّ اجعلني عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة».

وحبّذا الوجاهة عند الله في الدنيا والآخرة!

ونحن نسأل الله أن يذهب عنا سواد قلوبنا ووجوهنا عنده، ويستبدلنا بذلك، من فضله ورحمته، قلوباً نقيّة سليمة ووجوهاً وجيهة، ولسنا نحن نستحق هذا التكريم إلّا أن يكون ذلك بفضله ورحمته، وبسبب من ولائنا للحسين عليه السلام والبراءة من أعدائه وقتلته وأشياعهم وأتباعهم.

٢ ـ الثأر لمصرع الحسين عليه السلام

وهذا تكريم آخر، نطلب من الله تعالى أن يرزقنا الثأر لمصرع الحسين عليه السلام، ممّن قتله ومن أتباعهم وأشياعهم. فلا زال مصرع الحسين عليه السلام في كربلاء ظلامة التوحيد والعدل، وظلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ووليّ هذا الدم هو الله تعالى، وهو الثأر الأوّل لهذا الدم، وللدم الذي أراقه اللعين عبد الرحمن بن ملجم في محراب الصلاة بمسجد الكوفة، فهو سبحانه وتعالى الثائر الأوّل لدمه ودم أبيه عليه السلام: «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره والوتر الموتور».

وبعد ذلك يتحمل حملة رسالة التوحيد والعدل مسؤولية الثأر للدماء الزاكية التي سفكت بكربلاء ظلماً وعدواناً.

والثأر يأتي في امتداد شهادة الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء..

والشهادة: تضحية، ورسالة، وثأر. والحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه أدّوا الدور الأوّل ويبقى علينا الدور الثاني والثالث وهو دور القيام برسالة هذه الدماء، والثأر لها، وهو أعظم وأفضل منازل الرحمة ومعارج الولاء والبراءة في حياة الإنسان.

وبدأت حركة الثأر بعد استشهاد الإمام عليه السلام مباشرة، وتستمر هذه الحركة، حتّى يتسلّم

المهدي من آل محمّد ﷺ الثأر لهذه الدماء الطاهرة، وكل دم سفك ظلماً وعدواناً في سبيل الدفاع عن التوحيد والعدل فهو خاتمة الثائرين لهذه الدماء الزاكية.

فنسأل الله تعالى في هذه الزيارة أن يرزقنا الثأر لدمه ﷺ في ركب حفيده الهادي المهدي المنصور من آل محمّد ﷺ.

«فأسأل الله الذي أكرم مقامك، وأكرمني بك أن يرزقني طلب ثأرك مع إمام منصور من أهل بيت محمّد ﷺ».

«وأسأله أن يبلغني المقام المحمود لكم عند الله، وأن يرزقني طلب ثأركم مع إمام هدىً ظاهر ناطق بالحق منكم».

٣ ـ معية الصادقين

قد أمرنا الله تعالى في كتابه أن نكون مع الصادقين: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(١) وأظهر معاني المعِية:

(الولاء) نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٢).

وهذه المعية شاقة وعسيرة وصعبة.

وأكثر معاناة الذين وقفوا مع الأنبياء كان في ذلك، حتّى أنّ قومهم كانوا يهددونهم أن يتخطفوهم من الأرض، ويزعجوهم عن أهلهم وذويهم، إن لم يتركوا معية الأنبياء:

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ﴾(٣).

ولذلك أمر الله تعالى نبيه بالاستقامة والصبر والذين معه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(٤).

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾(٥).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

إنّ معيّة الولاء والبراءة من أشق أنواع المعيّة، وتحتاج إلى الصبر والثبات والاستقامة، وإلى قدم صدق في المعيّة. وما لم يصدق الإنسان في الولاء، وما لم يضع قدمه في موضع الثبات والصدق لا يستطيع أن يواصل هذه الحركة الشاقة على طريق ذات الشوكة.

يقول الله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين صدقوا معه، وثبتوا في الولاء والبراءة: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

هذه المعية ذات بعدين: الولاء والبراءة، رحماء بينهم وأشداء على الكفار.

ويقول تعالى عن الذين ثبتوا في موضع الصدق مع الأنبياء: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[2].

إنّ معية الولاء تتطلب صبراً وثباتاً وصدقاً في الموقف، وهو أمر عزيز، وصعب، والولاء والبراءة يُعدّان الإنسان لهذه المعية الصامدة، ويستنزلان من عند الله القوّة والثبات والصدق على صاحبهما.

وقد جاء في زيارة عاشوراء:

«فأسأل الله أن يجعلني معكم في الدنيا والآخرة، وأن يثبت لي عندكم قدم صدق في الدنيا والآخرة».

والمعية في الدنيا في ظروف البأساء والضرّاء تستتبع بالضرورة المعية في الآخرة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والثانية نتيجة للأولى.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

٤ ـ المقام المحمود

ورد في زيارة عاشوراء:

«وأسأله أن يبلغني المقام المحمود الذي لكم عند الله».

والمقام المحمود هو الدرجة العليا التي لا تضاهيها درجة، وفيها يستحق الإنسان الحمد

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٣.

والثناء من الجميع من غير استثناء، وينتفي عنه الذم بشكل مطلق، وهو من المقامات الآخرة الرفيعة.

وقد ورد ذكر ذلك في سورة الإسراء فيما يرزق الله تعالى المتهجدين من عباده في الليل:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[١].

وقد فسر المفسرون المقام المحمود بذلك[٢].

كما فسروا المقام المحمود بمقام الشفاعة[٣].

و(المقام المحمود) من مقامات أهل البيت عليهم السلام عند الله.

وبالولاء والبراءة يعرج الإنسان إلى هذا المقام الرفيع المحمود عند الله الذي حباهم الله تعالى به.

ويعرج الإنسان إلى هذا المقام بالولاء والبراءة، والتهجد في آناء الليل.

٥ ـ الإخلاص لله في المحيا والممات

إنّ محيا آل محمّد عليهم السلام ومماتهم، أفضل المحيا وأفضل الممات، ومن أظهر مصاديق قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤].

فهم عليهم السلام قد أخلصوا لله محياهم ومماتهم، وليس فقط صلاتهم ونسكهم.

وفي زيارة عاشوراء، في أجواء الولاء والبراءة نسأل الله تعالى أن يجعل محيانا محيا محمّد وآل محمّد، ومماتنا ممات محمّد وآل محمّد صلوات الله تعالى عليهم وهو أفضل حياة وممات.

والمنزل الذي يعرج منه الإنسان إلى هذه الدرجة الرفيعة، ليخلص لله حياته ومماته كلّها، هو الولاء والبراءة؛ لأنّ الإنسان إذا جعل ولاءه كله لله وبراءته كلها في الله تعالى، فقد جعل حياته ومماته كلها في سبيل الله، وأخلص لله تعالى في كل حياته ومماته.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(٢) راجع تفسير الميزان ١٣ : ١٧٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

ولا غرو، فإن الحياة والممات كلّها ولاء وبراءة، لمن يعرف مغزى الولاء والبراءة، فمن كانت حياته ومماته كلّها ولاء وبراءة، فحياته ومماته كلها لله تعالى.

وهذه الحياة والممات هي محيا محمّد وآل محمّد، وممات محمّد وآل محمّد.

جاء في زيارة عاشوراء:

«اللهمّ اجعلني في مقامي هذا ممّن تناله منك صلواتٌ ورحمة... اللهمّ اجعل محياي محيا محمّد وآل محمّد ومماتي ممات محمّد وآل محمّد».

٦ ـ الصلوات والرحمة والأجر غير المحدود من عند الله

الولاء والبراءة من منازل الإبتلاء والصبر، فإن الإنسان إذا صدق في الولاء والبراءة، ولم يجامل، ولم يدار أحداً فيهما، وصحَّ عزمه، وصدقت نيته فيهما اجتمعت عليه أسباب الإبتلاء والامتحان، وابتلاه الله تعالى وامتحنه بصنوف البلاء والمحن، ولم يخرج من محنة حتّى يدخل في أُخرى، وأصدق الكلام كلام الله، فاستمع إليه سبحانه، في محكم كتابه:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[1].

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ...﴾[2].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾[3].

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[4].

والإبتلاء والامتحان من منازل الأجر والرحمة في حياة الإنسان.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٦.

وأعظم هذه الإبتلاءات والمحن ما ينزل على المؤمنين من المصائب في أنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله.

وهي من أعظم منازل الرحمة ومعارج الكرامة عند الله، ولا يمكن أن يخلو الولاء والبراءة من الإبتلاء، إذا صدق الإنسان في الولاء والبراءة، وثبت عندهما، ولم يداهن، ولم يجامل، ولم يتنازل، ولم يتراجع، ولم يضعف، ولم ييأس.

والإبتلاء والامتحان وما يصيب الإنسان فيهما من المصائب، إذا ثبت وصبر من أعظم منازل الرحمة.

وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

ونحن قد حبانا الله تعالى بهذا الإبتلاء والمصاب من أجل أهل بيت نبيه وبهم مرتين، أصابتنا المصائب فيهم مرّة، وبهم مرة أُخرى.

وقد تحملنا فيهم ومن أجلهم ألواناً من الإبتلاء والعذاب والإفتتان، وأُصبنا فيهم بصنوف من المصائب، كما أصبنا بهم وفجعنا بهم، والحمد لله على هذا وذاك.

ونرجو أن يرزقنا الله تعالى بما أُصبنا فيهم وما أُصبنا بهم من المصاب، أفضل ما يرزق مُصاباً بمصيبته.

نقرأ في زيارة عاشوراء:

«وأسأل الله بحقكم وبالشأن الذي لكم عنده أن يعطيني بمصابي بكم أفضل ما يعطى مصاباً بمصيبته... مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام»!.

وعسى أن يرزقنا الله بمُصَابنا فيهم وبهم، أجراً وجزاءً من غير حساب.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]. والأجر والجزاء في الصبر يأتي من عند الله بغير حساب.

والمصائب من أعظم منازل الرحمة، ومعارج الكرامة والقرب إلى الله، ويجد الإنسان في المصائب من استجابة الدعاء ونزول الرحمة من عند الله، ما لا يجده في غيرها.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.

ولذلك يتكرّر الدعاء في زيارة عاشوراء كلما تكرر ذكر مصيبة الحسين وفجيعتنا به عليه السلام: «مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام، وفي جميع السماوات والأرض... اللهمّ اجعلني في مقامي هذا ممّن تناله منك صلوات ورحمة ومغفرة».

وهذه الصلوات والرحمة التي ورد ذكرها في هذا النصّ من زيارة عاشوراء، هي ما وعد الله تعالى عباده الذين يتلقّون المصائب بالصبر، ويقولون كلما نزلت بهم مصيبة: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، في مواضع التسليم لأمر الله وقضائه.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾[1].

والصلاة من عند الله هي الرحمة النازلة، ومن العباد طلب الرحمة من الله.

وهذه الرحمة هي الرحمة الخاصة التي تخص الصابرين والصالحين من عباد الله.

ورحمة الله تعالى على نحوين عامة وخاصة. والعامة هي التي تعم الكون جميعاً: الإنسان والحيوان والنبات والجماد ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[2] ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[3]، وهذه هي الرحمة العامة، وهي الرحمة المقصودة من كلمة (الرحمن).

والخاصة هي التي تخص المؤمنين كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[4].

ونحو قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾[5].

وهذه الرحمة، هي الرحمة المقصودة من كلمة (الرحيم) وهي خاصة بالمؤمنين من عباد الله.

والمقصود بالصلاة في هذه الآية هي الرحمة الخاصة، وهذا التفريق بين الرحمتين: الرحمة الرحمانية، والرحمة الرحيمية ورد في كلمات أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

(٥) سورة النساء، الآيتان: ٩٥ ـ ٩٦.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة»[(١)].

يقصد بذلك أنّ الرحمن اسم خاص يخصّ الله تعالى، ولا يجوز تسمية عباده بهذا الاسم، ولكنها تعم المؤمن وغير المؤمن، بل تعم الكون كله، الإنسان والحيوان والنبات والجماد، والرحيم اسم عام، لا يخص الله تعالى، ويطلق على الله كما يطلق على عباده، ولكن الرحمة في هذه الكلمة تخصُّ الرحمة النازلة على المؤمنين من عباد الله فقط.

ولا يسع المقام أكثر من هذه الإشارة.

٧ ـ مرقاة القرب إلى الله

إنّ الولاء والبراءة من أفضل المراقي إلى الله. وللناس إلى الله مراقي ومعارج وسبل ووسائل، ولكن أفضل هذه المراقي والمعارج هو الولاء والبراءة، فليس شيء من هذه المراقي والسبل التي تقرّب الإنسان إلى الله، يكلّف الإنسان من الجهد، ويحمّل الإنسان من العذاب والاضطهاد، ويتطلّب منه من الإخلاص والإنفاق في سبيل الله ما يتطلبه الولاء والبراءة، فهما أفضل مرقاة للإنسان إلى الله تعالى، يرقى الإنسان عليهما إلى الله، ويكسب بهما مرضاة الله. والتقرّب إلى الله تعالى، وينبغي أن تكون غاية كل حركة وكلّ كلمة وكل موقف في حياة الإنسان.

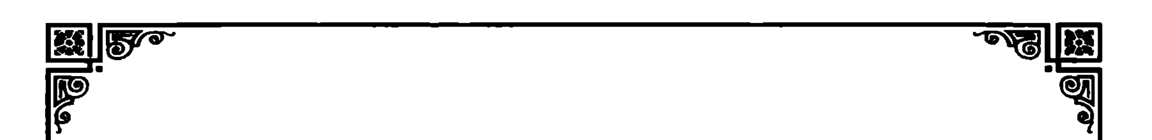
وها نحن نقرأ هذه الحقيقة في نصّ زيارة عاشوراء:

«اللّهم إنّي أتقرب إليك في هذا اليوم، وفي موقفي هذا، وأيام حياتي بالبراءة منهم، واللعنة عليهم، وبالموالاة لنبيّك وآل نبيّك عليهم السلام».

وهذه الفقرة من النصّ واضحة فيما قلنا فنحن نتخذ البراءة من أعدائهم والولاء لهم وسيلة وذريعة للتقرّب إلى الله، ونتقرّب إليه عزّ شأنه بالولاء لهم، والبراءة من أعدائهم.. وهما من أفضل ما نتقرب به إلى الله.

---

(١) رواه الصدوق في كتاب التوحيد ص٢٣٠ ح٣، راجع: تفسير مجمع البيان للطبرسي ٢.١ : ٢١ وذكره في تفسيره جوامع الجامع في تفسير البسملة ١ : ٥٣، المصباح للكفعمي ص٣١٧، تفسير الثعلبي ١ : ٩٩.



صورة عن المجتمع الإسلامي في عصر بني أُمية

في كلمات الإمام الحسين عليه السلام





خطب الحسين عليه السلام في كربلاء فقال:

«إن الدنيا قد تغيرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إن الحقّ لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله حقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً».

روى السيد ابن طاوس هذه الخطبة عن الحسين عليه السلام في اللهوف، وقال: إنه عليه السلام ألقاها في كربلاء.

ورواها ابن عبد ربّه في (العقد الفريد: ٢/ ٣١٢)، وأبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء: ٣/ ٣٩) و(ابن عساكر: ٤/ ٣٣٣) عن الحسين عليه السلام في كربلاء، كما رواها ـ السيد في اللهوف ـ ، ورواها الطبري في (التاريخ: ٦/ ٢٢٩) وقال إنه عليه السلام ألقاها في الطريق إلى كربلاء في (ذي حسم).

ومهما يكن من أمر الموقع والمكان الذي ألقى الحسين عليه السلام فيه هذه الكلمات، فإن هذه الكلمات ترسم لنا صورة دقيقة عن العصر الذي عاشه الإمام الحسين عليه السلام، والمصائب والنكبات التي حلت بالمسلمين فيه.

وتتضمّن هذه الكلمات ثلاث فقرات، حَريّة بالدراسة والتأمل:

١ ـ حال الدنيا في عصره: (الحالة الاجتماعية والسياسية والروحية في عصر الإمام عليه السلام).

٢ ـ إعراض الناس عن الحقّ واقبالهم على الباطل.

٣ ـ الدعوة إلى العزوف عن الدنيا والشوق إلى لقاء الله.

وفيما يلي سنتوقف وقفات قصيرة عند هذه الفقرات الثلاثة من كلام الإمام عليه السلام.

١ ـ حالة الدنيا في عصر الإمام عليه السلام

يقول الإمام عليه السلام: «إنّ الدنيا قد تغيرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل».

إنّ هذه الدنيا قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ. والتغيير على نحوين، فقد يتغير الشيء، ولكن لا يفقد معالمه الأساسية، وقد يتغير شيء فيتنكر للإنسان، فلا يعرفه الناس.

والتغيير الذي حدث للناس وللمجتمع في فتنة بني أُمية كان من النوع الثاني (إنّ الدنيا قد تغيرت وتنكّرت).

إنّ الذي حدث للمسلمين ـ في هذه الفتنة ـ ردّة إلى الأعراف والقيم الجاهلية، فلم ينقلب الناس عن الإسلام في هذه الفتنة. ولكن الأعراف والقيم والأفكار الجاهلية، عادت كما كانت، واستعاد بنو أُمية مواقع النفوذ في المجتمع الجديد، كما كانوا يحتلونها من قبل في الحياة الجاهلية، بنفس الأفكار والقيم والمفاهيم.

وهذا الانحراف المخيف تم خلال نصف قرن فقط بعد وفاة رسول الله ﷺ.

والذي يدخل قصور خلفاء بني أُمية وعمالهم في الولايات لا يجد شبهاً بينهم وبين ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله وسيرته ﷺ في حياته العامة والخاصة.

إنّ الذي جاء في كتاب الله، وحدث به رسول الله ﷺ وأرانا من سلوكه العام والخاص يختلف عما نعرفه في قصور بني أُمية وترفهم وإسرافهم وعدوانهم اختلافاً كبيراً. والذي يعرف الكتاب والسنة مقياسين للحياة يتنكر لا محالة لما كان عليه بنو أُمية، ولا يجد سبيلاً إلى التوفيق بينهما. وهذا هو الذي يحدثنا عنه السبط الشهيد عليه السلام: «إنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت».

ثمّ يقول عليه السلام: «وأدبر معروفها» وهو حالة السقوط الحضاري في التاريخ. فإن الأُمم في حالة الصعود تقبل على المعروف، وينبع المعروف عنها، كما ينبع الماء من الأرض، وهي علامة سلامة الفطرة والعقل والضمير في الأمم، وهي حالة العروج والعطاء الحضاري والعقلي والإنساني، وإذا نضبت الفطرة والضمير والقلوب عن المعروف، وشحّ معروفها كان ذلك إيذاناً بالسقوط الحضاري، وبين المعروف والعروج والسقوط الحضاريين علاقة ثابتة.

فكل عروج حضاري في حياة الإنسان ينشأ من تدفق الفطرة بالمعروف، وكل سقوط حضاري ينشأ من نضوب الفطرة الإنسانية. ولابد لهذا الإجمال من إيضاح.

إنّ الفطرة الإنسانية في حالات السلامة تتدفق بالخير والرحمة والإيمان والإخلاص والصلاح والإيثار والتقوى والنزاهة والوفاء والشكر والعفاف والترفع عن السقوط والصدق

والأمانة والمعرفة والعدل وأمثالها، وهذا هو المعروف في حياة الإنسان، كما يقول القرآن، ويسمّيه القرآن معروفاً، لأن الفطرة تعرفه.

كما إنّ الفطرة السليمة تنكر الإلحاد والجحود والكفران والإثرة والخيانة والكذب والظلم والإسراف والجبن واليأس والقلق في الرأي والموقف والتخاذل وتتجنبها، وهذه هي المنكرات كما يسميها القرآن، ويسميها القرآن بالمنكر؛ لأن الفطرة تنكره.

فإذا فقد الإنسان سلامة الفطرة لم يعد يجذبه المعروف، ولا ينفّره المنكر.

كما أنّ الإنسان إذا كان يتمتع بسلامة الحس والذوق تجذبه الطيبات، وينفر من الخبائث، فإذا فقد الحس لم يعد تجذبه الطيبات ولا تنفره الخبائث.

والأمر في الفطرة أدهى من ذلك؛ فإن الإنسان إذا فقد سلامة الفطرة والضمير لا يفقد فقط القدرة على التمييز بين المعروف والمنكر كما كان الأمر كذلك عند فقدان سلامة الحس، وإنما ينعكس الأمر عنده فتجذبه المنكرات ويميل إليها، وينفّره المعروف ويكرهه، وهذه هي حالة مسخ النفوس والفطرة.

وإذا فقد الإنسان سلامة الفطرة فقد بالضرورة سلامة الضمير، فإن الضمير رقيب على الفطرة، ويقوم بدور الحارس الأمين على سلامة الفطرة حتّى ينفذ آخر ما أودع الله فيه من المقاومة.

ولابدّ أن نضيف هنا قبل أن نغادر الحديث عن هذه النقطة من كلام الإمام عليه السلام: إنّ فساد الفطرة والضمير في نفوس الناس لا يتمّان بصورة قهرية، وإنما تفسد الفطرة والضمير باختيار الإنسان وإرادته، وإن كانت الآثار المترتبة على فساد الفطرة والضمير قهرية خارجة عن اختيار الإنسان، إلّا أنّ الله تعالى ملّك الإنسان أمر ضميره وفطرته، ولا يفسد هذا أو ذاك إلّا من خلال سوء اختياره وإرادته.

ومهما يكن من أمر في هذه المقولة التي يوجزها الحسين عليه السلام، عن حال الأُمة بهذه الكلمة؛ فما هي الفتنة التي ألمّت بالمسلمين؟

نقول: إنّ نبوع المعروف من نفس الإنسان إمارة سلامة الإنسان، ونضوب منابع المعروف في النفس أمارة ظهور الفساد في حياة الإنسان.

وبين نزول رحمة الله على الإنسان وتدفق المعروف من نفس الإنسان ونضوبها علاقة وصلة.

فإن رحمة الله تعالى هابطة باتصال ولا تنقطع الرحمة عن الكون والإنسان لحظة واحدة. ولكن لهذه الرحمة منازل في حياة الإنسان تنزل عليها، ومن هذه المنازل النفوس والقلوب السليمة فإنها أوعية ومنازل لرحمة الله. فإذا مرضت وفسدت النفوس والقلوب، وشح معروفها، يقل حظها من رحمة الله وبركاته أو ينقطع عنها. وليس في رحمة الله شح أو انقطاع، ولكن النفوس والقلوب ترفض هذه الرحمة وتعرض عنها، إذا أدبر معروفها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

(ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء)

(صبابة الإناء) ما يبقى في الإناء من قطرات الماء بعدما يراق ما فيها من الماء هذه القطرات لا تغني عن الظمأ، ولا تروي إنساناً ولا حيواناً، وكذلك عندما تنضب فطرة الإنسان من المعروف ـ إلّا من صبابة كصبابة الإناء ـ فلا يرجى من هذا الإنسان خير.

إنّ الفطرة معين المعروف، فإذا نضبت الفطرة من المعروف فسدت الفطرة، وبفساد الفطرة يفسد الإنسان والمجتمع.

وقد قلت من قبل: إنّ الفطرة عندما يصدر عنها الخير والمعروف تنزل عليها رحمة الله وبركاته، وعندما تنضب وتشحّ لا تنزل عليها هذه الرحمة النازلة من لدن الله تعالى.

(وخسيس عيش كالمرعى الوبيل).

إنّ (العيش) ليس فقط عيش الأجسام؛ فإن للقلوب والعقول والنفوس كذلك (عيشاً) كما للأجسام[2]، وكما تموت الأجسام إذا فقدت ما تعيش به كذلك تموت القلوب والعقول والنفوس إذا فقدت ما تعيش به.

وموت القلوب والعقول والضمائر أخطر من موت الأجسام.

والإمام عليه السلام يقول في هذه الكلمة: إنّ الذي يبقى للناس من عيش القلوب والنفوس والعقول في هذه الفتنة لا يغني عن جوع، ولا يروي من ظمأ ولا يحفظ الإنسان من الفساد والسقوط... كالمرعى الوبيل... أرأيت المرعى الوبيل الذي اكتسحه الوباء النباتي، كيف يصفر

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن أهل البيت عليهم السلام: (هم عيش العلم وموت الجهل).

ويجف فيبقى هنا وهناك عشب أخضر قليل بين أعشاب كثيرة قد جفت وأصفرت، وماتت أو ذبلت.

كذلك المجتمع الذي داهمته هذه الفتنة (حكومة الطلقاء)، كان كالمرعى الذي اكتسحه الوباء. فقد اكتسحت هذه الفتنة كل ما في نفوس الناس من المعروف، ولم يبق في نفوس الناس من معروف إلّا كما يبقى في الإناء من صبابة بعد ما أريق ما فيها من الماء، لا يروي من ظمأ.

٢ ـ إعراض الناس عن الحقّ وإقبالهم على الباطل

يقول الإمام عليه السلام: «ألا ترون إن الحقّ لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه».

هذا هو المقطع الثاني من خطاب الإمام للناس وهو إمارة نضوب الفطرة وجفاف الضمير.

ألا ترون إنّ الحقّ لا يعمل به، ولو كانت الفطرة متدفقة في نفوس الناس لم يتوقف الناس عن العمل بالحقّ، وإذا فسدت الفطرة في نفس الإنسان لا يجد الإنسان في نفسه دافعاً يدفعه إلى العمل بالحقّ.

وكذلك (الباطل)، إنّ الفطرة إذا كانت سليمة والضمير إذا كان سليماً يرفضان الباطل وينكرانه، كما ينكر الإحساس السليم والذوق السليم الخبائث من المطاعم والمشارب.

فإذا بطل الإحساس عند الإنسان لم ينكر ما ينكره الناس الأسوياء، كذلك الضمير والفطرة في نفس الإنسان إذا استقاما وسلما يحقّ الإنسان الحقّ ويبطل الباطل، ويعمل بالحق ويتناهى عن الباطل، ويردع عنه وإذا فسد ضميره وفطرته لا يجد في نفسه داعياً للعمل بالحقّ، ولا رادعاً عن الباطل.

هذه صورة دقيقة عن المصيبة التي حلت بالناس في فتنة بني أُمية، (حكومة أبناء الطلقاء) يصورها الإمام عليه السلام يوم عاشوراء أو في منزل (ذي حسم) للناس بهذه الصورة.

٣ ـ الدعوة إلى العزوف عن الدنيا والشوق إلى لقاء الله

يقول الإمام عليه السلام: «ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً».

هذه هي الجملة الثالثة من خطاب الإمام عليه السلام للناس في عاشوراء وهذه الجملة ذات وجهين:

الوجه الأوّل: إنّ هذه الدنيا لم يعد فيها شيء يرغب فيه المؤمن؛ فليس في متاع هذه الدنيا ولذاتها ما يجذب المؤمن ويستميله إليها، وهذا هو الوجه الأوّل من هذه الجملة وهو وجه الزهد في الدنيا والعزوف عنها.

والوجه الثاني: الشوق إلى لقاء الله، الذي هو أحبّ شيء عند المؤمن وأرضاه إلى نفسه.

وهذا هو الذي يصرح به الحسين عليه السلام في خطابه للناس في عاشوراء «ليرغب المؤمن في لقاء الله».

ثمّ يقول الإمام عليه السلام: «فإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً».

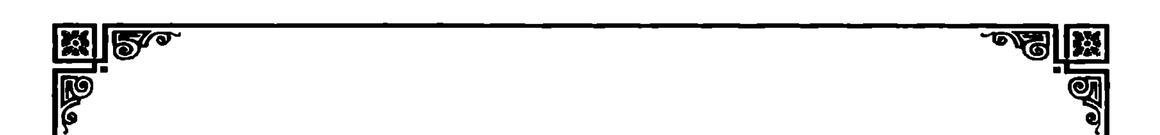
إنّ الموت نافذة إلى لقاء الله، ترتفع به الحجب عن قلوب المؤمنين فيلقون من جلال الله وجماله ما لا يلقونه في الدنيا، وفي هذا اللقاء كل سعادة المؤمن ولذته في الآخرة. وأين لذة الجنة ونعيمها من لذة لقاء الله في الآخرة؟

فليس الموت للمؤمن إلّا سعادة.

وليس في الحياة الدنيا ما يشدّ المؤمن إليها غير صحبة الصالحين والأخيار، وغير الأعمال الصالحة، والمعروف، والصلاة، والذكر، والعبادة، والإيثار، والتضحية، ومواقف التضحية، والشهادة، والعدل، والأمانة، والصدق. هذه هي المشاهد التي تشد المؤمن إلى الدنيا؛ فإذا شحت الدنيا من الصلاح، والتقوى، والأمانة، والصدق، والتضحية، والإيمان، والإخلاص، وقلَّ الصالحون فيها، ولم يلتق المؤمن فيها بغير المكر والكيد، واللعب، والتكاثر، والحرص، والجشع والظلم، والكذب، والخيانة، ضاقت نفسه بها، وكرهها ونفر منها وكانت الدنيا سجناً له...

يقول الإمام عليه السلام: «فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً».

تعزف نفس المؤمن عنها زهداً، وتتوق إلى لقاء الله شوقاً.



الثوابت الأربعة
في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام:

«كتب الحسين بن علي عليه السلام من مكة إلى محمّد ابن الحنفية:

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى محمّد بن علي ومن قبله من بني هاشم: أمّا بعد: فإن من لحق بي أستشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام»[1].

تتضمّن هذه الرسالة الموجزة أربع قضايا أساسيّة وثابتة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

وهذه القضايا الأربعة هي:

١ ـ حتمية الشهادة في هذه الثورة لمن يخرج مع الحسين عليه السلام «إنّ من لحق بي أستشهد».

٢ ـ حتمية الفتح لمن حضر مع الحسين عليه السلام كربلاء.

نعرف هذه الحتمية من مفهوم هذه الكلمة «ومن لم يلحق لم يدرك الفتح»، فهي واضحة في أنّ من لحق الحسين عليه السلام في هذه الحركة يدرك الفتح. بغض النظر عن حجيّة المفهوم في مثل هذا الباب وعدمها.

٣ ـ العلاقة بين الفتح والشهادة.

هذا الفتح يناله من خرج مع الحسين عليه السلام بالشهادة.

٤ ـ ولن يتكرر هذا الفتح مرة أخرى «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»، وفيما يلي سوف نتحدث إن شاء الله عن هذه القضايا الأربعة.

١ ـ حتمية الشهادة

من أبرز سمات ثورة الإمام الحسين عليه السلام الدعوة إلى الشهادة والاستماتة في سبيل الله ولم يزل الحسين عليه السلام منذ أنّ غادر مكة إلى العراق، إلى يوم عاشوراء، يؤكد لمن يلقاه، ولمن يصحبه أن سبيله وسبيل من يصحبه الشهادة.

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٨٧ وبألفاظ قريبة، بصائر الدرجات: ٤٨١، اللهوف: ٢٨، المناقب لابن شهر آشوب ٤: ٧٦، مثير الأحزان: ٣٩.

ومهما شك الإنسان في شأن من شؤون هذه الثورة الفريدة في التاريخ فلن يشك أن الحسين عليه السلام كان ينعى نفسه إلى الناس في خروجه إلى العراق، وكان يعلن إلى الناس أن سبيل من يخرج معه الشهادة لا محالة، وأن من يخرج معه لن تتخطاه الشهادة.

روى أصحاب السير أنّ الحسين عليه السلام لما أراد الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال:

«خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيرُ لي مصرع أنا لاقيه».

والإمام عليه السلام في هذه الخطبة ينعى نفسه إلى الناس، ويفتح خطابه للناس بالتعريف بالموت، ولست أعرف تصويراً جمالياً للموت أجمل من التعريف الذي يقدمه الإمام عليه السلام للموت.

ثمّ يدعو الناس إلى الخروج معه، ويطلب منهم مهجهم وأن يوطّنوا أنفسهم في الخروج معه للقاء الله.

«.. من كان باذلاً فينا مهجته موّطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»(١).

روى السيد ابن طاوس في (اللهوف) بالإسناد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سار محمّد بن الحنفية إلى الحسين عليه السلام في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها عن مكة، فقال: يا أخي، إن أهل الكوفة من عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من في الحرم وأمنعه.

فقال عليه السلام: يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت.

فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد.

قال: أنظر فيما قلت، ولما كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية، فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها، فقال له: يا أخي، ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

قال: بلى.

---

(١) اللهوف: ٣٨، مثير الأحزان لابن نما الحلي: ٢٩.

قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟

قال ﷺ: أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتك (في المنام)، فقال: يا حسين أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً.

فقال ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟

فقال لـه: قد قال لي إن الله قد شاء أن يراهن سبايا، وسلّم عليه ومضى»[١].

ونصح الحسينَ ﷺ نفرٌ ممن كان الحسين ﷺ لا يشك في صدقهم في النصيحة، وفهمهم للحالة السياسية في العراق أن لا يذهب إلى العراق، وأنّ مآله في العراق ومآل أصحابه وأهل بيته القتل.

وكان الحسين ﷺ يجزيهم خيراً على صدق النصيحة، ثمّ لا ينثني عن عزمه، ونحن لا نشك في صدق هؤلاء النفر، وأنّ الحسين ﷺ كان لا يتّهمهم في نصيحتهم، وأن الأمر في العراق كان كما يتوقعه هؤلاء.

ونعتقد أنّ ما كان يتوقّعه هؤلاء من تخاذل الناس في العراق عن نصرته، لم يكن يخفى على الحسين ﷺ، ولكنه كان يرى ما لا يرونه ويعرف ما لا يعرفونه.

لقد كان الحسين ﷺ يرى أن لا سبيل للقضاء على فتنة بني أُمية التي طالت هذا الدين وهذه الأُمة إلّا بقتله وقتل من معه من أهل بيته وأصحابه، وكان يعرف هذه الحقيقة بوضوح، ولم يكن يشك في ذلك. وهذا ما كان يخفى على أُولئك النفر الذين كانوا ينصحون الحسين ﷺ ألا يغتر بكتب أهل العراق ودعوتهم له، ولم يكن بوسع الحسين ﷺ أن يفصح لهم عما يراه ويعرفه.

وآخر مرّة أعلن الحسين ﷺ لأهل بيته وأصحابه أنّ مآلهم الشهادة، ليلة العاشر من محرم حيث جمع أصحابه وخطب فيهم، وأحلّهم من بيعته وقال لهم: «ذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يطلبون غيري، ولو أصابوني وقدروا على قتلي لما طلبوكم»[٢].

---

(١) اللهوف: ٢٧، مكتبة الحيدرية النجف ١٣٨٥، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦١، العوالم ١٧: ٢٠١.

(٢) الفتوح لأبن الأعثم ٥: ١٠٥، الطبري ٣: ٣١٥، الكامل ٢: ٥٥٩، وغير ذلك من المصادر.

فلما توثّق من عزمهم على الشهادة معه قال لهم:

«إنكم تقتلون غداً، لا يفلت منكم رجل قالوا: الحمد لله الذي شرفنا بالقتل معك»[١].

أجل إنّ من يقرأ سيرة الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء من دون مسبقات ذهنية لا يشك في أن الحسين عليه السلام لم يكن يطلب في مسيرته هذه الحكم والسلطان وإن كان الحكم والسلطان حقّه الشرعي الذي لا ينازعه فيه أحد إلّا بالباطل، ولم يكن يتوقع في هذه المسيرة غير القتل له ولمن معه من أنصاره والسبي لأهل بيته وحرمه ونسائه.

ولم يكن العبادلة الأربعة: (عبد الله بن جعفر، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير) الذين نصحوا الحسين بالإعراض عن العراق أعرف من الحسين عليه السلام وأخبر منه بحال العراق وحال الناس في العراق في هذه الفترة.

وهذه السمة كما ذكرت هي أبرز معالم وسمات عاشوراء، وإلغاء هذه السمة بمعنى تجريد عاشوراء من قيمتها التاريخية الكبيرة.

وهذه هي الحتمية الأُولى، يبيّنها الإمام الحسين عليه السلام في رسالته إلى أخيه محمّد بهذه الكلمة «من لحق بي استشهد».

٢ ـ حتمية الفتح

وهذه هي الحتمية الثانية من حتميات وثوابت الثورة التي يقودها الحسين عليه السلام، والإمام يقرّر هنا الثابتة الثانية، بنفس الدرجة من الجزم الذي يقرر به الثابتة الأُولى، وهي مفهوم الجملة الثانية «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح».

ولهذه الجملة منطوق، وهو واضح، ومفهوم، وهو أن من لحق به أدرك الفتح، ولا يقلُّ المفهوم في الوضوح عن المنطوق.

والإمام عليه السلام يقرر هذه الحقيقة قبل أن يغادر الحجاز إلى العراق، وقلما يتفق أن قائداً يجزم بالنصر قبل دخول المعركة، إلّا مجازفة في القول، أو دعماً وتثبيتاً لنفوس المقاتلين.

والحسين عليه السلام ليس ممن يطلق القول مجازفة بالتأكيد، وليس بصدد دعم وتثبيت قلوب الناس لما يؤول إليه آخر القتال؛ لأن الإمام عليه السلام يدعو الناس في حركته هذه إلى الموت

(١) الخرائج والجرائح ٢: ٨٤٧، بحار الأنوار٤٤: ٢٩٨.

علانية وصراحة، وهذه الدعوة الصريحة لا تنسجم مع التوجه الإعلامي والنفسي إلى دعم وتثبيت نفوس المقاتلين في ساحة القتال وعند التحضير له.

ترى ما هو الضمان الأكيد الذي يملكه الإمام عليه السلام في هذا الشأن؟ وترى ما هو معنى الفتح في القاموس السياسي عند الإمام عليه السلام؟

إنّ الإمام عليه السلام لا يريد بالفتح هنا الفتح العسكري الميداني، ولا يمكن أن يريد به هذا المعنى الذي يطلبه القادة العسكريون في حروبهم، ولسنا نشك في هذه الحقيقة، ولسنا نطلق هذا الكلام جزافاً واعتباطاً. فقد كان الإمام عليه السلام أخبر بالحالة السياسية والنفسية للناس في العراق من أن يتوقع فتحاً عسكرياً أو يغتر بالناس.

إذن الإمام عليه السلام يريد بالفتح معنى آخر، أقرب إلى المفاهيم الحضارية منها إلى المفاهيم العسكرية. إنّ الإمام عليه السلام يجد أنّ بني أُمية قد عملوا على استعادة الجاهلية إلى الإسلام بأفكارها وتصوراتها، وحتّى المواقع السياسية والاجتماعية التي حررها الإسلام من نفوذ الجاهلية، استعادها بنو أُمية إلى دائرة نفوذهم من جديد، واحتلوا مواقع السلطة والنفوذ والمال والإعلام في المجتمع الإسلامي الجديد، كما كان يحتل سلفهم هذه المواقع في المجتمع الجاهلي الصغير في مكة من قبل، دون أن يكون قد حدث تغيير جوهري في مواقفهم وأفكارهم عما كانوا عليه في الجاهلية من قبل. إلّا أن مواقعهم يومئذ في الجاهلية كانت محدودة وضعيفة وهزيلة ومعزولة في قلب الصحراء، واليوم أصبحت هذه المواقع بفضل الإسلام تحكم الساحة المعمورة من الأرض، وتخضع لها أقاليم واسعة من الأرض كانت تحكمها الامبراطوريتان الرومية والفارسية من قبل.

وقد تحولت هذه المواقع اليوم بكل نفوذها بفضل الإسلام إلى أيدي بني أُمية في حكومة أبناء الطلقاء بالشام دون أن يكون قد حصل تغيير جوهري في أفكار بني أُمية ومواقعهم.

وهذه هي النفثة التي يلقيها الحسين عليه السلام يوم عاشوراء على الناس قبل بدأ القتال:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم»[١].

---

(١) الاحتجاج للطبرسي٢: ٢٤، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب٣: ٢٥٧، وبحار الأنوار ٥: ٨٣، وكشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي٢: ٢٢٨.

لقد كانت الشام يومئذ المركز السياسي الأوّل في العالم المعمور، تبسط نفوذها على مساحات واسعة من المعمورة، وتهابها الدنيا، وهذه هي القوة والسيادة والنفوذ التي استحدثها الإسلام للعرب، ولم يكن للعرب من قبل عهد بمثل هذا النفوذ والسلطان الواسع.

وقد أقام الإسلام هذه القوة على وجه الأرض لإقامة التوحيد والعدل، وللقضاء على المستكبرين وأعداء البشرية، وللأسف تتحول كل هذه القوة والنفوذ إلى أقطاب الجاهلية العربية من أبناء الطلقاء من جديد، بعد أن حررها الإسلام منهم ومن غيرهم من أئمة الكفر على وجه الأرض، ويحتل بنو أُمية هذه المواقع، دون أن يحدث تغيير جوهري في أفكارهم ومواقفهم وترفهم وحبهم للسيطرة وعدوانهم وقهرهم واستكبارهم على الناس.

والحسين عليه السلام يعبّر عن هذه القوة التي استحدثها الإسلام وحملها العرب بـ (السيف)، فيقول بكل أسف وحسرة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله جعل هذه القوة في أيمانكم لتقاتلوا أعداءنا وأعداءكم (أئمة الشرك) فوضع أبناء الطلقاء من بني أُمية أيديهم على مواقع السلطة في المجتمع الجديد في انقلاب عكسي (ردة)، فبايعهم الناس على ذلك وتراجع الناس معهم في هذه الردة العكسية، وشهروا سيوفهم في وجه آل محمّد عليهم السلام أئمة التوحيد: «سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم»، من غير أن يتحول بنو أُمية في هذا الموقع الجديد عن مواقعهم الأخلاقية والسلوكية والحضارية في الجاهلية. وأخطر من كل ذلك كله أنهم وضعوا أيديهم على هذا الموقع الخطير من المجتمع الإسلامي الجديد من موقع الشرعية الإسلامية، خلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد واجه الحسين عليه السلام كارثة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة حلّت بهذا الدين، وبهذه الأُمة التي أقامها جده رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان همّ الحسين عليه السلام في هذه المرحلة الحساسة من التاريخ إلغاء الشرعية وسلب الصفة الشرعية عن دولة بني أُمية، وهذا العمل كان أعظم ما قام به الحسين، في هذه الثورة، ونجح الحسين عليه السلام في ذلك نجاحاً كاملاً، وقد دام حكم بني أُمية بعد الحسين عليه السلام زمناً طويلاً، غير أن بني أُمية لم يستعيدوا بعد وقعة الطف موقع الشرعية الدينية في الحكم، بعنوان خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمرة المؤمنين، وإن كانوا يسمون أنفسهم بهذا أو ذاك، وكانوا في نظر عامة المسلمين حكاماً زمنيين ملكوا الحكم عنوة، و«بالعنف»، ولم يكن لهم شأن مثل شأن الخلفاء من قبلهم، ولم يأخذ الناس عنهم دينهم كما كانوا يأخذون عن الخلفاء من قبلهم. ولم تعد لموقع الخلافة القدسية التي كانت لها من قبل.

والرسالة الثانية لثورة الحسين عليه السلام إعادة روح الجهاد والمسؤولية والمقاومة إلى الناس، فقد سلب بنو أُمية فيما سلبوا من المسلمين إرادة الناس، فأصبح الناس تبعاً لآل أُمية، ولست أدري ماذا فعل بنو أُمية، خلال السنوات العجاف التي حكم فيها معاوية الطلقاء وأبناؤهم حتّى أحضر عبيد الله بن زياد رأس الحسين عليه السلام ابن بنت رسول الله في مجلس عام في قصره، قد أذن للناس فيه، فينكث الخبيث الشقي شفتي ابن رسول الله بخيزرانة كانت بيده، فلم ينكر عليه أحد غير زيد بن أرقم رحمه الله، الذي كان يحضر عندئذ هذا المجلس؟

وجمع الناس في جامع الكوفة ليعلن الإساءة والبراءة والعداء لعلي عليه السلام وابنه الحسين فلم ينكر عليه أحد ممن حضر ذلك الاجتماع غير عبد الله بن عفيف الذي أغضبه ذلك، فسب ابن زياد وشتمه على رؤوس الناس وأسخطه وأغضبه، وأهانه في وجهه رحمه الله ورضي عنه[1].

ولم يذكر التاريخ أحداً اعترض يومئذ على ابن زياد غيرهما.

إنّ الإرهاب الذي مارسه بنو أُمية أيام حكم معاوية وابنه يزيد سلب الناس القدرة على اتخاذ الموقف، والقدرة على مواجهة الظالمين.

وقد كانت رسالة الحسين عليه السلام الثانية في ثورته أن يهز الضمير الإسلامي هزة عنيفة، ويعطيها صدمة قوية تعيدها إلى وعيها وإرادتها وعزمها وقوتها، وإلى ما أراد الله تعالى لها من الإمامة والشهادة على وجه الأرض.

إنّ ما يطلبه الحسين عليه السلام في هذه الثورة، لن يتم إلّا بدماء غزيرة وعزيزة، وتضحية مأساوية فريدة بنفسه وأهل بيته وأصحابه. وكان هذا هو الذي يطلبه الحسين عليه السلام ويريده من الفتح.

وليس ما كان يريده عليه السلام فتحاً بالمعنى العسكري الذي يقصده القادة العسكريون... وكان أبعد ما يكون عن طلب مثل هذه الغاية، وكان أعرف وأخبر بعصره، والظروف المحيطة من الذين كانوا ينصحونه بعدم الخروج وينذرونه بانفراط الناس عنه. إنّ الذي يتابع مسيرة الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء، ومن الحجاز إلى العراق لا يشك أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يطلب هذا النوع من الفتح.

---

(١) مثير الأحزان لابن نما الحلي: ٧٢، وبحار الأنوار٤٥: ١١٩، والعوالم، الإمام الحسين عليه السلام، للشيخ عبد الله البحراني: ٣٨٦، ولواعج الأشجان للسيد محسن الأمين: ٢١١.

والفتح الذي يشير إليه الإمام في كتابه إلى محمّد بن الحنفية ومن قبله من بني هاشم هو من نوع آخر شرحناه آنفاً.

والإمام عليه السلام يجزم بالفتح في حركته هذه، ويرى أنّ من يخرج معه ينال الفتح لا محالة، ومن يتخلف عنه لا ينال الفتح البتة. ترى ما هو الضمان الذي يستند إليه الإمام عليه السلام في الجزم بالفتح؟

إنّ الضمان هو وعد الله تعالى لمن نصره بالنصر والفتح في كتاب الله، والله تعالى لا يخلف وعده.

يقول تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

والحركة التي يقدم عليها الحسين عليه السلام تستجمع كل الشروط التي يطلبها الله تعالى من عباده ليهبهم النصر وهي: الإيمان، والإخلاص، والتقوى، والجهاد في سبيل الله.

ولم يشك الحسين عليه السلام لحظة واحدة إنّ الله تعالى ينصره في هذه الحركة، وأن النصر لن يخطئه وهذه هي الحتمية الثانية في هذه الحركة.

وقد استخرجناها من مفهوم كلمته عليه السلام في هذه الرسالة (ومن لم يلحق بنا لم يدرك الفتح).

٣ ـ العلاقة بين الفتح والشهادة

وهي القضية الثالثة من القضايا الأربعة التي يتضمنها كتاب الحسين عليه السلام وهذه الحتمية نستخرجها من ضم الحتميتين الأُولى والثانية.

ففي القضية الأُولى يخبر الإمام عن استشهاد كل من يخرج معه إلى العراق.

---

(١) سورة محمّد، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٠.

وفي القضية الثانية يعلن الإمام إن الذين يخرجون معه، فقط ينالون الفتح.

والنتيجة التي نستخرجها من ضم هاتين القضيتين:

إنّ الشهادة هي سبيل أصحاب الحسين عليه السلام إلى نيل الفتح، ولا يتيسر لنا فهم هذه النقطة إلّا إذا فسرنا (الفتح) على النهج الذي فسرناه به في النقطة الثالثة عندئذ تستقيم لنا العلاقة بين الفتح والشهادة.

فإنّ هذا الفتح لن يكون إلّا بتحرير عقول الناس ونفوسهم من سلطان التبعية لأبناء الطلقاء، وتحرير الإسلام من حركة التحريف والتشويه التي تجري في قصور بني أُمية باسم الإسلام، ومن خلال موقع خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولن يتم هذا الفتح إلّا إذا تيسر لهؤلاء النفر الذين يخرجون مع الحسين عليه السلام أن يحرروا ضمائر الناس وعقولهم وقلوبهم من سلطان بني أُمية، وإلغاء شرعية القصر الأُموي في الشام وتحرير هذا الدين من نفوذهم وسلطانهم.

ولن يتم لهم هذا وذاك إلّا بدم غزير وعزيز يهز ضمائر الناس هزاً عنيفاً، ويعيدهم إلى أنفسهم ووعيهم ورشدهم وموقعهم الذي أراده الله تعالى لهم في الأرض.

وهذا هو الذي يقرره الإمام عليه السلام في الكتاب الذي وجهه إلى محمّد بن الحنفية كما قلنا.

٤ ـ هذا الفتح لن يتكرر في التاريخ

وهذه هي الحتمية الرابعة في كتاب الحسين عليه السلام إلى محمّد بن الحنفية وبني هاشم. يقول عليه السلام: «ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح» وهذا الكلام صريح فيما ذكرناه من أنّ هذا الفتح الذي أجراه الله على يد الحسين عليه السلام وأنصاره لن يتكرر مرة أخرى في التاريخ.

إنّ في التاريخ نوعين من الأحداث: أحداث تتكرر كالحرب، والسلم، والمجاعات وفترات الرفاه، وفترات الضعف وفترات القوة، والهزيمة والنصر وما إلى ذلك وأحداث لن تتكرر، ولن تقع إلّا مرة واحدة، فمن أدركها أدركها، ومن لم يدركها فلن تعود بعد ذلك.

لقد مرّ الإسلام والمسلمون بانتكاسات مُرّة كثيرة، وبفترات صعبة، ومصائب كثيرة في التاريخ، ولكن المضيق الذي مر به الإسلام في بدر والأحزاب لن تتكرر مرة أخرى. لقد اجتمع الإسلام كله في نقطة واحدة وفي موقع واحد في بدر والأحزاب. ولو كان الكفر ينتصر على الإسلام في هذين الموقعين لم تبق للإسلام بعد ذلك بقية.

ولقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله تلك القيمة الكبيرة لضربة عليّ عليه السلام يوم الأحزاب لهذا

السبب، فلولا ضربة عليّ ﷺ يوم الأحزاب، ولولا هزيمة الأحزاب يومئذ لم ترتفع للإسلام قائمة على وجه الأرض. وقد وقف رسول الله ﷺ يوم بدر يستغيث بالله تعالى أمام جحافل قريش:

«اللهمّ إن شئت أن لا تعبد لا تعبد»[1]، وهي كلمة معبرة ودقيقة عن هذا المضيق الصعب الذي يمر به الإسلام كله في وادي بدر على مقربة من المدينة.

وقد مرّ الإسلام بعد ذلك على مصائب كثيرة وظروف صعبة وقاسية، مثل دخول المغول إلى بغداد وتخريبهم لعاصمة العباسيين، وإفسادهم الواسع في الأرض، ولكن حدث ذلك كله بعد أن خرج الإسلام من مضيق بدر والأحزاب والطف.

إنّ الأحداث التي لن تتكرر في التاريخ على نحوين: فتوح لا سقوط بعدها، وسقوط لا فتوح بعده.

وفتح (عاشوراء) فتح ليس بعده سقوط.. وهذا هو الذي يقرره الحسين ﷺ في كتابه الذي نتحدث عنه.

فيا ترى ما هذا الفتح الذي ليس بعده سقوط؟

وكيف يصح مثل هذا القول، وقد تكررت بعده هزائم وانتكاسات ومصائب على المسلمين، وتكررت بعدها فتوحات وانتصارات كبيرة للمسلمين؟

والجواب: إنّ هذه الهزائم والانتكاسات حصلت للإسلام وللمسلمين بعد أن خرج الإسلام من مضايق التاريخ وتجاوزها، وانتشر على وجه الأرض فلم تعد لهذه الأحداث خطر على كيان الإسلام، وان كانت تتضمن لـه خسائر واسعة وفادحة وكبيرة كما حصل ذلك في هجوم المغول على بلاد المسلمين، أما بدر والأحزاب فكان لهما شأن آخر يختلف عن غيرهما من الأحداث التي مرت بالمسلمين.

وفتنة بني أُمية كانت من هذا النوع، لقد استحوذ أبناء الطلقاء في حكومتهم على كل المساحة الإسلامية، وعلى كل مواقع القوة والنفوذ في المجتمع الإسلامي؛ وذلك من خلال موقع الشرعية السياسية، وهو موقع خلافة رسول الله ﷺ، وكان من هذا الموقع يأخذ الناس الحلال والحرام في هذا الدين، فعمل بنو أُمية على تحريف هذا الدين من هذا الموقع بالذات.

---

(١) تفسير الميزان ١٢ : ٢٣٨.

ولو كان الأمر يستقيم لهم لم يبق من الإسلام إلّا الاسم، وكان الأمر كما قال الحسين عليه السلام لوالي المدينة يوم دعاه إلى مبايعة يزيد بعد موت معاوية.

«وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمة براع مثل يزيد»(١).

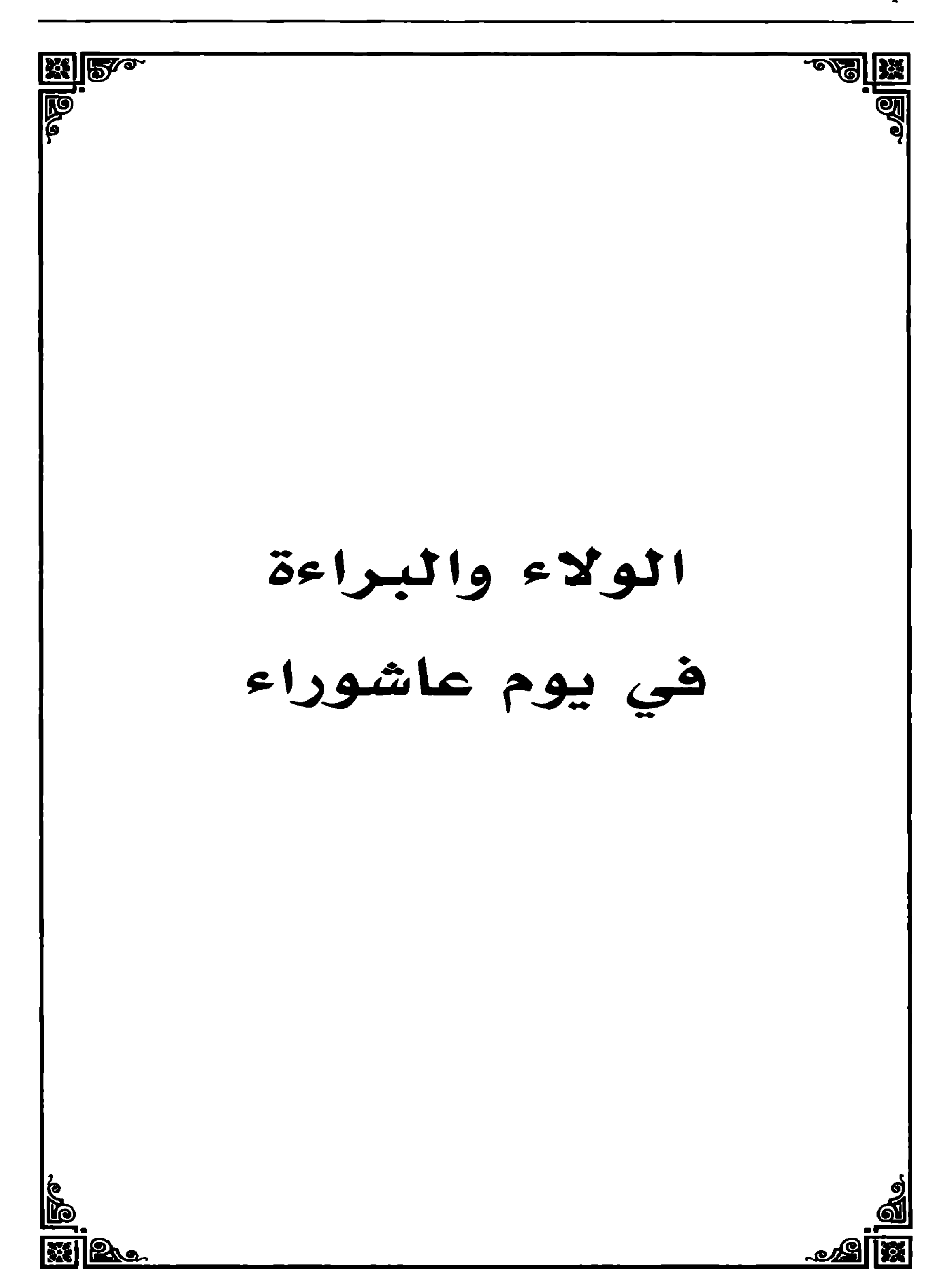
وفي عاشوراء استطاع الحسين عليه السلام أن يلغي شرعية الخلافة من آل أُمية، وبني العباس بعدهم، فلم يعد بعد ذلك للهوهم وطربهم وإسرافهم وترفهم وظلمهم وعدوانهم خطر على الإسلام، مهما بلغ أثره التخريبي على المجتمع الإسلامي يومذاك، ولم يعد ينظر المسلمون إلى موقع الخلافة نظرة التقديس والتنزيه والشرعية، ولم يعودوا في نظر المسلمين غير حكام من عامة السلاطين والحكام، يظلمون ويسرفون، كما يسرف غيرهم من السلاطين.

واستمر حكام بني أُمية، في موقع الولاية والحكم، واحتلَّ هذا الموقع بعدهم حكام بني العباس، إلّا أن الناس لم يأخذوا قط دينهم عنهم، ولم يأخذوا عنهم الحلال والحرام، كما كانوا يعملون في أيام الخلفاء الأوائل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إذن كانت عاشوراء فتحاً ليس بعده فتح، وقد خصّ الله تعالى بهذا الفتح الحسين عليه السلام ومن كان معه من أهل بيته من بني هاشم وأصحابه فنالوا هذا الفتح يوم عاشوراء بمصرعهم المفجع في كربلاء.

---

(١) مثير الأحزان: ١٥، وبحار الأنوار٤٤: ٣٢٦، والعوالم: ١٧٥، ولواعج الأشجان: ٢٦.



الولاء والبراءة في يوم عاشوراء

صراع الولاءات

ليس الصراع من أجل الولاء بأمر جديد في حياة البشرية وتاريخها الطويل، ويتقابل في هذا الصراع محوران:

المحور الأوّل: المحور الرباني وما له من إمتدادات في حياة الإنسان.

المحور الثاني: محور الطاغوت؛ الذي يحاول أن يستقطب ولاء الناس لنفسه، ويعمل على انتزاعه منهم بأساليب قسرية، قهرية، ثقافية، إعلامية، إغرائية.

ولكلّ طاغوت محوره الخاص به، ولكن هذه المحاور جميعاً تقع في قبال المحور الرباني للولاية في حياة الإنسان.

وممّا يلفت النظر في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعروفة بـ«زيارة وارث» تعميق حالة الإرتباط بالمحور الرباني للولاية، والإنفصال عن كل المحاور التي يصطنعها الطاغوت من أجل استقطاب ولاء الناس لنفسه.

التوحيد والشرك في الولاء

والولاء من مقولة التوحيد دائماً، وهي مقولة رافضة للشرك، وتوحيد الولاء من أهمّ مقولات التوحيد.

وليس للإنسان أن يحتفظ بولاء آخر إلى جانب ولاء الله تعالى، مهما كان نوع ذلك الولاء.

وأي ولاء غير ولاء الله لابدّ وأن يقع في مقابل ولاء الله لا محالة إن كان ولاء الوطن أو القوم أو العشيرة أو غيرها إلّا أن يكون في امتداد ولاية الله، وأنّ أكثر مصاديق الشرك الذي كان يحاربه الأنبياء عليهم السلام، والذي ينقله القرآن الكريم هو من شرك الولاء، وليس من الشرك في الخالق.

وقليل من الناس مَن يشرك بالله، ويعتقد بوجود إله خالق غير الله لهذا الكون، ولكن الكثير منهم يشرك بالله في الولاء، فيشرك «غير الله» في ولائه، ويوزّع ولاءه وطاعته «لله» و«لغير الله» معاً، فيعطي للطاغوت حظاً من ولائه ونصيباً من طاعته.

ومن هنا، فإنّ الطاغوت عندما يعمل على تثبيت قيمومته، وسلطانه في حياة الناس، فإنّه إنّما يعلن ـ بذلك ـ الحرب على الله سبحانه وتعالى، لأنّه يتجاوز بذلك على سلطان الله وحدوده سبحانه، وولايته على الناس.

وقد كان أكثر صراع «التوحيد» و«الشرك» في حياة الأنبياء ﷺ في هذا الأمر بالذات، وهو من أغلب حالات الصراع. فقد كان الأنبياء ﷺ يسعون لتوحيد محور الولاء في حياة الإنسان... ويدعون الناس إلى «ولاء الله وطاعته» ويأمرونهم برفض كلّ ولاء آخر غير الولاء له سبحانه.

ضراوة صراع الولاءات

وصراع (الولاءات) في تاريخ الإنسان من أضرى أنواع الصراع، لا تشبهه الصراعات السياسية في حياة الإنسان على الطين والماء، وحتّى إذا سمّينا هذا الصراع بـ«الصراع السياسي» فهو نمط خاص من أنماط الصراع السياسي، وليس من قبيل ما ألفه الناس من الحروب السياسية.

فالمعركة هنا حول مسألة واحدة، وهي: حقّ السيادة والحاكمية في حياة الإنسان.

وحقّ الحاكمية حقّ واحد لا يتجزّأ ولا يتعدّد، فإمّا أن يكون «لله تعالى» فلا يقبل شريكاً ولا نداً، وإمّا أن يكون «لغير الله» كُلّاً أو بعضاً فيكون من الكفر والشرك بالله سبحانه.

وتنشطر البشرية حول هذه المسألة إلى شطرين:

أحدهما: يوحّد الله تعالى بالولاء والطاعة، ولا يقبل لله سبحانه أيّ شريك في الولاء والحاكمية.

والآخر: يتقبّل في الحياة محاور أُخرى للولاء وينقاد لها؛ وقد يكون الولاء للهوى، وقد يكون للطاغوت، وقد يكون الولاء للتراب أو للدم (الوطنية والقومية).

ويعتبر الصراع بين هذين الشطرين من الناس كبرى قضايا الإنسان، وأهمّ أحداث تاريخ حياة الإنسان على وجه الأرض.

ساحة الصراع تتطلب الموقف وترفض المتفرجين

وإذا جاز للإنسان أن يقف موقف اللامبالاة والمتفرج من كثير من القضايا، فلا يجوز له أن يقف موقف المتفرج من قضية الولاء، فهي مسألة جدّية وحقيقية في حياة الإنسان، تتطلب منه موقفاً محدّداً، وصريحاً، وتتطلب منه ثباتاً على الموقف، مهما كلّفه ذلك من جهد وعمل ومهما احتاج إلى تضحيات.

فليست مسألة الولاء في حياة الإنسان مسألة مساومة ولا مجاملة، والإنسان الذي ليس ولاءُه لله لا يزيد على أن يكون ريشة في مهبّ الرياح السياسية والأهواء، والمتغيرات الاجتماعية.

والولاء لله هو الذي يحدّد للإنسان معالم شخصيته ومسار تحركه، ويعطي للإنسان قيمته الحقيقية التي تتمثل في خلافته لله تعالى على وجه الأرض، ويحدّد له الموقف والمنطلق والمسار والغاية.

ومسألة بهذه الدرجة من الأهمية في حياة الإنسان لا يجوز أن يتناولها الإنسان، ويتعامل معها بتسامح وتساهل؛ بل عليه أن يأخذها بقوّة، ويكون في أمرها واضحاً وصريحاً وجادّاً وقويّاً!

عناصر الولاء ومصاديقه

يتجسّد الولاء لله سبحانه وتعالى عبر الارتباط به سبحانه من خلال:

١ ـ الطاعة والانقياد والتسليم

يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وكما أنّ الولاء لله يتّطلب الطاعة لله ولرسوله، والانقياد، والتسليم، فإنّه يتطلّب كذلك رفض الطاعة لغير الله...

(١) سورة النور، الآية: ٥١.

يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾[١]. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢ ـ الحبّ والإخلاص لله سبحانه وتعالى

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾[٣].

٣ ـ النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين

يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٤].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٥].

﴿...وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾[٦].

﴿...وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...﴾[٧]

﴿...فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٨].

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.
(٤) سورة محمّد، الآية: ٧.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٧٤.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

حالة الاستقطاب والتوجيه في الولاء

والولاء بهذا المعنى الشامل يستقطب كل قدرات الإنسان وإمكاناته، ومواهبه، وميوله حول محور واحد، ويوجّه كافة اهتمامات الإنسان وحركته ورغباته إلى ذلك المحور... وبالتالي فإنه ـ يعطي ـ هيمنة شاملة لهذا المحور على كل الكينونة الإنسانية، فينقذ الإنسان من التشتت والتمزّق والضياع الذي يعاني منه كثير من الناس.

إنّ أوّل ما يصنع توحيد الولاء في كيان الإنسان هو أنّه يستقطب كلّ كيانه الداخلي والخارجي حول نقطة واحدة.

ثمّ يوجّه ـ ثانياً ـ هذه المجموعة المنسجمة من الإمكانات والطاقات من ميول ورغبات وأفعال باتجاه واحد، وهو الصراط المستقيم الذي يأمر به الله تعالى، فيتحوّل الإنسان حينئذ من كائن ضعيف متشتّت البال والأحوال ومتوزّع القوى، والقدرات إلى كائن قويّ فاعل باتجاه الصراط المستقيم، لا يصيبه الضعف أو التردّد أو الوهن، ولا يعاني من الحيرة في العمل، ولا يلابسه لبس أو غموض أو شك في التحرك ولا تتنازعه العوامل والأهواء.

ويحررّه ـ ثالثاً ـ من جميع المحاور والعوامل التي تهدّده باحتواء حياته وجهده وحركته، كالأهواء، والأنا والطاغوت، والمال، والمتاع.

ويمنحه ـ رابعاً ـ الإنسجام التام بين الجوارح والجوانح، بين الظاهر والباطن، بين الخارج والداخل، أنّ الولاء يفرض هيمنة كاملة على جوارح الإنسان وعمله وتحركه، ويمنح الإنسان الإنسجام النفسي مع الطاعة والإقبال والحبّ والرغبة.

ومن أهمّ خصائص هذا الإقبال والإنصهار و«المحورية» هي أنها لا تأتي عن قسر، وإرغام، وإنّما تصدر عن إنسجام نفسي كامل للإنسان مع هذا المحور، وإنجذاب شامل نحوه، فإن جوارح الإنسان قد تخضع للقسر والضغط، ولكن الميول والرغبات، والحبّ، والبغض لا يمكن أن تخضع للعوامل الخارجية القاهرة.

ولذلك، فإن حبّ الله والحبّ في الله، والبغض في الله من أهمّ عناصر الولاء والبراءة ومقوّماتهما، وهو الذي يجعل طاعة الإنسان لله وإنقياده لـه ولرسوله وأوليائه: وعبادته إياه تعالى تصدر عن رغبة وحبّ وشوق.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا...﴾[١].

يضرب الله سبحانه لنا مثلاً في «التوحيد» و«الشرك» برجلين:

أحدهما: يتنازعه شركاء متشاكسون، لكل واحد منهم ولاية عليه وسلطان، فهؤلاء الشركاء مختلفون فيما بينهم، وهو موزّع بينهم.

والآخر: قد أسلم أمره كله إلى رجل واحد فقط «ورجلاً سلماً لرجل» يطيعه في كل شيء، وينقاد له في كل أمر، ويتقبّل ولايته وحاكميته في كلّ شأن من غير منازع ولا امتناع.

وهكذا الأمر بالنسبة للتوحيد والشرك.

فالموحّدون من الناس كالذي أسلم أمره لرجل واحد، فهو في راحة من أمره.

والمشركون من الناس كالذي يتنازعه شركاء متشاكسون.

وواضح من هذا المثال أنّ المقصود بالشرك والتوحيد هو: الشرك في الولاء والتوحيد في الولاء.

وفي القرآن عن لسان يوسف الصديق عليه السلام:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[٢].

إنّ صاحبي يوسف عليه السلام في السجن لم يكونا ينكران الله الواحد القهار، وإنّما كانا يشركان أرباباً متفرقين مع الله في الولاية والحاكمية على حياتهم فأنكر يوسف عليه السلام عدم تسليم أمرهما كلها لله الواحد القهّار.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في أسباب البعثة:

«بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله ليُخرج عباده من عبادة العباد إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته»[٣].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

(٣) الوافي ٣: ٢٢.

البراءة

والوجه الآخر لهذه المسألة: البراءة، ولا نفهم معنى الولاء، بمعزل عن البراءة. إنّ هذا الدين ذو طابع حركي يتألف من الهدم والبناء. والبناء يتم في مواضع الهدم.

ومعنى ذلك باختصار ووضوح: إنّ مهمة هذا الدين إزالة كل كيان للشرك والظلم، وإقامة التوحيد والعدل محلّه. وواضح لمن يفهم هذا الكلام أن التوحيد والعدل، في الكيان الجديد لا يقومان في فراغ، وإنما يقومان في موضع الشرك والظلم، ومن الطبيعي أن يغيظ ذلك أئمة الكفر، ويدعوهم إلى مواجهة الإسلام مواجهة صارمة وضارية وشرسة، ولا تنتهي هذه المواجهة إلّا بزوال وسقوط الشرك والظلم.

تحليل لحالة التحدي والمواجهة بين التوحيد والشرك

وما دام للشرك والظلم كيان ودولة وسيادة على وجه الأرض يبقى هذا التحدي والعدوان قائماً في وجه هذا الدين وفي وجه المدافعين عنه.

ومهمة هذا الدين على وجه الأرض تحرير الإنسان من أسر الطاغوت، والهوى، وإزالة العقبات عن طريق الإنسان إلى الله.

وهذه المهمة وتلك تصادر الكيان السياسي والاقتصادي، والثقافي، والإعلامي للطاغوت بطبيعة الحال مصادرة كامله... ولا يمكن أن يتم كلّ هذا التحدي الكبير للكيان السياسي للطاغوت دون مقاومة شرسة وضارية، وتحد مستميت من قبل الطاغوت.

وفي مقابل هذا التحدي الشرس والمواجهة الضارية التي يقوم بها الطاغوت في وجه هذا الدين لابد من موقف مماثل في المواجهة من جانب معسكر التوحيد... فلا يجوز مواجهة إعلان الحرب من جانب معسكر الطاغوت بالسلم والمصالحة والتسامح من جانب معسكر التوحيد.

إنّ الحالة المكافئة لهذه التحديات والمواجهات التي يتلقاها المسلمون من ناحية معسكر الطاغوت هي مواجهة الحرب بالحرب، والتحدي بالتحدي، ومن دون ذلك لا تقوم قائمة لمعسكر التوحيد على وجه الأرض.

ولا بدّ إلى جانب هذه المواجهة، والمقابلة بالمثل من المقاطعة والمفاصلة الكاملة لمعسكر الشرك، في كل الوجوه، وكل الأبعاد وهذه هي البراءة التي تعتبر الوجه الآخر للولاء في الإسلام.

إنّ الطبيعة الحركية للإسلام تتطلب من الأُمة المسلمة في مواجهة التحديات الصعبة حالتين هما وجها قضية واحدة، وهما التماسك الداخلي، أوّلاً، والمفاصلة، والمقاطعة، والمواجهة للعدو من الخارج، ثانياً.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

أوّلاً: التماسك، والإنسجام، والتناصر، والتعاون، والمطاوعة داخل كيان الأُمة، وهذا هو الوجه الأوّل في هذه القصة وهو وجه الولاء.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2].

أجل، إن بعضهم من بعض، وهذا أجمل تعريف لوحدة الكيان السياسي للُامة.

وفي الحديث:

«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»[3].

«تواصلوا وتبارّوا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله»[4].

فهذا كلّه لتكون الأُمة جسماً متضامن الأعضاء والأطراف، كالبنيان المرصوص، كما يقول الله تعالى.

ثانياً: المفاصلة الكاملة مع أعداء الله ورسوله الذين يتربّصون بهذا الدين سوءاً.

يقول تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[5].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[6].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) رواهما عن رسول الله مسلم في صحيحه ٨: ٢٠، دار الفكر.

(٤) بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩، عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ...﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ...﴾[2].

وهذه هي حالة البراءة من أعداء الله تعالى وأعداء الرسول ﷺ، وهي تحريم موالاتهم ومودتهم والتحبب إليهم.

ويتطلب ذلك الترابط القوي من الداخل، وهذه المفاصلة التامة من الخارج، وجود قيادة مركزية تتولى قيادة مسيرة الأُمة لمواجهة التحديات واجتياز العقبات، وتحرير الإنسان، وإزالة الإصر والأغلال عنه، وإزالة العقبات عن طريق الله.

ومن دون وجود هذه القيادة المركزية لا يتم تحقيق هذه الأهداف الكبرى للدعوة في حياة الإنسان.

الولاء في امتداد التوحيد

وهذا الولاء يأتي في امتداد التوحيد، ولا قيمة لهذا الولاء إن لم يقع في إمتداد التوحيد.

إنّ الولاء الحقّ في حياة الإنسان ما يقع في هذا الامتداد. وكل ولاء آخر في حياة الإنسان لا يقع في امتداد التوحيد، ولا يكون بإذن الله وأمره[3]، فهو من الولاء الباطل الذي ألغاه الإسلام.

والولاء الحقّ امّا أن يكون أو لا يكون.

فإذا كان الولاء فلا بدّ وأن يكون بوجهه الإيجابي والسلبي معاً (الولاء لله وحده ورفض الولاء لغير الله) ولا تقلّ قيمة الوجه السلبي عن قيمة الوجه الإيجابي.

فلا يتمّ الولاء لله تعالى إلّا برفض أي ولاء آخر مع ولاء الله فضلاً عن أن يكون من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

(٣) يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ سورة النساء، الآية: ٦٤.

دونه (في عرضه فضلاً عن أن يكون مقاطعاً للولاء لله)، وأنّ قبول أي ولاء آخر مع ولاء الله سبحانه ـ أو من دونه ـ يعني الشرك بالله تعالى.

وبناءً على ما تقدم فإنّ مسألة توحيد الولاء إذن من أهم خصائص الولاء، وقد سبق وأن أشرنا إلى أنّ أكثر مصاديق الشرك في القرآن الكريم هو الشرك في الولاء وليس الشرك في الخالق. والله تعالى وحده هو مصدر الولاية والحاكمية والسلطان.

فالولاية ـ إذن ـ محور ثابت لا يتعدّد ولا يتجزّأ ولا يتغيّر.. وهي لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يمنح هذه الولاية إلى من يشاء من عباده.

فلن تكون ثمة ولاية ـ إذن ـ في قبال ولاية الله.

ولن تكون هناك ولاية ـ أبداً ـ بغير إذن الله، ولا حاكمية من دون أمره.

الولاء الحقّ بإذن الله، وفي امتداد ولاية الله وبنصبه

ونحن نجد هذه الحقيقة واضحة فيما يحكي الله تعالى لنا من تنصيب عباد له أولياء وأئمة وخلفاء على الناس، لم تتمّ لهم إمامة ولا ولاية على الأمة، لولا أنّ الله تعالى قد خصّهم بذلك وأناط إليهم هذا الأمر.

ففي قصّة إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

والإمامة ـ هنا ـ بمعنى الولاية، وقد جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً، بعد أنّ كان نبياً.

وفي قصّة داود عليه السلام، يقول تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2].

والخلافة هنا بقرينة قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ تعني الولاية والحاكمية.

ويقول تعالى عن ذرية إبراهيم عليه السلام لمّا نجّاه الله تعالى من القوم الظالمين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٢ ـ ٧٣.

ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

والآية الكريمة واضحة في أمرين: الأمر الأول: إن الله تعالى لم يرسل رسولاً إلّا ليطاع، والأمر الثاني: ان لا طاعة مشروعة إلّا بإذن الله.

ولا نريد ـ هنا ـ أن نسهب في هذا القول، وإنّما نريد فقط أن نشير إلى أنّ مصدر الحاكمية والسلطان في حياة الإنسان هو الله تعالى وليس الأمة، كما تذهب الاتجاهات الديمقراطية الحديثة إلى ذلك، وكما يذهب إلى ذلك بعض المسلمين جهلاً بدينهم، وليس لأحد من دون إذن الله تعالى أن يتولى أمراً من أمور المسلمين.

والأصل في هذا الأمر، هو أنّ الله سبحانه وتعالى مصدر كل سلطة وسيادة في حياة الناس، وليس هناك في النصوص الشرعية ما يشير إلى أنّ الله عز وجل قد فوض إلى الأمة هذا الأمر، نقول هذا بعد دراسة واسعة لنصوص التفويض. ليس محلها هنا.

دور الولاء واهميته في حياة الأمة

عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «بُني الإسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يناد بشي كما نودي بالولاية»[2].

وعن عجلان بن صالح قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أوقفني على حدود الإيمان، فقال عليه السلام: «شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، وولاية وليّنا، وعداوة عدوّنا، والدخول مع الصادقين»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والولاية، قال زرارة (راوي الحديث) فقلت، وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال عليه السلام: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهنّ...

ثمّ قال عليه السلام: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء، ورضى الرحمن: الطاعة للإمام

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) أُصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٢٩.

(٣) أُصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٠.

بعد معرفته أنّ الله ﷻ يقول: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[1]، ثمّ قال ﷺ: «أُولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته»[2].

وهذا الحديث يستوقف الإنسان طويلاً، فمن قام ليله وصام نهاره، ولم يعرف ولاية الله، ولا ولاية أوليائه لم يستكمل عناصر الإيمان، لأن طاعة الله لا تكتمل بالطاعة في ثوابت الشريعة، كما قلنا، ما لم تنضم إليها الطاعة الثابتة لرسوله ﷺ وأولياء الا ـور من بعده، وهي من طاعة الله أيضاً.

وذلك لأنّ جوهر الدين ليس عبارة عن مجموعة تعليمات من العبادات، والمعاملات والعقود، والإيقاعات فقط، وإن كان ذلك من صلب هذا الدين، وإنّما هو الارتباط بالله ورسوله وأوليائه على وجه الأرض فيما يأمر به الله رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده[3] مسألة الولاية إذن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) أُصول الكافي٢: ١٨، بحار الأنوار: ٦٨ ـ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) وقد أمر رسول الله أُمته من بعده بالارتباط بأهل بيته بعد كتاب الله ليحدّدوا لهم معالم دينهم تبييناً وتفصيلاً، وليتولوا القيادة السياسية بعد رسول الله ﷺ في أمّته في أمرين:

الأمر الأول: الولاية والسيادة والحاكمية.

الأمر الثاني: المرجعية الدينية في تبيين الحلال والحرام وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل وتبيين من كتاب وسنة رسول الله ﷺ. وكلا الأمرين من صلب الولاية والطاعة.

أما أولاً ـ فإن هذا الدين شريعة حاكمة في حياة الناس، يتولى الحكم والقيادة في حياة الناس.. ولا يتم ذلك من دون مصدر شرعي للطاعة والسيادة والحاكمية.. ولا طاعة ولا حاكمية ولا سيادة من غير إذن الله تعالى.

وقد أذن الله تعالى لرسوله بالولاية. يقول تعالى: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) الاحزاب/ ٦. وهو معنى الولاية بشكل دقيق.. فإن الولاية هي أولوية صاحب الولاية على سائر الناس في أمورهم من انفسهم، وألزم المسلمين بطاعته (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) النساء/ ٥٩.

وقد أعلن رسول الله ﷺ في غدير خم في حجة البلاغ بانتقال هذه الولاية من بعده إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.. فقال لهم: ألست أولى بكم من أنفسكم، (وهو ﷺ يشير إلى الآية السادسة من سورة الأحزاب). فقالوا: نعم، فقال: من كنت مولاه فهذا مولاه (وقد أخذ يد عليّ بيده) أمام جمهور المسلمين، ثم دعا له ولمن يواليه ويطيعه وينصره في ولايته (اللهم وال من والاه وانصر من نصره) ودعا على من يخذله في ولايته على المسلمين (واخذل من خذله) ومصادر الحديث أكثر وأوضح من أن يشك فيه أحد يحترم علمه ومعرفته بالحديث، وقد صرح جمع من أعلام الحفاظ والمحدثين من أهل السنة بصحة طائفة من طرق هذا الحديث..

وقد خصص المحقق المتتبع السيد مير حامد حسين الكنهوي خمس مجلدات في إسناد هذا الحديث

مسألة أساسية في هذا الدين، ولا يستطيع هذا الدين أن يؤدي دوره الأساسي في ارتباط الإنسان بالله تعالى، وفي قيادة الإنسان إلى تحقيق أهداف هذا الدين في الحياة، وتعبيد الإنسان لله، وإزالة الحواجز التي يزرعها الطاغوت في طريق هذه الدعوة. من دون (الولاية).

وهذه الحقيقة تقررها حتمية الصراع بين محوري «الولاية» و«الطاغوت»، بشكل دائم في تاريخ الإنسان.

الإنسان بين محوري (الولاية) و(الطاغوت):

إنّ هذين المحورين يعملان باتجاهين متعاكسين في حياة الإنسان، وكل منهما يعمل لاستقطاب ولاء الإنسان وفصله عن المحور الآخر.

وإلى هذا الصراع بين محوري «الولاية»و«الطاغوت» تشير الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ

وطرقه وتصحيح جملة منها، كما خصص خمس مجلدات أخرى في دلالة هذا الحديث، وخصص الشيخ الأميني الجزء الأول من كتابه (الغدير) في إسناد هذه الرواية ودلالتها.. والأمر أوضح وأبين من أن نتوقف عند سند هذا الحديث.. وهذه هي المرجعية السياسية والقيادية في الإسلام من بعد رسول الله ﷺ.

وأما ثانياً ـ وهو المرجعية الدينية في تبيين الحلال والحرام وتفصيله وبيان أحكام الله، وتبيين ما يحتاج منها إلى تبيين وتفصيل ما يحتاج منها إلى تفصيل من مجملات الشريعة.. وقد جعلها رسول الله ﷺ في أهل بيته من بعده ليحول دون تمذهب الشريعة، وتعددية المذاهب الفقهية في الإسلام، وهو الوجه الآخر للحاكمية والسيادة، ولا تتم السيادة إلا بهما معاً.

وحديث رسول الله ﷺ في إناطة المرجعية الدينية في تبيين الحلال والحرام وتفصيل الشريعة إلى أهل بيته يتناقله الفريقان بطرق صحيحة في أحاديث كثيرة، ومن أوضحها حديث الثقلين الذي رواه جم غفير من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد مثل مسلم بن الحجاج النيسابوري في صحيحه (صحيح مسلم) والترمذي في صحيحه (سنن الترمذي) والامام أحمد بن حنبل في مسنده في مواضع عديدة والنسائي في (السنن) والمتقي في (كنز العمال) والحاكم في (المستدرك) والسيوطي في (الدر المنثور) و(إحياء الميت) وعشرات المصادر الأخرى الموثقة المعتبرة، وإليك بعض ألفاظه برواية الترمذي في صحيحه:

(يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي). أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما). أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

ولسنا نريد أن نطيل في هذا البحث.. فقد كتب فيها المحدثون والمحققون مجلدات كبيرة في إسناده ودلالته.

وهذا هو الوجه الثاني للولاية والحاكمية، ولا تتم الولاية والحاكمية إلا بها.

ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١].

الاستكبار والاستضعاف

ولا يتمّ للطاغوت تطويع الناس لإرادتهم، وسلب حريتهم وإرادتهم إلّا من خلال (الاستضعاف)، وهو عملية معقّدة يحسنها هؤلاء المستكبرون المفسدون في الأرض، ويمقتها الله تعالى ورسوله والمؤمنون.

وتتلخص هذه العملية الثقافية والنفسية في استلاب القيم والمواهب التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، من الشجاعة، والعفة، والعقل، والكرامة، والمقاومة، والعطاء، والأيمان، والأخلاق... وعندئذ يتحول الإنسان إلى حالة خفيفة لا وزن لها في الحياة الاجتماعية والثقافية، والسياسية، تجري مع الموج كالخشبة العائمة التي لا وزن لها، يأخذها الموج معه بدون مقاومة، وقد عبّر القرآن عن هذه العملية بالاستخفاف.

يقول تعالى عن فرعون طاغية مصر في عصر موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ أي سلبهم القيم والمواهب التي تحفظهم من الانجراف مع الأمواج... وعندئذ يكون الإنسان مطواعاً، إمعة، لا يعصي للطاغية أمراً، ويتطابق معه في كل شيء من الموقف إلى الرأي، والفهم إلى الذوق، وأُسلوب المعيشة.

يقول تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ...﴾ وهذه الطاعة هي الطاعة غير الواعية. فإن الطاعة، طاعتان: طاعة قائمة على أساس الوعي والبصيرة، وهي قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]، وطاعة غير واعية، وهي الطاعة الحاصلة من الاستضعاف، وفقدان البصيرة، واستلاب القيم الإنسانية عن الإنسان، والاستخفاف من ثقله، ووزنه الإنساني، وهي قوله تعالى﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[٣].

خصائص الصراع بين الحقّ والباطل

١ ـ هذا الصراع في جوهره صراع عقائدي يدور حول محور الشرك والتوحيد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

والذي ينعم النظر في آيات التوحيد والشرك في القرآن يجد أن أكثر هذه الآيات تخص التوحيد، والشرك في الولاء، وليس في الخلق.

وقليل من الأمم والمذاهب والناس يشركون بالله في الخلق والتكوين... وإنّما الشرك الذي يرفضه ويشجبه القرآن، ويقع فيه الناس كثيراً هو الشرك في الولاء.

٢ ـ وهذا الصراع العقائدي يؤول أمره إلى صراع حضاري بين حضارتين، لهما جذور هما في التاريخ وامتدادهما على وجه الأرض، وهما حضارة التوحيد، وحضارة الشرك... إذن هذا الصراع صراع حضاري، وكل من المعسكرين المتصارعين يملكان المقوّمات الحضارية التي تخصّ المعسكر الذي ينتمون إليه في أُسلوب الفكر ومنهج العمل.

٣ ـ الخصلة الثالثة لهذا الصراع إنّه صراع سياسي على مراكز القوى في المجتمع، وأهم هذه المراكز: السلطة السياسية، والمال، والإعلام، والقوة العسكرية، ووسائل التوجيه الثقافي.

وهذه المراكز تدعم عمل كل من هذين المعسكرين... والطرف الذي يملك هذه المؤسسات والمراكز هو الطرف الأقوى في هذه المعركة.

وكل من الطرفين المتصارعين يعمل للاستيلاء على هذه المراكز، واستخدامه لتمكين حضوره، وعمله في المجتمع.

٤ ـ هذا الصراع من حتميات التاريخ الكبرى، ومن سنن الله التي لا تتحول ولا تتبدل، ولا يمكن لكل من المعسكرين التخلص منه ومن تبعاته وآثاره، إلّا بالتخلّي عن عمله ودوره.

إن الجماعة المؤمنة تعمل لبسط نفوذها على كل المراكز والمواقع في المجتمع...

ولا تستطيع أن تعمل وتمارس دورها في أداء رسالتها، دون أن تبسط نفوذها السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والإعلامي... على وجه الأرض.

وهذا أمر لا يتم في فراغ، وإنّما يتم في مساحة عمل واهتمام الطاغوت وأئمة الضلال... ولن يتخلى الطاغوت عن مساحة عمله، ولا عن دوره في التخريب والإفساد في حياة الإنسان إلا بعد جهد وعناء طويلين وصراع مرير ولذلك فلا يخلوا التاريخ من الصراع بين هاتين الحالتين منذ أن خلق الله الإنسان بهذه التركيبة النفسية الخاصة، ومنذ أن دخل الإنسان في حركة الصراع الحضاري السياسي إلى اليوم، وإلى ما شاء الله من الأيام، ويقرر القرآن هذه الحتمية التاريخية بهذه الصورة الواضحة:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾(١).

آية عجيبة في كتاب الله... إن هؤلاء لا يكفّون عن قتالنا وملاحقتنا حتّى يردّونا عن ديننا إن استطاعوا.

ولا نتوقف كثيراً في تحليل وتفسير هذا الإصرار على قتال المسلمين، فإن هذا الدين يمتد على مساحة نفوذ وحضور ومصالح الطاغوت، بطبيعة الحال.

وكل امتداد للإسلام على وجه الأرض، وفي مواقع القوة يساوي انسحاباً مكافئاً له من قبل الطاغوت.

فلا محالة يقابل أئمة الكفر هذا الدين والمنتمين إليه بكل ما لديهم من فكر وكيد وأذى لاستئصالهم من الوجود أو ردهم عن دينهم إنّ استطاعوا.

ولا يصحّ ولا يجوز في كل الحسابات التغافل عن هذا الإصرار في الكيد والقتال ولا يمكن مواجهته إلّا بقرار مكافئ لهذا القرار وهو قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾(٢).

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾(٣).

إنّ هذا القتال مهما كان شكله وصيغته الفقهية، دفاعاً أو هجوماً، فهو في حقيقته دفاع عن الإنسان والإسلام.

٥ ـ وهذا الصراع يطول ويدوم وتتصل حلقاته، ولا يمكن حلّ هذا الخلاف بالتصالح والتفاهم.

فإنّ المصالحة والتلاقي والتفاهم يقع إذا كان الصراع على أرض أو ماء أو معدن أو منجم أو بئر للنفط أو سوق... أما عندما يكون الصراع صراعاً حضارياً عقائدياً على هذا المستوى فلا يمكن علاج مثل هذا الصراع إلّا بسقوط مواقع قوة الكفر... فإن هذه المواقع ما دامت قائمة في حوزة الكفر، وفي قبضة أئمة الكفر، فهي مصدر فتنة دائمة، ولا تنتهي هذه الفتنة إلّا بسقوط مواقع القوة، والمال، والسلطان السياسي والعسكري من يد أئمة الكفر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1].

إنّ حدود هذا القتال سقوط مواقع القوة لدى الاستكبار العالمي الكافر... فإن هذه المواقع ما دامت في حيّز الاستكبار فسوف تتصل حلقات الفتنة في حياة الناس، وسوف يتولى أئمة الكفر مهمة إعاقة الإنسان عن الحركة إلى الله واستلاب حرية الإنسان وكرامته وقيمه حتّى يكون خشبة عائمة في مجرى الحياة.

فهذه المعركة تستمر حتّى القضاء على كل مواقع القوة للإستكبار الكافر والقضاء التام على الفتنة من على وجه الأرض، وإنهاء حالة التمرد على الله ورسوله.

ولهذا السبب فإنّ هذه المعركة معركة شرسة وضارية لا يعرف التاريخ نظيراً لها في الشراسة والقسوة والحدّية.

والتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت، هو تفكير فيه فجاجة، وسذاجة وضعف، وهزيمة نفسية، وهذه الهزيمة هي بداية كل هزيمة ميدانية، وبداية الهزيمة النفسية هو التفكير في إمكان اللقاء والتفاهم مع الطاغوت وإنهاء الصراع معه، والجلوس أمامه على مائدة التفاهم.

إنّ المعركة مع الطاغوت إذن معركة وجود وليس معركة حدود، ولم تنشأ عن اختلاف في المصالح حتّى يمكن فيها التفاهم، والتلاقي، والتصافي، والتعايش، وتطبيع العلاقات.

وللمرة الأخيرة أقول: إن موقف الدعوة إلى الله في هذه المعركة موقف الدفاع وليس الهجوم... ولكن بتعديل يسير في مفهوم الدفاع والهجوم. فإننا نقصد بالدفاع هنا الدفاع عن الإنسان وحرّيته وكرامته التي يسلبها الطاغوت.

وكما أن عدوان الطاغوت على الإنسان وكرامته وحريته وقيمته جريمة، كذلك السكوت عن عدوان الطاغوت على الإنسان جريمة.

ومن حقّ دين الله، والدعوة إلى الله، ومن حقّ الإنسان الذي ندعوه إلى الله... علينا أن ندافع عنهما، ولا نسمح للطاغوت أن يعيق الإنسان عن الله، ولا نسمح له أن يحجب هذا الدين عن الإنسان.

وهذا هو جوهر الدفاع الذي تحدثنا عنه، عن الدعوة وعن الإنسان.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

٦ ـ إنها تتطلب من الأُمة المؤمنة أن تقف مواقف واضحة وحدّية وحاسمة في مسألة إعلان «الولاء» و«البراءة»... إعلان الولاء لله ولرسوله ولأولياء أُمور المسلمين، وإعلان البراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه...

فلا بد ـ إذن ـ من موقف...

ولابدّ وأن يكون الموقف واضحاً وحدّياً ومعلناً...

فإنّ المعركة مع أئمة الكفر جدّ لا هزل فيها...

وأنها قائمة لا انتظار لها أو استدعاء...

وأنّها حتمية وضارية لا تردد فيها أو استرخاء...

وأنّها شرسة لا هدوء فيها ولا لين ولا رحمة...

ولا يكفي أنّ يضمر الإنسان الحب لله ولرسوله ولأوليائه من دون أن يكون له موقف، ومن دون أنّ يعرف الناس عنه ذلك...

ولا يكفي أن يكون قلب الإنسان مع الله ورسوله وأوليائه ويكون سيفه وحرابه عليهم[١].

ولا يكفي أن يعطي المرء لله ورسوله وأوليائه بعضاً من نفسه وماله، ليعطي البعض الآخر منها للطاغوت.

ولا يكفي أن يعطي نفسه كلها لله تعالى، ولكنّه يجامل الطاغوت أو يحتفظ لنفسه ببعض جسور العودة.

ذلك، لأنّ الولاء كلّ لا يتجزأ: فأما أن يكون كلّه لله تعالى، وأمّا أن لا يكون لله منه شيء، فإن الله غني عن العالمين.

فالولاء ـ إذن ـ يتطلّب الموقف المحدّد الثابت، والإشهار بالموقف في مسألة «الإنتماء»،

---

(١) التقى الإمام الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق بمنزل الصفاح بالفرزدق بن غالب (الشاعر) فسأله عن خبر الناس خلفه.

فقال الفرزدق: قلوبهم معك والسيوف مع بني أُمية والقضاء ينزل من السماء.

فقال الحسين عليه السلام: صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم هو في شأن إن نزل القضاء بما نحب نحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد(يهتم) من كان الحقّ نيته والتقوى سريرته. تاريخ الطبري ٦: ٢١٨، وابن الأثير٤٠: ١٦.

و«الإنفصال».. في الحب والبغض، في المودة والمعاداة، في التولي والتبرّي، في السلام والحرب.

٧ ـ إن «الولاء» و«البراءة» وجهان لحقيقة واحدة في هذه المعركة التاريخية وما تتطلبه من مواقف.

ولا ينفع «ولاء» من دون «براءة»، ولا يؤدّي الولاء دوره الفاعل والمؤثّر في حياة الأُمة ما لم يقترن بالبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

فالموقف، لا يتكون من «الولاء» وحده، وإنّما له وجهان: وجه موجب ووجه سالب، سلم وحرب، رحمة وقسوة، إنتماء وإنفصال، حبّ وبغض.

وما لم يتجمع هذان الوجهان في موقف الإنسان فإن الموقف لن يكون موقفاً حقيقياً، وإنّما يكون شعبة من شعب النفاق وطوراً من أطوار المجاملة السياسية واللعب على الحبال.

قال تعالى: ﴿...أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

٨ ـ وكما أنّ محور الولاية مركز واحد، وخطّ واحد، وإمتداد واحد على طول التاريخ، فإن محور الطاغوت ـ أيضاً ـ خط واحد، وحضارة واحدة، وامتداد واحد. ونحن لا نفرّق في الولاء بين أنبياء الله وأوليائه، القريب منهم من عصرنا والبعيد منهم عن عصرنا، فكلّهم يحملون رسالة الله ويبلّغون دين الله، وآتاهم الله من لدنه النبوّة والإمامة والولاية على عباده، فنحن نواليهم جميعاً، ونؤمن بما أنزل الله معهم، ولا نفرّق بين أحد منهم.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

وكما نوالي أولياء الله جميعاً، يجب أنّ نتبرّأ من أعدائهم جميعاً.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

وكما أنّ الولاء أمر واحد، فإنّ البراءة أمر واحد أيضاً.

فيجب أنّ نتبرّأ من فرعون ونمرود، كما نتبرّأ من أبي جهل ويزيد، وكما نبرأ من طغاة عصرنا وجلاوزته.

وذلك، لأن السبب الذي يدعونا للبراءة من طغاة عصرنا، ويدعونا للعنهم، يدعونا أيضاً للبراءة من فرعون ونمرود وأبي جهل ويزيد والحجاج وقابيل، ويدفعنا للعنهم.

فإنّ المعركة بين محوري «الحقّ» و«الباطل».. و«الهدى» و«الضلال» و«الولاية» و«الطاغوت»، ليست معركة شخصية، وإنّما هي معركة حضارية، وأنّ لكلّ من الجبهتين امتدادهما التاريخي وجذورهما الحضارية في أعماق الهدى أو الضلال، وأنّ المعركة في جوهرها هي معركة واحدة في كلّ مراحلها التاريخية، والولاء ولاءٌ واحد، والبراءة براءة واحدة، في كلّ مراحل المعركة وأزمنة الصراع.

واقعة الطف محكّ لمعدني الولاء والبراءة

إنّ وقعة الطف في كربلاء منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم مشهد من أبرز مشاهد الولاء والبراءة؛ وهي متميزة من بين الكثير من أحداث التاريخ الكبرى، ومشاهد الصراع بين الحقّ والباطل في استقطاب ولاء المؤمنين وبراءتهم.

ولذلك، فإنّ ولاء المؤمنين وبراءتهم يتجلّى على صعيد قضية كربلاء أكثر من غيرها من قضايا الصراع بين الحقّ والباطل.

ويتجسد «الولاء» و«البراءة» في هذه الوقعة ضمن مظاهر كثيرة: من إقامة مجالس العزاء، والبكاء، والزيارات، ومسيرات العزاء، والوفود إلى كربلاء للزيارة، والأدب والخطابة، والشعر والتمثيل، وغير ذلك من المشاهد الكثيرة التي تعبر عن ولاء المؤمنين للحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه وبراءتهم من أعدائهم.

إنّ وقعة الطف من مواقع الصراع المؤثرة في التاريخ، التي تفرض نفسها على الأجيال، فلا يملك أن يمرّ عليها الإنسان مروراً عابراً، أو يقف عندها وقوف المتفرّج أو يقرأ سطورها بلا مبالاة وعدم اكتراث.

وبالرغم من مرور أكثر من ألف وثلاثمائة سنة على هذه الواقعة المفجعة، فإنها لا تزال تملك تأثيراً قوياً على النفوس والقلوب والعقول، وتفرض نفسها على كل من آتاه الله بصيرة ووعياً في دينه.

ولا تزال الأجيال تتلقى قضية كربلاء بحرارة وحماس، وتتفاعل معها في الإيجاب والسلب، في الولاء والبراءة، فما هو السر الكامن في هذه القضية؟

وما الذي جعل منها مرآة للولاء والبراءة، عبر هذا التاريخ الطويل؟

إنّ وقعة الطف تتميّز بالوضوح الكامل الذي لا يبقي شكّاً لأحَد في طرفي هذه المعركة.

فلم يكن هناك إلتباس في أمر المعركة التي حدثت على أرض الطف، ولم يكن هناك أحد يشك في أنّ الحسين عليه السلام كان يدعو إلى الله ورسوله، وإلى الإستقامة على صراط الله القويم، ولم يكن هناك أحد يشك في أنّ يزيد بن معاوية قد تجاوز حدود الله تعالى، وأعلن الخروج والتجاوز على حدود الله، وجاهر في الفسق والفجور، وهو يجلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلم يكن بين المسلمين يومئذ من يتردّد لحظة واحدة ـ وهو يقف على ساحة الصراع بين أبي عبد الله الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية ـ في الحكم بأنّ الحسين عليه السلام على هدى وأنّ يزيد على ضلال.

وعليه، فلم يكن في أمر هذه المعركة خفاء أو لبس، فمن وقف مع الحسين عليه السلام وقف عن بيّنة في الهدى، ومن وقف مع يزيد وقف عن بيّنة في الضلال.

وقليل من مشاهد الصراع بين الحقّ والباطل، تمتلك كل هذا الوضوح الذي تمتلكه وقعة الطف.

فقد وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين الصفين، وقال مخاطباً جيش بني أُمية:

«أيها الناس، إنسبوني من أنا ثمّ أرجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟.. ألستُ ابن بنت نبيكم؟ وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟

أوليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أوليس جعفر الطيار عمّي؟

أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة، فإن صدقتموني بما أقول وهو الحقّ، فوالله ما تعمدّت الكذب، منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من أختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه أخبركم.

سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي،

وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟

فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله أني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»[١].

وعندما حاول الوليد ـ عامل يزيد على المدينة ـ أن يجبر الإمام الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد والرضوخ له، قال الإمام عليه السلام: «أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحرمّة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[٢].

لقد كانت الجبهتان المتصارعتان في كربلاء متميزتين في إنتمائهما لمحور الولاية الإلهية والطاغوت، ولم يكن الأمر يخفى على أحد.

فقد أمضى أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دوي كدوي النحل بين قائم وقاعد وراكع وساجد[٣]...

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله أن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيض القواضب إنّهم أحرار[٤]

تقول فاطمة بنت الحسين عليه السلام: «وأما عمتي زينب فإنها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها، والله فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنة»[٥].

هكذا كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام.. شوقاً إلى لقاء الله، وإقبالاً على الله، وإعراضاً عن الدنيا وزخرفها، وانقطاعاً عن الدنيا إلى الله تعالى.

حتّى أنّ بعضهم كان يداعب أصحابه ويمازحه في ليلة العاشر، استهانة بالعدو وقوته وشراسته واستبشاراً بما يلقون من الفوز عند الله.

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للمرحوم السيد عبدالرزاق المقرّم: ١٢٧ ط. النجف.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٨.

(٤) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة له يرثي بها الحسين عليه السلام.

(٥) مثير الأحزان: ٥٦.

فقد هازَل برير عبد الرحمن الأنصاري عليهما الرحمة، فقال له عبد الرحمن: ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكنّي مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة[١].

وأما الطرف الآخر من هذه المعركة (معسكر آل أبي سفيان) فقد كان همّه هو ما يصيبه من الذهب والفضة والإمارة والجائزة، في قتال ابن بنت رسول الله ﷺ.

فقد تولّى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله ﷺ طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي[٢].

وفيه يقول:

أأترك ملك الري، والري منيتي	أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

ثمّ يقول:

وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة الفاسقين وحمله إلى ابن زياد، ودخل به عليه وهو يقول:

املأ ركابي فضّة أو ذهبا	إني قتلت السيّد المحجبا[٣]
قتلت خير الناس أُماً وأبا	وخيرهم إذ يذكرون نسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال: إذا علمت أنّه كذلك فلم قتلته؟، والله لا نلت مني خيراً أبداً ولألحقنك به[٤].

ويتبجّح الأخنس بن مرثد الحضرمي من رضّهم للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم، وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره، فيقول كما يروي الخوارزمي:

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر	بكل يعبوب شديد الأسر

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

(٢) مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢.

(٣) في بعض الروايات: (السيد المهذبا) بدلاً من (السيد المحجبا).

(٤) مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٣.

حتّى عصينا الله رب الأمر بصنعنا مع الحسين الطهر[١]

فلم يكن في الأمر ـ بالنسبة لكلا المعسكرين ـ أي خفاء.

وإنّ جميع الذين عاصروا المعركة أو شهدوها، أو وقفوا عليها من قريب أو بعيد. كانوا يعرفون الحقّ والباطل فيها، ويميزون دعوة الله عن دعوة الطاغوت، ولم يتخلّف أحد عن نصرة الحسين عليه السلام نتيجة لالتباس الأمر عليه وعدم قدرته على تمييز الحقّ عن الباطل، وإنّما كان التخلف عنه عليه السلام بسبب إيثار العافية والراحة على القتل في سبيل الله سبحانه، ولم يشهر أحد فيها السيف على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله عن لبس أو جهل أو غموض، وإنّما أشهره عن وضوح وعلم ودراية بأنه يحارب الله ورسوله وأوليائه بقتال الحسين عليه السلام.

وهذا الوضوح في ساحة المعركة هو الذي يجعل معركة الطف معركة متميّزة بين سائر المواقع التاريخية؛ فهي تعكس صورة صارخة من صراع الحقّ والباطل، والمجابهة بين محور الولاية لله ولرسوله ومحور الطاغوت؛ ولذلك فإنها كانت رمزاً خالداً للصراع بين الحقّ والباطل، ومسرحاً للولاء والبراءة في حياة المؤمنين.

إنّ وقعة الطف لا تُبْقي مجالاً لأحد في التردّد والتأمّل، فهي المواجهة الصارخة بين الحقّ والباطل، بين حزب الله وحزب الشيطان، بين الهدى والضلال.

فلا بدّ من موقف محدّد وواضح في هذه القضية.

فإنّ لم يكن هذا الموقف موقف الولاء لجند الله والبراءة من أعدائهم، فإنّه سيكون ـ لا محالة ـ موقف الرضى بفعل يزيد وجنده، وهو الموقف الذي يستحقّ صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله.

«فلعن الله أُمة قتلتك، ولعن الله أُمة ظلمتك، ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به»[٢].

فإنّ مجرد فقدان الموقف في قضية الولاء يؤول إلى موقف الرضى بما لقيه الإمام الحسين عليه السلام من ظلم وقتل.

فمن خذل الإمام الحسين عليه السلام ولم يقف معه يوم استنصر المسلمين، لا يكون إلّا راضياً بفعل يزيد، إذ لو لم يكن راضياً به لما أبطأ عن نصرة الإمام عليه السلام.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للخطيب الخوارزمي ٢: ٣٩.

(٢) زيارة وارث.

فالخذلان والسكوت والتفرج على ساحة الصراع، من دون تكلّف معاناة المشاركة تعتبر في مفهوم الولاء موقفاً رافضاً وسلبياً، وهو موقف يستحق صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله الواسعة.

ولأن قضية كربلاء قضية متميّزة من بين الكثير من أحداث التاريخ الكبرى، وتتطلب وضوح الموقف والرأي دائماً، نجد أنّ هذه القضية تستثير الولاء في نفوس المؤمنين بصورة مستمرة ودائمة وقوية.

ولهذا، فإنّ البكاء، وإقامة مجالس العزاء، وتنظيم المسيرات، والوفود إلى كربلاء لزيارة مرقد الإمام الطاهر، وغيرها من مظاهر الولاء والإنتماء ليس كلها من العاطفة، فإنّ العاطفة وحدها لا تملك كل هذا التأثير القوي في حياة الناس.

وإذا كانت معركة الطف رمزاً للصراع بين الحقّ والباطل، ومحوراً للولاية والبراءة، فإنّ الإنشداد والتفاعل في هذه القضية بمعنى الإعلان عن الولاء والبراءة، والإنشداد بمحور الولاية.

والدلالة الأُخرى للولاء والبراءة في حادثة الطف هي أن الولاء للحسين عليه السلام هو ولاء لكل أولياء الله تعالى في التاريخ، والبراءة من أعداء الحسين عليه السلام هي براءة من كل أعداء الله وأعداء أوليائه في التاريخ، وقد كان الحسين عليه السلام يحمل مواريث هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في موقفه في كربلاء.

فهو وارث الأنبياء والصالحين جميعاً، وإلى ذلك تشير الزيارة المعروفة بـ(وارث) «السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمّد حبيب الله، السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله»[1].

فإنّ أنبياء الله وأوليائه وعباده الصالحين امتداد واحد لولاية الله سبحانه على وجه الأرض، وفي حياة الإنسان، يتحركون على خط رسالي واحد، يُدعون إلى الإلتفاف حول محور واحد، يحملون هموم التوحيد وقضيته.

كما أنّ أعداءهم الذين قاوموهم وأعلنوا عليهم الحرب والعدوان، ووقفوا أمام المسيرة

---

(١) زيارة وارث.

الإلهية الكبرى في فترات التاريخ المختلفة يُعَدون امتداداً واحداً، وخطاً حضارياً واحداً، وقضية واحدة.

إنّ الإحساس بوحدة الولاء ووحدة البراءة يُعمّق وحدة المحور في حياة الأُمة.

والشعور بوحدة محور الأُمة المسلمة يعمّق الشعور بأنّ الأُمة المسلمة على امتداد التاريخ ـ ومنذ آدم عليه السلام إلى اليوم الحاضر ـ هي أُسرة واحدة، تلتف حول محور واحد، وتحارب في جبهة واحدة ومن أجل قضية واحدة، وتشترك في الحب والبغض والسلم والحرب، فقضيتها نفس القضية، ومهمتها على وجه الأرض واحدة، وخطّها واحد وحضارتها واحدة، وإيمانها واحد.

وعندما يتعمق الإحساس بوحدة الولاء، ووحدة البراءة، ووحدة الحبّ، ووحدة البغض، ووحدة الطاعة، ووحدة العداء، ووحدة الإيمان، ووحدة الرفض، عند المؤمن فسوف يتعمّق لديه الإحساس بوحدة الأُسرة المؤمنة في التاريخ وعلى وجه الأرض، فيشعر المؤمن عندئذ بأنّ الولاء لله ولرسوله ولأوليائه يطوى به الزمان والمكان ليجعل من هذه الأُمة المسلمة كلها كتلة واحدة، تتّحد في مشاعرها، وأحاسيسها، وإيمانها، وحربها، وسلمها، ورسالتها، ويشعر بالتحام قويّ يربطه بأعضاء هذه الأُسرة العظيمة، رغم الفترات الزمنية المتباينة، والمسافات المكانية المتباعدة؛ وبذلك فإنّ الشعور بوحدة المصير سوف يقوى في نفسه ويتعمق، فيمنحه إحساساً بالقوة والاعتزاز بالله.

فهو ليس وحده في هذه المعركة الضارية، وإنّما هو أُمة مؤمنة، عريقة في التاريخ، وممتدة على كل وجه الأرض، تستعين بالله الواحد القهّار في إرساء قواعد هذه الدعوة، وتعبيد الناس لله تعالى، وتحكيم هذا الدين في حياة الناس، وإزالة كافة العقبات من أمام طريق الدعوة هذه.

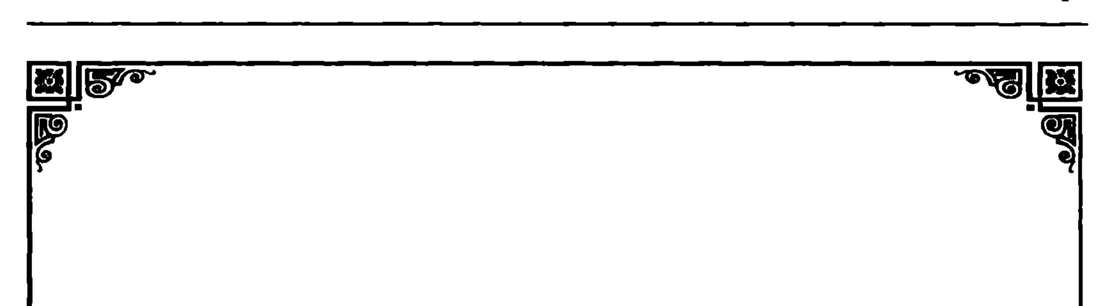
إنّ هذا الإحساس بمعيّة الله ومعيّة المؤمنين سيزيل الشعور بالوحشة والانفراد عن نفوس الدعاة إلى الله في خضم الصراع مع الطاغوت ومواجهة سطوته وجبروته وكبريائه.

وقد كان إبراهيم عليه السلام وحده أُمة، قانتاً لله في مواجهة نمرود.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.



البيان الأول للثورة الحسينية

خطب الحسين عليه السلام بمكة عشية خروجه منها إلى العراق في ملأ من المسلمين، ونعى نفسه إليهم، واستنصرهم، ودعاهم إلى الخروج معه على حكومة بني أُمية. ونحن نروي الخطبة برواية السيد ابن طاوس رحمه الله في الملهوف:

في هذه الخطبة يذكر الإمام الحسين عليه السلام الموت، وينعى فيها نفسه إلى المسلمين فيقول:

«خَطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة من جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عُسْلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء. فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده».

ثمّ يخاطب المسلمين فيقول:

«ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

وسوف نقتصر نحن في هذه التأمّلات على شرح الكلمة الأخيرة للإمام عليه السلام.

«ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله».

وإليكم تسع نقاط في هذه الفقرة من خطاب الحسين عليه السلام:

وندع شرح صدر الخطاب إلى فرصة أخرى أوسع إن شاء الله.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

١ ـ ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته

لا يطلب الحسين ﷺ من الناس مالاً، ولا زعامة، ولا سلطاناً، ولا شأناً من شؤون الدنيا، وإنّما يطلب منهم مهجهم، وهو أغلى وأعزّ ما يطلب إمام من مأموميه، ولا يدعوهم إلى الخروج معه لينالوا فتحاً أو سلطاناً أو يُسْقطوا سلطاناً، وإنّما يدعوهم للخروج ليبذلوا مهجهم وأفئدتهم ودماءهم. وهذا نموذج فريد من القادة، ونموذج فريد من الخطاب السياسي.

إن القادة لا يريدون من الناس مهجهم وأفئدتهم عادةً، وإنما يدعون الناس لتحقيق أهداف سياسية أو عسكرية، ويدفعون من مهج الناس وأفئدتهم ما تحتاجه هذه الغايات، ضريبة للمكاسب والإنجازات التي يطلبونها.

أمّا الحسين ﷺ فيدعو الناس منذ أوّل يوم إلى أن يبذلوا لـه مهجهم وأفئدتهم ودماءهم، دون أن يُمنّيهم بمكاسب سياسية وعسكرية عاجلة، وهي الميزة الفريدة التي تتميز بها ثورة الحسين ﷺ عن غيرها من الحركات، والثورات، والخطاب الحسيني عن سائر الخطابات السياسية. ووعي هذه الخصلة مسألة مهمة في فهم ثورة الحسين ﷺ.

مقارنة بين الحرّ الرياحي وعبيد الله بن الحر الجعفي

وليس كلّ الناس كانوا يفهمون حقيقة دعوة الحسين ﷺ يومئذ، وقد أدرك ناس من الجبهة الأُخرى المناوئة للحسين ﷺ جوهر هذه الدعوة، وجهلها آخرون من موقع المتخلّفين، وموقع التخلف أهون على كل حال من موقع المواجهة والمناوئة على خارطة الصراع.

ولنذكر على ذلك مثالاً عن هذا الموقع وذاك:

لقد أدرك الحرّ بن يزيد الرياحي ـ وهو يشغل يومئذ رسمياً موقع المواجهة من معسكر الحسين ﷺ ـ حقيقة الدعوة الحسينية، وعلم أنّ الحسين لا يطلب من الناس مالاً، ولا زعامة، ولا سلطاناً، وإنّما يطلب منهم مهجهم وأفئدتهم، بينما لم يعرف عبيد الله بن الحر الجعفي هذه الحقيقة في دعوة الحسين ولم يكن هو من المعسكر الذي يقاتل الحسين ﷺ، فلما دعاه الحسين ﷺ إلى أن ينصره ويقف معه أعتذر عن الاستجابة، وقال: ما عسى أن أغني عنك ولم أخلّف لك بالكوفة ناصراً؟ فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه (الملحقة)، والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلّا لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلا سبقته، فخذها فهي لك.

فقال لـه الحسين عليه السلام: «إمّا إذا رغبت بنفسك عنا، فلا حاجة لنا في فرسك»[١].

ولو كان يعي ابن الحر الجعفي ما يطلبه الحسين منه لم يكن يقدّم للحسين فرسه عوضاً عن نفسه ودمه ومهجته.

وهذا فارق في الوعي بين الحرّ وابن الحرّ، علماً بأن عبيد الله بن الحرّ الجعفي لم يكن يومئذ في موقع المواجهة الرسمية والمعلنة مع الحسين عليه السلام، وإنما كان يحرص ألّا يلتقي بالحسين عليه السلام لئلّا يُحرجه الإمام ويطلب منه النصرة، ثمّ لمّا طلب منه الإمام عليه السلام النصرة اعتذر وتخلّف، وكان في عداد (المتخلفين) عن نصرة الإمام، ولم يكن في عداد المقاتلين للإمام، وندم بعد ذلك على تخلفه عن الحسين عليه السلام، فلم ينفعه ندمه.

ورغم الفارق الكيفي بين الموقع السياسي لكل من الحرّ وابن الحرّ إلّا أنّ الأوّل قد أدرك من الحسين عليه السلام ما لم يدركه الثاني.

والفارق الآخر بين الحرّين، أنّ الحرّ الرياحي أعطى للحسين عليه السلام ما يريد، أما عبيد الله بن الحرّ الجعفي فقد اعتذر إلى الإمام عن النصرة، وقال للإمام بصراحة: (إنّ نفسي لا تسمح بالموت)... ولكن هذه فرسي...

وهذا فارق في (العطاء)

فيعطيه الأوّل مهجته التي طلبها الحسين عليه السلام، ويعطيه الثاني فرسه (الملحقة).

والإنسان (وعي) و(عطاء)، والعطاء يتبع الوعي.

وهذا هو الفارق بين الحر وابن الحر.

٢ ـ باذلاً

والكلمة الثانية (باذلاً) وهذه قضية ثانية يطلب فيها الحسين عليه السلام من الناس أن يبذلوا لـه مهجهم ودماءهم، بذلاً عن وعي واختيار من غير قسر ولا إجبار، بل بطوع إرادتهم واختيارهم، فلا يريد أن يغتصب الناس مهجهم، ولا هو من الذين يخدعون الناس عن مهجهم ودمائهم.

وهذه قضية أصرّ عليها الحسين عليه السلام بشكل غريب منذ أن خرج من الحجاز إلى أن لقى

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي: ٣٦٨.

مصرعه مع أهل بيته وأصحابه في كربلاء، أكثر من مرة أذن لأصحابه ولأهل بيته بالانصراف، وجعلهم في حلّ من بيعته.

وآخر مرة عرض عليهم الانصراف، والحلّ من بيعته ليلة العاشر من محرم، إذ جمعهم عنده، وقال لهم بنفس الصراحة والوضوح الذي عهدوه منه من قبل: «ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثمّ ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثمّ تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتّى يفرّج الله، فإن القوم إنّما يطلبوني. ولو قد أصابوني للهوا عن طلب غيري»[1].

ولم يكن الحسين عليه السلام، يومئذ، وهو يعلن لأصحابه وأهل بيته أنهم في حلٍّ من بيعته، ويأذن لهم في الانصراف إلى سوادهم ومدائنهم، ليلة مصرعه، في كربلاء، لم يكن الحسين عليه السلام يزهد في نصرة أصحابه، وإنّما كان في أمسّ الحاجة إلى الأنصار، وكان لا يُفرّط في فرصة تمر عليه يستطيع أن يدعو فيها الناس على العموم، أو بالخصوص إلى نصرته إلّا ويعلن فيها الاستنصار والدعوة، فلماذا هذا التأكيد المكرر لأصحابه وللذين التحقوا به أنّ ينصرفوا إلى بلادهم وأهلهم؟ ولماذا يصرّ الحسين عليه السلام إلى جنب ذلك، على إعلان الاستنصار؟

وكيف يجتمع هذا الإصرار على الاستنصار مع هذا التأكيد على الإذن لأصحابه وأنصاره بالانصراف في نفس الوقت، والتحلل من بيعته؟

إن الأمر عند الحسين عليه السلام واضح، فهو يريد من الناس أن يبذلوا له مهجهم (بذلاً)، عن وعي وبصيرة، وبمحض إرادتهم، من دون قهر أو حرج أو حياء، ولماذا؟

لأن الطريق الذي يريد الحسين عليه السلام أن يقطعه لا يمكن أن يقطعه الناس إلّا إذا مضوا معه بوعي وبصيرة وإرادة وعزم، وأمّا إذا قطعوا هذا الطريق عنوة، أو من غير وعي وطواعية، فلا يبلغون ما يريده الحسين عليه السلام.

إنّ الحسين عليه السلام يريد أن يستصفي من هذه الأُمة أنقاها جوهراً، وأصفاها قصداً ونيّة وإخلاصاً، ليصطحبهم معه إلى لقاء الله في كربلاء، ولو كان يشوب نفوسهم شيء من الحرج أو الحياء أو الطمع في الدنيا في خروجهم مع الحسين عليه السلام إلى مصارعهم في كربلاء ولو بنسبة

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٢١ ـ ٣٢٢، لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ١١٨.

قليلة؛ لفقدوا في نفوسهم وقصدهم هذا الصفاء والخلوص الذي يطلبه الحسين عليه السلام من أصحابه في خروجهم إلى لقاء الله.

إنّ هذه الرحلة رحلة إلى لقاء الله، وهي تختلف عن أية رحلة أخرى، ومثل هذه الرحلة تتطلّب من الصفاء والنقاء في القصد والنية ما لا تتطلبه رحلة أخرى، ولذلك كان الحسين عليه السلام يحرص حرصاً بليغاً أن يكون خروج أصحابه معه عن (بصيرة) و(اختيار).

هذا من ناحية (ربّانية الحركة) التي كان الحسين عليه السلام يحرص على تحقيقها في حركته.

وأمّا من الناحية (السياسية) ـ وهو الهدف الآخر للحسين عليه السلام (في امتداد الربانية) ـ فإنه عليه السلام يريد أنّ يهزّ ضمائر المسلمين وقلوبهم بمصرعه ومصرع من معه من المؤمنين وأن يعيدهم إلى أنفسهم بعد أن انتزعهم أبناء الطلقاء عن أنفسهم. ولن يتمّ للحسين عليه السلام مثل هذا الانقلاب العميق في نفوس الناس، وهذه العودة إلى الذات إلّا إذا كانت العناصر التي تشارك في صنع هذه الملحمة الخالدة تتصف بالبصيرة والعزم.

وبعكس ذلك لو كانت هذه العناصر من العناصر الضعيفة والرجراجة التي تقدّم خطوة وتؤخر أخرى كان مردود عملها ومشاركتها بالاتجاه السلبي.

ومن هنا كان الحسين عليه السلام يريد بإصرار من الناس أنّ يبذلوا له أنفسهم ومهجهم بذلاً، عن إرادة واختيار وبصيرة.

٣ ـ فينا

وهذه قضية ثالثة في دعوة الحسين عليه السلام فهو يريد أوّلاً من الناس أنّ يضحّوا بمهجهم.

ويطلب منهم ثانياً أن تكون هذه التضحية عن اختيار وبصيرة وبذل.

ويطلب منهم ثالثاً أن يكون هذا الجهد وهذه التضحية (فيهم)، وهذه الثالثة هي مسألة الانتماء والولاء، لا في جهة أخرى ولغاية أخرى من الغايات التي يعمل لها الناس.

وهذه مسألة في غاية الأهمية، فإن قيمة العمل ليس في حجمه ونوعه وشكله فقط، وإنما في انتمائه أيضاً.

فقد خرج كثيرون على بني أُمية ونقموا عليهم، ونشروا مثالبهم، وقاتلوهم، وتحمّلوا العذاب، والمطاردة، والخوف، والرعب، وضحوا بأنفسهم في ذلك، ولكن في سياقات

سياسة أخرى غير سياق الولاء وخط الولاء السياسي والعقائدي الذي فرضه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[١].

لقد خرج عليهم عبد الله بين الزبير، وخرج عليهم الخوارج، وخرج عليهم أبو مسلم الخراساني وآخرون من الناس، وليس بإمكاننا أنّ نستهين بالجهد والتضحية التي بذلوها في هذا السبيل، ولكن كان ينقصهم الانتماء والولاء الذي يعبر عنه الإمام عليه السلام بهذه الكلمة: (فينا).

ولا قيمة للعمل إذا فقد حالة (الانتماء) والارتباط والولاء، على الخط الذي يحدده الله ورسوله.

وشروط العمل الصالح هي:

صلاح العمل أوّلاً.

والإخلاص في العمل لله ثانياً.

والانتماء (الولاء) ثالثاً.

والانتماء أصل، كما إنّ صلاح العمل، والإخلاص لله تعالى أصلان في العمل.

ومعنى الانتماء أن يقع العمل ضمن نظام الولاء لله ولرسوله ولأولياء أمور المسلمين وللأمة المسلمة التي يجمعها الولاء لله ولرسوله ولأولياء الأمر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

إنّ مسلسل الولاء والانتماء هو النظام السياسي والحركي والعقيدي للأمة المؤمنة، والعمل الصالح هو العمل الذي يقع ضمن هذا النظام وعلى خط الارتباط، والانتماء، ولتفعيل الانتماء والولاء لله ولرسوله ولأوليائه..

ولابد أن يقع هذا الانتماء في امتداد الانتماء لله ولرسوله، وبأمر من الله ورسوله أو أذنهما... ومن دون ذلك لا يصح ولاء وانتماء.

وهذه المقولة خاصة بهذا الدين، وليس في الأنظمة الفكْرية والسياسية الاُخرى قيمة لارتباط العمل وانتمائه بهذا الحجم، وإنّما يُقيّم العمل بنوعه وحجمه. وأما في الإسلام فالأمر يختلف اختلافاً كبيراً، ويكتسب العمل قيمته الحقيقية بعد إحراز صلاح العمل بالارتباط

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

والانتماء وابتغاء وجه الله تعالى وحده (الولاء) و(الإخلاص) ومن دونهما لا تكون للعمل قيمة.

وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في كتاب الله التي تخص الولاء والانتماء لله ولرسوله ولأوليائه وللمؤمنين، كما توضحه النصوص الكثيرة عن رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ.

روى عجلان عن الإمام الصادق ﷺ، قال: قلت لأبي عبد الله (الصادق): أوقفني على حدود الإيمان.

فقال: «شهادة أنّ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والدخول مع الصادقين»[١].

وعن أبي جعفر (الباقر) ﷺ، قال: «بُني الإسلام على خمس أشياء، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية.

قال: زرارة (راوي الحديث) فقلت وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن»[٢].

والحسين ﷺ حلقة في هذا السلسلة: وجزء من نظام الولاية، ولذلك فهو يشترط في أن يكون هذا البذل، والعطاء، والتضحية، ضمن هذا النظام: (فينا).

٤ ـ الإخلاص

وموطّناً على لقاء الله نفسه (الإخلاص لله):

وهذه هي النقطة الرابعة والخامسة والسادسة في الخطاب الحسيني، فالإمام ﷺ في هذه الفقرة يشير إلى ثلاث قضايا في دعوته وهي (الإخلاص) و(التوطين)، و(لقاء الله).

ولابدّ منها جميعاً معاً في مثل هذا المشروع الثوري الكبير الذي ينهض به الحسين ﷺ.

وأوّلها الإخلاص لله. فإن الغاية من هذا العمل كله هو لقاء الله.. وكل الجهد والبذل والتضحية من أجل كسب لقاء الله. وهذا هو الإخلاص، والإمام ﷺ يطلب ممن يصحبه في

---

(١) أُصول الكافي ٢: ٨.

(٢) أُصول الكافي ٢: ٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣.

هذه الرحلة أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله، وليس لأيّة غاية أخرى. وأيّة غاية أخرى غير لقاء الله لا قيمة لها في هذه الرحلة.

والنص التالي: هو أوّل رواية يذكرها البخاري في كتابه (الصحيح) عن رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

أمّا الارتباط به عليه السلام الذي عبّر عنه بكلمة (فينا)، والذي شرحناه من قبل فهو انتماء وليس غاية، وهو واسطة للارتباط بالله.

وأما الغاية من العمل فهي ابتغاء وجه الله ومرضاته، وفي نفس الوقت هو المبدأ في تسلسل حلقات الولاء، وإذا انقطعت أية حلقة من حلقات الولاء من الله تعالى سقطت، وفقدت كل قيمتها.

ومحاور الولاء ـ ومنها سيد شباب أهل الجنة ـ جسور، وسبل إلى الله، وإلى هذا المعنى تشير الفقرات الواردة في زيارة (الجامعة الكبيرة) المعروفة:

السلام على محالّ معرفة الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله.

السلام على الدعاة إلى الله، والأدلاء على مرضاة الله، والمستقرين في أمر الله.

ولكيلا نتصور إن كلمة (فينا) الواردة في هذه الدعوة الحسينية غاية في حد ذاتها، يتداركه الإمام عليه السلام ويقول: «وموطّناً على لقاء الله نفسه»[٢].

وهذا هو معنى الإخلاص والتوحيد في (الولاء).

٥ ـ التوطين

والقضية الخامسة التي يشير إليها الإمام عليه السلام في هذه الدعوة: (التوطين)، ولابد منها في هذا الرحلة العسيرة والشاقة.

فهذا الذي يدعو إليه الحسين عليه السلام من بذل المهج والنفوس لله ليس بالأمر السهل اليسير، وقد عبر عنه القرآن في سورة الأنفال بـ (ذات الشوكة). وقد يندفع الإنسان في هذا الطريق من

(١) صحيح البخاري ج١، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله.

(٢) العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبد الله البحراني: ٢١٧.

دون إعداد وتوطين، ثمّ يتزلزل في أثناء الطريق، وتهتز قدمه، ويدخله الخوف والرعب ويتراجع.

ولنا في مسيرة الرسالات شواهد كثيرة على ذلك.

ولكيلا يتراجع الإنسان، ولا تفاجئه أهوال الطريق يجب عليه أن يعدّ نفسه للقاء الله إعداداً خاصاً، ويوطّن نفسه لهذه الرحلة العسيرة على طريق ذات الشوكة توطيناً.

وهو يشبه إلى حد كبير الحديث المعروف «موتوا قبل أن تموتوا!»[١] فإن الموت الأوّل في هذا الحديث حالة إيحائية تتمُ داخل النفس بتقطيع العلاقات التي تربط الإنسان بالدنيا، استعداداً لتلقي الموت، فإذا نزل به الموت لم يفاجئه الموت وبهذه الحالة من الإيحاء النفسي يمتص صدمة مفاجأة الابتلاء والموت الحقيقي كثيراً.

والإيحاء الثاني للتوطين: توطين النفس للرضا بقضاء الله، وما قدّره تعالى لعبده على طريق ذات الشوكة.

وإلى هذا المعنى التربوي الدقيق تشير النصوص الإسلامية؛ ففي دعاء كميل: «واجعلني بقسمك راضياً قانعاً»[٢].

وفي زيارة (أمين الله):

«اللهمّ أجعل نفسي مطمئنة بقدرك، راضية بقضائك، صابرة على نزول بلائك»[٣].

وكلمة (التوطين) تحمل هنا هذا المعنى التربوي العميق، وتُعِدُّ الإنسان لاستقبال الابتلاء من جانب الله بحالة التسليم والرضا بقضاء الله.

وهذا الإيحاء الثاني يقوم أيضاً بدور مؤثر في امتصاص صدمة مفاجأة الموت والابتلاء من نفس الإنسان في ساحة المواجهة والصراع.

٦ ـ لقاء الله

والنقطة السادسة في الخطاب الحسيني: وهي التوطين (للقاء الله)، وهذه الكلمة هي التعبير الشفاف والرقيق الذي اختاره الإمام للموت.

---

(١) مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي ٨: ٦٣.

(٢) إقبال الأعمال، ابن طاوس الحسيني ٣: ٣٣٢.

(٣) بحار الأنوار ٩٩: ١٨٥.

وللموت وجهان: وجه سلبي ووجه إيجابي، والوجه السلبي هو حالة (الفصل) والوجه الإيجابي هو حالة (الوصل).

وذلك أنّ الموت يقوم بتقطيع كل العلاقات التي كوّنها الإنسان لنفسه، وبناها في الحياة الدنيا بجهد وحرص وتعب خلال أيام عمره دفعة، ومرة واحدة، من العلاقة بالأموال والبنين، والأزواج والقناطير المقنطرة من الذهب، والفضة والخيل المسوّمة، وما إلى ذلك من العلاقات التي يكوّنها الإنسان لنفسه في عمره بجهد وحرص، ويأنس بها أنساً شديداً منقطع النظير، فيفصل الموت الإنسان عن كل هذه العلاقات مرة واحدة فجأة.

وهذا هو الوجه السلبي المرعب والمخيف للموت وهو وجه (الفصل) من هذه الحتمية الإلهية التي تنزل بأي إنسان من دون استثناء.

والوجه الآخر للموت، وهو الذي يشير إليه الإمام الحسين عليه السلام في هذه الكلمة، هو وجه (الوصل)، وهو الجانب المشرق والإيجابي من الموت، فإن الموت هو النافذة التي فتحها الله تعالى على عباده للقائه، ومن خلال نافذة الموت يتم للصالحين من عباده لقاؤه؛ فإن الدنيا تحجب الإنسان عن لقاء الله فإذا حلّ به الموت تساقطت عنه الحجب، وأمكنه أنّ يرقى إلى لقاء الله تعالى.

وقد جاء هذا التعبير في القرآن الكريم في مواضع عديدة.

يقول تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾[١].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[٢].

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٣].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾[٤].

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾[1].

وهذا هو الوجه المشرق للموت.

ويختلف موقف الناس النفسي من الموت باختلاف الوجه الذي ينظرون من خلاله إلى الموت، فالذين ينظرون إلى الموت من خلال الوجه السلبي يرعبهم الموت ويصدمهم عند المفاجأة، والذين ينظرون إلى الموت من الوجه الثاني يجدون في الموت نافذة إلى لقاء الله، فيحبون الموت ويقبلون عليه ويتمنونه، ويجدون في الموت فوزاً بلقاء الله؛ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمّا ضربه اللعين ابن ملجم وسقط في محراب صلاته: «فزت ورب الكعبة»[2]، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم عندما يتحدى اليهود في دعواهم ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[3].

وقبل أنّ نختم الحديث عن هذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام نتساءل: كيف يتمكن الإنسان أنّ يوطّن نفسه للموت ولنزول البلاء حتّى لا تصدمه مفاجأة الابتلاء في ساحة البأساء والضراء، التي خلق الله تعالى الإنسان فيها، وحتّى لا يهتز الإنسان في زلزال الابتلاء؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إنّ هناك عاملين تربويين في حياة الإنسان يساعدان الإنسان في توطين نفسه للابتلاء والموت، وهما الإكثار من ذكر الموت أوّلاً، وتركيز الشوق إلى لقاء الله تعالى في النفس، والنظر إلى الموت من خلال هذا الوجه الإيجابي والمشرق ثانياً.

ففي المحاولة التربوية الأولى، يأنس الإنسان إلى الموت، ويألف التفكير فيه فلا يصدمه الموت والابتلاء عندما ينزل بالإنسان، وفي المحاولة التربوية الثانية يجد الإنسان في الموت نافذة إلى لقاء الله، وكأنما الحياة الدنيا كانت تعيقه عن ذلك فيحرّره الموت عن عوائق الدنيا ليلقى الله تعالى في الآخرة وتقر عينه بلقاء جلال الله وجماله، وأسمائه الحسنى. والذين يحظون بهذا اللقاء يجدون فيه من اللذة وقرة العين مالا يضاهيه شيء آخر.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧.

(٢) خصائص الأئمة للشريف الرضي ص٦٣، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ١١٨، وعنه البحار ٤١: ٢ ح٤.

(٣) سورة الجمعة، الآيتان: ٦ ـ ٧.

٧ ـ فليرحل

هذه الرحلة تختلف عن كثير من الرحلات الأُخرى. فلها ظاهر وباطن.

ظاهر هذه الرحلة من الحجاز إلى العراق لنصرة الحسين عليه السلام، وباطن هذه الرحلة، الرحلة من الأنا إلى الله، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الاستئثار إلى الإيثار، ومن الخمول وإيثار العافية إلى التضحية والجهاد. الرحلة الأولى على وجه الأرض في ساحة الصراع السياسي، والرحلة الثانية داخل النفس. وما لم يجتمع هذان البعدان ـ معاً ـ في هذه الرحلة فلا تنفع هذه الرحلة ولا تبلغ غايتها.

والبعد الباطني لهذه الرحلة قبل البعد الظاهري، وهو الذي يقوّم البعد الظاهري.

والذين لم يستجيبوا لدعوة الحسين عليه السلام في هذه الرحلة، والذين تراجعوا عنها عندما جدّ الجد كانوا من الذين لم يرحلوا الرحلة الثانية داخل نفوسهم.

ومن أفضل الشواهد على هذه الرحلة الباطنية داخل النفس في أصحاب الحسين عليه السلام، زهير بن القين رحمه الله. فقد كان أموي الهوى، فأصبح حسينياً. وكان يؤثر العافية في حياته، فآثر الابتلاء على العافية، وكان من أبناء الدنيا، فانقلب إلى الآخرة، وأمر بفسطاطه وثقله إلى جهة الحسين، وطلّق زوجته الشجاعة الصالحة التي علّمته كيف يأخذ القرار الصعب في الأزمات الصعبة، كلّ ذلك خلال دقائق معدودة.

ولسنا نعلم إلى اليوم ما الذي حدّثه الحسين عليه السلام عندما خلى به؟ وما الذي جرى بينه وبين الحسين عليه السلام؟ ولكنّا نعلم أن هذا اللقاء كان حدّاً فاصلاً بين مرحلتين من حياة زهير رحمه الله، وأن زهيراً رحمه الله، تعرض في هذا اللقاء لانقلاب عميق صحبه إلى الله.

ولنقرأ القصّة برواية الطبري عن أبي مخنف:

قصة الانقلاب النفسي في حياة زهير

يروي أبو مخنف عن السدي عن رجل من بني فزارة، كان مختبئاً معه في دار الحرث بن أبي ربيعة في (التمارين) أيام الحجّاج بن يوسف الثقفي، وكان هذا الرجل الفزاري مع زهير بن القين رحمه الله.

قال: فسألته عن خبرهم مع الحسين عليه السلام.

فقال الفزاري: (كنّا مع زهير بن القين البجلي، حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام.

فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير، حتّى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بداً من أنّ ننازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغذى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّى سلّم، ثمّ دخل، فقال: يا زهير بن القين، إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه. قال: فطرح كل إنسان منا ما في يده حتّى كأننا على رؤوسنا الطير(١).

قال أبو مخنف فحدثتني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين قالت: قلت: أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه؟ سبحان الله! لو أتيته فسمعت من كلامه ثمّ انصرفت. قال:فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه، قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فَقُدم وحُمِلَ إلى الحسين عليه السلام.

ثمّ قال لامرأته: (أنت طالق، إلحقي بأهلك، فإني لا أحبّ أن يصيبك سوء بسببي إلا خيراً). وهذا هو البعد الظاهري من الرحلة(٢).

وكان زهير رحمه الله ضمن أسرة سياسية واجتماعية وعائلية، ومرتبطاً بمجموعة من العلائق المادية والسياسية والاجتماعية، ومحاطاً بسياج من العوائق المادية والسياسية والاجتماعية، فحلّ نفسه بانتفاضة سريعة وقوية من هذه (العلائق) جميعاً، وتحرّر منها، وأزاح هذه العوائق جميعاً من أمامه، والتحق بالحسين عليه السلام؛ فأصبحت علائقه حسينية، ولكلّ أسرة علائقها وعوائقها، وولاؤها وبراءتها. ولا تخلوا أسرة حضارية من هاتين الخصلتين في الجاهلية والإسلام، والحقّ والباطل.

وقد كان هوى زهير للأسرة الأموية، فتحول إلى الأسرة العلوية، وانقلب ولاؤه وبراءته وعلائقه وعوائقه من الأموية إلى العلوية.

وهذا هو البعد الباطني لهذه الرحلة، وهو جوهر هذه الرحلة، والذين تخلّفوا عن الحسين عليه السلام في هذه الرحلة، كانوا متخلفين في الرحلة الأُخرى داخل نفوسهم، وما لم تتم للإنسان هذه الرحلة الشاقة في داخل نفسه لا يتوفق إلى الرحلة المماثلة لها في ساحة الصراع.

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق.

وتلك الرحلة هي الهجرة الكبرى، أما الرحلة في ساحة الصراع، وعلى وجه الأرض فهي الهجرة الصغرى في حياة الإنسان.

والهجرة الكبرى هي الأساس للهجرة الصغرى، والجهاد الأكبر هو أساس التوفيق في الجهاد الأصغر.

ولا يزال الخطاب الحسيني: «فليرحل معنا» يدوّي في التاريخ، في آذان أهل العافية من أبناء الدنيا، وفي آذان المرعوبين والخائفين والمستضعفين، يدعوهم الحسين عليه السلام أن يرحلوا من دنياهم إلى دنياه، من دنيا الخنوع والتهافت على حطام الدنيا، وحب الدنيا إلى دنيا العزّ والترفع عن حطام الدنيا والزهد في الدنيا.

ولا تزال قافلة الحسين عليه السلام تتحرك، وتقطع أشواطاً من طريق ذات الشوكة، يلتحق بها ناس آثروا الآخرة على الدنيا، ورضوان الله على حطام الدنيا، ويتخلف عنها ناس طال أملهم في الدنيا فاثّاقلوا إلى الأرض.

٨ ـ معنا

وليهنأ أصحاب الحسين عليه السلام بمعيّة الحسين في هذه الرحلة، وقد روى في الأسفار الشاقة عندما كانت الرحلات الطويلة شاقة وخطرة وعسيرة: (الرفيق قبل الطريق)[١].

وطريق كربلاء، طريق شاق وعسير وطويل، ليس في ذلك شك. وطريق صاعد، وعر، كثير المزالق.

يبدأ من نقطة (الأنا) وينتهي إلى الله تعالى، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن التعلّق بالدنيا إلى التجرد والترفع عن الدنيا، وتكثر المزالق والمخاطر على هذا الطريق. ويكثر المعرضون عنه ويقلّ روّاده، ولكن (معيّة) الحسين عليه السلام تؤمن سلامة الحركة والوصول إلى الغاية.

وفي كل طريق صعب وشاق يحتاج الإنسان إلى (دليل) و(قدوة). ومهمة (الدليل) هو التوجيه والدلالة. كما تشير اللوحات الموضوعة على مفارق الطرق.

والطرق السهلة واليسيرة لا يحتاج فيها الإنسان إلى أكثر من (دليل).

وأمّا الطرق الصعبة فيحتاج الإنسان فيها بالإضافة إلى الدليل، إلى (القدوة) التي تتقدمه

(١) الكافي ٨: ٢٤.

وتتحرك معه وأمامه، وتبعث في نفسه القوة والثقة، لئلّا يتعب، ولئلّا ييأس، ولئلّا يتمكن منه الرعب والخوف والتعب واليأس ووحشة الإنفراد.

والحسين عليه السلام للسالكين على طريق ذات الشوكة دليل ومعلّم أوّلاً، يهديهم الطريق، وقدوة وأسوة ثانياً يتقدمهم على الطريق الوعر الصعب، وكان يقول للناس عندما يستنصرهم: «نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم»[١].

ولست أدري ماذا في هذه الجملة: «فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[٢] من عزم وإرادة على تغيير مسار التاريخ. والأعمال العظيمة تحتاج إلى إرادة حاسمة وعزم؟ والعزم دليل القوة، كما إن التردد في العزم دليل العجز.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما عجز جسم عمّا قويت عليه النية»[٣].

... لست أدري ماذا أودع الله في هذه الرحلة بهذه الكوكبة الصغيرة من المؤمنين من التأييد والتسديد والتوفيق والنصر؟ فقد غيّرت هذه الرحلة على بساطتها مسار تاريخ الحضارة الإسلامية، ولولا هذه الرحلة لتمكن بنو أُمية من تغيير معالم هذا الدين وتحريفه، وتقديم صورة أخرى للإسلام هي أقرب إلى بطر الملوك وإسرافهم منه إلى دين الله.

ولو تغيّر هذا الدين لتغيّر مسار الحضارة البشرية.

٩ ـ إن شاء الله

وهي النقطة التاسعة في الخطاب الحسيني.

في هذه الجملة نلمس إرادتين تندك إحداهما في الاُخرى. ولا يكتسب العمل قيمته الحقيقية إلا بحضور هاتين الإرادتين معاً، واندكاك إحداهما في الاُخرى.

الإرادة الأُولى هي إرادة العبد، والإرادة الثانية هي إرادة الله تعالى، وتذوب الأولى في الثانية.

إن الإنسان (خليفة) الله، يُنفّذ مشيئة الله وإرادته على وجه الأرض في عمارة الأرض، وإصلاح الإنسان من خلال إرادته واختياره، من دون أن يُفقِدهُ ذلك حرية الاختيار والقرار.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤ : ٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه ٤٤ : ٣٦٦.

(٣) وسائل الشيعة ١ : ٣٨.

وهذا هو الفارق بين (الآلة) و(الخليفة) كل منهما يحقق إرادة الطرف الآخر، ولكن الآلة تحقق إرادة الطرف الآخر دون اختيار وإرادة، و(الخليفة) يحقق إرادة الطرف الآخر من خلال إرادته واختياره.

والجماد والنبات والحيوان أدوات مسخرات لتحقيق إرادة الله تعالى ومشيئته، وفق قوانين إلهية ثابتة في الطبيعة، ولكن من دون إرادة واختيار.

وأمّا الإنسان فهو خليفة الله تعالى، خلقه الله تعالى وأكرمه بخلافته على وجه الأرض قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ليقوم بتنفيذ مشيئة الله وإرادته على وجه الأرض، ولكن من خلال إرادة الإنسان نفسه ومشيئته، لا من دون إرادة واختيار كما في الآلة.

وفي هذه الفقرة من خطاب الحسين عليه السلام نلمس نحن هذه الحقيقة بشكل واضح.

فهو يقول أوّلاً:

«فإنّي راحل مصبحاً».

في هذه الجملة تبرز (الأنا) و(الإرادة الإنسانية) بشكل أو آخر.

«إني ـ راحل».

ولكن الجملة الثانية:

«إن شاء الله».

تأتي مباشرة بعد الجملة الأولى، لتكفكف من بروز (الأنا) في الجملة الأولى ولتوجّه (الأنا) و(الإرادة) للإندكاك في إرادة الله تعالى، ولتوظّف الأنا وإرادته في تنفيذ إرادة الله ومشيئته.

إنّ الحسين عليه السلام هنا، يعبّر في الجملة الأولى: (فإني راحل) عن عزم وإرادة لا حدّ لهما في التضحية والفداء. وهذه التضحية تنم وتنبع عن (إرادة قوية وصارمة).

وهذه الإرادة تبرز بصورة قهرية (الأنا)، وتركّزه في رحلة الحسين عليه السلام إلى الله تعالى، ولا شك أن (الأنا) تبرز هنا في مساحة طاعة الله تعالى، وليس في ساحة الهوى، وليس تركيز الأنا وبروزه في ساحة طاعة الله، كتركيز الأنا وبروزه في ساحة الهوى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

إلّا إن الحسين عليه السلام ماض في هذه الرحلة إلى الله تعالى، ويريد أن يتجرّد عن (الأنا) في ساحة طاعة الله، ولا يريد أن يأخذ معه (الأنا) إلى الله تعالى، فإذا عزم على الرحيل إلى الله فيقول: (إن شاء الله)، ويربط مشيئته بمشيئة الله، ويصهر إرادته واختياره في إرادة الله، ويوظّفها لتنفيذ مشيئة الله تعالى وإرادته، وإذا رحل العبد إلى لقاء الله، فلابد أن يترك الأنا خلف الأبواب ولا يأخذها معه إلى الله، ولا يلقى الله عبداً صحب معه (الأنا) إلى لقاء الله.

ونحن نمرّ بهذه الجملة من الخطاب الحسيني ونشعر بالرحيل ونشعر بمشيئة الله، ولكن لا نجد بينهما صاحب القرار (الأنا).

وما أشبه موقف الحسين عليه السلام في هذه الجملة بموقف أبيه إسماعيل (الذبيح الأوّل) عندما عرض عليه أبوه إبراهيم خليل الله أن يذبحه، كما أراه الله تعالى ذلك في المنام!

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾... فأجاب الابن من دون تردد ولا توقف ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

إنّ في جملة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ التي نطق بها إسماعيل عليه السلام وهو يومئذ في سن المراهقة، من التضحية والفداء، والعطاء، والبذل، واليقين، والشجاعة، والحزم، والقوة، والصبر، ومقاومة الهوى، والتنكر للذات، والترفع عن الدنيا، والإقبال على الله، والإعراض عن الدنيا، والإخلاص لله، والعزوف عن غير الله، وما لست أدري من القيم، ما لا يتمكن أحد من إحصائه.

ولكن في هذه التضحية والعطاء تبرز (الإرادة) لا محالة، ومن خلال الإرادة يبرز (الأنا).. قهراً.

وهو ما لا يريد ذبيح الله إسماعيل عليه السلام أن يأخذه معه في رحلته إلى الله.

صحيح أن (الأنا) يبرز هنا في ساحة طاعة الله، وليس في ساحة الطغيان والهوى، والشح، والبخل، والضعف، والجبن، وحب الدنيا.

ولكن هذه الساحة يجب أن يكون كلها لله تعالى، وليس لإسماعيل عليه السلام فيها شيء، وإسماعيل عليه السلام لا يريد أن يدخل هذه الساحة الربّانية محمّلاً بـ (الأنا) ومثقلاً بـ (الأنا). وإنّما يريد أن يتخفف عنه ويندك، وتندكّ إرادته وفعله وتضحيته في مشيئة الله تعالى وإرادته، وكأنّه

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(وليس هنا موضع كأنّه، بل تحقيقاً) ليس له دور، ولا أثر، ولا فعل، ولا فضل في هذه التضحية النادرة، وإنّما الفضل في ذلك كلّه لله تعالى وبمشيئة الله وإرادته، وبفضله ورحمته، وهو كذلك، فيقول:

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فتشعر بالتضحية والعطاء العظيم، وتشعر بمشيئة الله تعالى وفضله ورحمته على إسماعيل بهذه التضحية، ويختفي إسماعيل عليه السلام تماماً ويختفي ظلاله تحت كلمة (إن شاء الله) حتّى لا تكاد تشعر به، رغم ضخامة التضحية وعظمة الفداء.

صلّى الله عليك يا بن إبراهيم خليل الرحمن. تضاءلت أمام عظمة الله، فعظّمك الله في محكم كتابه، وذبت في مشيئة الله فأبرزك الله تعالى في قرآن عظيم، يتلوه الناس ليلاً ونهاراً عبر القرون: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾[١].

ولقد كان مشهد هذه التضحية الفريدة في التاريخ صغيراً في الأرض عظيماً في السماء. ولقد اجتمعت الملائكة يومئذ عند هذا المشهد العظيم، ليروا أنّ أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام أضجع فلذة كبده إسماعيل على الأرض، وتلّه للجبين، وأهوى بالسكين على نحره ليذبحه، وإسماعيل مستسلم لأمر الله، لا يضطرب، ولا يتحرك، ولم يشهد يومئذ هذا المشهد العظيم على الأرض من الناس أحد؛ فضجّت الملائكة إلى الله تعالى بالدعاء يدعون الرحمن الرحيم أن يفدي إسماعيل بذبح عظيم.

ولقد كانت الدنيا يومئذ غارقة في ظلمات الكفر والجهل. ومن بين هذه الظلمات كان يرتفع عمود من النور، من وادي «منى» إلى السماء، يجتمع حوله حشود من ملائكة الله ليروا مشهد هذه التضحية العظيمة، تضحية الابن، وتضحية الأب.

ولست أدري أيّهما كان أعظم عند الملائكة يومئذ، في هذا المشهد العظيم: تضحية الأب بابنه، أم إقدام الابن بنفسه للذبح على يد أبيه؟

ثمّ أيهما كان أعظم لدى الملائكة، هذه التضحية النادرة والعجيبة من ذلك الشاب اليافع

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.

المراهق إسماعيل عليه السلام، أم تعليق ذلك كله على مشيئة الله: في تصاغر وتذلل بين يدي عظمة الله سبحانه.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

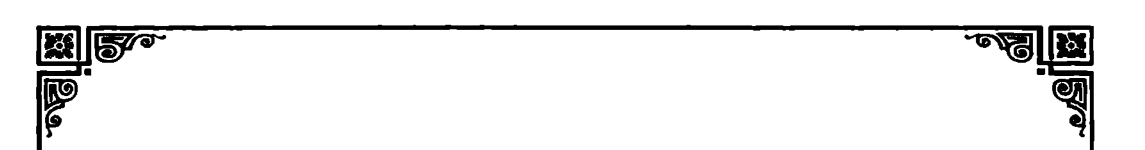
ولكن مهلاً يا ملائكة ربّي لا تسجّلوا المثل الأعلى لهذا الوالد وما ولد، سلام الله عليهما، وتريّثوا حتّى يأتي الله من ذرية هذا الأب وابنه في كربلاء، بأبي الشهداء يحمل رضيعه على يده، وهو يتلظى عطشاً، ويطلب له الماء، فيرميه الخبيث حرملة بن كاهل الأسدي بسهم، فيذبحه من الوريد إلى الوريد على يد أبيه؟

فيضع الحسين كفّه تحت نحر الطفل، ويرمي بدمه إلى السماء لئلّا ينزل غضب الله على الأرض، فلا تنزل منه قطرة على أرض الطف.

ثمّ لا يستعظم شيئاً من فعله، ولا يُكْبر شيئاً من تضحيته وعطائه، ولا يدخله العجب بهذا البذل العظيم في سبيل الله، ويرى أنّ كل ذلك من الله، وبمشيئة الله تعالى، وبفضله، ورحمته، وليس له في ذلك دور أو شأن، وإنّما الشأن كل الشأن لله تعالى وحده، وهو لا يزيد على أن يكون مُنفّذاً لمشيئة الله، ليس إلّا، ويهون عليه كل ذلك، رغم فداحته وهوله، لأنّ ذلك كله بعين الله. فيقول في ساحة التضحية والفداء، وهو مستغرق في مناجاة عميقة مع الله، ومنصرف عما حوله: «هوّن ما نزل بي أنه بعين الله»[1].

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: ٣٤٣، حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣: ٢٧٦.



المتخلفون
عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام

الضحاك بن عبد الله المِشْرَقي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

[التوبة: ١١٨]

الصراع في مرحلتي التنزيل والتأويل:

مرت هذه الدعوة خلال مسيرتها بمرحلتين من الصراع: مرحلة التنزيل ومرحلة التأويل.

الأولى: في حياة رسول الله ﷺ.

والثانية: تبدأ بخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

في المرحلة الأولى: كان الصراع يدور حول محور«التنزيل». وكانت الجاهليّة المتمثلة يومذاك في مشركي قريش وحلفائها واليهود وحلفاؤهم يتصدّون لنفي «التنزيل» وإنكار علاقة هذا الدين بالله تعالى ونزول القرآن من لدن الله تعالى.

واستمر هذا الصراع قائماً في حياة رسول الله ﷺ كلّها. وانجلى هذا الصراع عن هزيمة قريش واليهود أمام الدعوة وانتصارها.

ويبدو لأول وهلة أن الجاهلية انسحبت عن مواقعها الهجومية أمام حركة الدعوة، واستسلمت وانقادت.. إلّا أننا عندما نمعن النظر في تأريخ الإسلام نجد أن الجاهلية بدأت تخطط بعد وفاة رسول الله ﷺ للالتفاف على هذه الدعوة وتحريفها والدسّ فيها وتشويه مفاهيمها.

وأحسّ ورثة الثورة بهده المؤامرة الجديدة، وعرفوا قادة المؤامرة، وبدأت المرحلة الثانية من الصراع حول محور «التأويل» وأبرز المعارك في هذه المرحلة من الصراع: «صفّين» و«الطف».

والذي ينعم النظر في التأريخ الإسلامي يجد أنّ «صفّين» و«الطف» امتداداً لـ «بدر» و«أُحد» وأنّ الذين حاربوا عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام في صفّين والطف هم الذين قاتلوا رسول الله ﷺ من قبل في بدر وأُحد.

ورحم الله عمّار بن ياسر فقد كان يقول في صفّين لبعض من أنكر عليه محاربة معاوية وعمرو بن العاص: «هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص قاتلتها مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن».

وقال لمن تردد يومئذٍ في قتال معاوية مع الإمام علي عليه السلام:

«أشهدت بدراً وأُحْداً وحُنيناً، أو شهدها لك أب فيخبرك عنها؟

قال: لا، قال فإنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أُحد ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب».

«هل ترى هذا المعسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أنّ جميع من أقبل مع معاوية ممن يرى قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته، والله لدماؤهم جميعاً أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟»[(١)].

شريحة المتخلفين عن الصراع:

وفي كل صراع ثلاثة أطراف، الطرفان المتصارعان والطرف المتفرج المتخلّف، والطرف الثالث أكثر تعقيداً من الطرفين الآخرين المتقاتلين في ساحة الصرع والقتال، وفهم هذا الطرف «المتفرّج» على الساحة أشقّ من فهم الطرفين الآخرين.

وقد أعطى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بتحليل هذا الطرف بالذات، والآية المباركة التي صدّرنا بها الحديث من سورة التوبة المباركة واحدة من الآيات القرآنية في استعراض وتحليل هذه الشريحة المتخلفة من المجتمع الإسلامي يومذاك.

ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نستعرض نموذجاً من المتخلّفين عن ثورة الحسين عليه السلام ندرس ونحلل مواقفهم.

ولا يكاد يختلف المتخلّفون عن معركة «الطف» عن المتخلّفين عن معركة «تبوك» في عهد رسول الله ﷺ إلّا أن تبوك تدور حول محور «التنزيل»والطف تدور حول محور «التأويل».

والصراع هو الصراع، ليس على أرض، ولا على مال، وإنّما هو صراع حضاري حول

---

(١) وقعة صفّين لنصر بن مزاحم، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

الإسلام والجاهلية، وتعود الجاهلية هذه المرة بعد أن انكسرت شوكته، في بدر، وأُحد، والأحزاب، وحنين، من داخل صفوف المسلمين لتعاود الصراع مع الإسلام بتحريف الإسلام عن مسيره الصحيح وتشويه مفاهيمه وأفكاره وأُصوله والدسّ فيه.

والصراع هذه المرّة كأي صراع حضاري يحمل نفس الضراوة والعنف ولا يقبل الهدنة ولا الصلح.

ولما كان الصراع في الطف نفس الصراع في تبوك فإن المتخلّفين هنا هم من شريحة المتخلّفين هناك، والمواقف نفس المواقف، والقوانين والسنن في هؤلاء وأُولئك نفسها، ولنتأمّل في نموذج من هؤلاء المتخلّفين عن الحسين عليه السلام.

خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرَقي

وهذا نموذج من المتخلّفين عن الحسين عليه السلام وقصته معروفة في كتب السيرة.

رافق الإمام الحسين عليه السلام إلى ساحة المعركة ودخل المعركة معه وقاتل قتال الأبطال وأبلى بلاءً حسناً في القتال، استحسنه الإمام ولكنّه اشترط على الإمام عليه السلام منذ أن التحق به أن يجعله في حلّ منه إذا دارت دائرة الحرب عليه، ولم يعد ينفعه قتاله ودفاعه عنه.

فلّما رأى أن المعركة قد دارت على الحسين عليه السلام ووجد أنّ الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام لا محالة مقتولين، ولم يعد ينفع الحسين قتاله ودفاعه، استأذن الحسين عليه السلام أن يترك ساحة القتال وينجو بنفسه، فأذن له الحسين كما وعده من قبل، فهرب الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي بنفسه من ساحة المعركة وترك الإمام ومن معه من أهل بيته وأصحابه للقتل في ساحة المعركة ونجا بنفسه.

فلنقرأ أولاً خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي برواية الطبري من أبي مخنف، ثمّ نحاول أن نحلل هذا الخبر.

روى أبو مخنف عن الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، قال: قدمت ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين، ثمّ جلسنا إليه، فردّ علينا، ورحّب بنا، وسألَنا عمّا جئنا له؟

فقلنا: جئنا لنسلّم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونُحدث بك عهداً، ونخبرك خبر الناس وإنّا نحدّثك أنّهم قد أجمعوا على حربك، فَرِ رأيك.

فقال الحسين عليه السلام: «حسبي الله ونعم الوكيل».

قال: فتذمّمنا، وسلّمنا عليه، ودعونا الله لـه، قال: «فما يمنعكما من نصرتي؟».

فقال مالك بن النضر: عليّ دين ولي عيال، فقلت له: إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً، ولكنّك إن جعلتني في حلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً، قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً، قال: «فأنت في حلّ»[1].

قال أبو مخنف: «حدّثني عبد الله بن عاصم عن الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي قال: لمّا رأيت أصحاب الحسين قد أصيبوا وقد خلُص إليه وإلى أهل بيته ولم يبق معه غير سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي وبشير بن عمرو الحضرمي قلت لـه: يا بن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك، قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف، فقلت لي: «نعم»، قال: صدقت، وكيف لك بالنجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ»، قال: فأقبلت إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيل أصحابنا تعقر أقبلت بها حتّى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت، وأقبلت أقاتل معهم راجلاً، فقتلت يومئذٍ بين يدي الحسين رجلين، وقطعت يد آخر وقال لي الحسين يومئذٍ مراراً: «لا تشلل، لا يقطع الله يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيّك»، فلمّا أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثمّ استويت على متنها ثمّ ضربتها حتّى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي وأتبعني منهم خمسة عشر رجلاً حتّى انتهيت إلى «شفيّة» قرية قريبة من شاطئ الفرات، فلمّا لحقوني عطفت عليهم فعرفني كثير بن عبد الله الشعبي وأيّوب بن مشرح الخيواني وقيس بن عبد الله الصائدي، فقالوا: هذا الضحّاك بن عبد الله المشرقي هذا ابن عمّنا ننشدكم الله لمّا كففتم عنه، فقال ثلاثة نفر من بني تميم كانوا معهم: بلى والله لنجيبن إخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبّوا من الكف عن صاحبهم، قال: فلمّا تابع التميميّون أصحابي كفّ الآخرون، قال: فنجّاني الله»[2].

وقال السماوي في «إبصار العين»:

«بقي الضحّاك بن عبد الله المشرقي مع الحسين عليه السلام حتّى إذا أمر ابن سعد بالرماة فرموا أصحاب الحسين وعقروا خيولهم أخفى فرسه في فسطاط، ثمّ نظر فإذا لم يبق مع الحسين إلّا سويد «بن عمر» وبشر بن عمرو الحضرمي فاستأذن الحسين، فقال له: «كيف لك النجاة؟،

---

(١) تأريخ الطبري، طبعة ليدن ٧: ٣٢١.

(٢) تأريخ الطبري، الطبعة الاوربية ٧: ٣٥٥ ـ ٣٥٤. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

قال: إنّ فرسي قد أخفيته فلم يصب فأركبه وأنجو، فقال له: شأنك، فركب ونجا بعد لأي»[١].

تامّلات في خبر الضحّاك:

أقبل الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين عليه السلام ليسلّما عليه، وليجددا به العهد، كما في رواية أبي مخنف، ويظهر أنّ هذا اللقاء تمّ في موقع كربلاء «الطف» بعدما استقرّ الحسين عليه السلام بأهله وأصحابه فيه، ولم يكن في الطريق، وقبل أن يحاصر الحسين عليه السلام، فقد استأذن مالك بن النضر الأرحبي الحسين عليه السلام في الانصراف، وانصرف من دون أن يواجه مشكلة من قبل الجيش الأُموي.

ويظهر من الرواية أنهما كانا عارفين بموقع الحسين عليه السلام وحقّه وذمّته وحرمته في الإسلام وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

ففي رواية أبي مخنف: «فتذممنا، وسلّمنا عليه، ودعونا الله له».

والتذمّم بمعنى حفظ الذمام، وحفظ العهد والحقّ والحرمة، كما في المدوّنات اللغوية.

إذن، فهما يعرفان حق الحسين عليه السلام على ذمّتهما وما يجب عليهما من حفظ حرمته وحقوقه وعهده، فلمّا أرادا الانصراف استوقفهما الحسين عليه السلام وقال لهما: «فما يمنعكما من نصرتي؟».

ويلفت نظرنا أنّ الإمام يسألهما عمّا يمنعهما من نصرته قبل أن يسألهما النصرة ويدعوهما إليها.

وكأن في خروج الحسين عليه السلام على يزيد بتلك العصابة القليلة إلى العراق ما يغني عن الدعوة والاستنصار، فلا حاجة مع ذلك إلى أن يستنصر أحداً أو يدعوه، ففي خروج الحسين عليه السلام إلى العراق دعوة واستنصار لكلّ المسلمين، وللحسين عليه السلام حقّ وحرمة على ذمّة كلّ المسلمين.

إذن يسأل الضحّاك وصاحبه: «فما يمنعكما من نصرتي؟».

أمّا مالك بن النضر الأرحبي فقد أراح نفسه وأراحنا بوضوحه وصراحته في الاعتذار عن

---

(١) إبصار العين: ١٠١.

الاستجابة للحسين والتخلّف عنه، فقال: «عليّ دين ولي عيال» فأعرض عنه الحسين عليه السلام، وانصرف هو لشأنه، وقد أقبلت السعادة والتوفيق عليه فأعرض عنها.

وأمّا الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، فأجاب الحسين عليه السلام بجواب معقّد، شديد الالتواء والتعقيد، فلا هو رفض دعوة الحسين، وأعرض عنها، كما رفضها صاحبه وأعرض عنه، ولا هو استجاب للحسين عليه السلام وقبل عنه، كما استجاب له أهل بيته وأصحابه.

ولنتأمّل في جواب الضحّاك، فإنه يمثّل شريحة واسعة من النفوس والمواقف إزاء «الدعوة».

وإننا ندرس من خلال الضحّاك بن عبد الله في موقع الطف، ومن خلال المتخلّفين في موقع تبوك شريحة كبيرة في التأريخ الإسلامي، وشريحة كبيرة في واقعنا وساحتنا، ونحاول أن نرسم أبعاد هذه الشريحة في حياتنا المعاصرة، ونشخّص نقاط الضعف في شخصيتها عسى أن نُقَوِّم من سلوكها ما يمكن تقويمه.

وسوف نجعل جواب الضحّاك للحسين عليه السلام موضع التأمّل والدراسة ضمن مجموعة من النقاط:

النقطة الأُولى (الاعتذار):

قدّم الضحّاك أول ما قدّم الاعتذار للإمام عليه السلام بما عليه من ديون ومال، شأنه في ذلك شأن صاحبه، فقال: «إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً».

وأول ما يلفت نظرنا في هذا الجواب، أنّ الضحّاك ومالك بن النضر لم يختلفا في الجواب، فكلّ منهما اعتذر عن تلبية دعوة الحسين عليه السلام بالعيال والدين، غير أنّ الضحّاك استجاب لدعوة الحسين استجابةً محدودة ومقيّدة ومشروطة بعد أن اعتذر أولاً، وأمّا صاحبه الأرحبي فلم يستجب مطلقاً لدعوته.

وفي هذا الاعتذار والاستجابة المشروطة من التعقيد ما ليس في موقف صاحبه، وقد كان أحرى به أن يستجيب استجابة محدودة ثمّ يعتذر، فلماذا قدّم الاعتذار على الاستجابة؟ إنّ في الأمر لسرّاً كامناً في أعماق نفس الضحّاك، فعندما طلب الحسين عليه السلام منه النصرة تزاحمت في نفسه حالة الشح وحالة الإنفاق، فغلبت حالة الشح حالة الإنفاق وسبقتها إلى البروز، ولكن لم تصادر الحالة الأُخرى تماماً، كما كان في موقف مالك بن النضر الأرحبي.

ولنتأمّل إذن في اعتذار الضحّاك بعياله وديونه:

إنّ الابتلاء بالدين والعيال من سنن الله في حياة الإنسان، وقلّما يشذّ عنه إنسان، شأنهما في ذلك شأن غيرهما من سنن الله تعالى في حياة الإنسان.

فلابدّ للإنسان من عيال، ولابدّ أن يدخل مع الناس في بيع وشراء، فيكون دائناً ومديناً، يطلب الناس ويطلبونه.

وجها الحياة الدنيا:

والدين والعيال هما وجهان مختلفان للدنيا، فالعيال تعبير عن تعلّق الإنسان بالدنيا وهو أحد وجهي الدنيا، وهو ما يسمّيه القرآن الكريم بـ «الشهوات» والفتن، وتجمع هذه الآية الكريمة طائفة من هذه التعلّقات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[١].

والدين هو الوجه الآخر للدنيا، وهو وجه التبعات والمسؤوليات، والدنيا هي عبارة عن تعلّقات وتبعات، ومن أجل تلك التعلّقات يتحمّل الإنسان مرارة التبعات، ولابدّ لكلّ إنسان من هذه التعلّقات ومن هذه التبعات ولا يشذّ عن هذه السنّة الإلهية في الحياة إلّا القليل.

وهذه (التعلّقات) و(التبعات) بمجموعها هي العوائق في طريق الإنسان وحركته إلى الله تعالى، تعيق الإنسان عن الله سبحانه، وقد أعاقتا في هذه القضيّة مالك بن النضر الأرحبي إعاقة كاملة، وأعاقتا الضحّاك بن عبد الله المشرقي إعاقة ناقصة.

فكيف نتعامل نحن في الدنيا مع هذه العوائق؟ وما هو موقف الإسلام منها؟

إنّ الحلّ الذي يعطيه الإسلام للتعامل مع هذه العوائق «التعلّقات والتبعات» دقيق في غاية الدقّة، وأكثر الذين شطّوا في فهم الحلّ الإسلامي لمسألة الدنيا بوجهيها كانوا ضحيّة عدم الدقّة في تناول هذا الحلّ بأبعاده الكاملة، بالافراط والتفريط.

فليس في الإسلام أن يتخلّى الإنسان عن عيال أو دين، والتخلّي من العيال والمال من الرهبانيّة التي يرفضها الإسلام.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

وقد كان رسول الله ﷺ يعيش مع الناس ويتزوّج ويتعامل مع الدنيا، كما يتعامل غيره، وكان له عيال، وعليه ديون وتبعات، كما كان لغيره، وكان له بيت يضمّ عياله، وكان يدخل السوق في حاجاته وشؤونه كما كان الآخرين يعملون.

وقوام الحلّ الإسلامي هو أن يتحرر الإنسان من أسر العيال والمال، وليس أن يتخلّى منهما، وبين الأمرين بون بعيد، فليس من الإسلام أن يتخلّى الإنسان من عياله وماله، ولكن من صلب الإسلام وتعليماته وتوجيهاته أن يتحرر الإنسان من سلطان عياله وماله.

فلا يرفض الإسلام البيت أو السوق في حياة الإنسان، ولا يأمره أن يعتزل هذا أو ذاك، ولكن يرفض أن يتحول البيت أو السوق إلى سجن في حياة الإنسان يقيّدان حركته ويمنعانه عن الانطلاق ويحجزانه ويعيقانه عن الله تعالى.

وبشكل أوضح وتعبير أدق أنّ الإسلام يرفض أن يتحولّ العيال والمال في حياة الإنسان إلى عوائق تعيق حركة الإنسان، كما عاقت مالك بن النضر الأرحبي والضحّاك بن عبد الله المِشْرقي.

كيف تتحوّل العوائق إلى منطلقات؟:

ومن عجب أن الطريقة الإسلامية الصحيحة للتعامل مع وجهي الحياة الدنيا تحوّل هذين الوجهين من الدنيا «التبعات والتعلّقات» من عوائق إلى منطلقات، فتكون الدنيا للإنسان منطلقاً إلى الله سبحانه وليست عائقاً، ويكون ماله وعياله مادة لحركته إلى الله تعالى ومنطلقاً لعروجه إليه ﷻ.

وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته، وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا، فقال له فيما قال:

«إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، واستوجبوا فيها الجنّة، فمن ذا يذمّها، وقد آذنت بِبَيْنِها[١]، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، وابتكرت[٢] بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال

(١) بَيْنِها: بعدها وزوالها عنهم.

(٢) ابتكرت: اصبحت، تبتكر أي تصبح.

غَداةَ الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتّعظوا»[١]. ويقول عليه السلام في كلمة أُخرى:

«الدنيا دار ممر، لا دار مقر، والناس فيها رجلان رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل إبتاع نفسه فأعتقها»[٢].

مقارنة بين زهير بن القين رحمه الله والضحّاك:

ولقد كان زهير بن القين رحمه الله يملك من المال والعيال ما كان يملكه الضحّاك ابن عبد الله، وكان يعيش في دنياه، كما كان يعيش الضحّاك في دنياه، بل قد يكون حظّ زهير من الدنيا أعظم من حظّ الضحّاك، فقد كان زهير بن القين رحمه الله زعيماً في قومه، وجيهاً في بلده، ولم يحفل المؤرّخون بأمر الضحّاك وصاحبه في شأن من شؤون الدنيا، وكان الضحّاك أقرب إلى الحسين عليه السلام وأكثر ميلاً إليه من زهير، فقد كان زهير رحمه الله عثمانيّ الهوى أمويّاً، كما يذكر أصحاب السير، وكان يحرص ألّا يلتقي الحسين عليه السلام بمنزل في طريقه إلى العراق، فإذا وجد الحسين قد نزل منزلاً فيه ماء نزل غيره، وأمّا الضحّاك وصاحبه مالك بن النضر فقد قصدا الحسين في كربلاء، وجلسا إليه، ودعوا له، ولم يكن يحدث شيء من ذلك لو لم يكن الضحّاك ومالك بن النضر من شيعة الحسين عليه السلام وممن تميل إليه قلوبهم.

ومع ذلك كلّه فإن «العيال والمال» قد أعاقاهما عن الالتحاق به بشكل كامل أو بشكل ناقص.

وأمّا زهير بن القين رحمه الله فقد رجع من عند الحسين عليه السلام ولم يستغرق اجتماعه بالإمام في أغلب الظن وقتاً طويلاً، وقد أعدّ نفسه للوفود على الله مع الحسين، والانصراف الكامل عن الدنيا، فأقبل إلى زوجته «دلهم» بنت عمرو (رحمها الله) وقال لها بقوّة وعزم وفي نفس الوقت بسهولة وراحة: «إلحقي بأهلك فإني لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خيراً»، ثم قال لمن معه: «من أحبّ منكم نصرة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وإلّا فهو آخر العهد»[٣]، ولم يعقه عن ذلك مال ولا عيال.

---

(١) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ١٢٦.

(٢) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ١٢٨.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٨٨.

وقد كانت زوجته «دلهم» رحمها الله هي التي دفعته وشجعته على الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، فقد أصابه وأصاب رفاقه ذعر غريب عندما جاء رسول الحسين، وهو على الطعام، يدعوه إلى زيارة الإمام، فصمت وصمتوا، وكأنّ على رؤوسهم الطير.

فاخترقت المرأة المؤمنة الشجاعة «دلهم بنت عمرو» (رحمها الله) هذا الصمت والذعر بقوّة، وقالت لزوجها ـ ورسول الحسين يسمعها ويشهد الموقف ـ :«سبحان الله أيبعث إليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه، لو أتيته فسمعت كلامه؟!!».

ومع ذلك فلم يتوان زهير عندما قرر الوفود على الله تعالى مع الحسين أن يقول لزوجته دلهم ـ هذه المرأة الشجاعة ـ «الحقي بأهلك».

إذن ليست المسألة مسألة المال والعيال، وإنّما المسألة في أمر آخر، في طريقة التعامل مع المال والعيال.

والفرق بين الضحّاك وزهير رحمه الله لم يكن في أنّ الأول كان يملك من المال والعيال ما لا يملكه الثاني، وإنّما كان في طريقة تعاملهما مع المال والعيال.

فقد كان الضحّاك وصاحبه الأرحبي أسيرين للمال والعيال، فأعاقهما عن الانطلاق مع الحسين، وكان زهير بن القين متحرراً من أسر المال والعيال، فلم يعيقاه عن الحركة مع الحسين عليه السلام للوفود على الله.

النقطة الثانية (الاستجابة المشروطة):

والنقطة الثانية في جواب الضحّاك أنه لم يرفض القتال إلى جانب الحسين عليه السلام، ولم يعتذر بصورة مطلقة، كما اعتذر صاحبه مالك بن النضر، بل قاتل مع الحسين وضرب الأعداء بين يديه، ودعا له الحسين عليه السلام.

وهذه نقطة مشرقة في موقف الضحّاك من الحسين، فهو ليس من الذين وصفهم الفرزدق الشاعر بقوله: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»، وإنّما كان قلبه وسيفه مع الإمام الحسين، وهو صادق في هذا وذاك، إلّا أنه لم يعط سيفه للحسين عليه السلام بشكل كامل، ولم يضع سيفه تحت أمر الحسين إلّا بمقدار، وحدّد لذلك شرطين: «إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً»، وهذا شرط غريب يحتاج إلى تأمّل في خلفياتهما في نفس المشرقي.

إنّ الضحّاك يحصر نصرته للحسين عليه السلام بين شرطين:

١ ـ أن يجد إلى جانب الحسين عليه السلام مقاتلين يدافعون عنه.

٢ ـ وأن يكون قتاله دون الحسين عليه السلام نافعاً له فإن لم يكن هذا أو لم يكن ذلك فإنّ الضحّاك في حلّ من أمره.

ونحن لا يعجبنا أن نشكّك في صدق نيّة الضحّاك في موقفه من الإمام، رغم فراره من الزحف في اللحظات الأخيرة، وتركه للإمام عليه السلام في أحرج اللحظات، وإيثاره للعافية، فإنّ لدينا ـ مع كلّ ذلك ـ من الشواهد ما يكفي لإثبات حسن نيّة الضحّاك، وصدقه في الوقوف إلى جنب الإمام، والدفاع عنه، إلّا أننا نجد عنده إحساساً محدوداً بالمسؤولية تجاه الموقف، وتقتيراً شديداً في العطاء، في إطار هذه المسؤولية، ومحاولة جادّة في إخضاع الإنفاق في سبيل الله لمعادلات دقيقة شديدة التعقيد.

فهو يعطي من نفسه لله تعالى ولكنّه عطاء مشروط، ومحدود، وبحساب، وضمن تقديرات دقيقة، وليس يقدم نفسه لله مرّة واحدة ويبيعها له تعالى، كما يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

والدقّة في المحاسبة، والمحاسبة الدقيقة أمر جيّد لا نشكّ في حسنه وفائدته، ولكن عندما يكون طرف المحاسبة هو نفس الإنسان، وقد ورد في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»، وأما عندما يكون طرف الحساب هو الله تعالى فإنّ المحاسبة بهذه الدقّة وضمن هذه الشروط والقيود أمر قبيح.

والضحّاك هنا يتعامل مع الله تعالى، وإن كان طرف التعامل في ظاهر الأمر هو الحسين عليه السلام.

وليست هذه الشريحة هي الشريحة الممثّلة لأنصار الحسين عليه السلام وإنما أنصاره أُولئك الذين يبذلون كلّ ما عندهم من الأنفس والأموال لله تعالى، من دون حساب وشروط وحدود وقيود، فقد خطب عليه السلام في الناس لمّا أراد الخروج من مكّة إلى العراق وقال:

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

«ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

ولا شكّ إنّ هذا العطاء الشحيح خير من النضوب، على كلّ حال، ولكن أصحاب هذا العطاء المحدود لا يستطيعون أن يسايروا الحسين عليه السلام في مثل هذه الرحلة الصعبة إلى نهاية الشوط.

وأعتقد أنّ عبارة «لم يوافق» في هذا الموضوع تساوي عبارة «لم يستطع»، فإنّ الضحّاك «لم يوافق» أن يقاتل من دون الحسين بلا حدود وقيود وبنفس الملاك «لم يستطع» أن يساير الحسين إلى الشوط الأخير من رحلته.

العلاقة بين العمل والجزاء:

إنّ العمل والجزاء نوعان من العطاء، العمل هو ما يقدّمه الإنسان لله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] والجزاء عطاء الله للإنسان في مقابل عمله، العمل من الإنسان، والجزاء من الله سبحانه.

وبين الجزاء والعمل صلة وعلاقة يستعرضها القرآن الكريم بدقّة وتفصيل، ولسنا الآن بصددها، وإنما نحن بصدد اختلاف الجزاء من عند الله باختلاف العمل من جانب الإنسان من حيث الحساب واللاحساب، وهي مسألة جديرة بالاهتمام وموضع الشاهد في حديثنا هذا، فإنّ عطاء الإنسان محدود على كل حال إلّا أنه قد يعطى لله تعالى بحساب ومقدار، وقد يعطى من دون حساب وتقدير.

وهاتان طائفتان من الناس:

١ ـ طائفة تعطي لله بحساب وتقدير، كالضحّاك بن عبد الله المشرقي، يعطي لله شيئاً، ويحتفظ لنفسه بشيء، وإذا تواردتا على شيء أراده الله تعالى وأراده هواه قدّم هواه على إرادة الله سبحانه.

٢ ـ وطائفة أُخرى تعطي لله ما آتاها الله تعالى من غير حساب ولا تقدير، وهؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية الكريمة:

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرّم، منشورات مؤسسة البعثة ـ طهران ـ : ١٦٦. واللهوف على قتلى الطفوف للسيد ابن طاوس: ٣٣. وابن نما: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[(١)].

هؤلاء اشترى منهم الله أنفسهم وباعوها لله تعالى، وقطعوا علاقتهم بأنفسهم، فهي لله عز وجل اشتراها منهم، ولا شأن لهم بها بعد، يصنع بها ما يشاء، والثمن مقبوض ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

فقد تمّ البيع وتمّ الشراء، وتمّ استلام الثمن، فلا يملك المؤمن من نفسه وماله إذن شيئاً، ليملك التقدير والحساب في عطائه وبذله، فهي كلّها لله تعالى يأخذ منها ما يشاء، ويدع منها ما يشاء، والله تعالى يجزي هؤلاء وأُولئك على نحوين من الجزاء: جزاء محسوب ومحدود، وجزاء من غير حساب، وها نحن نشرح تفصيل هذا الأمر:

إنّ الأجر الذي يعطيه الله لعباده في مقابل أعمالهم كريم، وعظيم، وكبير، وحسن، وغير ممنون. وهذه خمسة أوصاف للأجر الذي يرزق الله عباده على حسناتهم:

١ - فهو أجر كريم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[(٢)].

٢ - وهو أجر عظيم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[(٣)].

٣ - وهو أجر كبير: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[(٤)].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[(٥)].

٤ - وهو أجر حسن: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[(٦)].

٥ - وهو أجر غير ممنون: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[(٧)].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[(٨)].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٧٢و ١٧٩.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٧.

(٥) سورة الحديد، الآية، الآية: ٧.

(٦) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(٧) سورة القلم، الآية: ٣.

(٨) سورة التين، الآية: ٦.

وهذه الأوصاف الخمسة عامّة شاملة لكلّ أجر يرزق الله عباده ممن يعطي لله بلا حساب أو بحساب، إلّا أنّ الذين يعطون لله تعالى من دون حساب وتقدير يحاسبهم الله في السيئات حساباً يسيراً:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[١].

هذا في حساب السيئات، أمّا في الحسنات فإنّ لله تعالى نوعين من الأجر أجر محدود وبحساب، وأجر غير محدود ومن دون حساب.

والأول منهما للذين يعطون لله تعالى بحساب وتقدير، **والثاني** منهما للذين يعطون لله تعالى من أموالهم وأنفسهم بلا حساب وتقدير.

وليس معنى الحساب والتقدير من جانب الله المساواة بين العمل والجزاء في الحجم والكم، وإنّما معناه وجود التناسب بين العمل والأجر.

وأمّا عندما يكون عطاء العبد لله من دون حساب فإنّ جزاء الله تعالى له يكون من غير حساب وتقدير، يقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢].

وتستوقفنا هذه الآية المباركة من سورة النور طويلاً في شأن الجزاء عندما يكون العمل من جانب الإنسان، من غير حساب:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾[٣].

وهذه ثلاث خصائص للجزاء الإلهي:

الخاصية الأولى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾، فالجزاء من عند الله ليس بأسوأ ما يعمل العبد ولا بمتوسط ما يعمل العبد، وإنّما بأحسن ما يعمله.

---

(١) سورة الانشقاق، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٣) سورة النور، الآيتان: ٣٧ ـ ٣٨.

ولابدّ من توضيح لهذه الفقرة من الآية الكريمة:

فإنّ للناس في الجزاء طريقين معروفين:

١ ـ الجزاء بأسوأ ما يعمل الطرف الآخر، فقد يحسن الإنسان إلى صاحبه عُمْراً طويلاً ثم يسيء إليه مرّة واحدة، فيجعل صاحبه هذه الإساءة ميزاناً لعلاقته به وينسى كلّما سبق له من فضل وإحسان إليه، وهذا هو الجزاء بالأسوأ، وهو جزاء اللئيم.

٢ ـ وقد يكون الجزاء فيما بين الناس بأوسط ما يفعلون، كما يقدّر المدرّسون درجات طلّابهم بأوسط إجاباتهم في الامتحانات وهو الحساب بالمعدلات.

٣ ـ والله تعالى كريم، عظيم العطاء، لا يجزي عباده بأسوأ ما يعملون ولا يجزيهم بأوسط ما يعملون، وإنّما يجزيهم بأحسن ما عملوا، وله الحمد ربّ العالمين.

والخاصيّة الثانية: للجزاء في هذه الآية المباركة هي: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ ولا علاقة لهذا بأعمالهم إطلاقاً، فهو تعالى يزيدهم في الجزاء من فضله بما يشاء وكيفما يشاء.

والخاصيّة الثالثة: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ وهذا أعظم ما في هذه الآية، فإنّ رزق الله تعالى لعباده يوم القيامة في مقابل حسناتهم رزق من غير حساب ولا تقدير، فإنّ العبد لو كان يعطي لربّه مما آتاه من غير حدود ولا حساب، فإنّ الله تعالى أولى بأن يعطي عبده يوم القيامة من غير حدود ولا حساب.

النقطة الثالثة (التحلّل من الالتزام):

بعد أن يعتذر الضحّاك إلى الحسين عليه السلام بديونه وعياله، يطلب من الإمام أن يجعله في حلّ من الانصراف فيقول: «ولكنّك إن جعلتني في حلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك»، والحلّ في مقابل الالتزام، ولا يمكن أن يرتبط الإنسان بالتزامين متعاكسين في وقت واحد، فإذا كان الضحّاك ملتزماً تجاه ديونه وعياله، فمن الطبيعي أنه لا يستطيع أن يكون ملتزماً تجاه الإمام، ولابدّ من أن يتحرّر من أحد الالتزامين، وقد آثر أن يتحرر من التزامه تجاه الحسين عليه السلام دون التزامه تجاه ديونه وعياله.

(التزام) و(حِلّ):

والضحّاك يكشف لنا هنا عن موقف غريب في سلوكه وتعامله مع عياله وماله من طرف ومع الله تعالى من طرف آخر.

ولابدّ من أن نتحدث في هذه الوقفة عن هذا الموقف لتكتمل عندنا الصورة التي نريد أن نرسمها للضحّاك من خلال جوابه للحسين عليه السلام فهو يطرح أولاً عذره من خلال التزامه بالنسبة إلى عياله وديونه، ثم يطلب ثانياً منه أن يكون في حِلٍّ من أمره عندما يريد الانصراف إذا لم يجد قتاله من دونه نافعاً له.

ثم يعرض على الحسين عليه السلام استعداده للقتال والدفاع عنه بصورة محدودة ومقيّدة، فهو حسب هذا التسلسل الذي نجده في جوابه للإمام يقدّم التزامه تجاه عياله وديونه أولاً، ثم يطلب من الحسين عليه السلام أن يكون في حلّ من أمره ثانياً.

إنّ هذا الالتزام الذي يحرص عليه الضحّاك تجاه عياله وديونه، وهذا الحِلّ الذي يطلبه الضحّاك من الحسين عليه السلام تجاه الله أمر غريب في شخصيّة الضحّاك، وقد كان أحرى به وأجدر أن يكون حريصاً بهذا الالتزام تجاه الله، وبهذا الحلّ والتحلّل والتحرر تجاه الدنيا.

إنّ تفكير الضحّاك بن عبد الله في هذا الموقف تفكير محتاط ومتحفّظ بصورة غريبة، فهو في الوقت الذي يستجيب لدعوة الإمام يبقي الأبواب من خلفه مفتوحة ليتمكّن من العودة إلى الدنيا عندما يبلغ المفترق الذي لا يستطيع بعده أن يجمع بين الدنيا والآخرة، ولابدّ من أن يختار أحدهما، إمّا ديونه وعياله وإمّا الآخرة، فيبقي الأبواب من ورائه مفتوحة ليتمكّن من أن يرجع إلى الدنيا في اللحظة الحرجة من المسير.

ونحن إذا استثنينا أُولئك الذين يتحركون على غير صراط الله، ويصدّون الناس عن الحركة إلى الله تعالى، نجد أنّ سائر الناس في تحركهم إلى الله على طائفتين:

الطائفة الأُولى: تتحرّك إلى الله سبحانه في جدّ وعزم، وصدق، تهدم من ورائها جسور العودة إلى الدنيا، لا يطردون الدنيا ولا يهجرونها، ولكنّهم إذا بلغوا المفترق الذي لابدّ لهم من أن يختاروا عنده الدنيا أو الآخرة لا يؤثرون على الآخرة شيئاً.

وهؤلاء هم «الصادقون» في التحرّك إلى الله ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(١)، وموقعهم من الله عزّ وجلّ في الآخرة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾(٢).

وطائفة أُخرى من الناس يتحركون إلى الله في حذر واحتياط يحبّون الله ورسوله ولكن ما

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٥.

لم يزاحم دنياهم، وما لم يسلبهم دنياهم، فإذا بلغوا المفترق الذي لابدّ فيه من الاختيار الصعب آثروا الدنيا على الآخرة واختاروا شقّ الدنيا، وعادوا إليها، ولكيلا ينقطع طريق العودة عليهم في اللحظات الأخيرة لا يهدمون من ورائهم الجسور التي تنقلهم إلى الدنيا.

فهؤلاء يتحرّكون إلى الله سبحانه، ولا نشكّ في نيّتهم وصدقهم ـ في هذه الحدود ـ ولكن كلّما قطعوا شوطاً من الطريق، مدّوا من ورائهم بقدره جسراً ينقلهم إلى الدنيا.

وهكذا كان الضحّاك بن عبد الله اشترط على الحسين عليه السلام قبل كلّ شيء أن يكون في حلّ من الانصراف إلى دَيْنِه وعياله، فدخل مع الحسين فيما دخل فيه من قتال جيش بني أُميّة، وقاتل بين يدي الحسين عليه السلام وقتل منهم وجرح عدداً ولكنّه قد تحوّط لنفسه منذ أول ساعة فأخفى فرسه داخل فسطاط بين البيوت، وقاتل راجلاً بين يدي الحسين لتسلم له فرسه وليركبها ويفرّ بها إلى خارج ساحة المعركة ويهرب عن جند ابن زياد في اللحظة الحرجة التي لابدّ له فيها من أن يختار أحد الأمرين.. فلمّا جدّ الجد ذكّر الإمام الحسين بإذنه له في الانصراف متى شاء ومتى لم ينفعه دفاعه عنه وقتاله من دونه، فصدّقه الحسين، فركب فرسه وهرب من الآخرة إلى الدنيا.

إنّ هذا الرجل دقيق في تقدير المسافة التي يستطيع أن يساير الحسين عليه السلام فيها، يضبط حساباته في هذه الحركة بشكل دقيق، ويتحوّط للعودة إلى الدنيا عندما يصل إلى المفترق الذي يؤثر عنده الدنيا على الآخرة.

يشخّص المفترق بدقّة، ويحدد المسافة التي يساير فيها الحسين بدقّة، ويتحوّط للعودة من الله إلى الدنيا في اللحظة المناسبة، ويبقي من ورائه وهو يتحرّك مع الحسين عليه السلام إلى الله بابين مفتوحين يرجع من خلالهما إلى الدنيا عندما يريد:

أحدهما: موافقة الحسين عليه السلام أن يكون في حلّ من أمره عندما يريد الانصراف إلى الدنيا.

وثانيهما: فرسه التي احتفظ بها في فسطاط داخل البيوت عندما حاصر جيش بني أُميّة الحسين عليه السلام ليستطيع أن يركبها في اللحظة المناسبة من الآخرة إلى الدنيا.

ومرّة أُخرى نريد أن نقارن في هذه النقطة من البحث بين الضحّاك وزهير، كلّ منهما أقبل على الله تعالى مع الحسين عليه السلام.

الضحّاك دخل معركة الطف إلى جنب الإمام وقاتل وجاهد بين يديه، وزهير رحمه الله أقبل مع

الحسين عليه السلام وجاهد وقاتل، ولكنّ الفرق بين هذا وذاك إنّ الضحّاك أقبل على الله وأبقى الأبواب مفتوحة من خلفه، بكلّ دقّة واحتياط، وأبقى الجسور قائمة من ورائه إلى الدنيا ليعود إليها في اللحظة التي يريد، وأمّا زهير فعندما قرّر الوفود على الله تعالى مع الحسين عليه السلام قطع كلّما كان بينه وبين الدنيا من جسور، وأغلق كلّ باب بينه وبين الدنيا، وقال لزوجته «دلهم» في عزم وقوّة ويُسر: «الحقي بأهلك».

وإننا نتابع تفكير الضحّاك وما أخذه من احتياط لنفسه في مثل تلك الساعة وتلك المعركة فنرى أنّ هذه الدقّة في التقدير والضبط في الحساب، والتحفظ والاحتياط الشديدين جدير بالاحترام لو كان في علاقة الإنسان بنفسه ومحاسبته لها.

أمّا عندما يكون التعامل مع الله تعالى فمثل هذا التقدير والدقّة والاحتياط للعودة إلى الدنيا هو من الشح في العطاء، ومن التردد في العمل وفقدان العزم.

الجسر الذي مدّه الضحّاك إلى الدنيا من عمق (الطف):

ولنستمع إليه مرّة أُخرى:

(لمّا رأيت أصحاب الحسين قد أُصيبوا، وقد خَلُصَ إليه وإلى أهل بيته، ولم يبق معه غير سويد بن عمر الحنفي وبشير بن عمرو الحضرمي قلت له: يا بن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك قلت لك: أُقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف فقلت لي: «نعم»، فقال: «صدقت»وكيف لك النجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ، قال: فأقبلت إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيل «أصحابنا»[1] تعقر أقبلت بها حتّى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت وأقبلت أُقاتل معهم راجلاً.. فلمّا أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثم استويت على متنها، ثمّ ضربتها حتّى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي..)[2].

إنّ أمر الضحّاك لغريب في نوعه، فهو يمدّ جسور الدنيا إلى عمق معركة الطف وإلى داخل خيام الحسين عليه السلام حيث لا يوجد فيها غير الآخرة، فهذه الفرس التي أخفاها الضحّاك

(١) يقول الضحّاك: خيل «أصحابنا» وهو عازم على مفارقتهم والانفلات من مصيرهم، وأيّ صحبة يا ترى بعد أن فارقهم وهجرهم إلى دينه وعياله ولحق بصاحبه مالك بن النضر الأرحبي؟؟!!

(٢) تأريخ الطبري، الطبعة الاوربية ٧: ٣٥٥ ـ ٣٥٤. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

في فسطاط لأصحاب الحسين ﷺ بين البيوت يوم عاشوراء هو الجسر الذي مدّه الضحّاك لينقله إلى الدنيا.

وقد رأينا وسمعنا كثيراً عن امتداد الدنيا إلى أعماق النفس في مختلف مراحل الطريق إلى الله سبحانه، ولكننا لم نَرَ فيما رأينا ولم نسمع فيما سمعنا أنّ الدنيا تنفذ وتمتدّ وتكمن في نفس الإنسان إلى هذا الحد، فيدخل الإنسان معركة الطف مع الإمام ويسقط أهل بيت الحسين ﷺ وأصحابه صرعى بين يديه، ويقاتل بين يديه ﷺ، ويدعو له الحسين، وهو يرى الإمام واقفاً وحده بين يدي الأعداء ثمّ لم يفارقه حبّ الدنيا، ونفوذ الدنيا وسلطانها على نفسه في هذه المراحل جميعاً.

إنّ التصاق الدنيا بنفس الإنسان لغريب، ومن الخطأ أن يغترّ الإنسان بنفسه فيتصوّر أنه قد تحرر من سلطان الدنيا، ونفوذها، ولم يعد بحاجة إلى معاناة وتزكية وجهاد للنفس.

إنّ في نفس الإنسان خبايا عميقة، وأعماقاً مجهولة يكمن فيها حبّ الدنيا، ويبقى هذا التعلّق يطارد الإنسان في حركته إلى الله تعالى من حيث يعلم الإنسان أو لا يعلم، حتّى إذا بلغ الإنسان نقطة الاختيار الصعب برز حبّ الدنيا من أعماق النفس المجهولة إلى السطح البارز للنفس مرّة واحدة، وغيّر وجهة الإنسان وحركته من الله تعالى إلى الدنيا.

إنّ حبّ الدنيا يلاحق الإنسان إلى هذه النقطة التي لا يكاد أن يبلغها الإنسان إلّا بعد أن يخرج من مصفاة الابتلاء عشرات المرّات، ومع ذلك كلّه يبقى هذا الحبّ كامناً في نفسه.

إننا لا نريد أن نتّهم الضحّاك في صدقه وحبّه للحسين ﷺ، وليس من سبب يدعونا أن نتّهم هذا الرجل الذي وقف هذا الموقف يوم عاشوراء من الحسين ﷺ في نيّته وصدقه، فلم يطلب الضحّاك من الدفاع عن الحسين ﷺ ومن القتال بين يديه دنيا، وهذا حقّ يجب أن نقول به ونعترف له به، لكنه مع ذلك كلّه لم يتحرر من حبّ الدنيا ومن التعلّق بالدنيا ومن تبعات الدنيا، حتّى عندما ساقه التوفيق والسعادة الإلهية إلى هذه المعركة الحاسمة بين الحقّ والباطل في التأريخ، ووضعه الله تعالى في أشرف موقع يتصوّره الإنسان، وهو موقع الدفاع عن الإسلام إلى جنب ابن بنت رسول الله ﷺ.

والآن بعد هذا التحليل النفسي لموقف الضحّاك بن عبد الله المشرقي يجب أن نوجز مرّة أُخرى العناصر التي تدخل في تكوين هذا الموقف الغريب، وأهم هذه العناصر هي:

١ ـ حبّ الدنيا والتعلّق بها، وهو رأس هذه العناصر جميعاً، وهو أول شيء اعتذر به

الضحّاك إلى الحسين عليه السلام عن مسايرته ونصرته، فلم يتخفف ولم يتحرّر الضحّاك من الدنيا وهو في وسط هذه المعركة المصيريّة، كما تحرر عنها «زهير» من قبل.

٢ ـ شحّة العطاء، وهي غير نضوب النفس، ففي حالة النضوب والجفاف ينقطع كلّ خير عن نفس الإنسان، أمّا في حالة «الشحّ» فيبقى للإنسان عطاء محدود وشحيح، وقد رأينا كيف وضع الضحّاك نصرته للحسين عليه السلام ضمن مجموعة من الشروط، ولم يبذل نصرته بذلاً، كما صنع سائر أصحاب الحسين عليه السلام، ولم يوطّن نفسه للقاء الله كما طلب الإمام الحسين من المسلمين في مكّة المكرمة.

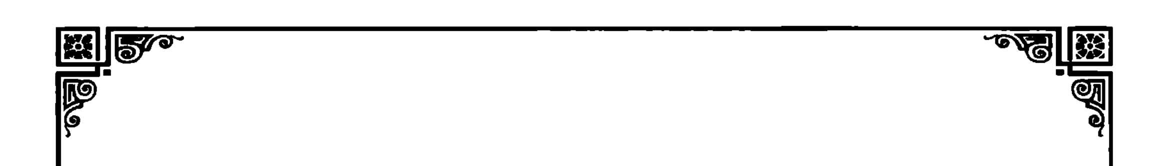
٣ ـ التحرّر عن الالتزامات التي تفرضها الدعوة والجهاد، والتحلّل عن القيود والعهود التي يفرضها الولاء لله تعالى ولرسوله وللأئمّة المسلمين.

وهذه العناصر الثلاثة تؤدي إلى ظواهر سلبيّة كثيرة في شخصية الإنسان من قبيل:

الخوف، والجبن، والخضوع، والانقياد للطاغوت، وانحسار سلطان الضمير عن حياة الإنسان وسلوكه.

ولسنا نريد أن نقول: إنّ هذه العناصر كانت موجودة مجتمعة في موقف الضحّاك بن عبد الله، ولكننا نريد أن نقول إنّ أمثال هذه المواقف يمكن أن تنحلّ إلى هذه المجموعة من العناصر السلبيّة.

وفي ختام هذه التأملات نعتذر من الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي إذا كنّا قد أسأنا إليه، وتناولنا موقفه من الحسين عليه السلام بالتحليل والنقد بهذه الصورة، ولا نريد أن نبخسه حقّه، فقد نال ما حُرِمنا منه نحن من شرف القتال بين يدي الحسين عليه السلام، ومن دعاء الحسين عليه السلام له.. وإنّما كنّا نريد أن نجعل من نقاط الضعف في موقفه وسيلة لتقويم نقاط الضعف في مواقفنا وسلوكنا.



قيمة الوراثة في حياة الإنسان

تأملات في زيارة وارث

تمهيد

للوراثة في حياة الإنسان نوعان من التأثير لهما قيمة وفاعلية كبيرة، وهاتان القيمتان هما:

١ - القيمة التكوينية للوراثة.

٢ - القيمة الإيحائية والتربويّة للوراثة.

وسوف نستعرض هذين النوعين من التأثير، وما لهما من دور فاعل ومؤثر في حياة الإنسان.

فنتحدّث **أوّلاً** عن القيمة التكوينية للوراثة، ونقصد بها التأثير الطبيعي والتكويني الذي تتركه الوراثة في حياة الإنسان في مقابل التأثير التربوي والإيحائي للوراثة، ونتحدّث **ثانياً** عن الإيحاءات التربوية التي تتركها الوراثة في حياة الإنسان وما لهذه الإيحاءات التربويّة من أثر فعّال في حياة الإنسان.

١ - القيمة التكوينية للوراثة

في ضوء دراسة النظرية الإسلامية للتاريخ والارتباط السببي بين مراحل التاريخ المختلفة نقول: إنّ الحضارة الواحدة امتداد واحد على مراحل زمنية مختلفة، وكلّ مرحلة من هذه المراحل ترتبط بالمراحل السابقة تحكيها وترثها.

ولا يمكن من الناحية العلمية تفكيك المراحل المختلفة للحضارة الواحدة، واعتبار كلّ شطر منها وحدة قائمة بالذات.

إنّ اليوم الحاضر مرآة للأمس الماضي، وجزء لا يتجزّأ منه، ولا نستطيع أن نفهم اليوم إن لم نربطه بالأمس، ولا نستطيع أن نفهم الشطر المعاصر من أيّة حضارة إذا لم نبحث عن جذورها ومكوّناتها في المراحل السابقة من التاريخ.

دراسة في الشريحة الحضارية:

إنّ كلّ شريحة حضارية تعتبر حصيلة جهود طويلة لأجيال من أبناء هذه الحضارة في مراحل مختلفة من التاريخ، ووراثة لميراث الأجيال السابقة في العادات والتقاليد والأعراف والثقافة والتصوّرات والحبّ والبغض.. وعندما نقتطع نحن هذه الشريحة المعاصرة أو هذا الجيل المعاصر من الحضارة عن جذوره وأُصوله لا نكاد نستطيع أن نفهمه حقّ الفهم.

ومن السذاجة أن نتصوّر أنّ هذه الشريحة أو تلك من الشرائح الحضارية قد تكوّنت بصورة عفويّة وبمعزل عن التاريخ الذي ترتبط به.

يقول الدكتور محمّد زكي العشماوي:

«ونحن مع إيماننا المطلق بحركة التطوّر التي لا تعرف النكوص أو الرجوع إلى الخلف، فإنّنا نؤمن في الوقت ذاته بأن كلّ ما يدخره الإنسان ويختزنه من ماضي الحياة البشرية ليس حياة ميِّتة، بل لا يمكن أن تموت، لأنها جزء لا يتجزّأ من الحياة الكبرى التي لا تفنى والتي لا تهرم ولا تدركها الشيخوخة»[١].

البُعد الأُفقي والبُعد العمودي لكلّ حضارة:

إنّ من الخطأ أن نفهم المجتمع والحضارة الإنسانية في البُعد السطحي فقط، وأن يغيب عنّا البُعد العمودي الذي يعتبر المصدر والأساس لأيّة حضارة.

فليست الحضارة ـ بالتأكيد ـ هي مجموعة التفاعلات الاجتماعية التي تحدث على مقطع زمني خاصّ وعلى السطح المرئي من الحضارة فقط.. وإنّما هناك من وراء هذا السطح المرئي من الحضارة الأعماق غير المرئية للحضارة.

وفي ضوء هذا الارتباط السببي بين الماضي والحاضر في المقاطع الزمنية المتعدِّدة والتفاعل بين عناصر الحضارة الواحدة في المقطع الزمني الواحد نستطيع أن نفهم الحضارة.

التبادل والتفاعل بين عناصر الحضارة الواحدة:

ففي المقطع الزمني الواحد نجد أن عناصر المجتمع الواحد تتفاعل مع بعض في تأثير وحركة متبادلة. فالمدرسة تؤثر في العائلة تأثيراً قويّاً، كما أن العائلة تؤثر في المدرسة، ولا

(١) مجلّة «عالم الفكر» المجلّد الرابع، العدد الأول، ص ١٣: الحاضر ضمير المستقبل، للدكتور العشماوي.

نستطيع أن نفهم عناصر الحضارة الواحدة إذا لم نفهم هذا التأثير المتبادل والمتقابل بين عناصر ومؤسسات الحضارة الواحدة في مقطع زمني واحد.

الأعماق الحضارية:

وبمقياس أقوى وأبلغ يكون تأثير الماضي في الحاضر في سلسلة مترابطة من الحلقات من الأسباب والعلل.

فمبعث رسول الله ﷺ مثلاً في القرن السادس الميلادي لـه تأثير بليغ، وفوق حدود التصوّر في كلّ مراحل حضارتنا خلال القرون الأربعة عشر التي مرّت على هذه الأُمّة.

ولا يمكن عزل هذا الحادث الكوني الكبير عن كلّ مراحل تاريخنا وحضارتنا، وليس من الممكن أن تكون أيّة شريحة من شرائح هذه الحضارة معزولة عن هذا السبب، أو نفهم أية شريحة من حضارتنا بمعزل عنه.

والكلام نفسه يصدق في معركة بدر (يوم الفرقان) ويوم الأحزاب وفتح مكّة ووقعة الطّف، وهكذا..

إنّ لكلّ واحد من هذه الأحداث وغيرها دوراً تأسيسياً في بناء هذه الحضارة، وليس في الإمكان أن تتكوّن هذه الحضارة بكلّ خصائصها القائمة فعلاً، بمعزل عن العوامل التاريخية التي ساهمت في بناء وتكوين تاريخنا ومجتمعنا.

وكلّما يزداد هذا العمق كلّما تزداد قيمته الحضارية في بناء المجتمع، فالمجتمع الذي تمتد جذوره آلاف السنين يتمتّع بقوّة وصلابة أكثر من المجتمع والحضارة التي تكوّنت في عدّة مئات من السنين فقط.

ذلك أن العمق التاريخي البعيد يعتبر تراكماً كبيراً من الأسباب والعلل من وراء المقطع الحضاري الذي نعاصره.

فقد يكون من السهل أن يتجاوز الإنسان الظروف السياسية التي تكوّنت في عصره من الحبّ والبغض والولاء والبراءة والأخلاق والسلوك والتصوّرات، ولكن من الصعب جدّاً ـ ولا أقول من المستحيل ـ أن يتجاوز الإنسان الحبّ والبغض الذي تكوّن خلال ألف سنة من الزمان.

فإنّ مرور هذه الحقبة التاريخية الطويلة على هذه الحضارة يكسبها الكثير من الصلابة

والثبات، ممّا يجعل من الصعب جدّاً أن يتجاوزها الإنسان، وهذا هو (الميراث الحضاري) الذي نتحدّث نحن عنه في هذه الدراسة.

عراقة الميراث الحضاري:

كلّما يطول الزمن فالظاهرة الحضارية تزداد تأصّلاً وعراقة وعمقاً في وجود الأُمّة، وتتمتّع بقوّة وأصالة وقدرة أكثر على مواجهة التحدّيات.. ولذلك فإنّ التاريخ تراكم من العمل والجهد والتبنّي، وكلّما يكون التاريخ أطول يكون الجهد والعمل المبذول في تبنّي أيّة ظاهرة اجتماعية أكثر.. ونتيجة لذلك تكون الظاهرة الاجتماعية أقوى وأثبت وأكثر أصالة وعقماً ومتانة، وأقوى على مواجهة التحدّيات.

فـ (الصلاة) مثلاً ظاهرة حضارية عميقة الجذور في التاريخ، وميراث حضاري عريق في الأجيال تنتقل من جيل إلى جيل، وكلّما يمرّ علينا زمن أطول تزداد أصالة وثباتاً وعمقاً في حياة الإنسان.

والعراقة التي نجدها نحن في حياتنا اليومية للصّلاة، ليست حصيلة جهد وعمل فردي، وفي مقطع زمني خاصّ، وإنّما هي حصيلة جهود وأعمال كبيرة وكثيرة عبر التاريخ في تبنّي الصلاة وإقامتها والدعوة إليها وتأكيدها وترسيخها، وهذه الجهود جميعاً تتمثّل اليوم في (الصلاة) التي نقيمها نحن في بيوتنا ومساجدنا.

(والحج) ظاهرة حضارية وميراث حضاري، ورثناه نحن من أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام.

ولهذه الظاهرة الحضارية عراقة، وعمق خاصّ، وأصالة في حياتنا، وجاذبيه خاصّة في نفوسنا، فإذا حان وقت الحجّ توجّه مئات الآلاف من المسلمين، من كلّ فجٍّ عميق، رجالاً وعلى كلّ ضامر إلى البيت العتيق لأداء فريضة الحجّ.

يقول تعالى لعبده وخليله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١].

---

(١) سورة الحجّ، الآية: ٢٧.

التبنّي الجمعي والعمق الحضاري لفريضتي الصلاة والحجّ:

وما دمنا نتحدّث عن (الصلاة) و(الحجّ) كمثالين للظواهر والمواريث الحضارية.. فلا بأس أن نقف وقفة قصيرة عند هاتين الظاهرتين الربّانيّتين في حياة الإنسان، فنقول:

إنّ القيمة والفاعلية والجاذبية التي تملكها هاتان الفريضتان في حياتنا تعود إلى أمرين اثنين:

الجهد الجمعي الكبير المبذول في إقامة هاتين الفريضتين في المقطع الزماني الواحد، في اجتماعات كبيره وحاشدة، ولا شكّ أن هذا الجهد والاهتمام الجمعي بهاتين الفريضتين من قِبَل الملايين من المسلمين ينعكس في الصلاة والحجّ بشكل واضح، ويكسب هاتين الفريضتين هذه الجاذبية والتعاطف والقيمة والفاعلية في نفوس جماهير المؤمنين، وإلى جنب هذا البُعد، هناك بعد آخر للصلاة والحجّ، وهو البُعد التاريخي الذي تحدّثنا عنه.. فإنّ الإقامة الطويلة للصلاة والحجّ والممارسة التاريخية الطويلة لهاتين الفريضتين عبر القرون، تمنح هاتين الفريضتين قيمة كبيرة وفاعلية وجاذبية خاصّة، وهذا هو الذي نقصده من كلمة (الميراث).

ولهذا السبب يؤكد الإسلام تأكيداً كبيراً على الاهتمام بالإطار الاجتماعي (البُعد الأوّل) وبالإطار التاريخي (البُعد الثاني) للفرائض.

الإطار الاجتماعي للشعائر الإسلامية:

ففي الإطار الاجتماعي وهو الإطار الأوّل يتفاعل الفرد ـ تفاعلاً قويّاً ـ مع الجوّ الاجتماعي الذي تقام فيه الفريضة.. فأن الصلاة جماعة وجمعة لها تأثير متقابل في نفوس المصلّين. والفرد الذي يقيم الصلاة في وسط حاشد من جماعة المسلمين يكتسب من حضور الآخرين اندفاعاً وقوّة وإقبالاً على فريضة الصلاة وتفاعلاً معها، في الوقت الذي يكسب الآخرين بحضوره نفس الاندفاع والقوّة والتفاعل والإقبال.

وهذا التعاطي والتبادل المتقابل من قبل المصلّين يكسب الصلاة في نفوس الجميع أصالة وثباتاً وقوّة وجاذبية.

ولعلّ الاهتمام بالجمعة والجماعة في الإسلام من هذا المنطلق، ورغم أن الانفراد والخلوة في ذكر الله تفيد الإنسان في الإقبال على الذكر كثيراً.. رغم ذلك تفضّل الشريعة إقامة

الصلاة جماعة على الصلاة فرادى وتؤكدها، حتى روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لا يصلّي في المسجد مع المسلمين إلّا من علّة»[١].

وروي عن الصادق عليه السلام: «إنَّ أُناساً كانوا على عهد رسول الله ﷺ أبطأوا عن الصلاة في المسجد، فقال رسول الله: ليوشك قوم يدعون للصلاة في المسجد أن نأمر بحطب ليوضع على أبوابهم، فتوقد عليهم نار، فتحرق عليهم بيوتهم»[٢].

والجماعة بحكم هذا التأثير المتبادل الذي يتركه كلّ واحد من الجماعة في الآخرين ليس كمية عددية فقط تساوي مجموعة الأفراد، وإنّما يتحوّل هذا الكم إلى كيف خاصّ تعبّر عنه الروايات بـ (يد الله)، فالجماعة ليست فقط مجموعة الأفراد وإنّما تساوي (مجموعة الأفراد + يد الله).

يد الله على جماعة المسلمين:

وقد روي عن رسول الله ﷺ: «يد الله على الجماعة، والشيطان مع من خالف الجماعة»[٣].

ويد الله هنا هي القوّة والبركة والرحمة، فعندما يجتمع جمع من المؤمنين تنزل عليهم رحمة الله وبركاته، ويمنحهم الله القوّة والرحمة.

وهذا هو ما ذكرناه من أن الممارسة الاجتماعية للفرائض الإسلامية تمنح الفرائض الإسلامية كثيراً من الجاذبية والقوّة والصلابة والأصالة، وتشدّ الناس إلى هذه الفرائض شدّاً نفسياً وعاطفياً قوياً.. وهذا هو بعض السرّ في قوّة وجاذبية فريضة الحجّ التي تجتذب الناس من كلّ فجّ عميق إلى هذا الوادي غير ذي زرع حول بيت الله الحرام.

وبنفس الملاك يصحّ أن نقول أن هذه التجمّعات القائمة على ذكر الله تعالى وتقوى الله تمنح الإنسان تقوى وعصمة، وتعصم عن الشطط والزيغ والضّلال، وتعتبر الحصن الذي يحصّن المؤمن من عدوان الهوى والشيطان.

---

(١) علل الشرائع للصدوق: ٣٢٥، وسائل الشيعة ٥ : ٣٧٧.

(٢) التهذيب للشيخ الطوسي ٣: ٢٥.

(٣) كنز العمّال: الحديث ١٠٣١.

فقد روي عن رسول الله ﷺ: «يد الله على الجماعة، فإذا اشتذّ الشاذّ منهم اختطفه الشيطان كما يختطف الذئب الشاة الشاذّة من الغنم»[١].

وهذا هو الإطار الأوّل (الاجتماعي) (الأُفقي) للصلاة والحجّ.

الإطار التاريخي للشعائر الإسلامية:

والبُعد الآخر للشعائر والفرائض الإسلامية هو البُعد التاريخي (العمودي)، ولهذا البُعد تأثير كبير في تعميق مشاعر العبودية والإقبال على ذكر الله تعالى في حياة الناس.

ولهذا الأمر يهتم القرآن كثيراً بالبُعد التاريخي للصلاة والإيمان والدين، يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٢].

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾[٣].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[٤].

وانطلاقاً من هذا التصوّر للتاريخ والميراث، نقول: إنّ حجّ إبراهيم عليه السلام له تأثير في حجّنا، وصلاة موسى وعيسى عليهما السلام لها تأثير في صلاتنا، ودعوة نوح عليه السلام لها تأثير مباشر وغير مباشر على دعوتنا إلى الله تعالى، وأنّ جهاد الحسين عليه السلام في كربلاء ووقعة الطّف له تأثير مباشر على مسيرتنا ودعوتنا ومواجهتنا اليوم لطواغيت عصرنا، وأنّ أجزاء هذه المسيرة الواحدة من آدم ونوح عليهما السلام إلى اليوم الحاضر أجزاء مترابطة متماسكة، السابق منه يدعم اللّاحق، واللّاحق منه يرث السابق.

وعلى هذه المسيرة، تنتقل القيم والتراث، والولاء والبراءة، والحبّ والبغض، والتصوّرات والأخلاق من جيل إلى جيل.

---

(١) كنز العمّال: الحديث ١٠٣٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٢ ـ ٧٣.

وحدة المسيرة ووحدة المعاناة ووحدة الثواب:

ومن أروع ما في هذا التصوّر الإسلامي للميراث: أنّ الأجيال اللّاحقة لا ترث فقط المواريث الحضارية من الأجيال السابقة، وإنّما تشاركها أيضاً في ثواب معاناتها وعنائها الطويل في صراعها مع الكفر والنفاق لإقامة هذه الفرائض الإسلامية وتثبيتها.

فقد تحمّل سلفنا الصالح على هذا الطريق الكثير من العناء والمعاناة في الصراع مع الطاغوت لإقامة هذه الفرائض وتثبيتها وتعبيد الإنسان لله.

ونحن (الوارثون) لا تنتقل إلينا فقط هذه القيّم والمواريث (العبودية والإيمان والصلاة) من سلفنا، وإنّما ينتقل إلينا أيضاً ثواب معاناتهم وصبرهم وعنائهم دون أن يكون لنا فعل وتحمّل في هذه المعاناة والعناء.

والجسر العجيب الذي ينتقل عليه هذا الثواب والأجر من دون معاناة وعناء، ويشرك أُناساً في ثواب أُناس آخرين سبقوهم هو الولاء والحبّ.

وعجيب أمر الولاء والحبّ، فهو يوحّد أطراف هذه المسيرة المتباعدة، ويجعلها قطعة واحدة، ويشرك اللّاحق في ثواب السابق، ويجعل السابق مورداً ومعيناً للّاحق. وهذا هو البُعد الثالث (المستقبليّ) لمسيرة الدعوة إلى الله.

روى الحكم بن عيينة، قال: لمّا قتل أمير المؤمنين عليه السلام الخوارج يوم النهروان، قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين: طوبى لنا إذ شهدنا معك هذا الموقف، وقتلنا معك هؤلاء الخوارج، فقال أمير المؤمنين عليه السلام[1] «والذي فلق الحبّ وبرأ النسمة، لقد شَهِدنا في هذا الموقف أُناس لم يخلق الله آباءهم، ولا أجدادهم بعد، فقال الرجل: وكيف يشهدنا قوم لم يخلقوا؟ قال: بلى قوم يكونون في آخر الزمان، يشركوننا فيما نحن فيه، ويسلّمون لنا، فأُولئك شركائنا فيما كنّا فيه حقّاً حقّاً»[2].

وروى محمّد بن سلمة، رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، فمن رضي أمراً فقد دخل فيه ومن سخطه فقد خرج منه»[3].

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من المصدر.

(٢) المحاسن: ٢٦٢.

(٣) المصدر السابق.

وعن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أنّ أهل السماوات والأرض لم يحبّوا أن يكونوا شهداء مع رسول الله صلى الله عليه وآله لكانوا من أهل النار[١].

وروى أبو جعفر محمّد بن أبي القاسم الطبري في كتابه (بشارة المصطفى)، عن عطيّة العوفي، قال: خرجتُ مع جابر بن عبد الله الأنصاري زائرين قبر الحسين عليه السلام، فلمّا وردنا كربلاء دنا جابر من شاطئ الفرات، فاغتسل ثمّ ائتزر بأزار وارتدى بآخر، ثمّ فتح صرّة فيها سِعد، فنشرها على بدنه، ثمّ لم يخطِ خطوة إلّا ذكر الله تعالى، حتّى دنا من القبر. قال: ألمسنيه، فألمسته، فخرّ على القبر مغشيّاً عليه، فرششت عليه شيئاً من الماء، فلمّا أفاق، قال: يا حسين ثلاثاً. ثمّ قال: حبيب لا يجيب حبيبه، ثمّ قال: وأنّى لك بالجواب وقد شُخِبت أوداجك على أثباجك، وفُرّق بين بدنك ورأسك، فأشهد أنك ابن خاتم النبيّين، وابن سيِّد المؤمنين، وابن حليف التقوى، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيِّد النقباء، وابن فاطمة سيِّدة النساء، وما لك لا تكون هكذا، وقد غَذَتْك كفّ سيِّد المرسلين، ورُبِّيت في حجر المتّقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفطمت بالإسلام. فطبت حيّاً وطبت ميّتاً، غير أنّ قلوب المؤمنين غير طيِّبة لفراقك، ولا شاكّة في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريّا. ثمّ جال بصره حول القبر للسلام على أنصار الحسين عليه السلام وقال:

السّلام عليكم أيّتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين، وأناخت برحله، وأشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزّكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتّى أتاكم اليقين، والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

قال عطيّة: فقلت له يا جابر، كيف ولم نهبط وادياً، ولم نعل جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرِّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأُوتمت أولادهم، وأُرملت أزواجهم.

فقال: يا عطيّة، سمعتُ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول. : من أحبّ قوماً حُشِرَ معهم، ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم، والذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحقّ أنّ نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه عليهم السلام[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ٧٤ ـ ٧٥، ط. النجف ١٣٨٣هـ.

المواريث الحضارية والمواريث المدنية:

إنّ ما يقال عن الظواهر الحضارية كـ (الصلاة) و(الحجّ) و(التقوى) و(الإيمان) و(العفاف).. يقال عن الظواهر المادية للحضارة كـ (المسجد) و(المنبر) و(المدرسة) وغير ذلك من الظواهر والأدوات المادية للحضارة، أو ما يطلق عليها أحياناً بـ (المدنيّة) في مقابل (الحضارة).

فإنّ لهذه الظواهر المادية أيضاً أبعاداً اجتماعية وتاريخية، كما للظواهر الحضارية، وكلّما تتّسع أبعادها الاجتماعية، وتتعمّق أبعادها التاريخية، تزداد أصالة وعمقاً ورسوخاً في ضمير الأُمّة.

فـ (المساجد) مثلاً تمتلك عمقاً قيميّاً تاريخياً في حياة هذه الأُمّة، وهذا العمق التاريخي يمنح (المسجد) قيمة خاصّة في حياتنا الاجتماعية ومركزاً حسّاساً يجعل من الصعب تجاوزه أو تحدِّيه من قِبَل أعداء الإسلام.

وهذه القيمة والأصالة والرسوخ في ضمير الأُمّة هي التي حفظت المساجد في تاريخ العدوان على الأُمّة وتراثها من اعتداء المعتدين.

وهكذا (الحجاب) للمرأة المسلمة، يمتلك بفضل هذا العمق التاريخي قيمة كبيرة واحتراماً في ضمير الأُمّة، كما يضفي احتراماً خاصّاً على شخصية المرأة.

وسوف نرى أن العمق التاريخي لهذه الظواهر المادية تجعل منها قلاعاً تحمى وتحصّن الكثير من القيم الحضارية في الأُمّة وتحميها من الاعتداء.

فالحجاب يحمي العفاف عند المرأة المسلمة..

والمسجد والمنبر يحميان الصلاة.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحميان الفرائض والحدود الإلهية، والحركة والثورة تحميان النظام الإسلامي وسيادته.

وللمحافظة على هذه القيم الحضارية ينبغي أن نحافظ على الأدوات المادية لهذه الظواهر، وأحياناً نحرص على إبقائها على شكلها وهندستها الخاصّة.

فنحافظ على العمارة التقليدية للمساجد، وعلى التصميم التقليدي للمنابر، وعلى الصورة التقليدية المعروفة للمصاحف في طباعة المصاحف.

وبهذا الترتيب، نحرص على المحافظة حتّى على الوسائل المادية للحضارة الإسلامية ـ قدر الإمكان ـ على صورتها التاريخية التي تتمتّع باحترام وتقدير خاصّ في ضمير الأُمّة[١].

وهذا بعض سرّ قوّة المواريث الحضارية في حياتنا، وفشل أعداء الإسلام في إزالة هذه المواريث من الحياة.

فليس الجهد الذي يبذله أعداء الإسلام في القضاء على الفرائض الإسلامية كالصلاة والحجّ باليسير، وليس الجهد الذي بذلوه للقضاء على الشعائر والشعارات والأعراف الإسلامية كالحجاب ومجالس عزاء الحسين والتحيّة والسّلام بالشيء الهيِّن.

فقد استخدم أعداء الإسلام كلّ الوسائل الممكنة من إغراء وإرهاب وترغيب في اجتثاث هذه الأُمّة من جذورها وتمييع أصالتها ومسخ شخصيتها الحقيقية واستيراد الأفكار والتصوّرات والظواهر الحضارية الشرقية والغربية من هنا وهناك.. ولكنّ هذه الأعمال كانت تبوء غالباً بالفشل، ولا يجني منها أصحابها إلّا القليل.

لقد بذل رضا خان بهلوي في إيران، ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا جهداً ليس بالقليل في مكافحة المواريث الإسلامية كالصلاة والحجّ والحجاب، وحتّى أنّ رضا بهلوي منع الحجّ بحجّة أو بأُخرى لعدّة سنوات وحارب الحجاب وألزم النساء المؤمنات بالسفور، وحارب شعائر العزاء الحسيني الذي يمارسه المسلمون الشيعة في كلّ أقطار العالم الإسلامي. لكنّ بهلوي أخفق في تحقيق أكثر طموحاته، واستعادت الأُمّة رشدها ووعيها وارتباطها الرسالي التاريخي بالإسلام، وسرعان ما طَهُرَت ساحة البلاد من مخلّفات بهلوي ونظامه. ومن أسباب ذلك عراقة هذه الظواهر الحضارية في تاريخ الأُمّة.

مواقع القوّة والمناعة في حياة الأُمّة:

إنّ هذه النقاط (المواريث الحضارية)، تعتبر نقاط القوّة ومراكز المناعة في حياة الأُمّة، وتشبه تماماً الجذور العميقة التي تحفظ الشجرة الباسقة من السقوط.

---

(١) ينبغي ألّا نسيء فهم هذه الجملة ونفسّرها بما لا يريد الكاتب، فإنّني أقصد بهذا الكلام المحافظة على الصور التي تختزنها ذاكرة الأُمّة، وتتمتّع باحترام وتقدير خاصّ في ضمير الأُمّة، والاستفادة من هذه الصورة في تحصين وحماية القيم الحضارية الإسلامية.

إنّ هذه الجذور هي التي تمد الشجرة بالغذاء والماء، وتحفظ الشجرة من السقوط، كذلك المواريث الحضارية تعتبر الجذور والامتدادات العميقة التي تحفظ الأُمّة وتمنحها المناعة وتحصنها ضدّ الغزو الأجنبي[1].

وفي تأريخنا السياسي المعاصر، كلّما تحرّك أعداء الإسلام لغزو المنطقة الإسلامية فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، اصطدموا بواحد من هذه المراكز (مراكز القوّة والمناعة في حياة الأُمّة)، وتراجعوا أمامه.

فقد احتلّ العدو القلاع والحصون والقواعد العسكرية الضخمة.. ولكنّه عندما اصطدم بالمسجد اضطرّ للتراجع والانسحاب. وقد احتلّ العدو الإذاعة والتلفزيون والصحافة والمدارس والجامعات الأكاديمية، والإعلام والسينما والوزارات والجيش والشرطة والأحزاب... ، وأخضعها جميعاً لحركة التغريب، ولكنه عندما اصطدم بصخرة المنبر والحوزات والمدارس الدينية والمساجد والأذان والصلاة ومجالس العزاء الحسيني، اضطرّ للتراجع والانسحاب، والسرّ كلّ السرّ في هذه القوّة هو الامتداد التاريخي العميق لهذه المواريث الحضارية والمدنيّة في ضمير الأُمّة، ممّا يجعل من الصعب جدّاً مداهمة هذه المراكز من قِبَل الأعداء واحتلالها والقضاء عليها... لقد سقطت قلاعنا الثقافية والحضارية قلعة قلعة ولكن قلعة المسجد والحوزات العلمية والحج ومجالس عزاء الحسين عليه السلام والمنبر، بقيت شامخة ازاء تحديات الغرب.

---

(١) روى أحد العلماء عن بعض السياسيين، أنّ الانجليز كانوا مندفعين بقوّة للقضاء على الإسلام في إيران، وكانوا يعملون لاستبدال الحضارة الإسلامية في إيران في عهد بهلوي بالحضارة الغربية وربط البلد بعجلة الحضارة الغربية بشكل كامل.. ولمّا توفّي السيد أبو الحسن الاصفهاني رحمه الله ـ أحد كبار مراجع التقليد في النجف الأشرف ـ أحدثت وفاته هزّة عميقة في كلّ إيران، ولبست إيران الحداد أربعين يوماً لوفاة هذا العالم الجليل، وأُقيمت له مجالس العزاء على مساحة واسعة جدّاً في إيران.. فبدأ الانجليز يراجعون حساباتهم من جديد في إمكان القضاء على الإسلام بشكل كامل، في بلد يهتزّ من أقصاه بهذا الشكل القوي العنيف لوفاة عالم من علماء الإسلام، فكيف يمكن القضاء على الإسلام، واجتثاث جذوره من قلوب وصدور هذه الأُمّة.

يقول هذا السياسي، وهو كان من المرتبطين بعجلة الاستكبار الغربي: أنّ حادث وفاة السيّد أبو الحسن الأصفهاني رحمه الله أثّر في تخفيف الضغط المناويء للإسلام من قبل الانجليز على إيران لفترة من الوقت.

المحافظة على المواريث الحضارية:

ومن هذا المنظور، يجب علينا نحن الدّعاة إلى الله تعالى، المحافظة على هذه المواريث الحضارية في حياة الأمّة، وحمايتها وتبنّيها لتحصين شخصية الأمّة وتثبيتها، والمحافظة على أصالتها وعراقتها.

وبعكس ذلك: فإنّ تعريض المواريث الحضارية العريقة للإهدار والضياع، يعرّض شخصية الأمّة للمسخ والضّياع.

ففي سورة مريم، بعدما يستعرض القرآن الكريم شطراً من قصّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، يقول تعالى لنبيّه ﷺ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[١].

هذا الخلف الذين يذمّهم القرآن الكريم، هم الذين أضاعوا الصلاة ـ ميراث الآباء والسّلف ـ واتّبعوا الشهوات، وينذرهم القرآن الكريم بأنّهم سوف يلقون غيّاً.

إنّ من الناس من يحفظ الأمانة من مواريث السلف، ويستلمها ويحافظ عليها من الضياع والدّس والانحراف، ثمّ يسلّمها إلى (الخَلْف) الذين يلونهم من الجيل الجديد، وهؤلاء هم الخَلْف الصالح للسلف الصالح وحملة الأمانة، الذين يصلون الرّحم، ولا يقطعونه. ومن الناس من لا يحفظون الأمانة والعهد، وتضيع على أيديهم مواريث السلف، هؤلاء هم الذين تعنيهم الآية الكريمة: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

إنّ من الناس من يكون جسراً بين جيلين، جيل سابق عليه وجيل يلحقه، ينقل مواريث الصالحين من الآباء والأسلاف إلى الجيل الذي يلي جيله، وهؤلاء هم الأُمناء.

ومن الناس من يشكّل فجوة وقطيعة وحاجزاً بين جيلين، الجيل السابق والجيل اللّاحق، فيفصل هذا الجيل عن ذلك الجيل، ويقطع الخلف عن السلف، وهذه القطيعة هي أبرز صور الخيانة والعقوق وقطيعة الرّحم.

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

السنّة والبِدعة:

وقد ورد التعبير في النصوص الإسلامية عن حالتي الارتباط بالسّلف والقطيعة اللّتين تحدّثنا عنهما بالعمل بـ (السنّة) و(البِدعة).

فالعمل بالسنّة هو الارتباط السلوكي بالسّلف الصالح وحالة الإقتداء والتبعيّة الواعية.. في مقابل (البِدعة) وهي حالة القطيعة عن السّلف وقطع الجسور، والانحراف عن مسيرة السّلف الصالح إلى الأنماط الجاهلية المستحدثة والقديمة.

إنّ الاهتمام الكبير في النصوص الإسلامية بمسألة السنّة قد ينشأ من هذه النظرة، ويعبِّر عن اهتمام الإسلام بربط الأجيال المتعاقبة بميراث الأنبياء والمرسلين من السّلف الصالح، وشدّهم بالأنبياء والأولياء والصالحين من سلفنا.

والقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى التأسّي بالأنبياء والمرسلين بشكل عام، وبأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبخاتم الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل خاص:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾[١].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[٢].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«عمل قليل في سُنَّة خير من عمل كثير في بِدعة»[٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لا يقبل قول إلّا بعمل، ولا يقبل قول وعمل ونيّة إلّا بإصابة السنّة»[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عليكم بالسنّة، فعمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بُدعة»[٦].

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٦.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) بحار الأنوار ٢: ٢٦١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) بحار الأنوار ٢: ٢٦٢.

وعن رسول الله ﷺ قال: «من تمسّك بسنّتي في اختلاف أُمّتي كان له أجر مائة شهيد»[١].

وعن عليّ بن مهزيار، عن منصور بن أبي يحيى، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: صعد رسول الله ﷺ المنبر فتغيّرت وجنتاه والتمع لونه، ثمّ أقبل بوجهه فقال: «يا معشر المسلمين، إنّما بُعثتُ أنا والسّاعة كهاتين، ثمّ ضمّ السبّاحتين[٢].

ثمّ قال: يا معشر المسلمين، أنّ أفضل الهدى هدى محمّد، وخير الحديث كتاب الله، وشرّ الأُمور محدثاتها. ألا وكلّ بِدعة ضلالة، ألا وكلّ ضلالة في النار»[٣].

وعن رسول الله ﷺ قال:

«في القلب نور لا يضيء إلّا من اتباع الحقّ وقصد السبيل، وهو نور من المرسلين الأنبياء يودع في قلوب المؤمنين»[٤].

وعن ابن حميد، رفعه قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين فقال: أخبرني عن (السنّة) و(البِدعة) وعن (الجماعة) وعن (الفرقة):

فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«(السنّة) ما سنّ رسول الله، و(البِدعة) ما أُحدث من بعده، و(الجماعة) أهل الحقّ وإن كانوا قليلاً، و(الفرقة) أهل الباطل وإن كانوا كثيراً»[٥].

وعن موسى الكاظم عليه السلام قال:

«ثلاث موبقات: نكث الصفقة، وترك السنّة، وفراق الجماعة»[٦].

وفي النصّين الأخيرين تتبيّن أبعاد التلاحم العضوي الوثيق في بناء الأُمّة في الارتباط بمنابع التشريع (السنّة) والارتباط بالقيادة (البيعة) والارتباط العضوي بالأُمّة (الجماعة).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) السبّاحة: الإصبع التي تلي الإبهام.

(٣) بحار الأنوار ٢: ٢٦٣.

(٤) المصدر نفسه ٢: ٢٦٥.

(٥) المصدر نفسه ٢: ٢٦٦.

(٦) المصدر نفسه ٢: ٢٦٦.

وروي عن رسول الله ﷺ قال:

«رحم الله خلفائي، فقيل يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنّتي ويعلّمونها عباد الله»[١].

والارتباط بين الخلافة والسنّة يلفت النظر في هذا الحديث، فالخلافة تتحقّق باتّباع سنّة رسول الله ﷺ.

وأيضاً عن رسول الله ﷺ قال:

«أمّا بعد فإنّ خير الأُمور كتاب الله، وخير الهدى هدى محمّد ﷺ، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة»[٢].

وعنه ﷺ قال:

«من أحيا سنّة من سنّتي فعمل بها الناس كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أُجورهم شيئاً، ومن ابتدع بدعة فعمل بها كان عليه أوزار من عمل بها، لا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً»[٣].

وكأنّ الذي يبتدع في الدين ويقطع الأجيال اللّاحقة عن اتّباع السنّة يتحمّل وزر كلّ الذين ينقطعون عن المسيرة والخط، دون أن ينقص من أوزارهم شيء.

بين التقليد والثوابت:

من الملاحظ أنّ بعض علماء الاجتماع يضعون علامة الاستفهام أمام حالة النزوع إلى السنّة ورفض البدع في الأديان، وبشكل خاصّ في الإسلام، ويفسّرون هذه الحالة بالنزوع إلى القديم والميل إلى التقليد، ورفض التجديد والتحرّك.

ومن هذه الزاوية يدرجون المجتمعات الدينية في قائمة المجتمعات المحافظة التي ترفض التحرّك والتجديد والتطوّر، في قبال النوع الآخر من المجتمعات، وهي المجتمعات التي تتّسم بالحركيّة وترفض الجمود على القديم والركود والتقليد.

يقول الباحثان الاجتماعيان (W. F. Ogburn) و(M. F. Nimkoff):

---

(١) المصدر نفسه ٢: ٢٥.

(٢) سنن ابن ماجه ١: ١٧ ح٤٥.

(٣) المصدر نفسه ١: ٧٦.

المجتمعات الجامدة ـ بعكس المجتمعات الحركية ـ لا تستجيب للتحوّلات الاقتصادية. وترفض التجديد، وتخضع الحياة في هذه المجتمعات لنظام ثابت تقريباً. والسنن والأعراف تتحكّم في حياة الناس بصورة قاهرة. والإنتاج الاقتصادي يجري بصورة تقليدية. ولا تتبدّل التصورّات والأفكار الدينية والسياسية والاجتماعية. والموقع العائلي والطّبقي والاجتماعي لأي شخص يحدّد دوره الاجتماعي وموقعه في المجتمع وحتّى زواجه وموته، ويتحكّم العرف والتقليد على الأخلاق. ويندر الخروج على القواعد والأعراف والأساليب الحاكمة في المجتمع.. وإذا حدث شيء من ذلك يواجه ردود فعل قويّة معاكسة. والطاعنون في السنّ يشكّلون مصادر السنن والأعراف التقليدية، ويتحكّمون في حركة المجتمع. أنّ البيئة الاجتماعية لا تمارس أي دور تحريكي على الأفراد، ولا تدفعهم إلى الإبداع والتجديد. ويجري كلّ شيء تقريباً بشكل تقليدي وثابت. حتّى الزيّ واللّباس والأكل يتحدّد شكله بصورة مسبقة. ولا أمل يساور أحداً في أن تتطوّر مثل هذه المجتمعات وتتحرّك للأمام، وتجري في جوّ قائم ثابت غير متطوّر.

هؤلاء الناس يعيشون للطموحات وللأفراح والمسرّات الصغيرة في مسير حياتهم اليومية، وسعداء من ناحية أُخرى بالحياة الأبديّة السعيدة التي ينتظرونها بعد الموت[١].

مثل هذا التصوّر عن المجتمعات الخاضعة للسنن أمر شائع في الكتب الاجتماعية. وعلماء الاجتماع ـ في الغالب ـ ينظرون إلى المجتمعات المرتبطة بالسنن والمواريث الحضارية بهذه النظرة السلبية والقاتمة.

وبطبيعة الحال فأنّ هذا التصوّر يشمل المسيرة الإلهيّة على وجه الأرض في التاريخ، فإنّ هذه المسيرة مرتبطة بسنن ثابتة تتوارثها جيلاً بعد جيل وتحكمها ضوابط وحدود وأعراف وقيم وأخلاق ثابتة وغير متغيّرة، وتحرص أجيال هذه المسيرة أن لا تنحرف عن الخط والطريق، وأن لا تستبدل المواريث الحضارية التي ورثوها من السّلف بالأعراف والقيم والتصوّرات الجاهلية التي استحدثها الناس ويعتبرون أي انحراف عن طريق السّلف من البِدعة المحرّمة وكلّ أتباع لمسيرة السّلف الصالح من السنّة الواجبة والمندوبة.

وبناءاً على هذا التصوّر تدخل هذه المجتمعات ضمن التصنيف المذكور في عِداد المجتمعات غير الحركية.

ولابدّ أن نشير هنا إلى المفارقة العلمية التي يقع فيها كثيراً من الباحثين من هذا النمط

(١) نقلاً عن كتاب (علم الاجتماع) لـ أ. ج. آريان پور: ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

حيث يختلط لديهم حساب الثوابت القائمة في حياة الإنسان بحساب القديم وتقليد القديم والجمود على القديم.. وهذا الخلط هو سبب المفارقة التي يقع فيها هؤلاء.

إنّ في حياة الإنسان ثوابت لن تتغيّر ولا تخضع لحسابات الزمن. وهذه الثوابت هي الأبعاد الرئيسية للإنسان والقيم الحقيقية لشخصيّة الإنسان، وتجاوز هذه الثوابت يؤدّي إلى مسخ شخصيّة الإنسان وتشويهه.

وللمحافظة على شخصية الإنسان بأبعاده الحقيقية، لابدّ من المحافظة على هذه الثوابت، وقد تكون هذه الثوابت في المحتوى فقط، وقد تكون في المحتوى والشكل معاً.

فالحاجة الجنسيّة من الحاجات الثابتة في حياة الإنسان، وطريقة تصريف هذه الحاجة أيضاً من العناصر الثابتة في حياة الإنسان. فلا يمكن أن يتجاوز الإنسان الحاجة الجنسيّة من حيث المحتوى والمضمون، كما لا يمكن أن يتجاوز الزواج وبناء العائلة من حيث الشكل.

ويصحّ أيضاً في حاجة الإنسان إلى المعاشرة الاجتماعية من حيث المضمون أحياناً فقط دون الشكل، ومن حيث المضمون والشكل أحياناً.

ويصحّ أيضاً في الجانب الاقتصادي من حياة الإنسان: وهذه المجوعة من الثوابت تشكّل مجموعة كبيرة وواسعة من الحاجات الأساسية في شخصية الإنسان، لا يجوز للإنسان أن يتجاوزها أو يستبدلها بشكل من الأشكال.. وأيّ محاولة لتخطّي هذه الحاجات تجرّ الإنسان إلى أن يتجاوز نفسه.

وهذه الأبعاد الأساسية الثابتة لشخصية الإنسان هي التي ترسمها الأديان الإلهية بالإجمال والتفصيل، ويدعو إليها ويعمل بها الأنبياء والمرسلون وعباد الله الصالحون ﷺ، وهي ما أسميناه بالتراث والمواريث والسنن، في مقابل البِدع التي تعبّر عن تجاوز الإنسان للسنن الإلهية الثابتة في حياة الإنسان.

وإزاء هذه الحالة (حالة الالتزام بالثوابت الإلهية في حياة الإنسان) هناك حالة أُخرى وهي حالة التبعيّة والجمود على القديم والتهيّب من تجاوز كل شيء قديم، والتعصّب للآباء.

والقرآن الكريم يذّم هذه الطائفة من الناس:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ ۞قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤﴾[٣].

وهذه هي حالة الجمود والتبعيّة والتقليد غير الواعي، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن حالة إتباع السنن الإلهيّة التي يأمر بها الإسلام، والتي تشكل العمق الحقيقي للإنسان وأصالته والثوابت الإلهيّة في حياته.

الثوابت والفطرة والصبغة:

هذه الثوابت في شخصية الإنسان هي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بـ (الفطرة) كما يبدو:

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾[٤].

ويظهر من الآية الكريمة إنّ الفطرة هي مجموعة الخصائص التي أودعها الله تعالى في الإنسان[٥]، والتي خلق الله الإنسان عليها، وهذه الخصائص تشكل الجانب الثابت من شخصية الإنسان، وتعقّب الآية الكريمة على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا يمكن التلاعب والتغيير والتبديل في خلق الله بشكل من الأشكال.

وإنّما (الدِّين) استجابة تشريعية لهذه الحاجات والأبعاد التكوينية الثابتة في شخصيّة الإنسان، والإنسان عندما يستجيب لسنن الله التشريعية ومنهجه الذي سلكه الأنبياء والمرسلون، يستجيب لهذا الجانب الثابت من شخصيّته.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٤) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٥) معنى الفطرة: الخلق والإبداع، ومعنى الآية الكريمة على هذا تكون كما يلي: لا تبديل لخلق الله في الكيفيّة والشكل الذي خلق الله الناس وأبدعهم عليها.

وقد ورد التعبير عن هذه الثوابت في شخصية الإنسان في القرآن بـ(صبغة الله):

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[١].

وهو تعبير بديع عن الجانب الثابت في الإنسان.

فإنّ الله تعالى قد خلق الإنسان بلونه وصبغته الخاصّة التي ميّزه بها، وهذه الصبغة واللّون الذي يتميّز به الإنسان صبغة من صبغة الله صبغ بها شخصيّة الإنسان، والدِّين، هو الجانب **التشريعي من هذه الصبغة الذي يتناسق مع الصبغة الإلهيّة في جانبه التكويني.. وهما معاً صبغة** الله أحدهما الوجه التكويني لهذه الصبغة والأُخرى الوجه التشريعي لها، ولذلك فهما متناسقان منسجمان.

أمّا الأصباغ والألوان الجاهلية التي يصبغون بها حياة الإنسان في الأخلاق والأعراف والقوانين والتصوّرات والرؤى، فهي لمّا كانت صبغة غير صبغة الله تأتي غير متناسقة لهذه الصبغة الإلهيّة التي صبغ الله تعالى شخصيّة الإنسان بها في التكوين.

روي عن رسول الله ﷺ انّه قال:

«يا عباد الله أنتم كالمرضى، وربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى فيما يعلمه الطبيب وتدبيره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلّموا لله أمره تكونوا من الفائزين»[٢].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لمفضل بن عمرو:

«ولكنّه خلق الخلق، فعلم ما تقوم به أبدانهم وما يصلحهم، فأحلّه لهم وأباحه تفضّلاً منه عليهم لمصلحتهم، وعلم ما يضرّهم فنهاهم عنه وحرّمه عليهم»[٣].

٢ ـ القيمة الإيحائيّة والتربويّة للوراثة

تعطي التربية الإسلامية أهمية خاصّة للوراثة في بناء شخصية الإنسان المسلم، ذلك أنّ تعميق الإحساس بالوراثة للأنبياء والشهداء والصديقين، والارتباط بهذه المسيرة المباركة يمنح الإنسان حالة الاستعلاء على الحياة الدنيا وزخارفها، والترفّع عن الهوى والأنا والشهوات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

(٢) مجموعة ورّام ٢: ١١٧.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الأطعمة والأشربة: ٢٣٦.

فإنّ الإنسان إذا عمّق في نفسه الإحساس بالارتباط الأُسري لا يسمح لنفسه التفريط في ما أعطاه الله من المواهب والنعم.

كرامة الأُسرة وموقعها الاجتماعي:

وهذا هو سرّ تأثير الوضع العائلي للإنسان في سلوكه ومعيشته.. فإذا شعر الإنسان بأنّه يرتبط بأكرم أُسرة في حضارة الإنسان، وهي أُسرة الأنبياء عليهم السلام، وأنّه خَلَفُ هذه الأُسرة، وحلقة الارتباط بين أجيال هذه الأُسرة.. فليس من شكّ أنّ هذا الإحساس يبعث في نفسه قدرة كبيرة على الترفّع على المنكرات والمرديات، ويمنحه القدرة على مكافحة الشهوات والأهواء، ويضعه في موضع الاستعلاء على اللّذّات والشهوات التي حرّمها الله عليه.

إنّ الشعور بالبنوّة والوراثة لأُسرة التوحيد والارتباط بها يمنح الإنسان إحساساً قويّاً بقيمته التاريخية والحضارية، فلا يفرّط في قيمه وموقعه.

وهذا هو سر اهتمام الإسلام بالأساليب التي تشد الإنسان بهذا المحور الحضاري الربّاني.

فالقرآن الكريم يعتبر إبراهيم عليه السلام أباً للمؤمنين ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[1]. ولا شكّ أنّ هذه الأبوّة ليست هي الأبوّة النسبية، وإنّما هي بنوّة العمل ووراثة العقيدة والرسالة.

وعن هذه البنوّة والانتماء يقول رسول الله صلى الله عليه وآله لسلمان الفارسيّ:

«سلمانُ منّا أهل البيت»[2].

وينفي القرآن الكريم أن يكون ابن نوح عليه السلام من أهله:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[3].

والأهليّة هنا تساوي العمل، والعمل وحده هو الذي يرفع الإنسان، ويضع الإنسان، ويربطه بإبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام، وأُسرته من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، ويقطعه عنهم، ويجعله في امتداد هذه المسيرة المباركة ويبتره عنها.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٦ ح٢٨ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١ :. ، ٧٠

(٣) سورة هود، الآية: ٤٦.

إذن، فهناك تداعي مباشر بين الوراثة والعمل، فالعمل تحقّق الوراثة الصالحة، والإحساس بالوراثة يعدّ الإنسان للعمل الصالح.

ومن هنا تأتي قيمة زيارة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام بعد وفاتهم وخطابهم بالنصوص الواردة في الزيارات.

فانّ السعي لزيارة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام يعمّق في نفس الإنسان الإحساس بالارتباط بهم باستمرار، ويغذّي هذا الشعور بصورة مستمرّة، كما أنّ إحياء مناسباتهم يؤدّي دوراً فعّالاً في تحقيق هذه الصلة الروحيّة بين الإنسان المؤمن وهذه المسيرة الحضارية الربّانية المباركة.

وبشكل خاصّ تؤكّد النصوص على زيارة الحسين عليه السلام سيمّا زيارة عاشوراء، وفي كلّ يوم للموقع الحسّاس الذي يحتلّه سيّد الشهداء الحسين عليه السلام في هذه المعركة المصيرية بين معسكر الرّحمن ومعسكر الشيطان، ولأجل تعميق الصلة بالموقف الحسيني الشامخ والصلب في كربلاء.

والذين ينتقدون هذه الشعائر الإسلامية... يفهمونها بسطحية ظاهرة.. إنّ الارتباط بالأنبياء والمرسلين والأئمّة والصالحين عليهم السلام بالوسائل والطرق المشروعة من المسائل التي يتّخذها الإسلام أداة للتربية، وشدّ الإنسان المسلم بالمسيرة الإسلامية الكبرى في التاريخ. ولذلك يذكّر القرآن بقصص الأنبياء والصالحين، وبصورة مكثّفة، وبتكرار، وتأكيد بليغ.

ولاشكّ أنّ توفير هذا المناخ الحضاري للإنسان المسلم والارتباط بهذا الجوّ منذ آدم عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أهم أهداف القرآن الكريم في التذكير بقصص الأنبياء والصالحين. والإحساس بالوراثة يعمّق شعور الإنسان بالمسؤولية بصورة مؤثّرة وقويّة، فإنّ الإنسان عندما يشعر أنّه جزء لا يتجزّأ من مسيرة طويلة ذات جذور بعيدة في التاريخ يستشعر بمسؤوليّة المحافظة على خط الآباء والأسلاف ومكاسبهم وإنجازاتهم وتثمينها ودعمها، ويشعر أنّ عليه مسؤولية نقل هذه الأمانة التي استلمها من الجيل السابق إلى الأجيال التي تأتي من بعد، وانّه حلقة من حلقات هذه السلسلة الطويلة يربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل، والجسر الذي يمتد بين الأجيال، يصل فيما بينها.

إنّ هذه المحاسبة في المواريث يعمّق شعور الإنسان بالمسؤولية، وتبعث في نفسه الغيرة على مواريث السّلف والوفاء لهم والحرص على الأجيال المقبلة، وتشعره أنه جزء لا يتجزّأ من

سلسلة طويلة ممتدّة وليس من حقّه أن يفرِّط في هذا الميراث الكبير الذي ورثه من أسلافه وآبائه الصالحين.

وهذه الحالة تختلف كثيراً عمّا لو كان الإنسان يشعر أنّه لوحده مشروع مستقل، غير مرتبط بمن قبله ومن بعده، وهو كيان قائم بنفسه[١]، ولا يرتبط بمسؤوليّة تجاه الآباء، ولا بمسؤوليّة تجاه الأبناء. وشتّان ما بين هذين الشعورين وما ينشأ عنهما من مواقف.

إنّ النمط الأوّل هو النمط المسؤول من الناس والنمط الثاني هو النمط اللّامسؤول من الناس، والإحساس من النوع الأوّل هو الإحساس الذي يبني في نفس الإنسان الشعور العميق بالمسؤولية. والإحساس من النوع الثاني يرفع الإحساس بالمسؤولية عن كاهل الإنسان.

والإحساس من النوع الأوّل يبني في نفس الإنسان شعوراً بأنه جزء من كلّ مترابط ومتضامن على البُعدين الزماني والمكاني. والإحساس من النوع الثاني يخلق في نفس الإنسان شعوراً بأنه شيء منفصل عن التاريخ، وعن المستقبل، ولا يحمل أيّ مسؤولية عن الماضي والمستقبل. وإنّما يعيش لنفسه، وفي حدود إطار ذاته وشخصيّته.

وهكذا نجد أنّ الإحساس بالارتباط بالسّلف، يحمي الإنسان عن سلطان الهوى والشهوات، ويمنحه المناعة، ويحصّنه ضدّ الشيطان ووساوسه ووسائله ومكره، ويعطي الإنسان قدرة على الصمود والثبات أمام الضغوط التي يمارسها الطاغوت على المؤمنين لحرفهم عن مسيرة السّلف.

ونذكر هنا بعض الشواهد التاريخية على هذه النقطة.

محمّد بن أبي عُمير في سجون العبّاسيين:

وأودّ أن أذكر نموذجاً من نماذج الصمود والثبات من تاريخنا من المؤمنين الذين تعرّضوا للفتنة، فحماهم الله تعالى بمواقف آبائهم وإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان والابتلاء، فلم يخضعوا للإرهاب والتعذيب، وهو محمّد بن أبي عمير رحمه الله.

كان من خيار أصحاب الإمام موسى بن جعفر والإمام الرضا عليّ بن موسى والإمام الجواد محمّد بن عليّ عليهم السلام، وقد أدركهم جميعاً.

---

(١) أو كما يقول الوجوديون: يسبق وجوده هويته وماهيته.

وروي عن الإمام الرضا والجواد عليهما السلام، ذكر ابن بطّة أنّ له أربعاً وتسعين كتاباً[(١)].

يقول النجاشي:

«رُوي أنّه حبسه المأمون.. وقيل أنّ أُخته دفنت كتبه في حالة اختفائه وكونه في الحبس أربع سنين، فهلكت الكتب.. فحدّث من حفظه، وممّا كان سلف له في أيدي الناس. فلهذا أصحابنا يسكنون إلى مراسيله. وقد صنّف كتباً كثيرة»[(٢)].

وقد كان رحمه الله طويل السجود، كثير الذِّكر والعبادة.

روى الكشي، عن الفضل بن شاذان، قال:

«دخلتُ العراق فرأيت واحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال وتحتاج أن تكسب عليهم، وما آمن عليك أن يذهب عيناك لطول سجودك، فلمّا أكثر عليه، قال: أكثرت عليّ ويحك لو ذهبت عينا أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير. ما ظنّك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلّا زوال الشمس[(٣)].

ويقول فضل بن شاذان: أخذ يوماً شيخي بيدي وذهب إلى ابن أبي عمير، فصعدنا في غرفة وحوله مشايخ له يعظّمونه ويبجّلونه. فقلت لأبي: من هذا؟

قال: هذا ابن أبي عمير.

قلت: الرجل الصالح العابد؟ قال: نعم[(٤)].

وقد ألقى هارون عليه القبض «وضُرِبَ ابن أبي عمير مائة خشبة وعشرون خشبة بأمر هارون. تولّى ضربه السندي بن شاهك على التشيّع»[(٥)].

وروى الفضل بن شاذان قال:

«سُعيَ بمحمّد بن أبي عمير إلى السلطان أن يُعَرِّفَ أسامي الشيعة بالعراق، فأمره السلطان أن يسمِّيهم، فامتنع، فجرّد، وعلّق بين القفّازين فضرب مائة سوط.

---

(١) معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١٤: ٢٨١.

(٢) رجال النجاشي: ٢٢٩، الطبعة الحجرية.

(٣) رجال الكشي: ٤٩٤، ط. النجف.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

قال الفضل: فسمعت ابن أبي عمير يقول: لمّا ضربت فبلغ الضرب مائة سوط، أبلغ الضرب الألم إليّ، فكدت أن أُسمِّي، فسمعت نداء محمّد بن يونس بن عبد الرحمن، يقول: يا محمّد بن أبي عمير: اذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقوّيت بقوله وصبرت، ولم أُخبر، والحمد لله»[١].

والإنسان العامل عندما يشعر أنّه جزء لا يتجزّأ من مسيرة متّصلة بعيدة الأغوار في التاريخ، ممتّدة على امتداد الزمان، لا يشعر بالفشل والانكسار والضّعف.

فإنّ الفشل يصيب الإنسان، إذا كان لوحده مشروعاً قائماً بالذات، يموت العمل بموته، ويعيش بحياته، وينجح بنجاحه، ويسقط بفشله. وأمّا حينما يكون الإنسان جزءاً من مسيرة مترابطة متماسكة تمتد عبر الزمان، فلن تتوقّف المسيرة إذا مات، ولن تفشل إذا فشل، ولن يكون الفشل إلّا انتكاسة في المسيرة، سرعان ما تستطيع المسيرة أن تتجاوزه وأن تجبر الخسارة.

إنّ هذه المسيرة قد جاوزت نمرود وفرعون وقوم عاد وثمود ومئات الجبابرة والطغاة المستكبرين على وجه الأرض الذين كانوا يَتَحدُّونَ الأنبياء والمرسلين ﷺ، فلم تتوقّف المسيرة، وواصلت عملها وتقدّمها.

ومن هذه الزاوية، فليس في حساب هذه المسيرة الفشل والهزيمة بالمعنى الذي يعرفه الناس.. وأكثر ما فيه انتكاسة، أو كما يقول القرآن الكريم: قرح، قد أصاب العدوّ مثله أو أكثر منه، وسرعان ما تتجاوز المسيرة الانتكاسة، ويندمل القرح، وتنشط المسيرة، ولن يكون القرح إلّا تمحيصاً وتزكية للّذين آمنوا، وهذا هو شعور الدعاة إلى الله العاملين في سبيل الله، إذا أصابهم قرح في المعركة أو أصابتهم انتكاسة في ساحات القتال والصراع.

ولنتأمّل هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[٢].

---

(١) تنقيح المقال في علم الرجال للعلّامة المامقاني ٢: ٦٢ حرف الميم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩ ـ ١٤٢.

لم تنزل هذه الآيات بعد معركة بدر الظافرة، وبعد نشوة من نشوات النصر، وإنّما نزلت بعد مرارة نكسة أُحد بالذات. بعد هذه النكسة المّرة يقول الله تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، وليس من موجب للإحساس بالوهن والحزن.

فإنّ ما أصابهم في أُحُد لن يزيد على أن يكون قرحاً قد أصاب العدو مثله .﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، ومسيرتكم هي الظافرة المؤيّدة من عند الله، والنصر لا يتجاوزكم. وما أصابكم من قرح في (أُحُد) فهو لكم تمحيص وتطهير وتزكية، يريد الله أن يزكّيكم به، ولن تدخلوا الجنّة ما لم يصبكم أمثاله، وما لم يطهّركم الله ويزكّيكم ويمحّصكم به.

إنّ الإنسان العامل الداعية إلى الله يشعر أنّ هذه المسيرة لن تُبتدأ به، ولن تُختم به، ولن يكون جهده وعمله إلّا جزءً من المجهود الكبير المتواصل الذي تبذله الأجيال من المؤمنين.

وهذا المجهود عتيد ومتّصل عبر الأجيال والزمان، ولن ينقطع. فإذا نصره الله خلال تحرّكه وعمله فسوف يضيف على مكاسب السّلف مكسباً جديداً وعلى إنجازاتهم إنجازاً جديداً في حساب النصر. وإذا ابتلاه الله بقرح وانتكاسة فسوف يكون سبباً في تمحيصه وتمحيص المؤمنين وتمحيص المسيرة جميعاً، ويطهّر المسيرة والصف من نشوات النصر وما يلحق هذه النشوات من الغرور والبطر والرياء.

فلا موجب إذن للإحساس بالوهن والحزن، ولا موجب للشعور باليأس والخوف.

إنّ الداعية عندما يندمج في المسيرة، ويتحوّل من مشروع مستقل قائم بذاته إلى جزء من هذه المسيرة لا يكاد أن يساوره شعور بالخوف واليأس والوهن والضعف إلّا عندما تنتابه حالات ضعف الإنسان، فيدركه الله تعالى برحمته ونوره وقوّته، ويبعث في نفسه الأمل والقوّة والثقة بالله تعالى ويشرح صدره ويُذهب عنه الخوف واليأس والشكّ.

وممّا يُصيب العاملين في سبيل الله عندما ينهضون برسالة الله في أجواء الجاهلية: الإحساس بالوحشة والغربة.

الغربة في كلّ شيء: في التصوّرات، والأفكار، والعقائد، والأعراف، والمصطلحات، والأخلاق، والتقاليد، والصلاة، والصيام، وذكر الله.

والشعور بالوحشة والغربة عندما يتعمّق في نفس الداعية، يعزله ويزويه ويبعث في نفسه اليأس والوهن وأحياناً الخوف.

إنّه يتحرّك على عكس التيّار، وماذا تراه يستطيع أن يفعل في وسط هذا الجو الحاشد بمظاهر الجاهلية والفساد.

وليس أضرّ على الدعاة من هذا الشعور، ولا شيء يبعث في نفوسهم اليأس والخيبة أكثر من هذا الإحساس.

أمّا عندما يرتبط الداعية نفسيّاً بأُسرة التوحيد الضاربة في أعماق التاريخ والممتدّة في أعماقه، ويشعر بأنه عضو في هذه الأُسرة المباركة، وشوط من هذه المسيرة الربّانية على وجه الأرض، وصدى لدعوات الأنبياء والمرسلين وامتداد لهم.. يشعر بالراحة والطمأنينة والثقة والألُفة والقوّة.

وتتمكّن الثقة من نفوس الدعاة العاملين في سبيل الله عندما يرجعون إلى تاريخ أُسرة التوحيد ومعاناتهم.. فيرون إلى جانب هذه المعاناة والتمحيص، والمطاردة، والاضطهاد، والتعذيب، والتشهير، والتسقيط الذي يرافق حياة هذه الصفوة من الدعاة العاملين في سبيل الله.. يرون إلى جانب هذه الصورة الدامية وإلى جانب الدموع والدماء.. نصر الله تعالى لهذه العصبة المؤمنة وتأييده، ويرون يد الله القويّة والقاهرة والرحيمة معاً في كلّ مراحل حياتها.. كلّما نزلت بهم محنة، وكلّما حلّت بهم كارثة، وكلّما ضاقت بهم الأرض بما وسعت، وكلّما قست عليهم الظروف.

ويرون أنّ هذا النصر والتأييد الإلهي للعصبة المؤمنة العاملة في سبيل الله، ليس صدفة، ولا حادثاً طارئاً، وإنّما هو سنّة من سنن الله الثابتة التي لا تتحوّل ولا تتبدّل.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[(١)].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾[(٢)].

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[(٣)].

(١) سورة القصص، الآية: ٥ ـ ٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الانشراح، الآية: ٥ ـ ٦.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[١].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٣].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[٤].

فيزول من نفوس الدعاة العاملين في سبيل الله كلّ شكّ وريب وكلّ يأس وخوف، وتنشرح صدورهم بالثقة بالله تعالى ونصره وتأييده.

فمهما تطول معاناة المؤمنين، ويطول عذابهم، وتطول محنتهم، فإنّ الله تعالى لن يتخلّ عنهم ولن يتركهم لوحدهم في مواجهة الظالمين والطغاة، ولا بدّ أن ينصرهم الله، كما نصر الله تعالى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله، وكما نصر الله تعالى الصالحين من عباده.

وهذا الإحساس بمعيّة الله تعالى وتأييده ونصره لأُسرة التوحيد يبعث في نفوس الدعاة إلى الله الثقة والأمل والطمأنينة والثبات، ويدعم نفوسهم ويربط على قلوبهم، ويشرح صدورهم، ويزيل عنهم الإحساس بالوحشة والغربة في الطريق، مهمّا قلّ العاملون على الطريق.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيّها الناس لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله، فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل»[٥].

وإذا كانت الموائد التي تستقطب الناس، شبعها قصير، وجوعها طويل، فما أحرى بالدّعاة إلى الله أن يعتزلوا هذه الموائد إلى المائدة الإلهيّة التي يجتمع حولها الأنبياء والدّعاة إلى الله والصالحون من عباد الله:

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة الصافّات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٥) نهج البلاغة: خطبة ٢٠١.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٣٦.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١].

ويكتب أمير المؤمنين عليه السلام لأخيه عقيل، وقد آثر الحياة الدنيا على أخيه أبي الحسن:

«ولا يزيدنّ كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عنّي وحشة. ولا تحسبنّ ابن أبيك ولو أسلمه الناس متضرّعاً متخشّعاً، ولا مقرّاً للضيم وهناً، ولا سلس الزِّمام للقائد، ولا وطيء الظهر للرّاكب المتقِّد»[٢].

وفي هذه المسيرة عَمَلُ الآباء للأبناء ذكرى ودرس، وخبرة الآباء تنتقل إلى الأبناء كدروس، ولا يبدأ الدعاة إلى الله عملهم من نقطة الصفر، لا في العمل ولا في خبرات العمل.

وإنّما تنتقل خبرات العمل من جيل إلى جيل، وفي كلّ مرحلة، يزداد العاملون في سبيل الله نضجاً في العمل، وخبرة في أساليب الدعوة إلى الله، وفي أساليب مواجهة الطغاة، ووعياً للعقبات وصعوبات الدعوة إلى الله، وفهماً لأساليب مواجهة هذه الصعوبات والعقبات.

والله تعالى يُعلِّم نبيّه صلى الله عليه وآله أن يتعلّم الصبر ممّن سبقه حتّى أُولى العزم من الأنبياء:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[٣].

ويَقَصُّ الله تعالى على نبيّه وعلى المؤمنين قصصاً من أنباء الرّسل، ليكون لهم عظة وذكرى:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وبعد، فهذه بعض الإيحاءات التي يعطيها الإحساس بالانتماء إلى أُسرة إبراهيم عليه السلام، والشعور بوراثة الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله.

وهذه طائفة من التأملات التي توحيها على الإنسان الكلمات الواردة في زيارة (وارث) المعروفة التي تصف الإمام الحسين عليه السلام بوارث الأنبياء.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٣٦.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) سورة هود، الآية: ١٢٠.

وراثة الإمام الحسين عليه السلام للأنبياء عليهم السلام

موقف الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد:

لمّا هلك معاوية، أرسل يزيد إلى الوليد بن عتبة عامله على المدينة، ليأخذ البيعة من الحسين عليه السلام وعبد الله بن عمر وعبد الرّحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير.

فأرسل الوليد إلى الحسين عليه السلام وابن الزبير في وقت متأخّر من اللّيل، فصار إليه الحسين عليه السلام في ثلاثين من مواليه وأهل بيته وشيعته شاكين الأسلحة ليكونوا على الباب فيمنعوه إذا علا صوته، وبيده قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله. ولمّا استقرّ المجلس بأبي عبد الله عليه السلام، نعى الوليد إليه معاوية، ثمّ عرض عليه البيعة ليزيد، فقال له الحسين عليه السلام:

«مثلي لا يُبايعُ سرّاً، فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم، فكان أمراً واحداً».

فاقتنع الوليد منه، لكن مروان ابتدر قائلاً: إن تركته وفارقك الساعة ولم يُبايع، لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرّجل حتّى يبايع أو تضرب عنقه.

فقال الحسين عليه السلام: «يا ابن الزرقاء[1]!! أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت وأثمت».

ثم أقبل على الوليد، وقال:

«أيها الأمير: إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم. ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحترّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يُبايعُ مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة».

---

(١) نقل سبط ابن الجوزي في كتابه «تذكرة الخواص»: ٢١٨ ط. النجف، عن الأصمعي، عن ابن إسحاق: إنّ أُمّ مروان اسمها أُميّة، وكانت من البغايا في الجاهلية، وكان لها راية مثل راية البيطار تُعرف بها، وكانت تسمّى (أُم جبتل الزرقاء)، وكان مروان لا يُعرف له أب، وإنما نُسِبَ إلى الحكم كما نُسِبَ عمرو إلى العاص.

فأغلظ الوليد في كلامه، وارتفعت الأصوات، فهجم تسعة عشر رجلاً قد انتضوا خناجرهم وأخرجوا الحسين عليه السلام من منزله قهراً[١].

والذي يتأمل في الحوار الذي جرى بين الحسين عليه السلام ومروان، يلمس بوضوح خلفيّات كلام كل منهما، أنّ مروان يتسلّح بقوّة الأمير (الوليد) وقدرته على السجن والقتل والبطش: (ولكن احبس الرّجل حتّى يُبايع أو تضرب عنقه).

وأمّا الحسين عليه السلام فهو يتحدث عن خلفية تاريخية ذات جذور راسخة وعميقة وأصالة، ويقول: «إنّا أهل بيت النبوّة» من بيت النبوّة وأُسرة رسول الله صلى الله عليه وآله، «ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة» والنبع الصافي. وللرسالة والنبوّة جذور عميقة في هذه الأُسرة، كما أنّ للمعدن جذور عميقة في الأرض. «بنا فتح الله وبنا يختم» وقد فتح الله تعالى الرسالة بهذه الأُسرة وختمها بها. ومن هذه الأُسرة أبو الأنبياء عليه السلام، ومن هذه الأُسرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، ثمّ يقول: «ويزيد شارب الخمر، قاتل النفس المحترّمة، معلن بالفسق»، فالفاصلة بين هاتين الأُسرتين كبيرة، ولا يمكن أن يصافح الحسين عليه السلام يزيد، أو يبايعه ويعترف بإمارته، وهو الفاسق المعلن للفسق شارب الخمر، وقاتل الأنفس البريئة، «ومثلي لا يُبايعُ مثله».

الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء:

وللحسين عليه السلام كلام آخر في يوم عاشوراء خاطب به جيش عمر بن سعد ننقل منه الجملة التي نريد أن نستشهد بها فقط.

«ألا وأنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السِّلّة والذِّلّة، وهيهات منّا الذِّلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأُنوف حميّة ونفوس أبيّة، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[٢].

وما أروع الصورة التي يرسمها الحسين عليه السلام، وهو في قلب الأعداء، يوم عاشوراء لهذه المعركة.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيّد عبد الرزّاق المقرم: ١٢٧ ـ ١٢٨، نقلاً عن ابن الأثير الكامل ٤: ٦، ومقتل الخوارزمي ١: ١٨٣، والطبري ٦: ١٨٩، ومناقب ابن شهر آشوب.

(٢) نقل الخطبة السيد عبد الرزّاق المقرّم في مقتله: ٢٦٢ ـ ٢٦٣، عن اللهوف للسيد ابن طاوس: ٥٤، وابن عساكر في تاريخ الشام ٤: ٣٣٤، والخوارزمي في المقتل ٣: ٦.

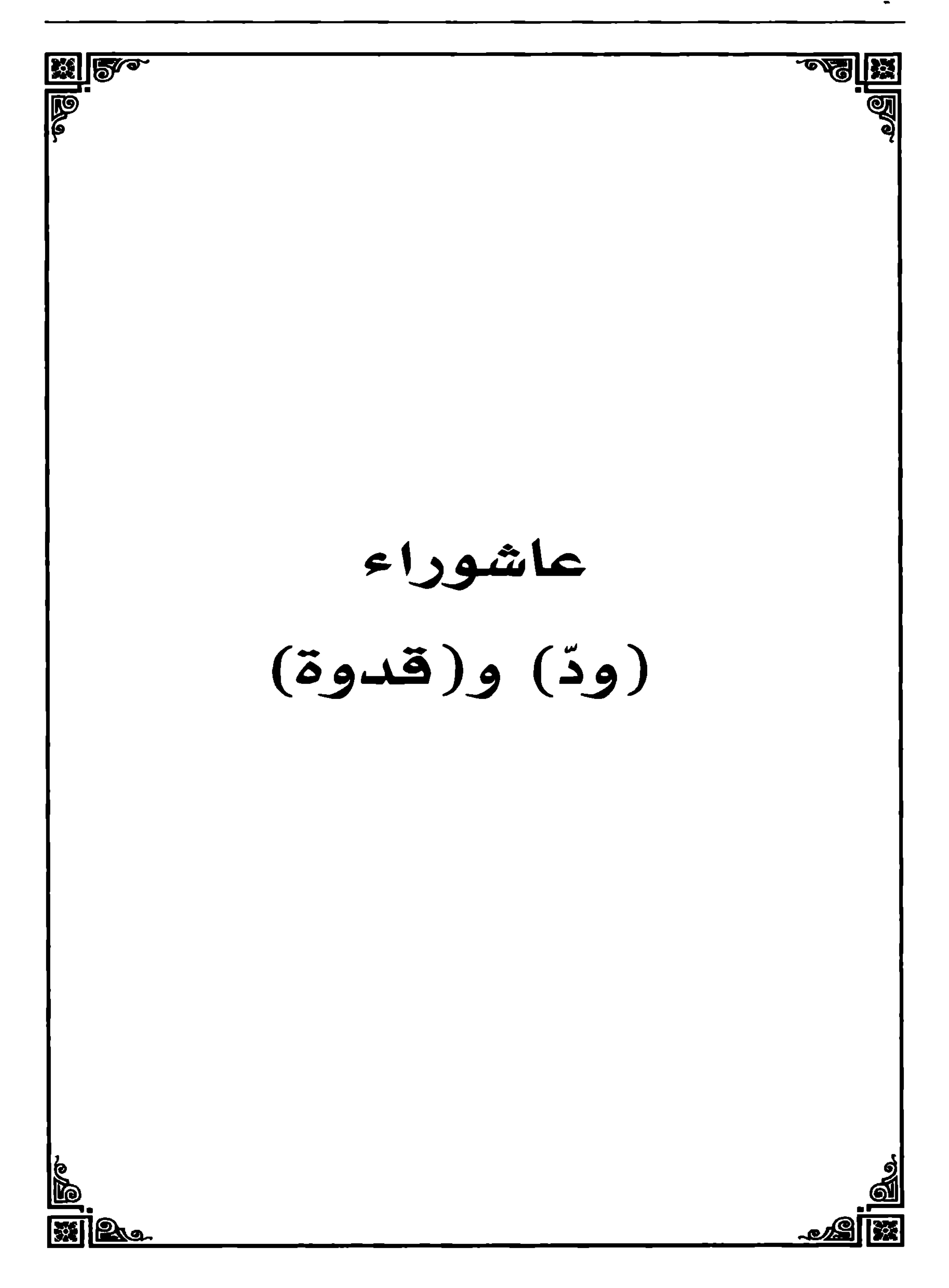
إنّه يشخص أوّلاً العدوّ تشخيصاً دقيقاً، ويشخص موضعه وأصله ونبعه، انّه على وجه الدقّة (الدّعي ابن الدّعي)، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من هذا التشخيص والتوضيح، ويصفع الطاغية بهذا الكلام أمام جنده وقوّاته، وهو في قبضتهم، ويعلن أنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ يخيّره بين (الذِّلّة) ومبايعة يزيد بن معاوية الفاسق وبين (سِلَّة) البطش والقتل.

ثمّ يعلن موقفه من هذا الخيار الصّعب: «وهيهات منّا الذِّلّة».

يقول لهم أنّ هذا الموقف ليس موقفاً شخصياً، يمكن أن يتزلزل أو يخضع للإغراء والوعود، أو للضغط والإرهاب، وإنّما هو موقف يفرضه عليه (الله) و(رسوله)، وهذا هو البُعد الأوّل لموقف الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، ينبع من الولاء (لله) و(الرسول) والإيمان بالله والرسول صلى الله عليه وآله.

ثمّ يقول عليه السلام: «والمؤمنون» وهذا هو البُعد الثاني للموقف، فالمؤمنون في كلّ مكان يرفضون له الاستسلام والانقياد للفاسق يزيد بن معاوية، ويطلبون منه الثبات والصمود وعدم الخضوع للإغراء والإرهاب.

ثمّ يقول عليه السلام: «وحجور طابت وطهرت وأُنوف حميّة ونفوس أبيّة» وهذا هو البُعد التاريخي الثالث والجذور التاريخية العميقة لهذا الموقف. وكأنّ الحسين عليه السلام يريد أن يقول لجيش ابن زياد يومئذٍ أنّه ليس كسائر الناس؛ خشبة عائمة على مجرى الماء، يأخذه التيّار حيث يتّجه، وإنّما هو جزء من بنيان كبير وعريق وأصيل، يرتبط بالله ورسوله من جانب، ويرتبط بالمؤمنين من جانب آخر، ويرتبط بأُسرة طاهرة نقيّة أبيّة للضيم رافضة للظلم من جانب ثالث، فلا يمكن أن يختار طاعة اللّئام على مصارع الكرام.



عاشوراء
(ودّ) و(قدوة)

وُدّ يقذفه الله في قلوب المؤمنين، وقدوة في حياتهم

إنّني ألمس في تفاعل الجماهير مع (عاشوراء) أمرين لا أشك فيهما مهما شككت في شيء:

أَلمس يد الله ﷻ في هذا التلاحم العجيب بين الجماهير وعاشوراء، فلا يكاد يتم هذا التلاحم والتعاطف والتفاعل بصورة عفوية، وطبقاً للقوانين والسّنن التي يعرفها النّاس في علم النّفس والإجتماع والإعلام ثم يدوم ويستمر بهذه الدرجة من القوّة، لو لم تتدخل الإرادة الإلهية في تحريك جماهير المؤمنين باتجاه عاشوراء، وربط عواطف جمهور المؤمنين ومشاعرهم بهذا اليوم.

الوُدّ الذي يجعله الرحمن للذين آمنوا:

إنّ حبّ الصالحين ومودتهم أمر يقذفه الله تعالى في قلوب عباده ولا يمكن أن يصنعه الناس أو ينتزعه الناس. والأساليب الإعلامية المتطورة قد تحرّك عواطف الناس باتجاه معين، وتخلق موجة من العواطف والأحاسيس تجاه شخص، وترفع شخصاً من حالة الخمول إلى قمة المجد أيّاماً أو سنين، وتحيطه بهالة من العواطف والمشاعر والأحاسيس. ومن الممكن أن تجتذب وسائل الإعلام عواطف الناس وأحاسيسهم ولكن ذلك شيء يختلف اختلافاً كيفياً وكميّاً عن حالة التعاطف والتفاعل الوجداني العميق المستقرة والثابتة في قلوب المؤمنين، كما كان يختلف عصا موسى عليه السلام عمّا كان يصنعه سحرة فرعون عندما حاولوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بسحرهم.

وهذا هو الود والحب الذي يجعله الله للصالحين في قلوب عباده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[١].

وهذا الود المتميز هو مما يجعله الله تعالى في قلوب عباده وليس للإنسان دور في صنع ذلك إلّا أن يعد نفسه لذلك إعداداً، ويجعل نفسه في موضع نزول الرحمة الإلهية. وقد كان رسول الله ﷺ يُعلّم علياً عليه السلام أن يقول في دعائه (اللهم أجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في قلوب المؤمنين ودّاً)[٢].

فإنّ الله تعالى يتصرّف في قلوب عباده كما يشاء. وقد ورد في الرواية أنّ (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن)[٣]. ولا شك أنّ للقلوب جذب ودفع. فقلوب الصالحين تنجذب للصالحين وتحبّ الصالحين، وتنفر من الفاسقين وتبرأ منهم، وقلوب الفاسقين تنجذب لأمثالها وتنفر من الصالحين. وهذا الجذب والدفع من خلق الله تعالى وصنعه... ونحن نعلم علم اليقين أنَّ الله تعالى يتصرّف في قلوب عباده، كما يحب ويشاء، ويبعث فيها ما يشاء من حبّ ونفور وإقبال وإدبار واستجابة وإعراض، كما يصنع الله تعالى في سائر ملكه وسلطانه.

والتعبير القرآني دقيق ورقيق في هذا المجال.

﴿...وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ...﴾[٤].

ولكلّ امرءٍ ما يشتهيه ويكرهه ويحبّه ويبغضه وهذا قوام شخصية (الإنسان) والحبّ والبغض والرغبة والنفور من فعل القلب... ومع ذلك، ومع هذا الالتصاق الشديد، بين (المرء وقلبه) فإنّ الله تعالى (يحول بين المرء وقلبه).

ولا أعرف تعبيراً أبلغ من هذا التعبير في نفوذ سلطان الله تعالى على القلوب. وانقياد القلوب ورضوخها لمشيئة الله تعالى وصنعه وفعله.

وقد ورد في تفسير هذه الآية الكريمة عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الإنسان قد يشتهي شيئاً بسمعه وبصره فإذا أراد أن يغشى شيئاً منه أنكره قلبه[٥] ومهما أنعم الإنسان النظر فلا يكاد يبلغ عمق هذا التعبير القرآني في نفوذ سلطان الله تعالى ومشيئته على القلوب.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٦.

(٢) تفسير الميزان ١٤: ١١٥. ط. بيروت.

(٣) عوالي اللآلئ ١: ٤٨ ح٦٩، النهاية لابن الأثير٣: ٩، تفسير الرازي ١ :. ، ٢٥٤

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٥) بحار الأنوار ٧٠: ٥٨. أوردت الرواية بالمضمون ونص الرواية (يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده. أمّا أنّه لا يغشى شيئاً منها وإن كان يشتهيه، فأنه لا يأتيه إلّا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي العرف إنّ الحقّ ليس فيه).

فهذه القلوب التي يقول عنها الإمام الصادق عليه السلام: (إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه)[١] تستجيب هكذا، طائعة ومنقادة لمشيئة الله تعالى، وينفذ فيها أمر الله تعالى نفوذاً مطلقاً في الحبّ والبغض، والإقبال والإدبار، والاستجابة والإعراض، والرغبة والكراهية. ويصنع الله تعالى فيها ما يشاء وما يحب كما يصنع في سائر ملكه وسلطانه.

وليس من مؤمن صالح أو متكبر طالح إلّا كان قلبه تحت نفوذ سلطان الله تعالى وأمره المباشر.

وقد حكى لنا القرآن الكريم كيف جعل الله عزّ وجلّ في قلب فرعون حبّ موسى عليه السلام منذ أن التقطه من البحر، وكيف ألقى الله عزّ وجلّ حبّ موسى عليه السلام على قلب عدوه فرعون ﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[٢].

ولست أشكّ أن هذا الالتحام والتفاعل الذي يشد جمهور المؤمنين بيوم عاشوراء شيء من أمر الله تعالى وإرادة الله تعالى، هيأ له أسبابه.

عاشوراء قدوة للجمهور في حركته إلى الله:

والأمر الآخر الذي ألمسه في هذا الانشداد والتفاعل الجمعي العجيب هو أن الجمهور يجد في (عاشوراء) شيئاً يتفاعل مع ضميره وعقله وقلبه، ويجد في هذا اليوم بغيته التي يطلبها في حركته ومسيرته. فإن الناس يحتاجون في حركتهم الشاقة إلى الله في الحياة الدنيا إلى (توجيه) وإلى (مثال) يقتدون به. ولا يكفي التوجيه وحده.

الإنسان يحتاج دائماً إلى من يرشده ويعلّمه. وهذه ضرورة لا نقاش فيها، ولكنّه يحتاج أيضاً إلى من يتقدّمه ليمشي خلفه باطمئنان وثقة، وهذا الاطمئنان والثقة في الحركة لا يصنعه التوجيه والإرشاد وحده، وإنّما يصنعه الذي يتقدّم المسيرة بنفسه، ويكون قدوة ومقياساً ومعياراً عينياً متجسّداً في حركة واقعية على طريق العاملين. والناس في مسيرة الحياة كما (يطلبون المَعْلَم) والمُعَلِّم، يطلبون (القدوة) والمثال أيضاً، فإنّ الحركة إلى الله تعالى شاقة وعسيرة وكادحة. وعندما تكون الحركة شاقة وكادحة لا يكفي التوجيه وحده، وإنّما يحتاج الإنسان إلى قدوة أمامه، يضع خطاه في موضع خطاه، ويسير من خلفه. إنّ الحركة الكادحة إلى الله تختلف

(١) بحار الأنوار ٧٨: ١٩٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.

عما يتلقاه الطلبة في المعاهد والمدارس من العلم. فإن العلم لا يحتاج إلى أكثر من (المُعَلِّم)، وأما السير والحركة إلى الله واجتياز عقبات (الهوى) و(الطاغوت) واقتحام أهوال الطريق فلا يؤدي فيه (المُعَلِّم) إلّا دوراً ناقصاً، ولابدّ من قدوة ومثال على الطريق ليبعث الثقة والطمأنينة والشجاعة في نفوس العاملين. إن الحركة إلى الله تتطلب الكثير من الإخلاص والوعي واليقين والتضحية والعطاء والقِيَم.

ولابدّ من أن يتجسد كلّ ذلك في (القدوة)، بصورة عينية، وحقيقية، وماثلة أمام أعين العاملين. ولابدّ أن يبرأ (القدوة) من الشكّ، والضعف، والزلل والانكسار، والهزيمة النفسية أمام العقبات وأهوال الطريق. ولابدّ أن يتجسّد في القدوة كلّما تتطلبه هذه الحركة من قدرة روحية وثقة عالية بالله تمكن الإنسان من مواجهة وتحدي العقبات ومتاعب الطريق.

إن (القدوة) في هذه الحالة تكون لـه قيمة توجيهية وحركية عالية في تحريك الأُمّة ويعتبر عاملاً أساسياً لا يمكن الاستغناء عنه في حركة المجتمع.

إن في نفوس الناس خيراً وشراً، وقوّة وضعفاً، وإيماناً وشكّاً، وثقة وقلقاً، وشجاعة وجبناً، وإقداماً وتراجعاً، وتختلط هذه المعاني في نفوس الناس بدرجات مختلفة... ونقاط الضعف هي العقبات الداخلية في نفوس العاملين، ولكي يتغلبوا على نقاط الضعف هذه في نفوسهم لابدّ لهم من صور مشرقة متكاملة تخلص من نقاط الضعف هذه.

وعندما لا يجد الإنسان هذه الأمثلة على ساحة الحركة يلجأ إلى التجريد والتخيّل لتكتمل الصورة، تماماً كما يعمل الإنسان لتكميل النقص الواقع في قوس الدائرة في خياله. فيلجأ إلى التجريد الخيالي لإبراز هذه الصورة التي يحتاجها في حركته.

وهذا هو الدور الذي يقوم به الشعر والفن في رسم الصورة التجريدية للقدوة التي يحتاجها الإنسان في حركته وعمله.

وهذه الحاجة، ما دامت حاجة حقيقية في حركة الإنسان المسلم إلى الله، فلابدّ أن يكون لـه موضع مشخص وواضح في المنهاج الإلهي لهداية الإنسان وحركته. ولا يمكن أن تهمل العناية الربانية حاجة أساسية للإنسان في الحركة مثل هذه الحاجة، وهو سبحانه يقول: ﴿...ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

فلا يمكن أن يخلو منهج الخلق والهداية من عنصر أساسي وضروري في حركة الإنسان.

عصمة الإمام:

وهذا هو أحد المنطلقات العقلية للقول بعصمة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

إن العصمة هي الصورة الواقعية المتكاملة للإنسان (القدوة) والتي يحتاجها الناس في حركتهم وكدحهم إلى الله في ساحة عملهم... ولأمر ما، جعل الله عز وجل الأنبياء والأئمّة معصومين في مسيرة حركة الإنسان وفي ساحة حياته وعمله، وجعل منهم قدوات لنتأسي والاقتداء، ليكونوا أمثلة عينية وواقعية ومتحركة في واقع الحياة.

لن يكون الظالم إماماً للناس:

بعد أن منّ الله تعالى على عبده وخليله إبراهيم عليه السلام فجعله إماماً للناس طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى: أن يجعل الإمامة في ذريته فاستثنى الله تعالى من ذريته الذين تلّبسوا بالظلم، فلا يمكن أن ينالهم عهد الله تعالى، ولا يمكن أن يكونوا أئمّة للمسلمين.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[١].

فالإمام لابدّ أن يكون قدوةً للناس يقتدي به الناس في حياتهم. ومن يتلبس بالظلم على نفسه أو على الآخرين لا يستطيع أن يكون مثالاً يتقدّم الآخرين ويقتدي به الناس.

الدعوة إلى الاقتداء بالصالحين:

وتكتمل هذه الصورة في المنهاج الإلهي في تربية الناس وتوجيههم بالآيات التي تدعوا الناس إلى أن يجعلوا من أنبياء الله ورسله قدوة لهم وأُسوة في العمل والحركة والقول والفعل. يقول تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وللمؤمنين، بعد أن يذكر أسماء جملة من الأنبياء والمرسلين بتفصيل:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ...﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

ويدعو الله تعالى المؤمنين أن يجعلوا من رسول الله ﷺ أسوة حسنة لهم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

ويدعونا الله تعالى أن نجعل من إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين الصالحين قدوة وأسوة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾(٢).

العناصر الثلاثة الضرورية في الحركة:

ولكي تكتمل هذه الصورة التي رسمناها لموضع القدوة في حركة الناس إلى الله تعالى نقول:

إنّ الحركة إلى الله تتطلب ثلاثة عناصر أساسية يتولاها الله تعالى ويعدّها للناس في أنبيائه ورسله ومن يختارهم الله تعالى ويجتبيهم أئمّةً للمسلمين وهي:

أولاً: الهداية والتوجيه والتزكية والتعليم، وينهض الأنبياء في هذا الأمر بدور المعلم والمربي لتزكية الأُمّة وتربيتها وتعليمها.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

ثانياً: القيادة والولاية والإمامة. وهذه مهمة أُخرى تختلف عن المهمة الأُولى، ضرورية وأساسية في توجيه المجتمع وحركته إلى الله... فلا تتم هذه الحركة من دون قيادة وطاعة.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(٥).

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٦).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٠.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾[(١)].

﴿...وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[(٢)].

ثالثاً: القدوة والأسوة، وهو العنصر الضروري الثالث في هداية الإنسان وحركته إلى الله، وهي التي يتولاها الله تعالى ويرزقها لعباده الذين يجتبيهم لإمامة عباده .﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾[(٣)].

وهذه الثلاثة لابدّ منها جميعاً، وفي إطار واحد ليكمل بعضها بعضاً، وليؤدّي جميعها مهمة توجيه الإنسان إلى الله...

شهادة رسول الله ﷺ، والأُمّة الشاهدة:

وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم، حيث يتخذ رسول الله ﷺ شهيداً على هذه الأمّة ويتخذ هذه الأُمّة شهيدة على الناس أجمعين يقول تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٤)].

وفي الآية الكريمة يتّخذ الله تعالى الرسول ﷺ شاهداً على هذه الأُمّة، كما يتّخذ هذه الأُمّة شاهدة على الناس.

والشاهد هنا بمعنى القدوة[(٥)] بقرينة السياق فإن شهادة الأُمّة على الناس لا تستقيم إلّا بهذا المعنى الذي ذكرناه وشهادة الرسول ﷺ على الأُمّة تأتي بنفس السياق[(٦)].

فهذه الأُمّة ـ بمجموعها ـ قدوة للناس جميعاً، حيث جعلها الله تعالى أُمّة وسطاً لا تفريط فيها ولا إفراط ولا تجنح إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا تحكم فيها النزعة المادية

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥) راجع من التفاسير تفسير نمونه ١: ٣٥٥، والمنار ٢: ٥.

(٦) تفسير السيد الطباطبائي في الميزان ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢٣ ط. بيروت. الشهادة هنا بمعنى تلقي الشهادة وأداءها إلى الله يوم القيامة كما يقرب من هذا المنحى الشيخ البلاغي في (آلاء الرحمن): ١٣٣ مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ١٩٣٣ م وتفسير الكاشف ١: ١٢٤ و٥: ٣٥٣.

البحتة، ولا النزعة الروحية الخالصة. والخطاب للأُمّة ككل، وليس إلى أفراد الأُمّة ـ والأُمّة بهذه الصفة وفي هذا الموقع الوسط من حضارة الإنسان مؤهلة من جانب الله تعالى لأن تكون قدوة وشاهدة على الناس جميعاً. وأن يجد فيها الناس مثالاً عينياً واقعياً للاعتدال والاستقامة على منهج الله في الحياة.

كما أن رسول الله ﷺ قدوة لهذه الأُمّة المسلمة. في علاقته بالله تعالى وفي علاقته بالناس وفي سلوكه وحركته وعمله وقوله وفعله.

الأُمّة الشاهدة معيار للقياس:

والتعبير بالشهادة عن القدوة من التعبيرات القرآنية المتميزة الخاصة بالقرآن، وكأنّ هذه الأُمّة في موقعها الحضاري الوسط يصلح أن تكون معياراً لتشخيص الموقع الحضاري الصحيح في الحياة وشاهدةً على ألوان الانحرافات الحضارية في حياة الإنسان.

فكلما يتقدّم هذا الموقع الحضاري الوسط فهو انحراف، وكلما يتأخر عن هذا الموقع الوسط فهو من الانحراف... والشاهد على هذه الانحرافات هو الموقع الوسط الذي أحلّ الله تعالى فيه هذه الأُمّة... تماماً كما تشهد الوحدة القياسية بالزيادة والنقصان في الكميات التي تقاس بها... فإنّنا لا نستطيع أن نفهم بالنظرة الأوليّة الزيادة والنقيصة في الكميات بشكل دقيق، ولكن عندما نقيس هذه الكميات بالوحدات القياسية نستطيع أن نشخص الزيادة والنقيصة (بشهادة) هذه الوحدات القياسية بشكل دقيق.

وكذلك هذه الأُمّة في موقعها الحضاري الوسط تصلح أن تكون شاهدة على انحرافات الناس وأداة لتشخيص هذه الانحرافات ومقياساً للتصحيح والتعديل والتهذيب والإصلاح.

ولابدّ في هذا الخضم الهائج من الأفكار والاتجاهات والأهواء والنزاعات من وجود أُمّة في موقع حضاري وسط على وجه الأرض، يقيس الناس أنفسهم بها. وتشهد على الناس في انحرافاتهم، وزيغهم، وشططهم... وأقول أُمّة ولا أقول أفراداً وجماعات. ففي هذه الأُمّة أيضاً من الانحراف والزيغ الشيء الكثير... ولكن من الصحيح أيضاً أن نقول أن هناك أُمّة مؤمنة في هذا البحر الهائج المضطرب في الموقع الحضاري الوسط المعتدل... وأن هذه الأُمّة معيار ومقياس دقيق للتشخيص والتمييز لسائر الناس، وقدوة لسائر البشر، وحركة عينية واقعية إلى الله بين هذه الحركات المضطربة والقلقة في واقع حياة الناس.

وكما تتطلب رحمة الله تعالى بعباده وجود أُمّة مؤمنة في هذا الموقع الحضاري الوسط

على وجه الأرض لتكون قدوة للناس... كذلك تتطلب الرحمة الربّانية أن يكون هناك قدوة للمؤمنين من أنفسهم ولهذه الأُمّة منها... ففي هذه الأُمّة كما ذكرنا الكثير من الزيغ والانحراف الذي تختلط بالكثير من الحقّ والصواب، ومن مجموعها تتكون هذه المسيرة الإلهية... فلابدّ من وجود قدوة لهذه الأُمّة ولهذه المسيرة أيضاً. كما كان لابدّ من قدوة للناس أجمعين. وإذا كانت هذه الأُمّة هي الصفوة من البشرية التي اجتباها الله تعالى لتكون قدوة للناس فإن رسول الله ﷺ هو صفوة الصفوة في هذه الأُمّة اتخذه الله تعالى قدوة لهذه الأُمّة ليكون مقياساً ومعياراً للاستقامة والاعتدال والسلوك والحركة إلى الله، وليقيس المؤمنون أنفسهم به، ويجدوا فيه مثالاً كاملاً للإنسان العامل الكادح إلى الله، ولنقرأ هذه الآية المباركة من سورة الحج:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[(١)].

يدعو الله تعالى في هذا النداء عباده المؤمنين ـ والخطاب هنا خاصّ بالمؤمنين ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾: ـ يدعوهم إلى إقامة الصلاة، وإلى عبادته، ويدعوهم إلى فعل الخيرات والجهاد في الله، حقّ الجهاد.

فإن الله تعالى قد اجتباهم وأحلهم في هذا الموضع الوسط من حضارة الإنسان، واختارهم لهذا الموقع الخطير من الأرض، ومن حياة الناس ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، وسمّاهم المسلمين، ﴿مِن قَبْلُ﴾، في حياة إبراهيم عليه السلام، وفي الكتب السابقة على القرآن، ﴿وَفِى هَـٰذَا﴾ وفي القرآن، فشرفهم الله تعالى بهذه التسمية ﴿مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا﴾.

وجعلهم امتداداً لإبراهيم ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وجعلهم أُسرة واحدة ممتدة على وجه الأرض وفي التاريخ... كل ذلك من دون أن يحملهم في هذا الاجتباء والاختيار ضيقاً وحرجاً، ومن دون أن يكلّفهم في هذا الاجتباء شدّة وضيقاً لا يطيقونه ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

... كل هذا النداء والدعوة إلى إقامة الصلاة وفعل الخير والجهاد، وكل هذا الاجتباء

(١) سورة الحجّ، الآيتان: ٧٧ ـ ٧٨.

والاختيار والتشريف لهذه الأُسرة الإبراهيمية، والتسمية... كل ذلك ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

كلّ ذلك لإيجاد تيار معتدل مستقيم نظيف في وسط هذه التيارات المتضاربة والمنحرفة، ليكون قدوة للناس، وليكون مثالاً وشاهداً حيّاً على طريق الناس إلى الله، وقدوة محسوسة عينية في حياة الناس، وليس من قبيل الأفكار والنظريات، قدوة يراها النّاس، ويحسّونها، وتعيش معهم في السرّاء والضرّاء ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾... ثم بعد ذلك ليكون في وسط هذا التيار قدوة، هو صفوة الصفوة، للسائرين في هذا التيار، ومن هذه الأُمّة، ليكون شاهداً عليهم وعلى المسيرة والحركة، وليكون مقياساً لتشخيص حالات الضعف والعجز والتخلّف، وباعثاً على تلافي نقاط الضعف والتخلّف، وقدوة في المسيرة والحركة، ومقياسا لمعرفة الحق على طريق العاملين والسائرين إلى الله، يضعونه نصب أعينهم، ويضعون أقدامهم مواضع خطاه ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

فلا يمكن أن تستقيم حياة الناس وحركتهم من دون وجود هذا التيار في وسط الناس، ولا يمكن أن تستقيم حركة هذا التيار من دون وجود قدوة صافية نقية في قلب هذا التيار.

* * *

ولنعد إلى حيث كنا من حديث عاشوراء قلت إنني ألمس في التحام الناس بعاشوراء وتعاطفهم مع قضية الحسين، إن الناس يجدون في هذا اليوم وفيما جرى فيه من أحداث، وفيما يستبطنه هذا اليوم من القيم والمعاني شيئاً يتفاعل مع ضمائرهم وقلوبهم وعقولهم.

إن الناس يبحثون في حركتهم الشاقة والعسيرة إلى الله تعالى عن الصور الصافية والنقية لهذا الكدح وهذه الحركة... الصورة التي تخلص من كلّ كدر وغش، وتسلم من كلّ نقص وضعف، ليضعوا أمامهم هذه الصور الحيّة المتحركة.

ففي خضم الحياة، وخضم الصراع، ومتاعب الحركة يلتقي الإنسان في نفسه وفي واقع الحياة الكثير من الضعف، والشكّ، والجبن، والحسد، والطمع، والجشع، وحبّ الذات، والاستئثار، والظلم... فيجد نفسه بحاجة إلى هذه الصورة النقية الصافية من الإيمان بالله، واليقين، والإخلاص لله تعالى، والثقة، والتوكل على الله، والقوّة، والشجاعة، والإيثار، ونكران الذات، والإخلاص... فيجد كلّ هذه العناصر، التي يبحث عنها، والتي تتطلبها الحركة، متجسدة، متحركة في ساحة الطف في يوم عاشوراء في هالة من النور، وفي مقابل

هذه القمّة السامقة من القيم والأخلاق الربّانية المتجسدة في الحسين عليه السلام وأصحابه... يجد حضيضاً من الدناءة، واللؤم، والاستئثار، والتعلق بحطام الدنيا، وحبّ الذات، والكبرياء، والشك، والجبن، والحسد، والطمع، والجشع في الجانب الآخر من المعركة.

وكما تتجمع القيم، وتتكامل، وتشكل قمة سامقة وهالة من النور. في الجانب الأول، يتجمع اللؤم، والمكر، والكيد، والظلم في الجانب الثاني بشكل صارخ.

وهذا من خصائص الصراع والمواجهة.

فإن الصراع يبرز كلّ طرف على حقيقته، ويكشف حقيقة كلّ طرف، وكل القيم والمساوئ التي يستبطنه الإنسان ويتستر عليه أو يشهره ويعلن عنه، فإن الصراع بطبيعته كشّاف. وأكثر ما ينكشف الإنسان، ويظهر على حقيقته ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1]، وساعات المواجهة والصراع.

فيجد الجمهور أمامه طرفين متصارعين يوم عاشوراء، يمثل أحدهما قمّة القيم والأخلاق، ويمثل الآخر حضيض اللؤم والسقوط، فيتعلق بذا وينفر من ذاك، ويجد في يوم عاشوراء كلّما يطلبه ويحتاجه من القيم والمثل والأخلاق والإخلاص والشجاعة والثقة والإقدام.

وهذا هو الذي يشدّ الجمهور إلى عاشوراء، ويدعوه إلى التفاعل والتعاطف مع هذا اليوم بمثل هذه الدرجة من القوّة والعمق.

فإن أكثر ما يحتاج الإنسان إلى القدوة في حياته في ساحات الصراع والمواجهة ومن ساحات الصراع والمواجهة، ذلك أن الإنسان لا يحتاج إلى أن يستجمع كلّ عزمه وقوته وعقله وإيمانه وثقته بالله، كما يحتاجه في ساحات المواجهة وساحات الصراع، ولا يهتز الإنسان ويتزلزل، ويتعرض للزلازل والهزات، كما يتعرض لها في ساحات المواجهة والصراع. فمن السهل أن يحافظ الإنسان على اتزانه، وتعقله، ودينه، وثقته بالله في أيّام اليسر والرفاه، وعندما يعتزل المجتمع والعمل... أما عندما ينزل إلى ساحة العمل، والمواجهة، ويتعرض للزلازل، والهزات، والأعاصير، من داخل نفسه، ومن الخارج، فسوف يجد نفسه بحاجة شديدة وماسّة إلى أن يلتمس لنفسه أمثلة وشواهد وقدوات على الطريق ومن ساحة الصراع

---

(١) سورة الطارق، الآية: ٩.

بالذات، تثبته على أرض المعركة، وتبعث في نفسه الإيمان واليقين والثبات والثقة والصبر. ولابدّ أن تكون هذه الأمثلة والقدوات في الساحة الساخنة بالصراع، لتطمئن إليها قلوب العاملين.

وهذا بالذات ما يجده المؤمنون في حركتهم ومسيرهم إلى الله، وفي مواجهتهم الحامية للهوى والطاغوت في (رحاب عاشوراء) فإن مسيرة التاريخ مسيرة حافلة بالصراع والمواجهة والفتن والابتلاء وخلال هذه المسيرة يجد المؤمنون في (عاشوراء) النموذج والقدوة لكل القيم التي يتطلبها الصراع ويحتاجها المؤمنون في حركتهم وعملهم، فينشدّون إليها بقوّة، ويتعاطفون، ويتفاعلون معها بهذه الصورة القوية والمؤثرة.

المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الاحتجاج للطبرسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف: ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

٣ ـ الأخبار الطوال للدينوري.

٤ ـ الاختصاص للمفيد، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف: ١٣٩٠هـ، ١٩٧١ م.

٥ ـ إرشاد الساري للقسطلاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

٦ ـ الإرشاد للمفيد، منشورات بصيرتي، قم المقدسة.

٧ ـ الاستيعاب، لابن عبد البر القرطبي المالكي، بهامش الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، مصر ـ ١٣٢٨ هـ ـ الطبعة الأولى.

٨ ـ أُسد الغابة لابن الأثير.

٩ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري دار الأمانة، مؤسسة الرسالة.

١٠ـ الإصابة في تمييز الصحابة. لابن حجر العسقلاني مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٨ هـ ـ الطبعة الأولى.

١١ ـ إعلام الورى بأعلام الهدى، للطبرسي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ١٢٢٨هـ، مطبعة الحيدري.

١٢ ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

١٣ ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩ م، الطبعة الأخيرة.

١٤ ـ أنساب الأشراف، للبلاذري، دار التعارف، لبنان، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م ـ الطبعة الأولى.

١٥ ـ بحار الأنوار، للمجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م ـ الطبعة الثالثة.

١٦ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، دار الفكر بيروت.

١٧ ـ التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ.

١٨ ـ تاريخ ابن عساكر، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.

١٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠ ـ تاريخ الخلفاء، للسيوطي، دار الفكر بيروت.

٢١ ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبري، انتشارات جهان إيران، طبعة ليدن.

٢٢ ـ تاريخ اليعقوبي، لأبي يعقوب الأخباري، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٩٤هـ ١٩٧٤ م ـ الطبعة الرابعة.

٢٣ ـ تذكرة الخواص، لسبط بن الجوزي، المطبعة العلمية النجف الأشرف ـ ١٣٦٩ هـ أو طبعة مؤسسة أهل البيت عليهم السلام بيروت ـ ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٢٤ ـ الترغيب والترهيب، للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨م ـ الطبعة الثالثة.

٢٥ ـ تفسير الصافي، للملا محسن فيض الكاشاني، انتشارات كتاب فروشي محمودي.

٢٦ ـ تفسير القمي، لعلي بن إبراهيم القمي، بيروت ـ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ ـ الطبعة الثانية.

٢٧ ـ تفسير الكشاف، للزمخشري، نشرادب حوزة ـ إيران.

٢٨ ـ تفسير الميزان، للطباطبائي.

٢٩ ـ تفسير نور الثقلين، للحويزي، دار الكتب العلمية، طهران.

٣٠ ـ التهذيب، لابن عساكر.

٣١ ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت، دائرة المعارف النظامية في الهند ١٣٢٥ هـ.

٣٢ ـ ثورة الإمام الحسين عليه السلام، لمحمد مهدي شمس الدين، مطبعة نمونة، قم المقدسة.

٣٣ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م ـ الطبعة الثالثة.

٣٤ ـ الجامع الصحيح: للترمذي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٦ هـ، ١٩٣٧م، الطبعة الأولى.

٣٥ ـ الجرح والتعديل، للحافظ الرازي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٢٧١ هـ، ١٩٥٢م.

٣٦ ـ حلية الأولياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.

٣٧ ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام، للشيخ باقر شريف القرشي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤م ـ الطبعة الأولى.

٣٨ ـ حياة الإمام موسى بن جعفر، للشيخ باقر شريف القرشي.

٣٩ ـ حياة الحيوان الكبرى، لكمال الدين الدميري، المكتبة الإسلامية.

٤٠ ـ سمو المعنى في سمو الذات، لعبد الله العلائلي.

٤١ ـ سنن ابن ماجه، لابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م.

٤٢ ـ سنن النسائي، للنسائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٥ هـ، ١٩٣٦م.

٤٤ ـ السيرة الحلبية، للحلبي الشافعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الناشر المكتبة الإسلامية.

٤٥ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٩م ـ الطبعة الأولى.

٤٦ ـ الشعر والشعراء. لابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت.

٤٧ ـ صحيح البخاري، للبخاري، ١٢٨٦هـ.

٤٨ ـ صحيح مسلم. لمسلم النيسابوري، دار الفكر بيروت.

٤٩ ـ صلح الإمام الحسن عليه السلام، للشيخ راضي آل ياسين مطابع علاء الدين، بيروت ـ ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م. الطبعة الثالثة.

٥٠ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد الواقدي، طبعة ليدن بمطبعة بريل ـ ١٤٣٣ هـ، منشورات مؤسسة النصر، بيروت.

٥١ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام. لسيد قطب.

٥٢ ـ العقد الفريد، لمحمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

٥٣ ـ علل الشرايع، للشيخ الصدوق المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م.

٥٤ ـ علي ومناوئوه. للدكتور نوري جعفر مطبوعات النجاح، القاهرة، دار المعلم للطباعة، ١٣٩٦ هـ، ١٩٧٦م ـ الطبعة الرابعة.

٥٥ ـ الغارات، لأبي إسحاق الكوفي مطبعة بهمن، طهران.

٥٦ ـ الغدير، للشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، مؤسسة الكتب الإسلامية، مطبعة الحيدري، طهران ـ ١٣٧٢ هـ ـ الطبعة الثانية.

٥٧ ـ فتح الباري، للعسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.

٥٨ ـ الفتنة الكبرى، للدكتور طه حسين.

٥٩ ـ الفهرست لابن النديم.

٦٠ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م.

٦١ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة. لأبي الفتح الأربلي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.

٦٢ ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

٦٣ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. للسيوطي، دار المعرفة بيروت، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، الطبعة الثانية.

٦٤ ـ اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاوس، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩ هـ، ١٩٥٠م.

٦٥ ـ مجمع البيان، للطبرسي، مطبعة العرفان صيدا، ١٣٣٣ هـ.

٦٦ ـ مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، للحافظ الهيثمي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.

٦٧ ـ مرآة الجنان، لأبي محمد اليافعي اليمني المكي مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م، الطبعة الثانية.

٦٨ ـ مروج الذهب، للمسعودي، فهارس يوسف داغر، منشورات دار الهجرة، قم المقدسة، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م الطبعة الثانية.

٦٩ ـ المستدرك، للحاكم النيسابوري دار الفكر بيروت.

٧٠ ـ مسند أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل.

٧١ ـ مع الحسين في نهضته، لأسد حيدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٩ الطبعة الثالثة.

٧٢ ـ المغازي، للواقدي.

٧٣ ـ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٧٤ ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام لأخطب خوارزم، تحقيق الشيخ محمد السماوي.

٧٥ ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم، دار الكتب الإسلامية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٦م.

٧٦ ـ لواعج الأشجان في مقتل الإمام الحسين عليه السلام، للسيد محسن الأمين، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ، منشورات بصيرتي، قم المقدسة.

٧٧ ـ معالم المدرستين، للسيد مرتضى العسكري، مؤسسة البعثة طهران، ١٤٠٦هـ، الطبعة الثانية.

٧٨ ـ الملاحم والفتن، لرضي الدين ابن طاوس، مطبعة أمير، قم المقدسة، ١٣٧٠ هـ، ١٩١٢م الطبعة الأولى.

٧٩ ـ مناقب الإمام علي بن أبي طالب، لابن المغازلي، المكتبة الإسلامية، طهران، المطبعة الإسلامية، ١٣٩٤ هـ.

٨٠ ـ منتخب كنز العمال، للمتقي الهندي، منشورات مكتبة التراث الإسلامي ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م.

٨١ ـ الموفقيات، للزبير بن بكار.

٨٢ ـ النصائح الكافية، لسيد محمد بن عقيل اليماني الصنعائي.

٨٣ ـ نهج السعادة، للشيخ محمد باقر المحمودي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م الطبعة الأولى.

٨٤ ـ الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين عليه السلام. للسيد عبد الكريم القزويني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية.

الفهرس

الإهداء ٧
مقدمة المؤلف ٩
وارث الأنبياء: خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام ١١
الفصل الأول: وارث الأنبياء ١٣
الحسين عليه السلام وارث الأنبياء ١٥
انقلاب شامل في القيم والتصورات ١٥
وانقلاب آخر في المواقع ١٦
أمثلة عن الانقلاب في المواقع ١٧
انقلاب شامل في الهرم الاجتماعي ٢١
الفصل الثاني: الانتكاسة ٢٥
انتكاسة الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ٢٧
بنو أميّة يستغلون ضعف الخليفة الثالث ٢٨
روى ابن عبد البر في الاستيعاب ٢٩
ثورة أبي ذر الغفاري ٣٥
الإمام علي عليه السلام في مواجهة صعبة مع بني أميّة ٣٩
الإمام الحسن على خط المواجهة ٤١
الفصل الثالث: صفحات من تاريخ بني أمية (النزعة الإلحادية) ٤٣
دولة بني أمية في التاريخ الإسلامي ٤٥

النزعة الإلحادية عند بني أمية ٤٥
النزعة الإلحادية عند أبي سفيان ٤٦
النزعة الإلحادية عند مروان بن الحكم ٤٧
النزعة الإلحادية عند معاوية ٤٨
النزعة الإلحادية عند يزيد بن معاوية ٤٩
الفصل الرابع: الخلاعة والاستهتار والمجون في قصور بني أمية ٥٣
الخلاعة والاستهتار والمجون ٥٥
الشرب والسكر في قصور معاوية ٥٥
الشرب والاستهتار في حياة يزيد بن معاوية ٥٧
النشأة النصرانية ليزيد بن معاوية ٥٧
الشرب والسكر في حياة الوليد بن يزيد ٦٢
الغناء والطرب ٦٦
المجون والخلاعة ٦٨
الفصل الخامس: السياسة الأموية ٧١
سياسة بني أمية في إذلال المسلمين ٧٣
إحياء النزعات القومية الجاهلية ٧٥
سياسة بني أمية في الأموال ٧٨
مقارنة بسياسة الإمام في الأموال ٨٠
١ ـ كتاب الإمام إلى مصقلة بن هبيرة ٨٠
٢ ـ كتاب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ٨١
استخدام المال للأغراض السياسية ٨١
الفصل السادس: انتحال الحديث على رسول الله ﷺ ٨٣
وضع الحديث ٨٥

أبو هريرة ٨٦
سمرة بن جندب ٨٧
الغايات السياسية لوضع الحديث عند بني أمية ٨٨
١ ـ محاربة أمير المؤمنين عليه السلام والتشهير به في الأوساط الإسلامية ٨٨
٢ ـ الإشادة بذكر معاوية ٨٩
٣ ـ موضوعات في فضل الشام ٩٢
٤ ـ ترويض الأمة للطاعة ٩٣
موقف الإسلام من الظالمين ١٠٢
الفصل السابع: سياسة بني أمية تجاه أهل البيت عليهم السلام ١٠٩
التخطيط الأموي لمحاربة أهل البيت عليهم السلام ١١١
التعتيم على فضائل أهل البيت عليهم السلام ١١١
الحصار الاقتصادي ١١٢
التشهير والسب ١١٤
الأمة ترفض البراءة من أهل البيت عليهم السلام ١١٨
سياسة الإرهاب والتصفية للمعارضة العلوية ١٢١
مجازر خلفاء بني أمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت عليهم السلام ١٢٤
١ ـ مجازر بُسر بن أرطاة ١٢٤
٢ ـ مجازر زياد ابن أبيه ١٢٦
٣ ـ جرائم سمرة بن جندب ١٢٩
عداء عليّ عداء لرسول الله صلى الله عليه وآله ١٣٠
الفصل الثامن: سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين ١٣٣
سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين ١٣٥
إشاعة اللهو والطرب في الحرمين الشريفين ١٣٥

التضييق الاقتصادي على الحرمين الشريفين ١٣٨
نظرة بني أمية إلى الأنصار ١٣٩
الأمويون يسمّون المدينة بالخبيثة ١٤١
الحيلولة بين الناس وبين زيارة مرقد رسول الله ﷺ ١٤٢
نقل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام ١٤٢
تضييع معالم قبور شهداء أُحد ١٤٣
الفصل التاسع نموذج للسياسة الأموية تجاه الحرمين الشريفين (مجزرة الحَرّة) ١٤٩
مجزرة الحَرّة في مدينة رسول الله ﷺ ١٥١
وقفة مع عبد الله بن عمر ١٥٧
الفصل العاشر: خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية ١٦١
خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية في تاريخ الإسلام ١٦٣
١ ـ عودة القيادات الجاهلية ١٦٣
٢ ـ تحريف الفكر الإسلامي ١٦٤
٣ ـ إشاعة الإلحاد ١٦٤
٤ ـ النيل من قدسية رسول الله ﷺ ١٦٥
٥ ـ محاربة خط أهل البيت عليهم السلام ١٦٥
٦ ـ ترويض الأُمّة للسمع والطاعة للحاكم الظالم ١٦٥
٧ ـ القضاء على مراكز المقاومة ١٦٦
٨ ـ إثارة النعرة القومية بين المسلمين ١٦٦
٩ ـ الإفساد المالي ١٦٧
١٠ ـ إفساد المجتمع ١٦٧
الفصل الحادي عشر: الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب ١٦٩

الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب ١٧١
الحسنان يلغيان الشرعية الأموية ١٧٢
التحليل السياسي والعسكري لقرار الإمام ١٧٥
١ ـ هبوط المعنويات في جيش الإمام الحسن عليه السلام ١٧٥
٢ ـ عناصر الجيش ١٧٦
٣ ـ الفارق الكمي بين جيش الإمام وجيش معاوية ١٧٩
٤ ـ التخاذل في قادة ووجوه الجيش ١٧٩
٥ ـ حرب الإشاعات في جيش الإمام ١٨١
٦ ـ التمرّد ١٨٢
الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام الحسن عليه السلام ١٨٦
افتراض مواصلة القتال ١٨٩
الإمام الحسن أمام الخيار الصعب ١٩١
تعليمات الإمام لشيعته في ظروف الفتنة ١٩٣
استشهاد الإمام الحسن عليه السلام والبيعة ليزيد ١٩٦
كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية ١٩٩
قال الحسين عليه السلام لمعاوية ٢٠٠
الفصل الثاني عشر: الأهداف السياسية والحركية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام ٢٠٣
أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام ٢٠٥
الغايات الأساسية لثورة الإمام الحسين عليه السلام ٢١١
١ ـ تحرير إرادة الأمة ٢١١
والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق ومعبّر ٢١٥
٢ ـ سلب الشرعية من النظام ٢١٩

عاشوراء في مرآة التاريخ ٢٢٥
عاشوراء في وعي الجمهور ووعي النخبة ٢٢٧
موقف السلاطين والحكّام من عاشوراء ٢٢٨
عاشوراء مرآة للتاريخ ٢٣٠
كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء ٢٣٧
ثـــأر اللّـــه ٢٣٩
ثأر الله: رؤية قرآنية للنصر والهزيمة ٢٤١
ثأر الله: رؤية قرآنية للنصر والهزيمة ٢٤١
الجذور اللغوية للثأر ٢٤١
المعنى الاجتماعي للدم ٢٤٢
الثأر في أُسرة التوحيد ٢٤٣
ثأر الله ٢٤٤
موقع الثأر في الصراع الحضاري بين التوحيد والشرك ٢٤٥
كربلاء الساحة النموذجية للصراع بين الحقّ والباطل ٢٤٦
الضمانة الإلهية لدم الشهيد ٢٤٨
معنى النصر والهزيمة ٢٤٩
ثأر الله: القيمة الذاتية للشهادة ٢٥٢
ثأر الله: القيمة الذاتية للشهادة ٢٥٢
رحلة الإنسان إلى الله ٢٥٢
دراسة للمنطلق والغاية في حركة الإنسان ٢٥٤
١ ـ المنطلق ٢٥٤
مثلث الابتلاء في القرآن الكريم ٢٥٥
أ ـ الهوى ٢٥٥

ب ـ الفتنة ٢٥٧
ج ـ الشيطان ٢٥٨
أعراض التعلق بالدنيا في نقطة الانطلاق ٢٥٩
٢ ـ الغاية ٢٦٠
الطاعة، والتسليم، والذكر، والرجاء، والرهبة، والحبّ ٢٦١
كيف يأخذ الإنسان ويعطي بالله؟ ٢٦٢
الحركة من (الأنا) إلى (الله) ٢٦٣
الشطر الأول من حركة الإنسان إلى الله ٢٦٣
(التقوى) و(ذكر الله) في شطري الحركة ٢٦٤
التقوى للتحرر من الهوى ٢٦٤
المقارنة بين الهوى والطاغوت ٢٦٥
الصيغة الإيجابية للتقوى ٢٦٦
الشطر الثاني من حركة الإنسان ٢٦٦
(التقوى) و(ذكر الله) للعروج إلى الله ٢٦٧
المنهج الأخلاقي في حركة الإنسان إلى الله ٢٧٠
واستعينوا بالصّبر والصّلاة ٢٧٠
ضريبة الحركة إلى الله ٢٧١
الشهادة اختزال للحركة من الأنا إلى الله ٢٧١
نقلة الحرّ رحمه الله من محور الطاغوت إلى محور الله ٢٧٢
نقلة زهير رحمه الله من ولاية الطاغوت إلى ولاية الله ٢٧٣
ثأر الله: القيمة الحركية للشهادة ٢٧٥
وقفة عند اشتقاق كلمة (الشهيد) ٢٧٥
١ ـ تَحَمُّلُ (الشهادة) ٢٧٥

٢ ـ أداء الشهادة ٢٧٥
الشهيد مقياس للتقييم ٢٧٦
هذه الأُمّة شهيدة على سائر الأُمم ٢٧٧
ورسول الله شاهد على هذه الأُمّة ٢٧٨
عودة إلى مصطلح (الشهيد) ٢٧٨
التوجيه بـ (التثقيف) و(القدوة) ٢٧٨
القدوة والأُسوة على طريق ذات الشوكة ٢٧٩
الشهيد قدوة ٢٨١
الوعي والعطاء ٢٨٢
١ ـ الوعي واليقين ٢٨٢
ضحايا انعدام الوعي ٢٨٣
٢ ـ العطاء ٢٨٥
التخلف في الوعي والعطاء ٢٨٧
الطاقة الحركية لدم الشهيد ٢٨٨
دم الشهيد يوسع رقعة التضحية داخل الأُمّة ٢٩٠
دم الشهيد يحسم الخلاف ويقطع التردّد ٢٩٠
الإمداد الغيبي والضمان الإلهي لدم الشهيد ٢٩٢
ثأر الله: رحلة الشهادة في القرآن الكريم في سورتي التوبة وآل عمران ٢٩٤
رحلة الشهادة في آية (التوبة) ٢٩٤
البيع والشراء ٢٩٥
النقلة الكاملة ٢٩٥
أمثلة عن النقلة الكبرى في حياة المسلمين الأُولى ٢٩٦
وإليكم بعض الصور المشرقة من هذا التأريخ ٢٩٦

تكريم الإنسان بالبيع والشراء ٢٩٨
البيعة ٢٩٨
البيعة التجرّد الكامل عن الأنفس والأموال ٢٩٩
البيعة ميثاق (الدعوة) والدولة ٣٠٠
البيعة طاعة وتضحية ٣٠١
آية البيعة ٣٠١
أربع بيعات في حياة رسول الله ﷺ ٣٠٢
(يقاتلون في سبيل الله) ٣٠٤
حتمية القتال في مسيرة الدعوة ٣٠٥
المواجهة المصيرية بين الإسلام والجاهلية ٣٠٦
العلاقة العضوية بين أطراف الجاهلية ٣٠٧
شراسة الجاهلية في صراعها مع الإسلام ٣٠٧
الإيمان بالله يساوي التخلّي عن الأنفس والأموال ٣٠٨
وثيقة البيع ٣٠٨
والثمن هو الجنّة ٣١٠
الفوز العظيم ٣١١
صفة الذين باعوا أنفسهم لله ٣١٢
ثار الله: رحلة الشهادة في آية (آل عمران) ٣١٤
الحياة الطيّبة ٣١٤
الحقيقة الأُولى في هذه اللوحة القرآنية ٣١٤
أعلى درجات القرب من الله ٣١٦
(يرزقون) ٣١٧
﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ ٣١٩

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ ٣١٩
لا خوف ولا حزن ٣٢٠
ثأر الله: رحلة الشهادة في السنّة الشريفة ٣٢٢
باقة عطرة من الأحاديث الشريف في قيمة الشهيد ٣٢٢
خطاب الاستنصار الحُسيني ٣٣١
الاستنصار الحُسيني الاستعراض، والدلالات ٣٣٣
أ ـ الاستعراض نماذج من الاستنصار الحُسيني ٣٣٤
١ ـ في المدينة ٣٣٤
الحسين عليه السلام يستنصر عبد الله بن عمر ٣٣٤
٢ ـ في مكّة ٣٣٥
٣ ـ في الحاجر ٣٣٨
٤ ـ في زرود ٣٣٩
٥ ـ في قصر بني مقاتل ٣٤١
٦ ـ في منزل شراف ٣٤٣
٧ ـ في منزل البيضة ٣٤٣
٨ ـ في كربلاء ٣٤٤
يوم عاشوراء ٣٤٥
٩ ـ الاستنصار الأوّل يوم عاشوراء ٣٤٥
١٠ ـ الاستنصار الثاني في يوم عاشوراء ٣٤٧
١١ ـ الاستغاثة الأخيرة للحسين عليه السلام يوم عاشوراء ٣٤٨
١٢ ـ استنصار زهير رحمه الله يوم عاشوراء ٣٤٩
ب ـ الدلالات العناصر الأربعة في خطاب الاستنصار الحسيني ٣٥٠
١ ـ المضمون السياسي لخطاب الاستنصار الحسيني ٣٥٠

٢ ـ المضمون الحركي لخطاب الاستنصار الحسيني ٣٥١
أ ـ رفض البيعة ليزيد ٣٥١
ب ـ إعلان الرفض ٣٥٢
ج ـ الخروج والثورة ٣٥٣
المؤامرة الأموية على دم الحسين عليه السلام ٣٥٥
عودة إلى الدلالة الحركية للخطاب الحسيني ٣٥٦
٣ ـ الولاء والبراءة في خطاب الاستنصار الحسيني ٣٥٧
أبعاد الولاء ٣٥٧
البعد العمودي لشبكة الولاء ٣٥٧
البعد الأُفقي من شبكة الولاء ٣٥٨
الصيغة التوحيدية في شبكة الولاء ٣٥٨
مقوّمات الولاء في البعد الأُفقي ٣٥٩
الولاء والإيمان الحقّ ٣٥٩
خصائص وآثار شبكة الولاء ٣٦٠
السلام والعصمة في شبكة الولاء ٣٦٠
معنى السلام ٣٦٠
العصمة ٣٦١
علاقة النصر بشبكة الولاء ٣٦٢
عندما ينتهك السلام ترتفع النصيحة والعصمة ٣٦٣
استنصاران للحسين عليه السلام في قصر بني مقاتل ٣٦٤
الاستنصار لإتمام الحجّة ٣٦٦
تنوّع الخطاب الحسيني ٣٦٧
٤ ـ استمرارية الخطاب الحسيني عبر التاريخ ٣٦٨

التلبية ٣٦٩
حركتان في التاريخ (النصر والثأر) ٣٧٠
تحليل بعض المضامين الواردة في خطاب الاستنصار الحسيني ٣٧٢
الولاء والبراءة في مرآة عاشوراء ٣٧٩
الـولاء ٣٨١
توحيد الولاء ٣٨١
عناصر الولاء ٣٨٢
أولاً: في الطاعة والانقياد والتسليم لله تعالى. ٣٨٢
ثانياً: الحبّ والإخلاص لله سبحانه وتعالى. ٣٨٣
ثالثاً: النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين. ٣٨٣
قيمة الولاية ٣٨٣
الولاية ومسألة الحاكمية والسيادة ٣٨٤
البـراءة ٣٨٥
ولاء (الأعور) ٣٨٦
البراءة والمفاصلة ٣٨٨
المواصلة والمفاصلة في المجتمع الإسلامي ٣٨٩
التوحيد والشرك في الولاء ٣٩٠
مصدر الحاكمية في حياة الإنسان هو الله ٣٩١
التحدّي والصراع ٣٩٢
الاستضعاف والاستكبار ٣٩٣
خصائص الصراع ٣٩٤
عاشوراء مسرح للولاء والبراءة ٣٩٧
عاشوراء يوم الفرقان ٣٩٨

الفاصل الحضاري بين المعسكرين في عاشوراء ٣٩٩
وحدة الولاء والبراءة في زيارة (وارث) ٤٠١
مشاهد الولاء في زيارة (وارث) ٤٠٣
مشاهد الولاء في متن هذه الزيارة ثلاثة ٤٠٣
السلام في (النفس) و(المجتمع) ٤٠٣
الشهادة للحسين عليه السلام بإمامة المسيرة ٤٠٤
الموقف ٤٠٦
معكم، معكم ٤٠٨
الطوائف الثلاثة الملعونة ٤٠٨
١ ـ الطائفة الأولى (المباشِرة بالقتل) ٤٠٩
٢ ـ الطائفة الثانية (المعينة بالقتل) ٤٠٩
٣ ـ الطائفة الثالثة (الشريحة الراضية) ٤٠٩
فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية ٤١٠
عاشوراء، (يوم الفرقان) ٤١١
يوم الفرقان الأول في تاريخ الإسلام ٤١٢
يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام ٤١٣
يوم الفرقان الثالث في تاريخ الإسلام ٤١٣
انتصار الثورة الإسلامية والقيمة الحضارية لهذه الثورة ٤١٤
تراكم من الفعل والحرمان (الفعل والانفعال) ٤١٥
محاولات لأقلمة الثورة ٤١٦
التفاعلات التي كانت تجري في الأعماق غير المرئية لهذه الأُمّة ٤١٧
الولاء والبراءة بعدان للثورة ٤١٨
حتمية الصراع ٤١٩

والعاقبة للمتقين ٤٢٠
ليحق الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين ٤٢١
آية آل عمران ٤٢٢
تداول النصر والهزيمة في ساحة المعركة ٤٢٢
تمحيص وتهذيب المسيرة في المجتمع ٤٢٣
متى يتخذ الله الشهداء في هذه الأُمّة قيّمين على المسيرة؟ ٤٢٤
التمحيص والتهذيب داخل النفوس ٤٢٥
درجات المؤمنين في الجنّة على قدر معاناتهم في الدنيا ٤٢٥
دولة الموّطئين ٤٢٦
مناقشة الفهم الآخر لعاشوراء ٤٢٩
توطئة ٤٣١
الصراع بين حركة التوحيد وحركة الشرك ٤٣١
حركة موسى بن عمران عليه السلام ٤٣٢
الفهم الصحيح للتاريخ ٤٣٣
حتمية الصراع بين التوحيد والشرك ٤٣٤
الصراع بين التوحيد والشرك ليس على المال والسلطان ٤٣٦
كيف واجه الإسلام هذين التحديين؟ ٤٣٧
عودة إلى عاشوراء ٤٣٩
الدور التخريبي لبني أميّة في الإسلام ٤٣٩
كيف ولماذا واجههم الحسين عليه السلام في كربلاء؟ ٤٤٣
عودة إلى الدكتور عبد العظيم الديب ٤٤٥
الشعائر والشعارات الحسينية ٤٤٧
الولاء والتعبير عن الولاء ٤٤٩

المدخل ٤٤٩
الفصل الأول: الشعائر الحسينية ٤٥٣
(الشعار) و(الانتماء) و(الصراع) ٤٥٦
أولاً: الصراع ٤٥٨
١ ـ حتمية الصراع ٤٥٨
٢ ـ محور الصراع ٤٥٩
٣ ـ والتاريخ هو الصراع ٤٦٠
٤ ـ عمق الصراع ٤٦٢
٥ ـ شمولية الصراع وحتميته ٤٦٣
ثانياً: الانتماء ٤٦٣
الطوائف الملعونة في زيارة وارث ٤٦٨
ثالثاً: الشعار ٤٦٩
الصراع بين القيم وأضداد القيم في عاشوراء ٤٧١
عاشوراء النموذج الممثّل للتاريخ ٤٧٢
قيمة الشعائر الحسينية ٤٧٣
الدور المزدوج للشعائر الحسينية ٤٧٥
اهتمام أهل البيت عليهم السلام بالشعائر الحسينية ٤٧٥
تسرّب بعض الشوائب إلى الشعائر الحسينية ٤٨٤
الشعائر والمجالس الموجّهة ٤٨٥
الخطوط العامة لتوجيه الشعائر الحسينية ٤٨٥
دور الجمهور في ترشيد الشعائر الحسينية ٤٨٦
الفصل الثاني: الشعارات الحسينية يوم عاشوراء ٤٨٧
الخطاب والشعار ٤٨٧

مفردات وعناوين الشعارات الحسينية يوم عاشوراء ٤٨٨
١ ـ ثقافة المقاومة ٤٨٨
٢ ـ الفتح والهزيمة ٤٩٣
٣ ـ الفاصل الكبير بين المعسكرين ٥٠٣
٤ ـ خيارات الحرب الصعبة ٥٠٨
٥ ـ أُولو الأيدي والأبصار ٥١٠
٦ ـ الصبر والبصيرة ٥١٥
٧ ـ السيف الأداة المفضلة للإثبات ٥١٨
٨ ـ تحدي الموت ٥١٩
٩ ـ ثلاثية (الموت والعار والنار) ٥٢٢
١٠ ـ الموت الأخضر ٥٢٤
١١ ـ القراءة الصحيحة للتاريخ ٥٢٧
الحسين عليه السلام وارث الأنبياء ٥٣٣
الوراثة ٥٣٥
الوراثة الحياتية والحضارية ٥٣٥
التاريخ الحضاري للإنسان ٥٣٥
المواريث الحضارية بين الإسلام والجاهلية ٥٣٦
الحسين عليه السلام وارث الأنبياء ٥٣٦
الشجرة الخبيثة والشجرة الطيبة في كتاب الله ٥٣٧
سرّ القوة والثبات في الشجرة الطيبة ٥٣٨
لماذا التأكيد على مفهوم الوارث في زيارة الحسين عليه السلام؟ ٥٣٨
ويأتي تأكيد الوراثة في زيارة الحسين عليه السلام ٥٣٩
آلية الارتباط ومادة الارتباط ٥٤١

١ ـ آلية الارتباط ٥٤١
٢ ـ ما هي المواريث؟ ٥٤٢
انقلاب زهير بن القين رحمه الله من العثمانية إلى الحسينية ٥٤٥
الانقلابات الإنسانية ٥٤٧
انقلابان في عاشوراء وكربلاء ٥٤٧
الانقلاب هو القرار ٥٤٨
قصة فضيل بن عياض ٥٤٩
التوبة ٥٤٩
انقلاب وليس اضطراب ٥٥٠
عوامل الانقلاب عند (الحر) و(زهير) ٥٥٠
عناصر التحليل ٥٥٢
أولاً ـ الشخصية العثمانية ٥٥٢
ثانياً ـ الابتعاد عن الحسين عليه السلام ٥٥٢
ثالثاً ـ تدخّل زوجته دلهم بنت عمرو وإنقاذ زهير من حالة التردد ٥٥٣
رابعاً ـ الانجذاب إلى الحسين عليه السلام ٥٥٣
الدراسة التحليلية ٥٥٤
١ ـ الوجهان المختلفان لشخصية زهير ٥٥٤
٢ ـ الصراع بين شطري شخصية زهير (الصراع الداخلي) ٥٥٤
٣ ـ زهير في مجال الجاذبية الحسينية ٥٥٤
قوانين تجاذب القلوب ٥٥٦
بؤر الانجذاب في الإنسان ٥٥٧
تقارن الانجذابين ٥٥٨
الطرف المنجذب والطرف الجاذب ٥٥٩

الطرف المنجذب ٥٥٩
الإحساس المجهول ٥٦٠
جاذبية الجمال والكمال والخير ٥٦١
الحب والعشق ٥٦٢
الحب استجابة لجاذبية الحبيب ٥٦٣
أثر الحب في النفس ٥٦٣
محور الحركة إلى الله تعالى ٥٦٥
الانقلاب ٥٦٥
زهير رحمه الله في مواجهة الجاذبية الحسينية ٥٦٦
الرواية التاريخية ٥٦٧
الكلمة التي صنعت التاريخ ٥٦٨
توفيق الله في منازل التوفيق ٥٦٩
الكلمة التي خلّدت دلهم ٥٧١
المرأة التي كتبت شطراً من ملحمة الطف ٥٧١
الدخول في المجال المغناطيسي ٥٧٢
المظاهر النفسية للانقلاب ٥٧٣
نماذج أخرى من مواقف زهير بعد الانقلاب ٥٧٤
الفئات المعارضة لخروج الحسين دراسة وتحليل ٥٧٥
آفاق الثورة الحسينية ٥٧٧
تصنيف الناس تجاه الثورة الحسينية ٥٧٧
١ ـ تصنيف المعارضة ٥٧٨
العامل الأول للمعارضة: العداء والحسد والحقد والمكر. ٥٧٩
العامل الثاني للمعارضة: الضعف عن القرار الصعب. ٥٨٠

العامل الثالث للمعارضة: عدم وعي أهداف الثورة ٥٨٢
١ ـ المسور بن مخرمة ٥٨٤
٢ ـ عبد الله بن جعفر ٥٨٤
٣ ـ عبد الله بن عباس ٥٨٥
٤ ـ أبو بكر المخزومي ٥٨٧
٥ ـ عبد الله بن جعدة ٥٨٧
٦ ـ جابر بن عبد الله ٥٨٨
٧ ـ عبد الله بن مطيع ٥٨٨
٨ ـ محمد بن الحنفية ٥٨٨
٩ ـ السيدة أم سلمة (أم المؤمنين) ٥٨٩
صنفان من الناس مع الحسين عليه السلام ٥٩٠
٢ ـ رأي المعارضة في خروج الحسين عليه السلام ٥٩٠
٣ ـ رأي الحسين عليه السلام في الخروج ٥٩٢
التوطين للموت ٥٩٥
توطئة ٥٩٧
التهرب من الموت ٥٩٧
الآثار السلبية للتهرب من الموت ٥٩٧
مكافحة حالة التهرب من الموت ٥٩٩
١ ـ وعي حصار الموت ٥٩٩
٢ ـ استحضار ذكر الموت في النفس ٦٠٢
كلمات الحسين عليه السلام في التوطين للموت ٦٠٣
مناقشة المواقع الثلاثة على خارطة الصراع ٦٠٧
مواقع الناس على خارطة الصراع ٦٠٩

للناس على خارطة الصراع ثلاثة مواقع ٦٠٩
الفئتان المتحاربتان ٦٠٩
الفئة الوسطى ٦١٠
الخطاب الحسيني للجيش الأموي يوم عاشوراء ٦١٠
السيف الذي سله رسول الله والنار التي فجرها ﷺ ٦١٢
مبدأ ثنائية الموقف ٦١٣
نسيان الذات ٦٢٤
الدينار والسوط العاملان الرئيسيان في ولاء العبيد ٦٢٦
علاقة الرحمة بمواقع نزولها ٦٢٧
الأبعاد السياسية والحركية لثورة الإمام الحسين عليه السلام ٦٣١
العامل السياسي ٦٣٣
العامل الحركي ٦٤٣
الأمر الأول ٦٤٧
التحذير من الخروج إلى العراق ٦٤٧
الأمر الثاني ٦٤٩
من الغالب في كربلاء؟ ٦٥٥
مَن الغالب في كربلاء؟ ٦٥٧
من هو الغالب؟ ٦٥٧
لا ينال الفتح من تخلّف عن الحسين عليه السلام ٦٥٨
ما هو الفتح في المنظور الحضاري ٦٥٩
الرؤية القرآنية للفتح والهزيمة ٦٥٩
حقائق خمسة في آية آل عمران ٦٦٠
الحقيقة الأولى ٦٦٠

العلاقة بين النصر والإيمان ٦٦٠
العلاقة بين الإيمان والابتلاء ٦٦١
الحقيقة الثانية ٦٦١
الحقيقة الثالثة ٦٦٢
الحقيقة الرابعة ٦٦٢
الحقيقة الخامسة ٦٦٤
الغايات التي كان الحسين عليه السلام يطلبها في خروجه ٦٦٥
١ ـ تحرير إرادة الناس من سلطان بني أُمية ٦٦٥
المشروع الأُموي في تعطيل الإرادة والموقف السياسي ٦٦٧
مجازر بُسر بن أرطأة ٦٧٤
مجازر زياد بن أبيه ٦٧٦
دور الملحمة الحسينية في احباط المشروع الأُموي ٦٧٨
٢ ـ إلغاء الشرعية السياسية لخلافة بني أُمية ٦٧٨
الخطاب الحسيني ٦٨٣
إجمال المراحل الثلاثة للثورة الحسينية ٦٨٥
المدخل ٦٨٥
المرحلة الأُولى لثورة الحسين عليه السلام التضحية والشهادة ٦٨٨
١ ـ أصحاب الحسين عليه السلام أكثر الناس وعياً ٦٨٩
٢ ـ أصدق الناس في التعامل مع الله ٦٩٣
٣ ـ أكثر الناس بصيرة وشجاعة وثباتاً ٦٩٦
٤ ـ أخلص الناس لله وأكثرهم يقيناً ٦٩٧
المرحلة الثانية لثورة الحسين عليه السلام ـ الخطاب ـ ٧٠١
المرحلة الثالثة لثورة الحسين عليه السلام الثأر ٧٠٢

١ ـ ماهو الثأر؟ ٧٠٢
٢ ـ ومن هم الثائرون؟ ٧٠٣
٣ ـ والسؤال الثالث: مَن هُم القتلة الذين نثأر منهم؟ ٧٠٥
٤ ـ كيف يكون الثأر؟ ٧٠٦
تفصيل المرحلة الثانية من مراحل الثورة الحسينية ـ الخطاب ـ ٧٠٨
المرحلة الثانية من مراحل الثورة: الخطاب ٧٠٨
قصة أبي بكر بن عياش والطاغية موسى بن عيسى ٧١٠
مراحل الخطاب الحسيني بعد يوم عاشوراء ٧١٣
المرحلة الأُولى من خطاب الثورة الحسينية: في الكوفة ٧١٤
المشهد الأوّل ٧١٤
خطاب السيّدة زينب لأهل الكوفة ٧١٥
تأمّلات في خطاب السيدة زينب عليها السلام ٧١٦
١ ـ الشجب والتأنيب والتقريع ٧١٧
٢ ـ عاقبة الخذلان ٧١٨
٣ ـ التعميم في الخطاب ٧١٩
٤ ـ الإمهال في العذاب ٧٢١
٥ ـ الإحباط ٧٢٣
٦ ـ علاقة الكوارث الكونية بسيّئات الناس ٧٢٥
الكوارث الكونية عند مصرع الحسين عليه السلام ٧٢٥
النعمة وعلاقتها بالتقوى ٧٢٨
العلاقة بين العمل والجزاء ٧٢٨
٧ ـ ما يقدمه الإنسان بين يديه إلى الله ٧٢٩
عودة إلى أهل البيت عليهم السلام في ساحة الكوفة ٧٣٢

خطاب فاطمة بنت الحسين عليها السلام ٧٣٢
خطاب السيدة أُم كلثوم لأهل الكوفة ٧٣٤
خطاب علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ٧٣٥
المشهد الثاني ٧٣٧
أنس بن مالك يستنكر المشهد ٧٣٧
قيس بن عباد يستنكر المشهد ٧٣٧
رجل من بكر بن وائل يقسم أن يقاتل ابن زياد ٧٣٨
صرخة زيد بن أرقم في وجه الطاغية ٧٣٨
وقفة عند كلمة زيد بن أرقم ٧٣٩
حوار السيدة زينب عليها السلام مع الطاغية ٧٤١
اللغط والاستنكار والبكاء في القصر ٧٤٣
المشهد الثالث ٧٤٤
المرحلة الثانية من خطاب الثورة الحسينية: في الشام ٧٤٨
الدخول إلى الشام ٧٤٩
المشهد الأوّل: في جامع الشام ٧٥١
المشهد الثاني: في الشام في قصر الطاغية بـ (جيرون) ٧٥٣
يزيد يعلن الكفر بالرسالة ٧٥٤
يزيد ينكث ثغر الحسين بمخصرته ٧٥٤
اعتراض يحيى بن الحكم ٧٥٥
اعتراض الصحابي أبو برزة الأسلمي ٧٥٥
صرخة السيدة زينب عليها السلام في قصر الطاغية ٧٥٦
الخربة ٧٥٨
الأصداء وردود الأفعال ٧٥٩

بنو أُمية يتوجسون الخطر على سلطانهم ٧٥٩
الطاغية يضطر إلى التراجع ٧٦٠
الطاغية يأمر بإقامة مجلس العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام ٧٦١
نياحة الحسين عليه السلام في قصر الطاغية ٧٦١
الطاغية يعرض المال على أهل البيت عليهم السلام ٧٦٣
المرحلة الثالثة من خطاب الثورة الحسينية: في المدينة المنورة ٧٦٤
١ ـ الحداد الأوّل للمدينة بمصرع الحسين عليه السلام ٧٦٤
وصول نبأ شهادة الحسين عليه السلام إلى المدينة ٧٦٤
خطاب الأشدق ٧٦٥
ردود الفعل ٧٦٥
نساء بني هاشم يندبن الحسين عليه السلام ٧٦٦
عبد الله بن جعفر يقيم المأتم للحسين عليه السلام ٧٦٧
عبد الله بن عباس يفجع بالحسين ويقيم المأتم ٧٦٧
٢ ـ الحداد الثاني للمدينة بمصرع الحسين عليه السلام ٧٦٨
عودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة ٧٦٨
بشير بن حذلم ينعى الحسين عليه السلام إلى مدينة جدّه ٧٦٨
جمهور المدينة يستقبلون أهل البيت عليهم السلام بالبكاء والنياحة ٧٦٩
خطبة علي بن الحسين عليه السلام في المدينة ٧٦٩
زينب تنعي الحسين إلى جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله ٧٧٠
أُم كلثوم تشكوا إلى جدّها مصرع الحسين عليه السلام ٧٧١
نياحة بنات رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ٧٧١
رثاء الرباب للحسين عليه السلام ٧٧١
نياحة أهل البيت عليهم السلام على الحسين عليه السلام في المدينة ٧٧٢

أحزان علي بن الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام ٧٧٢
نقطة المفرق في حياة الإنسان ٧٧٣
نقطة المفرق في حياة الإنسان ٧٧٥
أيام الفرقان ٧٧٥
عاشوراء من أيام الفرقان ٧٧٥
طوائف الناس الثلاثة في يوم عاشوراء ٧٧٦
الطائفة الأُولى ٧٧٦
الطائفة الثانية ٧٧٧
الطائفة الثالثة ٧٧٨
مقارنة بين الطائفة الأُولى والثانية ٧٨٠
قصة عمر بن سعد ومحاولته للتخلص من قتال الحسين عليه السلام ٧٨٠
قصة الحر رحمه الله ومحاولته للتخلص من قتال الحسين عليه السلام ٧٨٢
عودة إلى عمر بن سعد عند نقطة المفرق ٧٨٣
الحرّ رحمه الله عند نقطة المفرق ٧٨٣
مقارنة بين الطائفة الثانية والثالثة ٧٨٤
مقارنة أُخرى بين الحرّ وزهير (رحمهما الله). ٧٨٨
تحليل لموقف زهير ٧٨٩
١ ـ الصدود والإحجام ٧٩٠
٢ ـ الصدمة والتردّد ٧٩٠
٣ ـ الإستجابة للّقاء وزوال حالة التردّد ٧٩١
٤ ـ الانفراج والاستجابة والانفتاح ٧٩١
تحليل موقف الحّر رحمه الله ٧٩١
عودة إلى التحليل والمقارنة ٧٩٣

تأملات في الخطاب الحسيني يوم عاشوراء ٧٩٥

السيف الذي غمده الناس في صِفّين عن عليّ عليه السلام سلّوه في عاشوراء بوجه الحسين عليه السلام ٧٩٧

١ ـ سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم ٧٩٧

٢ ـ وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم ٧٩٩

٣ ـ فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم ٨٠١

٤ ـ بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم ٨٠٢

٥ ـ ويحكم، أهؤلاء تقصدون وعنا تتخاذلون؟ ٨٠٣

٦ ـ يا عبيد الأمة وشذاذ الآفاق (الأحزاب) ٨٠٤

٧ ـ فسحقاً لكم يا عبيد الأُمة، وشذاذ الأحزاب ٨٠٤

٨ ـ غدر قديم وشجت عليه أُصولكم ٨٠٥

رسالة الحسين عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية من كربلاء ٨٠٩

ظروف الرسالة ٨١١

الانقطاع إلى الله عن الدنيا ٨١٢

ما هي الدنيا وما هي الآخرة؟ ٨١٣

١ ـ همّام ٨١٤

٢ ـ حارثة بن مالك ٨١٥

من الآخرة إلى الآخرة ٨١٨

الحوافز والعوائق ٨١٩

كأنّ الدنيا لم تكن ٨٢٠

وكأنّ الآخرة لم تزل ٨٢١

الدنيا حرث والآخرة حصاد ٨٢٣

النتائج المترتبة على هذين الافتراضين ٨٢٩

النتائج المترتبة على الرؤية الأُولى ٨٢٩
النتائج المترتبة على الرؤية الثانية ٨٣٠
تغييب الدنيا وتحضير الآخرة في النفس ٨٣١
ظاهرة الاستماتة في يوم عاشوراء ٨٣٧
كيف نتعامل مع الموت؟ ٨٣٩
كيف يواجه الناس الموت؟ ٨٤٠
الجزع من الموت ٨٤١
أولاً: أسباب الجزع من الموت ٨٤١
الموقف ٨٤٣
انقلاب اللّاموقف إلى الموقف المضاد ٨٤٤
سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم ٨٤٤
آخر مراحل الردّة ٨٤٥
عودة الانسجام في الطرف المعاكس والانقلاب على الأعقاب ٨٤٦
الأطوار الثلاثة في حياة الإنسان ٨٤٧
الحالة الأُولى ٨٤٧
الحالة الثانية ٨٤٧
الحالة الثالثة ٨٤٨
ثانياً: آثار ونتائج الجزع من الموت في المجتمع ٨٤٨
ثالثاً: المناهج التربوية لمكافحة هذه الحالة ٨٤٩
المنهج الأوّل ٨٤٩
المنهج الثاني ٨٤٩
مشهد من مشاهد الاستماتة في الطف ٨٥٠
جواب أهل بيته ٨٥١

جواب آل عقيل ٨٥١
جواب أصحابه ٨٥٢
مشهد الولاء في زيارة (وارث) ٨٥٥
المشاهد الثلاثة للولاء في زيارة وارث ٨٥٧
المشهد الأوّل: التسليم ٨٥٧
المشهد الثاني: الشهادة ٨٥٨
المشهد الثالث: الموقف ٨٦٠
البراءة، الوجه الآخر للولاية ٨٦٢
الطوائف الملعونة في زيارة وارث ٨٦٦
١ ـ الطائفة الأُولى ٨٦٦
٢ ـ الطائفة الثانية ٨٦٦
٣ ـ الطائفة الثالثة ٨٦٧
ما تفعله الصراعات الحضارية بالناس ٨٦٨
يوم الفرقان الأوّل ٨٦٩
يوم الفرقان الثاني ٨٧٠
يوم الفرقان الثالث ٨٧١
الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء ٨٨٧
الولاء والبراءة أبرز خصائص يوم عاشوراء ٨٨٩
الخصائص الثلاثة لساحة الطف ٨٩٢
١ ـ الساحة الوارثة ٨٩٢
٢ ـ الساحة الفاصلة ٨٩٥
٣ ـ الساحة المورّثة ٨٩٩
المعايشة الوجدانية لمأساة الطف في زيارة عاشوراء ٩٠١

مشاهد الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء ٩٠٣
الولاء والبراءة والعداء ٩٠٤
السلام واللعن ٩٠٤
السلم والحرب ٩٠٥
المعيّة والمفاصلة ٩٠٥
التفجّع والثأر ٩٠٧
الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة ٩٠٩
الولاء والبراءة: رزق وتكريم من الله للإنسان ٩١١
تعميمات الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء ٩١٤
عامل التعميم ٩١٤
الإشراك بـ (الرضا) ٩١٦
المشاركة في الرضا والسخط ٩١٦
تعميمات الولاء في زيارة عاشوراء ٩١٧
المرحلة الأُولى من الولاء ٩١٧
المرحلة الثانية من الولاء ٩١٧
المرحلة الثالثة من الولاء ٩١٧
تعميمات البراءة في زيارة عاشوراء ٩١٨
التعميم الأوّل للبراءة ٩١٨
التعميم الثاني للبراءة ٩١٨
التعميم الثالث للبراءة ٩١٩
التعميم الرابع للبراءة ٩١٩
التعميم الخامس للبراءة ٩١٩
التوحيد والإخلاص في الولاء والبراءة ٩٢٠

الولاء من مقولة التوحيد ٩٢٠
التوحيد في البراءة ٩٢٣
الإخلاص في البراءة ٩٢٥
لا يجتمع ولاءان في قلب عبد مؤمن ٩٢٧
معارج الولاء والبراءة في زيارة عاشوراء ٩٢٩
١ ـ التكريم والوجاهة ٩٣٠
٢ ـ الثأر لمصرع الحسين عليه السلام ٩٣١
٣ ـ معية الصادقين ٩٣٢
٤ ـ المقام المحمود ٩٣٣
٥ ـ الإخلاص لله في المحيا والممات ٩٣٤
٦ ـ الصلوات والرحمة والأجر غير المحدود من عند الله ٩٣٥
٧ ـ مرقاة القرب إلى الله ٩٣٨
صورة عن المجتمع الإسلامي في عصر بني أُمية في كلمات الإمام الحسين عليه السلام ٩٣٩
١ ـ حالة الدنيا في عصر الإمام عليه السلام ٩٤١
٢ ـ إعراض الناس عن الحقّ وإقبالهم على الباطل ٩٤٥
٣ ـ الدعوة إلى العزوف عن الدنيا والشوق إلى لقاء الله ٩٤٥
الثوابت الأربعة في ثورة الإمام الحسين عليه السلام ٩٤٧
١ ـ حتمية الشهادة ٩٤٩
٢ ـ حتمية الفتح ٩٥٢
٣ ـ العلاقة بين الفتح والشهادة ٩٥٦
٤ ـ هذا الفتح لن يتكرر في التاريخ ٩٥٧
الولاء والبراءة في يوم عاشوراء ٩٦١

صراع الولاءات ٩٦٣
التوحيد والشرك في الولاء ٩٦٣
ضراوة صراع الولاءات ٩٦٤
ساحة الصراع تتطلب الموقف وترفض المتفرجين ٩٦٥
عناصر الولاء ومصاديقه ٩٦٥
١ ـ الطاعة والانقياد والتسليم ٩٦٥
٢ ـ الحبّ والإخلاص لله سبحانه وتعالى ٩٦٦
٣ ـ النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين ٩٦٦
حالة الاستقطاب والتوجيه في الولاء ٩٦٧
البراءة ٩٦٩
تحليل لحالة التحدي والمواجهة بين التوحيد والشرك ٩٦٩
الولاء في امتداد التوحيد ٩٧١
والولاء الحقّ أمّا أن يكون أو لا يكون. ٩٧١
الولاء الحقّ بإذن الله، وفي امتداد ولاية الله وبنصبه ٩٧٢
دور الولاء وأهميته في حياة الأُمة ٩٧٣
الاستكبار والاستضعاف ٩٧٦
خصائص الصراع بين الحقّ والباطل ٩٧٦
واقعة الطف محكّ لمعدني الولاء والبراءة ٩٨٢
البيان الأول للثورة الحسينية ٩٨٩
١ ـ ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته ٩٩٢
مقارنة بين الحرّ الرياحي وعبيد الله بن الحر الجعفي ٩٩٢
٢ ـ باذلاً ٩٩٣
٣ ـ فينا ٩٩٥

٤ ـ الإخلاص ٩٩٧
٥ ـ التوطين ٩٩٨
٦ ـ لقاء الله ٩٩٩
٧ ـ فليرحل ١٠٠٢
قصة الانقلاب النفسي في حياة زهير ١٠٠٢
٨ ـ معنا ١٠٠٤
٩ ـ إن شاء الله ١٠٠٥
المتخلفون عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام الضحاك بن عبد الله المِشْرَقي ١٠١١
الصراع في مرحلتي التنزيل والتأويل ١٠١٣
شريحة المتخلفين عن الصراع ١٠١٤
خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرَقي ١٠١٥
تأمّلات في خبر الضحّاك ١٠١٧
النقطة الأُولى (الاعتذار) ١٠١٨
وجها الحياة الدنيا ١٠١٩
كيف تتحوّل العوائق إلى منطلقات؟ ١٠٢٠
مقارنة بين زهير بن القين رحمه الله والضحّاك ١٠٢١
النقطة الثانية (الاستجابة المشروطة) ١٠٢٢
العلاقة بين العمل والجزاء ١٠٢٤
النقطة الثالثة (التحلّل من الالتزام) ١٠٢٧
(التزام) و(حِلّ) ١٠٢٧
الجسر الذي مدّه الضحّاك إلى الدنيا من عمق (الطف) ١٠٣٠
قيمة الوراثة في حياة الإنسان ١٠٣٣
تأملات في زيارة وارث ١٠٣٥

تمهيد ١٠٣٥
١ ـ القيمة التكوينية للوراثة ١٠٣٥
دراسة في الشريحة الحضارية ١٠٣٦
التبادل والتفاعل بين عناصر الحضارة الواحدة ١٠٣٦
الأعماق الحضارية ١٠٣٧
عراقة الميراث الحضاري ١٠٣٨
التبنّي الجمعي والعمق الحضاري لفريضتي الصلاة والحجّ ١٠٣٩
الإطار الاجتماعي للشعائر الإسلامية ١٠٣٩
يد الله على جماعة المسلمين ١٠٤٠
الإطار التاريخي للشعائر الإسلامية ١٠٤١
وحدة المسيرة ووحدة المعاناة ووحدة الثواب ١٠٤٢
المواريث الحضارية والمواريث المدنية ١٠٤٤
مواقع القوّة والمناعة في حياة الأُمّة ١٠٤٥
المحافظة على المواريث الحضارية ١٠٤٧
السنّة والبِدعة ١٠٤٨
بين التقليد والثوابت ١٠٥٠
الثوابت والفطرة والصبغة ١٠٥٣
٢ ـ القيمة الإيحائيّة والتربويّة للوراثة ١٠٥٤
كرامة الأُسرة وموقعها الاجتماعي ١٠٥٥
محمّد بن أبي عُمير في سجون العبّاسيين ١٠٥٧
وراثة الإمام الحسين عليه السلام للأنبياء عليهم السلام ١٠٦٤
موقف الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد ١٠٦٤
الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء ١٠٦٥

عاشوراء (ودّ) و(قدوة) ١٠٦٧
وُدّ يقذفه الله في قلوب المؤمنين، وقدوة في حياتهم ١٠٦٩
الوُدّ الذي يجعله الرحمن للذين آمنوا ١٠٦٩
عاشوراء قدوة للجمهور في حركته إلى الله ١٠٧١
عصمة الإمام ١٠٧٣
لن يكون الظالم إماماً للناس ١٠٧٣
الدعوة إلى الاقتداء بالصالحين ١٠٧٣
العناصر الثلاثة الضرورية في الحركة ١٠٧٤
شهادة رسول الله ﷺ، والأُمّة الشاهدة ١٠٧٥
الأُمّة الشاهدة معيار للقياس ١٠٧٦
المصادر ١٠٨١
الفهرس ١٠٨٧